سلسلة الرسائل الجامعية (٧٠)

طريق الهجرتين
وباب السعادتين

للإمام العلامة
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
ابن قيم الجوزية
(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)

دراسة وتحقيق
عايد بن مسفر العقيلي

عبد الله بن عايض القحطاني
المحاضر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

خالد بن علي عبد الله العايد
المحاضر بجامعة القصيم

دار الهدي النبوي
مصر

دار الفضيلة
السعودية

طريق الهجرتين

وباب السعادتين

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الرسائل الجامعية (٧٠)

طريق الهجرتين
وباب السعادتين

للإمام العلامة
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
ابن قيم الجوزية
(٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ)

دراسة وتحقيق
عايد بن مسفر العقيلي

عبد الله بن عايض القحطاني
المحاضر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

خالد بن علي عبد الله العايد
المحاضر بجامعة القصيم

دار الهدي النبوي
مصر

دار الفضيلة
السعودية

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الناشر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٤٣ - ص. ب ٥١١٤٢
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

توزيع
دار الهدي النبوي للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية - المنصورة
تليفون: ٢٣٢٣١٧٥ / ٠٥٠ - جوال: ٠١٢ / ٧١٤٥٦٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وبعد.

فقد منَّ الله تعالى بإتمام تحقيق كتاب [طريق الهجرتين وباب السعادتين] لمؤلفه الإمام العلامة شمس الدين بن القيم الجوزي رحمه الله وقد تم تحقيقه بفضل الله على هيئة ثلاث أطروحات ماجستير من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين بالرياض. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد حصل الباحثون على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ورغبة في إخراج هذا الجهد العلمي للناس اتفق الباحثون على طبعه بالتحقيق فقط دون الدراسة وذلك تخفيفًا لحجمه، حيث بلغ حجمه بالدراسة ثلاث مجلدات، ولكن للفائدة تم تقديم تمهيد مختصر بين يدي الكتاب يشتمل على:

أ - ترجمة موجزة للمؤلف.

ب - دراسة تفصيلية عن الكتاب.

ج - وصف النسخ المخطوطة للكتاب ومنهج التحقيق.

ولا شك أن هذا الكتاب سوف يظهر في هذه الطبعة بصورة جيدة من التحقيق والضبط وخدمة النص، تجعل القارئ يحس بالفرق بين هذه الطبعة والطبعات القديمة للكتاب.

ولا نملك بعد هذا سوى الدعاء إلى الله تعالى أن يجزي المشرفين - الدكتور/ عبدالعزيز الشهوان، والدكتور/ عبدالله المشيقح - خير الجزاء وكل من أسهم في هذا العمل العلمي بتوجيه أو رأي.

ونأمل أن نكون بإخراج هذا الكتاب للناس قد قدمنا خدمة للإسلام والمسلمين، والله حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المحققون.

❋ ❋ ❋

المقدمـة

إن الحمد لله، نحمد، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُهُ ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعد:

فقد هيَّأ الله ﷻ لهذا الدين رجالًا يرفعون شعاره، ويُعلون مناره، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويبصِّرون أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائه قد هدوه، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، اختصهم الله بنعمته، وفضّلهم على سائر خليقته بأن جعلهم هداة لهذا الدين، ودعاة إلى توحيد رب العالمين، فرفعوا راية العقيدة الإسلامية، وقمعوا شعار الوثنية الجاهلية؛ تارة باللسان، وأخرى بالبنان.

فما أحوج الأمة إلى تراثهم، وإلى الاسترشاد بمؤلفاتهم؛ إذ إن الأمة اليوم لن تنهض إلا بما نهض به القوم، وعليه دَرجوا، ولن تجد سُلّمًا ترتقي به إلا من تلك الدَّرج التي منها صعدوا، وعن طريقها إلى أعالي المجد وصلوا.

ومن هذا المنطلق كان من أجلِّ الأعمال إخراج تراث السلف، وكتب علماء الأمة والحرص عليها، والعناية بها، وتحقيقها تحقيقًا علميًّا.

ولما كان من لوازم إكمال مرحلة (الماجستير) بعد السنة المنهجية أن نتقدم إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ببحث علمي متمم لهذه المرحلة، وقع اختيارنا على تحقيق كتاب عظيم، وسِفر بديع، لعالم علامة مشهور، هو: الإمام العالم العلامة:

شمس الدين ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما كتابه فهو: «**طريق الهجرتين وباب السعادتين**».

أسباب اختيار البحث:

وقد وقع اختيارنا على هذا الكتاب - تحقيقًا ودراسة - لأسباب عديدة، منها:

١ - الرغبة في نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، من خلال تحقيق تراثهم ومصنفاتهم.

٢ - أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كان من أبرز من خدم عقيدة أهل السنة والجماعة في عصره، ورفع شعارها، ودافع عن لوائها، وذبَّ عن حياضها، وقارع الخصوم بالحجة والبرهان، وألزمهم الكتاب والسنة، فكان قامعًا للباطل وأهله، ناصرًا للحق وحزبه، في مؤلفات جديرة بالاهتمام والعناية من قبل طلاب العلم تحقيقًا ودراسة.

٣ - اشتمل الكتاب على كثير من المسائل العقدية مما قلَّ أن وُجد في غيره من المصنفات، وعليه تبرز أهمية هذا الكتاب، وضرورة إخراجه وتحقيقه تحقيقًا علميًّا ليستفيد منه طالب العلم وغيره.

٤ - أن من أبرز ما يميز هذا الكتاب أنه جاء بديعًا في بيان أعمال القلوب، ومنزلتها في الدين، وأنه لم يؤتَ كثيرٌ من المسلمين في دينهم إلا من قِبلها؛ إما إفراطًا وإما تفريطًا، فجاء هذا الكتاب مفصلًا في ذلك ببيان بديع، وأسلوب شائق، وعبارة سلسة جميلة، وهذا مما يؤكد على أهمية تحقيق الكتاب ودراسته.

٥ - انتشار الكتاب بين طلاب العلم، وكثرة اقتنائه والإفادة منه، يجعل الباحثين يحرصون على تحقيق الكتاب مراعى في ذلك قواعد التحقيق العلمي.

٦ - كثرة النسخ التجارية للكتاب الخالية من التحقيق العلمى؛ إذ إن فيها من الخلل الشيء الكثير، ومنه:

أ - كثرة السقط، حتى إنها تشكل على القارئ وتسبب له خلطًا كثيرًا.

ب - كثرة التصحيف والتحريف في عبارات الكتاب؛ إذ تكاد لا تخلو صفحة واحدة من هذين القادحين في الأعمال العلمية، وهذا في أحسن النسخ حالًا، ومما زعم أصحابها أنهم اعتمدوا النسخة الأصل؛ فكيف ببقية النسخ الأخرى؟!

جـ - عدم عزو الآثار إلى مصادرها.

د - عدم توثيق النقول من مصادرها.

هـ - اعتمادها على نسخة واحدة للكتاب، وهي نسخة (محب الدين الخطيب).

٧ - الكتاب في نُسَخِهِ المطبوعة - مع كثرتها - كثير الإشكالات؛ بسبب السقط تارة، وبسبب التصحيف والتحريف أخرى، لذا لن تتم الفائدة منه إلا بعد جمع النسخ المخطوطة والمطبوعة والموازنة بينها؛ حتى يزول الإشكال، ويتبين الصواب من الخطأ، ولأجل هذا كان من الضروري تحقيق الكتاب وإخراجه بصورة حسنة، تظهر جمال الكتاب.

المنهج المتَّبع في تحقيق الكتاب

أولًا: تحقيق النص:

اعتمدنا نسخة المكتبة الظاهرية، التي تحمل الرقم (١٤٥٧) وجعلناها الأصل، وأثبتنا النص منها.

كتبنا النص على طريقة الإملاء الحديثة مراعين علامات الترقيم.

صححنا الأخطاء في النص، وخاصة في ترقيم الجزئيات، أو في بعض الكلمات التي تحتاج إلى تصحيح، وهي قليلة جدًّا.

قارنا النص بالنسخ الأخرى، وجعلنا الفروق في الحاشية، فما سقط من النسخ الأخرى جعلناه بين [معقوفين]، وربما جعلته بين (قوسين) إذا كان السقط داخل سقط آخر، وأشرت إليه في الحاشية.

وإن كان هناك زيادة في النسخ الأخرى، أو اختلاف في اللفظ، بيناه في الحاشية.

لم نثبت في الفروق بين النسخ الاختلافات اليسيرة؛ كاختلافها في تنزيه الرب بعد لفظ الجلالة، و الصلاة والسلام على الرسل، و الترضي عن الصحابة، والترحم على السلف، واختلافها في وضع النقط على الحروف، مثل: تجب يجب، تكون يكون، ونحوها، إلا عندما يُحدث ذلك اختلافًا في المعنى.

ثانيًا: الآيات القرآنية:

كتبنا الآيات القرآنية بالرسم العثماني المحفوظ في الحاسب، وعزونا الآيات إلى

سورها، وذكرنا رقم الآية.

ثالثًا: الأحاديث والآثار:

خرّجنا الأحاديث من الكتب السبعة: الصحيحين، والسنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد، مكتفين باسم صاحب الكتاب دون ذكر كتابه، ذاكرين في التخريج: الكتاب، والباب، ورقم الحديث، هذا في الكتب السبعة، أما مسند الإمام أحمد ومعه بقية كتب السنة الأخرى؛ فإننا ذكرنا الجزء والصفحة.

إن كان الحديث في الكتب السبعة أو في بعضها؛ خرَّجناه منها، وإن كان في غيرها من كتب الصحاح، والمسانيد، والجوامع، والمستدركات، والأجزاء وغيرها؛ بذلنا الجهد في تخريج الحديث منها.

وإن كان الحديث في الصحيحين؛ يُكتفى به أما إن كان في غيرهما فيذكر رقم الحديث، واجتهدنا في ذكر حكم العلماء - المتقدمين منهم والمتأخرين - على الحديث.

أمَّا الآثار الواردة في الكتاب، فقد بذلنا الجهد في عزوها إلى مصادرها، وقد نذيلها بحكم أهل العلم عليها صحة وضعفًا.

رتبنا المصادر على الترتيب المشهور بالنسبة للكتب السبعة، وما زاد عليها، أو كان في غيرها دونها، رتبناه على حسب تاريخ الوفاة، وهذا أيضًا في سائر الإحالات إلا إذا كان النقل من كتاب بعينه؛ فإننا نقدمه، ثم نرتب ما بعده على ما سبق.

رابعًا: توثيق النقول:

لقد اجتهدنا في توثيق ما نقله الإمام في كتابه، سواء أكان النقل منسوبًا إلى قائلٍ أو إلى كتابٍ، أم كان مبهمًا؛ كقوله: قيل، وحرصنا على توثيق ذلك كله غير أن الكمال عزيز، وليس هو لأحد غير الله سبحانه، لذا نَدُر من هذه النقول شيءٌ يسير، بذلنا الوسع في الوقوف عليه، لكنه عزَّ علينا.

عزونا الأشعار إلى قائليها في مصادرها، كالدواوين الشعرية، وأضف إليها كتب الأدب، واللغة، والمعاجم، وغيرها؛ إلا شيئًا يسيرًا من تلك الأشعار؛ إذ بذلنا الوسع لأجل توثيقها من مصادرها، ولم نقف عليها.

خامسًا: التراجم:

عرَّفنا بالأعلام الذين ذكرهم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في أول موضع يرد ذكر العَلَم فيه.

سادسًا: الغريب والمصطلحات والفرق والملل:

فسَّرنا الغريب من كتب المعاجم، وبيَّنا المراد من المصطلحات الواردة في الكتاب خاصة المصطلحات الصوفية؛ إذ بيَّنا المراد بها من الكتب الخاصة بمصطلحاتهم، علمًا بأننا لم نلتزم نقد تلك المصطلحات؛ ابتعادًا عن الإطالة، واكتفاءً بنقد الإمام لها في هذا الكتاب وفي كتاب «مدارج السالكين».

عرَّفنا بالفرق والملل التي ذكرها المؤلف، وذلك من كتب الفرق والملل المشهورة.

ثامنًا: المصادر والمراجع:

* وحَّدنا النسخة لكل مصدر أو مرجع نقلنا منه، أو أحلنا إليه؛ وذلك تسهيلًا للقارئ إن أراد الرجوع إلى تلك المراجع.

* لم نذكر بيانات النشر للكتاب عند أول عزو إليه، مكتفين بوجود ذلك مفصلًا في ثبت المصادر والمراجع.

* جعلنا ملحقًا خاصًّا بالفهارس مشتملًا على ما يلي:

١ - فهرس الآيات. ٢ - فهرس الأحاديث.

٣ - فهرس الآثار. ٤ - فهرس الفرق والأديان.

٥ - فهرس الكلمات الغريبة.

٦ - فهرس المصطلحات الصوفية.

٧ - فهرس الأشعار. ٨ - فهرس الأمثال.

٩ - فهرس البلدان.

١٠ - فهرس أسماء الكتب الواردة في الكتاب المحقق.

١١ - فهرس الأعلام. ١٢ - ثبت المصادر والمراجع.

١٣ - فهرس الموضوعات.

وحذفنا جميع هذه الفهارس إلا فهرس المصادر والمراجع والموضوعات؛ حتى لا يطول الكتاب.

وأخيرًا: فإننا كما بدأنا بحمد الله سبحانه، والثناء عليه، والاستعانة به جلّ وعلا، فإننا نختم هنا بحمد الله ﷻ، والثناء عليه، ونشكره على ما منَّ به علينا من فيض نعمه، وعظيم فضله ومنحه، وما يسره لنا من إكمال تحقيق هذا الكتاب، فله الحمد أولًا وآخرًا، و ظاهرًا وباطنًا.

كما نتقدم بالشكر - بعد شكر الله ﷻ - إلى والدينا؛ إذ كان لهما الفضل بعد الله جلَّ وعلا في حسن الرعاية، وجميل العناية، والتوجيه والإرشاد، فرب ارحمهما كما ربياني صغيرًا.

وأقدم الشكر بعد ذلك لهذا الصرح المبارك (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) أبقاها الله منارًا منيفًا للعلم وأهله، وشعارًا بارزًا للحق وحزبه.

وأخص بالشكر قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، والقائمين عليه من المشايخ الفضلاء؛ حيث أتاحوا لنا هذا الطريق المبارك لخدمة عقيدة أهل السنة والجماعة، فجزاهم الله خير الجزاء وأوفره.

كما لا يفوتنا أن نشكر كل من أسهم معنا في إتمام هذا البحث من المشايخ والزملاء، سواء أكان برأي، أم بإعارة كتاب، أم بالإعانة في مقابلة المخطوطات، أم غير ذلك فجزى الله الجميع خيرًا، وحالنا وحالهم كما قيل:

فتمام الحمد مني ناقص ... ومديد الشكر مني مقتضبْ
وإذا قصر عنه كلمي ... فوراء اللفظ ما يغني الأربْ

والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصًا، وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين[1].

* * *

(١) من كلام المؤلف رحمه الله، كما جاء في مقدمة كتابه.

ترجمة موجزة للمؤلف

اسمه ونسبه:

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزرعي الدمشقي الحنبلي - أبو عبدالله شمس الدين الشهير بابن قيم الجوزية والزُّرعي - بضم الزاء المشددة المعجمة - نسبة إلى زُرع بضم الزاي قرية من قرى حوران.

مولده ونشأته:

ولد في صفر سنة (٦٩١هـ) كما حدد ذلك تلميذه الصفدي، كان والده الشيخ أبو بكر قيمًا على المدرسة الجوزية بدمشق، فقيل له: قيم الجوزية، وسميت المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى واقفها محيي الدين يوسف بن الإمام الواعظ أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي سنة (٦٥٦هـ).

ففي هذا البيت العلمي كانت نشأة صاحب الترجمة، وقد بدأ بطلب العلم أولًا على أبيه وعلماء دمشق، فحفظ القرآن وهو صغير، ودرس الحديث والفقه والتفسير، وعُرف بالذكاء وقوة الحفظ والنجابة منذ صغره، ثم توسع في دراسة العلوم، وتبحَّر فيها، واجتمعت فيه صفات المجتهد منذ شبابه، فلم يلبث أن صار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة قبل بلوغ الثلاثين من عمره.

عصره:

لقد عاش المؤلف رحمه الله في عصر كثرت فيه البدع والضلالات، وسادت كثير من المذاهب الباطلة، واستفحلت الشبهات، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمى، وغُزيت بلاد المسلمين من قبل التتار والصليبيين.

ونجد صورة عصره جلية واضحة من خلال مؤلفاته التي بين أيدينا؛ لأنه اهتم بأجلِّ أمور المسلمين وأخطرها، وساهم في علاجها بقلمه ولسانه ويده، لذلك نجده كتب «الصواعق المرسلة» و«اجتماع الجيوش» و«هداية الحيارى» و«جوابات عباد الصلبان»؛ لما رأى من توغل الروافض في أمور المسلمين، ونشرهم للبدع والشركيات، وتثبيطهم للناس عن الجهاد، ومساعدتهم للتتار، أعداء المسلمين؛ وما كان من كثرة

البدع والشركيات، وانتشار الطرق الصوفية، وانتشار المذاهب والآراء الباطنية، إلا أننا نلاحظ ظهور الحفاظ مثل الدمياطي وابن شامة وابن دقيق العيد.

إنتاجه العلمي:

أما في مجال التأليف والإنتاج العلمي، فقد ترك الشيخ العلامة تراثًا ضخمًا ثمينًا، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينًا صافيًا، توفرت منه الآن المجلدات الكثيرة، من المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغيرها، هذا من المطبوع، وما بقي مجهولًا أو مكنوزًا في عالم المخطوطات كثير.

ولم يترك الشيخ مجالًا من مجالات العلم والمعرفة التي تنفع الأمة وتخدم الإسلام إلا كتب فيه، وأسهم بجدارة وإتقان، وتلك خصلة قلما توجد إلا عند العباقرة النوادر في التاريخ.

فلقد شهد له أقرانه وأساتذته وتلاميذه بسعة الاطلاع، وغزارة العلم، فإذا تكلم في علم من العلوم أو فن من الفنون، ظن السامع أنه لا يُتْقن غيره، فلو قلنا: ابن القيم اللغوي يدل عليه كتابه «الفوائد»، و «بدائع الفوائد»، و «إعلام الموقعين»، وراجع كتاب «ابن القيم اللغوي» لأحمد البقري.

وأيضًا ابن القيم المفسر: انظر كتاب «التفسير القيم» وكذلك «منهج ابن القيم في التفسير».

وكذلك ابن القيم الأصولي: راجع كتاب «إعلام الموقعين».

وابن القيم المؤرخ: راجع كتاب «زاد المعاد».

وابن القيم الفقيه: معظم كتبه تدل على ذلك راجع كتاب «زاد المعاد»، و «تحفة المودود»، و «أحكام أهل الذمة»، وكتاب «الصلاة»، و «الطرق الحكمية».

ابن القيم الشاعر: راجع «النونية» وهكذا فهو إمام في جميع الفنون.

جهاده ودفاعه عن الإسلام:

فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنحل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع كالطود الشامخ، بالمناظرات حينًا، وبالردود أحيانًا، حتى فنَّد شبهاتهم

ورد الكثير من كيدهم بحمد الله؛ فقد تصدى للفلاسفة، والباطنية، من صوفية وإسماعيلية ونصيرية وسواهم، كما تصدى للروافض والملاحدة، وفند شبهات أهل البدع التي تقام حول المشاهد والقبور ونحوها، كما تصدى للجهمية والمعتزلة، وناقش المتكلمين والأشاعرة.

ولا تزال بحمد الله ردود الشيخ سلاحًا فعالًا ضد أعداء الحق والمبطلين؛ لأنها إنما تستند إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهدي السلف الصالح، مع قوة الاستنباط، وقوة الاستدلال، والاحتجاج الشرعي والعقلي، وسعة العلم التي وهبها الله له.

ولست مبالغًا حينما أقول: إنه لا تزال كتب الشيخ وردوده هي أقوى سلاح للتصدي لهذه الفرق الضالة، والمذاهب الهدّامة التي راجت، وبدأت تُخرج أعناقها اليوم من جديد، والتي هي امتداد للماضي.

وفاته:

إن من علامات الخير للرجل الصالح وقبوله لدى المسلمين: إحساسهم بفقده حين يموت؛ لذلك كان السلف يعدون كثرة المصلين على جنازة الرجل من علامات الخير والقبول له، لذلك قال الإمام أحمد: «قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز»[(١)]، أي: إن أئمة السنة يفقدهم الناس إذا ماتوا، ويكونون أكثر مشيعين يوم يموتون، ولقد شهد الواقع بذلك.

هذا وقد توفي الشيخ رحمه الله ليلة الخميس (١٣) من شهر رجب سنة (٧٥١هـ) وقد أجمعت المصادر التي ذكرت وفاته أنه حضر جنازته جمهور كبير جدًّا يفوق الوصف، خاصة القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة، فرحم الله ابن القيم رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء[(٢)].

---

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٥٠٥). تحقيق: د/عبد الله بن عبدالمحسن التركي.

(٢) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٤٤٧) لابن رجب، و «بغية الوعاة» (١/٦٢) للسيوطي، و«شذرات الذهب» (٦/١٦٨) لابن العماد، و «البدر الطالع» (٢/ ١٤٢) للشوكاني، و «الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧٠) للصفدي، و «الدرر الكامنة» (٤/٢١) لابن حجر و«التاج المكلل» (ص٤١٦) لصديق خان، و «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٣٤) لابن كثير، و «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة (٩/ ١٠٦)، و «طبقات المفسرين» (٢/ ٩١) للداودي، و «هداية العارفين»، (٢/ ١٥٨) للبغدادي، و «النجوم الزاهرة» (١٠/ ٢٤٩) لابن =

وصف النسخ الخطِّيَّة

تم بفضل الله تعالى العثور على إحدى عشرة نسخة خطية لهذا الكتاب، وانتُخب منها أربع نسخ، وهذا لأسباب سيرد ذكرها قريبًا إن شاء الله.

النسخة الأولى:

نسخة المكتبة الظاهرية، وتحمل الرقم (١٤٥٧) ومنها صورة فلمِيَّة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، برقم (٢٨٦٤) ق.

وهي نسخة كاملة، بلغت أوراقها (١٢٦) ورقة من القطع الكبير، وبلغ عدد الأسطر في الصفحة الواحدة (٣٣) سطرًا. غالبًا..

أما عدد الكلمات في كل سطر فبلغت (١٥) كلمة - غالبًا - وهي نسخة قديمة، نفيسة، ترجع إلى عصر المؤلف، وخطها نسخي مقروء لكن بمشقة؛ وذلك لصغر الكتابة، وتداخل الكلمات، وهي غير مرتبة الصفحات، ولم يُذكر ناسِخُها ولا تاريخ نسخِها، وعليها تصحيحات وإضافات بخط المؤلف رحمه الله، كما سيأتي إن شاء الله.

وقد رمزنا لها بالحرف (ص) واتخذتها أصلًا.

النسخة الثانية:

نسخة في مكتبة محمد الفاتح في إستانبول بتركيا، برقم (٢٧٣٧) ومنها صورة فِلْميَّة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم(٢١٠٩).

وعدد أوراقها (٢٢٦) ورقة، في كل صفحة منها (٢٣) سطرًا، وعدد الكلمات في

= تغري بردي، و «الرد الوافر» (ص٦٨) لابن ناصر الدين الدمشقي، وكتاب «ابن قيم الجوزية» لعبد العظيم شرف الدين، وهي رسالة ماجستير طبعت عام (١٩٥٥م)، وكتاب «ابن القيم وآثاره العلمية» لأحمد ماهر البقري وهي رسالة دكتوراه، وكتاب «ابن القيم اللغوي» للدكتور أحمد ماهر البقري، وكتاب «ابن قيم الجوزية» لمحمد مسلم الغنيمي، وكتاب «منهج ابن القيم في التفسير» لمحمد أحمد السنباطي، وكتاب «ابن قيم الجوزية» للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، وهو أفضلها؛ لأسلوبه العلمي الموثق. وهناك كتب أخرى لم أجدها، مثل كتاب «ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي» لعوض الله حجازي وكتاب «ابن قيم الجوزية سيرته ومنهجه وآراؤه في الإلهيات» لمحمد الأنوار النهوتي.

السطر الواحد (١٢) كلمة - غالبًا -.

وهي نسخة قديمة مقابلة، عليها بعض التعليقات، قليلة السقط والاختلاف مع الأصل، كتبت بخط النسخ، وهي منقوطة ومشكلة، وخطها جميل جدًّا، وفيها بياض في نصف الصفحة الأولى والثانية وجزء يسير من الصفحة الثالثة، وقد نُقِلت من النسخة الأولى؛ إذ جاء في آخرها: «فرغ من كِتَابَتِه من نسخة المصنف المسودة العبد محمد بن عيسى بن عبد الله بن سليمان البعلي الحنبلي، غفر الله له ولوالديه وللمصنف ولجميع المسلمين، ووافق الفراغ يوم الأربعاء المبارك تاسع عشر من شهر رمضان المعظم مِن عام (٧٧٢هـ).

وقد رمزنا لها بالحرف (ع).

النسخة الثالثة:

نسخة مكتبة برلين بألمانيا، وتحمل الرقم: (٨٧٩٥) عدد أوراقها (١٤٨) ورقة؛ إذ نقص من أولها قريبًا من ثلث الكتاب حيث كانت بدايتها من قول المؤلف: «ما بقيت الدنيا في شأن موسى وقومه وفرعون وقومه...» وهو يوافق في القسم المحقق الثلث الأخير من (ص ٤٠٢).

وعدد الأسطر في كل صفحة (٢٣) سطرًا، وأما عدد الكلمات في كل سطر (١٣) كلمة - غالبًا - كتبت بخط النسخ، وخطها جميل جدًّا، وهي منقوطة ومشكلة، مقابلة على النسخة التي نُقِلَتْ منها. كتبها مالكها: عمر بن محمد المارديني، ووافق الفراغ منها يوم الأحد ثالث عشر صفر من سنة: (٨١٦هـ)، ولكونها ناقصة حيث لم يبق من نصيبي فيها سوى(٣٣) صفحة؛ فلم نقارن بها.

النسخة الرابعة:

نسخة موجودة في إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، وتحمل الرقم: (٥٢خ). عدد أوراقها (٢٠٨)، وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة (٢٤). غالبًا. كتبت بخط النسخ.

وكاتبها: عبد القادر بن محمد بن موسى بن حبيش، سنة: (١٠٠٠هـ).

وقد رمزنا لها بالحرف (ك).

النسخة الخامسة:

نسخة في مكتبة الملك فهد الوطنية، تحمل الرقم (٤٣/ ٨٦).

وتقع في (٤٢١) صفحة، في كل صفحة (٢١) سطرًا - غالبًا - خطها نسخي مقروء، وعليها تصحيحات، ومقابلات، وحواشٍ وعناوين جانبية. ناسخها هو العلامة: سليمان بن سحمان، وفرغ منها سنة: (١٢٨٥هـ).

وقد رمزنا لها بالحرف (س).

النسخة السادسة:

نسخة فِلميَّة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحمل رقم (٧٠٩٥) وتقع في (٣١٥) ورقة، في كل صفحة (١٧) سطرًا غالبًا. وفي كل سطر (١١) كلمة. غالبًا. وخطها نسخي، وهو خط جيد.

كتبت في شهر محرم، سنة: (١٢٤٤هـ)، ولم يبيَّن عليها اسم الناسخ، وهذه النسخة كثيرة السقط والتصحيفات، ولذا لم تُنتخب من نُسخ المقارنة.

النسخة السابعة:

نسخة في مكتبة الملك فهد الوطنية، تحمل الرقم (٤٥٤/ ٨٦). تقع في (٤٠٣) صفحة، في كل صفحة (٢٥) سطرًا تقريبًا وخطها جيد وواضح، وعليها بعض التصحيحات، ناسخها هو: شريدة بن علي الطيار، وتاريخ نسخها (١٥) جماد الآخر من سنة: (١٢٧٦هـ).

النسخة الثامنة:

نسخة في مكتبة المعهد العلمي بحائل. تقع في (٢٠٤) صفحات، في كل صفحة (٣١) سطرًا غالبًا وفي كل سطر (١٧) كلمة. غلبًا .. خطها نسخي مقروء، وعليها تصحيحات. ناسخها: إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الله بن فرحان بن محمد، في شهر رجب سنة: (١٣٠١هـ).

النسخة التاسعة:

هي نسخة تقع في (٢٦١) ورقة، في كل صفحة (٢٢) سطرًا. غالبًا. وفي كل سطر (١١) كلمة - غالبًا - عليها تعليقات، ومقابلات، وخطها نسخي جيد. ناسخها هو العلامة: سليمان بن سحمان. كان الفراغ من نسخها: يوم السبت (٢٢) من ذي الحجة، سنة(١٣٠٧هـ).

النسخة العاشرة:

نسخة موجودة في مكتبة الملك فهد الوطنية، وتحمل الرقم (٣٥٠/ ٨٦). تقع في (٤١٥) صفحة، في كل صفحة (٢٨) سطرًا - غالبًا - في كل سطر (١٢) كلمة غالبًا. خطها نسخي جيد، وعليها تعليقات، وعناوين جانبية في بعض المواضع. ناسخها هو الشيخ إبراهيم بن محمد الضوياني الخامس من ربيع الأول، سنة: (١٣١٤هـ).

النسخة الحادية عشر:

نسخة موجودة ضمن مخطوطات جامعة (برتستون) الأمريكية، ومنها نسخة فلمية في مكتبة الملك فهد، تحمل الرقم (٢٥٣٣) تقع ضمن مجموع يحتوي على: «طريق الهجرتين»، لابن القيم، و«السياسة الشرعية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية و«مصباح السلوك» لابن الخطيب. تقع في (٦٣) ورقة، في كل صفحة منها (٢٤) سطرًا. غالبًا. وفي كل سطر (١٢) كلمة غالبًا. وهي ناقصة؛ إذ الموجود منها ثلث الكتاب فقط، وتنتهي عند قول المؤلف «. . . وهذا الإسلام، والامتحان من الحكم الراجعة إلى العبيد أنفسهم، من استخراج صبرهم وشكرهم، وتوكلهم، وجهادهم. .» وهو في المطبوع: (ص ١٤٦).

وخطها مقروء، ولم يُكتب عليها اسم الناسخ، ولا تاريخ نسخها، ولكونها مجهولة التاريخ والناسخ، وليس فيها زيادة على الأصل؛ فلم تُنتخب من نُسخ المقارنة.

❋ ❋ ❋

النسخة الأصل وأسباب اختيارها

لقد اخترنا نسخة المكتبة الظاهرية لتكون أصلًا يُثبتُ منها النص؛ حيثُ يغلِبُ على ظني أنها نسخة المؤلف، وكان اختيارها أصلًا لأسباب منها:

١ - أنها من أكمل النسخ وأفضلها وأقدمها؛ إذ يغلب على الظن أنها بخط المؤلف رحمه الله كما سيأتي، ولم يظهر في نصها أي إشكال أو لبس، كما هو حال المطبوع، أو المخطوطات الأخرى حيث يرد فيها سقط، ويكون تمامه من نسخة الأصل شافيًا ووافيًا، ويرد في تلك النسخ المطبوعة والمخطوطة تصحيف، ويكون صوابه من نسخة الأصل واضحًا.

٢ - أن مما يُغلب الظن أنها مسودة المصنف:

أ - أن النسخة الثانية وهي نسخة مكتبة محمد الفاتح، والمرموز لها بالحرف (ع)، وناسخها: محمد بن عيسى بن عبد الله بن سليمان البعلي، في سنة (٧٧٢هـ)، قال في نهايتها: «فرغ من كتابته من نسخة المصنف المسودة. . .».

ب - ذكر ناسخها عند أحد التبييضات في (ص ٢٠٦) قال: «وفي حاشية الأصل بخط المؤلف رحمه الله أسطار مصحح على آخرها، ذهب الأول منها تآكلًا، على طرف الورقة أخلى الكاتب له تحت هذا السطر موضعًا، وكتب ما وجد بعده». وهو كما قال، إذ كان هذا في الحاشية العلوية من (ص ٨٩)، كما في الأصل قبل ترتيبها.

بل إن الناسخ أشار إلى ذلك البياض الذي تركه، كما جاء في آخر المخطوطة بقوله: «قابله كاتبه بأصل مصنفه رحمه الله المنقول منه، فصح بحمد الله. . . وفيه تبييضات أكلها الزمان من أطراف الأصل قصرت العبارة عن معرفة مضمونها فبيضتها كما تراها في القريب من آخره».

وقد وقعت هذه التبييضات في الصفحات التالية: (ص ٢٠٦، ٢٠٨) وتآكلت من الأصل كما في (ص ٨٩، ٢٠٩) وتآكلت من الأصل في (ص ٩٠). و(ص ٢١٢) وتآكلت من الأصل في (ص ٩١).

٣ - أن هذه النسخة فيها تصحيحات كثيرة؛ إذ يُكتب الكلام بأسلوب، ثم يضرب عليه، ويكتب بأسلوب آخر أكمل منه وأتم، وهذا لا يفعله إلا مؤلفه؛ إذ الناسخ لا

يقدر على شيء من ذلك ولا يتصرف في النص بنحو ذلك.

وقد تتبعنا هذه التصحيحات في القسم الأول فقط، فوجدناه يزيد على (٢٩٠) موضعًا، يطول بعضها، فيصل سطرًا، ويقصر بعضها إلى كلمة.

وإليك نماذج من ذلك مع الإشارة إلى رقم الصفحة في نسخة (الأصل) وما كان فوق الخط فهو المضروب عليه:

- (ص١٠): «فلذلك لا كمال له ولا صلاح إلا بكونه تعالى وحده هو غايته، ونهاية مقصوده فهو الأول خلقا وبداء والآخر الذي ابتدأت».

- (ص١١): «.... وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة **قرب الله من عبده تبارك وتعالى** إحاطة الرب تبارك وتعالى بالعالم...».

- (ص١٣): «... والحقيقة الخارجية محلها الخارج **إذا عُرف هذا، فالتعبد بالاسم الباطن** فمعرفة هذه الأسماء الأربعة وهي: «الأول والآخر والظاهر والباطن» هي أركان العلم والمعرفة...».

- (ص٦٨): «وإذا عرف هذا، وأنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، **وعلم أن كل ما سوى ذلك فتقدير الذنوب وموجباتها من لوازم حكمته وحمده، وهو محمود على ذلك كله** وكونها ذنوبًا ناشئ من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما من نفس العبد».

- (ص٧٢): «وحينئذٍ فقد يكون هدى هذه النفوس الفاجرة وسعادتها مشروطًا بلوازم لم تحصل، أو بانتفاء أضداد لم تنتف. فإن قيل: فهلا حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الأضداد؟ فهذا هو السؤال الأول **الذي لايستحق جوابًا ولا كتب عنه عاقل فإن** ، وقد بينا أن لوازم هذا الخلق وهذه النشأة».

- (ص٨٧): «وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأنه أفرح بتوبة عبده من **العقيم الوالد و... والمظل الواجد، والظمأن الوارد** من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها».

وغير ذلك من المواضع، والتي تدل على أن كاتب هذا المخطوط لا يكون إلا مؤلفه، وهي نسخته المسودة والله أعلم.

٤ - تم انتخاب ثلاث نسخ للمقارنة مع الأصل وهي:

أ - النسخة (ع) لتقدمها وموافقتها للأصل غالبًا.

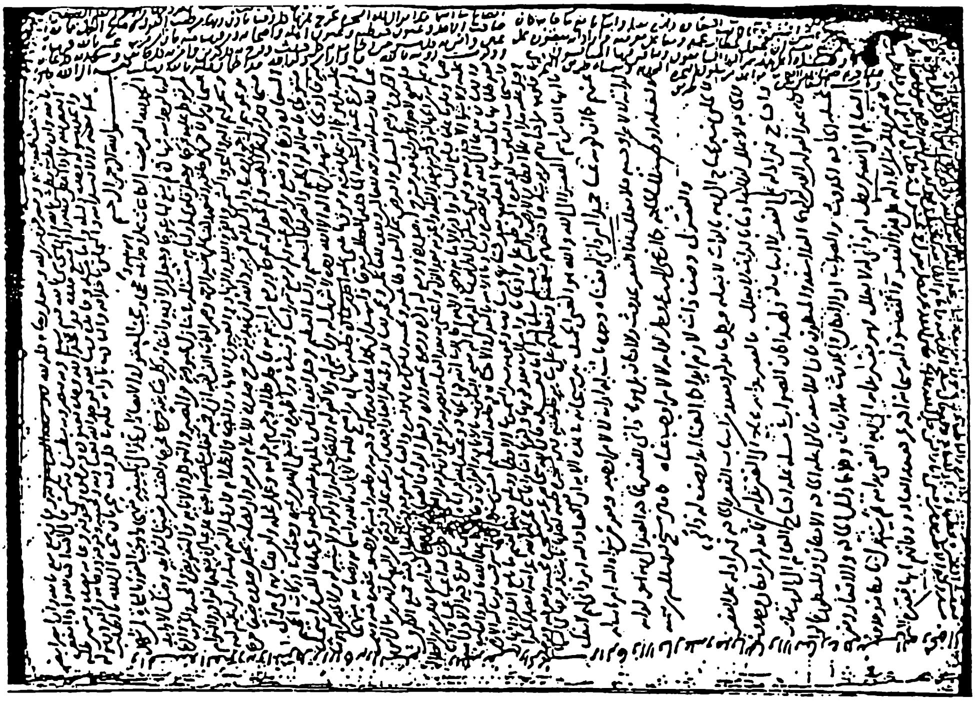
ب - (ك) لكونها قليلة الأخطاء والتصحيفات.

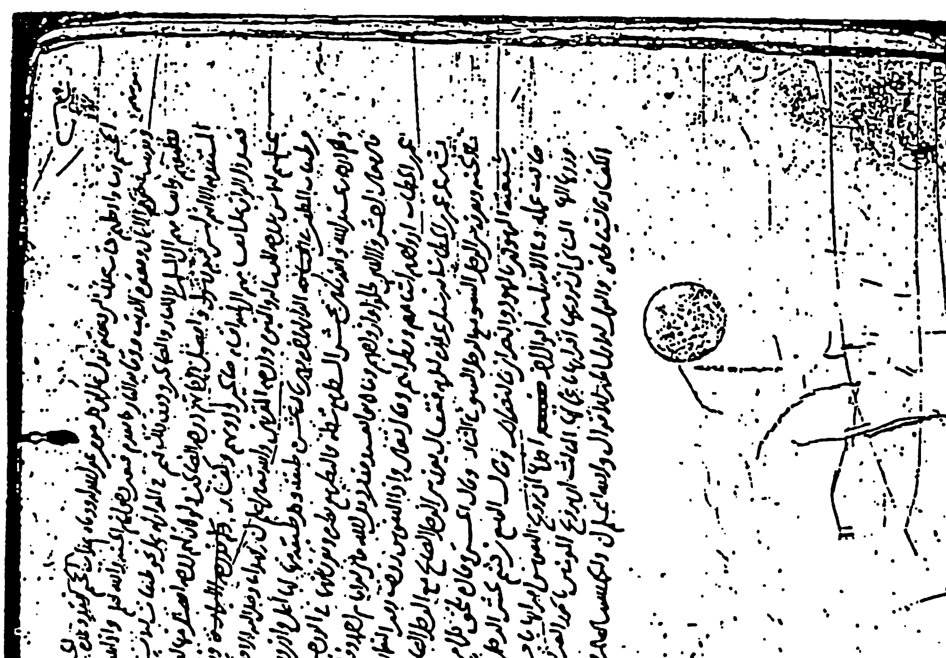
ج - (س) لأن ناسخها من أهل العلم والفضل.

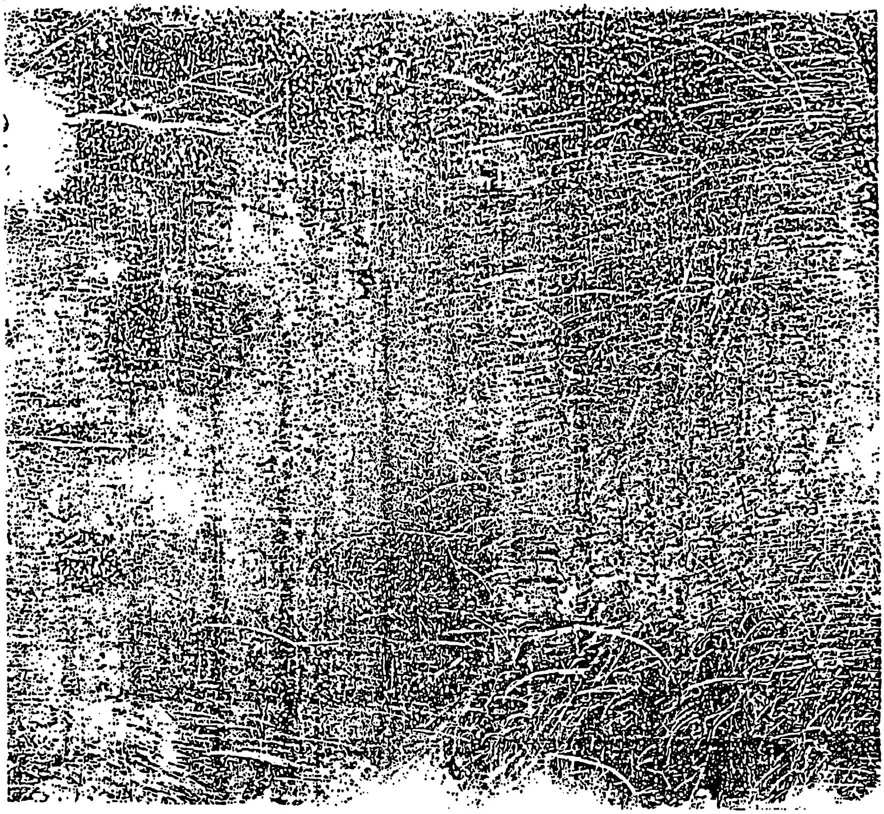
أما بقية النسخ فهي موافقة للنسخة (ك) وكأنها هي الأصل الذي نُقلت عنه.

❃ ❃ ❃

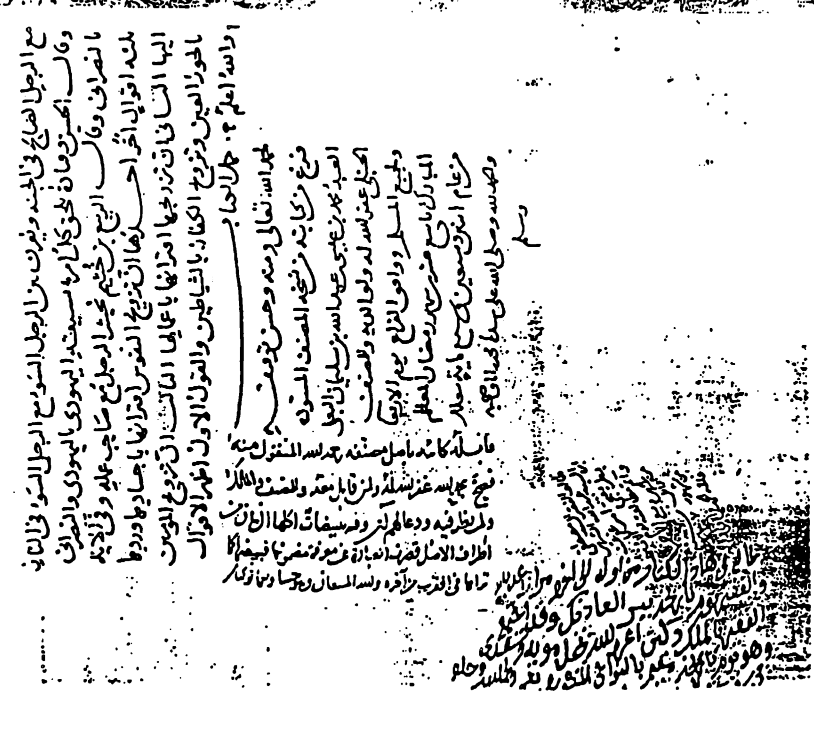
نماذج من النسخ الخطية



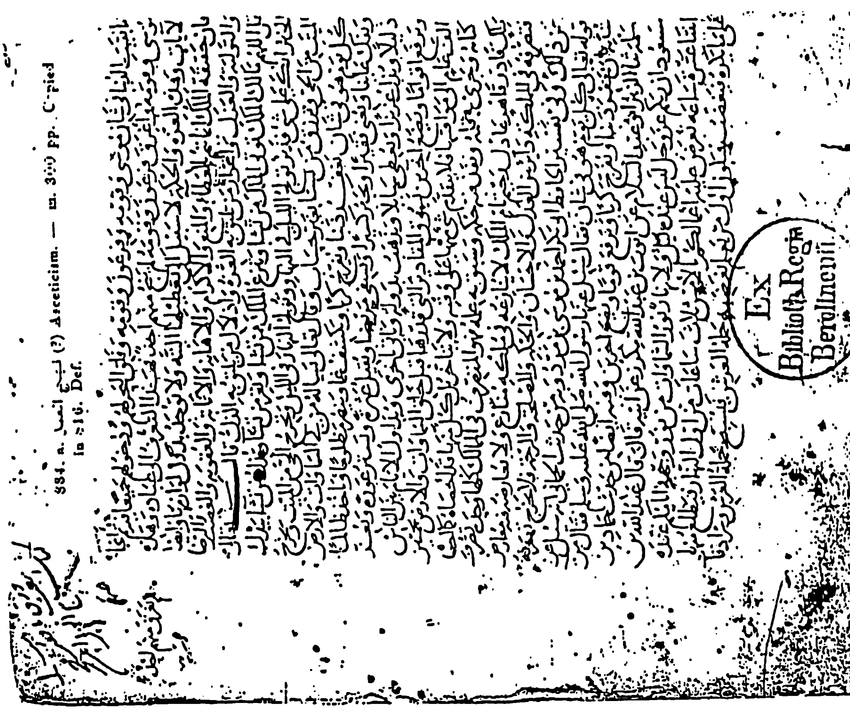




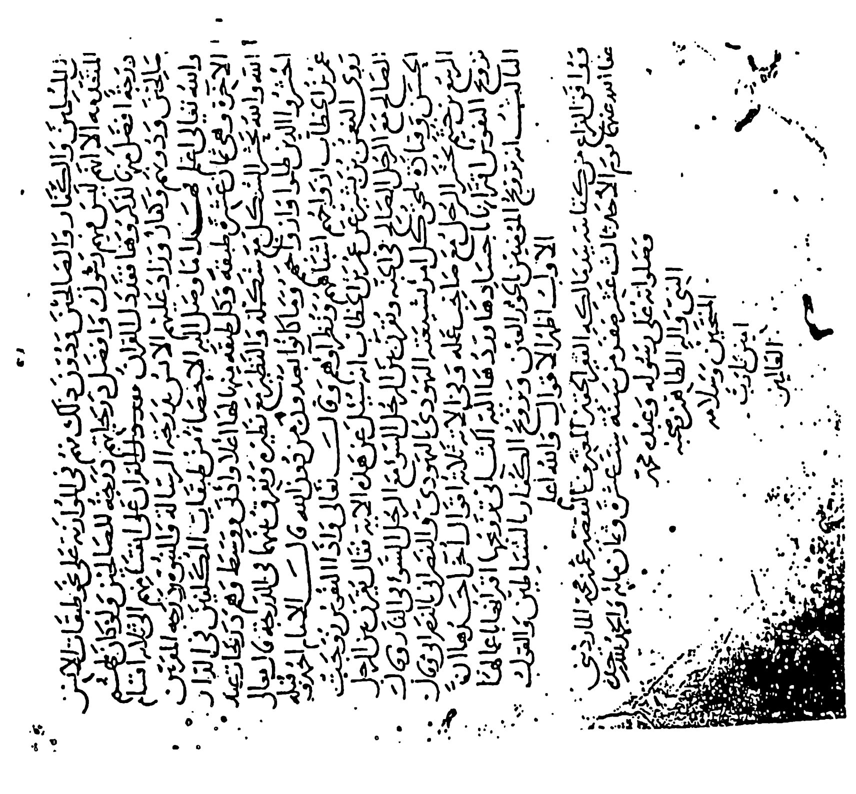
الصفحة الأولى من النسخة الثانية



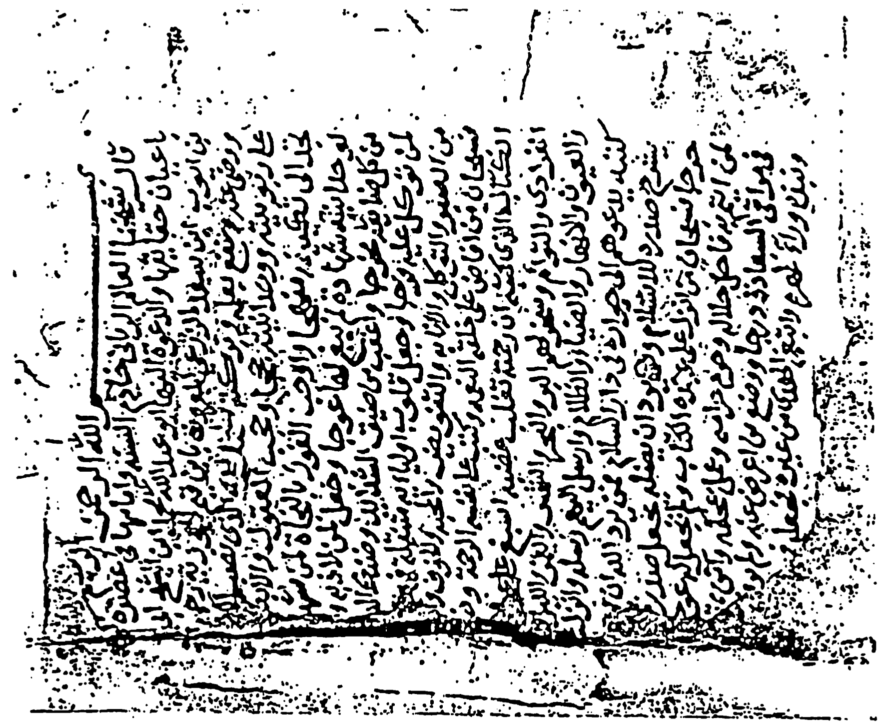
الصفحة الأخيرة من النسخة الثانية



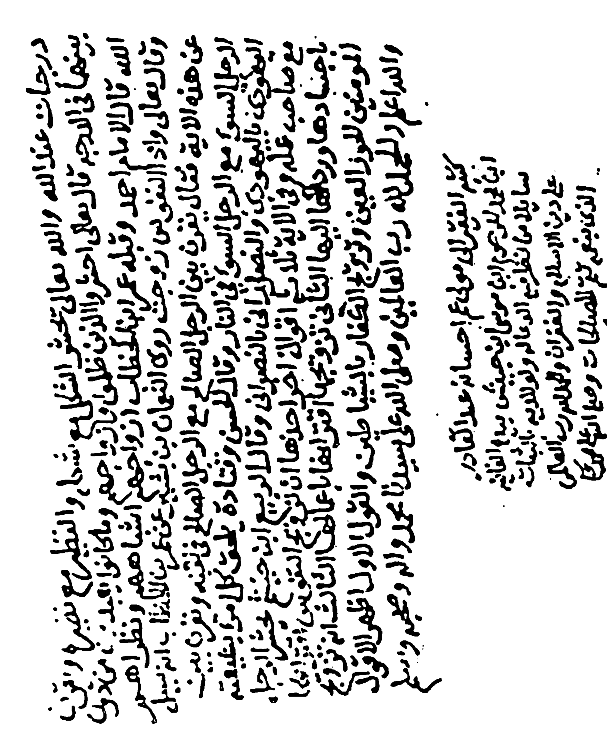
الصفحة الأولى من النسخة الثالثة



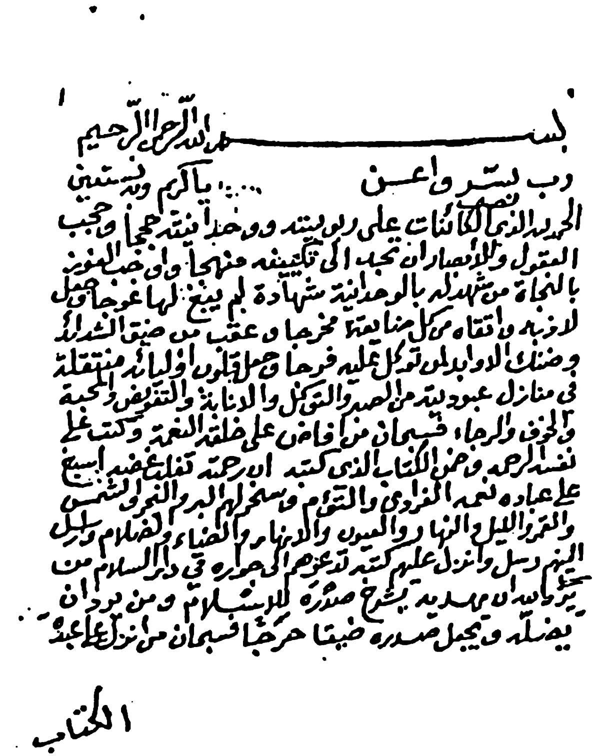
الصفحة الأخيرة من النسخة الثالثة



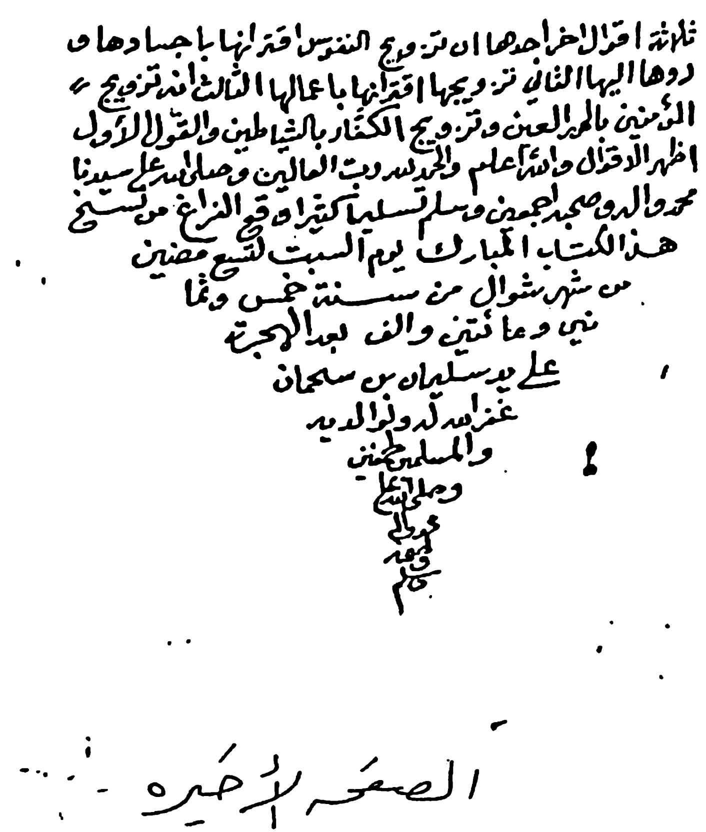
الصفحة الأولى من النسخة الرابعة



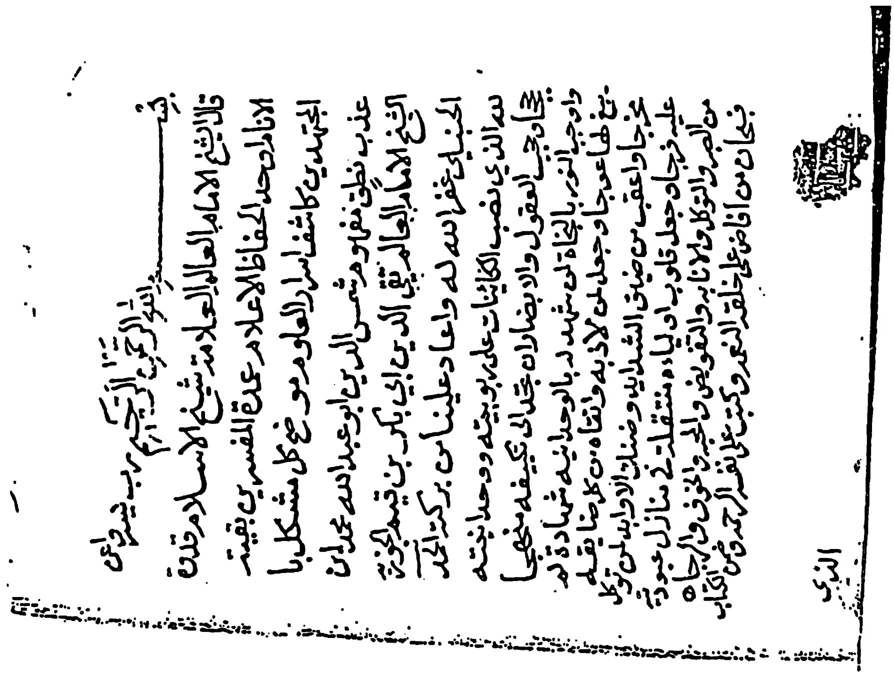
الصفحة الأخيرة من النسخة الرابعة


بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر وأعن يا كريم وبه نستعين
الحمد لله الذي نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججا وحجب
العقول والأبصار أن تجد إلى تكييفه منهجا وأوجب الفوز
بالنجاة من شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجا وجعل
لأوليائه وأتقاه من كل ضائقة مخرجا وعقب من ضيق الشدائد
وضنك اللأواء لمن توكل عليه فرجا وجعل قلوب أوليائه متنقلة
في منازل عبوديته من الصبر والتوكل والإنابة والتفويض والمحبة
والخوف والرجاء فسبحان من أفاض على خليقته النعمة وكتب على
نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه أسبغ
على عباده نعمه الفرادى والتوأم وسخر لهم البر والبحر والشمس
والقمر والليل والنهار والعيون والأنهار والضياء والظلام وأرسل
إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه تدعوهم إلى جواره في دار السلام من
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن
يضله يجعل صدره ضيقا حرجا فسبحان من نزل على عبده
الكتاب

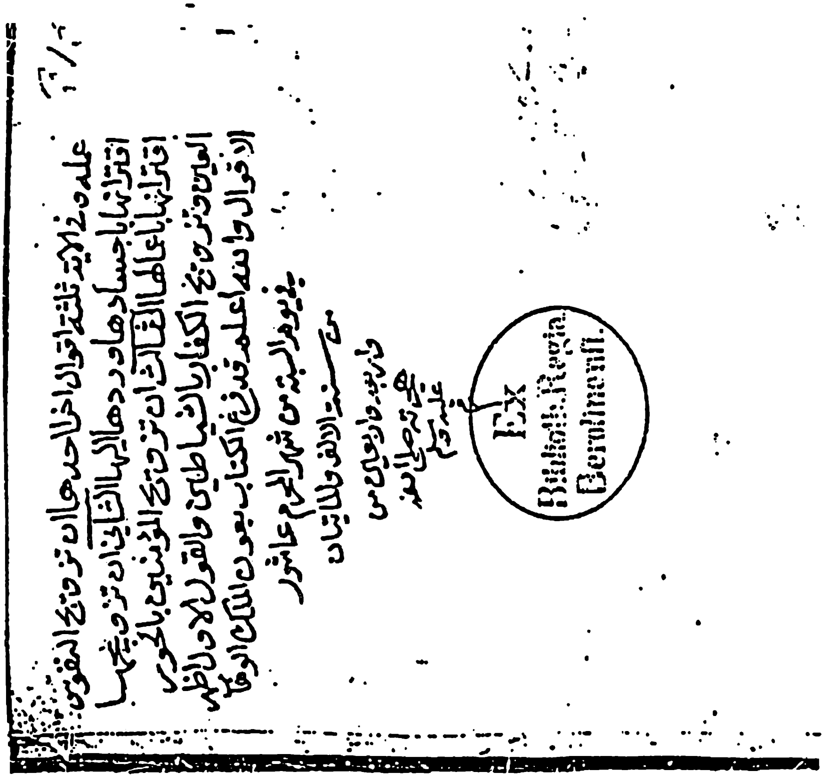
الصفحة الأولى من النسخة الخامسة


ثلاثة أقوال أحدها أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها أي
ردها إليها الثاني تزويجها اقترانها بأعمالها الثالث أنه تزويج
المؤمنين بالحور العين وتزويج الكفار بالشياطين والقول الأول
أظهر الأقوال والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا وقع الفراغ من نسخ
هذا الكتاب المبارك يوم السبت لتسع مضين
من شهر شوال من سنة خمس وثما
نين ومائتين وألف بعد الهجرة
على يد سليمان بن سحمان
غفر الله له ولوالديه
والمسلمين أجمعين
وصلى الله على
محمد وآله
وصحبه
وسلم
الصفحة الأخيرة

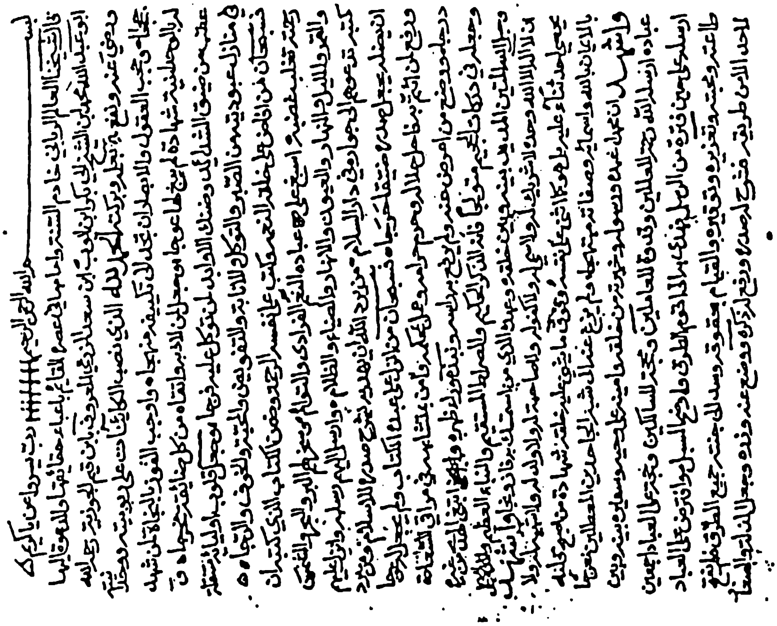
الصفحة الأخيرة من النسخة الخامسة



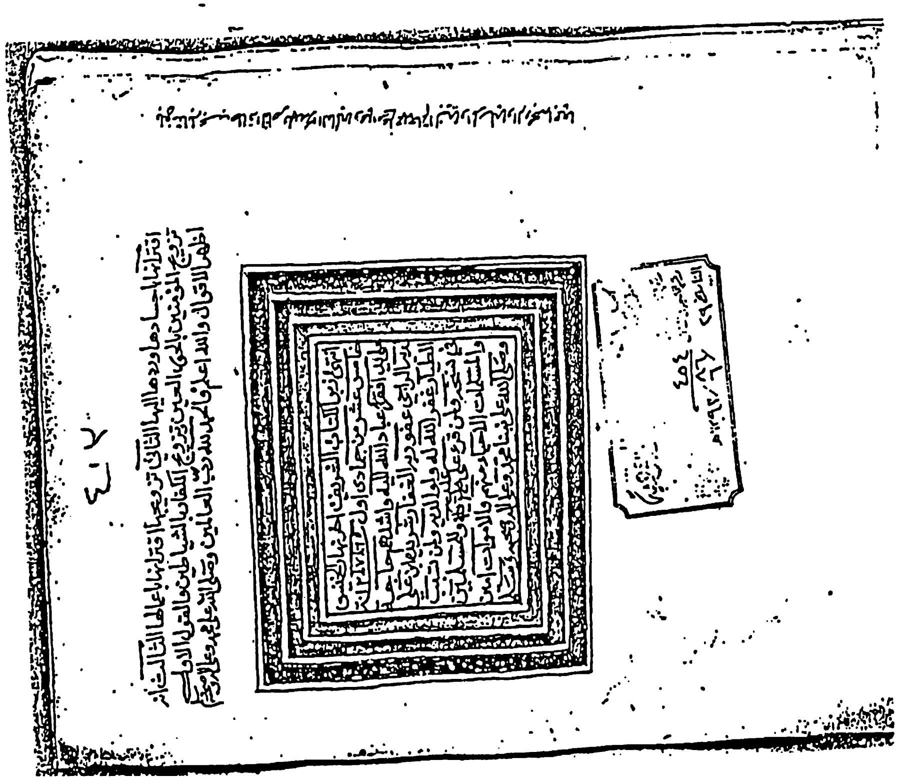
الصفحة الأولى من النسخة السادسة



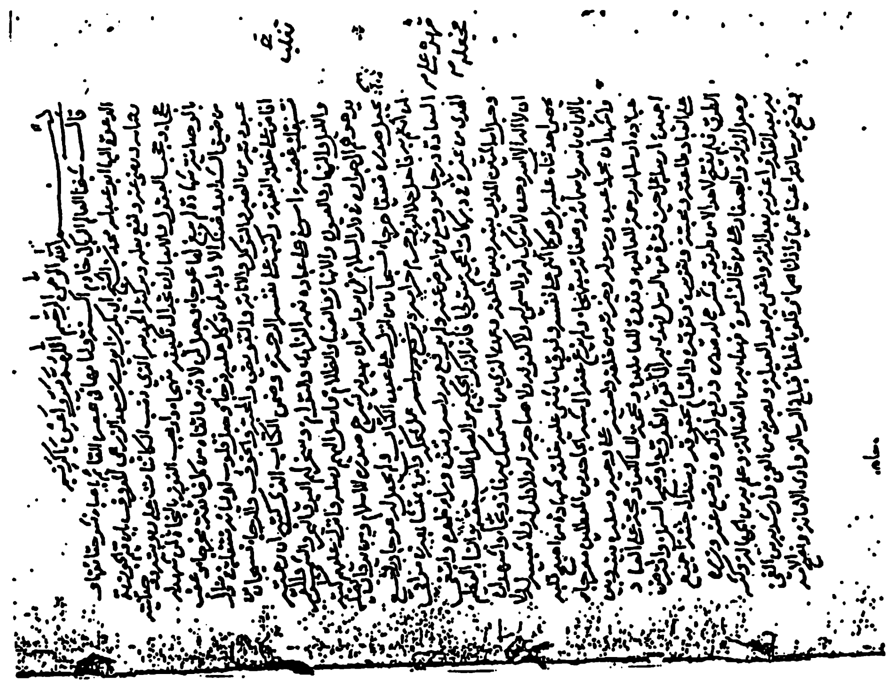
الصفحة الأخيرة من النسخة السادسة



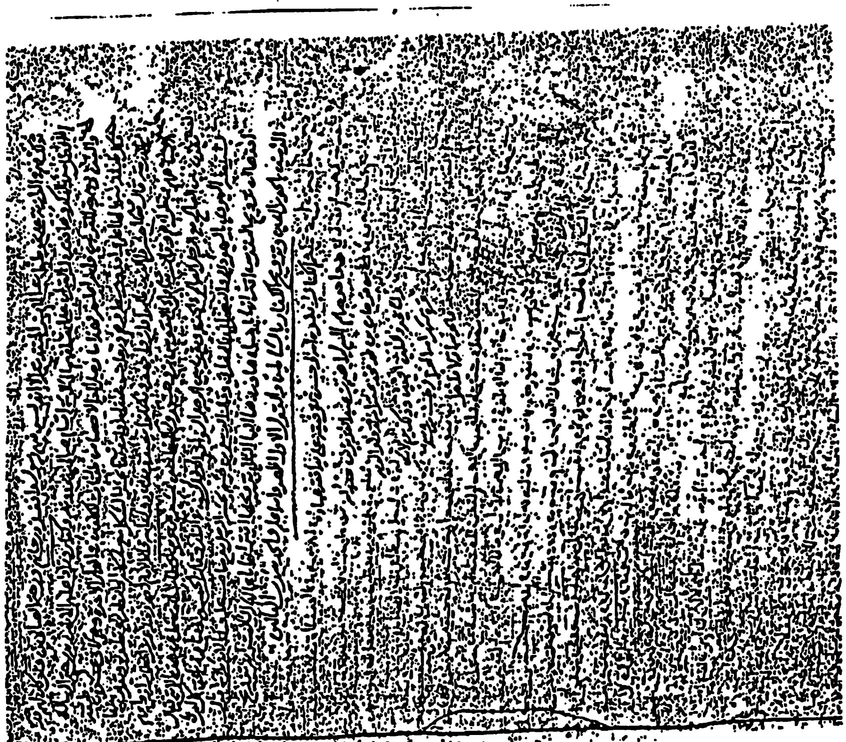
الصفحة الأولى من النسخة السابعة



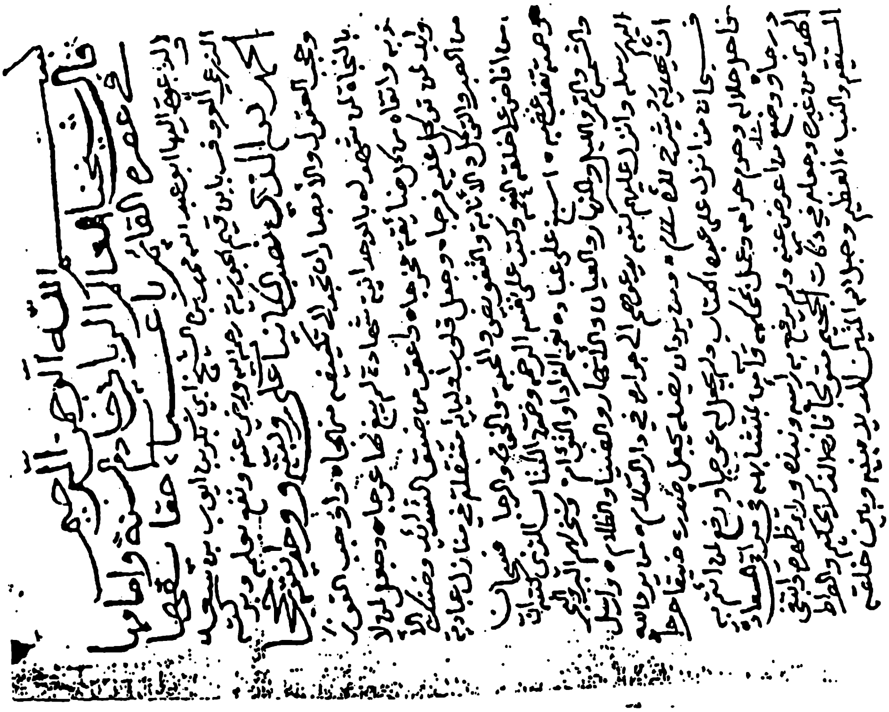
الصفحة الأخيرة من النسخة السابعة



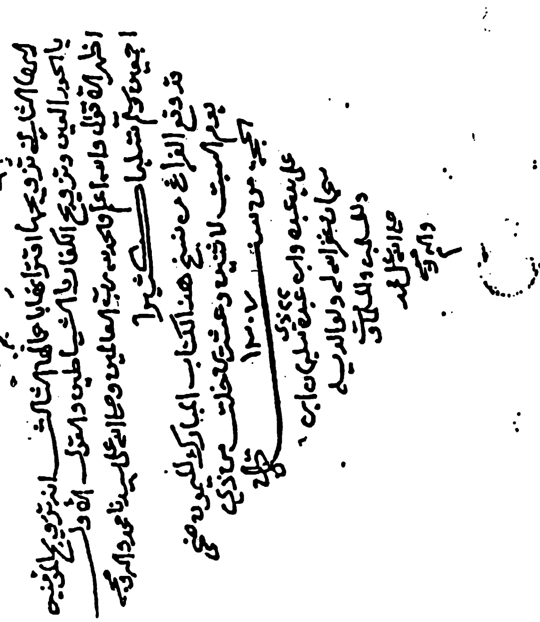
الصفحة الأولى من النسخة الثامنة



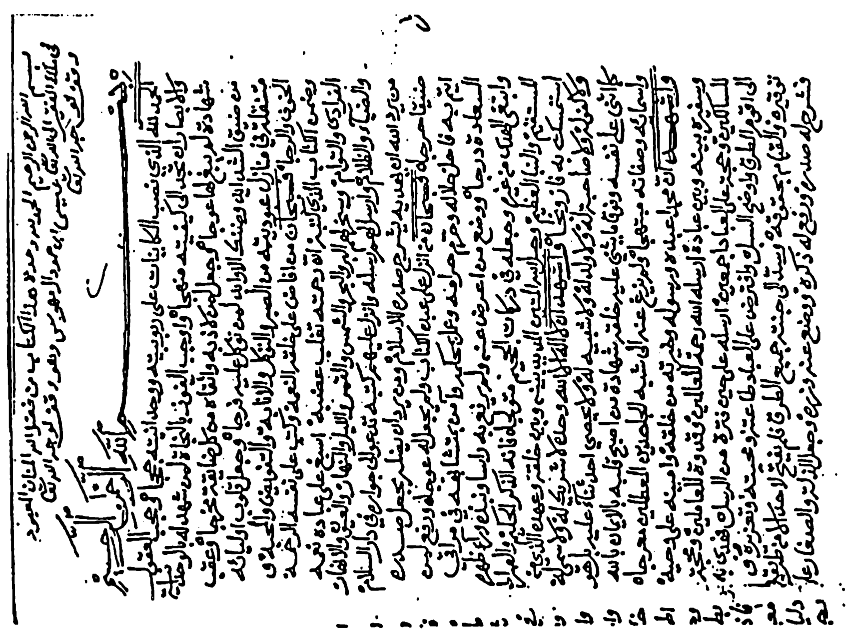
الصفحة الأخيرة من النسخة الثامنة



الصفحة الأولى من النسخة التاسعة



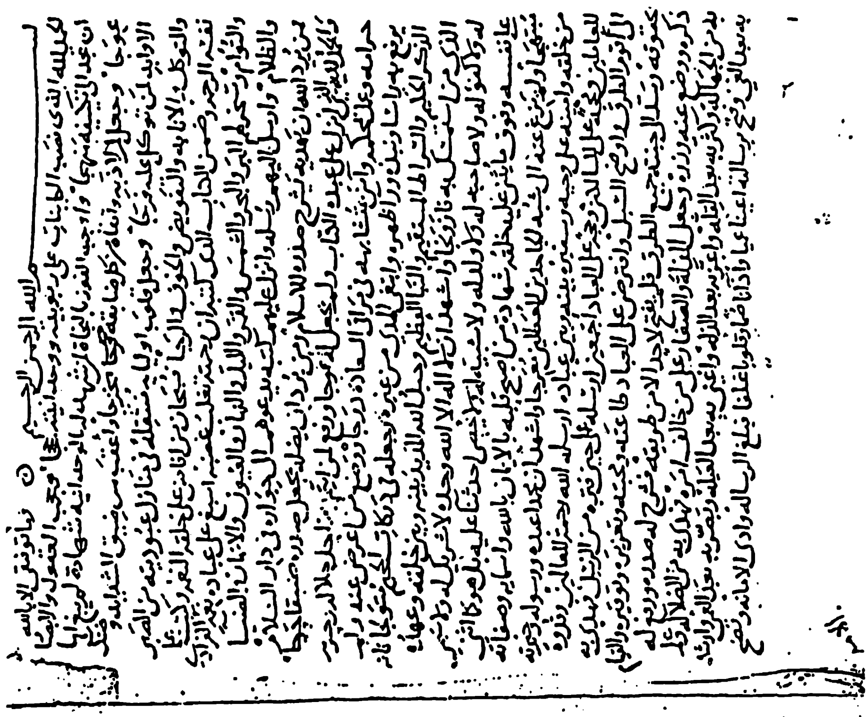
الصفحة الأخيرة من النسخة التاسعة



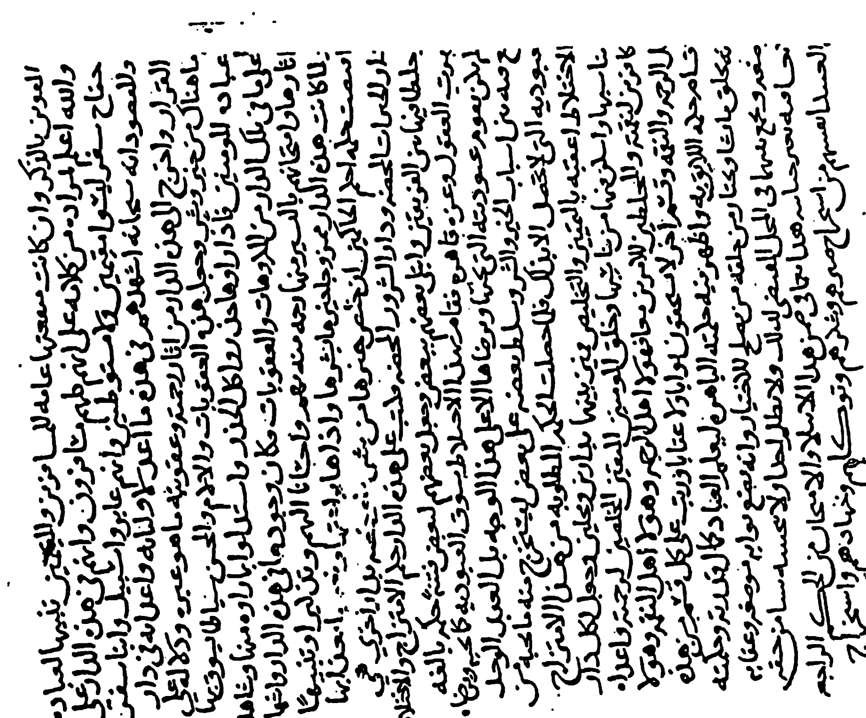
الصفحة الأولى من النسخة العاشرة



الصفحة الأخيرة من النسخة العاشرة



الصفحة الأولى من النسخة الحادية عشرة



الصفحة الأخيرة من النسخة الحادية عشرة

الفصل الأول

دراسة تفصيلية عن الكتاب

وفيه مباحث:

المبحث الأول: عنوان الكتاب.

المبحث الثاني: توثيق نسبة الكتاب إلى المؤلف.

المبحث الثالث: تاريخ تأليف الكتاب.

المبحث الرابع: سبب التأليف.

المبحث الخامس: أهمية الكتاب، ومميزاته.

المبحث السادس: منهج المؤلف في الكتاب.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

عنوان الكتاب

تحصل لنا عدة عناوين لهذا الكتاب من كلام المؤلف، ومن كلام غيره، منها:

١ - «**طريق الهجرتين، وباب السعادتين**»: وبذلك سماه المؤلف في مقدمته له؛ حيث قال: . . . وسميناه: «طريق الهجرتين، وباب السعادتين» اهـ، وهو الموجود في النسخ الخطية - كما سيأتي.

٢ - «**سفر الهجرتين، وطريق السعادتين**»: ذكره المؤلف في: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٦). والصفدي في: «الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧١) وفي: «أعيان العصر، وأعوان النصر» (٤/ ٣٦٩)، ووصفه بأنه سفرٌ كبيرٌ، وابن تغري بردي في: «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» (٣/ ٦٢).

٣ - «**سفر الهجرتين، وباب السعادتين**»: ذكره ابن رجب الحنبلي في: «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٩)، وابن العماد في: «شذرات الذهب» (٨/ ٢٨٩)، ووصفه بأنه مجلدٌ ضخمٌ، والبغدادي في: «هدية العارفين» (٢/ ١٥٨)، والداودي في: «طبقات المفسرين» (٢/ ٩٢).

٤ - «**سفر الهجرتين**»: ذكره المؤلف في: «مدارج السالكين» (١/ ٥٤)، والسيوطي في: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (١/ ٦٣)، وحاجي خليفة في: «كشف الظنون» (٢/ ٩٩١).

٥ - «**طريق الهجرتين**»: ذكره الزركلي في: «الأعلام» (٦/ ٥٦).

٦ -«**طرق السعادتين**»: ذكره ابن حجر في: «الدرر الكامنة» (٤/ ٢١)[(١)]، وحاجي خليفة في: «كشف الظنون» (٢/ ١١١)، والبغدادي في: «هدية العارفين» (٢/ ١٥٨)، وصديق بن حسن في: «التاج المكلل» (ص٤١٩)، والشوكاني في: «البدر الطالع» (٢/ ١٤٤).

---

(١) وأشار محققه إلى أن في نسخة: «طريق السعادتين».

وهذه الأسماء لمسمى واحد - وهو كتابنا هذا - وبهذا يظهر وَهْمُ من فهم من تعددها تعدد مسماها، كالبغدادي، وحاجي خليفة - كما تقدم[١].

المبحث الثاني

توثيق نسبة الكتاب إلى المؤلف

لا ريب في أن «طريق الهجرتين، وباب السعادتين» من مصنفات ابن قيم الجوزية، ولم يشكك في نسبته إليه أحد ممن ترجم له - فيما أعلم - ومما يدل على هذا ما يلي:

١ - أن المؤلف ذكر هذا الكتاب في بعض مصنفاته الأخرى، كـ: «مدارج السالكين» - كما تقدم.

٢ - أن المؤلف أحال في هذا الكتاب إلى بعض مصنفاته، فقال: «. . . وقد ذكرنا في كتاب: «الكلم الطيب، والعمل الصالح» من فوائد الذكر: استجلاب ذكر الله سبحانه لعبده، وذكرنا قريبًا من مائة فائدة تتعلق بالذكر، كل فائدة منها لا نظير لها، وهو كتاب عظيم النفع جدًّا». اهـ.

وقال: «. . . وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبة الذي سميناه: «المورد الصافي، والظل الضافي»، في المحبة، وأقسامها، وأنواعها، وأحكامها، وبيان تعلقها بالإله الحق دون ما سواه، وذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه» اهـ.

وقال: «. . . وقد ذكرت نظير هذا في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أنه للمدح، و﴿أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: إما في سياق الذم، وإما منقسم في كتاب: «التحفة المكية». اهـ.

وقال: بعد ذكره الحديث القدسي المشهور: «من عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب . . .إلخ»: «. . . وقد ذكرت معنى الحديث، والرد على من حرَّفه، وغلط فيه في كتاب: «التحفة المكية» . . .». اهـ.

٣ - أنَّ المؤلف نقل في هذا الكتاب عن شيخه ابن تيمية، وأحال على بعض

---

(١) انظر: «ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره» ص (١٧٠ - ١٧٢) لبكر أبو زيد.

مصنفاته كما هي عادته في مصنفاته الأخرى: فقال: «. . . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: عاتبت بعض شيوخ هؤلاء[١]، فقال لي: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراد، فأي شيء أبغض منه؟ قال: فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض بعض من في الكون، وعاداهم، ولعنهم، فأحببتهم أنت، وواليتهم: أكنت وليًّا للمحبوب، أو عدوًّا له؟ قال: فكأنما ألقم حجرًا». اهـ.

وقال: «. . . قلت لشيخ الإسلام: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفاسد، مشتملة على المصلحة الخاصة؟ فقال: خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع. . .» اهـ.

وقال بعد ذكره الخلاف فيما إذا كان للعبد حال أو مقام مع ربه تعالى، ثم نزل عنه بذنب ارتكبه، ثم تاب منه: هل يعود إلى مثل ما كان عليه، أو لا يعود، بل إن رجع رجع إلى أنزل من مقامه، وأنقص من مرتبته، أو يعود خيرًا مما كان؟: «. . . وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته، وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان. . .» اهـ.

وقال بعد ذكره المروي عن خديجة ﵂، أنها سألت رسول الله ﷺ عن أولادها الذين ماتوا في الشرك، فقال: «إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار»: «. . . قال شيخنا: وهذا حديث باطل موضوع». اهـ.

وقال: «. . . قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

ويدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طُرًّا فرقة القدريةِ
سواء نفوه، أو سعوا ليخاصموا به الله، أو مارَوْا به للشريعة

وقال: «. . . بل جاء إخبار الرب، وإخبار رسوله مطابقًا لما في فطرهم السليمة، وعقولهم المستقيمة، فتضافر على إيمانهم به الشريعة المنزلة، والفطرة المكملة، والعقل الصريح، فكانوا هم العقلاء حقًّا، وعقولهم هي المعيار، فمن خالفها فقد

---

(١) أي: الجبرية.

خالف صريح المعقول، والقواطع العقلية.

ومن أراد معرفة هذا فليقرأ كتاب شيخنا وهو: «بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح»؛ فإنه كتاب لم يطرق العالم له نظير في بابه؛ فإنه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أسسها، فخرت عليهم سقوفه من فوقهم، وشيد فيه قواعد أهل السنة والحديث، وأحكمها، ورفع أعلامها، وقررها بمجامع الطرق التي تقرر بها الحق من العقل والنقل والفطرة والاعتبار، فجاء كتابًا لا يستغني عنه من نصح نفسه من أهل العلم، فجزاه الله عن أهل العلم والإيمان أفضل الجزاء، وجزى العلم والإيمان عنه كذلك». اهـ.

وقال: «. . . ولولا أن كل مسائل القوم وشبههم التي خالفوا فيها النصوص بهذه المثابة؛ لذكرنا من أمثلة ذلك ما تقر به عيون أهل الإيمان، السائرين إلى الله على طريق الرسول وأصحابه، وإن وفق الله سبحانه جردنا لذلك كتابًا مفردًا، وقد كفانا شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المقصد في عامة كتبه، لا سيما كتابه الذي وسمه بـ: «بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح»، فمزق فيه شملهم كل ممزق، وكشف أسرارهم، وهتك أستارهم، فجزاه الله عن الإسلام وأهله من أفضل الجزاء». اهـ.

٤ - أن المؤلف ذكر الموضوع الرئيس لهذا الكتاب - وهو الهجرة إلى الله ﷻ، والهجرة إلى رسوله - في مواضع أخرى من مصنفاته:

فقال في: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٣): «. . . ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لازم على الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد، والإخلاص، والإنابة، والحب، والخوف، والرجاء، والعبودية.

وهجرة إلى رسوله بالتحكيم له، والتسليم، والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته، فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل، ومتاهات الطريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان؛ فليحثُ على رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصله، فيرجع وراءه ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور، والله المستعان» اهـ.

وقال في: «الكافية الشافية»:

واجعل لقلبك هجرتين، ولا تنم فهما على كل امرئٍ فرضانِ
فالهجرة الأولى إلى الرحمن با لإخلاص في سر وفي إعلانِ
فالقصد وجه الله بالأقوال وال أعمال والطاعات والشكرانِ
فبذاك ينجو العبد من إشراكه ويصير حقًا عابدَ الرحمنِ
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بال حق المبين وواضح البرهانِ
فيدورِ مع قول الرسول وفعله نفيًا وإثباتًا بلا روغانِ
ويحكِّم الوحي المبين على الذي قال الشيوخ، فعنده حكمانِ
لا يحكمان بباطل أبدًا، وكل العدل قد جاءت به الحكمانِ
وهما كتاب الله أعدل حاكم فيه الشفا وهداية الحيرانِ
والحاكم الثاني كلام رسولِهِ ما ثم غيرهما لذي إيمانِ

وقال أيضًا:

يا قوم فرض الهجرتين بحاله والله لم ينسخ إلى ذا الآن
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالإ خلاص في سر وفي إعلان
حتى يكون القصد وجه الله بالأ قوال والأعمال والإيمان
ويكون كل الدين للرحمن ما لسواه شيء فيه من إنسان
والحب والبغض اللذان هما لكل ولاية وعداوة أصلان
لله - أيضًا - هكذا الإعطاء والمنع اللذان عليهما يقفان
والله هذا شطر دين الله والتحكيم للمختار شطر ثان
وكلاهما الإحسان لن يتقبل الر حمن من سعي بلا إحسان
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالإسلام والإيمان والإحسان

٥ - ظهور منهج المؤلف المعروف في هذا الكتاب في طريقة العرض، والترتيب، والتقسيم، والاستدلال، والمناقشة، وجودة الأسلوب، والبيان، وكثرة الفوائد، وطول النفس.

٦ - أنَّ عامة من ترجم للمؤلف ذكروا هذا الكتاب من مؤلفاته - كما تقدم.

المبحث الثالث

تاريخ تأليف الكتاب

لم نقف على نصٍّ في تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب من المؤلف، أو غيره ممن ترجم له، أو من الباحثين.

ولكن يمكن تقريبه كما يلي:

كان تأليفه له بعد اتصاله بشيخه ابن تيمية - رحمهما الله - لنقله عنه في خمسة مواضع - كما تقدم.

ومعلوم أن اتصاله به كان سنة (٧١٢هـ) باتفاق النقلة[١].

كان تأليفه بعد تأليف شيخه ابن تيمية لـ: «درء تعارض العقل والنقل»؛ لإحالته عليه في موضعين.

وقد توصل محققه د. محمد رشاد سالم رحمه الله إلى أنه ألفه ما بين (٧١٣ - ٧١٧هـ).

كان تأليفه بعد وفاة شيخه ابن تيمية؛ لقوله: «وقد كفانا شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه، ونور ضريحه - هذا المقصد في عامة كتبه...» اهـ.

ومعلوم أن وفاته سنة (٧٢٨هـ).

أحال المؤلف في: «مدارج السالكين» على كتابه هذا في موضعين - كما تقدم - فيكون تأليفه له قبل: «مدارج السالكين».

وقد وجدت نسخة خطية للمدارج بمكتبة الأسد بدمشق، برقم: (٧١٠) و(٧١١)، فيلم (٤٨، ٤٩)، في جزئين، وقد نص ناسخها في آخرها على أنه نسخها سنة (٧٣١هـ).

وعلى ما تقدم يقال: إن تأليف هذا الكتاب كان ما بين سنة (٧٢٨هـ) وسنة (٧٣١هـ).

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٠٢)، «الدرر الكامنة» (٤/ ٢١)، «ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره» (ص ٧٨).

ومما يستأنس به في هذا التقريب قول الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في ترجمة المؤلف في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٤٤٨): «. . . وقد امتحن، وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

وكان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة؛ وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك» اهـ.

المبحث الرابع

سبب التأليف

استهل المؤلف كتابه بالإشارة إلى سبب التأليف قائلًا: «. . . ولما كانت السعادة دائرة نفيًا وإثباتًا مع ما جاء به، كان جديرًا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظاتِ عمره وقفًا على معرفته، وإرادتَهُ مقصورة على محابه، وهذا أعلى همة شمَّرَ إليها السابقون، وتنافس فيها المتنافسون، فلا جرم ضمَّنا هذا الكتاب قواعد من سلوك الهجرة المحمدية، وسميناه: «طريق الهجرتين، وباب السعادتين». . . اهـ.

❊ ❊ ❊

المبحث الخامس

أهمية الكتاب، وميزاته

تكمن أهمية الكتاب في كون مؤلفه إمامًا من أئمة أهل السنة والجماعة، بحرًا من بحور العلم، عالمًا بعلم السلوك، عارفًا بكلام أهل التصوف، مميزًا بين الحق فيه من الباطل، وفي موضوعه أيضًا، وهو الطريق الصحيح إلى الله تعالى، ودار كرامته.

وميزاته كثيرة منها ما يلي:

١ - الاستناد إلى الوحيين المنزلين: الكتاب، والسنة:

وذلك في تقرير المسائل والموضوعات، وفي الترجيح بين الأقوال، وفي الاختيارات.

ومن جميل قوله: «والميزان هو الكتاب الناطق، والفطرة السليمة، والعقل المؤيد بنور النبوة، والله المستعان» اهـ. وقوله: «وقد أشهد الله عباده الذين أوتوا العلم والإيمان: أن الأمر بعكس ما قالوه[1]، وأن كلامه وكلام رسوله ﷺ هو الشفاء والعصمة، والنور الهادي، والعلم المطابق لمعلومه، وأنه هو المشتمل على القواطع العقلية السمعية، والبراهين اليقينية». اهـ.

وقد ظهر هذا المسلك في مناقشته للهروي[2]، وابن العريف[3] في مباحث: «الفقر»، و«الغنى»، و«الإرادة»، و«الزهد»، و«التوكل»، و«الصبر»، و«الحزن»، و«المحبة»، و«الشوق».

ولما تحدث عن طبقات المكلفين أفاض في الاستدلال على فضل «الرسالة»، و«الصديقية»، و«إمامة العدل»، و«الجهاد في سبيل الله»، و«الصدقة».

٢ - السعة والشمول:

فقد كان إذا بحث موضوعًا تناوله من جميع جوانبه، ومن أمثلته:

أ - «الفقر»: لما تحدث عنه ذكر أدلته، وبيان ذاتية فقر المخلوق، ونوعيه:

---

(١) أي: أهل الكلام المذموم. (٢) ستأتي ترجمته. (٣) ستأتي ترجمته.

الاضطراري، والاختياري، وبيان أن الغنى بالله تعالى عين الفقر إليه. . . .

ب - «أقسام السائرين إلى الله»: لما ذكر الأقسام الثلاثة: السابق بالخيرات، والمقتصد، والظالم لنفسه؛ بيَّن حال كل قسم بيانًا شافيًا. . . .

ج - «الزهد»: لما تحدث عنه ذكر أنواعه من حيث الحكم الواجب، والمستحب، وبيَّن أوجه النقص فيه، وأنواعه من حيث المتعلق: الزهد في الدنيا، والزهد في النفس. . . .

د - «التوكل»: لما تحدث عنه ذكر منزلته، وأدلته، وذكره مقرونًا بالعبادة في القرآن، ونوعيه، وأوجه النقص فيه. . . .

هـ - «الصبر»: لما تحدث عنه ذكر منزلته، وأنواعه من حيث المتعلق، والمفاضلة بينها مع الخلاف والترجيح، وما يعين على الصبر على الطاعة، وما يعين على الصبر عن المعصية، وما يعين على الصبر على البلية. . . .

٣ - الاستطراد التناسبي:

استطرد المؤلف؛ جودًا وإحسانًا في مواضع بذكر بعض المتعلَّقات واللوازم التي ربما تكون أهم مما هو بصدده:

ففي مبحث: «أحوال السائرين إلى الله تعالى» ذكر الخلاف في المراد بـ: «الظالم لنفسه» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: الآية ٣٢]، فذكر القولين، وعزاهما، وسرد حججهما، وأجوبة كل فريق للفريق الآخر. . . .

وعندما ذكر شيئًا من أحوال السابق بالخيرات؛ تكلم على قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨]، فذكر الخلاف في هذا الشهود: هل هو شهود الله ﷻ وملائكته، أو شهود ملائكة الليل وملائكة النهار؟. . . .

ولما تحدث عن «الزهد»؛ سرد ثلاث مسائل:

١ - اختلاف أرباب السلوك في المفاضلة بين من له داعية وشهوة، وهو يحبسها، ولا يطيعها؛ حبًّا لله تعالى، وحياءً منه وخوفًا، ومن لا داعية له تنازعه. . . .

٢ - الخلاف فيما إذا كان للعبد حال أو مقام مع ربه ﷻ، ثم نزل عنه إلى ذنب

ارتكبه، ثم تاب منه: هل يعود إلى مثل ما كان عليه، أو لا يعود؟. . . .

٣ - الخلاف في التائب إلى الله ﷻ توبة نصوحًا: هل تمحى سيئاته، وتذهب لا له، ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟. . . .

وفي كلامه على «الطبقة السادسة» من طبقات المكلفين وهي طبقة المجاهدين في سبيل الله تعالى؛ أفاض في الكلام على قوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ الآية [النِّساء: الآية ٩٥]. . . .

وفي «الطبقة السابعة» وهي طبقة أهل الإيثار والنفقة؛ بسط الحديث على آيات النفقة من سورة البقرة، ثم قال في آخره: «. . . ولنعد إلى المقصود؛ فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدده» اهـ. . . .

٤ - حسن الترتيب والتقسيم:

كثر في هذا الكتاب ترتيب وتقسيم لمسائل علمية، ولأقوال وآراء مذهبية، ولردود ومناقشات:

فقال: «واعلم أنه يحسن إعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين:

أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب.

والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابة الداعي. . .» اهـ.

ولما ذكر المواضع الأربعة من القرآن؛ التي بين فيها تعالى أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين؛ قال: «. . . وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

- **الفرقة الأولى**: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، . . . ثم افترق هؤلاء فرقتين: فرقة كذبت بالوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي، والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلمًا. والله لا يظلم من خلقه أحدًا.

وفرقة صدقت بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وقالت: «ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاء، ويعذب العبد على ما لا صنع له، بل يعذبه على فعله هو سبحانه، لا على فعل عبده». . .

- **والفرقة الثانية**: جعلت هذه الآيات حجة لها في إبطال القضاء والقدر والمشيئة

العامة. . .

- **والفرقة الثالثة**: آمنت بالقضاء والقدر، وأقرت بالأمر والنهي، ونزَّلوا كل واحد منزلته. . .، ثم افترقوا في وجه هذه الآيات فرقتين:

فرقة قالت: «إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك. . . .».

وقالت الفرقة الثانية: «إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر، ودفع الأمر بالمشيئة. . .».

ولما تحدث عن إثبات كمال القدرة، وكمال الحكمة لله ﷻ بيَّن أن الناس في هذا أربع طوائف:

طائفة جحدت القدرة والحكمة، وطائفة أقرَّت بكمال قدرته، وأنكرت حكمته، وطائفة أقرت بحكمته، وأنكرت كمال قدرته، وطائفة أقرت بكمال قدرته، وكمال حكمته. . . .

وعند مناقشته لابن العريف ناقشه في منزلة «الإرادة» من اثني عشر وجهًا، وفي منزلة «الزهد» من أربعة أوجه، وفي منزلة «التوكل» من خمسة عشر وجهًا، وفي منزلة «الصبر» من عشرة أوجه، وفي منزلة «الخوف» من ثلاثة عشر وجهًا، وفي منزلة «المحبة» في عشر فصول. . .

ولا يخفى حسن تقسيمه وترتيبه لطبقات المكلفين في آخر الكتاب، والله الموفق للصواب.

٥ - العدل والإنصاف في الحكم والموازنة بين الأشخاص والطوائف، وبين الأقوال والمذاهب:

ففي الموازنة بين طوائف القدرية المذمومة: المجوسية، والشركية، والإبليسية؛ يقول رحمه الله: «. . . ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والشركية شر من القدرية النفاة؛ لأن النفاة إنما نفوه تنزيهًا للربِّ، وتعظيمًا له أن يقدِّر الذنب، ثم يلوم عليه ويعاقب، ونزَّهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه ألبتة، بل هو بمنزلة طوله وقصره، وسواده وبياضه، ونحو ذلك. . .

وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدوٌّ لله ولرسله، لا

يقرُّ بأمر ولا نهي. . .». اهـ.

ويقول أيضًا في الموازنة بين القدرية الشركية، والقدرية المجوسية: «. . . وأصحاب المشهد الأول أقرب إلى السلامة من هؤلاء، وخير منهم» اهـ.

ويقول في المقارنة بين طوائف الناس في القدرة والحكمة الإلهية، وهي أربع: من جحدتهما، ومن أقرت بالقدرة وجحدت الحكمة، ومن أقرت بالحكمة وجحدت كمال القدرة، ومن أقرت بهما وهم أهل السنة: «. . . فهذه الطائفة هم أهل البصر التام، والأولى لهم العمى المطلق، والثانية والثالثة كل طائفة منهما له عين عمياء، ومع هذا فسرى العمى من العين العمياء إلى العين الصحيحة فأعماها. . .» اهـ.

ولما ذكر مذهب البكري في مسألة: «إيلام الأطفال والبهائم» وهو أنها لا تألم البتة؛ بيَّن الحامل لهم على هذا المذهب، ثم قال: «. . . وقد رد عليهم الناس بأنهم كابروا الحس، وجحدو الضرورة، وأن العلم بخلاف ما ذهبوا إليه ضروري، وقال من أنصف القوم: لا سبيل إلى نسبة هؤلاء إلى جحد الضرورة مع كثرتهم، ولكنهم ربما رأوا أن الطفل والبهيمة لا تدرك الآلام حسبما يدركها العقلاء؛ فإن العاقل إذا أدرك تألم جوارحه، وأحس به؛ تألم قلبه، وطال حزنه، وكثر همُّ روحه وغمها، واشتدت فكرته في ذلك، وفي الأسباب الجالبة له، والأسباب الدافعة له. وهذه الآلام زائدة على مجرد ألم الطبيعة.

ولا ريب أن البهائم والأطفال لا تحصل لها تلك الآلام كما يحصل للعاقل المميز.

فإن أراد القوم هذا، فهم مصيبون، وإن أرادوا أنها لا شعور لها بالآلام ألبتة، وأنها لا تحس بها؛ فمكابرة ظاهرة. . .» اهـ.

وبعد أن ساق الخلاف في المفاضلة بين من له داعية وشهوة وهو يحبسها، ولا يطيعها؛ حبًّا لله تعالى، وحياءً منه وخوفًا، ومن لا داعية له تنازعه؛ قال: «. . . والحق أن كلا الطائفتين على صواب من القول، لكن كل فرقة لحظت غير ملحظ الفرقة الأخرى، فكأنهما لم يتواردا على محل واحد؛ بل الفرقة الأولى نظرت إلى نهاية سير المجاهد لنفسه وإراداته، وما ترتب له عليها من الأحوال والمقامات، فأوجب لها شهود نهايته رجحانه، فحكمت بترجيحه، واستحلت بتفضيله.

والفرقة الثانية نظرت إلى بدايته في شأنه ذلك، ونهاية النفس المطمئنة، فأوجب لها

شهود الأمرين الحكم بترجيح القلب الخالي من تلك الدواعي، ومجاهدتها.

وكل واحدة من الطائفتين فقد أَدْلت بحجج لا تُمانَع، وأتت ببينات لا تُرد، ولا تدافع» اهـ.

وبعد أن ساق بعد هذه المسألة الخلاف في التائب توبة نصوحًا: هل تمحى سيئاته، وتذهب لا له ولا عليه، أو إذا محيت أُثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ قال: «. . . فهذا منتهى إقدام الطائفتين، ومحط نظر الفريقين، وإليك أيها المنصف الحكم بينهما؛ فقد أدلى كل منهما بحجته، وأقام بينته، والحق لا يعدوهما، ولا يتجاوزهما، فأرشد الله من أعان على هدى؛ فنال به درجة الداعين إلى الله، القائمين ببيان حججه ودينه، أو عذر طالبًا منفردًا في طريق مطلبه، قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق، فغاية أمنيته أن يُخلى بين وبين سيره، وأن لا يُقطع عليه طريقه، فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه؛ فقد رضي بالدون، وحصل على صفقة المغبون ومن شمر إليه، ورام أن لا يعارضه معارض، ولا يتصدى له ممانع؛ فقد منَّى نفسه المحال، وإن صبر على لَأْوَائِهَا وشدتها فهو - والله - الفوز المبين، والحظ الجزيل، وما توفيقي إلا بالله، وإليه أُنيب».

ثم اختار أن التوبة تمحو الذنب، ولا ينقلب نفس الذنب حسنة، وإنما تُكتب له الحسنة على ما اقترن بهذه التوبة من الندم والكف والعزم على عدم المعاودة.

ثم قال: «وعلى هذا فقد زال - بحمد الله - الإشكال، واتضح الصواب، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة». اهـ.

وقال بعد أن ذكر حجج القائلين بأن أطفال المشركين في الجنة: «. . . وهذه حجج كما ترى قوة وكثرة، ولا سبيل إلى دفعها - وسيأتي إن شاء الله فصل النزاع في هذه المسألة، والقول بموجب هذه الحجج الصحيحة كلها - على أن عادتنا في مسائل الدين كلها؛ دقها وجلها أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة؛ بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك، ونموت عليه، ونلقى الله به، ولا قوة إلا بالله» اهـ.

٦ - ضرب الأمثال:

استعمل المؤلف في كتابه هذا الضرب السامي من فصيح الكلام؛ بيانًا للمعنى، أو توكيدًا.

وشواهده كثيرة، نكتفي منها بثلاثة لما ذكر أن كل مولود يولد على الفطرة السويَّةِ، ولو ترك لما اختار غيرها - كما صح بذلك الخبر عن الرسول ﷺ، وأن أَبَوي الْمولود أو كافليه هم الذين يعدلون به عنها؛ ضرب لهذا أمثلة ثلاثة:

الأول: أن الماء خلقه الله تعالى طاهرًا مطهرًا، ولو تُرِكَ على حالته التي خلق عليها، ولم يخالطه ما يزيل طهارته؛ لم يكن إلا طاهرًا.

الثاني: أن الشراب المعتصر من العنب طيب يصلح للدواء لإصلاح الغذاء، ولو خلي على حالته لم يكن إلا طاهرًا طيبًا، ولكن إذا أُفسد بتهيئته للسُّكْرِ؛ صار من أخبث الأشياء وأنجسها.

الثالث: أن الأغذية الطيبة النافعة إذا خالطت باطن الحيوان واستقرت فيه؛ خرجت عن حالتها التي خلقت عليها، واكتسبت بهذه المخالطة والمجاورة خبثًا وفسادًا لم يكن فيها...

ولما ذكر أن من حكمة وقوع الذنب: التيقظَ والحذرَ من مصائد العدو ومكائده: قال: «كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء» اهـ.

ولما بيَّن فائدة القوة العلمية قال: «فقوته العلمية كنور عظيم بيده، يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق، وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها» اهـ.

٧ - السجع:

ظهر السجع غير المتكلف في أسلوبه رحمه الله في مواضع:

منها قوله (ص٧): «الحمد لله، الذي نَصَّب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججًا، وحجب العقول والأبصار أن تجد إلى تكييفه منهجًا، وأوجب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجًا...» إلى آخر الحظبة.

وفي عقد فصلًا في «تحقيق نعت الفقير» مطلعه: «فجملة نعت الفقير حقًّا أنه المتخلي من الدنيا تطرفًا، والمتجافي عنها تعففًا، لا يستغني بها تكثرًا، ولا يستكثر منها تملكًا. . .» إلخ.

وقال: «فيا من ذاق شيئًا من معرفة ربه ومحبته، ثم أعرض عنها، واستبدل بغيرها منها، يا عجبًا له! بأي شيء تُعوض؟ وكيف قرَّ قرار؛ فما طلب الرجوع إلى آخيته وما تعرض؟ وكيف اتخذ سوى آخيته سكنًا؟ وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله وطنًا؟ أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار، ووافقه على مساكنة الأغيار؟. . .» إلخ.

❃ ❃ ❃

المبحث السادس

منهج المؤلف في الكتاب

قسم المؤلف كتابه إلى قسمين:

القسم الأول: الكلام على المقامات الإيمانية:

فيذكر المقام، ثم يبين منزلته، ثم يذكر نص كلام الهروي أو ابن العريف عليه كاملًا، ثم يناقشه كما في «الغنى» و«الفقر» و«الإرادة»، وتارة يذكر منزلته ضمن المناقشة كما في «الزهد» و«التوكل» و«الصبر» و«الخوف».

وكانت مناقشته على وجه التفصيل حيث جعله من وجوه متعددة يذكر في كل وجه جزءًا من كلام الهروي أو ابن العريف، ثم يبين ما فيه من صواب أو خطأ، ويستدل للصواب من الكتاب والسنة والآثار، وقد يزيده بيانًا وإيضاحًا، ويبين وجه الخطأ مع الاستدلال عليه.

وضمن ما تقدم تقسيم الناس إلى سعداء وأشقياء، وأن السعداء منهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، وأفاض في وصف حال كل قسم.

القسم الثاني: طبقات المكلفين في الآخرة:

ذكر ثمانية عشرة طبقة، واستدل على كل طبقة بما يدل عليها، ثم تحدث عنها بما يناسبها. وكان اعتناؤه بالتقسيم جليًّا في مواضع، كتقسيم الفقر والغنى والتوكل والزهد والصبر والمحبة والفناء وطبقات المكلفين. وكان اعتماده في كل ما تقدم على الكتاب والسنة وآثار السلف؛ مناقشة واستدلالًا وتقريرًا.

وقد ذكر مذهب السلف الصالح في أكثر من باب من أبواب العقيدة كباب الأسماء والصفات، وباب الإيمان، وباب القدر.

وكان أسلوبه رَحِمَهُ اللَّهُ سهلًا وحسنًا، ليس فيه تكلف ولا تعسف.

❁ ❁ ❁

قسم التحقيق

[بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

مقدمة المؤلف

الحمدُ للهِ الذي نَصَبَ الكائناتِ على رُبوبيَّتِه ووَحدانيَّتِه حُجَجًا، وحَجَبَ العقولَ والأبصارَ أن تَجِدَ إلى تكييفِه مَنْهَجًا، وأَوْجَبَ الفوزَ بالنَّجاةِ لِمَنْ[١] شَهِدَ له بالوَحْدَانيَّةِ شَهادةً لم يَبْغِ لها عِوَجًا، وَجَعَلَ لِمَن[٢] لاذَ به واتَّقاهُ من كُلِّ ضائقةٍ مَخْرَجًا، وأَعْقَبَ[٣] مِنْ ضِيقِ الشدائدِ وضَنْكِ الأَوابِدِ لِمَنْ تَوَكَّلَ عليه فَرَجًا، وجَعَلَ قلوبَ أوليائِه متَنَقِّلَةً[٤] في مَنازِلِ عُبوديَّتِه من الصبرِ والتوكُّلِ والإنابةِ والتفويضِ والمحبَّةِ والخوفِ والرَّجا.

فسُبحانَ مَن أفاضَ على خَلْقِه النِّعمةَ، وكَتَبَ على نفسِه الرحمةَ، وضَمَّنَ الكتابَ الذي كتَبَه أنَّ رحمتَه تَغْلِبُ غَضَبَه.

أَسْبَغَ على عِبادِه نِعَمَه الفُرادَى والتَّوْأَمَ[٥]، وسَخَّرَ لهم البَرَّ والبحرَ والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهارَ والعيونَ والأنهارَ والضياءَ والظلامَ، وأرسَلَ إليهم رُسُلَه[٦]، وأَنْزَلَ عليهم كُتُبَه يَدْعُوهم[٧] إلى جِوارِه في دارِ السلام ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

فسُبْحَان مَنْ ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: الآية ١] ورفَعَ لِمَنِ ائْتَمَّ به؛ فأَحَلَّ حَلالَه، وحَرَّمَ حرامَه، وعَمِلَ بِمُحْكَمِه، وآمَنَ بِمُتَشابِهِه في مَرَاقِي السعادةِ دَرَجًا، ووَضَعَ مَن أَعْرَضَ عنه، ولم يَرْفَعْ به رأسًا[٨]، ونَبَذَه وراءَ ظهرِه، وابْتَغَى الْهُدَى من غيرِه، وجَعَلَه في دَرَكَاتِ الجحيمِ مُتَوَلِّجًا، فإنه الذِّكْرُ الحكيمُ، والصراطُ المستقيمُ، والنبأُ[٩] العظيمُ، وحَبْلُ اللهِ المتينُ الْمَديدُ بينَه وبينَ خَلْقِه، وعَهْدُه الذي مَن

(١) في (س) من، ولعل الصواب ما أثبت.
(٢) ساقطة من (س)
(٣) في (س) وعقب.
(٤) في (س) منتقلة.
(٥) التوأم: المولود مع غيره في بطن من الاثنين فصاعدا. «القاموس المحيط»، فصل الكاف، باب الميم (١٣٩٨).
(٦) في (س) رسل، والصواب ما أثبت.
(٧) في (س) تدعوهم، والمثبت هو المقتضي للسياق.
(٨) في (س) رأسه.
(٩) بياض في (ك).

اسْتَمْسَكَ[١] به فازَ ونَجَا.

وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، ولا سَمِيَّ له، ولا كُفُوَ له، ولا صاحبةَ له، ولا وَلَدَ له[٢]، ولا شَبيهَ له، ولا يُحْصِي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أَثْنَى على نفسِه، وفوقَ ما يُثْنِي عليه خَلْقُه، شهادةَ مَن أصبحَ قلبُه بالإيمانِ باللهِ وأسمائِه[٣] وصفاتِه مُبْتَهِجًا، ولم يَزُغْ عنه إلى شُبَهِ الجاحدينَ الْمُعَطِّلِينَ مُعَرِّجًا[٤].

وأَشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه، وخِيرَتُه من خَلْقِه، وأمينُه على وَحْيِهِ، وسَفيرُه بينَه وبينَ عِبادِه، أَرْسَلَه اللهُ[٥] رَحمةً للعالمينَ، وقُدْوَةً للعامِلينَ[٦]، ومَحَجَّةً للسالكينَ، وحُجَّةً على العِبادِ أجمعينَ.

أَرْسَلَه على حينِ فَترةٍ من الرُّسُلِ، فهَدَى به إلى أَقْوَمِ [ ][٧] الطُّرُقِ، وأَوْضَحِ السُّبُلِ، وافْتَرَضَ على العِبادِ طاعتَه ومَحَبَّتَهُ وتَعْزِيرَهُ [وتوقيرَه، والقيامَ بحقوقِه][٨]، وسَدَّ إلى جَنَّتِه جميعَ الطرُقِ؛ فلم يُفْتَحْ لأَحَدٍ إلا من طريقِه[٩]، فشَرَحَ له صَدْرَه، [ورَفَعَ له ذِكْرَه، ووَضَعَ][١٠] عنه وِزْرَهُ، وجَعَلَ الذِّلَّةَ والصَّغارَ على مَن خَالَفَ أَمْرَهُ، فهَدَى به مِنَ الضلالةِ [وعَلَّمَ به مِنَ الْجَهالةِ][١١]، وكَثَّرَ[١٢] به بعدَ القِلَّةِ، وأَعزَّ به بعد الذِّلَّةِ، وأَغْنَى به بعدَ العَيْلَةِ، وبَصَّرَ[١٣] به من[١٤] الْعَمَى، [وأَرْشَدَ به من][١٥] الغَيِّ، وفَتَحَ[١٦] برسالتِه أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذانًا[١٧] صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا.

---

(١) في (س) تمسكت، والمثبت هو الصواب؛ إذ هو المقتضي للسياق. (٢) ساقطة من (س).

(٣) في (س) وبأسمائه.

(٤) مائلا. «لسان العرب»، باب العين (٩/ ١٢٠)، وانظر: «القاموس المحيط»، فصل العين، باب الجيم (٢٥٣).

(٥) لفظ الجلالة ليست في (س). (٦) في (س) للعالمين، والمثبت هو الصواب.

(٧) ما بين العلامتين بياض في (ع). (٨) ما بين المعقوفين بياض في (ع).

(٩) في (س) طريقته، ولعل المثبت هو الصواب.

(١٠) ما بين المعقوفين بياض في (ع).

(١١) ما بين المعقوفين بياض في (ع). (١٢) بياض في (ك). (١٣) بياض في (ك).

(١٤) في (ع) بعد. (١٥) ما بين المعقوفين بياض في (ع).

(١٦) في (س) زيادة: به، والمثبت هو الصواب.

(١٧) بياض في (ك).

فبَلَّغَ الرسالةَ، وأَدَّى الأَمانةَ [ونَصَحَ الأُمَّةَ(١)، وجاهَدَ](٢) في اللهِ حقَّ الجِهادِ(٣)، وعَبَدَ اللهَ حتى أَتاه اليقينُ، [فلم يَدَعْ خيرًا إلا](٤) دَلَّ أُمَّتَه(٥) عليه(٦)، ولا شَرًّا إلا حَذَّرَ منه، ونَهَى عن سلوكِ [الطريقِ الْمُوَصِّلَةِ إليه.](٧)

ففَتَحَ القلوبَ بالإيمانِ والقرآنِ، وجَاهدَ [أعداءَ اللهِ باليدِ والقلبِ](٨) واللسانِ.

فدَعا إلى اللهِ على بَصيرةٍ، وسارَ في الأُمةِ [بالعدلِ والإحسانِ](٩) وخُلُقِه العظيمِ أَحْسَنَ سِيرةٍ؛ إلى أن أَشرقَتْ برسالتِه الأرضُ بعدَ ظُلُمَاتِها، وتَأَلَّفَتْ بها(١٠) القلوبُ بعد شَتَاتِها، وسارَتْ دَعوتُه مَسيرَ(١١) الشمسِ في الأقطارِ، وبَلَغَ دينُه القَيِّمُ ما بَلَغَ الليلُ والنهارُ، واسْتَجابَت القلوبُ لدعوةِ(١٢) الحقِّ طَوْعًا وإِذْعَانًا، وامْتَلأَتْ بعدَ خَوْفِها وكُفْرِها أَمْنًا وإيمانًا، فجَزاهُ اللهُ عن أُمَّتِه أَفْضَلَ الجزاءِ، وصَلَّى عليه صلاةً تَمْلأُ أقطارَ الأرضِ والسماءِ، وسَلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: فإنَّ اللهَ سبحانَه غَرَسَ شجرةَ مَحَبَّتِه ومَعرفتِه وتَوحيدِه في قلوبِ مَن اختارَهم مِن بَرِيَّتِه، واخْتَصَّهُم بنِعمتِه، وفَضَّلَهم على سائرِ خَلِيقتِه؛ فَهِيَ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥]، وكذلك شجرةُ الإيمانِ أَصْلُها ثابتٌ(١٣)، وفُروعُها(١٤) من(١٥) الْكَلِمِ الطيِّبِ والعملِ الصالحِ في السماءِ، فلا تَزالُ هذه الشجرةُ تُخْرِجُ(١٦) ثَمَرَها كلَّ وَقْتٍ بإذنِ ربِّها من طَيِّبِ القولِ، وصالحِ العملِ مِمَّا(١٧) تَقَرُّ به عينُ(١٨) صاحبِ الأصلِ وعيونُ حَفَظَتِه، وعيونُ أهلِه وأصحابِه ومَن قَرُبَ منه؛ فإنَّ مَن قَرَّتْ عينُه باللهِ؛ قَرَّتْ به كلُّ عينٍ، وأَنِسَ

---

(١) بياض في (ع). (٢) ما بين المعقوفين بياض في (ك). (٣) في (ع) و(ك) و(س) جهاده.
(٤) ما بين المعقوفين بياض في (ك). (٥) ساقطة من (س).
(٦) بياض في (ع). (٧) ما بين المعقوفين بياض في (ك).
(٨) ما بين المعقوفين بياض في (ك). (٩) ما بين المعقوفين بياض في (ك).
(١٠) في (س) به. (١١) في (ع) و(ك) سير.
(١٢) في (ك) لدعوته، وفي (س) لدعوته إلى، والمثبت هو الصواب.
(١٣) في (ع) و(ك) و(س) في القلب. (١٤) في (س) وفرعها، والمثبت أصوب.
(١٥) ساقطة من (ك). (١٦) في(س) يخرج.
(١٧) في (ك) و(س) ما، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.
(١٨) في (ك) و(س) عيون، والمثبت أصوب.

به كلُّ مُسْتَوْحِشٍ، وطابَ به كلُّ خَبيثٍ، وفَرِحَ به كلُّ حَزينٍ، وأَمِنَ به كلُّ خائفٍ، وشَهِدَ به كلُّ غائبٍ، وذَكَّرَتْ رؤيتُه باللهِ؛ فإذا رُئِيَ، ذُكِرَ اللهُ.

قد اطْمَأَنَّ قلبُه باللهِ[١]، وسَكَنَتْ نفسُه إلى اللهِ، وخَلَصَتْ مَحبَّتُه للهِ، وقَصَرَ[٢] خوفُه مِنَ اللهِ، وجَعَلَ رجاءَه كلَّهُ للهِ؛ فإن سَمِعَ سَمِعَ باللهِ، وإن أَبْصَرَ أَبْصَرَ باللهِ، وإن بَطَشَ بَطَشَ باللهِ، وإن مَشَى مَشَى باللهِ؛ فبه يَسْمَعُ، وبه يُبْصِرُ[٣]، وبه يَبْطِشُ[٤]، وبه يَمْشِي[٥]، [فإذا أَحَبَّ أَحَبَّ للهِ، وإذا أَبْغَضَ أَبغضَ للهِ][٦]، وإذا أَعْطَى فلِلَّهِ، وإذا مَنَعَ فلِلَّهِ، قد اتَّخَذَ اللهَ وحدَه معبودَه، ومَرْجُوَّهُ، ومَخُوفَه، وغايةَ قَصْدِه، ومُنْتَهى طَلَبِه، واتَّخَذَ رسولَه وَحْدَهُ دَلِيلَهُ، وإمامَه، وقائدَه[٧]، وسائقَه[٨].

فوَحَّدَ اللهَ بعبادتِه ومَحَبَّتِه وخَوْفِه ورجائِه.

وأَفْرَدَ رسولَه بِمُتابعَتِه، والاقتداءِ به [والتخَلُّقِ بأخلاقِه، والتأَدُّبِ بآدابِه][٩].

فله في كلِّ وقتٍ هِجرتانِ:

تفسيرُ عُنوانِ الكتابِ

هجرةٌ إلى اللهِ؛ بالطَّلَبِ، والمحبَّةِ، والعُبوديَّةِ، والتوَكُّلِ، والإنابةِ، والتسليمِ، والتفويضِ والخوفِ والرجاءِ والإقبالِ عليه، وصِدْقِ اللَّجْئِ والافتقارِ في كلِّ نَفَسٍ إليه.

وهجرةٌ إلى رسولِه؛ في حَرَكَاتِه، وسَكَنَاتِه الظاهرةِ والباطنةِ؛ بحيث تكونُ موافِقَةً لشَرْعِه الذي هو تَفصيلُ مَحابِّ اللهِ ومَرضاتِه، ولا يَقبلُ اللهُ من أَحَدٍ دِينًا سواه، وكلُّ[١٠] عملٍ سواهُ، فعَيْشُ النفْسِ وحَظُّها[١١]، لا زادُ الْمَعادِ[١٢].

---

(١) في (ك) و(س) إلى الله، والصواب المثبت.

(٢) في (س) حضر، والصواب المثبت، والمعنى: نمى خوفه من الله، انظر: «القاموس المحيط»، فصل القاف، باب الراء (٥٩٥).

(٣) ساقطة من (ك).

(٤) في (ك) بطش - بالماضي - والصواب المثبت.

(٥) في (ك) مشى، والصواب المثبت.

(٦) في (ك) و(س) فإذا أحب فلله، وإذا أبغض فلله.

(٧) في (س) قائده - بحذف الواو العاطفة - والصواب المثبت.

(٨) في (ع) وشافعه، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.

(٩) في (س) وتخلق بأخلاقه، وتأدب بآدابه.

(١٠) في (ك) كل، والصواب المثبت.

(١١) في (ك) وحظه.

(١٢) في (س) المعان، والصواب المثبت.

وقد قالَ شيخُ الطريقةِ، وإمامُ الطائفةِ الْجُنَيْدُ بنُ مُحَمَّدٍ(١) - قَدَّسَ اللهُ رُوحَه -: «الطُّرُقُ كلُّها مَسدودةٌ إلا طريقَ مَن اقْتَفَى آثارَ النبيِّ ﷺ(٢)؛ فإنَّ اللهَ ﷻ يقولُ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ أَتَوْنِي مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَاسْتَفْتَحُوا(٣)(٤) مِنْ كُلِّ بَابٍ لَمَا فَتَحْتُ لهم حَتَّى يَدْخُلُوا خَلْفَكَ»(٥).

وقالَ بعضُ العارفينَ(٦): «كلُّ عملٍ بلا مُتابَعَةٍ فهو عيشُ النفسِ»(٧).

ولَمَّا كانت السعادةُ دائرةً - نَفْيًا وإثباتًا - مع ما جاءَ به؛ كان جَدِيرًا بِمَنْ نَصَحَ نفسَه أن يَجعلَ لحظاتِ عُمْرِه وَقْفًا على مَعرفتِه، وإراداتُه(٨) مقصورةً على مَحَابِّه، وهذه أعلى هِمَّةٍ شَمَّرَ إليها السابقون، وتَنافَسَ فيها المتنافسونَ، فلا جَرَمَ ضَمَّنَّا هذا الكتابَ قواعدَ من سلوكِ طريقِ(٩) الهجرةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وسَمَّيْنَاهُ: «طريقَ الْهِجْرَتَيْنِ وبابَ السعادتينِ»(١٠).

---

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، توفي سنة (٢٩٧هـ)، تأله وتعبد، وبالغ في الجوع، له كتب منها: «دواء الأرواح»، انظر: «صفة الصفوة» (٢/ ٢٧٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٦٦ - (٧٠ت٣٤)، «البداية والنهاية» (١١/ ١١٣).

(٢) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٧١). بنحوه.

(٣) في (س) واستفتحوني.

(٤) في (ك) زيادة لي.

(٥) هذا القول ذكره المؤلف في كتابه «جلاء الأفهام» (ص٣١١) ونسبه إلى الجنيد، ولا يصح عن الجنيد مثل هذا القول من جهة النسبة، لا من جهة المعنى؛ فنسبته إلى الله - جل وعلا - لا تجوز إلا من طريق الوحي المبلغ من الرسول ﷺ، فلما لم ينقل عنه ﷺ فلا يقبل، ومع جهد المقل، لم أعثر بعد البحث على هذا القول في مصدر آخر.

(٦) هذه المقولة لسهل التستري، وهوسهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية، زاهد عابد، أسند الحديث، قال الذهبي في «السير»: له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة، وقدم راسخ في الطريق، صحب خاله محمد بن سوار، ولقي في الحج ذا النون المصري وصحبه، توفي سنة (٢٨٣هـ)، انظر: «طبقات الصوفية» (٢٠٦ - ٢١١) و«الرسالة القشيرية» (٤٠٠ - ٤٠١)، و«صفة الصفوة» (٤/ ٥٨ - ٥٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٣٠ت١٥١).

(٧) وقد وردت في «الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري (ص٤١٠).

(٨) في(ك) و(س) إرادته. (٩) ساقطة من (ك).

(١٠) وقد ذكره المؤلف ﵀ في ««مدارج السالكين»» (١/ ٩١) باسم «سفر الهجرتين، وطريق السعادتين»، (١/ ٤٠٠) «سفر الهجرتين في طريق السعادتين»، (١/ ٤٨١) «سفر الهجرتين».

وابْتَدَأْنَاه ببابِ الفقرِ والعبوديَّةِ؛ إذ هو بابُ السعادةِ الأعظمُ، وطريقُها الأَقْوَمُ، الذي لا سَبيلَ إلى دُخولِها إلا منه، وخَتَمْنَاهُ بذِكْرِ طَبَقاتِ الْمُكَلَّفِينَ من الجِنِّ والإنسِ في[١] الآخِرَةِ، ومَراتِبِهم في دارِ السعادةِ والشَّقَا، فجاءَ الكتابُ غَرِيبًا في معناه، عَجيبًا في مَغْزَاه، لكلِّ قومٍ منه نَصيبٌ، ولكلِّ واردٍ منه شِرْبٌ.

وما كان فيه من حقٍّ وصوابٍ فمِن اللهِ هو الْمَانُّ به، فإنما التوفيقُ بيدِه، وما كان فيه من خطأٍ وزَلَلٍ فمِنِّي ومن الشيطانِ، واللهُ ورسولُه منه بَرِيءٌ[٢].

فيا أيُّها القارئُ له والناظرُ فيه، هذه بِضاعةُ صاحبِه[٣] الْمُزْجَاةُ مَسُوقَةٌ إليك، وهذا فَهْمُه وعَقْلُه مَعروضٌ عليك، لك غُنْمُه، وعلى مؤَلِّفِه غُرْمُه، ولك[٤] ثَمَرَتُه، وعليه عائِدَتُه، فإن عَدِم منك حَمْدًا وشُكْرًا؛ فلا يَعْدَمْ منك مَغفرةً[٥] وَعُذْرًا.

وإن أَبَيْتَ إلا الْمَلامَ فبابُه مَفتوحٌ، وقد:

استَأْثَرَ اللهُ بالثناءِ وبالحمـ ـدِ[٦] ووَلَّى الْمَلامةَ الرَّجُلا[٧]

واللهُ المسؤولُ أن يَجعلَه لوَجْهِه خالصًا، وأن[٨] يَنْفَعَ به مؤَلِّفَه، وقارِئَه، وكاتِبَه في الدنيا والآخِرَةِ؛ إنه سميعُ الدعاءِ، وأهلُ الرجاءِ، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكيلُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ك) زيادة: (الدنيا). (٢) في (س) بريء منه.

(٣) في (ك) وصاحبها، والمثبت هو الصواب.

(٤) في (ك) فلك، والصواب المثبت، وهو المقتضي للسياق.

(٥) ساقطة من(ك) و(س). (٦) في (ك) و(س) والحمد.

(٧) البيت في «ديوان الأعشى الكبير» (١٥٤) ونصه: استأثر الله بالوفاء وبالعدل

(٨) ساقطة من (س).

فَصْلٌ

غِنى الربِّ وفَقْرُ الخلْقِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فَاطِر: الآية ١٥]

بَيَّنَ سبحانَه في هذه الآيةِ أنَّ فَقْرَ العِبادِ إليه أَمْرٌ ذَاتِيٌّ لهم لا يَنْفَكُّ عنهم؛ كما أنَّ كَونَه غَنِيًّا حَمِيدًا أَمْرٌ ذاتِيٌّ له؛ فغِناهُ وحَمْدُه ثابتٌ له لِذَاتِه، لا لأَمْرٍ أَوْجَبَه، وفقرُ مَنْ سواهُ إليه[١] أمْرٌ ثابتٌ له لذَاتِه، لا لأَمْرٍ أَوْجَبَه؛ فلا يُعَلَّلُ هذا الفَقْرُ بحدوثٍ ولا إمكانٍ، بل هو ذاتِيٌّ للفقيرِ، فحاجةُ العبدِ إلى ربِّه لِذَاتِه، لا لِعِلَّةٍ أَوْجَبَتْ تلك الحاجةَ.

كما أنَّ غِنَى الربِّ ﷻ لِذَاتِه، لا لأَمْرٍ أَوْجَبَ غِناهُ، كما قالَ شيخُ الإسلامُ ابنُ تيمية:

والفقرُ لي وَصفُ ذاتٍ لازِمٌ أَبدًا   كما[٢] الغِنَى أَبَدًا[٣] وصْفٌ له ذَاتي[٤]

فالخَلْقُ فقيرٌ مُحتاجٌ إلى رَبِّه بالذاتِ لا بِعِلَّةٍ، وكلُّ ما يُذْكَرُ ويُقَرَّرُ[٥] من أسبابِ الفقرِ والحاجةِ فهي أَدِلَّةٌ على الفقرِ والحاجةِ، لا عِلَلٌ لذلك؛ إذ ما بالذاتِ لا يُعَلَّلُ؛ فالفقيرُ بذاتِه مُحتاجٌ إلى الغَنِيِّ بذاتِه، فما يُذْكَرُ من إمكانٍ وحدوثٍ واحتياجٍ فهي أَدِلَّةٌ على الفقْرِ، لا أسبابٌ له، ولهذا كان الصوابُ في مسألةِ عِلَّةِ احتياجِ العالَمِ إلى الربِّ تعالى غيرَ القولين اللَّذَيْنِ يَذْكُرُهما الفلاسفةُ[٦] والْمُتَكَلِّمونَ[٧]؛ فإنَّ الفلاسفةَ قالوا:

مَسألةُ عِلَّةِ احتياجِ العالَمِ إلى الربِّ تعالى

(١) ساقطة من (ك).

(٢) في (ك) زيادة: (أن)، والصواب المثبت كما في المصدر الآتي. (٣) ساقطة من (ك).

(٤) البيت ذكره المؤلف في «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٠)، (٥٢٥) وقال: «وبعث إلي في آخر عمره - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية - قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه» وأول هذه الأبيات:

أنا الفقير إلى رب البريات   أنا المسكين في مجموع حالاتي

(٥) في (ك) يقدر، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.

(٦) كلمة فلسفة تتكون من مقطعين هما: (فيلو)، (سوفيا) وفيلو في اليونانية معناها: محب، وسوفيا معناها: الحكمة، فمعنى الفلسفة: حب الحكمة، والفيلسوف محب الحكمة، وهم قوم من اليونان، يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر الباري تعالى، وفي الإبداع، وتكوين العلم، والطبيعيات، والرياضيات.

انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٣٦٣) وما بعدها، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» لفخر الدين الرازي (ص١٤٥) وما بعدها.

(٧) نسبة إلى علم الكلام، وهم الذين يقدمون الدلائل العقلية على النقلية. وانظر المراد بعلم =

عِلَّةُ الحاجةِ الإمكانُ[١]. والْمُتَكلِّمونَ قالوا: عِلَّةُ الحاجةِ الحدوثُ[٢].

والصوابُ: أنَّ الإمكانَ والحدوثَ مُتلازِمانِ، وكِلاَهما دَليلُ الحاجةِ والافتقارِ، وفَقْرُ العالَمِ إلى اللهِ ﷻ أَمْرٌ ذاتِيٌّ له[٣] لا يُعَلَّلُ؛ فهو فقيرٌ بذاتِه إلى رَبِّه الغنِيِّ بذاتِه، ثم يُسْتَدَلُّ بإمكانِه وحدوثِه وغيرِ ذلك من الأَدِلَّةِ على هذا الفقرِ.

والمقصودُ: أنه سبحانَه أَخْبَرَ عن حقيقةِ العِبادِ وذَوَاتِهم بأنها فَقيرةٌ إليه ﷻ، كما أَخْبَرَ عن ذاتِه الْمُقَدَّسَةِ وحقيقتِه أنه غَنِيٌّ حَميدٌ، فالفقرُ المطْلَقُ من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذَواتِهم وحَقائقِهم من حيث هي، والغِنَى الْمُطْلَقُ من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذاتِه تعالى وحقيقتِه من حيث هي، فيَستحيلُ أن يكونَ العبدُ إلا فَقيرًا، ويَستحيلُ أن يكونَ الربُّ تعالى إلا غَنِيًّا، كما أنه يَستحيلُ أن يكونَ العَبْدُ إلا عَبْدًا، والربُّ إلا رَبًّا.

إذا عُرِفَ هذا فالفَقْرُ فَقْرَان:

نوعا الفقر وسُبُلُ تحصيله

فَقْرُ اضْطِرَارٍ: وهو فَقْرٌ عامٌّ، لا خُروجَ لِبَرٍّ ولا فَاجِرٍ عنه، وهذا الفَقْرُ لا يَقْتَضِي مَدْحًا، ولا ذَمًّا، ولا ثَوابًا، ولا عِقابًا؛ بل هو بِمَنْزِلَةِ كونِ المخلوقِ مخلوقًا ومَصْنُوعًا.

والفقرُ الثاني: فقرٌ اختياريٌّ هو نتيجةُ عِلْمَين شَرِيفَينِ:

أحدُهما: مَعْرفةُ العبدِ برَبِّه.

والثاني: مَعرفتُه بنفسِه، فمتى حَصَلَتْ له هاتان المعرفتانِ أَنْتَجَا[٤] له فَقْرًا هو عينُ غِناهُ، وعُنوانُ فَلاَحِه وسعادتِه.

وتَفَاوُتُ الناسِ في هذا[٥] الفَقْرِ بحَسَبِ تَفاوُتِهم في هاتين الْمَعْرِفتينِ، فمَن عَرَفَ ربَّه

= الكلام والمتكلمين: «مقدمة ابن خلدون» (ص٤٥٨)، و«المواقف في علم الكلام» لعبد الرحمن الإيجي (ص٧)، «موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة» لسليمان الغصن (١/ ١٩).

(١) الممكن: هو الذي لايلزم من فرض وجوده ولا من فرض عدمه محال. «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» لفخر الدين الرازي(ص٧١).

(٢) الحدوث: كون الشيء حادثا ومحدثا، والمحدث: ما لوجوده أول. أي: المسبوق بالعدم. «محصل الرازي» (ص١٤٧)، و«الفتاوى» لابن تيمية (٢/ ٩)، وانظر: ««التعريفات» للجرجاني، باب الحاء (ص٨٦)، «المواقف» للإيجي (ص٣٤٠).

(٣) ساقطة من (ك) وفي (س) لهم. (٤) في (ك) أنتجتا، وهو الصواب.

(٥) ساقطة من (س).

بالغِنَى الْمُطْلَقِ؛ عَرَفَ نفسَه بالفَقْرِ الْمُطْلَقِ، ومَن عَرَفَ ربَّه بالقُدرةِ التامَّةِ؛ عَرَفَ نفسَه بالعَجْزِ التامِّ، ومَن عَرَفَ ربَّه بالعِزِّ التامِّ؛ عَرَفَ نفسَه// [١] بالْمَسكنةِ التامَّةِ، ومَن عَرَفَ ربَّه بالعِلْمِ التامِّ والحِكمةِ؛ عَرَفَ نفسَه بالْجَهْلِ.

فاللهُ تعالى أَخْرَجَ العبدَ من بَطْنِ أُمِّه لا يَعْلَمُ شيئًا، ولا يَقْدِرُ على شيءٍ، ولا يَمْلِكُ شيئًا، ولا يَقْدِرُ على عَطاءٍ ولا مَنْعٍ، ولا ضَرٍّ ولا نَفْعٍ، ولا شيءٍ ألبَتَّةَ، فكانَ فَقْرُه في تلك الحالِ إلى ما به كمالُه أمْرًا مَشهودًا محسوسًا لكلِّ أحدٍ، ومعلومٌ أنَّ هذا له من لَوازِمِ ذاتِه، وما بالذاتِ دائمٌ بدَوَامِها، وهو لم يَنْتَقِلْ من هذه الرُّتبةِ إلى رُتْبَةِ الرُّبوبيَّةِ والْغِنَى، بل لم يَزَلْ عبدًا فقيرًا بذاتِه إلى بارئِه وفاطِرِه.

حالُ الإنسانِ في الغِنَى

فلَمَّا أَسْبَغَ عليه نِعمتَه، وأَفاضَ عليه رَحمتَه، وساقَ إليه أسبابَ كمالِ وُجودِه ظاهرًا وباطنًا، وخَلَعَ عليه مَلابِسَ إنعامِه، وجَعَلَ له السمعَ والبصرَ والفؤادَ، وعَلَّمَه وأَقْدَرَه وحَرَّكَه وصَرَّفَه [٢]، ومَكَّنَه من استخدامِ بني جِنْسِه، وسَخَّر له الخيلَ والإبلَ، وَسَلَّطَه على دَوابِّ الماءِ، واسْتِنْزَالِ الطيْرِ من الهواءِ، وقَهْرِ الوُحوشِ العادِيَةِ، وحَفْرِ الأنهارِ، وغَرْسِ الأشجارِ، وشَقِّ الأرضِ، وتَعْلِيَةِ البناءِ، والتَّحَيُّلِ على جميعِ [٣] مَصَالِحِه، والتحَرُّزِ والتحَفُّظِ مما يُؤْذِيهِ، ظَنَّ الْمِسكينُ أنَّ له نَصيبًا من الْمُلْكِ، وادَّعَى لنفسِه مُلْكَةً مع اللهِ، ورَأَى نفسَه بغيرِ تلك العَيْنِ الأُولَى، ونَسِيَ ما كان فيه من حالةِ الإعدامِ والفَقْرِ والحاجةِ؛ حتى كأنه لم يكنْ هو ذلك الفقيرَ الْمُحتاجَ [٤] الْمُضْطَرَّ [٥]؛ بل كأن ذلك شَخْصٌ آخَرُ غيرُه.

كما رَوَى الإمامُ [٦] أحمدُ في «مُسْنَدِه» [٧] من حديثِ بُسْرِ [٨] بنِ جُحَاشٍ القُرَشِيِّ [٩] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يومًا في كَفِّه، فوَضَعَ عليها إِصْبَعَه، ثم قالَ: «**قالَ اللهُ** ﷻ:

---

(١) ما بين العلامتين بياض في(ع).

(٢) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (حركه وصرفه).

(٣) ساقطة من (س). (٤) في (ك) والمحتاج. (٥) ساقطة من (ك).

(٦) ساقطة من (س). (٧) (٤/ ٢١٠).

(٨) في (ع) و(ك) و(س) بشر، والصواب المثبت، وانظر الحاشية التالية.

(٩) بسر بن جحاش القرشي: قال ابن منده: «عداده في الشاميين، وخطأ ابن زبر والدارقطني من قال فيه: بشر، لم يرو عنه غير جبير بن نفير، وحديثه عند أحمد وابن ماجه بسند صحيح»، مات بحمص. انظر: «تهذيب التهذيب» (١/ ٤٣٧ت٨٠٣)، و«الإصابة»، ومعه «الاستيعاب» (١/ ١٥٢ – ١٥٣ت٦٤٤).

بُنَيَّ[١] آدَمَ، أَنَّى تُعْجِزُنِي، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا[٢] سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ؛ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ[٣]، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَت التَّرَاقِيَ؛ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟!»[٤].

ومن هاهنا خُذِلَ مَن خُذِلَ، ووُفِّقَ مَن وُفِّقَ، فحُجِبَ المخذولُ عن حقيقتِه، وأُنْسِيَ[٥] نفسَه، فنَسِيَ فَقرَه وحاجتَه وضَرورتَه إلى ربِّه؛ فطَغَى وبَغى وعَتَا، فحَقَّتْ عليه الشَّقْوَةُ[٦]، قالَ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ - ٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

فأَكْمَلُ الخلْقِ أكْمَلُهُم عُبوديَّةً، وأَعظمُهم شُهودًا لفَقْرِه وحاجتِه وضَرورتِه[٧] إلى رَبِّه، وعَدَمِ استغنائِه عنه طَرْفَةَ عينٍ، ولهذا كان من دعائِه ﷺ: **«أَصْلِحْ لي شأْنِي كُلَّه، ولا تكِلْنِي إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ، ولا إلى أحَدٍ من خَلْقِك»**[٨].

---

(١) في (س) ابن، وكذلك «في المسند». (٢) ساقطة من (س).

(٣) الوئيد: صوت شدة الوطء على الأرض. «النهاية في غريب الأثر» لأبي السعادات الجزري (٥/ ١٤٢).

(٤) رواه ابن ماجه، ح(٢٧٠٧) (٢/ ٩٠٣)، قال ابن حجر: بسر بن جحاش (٠٠٠٠٠)، قال مسلم وابن السكن وغيرهما: لم يرو عنه غير جبير بن نفير، وحديثه عند أحمد وابن ماجه من طريقه بإسناد صحيح. «الإصابة» (١/ ١٥٢)، (١٥٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ١١)، ح٢١٨٨).

(٥) في (ك) و(س) ونسي، والصواب المثبت.

(٦) شقاء: الشقاء والشقاوة ضد السعادة، يمد ويقصر، شقي يشقى شقا وشقاوة وشقوة وشقوة. «لسان العرب» باب الشين (٧/ ١٦٨).

(٧) في (ك) تقديم وتأخير في (وحاجته وضرورته).

(٨) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤٢) بنحوه بأطول منه في آخره؛ والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٤)، (٢٤٥ح٧٠١)، (٧٠٢)، وأبو داود في «سننه» (٤/ ٣٢٤ح٥٠٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٤٧ح١٠١٠٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/ ٤٣ح٣٥٦٥)، وكذلك في «الصغير» (١/ ٢٧٠ح٤٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٣٠ح٢٠٠٠) بنحوه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وابن حبان في «صحيحه» [الإحسان - كتاب الرقائق - ذكر وصف دعوات المكروب] (٣/ ٢٥٠ح٩٧٠) بنحوه. قال الضياء في «الآحاديث المختارة» (٦/ ٣٠٠)، (٣٠١) ح٢٣١٩)، (٢٣٢٠): إسناده حسن؛ وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» انظر: (١٠/ ١١٧)، (١٣٧)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٥٩ح٤٢٤٦).

وكان يَدْعُو: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١). يَعْلَمُ(٢) ﷺ أنَّ قلبه بيدِ الرحمنِ ﷻ، لا يَمْلِكُ هو منه شيئًا، وأنَّ اللهَ ﷻ يُصَرِّفُه كما(٣) يشاءُ.

كيف وهو يَتْلُو قولَه ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾؟ [الإسراء: الآية ٧٤]، فضرورتُه ﷺ إلى رَبِّه، وفاقتُه إليه بحَسَبِ معرفتِه به، وبِحَسَبِ(٤) قُرْبِه منه ومَنْزِلَتِه عندَه.

وهذا أمْرٌ إنما لِمَنْ بعدَه منه(٥) ما تَرَشَّحَ(٦) من ظاهرِ الوِعاءِ، ولهذا كان أقْرَبَ الخلْقِ إلى اللهِ وَسيلةً، وأعْظَمَهم عندَه جَاهًا، وأرْفَعَهم عندَه مَنْزِلَةً؛ لتكميلِه مَقامَ العُبودِيَّةِ والفقْرِ إلى رَبِّه ﷻ، وكان يقولُ لهم: «**أَيُّها النَّاسُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**»(٧).

شرَفُ العُبوديَّةِ

وَكَانَ يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّما أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٨).

وذَكَرَه اللهُ ﷻ بِسِمَةِ العُبودِيَّةِ في أَشْرَفِ مَقَامَاتِه؛ مَقامِ الإسراءِ، ومَقامِ الدعوةِ، ومَقامِ التَّحدِّي؛ فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٢)، (٢٥٧)، (٦/ ٩١)، (٢٥١)، (٢٩٤)، (٣١٥)، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (١٠١ح٢٢٥)، والترمذي في السنن (٤/ ٤٤٨ح٢١٤٠) وقال: وهذا حديث حسن صحيح؛ والآجري في «الشريعة» (٢/ ٧٣٠ح٣٢١) وصححه الألباني في «رياض الجنة» (١/ ١٠١).

(٢) في (ك) فعلم.

(٣) في (س) كيف.

(٤) ساقطة من (ك) وفي (س) وحسب.

(٥) ساقطة من (ك).

(٦) في (ع) و(ك) و(س) يرشح، والمراد: ما تكثف على ظاهر الإناء من ند الماء. انظر: العين للفراهيدي (٣/ ٩٣).

(٧) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٥٣)، (٢٤١)، (٢٤٩) وعبد بن حميد في «مسنده» (ص٣٩٧) ح١٣٣٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٧٠)، (٧١)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٩٤ - (٩٥ح٢٤٩)، (٢٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٧ح٤٨٢٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان في «صحيحه» [الإحسان - كتاب التاريخ - ذكر الخبر الدال على صحة ما تأولنا خبر أبي سعيد الخدري بأن هذا الفعل إنما زجر عنه إذا كان ذلك على التفاخر لا على التداين] (١٤/ ١٣٣ح٦٢٤٠)، جميعهم بنحوه بأطول منه، ويشهد له الحديث الذي بعده فهو بمعناه.

(٨) رواه البخاري (٦/ ٥٥١ح٣٤٤٥فتح).

قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: الآية ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣].

وفي حديثِ الشفاعةِ: إنَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1]: «**اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**»[2]، فَنَالَ ذَلِكَ الْمَقَامَ بِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ، وَبِكَمَالِ مَغْفِرَةِ اللهِ له.

وتَأَمَّلْ قولَه في الآيةِ: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطِر: الآية ١٥] فعَلَّقَ الفقرَ إليه باسْمِه[3] «اللهُ» دونَ اسمِ الرُّبوبِيَّةِ؛ لِيُؤْذِنَ بنَوْعَيِ الفقْرِ، فإنه كما تَقَدَّمَ نوعان:

فقْرٌ إلى رُبوبِيَّتِه: وهو فَقْرُ المخلوقاتِ بأَسْرِها.

وفَقْرٌ إلى إِلَهِيَّتِه: وهو فقرُ أنبيائِه ورُسُلِه وعِبادِه[4]، وهذا هو الفقرُ النافعُ.

والذي يُشيرُ إليه القومُ، ويَتَكَلَّمون عليه، ويُشَمِّرُون إليه هو الفقرُ الخاصُّ لا العامُّ، وقد اخْتَلَفَتْ عِباراتُهم عنه، ووَصْفُهُم له، وكلٌّ أَخْبَرَ عنه بقَدْرِ ذَوْقِه وقُدْرَتِه على التعبيرِ.

تعريفُ الفقرِ ودَرجاتِه عند الْهَرَوِيِّ

قالَ شيخُ الإسلامِ الأنصاريُّ[5]: «الفقرُ اسمٌ للبراءةِ من رؤيةِ الْمَلَكَةِ، وهو على ثلاثِ دَرجاتٍ:

الدرجةُ الأُولَى: فقرُ الزُّهَّادِ؛ وهو نَفْضُ اليدينِ[6] من الدنيا ضَبْطًا أو طَلَبًا، وإسكاتُ اللسانِ عنها ذَمًّا أو مَدْحًا، والسلامةُ منها طَلَبًا أو تَرْكًا، وهذا هو الفَقْرُ الذي تكَلَّموا في شَرَفِه.

الدرجةُ الثانيةُ: الرجوعُ إلى السبْقِ بِمُطالَعَةِ الفَضْلِ؛ وهو يُورِثُ[7] الخلاصَ من

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٨/ ١٠ح٤٤٧٦فتح)، (١١/ ٤٢٥ح٦٥٦٥)، (١٣/ ٤٠٣ح٧٤١٠)، ومسلم (٣/ ٤١٩ح١٩٣نووي).

(٣) في (س) باسم.

(٤) في (ك) و(س) زيادة: (الصالحين).

(٥) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي، تقدمت ترجمته.

(٦) في (ع) اليد، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«منازل السائرين» (ص٧٢).

(٧) في (ك) يحدث، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«منازل السائرين» (ص٧٢).

رؤيةِ الأعمالِ، ويَقْطَعُ شهودَ[١] الأحوالِ، ويُمَحِّصُ من أدناسِ مُطالَعاتِ الْمَقاماتِ.

والدرجةُ الثالثةُ: صِحَّةُ الاضطرارِ، والوقوعِ في يدِ التقطُّعِ الوَحدانيِّ[٢] والاحتباسِ في قَيْدِ التجريدِ، وهذا فقرُ الصوفيَّةِ»[٣].

شرحُ ابنِ القيمِ لكلام الْهَرَوِيِّ

فقولُه: «الفقرُ اسمٌ للبَراءةِ من رؤيةِ الْمَلَكَةِ» يعني[٤]: أنَّ الفقيرَ هو الذي يُجَرِّدُ رؤيةَ الْمُلْكِ لِمَالِكِه الحَقِّ، فيَرَى نفسَه مَملوكةً للهِ، لا يَرَى نفسَه مالكًا بوَجْهٍ من الوُجوهِ، ويَرَى أعمالَه مُسْتَحَقَّةً عليه بِمُقْتَضَى كونِه مَمْلوكًا؛ عَبْدًا، مُسْتَعْمَلًا فيما أَمَرَه به سَيِّدُه، فنفسُه مَملوكةٌ، وأعمالُه مُسْتَحَقَّةٌ بِمُوجَبِ العُبوديَّةِ، فليس مالِكًا لنفسِه، ولا لشيءٍ من ذَرَّاتِه، ولا لشيءٍ من أعمالِه، بل كلُّ ذلك مَملوكٌ عليه[٥]، مُسْتَحَقٌّ عليه، كرَجُلٍ اشترَى عَبْدًا بخَالِصِ مالِه، ثم عَلَّمَه بعضَ الصنائعِ، فلَمَّا تَعَلَّمَها قالَ له: اعْمَلْ وأَدِّ إليَّ، فليس لك في نفسِك ولا في كَسْبِك شيءٌ، فلو حَصَلَ بيدِ هذا العبدِ من الأموالِ والأسبابِ ما حَصَلَ؛ لم يَرَ له فيها شيئًا، بل يَراها[٦] كالْوَدِيعَةِ في يَدِه، وأنها أموالُ أُستاذِه وخَزَائِنُه ونِعَمُه بيدِ عَبْدِه، مُسْتَوْدَعَها[٧]، مُتَصَرِّفًا فيها لسَيِّدِه، لا لنفسِه؛ كما قالَ عبدُ اللهِ ورسولُه وخِيرَتُه من خَلْقِه: «**وَاللهِ إِنِّي لاَ أُعْطِي أَحَدًا، وَلاَ أَمْنَعُ أَحَدًا؛ وَإِنَّما أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**»[٨] فهو متَصَرِّفٌ في تلك الخزائنِ بالأَمْرِ الْمَحْضِ تَصَرُّفَ العَبْدِ الْمَحْضِ الذي وَظيفتُه تَنفيذُ أوامرِ سَيِّدِه، فاللهُ ﷻ هو المالِكُ الحقُّ، وكلُّ ما بيدِ خَلْقِه هو من أموالِه وأملاكِه وخزائنِه، أفاضَها عليهم؛ لِيَمْتَحِنَهُم في البَذْلِ والإمساكِ، وهل يكونُ ذلك منهم على شاهدِ العُبوديَّةِ للهِ ﷻ، فيَبْذُلُ أحدُهم الشيءَ؛ رغبةً في ثوابِ اللهِ ﷻ، ورَهبةً من عِقابِه، وتَقَرُّبًا إليه وطَلَبًا لِمَرضاتِه؟ أم يكونُ البَذْلُ والإمساكُ منهم صادرًا عن مُرادِ النفسِ، وغَلَبَةِ الهَوَى، ومُوجَبِ الطَّبْعِ؛ فيُعْطِي لِهَواه،

البرهانُ على العبوديةِ للهِ

---

(١) في (س) شهوة، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«منازل السائرين» (ص٧٢).

(٢) في (ع) الوجداني، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«منازل السائرين» (ص٧٢). والمراد بالتقطع الوحداني هو: حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار، فهي وحدانية في نفسها. انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٨)، «موسوعة مصطلحات التصوف» لرفيق العجم (ص٩٤٩).

(٣) «منازل السائرين» للهروي (ص٧١؛ (٧٢) وانظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٣ - (٤٤٩).

(٤) في (ك) نعني، وهو تصحيف. (٥) ساقطة من (س).

(٦) في (ك) و(س) يراه، والصواب المثبت. (٧) في (ك) و(س) مستودعًا.

(٨) رواه البخاري (٦/ ٢٥١) ح٣١١٨فتح) بنحوه.

ويَمْنعُ لِهَواه، فيكونُ مُتَصرِّفًا تَصَرُّفَ المالِكِ لا المملوكِ، فَيَكونُ مَصْدَرُ تَصَرُّفِه الْهَوَى، ومُرادُ النفْسِ وغايتُه الرغبةَ فيما عندَ الخلْقِ من جاهٍ أو رِفعةٍ، أو مَنزِلةٍ، أو مَدْحٍ، أو حَظٍّ من الحظوظِ، أو الرَّهبةَ من فَوْتِ شيءٍ من هذه الأشياءِ؟ وإذا كان مَصدَرُ تَصَرُّفِه وغايتُهُ هو هذه الرغبةَ والرهبةَ؛ رأى نفسَه لا مَحالةَ مالِكًا، فادَّعى الْمَلَكَةَ[1]، وخَرَجَ عن حدِّ الْعُبُودِيَّةِ، ونَسِيَ فَقْرَه، ولو عَرَفَ نفسَه حقَّ المعرفةِ؛ لعَلِمَ أنما هو مَمْلوكٌ مُمْتَحَنٌ[2] في صورةِ مالِكٍ[3] مُتَصَرِّفٍ، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: الآية ١٤] وحَقيقٌ بهذا الْمُمْتَحَنِ أن يُوكَلَ إلى ما ادَّعَتْه نفسُه من الحالاتِ والْمَلَكاتِ مع المالِكِ الحقِّ سبحانَه؛ فإنَّ مَن ادَّعى لنفسِه حالةً مع اللهِ؛ وُكِلَ إليها، ومَن وُكِلَ إلى شيءٍ غيرِ اللهِ فقد أُتيحَ[4] له بابُ الْهَلاكِ والعَطَبِ، وأُغْلِقَ عنه بابُ الفوزِ والسعادةِ؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ ما سوى اللهِ باطلٌ، ومَن وُكِلَ إلى الباطلِ؛ بَطَلَ عملُه، وضَلَّ سعيُه، ولم يَحْصُلْ إلا على الْحِرمانِ، فكلُّ مَن تَعَلَّقَ بشيءٍ[5] غيرِ[6] اللهِ؛ انْقَطَعَ به أَحْوَجَ ما كان إليه، كما قالَ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٦]، فالأسبابُ التي [تَقَطَّعَتْ بهم][7] هي العلائقُ التي كانت[8] بغيرِ اللهِ ولغيرِ اللهِ، قُطِعَتْ[9] بهم أحْوَجَ ما كانوا إليها؛ وذلك لأنَّ[10] تلك الغاياتِ لما اضْمَحَلَّتْ وبَطَلَتْ؛ اضْمَحَلَّتْ أسبابُها وبَطَلَتْ؛ فإنَّ الأسبابَ تَبْطُلُ ببُطلانِ غاياتِها، وتَضْمَحِلُّ باضمحلالِها، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ ﷻ، فكلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما أُرِيدَ به وَجهُه، وكلُّ سعيٍ لغيرِه فباطلٌ[11] ومُضْمَحِلٌّ، وهذا كما يُشاهِدُه[12] الناسُ في الدنيا من اضمحلالِ السعيِ والعملِ والكدِّ والخدمةِ التي يَفعلُها العبدُ لِمُتَوَلٍّ أو أميرٍ، أو صاحبِ مَنْصِبٍ أو مالٍ، فإذا زالَ ذلك الذي عَمِلَ له وعُدِمَ؛ ضَلَّ[13] ذلك العملُ وبَطَلَ ذلك السعيُ، ولم يَبْقَ في يدِه سِوَى الْحِرمانِ، ولهذا يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ لِعبادِه[14]: «**أَلَيْسَ عَدْلًا مِنِّي أَنْ أُوَلِّيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ**[15] **يَتَوَلَّى فِي الدُّنْيَا فَيَتَوَلَّى عُبَّادُ الأَصْنَامِ**

مَنْ تعلَّقَ بغير الله انقطَعَ به أحوجَ ما يكون

---

(١) في (ك) و(س): الملك. (٢) في (ع) و(ك): وممتحن. (٣) في (ك) و(س): ملك.
(٤) في (ك) و(س): فتح. (٥) ساقطة من (ك) و(س). (٦) في (س): بغير.
(٧) في (س): تعلقوا بها. (٨) ساقطة من (ك) و(س). (٩) في (ك) و(س): تقطعت.
(١٠) في (س): أن. (١١) في(ك) و(س): باطل، بحذف الفاء.
(١٢) في (ك) شاهده، والصواب المثبت.
(١٣) ساقطة من (ك) و(س). (١٤) ساقطة من (ك) و(س). (١٥) ساقطة من (ك).

وَالأَوْثَانِ، أَصْنَامَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، فَتَتَسَاقَطُ[١] بِهِمْ فِي النَّارِ وَيَتَوَلَّى عَابِدُو[٢] الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُوم آلِهَتَهُمْ»[٣]، فَإِذَا كُوِّرَت الشَّمْسُ، وَانْتَثَرَتِ النُّجُومُ؛ اضْمَحَلَّتْ تِلْكَ الْعِبَادَةُ[٤]، وَبَطَلَتْ، وَصَارَتْ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٧]، ولهذا كان الْمُشْرِكُ من أَخْسَرِ الناسِ صَفقة، وأَغبَنِهم يومَ مَعادِه؛ فإنه يُحالُ على مُفْلِسٍ كلَّ الإفلاسِ، بل على عَدَمٍ، والْمُوَحِّدُ حَوالَتُه على الْمَلِيءِ الكريمِ، فيا بُعْدَ ما بينَ الْحَوالَتَيْنِ!

الغِنَى لايَمْنَعُ العُبُودِيَّةَ

وقولُه: «البراءةُ من رؤيةِ الْمَلَكَةِ» ولم يَقُلْ: من الْمَلَكة؛ لأنَّ الإنسانَ قد يكونُ فقيرًا لا مَلَكَةَ له في الظاهرِ، وهو عَرِيٌّ عن التحقُّقِ[٥] بنعْتِ الفَقْرِ الممدوحِ أَهْلُه، الذين لا يَرَوْنَ مَلَكَةً إلا لِمَالِكِها الحقِّ ذي الْمُلْكِ والملكوتِ، وقد يكونُ العبْدُ قد فُوِّضَ إليه من ذلك شيءٌ، وجُعِلَ كالْخَازِنِ فيه كما كان سُليمانُ بنُ داوُدَ ﷺ أُوتِيَ مُلْكًا لا يَنبغِي لأَحَدٍ من بعدِه، وكذلك الخليلُ وشُعيبٌ والأغنياءُ من الأنبياءِ - عليهم الصلاةُ والسلامُ - وكذلك أغنياءُ الصحابةِ.

فهؤلاءِ لم يكونوا بَرِيئِينَ من الْمَلَكَةِ في الظاهرِ، وهم بَرِيئونَ من رُؤيةِ الْمَلَكَةِ لنفوسِهم[٦]، فلا يَرَوْنَ لها مُلْكًا حقِيقِيًّا، بل يَرَوْن ما في أيديهم للهِ عاريَّةً ووَدِيعةً في أيديهم ابتلاهم به؛ لِيَنْظُرَ هل يتَصَرَّفُون فيه تَصرُّفَ العَبيدِ، أو تَصرُّفَ الْمُلاَّكِ الذين يُعْطُون لِهَواهُمْ، ويَمْنَعون لِهَواهُم. فوُجودُ المالِ في يدِ الفقيرِ لا يَقْدَحُ في فَقْرِه؛ إنما[٧] يَقْدَحُ في فَقْرِه رؤيتُه[٨] لِمَلَكَتِه، فمَن عُوفِيَ من رؤيةِ الْمَلَكَةِ؛ لم يَتَلَوَّثْ باطنُه

حقيقةُ مُلكِ الإنسانِ

---

(١) في (ك): فيتساقط. (٢) في(ك): عابد، والصواب المثبت.

(٣) هذا جزء من حديث طويل - مع اختلاف يسير - رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٥٢١ح١٢٠٣) والحاكم في «المستدرك»، كتاب التفسير تفسير سورة «مريم» (٢/ ٤٠٨ح٣٤٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، ووافقه الذهبي، ورواه الحاكم كذلك في «كتاب الأهوال» (٤/ ٦٣٢ ح٨٧٥١) وقال: والحديث صحيح ولم يخرجاه.

قال في «التلخيص»: ما أنكره حديثا على جودة إسناده، وحسنه الذهبي، انظر: «مختصر العلو للعلي الغفار» (ص١١٠) وقال الألباني بعد كلام الذهبي السابق: هو كما قال أو أعلى. انظر: «مختصر العلو» (ص١١١).

(٤) في (س): العبادات. (٥) في(ع) و(ك): التحقيق. (٦) في (ع) و(س): لأنفسهم.

(٧) في (ك): وإنما، والصواب المثبت.

(٨) في (ك): في فقر روايته، وهو تصحيف.

بأوساخِ المالِ وتَعَبِه وتدبيرِه واختيارِه، وكان كالخازِنِ لسَيِّدِه الذي يُنَفِّذُ أوامرَه في مالِه، فهذا لو كان بيدِه من المالِ مثلُ[١] جِبالِ الدنيا لم يَضُرَّه.

حالُ المؤمنِ وغيْرِه إذا أُصِيبَ في مالِه

ومَن لم يُعافَ من ذلك؛ ادَّعَتْ نفسُه المَلَكَةَ، فتَعَلَّقَتْ به النفسُ تَعَلُّقَها بالشيءِ المحبوبِ المعشوقِ، فهو أكبرُ هَمِّه، ومَبْلَغُ عِلْمِه؛ إن أُعْطِي رَضِيَ، وإن مُنِعَ سَخِطَ؛ فهو عبدٌ للدينارِ[٢] والدرهمِ، يُصْبِحُ مَهمومًا به[٣]، ويُمْسِي كذلك، فيَبيتُ[٤] مُضاجِعًا له، تَفْرَحُ نفسُه إذا ازدادَ، وتَحْزَنُ وتأْسَفُ إذا فاتَ منه شيءٌ، بل يَكادُ يَتْلَفُ[٥] إذا تَوَهَّمَتْ نفسُه الفقرَ، وقد يُؤْثِرُ الموتَ على الفقْرِ.

والأوَّلُ مُسْتَغْنٍ بِمَوْلاَهُ المالِكِ الحيِّ[٦] الذي بيدِه خَزائنُ السماواتِ والأرضِ، وإذا أصابَ المالَ الذي في يدِه نائبَةٌ، رأى أنَّ المالِكَ الحقَّ هو الذي أصابَ مالَ نفسِه، فما للعَبْدِ وما للجَزَعِ والهَلَعِ؟! وإنما تَصَرَّفَ مالِكُ المالِ في مُلْكِه الذي هو وَديعةٌ في يدِ مَمْلوكِه، فله الحُكْمُ في مالِه؛ إن شاءَ أبقاهُ، وإن شاء ذَهَبَ به وأفناه، فلا يَتَّهِمُ مَولاهُ في تَصَرُّفِه في ملْكِه، ويَرى تدبيرَه هو مُوجِبَ الحِكْمَةِ، فليس لقلْبِه بالمالِ تَعَلُّقٌ، ولا له به اكْتِراثٌ لصُعودِه عنه، وارتفاعِ هِمَّتِه إلى المالِكِ الحقِّ، فهو غَنِيٌّ به وبِحُبِّه ومعرفتِه وقُرْبِه منه عن كلِّ ما سواه، وهو فقيرٌ إليه دونَ ما سواه، فهذا هو البريءُ عن رؤيةِ الْمَلَكَةِ الْمُوجِبَةِ للطُّغيانِ، كمَا قالَ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ - ٧] ولم يَقُلْ: إن اسْتَغْنَى، بل جَعلَ الطُّغيانَ ناشئًا عن رؤيتِه[٧] غِنَى[٨] نفسِه، ولم يَذْكُرْ هذه الرؤيةَ في سورةِ «والليلِ»[٩] بل قالَ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٩ - ١٠]، وهذا - واللهُ أَعْلَمُ - لأنه ذَكَرَ مُوجِبَ طُغيانِه وهو رؤيتُه[١٠] غِنَى نفسِه، وذَكَرَ في سورةِ الليلِ مُوجِبَ هلاكِه وعَدَمَ تَيسيرِه لليُسرَى، وهو استغناؤُه عن ربِّه بتَرْكِ طاعتِه وعبوديَّتِه، فإنه لو افْتَقَرَ إليه لتَقَرَّبَ إليه بما أَمَرَه به[١١] من طاعتِه فِعْلَ المملوكِ الذي لا غِنَى له عن مَولاهُ طَرْفَةَ عينٍ، ولا يَجِدُ بُدًّا من امتثالِ

الغِنَى الْمَذْمُومُ

---

(١) في (ك) و(س) أمثال.

(٢) في (ع) و(ك) و(س) الدينار. (٣) ساقطة من (ك) و(س). (٤) في (ك) و(س) يبيت.

(٥) في (س) تكاد تتلف. (٦) في(ك) و(س) الحق. (٧) ٦/ ص.

(٨) في (ك) و(س) رؤية. (٩) في (ع) عين، والصواب المثبت.

(١٠) في(ك) و(س) الليل، بحذف الواو. (١١) في (ك) و(س) رؤية.

(١٢) ساقطة من(ك) و(س).

أوامرِه، ولذلك ذَكَرَ معه بُخْلَه، وهو تَرْكُه إعطاءَ ما وَجَبَ عليه من الأقوالِ والأعمالِ وأداءِ المالِ، وجَمَعَ إلى ذلك تكذيبَه بالحُسنَى، وهي التي وَعَدَ بها أهلَ الإحسانِ بقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ومَن فَسَّرَها بشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ[١]؛ فلأنها أصلُ الإحسانِ، وبها تُنالُ الْحُسنَى، ومَن فَسَّرَها بالْخَلَفِ في الإنفاقِ[٢]؛ فقد هَضَمَ المعنى حَقَّه، وهو أكبرُ من ذلك، وإن[٣] كان الْخَلَفُ جُزءًا من أجزاءِ الْحُسنَى.

والمقصودُ أنَّ الاستغناءَ عن اللهِ سببُ هلاكِ العَبدِ وتَيسيرِه لكلِّ عُسْرى، ورؤيتَه غِنَى نفسِه سببُ طُغيانِه، وكلاهما مُنافٍ للفَقْرِ والعُبوديَّةِ.

الدرجةُ الأُولَى من دَرجاتِ الفقرِ

قولُه: «الدرجةُ الأُولى: فقرُ الزُّهَّادِ، وهو نَفْضُ اليدين من الدنيا ضَبْطًا، أو طَلَبًا، أو تَرْكًا؛ وهذا هو الفقرُ الذي تَكَلَّموا في شَرَفِه».

فحاصِلُ هذه الدرجةِ فراغُ اليدِ والقلبِ من الدنيا، والذهولُ عن الفَقْرِ منها، والزهْدُ فيها، وعلامةُ فراغِ اليدِ نَفْضُ اليدين من الدنيا ضَبْطًا أو طلبًا، فهو لا يَضْبِطُ يَدَه مع وُجودِها شُحًّا وضَنًّا بها، ولا يَطْلُبُها مع فَقْدِها سؤالًا وإلحافًا وحِرْصًا، فهذا الإعراضُ والنَفْضُ دَالٌّ على سُقوطِ مَنْزِلَتِها من القَلْبِ؛ إذ لو كان لها في القلبِ مَنزِلةٌ لكان الأمرُ بضِدِّ ذلك، وكان يكونُ حالُه الضبْطَ مع الوجودِ لغِنَاه بها، ولكان يَطْلُبُها مع فَقْدِها لفَقْرِه إليها.

وأيضًا من أقسامِ الفَراغِ إسكاتُ اللسانِ عنها ذَمًّا أو[٤] مَدْحًا؛ لأنَّ مَن اهْتَمَّ بأَمْرٍ، وكان له في قَلْبِه موْقِعٌ؛ اشْتَغَلَ اللسانُ بما فاضَ على القلبِ من أَمْرِه مَدْحًا أو ذَمًّا، فإنه إن حَصَلَت له؛ مَدَحَها، وإن فاتَتْه ومُنِعَها[٥]؛ ذَمَّها. وذَمُّها[٦] عَلامَةُ موضِعِها من القلبِ وخَطَرِها، فحيث اشْتَغَلَ اللسانُ بذَمِّها كان ذلك لِخَطَرِها في القلبِ؛ لأنَّ الشيءَ إنما يُذَمُّ على قَدْرِ الاهتمامِ به، والاعتناءِ بشفاءِ الغَيْظِ منه بالذمِّ.

---

(١) وهذا قول ابن عباس والضحاك. انظر: «جامع البيان» للطبري (١٥/ ٢٢٠).

(٢) وهذا قول ابن عباس وعكرمة. انظر: «جامع البيان» (١٥/ ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) في(ع) وإنما.

(٤) في (ك) و(س) ومدحا.

(٥) ساقطة من (ك) و(س).

(٦) في (ك) و(س): (وَمَدْحُهَا وَذَمُّهَا).

مَن أحَبَّ شيئًا أكْثَرَ من ذِكْرِه

وكذلك تَعظيمُ الزهْدِ فيها إنما هو على قَدْرِ خَطَرِها في القلبِ؛ إذ لولا خَطَرُها وقَدْرُها؛ لما صارَ للزُّهْدِ فيها خَطَرٌ، وكذلك مَدْحُها دليلٌ على خَطَرِها ومَوْقِعِها من قلبِه؛ فإنَّ مَن أحبَّ شيئًا أكثرَ من ذِكرِه، فصاحبُ هذه الدرجةِ لا يَضْبِطُها مع وُجودِها، ولا يَطْلُبُها مع عَدَمِها، ولا يَفيضُ من قَلبِه على لسانِه مَدْحٌ لها يَدُلُّ على مَحَبَّتِها، ولا يَفيضُ من القلبِ على اللسانِ ذمٌّ يَدُلُّ على مَوْقِعِها وخَطَرِها؛ فإنَّ الشيءَ إذا صَغُرَ؛ أعْرَضَ القلبُ عنه ذَمًّا أو مَدْحًا(١).

وكذلك صاحبُ هذه الدرجةِ فانٍ عن النظَرِ إلى تَرْكِها، وهو الذي تَقَدَّمَ من ذِكْرِ خَطَرِ الزهْدِ فيها؛ لأنَّ نَظَرَ العبْدِ إلى كونِه تَارِكًا لها، زاهدًا فيها، تَتَشَوَّفُ(٢) نفسُه بالتَّرْكِ، وتَتَلَذَّذُ به دليلٌ على شُغْلِه بها، ولو على وَجهِ التَرْكِ، وذلك من خَطَرِها وقَدْرِها، ولو صَغُرَتْ في القلبِ؛ لصَغُرَ تَرْكُها والزهْدُ فيها، ولو اهْتَمَّ القَلْبُ بِمُهِمٍّ من الْمُهِمَّاتِ المطلوبةِ التي هي فاقاتُ أهلِ القلوبِ والأرواحِ؛ لذَهَلَ عن النظَرِ إلى نفسِه بالتَرْكِ والزهْدِ(٣).

أمراضٌ مُعَوِّقة في طريقِ الزُهدِ

فصاحبُ هذه الدرجةِ مُعافًى من(٤) هذه الأمراضِ كلِّها: من مَرَضِ الضبْطِ، والطلبِ، والذمِّ، والمدحِ، والتِّرْكِ.

فهي بأَسْرِها، وإن كان بعضُها ممدوحًا في العِلْمِ، مَقصودًا، يَسْتَحِقُّ الْمُتَحَقِّقُ به الثوابَ والمدْحَ، لكنها آثارٌ وأشكالٌ مُشْعِرَةٌ بأن صاحبَها لم يَذُقْ حالَ الْخُلُوِّ والتجريدِ(٥) الباطنِ، فَضْلًا عن أن يَتَحَقَّقَ بشيءٍ(٦) من الحقائقِ المتوَقَّعَةِ المتنافَسِ فيها، فصاحبُ هذه الدرجةِ متَوَسِّطٌ بينَ دَرَجَتَي الداخلِ بكُلِّيَّتِه في الدنيا، قد رَكَنَ إليها، واطمأنَّ إليها، واتَّخذَها وَطَنًا، وجعَلَها له(٧) سَكَنًا، وبينَ مَن نَفَضَها بالكُلِّيَّةِ من قَلْبِه ولسانِه، وَتَخَلَّصَ من قُيودِها ورُعوناتِها وآثارِها، وارْتَقَى(٨) إلى ما يَسْبِي(٩) القلبَ

---

(١) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (ذمًّا أو مدحًا).

(٢) في (ك) و(س) تتشرف، ولعل الصواب المثبت.

(٣) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (بالترك والزهد).

(٤) في (ك) زيادة: (كل)، والصواب المثبت.

(٥) سيأتي تعريف التجريد في ثنايا كلام المؤلف. (٦) ساقطة من (س).

(٧) ساقطة من (س). (٨) في (ك) وانتقل، وفي (س) واتقى، والصواب المثبت.

(٩) في (س) يسني، والصواب المثبت.

ويُحْيِيهِ[١] ويُفْرِحُه ويُبْهِجُه من جَذَبَاتِ[٢] العزَّةِ[٣]، فهو في البَرْزَخِ كالحامِلِ الْمُقْرِبِ يَنتظِرُ وِلادةَ الروحِ والقلبِ صباحًا ومساءً، فإنَّ مَن لم تُولَدْ رُوحُه وقَلْبُه، ويَخْرُجْ من مَشِيمَةِ نفسِه، ويَتَخَلَّصْ[٤] من ظُلُماتِ طَبْعِه وهواهُ[٥] وإراداتِه[٦]، فهو كالْجَنينِ في بَطْنِ أمِّه الذي لم يَرَ الدنيا وما فيها[٧].

الظلماتُ ثَلاثٌ

فهكذا هذا الذي هو بَعْدُ في مَشِيمَةِ النفسِ، والظلماتِ الثلاثِ التي[٨] هيَ: ظُلمةُ النفْسِ، وظُلمةُ الطبْعِ، وظُلْمَةُ الْهَوَى.

فلا بُدَّ من الوِلادةِ مَرَّتَيْنِ، كما قالَ المَسِيحُ للحَوَارِيِّينَ[٩]: «إنكم لن[١٠] تَلِجُوا مَلكوتَ السماءِ حتى تُولَدُوا مَرَّتَيْنِ»[١١].

ولذلك[١٢] كان النبيُّ ﷺ أَبًا للمؤمنين[١٣] كما في قراءةِ أُبَيٍّ[١٤]: «النَّبِيُّ أَوْلَى

---

(١) في (س) ويحبه، والصواب المثبت. (٢) في (ع) حدثات، والصواب المثبت.

(٣) في (ع) الغرة، وفي (س) العز، والصواب المثبت. (٤) في (س) وتخلص.

(٥) في (س) زيادة: (ولذاذته). (٦) في (ع) و(ك) وإرادته.

(٧) ذكر المؤلف عن شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الولادة ولادتان: الولادة المعروفة، والثانية ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس، وظلمة الطبع. «مدارج السالكين» (٣/ ٦٩).

(٨) في (ك) الذي، والصواب المثبت.

(٩) الحواريون: هم أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام، المؤمنون به وبما جاء به من عند الله. قال الزجاج: «سمو بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: كانوا قصارين، والحواريون: خلصان الأنبياء وصفوتهم». «معاني القرآن واعرابه» (٥/ ١٦٤). وانظر: «لسان العرب» باب الحاء (٣/ ٣٨٦).

(١٠) في (س) لم، والصواب المثبت.

(١١) هذا الأثر ذكره المؤلف في «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٠) وعزاه لكتاب «الزهد» للإمام أحمد، ولم أجده فيه. قال المؤلف: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - يقول: هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها من عالم الطبيعة، كما ولدت الأبدان من البدن وخرجت منه، والولادة الأخرى: هي الولادة المعروفة».

(١٢) في (ك) وكذلك. (١٣) في (س) أبا المؤمن.

(١٤) هو الصحابي الجليل: أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري، كان من أصحاب العقبة الثانية، شهد بدرا وما بعدها، سيد القراء، من أصحاب الفتيا في الصحابة، قال له النبي ﷺ: «**ليهنك العلم أبا المنذر**» توفي سنة (٣٠هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١/ ٣٨٩ - ٤٠٢ت٨٢)، «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (١/ ٣١ - ٣٢ت٣٢).

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَّهُمْ»(١) ولهذا تَفَرَّعَ على هذه الأُبُوَّةِ أن جُعِلَتْ أزواجُه أُمَّهاتِهم؛ فإنَّ أرواحَهم وقلوبَهم وُلِدَتْ به وِلادةً أُخرى غيرَ وِلادةِ الأُمَّهاتِ؛ فإنه أَخْرَجَ أرواحَهم وَقُلوبَهُمُ من ظُلماتِ الْجَهْلِ والضلالِ والْغَيِّ، إلى نورِ العلْمِ والإيمانِ وفَضاءِ(٢) المعرفةِ والتوحيدِ، فشاهدَتْ حقائقَ أُخَرَ، وأُمورًا لم يَكُنْ لها بها شُعورٌ قَبْله قالَ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: الآية ١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢]، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٤].

أقسامُ القلوبِ من حيث وِلادَتُها

والمقصودُ أنَّ القلوبَ في هذه الوِلادةِ ثلاثةٌ:

قلبٌ لم يُولَدْ ولم يَأْنِ(٣) له، بل هو جَنينٌ في بَطنِ الشَّهَواتِ والْغَيِّ والْجَهْلِ والضلالِ.

وقلبٌ قد وُلِدَ، وخَرَجَ إلى فَضاءِ التوحيدِ والمعرِفةِ، وتَخَلَّصَ من مَشيمةِ الطِّباعِ وظُلُماتِ النفسِ والْهَوَى، فقَرَّتْ عينُه باللهِ، وقَرَّتْ عُيونٌ به وقلوبٌ، وأَنِسَتْ بقُرْبه الأرواحُ، وذَكَّرَتْ رؤيتُه باللهِ، فاطْمَأَنَّ باللهِ، وسَكَنَ إليه، وعَكَفَ بِهِمَّتِه عليه، وسافَرَتْ هِمَمُه(٤) وعَزائمُه إلى الرفيقِ الأَعْلَى، لا يَقَرُّ بشيءٍ غيرِ اللهِ، ولا يَسْكُنُ إلى شيءٍ سِواهُ، ولا يَطْمَئِنُّ بغيرِه، يَجِدُ من كلِّ شيءٍ سوى اللهِ عِوَضًا، ولا يَجِدُ من اللهِ عِوَضًا أبدًا، فذِكْرُه حياةُ قَلْبِه، ورِضاهُ نِهايةُ مَطْلَبِه، ومَحَبَّتُه قُوَّتُه(٥)، ومَعرفتُه أَنِيسُه، عَدُوُّه مَن جَذَبَ قلبَه عن اللهِ، وإن كان القريبَ الْمُصافِيَا.

ووَلِيُّه مَن رَدَّه إلى اللهِ، وجَمَعَ قلبَه عليه، وإن كان البعيدَ الْمُناوِيَا، فهذان قلبان مُتباينانِ غايةَ التبايُنِ.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٩٥)، (١٤/ ١٢٥).

(٢) في (س) فضائل، والصواب المثبت؛ لموافقة السياق.

(٣) في (س) يؤذن. (٤) في (ع) همته.

(٥) في (س) وقوته. وهو خطأ؛ لأنه لا معنى للعطف هنا.

وقلبٌ ثالثٌ في الْبَرْزَخِ، يَنتظِرُ الوِلادةَ صَباحًا ومساءً،[١] قد أَشرفَ على فَضاءِ التجريدِ، وَآنَسَ من خِلالِ الديارِ أشِعَّةَ التوحيدِ، تأْبَى غَلَبَاتُ[٢] الحبِّ والشوقِ إلا تَقَرُّبًا إلى مَن السعادةُ كلُّها في قُرْبِه، والحظُّ كلُّ الحظِّ في طاعتِه وحُبِّه، وتأْبَى غَلَبَاتُ الطِّباعِ إلا جَذْبَه وإيقافَه وتَعْوِيقَه، فهو بينَ[٣] الدَّاعِيَيْنِ تارةً وتارةً، قد قَطَعَ عَقَباتٍ وآفاتٍ، وبَقِيَ عليه مَفاوِزُ[٤] وفَلَوَاتٌ[٥].

والمقصودُ أنَّ صاحبَ هذا المقامِ إذا تَحَقَّقَ به ظاهرًا وباطنًا، وسَلِمَ عن نَظَرِ[٦] نفسِه إلى مَقامِه، واشتغالِه به، ووُقوفِه عندَه؛ فهو فقيرٌ حقيقيٌّ ليس فيه قادِحٌ من القوادِحِ التي تَحُطُّه عن دَرجةِ الفَقْرِ.

يَحْسُنُ ذَمُّ الدنيا في مَوْضِعَيْنِ

واعْلَمْ أنه يَحْسُنُ إعمالُ اللسانِ في ذمِّ الدنيا في مَوْضِعين:

أحدُهما: في مَوْضِعِ التزهيدِ فيها للراغبِ.

والثاني: عندَما يَرْجِعُ به داعي الطبْعِ والنفْسِ إلى طَلَبِها، ولا يَأْمَنُ إجابةَ الداعِي، فيَسْتَحْضِرُ في نفسِه[٧] قِلَّةَ وَفائِها، وكثرةَ جَفائِها، وخِسَّةَ شُركائِها؛ فإنه إن تَمَّ عَقْلُه، وحَضَرَ رُشْدُه؛ زَهِدَ فيها ولا بُدَّ.

❁ ❁ ❁

---

(١) في (س) زيادة: (وليس). (٢) في (ك): يأبى غليان.

(٣) في (ك): من، والصواب المثبت.

(٤) جمع مفازة، والمفازة: الأرض البرية القفر المهلكة التي لا ماء فيها. انظر: «لسان العرب» باب الفاء (١٠/ ٣٤٨)، «القاموس المحيط» باب الزاي، فصل القاف (٦٦٩).

(٥) الفلاة: الصحراء الواسعة، وقد يكون فيها نبات. انظر: «لسان العرب» باب الفاء (١٠/ ٣٣٠).

(٦) في (س): نظرة. (٧) في (ع): فتستحضر نفسه.

فصلٌ

الدرجةُ الثانيةُ من درجاتِ الفقرِ وحَقِيقَتُها وما تُوجِبُه

. **وقولُه**: «الدرجةُ الثانيةُ: الرجوعُ إلى السَّبْقِ بِمُطالَعَةِ الفَضْلِ، وهو يُورِثُ الْخَلاصَ من رؤيةِ الأعمالِ، ويَقْطَعُ شُهودَ الأحوالِ، ويُمَحِّصُ من أَدناسِ مُطالَعاتِ الْمَقاماتِ. فهذه الدرجةُ أَرْفَعُ من الأُولَى وأَعْلَى، والأُولَى كالوَسيلةِ إليها؛ لأنَّ في الدرجةِ الأُولَى يَتَخَلَّى بفَقْرِه عن أن يَتَأَلَّهَ غيرَ مَولاهُ الحقِّ، وأن يُضِيعَ أنفاسَه في غيرِ مَرضاتِه، وأن يُفَرِّقَ هُمومَه في غيرِ مَحَابِّه، وأن يُؤْثِرَ عليه غيرَه في حالٍ من الأحوالِ.

فيُوجِبُ له هذا الْخُلُوُّ[1] وهذه المعامَلَةُ صفاءَ العُبوديَّةِ، وعِمارةَ السرِّ بينَه وبينَ اللهِ، وخلوصَ الوِدادِ[2] والمحبَّةِ، فيُصْبِحُ ويُمْسِي ولا هَمَّ له غيرُ ربِّه، قد قَطَعَ هَمُّه بربِّه عنه جميعَ الْهُمومِ، وعَطَّلَتْ إرادتُه له[3] جميعَ الإراداتِ، ونَسَخَتْ مَحَبَّتُه له من قلبِه كلَّ مَحَبَّةٍ لسِواه، كما قيلَ[4]:

لقد كانَ يَسْبِي القلبَ في كلِّ ليلةٍ ... ثمانون بل تِسعونَ[5] نفسًا وأَرْجَحُ
يَهِيمُ بهذا ثم يَأْلَفُ غيرَه ... ويَسْلُوهم من فَوْرِه حينَ يُصْبِحُ
وقد كان قَلْبِي ضائعًا قبلَ حُبِّكُمُ ... فكان بِحُبِّ الْخَلْقِ يَلْهو ويَمْرَحُ
فلَمَّا دعا قلبي هَواكَ أجابَهُ ... فلستُ أَراه عن جَنَابِكَ[6] يَسْرَحُ[7]
حُرِمْتُ مُناتِي[8] منك إن كنتُ كاذبًا ... وإن كنتُ في الدنيا بغيرِك أَفْرَحُ
وإن كان شيءٌ في الوُجودِ سواكُمُ ... يَقَرُّ به القلبُ الجريحُ ويَفرَحُ
وإن لَعِبَتْ أيدي الْهَوَى بِمُحِبِّكُمْ ... فليس له عن بابِكم مُتَزَحْزَحُ
فإن أَدْرَكَتْه غُربةٌ عن دِيارِكُمْ ... فحُبُّكُمْ بينَ الْحَشا ليس يَبْرَحُ
وكم مُشْتَرٍ في الخلْقِ قد سام قَلْبَهُ ... فلم يَرَه إلا لِحُبِّكَ يَصْلُحُ
هَوَى غيرِكم نارٌ تَلَظَّى ومَحْبَسٌ ... وحبُّكم الفِردوسُ أو[9] هو أَفْسَحُ

---

(١) في (ك) الخلق، وهو تصحيف؛ لدلالة السياق. (٢) في (ك) و(س) الود.

(٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) هذه الأبيات لسمنون بن حمزة. المتوفى سنة (٢٩٦) لم أقف عليها كاملة. انظر جزءًا منها مع اختلاف يسير: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص١٩٨) و«صفةِ الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٢٧٧).

(٥) في (ك) سبعون. (٦) في (س) خبائك.

(٧) في (ع) ينزح، وفي (ك) و(س) يبرح. (٨) في(ع) و (ك) و(س) منائي. (٩) في (ك) بل.

فيا ضَيْمَ قلبٍ قد تَعَلَّقَ غيرَكم ... ويا رَحْمَتا[١] مِمَّا يجولُ ويَكْدَحُ

تمثيلُ القلبِ بإناءٍ واحدٍ والأَشْرِبَةُ مُتعدِّدَةٌ

واللهُ ﷻ لم يَجْعَلْ لرجُلٍ من قلبينِ في جَوْفِه، فبِقَدْرِ ما يَدْخُلُ القلبَ من هَمٍّ وإرادةٍ وحُبٍّ يَخْرُجُ منه هَمٌّ وإرادةٌ وحُبٌّ يُقابِلُه، فهو إناءٌ واحدٌ والأَشْرِبَةُ مُتَعَدِّدَةٌ، فأيُّ شرابٍ مَلأَهُ لم يَبْقَ فيه مَوْضِعٌ لغيرِه، وإنما يَمْتَلِئُ الإناءُ بأَعْلَى الأشرِبَةِ إذا صادَفَه خاليًا، فأمَّا إذا صادَفَه مُمْتَلِئًا من غيرِه؛ لم يُسَاكِنْهُ حتى يُخْرِجَ ما فيه، ثم يَسْكُنَ مَوْضِعَه كما قالَ[٢]:

أَتَانِي هَوَاها قبلَ أن أَعْرِفَ الْهَوَى ... فصادَفَ قَلْبًا خالِيًا فتمَكَّنَا[٣]

ففَقْرُ صاحبِ هذه الدرجةِ تَفريغُه إناءَه من كلِّ شرابٍ مُسْكِرٍ، وكلُّ شرابٍ غيرِ شرابِ المحبَّةِ والمعرفَةِ فمُسْكِرٌ ولا بُدَّ **«وَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»**[٤]، وأين سُكْرُ الْهَوَى والدنيا إلى[٥] سُكْرِ الخمْرِ؟ وكيف يُوضَعُ شرابُ التَّسنيم - الذي هو أعلى أَشْرِبَةِ الْمُحِبِّينَ - في إناءٍ مَلآنَ بخَمْرِ الدنيا والْهَوَى، لا يُفِيقُ من سُكْرِه ولا يَسْتَفِيقُ، ولو فارَقَ هذا السُّكْرُ القلبَ؛ لطارَ بأَجْنِحَةِ الشوْقِ إلى اللهِ والدارِ الآخِرةِ؟ ولكن رَضِيَ الْمِسكينُ بالدُّونِ، وباعَ حظَّه من قُرْبِ اللهِ ومَعرفتِه وكَرامتِه بأَخَسِّ الثمَنِ، صَفْقَةَ خاسرٍ مَغْبونٍ، فسَيَعْلَمُ أيَّ حظٍّ أضاعَ إذا فازَ المحِبُّونَ، وخَسِرَ الْمُبْطِلُونَ.

❁ ❁ ❁

---

(١) في(ع) رحمته. (٢) في (ك) و(س) زيادة بعضهم.

(٣) ورد هذا البيت في «ديوان مجنون ليلى» (٢٨٢) وفي «ديوان ديك الجن الحمصي» (١٢٨) ولعله لمجنون ليلى أصلًا وللآخر تضمينا.

(٤) رواه أحمد «في المسند» (٢/ ١٦٧)، (١٧٩)، (٣/ ٣٤٣)، وأبو داود (٣/ ٣٢٧ح٣٦٨١) والترمذي (٤/ ٢٩٢ح١٨٦٥) وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث جابر، والنسائي، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره (٨/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٢/ ١١٢٤ح٣٣٩٢)، (٣٣٩٣)، (٣٣٩٤). قال الألباني: حسن صحيح، انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٠٢) ح٣١٢٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢/ ١٧٠ح١٥٢٠)، و«صحيح سنن النسائي» (٣/ ١١٣٧ح٥١٨٠)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٤٥ح٢٧٣٦)، (٢٧٣٧)، (٢٧٣٨).

(٥) في (ك) و(س) من.

فصلٌ

وإذا كان التَلَوُّثُ بالأغراضِ(١) قَيْدًا يُقَيِّدُ القلوبَ عن سَفَرِها إلى بلدِ حياتِها ونَعِيمِها الذي لا سَكَنَ لها غيرُه، ولا راحةَ لها إلا فيه، ولا سرورَ لها إلا في مَنازِلِه، ولا أَمْنَ لها إلا بينَ أَهْلِه؛ فكذلك الذي قد(٢) باشَرَ قَلْبُه رُوحَ التَّأَلُّهِ، وذاق طَعْمَ الْمَحَبَّةِ، وآنَسَ نارَ المعرِفَةِ، له أغراضٌ(٣) دقيقةٌ حاليّةٌ(٤) تُقَيِّدُ قَلْبَهُ عن مُكافَحَةِ صريحِ الحقِّ، وصِحَّةِ الاضطرارِ إليه، والفناءِ(٥) التامِّ به، والبقاءِ(٦) الدائمِ بنُورِه الذي هو الْمَطلوبُ من السَّيْرِ

---

(١) في (ع) و(ك) و(س) الأعراض، والصواب المثبت.

والمراد بالأغراض: متابعة الهوى، والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء. «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٩).

(٢) ساقطة من (س). (٣) في (ك) و(س) أعراض.

(٤) في(ع) و(ك) و(س) خالية، و هو تصحيف، والصواب المثبت.

(٥) الفناء: مصدر فني يفنى فناء، إذا اضمحل وتلاشى وعدم.

وفي اصطلاح إلصوفية يطلق على تجريد شهود الحقيقة الكونية والغيبة عن شهود الكائنات.

والفناء يطلق على معان ثلاثة:

١ - فناء عن عبادة السوى: وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته والتوكل عليه عن ما سواه، وهذا هو حال النبيين وأتباعهم.

٢ - فناء عن شهود السوى: وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده، وبمعبوده عن عبادته، وبشهوده عن شهادته وبمذكوره عن ذكره، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهذا النوع من الفناء هو الذي يعرض لكثير من السالكين؛ كأبي يزيد، وأبي الحسن الثوري، وأبي بكر الشبلي وأمثالهم، وهو الذي يسميه كثير من الصوفية حال الاصطلام والفناء والجمع، ومنهم من يجعله من السلوك، ومنهم من يجعله غاية السلوك، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية، وهذا غلط عظيم.

٣ - فناء عن وجود السوى: وهو جعل الوجود وجودا واحدا، فيجعل وجود الخالق هو وجود المخلوق، وهذا هو فناء الملاحدة أهل وحدة الوجود كالحلاج وأمثاله. وقول هولاء أعظم كفرا من قول اليهود والنصارى. انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (٢/ ٣١٣)، (٣١٤)، (٣٦٩)، (٣٧٠)، و««منهاج السنة»» (٥/ ٣٤٢)، (٣٥٥ - ٣٥٨)، «الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري (٦٧)، «مدارج السالكين» (١/ ١٥٤)، و«موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي» لرفيق العجم، حرف الفاء (٧٣٠)، ومراد ابن القيم - رحمه الله - بالفناء هنا تحقيق معنى الإحسان. انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٥٧).

(٦) البقاء: هو ظهور الأوصاف الخيرة المحمودة، والنية الصادقة للسالك أو المريد الصادق. انظر: «الرسالة القشيرية» (ص٦٧)، و«معجم ألفاظ الصوفية»، حسن الشرقاوي، حرف الفاء(٢٢٧)، و«موسوعة =

والسلوكِ، وهو الغايةُ التي شَمَّرَ إليها السالكون، والعَلَمُ الذي أَمَّه العابِدونَ، ودَنْدَنَ حولَه العارِفون، فجميعُ ما يَحْجُبُ عنه، أو يُقيِّدُ القلبَ نَظَرُه[١] وهَمُّه يكونُ حِجَابًا يَحْجُبُ الواصلَ، ويُوقِفُ السالِكَ، ويُنَكِّسُ الطالِبَ، فالزُّهْدُ فيه على أصحابِ[٢] الْهِمَمِ العَلِيَّةِ مُتَعَيِّنٌ تَعَيُّنَ الواجِبِ الْمُعَيَّنِ[٣] الذي لا بُدَّ منه، وهو كزُهْدِ السالِكِ إلى الْحَجِّ في الظِّلالِ والمياهِ التي يَمُرُّ بها في الْمَنازِلِ.

فالأَوَّلُ: مُقَيَّدٌ عن الحقائقِ برؤيةِ الأغراضِ[٤].

والثاني: مُقَيَّدٌ عن النهاياتِ برؤيةِ الأحوالِ[٥].

فتَقَيَّدَ كلٌّ منهما عن الغايةِ المطلوبةِ، وتَرَتَّبَ[٦] على هذا القَيْدِ عدَمُ النفوذِ، وذلك مؤَخَّرٌ مُخَلَّفٌ.

وإذا عَرَفَ العبْدُ هذا، وانْكَشَفَ له عِلْمُه؛ تَعَيَّنَ عليه الزُّهْدُ في الأحوالِ والفَقْرُ منها، كما تَعَيَّنَ عليه الزُّهْدُ في المالِ والشرَفِ، وخُلُوُّ قَلْبِه منهما.

ولَمَّا كان مُوجِبُ الدرجةِ الأُولى من الفَقْرِ الرجوعَ إلى الآخِرةِ؛ فأَوْجَبَ الاستغراقُ في همِّ الآخِرةِ نَفْضَ اليدينِ من الدنيا ضَبْطًا أو طَلَبًا وإسكاتَ اللسانِ عنها مَدْحًا أو ذَمًّا.

فكذلك[٧] كان مُوجِبُ هذه الدرجةِ الثانيةِ الرجوعَ إلى فَضْلِ اللهِ ﷻ، ومطالعةَ سَبْقِهِ للأسبابِ[٨] والوسائِطِ، فبِفَضْلِ اللهِ وبِرحمتِه[٩] وُجِدَتْ مِنْهُم[١٠] الأحوالُ[١١]

= مصطلحات التصوف الإسلامي» (حرف الفاء) (٧٣٠).

(١) في (س): نضره، وهو خطأ إملائي.
(٢) في (ك) أهل.
(٣) ساقطة من (ك) و(س).
(٤) في (ع)، (ك)، (س) الأعراض.
(٥) المراد بالحال: الوارد الذي يرد على القلب من غير سبب من العبد، ويصبغ القلب ويكيفه على حسب الوارد. مثل الطرب والحزن والشوق. انظر: «الرسالة القشيرية» (٥٧ - (٥٨)، «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٣)، (٤٤٧)، (١٤٨/٣)، و«معجم الفاظ الصوفية» حرف الحاء (ص١١٦)، و«موسوعة مصطلحات الصوفية» حرف الحاء (ص٢٦٧).
(٦) في (ك) ويرتب.
(٧) في (س) ولذلك.
(٨) في(ك) و(س) الأسباب.
(٩) في (ك) و(س) ورحمته.
(١٠) في (ك) و(س) منه.
(١١) في (ك) و(س) الأقوال، والصواب المثبت.

الشريفةُ، والْمَقاماتُ[١] العَلِيَّةُ، وبفَضْلِه[٢] ورَحمتِه وَصَلُوا إلى رِضاهُ ورَحْمَتِه، وقُرْبِه وكَرامتِه ومُوالاتِه، وكان سبحانَه هو الأَوَّلَ في ذلك كلِّه، كما أنه الأَوَّلُ في كلِّ شيءٍ، وكان هو الآخِرَ في[٣] ذلك، كما هو الآخِرُ في كلِّ شيءٍ.

وصفُ الفقيرِ العارفِ على الحقيقة

فمَن عَبَدَه باسْمِه «الأَوَّلِ الآخِرِ[٤]»؛ حَصَلَ[٥] له حقيقةُ هذا الفَقْرِ، فإنِ انْضافَ إلى ذلك عُبودِيَّتُه باسْمِه «الظاهِرِ الباطنِ» فهذا هو العارِفُ الجامعُ لِمُتَفَرِّقَاتِ التَّعَبُّدِ ظاهِرًا وبَاطنًا.

التعبُّدُ للهِ باسْمِه الأَوَّلِ

فعُبُودِيَّتُه باسْمِه «الأَوَّلِ» تَقتَضِي التجَرُّدَ من مُطالَعَةِ الأسبابِ والوقوفِ عندَها[٦] والالتفاتِ إليها، وتَجريدَ النظَرِ إلى مُجَرَّدِ سَبْقِ فضْلِه ورحمتِه، وأنه هو المبْتَدِئُ بالإحسانِ من غيرِ وسيلةٍ من العَبْدِ؛ إذ لا وَسيلةَ له في العَدَمِ قبلَ وُجودِه، وأيُّ وَسيلةٍ كانت هناك، وإنما هو عَدَمٌ مَحْضٌ، وقد أَتَى عليه حينٌ من الدَّهْرِ لم يكنْ شيئًا

---

(١) المقام عند المتصوفة: ما تحقق العبد بمنازلته من الآداب بشيء من التكلف والتصرف في طلبه وتحصيله بنوع رياضة، وبذل جهد. وشرطه عند القوم أن لا ينتقل للثاني حتى يستوفي أحكام الأول.
فالمقام مثل التوكل، والتسليم، والتوبة، والورع والزهد في الدنيا، والخوف من الله، ومحبته . . . إلخ.
انظر: «الرسالة القشيرية» (٥٦ - ٥٧)، والتفصيل في «المقامات» (٩١ - ٣٥٠)، وانظر: «التعريفات» للجرجاني (٣٤٥). فيكون المراد بالمقام في كلام المؤلف - رحمه الله -: ما بذل العبد جهده في تحصيله من صفات خيرة حتى تكون له سجية. انظر ما سيأتي.
ومثل ابن تيمية رحمه الله للمقامات بمحبة الله ورسوله والإخلاص، والخوف والرجاء والصبر والشكر، وما يتبع ذلك. انظر: «الفتاوى» (١٠/ ٥) وما بعدها. وورد في الشرع ذكر المقام في مثل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]، والمراد بالمقام هنا: الموضع الذي يقام فيه للأمور الجليلة، والمراد به الشفاعة. وانظر: «جامع البيان» للطبري (جزء١٥ص١٤٣ - ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٠٩)، (١١/ ١٤٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب: عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (٨/ ٢٥١ ح٤٧١٨ فتح). وورد كذلك المقام في مثل قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: الآية ٧٣]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: الآية ٦٦] وفي قوله تعالى: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٦] والمراد به: موضع لإقامتهم إذا كان بالضم، وإذا كان بالفتح: المجلس. انظر «جامع البيان» للطبري (جزء١٩ص٣٦).

(٢) في (ك) وبفضل الله. (٣) في (س) زيادة: (كل). (٤) في (ك) و(س) والآخر.

(٥) في (ك) و(س) حصلت. (٦) ساقطة من (ك) و(س).

مَذكورًا، فمِنْه الإعدادُ، ومنه الإمدادُ[١]، وفَضْلُه سابقٌ على الوسائلِ، والوسائلُ من مُجَرَّدِ فضْلِه وجُودِه لم تكنْ بوسائلَ أخرى، فمَنْ نزَّلَ اسمَه «الأوَّلَ» على هذا المعنى؛ أَوْجَبَ له ذلك[٢] فَقْرًا خاصًّا وعُبوديَّةً خاصَّةً.

التعبُّدُ للهِ باسْمِه الآخِرِ

وعُبوديَّتُه باسمِه «الآخِرِ» تَقْتَضِي[٣] أيضًا عَدَمَ رُكونِه ووُثُوقِه بالأسبابِ والوُقوفِ معها؛ فإنها تُعْدَمُ لا مَحالَةَ وتَنْقَضِي بالآخِرِيَّةِ ويَبْقَى الدائمُ الباقي بعدَها، فالتَّعَلُّقُ بها تَعَلُّقٌ بما يُعْدَمُ ويَنْقَضِي، والتعَلُّقُ بـ «الآخِرِ» ﷻ تَعَلُّقٌ بالحَيِّ الذي لا يَموتُ ولا يَزولُ، فالتَّعَلُّقُ[٤] به حَقيقٌ أن لا يَزولَ، ولا يَنقطِعَ بخِلافِ التَّعَلُّقِ بغيرِه مِمَّا له آخِرٌ يَفْنَى به، فكما نَظَرَ العارِفُ إليه بسَبْقِ الأَوْلَوِيَّةِ[٥] حيث كان قبلَ الأسبابِ كلِّها، فكذلك نَظَرُه إليه ببقاءِ الآخِرِيَّةِ حيث يَبْقَى بعدَ الأسبابِ كلِّها، فكان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُه، وكلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَهُ.

فتَأَمَّلْ عُبوديَّةَ[٦] هذين الاسمين وما يُوجِبَانِه من صِحَّةِ الاضطرارِ إلى اللهِ وَحْدَه، ودَوامِ الفَقْرِ إليه دونَ كلِّ شيءٍ سواهُ، وأنَّ الأَمْرَ ابتدأَ منه وإليه يَرْجِعُ[٧]، فهو الْمُبْتَدِئُ بالفَضْلِ حيث لا سَبَبَ ولا وَسيلةَ، وإليه يَنتهِي الأمرُ حيث تَنتهِي الأسبابُ والوسائلُ فهو أوَّلُ كلِّ شيءٍ وآخِرُه.

لا كَمالَ للعَبْدِ إلا بعُبودِيَّتِه للهِ

وكما أنه ربُّ كلِّ شيءٍ وفاعلُه وخالقُه وبارئُه، فهو إلَهُه وغَايتُه التي لا صَلاحَ له، ولا فَلاحَ، ولا كَمالَ إلا بأن يكونَ هو غايتَه وَحدَه، كما أنَّه لا وُجودَ له إلا بكونِه وَحْدَه هو رَبَّه وخالقَه، فكذلك[٨] لا كمالَ له، ولا صَلاحَ إلا بكونِه - تعالى - وَحدَه هو غايتَه ونِهايةَ مَقصودِه، فهو الأَوَّلُ الذي ابتدَأَتْ منه المخلوقاتُ، والآخِرُ الذي انْتَهَتْ إليه عُبودِيَّاتُها وإراداتُها ومَحَبَّتُها، فليس وراءَ اللهِ شيءٌ يُقْصَدُ ويُعْبَدُ ويُتَأَلَّهُ، كما أنه ليس قَبلَه شيءٌ يَخْلُقُ ويَبْرَأُ، فكما كان واحدًا في إيجادِك؛ فاجْعَلْه واحدًا في تَأَلُّهِك وعُبودِيَّتِك، وكما ابتدأَ وُجودُك وخَلْقُك منه؛ فاجْعَلْ[٩] نِهايةَ حُبِّك وإرادتِك وتَأَلُّهِك

---

(١) وهذان السببان مع الإيجاد هي أسباب الخير. انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٢٠٠).

(٢) ساقطة من (س).
(٣) في(ك) يقتضي.
(٤) في (ك) فالمتعلق.

(٥) في(ك) و(س) الأولية.
(٦) في(ك) عبوديته، والصواب المثبت.

(٧) في(ع) يرفع.
(٨) في (ع) فلذلك.

(٩) في (ك) و(س) فاجعله، والصواب المثبت.

إليه؛ لِيَصِحَّ لك عُبودِيَّتُه باسمِه «الأوَّلِ» و«الآخِرِ».

وأكثرُ الخلْقِ تَعَبَّدُوا له باسمِه «الأوَّلِ» وإنما الشأنُ في التعبُّدِ له باسمِه «الآخِرِ» فهذه عُبودِيَّةُ الرُّسُلِ وأتباعِهم؛ فهو ربُّ العالمين، وإلهُ الْمُرسَلِينَ سبحانَه وبِحَمْدِه.

وأمَّا عُبودِيَّتُه باسمِه «الظاهِرِ» كما[1] فَسَّرَه النبيُّ ﷺ بقولِه: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»[2].

فإذا تَحَقَّقَ العبدُ عُلُوَّه المطلَقَ على كلِّ شيءٍ بذاتِه، وأنه ليس شيءٌ فوقَه[3] أَلْبَتَّةَ، وأنه قاهرٌ فوقَ عِبادِه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدَة: الآية ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠]؛ صارَ لِقَلْبِه أَمَمًا يَقْصِدُه، ورَبًّا يَعْبُدُه، وإلهًا يَتَوَجَّهُ إليه.

حالُ مَن لا يُثْبِتُ العُلُوَّ للهِ

بخِلافِ مَن لا يَدْرِي أين رَبُّه؛ فإنه ضائعٌ، مُشَتَّتُ القلْبِ، ليس لقَلْبِه قِبْلَةٌ يَتَوَجَّهُ نحوَها، ولا مَعبودٌ يَتَوَجَّهُ إليه قَصْدُه، وصاحبُ هذه الحالِ إذا سَلَكَ، وتَأَلَّهَ، وتَعَبَّدَ؛ طَلَبَ قلبُه إلهًا يَسْكُنُ إليه، ويَتَوَجَّهُ إليه، وقد اعْتَقَدَ أنه ليس فوقَ العَرْشِ شيءٌ إلا العَدَمَ، وأنه ليس فوقَ العالَمِ إلهٌ يُعْبَدُ ويُصَلَّى له ويُسْجَدُ، وأنه ليس على العَرْشِ مَن يَصْعَدُ إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ، ولا يُرْفَعُ إليه العملُ الصالحُ؛ جالَ قلبُه[4] في الوُجودِ جَميعِه، فوَقَعَ في الاتِّحادِ[5] ولا بُدَّ، وتَعَلَّقَ قلبُه بالوُجودِ الْمُطْلَقِ الساري في الْمُعَيَّنَاتِ، فاتَّخَذَه[6] إلَهَهُ من دونِ الإلهِ[7] الحقِّ، وظَنَّ أنه قد وَصَلَ إلى عينِ الحقيقةِ!! وإنما تَأَلَّهَ وتَعَبَّدَ لمخلوقٍ مِثْلِه، أو لِخَيالٍ نَحَتَه بفِكْرِه، واتَّخَذَه إلَهًا من دونِ اللهِ[8].

وإلهُ الرسلِ وراءَ ذلك كلِّه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

---

(١) في (ك) و(س) فكما.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ١٩٩ح٢٧١٣نووي) بمثله بأطول منه في آخره.

(٣) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (شيء فوقه).

(٤) في(ك) قبله، وهي تصحيف.

(٥) الاتحاد: هو اختلاط الشيئين وامتزاجهما حتى يصيرا شيئا واحدا. انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص٦).
ويعبر عنه بوحدة الوجود. انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٩).

(٦) في (ك) فأتخذ، والصواب المثبت.

(٧) في (ك) إله، وفي (س) الله.

(٨) في (ك) و(س) زيادة: سبحانه.

ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٣ - ٤].

وقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: (٤ - ٩].

فقد تَعَرَّفَ سبحانَه إلى عِبادِه بكلامِه مَعْرِفَةً لا يَجْحَدُها إلا مَن أَنْكَرَه سبحانَه، وإن زَعَمَ أنه مُقِرٌّ به.

التَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ

والمقصودُ أنَّ التَّعَبُّدَ باسمِ[1] «الظاهرِ» يَجْمَعُ القلْبَ على المعبودِ، ويَجْعَلُ له ربًّا يَقْصِدُه، وصَمَدًا يَصْمُدُ إليه في حوائجِه، ومَلْجَأً يَلْجَأُ إليه، فإذا اسْتَقَرَّ ذلك في قلبِه، وعَرَفَ ربَّه باسمِه الظاهرِ؛ استقامَتْ له عُبودِيَّتُه، وصارَ له مَعْقِلٌ ومَوْئِلٌ يَلْجَأُ إليه، ويَهْرُبُ إليه، ويَفِرُّ كلَّ وَقتٍ إليه.

التعبُّدُ للهِ باسمِه الباطِنِ

وأَمَّا تَعَبُّدُه باسمِه[2] «البَاطِنِ» فأمْرٌ يَضِيقُ نِطاقُ التعبيرِ عن حقيقتِه، ويَكِلُّ اللسانُ عن وَصْفِه، وتَصْطَلِمُ[3] الإشارةُ إليه، وتَجْفُو[4] العبارةُ عنه؛ فإنَّه يَسْتَلْزِمُ مَعرِفَةً بريئةً من شوائبِ التعطيلِ[5]، ....

(١) في (ك) و(س) باسمه. (٢) في (س) باسم.

(٣) تصطلم: أي تنقطع. انظر: «القاموس المحيط» باب الميم، فصل الصاد (١٤٥٨).

(٤) تجفو: أي: يبعد التعبير عن حقيقته. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، باب الجيم (٢/ ٣١٢).

(٥) التعطيل لغة: التفريغ والإخلاء. «القاموس المحيط»، باب اللام، فصل العين (١٣٣٥).

والمراد هنا كما قال ابن القيم: جحد حقائق الأسماء والصفات. انظر: «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٩٦).

وينقسم التعطيل إلى ثلاثة أقسام:

١ - تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

٢ - تعطيل الصانع - سبحانه - عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله. =

مُخَلَّصَةً من فَرْثِ التشبيهِ[١]، مُنَزَّهةً عن رِجْسِ الْحُلولِ والاتِّحادِ، وعبارةً مُؤَدِّيَةً للمعنى، كاشفةً عنه، وذَوْقًا صَحيحًا سليمًا من أذواقِ أهلِ الانحرافِ.

فَمَن رُزِقَ هذا، فَهِمَ معنى اسمِه «الباطنِ» وصَحَّ له التَّعَبُّدُ به.

وسبحانَ اللهِ كم زَلَّتْ في هذا الْمَقامِ أَقدامٌ، وضَلَّتْ فيه أَفهامٌ، وتَكَلَّمَ فيه الزِّنْدِيقُ بلسانِ الصِّدِّيقِ، واشْتَبَه فيه إخوانُ النَّصَارَى بالْحُنَفَاءِ الْمُخْلَصِينَ لِنُبُوِّ[٢] الأفهامِ عنه، وعِزَّةِ تَخَلُّصِ الحقِّ من الباطلِ فيه، والْتِبَاسِ ما في الذِّهْنِ بما في الخارجِ، إلا على مَن رَزَقَه اللهُ بَصيرةً في الْحَقِّ، ونورًا يُمَيِّزُ به بينَ الْهُدَى والضلالِ، وفُرْقَانًا يُفَرِّقُ به[٣] بينَ الحقِّ والباطلِ، ورُزِقَ مع ذلك اطِّلاعًا على أسبابِ الخطأِ، وتَفَرُّقِ الطُّرُقِ، ومثارِ الغَلَطِ[٤]؛ فكانَ له بَصيرةٌ في الْحَقِّ والباطِلِ، وذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العظيمِ.

باب مَعرفةِ الأسماءِ والصفاتِ والتَّعبُّدِ للهِ بِمُقْتَضَاهَا

وبابُ هذه الْمَعرِفَةِ والتعَبُّدِ: هو مَعرفةُ إحاطةِ الربِّ - تَبارَكَ وتعالى - بالعالَمِ وعَظَمَتِه، وأنّ العَوالِمَ كلَّها في قَبْضَتِه، وأنَّ السماواتِ السبعَ والأَرَضِينَ السبْعَ في يَدِهِ كخَرْدَلَةٍ في يدِ العَبْدِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٠]، وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ [البروج: الآية ٢٠]، ولهذا يَقْرِنُ سبحانَه بينَ هذين الاسمينِ الدالَّيْنِ على هذين الْمَعْنَيَيْنِ:

الاسمان الدَّالان على الظهورِ والإحاطةِ

اسمِ العُلُوِّ: الدالِّ على أنه الظاهِرُ، وأنه لا شيءَ فوقَه.

واسمِ العَظَمَةِ: الدالِّ على الإحاطةِ، وأنه لا شيءَ دونَه.

كما قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

= ٣ - تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد. «الداء والدواء» (الجواب الكافي) (ص٢٣١).

(١) التشبيه: تمثيل صفات الله بصفات خلقه.

وينقسم منتحلوه إلى قسمين: قسم شبهوا ذات الباري بذات غيره.

وقسم شبهوا صفاته بصفات غيره. «الفرق بين الفرق» (ص٢١٤). وانظر: «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ١٠٩)، و«الفتاوى» (٤/ ١٥٣)، «الروح» (ص١٦٢).

(٢) أي: لقصور الأفهام عن فهمه. انظر «لسان العرب»، باب النون (١٤/ ٣٠).

(٣) ساقطة من (ك). (٤) في (ك) الغلظ، والصواب المثبت.

[سَبَإ: الآية ٢٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٥].

فهو - تَبارَكَ وتعالى - كما أنه العالِي على خَلْقِه بذاتِه فليس فوقَه شيءٌ، فهو الباطِنُ بذاتِه فليس دونَه شيءٌ، بل ظَهَرَ على كلِّ شيءٍ وكان(١) فَوْقَهُ، وبَطَنَ فكانَ أَقْرَبَ إلى كلِّ شيءٍ من نفسِه، وهو مُحيطٌ به حيث لا يُحيطُ الشيءُ بنفسِه، وكلُّ شيءٍ في قَبْضَتِه، وليس في قَبضةِ نفسِه، فهذا قُرْبُ الإحاطةِ العامَّةِ.

الكلامُ على قُرْبِ الربِّ تَعَالَى

وأمَّا القُرْبُ المذكورُ في القرآنِ والسُّنَّةِ؛ فقُرْبٌ خاصٌّ من عابِدِيه وسائِلِيه وداعِيهِ، وهو من ثَمَرَةِ التعَبُّدِ باسمِه الباطِنِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦] فهذا قُرْبُهُ من داعِيهِ.

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦] فوَحَّدَ(٢) الخبرَ

---

(١) في (ك) (فهو) بدلا من (وكان).

(٢) في (ك) و(س) فذكر، وهذا أصوب من المثبت. وذكر المؤلف في بدائع الفوائد اثني عشر مسلكا على تأنيث (الرحمة) وتذكير الخبر (قريب) وذكر أن أصحها المسلك المركب من السادس والسابع، وباقيها ضعيف وواه ومحتمل، وهذا سياق مجمل المسلكين من كلامه -رحمه الله- حيث يقول: إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر؛ لكونه تبعا له، ومعنى من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره؛ لأنه يفهم منه.
فعلى هذا يكون الأصل في الآية أن الله قريب من المحسنين، وأن رحمة الله قريبة من المحسنين.
فاستغني بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى، وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيرا أحسن من هذا، وهو مسلك لطيف المنزع، دقيق على الأفهام، وهو من أسرار القرآن، والذي ينبغي أن يعبر عنه به أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها، فإذا كانت قريبة من المحسنين، فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منها، بل قرب رحمته تبع، لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين.
فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته. ففي حذف التاء هاهنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة؛ أن الله تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القربين: قربه، وقرب رحمته، ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين، لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربه؛ فإنه لما كان أخص استلزم الأعم، وهو قرب رحمته. فلا تستهن بهذا المسلك؛ فإن له شأنا، وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب، وإن شئت قلت: قربه - تبارك وتعالى - من المحسنين، وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضا قريب منهم، وإذا كان المعنيان متلازمين؛ صح إرادة كل =

و هو قريبٌ عن لَفْظِ الرحمةِ و هي مُؤَنَّثَةٌ؛ إيذانًا بقُرْبه تعالى من الْمُحْسِنِ[١]، فكأنه قالَ: إنَّ اللهَ برَحْمَتِه قَرِيبٌ من الْمحْسِنينَ.

وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ: **«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»**[٢].

وَ**«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»**[٣]، فهذا قُرْبٌ خاصٌّ غيرُ قُرْبِ الإحاطةِ وقُرْبِ البُطونِ.

وفي «الصحيح»[٤] من حديثِ أبي مُوسى أنهم كانوا مع النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فارْتَفَعَت أصواتُهم بالتكبيرِ فقالَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»**، فهذا قُرْبُه من دَاعيهِ وذَاكِرِه، يعني فأيُّ حاجةٍ بكم إلى رَفْعِ الأصواتِ، وهو لقُرْبِه يَسْمَعُها وإن خُفِضَتْ، كما يَسْمَعُها إذا رُفِعَتْ؛ فإنه سميعٌ قريبٌ؟

وهذا القُرْبُ هو من لَوازِمِ الْمَحَبَّةِ، فكُلَّمَا كان الحُبُّ أَعْظَمَ؛ كان القُرْبُ أَكْثَرَ، وقد تَسْتَوْلِي مَحَبَّةُ المحبوبِ على قَلْبِ مُحِبِّه بحيث يَفْنَى بها عن غيرِها، ويَغْلِبُ محبوبُه

= واحد منهما، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ لها، وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد، وهو قربه - تبارك وتعالى - من عبده الذي هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وقرة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلها، فكان في العدول عن قريبة إلى قريب من استدعاء الإحسان وترغيب النفوس فيه ما لا يختلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته، ولا قوة إلا بالله. بتصرف: «بدائع الفوائد» (٣/ ٣٣ - ٣٤). وانظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٢٧ - ٢٢٨)، «فتح الباري» (١٣/ ٤٤٤).

(١) في (ك) و(س) المحسنين.

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٤٩ح٤٨٢نووي) بمثله بأطول منه.

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥٦٩ح٣٥٧٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه؛ والنسائي في «السنن» (١/ ٢٧٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ١٨٢ح١١٤٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٤ح٤٤٣٩) جميعهم بنحوه بأطول منه في أثنائه. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٨٣ح٢٨٣٣)، و«صحيح سنن النسائي» (١/ ١٢٤ح٥٥٧).

(٤) رواه البخاري (٦/ ١٥٧ح٢٩٩٢فتح) و(٧/ ٥٣٧ح٤٢٠٥فتح) و (١١/ ١٩١ح٦٣٨٤فتح) و(١١/ ٢١٧ح٦٤٠٩فتح) و(١١/ ٥٠٩ح٦٦١٠فتح) و(١٣/ ٣٨٤ح٧٣٨٦فتح)، ورواه مسلم (١٧/ ١٩١ - ١٩٢ح٢٧٠٤نووي).

على قَلْبِه حتى كأنه يَراه ويُشاهِدُه.

فإن[١] لم يكن عندَه مَعرِفَةٌ صَحيحةٌ باللهِ وما يَجِبُ له، ويَستحيلُ عليه، وإلا طَرَقَ بابَ الْحُلولِ إن لم يَلِجْهُ، وسببُه ضَعْفُ تَمييزِه، وقُوَّةُ سُلطانِ الْمَحَبَّةِ، واستيلاءُ المحبوبِ على قَلْبِه بحيث يَغيبُ عن مُلاحظةِ سواهُ، وفي مِثْلِ هذه[٢] الحالِ يقولُ: «سُبْحَانِي»، أو: «ما في الْجُبَّةِ إلا اللهُ»[٣] ونحوَ هذا من الشَّطَحَاتِ التي نِهايتُها أن يُغْفَرَ[٤] له ويُعْذَرَ لسُكْرِه وعَدَمِ تَمييزِه في تلك الحالِ[٥].

فالتعَبُّدُ بهذا الاسمِ هو التَّعَبُّدُ بخالِصِ الْمَحَبَّةِ وصَفْوِ الوِدادِ، وأن يكونَ الإلهُ سبحانَه أَقْرَبَ إليه من كلِّ شيءٍ؛ وأَقْرَبَ إليه من نفسِه، مع كونِه ظاهرًا ليس فوقَه شيءٌ. ومَن كَثُفَ ذِهْنُه، وغَلُظَ[٦] طَبْعُه عن فَهْمِ هذا؛ فلْيَضْرِبْ عنه صَفْحًا إلى ما هو أَوْلَى به، فقد

---

(١) في (ك) فإذا.

(٢) في (ك) هذا.

(٣) ينسب هذا القول للحلاج. انظر «وفيات الأعيان»: (٢/ ١٤٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه يذكر عن أبي يزيد البسطامي. انظر: ««منهاج السنة»» (٥/ ٣٥٧) وكذلك قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٤٦) وقال: ونقلوا عن أبي يزيد أشياء الشأن في صحتها عنه.

(٤) في (ع) تغفر.

(٥) وهذه الأحوال التي يزول فيها التمييز بين العبد والرب والمأمور والمحظور، فهي وإن كانت كفرا وليست علما ولا حقا، فينظر إلى من صدرت منه؛ فإن كان عاقلا ويتوله ليسقط عنه اللوم؛ فلا يعذر، أو أنه يتواجد ويتساكر؛ ليظن به خير ويرفع عنه الملام في الأمور المنكرة، أو يعرف منه أنه قد تبين له الحق ولكنه متبع لهواه، أو أنه متبع للأولين المعذورين في أقوالهم وأفعالهم المخالفة للشرع؛ فهؤلاء لا يعذرون؛ لأن العذر الذي قام في حق المتابع منتف في حق المتابع فلا وجه لمتابعتهم فيه، مع أن بعض الأوائل الذين تصدر عنهم بعض الشطحات كأبي يزيد البسطامي إذا أفاقوا ينكرون ما صدر عنهم. انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٣١٣)، (١٠/ ٣٧٨)، و«منهاج السنة» (٥/ ٣٥٧)، (٣٨٣).

والقول بإعذارهم يحتاج إلى برهان، فما الذي أوصلهم إلى هذه الحال التي زالت به العقول لتصدر منهم مثل هذه العبارات التي صارت فيما بعد متكأ للطرقية المنحرفة؟! فإن كان السبب الموصل إلى هذه الحال مشروعا؛ فقد كلفوا أنفسهم فوق وسعها حيث أوصلتهم هذه المشقة إلى فقدان العقول، والله لم يتعبدنا إلا بما في وسعنا، وإن لم يكن مشروعا فلا عذر لهم؛ لأنه عمل مردود ليس عليه أمر الرسول ﷺ وقد قال: **«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»**.

(٦) في (ك) غلط، والصواب المثبت.

قيلَ:

إذا لم تَسْتَطِعْ شيئًا فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ[١]

فمَن لم يكن له ذَوْقٌ من قُرْبِ الْمَحَبَّةِ، ومَعرِفَةٌ بقُرْبِ المحبوبِ من مُحِبِّه غاية القُرْبِ، وإن كان بينَهما غايةُ المسافةِ - ولا سِيَّمَا إذا كانت الْمَحَبَّةُ من الطَّرَفَيْنِ، وهي مَحَبَّةٌ بريئةٌ من العِلَلِ والشوائبِ والأغراضِ[٢] القادحةِ فيها - فإنَّ المحِبَّ كثيرًا ما يَسْتَوْلِي مَحبوبُه على قَلْبِه وذِكْرِه، ويَفْنَى عن غيرِه، ويَرِقُّ قَلْبُه وتَتَجَرَّدُ[٣] نفسُه، فيُشاهِدُ محبوبَه كالحاضِرِ معه، القريبِ إليه، وبينَهما من البُعْدِ ما بينَهما، وفي هذه[٤] الحالِ يكونُ في قلبِه وُجودُه العِلْمِيُّ، وفي لسانِه وُجودُه اللفْظِيُّ، فيَسْتَوْلِي هذا الشهودُ عليه ويَغيبُ به، فيَظُنُّ أنَّ في عينِه[٥] وُجودَه الخارجيَّ[٦]؛ لغَلَبَةِ حُكْمِ القلبِ والروحِ، كما قِيلَ:

خَيالُك في عَيْنِي وذِكْرُك في فَمِي ومَثْواكَ في قَلْبِي فأينَ تَغيبُ[٧]

[٨] هذا ويكون ذلك المحبوبُ بعينِه بينَه وبينَ عَدُوِّه من البُعْدِ ما بينَهما[٩]، وإن قَرُبَت الأبدانُ، وتَلاصَقَت الدِّيارُ.

أركانُ العلمِ والْمَعْرِفَةِ

والمقصودُ أنَّ الْمِثالَ العِلْمِيَّ غيرُ الحقيقةِ الخارجيَّةِ، وإن كان مُطابِقًا لها، لكنَّ المثالَ العِلْمِيَّ مَحلُّه القلبُ[١٠]، والحقيقةَ الخارجيَّةَ مَحلُّها الخارِجُ، فمَعرِفةُ هذه الأسماءِ الأربعةِ وهي: «الأوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطنُ» هي أركانُ العِلْمِ والمعرفةِ، فحَقِيقٌ بالعَبْدِ أن يَبْلُغَ في مَعرِفتِها إلى حيث يَنتهِي به قُواه وفَهْمُه.

---

(١) نسب البيت إلى قصيدة لعمرو بن معديكرب. انظر «الإصابة» لابن حجر (٣/ ٢١) و«الأصمعيات» (ص١٤٧) وورد في «ديوان ابن عبد ربه الأندلسي» (ص١٢٥)، ولعله في الديوان قد ورد تضمينا.

(٢) في (ك) الأعراض، والصواب المثبت.

(٣) في (س) وتجرد، والصواب المثبت.

(٤) في (ع) هذا. (٥) في (ع) غيبه، والصواب المثبت.

(٦) في (س) الخارج، والصواب المثبت.

(٧) «معجم الأدباء» لياقوت الحموي(٣/ ٤٢١). (٨) في (ك) زيادة: (ومن).

(٩) في(ك) و(س) تقديم وتأخير في (من البعد ما بينهما).

(١٠) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومما يشبه المثال العلمي رؤية الرب تعالى في المنام؛ فإنه يرى في صورة مختلفة، يراه كل عبد على حسب إيمانه» «منهاج السنة» (٥/ ٣٨٤).

واعْلَمْ أنَّ لك أنت أوَّلًا وآخِرًا وباطنًا وظاهرًا[١]، بل كلُّ شيءٍ فله أوَّلٌ وآخِرٌ وظاهِرٌ وباطنٌ، حتى الْخَطْرَةُ[٢] واللحظةُ[٣] والنفَسُ، وأدْنى من ذلك، وأكبرُ[٤].

فأَوَّلِيَّةُ اللهِ ﷻ سابقةٌ على أَوَّلِيَّةِ كلِّ ما سواهُ، وآخِرِيَّتُه ثابتةٌ بعدَ آخِرِيَّةِ كلِّ ما سِواهُ.

معنى الظهورِ ودَلالتُه على العُلُوِّ

فأَوَّلِيَّتُه سَبْقُه لكلِّ شيءٍ، وآخِرِيَّتُه بقاؤُه بعدَ كلِّ شيءٍ، وظاهِرِيَّتُه سبحانَه فَوْقِيَّتُه وعُلُوُّه على كلِّ شيءٍ، ومعنى الظهورِ يَقْتَضِي العُلُوَّ، وظاهرُ الشيءِ هو ما عَلاَ منه، وأَحاطَ بباطِنِه.

وبُطونُه سبحانَه إحاطتُه بكلِّ شيءٍ بحيث يكونُ أَقْرَبَ إليه من نفسِه، وهذا قُرْبٌ غيرُ قرْبِ الْمُحِبِّ من حبيبِه؛ هذا لونٌ وهذا لونٌ.

فمَدَارُ هذه الأسماءِ الأربعةِ على الإحاطةِ، وهي إحاطتان:

معاني أسماءِ الله «الأوَّلِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ» واشتمالُها على أركانِ التوحيدِ

زَمانيَّةٌ ومَكانيَّةٌ: فأحاطَتْ أوَّلِيَّتُه وآخِرِيَّتُه بـ«القَبْلِ والبَعْدِ»؛ فكلُّ سابقٍ انتهى إلى أَوَّلِيَّتِه، وكلُّ آخِرٍ انْتَهَى إلى آخِرِيَّتِه، فأَحاطَتْ[٥] أوَّلِيَّتُه وآخِرِيَّتُه بالأوائلِ والأواخرِ.

وأَحاطتْ[٦] ظاهريَّتُه وباطِنِيَّتُه بكلِّ ظاهرٍ وباطنٍ؛ فما من ظاهرٍ إلا واللهُ فوقَه، وما من باطنٍ إلا واللهُ دُونَه، وما من أَوَّلٍ إلا واللهُ قَبْلَه، وما من آخِرٍ إلا واللهُ بعدَه.

فـ «الأَوَّلُ»: قِدَمُه، و«الآخِرُ»: دوامُه وبقاؤُه، و«الظاهرُ»: عُلُوُّه وعظَمَتُه، و«الباطنُ»: قُرْبُه ودُنُوُّه.

فسَبَقَ كلَّ شيءٍ بأَوَّلِيَّتِه، وبَقِيَ بعدَ كلِّ شيءٍ بآخِرِيَّتِه، وعَلاَ على كلِّ شيءٍ بظُهورِه، ودَنَا من كلِّ شيءٍ ببُطُونِه، فلا تُوارِي منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أَرْضًا، ولا يَحْجُبُ عنه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطنُ له ظاهرٌ، والغيْبُ عندَه شَهادةٌ، والبعيدُ منه قريبٌ، والسرُّ عندَه عَلانِيَةٌ.

---

(١) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (باطنا وظاهرا).

(٢) الخطرة: الهاجس. «القاموس المحيط» باب الراء، فصل الخاء (ص٤٩٤)، وانظر: «لسان العرب» - باب الخاء (٤/١٣٦).

(٣) اللحظة: النظر بمؤخرة العين، وهو أشد التفاتا من الشزر. «لسان العرب»، باب اللام (١٢/٢٤٩) و«القاموس المحيط»، باب الظاء، فصل اللام (ص٩٠٢).

(٤) في (ك) و(س) وأكثره.

(٥) في (س) فإحاطة، والصواب المثبت.

(٦) في (س) وإحاطة، والصواب المثبت.

فهذه الأسماءُ الأربعةُ تَشْتَمِلُ على أركانِ التوحيدِ، فهو الأوَّلُ في آخِرِيَّتِه، والآخِرُ في أوَّلِيَّتِه، والظاهِرُ في بُطونِه، والباطنُ في ظُهورِه، لم يَزَلْ أوَّلًا وآخِرًا وظاهرًا وباطنًا.

مَراتِبُ التعبُّدِ للهِ بأسمائِه الأولِ والآخرِ..

والتعبُّدُ بهذه الأسماءِ له رُتبتان:

الرُّتبةُ[١] **الأُولَى**: أن يُشْهِدَ[٢] الأَوَّلِيَّةَ منه تعالى في كلِّ شيءٍ، والآخِرِيَّةَ بعدَ كلِّ شيءٍ، والعُلُوَّ والفَوْقِيَّةَ فوقَ كلِّ شيءٍ، والقُرْبَ والدُّنُوَّ دُونَ كلِّ شيءٍ، فالمخلوقُ يَحْجُبُه مثلُه عن ما هو دونَه فيَصيرُ الحاجبُ بينَه وبينَ المحجوبِ، والربُّ - جَلَّ جَلاَلُهُ - ليس دونَه شيءٌ هو[٣] أَقربُ إلى الْخَلْقِ منه.

والْمَرْتَبَةُ الثانيةُ من التَّعَبُّدِ: أن يُعامِلَ كلَّ اسمٍ بِمُقتضاهُ؛ فيُعامِلَ سَبْقَه تعالى بأَوَّلِيَّتِه لكلِّ شيءٍ، وسَبْقَه بفَضْلِه وإحسانِه الأسبابَ كلَّها بما يَقتَضِيهِ ذلك من إفرادِه، وعَدَمِ الالتفاتِ إلى غيرِه، والوثوقِ بسِواهُ، والتَّوَكُّلِ على غيرِه، فمَن[٤] الذي شَفَعَ[٥] لك في الأَزَلِ حيث لم تكنْ شيئًا مَذكورًا حينَ[٦] سمَّاكَ باسمِ الإسلامِ، ووَسَمَك بسِمَةِ الإيمانِ، وجَعَلَك من أهلِ قَبضةِ اليمينِ، وأَقْطَعَك في ذلك الغيْبِ عِمالاتِ المؤمنينَ، فعَصَمَك عن العِبادةِ للعَبيدِ، وأَعْتَقَك عن[٧] التزامِ الرِّقِّ لِمَن له شَكْلٌ ونَديدٌ، ثم وَجَّهَ وِجْهَةَ قلبِك إليه - تَبارَكَ وتعالى - دونَ ما سِواهُ؟

فاضْرَعْ إلى الذي عَصَمَك من السجودِ للصَنَمِ، وَقَضَى لك بقَدَمِ الصدْقِ في القِدَمِ، أن يُتِمَّ عليك نِعمةً هو ابْتَدَأَها، وكانت أوَّلِيَّتُها منه بلا سَبَبٍ منك، وَاسْمُ بِهِمَّتِكَ عن مُلاحظةِ الأغيارِ[٨]، ولا تَرْكَنْ[٩] إلى الرُّسومِ[١٠] والآثارِ، ولا تَقْنَعْ بالخَسيسِ الدُّونِ،

---

(١) في (س) المرتبة. (٢) في (ك) و(س) تشهد. (٣) ساقطة من(ك) و(س).

(٤) في (ك) و(س) زيادة: (ذا). (٥) في (ك) يشفع. (٦) في (ك) و(س) حتى.

(٧) في (ك) من.

(٨) في (س) الاختيار، والصواب المثبت، والمقصود بالأغيار: غير الله تعالى من العشراء ونحوهم.

انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٣)، و«موسوعة مصطلحات الصوفية» حرف الألف (ص٧٤).

(٩) في (ك) و(س) تركنن.

(١٠) الرسم: هو كل ما سوى الله كالخلق وصفاته؛ لأن الرسوم هي الآثار، انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٩٦)، (٣/ ١٣٩)، (٢٠٤)، (٢٠٨)، (٢٣٠)، (٣٩١)، و«موسوعة مصطلحات الصوفية» حرف الراء (ص٣٩٨) و«معجم ألفاظ الصوفية» لحسن الشرقاوي حرف الراء (ص١٥١).

وعليك بالْمَطالِبِ العاليةِ، والْمَراتِبِ الساميةِ التي لا تُنالُ إلا بطاعةِ اللهِ.

ما عندَ اللهِ لا يُنالُ إلا بطاعتِه

فإنَّ اللهَ ﷻ قضَى أن لا يُنالَ ما عندَه إلا بطاعتِه، ومَن كان للهِ كما يُريدُ؛ كان اللهُ له فَوقَ ما يُريدُ، فمَن أَقْبَلَ إليه؛ تَلَقَّاهُ من بعيدٍ، ومَن تَصَرَّفَ بحَوْلِه وقُوَّتِه؛ أَلانَ له الحديدَ، ومَن تَرَكَ لأَجْلِه؛ أعطاهُ فوقَ الْمَزيدِ، ومَن أرادَ مُرادَه الدِّينِيَّ؛ أَرادَ ما يُريدُ.

حالُ العبدِ الصادقِ مع ربِّه

ثم اسْمُ بسِرِّكَ إلى الْمَطْلَبِ الأَعْلَى، واقْصُرْ حُبَّكَ وتَقَرُّبَكَ على مَن سَبَقَ فَضْلُه وإحسانُه إليك كلَّ سببٍ منك، بل هو الذي جادَ عليك بالأسبابِ، وهَيَّأَها لك، وصَرَفَ عنك مَوانِعَها، وأَوْصَلَكَ بها إلى غايتِكَ المحمودةِ، فتَوَكَّلْ عليه وَحْدَه، وعامِلْهُ وَحْدَه، وآثِرْ مَرضاتَه[١] وَحدَه، واجعَلْ حُبَّه ومَرضاتَه هو كَعْبَةَ قَلبِك التي لا تَزالُ طائفًا بها، مُسْتَلِمًا لأركانِها، واقفًا بِمُلْتَزَمِها.

فيا فَوْزَكَ، ويا سعادَتَكَ إن اطَّلَعَ سبحانَه على ذلك من قَلْبِكَ، ماذا يَفيضُ عليك من مَلابِسِ نِعَمِه، وخُلَعِ أفضالِه، «**اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ**»[٢].

كيفيَّةُ التعبُّدِ للهِ باسْمِه الآخِرِ

ثم تَعَبَّدْ له باسمِه «الآخِرِ»؛ بأن تَجْعَلَه وَحْدَه غايتَكَ التي لا غايةَ لك سواهُ، ولا مَطلوبَ لك وراءَه، فكما انتَهَتْ إليه الأَواخِرُ، وكان بعدَ كلِّ آخِرٍ، فكذلك اجْعَلْ نِهايَتَكَ إليه؛ فإنَّ إلى ربِّكَ الْمُنْتَهَى؛ إليه انْتَهَت الأسبابُ والغاياتُ، فليس وراءَه مَرْمًى يُنْتَهَى إليه. وقد تَقَدَّمَ التنبيهُ على ذلك وعلى التَّعَبُّدِ باسمِه «الظاهِرِ».

كيفيَّةُ التعبُّدِ للهِ باسمِه الباطِنِ

وأَمَّا التَّعَبُّدُ باسمِه «الباطِنِ» فإذا شَهِدْتَ إحاطتَه بالعوالِمِ، وقُرْبَ البعيدِ[٣] منه، وظهورَ البواطِنِ له، وبُدُوَّ السرائرِ له[٤]، وأنه لا شيءَ بينَه وبينَها؛ فعَامِلْهُ بِمُقْتَضَى هذا الشهودِ، وطَهِّرْ له سَريرتَكَ؛ فإنها عِنْدَه عَلانيةٌ، وأَصْلِحْ له غَيْبَكَ؛ فإنه عندَه[٥] شَهادةٌ، وزَكِّ له باطِنَكَ؛ فإنه عندَه ظاهِرٌ.

فانْظُرْ كيف كانت هذه الأسماءُ الأربعةُ جِمَاعَ الْمَعرِفَةِ باللهِ وجِمَاعَ العُبودِيَّةِ له.

---

(١) في (ك) و(س) رضاه.

(٢) رواه البخاري (٢/ ٣٧٨ح٨٤٤فتح) و(١١/ ١٣٧ح٦٣٣٠فتح) و(١١/ ٥٢١ح٦٦١٥فتح) و(١٣/ ٢٧٨ح٧٢٩٢فتح) ومسلم (٤/ ١٤١ ح١٩٤ نووي)، و (٤/ ١٤٥)، (١٤٦ح٤٧٧)، (٤٧٨نووي).

(٣) في (ك) العبيد، والصواب المثبت.

(٤) ساقطة من (ك) و(س). (٥) في(ك) عند، والصواب المثبت.

فهنا وَقَفَتْ شَهادةُ العبدِ مع فَضْلِ خالقِه ومِنَّتِه، فلا يَرَى لغيره شيئًا إلا به وبحَوْلِه وقُوَّتِه، وغابَ بفَضْلِ مولاه الحقِّ عن جميعِ ما منه هو، مِمَّا كان يَسْتَنِدُ إليه، أو يَتَحَلَّى به، أو يَتَّخِذه عُقْدَةً[1]، أو يَراهُ ليومِ فاقَتِه، أو يَعْتَمِدُ عليه في مُهِمٍّ من مُهَمَّاتِه، فكلُّ ذلك من قُصورِ نَظَرِه[2] وانعكاسِه عن الحقائقِ والأصولِ إلى الأسبابِ والفروعِ، كما هو شأنُ الطبيعةِ والْهَوَى ومُوجِبُ الظُّلَمِ والْجَهْلِ، والإنسانُ ظَلومٌ جَهولٌ.

فمَن جَلَى اللهُ سبحانَه صَدَأَ بَصيرتِه، وكَمَّلَ فِطْرَتَه، وأَوْقَفَه على مَبادِئِ الأمورِ وغاياتِها ومَناطِها ومَصادِرِها ومَوارِدِها؛ أَصْبَحَ كالْمُفْلِسِ حَقًّا من علومِه وأعمالِه وأحوالِه وأذواقِه؛ يقولُ: أَستغفِرُ اللهَ من عِلْمِي ومن عَمَلِي، أي: من انتسابِي إليهما، وغَيْبَتِي بهما عن فَضْلِ مَن ذَكَرَنِي بهما، وابْتَدَأَنِي بإعطائِهما من غيرِ تَقَدُّمِ سببٍ[3] مِنِّي يُوجِبُ ذلك.

ثوابُ مَن شَهِدَ فَضْلَ اللهِ عليه

فهو لا يَشْهَدُ غيرَ فَضْلِ مَوْلاَهُ، وسَبْقِ مِنَّتِه ودَوامِها[4]، فيُثِيبُه[5] مَوْلاَه على هذه الشَّهادةِ العاليةِ[6] بحقيقةِ الفَقْرِ الأَوْسَطِ بينَ الفقرينِ الأَدْنَى والأعلى ثوابين:

أحدُهما: الْخَلاصُ من رُؤيةِ الأعمالِ حيث كان يَراها، ويَتَمَدَّحُ بها، ويَستَكْثِرُها؛ فيَسْتَغْرِقُ بِمُطالَعَةِ الفضْلِ غائبًا عنها ذاهبًا عنها فانيًا عن رؤيتِها.

الثوابُ الثاني: أن يَقْطَعَه عن شُهودِ الأحوالِ؛ أي: عن شهودِ نفسِه فيها مُتَكَثِّرَةً بها.

فإنَّ الحالَ مَحلُّه الصدْرُ، والصدْرُ بيتُ القلْبِ والنفْسِ، فإذا نَزَلَ العطاءُ في الصدْرِ للقلْبِ[7]، وثَبَتَ النفسُ لتَأْخُذَ نصيبَها من العَطاءِ، فتَتَمَدَّحُ[8] به، وتَدُلُّ[9] به، وتَزْهُو، وتَستطيلُ، وتُقَرِّرُ إنِيَّتَها[10]؛ لأنها جاهلةٌ ظالِمَةٌ، وهذا مُقْتَضَى الجهلِ والظُّلْمِ.

---

(١) في (ك) عمدة، والصواب المثبت، وعقدة، بالضم، أي: الولاية على البلد، والضيعة، والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكا. «القاموس» باب الدال فصل العين (ص٣٨٣)، وانظر: «لسان العرب»، باب العين(٩/ ٣١١).

(٢) في (س) نضره، وهو خطأ إملائي. (٣) في (ك) لسبب.

(٤) في(ك) و(س) ودوامه، والصواب المثبت. (٥) في (ع) فيثبته، والصواب المثبت.

(٦) في (ع) الغالية، والصواب المثبت.

(٧) في (ع) انقلب، والصواب المثبت. (٨) في(ك) فتمدح، والصواب المثبت.

(٩) في (س) وتبدل، والصواب المثبت.

(١٠) إنيتها: أي: حقيقتها وذاتها. انظر: «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي (١/ ٩٦)، و«موسوعة مصطلحات الصوفية» حرف الألف (ص١١٥).

صِفَةُ المِنَّةِ وَمَعْنَى المنَّانِ

فإذا وَصَلَ إلى القلبِ نورُ صفةِ الْمِنَّةِ، وشَهِدَ معنى اسمِه «الْمَنَّانِ»، وتَجَلَّى سبحانَه على قلبِ عَبْدِه بهذا الاسمِ مع اسمِه «الْأَوَّلِ»؛ ذَهَلَ القلبُ والنفْسُ به، وصارَ العبدُ فقيرًا إلى مَولاهُ بِمُطالَعَةِ سَبْقِ فضْلِه الأوَّلِيِّ[١]، فصارَ مقطوعًا عن[٢] شُهودِ أمْرٍ أو حالٍ يَنْسِبُه إلى نفسِه؛ بحيث يكونُ[٣] بشَهادتِه لحالِه مَقْصُومًا[٤] مَقطوعًا عن رؤيةِ عِزَّةِ مَولاه وفاطِرِه، ومُلاحظَةِ صِفاتِه.

فصاحبُ شهودِ الأحوالِ مُنقطِعٌ عن رؤيةِ مِنَّةِ[٥] خالقِه وفَضْلِه، ومُشاهدَةِ سَبْقِ الأوَّلِيَّةِ للأسبابِ كلِّها، وغائبٌ بِمُشاهدَةِ عِزَّةِ نفسِه عن عِزَّةِ مَوْلاَهُ، فيَنعكِسُ هذا الأمْرُ في حقِّ هذا العبْدِ الفقيرِ، وتَشْغَلُه[٦] رؤيةُ عِزَّةِ مولاه ومِنَّتِه، ومُشاهَدَةُ سَبْقِه بالأوَّلِيَّةِ عن حالٍ يَعْتَزُّ بها العَبْدُ أو يَشْرُفُ[٧] بها.

وكذلك الرجوعُ إلى السبْقِ بِمُطالَعَةِ الفَضْلِ يُمَحِّصُ من أَدناسِ[٨] مُطالَعاتِ الْمَقاماتِ، فالْمَقامُ ما كان راسخًا فيه، والحالُ ماكان عارضًا لا يَدُومُ[٩].

الفرقُ بينَ الْمَقامِ والحالِ

فمُطالعاتُ الْمَقاماتِ[١٠]، وشَرَفُه[١١] بها، وكونُه يَرَى نفسَه صاحبَ مَقامٍ قد حَقَّقَه وكَمَّلَه، فاسْتَحَقَّ أن يُنْسَبَ إليه ويُوصَفَ به، مِثْلُ أن يُقالَ: زاهدٌ، صابرٌ، خائفٌ، راجٍ، مُحِبٌّ، راضٍ، فكونُه يرى نفسَه مُسْتَحِقًّا بأن تُضافَ الْمَقاماتُ إليه، وبأن يُوصَفَ بها على وجهِ الاستحقاقِ لها خروجٌ عن الفَقْرِ إلى الغِنَى، وتَعَدٍّ لطَوْرِ العُبوديَّةِ، وجَهْلٌ بحقِّ الرُّبوبيَّةِ؛ فالرجوعُ إلى السبْقِ بِمُطالَعَةِ الفضْلِ يَسْتَغْرِقُ[١٢] هِمَّةَ العَبْدِ ويُمَحِّصُه[١٣] ويُطَهِّرُه[١٤] من مِثْلِ هذه الأَدناسِ، فيَصيرُ مُصَفًّى بنورِ اللهِ عن رذائلِ هذه الأرجاسِ.

---

(١) في (ع) و(ك) و(س) الأول.
(٢) في(ك) من.
(٣) في (ك) تكون، والصواب المثبت.
(٤) في (ع) مقصوما.
(٥) في (س) منته، والصواب المثبت.
(٦) في(س) ويشغله
(٧) في (س) شرف.
(٨) في (س) دناس، والصواب المثبت.
(٩) وقد ذكر المؤلف فروقا بين الحال والمقام غير هذا. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٣٥)، (٢/ ١٧١)، (٤٤٧)، (٤٦٩).
(١٠) في (ك) و(س) المقامة.
(١١) في (ك) و(س) وتشرفه.
(١٢) في(ع) تستغرق.
(١٣) في (ع) وتمحصه.
(١٤) في (ع) وتطهره.

الدرجةُ الثالثةُ للفقرِ

قولُه: «والدرجةُ الثالثةُ: صِحَّةُ الاضطرارِ والوقوعِ في يدِ التَّقَطُّعِ الوَحْدَانِيِّ والاحتباسُ في قيدِ التجريدِ، وهذا فَقْرُ الصُّوفِيَّةِ».

الفرقُ بينَ أنواعِ الفَقْرِ

هذه[(١)] الدرجةُ فوقَ الدرجتين السابقتين عندَ أربابِ السلوكِ، وهي الغايةُ التي شَمَّرُوا إليها، وحَامُوا حولَها؛ فإنَّ الفَقْرَ الأَوَّلَ فَقْرٌ عن الأَغراضِ[(٢)] الدُّنْيَوِيَّةِ، والفَقْرَ الثاني [فَقْرٌ عن][(٣)] رؤيةِ الْمَقاماتِ والأحوالِ، وهذا الفقرُ الثالثُ فَقْرٌ عن مُلاحظَةِ الوُجودِ[(٤)] الساترِ للعَبْدِ عن مُشاهدةِ الوُجودِ، فَيُبْقِي الوُجودَ الحادثَ في قَبضةِ الحقِّ ﷻ كالهباءِ المنثورِ في الهواءِ يَتَقَلَّبُ بتقليبِه[(٥)] إيَّاهُ، ويَصيرُ في شاهدِ العبدِ كما هو في الخارجِ، فيَمحو رؤيةَ التوحيدِ عن العَبْدِ شواهدُ استبدادِه واستقلالِه بأَمْرٍ من الأمورِ، ولو في النَّفْسِ واللمْحَةِ والطَّرْفَةِ والْهَمَّةِ والخاطِرِ والوَسوسةِ، إلا بإرادةِ المريدِ الحقِّ سبحانَه وتدبيرِه وتقديرِه ومَشيئتِه، فيَبْقَى العبْدُ كالكُرَةِ الْمُلقاةِ بينَ صَوْلَجَانَاتِ القضاءِ والقدَرِ؛ تُقَلِّبُها كيفَ شاءتْ بصِحَّةِ شَهادةِ قَيُّومِيَّةِ مَن له الخلْقُ والأَمْرُ، وتَفَرُّدِه بذلك دونَ ما[(٦)] سواهُ.

وهذا أَمْرٌ[(٧)] لا يُدْرَكُ بِمُجَرَّدِ العلْمِ، ولا يَعْرِفُه إلا مَن تَحَقَّقَ به أو لاحَ له منه بارِقٌ، ورُبَّمَا ذَهَلَ صاحبُ هذا الْمَشْهَدِ عن الشعورِ بوُجودِه؛ لغَلَبَةِ شهودِ وُجودِ القَيُّومِ عليه، فهناك يَصِحُّ من مِثلِ هذا العبدِ الاضطرارُ[(٨)] إلى الحيِّ القَيُّومِ، ويَشهدُ[(٩)] في كلِّ ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِه الظاهرةِ والباطنةِ فَقْرًا تامًّا إليه من جِهةِ كونِه ربًّا، ومن جهةِ كونِه إلهًا مَعبودًا لا غِنًى له عنه كما لا وُجودَ له بغيرِه.

فهذا هو الفَقْرُ الأَعْلَى الذي دَارَتْ عليه رَحَى القومِ، بل هو قُطْبُ تلك الرَّحَى.

وإنما يَصِحُّ له هذا بمعرِفتينِ لا بُدَّ منهما: مَعرفةِ حقيقةِ الربوبيَّةِ والإلهيَّةِ، **ومَعرفةِ**

---

(١) في (ك) وهذه.

(٢) في (ع)، (ك)، (س) الأعراض، والصواب المثبت.

(٣) في (س) هو عين، والصواب المثبت.

(٤) في(ك) و(س) الموجود.

(٥) في (ك) و(س) بتقلبه، والصواب المثبت.

(٦) في (ك) من.

(٧) في (ع) الأمر.

(٨) الاضطرار: شهود كمال الضرورة والفاقة علما وحالا. «مدارج السالكين» (٢/٤٤٨).

(٩) في (س) وشهد، والصواب المثبت.

حقيقةِ النفْسِ والعبوديَّةِ.

فهناك[١] يَتِمُّ له مَعرِفَةُ هذا الفَقْرِ، فإن أَعْطَى هاتين الْمَعرِفتين حقَّهما من العُبوديَّةِ؛ اتَّصَفَ بهذا الفَقْرِ حالًا، فما أَغناهُ حينئذٍ من فَقيرٍ! وما أَعَزَّهُ من ذَليلٍ! وما أَقواهُ من ضَعيفٍ! وما آنَسَهُ من وَحيدٍ!

فهو الْغَنِيُّ بلا مالٍ، القويُّ[٢] بلا سُلطانٍ، العزيزُ بلا عَشيرةٍ، الكَفِيُّ[٣] بلا عَتادٍ[٤]؛ قد قَرَّتْ عينُه باللهِ؛ فقَرَّتْ به كلُّ عَينٍ، واسْتَغْنَى باللهِ؛ فافْتَقَرَ إليه الأغنياءُ والْمُلوكُ.

ولا يَتِمُّ له ذلك إلا بالبراءةِ من فَرْثِ الْجَبْرِ ودَمِه، فإنه إن طَرَقَ بابَ الجبْرِ؛ انْحَلَّ عنه نِظامُ العُبوديَّةِ، وخَلَعَ رِبقةَ الإسلامِ من عُنُقِه، وشَهِدَ أفعالَه كلَّها طاعاتٍ للحُكْمِ القَدَرِيِّ الكَوْنِيِّ، وأَنْشَدَ:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَختارُهُ مني ففِعْلِي كلُّه طَاعاتُ[٥]

وإذا قِيلَ له: اتَّقِ اللهَ ولا تَعْصِهِ. يقولُ: إنْ كُنتُ عاصيًا لأَمْرِه؛ فأنا مُطيعٌ لحُكْمِه وإرادتِه!! فهذا مُنْسَلِخٌ من[٦] الشرائعِ، بَرِيءٌ من دَعوةِ الرُّسُلِ، شقيقٌ لعَدُوِّ اللهِ إبليسَ[٧].

بل وَظيفةُ الفقيرِ في هذا الْمَوْضِعِ وفي هذه الضرورةِ مُشاهَدَةُ الأَمْرِ والشرْعِ، ورؤيةُ قِيامِه بالأفعالِ، وصُدورِهَا منه كَسْبًا واختيارًا، وتَعَلُّقُ الأمرِ والنهيِ بها طَلَبًا وتَرْكًا، وتَرَتُّبُ الذَّمِّ والمدْحِ عليها شَرْعًا وعَقْلًا، وتَعَلُّقُ الثوابِ والعِقابِ بها آجِلًا وعاجِلًا.

فمتى اجْتَمَعَ له هذا الشهودُ الصحيحُ إلى شهودِ الاضطرارِ في حَرَكَاتِه وسَكَنَاتِه، والفاقةِ التامَّةِ إلى مُقَلِّبِ القلوبِ، ومَن بِيَدِه أَزِمَّةُ الاختيارِ، ومَن إذا شاءَ شيئًا؛ وَجَبَ وُجودُه، وإذا لم يَشَأْ[٨]؛ امْتَنَعَ وُجودُه، وأنه لا هادِيَ لِمَنْ أَضَلَّه، ولا مُضِلَّ لِمَنْ هداه،

---

(١) في (س) فهنالك.

(٢) في (ع) تحت كلمة (القوي) (الغالب). (٣) في (ع) المكتفي.

(٤) في (ك) عياذ.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٨/ ٢٥٧) ونسبه لابن إسرائيل.

(٦) في (ك) و(س) عن. (٧) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٣).

(٨) في(ع)، (ك)، (س) يشاءه.

وأنه هو الذي يُحَرِّكُ القلوبَ بالإراداتِ، والجوارحَ بالأعمالِ، وأنها مُدَبَّرَةٌ تحتَ تَسخيرِه، مُذَلَّلَةٌ تحتَ قَهْرِه، وأنها أَعْجَزُ وأَضعَفُ أن تَتحرَّكَ بدونِ مَشيئتِه، وأنَّ مَشيئتَه نافذةٌ فيها كما هي نافذةٌ في حَركاتِ الأفلاكِ والمياهِ والأشجارِ، وأنه حَرَّكَ كُلاًّ منها(١) بسبَبٍ اقْتَضَى تَحريكَه وهو خالقُ المسبَّبِ(٢) الْمُقْتَضَى، وخالِقُ السبَبِ خالقٌ لِلْمُسَبَّبِ؛ فخالِقُ الإرادةِ الحادثةِ(٣) التي هي سببُ الحركةِ والفعْلِ الاختياريِّ خالقٌ لهما، وحُدوثُ الإرادةِ بلا خالقٍ مُحْدَثٌ مُحالٌ، وحُدوثُها بالعَبْدِ بلا إرادةٍ منه مُحالٌ، وإن كان بإرادةٍ فإرادتُه للإرادةِ كذلك، ويَستحِيلُ بها التَّسَلْسُلُ(٤).

الفقرُ الصحيحُ وكيفيَّةُ تَحْقِيقِه

فلا بدَّ من فاعلٍ أَوْجَدَ تلك الإرادةَ التي هي سَبَبُ الفعْلِ، وهنا يَتَحقَّقُ الفقْرُ والفاقَةُ والضرورةُ التامَّةُ إلى مالِكِ الإراداتِ وربِّ القلوبِ ومُصَرِّفِها كيفَ شاءَ، فما شاءَ أن يُزيغَهُ منها أَزَاغَه، وما شاء أن يُقيمَه منها أَقَامَه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمران: الآية ٨].

فهذا هو الفَقْرُ الصحيحُ المطابِقُ للعَقْلِ والفِطرةِ والشرْعِ، ومَن خَرَجَ عنه وانْحَرَفَ إلى أحدِ الطرَفينِ؛ زَاغَ قَلْبُه عن الْهُدَى، وعَطَّلَ مُلْكَ الملِكِ الحقِّ، وانفرادَه بالتصرُّفِ والربوبيَّةِ عن أوامِرِه وشَرْعِه وثوابِه وعِقابِه.

وحُكْمُ هذا الفقيرِ المضْطَرِّ إلى خالقِه في كلِّ طَرفةِ عينٍ وكلِّ نفَسٍ؛ أنه إن حُرِّكَ بطاعةٍ أو نِعمةٍ شَكَرَها، وقالَ: هذا من فَضْلِ اللهِ ومَنِّهِ وجُودِه فله الْحَمْدُ.

حالُ العبدِ عندَ داعِي الْمَعْصِيَةِ

وإن حُرِّكَ بِمَبادِئِ مَعْصِيَتِه، صَرَخَ ولَجَأَ(٥) واستغاثَ وقال: «**أَعوذُ بِكَ مِنْك**»(٦)، «**يا**

---

(١) في (ع) فيها، والصواب المثبت.

(٢) في(ع) السبب، وفي (س) للسبب.

(٣) في (ك) و(س) الجازمة، والصواب المثبت.

(٤) التسلسل: ترتب أمور غير متناهية على بعضها، بحث يكون للفاعل فاعل، وللفاعل فاعل، وهذا ممتنع عند العقلاء. انظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية؛ «التعريفات» للجرجاني (ص٨٠) و«التوقيف على مهمات التعاريف» لمحمد المناوي (ص١٧٥).

(٥) في (ك) زيادة: (إلى الله).

(٦) هذه الجملة جزء من حديث طويل وردت فيه بمثله رواه مسلم - كتاب الصلاة - باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤/ ١٥١ح٤٨٦نووي).

مُقَلِّبَ القلوبِ، ثَبِّتْ قَلْبي على دِينِك»[١]، «**يا مُصَرِّفَ القلوبِ صرِّفْ قلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ**»[٢].

فإن تَمَّ تَحريكُه بالمعصيةِ؛ الْتَجأَ التجاءَ أسيرٍ قد أَسَرَه عَدُوُّه، وهو يَعْلَمُ أنه لا خَلاصَ له من أَسْرِه إلا بأن يَفْتَكَّهُ[٣] سَيِّدُه من الأَسْرِ، ففِكاكُه في يدِ سَيِّدِه ليس في يدِه منه شيءٌ أَلبَتَّةَ، ولا يَمْلِكُ لنفسِه ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا مَوْتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، فهو في أَسْرِ العدُوِّ ناظِرٌ إلى سَيِّدِه، وهو قادرٌ [على تَخليصِه][٤]، قد اشْتَدَّتْ ضَرورتُه إليه، وصارَ اعتمادُه كلُّه عليه.

قالَ سَهْلٌ: «إنما يكونُ الالتجاءُ على مَعرفةِ قَدْرِ الابتلاءِ»[٥] يعني[٦] وعلى قَدْرِ مَعرفةِ[٧] الابتلاءِ؛ تكونُ الْمَعْرفةُ بالْمُبْتَلِي، ومَن عَرَفَ معنى قولِه ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»[٨]، وقامَ بهذه الْمَعرِفةِ شهودًا وذَوْقًا، وأعطاها حَقَّها من العُبوديَّةِ؛ فهو الفقيرُ حقًّا.

مَدارُ الفقرِ الصحيحِ

ومَدارُ الفقْرِ الصحيحِ على هذه الكلمةِ؛ فمَن رُزِقَ فَهْمَها؛ فَهِمَ سِرَّ الفقْرِ الْمُحَمَّدِيِّ[٩]، فهو سبحانَه الذي يُنْجِي من قَضائِه بقَضائِه، وهو الذي يُعيذُ من نفسِه بنفسِه[١٠]، وهو الذي يَدْفَعُ ما منه [بِمَا مِنْهُ][١١]، [فالأمْرُ كُلُّه له، والحكْمُ كُلُّه له، والْخَلْقُ كُلُّه له][١٢]، وما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يكنْ، وما شاءَ لم يَستَطِعْ أن يَصْرِفَه

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/٤١٨)، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (١٠٤ح٢٣١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٩ح٣٠٦). والحديث صححه الألباني في «ظلال الجنة» (ص١٠٤).

(٣) في (ك) و(س) يفكه.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٥) لم أجده حسب جهدي.

(٦) في (ك): حتى بدلا من: يعني، والصواب المثبت.

(٧) ساقطة من (ك) و(س).

(٨) سبق تخريجه.

(٩) في (ك) فمن رزق؛ فهم سرها وفهم سر الفقر المحمدي، وفي (س) فمن فهم سرها؛ فهم سر الفقر المحمدي.

(١٠) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (من نفسه بنفسه).

(١١) في (س) لما منه، والصواب المثبت.

(١٢) في (ك) و(س) فالخلق كله له، والأمر كله والحكم كله له.

إلا مشيئتُه، [وما لم يَشَأْ لم يُمْكِنْ][(١)] أن يَجْلُبَه إلا مشيئتُه، فلا يَأْتِي بالحسناتِ إلا هو، ولا يَذهبُ بالسَّيِّئَاتِ إلا هو، ولا يَهْدِي لأَحْسَنِ الأعمالِ والأخلاقِ إلا هو، ولا يَصْرِفُ سَيِّئَها إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: الآية ١٠٧].

والتحقُّقُ[(٢)] بِمَعْرِفَةِ هذا يُوجِبُ صِحَّةَ الاضطرارِ، وكمالَ الفَقْرِ والفاقَةِ، ويَحولُ بينَ العبدِ وبينَ[(٣)] رُؤيةِ أعمالِه وأحوالِه والاستغناءِ بها، والخروجَ عن رِبْقَةِ العُبوديَّةِ إلى دَعْوى ما ليس له.

وكيف يَدَّعِي مع اللهِ حالًا، أو مَلَكَةً، أو مَقامًا مَن قَلْبه، وإيراداتُه[(٤)]، وحَرَكاتُه الظاهِرةُ والباطنةُ بِيَدِ رَبِّه ومَليكِه، لا يَمْلِكُ هو منها شيئًا؛ وإنما هي بِيدِ مُقَلِّبِ القلوبِ ومُصَرِّفِها كيف شاءَ[(٥)]؟ فالإيمانُ بهذا والتَّحقُّقُ[(٦)] به[(٧)] نظامُ التوحيدُ؛ فمَتَى انْحَلَّ من القَلْبِ؛ انْحَلَّ نِظامُ التوحيدِ، فسُبحانَ مَن لا يُوصَلُ إليه إلا به، ولا يُطاعُ إلا بمشيئَتِه ولا يُنالُ ما عندَه من كَرامتِه[(٨)] إلا بطَاعتِه، ولا سبيلَ إلى طاعتِه إلا بتوفيقِه ومَعونتِه!

فعادَ الأمْرُ كلُّه إليه كما ابْتَدَأَ الأمْرُ كلُّهُ منه، فهو «الْأَوَّلُ» و«الآخِرُ» ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النّجم: الآية ٤٢].

التوحيدُ نوعان خاصِّيٌّ وعامِّيٌّ وكذلك سائرُ القُرَبِ

ومَن وَصَلَ إلى هذه[(٩)] الحالِ؛ وَقَعَ في يدِ التقطُّعِ والتجريدِ، وأَشْرَفَ على مَقامِ التوحيدِ الخاصِّيِّ.

فإنَّ التوحيدَ نوعان: عامِّيٌّ وخاصِّيٌّ، كما أنَّ الصلاةَ نوعان، والذكْرَ نوعان، وسائرَ القُرَبِ كذلك خاصِّيَّةٌ وعامِّيَّةٌ[(١٠)].

فالخاصِّيَّةُ: ما بَذَلَ فيها العامِلُ نُصْحَه وقَصْدَه؛ بحيث يُوقِعُها على أَحْسَنِ الوُجوهِ وأَكْمَلِها.

والعامِّيَّةُ: ما لم تكنْ كذلك.

(١) في (ك) و(س) وما شاء لم يكن، وهي خطأ، والصواب المثبت.
(٢) في(ع) والتحقيق.
(٣) في (ك) زيادة: (ومن).
(٤) في (ك) و(س) وإرادته.
(٥) في (ك) و(س) يشاء.
(٦) في (س) والتحقيق.
(٧) في (ع) زيادة: (هو).
(٨) في (ك) و(س) الكرامة.
(٩) في (ك) و(س) هذا.
(١٠) وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٥ - ١٠٦).

فالمسلمون كلُّهم مشتَرِكون في إتيانِهم بِـ«شَهَادةِ أن «لا إلهَ إلا اللهُ»، وتفاوُتُهم في مَعرفتِهم بِمَضمونِ هذه الشهادةِ، وقِيامِهم بِحَقِّها باطنًا وظاهرًا أَمْرٌ لا يُحْصِيه إلا اللهُ ﷻ.

توحيدُ كثيرٍ من الصُّوفيَّةِ

وقد ظَنَّ كثيرٌ من الصوفيَّةِ أنَّ التوحيدَ الخاصَّ أن يَشْهَدَ العبدُ الْمُحَرِّكَ له، ويَغيبَ عن الْمُتَحَرِّكِ وعن الحركةِ، فيَغيبَ بشاهدِه عن حَركتِه، فيَشْهَدَ نفسَه شَبَحًا[١] فانيًا تَجْرِي عليه[٢] تصاريفُ المشيئةِ، كمَن غَرِقَ في البحْرِ؛ فأمواجُه تَرْفَعُه طَوْرًا، وتَخْفِضُه[٣] طَوْرًا، فهو غائبٌ بها عن مُلاحظَةِ حَركتِه في نفسِه، بل قد انْدَرَجَتْ حركتُه في ضِمْنِ حَركةِ الموْجِ فكأنه لا حركةَ له بالحقيقةِ.

وهذا وإن ظَنَّه كثيرٌ من القومِ غايةً، وظَنَّه بعضُهم لازِمًا من لَوازمِ التوحيدِ؛ فالصوابُ أنَّ[٤] وراءَه ما هو أَجَلُّ منه، وغايةُ هذا الفَناءِ في توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وهو أن لا يَشهدَ رَبًّا وخالقًا ومُدَبِّرًا إلا اللهَ، وهذا[٥] حقٌّ.

توحيدُ الرُّبوبيَّةِ لا يَكْفِي في النَّجاةِ

ولكنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةَ وَحدَه لا يَكْفِي في النجاةِ فَضْلًا عن أن يكونَ شُهودُه والفَناءُ فيه هو غايةَ الْمُوَحِّدِينَ، ونِهايةَ مَطْلَبِهِم[٦]. بل الغايةُ التي لا غايةَ وراءَها، ولا نِهايةَ بَعدَها الفَناءُ في تَوحيدِ الإلهيَّةِ.

وهو أن يَفْنَى بِمَحَبَّةِ رَبِّه عن مَحَبَّةِ كلِّ ما سواه، وبِتَأَلُّهِهِ[٧] عن تَأَلُّهِ[٨] ما سواه، وبالشوْقِ إليه وإلى لقائِه عن الشوْقِ إلى ما سِواهُ، وبالذُّلِّ له والفقرِ إليه من جِهةِ كونِه مَعبودَه وإلهَهُ ومَحبوبَه عن الذُّلِّ والفَقْرِ[٩] إلى كلِّ ما سِواهُ، وكذلك يَفْنَى بخوْفِه ورجائِه عن خَوفِ ما سواه ورَجائِه؛ فيَرَى أنه ليس في الوُجودِ ما يَصْلُحُ له ذلك إلا اللهُ، ثم يَتَّصِفُ بذلك حالًا[١٠] ويَنْصَبِغُ به قَلْبُه صِبْغَةً، ثم يَفْنَى بذلك عَمَّا سِواه.

فهذا هو التوحيدُ الخاصُّ الذي شَمَّرَ إليه العَارفونَ، والوِرْدُ الصافِي الذي حامَ حولَه

---

(١) في (ك) و(س) شيخا، والصواب المثبت. (٢) في (ك) و(س) على، والصواب المثبت.

(٣) في (ك) و(س) وتخفظه، وهو خطأ إملائي، والصواب المثبت.

(٤) في (س) زيادة: (من). (٥) في (ك) و(س) زيادة: (هو).

(٦) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٦٩).

(٧) في (س) ويتألهه، والمثبت هو الموافق للسياق. (٨) في (س) زيادة (كل).

(٩) ساقطة من (س). (١٠) في (ك) حاله.

الْمُحِبُّونَ، ومتى وَصَلَ إليه الْعَبْدُ؛ صارَ في يدِ التَّقَطُّعِ والتجريدِ، واشتَمَلَ بلِباسِ الفَقْرِ الحقيقيِّ، ومَزَّقَ[١] حُبُّ اللهِ مِنْ قَلبِه كلَّ مَحَبَّةٍ، وخَوْفُه كلَّ مَخافةٍ[٢]، ورَجاؤُه كلَّ رجاءٍ، فصار حُبُّه وخَوفُه ورجاؤُه وذُلُّه وإيثارُه وإرادتُه ومعاملتُه، كلُّ ذلك واحدٌ لواحدٍ؛ فلم يَنْقَسِمْ[٣] طَلَبُه ولا مَطلوبُه، فتَعَدُّدُ المطلوبِ وانقسامُه قادحٌ في التوحيدِ والإخلاصِ، وانقسامُ الطلَبِ قادحٌ في الصِّدْقِ والإرادةِ.

فلا بُدَّ من تَوحيدِ الطَّلَبِ والإرادةِ وتوحيدِ المطلوبِ الْمُرادِ، فإذا غابَ بمَحبوبِه عن حُبِّ غيرِه، وبمذكورِه عن ذِكْرِ غيرِه، وبمألوهِهِ عن تَأَلُّهِ غيرِه؛ صارَ من أهلِ التوحيدِ الخاصِّ، وصاحبُه مُجَرَّدٌ عن مُلاحَظَةِ سِوَى مَحبوبِه أو إيثارِه أو معامَلتِه أو خَوفِه أو رجائِه.

وصاحبُ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ في قَيْدِ التجريدِ عن مُلاحظةِ فاعلٍ غيرِ اللهِ، وهو مُجَرَّدٌ عن مُلاحظةِ وُجودِه هو[٤]، كما كان صاحبُ الدرجةِ الأُولى مُجَرَّدًا عن أموالِه، وصاحبُ الثانيةِ مُجَرَّدًا عن أعمالِه وأحوالِه، وصاحبُ الفَناءِ في توحيدِ الإلهيَّةِ مُجَرَّدٌ عن سِوى مَرَاضِي مَحبوبِه وأوامِرِه، قد فَنِي بِحُبِّه وابتغاءِ مَرضاتِه عن حبِّ غيرِه وابتغاءِ مَرضاتِه.

وهذا هو التجريدُ الذي سَمَتْ إليه هِمَمُ السالكينَ، فمَن تَجَرَّدَ عن مالِه وحالِه وكَسْبِه وعِلْمِه[٥]، ثم تَجَرَّدَ عن شُهودِ تَجريدِه؛ فهو الْمُجَرَّدُ عندَهم حقًّا، وهذا هو[٦] تَجريدُ القومِ الذي عليه يَحُومون، وإيَّاه يَقْصِدونَ، ونِهايتُه عندَهم التجريدُ بفَناءِ وُجودِه، وبقائِه بموجودِه؛ بحيث يَفْنَى مَن لم يكنْ، ويَبْقَى مَن لم يَزَلْ، ولا غايةَ عندَهم وراءَ هذا.

ولَعَمْرُ اللهِ إنَّ وراءَه تَجريدًا أَكْمَلَ منه، ونِسبتُه إليه كَتَفْلَةٍ في بَحْرٍ، وشَعْرَةٍ في ظَهْرِ بعيرٍ، وهو تَجريدُ الحُبِّ والإرادةِ عن الشوائبِ والعِلَلِ والْحُظوظِ؛ فيَتَوحَّدُ حبُّه كما تَوَحَّدَ[٧] مَحبوبُه، ويَتَجَرَّدُ عن مُرادِه من مَحبوبِه بِمُرادِ مَحبوبِه منه، بل يَبْقَي مُرادُ محبوبِه منه هو[٨] نفسُ مُرادِه، وهنا يُعْقَلُ الاتِّحادُ الصحيحُ، وهو اتِّحادُ المرادِ، فيكونُ

---

(١) في (ك) و(س) وفرق. (٢) في (ك) و(س) خوف. (٣) في (ع) يتقسم.
(٤) في (ك) و(س) وهو، والصواب المثبت. (٥) في (س) وعمله.
(٦) ساقطة من (ك) و(س). (٧) في (ع) يتوحد.
(٨) في (ك) و(س) زيادة: (من).

الاتحادُ الصحيحُ

عينُ مرادِ المحبوبِ هو عينَ مُرادِ المحِبِّ، وهذا هو غايةُ الْمُوافَقَةِ، وكمالُ العُبوديَّةِ[١].

ولا تَتَجَرَّدُ[٢] المحبَّةُ عن العِلَلِ والحظوظِ التي تُفْسِدُها[٣] إلا بهذا.

فالفَرْقُ بينَ مَحَبَّةِ حظِّكَ ومُرادِك من المحبوبِ، وأنك إنما تُحِبُّه لذلك، وبينَ مَحَبَّةِ مُرادِ المحبوبِ منك ومَحَبَّتِك له لذاتِه، وأنه أهلٌ أن يُحَبَّ[٤].

وأمَّا الاتِّحادُ في الإرادةِ فمُحالٌ، كما أنَّ الاتِّحادَ في الْمُريدِ مُحالٌ، فالإرادتان متبايِنَتَان، وأمَّا مُرادُ المحِبِّ والمحبوبِ - إذا خَلَصَت الْمَحَبَّةُ من العِلَلِ والحظوظِ - فواحدٌ.

فالفقرُ والتجريدُ والفَناءُ من وادٍ واحدٍ، وقد جَعَلَه صاحبُ «مَنازِلِ السائرينَ»[٥] من قِسمِ النِّهاياتِ وحَدَّه: بأنه الانخلاعُ عن شُهودِ الشواهدِ.

تعريفُ التجريدِ ودرجاتُه عند الهروي

وجَعَلَه على ثلاثِ دَرجاتٍ:

الدرَجةُ الأُولَى: تَجريدُ[٦] الكَشْفِ عن كَسْبِ اليقينِ.

والثانيةُ: تَجريدُ عينِ الجمْعِ عن دَرَكِ العِلْمِ.

والثالثةُ: تَجريدُ الْخَلاصِ من شُهودِ التدريجِ[٧].

فقولُه في الأُولَى: «تَجريدُ الكَشْفِ عن كَسبِ اليقينِ» يُريدُ كَشْفَ الإيمانِ ومُكافحَتَهُ للقَلْبِ، وهذا وإن حَصَلَ باكتسابِ اليقينِ من أدِلَّتِه وبَراهينِه.

---

(١) وانظر: «الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٤٠)، (٣٨٩) و«روضة المحبين» لابن القيم (ص٢٦٥) و«مدارج السالكين» له أيضا (١/ ٤٦٨).

(٢) في (س) يتجرد، والصواب المثبت.

(٣) في (ك) و(س) يفسدها.

(٤) فالمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين. «روضة المحبين» (ص٢٦٥)، وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٨ - ٤٢١).

(٥) أبو إسماعيل الهروي سيأتي.

(٦) في (ك) درجة، والصواب المثبت كما في «منازل السائرين».

(٧) في (ك) و(س) التجريد، ولعله وقع في الأصل تصحيفا، فيكون الصواب «التجريد» كما في «منازل السائرين» (ص١٣٣). وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٢٠ - ٤٢١).

فالتجريدُ: أن يَشْهَدَ سَبْقَ اللهِ - تعالى[١] - بِمِنَّتِهِ لكلِّ سببٍ يُنالُ به يَقينٌ أو إيمانٌ.

تعريفُ ابنِ القَيِّمِ للتجريدِ وتفصيلُه في الحكْمِ عليه

فيَتَجَرَّدُ كَشْفُه لذلك عن مُلاحَظَةِ سببٍ أو وَسيلةٍ، بل يَقْطَعُ الأسبابَ والوسائلَ ويَنتهِي نَظَرُه إلى الْمُسَبِّبِ، وهذا إن أُريدَ تَجريدُها عن كونِها أسبابًا؛ فتَجريدٌ باطلٌ وصاحبُه ضالٌّ.

وإن أُريدَ به[٢] تَجريدُها عن الوُقوفِ عندَها، ورؤيةِ انتسابِها إليه، وصدورِها منه، وأنَّ اليقينَ إنما كان به وَحْدَه، فهذا تَجريدٌ صحيحٌ، ولكن على صاحبِه إثباتُ الأسبابِ، فإن نَفَاهَا عن كونِها أسبابًا؛ فَسَدَ تجريدُه.

وقولُه في الدرجةِ الثانيةِ: «تَجريدُ عينِ الجمْعِ عن دَرَكِ العلْمِ» لَمَّا كانت الدرجةُ الأُولى تَجريدًا عن الكَسْبِ وانتهاءً إلى عينِ[٣] الجَمْعِ الذي هو الغَيْبَةُ[٤] بِتَفَرُّدِ الربِّ بالحُكْمِ عن إثباتِ وَسيلةٍ أو سَبَبٍ؛ اقْتَضَتْ تَجريدًا آخَرَ أَكْمَلَ من الأَوَّلِ، وهو تَجريدُ هذا الْجَمْعِ عن عِلْمِ العَبْدِ به.

فالأُولى: تَجريدٌ عن رؤيةِ السببِ والفِعْلِ.

والثانيةُ: تَجريدٌ عن[٥] العِلْمِ والإدراكِ، وهذا يَقتضِي أيضًا تَجريدًا ثالثًا أَكْمَلَ من الثاني وهو: تَجريدُ التَّخَلُّصِ من شُهودِ التجريدِ، وصاحبُ هذا التجريدِ الثالثِ في عينِ الجمْعِ قد اجْتَمَعَت هِمَّتُه على الْحَقِّ، وشُغِلَ به عن مُلاحَظَةِ جَمْعِه وذِكْرِه وعِلْمِه به، قد اسْتَغْرَقَ ذلك قَلْبَه فلا سِعَةَ فيه؛ لشُهودِ عِلْمِه بتَجريدِه ولا شُعورِه به، فلا الْتِفاتَ له إلى تَجريدِه، ولو بَقِيَ له التِفاتٌ إليه، لم يَكْمُلْ تَجريدُه.

التجريدُ الصحيحُ

ووراءَ هذا كلِّه تَجريدُ نِسبةِ هذا التجريدِ إليه كشَعْرَةٍ من[٦] ظَهْرِ بعيرٍ[٧] إلى جُمْلَتِه، وهو: تَجريدُ الحُبِّ والإرادةِ عن تَعَلُّقِه بالسِّوَى، وتَجريدُه عن العِلَلِ والشوائبِ والْحُظوظِ التي هي مُرادُ النفْسِ.

فيَتَجَرَّدُ الطلَبُ والحبُّ عن كلِّ تَعَلُّقٍ يُخالِفُ مُرادَ المحبوبِ، فهذا تَجريدُ الحنيفيَّةِ.
واللهُ المستعانُ، وعليه التُّكلانُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا به[٨].

---

(١) هذه اللفظة ساقطة من (ك) و(س). (٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) في (ك) اليقين، والصواب المثبت. (٤) في (ع) الغنية، والصواب المثبت.
(٥) ساقطة من (ع). (٦) في (س) في. (٧) في (ك) جمل.
(٨) وها هو ابن القيم -رحمه الله - يصل بكثير من المتصوفة إلى الغاية التي انقطعت عنها ركابهم، وقصر عنها باعهم، وهي توحيد الألوهية الذي هو مراد بعثة الرسل وإنزال الكتب.

فصلٌ

ولَمَّا كان الفَقْرُ إلى اللهِ ﷻ هو عينُ الْغِنَى به - فأَفْقَرُ الناسِ إلى اللهِ أغناهم[١]، وأَذَلُّهم له أَعَزُّهم، وأَضْعَفُهم بينَ يديه أقواهم، وأَجْهَلُهم عندَ نفسِه أعْلَمُهم باللهِ، وأَمْقَتُهم لنفسِه أَقْرَبُهم إلى مَرضاةِ اللهِ - كان ذِكْرُ الغِنَى باللهِ مع الفقْرِ إليه مُتلازِمَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، فَنَذْكُرُ فَصْلًا نافعًا في الغِنَى العالِي.

تَلازُمُ الغِنَى باللهِ والفقْرِ إليه

واعْلَمْ أنَّ الغِنَى على الحقيقةِ لا يكونُ إلا للهِ الغَنِيِّ بذاتِه عن كلِّ ما سِواهُ، وكلُّ ما سواه فموسومٌ بسِمَةِ الفَقْرِ كما هو مَوسومٌ بسِمَةِ الخَلْقِ والصُّنْعِ.

فكما أنَّ كونَه مَخلوقًا أَمْرٌ ذاتِيٌّ له، فكَوْنَه فَقيرًا أَمْرٌ ذَاتِيٌّ له - كما تَقَدَّمَ بيانُه[٢].

الغِنَى الْمُطْلَقُ للهِ

وغِناهُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ إضافيٌّ عارِضٌ له؛ فإنه إنما يَسْتَغْنِي[٣] بأَمْرٍ خارجٍ عن ذاتِه، فهو غَنِيٌّ به، فَقيرٌ إليه، ولا يُوصَفُ بالْغِنَى على الإطلاقِ إلا مَن غِنَاه من لَوازِمِ ذَاتِه، وهو الْغَنِيُّ بذاتِه عمَّا سواهُ، وهو الأَحَدُ الصمَدُ الغنيُّ الحميدُ.

والغِنَى قِسمان: غِنًى سافلٌ، وغِنًى عالٍ.

قِسمَا الْغِنَى

القِسمُ الأولُ: الغِنَى السَّافِلُ

فالغِنَى السافلُ: الْغِنَى بالعَوَارِي الْمُسْتَرَدَّةِ من النساءِ، والبنينَ، والقناطيرِ الْمُقَنْطَرَةِ من الذهَبِ، والْفِضَّةِ، والخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، والأنعامِ والحرْثِ.

وهذا أَضْعَفُ الغِنَى؛ فإنه غِنًى بظِلٍّ زائلٍ، وعاريَّةٍ تَرْجِعُ عن قَريبٍ إلى أربابِها، فإذا الفَقْرُ بأَجْمَعِه بعدَ ذهابِها، وكأنَّ الغِنَى بها كان حُلُمًا فانْقَضَى، ولا هِمَّةَ أَضْعَفُ من هِمَّةِ مَن رَضِيَ بهذا الغِنَى الذي هو ظِلٌّ زائلٌ.

وهذا غِنَى أربابِ الدنيا الذي فيه يَتَنَافَسُون، وإيَّاهُ يَطْلُبون، وحولَه يَحُومُون، ولا أَحَبَّ إلى الشيطانِ وأَبْعَدَ من الرحمنِ من قَلْبٍ مَلآنَ بِحُبِّ هذا الْغِنَى، وبالخوفِ من فَقْدِه.

قالَ بعضُ السلَفِ:[٤] «إذا اجْتَمَعَ إبليسُ وجنودُه؛ لم يَفْرَحُوا بشيءٍ كفَرَحِهم بثلاثةِ

---

(١) في (ك) و(س) زيادة: (به). (٢) ص (٦٤) وما بعدها. (٣) في (ك) و(س) استغنى.

(٤) القائل هو: حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابوري، أبو صالح، أسند الحديث، انتشر عنه مذهب الملامتية، قال حمدون عن هذا المذهب: هو «خوف القدرية ورجاء المرجئة» توفي سنة (٢٧١) بنيسابور.

انظر: «طبقات الصوفية» (١٢٢ - ١٢٩)، «الرسالة القشيرية» (ص٤٢٦)، و«صفة الصفوة» =

أشياءَ: مُؤْمِنٍ قَتَلَ مُؤْمِنًا، ورَجُلٍ يَموتُ على الكُفْرِ، وقَلْبٍ فيه خوفُ الفَقْرِ»[١].

وهذا الغِنَى مَحْفُوفٌ بفَقْرَيْنِ: فقرٍ قَبْلَه، وفَقْرٍ بَعْدَه.

وهو كالْغَفْوَةِ بينَهما؛ فحقيقٌ بمن نَصَحَ نفسَه أن لا يَغْتَرَّ به، ولا يَجْعَلَه نِهايةَ مَطْلَبِه، بل إذا حَصَلَ له؛ جَعَلَه سَبَبًا لغِناهُ الأكبَرِ، ووَسيلةً إليه، ويَجْعَلُه خادمًا من خَدَمِه لا مَخدومًا له، وتكونُ نفسُه أَعَزَّ عليه أن يُعَبِّدَها لغيرِ مَولاهُ الحقِّ، أو يَجْعَلَها خادِمةً لغيرِه.

فصلٌ

القسم الثاني: الغِنَى العَالِي ودَرجاتُه

وأَمَّا الْغِنَى العالِي: فقالَ شيخُ الإسلامِ[٢]: هو على ثلاثِ درجاتٍ:

الدرجةُ الأولى: غِنَى القَلْبِ، وهو سَلامتُه من السببِ، ومُسالَمَتُه للحُكْمِ، وخَلاصُهُ من الْخُصومةِ.

والدرجةُ الثانية: غِنَى النفْسِ، وهو استقامتُها على المرغوبِ، وسلامتُها من الْمَسخوطِ، وبراءتُها من الْمُراءاةِ.

والدرجةُ الثالثةُ: الغِنَى بالحَقِّ، وهو ثلاثُ مَراتِبَ:

الْمَرتَبَةُ الأُولى: شهودُ ذِكْرِه إيَّاكَ.

والثانيةُ: دوامُ مُطالَعَةِ أَوَّلِيَّتِه.

والثالثةُ: الفَوْزُ بوُجُودِه[٣].

قلتُ: ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: **«ليس الغِنَى عن كَثْرةِ العَرَضِ؛ ولكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»**[٤].

ومتى استَغْنَت النفسُ؛ اسْتَغْنَى القَلْبُ، ولكنَّ الشيخَ قَسَّمَ الغِنَى إلى هذه الدرجاتِ

= (٤/ ١٠٩، ١١٠). ولعل مراد المؤلف رحمه الله بقوله: «قال بعض السلف» أي: السابقون، وليس مراده لفظ السلف الشرعي.

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٢).
(٢) يعني: الهروي، في «منازل السائرين» (ص٧٣).

(٣) وانظر: «المدارج» (٢/ ٤٤٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب «الرقاق»، باب: الغنى غنى النفس (١١/ ٢٧٦ح٦٤٤٦فتح) بمثله؛ ومسلم، كتاب «الزكاة»، باب الغنى غنى النفس (٧/ ١١٥ح١٠٥١نووي) بمثله.

بيانُ ابنِ القيمِ لكلامِ الهرويِّ

بِحَسبِ مُتَعَلِّقِهِ فقال: «غِنَى القلبِ سلامتُه من السببِ، ومُسالمتُه للحُكْمِ، وسلامتُه[١] من الْخُصومةِ».

ومعلومٌ أنَّ هذا شَرْطٌ في الغِنَى، لا أنه نفْسُ الغِنَى، بل وُجودُ المنازَعةِ والمخاصَمةِ، وعَدَمُ المسالَمَةِ مانِعٌ من الغِنَى، فهذه السلامةُ والمسالَمَةُ دليلٌ على غِنَى القلبِ، لا أنَّ غِناهُ بها نَفْسِها، وإنما غِنَى القلبِ بالدرجةِ الثالثةِ فقط؛ كما سيأتي بيانُه[٢].

فإنَّ الغَنِيَّ إنما يَصيرُ غَنِيًّا بِحُصولِ ما يَسُدُّ فاقَتَه، ويَدفَعُ حاجتَه، وفي القلْبِ فاقَةٌ عظيمةٌ، وضَرورةٌ تامَّةٌ، وحَاجةٌ شديدةٌ لا يَسُدُّها إلا فَوْزُه بِحُصولِ «الغَنِي الحميدِ» الذي إن حَصَلَ للعَبْدِ حَصَلَ له كلُّ شيءٍ، وإن فاتَه فاتَه كلُّ شيءٍ.

الغِنَى الحقيقيُّ وبماذا يَحْصُلُ

فكَمَا أنه سبحانَه الغَنِيُّ على الحقيقةِ، ولا غَنِيَّ سواهُ، [فالْغِنَى به هو الْغِنَى][٣] في الحقيقةِ، ولا غِنَى بغيرِه أَلْبَتَّةَ، فمَن لم يَسْتَغْنِ به عما سِوَاه؛ تَقَطَّعَتْ نفسُه على السِّوَى حَسَرَاتٍ، ومَنِ اسْتَغْنَى به، زَالتْ عنه كُلُّ حَسْرَةٍ، وحَضَرَهُ كلُّ سرورٍ وفَرَحٍ، واللهُ الْمُستعانُ.

وإنما قَدَّمَ الشيخُ[٤] الكلامَ على غِنَى القلْبِ على الكلامِ على غِنَى النفْسِ؛ لأنَّ[٥] كمالَ صلاحِ النفْسِ وغِناها بالاستقامةِ من جميعِ الوُجوهِ، وبلوغُهَا إلى درجةِ الطمأنينةِ لا يكونُ إلا بعدَ صلاحِ القلْبِ، وإصلاحُ[٦] النفسِ مُتَقَدِّمٌ على إصلاحِ[٧] القلبِ، هكذا قِيلَ، وفيه ما فيه؛ لأَنَّ صلاحَ كلٍّ[٨] منهما مُقَارِنٌ لصلاحِ الآخَرِ.

سببُ تقديمِ الْهَرويِّ غِنَي القلبِ على غِنَى النفسِ

ولكن لَمَّا كان القَلْبُ هو الْمَلِكَ، وكان صَلاحُه صلاحَ جميعِ رَعِيَّتِهِ؛ كان أَوْلَى بالتقديمِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»[٩].

والقَلْبُ إذا اسْتَغْنَى بما فَاضَ عليه من مَواهِبِ ربِّه وعطاياه السنِيَّةِ؛ خَلَعَ على الأمراءِ

---

(١) في (ك) و(س) وخلاصه، ولعله الصواب، كما تقدم في كلام الهروي.

(٢) في (ك) و(س) زيادة: (إن شاء الله). وانظر فيما يأتي: (ص٢٢٦) وما بعدها.

(٣) في (س) فالغني به هو الغني. (٤) في (ك) و(س) شيخ الإسلام: يعني: الهروي.

(٥) في (ع) أن، والصواب المثبت. (٦) في (ك) وصلاح.

(٧) في (ك) صلاح. (٨) في (ك) و(س) زيادة: (واحد).

(٩) رواه البخاري (١/ ١٥٣ح٥٢فتح) ومسلم (١١/ ٢٠٧ح١٥٩٩نووي).

صلاحُ القلبِ وأثرُه على سائرِ الجسدِ

والرعيَّةِ خِلَعًا تُناسِبُها؛ فخَلَعَ على النفسِ خِلَعَ الطُّمأنينةِ والسكينةِ والرضا والإخباتِ، فأدَّت الحقوقَ سَماحةً[١] لا كَظْمًا[٢] بل[٣] بانشراحٍ ورِضًا ومُبادَرةٍ؛ وذلك لأنها جانَسَت القلبَ حينئذٍ، ووَافَقَتْه في أكثرِ أُمورِه، واتَّحَدَ مرادُهما غالبًا؛ فصارتْ له وَزيرَ صِدْقٍ، بعدَ أن كانت عَدُوًّا مُبارِزًا بالعَداوةِ، فلا تَسألُ عمَّا أَحْدَثَتْ هذه المؤازرةُ والموافَقَةُ من طُمأنينةٍ ولَذَّةِ عَيْشٍ ونَعيمٍ هو دَقيقةٌ[٤] من نعيمِ أهلِ الْجَنَّةِ.

هذا ولم تَضَعِ الحرْبُ أوزارَها فيما بينَهما، بل عُدَّتُها وسلاحُها كامنٌ مُتوارٍ لولا قُوَّةُ سُلطانِ القلْبِ وقَهْرِه؛ لحارَبَتْ بكُلِّ سلاحٍ، فالمُرابَطَةُ على ثَغْرَيِ الظاهِرِ والباطنِ فَرْضٌ مُعَيَّنٌ[٥] مُدَّةَ أنفاسِ الحياةِ.

وتَنْقَضِي الحربُ مَحْمُودٌ عَواقِبُها ... للصابرينَ وحظُّ الهاربِ النَّدَمُ[٦]

وخَلَعَ على الجوارحِ خِلَعَ الخشوعِ والوَقارِ، وعلى الوجهِ خُلْعَةَ[٧] الْمَهابةِ والنورِ والبهاءِ، وعلى اللسانِ خُلْعَةَ الصدْقِ والقولِ السديدِ الثابتِ والحكمةِ النافعةِ، وعلى العينِ خُلعةَ الاعتبارِ في النظَرِ والغَضِّ عن الْمَحارِمِ، وعلى الأُذُنِ خُلعةَ استماعِ النصيحةِ واستماعِ القولِ النافعِ استماعَه للعَبْدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وعلى اليدين والرجلين خُلْعَةَ البَطْشِ في الطاعاتِ أين كانت بقُوَّةٍ وأَيْدٍ، وعلى الفرْجِ خُلْعَةَ العِفَّةِ والْحِفْظِ، فغَدَا العبْدُ وراحَ يَرْفُلُ في هذه الْخُلَعِ، ويَجُرُّ لها في الناسِ أَذيالًا وأَرْدَانًا.

فغِنَى النفسِ مُشْتَقٌّ من غِنَى القلبِ وفَرْعٌ عليه؛ فإذا اسْتَغْنَى سَرَى الغِنَى منه إلى النفسِ، وغِنَى القلبِ بما يُناسِبُه من تَحقُّقِه[٨] بالعبوديَّةِ الْمَحْضَةِ التي هي أَعْظَمُ خُلْعَةٍ تُخْلَعُ عليه، فيَسْتَغْنِي حينئذٍ بما تُوجِبُه[٩] هذه العُبوديَّةُ له من الْمَعرفةِ الخاصَّةِ، والمحبَّةِ الناصحةِ الخالصةِ، وبما يَحْصُلُ له من آثارِ الصفاتِ المقُدَّسَةِ، وتقتضِيهِ من الأحكامِ و[١٠] العُبُودِيَّاتِ المتعلِّقَةِ بكلِّ صفةٍ على الانفرادِ، ومجموعُهَا قائمةٌ بالذاتِ، وهذا أَمْرٌ تَضيقُ عن شَرْحِه عِدَّةُ أسفارٍ، بل حَظُّ العبدِ منه عِلْمًا وإرادةً كما يُدْخِلُ إِصْبَعَه في الْيَمِّ،

---

(١) سماحة: أي: جودًا وكرمًا بسهولة ويسر. انظر: «لسان العرب»، باب السين، (٦/ ٣٥٥).

(٢) كظما أي: كربا وضيقا. انظر: «لسان العرب» باب الكاف (١٢/ ١٠٦).

(٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) في (ك) رقيفة و(س) رقيقة.

(٥) في (ك) و(س) متعين.

(٦) لم أجده حسب جهدي، ولعله للمؤلف.

(٧) في (ع) خلع.

(٨) في (س) تحقيقه.

(٩) في (ع) يوجبه.

(١٠) في (ك) في، والصواب المثبت.

بل الأمْرُ أعظمُ من ذلك، واللهُ ﷻ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرّعد: ١٧].

غِنَى النفسِ وعلاقتُه بغِنَى القلبِ

فإذا استَغْنَى القلبُ بهذا الْغِنَى الذي هو غايةُ فَقْرِه؛ استَغْنَت النفسُ غِنًى يُناسبُها، وذَهَبَتْ[١] عنها الْبُرودةُ التي توجِبُ ثِقَلَها وكَسَلَها وإخلادَها إلى الأرضِ، وصارتْ[٢] حَرارةً تُوجِبُ حَرَكَتَها وخِفَّتَها في الأوامرِ، وطَلَبِها الرفيقَ الأعلى، وصارتْ بُرودتُها في شَهواتِها وحُظوظِها ورُعوناتِها، وذَهَبَتْ أيضًا عنها[٣] اليُبوسةُ الْمُضادَّةُ لِلِينِها، وسُرعةِ انفعالِها وقَبولِها؛ فإنها إذا كانت يابسةً قاسيةً؛ كانت بَطيئةَ الانفعالِ، بعيدةَ القَبولِ، لا تَكادُ تَنقادُ، فإذا صارتْ بُرودتُها حرارةً، ويُبوسَتُها رُطوبةً، وسُقِيَتْ بماءِ الحياةِ الذي أَنْزَلَه[٤] اللهُ على قُلوبِ أنبيائِه، وجَعَلَها قرارًا ومَعينًا له، ففاضَ منها على قلوبِ أتباعِهم، فأَنْبَتَت من كلِّ زوجٍ كريمٍ؛ فحينئذٍ انقادَتْ بزِمامِ الْمَحبَّةِ إلى مَولاها الحقِّ، مُؤَدِّيَةً لحقوقِه[٥]، قائمةً بأوامرِه، راضيةً عنه، مَرْضِيَّةً له بكمالِ طُمَأْنينَتِها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾.

فلْنَرْجِعْ إلى كَلامِه.

فقولُه في الدرجةِ الأُولَى وهي غِنَى القلبِ: «إنه سلامتُه من السببِ» أي: من الفَقْرِ إلى السببِ وشهودِه، والاعتمادِ عليه، والرُّكونِ إليه، والثقَةِ به، فمَن كان معْتَمِدًا على سببٍ غَنِيًّا به، واثقًا به؛ لم يُطْلَقْ عليه اسمُ الغِنَى؛ لأنه فقيرٌ إلى الوسائطِ، بل لا يُسَمَّى صاحبُه غَنِيًّا إلا إذا سَلِمَ من عِلَّةِ السببِ؛ استغناءً بالمسَبِّبِ بعدَ الوقوفِ على رَحمتِه وحِكمتِه وتَصَرُّفِه وحُسْنِ تَدبيرِه، فلذلك يَصيرُ صاحبُه غَنِيًّا بتدبيرِ اللهِ ﷻ.

الأسبابُ وسببُ قَدْحِها في الفقرِ

فمَن كَمُلَتْ له السلامةُ من عِلَّةِ الأسبابِ، ومن عِلَّةِ الْمُنازَعةِ للحَكَمِ بالاستسلامِ له[٦] والمسالَمَةِ[٧] - أي: بالانقيادِ - لِحُكْمِه الذي حصَلَ الغِنَى للقلبِ بوقوفِه على حُسْنِ تَدبيرِه [ورحمتِه وحِكمتِه، فإذا وَقَفَ العبدُ على حُسْنِ تدبيرِه][٨]، واسْتَغْنَى القلبُ به، لم يَتِمَّ له الاستغناءُ بِمُجَرَّدِ هذا الوُقوفِ إن لم يَنْضَمَّ إليه المسالَمَةُ للحَكَمِ،

(١) في (ك) و(س) وذهب.
(٢) في (ك) و(س) زيادة: (لها). (٣) في (ك) تقديم وتأخير في (أيضا عنها).
(٤) في (س) أنزل.
(٥) في(ك) حقوقه بحذف اللام. (٦) ساقطة من (ك).
(٧) في (ع) والمسألة، والصواب المثبت. (٨) ما بين المعقوفين ساقط من (ع).

وهو الانقيادُ له؛ فإنَّ الْمُنازَعَةَ للحَكَمِ إلى حَكَمٍ آخَرَ دَليلٌ على وُجودِ رُعونةِ الاختيارِ، وذلك دالٌّ على فَقْرِ صاحبِ الاختيارِ إلى ذلك الشيءِ الْمُختارِ، ومَن كان فقيرًا إلى شيءٍ لم يُرِدْهُ اللهُ ﷻ[١]؛ لم يُطْلَقْ عليه اسمُ الغِنَى بتدبيرِ اللهِ ﷻ[٢]؛ فلا يَتِمُّ الغِنَى بتَدبيرِ الربِّ ﷻ لعَبْدِه إلا بالمسالَمَةِ لِحُكْمِه بعدَ الوُقوفِ على حُسْنِ تَدبيرِه.

ثم يَبْقَى عليه الخَلاصُ من مَعْنًى آخَرَ، وهو مُخاصَمَةُ الخلْقِ بعدَ الخَلاصِ من مُنازَعَةِ الربِّ؛ فإنَّ مُخاصَمَةَ[٣] الخلْقِ دَليلٌ على فَقْرِه إلى الأَمْرِ الذي وَقَعَتْ فيه الْخُصومةُ من الْحُظوظِ العاجلةِ، ومَن كان فقيرًا إلى حَظٍّ من الْحُظوظِ؛ يَسْخَطُ[٤] لفَوْتِه، ويُخاصِمُ الْخَلْقَ عليه؛ لا يُطْلَقُ عليه اسمُ الْغِنَى حتى يَسْلَمَ الخلْقُ من خُصومتِه؛ لكَمالِ[٥] تَفْوِيضِه إلى وَلِيِّه وقَيُّومِه ومُتَوَلِّي تَدبيرِه.

فمَتَى سَلِمَ العبدُ من عِلَّةِ فَقْرِه إلى السببِ، ومن عِلَّةِ مُنازَعَتِه لأحكامِ اللهِ ﷻ، ومن عِلَّةِ مُخاصمَتِه للخَلْقِ على حُظوظِه[٦]؛ اسْتَحَقَّ[٧] أن يكونَ غَنِيًّا بتدبيرِ مَوْلاهُ، مُفَوِّضًا إليه، لا يَفتقِرُ قَلْبُه إلى غيرِه، ولا يَسْخَطُ شيئًا من أحكامِه ولا يُخاصِمُ عِبادَه إلا في حُقوقِ رَبِّه، فتكونُ مُخاصَمَتُه للهِ وباللهِ، ومُحاكَمَتُه إلى اللهِ، كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ في استفتاحِ صلاةِ الليلِ: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**»[٨] فتكونُ مُخاصَمَةُ هذا العَبْدِ للهِ لا لهواه وحَظِّهِ، ومُحاكَمَتُه خَصْمَهُ إلى أَمْرِ اللهِ وشَرْعِه لا إلى شيءٍ سواهُ.

فمَن خاصَمَ لنفسِه؛ فهو مِمَّن اتَّبَعَ هواهُ وانْتَصَرَ لنفسِه، وقد قالتْ عائشةُ[٩]: «مَا

---

(١) هذه الجملة ليست في (ك) و(س).
(٢) هذه الجملة ليست في (ك) و(س).
(٣) في (س) منازعة.
(٤) في (ك) ينحط، والصواب المثبت.
(٥) في (س) بكمال.
(٦) في (س) حظوظ، والصواب المثبت.
(٧) في (ك) و(س) يستحق، والصواب المثبت.
(٨) رواه البخاري (٣/ ٥ح١١٢٠فتح) و (١١/ ١٢٠ح٦٣١٧فتح) و (١٣/ ٣٨٣ح٧٣٨٥ فتح) و(١٣/ ٤٣٢ - ٤٣٣ح٧٤٤٢ فتح) و(١٣/ ٤٧٣ح٧٤٩٩) ومسلم (٦/ ٣٨٩ح٧٦٩نووي).
(٩) هي الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين: عائشة بنت أبي بكر، زوج رسول الله ﷺ، حفظت من السنة كثيرا خاصة في أحوال الرسول ﷺ البيتية، وهي أعلم النساء، توفيت ﵄ سنة (٥٨هـ).
انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٣٥ - (١٠٢ت١٩)، «البداية والنهاية» (٨/ ٩١ - (٩٤).

انْتَقَمَ رسولُ اللهِ ﷺ لنفسِه قطُّ»[١]. وهذا لتكميلِ عُبُودِيَّتِه.

التحاكُمُ إلى غيرِ اللهِ ورسولِه

ومَن حاكَمَ خَصْمَه إلى غيرِ اللهِ ورسولِه؛ فقد حاكَمَ إلى الطاغوتِ[٢]، وقد أُمِرَ أن يَكْفُرَ به، ولا يَكْفُرُ العبدُ بالطاغوتِ حتى يَجعلَ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَه، كما هو كذلك في نفْسِ الأمرِ: **والْحُكْمُ حُكمان[٣] حُكْمٌ كَوْنِيٌّ قَدَرِيٌّ. وَحُكْمٌ أَمْرِيٌّ دِينِيٌّ.**

تَحاكُمٌ إلى الطاغوتِ

فهذا الذي ذَكَرَه الشيخُ في «مَنازِلِ السائرينَ» وشَرَحَه عليه الشارحونَ إنما مرادُه به[٤] الحُكْمُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ، وحينئذٍ فلا بدَّ من تفصيلِ ما أَجْمَلُوه من مُسالَمَةِ الحَكَمِ، والاستسلامِ له، وتَرْكِ الْمُنازَعَةِ له؛ فإنَّ هذا الإطلاقَ غيرُ مأمورٍ به، ولا مُمْكِنٌ للعَبْدِ[٥] في نفسِه، بل الأحكامُ ثلاثةٌ:

الأحكامُ ثلاثةٌ

حكْمٌ شَرْعِيٌّ دِينِيٌّ: فهذا حَقُّه أن يُتَلَقَّى بالْمُسالَمَةِ والتسليمِ، وتَرْكِ المنازَعَةِ، بل بالانقيادِ الْمَحْضِ، وهذا تسليمُ العُبودِيَّةِ الْمَحْضَةِ؛ فلا يُعارَضُ بذَوْقٍ، ولا وَجْدٍ، ولا سياسةٍ، ولا قِياسٍ، ولا تَقليدٍ، ولا يَرَى إلى خِلافِه سَبيلًا أَلْبَتَّةَ، وإنما هو الانقيادُ الْمَحْضُ والتسليمُ والإذعانُ والقَبولُ، فإذا تَلَقَّى بهذا التسليمِ والْمُسالَمَةِ إقرارًا وتَصديقًا؛ بَقِيَ هناك انقيادٌ آخَرُ وتَسليمٌ آخَرُ له إرادةً وتَنفيذًا وعَمَلًا؛ فلا يكونُ له شَهوةٌ تُنازِعُ مُرادَ اللهِ من تَنفيذِ حُكْمِه، كما لم يَكُنْ له شُبهةٌ تُعارِضُ إيمانَه به وإقرارَه، وهذا حقيقةُ القَلْبِ السليمِ الذي سَلِمَ من شُبهةٍ تُعارِضُ الحقَّ، وشَهوةٍ تُعارِضُ الأَمْرَ، فلا

الأولُ: الحكْمُ الشرعيُّ الدينيُّ

---

(١) رواه البخاري(٦/ ٦٥٤ح٣٥٦٠فتح) و (١٠/ ٥٤١ح٦١٢٦فتح)، و(١٢/ ٨٨ح٦٧٨٦فتح) و (١٢/ ١٨٣ح٦٨٥٣فتح)، ومسلم (١٥/ ٤٧٧ح٢٣٢٧نووي)، و (٤٧٧ح٢٣٢٨نووي).

(٢) قال المؤلف: «والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم؛ بل خالفوهم في الطريق والقصد معا «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

(٣) في (ك) و(س) نوعان.

(٤) ساقطة من (ع).

(٥) في(ك) و(س) العبد، والصواب المثبت.

اسْتَمْتَعَ بِخَلاقِهِ كما اسْتَمْتَعَ به الذين يَتَّبِعونَ الشهواتِ، ولا خاضَ في الباطلِ خَوضَ الذين يَتَّبِعُونَ الشُّبُهاتِ[١]، بل انْدَرَجَ خَلاقُه تحتَ الأَمْرِ، واضْمَحَلَّ خَوْضُه في مَعرِفتِه بالحَقِّ، فاطْمأنَّ إلى اللهِ، مَعرِفةً به، ومَحَبَّةً له، وعِلْمًا بأَمْرِه، وإرادةً لِمَرضاتِه، فهذا حَقُّ الْحُكْمِ الدِّينِيِّ.

الحكمُ الثاني: الحكمُ الكونيُّ القَدرِيُّ

الحُكْمُ الثاني: الحُكْمُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ: الذي للعَبْدِ فيه[٢] كَسْبٌ واختيارٌ وإرادةٌ، والذي حُكِمَ به يَسْخَطُه ويَبْغَضُه ويُذَمُّ عليه، فهذا حقُّه أن يُنَازَعَ ويُدافَعَ بكلِّ مُمْكِنٍ، ولا يُسالَمَ البَتَّةَ، بل يُنازَعَ بالحُكْمِ الكَوْنِيِّ أيضًا، فيُنازَعَ حُكْمُ الحقِّ بالحَقِّ للحَقِّ ويُدافعَ[٣] به وله.

كما قالَ شيخُ العارفينَ في وَقتِه عبدُ القادرِ الْجِيليُّ[٤]: «الناسُ إذا وَصَلُوا[٥] إلى القضاءِ والقدَرِ أَمْسَكوا، وأنا انْفَتَحَتْ لي فيه[٦] رَوْزَنَةٌ[٧]، فنازَعْتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ، والعارفُ مَن يكون مُنازِعًا للقَدَرِ لا واقفًا مع القَدَرِ»[٨] اهـ.

حقيقةُ الشرعِ والقَدَرِ

فإن ضاقَ ذَرْعُك عن هذا الكلام وفَهْمِه؛ فتَأَمَّلْ قولَ عمرَ بنِ الخَطَّابِ وقد عُوتِبَ على فِرارِه من الطاعونِ؛ فقيلَ له: أَتَفِرُّ من قَدَرِ اللهِ؟! فقالَ: «نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ»[٩].

---

(١) في (ع) الشهوات، والصحيح ما أثبت؛ لموافقة سياق الكلام.

(٢) في (ك) تقديم وتأخير في (للعبد فيه). (٣) في(س) فيدافع.

(٤) هو: عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي، عالم فقيه زاهد صالح، ولد سنة (٤٧١) بجيلان، برع في الفقه والوعظ. له «الغنية» و«الفيوضات الربانية» و«الفتح الرباني». له شأن، وعليه مآخذ، وله كرامات وأتباع منهم المتصوفة الذين بالغوا فيه وعظموه ونسبوا له حكايات لا تصح، توفي سنة (٥٦١). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤٣٩ - (٤٥١ت٢٨٦)، و«الذيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٢٩٠ - ٣٠١)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٥٢).

(٥) في (ك) و(س) دخلوا. (٦) ساقطة من (ك) و(س).

(٧) الروزنة: الثقب في الحائط. انظر: «القاموس المحيط» باب النون فصل الراء (١٥٤٩)، وباب = = الواو والياء، فصل الكاف (١٧١٣).

(٨) ذكر هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢/ ٤٥٨)، (٨/ ٣٠٦)، (٥٤٧)، (١٠/ ١٥٨) وبسط عليه الكلام في الجزء (٨/ ٥٤٧) وذكره المؤلف في «مدارج السالكين» (١/ ١٩٩).

(٩) رواه البخاري (١٠/ ١٨٩ح٥٧٢٩فتح) ومسلم(١٤/ ٣٧٣)، (٣٧٤ح٢٢١٩نووي).

ثم كيفَ يُنْكِرُ هذا الكلامَ مَن لا بَقاءَ له في هذا العالَمِ إلا به، ولا تَتِمُّ له[١] مَصلَحَةٌ إلا بِمُوجَبِه؟! فإنه إذا جاءَه قَدَرٌ من الجوعِ والعَطَشِ و البَرْدِ؛ نَازَعَه، وتَرَكَ الانقيادَ له ومُسالَمَتَه ودُفِعَ بقَدَرٍ آخَرَ من الأَكْلِ والشُرْبِ واللباسِ، فقد دَفَعَ قدَرَ اللهِ بقَدَرِه، وهكذا إذا وَقَعَ الحريقُ في دارِه فهو بقَدَرِ اللهِ، فما بالُه لا يَستسلِمُ له ويُسالِمُه ويَتَلَقَّاهُ بالإذعانِ؛ بل يُنازِعُه ويُدافِعُه بالماءِ والترابِ وغيرِه حتى يُطْفِئَ قَدَرَ اللهِ بقَدَرِ اللهِ، وما خَرَجَ في ذلك عن قَدَرِ اللهِ؟!

وهكذا إذا أصابَه مَرَضٌ بقَدَرِ اللهِ؛ دافَعَ هذا القَدَرَ ونَازَعَه بقَدَرٍ آخَرَ يَستعمِلُ فيه الأَدويةَ الدَّافعةَ للمَرَضِ، فحَقُّ هذا الْحُكْمِ الكونيِّ أن يَحْرِصَ العَبْدُ على مُدافعَتِه ومُنازَعَتِه بكلِّ ما يُمْكِنُه، فإنْ غَلَبَه وقَهَرَه؛ حَرَصَ على دَفْعِ آثارِه ومُوجباتِه بالأسبابِ التي نَصَبَها اللهُ لذلك، فيكونُ قد دَفَعَ القَدَرَ بالقَدَرِ، ونَازَعَ الْحُكْم بالْحُكْمِ، وبهذا أُمِرَ، بل هذا حقيقةُ الشرْعِ والقدَرِ.

ومَن لم يَسْتَبْصِرْ في هذه المسألةِ، ويُعطِهَا حَقَّها؛ لَزِمَه التعطيلُ للقَدَرِ أو الشرْعِ، شاءَ أمْ[٢] أَبَى، فما لِلْعَبْدِ يُنازِعُ أقدارَ الربِّ - تعالى[٣] - بأقدارِه في حُظوظِه وأسبابِ مَعاشِه[٤] ومَصالِحِه[٥] الدنيويَّةِ، ولا يُنازِعُ أقدارَه بأقدارِه[٦] في حقِّ مَولاهُ وأوامِرِه ودِينِه؟ وهل هذا إلا خروجٌ عن العُبوديَّةِ، ونَقْصٌ في العِلْمِ باللهِ وصِفاتِه وأحكامِه؟ ولو أنَّ عدوًّا للإسلامِ قَصَدَه، لكانَ هذا بِقَدَرِ اللهِ، ويَجِبُ على كلِّ مُسْلِمٍ دَفْعُ هذا الْقَدَرِ بِقَدَرٍ يُحِبُّه اللهُ، وهو الْجِهادُ باليدِ أو المالِ أو[٧] القلْبِ؛ دَفْعًا لقَدَرِ اللهِ بقَدَرِه، فما للاستسلامِ والمسالَمَةِ هنا مَدْخَلٌ في العُبوديَّةِ، اللهمَّ إلا إذا بَذَلَ العبدُ جَهْدَه في الْمُدافَعَةِ والمنازَعَةِ وخَرَجَ الأمْرُ عن يَدِه، فحِينئذٍ يَبْقَى من أهلِ:

الحكمُ الثالثُ: الحكمُ القدريُّ الكونيُّ

الْحُكْمِ الثالثِ: وهو الْحُكْمُ القَدَرِيُّ الكونيُّ الذي يَجْرِي[٨] على العبدِ بغيرِ اختيارِه، ولا طاقةَ له بدَفْعِه، ولا حِيلةَ له في مُنازَعَتِه، فهذا حَقُّه أن يُتَلَقَّى بالاستسلامِ والمسالَمَةِ وتَرْكِ الْمُخاصَمَةِ، وأن يكونَ فيه كالْمَيِّتِ بينَ يَدَيِ الغَاسِلِ، وكمَنِ انْكَسَرَ به

---

(١) في (س) به.
(٢) في (ع) و(ك) و(س) أو.
(٣) هذه الكلمة ليست في (ك) و(س).
(٤) في (ك) معايشه.
(٥) في (ك) تقديم وتأخير في (معاشه ومصالحه)
(٦) ساقطة من (ك) و(س).
(٧) في (ك) و(س) والمال والقلب.
(٨) في (ك) جرى.

الْمَرْكَبُ في لُجَّةِ البَحْرِ، وعَجَزَ عن السباحةِ وعن سببٍ يُدْنِيهِ من النجاةِ، فهاهنا يَحْسُنُ الاستسلامُ والْمُسالَمَةُ، مع أنَّ عليه في هذا الْحُكْمِ عُبوديَّاتٍ أُخَرَ سِوى التسليمِ والْمُسالَمَةِ، وهي أن يَشْهدَ[1] عِزَّةَ الحاكمِ - سبحانَه[2] - في حُكْمِه، وعَدْلَهُ في قضائِه، وحِكْمَتَهُ في جَريانِه عليه، وأنَّ ما أصابَه لم يكن ليُخْطِئَه وما أَخطأَهُ لم يَكُنْ ليُصيبَه، وأنَّ الكتابَ الأوَّلَ سَبَقَ بذلك قبلَ بَرْءِ[3] الْخَليقةِ، فقد جَفَّ القلمُ بما يَلْقَاهُ كلُّ عبدٍ، فمَن رَضِيَ فله الرضا، ومَن سَخِطَ فله السُّخْطُ، ويَشْهَدُ[4] أنَّ القدرَ ما أصابَه إلا لِحِكْمَةٍ اقتضاها اسمُ الْحَكَمِ[5] - جلَّ جلالُه - وصِفَةُ الْحِكمةِ، وأنَّ القدرَ قد أصابَ مَواقِعَه، وحلَّ في الْمَحَلِّ الذي يَنْبَغِي أن يَحِلَّ فيه؛ إذ هو مُوجِبُ الحكْمَةِ البالغةِ، والعلْمِ المحيطِ، والعزَّةِ التامَّةِ، لم يَخْطُ مَواقِعَ الحكمةِ، ولم يَتَعَدَّ مَنازِلَه التي يَنبغِي له[6] أن يَنْزِلَ بها، وأنَّ ذلك أَوْجَبَه عَدْلُ اللهِ وحِكمتُه وعِزَّتُه وعِلْمُه ومُلْكُه العادلُ؛ فهو مُوجِبُ أسمائِه الْحُسنَى وصِفاتِه العُلَى، فله عَلَيْه أَكْمَلُ حَمْدٍ وأَتَمُّه، كما له الْحَمْدُ على جميعِ أفعالِه وأوامرِه.

وإن كان حظُّ العَبْدِ من هذا القَدَرِ الذمَّ؛ فحقُّ الربِّ - جلّ جلالُه[7] - منه الحمدُ والمدْحُ؛ لأنه مُوجِبُ كمالِه وأسمائِه الْحُسْنَى وصِفاتِه الْعُلَى، وهو مُوجِبُ نقْصِ العبدِ وجَهْلِه وظُلْمِه وتفريطِه، فاقْتَسَمَ الربُّ والعبدُ الْحَظَّيْنِ[8] في هذا القَدَرِ؛ فكان للربِّ تعالى فيه الحمْدُ والنعمةُ والفضْلُ والثناءُ الحسَنُ، وللعبْدِ حَظُّه[9] الذمُّ واللَّوْمُ والإساءةُ واستحقاقُ العُقوبةِ.

اسْتَأْثَرَ اللهُ بالْمَحَامِدِ والْفَضْلِ ... وَوَلَّى الْمَلامَةَ الرَّجُلا[10]

ويَشفِيهِ في هذا الْمَقامِ أَرْبَعُ آياتٍ:

أحدُها: قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩]، **الثانيةُ**: قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥]، **الثالثةُ**: قولُه تعالى:

---

(١) في (ع) تشهد، والصواب المثبت. (٢) هذه اللفظة ليست في (ك) و(س).
(٣) في (س) بدء. (٤) في (ك) وشهد. (٥) في (ع) الحكيم.
(٦) ساقطة من (ك). (٧) هذه اللفظة ليست في (ك).
(٨) في (ع) الخطتين. (٩) في(ع) خطة. (١٠) سبق.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: الآية ٣٠].
الرابعةُ: قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: الآية ٤٨].

فمَن نَزَّلَ هذه الآياتِ على هذا الْحُكْمِ عِلْمًا ومَعرِفةً، وقامَ بِمُوجِبِهَا إرادةً وعَزْمًا وتَوبةً واستغفارًا؛ فقد أَدَّى عُبوديَّةَ اللهِ في هذا الْحُكْمِ، و هذا قَدْرٌ زائدٌ على مُجَرَّدِ التسليمِ والمسالَمَةِ، واللهُ المستعانُ، وعليه التُّكلانُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله.

فصلٌ

حدُّ غِنَى النفسِ عندَ الْهَرَوِيِّ وبيانُ ابنِ القيِّمِ لذلك

(١) قولُه في غِنَى النفسِ: «إنه استقامتُها على المرغوبِ، وسلامتُها من المسخوطِ وبراءتُها من الْمُراءاةِ» يريدُ به(٢) استقامتَها على الأمْرِ الدينيِّ الذي يُحِبُّه اللهُ ويَرضاهُ، وتَجَنُّبَها لِمَنَاهِيهِ التي يَسْخَطُها ويَبْغَضُها، وأن تكونَ هذه الاستقامةُ على الفِعْلِ والتَّرْكِ تَعظيمًا للهِ(٣) وأَمْرِه، وإيمانًا به، واحتسابًا لثوابِه، وخَشيةً من عِقابِه، لا طلبًا لتعظيمِ المخلوقينَ له ومَدْحِهم، وهَربًا من ذَمِّهِم وازْدِرائِهم، وطَلَبًا للجَاهِ والْمَنزلةِ عندَهم؛ فإنَّ هذا دليلٌ على غايةِ الفقْرِ من اللهِ، والبُعْدِ منه، وأنه أَفْقَرُ شيءٍ إلى المخلوقِ.

فسلامةُ النفْسِ من ذلك واتِّصافُها بضِدِّه دَليلُ غِناها؛ لأنها إذا أَذْعَنَتْ مُنقادةً لأَمْرِ اللهِ طَوْعًا واختيارًا ومَحَبَّةً وإيمانًا واحتسابًا؛ بحيثُ تَصيرُ لَذَّتُها وراحتُها ونعيمُها وسُرورُها في القِيامِ بعُبُودِيَّتِه، كما كانَ(٤) النبيُّ ﷺ يقولُ(٥): «**يا بِلالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ**»(٦). وقالَ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**»(٧).

(١) في (س) زيادة: (في). (٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) في (ك) و(س) زيادة: (سبحانه). (٤) في (ك) قال.
(٥) ساقطة من (ك).
(٦) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٦٤) وأبو داود (٤/ ٢٩٦ح٤٩٨٥)، (٤٩٨٦) وفي «الآحاد والمثاني» لأحمد بن عمرو الشيباني (٤/ ٣٥٩ح٢٣٩٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٧٦ - ٢٧٧ح٦٢١٤) والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٤١ - ٩٤٢ح٤١٧١)، (٤١٧٢) وفي «صحيح الجامع» (٢/ ١٣٠٧ح٧٨٩٢).
(٧) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٨)، (١٩٩)، (٢٨٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٨٠ح٨٨٨٧)، (٨٨٨٨) بنحوه؛ وفي «السنن» (المجتبى) (٧/ ٦١ - ٦٢) وأبو يعلى في «مسنده» =

وقُرَّةُ العينِ فوقَ الْمَحَبَّةِ، فجَعَلَ النساءَ والطِّيبَ مِمَّا يُحِبُّه، وأَخْبَرَ أنَّ قُرَّةَ العينِ التي يَطْمَئِنُّ القلبُ بالوُصولِ إليها، وتَحْضُرُه لذَّتُه وفَرَحُه[1] وسرورُه وبَهْجَتُه؛ إنما هو في الصلاةِ التي هي صِلَةٌ باللهِ، وحُضورٌ بينَ يديْهِ، ومُناجاةٌ له، واقترابٌ منه، فكيف لا تكونُ[2] قُرَّةَ العينِ؟! وكيف تَقَرُّ عينُ الْمُحِبِّ بسِواها؟.

فإذا حَصَلَ للنفْسِ هذا الحظُّ، الجليلُ فأيُّ فَقْرٍ تَخْشَى معه؟ وأيُّ غِنًى فاتَها حتى تَلْتَفِتَ إليه؟ ولا يَحْصُلُ لها هذا حتى يَنْقَلِبَ طَبْعُها، ويَصيرَ مُجانِسًا[3] لطبيعةِ القَلْبِ؛ فتَصيرَ بذلك مُطْمَئِنَّةً بعدَ أن كانت لَوَّامَةً، وإنما تَصيرُ مُطمئِنَّةً بعدَ تَبَدُّلِ صِفاتِها، وانقلابِ طَبْعِها؛ لاستغناءِ القلبِ بما وَصَلَ إليه من نورِ الحقِّ - جلَّ جَلالُه - فجَرَى أثَرُ ذلك النورِ في سَمْعِه وبَصَرِه وشَعْرِه وبَشَرِه وعَظْمِه ولَحْمِه[4] وسائرِ مَفاصِلِه، وأحاطَ بجِهاتِه من فوقِه وتَحتِه ويمينِه ويَسارِه وخَلْفِه وأمامِه، وصارتْ ذاتُه نورًا، فصارَ[5] عَمَلُه نورًا، وقولُه نورًا، ومَدْخَلُه نورًا، ومَخْرَجُه نورًا، وكان في مَبْعَثِه مِمَّن أُتِمَّ له نورُه، فقَطَعَ به الْجِسْرَ.

التقاعدُ عن المطلوبِ من أسبابِ الوقوعِ في الشهواتِ

وإذا وَصَلَت النفْسُ إلى هذه الحالِ؛ اسْتَغْنَتْ بها عن التطاوُلِ إلى الشهواتِ التي تُوجِبُ اقتحامَ الحدودِ الْمَسخوطةِ، والتقاعُدَ عن الأمورِ المطلوبةِ المرغوبةِ؛ فإنَّ فقْرَها إلى الشهواتِ هو الْمُوجِبُ لها التقاعُدَ عن المرغوبِ المطلوبِ، وأيضًا فتقاعُدُها عن المطلوبِ منها مُوجِبٌ؛ لفَقْرِها إلى الشهواتِ، فكلٌّ منهما موجِبٌ للآخَرِ.

وتَرْكُ الأوامرِ أقْوَى لها في افتقارِها إلى الشهواتِ؛ فإنه بِحَسَبِ قيامِ العبدِ بالأمرِ

= (٦/ ١٩٩)، (٣٤٨٢ح٢٣٧)، (٣٥٣٠) والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٢٠ح١٠١٢) بمثله مختصرا؛ و«الأوسط» (٥/ ٢٤١ح٥٢٠٣)، (٦/ ٥٤ح٥٧٧٢)، و«الصغير» (٢/ ٣٩ح٧٤١). والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٧٤ح٢٦٧٦) بنحوه، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي؛ والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٧٨ح١٣٢٣٢) بمثله؛ والديلمي في «الفردوس» (٢/ ١٤٣ح٢٧٣٣) بنحوه. قال المقدسي في «الآحاديث المختارة»: إسناده صحيح. انظر: (٤/ ٤٢٧ح١٧٣٦)، (٥/ ١١٢ - (١١٣ح١٧٣٧)، وقال ابن حجر في«الفتح» (١١/ ٣٥٣): سنده صحيح. وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٣/ ٨٢٧ح٣٦٨٠)، (٣٦٨١)، وفي «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١/ ٥٩٩ح٣١٢٤).

(١) في (ع) وفرحته. (٢) في (ع) لا يكون.

(٣) في (ك) مجانبًا، ولعل المثبت هو الصواب؛ لكي يستقيم المعنى.

(٤) في (ك) و(س) زيادة: (ودمه). (٥) في (ك) و(س) وصار.

تُدْفَعُ[١] عنه جُيوشُ الشهوةِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحجّ: الآية ٣٨]، وفي القراءةِ الأخرى «يَدْفَعُ»[٢]؛ فكَمالُ الدَّفْعِ والْمُدافَعَةِ بحَسَبِ قُوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِه.

فإذا صارت النفْسُ حُرَّةً طَيِّبَةً مُطْمَئِنَّةً غَنِيَّةً بما أَغناها به مالكُها وفاطِرُها من النورِ الذي وَقَعَ في القلبِ، ففاضَ منه إليها؛ استَقَامَتْ بذلك الغِنَى على الأمرِ المرغوبِ، وسَلِمَتْ به عن الأمرِ المسخوطِ، وبَرِئَتْ من الْمُراءَاةِ.

ومَدارُ ذلك كلِّه على الاستقامةِ ظاهرًا وباطنًا[٣]، ولهذا كان الدِّينُ كلُّه في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هُود: الآية ١١٢].

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٣][٤].

فصلٌ

الدرجةُ الأولى من درجاتِ غِنَى النفسِ

وهذه الاستقامةُ تُرَقِّيها إلى الدرجةِ الثالثةِ من الْغِنَى، وهو الْغِنَى بالحقِّ - تبَارَكَ وتَعَالَى - عن كلِّ ما سِواه، وهي أَعْلَى دَرجاتِ الْغِنَى.

فأَوَّلُ هذه الدرجةِ: أن تَشْهَدَ ذِكْرَ اللهِ ﷻ إيَّاك قبلَ ذِكْرِك له، وأنه[٥] - تعالى -

(١) في (ك) يدفع.

(٢) في(س) تقديم وتأخير في القراءتين. ﴿يُدَٰفِعُ﴾ [الحج: الآية ٣٨] قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «يدفع». انظر: «كتاب السبعة في القراءات» لأحمد بن موسى البغدادي (٤٣٧)، و«حجة القراءات» لعبد الرحمن أبي زرعة(ص٤٧٧).

(٣) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (ظاهرًا وباطنًا).

(٤) لاشتمال هاتين الآيتين على كلمة من الكلمات الجوامع التي تتضمن امتثال المأمور وترك المحظور، وهو الأمر بالاستقامة التي هي كما يقول المؤلف: «كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأعمال والأحوال والنيات؛ فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله». «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٥). وانظر: فصلا في الاستقامة في «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٣ - ١١١).

(٥) في (ك) وأن الله.

ذَكَرَك فيمَن ذَكَرَه من مخلوقاتِه ابتداءً قبلَ وُجودِك وطاعتِك وذِكْرِك؛ فقَدَّرَ خَلْقَك ورِزْقَك وعَمَلَك، وإحسانَه إليك، ونِعَمَه عليك؛ حيث لم تَكُنْ شيئًا أَلْبَتَّةَ وذَكَرَكَ سبحانَه بالإسلام؛ فوَفَّقَكَ له، واختارَكَ له دونَ مَن خَذَلَه، قالَ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحجّ: الآية ٧٨] فجَعَلَك أهلًا لِمَا لم تكنْ أَهلًا له قطُّ، وإنما هو الذي أَهَّلَك بسابِقِ ذِكْرِه، فلولا ذِكْرُه - تعالى[١] - لك بكلِّ جميلٍ أَوْلاكَهُ؛ لم يكنْ لك إليه سبيلٌ، ومَن الذي ذَكَّرَك باليَقظةِ حتى استَيْقَظْتَ وغيرُك في رَقدةِ الغَفلةِ مع النُّوَّامِ؟ ومَن الذي ذَكَّرَك سِواه بالتَّوبةِ حتى وَفَّقَكَ لها، وأَوْقَعَها في قَلْبِك، وبَعَثَ دَواعِيَكَ عليها[٢]، وأَحْيَى عَزَمَاتِك الصادقةَ عليها، حتى تُبْتَ إليه وأَقْبَلْتَ عليه، فذُقْتَ حَلاوةَ التوبةِ وبَرْدَها ولَذَّتَها؟ ومَن الذي ذَكَّرَكَ سِواه بِمَحَبَّتِه حتى هاجَتْ من قلبِك لَوَاعِجُها[٣]، وتَوَجَّهَتْ نحوَه سبحانَه رَكائِبُها، وعَمَرَ قَلْبُكَ بِمَحَبَّتِه بعدَ طولِ الْخَرابِ، وآنَسَكَ بقُرْبِه بعدَ طولِ الوَحْشَةِ والاغترابِ؟ ومَن تَقَرَّبَ إليك أولًا حتى تَقَرَّبْتَ إليه، ثم أَثابَك على هذا التقَرُّبِ تَقَرُّبًا آخَرَ، فصارَ التقرُّبُ منك مَحفوفًا بتَقَرُّبَيْنِ منه تعالى: تَقَرُّبٍ بعدَه وتَقَرُّبٍ قَبْلَه[٤]؟

والحبُّ منك مَحفوفًا بِحُبَّيْنِ منه: حبٍّ قَبْلَه وحُبٍّ بعدَه.

والذكْرُ منك مَحفوفًا بذِكْرَيْنِ: ذِكْرٍ قَبْلَه وذِكْرٍ بعدَه، فلولا سابقُ ذِكْرِه إيَّاكَ لم يكنْ مِن ذلك كلِّه شيءٌ، ولا وَصَلَ إلى قَلبِك ذَرَّةٌ مِمَّا وَصَلَ إليه من مَعرفتِه وتَوحيدِه ومَحَبَّتِه وخَوفِه، ورَجائِه، والتوكلِ عليه، والإنابةِ إليه والتقَرُّبِ إليه، فهذه كلُّها آثارُ ذِكْرِه لك.

ثم إنه سبحانَه ذَكَرَكَ بنِعَمِه المترادِفَةِ المُتَوَاصِلةِ بعدَدِ الأنفاسِ، فله عليك في كلِّ طَرفةِ عينٍ ونَفَسٍ نِعَمٌ عديدةٌ، ذَكَرَك بها قبلَ وُجودِك، وتَعَرَّفَ بها إليك، وتَحَبَّبَ بها إليك مع غِناهُ التامِّ عنك وعن كلِّ شيءٍ، وإنما ذلك مُجَرَّدُ إحسانِهِ وفَضْلِه وَجُودِه؛ إذ هو الْجَوَادُ[٥]، المحسنُ لِذاتِه لا لِمُعَاوَضَةٍ، ولا لطَلَبِ جزاءٍ منك، ولا لحاجةٍ دَعَتْه إلى ذلك، كيف وهو الغنيُّ الحميدُ؟ فإذا وَصَلَ إليك أَدْنَى نِعمةٍ منه؛ فاعْلَمْ أنه ذَكَرَكَ

(١) هذه اللفظة ليست في (ك) و(س).
(٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) الخلجات ومنازعة الأفكار. انظر: «القاموس المحيط» باب الجيم فصل الخاء (ص٢٣٩)، وباب الجيم فصل اللام(ص٢٦١).
(٤) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (تقربا بعده وتقربا قبله).
(٥) في (ك) زيادة: (المفضل)، وفي (س) المتفضل.

بها فلْتَعْظُمْ عندَك لذِكْرِه لك بها؛ فإنه ما حَقَرَك مَن ذَكَرَك بإحسانِه، وابْتَدَأَك بمعروفِه، وتَحَبَّبَ إليك بنعمتِه، هذا كلُّه مع غِناهُ عنك.

آثارُ شهودِ العبدِ ذِكْرَ ربِّه له

فإذا شَهِدَ العبدُ ذِكْرَ ربِّه[١] له، ووَصَلَ شاهِدُه إلى قَلْبِه؛ شَغَلَه ذلك عما سواه، وحَصَلَ لقلبِه به غِنًى عالٍ لا يُشْبِهُه شيءٌ، وهذا كما يَحْصُلُ للمَمْلُوكِ الذي لا يَزالُ أستاذُه وسَيِّدُه يَذْكُرُه ولا يَنساهُ، فهو يَحْصُلُ له - بشعورِه بذِكْرِ أُستاذِه له - غِنًى زائدٌ على إنعامِ سَيِّدِه عليه وعَطاياه السَّنِيَّةِ له، فهذا هو غِنَى ذِكْرِ اللهِ للْعَبْدِ.

وقد قالَ ﷺ فيما يَرْوِي عن ربِّه - تَبَارَكَ وتعالى -: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ؛ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ. ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**».[٢] فهذا ذكْرٌ ثانٍ بعدَ ذِكْرِ العبدِ لربِّه غيرُ الذكرِ الأوَّلِ الذي ذَكَرَه به[٣] حينَ[٤] جَعَلَه ذَاكِرًا، وشُعورُ العبدِ بكِلا الذِّكْرَيْنِ يُوجِبُ له غِنًى زائدًا على إنعامِ رَبِّه عليه وعَطاياه له، وقد ذَكَرْنَا في كتابِ «الكَلِمِ الطَّيِّبِ والعملِ الصالحِ»[٥]: من فوائدِ الذِّكْرِ: استجلابُ ذِكْرِ اللهِ[٦] لعَبْدِه، وذَكَرْنَا قريبًا من مائةِ فائدةٍ تَتَعَلَّقُ بالذكرِ، كلُّ فائدةٍ منها لا خَطَرَ[٧] لها، وهو كتابٌ عظيمُ النفعِ جِدًّا.

والمقصودُ أنَّ شعورَ العَبْدِ وشُهودَه لذِكْرِ اللهِ له يُغْنِي قلبَه ويَسُدُّ فاقَتَه، وهذا بخِلافِ مَن نَسُوا[٨] اللهَ فَنَسِيَهُم، فإنَّ الفَقْرَ من كلِّ خيرٍ حاصلٌ لهم، وما يَظُنُّونَ أنه حاصلٌ لهم من الْغِنَى فهو [من أكبرِ][٩] أسبابِ فَقْرِهم.

---

(١) في (ك) و(س) زيادة: (تعالى).

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٣٩٥ح٧٤٠٥فتح)، ومسلم (١٧/ ١٨٢ح٢٦٨٧نووي).

(٣) ساقطة من (ع).

(٤) في (ك) و(س) حتى.

(٥) طبع باسم «الوابل الصيب من الكلم الطيب». انظر: «ابن القيم -حياته - آثاره - موارده» (٢٩٣).

(٦) في (ك) و(س) زيادة: (سبحانه).

(٧) لاخطر لها: أي: لا عوض لها ولا مثل. «النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير (٢/ ٤٦)، وانظر: «لسان العرب» باب الخاء (٤/ ١٣٧)، وكما في الحديث: «**ألا مشمر للجنة؟ فإن الجنة لاخطر لها** » الحديث في «صحيح ابن حبان» (١٦/ ٣٨٩ح٧٣٨١)، و«سنن ابن ماجه» (ح٤٣٣٢). والحديث ضعفه الألباني. انظر: «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٥٤ح٩٤٦).

(٨) في (ك) و(س) نسي، والموافق للسياق المثبت.

(٩) في (ع) (آكد) بدلًا من (من أكبر).

فصلٌ

الدرجةُ الثانيةُ من دَرجاتِ الغِنَى

الدرجةُ الثانيةُ من دَرجاتِ الغِنَى باللهِ ﷻ: دوامُ شُهودِ أَوَّلِيَّتِه تعالى، وهذا الشهودُ عندَ أربابِ السلوكِ أَعْلَى مِمَّا قَبْلَه، والغِنَى به أَتَمُّ من الغِنَى المذكورِ؛ لأنه من مَبادئِ الْغِنَى بالحقيقةِ؛ لأنَّ العبْدَ إذا فَتَحَ اللهُ لقَلْبِه[١] شهودَ أَوَّلِيَّتِه سبحانَه حيث كان ولا شيءَ غيرُه، وهو الإلهُ الحقُّ الكاملُ في أسمائِه وصفاتِه، الغَنِيُّ بذاتِه عما سِواه، الحميدُ المجيدُ[٢] بذاتِه قبلَ أن يَخْلُقَ مَن يَحْمَدُه ويَعْبُدُه ويُمَجِّدُه، فهو مَعبودٌ محمودٌ حيٌّ قَيُّومٌ، له الْمُلْكُ، وله الحمْدُ في الأَزَلِ والأبَدِ، لم يَزَلْ ولا يَزالُ مَوصوفًا بصِفاتِ الْجَلالِ، مَنعوتًا بنُعوتِ الكَمالِ، وكلُّ شيءٍ سواه فإنما كان به وهو تعالى بنفسِه ليس بغيرِه، فهو القَيُّومُ الذي قِيامُ[٣] كلِّ شيءٍ به، ولا حاجةَ به في قَيُّومِيَّتِه إلى غيرِه بوَجْهٍ من الوُجوهِ.

فإذا شَهِدَ العبدُ سَبْقَه تعالى بالأَوْلَوِيَّةِ ودَوامِ وُجودِه الحقِّ، وغابَ بهذا عمَّا سواهُ من الْمُحْدَثاتِ؛ فَنِيَ في وُجودِه مَن لم يكنْ كأنه لم يكنْ، وبَقِيَ مَن لم يَزَلْ، واضْمَحَلَّت الْمُمْكِنَاتُ[٤] في وُجودِه الأَزَلِيِّ الدائمِ؛ بحيث صارَتْ كالظلالِ الذي[٥] يَبْسُطُها ويَمُدُّها ويَقْبِضُها، فيَسْتَغْنِي العبدُ بهذا الْمَشْهَدِ العظيمِ، ويَتَغَذَّى بها عن فَاقاتِه وحاجاتِه.

وإنما كان أَفْضَلَ عندَهم مِمَّا قَبْلَه؛ لأنَّ[٦] الشهودَ الذي قَبْلَه فيه شائبةٌ[٧] مُشيرةٌ إلى وُجودِ العَبْدِ، وهذا الشُّهودُ الثاني ساترٌ[٨] للمَوجوداتِ[٩] كُلِّها سِوَى «الأَوَّلِ» تعالى؛ قد اضْمَحَلَّتْ وفَنِيَتْ فيه، وصارتْ كأَوَّلِيَّتِها وهو العَدَمُ، فأَفْنَتْها أَوَّلِيَّةُ[١٠] الحقِّ - تَبارَكَ وتعالى - فبَقِيَ العبدُ مَحْوًا صِرْفًا، وعَدَمًا مَحْضًا، وإن كانت إِنِيَّتُهُ

(١) في (ع) (له) بدلا من (لقلبه).

(٢) هذه اللفظة ليست في (ك) و(س).

(٣) في (ع) قام.

(٤) في (س) المكنات، والصواب المثبت.

(٥) في (ع) التي.

(٦) في (ع) أن، والصواب المثبت.

(٧) في(ع) مشابهة، والصواب المثبت.

(٨) في(س) سائر، وهو تصحيف.

(٩) في (ك) و(س) الموجودات.

(١٠) في(س) أوليته، والصواب المثبت؛ لأنه لا معنى للضمير.

مُتَشَخِّصَةً[١] مُشارًا[٢] إليها، لكنها لَمَّا نُسِبَتْ إلى أَوَّلِيَّةِ[٣] الحقِّ ﷻ؛ اضْمَحَلَّتْ، وفَنِيَتْ، وبَقِيَ الواحدُ الْحَقُّ الذي لم يَزَلْ باقيًا، فاضْمَحَلَّ ما دونَ الحقِّ تعالى في شُهودِ العَبْدِ كما هو مُضْمَحِلٌّ في نفسِه، وشَهِدَ العبدُ حينئذٍ أنَّ كلَّ شيءٍ ما سِوَى اللهِ[٤] باطلٌ، وأنَّ الحقَّ الْمُبينَ هو اللهُ وَحْدَه.

مشاهدُ أسماءِ الربِّ وصِفاتِه والتعبُّدُ لله بِمُقْتَضاها

ولا ريبَ أنَّ الغِنَى بهذا الشُّهودِ أَتَمُّ من الْغِنَى بالذي قَبْلَه، وليس هذا مُخْتَصًّا بشهودِ أَوَّلِيَّتِه تعالى فقط، بل جميعُ ما يَبْدُو للقلوبِ من صِفاتِ الربِّ - جلَّ جَلالُه - يَستغنِي العَبْدُ بها بقَدْرِ حَظِّه وقَسْمِه من مَعرِفتِها وقيامِه بعُبُودِيَّتِها.

فمَن شَهِدَ مَشْهَدَ عُلُوِّ اللهِ على خَلْقِه، وفَوْقِيَّتِه لعِبادِه، واستوائِه على عَرْشِه، كما أَخْبَرَ به أَعْرَفُ الخلْقِ وأَعْلَمُهم به، الصادقُ المصدوقُ، وتَعَبَّدَ بِمُقتَضَى هذه الصفةِ بحيث يَصيرُ لقَلْبِه صَمَدٌ يَعْرُجُ القَلْبُ إليه، مُناجيًا له، مُطْرِقًا، واقفًا بينَ يَدَيْهِ وُقوفَ العبدِ الذليلِ بينَ يَدَي الملِكِ العزيزِ، فيَشْعُرُ بأنَّ كَلِمَه وعَمَلَه صاعدٌ إليه، معروضٌ عليه بينَ[٥] خاصَّتِه وأوليائِه، فيَسْتَحِي أن يَصْعَدَ إليه من كَلِمِه وعَمَلِه[٦] ما يُخْزِيهِ ويَفْضَحُه هناك، ويَشْهَدُ نُزولَ الأَمْرِ والْمَراسيمِ الإلهيَّةِ إلى أقطارِ العوالِمِ كلَّ وَقتٍ بأنواعِ التدبيرِ والتصرُّفِ من الإماتةِ والإحياءِ، والتولِيَةِ والعزْلِ، والخفْضِ والرفْعِ، والعَطاءِ والمنْعِ، وكَشْفِ البلاءِ وإرسالِه، وتقليبِ[٧] الدُّوَلِ، ومُداولةِ الأيَّامِ بينَ الناسِ إلى غيرِ ذلك من التَّصَرُّفِ[٨] - في الْمَمْلَكَةِ التي لا يَتَصَرَّفُ فيها سِواهُ؛ فمَراسِيمُه[٩] نافذةٌ فيها كما يَشاءُ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدَة: الآية ٥] فمَن أَعْطَى هذا الْمَشْهَدَ حَقَّه معرِفةً وعُبوديَّةً؛ اسْتَغْنَى به.

مشهدُ العلْمِ

وكذلك مَن شَهِدَ مَشهدَ العِلْمِ المحيطِ - الذي لا يَعْزُبُ عنه مِثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماواتِ[١٠]، ولا في قَرارِ البحارِ، ولا تحتَ أَطباقِ الْجِبالِ، بل أحاطَ بذلك كلِّه[١١] عِلْمًا تفصيليًّا - ثم تَعَبَّدَ بِمُقْتَضَى هذا الشهودِ من حِراسةِ خَواطِرِه وإراداتِه[١٢][١٣] وعَزَماتِه وجَوارِحِه.

---

(١) في (ك) و(س) مستخصة، وفي حاشية (س) مستحضرة، والصواب المثبت.

(٢) في (ك) ومشارا. (٣) في(س) أوليته. (٤) في (ك) و(س) ما سواه.

(٥) في (ك) مع، وفي حاشيتها (بين) وساقطة من (س). (٦) ساقطة من (س).

(٧) في (ك) و(س) وتقلب. (٨) في (ك) و(س) التصرفات. (٩) في (ك) فمراسمه.

(١٠) في (س) السماء. (١١) في(س) علمه، ولعله الأصوب. (١٢) في (ك) و(س) إرادته.

(١٣) في (ك) و(س) زيادة: (وجميع أحواله).

[علمًا بأنَّ][١] حركاتِه الظاهِرةَ والباطنةَ، وخواطرَه وإراداتِه[٢]، وجميعَ أحوالِه ظاهرةٌ[٣] مَكشوفةٌ لَدَيْه، عَلانيةٌ له باديةٌ له[٤]، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ.

مشهدُ السمْعِ

وكذلك[٥] إذا أَشْعَرَ قلبَه صفةَ سَمْعِه - تَبارَكَ وتعالى - لأصواتِ عِبادِه على اختلافِها وجَهْرِها وخَفائِها، وسواءٌ عندَه مَن أَسَرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به، لا يَشْغَلُه جَهْرُ مَن جَهَرَ عن سَمْعِه لصوتِ مَن أَسَرَّ، ولا يَشْغَلُه سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُه الأصواتُ على كَثْرَتِها واختلافِها واجتماعِها، بل[٦] هي عندَه كلُّها كصوتٍ واحدٍ[٧] كما أنَّ خلْقَ الخلْقِ جميعِهم، وبَعْثَهم عندَه بِمَنْزِلَةِ نفسٍ واحدةٍ.

مشهدُ البصَرِ

وكذلك إذا شَهِدَ معنى اسمِه «البصيرِ» - جلَّ جَلالُه - الذي يَرَى دَبيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصَّمَّاءِ في حِنْدِسِ[٨] الظَّلْماءِ، ويَرَى تفاصيلَ خَلْقِ الذرَّةِ الصغيرةِ ومُخَّها وعُروقَها ولَحْمَها وحَرَكَتَها، ويَرَى مَدَّ البَعوضةِ جَناحَها في ظُلمةِ الليلِ، وأَعْطَى هذا الْمَشهدَ حَقَّه من العُبوديَّةِ؛ فحَرَسَ[٩] حَركاتِه وسَكَناتِه، وتَيَقَّنَ أنها بِمَرْأًى منه - تَبارَكَ وتعالى - ومُشاهَدَةٍ لا يَغيبُ عنه منها شيءٌ.

مشهدُ القَيُّوميَّةِ والرُّبُوبيَّةِ

وكذلك إذا شَهِدَ مَشهدَ «القَيُّوميَّةِ» الجامعَ لصِفاتِ الأفعالِ، وأنه قائمٌ على كلِّ شيءٍ، وقائمٌ على كلِّ نفْسٍ [بما كَسَبَتْ][١٠]، وأنه تعالى هو القائمُ بنفسِه، الْمُقيمُ لغَيرِه، القائمُ عليه بتَدبيرِه ورُبوبيَّتِه وقَهْرِه، وإيصالِ جَزاءِ الْمُحْسِنِ إليه، وجزاءِ الْمُسيءِ إليه، وأنه لكمالِ قَيُّومِيَّتِه[١١] لا يَنامُ، ولا يَنْبَغِي له أن يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه، يُرْفَعُ[١٢] إليه عَمَلُ الليلِ قبلَ[١٣] النهارِ، وعَمَلُ النهارِ قبلَ[١٤] الليلِ، لا تَأْخُذُه سِنةٌ ولا نَومٌ، ولا يَضِلُّ ولا يَنْسَى.

---

(١) في (ك) و(س) علم أن، والصواب المثبت. (٢) في (ك) و(س) وإرادته.
(٣) في (ك) و(س) الظاهرة، والصواب المثبت.
(٤) ساقطة من (ك) و(س). (٥) في(ع) ولذلك، والصواب المثبت.
(٦) ساقطة من (ع). (٧) في (ك) تقديم وتأخير في (كلها كصوت واحد).
(٨) الحندس: الليلة المظلمة الشديدة السواد. انظر: «لسان العرب» باب الحاء (٣/ ٣٥٦).
(٩) في (س) يحرس، والصواب المثبت. (١٠) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).
(١١) في(س) قيومته، والصواب المثبت. (١٢) في (ك) ويرفع. (١٣) في (س) زيادة: (عمل).
(١٤) في (س) زيادة: (عمل).

وهذا الْمَشهدُ من أَرْفَعِ[(١)] مَشاهدِ العارفينَ، وهو مَشهدُ الرُّبوبيَّةِ[(٢)].

مشهدُ الألُوهيَّةِ

وأعلى منه مَشهدُ «الإلهيَّةِ» الذي هو مَشهدُ الرُّسُلِ وأتباعِهم الْحُنفاءِ، وهو شَهادةُ أن لا إلهَ إلا هو، وأنَّ إلهيَّةَ ما سِواهُ باطلٌ ومُحالٌ، كما أنَّ[(٣)] رُبوبيَّةَ ما سواه كذلك؛ فلا أَحَدَ سواه يَسْتَحِقُّ أن يُؤَلَّه ويُعْبَدَ، ويُصَلَّى له ويُسْجَدَ، ويَسْتَحِقُّ نِهايةَ الْحُبِّ مع نِهايةِ الذُّلِّ لكمالِ أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، فهو الْمُطاعُ وحدَه على الحقيقةِ، والْمَألُوهُ وَحْدَه، وله الْحُكْمُ وَحْدَه، فكُلُّ عُبوديَّةٍ لغيرِه باطلةٌ وعَناءٌ وضَلالٌ، وكلُّ مَحبَّةٍ لغيرِه عذابٌ لصاحبِها، وكلُّ غِنًى بغيرِه فَقْرٌ وفَاقةٌ، وكلُّ عزٍّ بغيرِه[(٤)] ذُلٌّ وصَغارٌ وكلُّ تَكَثُّرٍ[(٥)] بغيرِه قِلَّةٌ وذِلَّةٌ، فكما استحالَ أن يكونَ للخَلْقِ ربٌّ غيرُه، فكذلك يَستحيلُ[(٦)] أن يكونَ لهم إلهٌ غيرُه، فهو الذي انتَهَتْ إليه الرَّغَباتُ، وتَوَجَّهَتْ[(٧)] نحوَه الطَّلَباتُ، ويَستحيلُ أن يكونَ معه إلهٌ آخَرُ، فإنَّ الإلهَ على الحقيقةِ هو الغَنِيُّ الصَّمَدُ، الكاملُ في أسمائِه وصِفاتِه، الذي حاجةُ كلِّ أحدٍ إليه، ولا حاجةَ به إلى أَحَدٍ، وقِيامُ كلِّ شيءٍ به، وليس قِيامُه بغيرِه، ومِنَ الْمُحالِ أن يَحْصُلَ في الوُجودِ اثنان كذلك، ولو كان في الوُجودِ إِلَهانِ؛ لفَسَدَ نظامُه أَعْظَمَ فَسادٍ، واختَلَّ أَعْظَمَ اختلالٍ، كما أنه[(٨)] يَستحيلُ أن يكونَ له فاعلان مُتساويان كلٌّ منهما مُستقِلٌّ بالفِعْلِ؛ فإنَّ استقلالَهما يُنافِي[(٩)] استقلالَهما، واستقلالَ أحدِهما يَمْنَعُ رُبوبيَّةَ[(١٠)] الآخَرِ.

الاستدلالُ بتوحيدِ الربوبيَّةِ على توحيدِ الأُلُوهيَّةِ وعِلَّةُ ذلك

فتَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ أَعْظَمُ دليلٍ على تَوحيدِ الإلَهيَّةِ، ولذلك[(١١)] وَقَعَ الاحتجاجُ به في القُرآنِ أَكْثَرَ مِمَّا وَقَعَ بغيرِه؛ لصِحَّةِ دَلالتِه وظُهورِها، وقَبولِ العقولِ والفِطَرِ لها، ولاعترافِ أهلِ الأرضِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، ولذلك كان عُبَّادُ الأصنامِ يُقِرُّون به ويُنْكِرُون توحيدَ الإلهيَّةِ ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: الآية ٥] مع اعترافِهم بأنَّ اللهَ وَحْدَه هو الخالقُ لهم، وللسماواتِ[(١٢)] والأرْضِ وما بينَهما، وأنه الْمُتَفَرِّدُ بِمِلْكِ ذلك كلِّه،

---

(١) في (س) من أعظم، وفي حاشيتها: نسخة أرفع.

(٢) لأن غاية التوحيد عند عامة المتصوفة هو إثبات توحيد الربوبية.

(٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) في (ك) لغيره.

(٥) في (ك) و(س) تكثير، والصواب المثبت.

(٦) في(ك) و(س) استحال.

(٧) في (ك) زيادة: (إليه) ولا معنى للزيادة.

(٨) أنه ساقطة من (ك) و(س).

(٩) وفي حاشية (س): نسخة يمنع.

(١٠) في (س) ربوبيته.

(١١) في (ك) وكذلك، والصواب المثبت.

(١٢) في(ك) والسماوات.

فأَرْسَلَ اللهُ تعالى الرُّسُلَ[١] تُذَكِّرُهم[٢] بما في فِطَرِهم الإقرارُ به من توحيدِه وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنهم لو رَجَعُوا إلى فِطَرِهم وعقولِهم؛ لدَلَّتْهُم على امتناعِ إلهٍ آخَرَ معه، واستحالتِه وبُطلانِه.

اسمُ اللهِ هو الاسمُ الجامعُ للأسماءِ والصفاتِ

فمَشْهَدُ الأُلوهيَّةِ هو مَشْهَدُ الْحُنفاءِ، وهو مَشْهَدٌ جامعٌ للأسماءِ والصفاتِ، وحَظُّ العِبادِ منه[٣] بحَسَبِ حَظِّهم من مَعرفةِ الأسماءِ والصفاتِ، [ولذلك كان أَكْمَلُ الْخَلْقِ فيه أَعْرَفَهم باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه][٤]، ولذلك[٥] كانَ الاسمُ الدالُّ على هذا المعنى[٦] هو اسمَ «اللهِ» - جلَّ جلالُه - فإنَّ هذا الاسمَ هو الجامعُ، ولهذا تُضافُ الأسماءُ الْحُسنى كلُّها إليه؛ فيُقالُ: الرحمنُ الرحيمُ العزيزُ الغَفَّارُ القَهَّارُ مِن أسماءِ اللهِ، ولا يُقالُ: «اللهُ» من أسماءِ الرحمنِ، قالَ[٧] تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

فهذا الْمَشْهَدُ تَجْتَمِعُ فيه المشاهِدُ كُلُّها، وكلُّ مَشْهَدٍ سواه فإنما هو مَشهدٌ لصِفةٍ من صفاتِه، فمَن اتَّسَعَ قَلبُه لِمَشهدِ الإلهيَّةِ، وقامَ بحقِّه من التَّعَبُّدِ الذي هو كمالُ الحبِّ بكَمالِ الذلِّ والتعظيمِ والقِيامِ بوظائفِ العُبوديَّةِ، فقد تَمَّ له غِناه بالإلهِ الْحَقِّ، وصارَ من أَغْنَى العِبادِ، ولسانُ حالِ مِثلِ هذا يقولُ:

وإنَّ الغِنَى العالِي عن الشيءِ لا به[٨]   غَنِيتُ بلا مالٍ عن الناسِ كُلِّهم

فيا له من غِنًى ما أَعْظَمَ خَطَرَه، وأَجَلَّ قَدْرَه؛ تَضاءَلَتْ دونَه الْمَمالِكُ فما دُونَها، فصارَتْ[٩] بالنِّسبةِ إليه كالظِّلِّ من الحامِلِ له، والطَّيْفِ الْمُوافِي في الْمَنامِ، الذي يَأْتِي به حَديثُ النفْسِ ويَطرُدُه الانتباهُ من النَّوْمِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) هذه الكلمة ليست في (س). (٢) في (س) يذكر. (٣) ساقطة من (ك) و(س).
(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س). (٥) في (ك) وكذلك.
(٦) في(ع) الغنى. (٧) في (ك) و(س) زيادة لفظ الجلالة.
(٨) مع اختلاف يسير «ديوان الإمام الشافعي» (ص٢٣) من قصيدة في الزهد ومصير الظالمين:
غني بلا مال عن الناس كلهم   وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
(٩) في (ك) و(س) صارت.

فصلٌ

الدرجةُ الثالثةُ من دَرجاتِ الغِنَى

الدرجةُ الثالثةُ من دَرجاتِ الْغِنَى بالربِّ - جلَّ جلالُه -: الفوزُ بوُجودِه، هذا الغِنَى أعْلَى درجاتِ الغِنَى؛ لأنَّ الغِنَى الأوَّلَ والثانيَ كانا من آثارِ ذِكْرِ اللهِ والتوَجُّهِ إليه[١]، ففاضَ على القَلْبِ مِن صِدْقِ تَوَجُّهِه[٢] أنوارُ الصفاتِ الْمُقَدَّسَةِ، فاسْتَغْنَى القلبُ بذلك، وحَصَلَ[٣] له أيضًا أنوارُ الشعورِ بكَفَالَتِه وكِفايتِه لعَبْدِه، وحُسْنِ وِكالتِه له[٤]، وقَيُّومِيَّتِه بتَدبيرِه وحُسْنِ تَدبيرِه، فاستَغْنَت النفْسُ بذلك أيضًا.

وأمَّا هذا الغِنَى الثالثُ - الذي هو الْغِنَى بالحقِّ - فهو من آثارِ وُجودِ الحقيقةِ، وهو إنما يَكونُ بعدَ تَرَقِّيهِ من آثارِ الصفاتِ إلى آثارِ وُجودِ[٥] الذاتِ، وإنما يكونُ هذا الوُجودُ بعدَ مُكاشَفَةِ عينِ اليقينِ عندَما يَطْلُعُ فَجْرُ التوحيدِ، فهذا أوَّلُه، وكَمالُه عندَ طُلوعِ شَمْسِه، فيَتَقَطَّعُ[٦] ضَبابُ الوُجودِ الفاني، وتُشْرِقُ[٧] شَمْسُ الوُجودِ الباقي، فيَتَقَطَّعُ[٨] لها كلُّ ضَبابٍ، وهذا عِبارةٌ عن نُورٍ يُقْذَفُ في القلْبِ؛ يُكْشَفُ له بذلك النورِ عن عَظَمَةِ الذاتِ، كما كُشِفَ له بالنورِ الذي قَبْلَه عن عَظَمَةِ الصفاتِ، فإذا كان أثَرٌ من آثارِ صِفاتِ الذاتِ أو[٩] صِفاتِ الأفعالِ يُغْنِي القلبَ والنفْسَ، فما ظَنُّكَ بما تُكاشَفُ[١٠] به الأرواحُ من أنوارِ قُدْسِ الذاتِ الْمُتَّصِفَةِ بالجلالِ والإكرامِ؟!

فهذا غِنًى لا يَنالُه الوَصْفُ، ولا يَدْخُلُ تحتَ الشرْحِ، فيَسْتَغْنِي العبدُ الفقيرُ بوُجودِ سَيِّدِه العزيزِ الرحيمِ، فيَالَكَ من فَقْرٍ يُقْضَى[١١]! ومِنْ غِنًى يَدومُ! ومن عَيْشٍ أَلَذَّ من الْمُنَى[١٢]! فلا تَسْتَعْجِزْ نفْسَك عن البلوغِ إلى هذا الْمَقامِ؛ فبينَك وبينَه صِدْقُ الطلَبِ، فإنما هي عَزْمَةٌ صادقةٌ، ونَهْضَةٌ[١٣] حُرٌّ[١٤] لنفسِه عندَه قَدْرٌ وقِيمةٌ يَغارُ عليها أن يَبِيعَها

---

(١) ساقطة من (ك) و(س).
(٢) في (ك) و(س) التوجه.
(٣) في (ك) و(س) جعل، والصواب المثبت.
(٤) ساقطة من (ك) و(س).
(٥) في (ك) و(س) وجوده، والصواب المثبت.
(٦) في (س) فينقطع.
(٧) في (ع) ويشرق، والمثبت أوفق للسياق.
(٨) في(ك) و(س) فينقطع.
(٩) في (ك) و(س) (و) بدلا من(أو).
(١٠) في(ع) يكاشف، وفي (ك) يكشف، وفي (س) يكاشف.
(١١) في حاشية (ع) ينقضي، وفي (س) انقضى.
(١٢) في (ك) الغنى، والصواب المثبت.
(١٣) في (ك) ويقضة.
(١٤) في (ك) و(س) زيادة: (ممن).

بالدُّونِ.

وقد جاءَ في أَثرٍ إلهيٍّ يقولُ اللهُ ﷻ: «**ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتُكَ لِنَفْسِي، فَلا تَلْعَبْ، وَتَكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ، فَلا تَتْعَبْ، ابْنَ آدَمَ، اطْلُبْنِي؛ تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي؛ وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ؛ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**»(١) فمَنْ طَلَبَ اللهَ بصِدْقٍ؛ وَجَدَه، ومَنْ وَجَدَه؛ أغناهُ وُجودُه [عن كلِّ شيءٍ](٢).

فأَصْبَحَ حُرًّا في غِنًى ومَهَابَةٍ ... على وَجْهِه أنوارُه وضِياؤُه
وإن فاتَه مَولاهُ جَلَّ جلالُهُ ... تَباعَدَ ما يَرْجُو وطالَ عَناؤُه(٣)(٤)

ومَن وَصَلَ إلى هذا الغِنَى، قَرَّتْ به كلُّ عَيْنٍ؛ لأنه قد قَرَّتْ عينُه باللهِ، والفوزِ بوُجودِه، ومَن لم يَصِلْ إليه؛ تَقَطَّعَتْ نفسُه على الدنيا حَسَرَاتٍ، وقد قال(٥) ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ؛ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَشَتَّتَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ؛ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ(٦) شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَعَ**»(٧).

فهذا هو الفَقْرُ الحقيقيُّ والْغِنَى الحقيقيُّ، وإذا كان هذا غِنَى مَن كانت الآخِرَةُ أَكْبَرَ هَمِّهِ، فكيفَ مَن كانَ اللهُ ﷻ أكبرَ هَمِّه؟! فهذا من بابِ التنبيهِ والأَوْلَى.

❊ ❊ ❊

---

(١) لم أقف علي تخريجه حسب جهدي القاصر، وذكره ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» في موضعين (٢/ ٣١٤)، وقال في (٤/ ٢٥٥): وقد ورد في بعض الكتب الإلهية. ا. هـ. ولعله من الإسرائيليات.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (ك).(٣) في (س) غناؤه وهو تصحيف.

(٤) من قصيدة للصرصري: انظر: ديوانه (ص١) مخطوط منه نسخة في مكتبة الملك فيصل برقم(١٨٦٤٥ق).

(٥) في (س) زيادة: (النبي). (٦) ساقطة من (ك) و(س).

(٧) جزء من حديث رواه الإمام أحمد «في المسند» (٥/ ١٨٣) بنحوه، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٥ح٤١٠٥)، وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان، كتاب «الرقائق»، باب الفقر، والزهد (٢/ ٤٥٤ح٦٨٠)، والدارمي (١/ ٧٥) بنحوه، والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٩٣ح٣٣١٣).

فصلٌ
في ذِكرِ كلماتٍ عن أربابِ الطريقِ في الفَقْرِ والْغِنَى

تفسيراتُ بعضِ الْمُتَصوِّفَةِ للغِنَى والفقرِ وتوجيهُ ابنِ القيِّمِ لذلك

قالَ يَحْيَى بنُ مُعاذٍ[١]: «الفقرُ أن لا تَسْتَغْنِيَ بشيءٍ غيرِ اللهِ، ورَسْمُه عَدَمُ الأسبابِ كلِّها»[٢].

قلتُ: يُرِيدُ عَدَمَها في الاعتمادِ عليها والطُّمأنينةِ بها، بل تَصيرُ عَدَمًا بالنِّسبةِ إلى سَبْقِ مُسَبِّبِها بالأَوَّلِيَّةِ، وتَفَرُّدِه بالأَزَلِيَّةِ.

وسُئِلَ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ الفرغانيُّ[٣] عن الافتقارِ إلى اللهِ تعالى والاستغناءِ به: [أيُّهما أَكْمَلُ][٤]؟ فقالَ: «إذا صَحَّ الافتقارُ إلى اللهِ تعالى؛ صَحَّ الاستغناءُ به، وإذا صَحَّ الاستغناءُ به؛ صَحَّ الافتقارُ إليه، فلا يُقالُ: أيُّهما أَكْمَلُ؟ لأنه لا يَتِمُّ أحدُهما إلا بالآخَرِ»[٥].

معنى كونِ الْغِنَى بالله عينَ الفقرِ

قلتُ: **الاستغناءُ باللهِ هو عينُ الفَقْرِ إليه**، وهما عبارتان عن مَعْنًى واحدٍ؛ لأنَّ كمالَ الْغِنَى به هو كَمالُ عُبوديَّتِه، وحقيقةُ العُبوديَّةِ كمالُ الافتقارِ إليه من كلِّ وجهٍ، وهذا الافتقارُ هو عينُ الْغِنَى به، فليس هنا شيئان يُطْلَبُ تفضيلُ أحدِهما على الآخَرِ، وإنما يُتَوَهَّمُ كونُهما شيئينِ بِحَسَبِ الْمُستغْنَى عنه والمفتَقَرِ إليه، فهي حقيقةٌ واحدةٌ ومَقامٌ

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي: نزل الري، ثم انتقل إلى نيسابور، صوفي زاهد، له مواعظ وكلمات في التصوف، توفي سنة (٢٥٨). انظر: ترجمته وأقواله، «طبقات الصوفية» للسلمي (ص١٠٧ت١٤) و«الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري (ص٤١٤ت٤٠)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ٨٣ت٦٧٤).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٢).

(٣) في (ع) الفرعاني، والصواب المثبت. وهو محمد بن عبد الله أبو جعفر الفرغاني الصوفي نزيل بغداد. لزم الجنيد بن محمد، وصحبه، وروى عنه كلامه، وعنه محمد بن الخشاب. من أقواله: «التوكل باللسان يورث الدعوى، والتوكل بالقلب يورث المعنى». انظر: «تاريخ بغداد» لأحمد البغدادي(٥/ ٤٥٠ت٢٩٨٢).

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (س).

(٥) في «طبقات الصوفية» (ص٣٧٦) و«الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ٣٥٨) نسبه إلى الكتاني، وهو أبو بكر محمد بن علي أصله من بغداد من أصحاب الجنيد، جاور بمكة إلى أن مات بها. انظر ترجمته: «طبقات الصوفية» للسلمي (٣٧٣)، وفي «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٣) نسبه للجنيد.

واحدٌ يُسَمَّى غِنًى بالنِّسبةِ إلى فَراغِه عن الموجوداتِ الفانيةِ، وفَقْرًا[١] بالنِّسبةِ إلى قَصْرِ هِمَّتِه وجَمْعِها على اللهِ ﷻ؛ فهي هِمَّةٌ سافَرَتْ عن شيءٍ واتَّصَلَتْ بغيرِه، فسَفَرُها[٢] عن الغيرِ غِنًى، وسَفَرُها إلى اللهِ فقْرٌ، فإذا وَصَلَتْ إليه اسْتَغْنَتْ به؛ لكمالِ[٣] فَقْرِها إليه؛ إذ يَصيرُ لها بعدَ الوُصولِ فَقْرٌ آخَرُ غيرُ فَقْرِها الأوَّلِ، وإنما يَكْمُلُ فقْرُها بهذا الوُصولِ.

وسُئِلَ رُوَيْمٌ[٤] عن الفَقْرِ فقالَ: «إرسالُ النفسِ في أَحكامِ اللهِ تعالى»[٥].

قلتُ: إن أرادَ الْحُكْمَ الدينيَّ؛ فصحيحٌ، وإن أرادَ الحكْمَ الكونيَّ القَدَرِيَّ؛ فلا يَصِحُّ هذا الإطلاقُ، بل لا بدَّ فيه من التفصيلِ كما تَقَدَّمَ بيانُه.

وإرسالُ النفسِ في أحكامِه التي يَسْخَطُها ويَبْغَضُها، أو[٦] إرسالُها في أحكامِه التي يَجِبُ مُنازعتُها ومُدافعتُها بأحكامِه خُروجٌ عن العُبوديَّةِ.

وقيلَ: «نَعْتُ الفقيرِ ثلاثةُ أشياءَ: حِفْظُ سِرِّه، وأداءُ فَرْضِه، وصيانةُ فَقْرِه»[٧].

قلتُ: حِفْظُ السرِّ: كِتمانُه؛ صِيانةً له من الأغيارِ، وغَيْرَةً عليه أن يَنْكَشِفَ لِمَنْ لا يَعْرِفُه ولا يُؤْمَنُ عليه.

وأداءُ الفرْضِ قِيامٌ بِحَقِّ العُبوديَّةِ.

وصِيانةُ الفَقْرِ: حفْظُه عن لَوْثِ مُساكَنَةِ الأغيارِ، وحِفْظُه عن كلِّ سببٍ يُفسِدُه وكِتمانُه ما استطاعَ.

وقالَ إبراهيمُ بنُ أَدْهَمَ:[٨] «طَلَبْنا الفقرَ؛ فاستَقْبَلَنا الغِنَى، وطَلَبَ الناسُ الغِنَى

---

(١) في (ك) وهو، والصواب المثبت؛ لأنه لا معنى للضمير. (٢) في (ك) فبسفرها.

(٣) في (ك) و(س) بكمال.

(٤) رويم بن أحمد بن يزيد البغدادي، كنيته أبو محمد البغدادي، كان مقرئا وفقيها على مذهب داود. توفي سنة (٣٠٣هـ) انظر: ترجمته «طبقات الصوفية» (ص١٨٠)، و«الرسالة القشيرية» (ص٣٩٠)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٢٨٥).

(٥) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٣).

(٦) في (س) (و) بدلا من (أو) والصواب المثبت.

(٧) هذا القول لسهل بن عبد الله التستري. انظره: في «طبقات الصوفية» (ص٢٠٨) و«صفة الصفوة» (٤/ ٥٨).

(٨) إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخي يكنى بأبي إسحاق العجلي، وقيل: التيمي، مولده في حدود المائة، نزيل الشام عابد زاهد، كان يأكل من عمل يده، صحب سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، توفي =

فاستَقْبَلَهُم الفَقْرُ»(١).

وسُئِلَ يَحْيَى بنُ مُعاذٍ عن الغِنَى فقالَ: «هو الأَمْنُ بالله ﷻ»(٢).

وسُئِلَ أبو حَفْصٍ(٣): «بماذا يَنْبَغِي أن يُقْدِمَ الفقيرُ على ربِّه؟ فقالَ(٤): ما يَنبغِي للفقيرِ أن يُقْدِمَ على ربِّه بشيءٍ سوى فَقْرِه»(٥).

وقالَ بعضُهم: «إنَّ الفقيرَ الصادقَ لَيَخْشَى من الغِنَى حَذَارًا أن يَدْخُلَه، فيُفْسِدَ عليه فَقْرَه، كما يَخْشَى الغَنِيُّ الحريصُ من الفَقرِ أن يَدْخُلَه فيُفْسِدَ عليه غِنَاهُ»(٦).

وقالَ بِشْرُ بنُ الحارثِ(٧): «أَفْضَلُ الْمَقاماتِ اعتقادُ الصبرِ على الفَقْرِ إلى القبرِ»(٨).

قلتُ، ومن هاهنا قالَ القائلُ(٩):

قالوا: غدًا العيدُ ماذا أنت لابِسُهُ ... فقلتُ: خِلعةُ سَاقٍ حُبه جَرْعَا(١٠)

= سنة (١٦٢هـ) بالشام. «طبقات الصوفية» (٢٧ - (٣٨)، و«حلية الأولياء» (٧/ ٣٦٧) و«الرسالة القشيرية» (٣٩١)، (٣٩٢).

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٣).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٤).

(٣) أبو حفص النيسابوري، اسمه: عمرو بن سلم، وقيل: عمرو بن سلمة، قيل: هو أول من أظهر التصوف بنيسابور، من أقواله: «من لم يزن أحواله كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده». توفي سنة (٢٦٧). «طبقات الصوفية» (١١٥ - (١٢٢)، و«صفة الصفوة» (٤/ ١٠٧ - (١٠٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥١٠ - ٥١٣).

(٤) في (ع) قال، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«الرسالة القشيرية» (ص٢٧٤).

(٥) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٤).

(٦) «الرسالة القشيرية» (٢٧٤) ونسبه إلى ابن الكريني الذي لم أقف له على ترجمته.

(٧) بشر بن الحارث المحاسبي، أبو نصر، الزاهد الجليل المشهور بالحافي من ثقات الرجال، من أهل مرو، سكن بغداد سنة (٢٢٧). انظر ترجمته: «طبقات الصوفية» (٣٩ - (٤٧)، و«الرسالة القشيرية» (٤٠٤ - ٤٠٦)، و«سير السلف الصالحين» (٣/ ١٠٨١ - (١٠٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٤٦٩ - ٤٧٧)، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٢٩٧ - ٢٩٩).

(٨) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٤).

(٩) القائل هو: أبو بكر الشبلي كما في «الحلية» (١٠/ ٣٧٣ت٣٦٦). ووردت في «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٨).

(١٠) في (ك) جرعًا، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«الرسالة القشيرية».

فقرٌ وصَبْرٌ هما ثَوبانِ تَحْتَهُمَا قلبٌ يَرى إِلْفَه الأعيادَ والجُمَعَا
الدَّهْرُ لي مَأْتَمٌ إن غِبْتَ يا أَمَلِي والعيدُ ما دُمتَ لي مَرْأًى ومُسْتَمَعَا

وسُئِلَ ابنُ الجلاءِ(١): «متى يَسْتَحِقُّ الفقيرُ اسمَ الفقرِ؟ فقالَ: إذا لم تَبْقَ عليه بَقِيَّةٌ منه، فقيلَ له: كَيْفَ ذَلِكَ؟ فقال: إِذَا كَانَ له فَلَيْسَ لَهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فَهو لَهُ»(٢).

قلتُ: معنى هذا أنه لا يَبْقَى عليه بَقِيَّةٌ من نفسِه، فإذا كان لنفسِه فليس لها، بل قد أَضاعَ حَقَّها(٣) وضَيَّعَ سعادتَها وكَمالَها، وإذا لم يكنْ لنفسِه، بل كان كلُّه لربِّه فقد أَحْرَزَ كلَّ حظٍّ له، وحَصَّلَ لنَفْسِه سعادتَها، فإنه إذا كان للهِ كان اللهُ له، وإذا لم يكنْ للهِ لم يكن اللهُ له، فكيف تكونُ نفسُه له؟ فهذا من الذين خَسِروا أنفُسَهم.

وقيل: «حقيقةُ الفَقْرِ أن لا يَسْتَغْنِيَ الفقيرُ في فَقْرِه بشيءٍ إلا بِمَن إليه فَقْرُه»(٤).

وقالَ أبو حَفْصٍ: «أَحْسَنُ(٥) ما تَوَسَّلَ به العَبْدُ إلى مَولاهُ: دَوامُ الفقْرِ إليه على جميعِ الأحوالِ، ومُلازَمَةُ السُّنَّةِ في جميعِ الأفعالِ، وطَلَبُ القُوتِ من وَجْهٍ حلالٍ»(٦).

وقالَ بعضُهم(٧): «يَنبغِي للفقيرِ أن لا تَسْبِقَ هِمَّتُه خُطْوَتَه».

قلتُ: يُشيرُ إلى تَعَلُّقِ هِمَّتِه بواجِبِ وَقْتِه، وأنه لا تَتَخَطَّى هِمَّتُه واجبَ الوقتِ قَبْلَ إكمالِه(٨)، وأيضًا يُشيرُ إلى قِصَرِ أمَلِه، وأنَّ هِمَّتَه غيرُ مُتعلِّقَةٍ بوقتٍ لا يُحَدِّثُ نفسَه ببلوغِه، وأيضًا يُشيرُ إلى جَمْعِ الْهِمَّةِ على حِفْظِ الوقت، وأن لا يُضْعِفَها بتقسيمِها على الأوقاتِ.

---

(١) أحمد بن يحيى بن الجلاء، أبو عبد الله، بغدادي الأصل، سكن الشام، من العباد الزاهدين، صحب ذا النون وأبا تراب النخشبي، توفي سنة (٣٠٦). انظر: ترجمته في «طبقات الصوفية» (١٧٦ - (١٧٩).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٢٧٥).

(٣) في(ك) و(س) حقه، والصواب المثبت، لمقتضى السياق.

(٤) «الرسالة القشيرية» (٢٧٥) ولم ينسبه لأحد.

(٥) في (ع) أيسر، والصواب المثبت، كما في سائر النسخ و«الرسالة القشيرية» (ص٢٧٥).

(٦) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٥).

(٧) هو عبد الله بن المرتعش، كما في «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٥)، وهو عبد الله بن محمد بن المرتعش النيسابوري، أبو محمد، لقي الجنيد وصحبه، توفي سنة (٣٢٨)، انظر: «طبقات الصوفية» (٣٤٩ - ٣٥٣).

(٨) في (ك) كماله.

وقيلَ: «أقَلُّ ما يَلْزَمُ الفقيرَ في فَقْرِه أربعةُ أشياءَ: عِلْمٌ يَسُوسُه، ووَرَعٌ يَحْجِزُه، ويَقينٌ يَحْمِلُه، وذِكْرٌ يُؤْنِسُه»[١].

وقالَ أبو سَهْلٍ الْخَشَّابُ[٢] لمنصورٍ الْمَغربيِّ[٣]: «إنما هو فَقْرٌ وذُلٌّ.

فقالَ منصورٌ[٤]: بل فَقْرٌ وعِزٌّ.

فقالَ أبو سَهْلٍ: فقرٌ وثَرَى.

فقالَ منصورٌ: بل فقْرٌ وعَرْشٌ»[٥].

قلتُ: أشارَ أبو سَهْلٍ إلى البدايةِ، ومنصورٌ إلى الغايةِ.

وقالَ الْجُنَيْدُ: «إذا لَقِيتَ الفقيرَ، فالْقَهُ بالرِّفْقِ، ولا تَلْقَهُ بالعِلْمِ؛ [فإنَّ الرفْقَ يُؤْنِسُه والعِلْمَ][٦] يُوحِشُه، فقلتُ: يا أبا القاسِمِ، كيف يكونُ فقيرٌ يُوحِشُه العلْمُ؟ فقالَ: نعم، الفقيرُ إذا كان صادقًا في فَقْرِه، فطَرَحْتَ عليه العلْمَ؛ ذابَ كما يَذوبُ الرَّصاصُ في النارِ»[٧].

وقالَ أبو الْمُظَفَّرِ القرميسينيُّ[٨]: «الفقيرُ هو الذي لا يكونُ له إلى اللهِ حاجةٌ»[٩].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٦).

(٢) محمد بن الحسن بن سعيد بن الخشاب، أبو العباس المخرمي، صوفي عاقل دين معظم للسنة، نزل بنيسابور، ثم رحل إلى مكة، وتوفي بها سنة (٣٦١). انظر: «تاريخ بغداد» لأحمد بن علي البغدادي (٢/ ٢٠٩).

(٣) في (ع) العدلي، والصواب المثبت، كما في سائر النسخ و«الرسالة القشيرية» (ص٢٧٦)، ولم أجد له ترجمة.

(٤) في(ع) أبو منصور، والصواب المثبت. (٥) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٦).

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من (ك).

(٧) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٦)، وهذه حالة نقص لا كمال، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة الذي كان يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** » الحديث. البخاري(١/ ١٦ح٢٠)، ولم يزده هذا العلم إلا تقوى وخشية.

(٨) في (ك) و(س) القرميسي، والصواب المثبت. وهو: مظفر القرميسيني - بحذف (أبو) - من كبار مشايخ الصوفية، صحب الخراز ومن فوقه، وله أقوال كثيرة. انظر: «طبقات الصوفية» (٣٩٦ - ٣٩٨)، و«الرسالة القشيرية» (ص٤٢٥).

(٩) «الرسالة القشيرية» (٢٧٧).

قال(١) أبو القاسمِ القُشَيْرِيُّ(٢): وهذا اللفظُ فيه أَدْنَى غُموضٍ على مَن سَمِعَه على وَصْفِ الغَفلةِ عن مَرْمَى القومِ، وإنما أشارَ قائلُه إلى سُقوطِ الْمُطالَباتِ، وانتفاءِ الاختيارِ(٣)، والرِّضَى بما يُجْرِيه الحقُّ - تَبارَكَ وتَعَالَى -.

قلتُ: وبعدُ: فهو كلامٌ مُسْتَدْرَكٌ خطأٌ؛ فإنَّ حاجاتِ هذا العَبْدِ إلى اللهِ بعَدَدِ الأنفاسِ؛ إذ حاجاتُه ليست كحاجاتِ غيرِه من أصحابِ الْحُظوظِ والأقسامِ، بل حاجاتُ هؤلاءِ في حاجةِ هذا العَبْدِ كتَفْلَةٍ في بَحْرٍ؛ فإنَّ حاجتَه إلى اللهِ في كلِّ طَرْفَةِ عينٍ أن يَحْفَظَ عليه حالَه، ويُثَبِّتَ قَلْبَه، ويُرَقِّيَه في مَقاماتِ العُبوديَّةِ، ويَصْرِفَ عنه ما يُفْسِدُها عليه، ويُعَرِّفَه مَنازِلَ الطريقِ ومَكامِنَها وآفاتِها(٤)، ويُعَرِّفَه مَواقِعَ رِضاهُ لِيَفْعَلَها ويَعْزِمَ عليها، ومَواقِعَ سَخَطِه ليَعْزِمَ [على تَرْكِها](٥) ويَجْتَنِبَها، فأيُّ حاجاتٍ أكثَرُ وأَعظَمُ من هذه؟.

فالصوابُ أن يُقالَ: الفقيرُ هو الذي حاجاتُه(٦) إلى اللهِ بعَدَدِ أنفاسِه أو أكثرَ؛ فالعَبْدُ له في كلِّ نفَسٍ ولَحْظَةٍ(٧) وطَرْفَةِ عينٍ عِدَّةُ حوائجَ إلى اللهِ لا يَشْعُرُ بكثيرٍ مِنْها، فأَفْقَرُ الناسِ إلى اللهِ مَن شَعَرَ بهذه الْحَاجاتِ، وَطَلَبَهَا من مَعْدِنِهَا بطريقِ ها، وإن كان لا بُدَّ من إطلاقِ تلك العِبارةِ - على أنَّ منها كلَّ بُدٍّ - فيُقالُ: هو الذي لا حاجةَ له إلى اللهِ تُخالِفُ مَرضاتَه، وتَحُطُّه عن مَقامِ العُبوديَّةِ إلى مَنْزِلَةِ الاستغناءِ، وأَمَّا أن يُقالَ: لا حاجةَ له إلى اللهِ؛ فشَطْحٌ قَبيحٌ، وأَمَّا حَمْلُ أبي القاسمِ لكلامِه على إسقاطِ الْمُطالَباتِ، وانتفاءِ الاختيارِ، والرِّضَى بِمَجارِي الأقدارِ، فإنما يَحْسُنُ في بعضِ الحالاتِ، وهو في

---

(١) في (س) وقال، وفي «الرسالة القشيرية»: «قال الأستاذ» (ص٢٧٧).

(٢) أبو القاسم: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري الشافعي الصوفي الخراساني النيسابوري، تعلم الكتابة والعربية، وسمع الحديث، تتلمذ على أبي بكر الطوسي والإسفراييني وابن فورك، ، صحب عليًّا الدقاق وتزوج ابنته، كان شيخ خراسان في التصوف، وهو صاحب «الرسالة»، توفي سنة (٤٦٥هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٢٢٧ - (٢٣٣ت١٠٩).

(٣) في (ك) و(س) الاختيارات، والصواب المثبت كما في النسخ الأخرى و«الرسالة القشيرية» (ص٢٧٧).

(٤) في (ك) وأوقاتها، والصواب المثبت؛ لمقتضى السياق.

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من (ع).

(٦) في (س) حاجته.

(٧) في (ع) ولحظ.

القَدَرِ الذي يَجْرِي عليه بغيرِ اختيارِه، ولا يكونُ مأمورًا بدَفْعِه ومُنازَعَتِه بقَدَرٍ آخَرَ كما تَقَدَّمَ.

وأمَّا إذا كان مأمورًا بدَفْعِه ومُنازَعَتِه بقَدَرٍ هو أَحَبُّ إلى اللهِ منه - وهو مأمورٌ به أَمْرَ إيجابٍ أو استحبابٍ - فإسقاطُ الْمُطالَباتِ، وانتفاءُ الاختيارِ فيه والسعْيِ عينُ العَجْزِ، واللهُ تعالى يَلُومُ عَلَى العَجْزِ.

وقالَ ابنُ خَفيفٍ[١]: «الفَقْرُ عَدَمُ الإملاكِ، والخروجُ عن أحكامِ الصفاتِ»[٢].

قلتُ[٣]: يُريدُ به[٤] عَدَمَ إضافةِ شيءٍ إليه إضافةَ مِلْكٍ، وأن يَخْرُجَ عن أحكامِ صِفاتِ نفسِه ويُبْدِّلَها بأحكامِ صِفاتِ مالِكِه وسَيِّدِه. مِثالُه: أن يَخْرُجَ عن حُكْمِ صِفةِ قُدْرَتِه واختيارِه التي تُوجِبُ له [دَعْوَى الْمَلَكَةِ][٥] والتصرُّفِ والإضافاتِ، ويَبْقَى[٦] بأحكامِ صفةِ القُدرةِ الأزَلِيَّةِ التي تُوجِبُ له العَجْزَ والفقْرَ والْفَاقَةَ كما في دُعاءِ الاستخارةِ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ[٧]؛ [فإنك تَعلمُ ولا أَعْلَمُ، وتَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ][٨]، وأنتَ عَلَّامُ الغُيوبِ»[٩]** فهذا اتِّصافٌ بأحكامِ الصفاتِ العُلَى في العَبْدِ، وخروجٌ عن أحكامِ صِفاتِ النفْسِ.

وقالَ أبو حَفْصٍ: «لا يَصِحُّ لأحَدٍ الفَقْرُ حتى يَكونَ العطاءُ أحبَّ إليه من الأَخْذِ، وليس السخاءُ[١٠] أن يُعْطِيَ الواجِدُ المُعْدَمَ، وإنما السخاءُ[١١] أن يُعْطِيَ الْمُعْدَمُ الوَاجِدَ»[١٢].

---

(١) محمد بن خفيف بن إسفكشاذ الضبي، أبو عبد الله الشيرازي، صوفي شيخ مشايخ وقته، أسند الحديث، توفي سنة (٣٧١). انظر: «طبقات الصوفية» (٤٦٢ - ٤٦٦)، و«الرسالة القشيرية» (٤٢٠ - ٤٢١).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٧)

(٣) القائل هو المؤلف.

(٤) ساقطة من (ك) و(س).

(٥) في (ك) و(س) دعوة الملك، والمثبت أصح.

(٦) في(ك) ويتقي، والصواب المثبت؛ لأنه مقتضى السياق.

(٧) في (ك) و(س) زيادة: (العظيم).

(٨) في (ك) و(س) تقديم وتأخير(تقدر ولا أقدر . . .) وهو الموافق لرواية البخاري.

(٩) رواه البخاري (٣/ ٥٨ح١١٦٦فتح) و(١١/ ١٨٧ح٦٣٨٢فتح) و(١٣/ ٣٨٧ح٧٣٩٠).

(١٠) في (س) السخي، والصواب المثبت كما في سائر النسخ و«الرسالة القشيرية» (ص٢٧٧).

(١١) في (س) السخي، والصواب المثبت كسابقه.

(١٢) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٧).

وقالَ بعضُهم[١]: «الفقيرُ الذي لا يَرَى لنفسِه حاجةً إلى شيءٍ من الأشياءِ سِوَى ربِّه - تَبَارَكَ وتَعَالَى -».

وسُئِلَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ: «متى يَستريحُ الفقيرُ؟ فقالَ: إذا لم يَرَ لنفسِه غيرَ الوَقْتِ الذي هو فيه»[٢].

وقالَ أبو بَكْرِ بنُ طاهرٍ[٣]: «مِن حُكْمِ الفقيرِ أن لا يكونَ[٤] له رَغبةٌ، وإن كان لا بُدَّ فلا تُجاوِزُ رَغْبَتُه كِفايتَه»[٥].

وسُئِلَ بعضُهم عن الفقيرِ الصادقِ فقالَ: «الذي لا يَمْلِكُ ولا يُمْلَكُ»[٦].

نعوتُ الفقيرِ إلى اللهِ

وقالَ ذو النونِ[٧]: «دوامُ الفَقْرِ إلى اللهِ - تعالى[٨] - مع التخليطِ أَحَبُّ إليَّ[٩] مِن

---

(١) القائل هو: محمد المسوحي، ولم أقف له على ترجمة، وقد ورد هذا القول في «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٧) بلفظ: «الفقير: الذي لا يرى لنفسه حاجة إلى شيء من الأسباب».

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ٢٠٠)، و«الرسالة القشيرية» (٢٧٧).

(٣) عبد الله بن طاهر بن حاتم الطائي، عالم ورع، أسند الحديث، من أقران الشبلي، صحب يوسف بن الحسين ومظفرا القرميسيني، توفي سنة (٣٣٠هـ).
انظر: «طبقات الصوفية» (٣٩١ - ٣٩٥)، و«الرسالة القشيرية» (٣٩٠).

(٤) في (ع) لا تكون.

(٥) «طبقات الصوفية» (ص٣٩٤)، و«الرسالة القشيرية» (ص٢٧٨ - ٣٩٠).

(٦) ورد في «الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري (ص٢٧٨) بلفظ: «لا يملك ولا يميل» ونسبه لأبي بكر المصري، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر، كان كثير التعبد؛ يصوم يوما ويفطر يوما. توفي سنة(٣٤٥هـ) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ١٩٧ - ١٩٨)، «طبقات الشافعية» (٢/ ١٣٠ - ١٣١).

(٧) ثوبان بن إبراهيم المصري، أبو الفيض، زاهد عابد مشهور بلقبه «ذي النون»، تكلم في الأحوال والمقامات بمصر، ورفع أمره إلى المتوكل، فاستحضره وسمع كلامه ثم أعاده. له رواية عن مالك والليث وغيرهما، وروى عنه أحمد بن صبيح وربيعة الطائي وغيرهما، توفي في مصر بالجيزة سنة (٢٤٦هـ). انظر: «طبقات الصوفية» (١٥ - ٢٦)، و«الرسالة القشيرية» (٤٣٣)، و«صفة الصفوة» (٤/ ٢٦١ - ٢٦٥).

(٨) هذه اللفظة ليست في (ك) و(س).

(٩) في (ع) و(ك) زيادة لفظ الجلالة، والصواب المثبت، كما في باقي النسخ و«صفة الصفوة» (٤/ ٢٦٣)، و«الرسالة القشيرية» (ص٤٣٣).

دَوامِ الصفاءِ مع العُجْبِ»[(١)][(٢)].

فصلٌ

فجُمْلَةُ نَعْتِ الفقيرِ حقًّا: أنه الْمُتَخَلِّي من الدنيا تَظَرُّفًا[(٣)]، والْمُتجافِي عنها تَعَفُّفًا، لا يَستغنِي بها تَكَثُّرًا، ولا يَستكثِرُ منها تَمَلُّكًا، وإن كان مالِكًا لها بهذا الشرْطِ لم تَضُرَّه[(٤)]، بل هو فقيرٌ غِناه في فَقْرِه، وغَنِيٌّ فَقْرُه في غِناهُ.

ومن نَعْتِه أيضًا: أن يكونَ فقيرًا من حالِه، وهو خُروجُه عن الحالِ تَبَرِّيًا، وتَرْكُ الالتفاتِ إليه تَسَلِّيًا، وتَرْكُ مُساكَنَةِ الأحوالِ والرجوعِ عن مُوافَقَتِها؛ فلا يَسْتَغْنِي بها اعتمادًا عليها، ولا يَفْتَقِرُ إليها مُساكَنَةً لها.

ومِن نَعْتِه: أنه يَعْمَلُ على مُوافَقَةِ اللهِ في الصبْرِ والرِّضَى والتوَكُّلِ والإنابةِ، فهو عاملٌ على مُرادِ اللهِ منه، لا على مُوافَقَةِ هواهُ، وهو تَحصيلُ مُرادِه من اللهِ، فالفقيرُ خالصٌ بكُلِّيَّتِه للهِ عزَّ وَجَلَّ ليس لنفسِه ولا لهواه في أحوالِه حَظٌّ ولا نصيبٌ، بل عَمَلُه بقِيامِ شاهدِ الحقِّ وفَناءِ شاهدِ نفسِه، قد غَيَّبَه شاهدُ الحقِّ عن شاهِدِ نفسِه، فهو يُريدُ اللهَ بمُرادِ اللهِ؛ فمُعَوَّلُه على اللهِ، وهِمَّتُه لا تَقِفُ[(٥)] دونَ شيءٍ سِوَاه، قد فَنِيَ بِحُبِّه عن حبِّ ما سواه، وبِأَمْرِه عن هَواهُ، وبِحُسْنِ اختيارِه له عَنِ اختيارِه لنفْسِه، فهو في وَادٍ والناسُ في وَادٍ، خاضِعٌ، مُتواضِعٌ، سليمُ القلْبِ، سَلِسُ القِيادِ للحَقِّ، سريعُ القلبِ إلى ذِكْرِ اللهِ، بَرِيءٌ من الدعاوَى، لا يَدَّعِي بلسانِه ولا بقلبِه ولا بحالِه، زاهدٌ في كلِّ ما سوى اللهِ، راغبٌ في كلِّ ما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، قَريبٌ من الناسِ، أَبْعَدُ شيءٍ منهم، يَأْنَسُ بما يَسْتَوْحِشُونَ منه، ويَسْتَوْحِشُ مِمَّا[(٦)] يَأْنَسُونَ به، مُتَفَرِّدٌ[(٧)] في طريقِ طَلَبِه، لا تُقَيِّدُه الرسومُ، ولا تَمْلِكُه العوائدُ، ولا يَفرَحُ بموجودٍ، ولا يَأْسَفُ على مَفقودٍ، مَن جالَسَه قَرَّتْ عينُه به، ومَن رآه ذَكَّرَتْه رؤيتُه باللهِ، قد حَمَلَ كَلَّه ومُؤْنَتَه عن الناسِ، واحْتَمَلَ

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٢٧٨)، و«صفة الصفوة» (٤/ ٢٦٣).

(٢) في (ك) و(س) زيادة: (والله أعلم).

(٣) في (ك) تطرقا، والصواب المثبت، والمعنى: كياسة. انظر: «القاموس المحيط» - باب الفاء، فصل الظاء (ص١٠٧٨).

(٤) في(ع) يضره. (٥) في (ع) لا يقف. (٦) في (ع) بما.

(٧) في (ك) و(س) منفرد.

أَذاهُم، وكَفَّ[١] أذاهُ عنهم، وبَذَلَ لهم نَصيحتَه، وسَبَّلَ لهم عِرْضَه ونفسَه، لا لِمُعاوَضَةٍ ولا لذِلَّةٍ وعَجْزٍ، لا يَدْخُلُ فيما لا يعنيهِ، ولا يَبْخَلُ بما لا يَنْقُصُه، وَصْفُه الصدْقُ والعِفَّةُ والإيثارُ والتواضُعُ والحِلْمُ والوَقارُ والاحتمالُ، لا يَتوقَّعُ لِمَا يَبْذُلُه للناسِ[٢] منهم عِوَضًا ولا مِدْحَةً، لا يُعاتِبُ، ولا يُخاصِمُ، ولا يُطالِبُ، ولا يَرَى له على أحدٍ حقًّا، ولا يَرَى له على أَحَدٍ فَضْلًا، مُقْبِلٌ على شأْنِه، مُكْرِمٌ لإخوانِه، بَخيلٌ بزَمَانِه، حافظٌ للسانِه، مسافِرٌ في ليلِه ونَهارِه ويَقَظَتِه ومَنامِه، لا يَضَعُ عصا السيْرِ عن عاتِقِه حتى يَصِلَ إلى مَطْلَبِه، قد رُفِعَ له عَلَمُ الحُبِّ؛ فشَمَّرَ إليه، وناداه داعِي الاشتياقِ؛ فأَقْبَلَ بكُلِّيَّتِه عليه، أجابَ مُنادِي الْمَحَبَّةِ إذ دَعاهُ: حيَّ على الفَلاحِ، ووَاصَلَ[٣] السُّرَى[٤] في بَيداءِ الطلَبِ، فحَمِدَ عندَ الوُصولِ مَسراهُ، وإنما يَحْمَدُ القومُ السُّرَى عندَ الصباحِ:

فَحَيَّ على جناتِ عَدْنٍ فإنها ... مَنازِلُك الأُولَى وفيها الْمُخَيَّمُ
ولكننا سَبْيُ العدُوِّ فهل تَرَى ... نَعودُ إلى أَوطانِنا ونَسْلَمُ
وَحَيَّ على رَوْضاتِها وخِيامِها ... وحَيَّ على عَيْشٍ بها ليس يُسْأَمُ
وحَيَّ على يَوْمِ الْمَزيدِ ومَوْعِدِ الـ ... ـمُحِبِّينَ طُوبَى للذي هو منهمُ
وحَيَّ على وادٍ بها[٥] أَفْيَحَ ... به مَنابِرُ من نورٍ........[٦]
ومن حولِها كُثبانُ مِسْكٍ مَقَاعِدُ ... لِمَنْ دونَهم هذا الفَخارُ الْمُعَظَّمُ
يَرَوْنَ به الرحمنَ جَلَّ جَلالُهُ ... كرؤيةِ بَدرِ التمِّ لا يُتَوَهَّمُ
أو الشمسِ صَحْوًا ليس من دونِ أُفْقِهَا ... ضَبابٌ ولا غَيْمٌ هناك يُغَيِّمُ
وبينَ هم في عيشِهم وسرورِهِمْ ... وأرزاقُهم تُجرى عليهم وتُقْسَمُ
إذا هُمْ بنُورٍ ساطِعٍ قد بدا لَهُمْ ... فقيلَ ارْفَعُوا أبصارَكم فإذا هُمُ
برَبِّهِم من فوقِهِمْ وهو قائلٌ ... سلامٌ عليكم طِبْتُمُ وسَلِمْتُمُ

---

(١) في(ك) بكف.

(٢) في (ع) الناس، والصواب المثبت؛ لأنه مقتضى السياق.

(٣) في (ك) و(س) ووصل.

(٤) في (ك) السير.

(٥) في (ك) زيادة: (هو)، وفي (س) زيادة: (هنالك).

(٦) في هامش(ص) لعله: (لدى الرسل تعلم) أو(بها الرسل تكرم) وفي هامش (ع) مقابل هذا الشطر: هذا ليس من كلام المصنف رحمه الله. اهـ. فلعله من اجتهاد الناسخ؛ لأن في (ك)، (س)، متن القصيدتين (ص٢٦٠)

وحي على واد هنالك أفيح ... وتربته من أذفر المسك أعظم

فيا عَجَبًا ما عُذْرُ مَن هو مُؤْمِنٌ ... بهذا ولا يَسْعَى له ويُقَدِّمُ
فبَادِرْ إذا ما دَامَ في العُمْرِ فُسْحَةٌ ... وعَدْلُك مَقبولٌ وصِرفُك قَيِّمُ
فما فَرِحَتْ بالوَصْلِ نفسٌ مَهِينَةٌ ... ولا فازَ قلبٌ بالبَطالةِ يَنْعَمُ
فَجِدَّ وسارِعْ واغْتَنِمْ ساعةَ السُّرَى ... ففي زَمَنِ الإمكانِ يُسعَى ويُغْنَمُ
وسِرْ مُسْرِعًا فالسيْلُ خَلْفَكَ مُسْرِعٌ ... وهَيهاتَ ما منه مَفَرٌّ ومَهْزَمُ
فهُنَّ الْمَنايا أيَّ وادٍ نَزَلْتَهُ ... عليها القُدومُ أو عليك ستَقْدُمُ
وإن تَكُ قد عاقَتْكَ سُعْدَى فقَلْبُكَ الـ ... ـمُعَنَّى رهينٌ في يَدَيْها مُسْلَمُ
وقد ساعدَتْ بالوَصْلِ غيرَك فالْهَوى ... لها منك والواشِي بها يَتَنَعَّمُ
فدَعْهَا وسَلِّ النفسَ عنها بِجَنَّةٍ ... من الفقرِ في رَوضاتِها الدُّرُّ يَلْسَمُ[(١)]
ومِن تَحْتِها الأنهارُ تَخفِقُ دائمًا ... وطَيرُ الأماني فوقَها يَتَرَنَّمُ
وقد ذُلِّلَت منها القُطوفُ فمَن يُرِدْ ... جَناها يَنَلْهُ كيف شاءَ ويَنْعَمُ
وقد فُتِحَتْ أبوابُها وتَزَيَّنَتْ ... لِخُطَّابِها فالْحُسنُ فيها مُقَسَّمُ
أقامَ على أبوابِها داعي الْهُدَى ... هَلُمُّوا إلى دارِ السعادةِ تَغْنَموا
وقد طابَ منها نُزْلُها ومَقِيلُها ... فطُوبَى لِمَن حَلُّوا بها وتَنَعَّمُوا
وقد غرسَ الرحمنُ فيها غِراسَهُ ... فمَن كان مِن غَرْسِ الإلهِ فإنَّهُ
من النّاسِ والرحمنُ بالغرسِ أعلمُ ... سعيدٌ وإلا فالشقَا مُتَحَتِّمُ
فيا مُسرعينَ السيْرَ باللهِ ربِّكُم ... قِفُوا بي على تلك الرُّبوعِ وسَلِّموا
وقولوا مُحِبٌّ قادَه الشوقُ نَحْوَكم ... قَضَى نَحْبَه فيكم تَعِيشواْ وتَسْلَموا
قَضَى اللهُ ربُّ العالمينَ قَضِيَّةً ... بأنَّ الْهَوَى يُعْمِي القلوبَ ويُبْكِمُ
وحُبُّكُم أصلُ الْهُدى ومَدَارُه ... عليه وفَوْزٌ للمُحِبِّ ومَغْنَمُ
وتَفْنَى عِظامُ الصَّبِّ بعدَ مَمَاتِه ... وأشواقُه وَقْفًا عليه مُحَرَّمُ
فيا أيُّها القلبُ الذي مَلَكَ الْهَوَى ... أَعِنَّتَهُ حَتَّامَ[(٢)] هذا التَّلَوُّمُ
وحَتَّامَ لا تَصْحُوا وقد قَرُبَ الْمَدَى ... ودَقَّتْ كؤوسُ السيرِ والناسُ نُوَّمُ

---

(١) في (ك) و(س) يبسم.

(٢) حتام أصله: حتى ما، فحذفت ألف ما للاستفهام؛ وكذلك كل حرف من حروف الجر يضاف في الاستفهام إلى ما؛ فإن ألف ما تحذف فيه. «لسان العرب» لابن منظور: باب الحاء (٣/ ٤٠).

بلى سوفَ تَصْحُو حينَ يَنْكَشِفُ الغِطَاء ... ويَبْدُو لك الأمْرُ الذي كنتَ تَكْتُمُ
ويا مُوقِدًا نارًا لغيرِك ضَوْؤُها ... وحَرُّ لظاهَا بينَ جَنْبَيْكَ(١) يَضْرِمُ
أهذا جَنَى العلمُ الذي قد غَرَسْتَهُ ... وهذا الذي قد كنتَ تَرجوهُ تُطْعَمُ
وهذا هو الْحَظُّ الذي قد رَضِيتَهُ ... لنفسِك في الدارَيْنِ لو كنتَ تَفْهَمُ
وهذا هو الربحُ الذي قد كَسَبْتَهُ ... لعَمْرُكَ لا رِبْحَ ولا الأَصْلُ يَسْلَمُ
بَخِلْتَ بشيءٍ لا يَضُرُّك بَذْلُه ... وَجُدْتَ بشيءٍ مِثْلُه لا يُقَوَّمُ
وبِعْتَ نَعيمًا لا انقضاءَ لَهُ وَلَا ... نظيرَ ببَخْسٍ عن قليلٍ سَيُعْدَمُ
فهَلاَّ عَكَسْتَ الأمرَ إن كنتَ حازِمًا ... ولكن أَضَعْتَ الْحَزْمَ لو كنتَ تَعْلَمُ
وتَهْدِمُ ما تَبْنِي بكَفِّكَ جاهدًا ... فأنت مَدَى الأيَّامِ تَبْنِي وتَهْدِمُ
وعندَ مُرادِ الحقِّ تَفْنَى كمَيِّتٍ ... وعندَ مُرادِ النفسِ تَسْدِي وتَلْحِمُ
وعند خِلافِ الأمرِ تَحْتَجُّ بالقضاءِ ... ظَهيرٌ على الرحمنِ للجَبْرِ يَزْعُمُ
تُنَزِّهُ تلك النفسَ عن سُوءِ فِعْلِها ... وتَعْتِبُ أقدارَ الإلهِ وتَظْلِمُ
وتزعمُ مع هذا بأنَّكَ عارفٌ ... وما أنتَ إلا جاهلٌ ثم ظالمٌ
كذبتَ يقينًا في الَّذي أنتَ تزعُمُ ... وإنك بينَ الجاهلينَ مُقَدَّمُ
إذا كان هذا نُصْحَ عبدٍ لنفسِه ... فمَن ذا الذي منه الْهُدَى يُتَعَلَّمُ
وفي مِثْلِ هذا الحالِ قد قالَ مَن مَضَى ... وأَحْسَنُ مِمَّا(٢) قالَه الْمُتَكَلِّمُ
فإن كنتَ لا تَدْرِي فتلك مُصيبةٌ ... وإن كنتَ تَدْرِي فالمصيبةُ أعْظَمُ
ولو تُبْصِرُ الدُّنيا وراءَ سُتُورِها ... رأيتَ خيالاً في مَنامٍ سيُصْرَمُ
كحِلْمٍ بطَيْفٍ زارَ في النومِ وانْقَضَى الـ ... ـمَنامُ وراحَ الطيفُ والصَّبُّ مُغْرَمُ
وظِلٍّ أرَتْهُ الشمسُ عندَ طُلُوعِها ... سيَقْلُصُ في وَقتِ الزَّوالِ ويُفْصَمُ
ومُزْنَةُ صيفٍ طابَ منها مَقِيلُها ... فوَلَّتْ سريعًا والْحَرورُ تَضَرَّمُ
فجُزْهَا مَمَرًّا لا مَقَرًّا وكنْ بها ... غَريبًا تَعِشْ فيها حَميدًا وتَسْلَمُ
أو ابنَ سبيلٍ قالَ في ظِلِّ دَوْحَةٍ ... وراحَ وخَلَّى ظِلَّها يَتَقَسَّمُ
أخا سَفَرٍ لا يَسْتَقِرُّ قَرارُه ... إلى أن يَرَى أوطانَه ويَسْلَمُ

---

(١) في (س) جنبيه، والصواب المثبت كما في باقي النسخ ومتن القصيدتين(ص٢٥٥).

(٢) في (ع) و(ك) و(س) فيما، وهو كذا في متن القصيدتين(ص٢٥٦).

فيا عَجَبًا كم مَصْرَعٍ وَعَظَتْ[١] به ... بَنِيهَا ولكن عن مَصارِعِها عَمُوا
سقَتْهُم بِكَأْسِ الحبِّ حتى إذا انْتَشَوْا ... سَقَتْهُم كؤوسَ السُّمِّ والقومُ قد ظَمُوا
وأَعْجَبُ ما في العبدِ رؤيةُ هذه الـ ... عظائمِ منها وهو فيها مُتَيَّمُ
وأَعْجَبُ من ذا أنَّ أحبابَها الأُلَى ... تهِينُ وللأعداءِ تَرْعَى وتُكْرِمُ
وذلك بُرهانٌ على أنَّ قَدْرَها ... جَناحُ بَعوضٍ أو أَدَقُّ وأَلأَمُ
وحَسْبُكَ ما قالَ الرسولُ مُمَثِّلًا ... لها ولِدارِ الخُلْدِ والحقُّ يُفْهَمُ
كما يُدْخِلُ الإنسانُ في اليَمِّ إِصْبَعًا ... ويَنْزِعُها منه فما ذاك يغْنَمُ
ألا ليتَ شِعرِي هل أبيتنَّ ليْلةً ... على حذرٍ منها وأمري مُحكم
وهل أَرِدَن ماءَ الحياةِ وأَرْتَوِي ... على ظَمأٍ من حَوضِه وهو مُفْعَمُ[٢]
وهل تَبْدُوَن أعلامُهم بعدَ ما سَفَتْ ... عليها السوافِي تَستبِينُ وتُعْلَمُ
وهل أَفْرِشَنَّ خَدِّي ثَرَى عَتَباتِهم ... خُضوعًا لهم كيما يَرِقُّوا ويَرْحَمُوا
وهل أَرَيَن نفسي طَرِيحًا ببابِهم ... وطَيْرُ أماني الحبِّ فَوْقِي تَحُوِّمُ
فوا أَسَفَا تَفْنَى الحياةُ وتَنْقَضِي ... وعُتْبُكُم باقٍ بقِيتُمْ وَعِشْتُمُ
فما منكمُ بُدٌّ ولا عنكمُ غِنًى ... ومالِيَ من صَبْرٍ فأَسْلُوَ عنكمُ
فمَن شاءَ فلْيَغْضَبْ سواكم فلا أَذًى ... إذا كنتُمْ عن عبدِكم قد رَضِيتُمُ
وعُقْبَى اصطبارِي في رِضاكُمْ حَميدةٌ ... ولكنها عنكم عِقابٌ ومَغْرَمُ
وما أنا بالشاكِي لِمَا تَرْتَضُونَه[٣] ... ولكنني أَرْضَى به وأُسَلِّمُ
وحَسْبِي انتسابِي من بَعيدٍ ... إليكُمْ وذلك حظٌّ مِثْلُه يُتَيَمَّمُ
إذا قيلَ هذا عبدُهم ومُحِبُّهمْ ... تَهلَّلَ بِشرًا ضاحكًا يَتَبَسَّمُ
وها هو قد أَبْدَى الضَّراعةَ قائلٌ ... لكم بلسانِ الحالِ والحالُ يُعْلِمُ
أَحِبَّتَنا عَطْفًا عَلَيْنا فإنَّنا ... [بنا ظمأٌ][٤] والمَوْرِدُ العذْبُ أَنْتُمُ
فيا ساهِيًا في غَمْرةِ الجهْلِ والْهَوَى ... صريعُ الأماني عن قليلٍ سَتَنْدَمُ
أَفِقْ قد دَنَا الوَقْتُ الذي ليس بَعْدَه ... سوى جَنَّةٍ أو حرِّ نارٍ تَضْرَّمُ

---

(١) في (س) عطبوا، والصواب المثبت كما في باقي النسخ ومتن القصيدتين(ص٢٥٧).

(٢) في (ع) منعم، والصواب المثبت كما في باقي النسخ ومتن القصيدتين(٢٥٧).

(٣) في (ك) ترضونه، والصواب المثبت كما في باقي النسخ متن القصيدتين(ص٢٥٧).

(٤) في (س) ظمأ بكم.

وبالسُّنَّةِ الغَرَّاءِ كنْ مُتَمَسِّكًا ... هي العُروةُ الوُثْقَى التي ليس تُفْصَمُ
تَمَسَّكْ بها مَسْكَ البخيلِ بمالِهِ ... وعَضَّ عليها بالنَّواجِذِ تَسْلَمُ
[وإيَّاكَ مما](١) أَحْدَثَ الناسُ بعدَها ... فمَرْتَعُ هاتيكَ الحوادثِ أَوْخَمُ
وهَيِّئْ جَوابًا عندَما تَسمعُ الندا ... من اللهِ يومَ العرضِ ماذا أَجَبْتُمُ
به رُسُلِي لَمَّا أَتَوْكُم فمَن يُجِبْ ... سواهم سيَخْزَى عندَ ذاك ويَنْدَمُ(٢)
وخُذْ مَن تُقَى الرحمنِ أَسبغَ(٣) جُنَّةٍ ... ليوم به تَبْدُوا عِيانًا جَهَنَّمُ
ويُنْصَبُ ذاك الجِسرُ من فوقِ مَتْنِها ... فهاوٍ ومَخدوشٌ وناجٍ مُسَلَّمُ
ويأتي إلهُ العالمينَ لوَعْدِه ... فيَفْصِلُ ما بينَ العِبادِ ويَحْكُمُ
ويَأخُذُ للمظلومِ إذ ذاك حَقَّهُ ... فيا وَيْحَ مَن قد كان للخَلْقِ يَظْلِمُ
ويَنْشُرُ ديوانَ الحسابِ وتُوضَعُ الـ ... موازينُ بالقِسطِ(٤) الذي لا(٥) يَظْلِمُ
فلا مُجرِمٌ يَخْشَى هناك ظُلامَةً(٦) ... ولا مُحسِنٌ من أَجْرِه الذَّرُّ يُهْضَمُ
وتَشْهَدُ أعضاءُ المُسيءِ بما جَنَى ... كذاك على فِيه المُهَيمِنُ يَخْتِمُ
ويَالَيْتَ شِعْرِي كيف حالُك عندَما ... تَطايَرُ كُتُبُ العالمينَ وتُقْسَمُ
أَتَأْخُذُ باليُمْنَى كتابَكَ أمْ ... بيُسْرَاكَ خَلْفَ الظهرِ منك تُسَلَّمُ
وتَقرأُ فيه كلَّ شيءٍ عَمِلْتَهُ ... فيُشْرِقُ منك الوَجهُ أو هو يُظْلِمُ
تقولُ كتابِي هاؤمُ فاقْرَؤُوه لِي ... يُبَشِّرُ بالجناتِ حقًّا ويُعْلِمُ
وإن تَكُنِ الأخرى فإنك قائلٌ ... ألا لَيْتَني لم أُوتَهُ فهو مَغْرَمُ
فلا(٧) والذي شقَّ القلوبَ وأَوْدَعَ الـ ... مَحبَّةَ فيها حيث لا تَتَصَرَّمُ
وحَمَّلَها قلبَ المحِبِّ فإنه ... لَيَضْعُفُ عن حَمْلِ القميصِ ويَأْلَمُ

---

(١) في (س) ودع عنك ما قد.

(٢) في (س) ومتن القصيدتين(ص٢٥٨):

به رسلي لما أتوكم فمن يكن ... أجاب .سواهم سوف يخزى ويندم.

(٣) في (س) أعظم.

(٤) في (ك) القسط، والصواب المثبت كما في باقي النسخ ومتن القصيدتين (ص٢٥٨).

(٥) في (س) ومتن القصيدتين (ص٢٥٨) (ليس).

(٦) الظلامة: اسم المظلمة المطلوبة من الظالم. انظر: «لسان العرب» لابن منظور: باب الظاء (٨/ ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٧) في (س)، أما وهو كذا في متن القصيدتين(ص٢٥٢).

وذَلَّلَها حتى استكانَتْ لصَوْلَةِ الـ ـمحبَّةِ لا تَلْوِي ولا تَتَلَعْثَمُ
وذَلَّلَ فيها أنفُسًا دونَ ذُلِّها حِياضُ المنايا فوقَها هيَ حُوَّمُ
لقد فَازَ أقوامٌ وحازُوا مَرَابِحًا بتَرْكِهِمُ الدنيا والإقبالُ منهمُ
على رَبِّهم طولَ الحياةِ وَحُبِّهِمْ على نَهْجِ ما قد سَنَّهُ فهمُ هُموا[١]

❃ ❃ ❃

(١) وهذه الأبيات جزء من قصيدة المؤلف الموسومة بالميمية، والتي تقدر بمئتين وتسعة وعشرين بيتا، والمؤلف رحمه الله لم يراع هنا ترتيب الأبيات كما في طبعة متن القصيدتين: النونية والميمية، ولعله غير بعضها لمقتضى الحال الذي أورد فيه سياق القصيدة، وكذلك لم يوردها هنا كاملة، وقد طبعت طبعات مستقلة منها: «متن القصيدتين النونية والميمية». نشر مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

قاعدةٌ سُنِّيَّةٌ عاليةُ المراتبِ تُبَيِّنُ حاجةَ العَبْدِ إلى رَبِّه

قاعدةٌ شريفةٌ عظيمةُ القَدْرِ حاجةُ العبدِ إليها أعظمُ منْ حاجتِهِ إلى الطعامِ والشرابِ والنَّفَسِ، بلْ وإلى الرُّوحِ التي بينَ جَنْبَيْهِ[١].

اعْلَمْ أنَّ كلَّ حيٍّ سِوَى اللَّهِ فهوَ فقيرٌ إلى جَلْبِ ما يَنفعُهُ ودَفْعِ ما يَضُرُّهُ.

والمنفَعَةُ لِلْحَيِّ مِنْ جِنْسِ النِّعَمِ[٢] واللَّذَّةِ، والْمَضَرَّةُ منْ جِنْسِ الألَمِ والعذابِ[٣] فلا بُدَّ لهُ[٤] مِنْ أَمرَيْنِ:

أحدُهما: هوَ المطلوبُ المقصودُ المحبوبُ الذي [يُنْتَفَعُ ويُلْتَذُّ بهِ][٥].

والثاني: هوَ الْمُعِينُ الْمُوَصِّلُ الْمُحَصِّلُ لذلكَ المقصودِ، والمانِعُ لحصولِ المكروهِ أو الدافِعُ لهُ بعدَ وُقوعِهِ.

الأمورُ التي لا يَقومُ صَلاحُ المخلوقِ الحيِّ إلا بها

فها هُنَا أربعةُ أشياءَ:

أمرٌ محبوبٌ مطلوبُ الوُجُودِ.

والثاني: أمرٌ مَكروهٌ مَطلوبُ العدَمِ.

والثالثُ: الوسيلةُ إلى حُصولِ المحبوبِ.

والرابعُ: الوسيلةُ إلى دَفْعِ الْمَكروهِ.

فهذهِ الأمورُ الأربعةُ ضَروريَّةٌ للعَبْدِ، بلْ ولكلِّ حيٍّ سِوَى اللَّهِ، لا يَقومُ صلاحُهُ إلاَّ بها.

إذا عُرِفَ هذا، فَاللَّهُ سبحانَهُ وتعالى هوَ المطلوبُ المعبودُ المحبوبُ وَحْدَهُ لا شريكَ

---

(١) من بداية هذه القاعدة إلى المقطع الأول من (ص٢٧١) قد استقى المؤلف رحمه الله مادته إما بلفظها أو بمعناها من كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع الإضافة والتصرف والاستطراد في بعض المواضع. انظر: «الفتاوى» (١/ ٢٥ - ٣٣).

(٢) في (ك) و(س): النعيم. (٣) ساقطة من (ك). (٤) ساقطة من (ك) و(س).

(٥) في (ك) و(س): ينتفع به ويتلذذ به، ولعل الصواب المثبت كما في باقي النسخ و«الفتاوى» لابن تيمية (١/ ٢٥).

لهُ، وهوَ وَحدَهُ الْمُعِينُ للعبدِ على حُصولِ مَطلوبِهِ، فلا مَعبودَ سواهُ، ولا مُعِينَ على المطلوبِ غيرُهُ، وما سِوَاهُ هوَ الْمَكْرُوهُ المطلوبُ بُعْدُهُ، وهوَ الْمُعِينُ على دَفْعِهِ، فهوَ سبحانَهُ الجامعُ للأمورِ الأربعةِ دُونَ ما سِواهُ، وهذا معنى قولِ العبدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥]. فإنَّ العِبادةَ تَتَضَمَّنُ المقصودَ المطلوبَ على أكملِ الوُجوهِ، والْمُستعانُ هوَ الذي يُستعانُ بِهِ على حُصولِ المطلوبِ ودَفْعِ الْمَكْرُوهِ.

فالأوَّلُ[1]: **مِنْ مُقْتَضى أُلوهيَّتِهِ.**

والثاني[2]: **منْ مُقتَضَى رُبوبيَّتِهِ.**

لأنَّ الإلهَ هوَ الذي يُؤْلَهُ، فيُعْبَدُ مَحبَّةً وإنابةً وإجلالًا وإكرامًا، والرَّبُّ هوَ الذي يَرُبُّ عَبْدَهُ، فيُعطِيهِ خَلْقَهُ ثمَّ يَهديهِ إلى جَميعِ أحوالِهِ ومَصالِحِهِ التي بها كمالُهُ، ويَهديهِ إلى اجتنابِ الْمَفاسدِ التي بها فَسادُهُ وهَلاكُهُ.

وفي القرآنِ سبعةُ مَواضِعَ تَنْتَظِمُ[3] هذَيْنِ الأَصْلَيْنِ: **أحدُها**: قَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، **الثاني**: قولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: الآية ٨٨]، **الثالثُ**: قولُهُ تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: الآية ١٢٣]، **الرابع**: قولُهُ: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [المُمتحنة: الآية ٤]، **الخامسُ**: قولُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفُرقان: الآية ٥٨]، **السادسُ**: قولُهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرّعد: الآية ٣٠]، **السابعُ**: قولُهُ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٨ - ٩].

ومِمَّا يُقَرِّرُ هذا: أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعبادتِهِ الجامعةِ لِمَعرفَتِهِ، والإنابةِ إليهِ، ومَحَبَّتِهِ والإخلاصِ لهُ، فَبِذِكْرِهِ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهم، وبِرُؤْيَتِهِ في الآخِرةِ تَقَرُّ عيونُهم، ولا شيءَ يُعطيهم في الآخِرةِ أَحَبُّ إليهم من النظَرِ إليهِ، ولا شيءَ يُعطيهم في الدُّنيا أَحَبُّ إليهم من الإيمانِ بهِ، ومَحَبَّتِهم لهُ، ومَعرفتِهم بهِ. وحَاجَتُهُمْ إليهِ في[4] عبادتِهم لهُ،

---

(١) وهو العبادة. (٢) وهو الاستعانة.

(٣) في (س) تنظم، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«الفتاوى» (١/ ٢٥).

(٤) في (ك) و(س): (واو) بدلا من(في).

وتَألُّهِهم[١] لهُ كحاجتِهم إليهِ - بلْ أَعْظَمَ - في خَلْقِهِ لهم[٢] ورُبُوبِيَّتِهِ لهم ورزقِهِ لهم؛ فإنَّ ذلكَ هوَ الغايَةُ المقصودةُ التي بها سعادَتُهم وفَوْزُهم، وبها ولأَجْلِها يَصِيرُونَ عاملينَ متَحَرِّكِينَ، ولا صَلاحَ لهم ولا فَلاحَ ولا نَعيمَ ولا لَذَّةَ ولا سُرُورَ بدونِ ذلكَ بحالٍ.

فمَنْ أَعْرَضَ عنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنْكًا، ويَحْشُرُهُ[٣] يومَ القِيامةِ أَعْمى.

ولهذا لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِمَنْ يُشْرِكُ بهِ شيئًا، ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ.

ولهذا كانَتْ «لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ» أَفْضَلَ الْحَسناتِ[٤]، وكانَ توحيدُ الإلهيَّةِ الذي كَلِمَتُهُ «لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ» رأسَ الأمرِ.

استلزامُ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ لتوحيدِ الأُلوهِيَّةِ

فأمَّا تَوحيدُ الربوبيَّةِ الذي أَقَرَّ بهِ كلُّ المخلوقاتِ، فلا يَكْفِي وحدَهُ، وإنْ كانَ لا بُدَّ منهُ، وهوَ حُجَّةٌ على مَنْ أَنْكَرَ تَوحيدَ الأُلوهيَّةِ[٥].

فحقُّ اللَّهِ على العِبادِ أنْ يَعبُدُوهُ لا يُشرِكوا بهِ شيئًا، وحَقُّهم عليهِ إذا فَعَلُوا ذلكَ أنْ لا يُعَذِّبَهم[٦]، وأنْ يُكْرِمَهم إذا قَدِمُوا عليهِ، وهذا كما أنَّهُ غايَةُ مَحبوبِ العبدِ ومطلوبِهِ،

---

(١) في (ع): وبإلههم، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«الفتاوى» لابن تيمية (٢٣).

(٢) ساقطة من (ع).

(٣) في (ك) و(س): ونحشره، والأصوب المثبت، لتناسب السياق.

(٤) لتوقف جميع الأعمال على قبولها، ولأنها أثقل ما يكون في ميزان العبد يوم القيامة، وقد ورد في فضلها جملة أحاديث؛ منها ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/١٦٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله، أوصني، قال: «**إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة؛ تمحها**»، قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «**هي أفضل الحسنات**». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨١): رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٥) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص٢٨) وما بعدها.

(٦) إشارة إلى حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وقوله: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**». الحديث، رواه البخاري (٦/ ٦٩) ح٢٨٥٦فتح)، و(١٠/ ٤١٢ح٥٩٦٧فتح)، و(١١/ ٦٣ح٦٢٦٧فتح)، و(١١/ ٣٤٥ ح٦٥٠٠فتح)، و(١٣/ ٣٥٩ح ٧٣٧٣فتح)، ومسلم، في كتاب الإيمان، باب: من شهد =

وبهِ سُرُورُهُ ولَذَّتُهُ ونعيمُهُ، فهوَ أيضًا مَحبوبُ الربِّ منْ عَبْدِهِ، ومَطلوبُهُ الَّذِي يَرْضَى بِهِ، ويَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ إذا رَجَعَ إليهِ، وإلى عُبوديَّتِهِ وطاعتِهِ أعظَمَ منْ فَرَحِ مَنْ وَجَدَ رَاحِلَتَهُ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في أرضٍ مُهْلِكَةٍ بعدَ أنْ فَقَدَها وأَيِسَ منها، وهذا أعظمُ فَرَحٍ يكونُ[1]، وكذلكَ العبدُ لا فَرَحَ لهُ أعظَمُ منْ فرحِهِ بوُجودِ ربِّهِ، وأُنْسِهِ بهِ، وطاعتِهِ لهُ، وإقبالِهِ عليهِ، وطُمأنينتِهِ بذِكْرِهِ، وعِمارةِ قَلْبِهِ بمعرفَتِهِ، والشوقِ إلى لقائِهِ؛ فليسَ في الكائناتِ ما يَسْكُنُ العبدُ إليهِ، ويَطْمَئِنُّ بهِ، ويَتَنَعَّمُ بالتوَجُّهِ إليهِ إلاَّ اللَّهَ سبحانَهُ، ومَنْ عَبَدَ غيرَهُ وأَحَبَّهُ - وإنْ حَصَلَ لهُ بهِ[2] نوعٌ من اللَّذَّةِ والْمَوَدَّةِ، والسكونِ إليهِ، والفرحِ والسرورِ بوُجُودِهِ - ففسادُهُ بهِ ومَضَرَّتُهُ وعَطَبُهُ أعظمُ منْ فَسادِ أَكْلِ الطعامِ المسمومِ اللذيذِ الشهيِّ؛ الذي هوَ عَذْبٌ في مَبْدَئِهِ، عذابٌ في نِهايتِهِ، كما قالَ القائلُ:

مآربُ كانَتْ في الشبابِ لأهلِها ... عِذابًا فصارتْ في الْمَشيبِ عَذابًا[3]

التَّأَلُّهُ لغيرِ اللهِ هو غايةُ الفسادِ

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢].

فإنَّ قِوَامَ السماواتِ والأرضِ والْخَليقةِ بأنْ تَأَلَّهَ الإلهُ الْحَقُّ، فلوْ كانَ فيهما آلِهَةٌ أُخَرُ[4] غيرُ اللَّهِ لمْ يكُنْ إلَهًا حقًّا؛ إذِ الإلهُ الحقُّ لا شريكَ لهُ، ولا سَمِيَّ لهُ، ولا مِثْلَ لهُ.

فلوْ تَأَلَّهَتْ غيرَهُ؛ لفَسَدَتْ كلَّ الفسادِ بانتفاءِ ما بهِ صلاحُها؛ إذْ صلاحُها بتَأَلُّهِ الإلهِ الحقِّ، كما أنَّها لا تُوجَدُ إلاَّ باستنادِها إلى الربِّ الواحدِ القَهَّارِ، ومُستحيلٌ[5] أن تَسْتَنِدَ

= بالشهادتين حرم الله عليه النار (١/ ١٨٦) ح٣٠نووي).

(١) إشارة إلى ما رواه البخاري (١١/ ١٠٥ح٦٣٠٨فتح)، ومسلم (١٧/ ٢١٨ح٢٧٤٤نووي)، وفيه: «**الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه. فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**».

(٢) ساقطة من (ك) و(س).

(٣) ذكره المؤلف في «الداء والدواء» (ص٢٩٩)، ولم أجده - حسب جهدي - في مصدر آخر.

(٤) في (س): أخرى.

(٥) في(ك)، (س): ويستحيل.

في وُجودِها إلى رَبَّيْنِ مُتكافِئَيْنِ، فكذلكَ يَستحيلُ أن تَسْتَنِدَ في بقائِها وصلاحِها إلى إلَهَيْنِ مُتساوِيَيْنِ.

إذا عُرِفَ هذا؛ فاعْلَمْ أنَّ حاجةَ العبدِ إلى أنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحدَهُ، و[١] لا يُشْرِكَ بهِ شيئًا في مَحَبَّتِهِ، ولا في خَوفِهِ، ولا في رَجائِهِ، ولا في التَّوَكُّلِ عليهِ، ولا في العملِ لهُ، ولا في الْحَلِفِ بهِ، ولا في النَّذْرِ لهُ، ولا في الخضوعِ لهُ، ولا في التذَلُّلِ والتعظيمِ والسجودِ والتقرُّبِ - أعظمُ منْ حاجةِ الجسَدِ إلى رُوحِهِ، والعَينِ إلى نورِها، بلْ ليسَ لهذهِ الحاجةِ نظيرٌ تُقاسُ بهِ؛ فإنَّ حقيقةَ العبدِ قلبُهُ ورُوحُهُ، ولا صَلاحَ لها إلاَّ بإلَهِها الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ، فلا تَطْمَئِنُّ في الدنيا إلاَّ بِذِكْرِهِ، وهيَ كادحةٌ إليهِ كَدْحًا فمُلاقِيَتُهُ، ولا بُدَّ لها منْ لقائِهِ، ولا صلاحَ لها إلاَّ بِمَحَبَّتِها وعُبُودِيَّتِها لهُ، ورِضاهُ وإكرامِهِ لها.

حاجةُ العبدِ إلى ربِّه ليسَ لها نظيرٌ تقاسُ بهِ

ولوْ حَصَلَ للعبدِ من اللَّذَّاتِ والسرورِ بغيرِ اللَّهِ ما حَصَلَ؛ لمْ يَدُمْ لهُ ذلكَ، بلْ يَتَنَقَّلُ منْ نوعٍ إلى نوعٍ، ومنْ شخصٍ إلى شخصٍ، ويَتَنَعَّمُ بهذا في وقتٍ، ثمَّ يَتَعَذَّبُ[٢] بهِ، ولا بدَّ في وقتٍ آخَرَ، وكثيرًا ما يكونُ ذلكَ الذي يَتَنَعَّمُ بهِ ويَلْتَذُّ بهِ غيرَ مُنْعِمٍ لهُ ولا مُلِذٍّ، بلْ قدْ يُؤْذِيهِ[٣] اتِّصَالُهُ بهِ ووُجودُهُ عنَّهُ[٤]، ويَضُرُّهُ ذلكَ، وإنما يَحْصُلُ لهُ بمُلابَسَتِهِ منْ جِنْسِ ما يَحْصُلُ للجَرَبِ منْ لَذَّةِ الأظفارِ التي تَحُكُّهُ؛ فهيَ تُدْمِي الجِلْدَ؛ وتَخْرِقُهُ، وتَزيدُ في ضَرَرِهِ، وهو يُؤْثِرُ ذلكَ لِمَا لهُ في حَكِّها من اللَّذَّةِ، وهكذا ما يَتَعَذَّبُ بهِ القلبُ منْ مَحَبَّةِ غيرِ اللَّهِ هوَ عذابٌ عليهِ ومَضَرَّةٌ وألمٌ في الحقيقةِ، لا تَزيدُ لَذَّتُهُ على لَذَّةِ حكِّ الجرَبِ، والعاقلُ يُوازِنُ بينَ الأمرَيْنِ ويُؤْثِرُ أَرْجَحَهما وأَنْفَعَهما، واللَّهُ الْمُوَفِّقُ الْمُعينُ، ولهُ الْحُجَّةُ البالغةُ، كما لهُ النِّعمةُ السابغةُ.

والمقصودُ: أنَّ إلهَ العبدِ الذي لا بُدَّ لهُ منهُ في كلِّ حالةٍ، وكلِّ دقيقةٍ، وكلِّ طَرفةِ عينٍ، فهوَ الإلهُ الحقُّ الذي كلُّ ما سِوَاهُ باطلٌ، الذي أَيْنَما كانَ فهوَ معَهُ، وضَرورتُهُ إليهِ[٥]، وحاجتُهُ إليهِ، لا تُشْبِهُهَا ضَرورةٌ ولا حاجةٌ، بلْ هيَ فوقَ كلِّ ضَرورةٍ، وأعظَمُ

---

(١) (الواو) ساقطة من (ك) و(س).
(٢) في (ك) و(س): يعذب.
(٣) في (ك) زيادة: (الذي).
(٤) في (ك) و(س): عنده، وكذا في «الفتاوى» لابن تيمية (١/ ٢٥). و الصواب المثبت، والمراد بقوله: عنه، أي: أمامه. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، باب النون، فصل العين (١٥٧٠).
(٥) ساقطة من (ك) و(س).

منْ كلِّ حاجةٍ؛ ولهذا قالَ إمامُ الْحُنَفَاءِ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦][١].

فصلٌ

وهذا مَبْنِيٌّ على أصلَيْنِ:

الأصل الأول

أحدُهما: أنَّ نفسَ الإيمانِ باللَّهِ، وعِبادتِهِ، ومَحَبَّتِهِ، وإخلاصِ العملِ لهُ، وإفرادِهِ بالتوَكُّلِ عليهِ. هوَ غِذاءُ الإنسانِ وقُوتُهُ وصلاحُهُ وقِوَامُهُ، كما عليهِ أهلُ الإيمانِ، وكما دَلَّ عليهِ القرآنُ، لا كما يَقولُهُ مَنْ يَقولُهُ: إنَّ عِبادتَهُ تكليفٌ ومَشَقَّةٌ على خِلافِ مقصودِ القلبِ ولَذَّتِهِ، بلْ لِمُجَرَّدِ الامتحانِ والابتلاءِ، كما يَقولُهُ مُنكِرُو الحكمةِ والتعليلِ[٢]، أوْ[٣] لأَجْلِ التعويضِ بالأَجْرِ[٤]؛ لِمَا[٥] في إيصالِهِ إليهِ بدونِ مُعاوَضَةٍ مِنَّةٌ تُكَدِّرُهُ، أوْ لأَجْلِ تَهذيبِ النفسِ ورياضتِها واستعدادِها لقَبولِ العَقْلِيَّاتِ، كما يَقولُهُ مَنْ يَتَقَرَّبُ إلى النُّبُوَّاتِ من الفَلاسفةِ[٦]، بل الأمرُ أَعظَمُ منْ ذلكَ كلِّهِ وأَجَلُّ، بلْ أوامرُ المحبوبِ قُرَّةُ العيونِ، وسُرُورُ القلوبِ، ونعيمُ الأرواحِ، ولذَّاتُ النفوسِ، وبها كمالُ النعيمِ؛ فقُرَّةُ عينِ المحِبِّ في الصلاةِ والْحجِّ، وفَرَحُ قلبِهِ وسُرورُهُ ونعيمُهُ في ذلكَ، وفي الصيامِ والذِّكْرِ والتلاوةِ، وأمَّا الصدَقَةُ فعَجَبٌ من العَجَبِ، وأمَّا الجهادُ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن الْمُنْكَرِ، والدعوةُ إلى اللَّهِ، والصبرُ على أعداءِ اللَّهِ - فاللَّذَّةُ بذلكَ أمرٌ آخَرُ لا يَنالُهُ الوَصْفُ، ولا يُدرِكُهُ مَنْ ليسَ لهُ نَصيبٌ منهُ، وكلُّ مَنْ كان بهِ أَقْوَمَ؛ كان نَصيبُهُ

---

(١) والمقصود: لا أحب عبادة رب يتحول من حال إلى حال، ويغيب تارة، ويظهر أخرى؛ لأن من هذه حاله لا يصلح أن يكون إلها؛ لعدم قيامه بحوائج الخلق؛ لأنه يغيب عنهم، والعباد محتاجون للإله الحق في كل لحظة، ولا غنى لهم عنه طرفة عين. وانظر: «جامع البيان للطبري» (٥/ ٢٤٨)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٥٢).

(٢) وهو قول الأشعري ومن وافقه من الجهمية الجبرية. انظر: «الفتاوى» (٨/ ٣٣٧ - ٣٧٨)، «منهاج السنة» (١/ ١٤٢)، «مفتاح دار السعادة» للمؤلف(٣/ ٣٤).

(٣) في (س): (و) بدلا من (أو).

(٤) كما يقوله المعتزلة والشيعة ومن وافقهم. انظر: «الملل والنحل» (١/ ٣٩)، ولابن تيمية «الفتاوى» (١/ ٢٥)، (٨/ ٨٩)، و«مجموعة الرسائل والمسائل» (٥/ ٢٩١)، وللمؤلف «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٣).

(٥) في (ع): كما، والصواب المثبت؛ لاستقامة السياق.

(٦) انظر: «مفتاح دار السعادة» للمؤلف (٣/ ٢٤) وما بعدها.

من الالتذاذِ بِهِ أعظمَ، ومَنْ غَلُظَ فَهْمُهُ، وكَثُفَ طَبْعُهُ عنْ إدراكِ هذا؛ فلْيَتَأَمَّلْ إقدامَ القومِ على قَتْلِ آبائِهم وأبنائِهم وأحبابِهم، ومُفارَقَةِ أوطانِهم، وبَذْلِ نُحورِهم لأعدائِهم، ومَحَبَّتِهم للقَتْلِ، وإيثارِهم لهُ على البقاءِ، وإيثارِ لَوْمِ اللائمينَ وذَمِّ المخالِفينَ على مَدْحِهم وتَعظيمِهم[١].

ووُقوعُ هذا من البشَرِ بدونِ أمْرٍ يَذوقُهُ قلْبُهُ من حلاوتِهِ ولَذَّتِهِ وسرورِهِ ونَعيمِهِ مُمْتَنِعٌ، والواقعُ شاهدٌ بذلكَ، بلْ ما قامَ بقلوبِهم من اللَّذَّةِ والسرورِ والنعيمِ أَعظمُ مِمَّا يَقومُ بقلبِ العاشقِ الذي يَتَحَمَّلُ[٢] ما يَتحَمَّلُهُ في مُوافقَةِ رِضَى مَعشوقِهِ؛ فهوَ يَلْتَذُّ بهِ ويَتنعَّمُ بهِ؛ لِمَا يَعْلَمُ منْ سرورِ مَعشوقِهِ بهِ.

فَيَا مُنْكِرًا هـذا تَأَخَّرْ فإنَّهُ … حرامٌ على الخُفَّاشِ أنْ يُبْصِرَ الشَّمْسَا[٣]

فمَنْ كان مُرادُهُ وَجهَ[٤] اللَّهِ[٥]، وحياتُهُ في مَعرِفَتِهِ ومَحَبَّتِهِ، ونَعيمُهُ في التَّوَجُّهِ[٦] إليهِ وذِكْرِهِ، وطُمَأْنينَتِهِ بهِ، وسُكونِهِ إليهِ وَحْدَهُ؛ عَرَفَ هذا، وأَقَرَّ بهِ.

الأصلُ الثاني

الأصلُ الثاني: أنَّ كمالَ النعيمِ في الدارِ الآخِرةِ أيضًا بهِ تعالى؛ برُؤْيَتِهِ، وسَماعِ كلامِهِ، وقُرْبِهِ، ورِضوانِهِ، لا كما يَزْعُمُ مَنْ يَزْعُمُ[٧] أنَّهُ لا لَذَّةَ في الآخِرَةِ إلاَّ بالمخلوقِ من المأكولِ والمشروبِ والْمَلبوسِ والْمَنكوحِ، بَلِ اللَّذَّةُ والنعيمُ التامُّ في حظِّهم من الخالقِ تعالى أعظمُ مِمَّا يَخْطُرُ بالبالِ أوْ يَدورُ في الخيالِ، وفي دعاءِ النبيِّ ﷺ الَّذي رواهُ الإمامُ أحمدُ في «مُسْنَدِهِ»[٨]، وابنُ حِبَّانَ[٩] والحاكمُ[١٠] في «صَحيحَيْهِما»:

---

(١) كما فعل صحابة رسول الله ﷺ حين هاجروا وتركوا الأوطان والأموال والأهل والعشيرة، وقابلوا جيوش الكفر، وفيهم الآباء والإخوان مرخصين الأنفس في سبيل رضوان الله والجنة.

(٢) في (ك): يحمل.

(٣) لم أجده حسب جهدي.

(٤) في (ك): وحبه، والصواب المثبت؛ لمقتضى السياق.

(٥) في (س) زيادة: (وحبه لله).

(٦) في (ع): التوحيد، والمثبت أصح للمعنى والتركيب.

(٧) من أهل الكلام ونحوهم. «الفتاوى» (١/ ٢٦).

(٨) (٤/ ٢٦٤)، (٥/ ١٩١) بنحوه في أثناء حديث طويل في آخره.

(٩) «صحيح» ابن حبان: الصلاة (٥/ ٣٠٥ ح١٩٧١) بنحوه في أثناء حديث طويل في آخره.

(١٠) «المستدرك» (١/ ٦٩٧ح١٩٠٠) بنحوه في أثناء حديث طويل في أثنائه وصححه. وضعف إسناده الذهبي، ورواه من طريق آخرى كذلك بنحوه في أثناء حديث طويل في آخره (١/ ٧٠٥ ح١٩٢٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

«...وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»[١].

ولهذا قالَ تعالى في حَقِّ الكُفَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المُطَفِّفِين: ١٥، ١٦].

فعذابُ الْحِجابِ مِنْ أَعْظَمِ أنواعِ العذابِ الذي يُعَذِّبُ بِهِ أعداءَهُ، ولَذَّةُ النظَرِ إلى وَجْهِهِ[٢] الكريمِ أَعْظَمُ أنواعِ اللَّذَّاتِ التي يَنْعَمُ[٣] بها أولياؤُهُ، ولا تَقومُ حُظوظُهم منْ سائرِ المخلوقاتِ مَقامَ حَظِّهِم منْ رُؤْيَتِهِ، وسَماعِ كلامِهِ، والدُّنُوِّ منهُ وقُرْبِهِ.

وهذانِ الأصلانِ ثابتانِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وعليهما أهلُ العِلمِ والإيمانِ، ويَتَكَلَّمُ فيهما مَشايخُ الطريقِ العارفونَ[٤]، وعليهما أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهما منْ فِطرةِ اللَّهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها ويَحْتَجُّونَ على مَنْ يُنْكِرُهما بالنصوصِ والآثارِ تارةً وبالذَّوْقِ والوَجْدِ تارةً، وبالفِطرةِ تارةً، وبالقِياسِ والأمثالِ تارةً.

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «كتاب السنة» (١/ ٢٥٤)، (٢٥٥ح٤٦٦)، (٤٦٨) بنحوه مختصرا؛ و(ح٤٦٧) بنحوه في أثناء حديث طويل في آخره، و(٢/ ٥٠٩ح١١٨٨)، (١١٨٩) بنحوه مختصرا، و(ح١١٩٠، ١١٩١) بنحوه مطولا؛ وابن أبي عاصم في «السنة» (١٨٥ - ١٨٦ح ٤٢٤، ٤٢٧) بنحوه؛ واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٨٨ ح٨٤٥)، (٨٤٦) بنحوه مطولا في وسطه، (٣/ ٤٩١ح ٨٤٧) بنحوه، والحديث صححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٨٥، ١٨٦).

(٢) في (ك) و(س): وجه الله.

(٣) في (ك): يتنعم.

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (١/ ٢٧): «مشايخ الصوفية العارفون»، وهو يعني مشايخ الصوفية الذين من أقوالهم: «من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ؛ فباطل عمله»، «من علم طريق الحق؛ سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله»، و«من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا؛ نطق بالحكمة»، و«الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام»، و«من لم يحفظ القرآن الكريم، ولم يكتب الحديث؛ لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»، و«من رأيته يدعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي؛ فلا تقربن منه». وقد وردت هذه الأقوال في «الرسالة القشيرية» (ص٣٥٩)، (٤٠٨)، (٤١٠)، (٤٣٠)، (٤٣١)، (٤٣٩).

وقدْ ذَكَرْنا مجموعَ هذهِ الطرُقِ في كتابِنا الكبيرِ في الْمَحَبَّةِ الَّذي سَمَّيْنَاهُ: «الْمَورِدَ الصافِي والظلَّ الضافِي»[(١)] في الْمَحَبَّةِ وأقسامِها وأنواعِها وأحكامِها، وبيانِ وُجوبِ تَعَلُّقِها بالإلهِ الحقِّ دونَ ما سِواهُ، وذَكَرْنا منْ ذلك ما يَزيدُ على مائةِ وَجْهٍ.

الوجهُ الثالثُ

ومِمَّا يُوَضِّحُ ذلكَ ويَزيدُهُ تَقريرًا أنَّ المخلوقَ ليسَ عندَهُ للعَبدِ نَفْعٌ ولا ضَرٌّ، ولا عطاءٌ ولا مَنْعٌ، بلْ رَبُّهُ سبحانَهُ الذي خَلَقَهُ ورَزَقَهُ وبَصَّرَهُ وهَدَاهُ، وأَسْبَغَ عليهِ نِعَمَهُ، وتَحَبَّبَ إليهِ بها معَ غِناهُ عنهُ، ومعَ تَبَغُّضِ العبدِ إليهِ بالمعاصِي معَ فَقْرِهِ إليهِ، فإذا مَسَّهُ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشفَ لهُ إلاَّ هوَ، وإذا أصابَهُ بنِعمةٍ فلا رادَّ لها ولا مانعَ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: الآية ٢].

فالعبدُ لا يَنْفَعُ ولا يَضُرُّ، ولا يُعْطِي ولا يَمْنَعُ إلاَّ بإذنِ اللَّهِ، فالأمرُ كلُّهُ لِلَّهِ[(٢)] أَوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا وباطنًا، هوَ مُقَلِّبُ القلوبِ ومُصَرِّفُها كيفَ يَشاءُ، الْمُتَفَرِّدُ بالضَّرِّ والنفْعِ، والعطاءِ والْمَنْعِ، والْخَفْضِ والرَّفْعِ، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هود: الآية ٥٦]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وهذا الوجهُ أَظْهَرُ لعمومِ الناسِ من الوجهِ الأَوَّلِ؛ ولهذا خُوطِبُوا بهِ في القرآنِ أكثَرَ من الأَوَّلِ، لكنْ مَنْ تَدَبَّرَ طريقَةَ القرآنِ؛ تَبَيَّنَ لهُ أنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَدْعُو عبادَهُ بهذا الوجهِ إلى الأَوَّلِ؛ فهذا الوجهُ يَقتضِي التوَكُّلَ على اللَّهِ، والاستعانَةَ بِهِ[(٣)]، والدعاءَ لهُ، ومَسألَتَهُ دونَ ما سواهُ، ويَقتضِي أيضًا مَحَبَّتَهُ وعِبادتَهُ لإحسانِهِ إلى عبدِهِ وإسباغِ نِعَمِهِ عليهِ، فإذا عَبَدَهُ، وأَحَبَّهُ، وتَوَكَّلَ عليهِ منْ هذا الوجهِ؛ دَخَلَ في الوجهِ الأَوَّلِ، وهكذا كمَنْ[(٤)] نَزَلَ بهِ بلاءٌ عظيمٌ وفاقَةٌ شديدةٌ، أَوْ خوفٌ مُقْلِقٌ، فجَعَلَ يَدْعُو اللَّهَ ويَتَضَرَّعُ إليهِ، حتَّى فتَحَ لهُ منْ لذيذِ مُناجاتِهِ، وبابِ الإيمانِ بهِ، والإنابةِ إليهِ ما هوَ أحبُّ إليهِ منْ تلكَ الحاجةِ التي قَصَدَها أوَّلًا، لكنَّهُ لمْ يكُنْ يَعرفُ ذلكَ أوَّلًاحتَّى يَطْلُبَهُ ويَشتاقَ إليهِ؛ فعَرَّفَهُ إيَّاهُ بما أَقامَهُ لهُ من الأسبابِ التي أَوْصَلَتْهُ إليهِ.

---

(١) انظر: «ابن القيم» لبكر أبي زيد (ص٣٠٥). (٢) في (ع): له، والصواب المثبت.

(٣) ساقطة من (س). (٤) في (ك) و(س): من، والصواب المثبت.

الوجهُ الرابعُ

والقرآنُ مَملوءٌ منْ ذِكْرِ حاجةِ العِبادِ[١] إلى اللَّهِ دُونَ ما سِواهُ، ومِنْ ذِكْرِ نَعْمَائِهِ عليهم، ومِنْ ذِكْرِ ما وَعَدَهم بِهِ في الآخرةِ مِنْ صُنوفِ النعيمِ واللَّذَّاتِ، وليسَ عندَ المخلوقِ شيءٌ منْ هذا، فهذا الوجهُ يُحَقِّقُ التوَكُّلَ على اللَّهِ، والشكرَ لهُ، ومَحَبَّتَهُ على إحسانِهِ.

الوجهُ الخامسُ

ومِمَّا يُوَضِّحُ ذلكَ ويُقَوِّيهِ أنَّ تَعَلُّقَ العبدِ بما سوى اللَّهِ مَضَرَّةٌ عليهِ إذا أَخَذَ منهُ القَدْرَ الزائدَ على حاجتِهِ المُعِينَةِ لهُ على عُبودِيَّةِ اللَّهِ ومَحَبَّتِهِ وتَفريغِ قلبِهِ لهُ؛ فإنَّهُ إن نالَ من الطعامِ والشرابِ فوقَ حاجتِهِ؛ ضَرَّهُ أوْ[٢] أَهْلَكَهُ، وكذلكَ من النكاحِ واللِّباسِ وإن أَحَبَّ شيئًا بحيثُ يُخَالِلُهُ؛ فلا بُدَّ أن يَسْأَمَهُ أوْ يُفارِقَهُ، فالضَّرَرُ حاصلٌ لهُ إن وُجِدَ أوْ فُقِدَ؛ فإنْ فُقِدَ؛ تَعَذَّبَ بالفِراقِ وتَأَلَّمَ، وإنْ وُجِدَ؛ فإنَّهُ يَحْصُلُ لهُ من الألَمِ أكثرُ مِمَّا يَحْصُلُ لهُ من اللَّذَّةِ.

وهذا أمرٌ معلومٌ بالاعتبارِ والاستقراءِ؛ أنَّ كلَّ مَنْ أَحَبَّ شيئًا دونَ اللَّهِ لغيرِ اللَّهِ؛ فإنَّ مَضَرَّتَهُ أكثرُ مِنْ مَنْفَعَتِهِ، وعذابَهُ أَعْظَمُ مِنْ نَعيمِهِ.

يَزيدُ[٣] ذلكَ إيضاحًا أنَّ اعتمادَهُ على المخلوقِ، وتَوَكُّلَهُ عليهِ يُوجِبُ لهُ الضررَ مِنْ جِهتِهِ؛ فإنَّهُ يُخْذَلُ مِنْ تلكَ الْجِهَةِ.

وهذا أيضًا مَعلومٌ بالاعتبارِ والاستقراءِ؛ فإنَّهُ ما عَلَّقَ العبدُ رَجاءَهُ وتَوَكُّلَهُ بغيرِ اللَّهِ؛ إلاَّ خابَ مِنْ تلكَ الْجِهةِ، ولا اسْتَنْصَرَ بغيرِهِ؛ إلاَّ خُذِلَ، قالَ تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريمُ: (٨١ - ٨٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥]، وقالَ تعالى عنْ إمامِ الْحُنفاءِ أنَّهُ قالَ للمشركِينَ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: الآية ٢٥].

وَلَمَّا كان غايَةُ صلاحِ العبدِ في عِبادةِ اللَّهِ وَحدَهُ، [واستعانتِهِ بهِ[٤]] وَحْدَهُ، كان في عِبادةِ غيرِهِ والاستعانةِ بغيرِهِ غايَةُ مَضَرَّتِهِ.

الوجهُ السادسُ

ومِمَّا يُوَضِّحُ الأمرَ في ذلكَ ويُبَيِّنُهُ: أنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ غَنِيٌّ حَميدٌ كريمٌ رَحيمٌ، فهوَ

(١) في (ك) و(س): العبد. (٢) في (ك): (و) بدلًا من (أو). (٣) في (ع): سنزيد.
(٤) ساقطة من (ك) و(س).

مُحْسِنٌ إلى عبدِهِ معَ غِناهُ عنهُ، يُريدُ بِهِ الخيرَ، ويَكشِفُ عنه الضُّرَّ، لا لِجَلْبِ مَنفعةٍ إليهِ سبحانَهُ، ولا لدَفْعِ مَضرَّةٍ، بلْ رَحْمَةً وإحسانًا وَجُودًا مَحْضًا؛ فإنَّهُ رحيمٌ لذاتِهِ، مُحْسِنٌ لِذاتِهِ، جَوادٌ لِذَاتِهِ، كريمٌ لِذاتِهِ، كما أنَّهُ غَنِيٌّ لِذاتِهِ، قادرٌ لِذاتِهِ، حَيٌّ لِذاتِهِ.

فإحسانُهُ وَجُودُهُ وبِرُّهُ ورَحمتُهُ منْ لَوازِمِ ذاتِهِ لا يكونُ إلاَّ كذلكَ، كما أنَّ [حياتَهُ و][1] قُدرتَهُ وغِناهُ منْ لوازِمِ ذاتِهِ، فلا يكونُ إلاَّ كذلكَ.

وأمَّا العِبادُ فلا يُتَصَوَّرُ أن يُحْسِنُوا إلاَّ لحظُوظِهِم، فأكثَرُ ما عندَهم للعَبدِ أنْ يُحِبُّوهُ ويُعَظِّمُوهُ، ويَجْلِبوا لهُ مَنفعةً، ويَدْفَعُوا عنهُ مَضَرَّةً، وذلكَ منْ تَيسيرِ اللَّهِ وإذنِهِ لَهُم بهِ، فهوَ في الحقيقةِ وَلِيُّ هذهِ النِّعَمِ ومُسدِيها ومُجْرِيها على أَيدِيهِم.

ومعَ هذا فإنَّهُم لا يَفعلونَ ذلكَ إلاَّ لِحُظُوظِهِم من العبدِ؛ فإنَّهُم إذا أَحَبُّوهُ طَلَبوا أن يَنالوا غَرَضَهم منْ مَحَبَّتِهِ، سواءٌ أَحَبُّوهُ لِجَمالِهِ الباطنِ أوِ الظاهِرِ.

فإذا أَحَبُّوا الأنبياءَ والأولياءَ، وطَلَبُوا لقاءَهم؛ فَهُمْ يُحِبُّونَ التمَتُّعَ برؤيتِهِم، وسَمَاعِ كلامِهِم، ونحوِ ذلكَ، وكذلكَ مَنْ أَحَبَّ إنسانًا لشَجاعتِهِ أوْ رِياستِهِ أوْ جَمالِهِ أوْ كَرَمِهِ؛ فهوَ يُحِبُّ أنْ يَنالَ حَظَّهُ منْ تلكَ الْمَحَبَّةِ، ولولا الْتِذاذُهُ بها لَمَا أَحَبَّ ذلكَ، وإنْ جَلَبُوا لهُ مَنفعةً [كخِدمةٍ ومالٍ][2]، أوْ دَفَعُوا عنه مَضَرَّةً كمَرَضٍ وعَدُوٍّ ولوْ بالدُّعَاءِ؛ فهمْ يَطلبونَ العِوَضَ إذا لمْ يكُنِ العملُ للَّهِ، فأَجنادُ الملوكِ، وعَبيدُ المالِكِ[3]، وأُجَرَاءُ المستأْجِرِ، وأعوانُ الرئيسِ كلُّهم إنَّما يَسْعَوْنَ في نَيْلِ أغراضِهِمْ بهِ، لا يُعَرِّجُ أكثرُهم على قَصْدِ مَنفعَةِ المخدومِ إلاَّ أنْ يكونَ قدْ عُلِّمَ وَهُذِّبَ منْ جهةٍ أخرى؛ فيَدخلُ ذلكَ في الجهةِ الدينيَّةِ، أوْ يكونُ فيهِ طَبْعُ عدلٍ وإحسانٍ منْ بابِ المكافأةِ والرحمةِ، وإلاَّ فالمقصودُ بالقَصْدِ الأوَّلِ هوَ مَنفعةُ نفسِهِ.

وهذا منْ حِكمةِ اللَّهِ التي أقامَ بها مَصالِحَ خَلْقِهِ؛ إذْ قَسَمَ بينَهم مَعيشتَهم في الحياةِ الدُّنيا، ورَفَعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ؛ ليَتَّخِذَ بعضُهم بَعْضًا سِخْرِيًّا.

❃ ❃ ❃

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٣) في (ك) و(س): الممالك، والمثبت هو الصواب كما في باقي النسخ و«الفتاوى» (١/ ٣٠).

فصلٌ

إذا تبيَّنَ هذا ظَهَرَ أنَّ أحدًا من المخلوقينَ لا يَقْصِدُ مَنفعتَك بالقَصْدِ الأوَّلِ، بلْ إنَّما يَقْصِدُ مَنفعتَهُ بكَ، وقدْ يكونُ عليكَ في ذلكَ ضَرَرٌ إذا لمْ يُراعِ الْمُحِبُّ العَدْلَ، فإذا دَعَوْتَهُ فقدْ دَعَوْتَ مَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ.

وأمَّا الربُّ - تَبارَكَ وتَعَالى - فهوَ يُريدُكَ لكَ ولِمَنْفَعَتِكَ، لا لِيَنْتَفِعَ بكَ، وذلكَ مَنفعةٌ لكَ مَحْضَةٌ لا ضَرَرَ فيها.

فتَدَبَّرْ هذا حَقَّ التَّدَبُّرِ، ورَاعِهِ حقَّ الْمُراعاةِ؛ فمُلاحظَتُهُ تَمْنَعُكَ أنْ تَرْجُوَ المخلوقَ، أوْ تَطْلُبَ منهُ مَنفعتَهُ لكَ؛ فإنَّهُ لا يُريدُ ذلكَ أَلْبَتَّةَ بالقَصْدِ الأَوَّلِ، بلْ إنَّما يُريدُ انتفاعَهُ بكَ عاجِلًا أوْ آجِلًا، فهوَ يُريدُ نفسَهُ لا يُريدُكَ، ويُريدُ نَفْعَ نفسِهِ بكَ لا نَفْعَكَ بنَفْسِهِ.

فتَأَمَّلْ ذلكَ؛ فإنَّ فيهِ مَنفعةً عَظيمةً وراحةً ويَأْسًا من المخلوقينَ، وسَدًّا لبابِ عُبودِيَّتِهِم، وفَتْحًا لبابِ [عُبودِيَّةِ اللَّهِ][1] وَحْدَهُ.

فما أَعْظَمَ حظَّ مَنْ عَرَفَ [هذهِ المسألةَ][2] ورَعَاهَا حقَّ رِعايتِها.

ولا يَحْمِلَنَّكَ هذا على جَفْوَةِ الناسِ، وتَرْكِ الإحسانِ إليهِم، واحتمالِ أَذَاهُم، بلْ أَحْسِنْ إليْهِم لِلَّهِ لا لِرَجَائِهِم، فكما لا تَخَفْهُم فلا تَرْجُهُمْ.

الوجهُ السابعُ

ومِمَّا يُبَيِّنُ ذلكَ: أنَّ غالبَ الخلْقِ يَطلبونَ إدراكَ حاجتِهِم بكَ وإنْ كانَ ذلكَ ضَرَرًا عليكَ؛ فإنَّ صاحبَ الحاجةِ أَعْمَى لا يَرَى إلاَّ قَضاءَها، فَهُمْ لا يُبالُونَ بِمَضَرَّتِكَ إذا أَدْرَكُوا منكَ حاجاتِهِم، بلْ لوْ كانَ فيها هَلاكُ دُنياكَ وآخِرَتِكَ؛ لَمْ يُبَالُوا بذلكَ.

وهذا [إذا تَدَبَّرَهُ][3] العاقلُ؛ عَلِمَ أنَّهُ عَداوةٌ في صورةِ صَداقةٍ، وأنَّهُ لا أَعْدَى للعاقلِ اللبيبِ مِنْ هذهِ العَداوةِ، فَهُمْ يُريدونَ أنْ يُصَيِّرُوكَ كَالْكِيرِ[4] يَنْفُخُ بَطْنَكَ وَيَعْصِرُ

---

(١) في (س): عبوديته لله، والصواب المثبت؛ إذ هو مقتضى السياق.

(٢) في (ك): (هذا الماءل)، وهو تصحيف، والصواب ما أثبت.

(٣) في (ك): إنما يميزه، والصواب المثبت لموافقة السياق.

(٤) آلة الحداد التي ينفخ بها. «هدي الساري مقدمة فتح الباري» (ص١٩١).

أَضَالِعَكَ[١] في نَفْعِهم ومَصَالِحِهم، بلْ لوْ أُبيحَ لهم أَكْلُكَ لَجزرُوكَ كما يَجْزُرونَ الشاةَ. وكَمْ يَذْبَحُونَكَ كلَّ وقتٍ بغيرِ سِكِّينٍ لِمَصَالِحِهم؟! وكمِ اتَّخَذُوكَ جِسْرًا ومَعبرًا لهم إلى أَوْطَارِهم، وأنتَ لا تَشعرُ؟! وكمْ بِعْتَ آخِرَتَكَ بدُنياهُم وأنتَ لا تَعلمُ؟! ورُبَّمَا عَلِمْتَ! وكم بعتَ حَظَّكَ من اللَّهِ بِحُظوظِهم منكَ، ورُحْتَ صِفْرَ اليدَيْنِ؟! وكمْ فَوَّتُوا عليكَ منْ مَصالِحِ الدارَيْنِ، وقَطَعُوكَ عنها وحالُوا بينَكَ وبينَها؟! وقطَعُوا عليكَ[٢] طريقَ سَفَرِكَ إلى مَنازِلِكَ الأُولَى ودارِكَ التي دُعيتَ إليها، وقالُوا: نحنُ أحبابُكَ وخَدَمُكَ، وشِيعَتُكَ وأعوانُكَ، والسَّاعُونَ في مَصالِحِكَ! وكَذَبوا واللَّهِ؛ إنَّهُم الأعداءُ في صورةِ أولياءَ، وحربٌ في صورةِ مُسالِمِينَ، وقُطَّاعُ طَرِيقٍ في صُورةِ أعوانٍ، فوَاغَوْثَاهُ! ثمَّ وَاغَوْثَاهُ باللَّهِ الذي يُغِيثُ ولا يُغاثُ! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: الآية ٩].

فالسعيدُ الرابحُ مَنْ عامَلَ اللَّهَ فيهم، ولمْ يُعَامِلْهم في اللَّهِ، وخافَ اللَّهَ فيهم، ولمْ يَخفْهُم في اللَّهِ، وأَرْضَى اللَّهَ بسَخَطِهم، ولمْ يُرْضِهم بسَخَطِ اللَّهِ، وراقَبَ اللَّهَ فيهم، ولمْ يُراقِبْهم في اللَّهِ، وآثَرَ اللَّهَ عليهم، ولمْ يُؤْثِرْهم في[٣] اللَّهِ، وأَماتَ خَوْفَهم ورجاءَهم وحُبَّهم منْ قلبِهِ، وأَحْيَى حُبَّ اللَّهِ وخَوْفَهُ ورجاءَهُ فيهِ، فهذا هوَ الذي يَكْسِبُ عليهم، وتكونُ مُعامَلَتُهُ لهمْ كُلُّها رِبحًا، بشَرْطِ أن يَصْبِرَ على أذاهُم، ويَتَّخِذَهُ مَغْنَمًا لا مَغْرَمًا، ورِبْحًا لاخُسرانًا.

الوجهُ الثامنُ

ومِمَّا يُوَضِّحُ الأَمْرَ؛ أنَّ الخلْقَ لا يَقْدِرُ أحدٌ منهم أن يَدْفَعَ عنكَ مَضَرَّةً أَلْبَتَّةَ إلاَّ بإذنِ اللَّهِ ومشيئَتِهِ وقَضائِهِ وقَدَرِهِ، فهوَ في الحقيقةِ الذي لا يأتي بالحسناتِ إلاَّ هوَ، ولا يَذهَبُ بالسيِّئاتِ إلاَّ هوَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: الآية ١٠٧].

قالَ النبيُّ ﷺ لعبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيقَةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ**[٤] **كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ**

(١) في (ك) و(س): أضلاعك. (٢) ساقطة من (ك) و(س).

(٣) في (ك) و(س): على، وهو الأقرب للصواب.

(٤) في (ك) زيادة: (قد).

بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»(١).

وإذا كانتْ هذهِ حالَ الْخَليقةِ، فتَعليقُ الخوفِ والرجاءِ بهم ضارٌّ غيرُ نافعٍ.

فصلٌ

الوجهُ التاسعُ

وجِمَّاعُ هذا أنَّكَ إذا كُنْتَ غيرَ عالِمٍ بِمَصْلَحَتِكَ، ولا قَادرٍ عليها، ولا مُريدٍ لها كما يَنبغِي، فغَيْرُكَ أَوْلَى أنْ لا يكونَ عالِمًا بِمَصْلَحَتِكَ، ولا قادرًا عليها، ولا مُرِيدًا لها، واللَّهُ سبحانَهُ هوَ يَعلمُ ولا تَعْلَمُ، ويَقْدِرُ ولا تَقْدِرُ، ويُعطيكَ منْ فَضْلِهِ لا لِمُعَاوَضَةٍ(٢)، ولا لِمَنْفَعَةٍ يَرْجُوها منكَ، ولا لِتَكَثُّرٍ بكَ، ولا لتَعزُّزٍ بكَ، ولا يَخافُ الفَقْرَ، ولا تَنْقُصُ خزائنُهُ على سَعَةِ الإنفاقِ، ولا يَحْبِسُ فَضْلَهُ عنكَ لحاجةٍ منهُ إليكَ، [واستغناءً بِهِ](٣) بحيثُ إذا أَخرَجَهُ أَثَّرَ ذلكَ في غِناهُ.

أسبابُ حَبْسِ النِّعَمِ عنِ العَبْدِ

وهوَ يُحِبُّ الْجُودَ والبَذْلَ والعَطاءَ والإحسانَ أَعْظَمَ مِمَّا تُحِبُّ أنتَ الأخْذَ والانتفاعَ بما سَأَلْتَهُ، فإذا حَبَسَهُ عنكَ فاعْلَمْ أنَّ هناكَ أَمرَيْنِ لا ثالِثَ لهما:

أحدُهما: أن تكونَ أنتَ الواقفَ في طريقِ مَصَالِحِكَ، وأنتَ المُعَوِّقُ لوُصولِ فَضْلِهِ إليكَ، وأنت حَجَرٌ في طَرِيقِ نفْسِكَ.

وهذا الأَمْرُ(٤) هوَ الأَغْلَبُ على الْخَليقةِ؛ فإنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَضَى فيما قَضَى بِهِ أنَّ ما عندَهُ لا يُنالُ إلاَّ بطاعتِهِ، وأنَّهُ ما استُجْلِبَتْ نِعَمُ اللَّهِ بغيرِ طاعتِهِ، ولا اسْتُدِيمَتْ بغيرِ شُكْرِهِ، ولا عُوِّقَتْ وامْتَنَعَتْ بغيرِ مَعصيتِهِ، وكذلكَ إذا أَنْعَمَ عليكَ ثُمَّ سَلَبَكَ النِّعمةَ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣)، (٣٠٣)، (٣٠٧)، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١٣٧ - ١٣٩ح٣١٥ - ٣١٨) والترمذي (٤/ ٦٦٧) ح٢٥١٦) وحسنه، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/ ٤٣٠) ح٢٥٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٢٣، ٦٢٤) ح٦٣٠٣، ٦٣٠٤)، واللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦١٤) ح١٠٩٥، ١٠٩٦)، وقد حسن رواية الترمذي ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٢). والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٠٨) ح٢٠٤٣) وفي «ظلال الجنة» (ص١٣٨، ١٣٩).

(٢) في (س): بمعاوضة.

(٣) في (ك): واستغنائه، وفي (س) واستغناؤه، والصحيح ما أثبت؛ لمناسبة السياق.

(٤) ساقطة من (ك) و(س).

فإنَّهُ لم يَسْلُبْها لِبُخْلٍ منهُ، ولا استئثارٍ بها عليكَ، وإنَّما أنتَ الْمُسَبِّبُ[١] في سَلْبِها عنكَ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقومٍ حتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنفسِهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

فما أُزيلَتْ نِعَمُ اللَّهِ بغيرِ مَعصيتِهِ.

إذا كُنْتَ في نِعمةٍ فارْعَهَا ... فإنَّ الذنوبَ[٢] تُزيلُ النِّعَمَ[٣]

فآفَتُكَ منْ نفسِكَ، وبَلاؤُكَ منكَ[٤]، وأنتَ في الحقيقةِ الذي بالَغْتَ في عَدَاوَتِكَ، وبَلَغْتَ منْ مُعاداةِ نفسِكَ ما لا يَبْلُغُ العدوُّ منكَ، كما قِيلَ:

ما يَبْلُغُ الأعداءُ مِنْ جاهلٍ ... ما يَبْلُغُ الجاهلُ مِنْ نفسِهِ[٥]

ومن العَجَبِ أنَّ هذا شأنُكَ معَ نَفْسِكَ، وأنتَ تَشْكُو الْمُحْسِنَ البريءَ عن الشِّكايَةِ، وتَتَّهِمُ أَقدارَهُ وتُعاتِبُها وتَلومُها؛ فقدْ ضَيَّعْتَ فُرصتَكَ، وفَرَّطْتَ في حَظِّكَ، وعَجَزَ رَأْيُكَ عنْ مَعرفةِ أسبابِ سَعادتِكَ وإرادتِها، ثمَّ قَعَدْتَ تُعاتِبُ القَدَرَ بلسانِ الحالِ والقالِ فأنتَ الْمَعْنِيُّ بقولِ القائلِ:

وعاجِزُ الرأيِ مِضْيَاعٌ لفُرْصَتِهِ ... حتَّى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرَا[٦]

ولوْ شَعَرْتَ بدَائِكَ، وعَلِمْتَ منْ أينَ دُهِيتَ، ومنْ أينَ أُصِبْتَ؛ لأَمْكَنَكَ تَدارُكُ ذلكَ، ولكنْ قدْ فَسَدَتِ الفطرةُ، وانْتَكَسَ القلبُ، وأَطْفَأَ الْهَوَى مَصابيحَ العِلْمِ والإيمانِ منهُ، فأَعْرَضْتَ عنْ مَنْ أَصْلُ بلائِكَ ومُصيبَتِكَ منهُ، وأَقْبَلْتَ تَشْكُو مَنْ كلُّ إحسانٍ دقيقٍ أوْ جَليلٍ وَصَلَ إليكَ فمِنْهُ، فإذا شَكَوْتَهُ إلى خَلْقِهِ؛ كُنْتَ كما قالَ بعضُ العارفينَ، وقدْ

---

(١) في (ع): السبب، وفي (ك) المتسبب، والصواب المثبت؛ لأن الجملة الثانية مسببة من الأولى. قال ابن منظور في «لسان العرب» (٤/ ١٣٢): «إن من حقيقة الشرط وجوابه أن يكون الثاني مسببا عن الأول».

(٢) في (ك) و(س): المعاصي. (٣) «ديوان عبد الله بن المبارك» (ص٩٢).

(٤) في (ك) و(س): من نفسك.

(٥) ورد في «ميزان الإعتدال» (٢/ ٢٩٧)، و«تاريخ الخلفاء» لعبد الرحمن السيوطي (١/ ٢٧٥)، ونسباه لصالح ابن عبد القدوس البصري المقتول بسبب الزندقة سنة (١٦٧هـ). انظر ترجمته: «تاريخ بغداد» لأحمد بن علي البغدادي (٩/ ٣٠٣) ت٤٨٤٤)، و«وفيات الأعيان» و«أنباء الزمان» (٢/ ٤٩٢).

(٦) البيت في «البيان والتبيين» (٢/ ٣٥٠)، و«عيون الأخبار» (١/ ٣٤)، (٢/ ١٤١).

رأى رَجُلًا يَشْكُو إلى آخَرَ ما أصابَهُ ونَزَلَ بِهِ: «يا هذا، تَشْكُو[١] مَنْ يَرْحَمُكَ إلى مَنْ لا يَرْحَمُكَ»[٢]؟!

وإذا عَرَتْكَ مُصيبةٌ فاصْبِرْ لها ... صَبْرَ الكريمِ فإنَّهُ بكَ أَرْحَمُ
وإذا شَكَوْتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّما ... تَشْكُو الرحيمَ إلى الَّذِي لا يَرْحَمُ[٣]

وإذا عَلِمَ العبدُ حقيقةَ الأمرِ، وعَرَفَ مِنْ أينَ أُتِيَ، ومِنْ أيِّ الطُّرُقِ أُغِيرَ على سَرْحِهِ، ومنْ أيِّ ثَغْرَةٍ سُرِقَ مَتاعُهُ وسُلِبَ؛ اسْتَحَى منْ نفْسِهِ - إنْ لمْ يَسْتَحِ من اللَّهِ - أنْ يَشْكُوَ أحدًا منْ خَلْقِهِ، أوْ يَتَظَلَّمَهم، أوْ يَرَى مُصيبتَهُ وآفَتَهُ[٤] من غيرِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: الآية ٣٠]، وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عِمران: الآية ١٦٥].

هذا، ومَنِ الْمُخَاطَبُ بهذا الْخِطَابِ؟.

وقالَ تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: الآية ٧٩]. فإنْ أَصْرَرْتَ على اتِّهامِ القَدَرِ، وقُلْتَ: فالسببُ الذي أُصِبْتُ بهِ[٥]، وأُتِيتُ منهُ، ودُهِيتُ منهُ قدْ سَبَقَ بهِ القَدَرُ وَالْحُكْمُ، وكانَ في الكتابِ مَسطورًا، فلا بُدَّ منهُ على الرَّغْمِ مِنِّي، وكيفَ لي[٦] أنْ أَنْفَكَّ منهُ وقدْ أُودِعَ الكتابَ الأَوَّلَ قبلَ بَرْيِ الْخَليقةِ، والكتابَ الثانيَ قبلَ خُروجِي إلى هذا العالَمِ، وأنا في ظُلُماتِ الأحشاءِ حينَ أُمِرَ الْمَلَكُ بِكَتْبِ الرزْقِ والأَجَلِ والسعادةِ والشقاوةِ؟!

فلوْ جَرَيْتُ إلى سَعادتِي ما جَرَيْتُ، حتَّى بَقِيَ[٧] بَيْنِي وبينَها شِبْرٌ؛ لَغَلَبَ عَلَيَّ الكتابُ، فأَدْرَكَتْنِي الشقاوةُ، فما حِيلةُ مَنْ قَلْبُهُ بيدِ غيرِهِ يُقَلِّبُهُ كيفَ يَشاءُ، ويَصْرِفُهُ كيفَ أرادَ؛ إنْ شاءَ أنْ يُقيمَهُ أقامَهُ، وإنْ شاءَ أنْ يُزيغَهُ أَزَاغَهُ؟! فهوَ الذي يَحُولُ بينَ الْمَرْءِ

---

(١) في (ك): أتشكو، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٩).

(٢) ينسب هذا القول للفضيل بن عياض بن بشر الخرساني، المتوفى سنة(١٨٦هـ). انظر ترجمته: في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢١ - (٤٤٨ت١١٤). وانظر هذا القول: في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٩).

(٣) ذكر المؤلف البيت الأخير في «الفوائد» (ص١٣١) ولم أقف على مصدر أخر حسب جهدي.

(٤) في (ع): وافية، والصواب المثبت.

(٥) في (س): منه.

(٦) في (س): إلي.

(٧) في (ك): ما بقي.

وقَلْبِهِ، وهوَ الذي يُثَبِّتُ قَلْبَ العبدِ إذا شاءَ، ويُزَلْزِلُهُ إذا شاءَ، فالقلبُ مَربوبٌ مَقهورٌ تحتَ سُلطانِهِ، لا يَتحرَّكُ إلاَّ بإذْنِهِ ومَشيئَتِهِ.

آياتٌ وأحاديثُ وآثارٌ في القَدَرِ

قالَ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ صَلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهِ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إلاَّ وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ»، ثمَّ قالَ: «**اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»(١)، وكانتْ(٢) أكثرُ يَمِينِهِ: «**لا، وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ**»(٣).

وقالَ بعضُ السَّلَفِ: «مَثَلُ القلبِ مَثَلُ رِيشةٍ في أرضٍ فَلاةٍ تُقَلِّبُها الرياحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ».

فما حِيلةُ قَلْبٍ هوَ بيدِ مُقَلِّبِهِ ومُصَرِّفِهِ؟ وهلْ لهُ مَشيئةٌ بدونِ مَشيئَتِهِ؟! كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩].

وروى عبدُ العزيزِ بنُ أبي حازمٍ(٤)، عنْ أبيهِ(٥)، . . . .

---

(١) رواه مسلم بمعناه (١٦/ ١٥٥) ح٢٦٥٤)، ابن حبان -كتاب الرقاق- باب الأدعية (٣/ ٢٢٢) ح٩٤٣)، وابن ماجه (١/ ٧٣) ح١٩٩)، والإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ١٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٠٦) ح١٩٢٦)، (١/ ٧٠٧) ح١٩٢٧)، (٤/ ٣٧٥) ح٧٩٠٧)، وفي «السنن الكبرى» للنسائي (٤/ ٤١٤) ح٧٧٣٨)، وفي «مسند الشاميين» للطبراني (١/ ٣٣٠) ح٥٨٢). والحديث صححه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة». انظر: (ص٩٨) - (١٠٤ح٢١٩ - ٢٣٣).

(٢) في (ك) و(س): وكان.

(٣) رواه البخاري (١١/ ٥٢١ح٦٦١٧فتح)، (١١/ ٥٣١ح٦٦٢٨فتح)، (١٣/ ٣٨٨) ح٧٣٩١فتح).

(٤) أبو تمام عبد العزيز بن أبي حازم سلمة بن دينار المحاربي المدني، عن أبيه وسهيل والعلاء، وعنه سعيد بن منصور وعلي بن حجر.

قال أحمد: «لم يكن يعرف بطلب الحديث، ولم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه». قال ابن معين: ثقة، صدوق، ليس به بأس. ووثقه النسائي، توفي وهو ساجد سنة (١٨٤هـ). انظر: «الكاشف» للذهبي (٢/ ١٧٤ت٣٤٢٨)، و«تهذيب التهذيب» (٦/ ٣٣٣ - ٣٣٤ت٦٤١).

(٥) سلمة بن دينار الإمام أبو حازم الأعرج التمار المدني القاص أحد الأعلام، مولى الأسود بن سفيان، روى عن سهل بن سعد وابن المسيب، وعنه مالك وأبو ضمرة. قال أحمد وأبو حاتم والعجلي: ثقة. وقال ابن خزيمة: ثقة، لم يكن في زمانه مثله. توفي في خلافة المنصور. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٦ - ١٠٣ت٢٤)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ١٤٣ - ١٤٤ت٢٤٧).

عنْ سهلِ بنِ سعدٍ(١) قالَ: تلا رسولُ اللَّهِ ﷺ قولَهُ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: الآية ٢٤]، وغلامٌ جالسٌ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَ: «بَلَى وَاللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ، إنَّ عَلَيْهَا لأَقْفَالَها، ولا(٢) يَفْتَحُها إلاَّ الذي أَقْفَلَها»، فلمَّا وَلِيَ عمرُ بنُ الْخَطَّابِ طَلَبَهُ لِيَسْتَعْمِلَهُ وقالَ: «لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إلاَّ مَنْ عَقَلَ»(٣).

وقالَ طَاوسٌ(٤): أَدْرَكْتُ ثَلاثَمِائَةٍ(٥) من أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ يقولونَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ»(٦).

وقالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ(٧): «أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَمَا كَلامُهُمْ إلاَّ: . . . .

---

(١) سهل بن سعد بن مالك بن خالد الساعدي الخزرجي الأنصاري، كان اسمه في الجاهلية حزنا، فسماه رسول الله ﷺ سهلا. روى عن رسول الله ﷺ وعمرو بن عنبسة، وعنه ابن عباس وابن حازم. توفي بالمدينة سنة (٩١هـ). انظر: «الإصابة»، ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٨٧ت٣٥٣٣)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣ت٤٣٠).

(٢) في (ع): فلا.

(٣) هذا الأثر بهذا السند ذكره الذهبي في «ميزان الإعتدال» بأقصر منه (٤/ ١٧٦)، وقال: «علي بن محمد المصري الواعظ، حدثنا المقدام، حدثنا ذؤيب بن عمامة، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم به»، وقال الذهبي: وذؤيب ضعيف. وضعفه ابن حجر بعد أن ساق هذه الرواية. انظر: «لسان الميزان» (٦/ ٨٤). ورواه ابن جرير في تفسيره «جامع البيان» (١٣/ الجزء ٢٦ ص٥٨) من رواية عروة بن الزبير.

(٤) طاوس بن كيسان اليماني الحميري الجندي، أبو عبد الرحمن، أصله من أبناء الفرس، قيل: اسمه ذكوان وطاوس لقب. روى عن العبادلة وأبي هريرة وعائشة وغيرهم، وعنه ابنه عبد الله ووهب بن منبه، من عباد أهل اليمن ومن سادات التابعين، فقيه عالم قدوة، توفي سنة (١٠٦هـ). انظر: «حلية الأولياء» (٤/ ٣ - ٢٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٨ - ٤٩)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٢٣٥)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٨ - ١٠ت١٤).

(٥) وهذا العدد فيه نظر، وقد ذكر أصحاب السير أنه قد أدرك من الصحابة خمسين صحابيا. انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ٢٣٥)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٦).

(٦) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٦١) ح ١٢٠٠)، وانظر: «صحيح مسلم» (١٦/ ١٥٥ح (٢٦٥٥نووي)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤١٧ح (٩١٣)، و«الشريعة» للآجري (٢/ ٨٧٠ح٤٤٩).

(٧) أيوب بن أبي تميمة: كيسان السختياني، أبو بكر البصري، من كبار الفقهاء العباد، ثقة ثبت من صغار التابعين. روى عن عمرو بن سلمة وحميد بن هلال، وعنه الأعمش وقتادة، توفي سنة (١٣١هـ). انظر: «حلية الأولياء» (٣ - (١٤)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٦/ ١٥) - (٢٦ت٧)، و«تهذيب التهذيب» =

إنْ قُضِيَ، إنْ قُدِّرَ»[١].

وقالَ عَطاءٌ[٢]، عن ابنِ عبَّاسٍ[٣] في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢٩]، قال: «كَتَبَ اللَّهُ أعمالَ بني آدمَ وما هم عاملونَ إلى يوم القِيامةِ»، قالَ: «والملائكةُ تَسْتَنْسِخُ ما يَعْمَلُ بنو آدمَ يومًا بيومٍ؛ فذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢٩]»[٤].

وفي الآيَةِ قَوْلٌ آخَرُ: «إنَّ اسْتِنْسَاخَ الملائكةِ هوَ كِتابتُهم لِمَا يَعْمَلُ بنو آدمَ بعدَ أنْ يَعملُوهُ»[٥].

وقدْ يُقالُ - وهوَ الأَظْهَرُ- «إنَّ الآيَةَ تَعُمُّ الأمرَيْنِ، فيَأْمُرُ اللَّهُ ملائكتَهُ [فتَنْسَخُ مِن][٦] أُمِّ الكتابِ أعمالَ بني آدمَ، ثمَّ يَكتبونَها عليهم إذا عَمِلُوها، فلا تَزيدُ على ما نَسَخُوهُ منْ أمِّ الكتابِ[٧] ذَرَّةً، ولا تَنْقُصُها».

وقالَ عليُّ بنُ أبي طَلْحَةَ[٨]، عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ

= لابن حجر (١/ ٣٩٧) - (٣٩٩ت٧٣٣).

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٧٤٧ح١٣٩٠) بمثله.

(٢) عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح أبوه، واسمه: أسلم الفهري، مولاهم، المكي. أحد كبار التابعين، كان عالما فقيها فاضلا ثقة ورعا كثير الحديث، أدرك كبار الصحابة. روى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما، وعنه مجاهد والزهري، توفي سنة (١١٤هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (٧/ ١٩٩ - (٢٠٣ت٣٨٤).

(٣) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي؛ حبر الأمة، كان يقال له: البحر والحبر وترجمان القرآن، وذلك أن النبي ﷺ قال في دعائه له: **«اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»**، ذهب بصره آخرا، كان مجلسه مشحونا بالطلبة في أنواع العلوم؛ في القرآن والتفسير والفقه والشعر والمغازي، كان الخلفاء يستشيرونه، صاحب حجة وبيان، ناظر الخوارج في زمن علي رضي الله عنه، ورجع منهم خلقا، توفي بالطائف سنة (٦٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣/ ٣٣١ - (٣٥٩ت٥١)، «الإصابة» لابن حجر، ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٣٢٢ - (٣٢٦ت٤٧٨١).

(٤) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥٣٩) ح٩٤٤) مثله. وبنحوه مختصرا رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء٢٥/ ص١٥٦).

(٥) انظر: «جامع البيان» للطبري (جزء٢٥/ ١٥٦).

(٦) في (ك) و(س): فتستنسخ عن.

(٧) في (س) زيادة: (من).

(٨) علي بن أبي طلحة الشامي، وهو مولى بني هاشم، أصله من الجزيرة، وانتقل إلى حمص، روى عن ابن عباس، ولم يسمع منه، وعنه بديل بن ميسرة، والحكم بن عتيبة، وداود بن أبي هند. سئل أبو داود عن =

﴿٤٩﴾ [القَمَر: الآية ٤٩]: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كُلَّهم بقَدَرٍ، وخلَقَ الخيرَ والشرَّ، فخيرُ الخيرِ السعادةُ، وشرُّ الشرِّ الشقاوةُ»(١).

وفي «صحيح مُسلِمٍ»(٢) عنْ أبي الأسودِ الدِّيَلِيِّ(٣) قالَ: قالَ لي عِمرَانُ بنُ حُصَيْنٍ(٤): «أرَأَيْتَ ما يَعملُ الناسُ اليومَ ويَكْدَحُونَ، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومَضَى عليهم مِنْ قَدَرٍ قدْ سَبَقَ، أوْ فيما يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أتاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وثَبَتَتْ بِهِ الْحُجَّةُ؟ قالَ: قُلْتُ: لا، بلْ فيما قُضِيَ عليهم ومَضَى، قالَ: أفَيَكُونُ ذلكَ ظُلْمًا؟ قالَ: ففزِعْتُ فَزَعًا شديدًا وقُلْتُ: إنَّهُ ليسَ شيءٌ إلاَّ خَلَقَهُ ومَلَكَهُ، ولا يُسأَلُ عمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسأَلُونَ!

فقالَ: سَدَّدَكَ اللَّهُ، إنَّما سأَلْتُكَ لأُحْرِزَ عَقْلَكَ؛ إنَّ رجلًا منْ مُزَيْنَةَ(٥) - أوْ جُهَيْنَةَ(٦)

= علي بن أبي طلحة فقال: هو - إن شاء - الله في الحديث مستقيم، ولكن له رأي سوء، وكان يرى السيف. وقال النسائي: ليس به بأس. ومات علي بن أبي طلحة سنة (١٤٣هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (١١/ ٤٢٨ت٦٣١٧)، «تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٣٩ - ٣٤١ت٥٦٧).

(١) «جامع البيان» للطبري(جزء٢٧ص١١١) بنحوه.

(٢) كتاب القدر - باب خلق الآدمي في بطن أمه؛ رزقه وأجله، شقي أو سعيد (١٦/ ١٥١) ح٢٦٥٠ نووي).

(٣) في (ك): الديلمي، والصواب المثبت كما في «صحيح مسلم» وباقي النسخ. وأبو الأسود هو: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن الدؤل بن بكر أبو الأسود، ويقال: الديلي، ويقال: الدؤلي؛ الذى نسب إليه علم النحو، ويقال: إنه أول من وضع علم النحو بأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ثقة فاضل، ولد في عهد النبي ﷺ، قاتل مع علي رضي الله عنه يوم الجمل، تولى قضاء البصرة، كان ذا دين وعقل وبيان وفهم وحزم، حدث عن عمر وعلي، وعنه أبو حرب ويحيي بن يعمر. توفي سنة (٦٩هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٨١ - ٨٦ت٢٨)، «البداية والنهاية» (٨/ ٣١٢)، «تقريب التهذيب» (٦١٩ت٧٩٤٠).

(٤) عمران بن حصين بن عبيد بن خلف أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر، وشهد عدة غزوات، وكان من سادات الصحابة، وكان ممن اعتزل الفتنة، استقضاه عبد الله بن عامر على البصرة، فحكم له بها، ثم استعفاه فأعفاه، ولم يزل بها حتى مات. قال الحسن وابن سيرين البصري: ما قدم البصرة راكب خير منه، وقد كانت الملائكة تسلم عليه، فلما اكتوى انقطع عنه سلامهم، ثم عادوا قبل موته بقليل، فكانوا يسلمون عليه رضي الله عنه وعن أبيه. مات بالبصرة سنة (٥٢هـ). انظر: «البداية والنهاية» (٨/ ٦٠)، «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٣/ ٢٧ت٦٠١٢).

(٥) مزينة: المزني نسبة لولد عثمان، وأوس، ابني عمرو بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر. المنسوب إلى أمه مزينة بنت كلب بن وبرة. انظر: «الأنساب» للسمعاني(٥/ ٢٧٧)، «اللباب في تهذيب الأنساب» للجزري(٣/ ٢٠٥).

(٦) جهينة: قبيلة من قضاعة، واسمه زيد بن ليث بن سود، نزلوا الكوفة، والبصرة، ينسب إليها خلق كثير =

- أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ ما يَعملُ الناسُ ويَتَكادَحونَ فيهِ، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومَضَى، أوْ فيما يَسْتَقْبِلونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بهِ نَبِيُّهِمْ؟ قالَ: «**فِيمَا قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى**»، فقالَ الرجلُ: فَفِيمَ العملُ؟ قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ خَلَقَهُ اللَّهُ لإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ فَسَيَسْتَعْمِلُهُ لَهَا**»، وتَصديقُ ذلكَ في كتابِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧ - ٨]»[(١)].

وقالَ مُجَاهِدٌ[(٢)] في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] قال: «عَلِمَ مِنْ إبليسَ الْمَعصيَةَ، وخَلَقَهُ لها»[(٣)]. وقالَ تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: الآية ٣٠]، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَدَأَ خَلْقَ ابنِ آدَمَ مُؤْمِنًا وكافرًا، [ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن: الآية ٢]، ثمَّ يُعيدُهم يومَ القِيامةِ كما بَدَأَ خَلْقَهُم [مُؤْمِنٌ وكافرٌ»][(٤)(٥)].

وقالَ سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[(٦)] عن ابنِ عبَّاسٍ، في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤]: قالَ: «يَحُولُ بَيْنَ المؤمنِ والكُفْرِ ومَعَاصِي اللَّهِ، ويَحُولُ بينَ

= من الصحابة والتابعين. انظر: «الأنساب» (٢/ ١٣٤)، و«اللباب في تهذيب الأنساب» (١/ ٣١٧ - ٣١٨).

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥٤٢)، (٥٤٣ح٩٥٠)، (٩٥٢) بنحوه.

(٢) مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم المكي أبو الحجاج، من الأئمة الثقات، وهو من رجال الكتب الستة من كبار أصحاب ابن عباس ﭬ وروى عنه وعن أبي هريرة، وعنه طاوس وعطاء. من كبار المفسرين، وإمام في العلم، توفي سنة (١٠٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٤٩ - (٤٥٧ت١٧٥)، و«تقريب التهذيب» (٥٢٠ت٦٤٨١).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٠٨)، (٤٢٦ح٨٩١)، (٩٣٨) بمثله؛ والطبري في «جامع البيان» (جزء١/ ص٢١٢) بمثله؛ ورواه ابن بطة في «الإبانة»، كتاب القدر (١/ ٢٩٣ح١٣١٢) بمثله، و(٢/ ١٧)، (٢٠١) ح١٣٩٢)، (١٧٣٤) بنحوه. ورواه اللالكائي المصدر السابق (٣/ ٥٤٦ ح٩٥٩) بمثله.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (ك).

(٥) رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء٨/ ص١٥٦) بنحوه.

(٦) أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولاهم، الكوفي. روى عن ابن عباس وابن الزبير، وعنه الأعمش وأبو إسحاق السبيعي، من أئمة السلف، ومن العلماء الثقات، ومن الحفاظ الصالحين الفضلاء، كان عابدًا ورعًا، قتله الحجاج ظلمًا سنة (٩٥هـ) وعمره (٤٧)، وقيل: (٤٩) سنة. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٢١ - (٣٤٣ت١١٦)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ١١ - ١٤ت١٤).

الكافرِ وبينَ الإيمانِ وطاعةِ اللَّهِ»(١).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ ومالِكٌ(٢) وجماعةٌ من السلَفِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، قالُوا: «خَلَقَ أهلَ الرحمةِ للرحمةِ، وأهلَ الاختلافِ للاختلافِ»(٣).

وقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: الآية ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٧] أيْ: نصيبُهُم مِمَّا كَتَبَ لَهُمْ(٤)، وقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ [الشعراء: الآية ٢٠٠](٥)، قالَ الحسَنُ(٦) وغيرُهُ: «الشِّرْكُ وَالتَّكْذِيبُ»(٧).

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٠٥ح٨٨٠)، و(٢/ ٤٠٨ح٨٨٨) بمثله موقوفا على سعيد بن جبير؛ والطبري في «جامع البيان» (جزء٩/ ص٢١٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ١٥٩) ح١٦٢٠).

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري، أبو عبد الله المدني، الإمام شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة، روى عن نافع والزهري وخلق، وعنه الشافعي وأشهب بن عبد العزيز وخلق، توفي بالمدينة سنة (١٩٧هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٨ - (١٣٥ت١٠)، «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٥ - (٩ت٣).

(٣) رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء١٢/ ص١٤٣) بنحوه؛ واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥٤٨)، (٥٤٩ح٩٦٦)، (٩٦٧)، (٩٦٨) بنحوه.

(٤) «جامع البيان للطبري» (جزء٨/ ص١٧١).

(٥) في (ك) زيادة

(٦) الحسن بن يسار البصري أبو سعيد، كانت أمه مولاة لأم سلمة، من كبار التابعين، ولد بالمدينة سنة (٢١هـ)، وسكن البصرة، روى عن عمران بن حصين والنعمان بن بشير، وعنه حميد الطويل ومالك بن دينار، وكان عالما فقيها مفسرا محدثا زاهدا تقيا ورعا، كان يدخل على الولاة ويأمرهم وينهاهم، توفي سنة (١١٠هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٦٣ - (٥٨٨ت٢٢٣)، «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٦٣ - (٢٧١ت٤٨٨).

(٧) «جامع البيان للطبري» (جزء١٩/ ص١١٥)، و«الإبانة» لابن بطة - كتاب القدر (١/ ٢٧٩) ح١٣٠٠)، (٢/ ١٩١ - ١٩٢ح١٧٠٠) قال الحسن: الشرك، وقال ابن جرير: التكذيب والكفر. وانظر قول الحسن في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨١).

وقالَ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧﴾ [المطفّفين: الآية ٧].

قالَ محمَّدُ بنُ كَعْبٍ القُرَظيُّ[1]: «رَقَمَ اللَّهُ ﷻ كتابَ الفُجَّارِ في أسفلِ الأرضِ، فهمْ عاملونَ بما قدْ رُقِمَ عليهم في ذلكَ الكتابِ، ورَقَمَ كتابَ الأبرارِ فجَعَلَهُ في عِلِّيِّينَ، فَهُمْ يُؤْتَى بهم حتَّى يَعْمَلُوا بما قدْ رُقِمَ عليهم في ذلكَ الكتابِ»[2].

وقالَ ابنُ عبَّاس: «﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: الآية ١] بِمَا جَرَى من القَلَمِ في اللَّوْحِ المحفوظِ»[3].

وقالَ مُجاهِدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾ [يس: الآية ٩] قالَ: «عن الْحَقِّ»[4]، وفي قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: الآية ٢٥] قالَ: «كَالْجُعْبَةِ[5] فيها السِّهَامُ»[6].

وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] قالَ: «أَضَلَّهُ في سابِقِ عِلْمِهِ»[7]. وقالَ في قولِهِ ﷻ حكايَةً عنْ عَدُوِّهِ إبليسَ: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الأعراف: الآية ١٦] قالَ: «أَضْلَلْتَنِي»[8]. وقالَ في قولِهِ: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ

---

(١) محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة القرظي الكوفي المولد والمنشأ، ثم المدني. روى عن أبي هريرة ومعاوية وغيرهما من كبار الصحابة، وعنه يزيد بن الهاد وابن عجلان. كبير القدر ثقة موصوف بالعلم والصلاح والورع والعبادة، توفي سنة (١٢٠هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٦٥ - ٦٨ت٢٣)، «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٢٠ - ٤٢٢ت٦٨٩).

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥٥٦) ح٩٨٥ بمثله.

(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٥٦) ح٩٨٦ بمثله.

(٤) رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء٢٢/ ص١٥٢) بمثله؛ واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٥٨) ح٩٨٨ بمثله.

(٥) الجعبة هي الوعاء الذي يوضع فيه السهام. انظر: «لسان العرب» - باب الجيم (٢/ ٢٩١) و«القاموس المحيط» - باب الباء - فصل الجيم (ص٨٦).

(٦) رواه اللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٥٨) ح٩٨٩ بمثله.

(٧) رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء٢٥/ ص١٥١) بمثله؛ واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٦ح١٠٠٤) بمثله.

(٨) رواه الطبري، المصدر السابق (جزء٨/ ص١٣٣) بمثله؛ واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٥) ح١٠٠٢) بمثله.

﴿١٦٣﴾ [الصَّافَّاتُ: ١٦٢ - ١٦٣]، قالَ: «مَنْ قَضَيْتُ لهُ أنَّهُ صَالِ الْجَحِيمِ»[١].

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ[٢]: «لَوْ أرادَ اللَّهُ أنْ لا يُعْصَى؛ لَمْ يَخْلُقْ إبليسَ، وقدْ فَصَّلَ لَكُمْ وبيَّنَ لَكُمْ: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٦٢] إلاَّ مَنْ قُدِّرَ لهُ أنْ يَصْلَى الجحيمَ»[٣].

وقالَ وُهَيْبُ بنُ خالدٍ[٤]: نا خالدٌ[٥] قالَ: قُلْتُ للحسَنِ: «أَلِهَذِهِ خُلِقَ آدمُ - يعني للسَّمَاءِ - أمْ للأرضِ؟ فقالَ: لا، بلْ للأرضِ. قال: قُلْتُ: أرأيْتَ لو اعْتَصَمَ من الخطيئةِ فَلَمْ يَعْمَلْها أكانَ تُرِكَ في الْجَنَّةِ؟ قالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كانَ لهُ بُدٌّ منْ أنْ يَعْمَلَهَا»[٦].

وقالَ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: الآية ٧٣][٧]. وقالَ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ

---

(١) رواه الطبري، المصدر السابق (جزء٢٣/ ص١٠٩) بمثله بأطول منه؛ واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٦) ح١٠٠٤) بمثله بأطول منه.

(٢) هو الإمام المجتهد الزاهد والخليفة العادل: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، ويعد الخليفة الراشد الخامس؛ لعدله وحسن سياسته. روى عن أنس والسائب بن يزيد، وعنه الزهري وحميد الطويل وخلق سواهما، توفي سنة (١٠١هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٤ - (١٤٨ت٤٨)، «البداية والنهاية» (٩/ ١٩٢ - (١٩٦).

(٣) رواه ابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٦٦) ح١٤٧٦) بمثله؛ واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٦ح١٠٠٥) بمثله.

(٤) أبو بكر وهيب بن خالد بن عجلان الباهلي، روى عن حميد الطويل وخالد الحذاء، وعنه ابن المبارك وسهل ابن بكار. قال ابن المديني: كان من أبصر أصحابه بالحديث والرجال، وقال العجلي: ثقة ثبت، وقال ابن سعد: ثقة ثبت الحديث، توفي سنة (١٦٥هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٢٣ - (٢٢٦ت٤٠)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ١٦٩ - (١٧٠ت٢٩٠).

(٥) أبو المنازل خالد بن مهران البصري الحذاء، روى عن أنس والحسن، وعنه الثوري وشعبة. قال الأثرم عن أحمد: ثبت، وعن ابن معين والنسائي: ثقة، وأخذ عليه دخوله في عمل السلطان، توفي سنة (١٤٢هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٠ - (١٩٣)، «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٢ - (١٢٢ت٢٢٤).

(٦) رواه أبو داود في «السنن» (٤/ ٢٠٤) ح٤٦١٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٢٨ح٩٤٥)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٨٤)، (٨٨٥) ح٤٦٦)، (٤٦٧)، وابن بطة، المصدر السابق (٢/ ١٨٦) ح١٦٨٣)، جميعهم بنحوه؛ واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٦) ح١٠٠٦) بمثله بأطول منه.

(٧) أي: أئمة يقتدى بهم في أمر الله، ويقومون بما أمرهم الله به من هداية الناس إلى عبادة الله. انظر: «جامع البيان للطبري» (جزء١٧/ ص٤٩).

﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: الآية ٤١][(١)]، وقال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أيْ: «أئِمَّةً يُهْتَدَى بنا، ولا تَجْعَلْنَا أَئِمَّةً ضالِّينَ يَدْعُونَ إلى النَّارِ»[(٢)]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨][(٣)]، وقالَ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠][(٤)]، وقالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١][(٥)].

وقالَ زيدُ بنُ أَسْلَمَ[(٦)]: «واللَّهِ ما قالَت القَدَرِيَّةُ[(٧)] كما قالَ اللَّهُ ﷻ، ولا كما قالَ

---

(١) أي: فرعون وقومه أئمة يدعون إلى أعمال أهل النار، وهم أئمةً لأهل العتو والكفر والإعراض. انظر المصدر السابق (جزء ٢٠/ ص٧٩).

(٢) رواه اللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٧٦) بنحوه.

(٣) قال ابن عباس: «لو ردوا لم يقدروا على الهدى»، اللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٨) ح١٠١٠).

(٤) قال مجاهد: «نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة». «جامع البيان للطبري» (جزء٧/ ٣١٤)، و انظر: «الإبانة» لابن بطة، كتاب القدر (٢/ ٢٠٣)، ح١٧٤١) وقال ابن عباس: «لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة». «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٣/ ٥٦٩).

(٥) كذلك كل من أعرض عن كلام رب العالمين، وخالف هدي سيد المرسلين، وتنكب سبيل المؤمنين من القدرية وغيرهم ممن كتب الله له الشقاء، فهم لا يسمعون، ولو سمعوا ما استجابوا، بل هم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وانظر: «جامع البيان للطبري» (جزء٨/ ص٢)، و«الإبانة» المصدر السابق (١/ ٢٨٢) واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٦٩) ح١٠١١).

(٦) أبو عبد الله زيد بن أسلم العدوي، والده أسلم مولى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. روى عن عبد الله بن عمر وجابر ابن عبد الله، وعنه مالك وسفيان الثوري. قال الذهبي: «كان من العلماء العاملين»، توفي سنة (١٣٦هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣١٦ - ٣١٧ت١٥٣)، «تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٩٥ - ٣٩٧ت٧٢٨).

(٧) القدرية: هم القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وهم منقسمون إلى فرقتين:
الفرقة الأولى: تنكر علم الله السابق، وهم الذين كَفَّرهم السلف، ومن أبرزهم: معبد الجهني، وغيلان الدمشقي. والفرقة الثانية: انقسمت إلى:
أ - فرقة قالت: إن الإنسان يقدر أفعاله، وهو خالقها ومنشئها، وهم المعتزلة.
ب - فرقة قالت: بأن الإنسان مجبور على أفعاله فهو كالريشة في مهب الريح، وهم القدرية الجبرية.
ج - وفرقة قالت: بالكسب وهم الأشاعرة ومن نحى نحوهم. انظر: «الفرق بين الفرق» للبغدادي (ص٩٤) و«الملل والنحل» (١/ ٤١)، و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني(١/ ٢٩٧ - ٣٠٢)، و«القضاء والقدر» لعبد الرحمن المحمود (١٦٨) وما بعدها؛ و«القدرية والمرجئة» لناصر العقل(ص١٩) وما بعدها.

رُسُلُهُ، ولا كما قالَ أهلُ الْجَنَّةِ، ولا كما قالَ أهلُ النارِ، ولا كما قالَ أَخُوهُمْ إبليسُ.

قالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]، وقالَت الملائكةُ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: الآية ٣٢].

وقالَ شُعَيْبٌ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٨٩].

وقالَ أهلُ الجنَّةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣].

وقالَ أهلُ النارِ: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٦]، وقالَ أَخُوهُمْ إِبْلِيسُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحِجر: الآية ٣٩][1].

وقالَ مُجاهِدٌ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ١٣]، قالَ: «مَكتوبٌ في عُنُقِهِ: شَقِيٌّ أَوْ سعيدٌ»[2].

وقالَ ابنُ عَبَّاسٍ في قولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: الآية ٤١]، يقولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ ضَلالتَهُ لمْ تُغْنِ عَنْهُ شيئًا»[3].

وذَكَرَ الطَّبَرِيُّ[4] وغيرُهُ[5] . . . .

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة» (٢/ ٧٢٨) ح٣٢٠ بنحوه؛ وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (١/ ٢٨١)، (٢٨٢) ح١٣٠٣ بنحوه، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥٦٩) ح١٠١٢ بنحوه.

(٢) رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء ١٥/ ص٥١) بنحوه، وابن بطة، المصدر السابق (٢/ ٢٠٤) ح١٧٤٣ بنحوه، واللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٧٠)، (٥٧١) ح١٠١٤ بنحوه.

(٣) رواه اللالكائي، المصدر السابق (٣/ ٥٧١) ح١٠١٥ بمثله.

(٤) هو: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، سمع من عيسى بن علي بن الوزير والعلاء ابن محمد، وعنه أبو بكر الخطيب، ومكي الكرجي، توفي سنة (٤١٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤١٩ - ٤٢٠ت٢٧٤)، وانظر ما ذكره في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٥٧٢) ح١٠١٧ بمثله بأطول منه.

(٥) كأحمد في «المسند» (٢/ ١٦٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٥٤ - ١٥٥) ح٣٤٨)، والترمذي في «القدر» (٤/ ٤٤٩) ح٢١٤١) وقال: «حسن غريب صحيح»، والطبري في «جامع البيان» (جزء (٢٥) ص٩)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٧٥٢ - ٧٥٥) ح (٣٣٣، ٣٣٤)، وأبي نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٨ - ١٦٩) جميعهم من طريق أبي قبيل عن شفي بنحو رواية الطبري، وقد حسنه الحافظ ابن حجر كما =

مِنْ حديثِ سُوَيْدِ بنِ سعيدٍ[١]، عنْ سِوَارِ بنِ مُصْعَبٍ[٢]، عنْ أبي حمزةَ[٣]، عنْ مِقْسَمٍ[٤]، عن ابنِ عبَّاسٍ: صَعِدَ النبيُّ ﷺ الْمِنْبَرَ، فحَمِدَ اللَّهَ وأَثْنَى عليهِ، ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ اليُمْنَى فقالَ: «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لأَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، فَجمِلَ[٥] أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، لا يُنْقَصُ مِنْهُمْ وَلا يُزَادُ فِيهِمْ، فَرَغَ رَبُّكُمْ، وَقَدْ يُسْلَكُ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ طَرِيقَ الشَّقَاءِ حَتَّى يُقَالَ: كَأَنَّهُمْ هُمْ، بَلْ هُمْ هُمْ، مَا أَشْبَهَهَمْ بِهِمْ، بَلْ هُمْ هُمْ، فَيَرُدُّهُمْ مَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ السَّعَادَةِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا قَبْلَ مَوْتِهِ بِفَوَاقِ[٦] نَاقَةٍ، وَقَدْ يُسْلَكُ بِأَهْلِ الشَّقَاءِ طَرِيقَ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ: كَأَنَّهُمْ هُمْ، بَلْ هُمْ هُمْ، مَا أَشْبَهَهُمْ بِهِمْ، بَلْ هُمْ هُمْ، فَيَرُدُّهُمْ مَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا وَلَوْ قَبْلَ مَوْتِهِ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ، فَصَاحِبُ الْجَنَّةِ مَخْتُومٌ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَصَاحِبُ النَّارِ مَخْتُومٌ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ بَعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» ثمَّ قالَ رسولُ اللَّهِ: «**الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا**».

وقالَ عليُّ بنُ أبي طَلحةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ - في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البَقَرَة: الآية ٦]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]، وقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟

= في «الفتح» (٦/ ٣٣٦)، والألباني في «ظلال الجنة» (ص١٥٥)، و«صحيح سنن الترمذي» أبواب القدر (٢/ ٢٢٥ - ٢٢٦) ح١٧٤٠).

(١) أبو محمد: سويد بن سعيد بن سهل الهروي الأصل، صدوق في نفسه، إلا أنه عمي، فصار يتلقن ما ليس من حديثه. «تقريب التهذيب» لابن حجر (ص٢٦٠ت٢٦٩٠).

(٢) أبو عبد الله: سوار بن مصعب الهمداني الكوفي، الأعمى المؤذن. قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال أبو داود: ليس بثقة. «ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ٢٤٦ت٣٦١٦).

(٣) مجهول.

(٤) أبو القاسم مقسم بن بجرة، مولى عبد الله بن الحارث، ويقال: مولى ابن عباس، صدوق وكان يرسل. «تقريب التهذيب» لابن حجر (ص٥٤٥ت٦٨٧٣).

(٥) أي: أحصي أولهم مع أخرهم وجمعهم. انظر: «النهاية في غريب الحديث» للجزري(١/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

(٦) الفواق والفواق: ما بين الحلبتين من الوقت. «لسان العرب»، باب الفاء (١٠/ ٣٥١). وانظر: «القاموس» - باب القاف، فصل الفاء (١١٨٨).

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١١]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يُونس: الآية ٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: الآية ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: الآية ٢٨]، ونحوِ هذا من القرآنِ وإنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يَحْرِصُ أنْ يُؤْمِنَ جميعُ الناسِ، ويُتابِعُوهُ على الْهُدَى، فأَخْبَرَهُ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ لا يُؤْمِنُ إلاَّ مَنْ سَبَقَ لهُ من اللَّهِ السعادةُ في الذِّكْرِ الأوَّلِ[(١)].

ثمَّ قالَ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣]، ويقول: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٤]، ثم قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فَاطِر: الآية ٢]، ويقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨][(٢)].

وفي «صحيحِ مسلِمٍ»[(٣)] عنْ طَاوسٍ: أَدْرَكْتُ ناسًا منْ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ يقولونَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ».

وسَمِعْتُ عبدَ اللَّهِ بنَ عُمَرَ[(٤)] يقولُ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»**.

وفي «صحيحِ مسلِمٍ»[(٥)] أيضًا، عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو[(٦)] قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ

---

(١) رواه الطبري في «جامع البيان» (جزء (١) ص١٠٩) بمثله بأطول منه.

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٥٧٨ - ٥٧٩) ح (١٠٢٤) بنحوه بأطول منه.

(٣) كتاب القدر، باب: كل شيء بقدر (١٦/ ١٥٥ - ١٥٦) ح٢٦٥٥) نووي) بمثله.

(٤) هو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، من المكثرين عن النبي ﷺ، وروى عن أبي بكر وعمر، وعنه جابر وابن عباس وابن المسيب، عرض على النبي ﷺ يوم بدر، ثم أحد ولم يجزه؛ لصغر سنه، وأجازه يوم الخندق، كان تقيا زاهدا ورعا عابدا حريصا على اقتفاء أثر النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، توفي سنة (٧٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٠٣ - (٢٣٩ت٤٥)، «الإصابة» لابن حجر، ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٣٣٨ - ٣٤١ت٤٨٣٤).

(٥) كتاب القدر - باب: كل شيء بقدر (١٦/ ١٥٤ - ١٥٥) ح٢٦٥٣) بمثله.

(٦) هو الصحابي الجليل: أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، روى عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، وعنه جبير بن نفير وسعيد بن المسيب، كان من علماء الصحابة وعبادهم، وكان =

يقولُ: «**كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**».

وفي «صحيحه»[(١)] أيضًا، عنْ أبي هُرَيْرَةَ[(٢)] قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، فَاحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

وفي «صحيحه»[(٣)] أيضًا عنْ أبي هُريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ النَّذْرَ لا يُقَدِّرُ لابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ قَدَّرَهُ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ يُوَافِقُ الْقَدَرَ، فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ**».

وفي حديثِ جِبريلَ وسؤالِهِ للنبيِّ ﷺ عن الإيمانِ قالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْقَدَرِ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(٤)].

وفي «الصحيحَيْنِ»[(٥)] حديثُ ابنِ مسعودٍ[(٦)] في التَّخْلِيقِ، وفيهِ: «**فَوَالَّذِي لا**

= واسع العلم، مجتهدا في العبادة، توفي سنة (٦٥هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٧٩ - (٩٤ت١٧)، «البداية والنهاية» (٨/ ٢٦٣ - ٢٦٤).

(١) كتاب القدر - باب: كل شيء بقدر (١٦/ ١٦٤ح (٢٦٦٤) بنحوه.

(٢) هو الصحابي الجليل: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، حافظ الصحابة، من المكثرين للرواية عن النبي ﷺ لملازمته له، وكان من أصحاب الصفة. روى عنه خلائق؛ منهم ابن عباس وجابر، سكن المدينة، وتوفي بها سنة (٥٩هـ).

انظر: «البداية والنهاية» (٨/ ١٠٣ - (١١٥)، «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٤/ ٢٠٠) - (٢٠٨ت١١٩٠)، «تقريب التهذيب» (١٢/ ٢٦٢ - ٢٦٧ت١٢١٦).

(٣) كتاب النذر - باب النهي عن النذر (١١/ ٢٦٥) ح٧) بنحوه.

(٤) جزء من حديث طويل رواه مسلم في «صحيحه» (٨/ ١٢٦ - ١٣٣) في أثنائه بنحوه.

(٥) البخاري - كتاب القدر (١١/ ٤٨٦) ح٦٥٩٤فتح) ومسلم(١٦/ ١٤٥) ح (٢٦٤٣) نووي)، واللفظ لمسلم.

(٦) هو الصحابي الجليل: أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، روى عن النبي ﷺ وعمر وسعد بن معاذ، وعنه ابن عمر وجابر وغيرهما، وعنه في القراءة أبو عبد الرحمن السلمي، من السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بالقرآن بمكة، وهاجر الهجرتين، شهد المشاهد مع النبي ﷺ، وجهه عمر رضي الله عنه إلى الكوفة؛ ليعلم الناس، كان من أعلم الصحابة بالتفسير، توفي سنة (٣٢هـ). انظر: =

إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا».

ذَكَرَ الطبريُّ عن الحسَنِ بنِ عليٍّ الطُّوسيِّ(١)، نا مُحَمَّدُ بنُ يزيدَ الأَسْفَاطِيُّ البَصَرِيُّ(٢) مُحَدِّثُ البَصَرَةِ قالَ: رأيتُ النبيَّ ﷺ في النَّوْمِ، فَقُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، حديثُ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ: «حَدَّثَنِي الصَّادِقُ الْمَصدوقُ»، أَعْنِي حديثَ القَدَرِ فقالَ: «إِيْ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ حَدَّثْتُ بِهِ، رَحِمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ حَيْثُ حَدَّثَ بِهِ، ورَحِمَ اللَّهُ زَيْدَ بْنَ وَهْبٍ(٣) حَيْثُ حَدَّثَ بِهِ، وَرَحِمَ اللَّهُ الأَعْمَشَ(٤) حَيْثُ يُحَدِّثُ بِهِ، وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ حَدَّثَ بِهِ قَبْلَ الأَعْمَشِ، وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ يُحَدِّثُ بِهِ بَعْدَ الأَعْمَشِ»(٥).

وفي «صحيحِ مسلِمٍ»(٦) عن ابنِ مسعودٍ: «الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ».

وقدْ رُوِيَ حديثُ تَقديرِ السعادةِ والشقاوَةِ في بَطْنِ الأمِّ مِنْ حديثِ عبدِاللَّه بِنِ

= «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٦١ - ٥٠٠ت٨٨)، «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٣٦٠ - ٣٦٢ت٤٩٥٥).

(١) الحسن بن علي بن نصر الطوسي، حافظ يحمل عن بندار ومحمد بن رافع، قال الحاكم: تكلموا في روايته لكتاب النسب عن الزبير بن بكار. «ميزان الاعتدال» (١/ ٥٠٩ت١٩٠٩).

(٢) محمد بن يزيد بن عبد الملك الأسفاطي البصري الأعور، صدوق من الحادية عشرة. «تقريب التهذيب» (ص٥١٤ت٦٤٠٠).

(٣) زيد بن وهب الجهني، من أجلة التابعين وثقاتهم، روى عن عمر وعثمان وغيرهما، وعنه خلق، هاجر إلى النبي ﷺ، فقبض وزيد في الطريق، توفي بعد الثمانين. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٠٧ت٣٠١٣)، «تقريب التهذيب» (ص٢٢٥ت٢١٥٩).

(٤) أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي الكوفي الأعمش، من صغار التابعين، إمام ثقة حافظ، لكنه يدلس. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٢٤ت٣٥١٧)، «تقريب التهذيب» (ص٢٥٤ت٢٦١٥).

(٥) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٥٩١ - ٥٩٢)ح(١٠٤٣) بنحوه. ومثل هذه الأخبار لا تؤخذ عن طريق المنامات، وفي الأحاديث الثابتة غنية عنها.

(٦) كتاب القدر (١٦/ ١٤٨)، ح (٢٦٤٥ نووي) بمثله بأطول منه في أوله.

مسعود(١)، وأَنَسِ بنِ مالِكٍ(٢)، وعبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ(٣)، وعائشةَ أمِّ المؤمنينَ(٤)، وحُذيفةَ بنِ أُسَيْدٍ(٥)، وأبي هُريرةَ(٦).

وقالَ أبو الْحَسَنِ عليُّ بنُ عُبيدٍ الحافظُ(٧): سَمِعْتُ أبا عبدِ اللَّهِ بنَ أبي خَيْثَمَةَ(٨) يقولُ: سَمِعْتُ عمرَو بنَ عليٍّ الْفَلَّاسَ(٩) يَقولُ: انْحَدَرْتُ مِنْ سُرَّ مَنْ رَأَى(١٠) إلى بَغدادَ في حاجةٍ لي، فبَيْنَا أنا أَمْشِي في بعضِ الطريقِ إذا بِجُمْجُمَةٍ قدْ نَخِرَتْ فأَخَذْتُها، فإذا

(١) في «صحيح البخاري» (١١/٤٨٦) ح٦٥٩٤فتح)، و«صحيح مسلم» (١٧/١٤٥) ح٢٦٤٣).

(٢) في «صحيح البخاري» (٦/٤١٩ح (٣٣٣٣فتح)، ومسلم (١٧/١٤٩) ح (٢٦٤٣).

(٣) في «جامع البيان» للطبري (جزء١٢ ص١١٧)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٠٠ح١٠٦٧).

(٤) في «الشريعة» للآجري (٢/ ٧٨٤ - ٧٨٥) ح٣٦٥)، و«الإبانة» كتاب القدر، لابن بطة (٢/ ٣١ - ٣٢) ح١٤١٤) واللالكائي، المصدر السابق (٤/ ٥٩٥) ح١٠٥٣).

(٥) في «صحيح مسلم»، كتاب القدر، باب خلق الآدمي في بطن أمه (١٦/١٤٧) ح٢٦٤٤).

(٦) في «الشريعة» للآجري (٢/ ٧٨٥) ح٣٦٦)، و«الإبانة» كتاب القدر، لابن بطة (٢/ ٣٠ - ٣١) ح١٤١٢، ١٤١٣)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٤/٥٩٦) ح١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧).

(٧) ينسب إلى جده وهو: علي بن محمد بن عبيد بن عبد الله الحافظ، حدث عن الترمذي وأبي قلابة، وعنه الدارقطني وابن جميع، كان ثقة حافظا. توفي سنة(٣٣٠هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (١٢/٧٣ت٦٤٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/٢٨٦ - ٢٨٧ت١٢٩).

(٨) محمد بن أحمد بن زهير بن حرب، له من الكتب «كتاب الزكاة» و«أبواب الأموال» بعلله من الحديث و«كتاب التاريخ». انظر: «الفهرست» لابن النديم (ص٢٨٢).

(٩) أبو حفص عمرو بن علي بن كنيز الباهلي البصري الفلاس، حدث عن مرحوم العطار، وسفيان بن عيينة وغيرهما، وعنه الأئمة الستة وأبو زرعة وأبو حاتم وغيرهما. قال النسائي: ثقة حافظ، وقال أبو حاتم: بصري صدوق. توفي سنة (٢٤٩هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٧٠ - ٤٧٢ت١٢١)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٨٠ - ٨٢ت١٢٠).

(١٠) سر من رأى: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة، تسمى الآن سامراء، تبعد عن بغداد حوالي (١٠٠كم) شمالا. فيها أطلال سر من رأى العباسية، وفيها لغات: سامراء (ممدود)، وسامرا (مقصور)، وسر منرأ (مهموز الآخر)، وسر من را (مقصور الآخر) وساء من راى. انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٣/ ١٧٣)، «الموسوعةالعربية» لمحمد غربال (١/ ٩٤٨).

على الْجَبْهَةِ[١] مكتوبٌ: «شَقِيٌّ»، والياءُ مَكسورةٌ إلى خَلْفٍ»[٢].

وهؤلاءِ كُلُّهم أَئِمَّةٌ حُفَّاظٌ. ذَكَرَهُ الطبريُّ في «السُّنَّة»[٣].

وفي «الصحيحَيْنِ»[٤] حديثُ عَلِيٍّ عن النبيِّ ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ كُتِبَ مِقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمِقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»**، فَقَالُوا: يا رسولَ اللَّهِ، أَفَلا نَتَّكِلُ على كِتابِنا ونَدَعُ العملَ؟ فقالَ: **«اعْمَلُوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»** ثمَّ قرأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [اللَّيلُ: ٥ - ١٠].

وفي «الصحيحَيْنِ»[٥] عنْ عِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ: أَعُلِمَ أهلُ الْجَنَّةِ منْ أهلِ النارِ؟ قالَ: **«نَعَمْ»**، قيلَ لهُ: فَفِيمَ يَعْمَلُ العاملونَ؟ قالَ: **«نَعَمْ، كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»**.

وفي «صحيحِ مسلِمٍ»[٦] عنْ عائشةَ قالَتْ: «دُعِيَ رسولُ اللَّه ﷺ إلى جَنازةِ غُلامٍ من الأنصارِ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، طُوبَى لهذا؛ عُصْفُورٌ منْ عَصافيرِ الْجَنَّةِ لمْ يُدْرِكِ السُّوءَ ولمْ يَعْمَلْهُ، قالَ: **«أَوَغَيْرَ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلابِ آبَائِهِمْ»**.

وفي «الصحيحَيْنِ»[٧] عن ابنِ عَبَّاسٍ، عنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»**.

---

(١) في (ع): الجمجمة.

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٥٩٨) ح١٠٦١) بمثله.

(٣) أي: هذا الأثر.

(٤) رواه البخاري (٣/ ٢٦٧) ح١٣٦٢) فتح)، ومسلم (١٦/ ١٤٩ح٢٦٤٧) نووي)، كلاهما بنحوه بأطول منه.

(٥) رواه البخاري (١١/ ٤٩٩ - ٥٠٠ح٦٥٩٦فتح) ومسلم (١٦/ ١٥١) ح٢٦٤٩نووي)، كلاهما بنحوه.

(٦) كتاب القدر - باب: كل مولود يولد على الفطرة (١٦/ ١٦١ح٣١نووي).

(٧) البخاري (٨/ ٣٦٢)، (٤٦٢ح٦٢٧٤فتح) بمعناه، ومسلم (١٦/ ١٦١) ح٢٦٦١).

وفي «مُسْنَدِ الإمامِ أحمدَ»[١] عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ**».

وفي لَفْظٍ: «**فَجَعَلَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَخَذَ مِنْ نُورِهِ فَأَلْقَاهُ عَلَى تِلْكَ الظُّلْمَةِ؛ فَمَنْ أَصَابَهُ النُّورُ؛ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ؛ ضَلَّ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ**»[٢].

وذَكَرَ راشدُ بنُ سعدٍ[٣] عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ[٤] قتادةَ السُّلَمِيِّ[٥]، سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَأَخْرَجَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلا أُبَالِي، وَهؤُلاءِ فِي النَّارِ وَلا أُبَالِي**»، قَالَ قِيلَ: عَلَى مَا نَعْمَلُ؟ قالَ: «**عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**»[٦].

وذَكَرَ أبو دَاوُدَ في كِتابِ «الْقَدَرِ»[٧]، عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ أنَّهُ مَرَّ على رَجُلٍ فقالُوا: هذا هذا... ونالُوا منهُ، فقالَ عبدُ اللَّهِ: «أَرَأَيْتُمْ لوْ قَطَعْتُمْ يَدَهُ، أَكُنْتُم تَستطيعونَ أنْ تَخْلُقُوا لهُ يَدًا؟ قالُوا: لا، قالَ: فلوْ قَطَعْتُم رِجْلَهُ، أَكُنْتُم تَستطيعونَ أن تَخْلُقوا لهُ رِجلًا؟ قالوا: لا، قال: فلوْ قُطِعَ رأسُهُ، كُنْتُمْ تَستطيعونَ أنْ تَخْلُقُوا لهُ رأسًا؟ قالوا: لا، قالَ: فَكَمَا لا تَستطيعونَ أنْ تُغَيِّرُوا خَلْقَهُ، لا تَستطيعونَ أنْ تُغَيِّرُوا خُلُقَهُ؛ إنَّ

---

(١) (٢/ ١٧٧، ١٩٧) بنحوه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٣، ١٩٤): «رواه أحمد بإسنادين، والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات».

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٢٦ح٢٦٢٤) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٤ح٢١٣٠).

(٣) راشد بن سعد المقرئي الحمصي، ثقة كثير الإرسال، وثقه ابن معين وأبو حاتم وابن سعد، حدث عن ثوبان وسعد بن أبي وقاص وغيرهما، وعنه ثور بن يزيد وعلي بن أبي طلحة وغيرهما، توفي سنة (١١٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» - (٤/ ٤٩٠ - ٤٩١ت١٨٩)، «تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦ت٤٣٢).

(٤) في (ع): بن أبي، والصواب المثبت كما في باقي النسخ و«المسند».

(٥) هو الصحابي الجليل: عبد الرحمن بن قتادة السلمي، صحب النبي وروى عنه، ونزل الشام. انظر: «الطبقات» لابن سعد (٧/ ٤١٧)، «الإصابة» (٢/ ٤١١ت ٥١٨٦).

(٦) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٦). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٨٦): رجاله ثقات. وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٧٣ - ٧٤ح١٦٨)، والحاكم في «المستدرك» كتاب الإيمان (١/ ٨٥) ح٨٤) وقال: على شرطهما. ووافقه الذهبي. وابن حبان في «صحيحه» كتاب البر والإحسان ذكر البيان أن قوله ﷺ: «**فكل ميسر**» أراد به ميسر لما قدر له في سابق علمه من خير أو شر (٢/ ٥٠) ح٣٣٨)، جميعهم بنحوه. والحديث صححه الألباني في «تخريجه للسنة» (١/ ٧٤).

(٧) هذا الكتاب لم أقف عليه - حسب جهدي القاصر -؛ لا مطبوعا ولا مخطوطا، ولعله كتاب أبي داود الطيالسي.

النُّطفةَ إذا وَقَعَتْ في الرَّحِمِ؛ بَعَثَ اللَّهُ إليهِ مَلَكًا، فيَكْتُبُ أَجَلَهُ وعَمَلَهُ ورِزْقَهُ وشَقِيٌّ أَوْ سعيدٌ»[١].

آثارٌ في أطوارِ خَلْقِ الإنسانِ

وذَكَرَ فيهِ[٢] عن ابنِ مسعودٍ مَرفوعًا: «**إِنَّما هُمَا اثْنَتَانِ: الْهَدْيُ وَالْكَلامُ؛ فَأَحْسَنُ الْكَلامِ كَلامُ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ**»[٣].

وقالَ ابنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ[٤]، عن ابنِ شهابٍ[٥]، أَنَّ عبدَ الرحمنِ بنَ هُنَيْدَةَ[٦] حدَّثَهُ، أَنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ عمرٍو قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ النَّسَمَةَ،**

---

(١) رواه هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٥٩٩) ح١٢٧١) بنحوه بأقصر منه؛ ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٧) ح٢٨٣)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٩٩) ح٨٨٨٤)، ورواه ابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٣٧، ٣٨) ح١٤٢٥)، جميعهم بنحوه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٦): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

(٢) المراد «كتاب القدر»؛ إذ هذا الذي يفهم من السياق، وكما في «شفاء العليل» (١/ ٦٥)، حيث ذكر الحديث، وذكر أنه قد رواه أبو داود في «كتاب القدر».

(٣) رواه ابن ماجه (١/ ١٨) ح٤٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٩٨ - ١٠٠) ح٨٥١٨، ٨٥١٩، ٨٥٢٠، ٨٥٢٢، ٨٥٢٣) بنحوه بأطول منه، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٧٧) ح٨٥) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٣٦ح (١٣٢٥) والحديث ضعفه الألباني؛ انظر: «ضعيف سنن ابن ماجه» (ص٤) ح٣). وقد وردت عبارات الحديث مفرقة في أحاديث صحيحة، ولعله من مواعظ ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي، مولى معاوية، روى عن الزهري ونافع، وعنه الليث وابن وهب، ثقة إلا أن في روايته عن الزهري وهما قليلا، توفي سنة (١٥٩هـ). انظر: «تقريب التهذيب» (ص٦١٤ت٧٩١٩)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤٥٠ - ٤٥٢ت٧٦٩).

(٥) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب القرشي الزهري، عالم الحجاز والشام، متفق على جلالته وإتقانه، روى عن ابن عمر وجابر، وعنه عمر بن عبد العزيز والأوزاعي، توفي سنة (١٢٥هـ). انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٠ت٨١٧١)، «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٤٥ - ٤٥١ت٧٣٢).

(٦) في (ع): (بن أبي) وهو: عبد الرحمن بن هنيدة، وقيل: ابن أبي هنيدة العدوي، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو رضيع عبد الملك. روى عن ابن عمر، وعنه الزهري، ثقة من الرابعة. انظر: «تقريب التهذيب» (ص٣٥٢ت٤٠٣٤)، «تهذيب التهذيب» (٦/ ٢٩١ت٥٦٩).

قَالَ مَلَكُ الأَرْحَامِ مُعَرِّضًا[١] : يَارَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي اللَّهُ أَمْرَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقْضِي اللَّهُ أَمْرَهُ، ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا هُوَ لاقٍ، حَتَّى النَّكْبَةُ[٢] يُنْكَبُهَا»[٣].

وقالَ اللَّيْثُ[٤]، عنْ عُقَيْلٍ[٥]، عن ابنِ شِهابٍ: أَخْبَرَني أبو بكرِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هِشامٍ[٦]، أنَّ رسولَ ﷺ قالَ، فذَكَرَهُ سواءً.

قالَ الزُّهْرِيُّ: وحَدَّثَني عبدُ الرحمنِ بنُ أُذَيْنَةَ[٧]، . . . .

---

(١) في (ك)، (س): تعرضا، وفي «الإبانة» لابن بطة (ص٢٩)، (٣٨) كما في الأصل، وفي «الشريعة» للآجري (ص٧٨٣): معترضا، وكذلك في «السنة» لابن أبي عاصم (ص٨١)، والمراد: تصدى سائلا، أو غير مصرح. انظر هذه المعاني في «القاموس المحيط» باب الضاد فصل العين (ص٨٣٣ - ٨٣٤). وقال ابن منظور: المعاريض من الكلام: ما عرض به ولم يصرح. وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه: كلام يشبه بعضه بعضا في المعاني. «لسان العرب» باب العين (٩/ ١٤٩).

(٢) النكبة: ما يصيب الإنسان من الحوادث. «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ١١٢).

(٣) رواه ابن وهب في «القدر» (ص١٣٧ح٣٠) من حديث ابن عمر بمثله؛ وابن أبي عاصم في «السنة» من حديث ابن عمر (ص٨١) ح١٨٢، ١٨٣) بنحوه؛ والآجري في «الشريعة» (٢/ ٧٨٢ - ٧٨٣) ح٣٦٣) من حديث ابن عمر كذلك بنحوه، وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٢٩ - ٣٠) ح١٤١٠) بمثله؛ ورواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٥٩٤ - ٥٩٥)، ح١٠٥١) من حديث ابن عمر بنحوه. وابن عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ١١١) بمثله؛ وابن حبان في «صحيحه» كتاب التاريخ ذكر خبر قد يوهم الزعاع من الناس أنه مضاد للأخبار التي ذكرناها من قبل (٨/ ١٤) ح٦١٧٨) بمثله، والحديث روي من طرق عن الزهري، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (ص٨١).

(٤) الليث بن سعد بن عبد الرحمن المصري، روى عن نافع وعقيل، وعنه ابن وهب وابن المبارك، وهو إمام ثقة ثبت، توفي سنة (١٧٥هـ). انظر: «تقريب التهذيب» (ص٤٦٤ت٥٦٨٤)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٤٥٩ - ٤٦٥ت٨٣٢).

(٥) أبو خالد عقيل بن خالد الأيلي الأموي مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه روى عن نافع والزهري، وعنه الليث بن سعد وابن لهيعة. قال أحمد ومحمد بن سعد والنسائي: ثقة. توفي سنة (١٤١هـ). انظر «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٥٥ - ٢٥٦ت٤٦٧).

(٦) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي المدني، ثقة عابد من الثالثة، توفي سنة (٩٤هـ). «تقريب التهذيب» (ص٦٢٣ت٧٩٧٦).

(٧) قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب»: (٦/ ١٣٥ت٢٧٩): «عبد الرحمن بن أذينة عن ابن عمر، صوابه: ابن هنيدة»، وانظر ما تقدم(ص٢٩٥) هامش(٥).

عن ابنِ عُمرَ مِثلَ ذلكَ[١].

وذَكَرَ «أبو دَاوُدَ»[٢] أيضًا، عنْ عائشةَ تَرْفَعُهُ: **«إنَّ اللَّهَ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ يَبْعَثُ مَلَكًا، فَيَدْخُلُ عَلَى الرَّحِمِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ مَاذَا؟ فَيَقُولُ: غُلامٌ، أَوْ جَارِيَةٌ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ فِي الرَّحِمِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقُولُ: شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، مَا أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، مَا خَلْقُهُ؟ فَيَقُولُ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: يَا رَبِّ، مَا خَلائِقُهُ؟ فَيَقُولُ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَهُوَ يُخْلَقُ مَعَهُ فِي الرَّحِمِ»**[٣].

وذكَرَ ابنُ وَهْبٍ، عن ابنِ لَهِيعَةَ[٤] عنْ بَكرِ بنِ سَوَادَةَ[٥]، عنْ أبي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ[٦]، عنْ أبي ذَرٍّ[٧]: أنَّ الْمَنِيَّ إذا مَكَثَ في الرَّحِمِ أربعينَ ليلةً أَتَاهُ مَلَكٌ

---

(١) رواه ابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٣٨، ٣٩) ح١٤٢٧).

(٢) مراد المؤلف: في كتاب «القدر».

(٣) رواه الآجري في «الشريعة» (٢/ ٧٨٤ - ٧٨٥) ح٣٦٥)، وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٢٣)، (٣١)، (٣٢) ح١٤٠٠)، (١٤١٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٥٩٥ ح١٠٥٣)، جميعهم بنحوه.

(٤) هو عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرعان الحضرمي المصري الفقيه القاضي. اختلف في توثيقه خاصة بعد احتراق كتبه، واختلط في آخر عمره، ووثق في رواية ابن المبارك وابن وهب عنه. قال ابن معين: لا يحتج به، وقال أبو زرعة وأبو حاتم: يكتب حديثه للاعتبار. توفي سنة (١٧٤هـ). انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٤٧٥ ٤٨٣ت٤٥٣٠)، «تقريب التهذيب» (ص٣١٩ت٣٥٦٣).

(٥) بكر بن سوادة بن ثمامة الجذامي، أبو ثمامة المصري، ثقة فقيه، روى عن عبد الله بن عمرو، وسعيد بن المسيب. وعنه الليث وابن لهيعة، توفي سنة (١٢٨هـ). انظر: «تقريب التهذيب» (ص١٢٦ت٧٤٢) «تهذيب التهذيب» (١/ ٤٨٣ - ٤٨٤ت٨٨٨).

(٦) عبد الله بن مالك بن أبي الأسحم المصري، مشهور بكنيته، ثقة مخضرم. روى عن عمر وأبي ذر، وعنه بكر ابن سوادة، وكعب بن علقمة. توفي سنة (٧٤هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء»، «تقريب التهذيب» (ص٣١٩ت٣٥٦٤).

(٧) هو الصحابي الجليل جندب بن جنادة بن سكن الغفاري، أبو ذر، زاهد مشهور صادق اللهجة، كان من السابقين إلى الإسلام، أعلن إسلامه في وقت استخفاء، وناله ما ناله، فثبت صابرا. توفي بالربذة سنة (٢٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤٦ - (٧٨ت١٠)، «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٤/ ٦٣ - ٦٥ت٣٨٤).

النُّفُوسِ، فعَرَجَ بِهِ إلى الربِّ تعالى في راحتِهِ فيقولُ: يا رَبِّ، عَبْدُكَ ذَكَرٌ أمْ أُنثى؟ فيَقْضِي اللَّهُ ما هوَ قاضٍ، أشقيٌّ أمْ سعيدٌ؟ فيَكْتُبُ ما هوَ لاقٍ بينَ عَيْنَيْهِ. قالَ أبو تَميمٍ: وزادَ أبو ذَرٍّ منْ فاتحةِ سورةِ «التغابُنِ» خَمْسَ آياتٍ[(١)]»[(٢)].

وقالَ ابنُ وَهْبٍ: أخْبَرَني ابنُ لَهِيعَةَ، عنْ كَعبِ بنِ عَلْقَمَةَ[(٣)]، عنْ عيسى بنِ هلالٍ[(٤)]، عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ أنَّهُ قالَ: «إِذَا مَكَثَت النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا؛ جَاءَهَا مَلَكٌ فَاخْتَلَجَهَا[(٥)]، ثُمَّ عَرَجَ بِهَا إِلَى الرَّحْمَنِ ﷻ فَقَالَ: اخْلُقْ يَا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَيَقْضِي اللَّهُ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِهِ، ثُمَّ تُدْفَعُ إِلَى الْمَلَكِ، فَيَسْأَلُ الْمَلَكُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، سِقْطٌ أَمْ تِمٌّ؟ فَيُبَيِّنُ لَهُ، ثُمَّ يَقولُ: يا رَبِّ، أَوَاحِدٌ أَوْ تَوْأَمٌ؟ فَيُبَيِّنُ لَهُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيُبَيِّنُ لَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَاقِصُ الأَجَلِ أَمْ تَامُّ الأَجَلِ؟ فَيُبَيِّنُ لَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيُبَيِّنُ لَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ اقْطَعْ رِزْقَهُ مَعَ خَلْقِهِ، فَيَهْبِطُ بِهِمَا جَمِيعًا، فَوَالَّذِي نَفْسِي|بِيَدِهِ|[(٦)]، مَا يَنَالُ مِن الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُسِمَ لَهُ، فَإِذَا أَكَلَ رِزْقَهُ قُبِضَ»[(٧)].

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤْمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥﴾ [التغابن: ١ - ٥].

(٢) رواه ابن وهب في «القدر» (١٤٩ح٣٦) بنحوه بأقصر منه؛ والطبري في «جامع البيان» (جزء٢٨ص١١٩ - ١٢٠) بنحوه، وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٣٣ - ٣٤) ح١٤١٧) بمثله.

(٣) كعب بن علقمة بن كعب التنوخي المصري أبو عبد الحميد، روى عن عيسى بن هلال، وسالم أبي النضر، وعنه الليث بن سعد وابن لهيعة، صدوق من الخامسة. توفي سنة (١٢٧هـ). انظر: «تقريب التهذيب»(ص٤٦١ت٥٦٤٤)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٤٣٦ت٧٨٩).

(٤) عيسى بن أبي عيسى: هلال بن يحيى السليحي الطائي المعروف بابن البرد، روى عن أبي المغيرة الخولاني وإسماعيل بن عياش، وعنه أبو داود والنسائي، صدوق. قال النسائي: لا بأس به. انظر: «تقريب التهذيب» (ص٤٤٠ت٥٣١٨)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٢٦ت٤١٨).

(٥) اختلجها: أصل الخلج: الجذب والنزع. «النهاية في غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٥٩).

(٦) «بيده» في (ع)، (ك)، (س)، وليست في الأصل، وهي كذلك في المصادر التي روت الحديث.

(٧) رواه ابن وهب في «القدر» (١٦٤ح٥٤)، وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٣٤ - =

وفي «صحيح مسلم»[١] عنْ حُذَيْفَةَ بنِ أُسَيْدٍ يَبْلُغُ بهِ النبيَّ ﷺ قالَ: «**يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سعيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فيقولُ: يا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيَكْتُبُ عَمَلَهُ وأَثَرَهُ ورِزْقَهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ؛ فَلا يُزَادُ فِيهَا وَلا يُنْقَصُ**».

وفي «الصحيحَيْنِ»[٢] عنْ أنسِ بنِ مالِكٍ - ورَفَعَ الحديثَ - قالَ: «**إِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ، عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ، مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا؛ قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ: ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ ذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**».

وفي «الصحيحَيْنِ»[٣] منْ حديثِ ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، وَيُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**».

ففي حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ هذا التقديرَ وهذهِ الكتابةَ في الطَّوْرِ الرابعِ منْ أطْوَارِ التخليقِ عندَ نَفْخِ الرُّوحِ فيهِ، وفي الأحاديثِ التي ذُكِرَتْ آنِفًا أنَّ ذلكَ في الأربعينَ الأُولَى قَبْلَ كَوْنِهِ عَلَقَةً ومُضْغَةً.

وفي روايَةٍ صحيحةٍ: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً؛ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا**»[٤].

وفي روايَةٍ: «أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي بِضْعٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[٥].

= ٣٥ح١٤١٨)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٦٧٤ - ٦٧٥ح١٢٣٦)، جميعهم بنحوه.

(١) كتاب «القدر» باب خلق الآدمي في بطن أمه (١٦/١٤٧ح٢٦٤٤) بنحوه.

(٢) البخاري (١/٤٩٨ح٣١٨فتح)، (٦/٤١٩ح (٣٣٣٣فتح)، و (١١/٤٨٦) ح٦٥٩٥فتح)، ومسلم (١٦/١٤٩ح٢٦٤) نووي)، واللفظ لمسلم.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه مسلم (١٦/١٤٨) ح٢٦٤٥نووي) بمثله بأطول منه في أثنائه.

(٥) رواه مسلم كتاب القدر باب خلق الآدمي في بطن أمه (١٦/١٤٩) بنحوه.

فصلٌ

الجمعُ بينَ ما وَرَدَ في رواياتِ خَلْقِ النُّطفةِ والجنينِ

الْجَمْعُ بينَ هذهِ الرِّوَايَاتِ: أنَّ للملَكِ مُلازَمَةً ومُراعاةً لحالِ النُّطْفَةِ، وأنَّهُ يَقولُ: يارَبِّ، هذهِ نُطْفَةٌ، هذهِ عَلَقَةٌ، هذهِ مُضْغَةٌ في أوقاتِها، فكلُّ وَقْتٍ يَقولُ فيهِ ما صَارَتْ إليهِ بأمْرِ اللَّهِ تعالى، وهوَ أَعْلَمُ بها منهُ.

ولكلامِ الملَكِ وتَصَرُّفِهِ[1] أوقاتٌ:

أحَدُها[2]: حينَ[3] يَخْلُقُها اللَّهُ تعالى نُطْفَةً، ثمَّ يَنْقِلُها عَلَقَةً، وهوَ أَوَّلُ أَوْقَاتِ عِلْمِ الملَكِ بأنَّهُ وَلَدٌ؛ لأنَّهُ ليسَ كلُّ نُطفةٍ تَصيرُ ولدًا، وذلكَ بعدَ الأربعينَ الأُولَى في أوَّلِ الطَّوْرِ الثانِي؛ ولِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - وَقعَت الإشارةُ إليهِ في أَوَّلِ سورةٍ أَنْزَلَها على رسولِهِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: (١ - ٢]؛ إذْ خَلْقُهُ مِنْ عَلَقةٍ هوَ أَوَّلُ مَبْدَأِ الإنسانيَّةِ، وحِينئذٍ يُكْتَبُ رِزقُهُ وأَجَلُهُ وعَمَلُهُ وشَقاوَتُهُ وسعادتُهُ.

| **الثاني** |[4]: ثُمَّ للمَلَكِ فيهِ تَصرُّفٌ آخَرُ في وقتٍ آخَرَ، وهوَ تَصويرُهُ، وتَخليقُ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ وجِلْدِهِ وعَظْمِهِ ولحْمِهِ وذُكُورِيَّتِهِ وأُنوثيَّتِهِ.

وهذا إنَّما يَكونُ في الأربعينَ الثالثةِ قبلَ نَفْخِ الروحِ فيهِ؛ لأنَّ نَفْخَ الروحِ لا يكونُ إلاَّ بعدَ تَمامِ تَصويرِهِ.

فَهَا هُنَا تَقديرانِ وكِتَابَتَانِ:

أنواعُ التقديرِ التي تُكْتَبُ على ابنِ آدمَ

التقديرُ الأَوَّلُ: عندَ ابتداءِ تَعَلُّقِ التخليقِ في[5] النُّطْفَةِ، وهوَ إذا مَضَى عليها أَربعونَ، ودَخَلَتْ في طَوْرِ الْعَلَقَةِ؛ ولهذا في إحدى الرِّوَايَاتِ: «**إذا مَرَّ بالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وأربعونَ ليلةً**»[6].

والتقديرُ الثاني والكتابةُ الثانيَةُ: إذا كَمُلَ تَصويرُهُ وتَخليقُهُ وتَقديرُ أعضائِهِ وكونُهُ ذَكَرًا أوْ أُنْثَى.

فالتقديرُ الأَوَّلُ تَقديرٌ لِمَا يَكونُ للنُّطْفَةِ بعدَ الأربعينَ.

---

(١) في (ع): فيصرفه، والصواب المثبت.
(٢) في (ع): أخذها.
(٣) في (ع): حتى.
(٤) مابين العارضتين ليس في جميع النسخ.
(٥) في (ع): من.
(٦) سبق تخرجه.

والتقديرُ الثاني تَقديرٌ لِمَا يَكونُ للجَنينِ بعدَ تَصويرِهِ.

ثمَّ إذا وُلِدَ قُدِّرَ معَ وِلادتِهِ - كلَّ سَنَةٍ - ما يَلقاهُ في تلكَ السَّنَةِ، وهوَ ما يُقَدَّرُ ليلةَ القَدْرِ من العامِ إلى العامِ، فهذا التقديرُ أَخَصُّ من الثاني، والثاني أَخَصُّ من الأَوَّلِ، ونظيرُ هذا أيضًا أنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ مَقاديرَ الخلائقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السماواتِ والأَرَضِينَ بخمسينَ أَلْفَ سنةٍ، ثمَّ قَدَّرَ مَقاديرَ هذا الْخَلْقِ حينَ خَلَقَهُ وأَوْجَدَهُ، ثمَّ يُقَدِّرُ كلَّ سنةٍ في ليلةِ القَدْرِ ما يكونُ في ذلكَ العامِ.

وهكذا تَقديرُ أَمْرِ النُّطفةِ وشأنِهَا يَقَعُ بعدَ تَعَلُّقِها بالرَّحِمِ، وبعدَ كمالِ تصويرِ الْجَنينِ، وقدْ تَقَدَّمَ ذلكَ تَقديرُ شأنِها قبلَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، فهوَ تقديرٌ بعدَ تقديرٍ.

ونظيرُ هذا أيضًا رَفْعُ الأعمالِ وعَرْضُها على اللَّهِ، فإنَّ عملَ العامِ يُرْفَعُ في شَعبانَ؛ كما أَخْبَرَ بهِ الصادقُ المصدوقُ أَنَّهُ شَهْرٌ تُرْفَعُ فيهِ الأعمالُ، قالَ: «**فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[١].

أوقاتُ عَرْضِ الأعمالِ على اللهِ

ويُعْرَضُ عملُ الأسبوعِ يومَ الإثنَيْنِ والخميسِ؛ كما ثَبَتَ ذلكَ عن النبيِّ ﷺ[٢] ويُعْرَضُ عملُ اليومِ في آخِرِهِ، والليلةِ في آخِرِها، كما في حديثِ أبي موسى الَّذِي رواهُ البخاريُّ[٣] عن النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ**».

فهذا الرَّفْعُ والعَرْضُ اليَوْمِيُّ أَخَصُّ من العَرْضِ يومَ الإثنَيْنِ والخميسِ، والعَرْضُ فيهما أَخَصُّ من العَرْضِ في شَعبانَ، ثمَّ إذا انْقَضَى الأَجَلُ؛ رُفِعَ العملُ كلُّهُ، وعُرِضَ على اللَّهِ، وطُوِيَت الصُّحُفُ، وهذا عَرْضٌ آخَرُ.

وهذهِ المسائلُ العظيمةُ القَدْرِ هيَ منْ أهمِّ مَسائلِ الإيمانِ بالقَدَرِ، فصلواتُ اللَّهِ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٠١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٤٦) ح٩٧٦٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٢٠) ح٢٦٦٦)، و«السنن» «المجتبى» (٤/ ٢٠١). حسنه الضياء في «الآحاديث المختارة» (٤/ ١٠٨) ح١٣١٩) والألباني في «صحيح النسائي» (٢/ ٤٩٧) ح٢٢٢١).

(٢) من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «**تعرض الأعمال في كل يوم خميس وإثنين، فيغفر الله ﷻ في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا**». رواه مسلم في «صحيحه» (١٦/ ٩٥) ح٣٦نووي) في موضعين.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (٣/ ٣٨٩ - ٣٩٠ح١٧٩نووي)، ولم يروه البخاري كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

وسَلامُهُ على كاشِفِ الغُمَّةِ وهادِي الأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

أوجُهُ الجمْعِ بينَ رواياتِ لفظِ الأربعينَ في أحاديثِ التخليقِ

فإنْ قِيلَ: فما تَقولونَ في قولِهِ: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً؛ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا**[1] **وَعظْمَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ**»[2].

وهذهِ بعضُ ألفاظِ مسلِمٍ في الحديثِ، وهذا يُوافِقُ الروايَةَ الأُخْرَى: «**يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟**»[3].

ويُوَافِقُ الروايَةَ الأُخرى: «**أَنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَتَسَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ**»[4]، وهذا يَدُلُّ على أنَّ تَصويرَها عُقَيْبَ الأربعينَ الأُولَى؟

قِيلَ: لا رَيْبَ أنَّ التصويرَ المحسوسَ، وخَلْقَ الْجِلدِ والعَظْمِ واللحمِ إنَّما يَقَعُ في الأربعينَ الثالثةِ، لا يَقَعُ عُقَيْبَ الأُولَى، هذا أَمْرٌ مَعلومٌ بالضروةِ.

الوجهُ الأولُ

فإمَّا أنْ يكونَ المرادُ بالأربعينَ في هذهِ الألفاظِ الأربعينَ الثالثةَ، وسَمَّى الْمُضْغَةَ فيها نُطفةً اعتبارًا بأَوَّلِ أحوالِها وما كانتْ عليهِ.

الوجهُ الثاني

أو يكونَ المرادُ بها الأربعينَ الأُولى، وسُمِّي كتابةُ تَصويرِها وتَخْلِيقِها وتقديرُهُ تَخليقًا؛ اعتبارًا بما يؤُولُ، فيكونُ قولُهُ: «**صَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا**»، أيْ: قَدَّرَ ذلكَ وكَتَبَهُ وأَعْلَمَ بِهِ، ثمَّ يَفْعَلُهُ بعدَ الأربعينَ الثالثةِ.

الوجهُ الثالثُ

أو يكونَ المرادُ بِهِ الأربعينَ الأُولى وحقيقةَ التصويرِ فيها، فيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ على تصويرٍ خَفِيٍّ لا يُدْرِكُهُ إحساسُ البَشَرِ![5] فإنَّ النُّطْفَةَ إذا جَاوَزَت الأربعينَ؛ انْتَقَلَتْ عَلَقَةً،

---

(١) في (ع): ومخها. (٢) سبق تخريجه (١٩٥).

(٣) سبق تخريجه (ص١٩٤).

(٤) جزء من حديث حذيفة بن أسيد، رواه مسلم في «صحيحه» (١٦/١٤٨ح٤ نووي).

(٥) ففي الأربعين الأولى مبدأ التخليق، فهو ينشأ من تمامها، وفي الأربعين الثالثة تسوية وتكميل، وفي المحسوس يكون للنبات مبدأ وتمام، وللمسكن مبدأ من التخطيط والتنفيذ على مراحل حسب مقتضى الحال. وعلى هذا يكون للتخليق أربع مراتب كما قال المؤلف في «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢١٩):

أحدها: تصوير وتخليق علمي لم يصل إلى الخارج. =

وحينئذٍ يكونُ أوَّلُ مَبدأِ التخليقِ، فيكونُ معَ هذا المَبدأِ مَبْدَأُ التصويرِ الْخَفِيِّ الذي لا يَنالُهُ الْحِسُّ(١)، ثمَّ إذا مَضَت الأربعونَ الثالثةُ؛ صُوِّرَت التصويرَ المحسوسَ الْمُشاهَدَ.

فأَحَدُ التقديراتِ الثلاثةِ مُتَعَيِّنٌ ولا بُدَّ، ولا يَجوزُ غيرُ هذا أَلْبَتَّةَ؛ إذ العَلَقَةُ لا سَمْعَ فيها ولا بَصَرَ ولا جِلْدَ ولا عَظْمَ، وهذا التقديرُ الثالثُ أَلْيَقُ بألفاظِ الحديثِ وأَشْبَهُ، وأَدَلُّ على القُدْرَةِ، واللَّهُ أَعلَمُ بِمُرَادِ رسولِهِ. غيرَ أنَّا لا نَشُكُّ أنَّ التخليقَ الْمُشاهَدَ، والتقسيمَ إلى الْجِلْدِ والعَظْمِ واللحمِ إنَّما يكونُ بعدَ الأربعينَ الثالثةِ.

والمقصودُ أنَّ كِتابةَ الشقاوةِ والسعادةِ وما هوَ لاقٍ كانَ عندَ أوَّلِ تَخليقِهِ.

الوجهُ الرابعُ

ويَحْتَمِلُ وَجْهًا رابعًا وهوَ: أنَّ النُّطفةَ في الأربعينَ الأُولى لا يُتَعَرَّضُ لها، ولا [يُعْتَنَى بشأنِها](٢)، فإذا جاوَزَتْها وَقَعَتْ في أطوارِ التخليقِ طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ، ووَقَعَ حينئذٍ التقديرُ والكتابةُ.

فحديثُ ابنِ مسعودٍ صَريحٌ بأنَّ وُقوعَ ذلكَ بعدَ الطَّوْرِ الثالثِ عندَ تَمامِ كونِها مُضْغَةً، وحديثُ حُذيفةَ بنِ أُسَيْدٍ، وغيرِهِ من الأحاديثِ المذكورةِ إنَّما فيهِ وُقوعُ ذلكَ بعدَ الأربعينَ، ولمْ يُوَقِّتْ فيها البَعْدِيَّةَ(٣) بلْ أَطْلَقَها، وقدْ قَيَّدَها ووَقَّتَها في حديثِ ابنِ مَسعودٍ، والْمُطْلَقُ في مِثلِ هذا يُحْمَلُ على الْمُقَيَّدِ بلا رَيْبٍ، فأَخْبَرَ بما [يَكونُ للنُّطْفَةِ](٤) بعدَ الطَّوْرِ الأَوَّلِ منْ تفاصيلِ شأنِها وتَخليقِها، وما يُقَدَّرُ لها وعلَيْها، وذلكَ

= **الثانية:** مبدأ تصوير خفي يعجز الحس عن إدراكه.

الثالثة: تصوير يناله الحس، ولكنه لم يتم بعد.

الرابعة: تمام التصوير الذي ليس بعده إلا نفخ الروح. فالمرتبة الأولى علمية، والثلاث الأخر خارجية عينية. فالتصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير. ومثله أن الله خلق الأرض قبل السماء؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ الآية [فصلت: ٩ ١١]. ثم سوى الأرض بعد ذلك ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: الآية ٣٠] . فكما فعل جل وعلا في السكن فعل في الساكن.

وانظر: «الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٣٨) وما بعدها. وانظر: لابن القيم «المودود» (ص١٧٩) وما بعدها، و«التبيان في أقسام القران» (ص٢١٧) وما بعدها؛ و«شفاء العليل» (١/ ٦٦) وما بعدها.

(١) وهذا هو الأقرب لتفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: الآية ٣٤] .

(٢) في (ع): يعتبر شأنها. (٣) في (ع): التعدية.

(٤) في (ع): بما تكون النطفة.

يَقَعُ في أوقاتٍ متَعَدِّدَةٍ، وكُلُّهُ بعدَ الأربعينَ الأُولى، وبعضُهُ مُتَقَدِّمٌ على بَعْضٍ، كما أنَّ كونَها عَلَقَةً مُتقدِّمٌ على كونِها مُضْغَةً، وكونَها مُضْغَةً مُتَقَدِّمٌ على تَصويرِها، والتصويرَ مُتَقَدِّمٌ على نَفْخِ الرُّوحِ.

ومعَ ذلكَ فيَصِحُّ أنْ يُقالَ: إنَّ النُّطْفَةَ بعدَ الأربعينَ تكونُ عَلَقَةً ومُضْغَةً، ويُصَوَّرُ خَلْقُها، وتُرَكَّبُ فيها العِظامُ والْجِلْدُ، ويُشَقُّ لها السمْعُ والبَصَرُ، ويُنْفَخُ فيها الرُّوحُ ويُكْتَبُ شقاوَتُها وسَعادتُها.

وهذا لا يَقْتَضِي وُقوعَ ذلكَ كُلِّهِ عَقِيبَ الأربعينَ الأُولى منْ غيرِ فَصْلٍ، وهذا وَجْهٌ حَسَنٌ جِدًّا.

والمقصودُ: أنَّ تقديرَ الشقاوةِ والسعادةِ والْخَلْقِ والرزقِ سَبَقَ خُروجَ العَبْدِ إلى دارِ الدُّنْيا، فأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ والنارَ، وهوَ في بَطْنِ أُمِّهِ.

الأدِلَّةُ على وُجوبِ الإيمانِ بالقضاءِ والقَدَرِ

وفي «الصحيحيْنِ»[(١)] عنْ أبي هُريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ...**» الحديثَ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[(٢)] عنْ أبي سَعيدٍ، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إلاَّ كَانَ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ**».

وفي «سُننِ ابنِ مَاجَهْ»[(٣)] عنْ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ[(٤)] أنَّهُ قالَ: أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ فقالَ: «**يَا عَدِيُّ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**»، قُلْتُ: وما الإسلامُ؟ قالَ: «**تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَتُؤْمِنُ بِالأَقْدَارِ كُلِّهَا؛ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَحُلْوِهَا وَمُرِّهَا**».

---

(١) البخاري (١١/ ٢٨ح٦٢٤٣فتح)، (١١/ ٥١١) ح٦٦١٢فتح)، ومسلم (١٦/ ١٥٦ - (١٥٧) ح٢٦٥٧نووي).

(٢) كتاب الأحكام - باب بطانة الإمام وأهل مشورته (١٣/ ٢٠١ح٧١٩٨فتح) بنحوه.

(٣) في المقدمة - باب القدر (١/ ٣٤ح٨٧) بنحوه، ضعفه الكناني في «مصباح الزجاجة» (١/ ١٤)، والألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨ - ٩ح١٧)، وفي «ظلال الجنة» (٦١ - ٦٢ح١٣٥).

(٤) هو الصحابي الجليل: عدي بن حاتم بن عبد الله بن الحشرج الطائي الجواد المشهور، أسلم سنة سبع للهجرة. ولما ارتدت العرب ثبت هو وقومه، وشهد فتح المدائن، توفي سنة (٦٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٦٢ - ١٦٥ت٢٦)، «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٤٦٠ - ٤٦١ت٥٤٧٧).

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[١] من حديثِ الْحَسَنِ[٢]، عنْ عمرِو بنِ تَغْلِبَ[٣] قالَ: أتى النبيَّ ﷺ مالٌ، فأعْطَى قومًا ومَنَعَ آخرينَ، فبَلَغَهُ أنَّهم عَتَبُوا، فقالَ: **«إنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ...»** الحديثَ.

وفي «الصحيحيْنِ»[٤] من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ، عن النبيِّ ﷺ: **«كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»**.

وفي «الصحيحِ»[٥] عن ابنِ عبَّاسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لأشَجِّ عبدِ القَيْسِ[٦]: **«إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ»**، قالَ: يا رسولَ اللَّهِ، خُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا، أمْ جُبِلْتُ علَيْهِمَا؟ قالَ: **«بَلْ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا»**، قالَ: الحمدُ للَّهِ الَّذِي جبَلَنِي على خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ.

وقالَ أبو هُريرةَ: قالَ لِيَ النبيُّ ﷺ: **«جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاقٍ»**. رواهُ البخاريُّ[٧] تَعليقًا.

وذَكَرَ البخاريُّ[٨] أيضًا عن ابنِ عَبَّاسٍ في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا

---

(١) (٢/ ٤٦٨ح٩٢٣فتح) و (٦/ ٢٨٨) ح٣١٤٥فتح) و(١٣/ ٥٢٠ح٧٥٣٥فتح).

(٢) المراد البصري، وقد تقدم.

(٣) هو الصحابي الجليل: عمرو بن تغلب النمري، أثنى عليه النبي ﷺ في إسلامه، ومن الأكثرين رواية عنه الحسن البصري. انظر: «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٥١٩ت٥٧٨٥).

(٤) البخاري - كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: الآية ٢٧] (٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ح٣١٩١) فتح) بنحوه بأطول منه، وليس في «صحيح مسلم».

(٥) مسلم (١/ ١٥٥) ح (٢٥) نووي) بنحوه بأقصر منه، وفي باب: الحلم والأناة يحبهما الله (١/ ١٥٦ - ١٥٨ح١٨نووي).

(٦) هو الصحابي الجليل: المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد العصري العبدي أشج عبد القيس، وهو من أهل عمان، وكان سيد قومه، وفد على النبي ﷺ في وفد عبد القيس. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٢٨/ ٥٠٢ت٦١٨٠)، و«تهذيب التهذيب» (١٠/ ٣٠١ت٥٢٤).

(٧) في كتاب القدر، باب: جف القلم على علم الله، وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] (١١/ ٤٩٩فتح) بمثله.

(٨) رواه البخاري أيضا؛ نفس المصدر (١١/ ٤٩٩) بنحوه بأقصر منه.

سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: الآية ٦١] قالَ: سَبَقَتْ لَهُم السَّعَادَةُ.

وفي «سُننِ أبي دَاوُدَ»[(١)] و«ابنِ مَاجَهْ»[(٢)] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ وحُذيفةَ بنِ الْيَمانِ[(٣)]، وأُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، وزَيدِ بنِ ثابتٍ[(٤)]: **«لَوْ أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ؛ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ لَدَخَلْتَ النَّارَ»** . وَقَالَهُ زَيْدُ بنُ ثابتٍ عن النبيِّ ﷺ.

وفي «سُننِ أبي دَاوُدَ»[(٥)] عنْ أبي حَفصةَ الشاميِّ[(٦)] قالَ: قالَ عُبادَةُ بنُ الصامتِ[(٧)]:

---

(١) «كتاب السنة» باب في القدر (٤/ ٢٢٥ح٤٦٩٩) بنحوه. صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٩٠ ح٣٩٣٢)، و«ظلال الجنة» (ص١٠٩).

(٢) في المقدمة - باب في القدر (١/ ٢٩ - ٣٠) ح٧٧) بنحوه بأطول منه. صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ١٩ح٦٢) و انظر الذي قبله.

(٣) هو الصحابي الجليل: أبو عبد الله حذيفة بن اليمان: حُسَيل (مصغر) العبسي الكوفي، حليف بني عبد الأشهل. من السابقين، وصاحب سر رسول الله ﷺ وندبه رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب لجس خبر العدو. ولي المدائن لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقي عليها إلى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، توفي سنة (٣٦هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٦١ - ٣٦٩ت٧٦)، «الإصابة» ومعه «الاستيعاب» (١/ ٣١٦ - ٣١٧ت١٦٤٧).

(٤) هو الصحابي الجليل: زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد الأنصاري الخزرجي، من صغار الصحابة، شهد الخندق، من كتاب الوحي، تعلم السريانية بأمر النبي ﷺ، جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، من أفرض الصحابة، ومن العلماء الراسخين، توفي سنة (٤٥ هـ).
انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤٢٦ - ٤٤١ت٨٥).

(٥) كتاب «السنة» باب في القدر (٤/ ٢٢٥ - ٢٢٦ح٤٧٠٠) والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٩٠ - ٨٩١ح٣٩٣٣).

(٦) حبيش بن شريح أبو حفصة الشامي، روى عن معاوية وعبادة بن الصامت، وعنه إبراهيم بن أبي عبيلة وعلي ابن أبي حملة، أدرك عبادة وحفظ عنه. انظر: «تهذيب الكمال» (٥/ ٤١٤ - ٤١٥ت١١٠٩)، «تهذيب التهذيب» (٢/ ١٩٤ - ١٩٥ت٣٦٢).

(٧) هو الصحابي الجليل: أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم الخزرجي الأنصاري، أحد نقباء الأنصار، وممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعلم أهل الشام =

يا بُنَيَّ: إنَّكَ لنْ تَجِدَ طَعمَ الإيمانِ حتَّى تَعْلَمَ أنَّ ما أصابَكَ لمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وما أَخطَأَكَ لمْ يَكُنْ ليُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».
يا بُنَيَّ، سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**».

وفي «الصحيحيْنِ»[(١)] عنْ عليٍّ رضي الله عنه قالَ: كُنَّا في جَنازةٍ فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ ببَقِيعِ الغَرْقَدِ[(٢)]، فجاءَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فجَلَسَ ومَعَهُ مِخْصَرَةٌ[(٣)]، فجَعَلَ يَنْكُتُ بالْمِخْصَرَةِ في الأرضِ، ثمَّ رَفَعَ رأسَهُ فقالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلاَّ قَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ النَّارِ أَوِ الْجَنَّةِ، إلاَّ قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ**»، قالَ: فقالَ رَجُلٌ من القومِ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوَلا نَمْكُثُ على كتابِنا ونَدَعُ العملَ؛ فمَنْ كانَ منْ أهلِ السعادةِ لَيَكُونَنَّ إلى السعادةِ، ومَنْ كانَ مِنَّا منْ أهلِ الشِّقْوَةِ ليَكُونَنَّ إلى الشقاوةِ؟ قالَ: «**اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِلسَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِلشَّقَاوَةِ**».

ثمَّ قرأَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [سورةُ اللَّيْلِ: ٥ - ١٠].

وفي «السُّنَنِ الأربعةِ»[(٤)] عنْ . . . .

= القرآن مع بعض الصحابة، كان قويا في دين الله وفي قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توفي سنة (٣٤هـ). انظر: «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٢/ ٢٦٠ - ٢٦١ت٤٤٩٧).

(١) سبق تخريجه (١٨٨).

(٢) بقيع الغرقد: مقبرة المدينة، والغرقد: شجر كان ينبت هناك - شجر العوسج - وسمي بذلك؛ لأنه قطعت غرقدات في هذا الموضع حين دفن فيه عثمان بن مظعون رضي الله عنه. انظر: «معجم ما استعجم» لأبي عبيد الأندلسي (١/ ٢٦٥)، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي(١/ ٤٧٣).

(٣) المخصرة: عصا صغيرة سميت بذلك؛ لأنها إما تعلق في الخنصر، أو تمسك بالخنصر والبنصر. انظر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري(١/ ٣٧٤).

(٤) رواه أبو داود في «السنة» (٤/ ٢٢٦ - ٢٢٧ح (٤٧٠٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٦) ح٣٠٧٥)، وقال: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا. والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٧) ح١١١٩٠)، ولم يروه ابن ماجه، والحديث قال عنه الحاكم في «المستدرك»: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٣٥٥)، وتعقبه ابن القيم في «شفاء العليل» (١/ ٣٧) فقال: وليس كما قاله، بل هو حديث منقطع، قال ابن عمر: هو حديث منقطع؛ فإن ابن يسار =

مسلِم بنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ[١]، أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٧٢] فقال: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ[٢] سُئِلَ عنها، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «...[٣] **خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**»، قالَ رجلٌ: يارسولَ اللَّهِ، فَفِيمَ العملُ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ النَّارَ**».

وفي «التِّرمذيِّ»[٤] عنْ أبي موسى الأشعريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُم الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**». قالَ التِّرمذيُّ:

= هذا لم يلق عمر بن الخطاب، بينهما نعيم بن ربيعة، هذا إن صح الذي رواه عن زيد بن أبي أنيسة، فذكر فيه نعيم بن ربيعة؛ إذ ليس هو بأحفظ من مالك، ولا ممن يحتج به إذا خالفه مالك، ومع ذلك فإن نعيم بن ربيعة ومسلم بن يسار جميعًا مجهولان غير معروفين بحمل العلم ونقل الحديث، وليس هو مسلم بن يسار العابد البصري، وإنما هو رجل مدني مجهول. ثم ذكر من تاريخ ابن أبي خيثمة قال: قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا، فكتب بيده على مسلم بن يسار: لا يعرف.

قال أبو عمر: هذا الحديث وإن كان عليل الإسناد؛ فإن معناه عن النبي قد روي من وجوه كثيرة. اهـ. وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٩١ - ٨٩٢) ح٣٩٣٦): صحيح إلا مسح الظهر. وقال في «ظلال الجنة»: ضعيف.

(١) مسلم بن يسار الجهني، روى عن عمر بن الخطاب، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، صدوق من الثالثة، وذكره ابن حبان في «الثقات»، روى له أبو داود والترمذي والنسائي. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٧/ ٥٥٦ت٥٩٥١)، و «تقريب التهذيب» (ص٥٣١ت٦٦٥٤).

(٢) في (ع) زيادة: (قد).

(٣) في الكتب التي خرجت الحديث في أوله: «**إن الله ﷻ خلق آدم**».

(٤) «كتاب التفسير» (٥/ ٢٠٤) ح٢٩٥٥) بمثله، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٠ح٢٣٥٥)، «الصحيحة» (٤/ ١٧٢ح١٦٣٠).

حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

وذَكَرَ «الطبريُّ»(١) من حديثِ مالِكِ بنِ عبدٍ(٢)، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ لابنِ مسعودٍ: **«لا تُكْثِرْ هَمَّكَ؛ مَا يُقَدَّرُ يَكُنْ، وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ»**(٣).

وذَكَرَ(٤) عنْ طارقِ بنِ شِهابٍ(٥)، عنْ عُمَرَ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهُدَى شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُزَيِّنًا، وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ»**(٦).

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٠٥ح١٠٨٠) بمثله.

(٢) في جميع النسخ كما في الأصل، وقال ابن أبي حاتم في كتابه «الجرح والتعديل» (٨/ ٢١٣ت٩٤٧): «مالك ابن عبد المعافري، ويقال: عبد بن مالك، والصحيح مالك بن عبد»، وفي الرواية التي أشار إليها المؤلف: «مالك بن عبد الله». وقال ابن حجر: «مالك بن عبد الله المعافري السرداري»، قال ابن يونس: «ذكر فيمن شهد فتح مصر، وله رواية عن أبي ذر، روى عنه أبو قتيل» وقال أبو عمر: روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تكثر همك؛ ما قدر يكن**». و انظر ما يأتي.

(٣) قال ابن حجر: «وهذا الحديث أخرجه ابن أبي خيثمة وابن أبي عاصم في «الوحدان»، والبغوي، كلهم من طريق أبي مطيع معاوية بن يحيى، عن سعيد بن أبي أيوب، عن عياش بن عباس الغساني، عن جعفر بن عبد الله بن الحكم، عن مالك بن عبد الله المعافري، أن النبي ﷺ قال لأبي مسعود، فذكره. هذا سياق الحسن ابن سفيان، وسقط جعفر من رواية الآخرين، ولفظه عندهما: مر النبي ﷺ يعني عليه، فقال: «**لا تكثر همك؛ ما يقدر يكن، وما ترزق يأتك**»، وقال البغوي: «لم يروه غير أبي مطيع، وهو متروك الحديث»، وأخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» من طريق أخرى عن الغساني، فقال: عن مالك بن عبادة الغافقي. «الإصابة» ومعه «الاستيعاب» (٣/ ٣٢٨ت٧٦٥٣).

(٤) أي: الطبري في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٠٦)، ح١٠٨٢) بمثله.

(٥) طارق بن شهاب بن عبد شمس بن هلال البجلي، رأى النبي ﷺ وروى عنه مرسلا، وقيل: ليس له صحبة، وروى عن الخلفاء الأربعة، وعنه قيس بن مسلم، وسماك بن حرب، وثقه العجلي وابن معين، توفي سنة (٨٢هـ). انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٦٦)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ٣ - ٤ت٥).

(٦) رواه ابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (١/ ٢٧١ح (١٢٨٣)، والحديث في «ذخيرة الحفاظ المخرج على الحروف والألفاظ» للطبراني (٢/ ٢٣٤٦)، و«الموضوعات» لأبي الفرج الجوزي (١/ ٧٢)، و«ترتيب الموضوعات» للذهبي (١/ ١٨٠)، وقال الدارقطني عن هذا الحديث: باطل. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٦٣٤ت (٢٤٤١). وانظر: «اللآلي المصنوعة» للسيوطي (١/ ٢٥٤)، و«سلسة الأحاديث الضعيفة» للألباني (٥/ ٢٧٥ح٢٢٤٩).

وقالَ ابنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنا عبدُ الرحمنِ بنُ سَلْمَانَ[(١)(٢)]، عنْ عَقِيلٍ، عنْ عِكرمةَ[(٣)]، عن ابنِ عَبَّاسٍ قالَ: خَرَجَ النبيُّ ﷺ فسَمِعَ ناسًا منْ أصحابِهِ يَذْكُرونَ فقالَ: «**إِنَّكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فِي شِعْبَيْنِ بَعِيدَي الْغَوْرِ**[(٤)]، **فِيهِمَا هَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ**»، ولقدْ أَخْرَجَ يَوْمًا كِتابًا فقالَ: «**هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فِيهِ تَسْمِيَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، مُجْمَلٌ**[(٥)] **عَلَى آخِرِهِمْ، لا يَنْقُصُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**»[(٦)].

وفي «التِّرمذيِّ»[(٧)] عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: رَدِفْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «**يَا غُلامُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ احْفَظِ اللَّهَ، يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ؛ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ؛ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ؛ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ؛ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ، لَوْ جَهِدَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ جَهِدَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**».

وفي بعضِ رواياتِ الحديثِ في غيرِ «التِّرمذيِّ»: «**فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ**

---

(١) في (ع): سليمان. والصواب المثبت.

(٢) عبد الرحمن بن سلمان الحجري الرعيني المصري، ثقة، روى عن المطلب وعقيل بن خالد، وعنه ابن وهب. قال ابن يونس: «وهو قريب السن من ابن وهب، يروي عن عقيل بن خالد غرائب ينفرد بها». انظر: «تهذيب التهذيب» (٦/ ١٨٧ - ١٨٨ت٣٧٨).

(٣) عكرمة البربري مولى ابن عباس المدني، روى عن ابن عباس وعلي، وعنه النخعي وعاصم الأحول، قيل: إنه كان يرى رأي الخوارج، أخرج له الأئمه، توفي سنة(١٠٧هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٦٣ - ٢٧٣ت٤٧٥).

(٤) في (ع): الغرز، والصواب المثبت كما في باقي النسخ ومصادر الحديث.

(٥) «**مجمل على آخرهم**»: أي: جمع أهل الجنة وأهل النار، وعقدت جملتهم؛ فلا يزاد فيها ولا ينقص. انظر: «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لابن الأثير (١٠/ ١٠٨).

(٦) رواه ابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (١/ ٢٤٠ - ٢٤١ح١٢٧٧) بنحوه مختصرا، (٣٠٧ - ٣٠٨ح١٣٢٨) بنحوه بأطول منه؛ واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٠٧) ح١٠٨٣) بنحوه. و انظر ما تقدم، (ص١٨٢)، حاشية (٤).

(٧) تقدم تخريجه (١٦٨).

يُعْطُوكَ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ اللَّهُ؛ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَمْنَعُوكَ شَيْئًا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَكَ، وَكَتَبَهُ لَكَ؛ مَا اسْتَطَاعُوا، فَاعْبُدِ اللَّهَ بِالصَّبْرِ مَعَ الْيَقِينِ»(١).

وقالَ عليُّ بنُ الْجَعْدِ(٢): نا عبدُ الواحدِ بنُ سَلِيمٍ البَصْرِيُّ(٣)، عنْ عَطاءِ بنِ أبي رَباحٍ قالَ: سألتُ ابنَ عُبادةَ بنِ الصامتِ(٤): كيفَ كَانَتْ وَصِيَّةُ أَبِيكَ حينَ حَضَرَهُ الموتُ؟ قالَ: جَعَلَ يَقولُ: يا بُنَيِّ اتَّقِ اللَّهَ، واعْلَمْ أَنَّكَ لنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ، ولنْ تَبْلُغَ العلْمِ حتَّى تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ. قُلْتُ: يا أَبَهْ، كيفَ لي أنْ أُؤْمِنَ بالقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ؟ قالَ: تَعَلَّمْ أَنَّ ما أَصابَكَ لمْ يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وأنَّ ما أَخطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصيبَكَ، فإنْ مُتَّ على غيرِ هذا دَخَلْتَ النارَ، سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: **«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ فَجَرَى تِلْكَ السَّاعَةَ بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ»**(٥).

وذَكَرَ «الطبريُّ»(٦) . . . .

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦١٤ - ٦١٥ح١٠٩٦) بمثله بأطول منه، والخطيب البغدادي (١٤/ ١٢٤) بنحوه بأطول منه في آخره، وقد تقدم.

(٢) علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري مولى بني هاشم سمع من: سفيان الثوري ومالك بن أنس، وعنه: البخاري، وأبو داود. رمي بالتجهم، وثقه مسلم ويحيى بن معين. توفي سنة(٢٣٠هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (١١/ ٣٦٠ت٦٢١٥) لأحمد البغدادي، «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٣٤١ت٤٠٣٤).

(٣) عبد الواحد بن سليم المالكي البصري، روى عن عطاء ويزيد الفقير، وعنه أبو داود الطيالسي وعلي بن الجعد، قال الإمام أحمد: «حديثه حديث منكر، أحاديثه موضوعة»، وقال ابن معين: «ضعيف»، روى له الترمذي حديثا واحدا في القدر وصححه. انظر: «تهذيب التهذيب» (٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦ت٩١٣).

(٤) الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري المدني، ولد في حياة النبي ﷺ، روى عن أبيه، وعنه عطاء بن أبي رباح ويزيد بن حبيب، قال العجلي: «شامي تابعي ثقة، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان». «تهذيب التهذيب» (١١/ ١٣٧ت٢٢٨).

(٥) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» في أحاديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (١/ ٧٩ح٥٧٧) وعلي بن الجعد في «مسنده» (٤٩٤ح٣٤٤٤) بمثله وبسنده، والترمذي في «سننه» (١٧) بمثل رواية الطيالسي السابقة، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦١٥) ح١٠٩٧) بمثله، وقد حسنه المقدسي في «الآحاديث المختارة» (٨/ ٣٥٢ح٤٢٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/٢٢٨ - ٢٢٩ح١٧٤٩)، وفي «ظلال الجنة» (٤٨)، (٤٩).

(٦) في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/٦١٦ح١٠٩٨) بمثله، والحديث ضعفه الكناني =

من حديثِ بَقِيَّةَ[(١)]: نا أبو بَكْرٍ الْعَنْسِيُّ[(٢)]، عنْ يَزِيدَ بنِ أبي حَبيبٍ[(٣)]، ومُحَمَّدِ بنِ يَزِيدَ[(٤)]، قالا: ثَنَا نافعٌ[(٥)]، عن ابنِ عُمَرَ قالَ: قالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ[(٦)]: «يا رسولَ اللَّهِ، لا تَزالُ نفسُكَ في كلِّ عامٍ وَجِعَةً منْ تلكَ الشاةِ المسمومةِ التي أكَلْتَها؟ قالَ: **«مَا أَصَابَنِي مِنْ شَيْءٍ مِنْهَا إِلاَّ وَهُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيَّ وَآدَمُ فِي طِينَتِهِ»**.

وفي «صحيحِ مُسلِمٍ»[(٧)] منْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ في خُطْبَةِ النبيِّ ﷺ: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»**.

= في «مصباح الزجاجة». انظر: (٤/ ٧٩). وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (ص٢٨٨ح٧٧٧).

(١) بقية بن الوليد بن صائد بن كعب الكلاعي، صدوق كثير التدليس عن الضعفاء. «تقريب التهذيب» (ص١٢٦ت٧٣٤).

(٢) أبو بكر العنسي، روى عن محمد بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب، وعنه بقية بن الوليد ويحيي بن صالح. قال ابن عدي: «مجهول، له أحاديث مناكير». انظر: «تهذيب الكمال» (٣٣/ ١٥٤ت٧٢٦٤)، «تهذيب التهذيب» (١٢/ ٤٤ت١٧٤).

(٣) يزيد بن أبي حبيب: واسمه سويد المصري، روى عن عراك بن مالك وعطاء بن أبي رباح، وعنه سليمان التيمي والليث، كان مفتي مصر في زمانه، وثقه ابن سعد وابن حبان، توفي سنة (١٢٨هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣١٨ - ٣١٩ت٦١٤).

(٤) محمد بن يزيد الثقفي؛ نزيل مصر، مولى المغيرة بن شعبة، روى عن نافع وكعب بن علقمة، وعنه يزيد بن أبي حبيب وأبو بكر العنسي، مجهول. انظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٥٢٤ت٨٥٩).

(٥) أبو عبد الله نافع القرشي العدوي، مولى ابن عمر، روى عن ابن عمر وعائشة، وعنه مالك والأوزاعي، بعثه عمر بن عبد العزيز إلى أهل مصر يعلمهم السنن، توفي سنة (١١٧هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٩٥ - ١٠١ت٣٤).

(٦) هي أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية، أسلمت قديمًا، وهاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة، تزوجها رسول الله ﷺ بعد وفاة زوجها أبي سلمة سنة (٤هـ)، كانت من أعقل النساء، وهي التي أشارت على رسول الله ﷺ يوم الحديبية بالحلق، روت عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا، كانت من آخر أمهات المؤمنين موتًا؛ حيث توفيت سنة (٦٣هـ). انظر: «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (٤/ ٤٣٩ - ٤٤١ت١٣٠٩).

(٧) كتاب الجمعة، باب في خطبته ﷺ (٦/ ٤٦٦ح٨٦٨نووي) بمثله بأطول منه.

وفي «صحيحِهِ»[١] أيضًا عنْ زيدِ بنِ أَرْقَمَ[٢]: كانَ النبيُّ ﷺ يَقولُ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا**».

وفي «صحيحِهِ»[٣] أيضًا عنْ عَلِيٍّ عن النبيِّ ﷺ في دُعاءِ الاستفتاحِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ؛ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الأَخْلَاقِ؛ لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ**».

وفي «التِّرمذيِّ»[٤] وَ«المُسْنَدِ»[٥] من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَينٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ عَلَّمَ أباهُ هذا الدُّعاءَ: «**اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي**».

ورَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ[٦] عنْ خالدٍ الْحَذَّاءِ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ الحارثِ[٧] قالَ: قامَ عمرُ

---

(١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الأدعية (١٧/ ٢٠٣ - ٢٠٤ - ح٢٧٢٢نووي) بمثله في وسطه بأطول منه.

(٢) هو الصحابي الجليل: زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الخزرجي، رده النبي ﷺ يوم أحد لصغره، وأول مشاهده الخندق، توفي سنة (٦٦هـ) بالكوفة. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٦٥ - ١٦٨ت٢٧).

(٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل (٦/ ٣٩١ - ٣٩٢) ح٧١٧نووي) بنحوه بأطول منه في أثنائه في أوله.

(٤) كتاب الدعوات، باب (٧٠) (٥/ ٥١٩ - ٥٢٠ح٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث غريب. وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه، وضعف رواية الترمذي الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (١/ ٦٩٠).

(٥) لأحمد بن حنبل (٤/ ٤٤٤) بنحوه بأطول منه في وسطه، والحديث صححه ابن حبان في «صحيحه» (٣/ ١٨١ - ١٨٢ح٨٩٩)، والحاكم في «المستدرك»، ووافقه الذهبي. انظر: (١/ ٦٩١ح١٨٨٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠) / ١٨١): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في «الإصابة» مع «الإستيعاب» (١/ ٣٣٦) ت (١٧٣٥): روى أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن ربعي، عن عمران بن حصين، أن حصينا أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم، الحديث.

(٦) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الإمام الورع العالم العامل الفقيه المحدث، قال شعبة وابن عيينة وغيرهما: هو أمير المؤمنين في الحديث، توفي بالبصرة سنة (١٦١هـ). انظر: «البداية والنهاية» (١٠/ ١٣٤)، «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٢٩ - ٢٧٩ت٨٢).

(٧) عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي، ولد على عهد النبي ﷺ فحنكه، تحول إلى البصرة، واصطلح عليه أهلها بعد وفاة يزيد بن معاوية، روى عن النبي ﷺ مرسلا، وعن عمر وعثمان، وعنه السبيعي والزهري، قال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة، توفي سنة (٧٩هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (٥/ ١٨٠ - ١٨١ت٣١٠).

ابنُ الْخَطَّابِ بالْجَابِيَةِ[(١)] خَطيبًا فقالَ في خُطْبَتِهِ: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»، وعندَهُ الْجَاثَلِيقُ[(٢)] يَسْمَعُ ما يَقولُ، قالَ: فنَفَضَ ثَوْبَهُ كهَيْئَةِ الْمُنْكِرِ، فقالَ عُمَرُ: ما يَقولُ؟ قالُوا: يا أميرَ المؤمنينَ، يَزْعُمُ أنَّ اللَّهَ لا يُضِلُّ أحدًا، قالَ: كَذَبْتَ يا عَدُوَّ اللَّهِ، بل اللَّهُ خَلَقَكَ وهوَ أَضَلَّكَ وهوَ يُدْخِلُكَ النَّارَ - إنْ شاءَ اللَّهُ - أمَا واللَّهِ لَوْلا وَلْثُ[(٣)] عَهْدٍ لكَ لضَرَبْتُ عُنُقَكَ، إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخلْقَ، فخَلَقَ أهلَ الْجَنَّةِ وما هُمْ عَامِلُونَ، وخَلَقَ أهلَ النارِ وما هُمْ عاملونَ، قالَ: هؤلاءِ لهذهِ، وهؤلاءِ لهذهِ»[(٤)].

وذَكَرَ «الطبريُّ»[(٥)] عنْ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ قالَ: خلَقَ اللَّهُ الخلْقَ فكَانُوا في قَبْضَتِهِ، فقالَ لِمَنْ في يَمِينِهِ: ادْخُلُوا الجنَّةَ بِسَلامٍ، وقالَ لِمَنْ في يَدِهِ الأُخْرَى: ادْخُلُوا النارَ ولا أُبَالِي. فذَهَبَتْ إلى يوم القِيامةِ.

وقالَ ابنُ عمرَ: جاءَ رجلٌ إلى أبي بكرٍ فقالَ: أرأيتَ الزِّنَا، بقَدَرِ اللَّهِ؟ فقالَ: نَعَمْ، قالَ: فإنَّ اللَّهَ قَدَّرَهُ عليَّ ثمَّ يُعَذِّبُنِي؟ قالَ: نَعَمْ يا ابنَ اللَّخْنَاءِ[(٦)]، أَمَا واللَّهِ لوْ كانَ عِنْدِي

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر في شمال حوران وفي القرب منها تل يسمى تل الجابية. وفي هذا الموضع خطب عمر رضي الله عنه خطبته المشهورة. «معجم البلدان» لياقوت الحموي باب الجيم والألف وما يليهما (٢/ ٩٢).

(٢) الجاثليق، بفتح الثاء المثلثة: رئيس للنصارى في بلاد الإسلام بمدينة السلام، ويكون تحت يد بطريق أنطاكية، ثم المطران تحت يده «القاموس المحيط» باب القاف، فصل الجيم: (ص١١٢٥).

(٣) الولث: العهد غير المحكم والمؤكد. «النهاية في غريب الحديث» لابن قتيبه (٥/ ٢٢٢).

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٢٣ح٩٢٩)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٣٩ - ٨٤١) ح٤١٧/ ٤١٨)، وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ١٢٩ - ١٣١ح١٥٦٠، ١٥٦١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» بثلاث طرق (٤/ ٦٥٩ - ٦٦١ح١١٩٧)، (١١٩٨، ١١٩٩).

(٥) في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٦٢ - ٦٦٣ح١٢٠٣، ١٢٠٤)، ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١٢٣ح٢٠٠٩٤)، وابن بطة في «الإبانة» - كتاب القدر (١/ ٣١٢ح١٣٣٥)، وجميعهم من طريق عبد الرحمن بن سابط، وقد ذكر ابن حجر في «الإصابة» أنه لا يصح له سماع من صحابي. انظر: «الإصابة» (٣/ ١٤٨ت٦٦٨٨).

(٦) اللخناء: هي المرأة التي لم تختن، وقيل: اللخن: النتن، وقد لخن السقاء يلخن. «غريب الحديث» (٤/ ٢٤٤).

إنسانٌ؛ أَمَرْتُ أَنْ يَجَأَ[١] أَنْفَكَ[٢].

وذُكِرَ عنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ ذُكِرَ عندَهُ القدَرُ يومًا، فأَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ السبابةَ والوُسْطَى في فِيهِ، فَرَقَمَ بهما باطِنَ يَدِهِ فقالَ: «أَشْهَدُ أَنَّ هَاتَيْنِ الرَّقْمَتَيْنِ كَانَتَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ»[٣].

وذُكِرَ عنهُ أيضًا أَنَّهُ قالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لنْ يَخْلُصَ الإيمانُ إلى قلبِهِ حتَّى يَسْتَيْقِنَ يَقِينًا غيرَ ظَنٍّ أَنَّ ما أصابَهُ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وأَنَّ ما أَخْطَأَهُ لَمْ يكُنْ ليُصِيبَهُ، ويُقِرَّ بالقدَرِ كلِّهِ»[٤].

وذَكَرَ «البخاريُّ»[٥] عن ابنِ مسعودٍ أَنَّهُ قالَ في خُطبتِهِ: «الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ».

وقالَ ابنُ مسعودٍ: «لأَنْ أَعَضَّ عَلَى جَمْرٍ[٦]، أَوْ أَقْبِضَ عَلَيْهَا حَتَّى تَبْرُدَ فِي يَدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لِشَيْءٍ قَضَاهُ اللَّهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ»[٧].

وقالَ: «لا يَطْعَمُ رجلٌ طَعْمَ الإيمانِ حتَّى يُؤْمِنَ بالْقَدَرِ، ويَعْلَمَ أَنَّهُ مَيِّتٌ، وأَنَّهُ مَبعوثٌ منْ بعدِ الموتِ»[٨].

---

(١) وجأه: إذا ضربه بسكين أو نحوه. انظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٥٠).

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٦٣ح١٢٠٥) بمثله، إلا في «اللخناء»؛ قيل: «الخناء»، وفي (٤/ ٦٩٨) ح١٢٩٣) بمثله موقوفا على ابن عمر.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٣٢ح٩٥٥)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٤٤ح٤٢١) وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ١٣٩ - ١٤٠ح١٥٨١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٦٦ح١٢١٣).

(٤) رواه ابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٥٨ - ٥٩ح١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٦٦)ح ١٢١٤).

(٥) لم يروه البخاري، وقد تقدم.

(٦) كذا في جميع النسخ، وفي المصدرين الآتيين: «جمرة».

(٧) رواه ابن بطة في في «الإبانة» (٢/ ٥٧، ٥٨، ١٥٠)ح١٤٥٧)، (١٥٩٥) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٦٧ح (١٢١٧).

(٨) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١١٨ح٢٠٠٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٧٢ح (٨٧٨٨)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٤٩ - (٨٥٠) ح٤٢٥)، وابن بطة في «الإبانة» كتاب القدر (٢/ ٥٧ح١٤٥٥)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٦٧ح١٢١٨).

وقالَ الأعمشُ، عنْ خَيْثَمَةَ[١]، عن ابنِ مسعودٍ: «إنَّ العبدَ لَيُهَمُّ بالأمْرِ من التجارةِ والإمارةِ حتَّى يَتَيَسَّرَ لهُ، نَظَرَ اللَّهُ إليهِ منْ فَوقِ سبعِ سماواتٍ، فيَقولُ للملائكةِ: اصْرِفُوا عنهُ؛ فإنِّي إنْ يَسَّرْتُهُ لهُ أَدْخَلْتُهُ النارَ». قالَ: فيَصْرِفُهُ اللَّهُ عنهُ. قالَ: فيقولُ: مِنْ أَيْنَ دُهِيتُ؟ أوْ نحوَ هذا، وما هوَ إلاَّ فَضْلُ اللَّهِ ﷻ»[٢].

وذَكَرَ الزُّهريُّ، عنْ إبراهيمَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ[٣]، «أنَّ عبدَ الرحمنِ بنَ عَوْفٍ[٤] مَرِضَ مَرَضًا شديدًا؛ أُغْمِيَ عليهِ فأَفاقَ فقالَ: أُغْمِيَ عَلَيَّ؟ قالُوا: نَعَمْ.

قالَ: إنَّهُ أَتَانِي رَجُلانِ غَليظانِ فأَخَذا بِيَدَيَّ فقالا: انْطَلِقْ نُحاكِمْكَ إلى العزيزِ الأمينِ، فانْطَلَقا بي، فتَلَقَّاهُما رجلٌ فقالَ: أينَ تُريدانِ بهِ؟ قالا: نُحاكِمُهُ إلى العزيزِ الأمينِ، فقالَ: دَعاهُ؛ فإنَّ هذا مِمَّنْ سَبَقَتْ لهُ السعادةُ وهوَ في بَطْنِ أُمِّهِ»[٥].

---

(١) خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي، روى عن أبيه وعائشة، وعنه عمرو بن مرة ومنصور بن المعتمر. قال أحمد وأبو حاتم: لم يسمع من ابن مسعود شيئا، إنما روى عن الأسود عن عبد الله. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٢٠ - ٣٢١ت١١٥)، «جامع التحصيل» للعلائي (ص١٧٣).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص٣٣ح١٢٩)، وهناد في «الزهد» أيضا (١/ ٢٣٨ - ٢٣٩ - ح٤٠٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٦٨) ح١٢١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٣٢٣ح١٠٤٥٥).

(٣) إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني، روى عن أبيه وعمر وعثمان، وعنه ابناه سعد وصالح والزهري. وثقه العجلي وابن أبي شيبة، توفي سنة (٩٦هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (١/ ١٣٩- ١٤٠ت٢٤٨).

(٤) هو الصحابي الجليل: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشي، أحد السابقين إلى الإسلام، وجمع بين الهجرتين، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى الذين عينهم عمر رضي الله عنه، سيد من سادات المسلمين، ومن أغنياء الصحابة، ومن أهل الإنفاق في سبيل الله، توفي بالمدينة سنة (٢٣هـ). انظر: «الاستيعاب» (٢/ ٨٤٤ - ٨٥٠ت١٤٤٦)، «الإصابة» (٢/ ٤٠٨ - ٤١٠ت٥١٨١).

(٥) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١١٢ح٢٠٠٦٥)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٦١ - ٨٦٢ - ح٤٣٦)، وفي (ص٨٦٣ح٤٣٧)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ١٤٣ - ١٤٤) ح١٥٨٦، ١٥٨٧)، والحاكم في «المستدرك». (٢/ ٢٩٦ح٣٠٦٦)، وقال: على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي. واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٦٨ - ٦٦٩)ح١٢٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١١٥ح٣٠٦٦).

وقالَ ابنُ جُرَيْجٍ[١] عن ابنِ طَاوسٍ[٢]، عنْ أبيهِ قالَ: «أَشْهَدُ لسَمِعْتُ ابنَ عبَّاسٍ يقولُ: العجْزُ والْكَيْسُ بِقَدَرٍ»[٣].

وقالَ مُجَاهِدٌ: «قيلَ لابنِ عبَّاسٍ: إنَّ ناسًا يَقولونَ في القَدَرِ، قالَ: يُكَذِّبُونَ بالكتابِ، لَئِنْ أَخَذْتُ بشَعْرِ أحدِهم لأَنْصُوَنَّهُ[٤]؛ إنَّ اللَّهَ ﷻ كانَ على عَرْشِهِ قبلَ أنْ يَخْلُقَ شَيْئًا، فخَلَقَ القلَمَ، فكتَبَ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القِيامةِ، فإنَّمَا يَجْرِي الناسُ على أَمْرٍ قدْ فُرِغَ منهُ»[٥].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ أيضًا: «القَدَرُ نِظامُ التوحيدِ، فمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ ولمْ يُؤْمِنْ بالقَدَرِ كانَ كُفْرُهُ بالقضاءِ نَقْضًا للتوحيدِ، ومَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وآمَنَ بالقَدَرِ؛ كانت العُرْوَةُ الوُثْقَى لا

---

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي المكي، أحد الأعلام الفقهاء المشاهير، أول من دون العلم بمكة، روى عن نافع وطاوس، وعنه الأوزاعي والليث، من الثقات الفقهاء، يرسل ويدلس، روى له أصحاب الكتب الستة وغيرهم، توفي سنة (١٥٠هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٢٥ - ٣٣٦ت١٣٨)، «تقريب التهذيب» (ص٣٦٣ت٤١٩٣).

(٢) عبد الله بن طاوس بن كيسان اليماني، ثقة فاضل دين، سمع أباه وعكرمة، وعنه الثوري وابن عيينة. وثقه النسائي والعجلي وابن أبي حاتم وابن حبان، توفي سنة (١٣٢هـ). انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ١٢٣ت٣٦٥)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ٢٦٧ - ٢٦٨ت٤٥٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١١٧ح٢٠٠٨٠)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٤٦)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٧٠) (٤٤٨)، وابن بطة في «الإبانة»، كتاب القدر (٢/ ١٥٨، ١٦٦) ح١٦١٧، ١٦٤٠)، واللالكائي «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٦٩) ح١٢٢١).

(٤) في (ع): (لأنضونه)، وفي «جامع البيان» للطبري (جزء٢٩ص١٧): «لآخذن بشعر أحدهم، فلا يقصن به»؛ وفي «التاريخ» له أيضا (١/ ٢٩): «فلأنفضن به»؛ وفي «الشريعة» (٢/ ٧٧٠): «فلأنصونه»؛ وفي «الإبانة» لابن بطة (١/ ٣٣٨) مثل ما في «الشريعة»، وفي «السنة» للالكائي (٣/ ٣٩٦): «لأنضونه»، وفي (٤/ ٦٦٩) «لأنصونه». ولعل المقصود (لأنصونه) أو (لأنضونه)، فعلى معنى الأول: «لآخذن بمقدم رأسه ولم أدعه»، وفيه معنى الذلة انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ٦٧)، و«الغريب» لابن سلام (٤/ ٣١٤)، و«لسان العرب» (١٤/ ١٦٩) وما بعدها. وعلى معنى الثاني: «لأنزعنه» انظر: «اللسان» (١٤/ ١٨١) وما بعدها.

(٥) رواه ابن جرير في «جامع البيان» للطبري (جزء٢٩ص١٧)، وفي «التاريخ» له أيضا (١/ ٢٩)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٧٧٠ح٣٥١)، وفي «الإبانة» لابن بطة (١/ ٣٣٨) ح١٣٧١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٩٦ح٦٦٠)، وفي(٤/ ٦٦٩ - ٦٧٠ح١٢٢٣).

انْفِصَامَ لها»[١].

وقالَ عطاءُ بنُ أبي رَبَاحٍ: كُنْتُ عندَ ابنِ عبَّاسٍ، فجاءَهُ رجُلٌ فقالَ: «يابنَ عَبَّاسٍ، أَرَأَيْتَ مَنْ صَدَّنِي عن الْهُدَى، وأَوْرَدَنِي دارَ الضَّلالةِ والرَّدَى، ألا تَرَاهُ قدْ ظَلَمَنِي؟! فقالَ: «إنْ كانَ الْهُدَى شيئًا كانَ لَكَ عندَهُ فمَنَعَكَهُ فقدْ ظَلَمَكَ، وإنْ كانَ الْهُدى هوَ لهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ فلمْ يَظْلِمْكَ، قُمْ لا تُجَالِسْنِي»[٢].

وقال عِكرمةُ، عن ابنِ عبَّاسٍ: «كانَ الْهُدْهُدُ يَدُلُّ سُليمانَ على الماءِ، فقُلْتُ لهُ: وكيفَ ذاكَ والهُدْهُدُ يُنْصَبُ لهُ الْفَخُّ عليهِ التُّرابُ؟! فقالَ: أَعَضَّكَ اللَّهُ بِهَنِّ أَبِيكَ! إذا جاءَ القضاءُ ذَهَبَ البَصَرُ»[٣].

وقالَ الإمامُ أحمدُ: ثنا إسماعيلُ[٤]، أنا أبو هَارُونَ الغَنَوِيُّ[٥]، نا أبو سُلَيْمَانَ[٦]

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٢٢ح٩٢٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/ ١٧٣ح٣٥٧٣)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٧٥، ٨٧٧ح٤٥٦ ٤٥٧)، وابن بطة في «الإبانة»، كتاب القدر(٢/ ١٥٨ - ١٥٩ح١٦١)، ح١٦١٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٧٠) ح١٢٢٤) و العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٤٥ح١٧١١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني في «الأوسط» وهو ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/ ٤١٣٢).

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٧٠ - ٦٧١ح١٢٢٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ص٦٤) بنحوه.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٤١٢)، (٤٢٤ح٩٠٠)، (٩٣١)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (جزء٢٩ص١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٤٠ح٣٥٢٥، ح٣٥٢٦) بنحوه بأطول منه، وقال: على شرطهما، ووافقه الذهبي؛ واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧١) ح١٢٢٨).

(٤) إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي البصري المعروف بابن علية، روى عن بهز بن حكيم وابن جريج، وعنه أحمد بن حنبل وبقية بن الوليد. قال ابن معين: كان ثقة مأمونا صدوقا مسلما ورعا تقيا. قال النسائي: ثقة ثبت. روى له الجماعة، توفي سنة (١٩٣هـ). انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ٢٣ - ٣٢ت٤١٧).

(٥) إبراهيم بن العلاء أبو هارون الغنوي، روى عن عكرمة ومطرف، روى عنه شعبة وإسماعيل ابن علية، وثقه أبو زرعة ويحيى بن معين وأبو داود وغيرهم، وقال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة. انظر: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٢/ ١٢٠ت٣٦٧)، «لسان الميزان» (١/ ٨٣ - ٨٤ت٢٣١).

(٦) في (ك) و(س): سلمان.

الأَزْدِيُّ[١]، عنْ أبي يَحْيَى مَوْلَى بني عَفْرَاءَ[٢] قالَ: «أَتيتُ ابنَ عبَّاسٍ ومعي رجلانِ من الذينَ يَذْكُرونَ القَدَرَ، أوْ يُنْكِرُونَهُ، فقُلْتُ: يا بنَ عبَّاسٍ، ما تَقولُ في القَدَرِ؛ فإنَّ هؤلاءِ يَسْأَلُونَكَ عن القَدَرِ، إنْ زَنَى، وإنْ سَرَقَ، وإنْ شَرِبَ؟ قال: فحَسَرَ قميصَهُ حتَّى أَخْرَجَ مَنْكِبَيْهِ وقالَ: يا أبا يَحْيَى، لعَلَّكَ مِن الذينَ يُنْكِرونَ القَدَرَ ويُكَذِّبُونَ بهِ، واللَّهِ لوْ أَعْلَمُ أنَّكَ منْهُمْ أوْ هذَيْنِ معكَ لَجاهَدْتُكُمْ؛ إنْ زَنَى فَبِقَدَرٍ، وإنْ سَرَقَ فبِقَدَرٍ، وإنْ شَرِبَ الخمرَ فبِقَدَرٍ»[٣].

وصَحَّ عن ابنِ عُمَرَ، أنَّ يَحْيَى بنَ يَعْمُرَ[٤] قالَ لهُ: «إنَّ أُناسًا يقولونَ: لا قَدَرَ، وإنَّ الأمْرَ أُنُفٌ[٥]، فقالَ: إذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فأَخْبِرْهُم أنَّ ابنَ عمرَ منهمْ بريءٌ، وأنَّهم بَرَاءٌ منهُ»[٦].

---

(١) ذكره البخاري في «الكنى» (١/ ٣٧ت٣٢٧)، ومسلم في «الكنى والأسماء» (١/ ٣٧٧ت١٤٠٠)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ٣٨٠ت١٧٧١).

(٢) مصدع أبو يحيى الأعرج الأنصاري، وقال بعضهم: هو أبو يحيى مولى ابن عفراء، روى عن ابن عباس وعائشة، وروى عنه شمر بن عطية وهلال بن يساف. قال عمار الدهني: كان مصدع أبو يحيى عالما بابن عباس، قال ابن حبان: كان يخالف الأثبات في الروايات، وينفرد بالمناكير، روى له الجماعة إلا البخاري.
انظر: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٨/ ٤٢٩ت١٩٦٢)، «تهذيب الكمال» (٢٨/ ١٤ - ١٥ت٥٩٧٨) «تهذيب التهذيب» (١٠/ ١٥٧ - ١٥٨ت٢٩٩).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٢٥ - ٤٢٦ح٩٣٧) بنحوه؛ واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧١ - ٦٧٢ح١٢٣٠) بنحوه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩١): رواه الطبراني، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

(٤) يحيي بن يعمر البصري القيسي قاضي مرو، روى عن عثمان وابن عمر، وعنه قتادة وعكرمة، كان من فصحاء أهل زمانه، قيل: إنه أول من نقط المصاحف، وثقه أبو زرعة وأبو حاتم والنسائي. انظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٠٥ - ٣٠٦ت٥٨٨).

(٥) أنف: أي: يستأنف استئنافا من غير أن يسبق به سابق قضاء وتقدير، وإنما هو على اختيارك ودخولك فيه.
«لسان العرب» باب الهمزة (١/ ٢٣٨).
انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٩٩)، و«الفائق في غريب الحديث» (٣/ ٢١٨)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (٤/ ٤٤).

(٦) رواه مسلم في «صحيحه» (١/ ١٢٦ - ١٣٣ح٨نووي)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٢٢ح٩٢٦)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٧٢ح١٢٣١).

وقدْ تَقَدَّمَ قولُ أُبَيِّ بنِ كعبٍ، وحُذيفةَ، وابنِ مسعودٍ، وزيدِ بن ثابتٍ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قُبِلَ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ».

وتَقَدَّمَ قولُ عُبادةَ بنِ الصامِتِ: «لنْ تُؤْمِنَ حتَّى تُؤْمِنَ بالقدَرِ خيرِهِ وشَرِّهِ، وتَعْلَمَ أنَّ ما أصابَكَ لمْ يَكُنْ ليُخْطِئَكَ، وما أخطأَكَ لمْ يكُنْ ليُصيبَكَ».

وقالَ قَتادةُ[١] عنْ أبي السَّوَّارِ[٢]، عنِ الحسنِ بنِ عليٍّ قالَ: «قُضِيَ القضاءُ، وجَفَّ القَلَمُ، وأُمورٌ بقَضاءٍ في كِتابٍ قدْ خَلا»[٣].

وقالَ عمرُو بنُ العَاصِ: «انتهى عَجَبِي إلى ثلاثٍ: المرءُ يَفِرُّ من القَدَرِ وهوَ لاقِيهِ، ويَرَى في عينِ أخيهِ القَذَا فيَعِيبُها، ويكونُ في عينِهِ مثلُ الْجِذْعِ فلا يَعِيبُها، ويكونُ في دابَّتِهِ الصَّغَنُ[٤] فيُقَوِّمُها جَهْدَهُ، ويكونُ في نفسِهِ الضغْنُ[٥] ....

---

(١) قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري الأعمى، أحد علماء التابعين، كان حافظًا عالمًا بالتفسير فقيهًا، قال سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة»، وقال أحمد: «كان قتادة أحفظ أهل البصرة؛ لم يسمع شيئا إلا حفظه»، توفي سنة (١١٧هـ). انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٧/ ١٨٥ - ١٨٦ت٨٢٧) «طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص٥٤ - ٥٥ت١٠٤).

(٢) أبو السوار العدوي البصري، قيل: اسمه حسان بن حريث، وقيل: حريث بن حسان، وقيل: حريف بالفاء وقيل: منقذ، وقيل: إنه حجير بن الربيع العدوي، روى عن جندب بن عبد الله والحسن بن علي بن أبي طالب، روى عنه أشعث بن عبد الله بن جابر وقتادة، وثقه ابن سعد وأبو داود، روى له البخاري ومسلم والنسائي. انظر: «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٣٩٢ت٧٤١٩).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٠٣، ٤٠٥)، ح٨٧٥، ٨٨١)، والطبراني في «الجامع الكبير» (٣/ ٦٧ - ٦٨ح٢٦٨٤)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٩٧١ - ٩٧٢ح٥٦٩)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٢٩٣ح١٩٤٦) بنحوه؛ واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧٤ح١٢٣٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٣). قال في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩١): رواه الطبراني، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات. ورواية الطبراني ليس فيها ليث المذكور.

(٤) في الأصل: الظعن وفي (ع): الطعن، وفي (ك) و(س): الظفر، وفي الأصل: والصواب: الضغن، والمراد به: أن تكون الدابة عسرة الانقياد. انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٤٨٢)، و«الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (٢/ ٣٤٢)، و«النهاية في غريب الحديث» للجزري (٣/ ٩٢).

(٥) في الأصل: الظعن، وفي(ع): الطعن.

فلا يُقَوِّمُها»[١].

وقالَ أبو الدَّرْدَاءِ[٢]: «ذُرْوَةُ الإيمانِ أربعٌ: الصبرُ للحُكْمِ، والرِّضَا بالقَدَرِ، والإخلاصُ للتَوَكُّلِ، والاستسلامُ للرَّبِّ»[٣].

وقالَ الحجَّاجُ الأزْدِيُّ[٤]: «سأَلْنَا سَلمانَ: ما الإيمانُ بالقَدَرِ؟ فقالَ: أنْ تَعْلَمَ أنَّ ما أصابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخْطِئَكَ، وما أَخطأَكَ لَمْ يكُنْ ليُصِيبَكَ»[٥].

وقالَ سَلمانُ أيضًا: «إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فأَخْرَجَ منهُ ذَرَارِيَّ إلى يومِ القِيامةِ، فكَتَبَ الآجالَ والأرزاقَ والأعمالَ والشِّقوةَ والسعادةَ، فَمِنْ عَمَلَ السعادةِ فِعلُ الخيرِ، ومجالسُ الخيرِ، ومِنْ عَمَلِ الشقاوةِ فِعْلُ الشرِّ ومَجالِسُ الشرِّ»[٦].

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللَّهِ[٧]: «لا يُؤْمِنُ عبدٌ حتَّى يُؤْمِنَ بالقَدَرِ كلِّهِ، خيرِهِ وشَرِّهِ، ما أصابَهُ لَمْ يكُنْ ليُخْطِئَهُ، وما أَخطأَهُ لَمْ يكُنْ ليُصِيبَهُ»[٨].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص٥٠٨ح١٤٤٨)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧٤ح١٢٣٥) بنحوه؛ والبغدادي في «تاريخ بغداد» (٨/ ١٠٥) بنحوه.

(٢) هو الصحابي الجليل: عويمر بن مالك بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري، أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا وما بعدها، معدود فيمن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، ولي قضاء دمشق لعثمان رضي الله عنه وتوفي بها سنة (٣٢هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٣٥ - ٣٥٣ت٦٨)، و«الإصابة» (٣/ ٤٦ت٦١١٩).

(٣) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧٦ح١٢٣٨) بمثله.

(٤) في مصادر الأثر: أبو الحجاج الأزدي ولم أقف له على ترجمة حسب جهدي.

(٥) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٢١ح٩٢٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٢٠ ٦٠٦٠)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٥٥ح٤٣٣)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ١٧٠ ١٦٥٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧٦ - ٦٧٧ح١٢٤٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٩): رواه الطبراني، وأبو الحجاج لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٦) رواه الآجري في «الشريعة» (٢/ ٨٥٣) ح٤٣٠)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ١٦٩ - ١٧٠ح١٦٥٢)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٧٧ح١٢٤١).

(٧) هو الصحابي الجليل: أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، من المكثرين للرواية عن النبي ﷺ، شهد العقبة وأكثر المشاهد مع رسول الله ﷺ، كان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ بعد وفاته توفي سنة (٧٤هـ). انظر: «الإصابة» لابن حجر ومعه «الاستيعاب» (١/ ٢١٤ - ٢١٥ت١٠٢٦).

(٨) رواه الترمذي في «سننه» (٤/ ٤٥١ح٢١٤٤)، وقال: قال أبو عيسى: وفي الباب عن عبادة وجابر وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر =

وقالَ هِشامٌ[١]، عنْ أبيهِ[٢]، عنْ عائشةَ: «إنَّ العبدَ ليَعْمَلُ الزمانَ بعَملِ أهلِ الجنَّةِ، وإنَّهُ عندَ اللَّهِ لمكتوبٌ منْ أهلِ النارِ»[٣].

والآثارُ في ذلكَ أكثرُ منْ أنْ تُذْكَرَ، وإنَّما أشَرْنا إلى بعضِها إشارةً[٤].

فصلٌ

تحريرُ مَقَامَي القَدَرِ

فالجوابُ أنَّ هاهُنا مَقامَيْنِ:

مقامُ إيمانٍ وهُدًى ونَجاةٍ.

ومَقامُ ضَلالٍ ورَدًى وهلاكٍ، زَلَّتْ فيهِ أقدامٌ فَهَوَتْ بأصحابِها إلى دارِ الشقاءِ.

فأمَّا مَقامُ الإيمانِ والْهُدَى والنجاةِ: فمَقامُ إثباتِ القَدَرِ والإيمانِ بهِ، وإسنادِ جميعِ الكائناتِ إلى مَشيئةِ ربِّها وبَارِئِها وفاطِرِها، وأنَّهُ ما شاءَ كانَ، وإنْ لمْ يَشَأِ الناسُ، وما لمْ يَشَأْ لمْ يكُنْ، وإنْ شاءَهُ الناسُ.

وهذهِ الآثارُ الَّتي ذُكِرَتْ كلُّها تُحقِّقُ هذا الْمَقامَ، وتُبَيِّنُ أنَّ مَنْ لمْ يُؤْمِنْ بالقَدَرِ؛ فقد انْسَلَخَ من التوحيدِ، ولَبِسَ جِلبابَ الشرْكِ، بلْ لمْ يُؤْمِنْ باللَّهِ ولمْ يَعْرِفْهُ، وهذا في كلِّ كتابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ على كلِّ رسولٍ أَرْسَلَهُ.

وأمَّا الْمَقامُ الثاني - وهوَ مَقامُ الضلالِ والرَّدَى والهلاكِ -: فهوَ الاحتجاجُ بهِ على

= الحديث. واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٧٨ح١٢٤٢)، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٥٦٦ - ٥٦٨ح٢٤٣٩) بعد أن عدد طرقه.

(١) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، ثقة فقيه متقن، وربما دلس، أخرج له الستة، توفي سنة (١٤٦هـ). انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر (ص٥٧٣ت٧٣٠٢).

(٢) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي؛ أحد الفقهاء السبعة، كان عالمًا فقيهًا عابدًا، كثير الحديث، روى عن أبيه وخالته عائشة، وعنه ابن شهاب، وبكر بن سوادة، توفي سنة (٩٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٤٢١ - ٤٣٧ت١٦٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١/ ١٠٧ - ١٠٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨/ ١٢٨) ح٤٦٦٨) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٦٧٨ح١٢٤٣) بمثله. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٢): رواه أحمد وأبو يعلى بأسانيد، وبعض أسانيد رجاله رجال الصحيح.

(٤) مجمل هذه الآثار في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي، وقد أشير إلى موضعها عند ذكرها.

الاحتجاجُ بالقَدَرِ على اللهِ فِعْلُ الهالكينَ

اللَّهِ، وحَمْلُ العبدِ ذَنْبَهُ على ربِّهِ، وتَنْزِيهُ نفسِهِ الجاهِلَةِ الظالمةِ الأمَّارةِ بالسوءِ، وجَعْلُ أرحمِ الراحمينَ، وأَعْدَلِ العادلينَ، وأَحْكَمِ الحاكمينَ، وأَغْنَى الأغنياءِ أَضَرَّ على العِبادِ مِنْ إبليسَ كما صَرَّحَ بهِ بعضُهم، واحْتَجَّ عليهِ بما خَصَمَهُ فيهِ مَنْ لا تُدْحَضُ حُجَّتُهُ، ولا تُطاقُ مُغالَبَتُهُ، حتَّى يَقولَ قائلُ هؤلاءِ[1]:

أَلقاهُ في الْيَمِّ مَكتوفًا وقالَ لَهُ ... إيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ[2]

ويَقولُ قائلُهم[3]:

دَعانِي وسَدَّ البابَ دُونِي فَهَلْ ... إلى دُخولِي سبيلٌ؟ بَيِّنُوا لِي قِصَّتِي

ويقولُ الآخَرُ[4]:

وضَعُوا اللحمَ للبُزَاةِ ... على ذُرْوَتَيْ عَدَنْ

---

(١) القائل هو الحسين بن منصور الحلاج؛ من أهل بيضاء من بلاد فارس، نشأ بواسط والعراق، كان جده مجوسيًّا، كان ابتداء حاله يُظهر الزهد والتصوف، ويظهر للناس بعض المخاريق والدجل وضروبًا من الشعوذة، فلما افتضح أمره أفتى أكثر علماء عصره بإباحة دمه. قتل مصلوبًا بسبب زندقته سنة (٣٠٩هـ). انظر ترجمته وبعض أقواله «تاريخ بغداد» (٨/ ١١٢ - ١٤٠)، ترجمة٤٢٣٢)، و«الكامل» في التاريخ لمحمد الشيباني (٧/ ٤ - ٦).

(٢) «وفيات الأعيان» (٢/ ١٤٣).

(٣) لما ظهر السؤال الذي أظهره بعض المعتزلة، وكتم اسمه، وجعله على لسان بعض أهل الذمة وهو:

أيا علماء الدين ذمي دينكم ... تحير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ... ولم يرضه مني فما وجه حيلتي
دعاني وسد الباب عني فهل ... إلى دخولي سبيل بينوا لي قضيتي

ويقال: إن هذا الناظم هو ابن البققي؛ الذي ثبت عليه أقوال تدل على الزندقة، وقتل بسيف الشرع الشريف في ولاية الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد القشيري، وكان مقصد هذا السائل الطعن على الشريعة، فانتدب أكبر علماء مصر والشام لجوابه نظما؛ منهم الشيخ علاء الدين، فقال فيما أنشدنا عنه الشيخ ناصر الدين البساسي من لفظه قال: أنشدنا الشيخ علاء الدين الباجي لنفسه من لفظه:

أيا عالما أبدى دلائل حيرة ... يروم اهتداء من أهيل فضيلة
لقد سرني أن كنت للحق طالبا ... عسى نفحة للحق من سحب رحمة
فبالحق نيل الحق فالجأ لبابه ... كأهل النهى واترك حبائل حيلتي

«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٠/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

(٤) ذكر هذه الأبيات ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٤٣٥)، ونسبها للشبلي فقال: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا التنوخي، ثنا أبو الحسن علي بن محمد بن أبي صابر الدلال =

ثم لامُوا البُزَاةَ إذ خَلَعُوا عَنْهُم الرَّسَنْ
لوْ أرادُوا صِيَانَتِي سَتَروا وَجْهَكِ الحَسَنْ

وقالَ بعضُهم - وقدْ ذُكِرَ لهُ مَنْ يَخافُ مِنْ إفسادِهِ فقالَ -: لي خَمْسُ بناتٍ لا أخافُ على إفسادِهِنَّ غيرَهُ.

وصَعَدَ رَجُلٌ يومًا على سَطْحِ دارٍ لهُ، فأشْرَفَ على غُلامٍ لهُ يَفْجُرُ بجارِيَتِهِ، فنَزَلَ وأَخَذَهما ليُعاقِبَهما، فقالَ الغُلامُ: إنَّ القَضاءَ والقَدَرَ لم يَدَعَانًا حَتَّى فَعَلْنا ذلكَ، فقالَ: لَعِلْمُكَ بالقضاءِ والقَدَرِ أَحَبُّ إليَّ مِنْ كلِّ شيءٍ، أنتَ حُرٌّ لوَجْهِ اللَّهِ[١].

ورأى آخَرُ رَجُلًا يَفْجُرُ بامرأتِهِ، فبَادَرَ ليأخُذَهُ فهَرَبَ، فأَقْبَلَ يَضْرِبُ المرأةَ وهيَ تَقولُ: القضاءُ والقَدَرُ، فقالَ: يا عَدُوَّةَ اللَّهِ، أتَزْنِي وتَعْتَذِري بِمِثْلِ هذا؟ فقالَتْ: أُوهُ، تَرَكْت السنَّةَ وأخَذْتَ بِمَذْهَبِ ابنِ عَبَّادٍ[٢]! فتَنَبَّهُ ورَمَى السوطَ مِنْ يَدِهِ واعْتَذَرَ إليها، وقالَ: لولاكِ لضَلَلْتُ!!

ورأى آخَرُ رجلًا يَفْجُرُ بامرأتِهِ فقالَ: ما هذا؟ فقالَتْ: هذا قضاءُ اللَّهِ وقَدَرُهُ، فقالَ: الْخِيَرَةُ فيما قَضَى اللَّهُ! فلُقِّبَ بالْخِيَرَةِ فيما قَضَى اللَّهُ، وكان إذا دُعِيَ بهِ غَضِبَ.

وقيلَ لبعضِ هؤلاءِ: أليسَ اللَّهُ ﷻ يَقولُ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧]، فقالَ: دَعْنَا مِنْ هذا، رَضِيَهُ وأَحَبَّهُ وأَرادَهُ، وما أَفْسَدَنا[٣] غيرُهُ.

ولقدْ بَالَغَ بعضُهم في ذلكَ حتَّى قالَ: القَدَرُ عُذْرٌ لجميعِ العُصاةِ، وإنَّما مَثَلُنا في

= قال: وقفت على الشبلي في قبة الشعراء في جامع المنصور، والناس مجتمعون عليه، فوقف عليه في الحلقة غلام جميل لم يكن ببغداد في ذلك الوقت أحسن وجها منه، يعرف بابن مسلم، فقال له: تنح، فلم يبرح، فقال له الثانية: تنح يا شيطان عنا، فلم يبرح، فقال له الثالثة: تنح وإلا والله خرقت كل ما عليك، وكانت عليه ثياب في غاية الحسن تساوي جملة كثيرة، فانصرف الفتى، فقال الشبلي (وذكر الأبيات). قال ابن عقيل: من قال هذا فقد أخطأ طريق الشرع؛ لأنه يقول: ما خلق الله ﷻ هذا الإنسان إلا للافتتان به، وليس كذلك، وإنما خلقه للاعتبار والامتحان؛ فإن الشمس خلقت لتضيء، لا لتعبد.

(١) ذكره ابن النديم في «الفهرست» (ص٢٢٤) بنحوه.

(٢) ولعله معمر بن عباد السلمي، من غلاة المعتزلة، ومن أعظم القدرية غلوا، كان بينه وبين النظام مناظرات، نسبت إليه فرقة «المعمرية». انظر أقواله وترجمته: «الملل والنحل» (١/ ٥٨ - ٦٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٤٦ت١٧٦).

(٣) في (ع): أفسدها، والصواب المثبت.

ذلكَ كما قِيلَ:

إذا مَرِضْنا أَتَيْناكُمْ نَعُودُكُم ... وتُذْنِبُونَ فنَأْتِيكُم فنَعْتَذِرُ

وبَلَغَ بعضَ هؤلاءِ أنَّ عليًّا مَرَّ بقَتْلَى النَّهْرَوانِ، فقالَ: بُؤْسًا لَكُمْ! لقدْ ضَرَّكُم مَنْ غَرَّكُم، فقيلَ: مَنْ غَرَّهُم؟ فقالَ: الشيطانُ والنفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ والأَمَانِيُّ، فقالَ هذا القائلُ: كانَ عليٌّ قَدَرِيًّا؛ وإلاَّ فاللَّهُ غَرَّهم وفَعَلَ بهم ما فَعَلَ، وأَوْرَدَهم تلكَ الْمَوارِدَ.

واجْتَمَعَ جماعةٌ منْ هؤلاءِ يَوْمًا، فتَذَاكَرُوا القَدَرَ، فجَرَى ذِكْرُ الْهُدْهُدِ وقولِهِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٤٣][1] فقالَ: كانَ الهدهدُ قَدَرِيًّا، أضافَ العملَ إليهم، والتَّزْيينَ إلى الشيطانِ، وجَميعُ ذلكَ قولُ اللَّهِ.

وسُئِلَ بعضُ هؤلاءِ عنْ قولِهِ تعالى لإبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]: أَيَمْنَعُهُ ثمَّ يَسأَلُهُ ما مَنَعُهُ؟ فقالَ: نَعَمْ، قَضَى عليهِ في السرِّ ما مَنَعَهُ منهُ في العلانيَةِ ولَعَنَهُ عليهِ، قالَ لهُ: فما معنى قولِهِ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ﴾ [النِّساء: الآية ٣٩]، إذا كانَ هوَ الذي مَنَعَهم؟ قالَ: استهزاءً بهم، قالَ: فما معنى قولِهِ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٧]؟ قالَ: قدْ فعلَ ذلكَ بهم منْ غيرِ ذَنْبٍ جَنَوْهُ، بل ابْتَدَأَهُمْ بالكُفْرِ، ثمَّ عَذَّبَهُم عليهِ، وليسَ للآيَةِ مَعْنًى.

وقالَ بعضُ هؤلاءِ - وقدْ عُوتِبَ على ارتكابِهِ مَعَاصِيَ اللَّهِ فقالَ -: إنْ كُنْتُ عاصيًا لأَمْرِهِ؛ فأنا مُطيعٌ لإرادتِهِ.

وجَرَى عندَ بعضِ هؤلاءِ ذِكْرُ إبليسَ وإبائِهِ، وامتناعِهِ من السجودِ لآدَمَ، فأَخَذَ الجماعةُ يَلْعَنُونَهُ ويَذُمُّونَهُ، فقالَ: إلى متى هذا اللَّوْمُ؟! ولوْ خُلِّيَ لسَجَدَ ولكنْ مُنِعَ وأَخَذَ يُقيمُ عُذْرَهُ! فقالَ لهُ بعضُ الحاضرينَ: تَبًّا لكَ سائرَ اليومِ، أَتَذُبُّ عن الشيطانِ، وتَلومُ الرحمنَ؟!

وجاءَ جماعةٌ إلى مَنْزِلِ رجلٍ منْ هؤلاءِ فلمْ يَجِدُوهُ، فلَمَّا رَجَعَ قالَ: كُنْتُ أُصْلِحُ بينَ قومٍ، فقيلَ لهُ: وأَصْلَحْتَ بينَهم؟ قالَ: أَصْلَحْتُ إنْ لمْ يُفْسِدِ اللَّهُ!! فقيلَ لهُ: بُؤْسًا لكَ، أَتُحْسِنُ الثناءَ على نفسِكَ، وتُسِيءُ الثناءَ على رَبِّكَ؟![2].

---

(١) وسياق الآيات الذي ورد فيه ذكر الهدهد في سورة النمل، وهو قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأنعام: الآية ٤٣].

(٢) «الفهرست» لابن النديم (٢٢٤) بنحوه.

ومُرَّ بِلِصٍّ مَقطوعِ اليدِ على بعضِ هؤلاءِ، فقالَ: مِسكينٌ مَظلومٌ! أَجْبَرَهُ على السَّرِقَةِ، ثُمَّ قَطَعَ يَدَهُ عليها!!

وقِيلَ لبعضِهم: أَتَرى اللَّهَ كَلَّفَ عِبادَهُ مَا لا يُطيقونَ، ثمَّ يُعَذِّبُهم عليهِ؟ قالَ: واللَّهِ قدْ فَعَلَ ذلكَ، ولكنْ لا نَجْسُرُ أنْ نَتَكَلَّمَ[1]!!

وأرادَ رَجُلٌ منْ هؤلاءِ السفرَ، فَوَدَّعَ أَهْلَهُ وبَكَى، فقيلَ لهُ: اسْتَوْدِعْهُم اللَّهَ، واسْتَحْفِظْهُم إيَّاهُ، فقالَ: ما أخافُ عليهم غَيْرَهُ!!

وقالَ بعضُ هؤلاءِ: زَنْيَةٌ أَزْنِيهَا أَحَبُّ إليَّ منْ عِبادةِ الملائكةِ، قيلَ: وَلِمَ؟ قالَ: لِعِلْمِي بأنَّ اللَّهَ قَضَاهَا عليَّ وقَدَّرَها، ولمْ يَقْضِها إلاَّ وَالْخِيَرَةُ لي فِيهَا!!

وقالَ بعضُ هؤلاءِ: العارِفُ لا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ لاستبصارِهِ بسِرِّ اللَّهِ في الْقَدَرِ!!

ولقدْ دَخَلَ شيخٌ منْ هؤلاءِ بَلَدًا، فأَوَّلُ ما بَدَأَ بهِ من الْمَزَارَاتِ زيارةُ الْمَواخِيرِ الْمُشْتَمِلَةِ على الْبَغَايا والخُمُورِ، فجَعَلَ يَقولُ: كيفَ أنْتُمْ في قَدَرِ اللَّهِ؟ كيفَ أنْتُمْ في قَدَرِ اللَّهِ؟. وسَمِعْتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ يقولُ: عاتَبْتُ[2] بعضَ شيوخِ هؤلاءِ، فقالَ لي: المحبَّةُ نارٌ تُحْرِقُ من القلبِ ما سِوَى مُرادِ المحبوبِ، والكونُ كلُّهُ مُرادُهُ، فأيُّ شيءٍ أَبْغَضُ منهُ؟ قالَ: فقُلْتُ لهُ: إذا كانَ المحبوبُ قدْ أَبْغَضَ بعضَ مَنْ في الكونِ وعَادَاهُمْ ولَعَنَهم، فأَحْبَبْتَهُم أنتَ ووَالَيْتَهم، أَكُنْتَ وَلِيًّا للمحبوبِ أوْ عَدُوًّا لهُ؟ قالَ: فكأَنَّمَا أُلْقِمَ حَجَرًا.

وقَرَأَ قارئٌ بِحَضْرَةِ بعضِ هؤلاءِ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: الآية ٧٥]، فقالَ: هوَ واللَّهِ مَنَعَهُ، ولوْ قالَ إبليسُ ذلكَ كانَ صادِقًا، وقدْ أَخْطَأَ إبليسُ الْحُجَّةَ، ولوْ كُنْتُ حاضِرًا؛ لقُلْتُ: أَنْتَ مَنَعْتَهُ.

وسَمِعَ بعضُ هؤلاءِ قارِئًا يَقرأُ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾،

---

(١) ذكره ابن عبد ربه الأندلسي في «العقد الفريد» (٢/ ٣٧٨)، ونسبه لهشام بن الحكم، وهو: هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولى شيبان، من متكلمي الرافضة، وممن فتق الكلام في الإمامة، وهذب المذهب والنظر، وكان حاذقا بصناعة الكلام، ومن المغالين في التجسيم والتشبيه، والقول بأن أفعال العباد مخلوقة، توفي بعد نكبة البرامكة بمدة يسيرة. انظر: «الفهرست» (ص٢١٧ - ٢١٨)، و«الفرق بين الفرق» (ص٤٨ - ٥٣) و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٤٣ - ٥٤٤ت١٧٤).

(٢) في (ع): عاينت، والصواب المثبت.

فقالَ: لَيسَ مِنْ هذا شيءٌ، بلْ أَضَلَّهُم وأَعْمَاهُمْ، قالُوا: فما معنى الآيَةِ؟ قالَ: مَخْرَقَةٌ يُمَخْرِقُ[١] بها[٢].

ردُّ المؤلِّفِ على أقوالِ القَدَرِيَّة

فَيُقالُ: اللَّهُ أَكْبَرُ على هؤلاءِ الْمَلاحدةِ أعداءِ اللَّهِ حَقًّا؛ الذينَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا عَرَفُوهُ حقَّ معرفتِهِ، ولا عَظَّمُوهُ حقَّ تعظيمِهِ، ولا نَزَّهُوهُ عمَّا لا يَليقُ بهِ، وبَغَّضُوهُ إلى عِبادِهِ وبَغَّضُوهم إليهِ، وأَساؤوا الثناءَ عليهِ جَهْدَهم وطاقتَهم، وهؤلاءِ خُصَمَاءُ اللَّهِ حقًّا الذينَ جاءَ فيهم الحديثُ: **«يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ خُصَمَاءُ اللَّهِ؟ فيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ»**[٣].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ في تَائِيَّتِهِ[٤]:

ويُدْعَى خُصومُ اللَّهِ يومَ مَعادِهِمْ ... إلى النَّارِ طُرًّا فِرقةُ القَدَرِيَّةِ
سواءٌ نَفَوْهُ أَوْ سَعَوْا ليُخَاصِمُوا بـ ... ـهِ اللَّهَ أَوْ مَارَوْا بِهِ للشَّرِيعَةِ

وسَمعتُهُ يقولُ[٥]: القدريَّةُ المَذْمُومُونَ في السُّنَّة وعلى لسانِ السلفِ هم هؤلاءِ الفِرَقُ الثلاثةُ:

أصنافُ القدريةِ

نُفاتُهُ، وهم القدريَّةُ المجوسيَّة[٦]:

والمعارضون بهِ للشريعةِ؛ الذينَ قالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] وهم القدريَّةُ المُشْرِكيَّةُ[٧].

---

(١) الممخرق: المموه. «لسان العرب» لابن منظور، باب الميم(١٣/ ٤٦).

(٢) هذه الأقوال المشتملة على هذا الشطح القبيح والكفر الصريح قد بذلت مافي جهدي - على قلته - في البحث، ولم أعثر على مصدر لها سوى النزر اليسير منها.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٨ح٣٣٦) وضعفه الألباني.

(٤) انظرها كاملة في «الفتاوى» (٨/ ٢٤٦ - ٢٥٥).

(٥) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وانظر هذا التقسيم في «الفتاوى» (٣/ ١١١)، (٨/ ٢٥٦)، (١١/ ٤٢١)، و«الإستقامة» (٢/ ٤٣٣)، و«التدمرية» (ص١٣٠).

(٦) في (س): كما هي مقولة كثير من المعتزلة ومتأخري الرافضة. انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (٣/ ١١١)، (٨/ ٢٥٦)، و(١١/ ٤٢١)، و«الاستقامة» (٢/ ٤٣٣)، و«التدمرية» (ص١٣٠).

(٧) الجبرية والجهمية وبعض المتصوفة.
انظر: «الفتاوى» لابن تيمية(٣/ ١١١)، (٨/ ٢٥٦).

والمخاصِمُونَ بِهِ للرَّبِّ: وهم أعداءُ اللَّهِ وخصومُهُ، وهم القدريَّةُ الإِبْلِيسِيَّةُ(١)، وشيخُهُم إبليسُ، وهو أَوَّلُ مَن احْتجَّ على اللَّهِ بالقدَرِ فقالَ: ﴿فَبِمَآ(٢) أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: الآية ١٦] ولم يَعْتَرِفْ بالذنبِ وَيَبُؤْ بِهِ كَمَا اعْتَرَفَ بِهِ آدَمُ، فمَنْ أَقَرَّ بالذنبِ، وباءَ بِهِ، وَنَزَّهَ رَبَّهُ، فقدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ آدَمَ، ومَنْ أَشْبَهَ(٣) أَبَاهُ فما ظَلَمَ، ومَنْ بَرَّأَ نَفْسَهُ، وَاحْتَجَّ على رَبِّهِ بالقَدَرِ؛ فَقَدْ أَشْبَهَ إِبْلِيسَ.

ولا رَيْبَ أَنَّ هؤلاءِ القدريَّةَ الإِبْلِيسِيَّةَ والمشركيَّةَ شَرٌّ من القدريَّةِ النُّفَاةِ؛ لأنَّ النفاةَ إِنَّمَا نَفَوْهُ تَنْزِيهًا للربِّ - تَعَالَى - وتعظيمًا لهُ أنْ يُقَدِّرَ الذنبَ، ثُمَّ يَلُومَ عليهِ ويُعَاقِبَ، ونَزَّهُوهُ أنْ يُعَاقِبَ العبدَ على ما لا صُنْعَ للعبدِ فيهِ أَلْبَتَّةَ، بلْ(٤) هوَ بمنزلةِ طولِهِ وقِصَرِهِ وسوادِهِ وبياضِهِ وحَوَلِهِ(٥)، ونحوِ ذلكَ، كما يُحْكَى عنْ بعضِ الجَبْرِيَّةِ أَنَّهُ حَضَرَ مجلسَ بعضِ الوُلاةِ فَأُتِيَ بِطَرَّارٍ(٦) أَحْوَلَ، فقالَ لهُ الوالِي: ما تَرَى فيهِ؟ فقال: اضْرِبْهُ خمسةَ عَشَرَ(٧) سَوْطًا. فقالَ(٨) بعضُ الحاضِرِينَ مِمَّنْ يَنْفِي الجبرَ: بلْ يَنْبَغِي أنْ يُضْرَبَ ثَلَاثِينَ سَوْطًا؛ خمسةَ عَشَرَ لِطَرِّهِ، ومثلُهَا لِحَوَلِهِ! فقالَ الجَبْرِيُّ: كيفَ يُضْرَبُ على الحَوَلِ ولا صُنْعَ لهُ(٩) فيهِ؟! فقالَ:(١٠) كما يُضْرَبُ(١١) على الطَّرِّ ولا صُنْعَ لهُ فيهِ عندكَ، فَبُهِتَ الجَبْرِيُّ.

وأمَّا القدريَّةُ الإبليسيَّةُ والمشركيَّةُ فكثيرٌ منهم مُنْسَلِخٌ من الشَّرْعِ، عَدُوٌّ لِلَّهِ ورُسلِهِ، لا يُقِرُّ بأمرٍ ولا نهْيٍ، وتلكَ وراثةٌ عنْ شيوخِهِ الذينَ قالَ اللَّهُ فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ

---

(١) كسفهاء الشعراء ونحوهم من الزنادقة. انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٢٦٠).

(٢) في (ك) و (س) بما. أي: كما في سورة «الحجر» آية (٣٩).

(٣) في (س) زيادة: (آدم). (٤) ساقطة من (ع). (٥) ساقطة من (ك) و(س).

(٦) الطرار: هو الذي يشق كم الرجل ويسل ما فيه. «لسان العرب» باب الطاء (٨/ ١٤١).

(٧) في (ك) و(س) زيادة: (يعني). (٨) في (ك) و(س) زيادة: (له).

(٩) ساقطة من (س).

(١٠) في (س): فيقال، والصواب المثبت، وهو المقتضي للسياق. (١١) في (س): ضرب.

مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النّحل: الآية ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزّخرف: الآية ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: الآية ٤٧].

فهذهِ أربعةُ مواضعَ في القرآنِ بَيَّنَ - سبحانَهُ - فيها أنَّ الاحتجاجَ بالقدرِ مِنْ فعْلِ المشركِينَ المُكَذِّبِينَ للرُّسل، وقد افْتَرَقَ الناسُ في الكلامِ على هذهِ الآياتِ أربعةَ[(١)] فِرَقٍ:

الفرقةُ الأولَى: جَعَلَتْ هذه الحُجَّةَ حُجَّةً صَحِيحَةً، وأنَّ لِلْمُحْتَجِّ بها الحُجَّةَ على اللَّهِ، ثُمَّ افْتَرَقَ هؤلاءِ فِرْقَتَيْنِ:

مذهبُ الجبريةِ

فرقةٌ كَذَّبَتْ بالأمرِ والوعدِ والوعيدِ، وزَعَمَتْ أنَّ الأمرَ والنهيَ والوعدَ والوعيدَ بعدَ هذا يكونُ ظُلْمًا، واللَّهُ لا يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا[(٢)].

وفرقةٌ صَدَّقَتْ بالأمرِ والنهيِ والوعدِ والوعيدِ، وقالتْ: ليسَ ذلكَ بظلمٍ، واللَّهُ يَتَصَرَّفُ في مُلْكِهِ كَمَا[(٣)] يشاءُ ويُعَذِّبُ العبدَ[(٤)] على ما لا صُنْعَ لهُ فيهِ، بلْ يُعَذِّبُهُ على فِعْلِهِ هوَ - سبحانَهُ - لا على فعلِ عَبْدِهِ؛ إذ العبدُ لا فِعْلَ لهُ، والمُلْكُ مُلْكُهُ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهم يُسْأَلُونَ[(٥)].

قالَ هؤلاء: و[(٦)] الكُفَّارُ إنَّمَا قالوا هذهِ المقالةَ التي حَكَاهَا اللَّهُ عنهم، اسْتِهْزَاءً منهم، ولوْ قالُوهَا اعْتِقَادًا للقضاءِ والقدرِ، وَإِسْنَادًا لجميعِ الكائناتِ إلى مَشِيئَتِهِ وقُدْرَتِهِ؛ لم يُنْكِرْ ذلكَ عليهم. ومَضْمُونُ قولِ هذهِ[(٧)] الفرقةِ: أنَّ هذهِ حُجَّةٌ صحيحةٌ إذا قَالُوهَا على وجهِ الاعتقادِ، لا على جهةِ الاستهزاءِ؛ فيكونُ للمشركينَ على اللَّهِ الحُجَّةُ، وكَفَى بهذا القولِ فَسَادًا وبُطْلَانًا.

---

(١) في (ك) و(س): أربع، وهو الأفصح.

(٢) انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار(ص٣٤٥).

(٣) في (ك) و(س): كيف. (٤) ساقطة من (س).

(٥) انظر: «شرح الأصول الخمسة» (ص٤٨٣). (٦) (الواو) ساقطة من (س).

(٧) في (س): هؤلاء، والصواب المثبت.

الفرقةُ الثانيَةُ: جَعَلَتْ هذهِ الآياتِ حُجَّةً لها في إبطالِ القضاءِ والقدرِ والمشيئةِ العامَّةِ؛ إذ لوْ صَحَّت المَشِيئَةُ العامَّةُ، وكانَ اللَّهُ ﷻ قدْ شَاءَ منهم الشِّرْكَ والكُفْرَ وعبادةَ الأوثانِ لكانُوا قدْ قَالُوا الحَقَّ وكانَ اللَّهُ ﷻ يُصَدِّقُهُم عليهِ ولم يُنْكِرْ عليهم، فَحَيْثُ وَصَفَهُم بالخَرَصِ الذي هوَ الكَذِبُ، ونَفَى عنهم العلمَ؛ دَلَّ على أنَّ هذا الذي قَالُوهُ ليسَ بصحيحٍ وأنَّهُم كاذِبُونَ فيهِ؛ إذْ لوْ كانَ عِلْمًا؛ لكانوا صَادِقِينَ في الإخبارِ بهِ، ولم يَقُلْ لَهُم: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

مذهبُ المعتزلة

وجَعَلَتْ هذهِ الفرقةُ هذهِ الآياتِ حُجَّةً لها على التكذيبِ بالقضاءِ والقدَرِ، وزَعَمَتْ بها أنَّهُ[(١)] يَكُونُ[(٢)] في مُلْكِهِ ما لا يَشَاءُ، ويَشَاءُ ما لا يَكُونُ، وأنَّهُ لا قُدْرَةَ لهُ على أفعالِ عبادِهِ من الإنسِ والجنِّ والملائكةِ، بلْ[(٣)] ولا على أفعالِ الحيواناتِ، وأنَّهُ لا يَقْدِرُ أنْ يُضِلَّ أَحَدًا، ولا يَهْدِيَهُ، ولا يُوَفِّقَهُ[(٤)] أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَ بهِ، ولا يَعْصِمَهُ من الذنوبِ والكُفْرِ، ولا يُلْهِمَهُ رُشْدَهُ، ولا يَجْعَلَ في قلبِهِ الإيمانَ، ولا هوَ الذي جَعَلَ المُصَلِّيَ مُصَلِّيًا، والبَرَّ بَرًّا، والفاجِرَ فَاجِرًا، والمُؤْمِنَ مُؤْمِنًا، والكافِرَ كَافِرًا بلْ هم الذينَ جَعَلُوا أَنْفُسَهُم كذلكَ[(٥)].

فهذهِ الفرقةُ شَارَكَت الفرقةَ التي قَبْلَهَا في إلقاءِ الحربِ والعداوةِ بينَ الشرعِ والقدَرِ:

فالأُولَى: تَحَيَّزَتْ إلى القدَرِ، وحارَبَت الشرعَ.

والثانيَةُ: تَحَيَّزَتْ إلى الشرعِ، وكَذَّبَت القدَرَ.

والطائِفَتَانِ ضَالَّتَانِ وَإِحْدَاهُمَا أَضَلُّ من الأُخْرَى.

الفرقةُ الثالثةُ: آمَنَتْ بالقضاءِ والقدرِ، وَأَقَرَّتْ بالأمرِ والنهيِ، ونَزَّلُوا كلَّ وَاحِدٍ منزلتَهُ؛ فالقضاءُ والقَدَرُ يُؤْمَنُ بهِ ولا يُحْتَجُّ بهِ، والأمرُ والنهيُ يُمْتَثَلُ ويُطَاعُ، فالإيمانُ بالقضاءِ والقدَرِ عندَهُم منْ تمامِ التوحيدِ وشهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، والقيامُ بالأمرِ والنهيِ مُوجَبُ شهادةِ أنَّ محمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

مذهبُ الأشاعرةِ

وقالُوا: مَنْ لَمْ يُقِرَّ بالقضاءِ والقدَرِ، ويَقُمْ بالأمرِ والنهيِ؛ فقدْ كَذَّبَ بالشهادتَيْنِ،

---

(١) في (ك) و(س): أن. (٢) في (س) زيادة: (بها). (٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) في (ع): يؤتيه.

(٥) انظر: «الانتصار» للعمراني(٢/ ٣٥٣)، و«الفتاوى» لابن تيمية(٨/ ٤٥٠ - ٤٥١).

وإنْ نَطَقَ بِهِمَا بِلِسَانِهِ.

ثمَّ افْتَرَقُوا في وجهِ هذهِ الآياتِ فِرْقَتَيْنِ:

ففرقةٌ قالتْ: إنَّمَا أُنْكِرَ عليهم استدلالُهُم بالمشيئةِ العامَّةِ والقضاءِ والقدَرِ على رضاهُ ومَحبَّتِهِ لذلك، فَجَعَلُوا مَشِيئَتَهُ لهُ وتقديرَهُ لهُ دَلِيلًا على رضاهُ بهِ ومَحَبَّتِهِ له؛ إذْ لوْ كَرِهَهُ وأَبْغَضَهُ لَحَالَ بينَهُم وبينَهُ؛ فإنَّ الحكيمَ إذا كانَ قادِرًا على دفْعِ ما يَكْرَهُهُ ويُبْغِضُهُ؛ دَفَعَهُ ومَنَعَ مِنْ وقوعِهِ، وإذا لم يَمْنَعْ مِنْ وقوعِهِ؛ لَزِمَ إمَّا عَدَمُ قدرتِهِ، وإمَّا عَدَمُ حِكْمَتِهِ، وكلاهُمَا مُمْتَنِعٌ في حقِّ اللَّهِ، فَعُلِمَ محبَّتُهُ لِمَا نحنُ عليهِ مِنْ عبادةِ غيرِهِ ومِن الشركِ بهِ، وقدْ وَافَقَ هؤلاءِ مَنْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ويَرْضَى بها، ولكنْ خَالَفَهُم في أنَّهُ نَهَى عنها، وأَمَرَ بأضدادِهَا ويُعَاقِبُ عليها؛ فَوَافَقَهُم في نصفِ قولِهِم، وخالَفَهُم في الشطرِ الآخَرِ.

وهذهِ الآياتُ مِنْ أكبرِ الحِجَجِ على بُطلانِ قولِ الطائفتَيْنِ، وأنَّ مشيئةَ اللَّهِ تَعَالَى العامَّةَ، وقضاءَهُ وقدرَهُ لا تَسْتَلْزِمُ مَحَبَّتَهُ ورِضَاهُ لِكُلِّ ما شَاءَهُ[1] وقَدَّرَهُ، وهؤلاءِ المشركونَ لَمَّا اسْتَدَلُّوا بمشيئتِهِ على مَحَبَّتِهِ ورِضَاهُ كَذَّبَهُم، وأَنْكَرَ عليهم، وأَخْبَرَ أنَّهُ لا عِلْمَ لهم بذلكَ، وأنَّهُم خارِصُونَ مُفْتَرُونَ؛ فإنَّ محبةَ اللَّهِ تَعَالَى للشيءِ ورضاهُ بِهِ إنَّمَا يُعْلَمُ بأمرِهِ بهِ[2] على لسانِ رسولِهِ، لا بِمُجَرَّدِ خَلْقِهِ لهُ؛ فإنَّهُ خَلَقَ إبليسَ وجنودَهُ وهم أَعْدَاؤُهُ وهُوَ - تَعَالَى - يُبْغِضُهُم ويَلْعَنُهُم وهم خَلْقُهُ، فهكذا في الأفعالِ خَلَقَ خيرَهَا وشَرَّهَا، وهو يُحِبُّ خيرَهَا ويأمُرُ بهِ ويُثِيبُ[3] عليهِ، ويُبْغِضُ شَرَّهَا ويَنْهَى عنهُ، ويُعَاقِبُ عليهِ، وكلاهُمَا خَلْقُهُ وللَّهِ - تَعَالَى - الحكمةُ البالغةُ التامَّةُ في خَلْقِهِ ما يُبْغِضُهُ ويَكْرَهُهُ من الذَّوَاتِ والصفاتِ والأفعالِ، كلٌّ صادِرٌ عنْ حِكْمَتِهِ وعِلْمِهِ، كما هوَ صادِرٌ عنْ قُدْرَتِهِ ومَشِيئَتِهِ.

ردُّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ

وقالت الفرقةُ الثانيَةُ: إنَّمَا أُنْكِرَ عليهم معارضةُ الشرْعِ بالقَدَرِ، ودَفْعُ الأمرِ بالمشيئةِ؛ فلَمَّا قامتْ عليهم حُجَّةُ اللَّهِ، ولَزِمَهُم أَمْرُهُ ونَهْيُهُ؛ دَفَعُوهُ بقضائِهِ وقَدَرِهِ، فَجَعَلُوا القضاءَ والقدَرَ إبْطَالًا لدعوةِ الرُّسُلِ، ودَفْعًا لِمَا جَاؤُوا بهِ، وشَارَكَهُم في ذلكَ

---

(١) في (ك) و(س): شاء.　　(٢) ساقطة من (س).

(٣) في (س): ويثبت، والصواب المثبت.

إخوانُهم وَوَرَثَتُهم[١] الذينَ يَحْتَجُّونَ بالقضاءِ والقدَرِ على المعاصِي والذنوبِ في نصفِ أَقْوَالِهِم، وخالَفُوهُم في النصفِ الآخَرِ؛ وهُوَ إقرارُهُم بالأمرِ والنهي.

مذهبُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ فِي القدر

فانْظُرْ كيفَ انْقَسَمَتْ هذهِ المواريثُ على هذهِ السهامِ، ووَرِثَ كلُّ قومٍ أَئِمَّتَهُم وأسلافَهُم، إمَّا في جميعِ تَرِكَتِهِم، وإمَّا في كثيرٍ منها، وإمَّا في جزءٍ منها!!

وَهَدَى اللَّهُ بفضْلِهِ وَرَثَةَ أنبيائِهِ ورسلِهِ لميراثِ نبيِّهِم وأصحابِهِ، فلم يُؤْمِنُوا ببعضِ الكتابِ ويَكْفُرُوا ببعضٍ؛ بلْ آمَنُوا بقضاءِ اللَّهِ وقدرِهِ ومشيئتِهِ العامَّةِ النافذةِ، وأنَّهُ ما شَاءَ اللَّهُ كانَ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، وأنَّهُ مُقَلِّبُ القلوبِ ومُصْرِفُهَا كيفَ أَرَادَ، وأنَّهُ هوَ الذي جَعَلَ المؤمنَ مُؤْمِنًا، والمُصَلِّيَ مُصَلِّيًا، والمُتَّقِيَ مُتَّقِيًا، وجَعَلَ أَئِمَّةَ الهُدَى يَهْدُونَ بأمرِهِ، وأَئِمَّةَ الضلالةِ يَدْعُونَ إلى النَّارِ، وأنَّهُ أَلْهَمَ كلَّ نفسٍ فجورَهَا وتقواهَا، وأنَّهُ يَهْدِي مَنْ يشاءُ بفضلِهِ ورحمتِهِ، ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ بعدلِهِ وحكمتِهِ وأنَّهُ هوَ الذي وَفَّقَ أهلَ الطاعةِ لطاعتِهِ فَأَطَاعُوهُ، ولوْ شَاءَ لَخَذَلَهُم فَعَصَوْهُ، وأنَّهُ حالَ بينَ الكُفَّارِ وقلوبِهِم - فإنَّهُ يَحُولُ بينَ المرْءِ وقلبِهِ - فَكَفَرُوا بِهِ، ولوْ شاءَ لَوَفَّقَهُم فآمَنُوا بهِ وَأَطَاعُوه، وأنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومنْ يُضْلِلْ، فلا هَادِيَ لهُ، وأنَّهُ لوْ شاءَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهُم جَمِيعًا إيمَانًا يُثَابُونَ عليهِ، ويُقْبَلُ منهم، ويُرْضَى بهِ عنهم، وأنَّهُ لوْ شاءَ ما اقْتَتَلُوا ولكنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢].

والقضاءُ والقدَرُ عندَهُم أَرْبَعُ مراتب[٢] جاءَ بها نَبِيُّهُم، وأَخْبَرَ بها عنْ رَبِّهِ:

مراتبُ القضاءِ والقدر

الأُولَى: عِلْمُهُ السابقُ بما هم عَامِلُوهُ[٣] قَبْلَ إيجَادِهِم.

الثانيَةُ: كتابَتُهُ:[٤] ذلكَ في الذِّكْرِ عندَهُ قبلَ خلْقِ السماواتِ والأرضِ.

الثالثةُ: مشيئتُهُ المتناوِلةُ لكلِّ موجودٍ؛ فلا خُرُوجَ لكائنٍ عنْ مشيئتِهِ، كما لا خُرُوجَ لهُ عنْ عِلْمِهِ.

الرابعةُ: خَلْقُهُ لهُ وإيجادُهُ وتكوينُهُ؛ فإنَّهُ لا خَالِقَ إلاَّ اللَّهُ، واللَّهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ.

فالخالِقُ عندَهُم واحدٌ، وما سِوَاهُ فمخلوقٌ، ولا واسطةَ عندَهُم بينَ الخالقِ

---

(١) في (ك) و(س): وذريتهم، والصواب المثبت، وهو المقتضي لسياق الكلام اللاحق.

(٢) انظر هذه المراتب وأدلتها، والرد على من خالف فيها: «شفاء العليل» للمولف (١/ ١٣٣ - ٢٢٨).

(٣) في (س): عاملون.

(٤) في (ك) و(س): كتابة.

والمخلوقِ، ويُؤْمِنُونَ معَ ذلكَ بحكمتِهِ، وأنَّهُ حكيمٌ في كلِّ ما فَعَلَهُ وخَلَقَهُ، وأنَّ مَصْدَرَ ذلكَ جَميعِهِ عنْ حكمةٍ تامَّةٍ؛ هيَ التي اقْتَضَتْ صدورَ ذلكَ وخَلْقَهُ، وإنَّ حكمتَهُ حكمةُ حقٍّ عائدةٌ إليهِ قائمةٌ بهِ كسائرِ صفاتِهِ، وليستْ عِبَارَةً عنْ مطابقةِ عِلْمِهِ لمعلومِهِ، وقدرتِهِ لمقدورِهِ، كما يقولُهُ نُفَاةُ الحكمةِ الذينَ يُقِرُّونَ بلفظِهَا دونَ حَقِيقَتِهَا؛ بلْ هيَ أمرٌ وراءَ ذلكَ، وهيَ الغايَةُ المحبوبةُ لهُ المطلوبةُ، التي هيَ مُتَعَلَّقُ مَحَبَّتِهِ وَحَمْدِهِ، ولأجْلِهَا خَلَقَ فَسَوَّى، وقَدَّرَ فَهَدَى، وأَمَاتَ وَأَحْيَا، وأَسْعَدَ وَأَشْقَى، وأَضَلَّ وَهَدَى، وَمَنَعَ وَأَعْطَى.

لازمُ نفيِ الحكمةِ

وهذهِ الحكمةُ هيَ الغايَةُ، والفعلُ وسيلةٌ إليها؛ فإثباتُ الفعلِ معَ نَفْيِهَا إثباتٌ للوسائلِ ونَفْيٌ للغاياتِ، وهو مُحَالٌ؛ إذ نَفْيُ الغايَةِ مُسْتَلْزِمٌ لنفيِ الوسيلةِ، فَنَفْيُ الوسيلةِ - وهيَ الفعلُ - لازمٌ لنَفْيِ الغايَةِ وهيَ الحكمةُ، ونَفْيُ قيامِ الفعلِ والحكمةِ بهِ نَفْيٌ لهما في الحقيقةِ؛ إذ فِعْلٌ لا يقومُ بفاعلِهِ، وحكمةٌ لا تقومُ بالحكيمِ شيءٌ لا يُعْقَلُ، وذلكَ يَسْتَلْزِمُ إنكارَ ربوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ، وهذا لازمٌ لمَنْ نَفَى ذلكَ[1] لا مَحِيدَ لهُ عنهُ، وإنْ أَبَى الْتِزَامَهُ، وأمَّا مَنْ أَثْبَتَ حِكْمَتَهُ وأفعالَهُ على الوجهِ المطابقِ للعقلِ والفطرةِ، وما جاءَتْ بهِ الرُّسُلُ؛ لم يَلْزَمْ منْ قولِهِ محذورٌ ألبَتَّةَ، بلْ قولُهُ حقٌّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ كَائِنًا ما كانَ.

حقيقةُ الإيمانِ بالقدرِ والشرعِ والحكمةِ

والمقصودُ أنَّ ورثةَ الرُّسُلِ وخلفاءَهُم - لكمالِ ميراثِهِم لنبيِّهِم - آمَنُوا بالقضاءِ والقدَرِ، والحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ في أفعالِ الربِّ وأوامرِهِ، وقامُوا معَ ذلكَ بالأمرِ والنَّهْيِ، وصَدَّقُوا بالوعدِ والوعيدِ، فآمَنُوا بالخلقِ الذي مِنْ تمامِ الإيمانِ بهِ إثباتُ القدَرِ والحكمةِ، وبالأَمْرِ الذي منْ تمامِ الإيمانِ بهِ الإيمانُ بالوعدِ والوعيدِ، وحشرِ الأجسادِ والثوابِ والعقابِ؛ فَصَدَّقُوا بالخلقِ والأمرِ، ولم يَنْفُوهُمَا بِنَفْيِ لَوَازِمِهِمَا كما فَعَلَت القدَرِيَّةُ المجوسيَّةُ، والقدَرِيَّةُ المعارضةُ للأمرِ بالقدَرِ، وكانوا أَسْعَدَ النَّاسِ بالحقِّ، وأَقْرَبَهُم عُصْبَةً في هذا الميراثِ النبويِّ، وذلكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

مذهبُ القدريةِ في القدرِ

واعْلَمْ أنَّ الإيمانَ بحقيقةِ القدَرِ والشرعِ والحكمةِ لا يجتمعُ إلاَّ في قلوبِ خواصِّ الخلقِ، وَلُبِّ العالَمِ، وليسَ الشأنُ في الإيمانِ بألفاظِ هذهِ المُسَمَّيَاتِ وجَحْدِ حَقَائِقِهَا، كما يَفْعَلُهُ كثيرٌ منْ طوائفِ الضَّلالِ؛ فإنَّ القدَرِيَّةَ تُؤْمِنُ بلفظِ القدَرِ، ومنهم مَنْ يَرُدُّهُ

(١) في (ك) و(س) زيادة (واو).

إلى العِلْمِ، ومنهم مَنْ يَرُدُّهُ إلى الأمرِ الديني[١]، وَيَجْعَلُ قضاءَهُ وقَدَرَهُ هوَ نفسَ أمرِهِ ونهيِهِ، ويُفَسِّرُ مشيئةَ اللَّهِ لأفعالِ عبادِهِ بأمرِهِ لهم بها، وهذا حقيقةُ إنكارِ القضاءِ والقدَرِ[٢].

معنى الحكمةِ عند الجبريةِ

وكذلكَ الحكمةُ؛ فإنَّ الجبريَّةَ تُؤْمِنُ بلفظِهَا وتَجْحَدُ حقيقتَهَا، فإنَّهُم يَجْعَلُونَهَا مطابقةَ عِلْمِهِ - تَعَالَى - لمعلومِهِ، وإرادتِهِ لمُرادِهِ، فهيَ عندَهُم وقوعُ الكائناتِ على وفْقِ عِلْمِهِ وإرادتِهِ[٣].

مذهبُ القدريةِ النفاةِ في الحكمةِ

والقدَرِيَّةُ النُّفَاةُ لا يَرْضَوْنَ بهذا؛ بلْ يَرْتَفِعُونَ عنه طَبَقَةً، ويُثْبِتُونَ حكمةً زائدةً على ذلكَ، لكنَّهُم يَنْفُونَ قيامَهَا بالفاعلِ الحكيمِ، ويَجْعَلُونَهَا مَخْلُوقًا منْ مخلوقاتِهِ، كما قالُوا في كلامِهِ وإرادتِهِ[٤].

فهؤلاءِ كُلُّهُم أَقَرُّوا بلفظِ الحكمةِ، وجَحَدُوا مَعْنَاهَا وحقيقَتَهَا.

وكذلكَ[٥] الأمرُ والشرعُ؛ فإنَّ مَنْ أَنْكَرَ كلامَ اللَّهِ، وَقَالَ: إنَّ اللَّهَ لم يَتَكَلَّمْ ولا يَتَكَلَّمُ[٦]، ولا قالَ ولا يَقُولُ، ولا يُحِبُّ شيئًا ولا يُبْغِضُ شَيْئًا، وجميعُ الكائناتِ محبوبَةٌ لهُ، وما لم يكنْ فهو مكروهٌ لهُ، ولا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ[٧]، ولا يَرْضَى ولا يَغْضَبُ، ولا فَرْقَ في نفسِ الأمرِ بينَ الصدقِ والكذبِ، والبرِّ والفجورِ، والسجودِ للأصنامِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ، وبينَ[٨] السجودِ لهُ، ولم يُكَلِّفْ أحدًا ما يَقْدِرُ عليهِ، بلْ كُلُّ تكاليفِهِ تكليفُ ما لا يُطَاقُ، ولا قُدْرَةَ للمُكَلَّفِ عليهِ أَلْبَتَّةَ، وَيَجُوزُ أنْ يُعَذِّبَ رجالًا إذْ لم يكونُوا نِسَاءً، ويُعَذِّبُ نِسَاءً إذْ لم يَكُونُوا رِجَالًا، وسُودًا حيثُ لم يكونُوا بِيضًا، وعكسُهُ[٩]، ويَجُوزُ أنْ يُظْهِرَ المعجزةَ على أَيْدِي الكذابِينَ، ويُرْسِلَ رَسُولًا يَدْعُو إلى الباطلِ وعبادةِ الأوثانِ، ويَأْمُرَ بِقَتْلِ النفوسِ وأنواعِ الفجورِ[١٠].

---

(١) في (ع): والنهي.

(٢) انظر: «شرح الأصول الخمسة» (ص٧٧٢)، «الفتاوى» لابن تيمية (٣/ ١١١)، (٨/ ٤٥٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨١).

(٤) انظر: «منهاج السنة» لابن تيمية (١/ ٤٥٤)، و «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨١).

(٥) في (ع): ولذلك، والصواب المثبت.

(٦) في (ك): تكلم، والمثبت هو الصواب؛ ليعم الفعل الزمنين: الماضي والمستقبل.

(٧) ساقطة من (ك) و(س). (٨) ساقطة من (س).

(٩) في (ك) و(س): (وبيضًا حيث لم يكونوا سودًا) بدلا من (عكسه).

(١٠) وهذا قول الجهمية. وانظر: «الملل والنحل»(١/ ٧٣ - ٧٤)، «الفتاوى» (٨/ ٢٩٧)، و«شفاء =

ولا رَيْبَ أنَّ هذا يَرْفَعُ الشرائعَ والأمرَ والنهيَ بالكليَّةِ، ولَوْلاَ تَنَاقُضُ القائلِينَ بهِ؛ لكانوا مُنْسَلِخِينَ منْ دِينِ الرُّسُلِ - صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهم - ولكنْ مَشَى الحالُ بعضَ المَشْيِ بِتَنَاقُضِهِم، وهو خيرٌ لهم منْ طَرْدِ أُصُولِهِم والقَوْلِ بموجَبِهَا.

والمقصودُ أنَّهُ لم يُؤْمِنْ بالقضاءِ والقدَرِ، والحكمةِ، والأمرِ والنهيِ، والوعدِ والوعيدِ حقيقةَ الإيمانِ إلاَّ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ووَرَثَتُهُم.

واسْتَحْسَنَ ابنُ عَقِيلٍ[1] هذا الكلامَ منْ أحمدَ غايَةَ الاستحسانِ، وَقَالَ: «إنَّهُ شَفَى بهذهِ الكلمةِ، وأَفْصَحَ بها عنْ حقيقةِ القدَرِ»[2].

منشأُ القضاءِ والقدرِ

ولهذا كانَ المُنْكِرُونَ للقدَرِ فِرْقَتَيْنِ:

فرقةٌ كَذَّبَتْ بالعلمِ السابقِ ونَفَتْهُ، وهمْ غُلاَتُهُم الذينَ كَفَّرَهُم السلفُ والأَئِمَّةُ، وتبَرَّأَ منهم الصحابةُ.

وفرقةٌ جَحَدَتْ كمالَ القدرةِ، وأنْكَرَتْ أنْ تكُونَ أفعالُ العبادِ مقدورةً للَّهِ، وصَرَّحَتْ بأنَّ اللَّهَ لا يَقْدِرُ عليها.

فَأَنْكَرَ هؤلاءِ كمالَ قدرةِ الربِّ - تَعَالَى - وَأَنْكَرَت الأُخْرَى كمالَ عِلْمِه!!

وَقَابَلَهُم الجبريَّةُ، فَحَافَظَتْ على إثباتِ القدرةِ والعلم، وَأَنْكَرَت الحكمةَ والرحمةَ، ولهذا كانَ مصدرُ الخلقِ والأمرِ، والقضاءِ والشرعِ، عَنْ عِلْمِ الربِّ وعزَّتِهِ وحكمتِهِ، ولهذا يَقْرِنُ - تَعَالَى - بينَ الاسمَيْنِ والصفتَيْنِ منْ هذهِ الثلاثِ كَثِيرًا.

كقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النَّمل: الآية ٦]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزُّمَر: الآية ١]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزُّمَر: الآية ١]، وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ١ - ٢].

= العليل» (١/ ٣٤٣ - ٣٤٤).

(١) أبو الوفاء: علي بن عقيل بن محمد الظفري الحنبلي، العالم البحر، صاحب التصانيف، له كتاب «الفنون» أزيد من أربعمائة مجلد، أخذ عليه ميله إلى بعض أقوال الجهمية والمعتزلة، توفي سنة (٥١٣هـ). انظر ما ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٤٣ - ٤٥١ت٢٥٩)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ١٤٦ت٥٨٩٢)، «والبداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ١٨٤).

(٢) «شفاء العليل» (١/ ١٣٠).

وَقَالَ في ﴿حمٓ ۝١﴾ «فصلت» بعدَ ذِكْرِ تَخْلِيقِ العالَمِ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٦].

وذَكَرَ نظيرَ هذا في «الأنعامِ» فقالَ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾ [الأنعام: الآية ٩٦].

فارْتِبَاطُ الخلقِ بقدرتِهِ التامَّةِ يَقْتَضِي أَنْ لا يَخْرُجَ موجودٌ عنْ قدرتِهِ.

وارتباطُهُ بِعِلْمِهِ التامِّ يَقْتَضِي إحاطتَهُ بهِ، وتَقَدُّمَهُ عليهِ.

وارتباطُهُ بحكمتِهِ يَقْتَضِي وقوعَهُ على أكملِ الوجوهِ وأحسنِهَا، واشتمالَهُ على الغايَةِ المحمودةِ المطلوبةِ للربِّ تَعَالَى.

وكذلكَ ارتباطُ[1] أَمْرِهِ بِعِلْمِهِ، وحِكْمَتِهِ، وعِزَّتِهِ؛ فهو عليمٌ بخلقِهِ وأمرِهِ، حكيمٌ في خلقِهِ وأمرِهِ، عزيزٌ في خلقِهِ وأمرِهِ.

من معاني الحكمةِ

ولهذا كانَ الحكيمُ منْ أسمائِهِ الحُسْنَى، والحكمةُ[2] منْ صفاتِهِ العُلَى، والشريعةُ الصادرةُ عنْ أمرِهِ مَبْنَاهَا على الحكمةِ، والرسولُ المبعوثُ بها مبعوثٌ بالكتابِ والحكمةِ، والحكمةُ هيَ سُنَّةُ الرسولِ ﷺ، وهيَ تَتَضَمَّنُ العلمَ بالحقِّ والعملَ بهِ، والخبرَ عنهُ، والأمرَ بهِ، وكلُّ هذا يُسَمَّى حكمةً، وفي الأثرِ: «**الحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ**»[3]، وفي الحديثِ: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»[4].

فَكَمَا لا يَخْرُجُ مقدورٌ عنْ علمِهِ وقدرتِهِ ومشيئتِهِ، فهكذا لا يَخْرُجُ عنْ حكمتِهِ وحمدِهِ، وهُوَ[5] محمودٌ على جميعِ ما في الكونِ منْ خيرٍ وشرٍّ، حَمْدًا اسْتَحَقَّهُ لذاتِهِ، وصَدَرَ عنهُ خَلْقُهُ وأمرُهُ، فَمَصْدَرُ ذلكَ كلِّهِ عن الحكمةِ، فإنكارُ الحكمةِ إنكارٌ لحمدِهِ في الحقيقةِ.

---

(١) ساقطة من (س). (٢) في (ك) و(س): فالحكمة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٤٠ح٣٥٦٨١)، وابن ماجه في «السنن» (٢/ ١٣٩٥) ح٤١٦٩)، والترمذي في «السنن» (٥/ ٥١ح٢٦٨٧)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١١٨) ح١٤٦). وانظر: «المقاصد الحسنة» للقضاعي (٢٢٨/ح٤١٥). قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٩٥): هذا حديث لا يصح، وقال الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٤٣/ح٩١٢): ضعيف جدًا.

(٤) رواه البخاري (١٠/ ٥٥٣) ح٦١٤٥ فتح) بمثله. (٥) في (ع): فهو.

فصلٌ

وإنَّمَا يَتَبَيَّنَ هذا ببيانِ وجودِ الحكمةِ في كلِّ ما خَلَقَهُ اللَّهُ وأَمَرَ بِهِ، وبيانِ أَنَّهُ كُلَّهُ خيرٌ مِنْ جهةِ إضافتِهِ إليهِ سبحانَهُ، وأَنَّهُ مِنْ تلكَ الإضافةِ خيرٌ وحكمةٌ، وأنَّ جهةَ الشرِّ منهُ مِنْ جهةِ إضافتِهِ إلى العبدِ، كما قالَ النَّبِيُّ ﷺ في دعاءِ الاستفتاحِ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(١).

فهذا النَّفْيُ يَقْتَضِي امْتِنَاعَ إضافةِ الشرِّ إليهِ تَعَالَى بوجهٍ، فلا يُضَافُ إلى ذاتِهِ ولا صفاتِهِ، ولا أسمائِهِ، ولا أفعالِهِ؛ فإنَّ ذاتَهُ تَعَالَى مُنَزَّهَةٌ عنْ كلِّ شرٍّ، وصفاتِهِ كذلكَ؛ إذْ كُلُّهَا صفاتُ كمالٍ، ونعوتُ جَلاَلٍ، لا نَقْصَ فيها بِوَجْهٍ من الوجوهِ، وأسماؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى لَيْسَ فيها اسمُ ذمٍّ ولا عَيْبٍ، وأفعالُهُ كُلُّهَا حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وإحسانٌ وعدلٌ، لا تَخْرُجُ عنْ ذلكَ أَلبَتَّةَ، هُوَ المحمودُ على ذلكَ كُلِّهِ فَيَسْتَحِيلُ إضافةُ الشرِّ إليهِ.

وتحقيقُ ذلكَ أنَّ الشرَّ ليسَ هوَ إلاَّ الذنوبَ وعقوباتِهَا(٢)، كما في خُطْبَتِهِ ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»(٣).

فَتَضَمَّنَ ذلكَ الاستعاذةَ منْ شرورِ النفوسِ، ومنْ سَيِّئَاتِ الأعمالِ، وهيَ عقوباتُهَا(٤).

وعلى هذا فالإضافةُ على معنَى «اللامِ» مِنْ بابِ إضافةِ المُتَغَايِرَيْنِ، أَوْ يُقَالُ:

---

(١) رواه مسلم -كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل (٦/ ٣٩١ - ٣٩٣) ح٧٧١) بنحوه في أثناء حديث طويل.

(٢) في (س): عتوباتها، وهو تصحيف.

(٣) رواه أبو داود (١/ ٢٨٧) ح١٠٩٦) وابن ماجه (٦١٠ح١٨٩٣) ورواه الترمذي (٣/ ٤٠٤ - ٤٠٥) ح١١٠٥)، وقال: حديث عبد الله حديث حسن، رواه الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ، ورواه شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله، عن النبي ﷺ، وكلا الحديثين صحيح؛ ورواه النسائي (٣/ ١٠٤ - ١٠٥). والحديث صححه الألباني كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٣١٩) ح١٥٣٥)، «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٣٢٠ - ٣٢١ح٨٨٢)، و«صحيح سنن النسائي» (١/ ٣٠٣) ح١٣٣١)، (٢/ ٦٩٠ح٣٠٧٠).

(٤) انظر كلاما للمؤلف رحمه الله على هذا الجزء من الحديث في «الداء والدواء» (ص٢٠٨ - ٢١٠)، «شفاء العليل» (١/ ٤٦٧، ٤٨٢)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٤١٠ - ٤١١)، «وإغاثة اللهفان» (١/ ٧٤ - ٧٥).

المرادُ: السَّيِّئَاتُ من الأعمالِ، فَعَلَى هذا: الإضافةُ بِمَعْنَى «مِنْ»، وهيَ منْ بابِ إضافةِ النوعِ إلى جِنْسِهِ، ويَدُلُّ على الأَوَّلِ قولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ [غافر: الآية ٩].

قالَ شَيْخُنَا (١) رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا أَشْبَهُ؛ لأَنَّهُ إذا أُرِيدَ السيئاتُ من الأعمالِ؛ فإنْ أُرِيدَ ما وَقَعَ منها؛ فالاستعاذةُ إنَّمَا تَكُونُ منْ عُقُوبَاتِهَا؛ إذ الواقعُ لا يُمْكِنُ دَفْعُهُ، وإن اسْتَعَاذَ منها قبلَ وقوعِهَا؛ لِئَلاَّ تَقَعَ؛ فهذا هوَ الاستعاذةُ منْ شرِّ النفسِ.

وأيضًا فلا يُقَالُ في هذهِ التي لم تُوجَدْ بعدُ: سَيِّئَاتِ أعمالِنَا؛ فإنَّها لم تَكُنْ بعدُ أَعْمَالًا، فَضْلًا عنْ أنْ تكونَ سَيِّئَاتٍ، وإضافةُ الأعمالِ إِلَيْنَا يَقْتَضِي وجودَهَا؛ إذْ ما لم يُوجَدْ بعدُ ليسَ هوَ منْ أَعْمَالِنَا، إلاَّ أنْ يُقَالَ منْ سَيِّئَاتِ الأعمالِ التي إذا عَمِلْنَاهَا كانتْ سَيِّئَاتٍ.

ولِمَنْ رَجَّحَ التقديرَ الثانيَ أنْ يَقُولَ: العقوباتُ لَيْسَتْ لِجَمِيعِ الأعمالِ، بلْ للمحرَّماتِ منها، والأعمالُ أَعَمُّ، وحَمْلُهَا على المحرَّماتِ خاصَّةً خلافُ ظاهرِ اللفظِ، بِخِلاَفِ ما إذا كانت الإضافةُ على معنى «مِنْ»؛ فَتَكُونَ الأعمالُ على عُمُومِهَا، والسَّيِّئَاتُ بَعْضُهَا؛ فَتَكُونَ السَّيِّئَاتُ على عُمُومِهَا، والأعمالُ على عُمُومِهَا.

أصولُ الشرِّ

ويَتَرَجَّحُ أيضًا بأنَّ الاستعاذةَ تكونُ قد اشْتَمَلَتْ على أصولِ الشرِّ كُلِّهِ وهيَ:

شَرُّ النَّفْسِ الكامنُ فيها، الذي لم يَخْرُجْ إلى العملِ.

وَشَرُّ العملِ الخارجُ الذي سَوَّلَتْهُ النفسُ.

فالأَوَّلُ: شَرُّ الطبيعةِ والصفةِ التي في النفْسِ.

والثاني: شَرُّ العملِ المُتَعَلِّقِ بالكسبِ والإرادةِ.

وَيَلْزَمُ من المُعَافَاةِ منْ هَذَيْنِ الشَّرَّيْنِ المعافاةُ منْ مُوجَبِهِمَا، وهوَ العقوبةُ؛ فتكونُ الاستعاذةُ قدْ شَمَلَتْ جميعَ أنواعِ الشرِّ بالمطابقةِ واللزومِ، وهذا هوَ اللائقُ بِمَنْ أُوتِيَ جوامعَ الكَلِمِ؛ فإنَّ هذا منْ جوامِعِ كلِمِهِ البديعةِ العظيمةِ الشأنِ، التي لا يَعْرِفُ قَدْرَهَا إلاَّ أهلُ العلمِ والإيمانِ.

---

(١) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر نحوًا من هذا في «الفتاوى» (١٤/ ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٢).

ليسَ في الوجودِ شَرٌّ إلا الذنوبُ وموجباتُها

وإذا عُرِفَ هذا، وأنَّهُ[١] ليسَ في الوجودِ شَرٌّ إلاَّ الذنوبُ وموجَباتُهَا، وكونُهَا ذنوبًا نَاشِئٌ[٢] منْ نفْسِ العبدِ؛ فإنَّ سببَ الذنبِ: الظلمُ والجهلُ، وهما منْ نفْسِ العبدِ، كما أنَّ سببَ الخيرِ والحمدِ: العلمُ والحكمةُ والغِنَى، وهيَ أمورٌ ذاتيَّةٌ للربِّ تَعَالَى، فذاتُ الربِّ تَعَالَى مُسْتَلْزِمَةٌ للحكمةِ والخيرِ والجُودِ، وذاتُ العبدِ مُسْتَلْزِمَةٌ للجهلِ والظلمِ، وما فيهِ من العلمِ والعدلِ، فإنَّمَا حَصَلَ لهُ بفضلِ اللَّهِ عليهِ، وهو أَمْرٌ خارجٌ عنْ نفسِهِ، فمنْ أَرَادَ اللَّهُ بهِ خيرًا، أَعْطَاهُ هذا الفضلَ، فَصَدَرَ منهُ مُوجَبُهُ[٣] من الإحسانِ والبِرِّ والطاعةِ، وَمَنْ أَرَادَ بهِ شَرًّا، أَمْسَكَهُ عنهُ، وَخَلاَّهُ ودَوَاعِيَ نفسِهِ وطبْعِهِ ومُوجَبَهَا، فَصَدَرَ منهُ موجَبُ الجهلِ والظلمِ منْ كلِّ شرٍّ وقبيحٍ، وليسَ مَنْعُهُ لذلكَ ظُلْمًا منهُ تَعَالَى؛ فإنَّهُ فَضْلُهُ، وليسَ منْ مَنَعَ فَضْلَهُ ظَالِمًا؛ لا سِيَّمَا إذا مَنَعَهُ عنْ مَحَلٍّ لا يَسْتَحِقُّهُ ولا يَلِيقُ بهِ.

وأيضًا فإنَّ هذا الفضلَ هوَ تَوْفِيقُهُ وإرادتُهُ منْ نفسِهِ، أنْ يَلْطُفَ بعبدِهِ ويُوَفِّقَهُ ويُعِينَهُ، ولا يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وبينَ نفسِهِ، وهذا مَحْضُ فعلِهِ وفضلِهِ، وهُوَ - سبحانَهُ - أَعْلَمُ بالمَحَلِّ الذي يَصْلُحُ لهذا الفضلِ، ويَلِيقُ بهِ، ويُثْمِرُ فيهِ[٤]، ويَزْكُو بهِ.

وقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إلى هذا المعنَى بقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٣]، فَأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ هذهِ النعمةِ ويَشْكُرُهُ عليها، فإنَّ أَصْلَ الشكرِ هوَ الاعترافُ بإنعامِ المُنْعِمِ على وجهِ الخضوعِ لهُ والذُّلِّ والمَحَبَّةِ.

فمَنْ لم يَعْرِف [النعمةَ؛ بلْ كانَ جَاهِلًا بها؛ لم يَشْكُرْهَا، ومَنْ عَرَفَهَا ولم يَعْرِف][٥] المُنْعِمَ بها، لم يَشْكُرْهَا أيضًا، ومَنْ عَرَفَ النعمةَ والمُنْعِمَ لكن جَحَدَهَا - كما يَجْحَدُ المُنْكِرُ لنعمةِ المُنْعِمِ عليهِ[٦] -؛ فقدْ كَفَرَهَا، ومَنْ عَرَفَ النعمةَ والمُنْعِمَ وَأَقَرَّ بها، ولم يَجْحَدْهَا، ولكن لم يَخْضَعْ لهُ، ويُحِبَّهُ ويَرْضَ بهِ وعنهُ، لم يَشْكُرْهَا أيضًا، ومَنْ عَرَفَهَا وعَرَفَ المُنْعِمَ بها، وَأَقَرَّ بها، وخَضَعَ للمُنْعِمِ بها، وَأَحَبَّهُ ورَضِيَ بهِ وعنهُ، واسْتَعْمَلَهَا في مَحَابِّهِ وطاعتِهِ؛ فهذا هوَ الشاكرُ لها.

---

(١) في (ع): فإنه. (٢) في (ك) و(س): تأتي.
(٣) ساقطة من (س). (٤) في (ك) و(س): به.
(٥) ما بين المعقوفين ساقط من (ك). (٦) في (ك) و(س) زيادة: (بها).

الشاكرُ حقًّا للنعمةِ

فلا بُدَّ في الشُّكْرِ منْ عِلْمِ القلبِ، وعَمَلٍ يَتْبَعُ العلمَ، وهُوَ المَيْلُ إلى المُنْعِمِ ومَحَبَّتُهُ، والخضوعُ لهُ؛ كما في «صحيح البخاريِّ»(١) عنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**.

الكلامُ على حديثِ سيِّدِ الاستغفارِ

فقولُهُ: **«أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ»** يَتَضَمَّنُ الإقرارَ والإنابةَ إلى اللَّهِ بعبوديَّتِهِ؛ فإنَّ المَبَاءَةَ: هيَ التي يَبُوءُ إليها الشخصُ أيْ: يَرْجِعُ إليها رُجُوعَ استقرارٍ، والمَبَاءَةُ: هيَ المُسْتَقَرُّ.

ومنهُ قولُهُ ﷺ: **«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**(٢)؛ أيْ: لِيَتَّخِذْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ مَبَاءَةً يَلْزَمُهُ ويَسْتَقِرُّ فيهِ، لا كالمنزلِ الذي يَنْزِلُهُ ثُمَّ يَرْحَلُ عنهُ، فالعبدُ يَبُوءُ إلى اللَّهِ ﷻ بِنِعْمَتِهِ عليهِ، ويَبُوءُ بذنبِهِ؛ فَيَرْجِعُ إليهِ بالإعترافِ بهذا وبهذا رجوعَ مُطْمَئِنٍّ إلى رَبِّهِ، مُنِيبٍ إليهِ، ليسَ رجوعَ مَنْ أَقْبَلَ عليهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عنهُ، بلْ رُجُوعَ مَنْ لا يُعْرِضُ عنْ رَبِّهِ، بلْ لا يَزَالُ مُقْبِلًا عليهِ؛ إذ كانَ لا بُدَّ لهُ منهُ، فَهُوَ مَعْبُودُهُ وهو مُسْتَعَانُهُ(٣)، لا صَلاَحَ لهُ إلاَّ بِعِبَادَتِهِ، فإنْ لم يَكُنْ مَعْبُودَهُ هَلَكَ وَفَسَدَ، ولا يُمْكِنُ أنْ يَعْبُدَهُ إلاَّ بإعانَتِهِ.

وفي الحديثِ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الْفَرَسِ فِي آخِيَّتِهِ(٤)، يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى آخِيَّتِهِ(٥)**،

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٠٠ - ١٠١)، (١٣٤) ح٦٣٠٦، ٦٣٢٣ فتح) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٥٧٢) ح٣٤٦١) ومسلم (١/ ٦٣ - ٦٤ح٣ نووي)، و(١/ ٦٥) ح٤).

(٣) في (ك) و(س): مستغاثه، والمثبت أولى؛ لموافقة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

(٤) في (ك): أخبيته، والصواب المثبت، ومعنى آخيته: الآخية بالمد والتشديد: حبيل أو عويد يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة وتشد فيها الدابة. وجمعها الأواخي مشددا. والأخايا على غير قياس. ومعنى الحديث: أنه يبعد عن ربه بالذنوب وأصل إيمانه ثابت. «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٢٩ - ٣٠). وانظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ١٤)، «لسان العرب» لابن منظور باب الهمزة (١/ ٩٢).

(٥) في (ك): أخبيته، والصواب المثبت.

كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الإِيمَانِ» [(١)].

فقولُهُ: «**أَبُوءُ**» يَتَضَمَّنُ أَنِّي وَإِنْ جُلْتُ كَمَا يَجُولُ الفرسُ - إمَّا بالذنبِ وإمَّا بالتقصيرِ في الشكرِ - فإنِّي رَاجِعٌ منيبٌ أَوَّابٌ إليكَ، رُجُوعَ مَنْ لا غِنَى لهُ عَنْكَ.

وذَكَرَ النعمةَ والذنبَ؛ لأنَّ [(٢)] العبدَ دَائِمًا يَتَقَلَّبُ بينَهُمَا، فهوَ بينَ نعمةٍ منْ رَبِّهِ، وذنبٍ منهُ هوَ، كما في الأثرِ الإلَهِيِّ: «**ابْنَ آدَمَ، خَيْرِي إِلَيْكَ نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، كَمْ [(٣)] أَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ، وَكَمْ تَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، وَلاَ يَزَالُ الْمَلَكُ الْكَرِيمُ يَعْرُجُ إِلَيَّ [(٤)] مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ**» [(٥)].

وكانَ في زمنِ الحسنِ البَصْرِيِّ شابٌّ لا يُرَى إلاَّ وحدَهُ، فَسَأَلَهُ الحسنُ عنْ [(٦)] ذلكَ، فقالَ: «إنِّي أَجِدُنِي بينَ نعمةٍ من اللَّهِ وذنبٍ مِنِّي، فَأُرِيدُ أنْ أُحْدِثَ للنعمةِ شُكْرًا، وللذنبِ اسْتِغْفَارًا، فذلكَ الذي شَغَلَنِي عن الناسِ» - أوْ كما قالَ - فقالَ لهُ: «أَنْتَ أَفْقَهُ عِنْدِي [(٧)] من الحَسَنِ» [(٨)].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص٢٤) ح٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨، ٥٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢/ ٣٥٧، ٤٩٢ ح١١٠٦، ١٣٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٣٨١ح (٦١٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٧٩) ح١٣٥٦). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠١): رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) في (ع): أن.

(٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) في (س): علي، والصواب المثبت كما في المصدرين الآتيين.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٤٠ح٤٥٨٩) كلاهما عن مالك بن دينار، قال: قرأت في بعض الكتب. . . . . ، وذكره، ولعله من الإسرائيليات.

(٦) في (س): عند.

(٧) ساقطة من (ك) و(س).

(٨) ذكر هذا الخبر الغزالي في: «إحياء علوم الدين» (٢/ ٢٠٧) فقال: وقيل للحسن: يا أبا سعيد، ها هنا رجل لم تره قط جالسا إلا وحده خلف سارية، فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به. فنظروا إليه ذات يوم، فقالوا للحسن: هذا الرجل الذي أخبرناك به. وأشاروا إليه، فمضى إليه الحسن وقال له: يا عبد الله، أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس؟! فقال: أمر شغلني عن الناس. قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له: الحسن فتجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، وعن الحسن. فقال له الحسن: وما ذاك الشغل يرحمك الله؟! فقال: إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنب، فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب. فقال له الحسن: أنت يا عبد الله أفقه عندي من الحسن، فالزم ما أنت عليه.

فالخيرُ كُلُّهُ مِن اللَّهِ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ - ٨]، وقَالَ تعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحُجرات: الآية ١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وهؤلاءِ المُنْعَمُ عليهم هم المذكورونَ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النِّساء: الآية ٦٩].

نِعَمُ الدينِ والدنيا من اللهِ وحدَهُ

فالنِّعَمُ كلُّهَا منْ[1] نِعَم الدِّينِ والدنْيَا[2]، وثوابِ الأعمالِ في الدنيا والآخرةِ منْ نِعَمِ اللَّهِ ومَنِّهِ وفَضْلِهِ على عبدِهِ، هُوَ - تَعَالَى - وإنْ كانَ أجودَ الأجودِينَ، وأَرْحَمَ الراحِمِينَ، وأَكْرَمَ الأكرَمِينَ، فإِنَّهُ أَحْكَمُ الحاكمِينَ، وأعدلُ العادلينَ، لا يَضَعُ الأشياءَ إلاَّ في مواضِعِهَا اللائقةِ بها، ولا يُنَاقِضُ جُودُهُ ورحمتُهُ وفضلُهُ حِكْمَتَهُ وعدلَهُ.

الردُّ على نفاةِ الحكمةِ

ولوْ رَأَى العقلاءُ وَاحِدًا منهم قدْ وَضَعَ المِسْكَ في الحشوشِ والأخليَةِ، ووَضَعَ النَّجَاسَاتِ والقاذوراتِ في مواضعِ الطِّيبِ والنظافةِ؛ لاشْتَدَّ نَكِيرُهُم عليهِ، والقَدْحُ في عَقْلِهِ، ونَسَبُوهُ إلى السفهِ وخلافِ الحكمةِ.

وكذلكَ لوْ وَضَعَ العقوبةَ موضعَ الإحسانِ، والإحسانَ موضعَ العقوبةِ؛ لَسَفِهُوهُ وقَدَحُوا في عَقْلِهِ، كما قالَ القائلُ:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلاَ ... مُضِرٌ كَوَضْعِ السَّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى[3]

وكذلكَ لوْ وَضَعَ الدواءَ موضعَ الغذاءِ، والغذاءَ موضعَ الدواءِ، والاستفراغَ حيثُ يكونُ اللائقُ بِهِ عَدَمَهُ، والإمساكَ حيثُ يَلِيقُ الاستفراغُ، وكذلكَ وَضْعُ الماءِ موضعَ الطعامِ، وَوَضْعُ الطعامِ موضعَ الماءِ، وأمثالُ ذلكَ مِمَّا يُخِلُّ بالحكمةِ، بلْ لوْ أَقْبَلَ على الحيوانِ البَهِيمِ يُرِيدُ تَعْلِيمَهُ ما لم يُخْلَقْ لهُ من العلومِ والصنائِعِ[4].

---

(١) ساقطة من (ك). (٢) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في: (الدين والدنيا).

(٣) البيت لأبي الطيب المتنبي (ص٣٧٠) من ديوانه.

(٤) كذا في جميع النسخ، والمراد: لاشتد نكيرهم عليه، والقدح في عقله، ونسبوه إلى السفه وخلاف الحكمة. كما سبق من كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَمَنْ بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ العقولَ والألبابَ، كيفَ يَنْبَغِي لهُ أنْ يَضَعَ الأشياءَ في غيرِ مواضعِهَا اللائقةِ بها؟!

ومن المعلومِ أنَّ أَجَلَّ نِعَمِهِ على عبدِهِ نعمةُ الإيمانِ بهِ، ومعرفتِهِ، ومحبَّتِهِ وطاعتِهِ، والرِّضَا بهِ، والإنابةِ إليهِ، والتَّوَكُّلِ عليهِ، والْتِزَامِ عبوديَّتِهِ.

أنواعُ الأرواحِ والقلوب

ومِن المعلومِ أيضًا أنَّ الأرواحَ منها الخبيثُ الذي لا أخبثَ منهُ، ومنها الطَّيِّبُ، وبينَ ذلكَ.

وكذلكَ القلوبُ: منها القلبُ الشريفُ الزَّكِيُّ، والقَلْبُ الخسيسُ الخبيثُ.

وهُوَ - سبحانَهُ - خَلَقَ الأضدادَ كما خَلَقَ الليلَ والنهارَ، [والبَرَّ والبحرَ]،[(١)] والحرَّ والبردَ[(٢)]، والداءَ والدواءَ، والعلوَّ والسفلَ، وهو أَعْلَمُ بالقلوبِ الزاكِيَةِ، والأرواحِ الطيِّبَةِ التي تَصْلُحُ لاستقرارِ هذهِ النِّعَمِ فيها، وَإِيدَاعِهَا عندَهَا، ويَزْكُو بذرُهَا فيها، فيكونُ تَخْصِيصُهُ لها بهذهِ النِّعَمِ[(٣)] كَتَخْصِيصِ الأرضِ الطيِّبَةِ القابلةِ للبذرِ بالبذرِ؛ فليسَ من الحكمةِ أنْ يُبْذَرَ البُرُّ في الصخورِ والرِّمَالِ والسِّبَاخِ، وفاعِلُ ذلكَ غيرُ حكيمٍ، فما الظنُّ بِبَذْرِ الإيمانِ، والقرآنِ، والحكمةِ، ونورِ المعرفةِ والبصيرةِ في المَحَالِّ التي هيَ أَخْبَثُ المَحَالِّ؟!

فاللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالاتِهِ أَصْلًا ومِيرَاثًا، فهوَ أَعْلَمُ بمَنْ يَصْلُحُ لِتَحَمُّلِ رسالتِهِ، فَيُؤَدِّيهَا إلى عبادِهِ بالأمانةِ والنصيحةِ، وتعظيمِ المُرْسِلِ، والقيامِ بحقِّهِ، والصبرِ على أوامرِهِ، والشكرِ لِنِعَمِهِ، والتَّقَرُّبِ إليهِ، ومَنْ لا يَصْلُحُ لذلكَ.

وكذلكَ هوَ - سبحانَهُ - أَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ من الأممِ لوراثةِ رُسُلِهِ، والقيامِ بخلافَتِهِم، وحَمْلِ ما بَلَّغُوهُ عنْ رَبِّهِم.

قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ: «إنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - نَظَرَ في قلوبِ العِبَادِ، فَرَأَى قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قلوبِ أهلِ الأرضِ، فَاخْتَصَّهُ برسالتِهِ، ثمَّ نَظَرَ في قلوبِ العِبَادِ، فَرَأَى قلوبَ أصحابِهِ خَيْرَ قلوبِ العِبَادِ، فَاخْتَارَهُم لصُحْبَتِهِ»[(٤)]

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٢) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في: (والحر والبرد). (٣) في (س): النعمة.

(٤) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٣٣) ح٢٤٦) بنحوه؛ وأحمد في «مسنده» (١/٣٧٩) والبزار في «مسنده» (٥/٢١٢ - ٢١٣ح١٨١٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١١٨ح٨٥٨٢، =

وفي أَثَرٍ إسرائيليٍّ[١] أنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قالَ لِمُوسَى: «أَتَدْرِي لِمَ اخْتَرْتُكَ لكلامِي[٢]؟ قالَ: لا يَا رَبِّ، قالَ: لأنِّي نَظَرْتُ في قلوبِ العِبَادِ فَلَمْ أَرَ فِيهَا أَخْضَعَ مِنْ قَلْبِكَ لي»[٣]. أوْ نحوَ هذا.

فالربُّ - سبحانَهُ - إذا عَلِمَ من المَحَلِّ[٤] أَهْلِيَّةً لفضلِهِ ومحبَّتِهِ ومعرفتِهِ وتوحيدِهِ؛ حَبَّبَ إليهِ ذلكَ، ووَضَعَهُ فيهِ، وكَتَبَهُ في قلبِهِ، وَوَفَّقَهُ لهُ، وأعانَهُ عليهِ، ويَسَّرَ لهُ طُرُقَهُ، وأَغْلَقَ دونَهُ الأبوابَ التي تَحُولُ بينَهُ وبينَ ذلكَ، ثمَّ تَوَلاَّهُ بِلُطْفِهِ وتَدْبِيرِهِ وتَيْسِيرِهِ، وتربيتِهِ أَعْظَمَ مِنْ تربيَةِ الوالدِ الشفيقِ الرحيمِ المُحْسِنِ لولدِهِ الذي هوَ أَحَبُّ شيءٍ إليهِ، فلا يَزَالُ يُعَامِلُهُ بِلُطْفِهِ، ويَخْتَصُّهُ بِفَضْلِهِ، ويُؤْثِرُهُ بِرَحْمَتِهِ وَيَمُدُّهُ بِمَعُونَتِهِ، ويُؤَيِّدُهُ بِتَوْفِيقِهِ، ويُرِيهِ مَوَاقِعَ إحسانِهِ إليهِ وَبِرِّهِ بهِ، فَيَزْدَادُ العبدُ بهِ معرفةً، ولهُ محبَّةً، وإليهِ إِنَابَةً، وعليهِ تَوَكُّلًا، ولا يَتَوَلَّى معهُ غيرَهُ، ولا يَعْبُدُ[٥] سواهُ، وهذا هوَ الذي عَرَفَ قَدْرَ النعمةِ، وعَرَفَ المُنْعِمَ، وأَقَرَّ بنعمتِهِ، وصرفَهَا في مَرْضَاتِهِ.

فاقْتَضَتْ حكمةُ الربِّ - تَعَالَى - وجُودُهُ وكَرَمُهُ وإحسانُهُ أنْ بَذَرَ في هذا القلبِ بذرَ الإيمانِ والمعرفةِ، وسَقَاهُ ماءَ العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وأَطْلَعَ عليهِ مِنْ نورِهِ[٦] شمسَ الهدايَةِ، وصَرَفَ عنهُ الآفاتِ المانعةَ منْ حصولِ الثمرةِ، فَأَنْبَتَتْ أَرْضُهُ الزاكيَةُ منْ كلِّ زوجٍ كريمٍ، كَمَا في «الصحيحِ»[٧] منْ حديثِ أبي موسَى، عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ،**

= ح٨٥٨٣)، والآجري في «الشريعة» (٤/ ١٦٧٥ - ١٦٧٧ح١١٤٤ - ١١٤٦). جميعهم موقوفًا على ابن مسعود، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٨): «رواه أحمد، والبزار والطبراني في «الكبير»، ورجاله موثقون»، وانظر: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» للعجلوني (٢/ ١٨٨ح٢٢١٤).

(١) في (س): بني إسرائيل. (٢) في (ك) و(س): بكلامي.

(٣) ذكره الذهبي في: «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٤٩٨) وقال: عن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب التي أنزلت أن الله قال لموسى: أتدري لأي شيء كلمتك؟ قال: لأي شيء؟! قال: لأني اطلعت في قلوب العباد، فلم أر قلبا أشد حبا لي من قلبك.

(٤) في (ك) و(س): محل. (٥) في (ك) و(س) زيادة: (معه).

(٦) في (ك): نور.

(٧) رواه البخاري (١/ ٢١١) ح٧٩فتح)، ومسلم (١٥/ ٤٤٥ - ٤٤٦) ح (٢٢٨٢نووي).

فَسَقَى النَّاسَ وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

شرحُ حديثِ أبي موسى

فَمَثَّلَ القلوبَ بالأرضِ التي هيَ مَحَلُّ النباتِ والثمارِ، ومَثَّلَ الوحيَ الذي وَصَلَ إليها منْ بَارِئِهَا وفاطرِهَا بالماءِ الذي يُنْزِلُهُ على الأرضِ؛ فمِنَ الأرضِ أرضٌ طَيِّبَةٌ قابلةٌ للماءِ والنباتِ، فَلَمَّا أَصَابَهَا الماءُ أَنْبَتَتْ ما انْتَفَعَ بهِ الآدَمِيُّونَ والبهائِمُ أَقْوَاتَ المُكَلَّفِينَ وغيرِهم، وهذهِ بمنزلةِ القلبِ القابلِ لِهُدَى اللَّهِ ووَحْيِهِ، المُسْتَعِدِّ لزكائِهِ[1] فيهِ[2] وثمرتِهِ ونَمَائِهِ، وهذا خيرُ قلوبِ العالمِينَ.

ومِنَ الأرضِ أرضٌ صلبةٌ، منخفضةٌ غيرُ مرتفعةٍ ولا رَابِيَةٍ، قابلةٌ لحفظِ الماءِ واستقرارِهِ فيها، ففيها قُوَّةُ الحفظِ وليسَ فيها قُوَّةُ النباتِ، فَلَمَّا حَصَلَ فيها الماءُ أَمْسَكَتْهُ وحَفِظَتْهُ، فَوَرَدَهُ الناسُ لِشُرْبِهِم وشُرْبِ مواشِيهِم، وسَقَوْا منهُ زُرُوعَهم[3]، وهذهِ بمنزلةِ القلبِ الذي حَفِظَ الوَحْيَ وضَبَطَهُ وأَدَّاهُ إلى مَنْ هوَ أَفْهَمُ لهُ منهُ، وأَفْقَهُ منهُ فيهِ[4]، وَأَعْرَفُ بمرادِهِ، وهذا في الدرجةِ الثانيَةِ.

ومِنَ الأرضِ أرضٌ قيعانٌ وهيَ المُسْتَوِيَةُ التي لا تُنْبِتُ، إمَّا لِكَوْنِهَا صَبَخَةً أوْ رِمَالًا، ولا يَسْتَقِرُّ فيها الماءُ، فإذا وَقَعَ عليها الماءُ[5] ذَهَبَ ضَائِعًا، لم تُمْسِكْهُ لشربِ الناسِ، ولم تُنْبِتْ بهِ كَلأً؛ لأنَّها غيرُ قابلةٍ لحفظِ الماءِ، ولا لنباتِ الكلأِ والعشبِ، وهذا حالُ أكثرِ الخَلْقِ، وهم الأشقياءُ الذينَ لم يَقْبَلُوا هُدَى اللَّهِ، ولم يَرْفَعُوا بهِ رَأْسًا، ومَنْ كانَ بهذهِ المثابةِ فَلَيْسَ من المسلمينَ، بلْ لا بُدَّ لكلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَزْكُوَ الوَحْيُ في قلبِهِ، فَيُنْبِتُ من العملِ الصالحِ، والكَلِمِ الطيِّبِ، ونَفْعِ نَفْسِهِ وغيرِهِ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فمَنْ لم يُنْبِتْ قَلْبُهُ شَيْئًا من الخيرِ ألبَتَّةَ، فهذا مِنْ أَشْقَى الأشقياءِ.

فصلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ على مَن الهُدَى والبيانُ والشفاءُ والعِصْمَةُ في كلامِهِ وفي أمثالِهِ.

والمقصودُ أنَّ اللَّهَ - سبحانَهُ - أَعْلَمُ بمواقعِ فضلِهِ ورحمتِهِ وتوفيقِهِ، ومَنْ يَصْلُحُ لها

---

(١) في (ع): لزكاته. (٢) ساقطة من (س). (٣) في (ك) و(س): زرعهم.
(٤) ساقطة من (ك) و(س). (٥) في (س) تقديم وتأخير في: (عليها الماء).

مِمَّنْ لاَ يَصْلُحُ، وأنَّ حكمتَهُ تَأْبى أنْ يَضَعَ[١] ذلكَ عندَ غيرِ أهلِهِ، كما تَأْبى أنْ يَمْنَعَهُ مَنْ يَصْلُحُ لهُ، وهُوَ - سبحانَهُ - الذي جَعَلَ المَحَلَّ صالحًا، وَجَعَلَهُ أَهْلًا وَقَابِلًا، فمنهُ الإعدادُ و[٢] الإمدادُ، ومنهُ السببُ والمُسَبَّبُ.

ومَن اعْتَرَضَ بقولِهِ: فَهَلاَّ جَعَلَ المَحَالَّ كُلَّهَا كذلكَ، وجَعَلَ القلوبَ على قلبٍ واحدٍ؟! فهوَ مِنْ أَجْهَلِ الناسِ وأَظْلَمِهِم[٣] وَأَسْفَهِهِم، وهُوَ بمنزلةِ مَنْ يقولُ: لِمَ خَلَقَ الأضدادَ؟ وَهَلاَّ جَعَلَهَا كُلَّهَا شيئًا واحدًا؟! فَلِمَ خَلَقَ الليلَ والنهارَ، والفوقَ والتحتَ، والحرَّ والبردَ، والداءَ والدواءَ[٤]، والشياطينَ والملائكةَ، والروائحَ الطَّيِّبَةَ والكَرِيهَةَ، والحلوَ والمُرَّ، والحسنَ والقبيحَ؟!.

رجحانُ المصلحةِ في خلقِ المتضاداتِ وبيانُ ذلك

وهلْ يَسْمَحُ خاطِرُ مَنْ لهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلٍ بمثلِ هذا السؤالِ الدالِّ على حُمقِ سَائِلِهِ وفسادِ عقلِهِ؟! وهلْ ذلكَ إلاَّ مُوجَبُ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، ومُلكِهِ وقدرتِهِ ومشيئتِهِ وحكمتِهِ؟ وَيَسْتَحِيلُ أنْ يَتَخَلَّفَ مُوجَبُ صفاتِ كمالِهِ عنها، وهلْ حقيقةُ المُلْكِ إلاَّ بإكرامِ الأولياءِ وإهانةِ الأعداءِ؟ وهلْ تَمَامُ الحكمةِ وكمالُ القدرةِ إلاَّ بخلْقِ[٥] المُتَضَادَّاتِ والمختلفاتِ، وتَرْتِيبِ آثارِهَا عليها، وإيصالِ ما يَليقُ بكلٍّ منها إليهِ؟ وهلْ ظُهُورُ آثارِ أسمائِهِ وصفاتِهِ في العالَمِ إلاَّ منْ لوازمِ رُبُوبِيَّتِهِ ومُلْكِهِ؟ فهلْ يَكُونُ رَزَّاقًا وَغَفَّارًا وَعَفُوًّا[٦] وَرَحِيمًا وَحَلِيمًا ولم يُوجَدْ مَنْ يَرْزُقُهُ، ولا مَنْ يَغْفِرُ لهُ ويَعْفُو عنهُ ويَحْلُمُ عنهُ ويَرْحَمُهُ؟ وهل انْتِقَامُهُ إلاَّ منْ لوازمِ ربوبيَّتِهِ ومُلكِهِ؟ فمِمَّنْ يَنْتَقِمُ إنْ لم يكنْ لهُ أعداءٌ يَنْتَقِمُ منهم؟! ويُرِي أولياءَهُ كمالَ نعمتِهِ عليهم، واختصاصَهُ إيَّاهُم دونَ غيرِهِم بكرامتِهِ وثوابِهِ، وهلْ في الحكمةِ الإلهيَّةِ تَعْطِيلُ الخيرِ الكثيرِ لأجلِ شَرٍّ جُزْئِيٍّ يكونُ منْ لوازمِهِ؟ فهذا الغيثُ الذي يُحْيِي اللَّهُ بهِ[٧] البلادَ والعِبَادَ، والشجرَ والدوابَّ، كم يَحْبِسُ منْ مسافرٍ، ويَمْنَعُ منْ قُصَّادٍ، ويَهْدِمُ منْ بناءٍ، ويَعُوقُ عنْ مصلحةٍ! ولكنْ أَيْنَ هذا مِمَّا يَحْصُلُ بهِ من المصالحِ؟ وهلْ[٨] هذهِ المفاسدُ في جنبِ مصالحِهِ إلاَّ كتفلةٍ في بحرٍ؟ وهلْ تَعْطِيلُهُ لِئَلاَّ تَحْصُلَ بهِ هذهِ المفاسدُ إلاَّ موجِبًا لأعظمِ المفاسدِ والهلاكِ؟.

---

(١) في (ع) و(ك): تضع.
(٢) في (س) زيادة: (منه).
(٣) في (ك) و(س): وأضلهم.
(٤) تقديم وتأخير في: (الداء والدواء).
(٥) في (ع): لخلق.
(٦) في (ك) و(س): وغفورًا، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.
(٧) في (س) تقديم وتأخير في قوله: (الله به).
(٨) في (ع): فهل.

وهذهِ الشمسُ التي سَخَّرَهَا اللَّهُ لمنافعِ عبادِهِ[١]، وإنْضَاجِ ثمارِهِم وأقواتِهِم، وتربيَةِ أبدانِهِم وأبدانِ الحيواناتِ والطَّيْرِ، وفيها من المنافعِ والمصالحِ ما فيها، كم تُؤْذِي مسافِرًا وغيرَهُ بِحَرِّهَا؟ وكم تُجَفِّفُ رُطُوبَةً؟ وكم تُعَطِّشُ حَيَوَانًا؟ وكم تَحْبِسُ عنْ مصلحةٍ؟ وكم تُنَشِّفُ منْ مَوْرِدٍ؟ وتَحْرِقُ منْ زرعٍ؟ ولكن أينَ يَقَعُ هذا في جنبِ ما فيها من المنافعِ والمصالحِ الضروريَّةِ والمُكَمِّلَةِ؟.

فَتَعْطِيلُ الخيرِ الكثيرِ لأجلِ الشرِّ اليسيرِ شَرٌّ كبيرٌ[٢] وهُوَ خلافُ موجَبِ الحكمةِ الذي تَنَزَّهَ اللَّهُ - سبحانَهُ - عنهُ.

قُلْتُ لشيخِ الإسلامِ[٣]: فقدْ كانَ من المُمْكِنِ خَلْقُ هذهِ الأمورِ مُجَرَّدَةً عن المفاسدِ، مُشْتَمِلَةً على المصلحةِ الخالصةِ؟.

فقالَ: خَلْقُ هذهِ الطبيعةِ بدونِ لوازِمِهَا مُمْتَنِعٌ[٤]؛ فإنَّ وجودَ المَلْزُومِ بدونِ لازمِهِ مُحَالٌ، ولوْ خُلِقَتْ على غيرِ هذا الوجهِ لكانتْ غيرَ هذهِ، ولَكَانَ عَالَمًا آخَرَ غيرَ هذا.

سؤالُ المؤلفِ لِشَيْخِهِ عن إمكانيةِ الخلقِ مشتملًا على مصلحةٍ محضةٍ

قالَ: ومِن الأشياءِ ما تَكُونُ ذاتُهُ مُسْتَلْزِمَةً لنوعٍ من الأمورِ لا يَنْفَكُّ عنهُ كالحركةِ - مَثَلًا - المُسْتَلْزِمَةِ لكونِهَا لا تَبْقَى، فإذا قِيلَ: لِمَ لَمْ تُخْلَق الحركةُ المُعَيَّنَةُ باقيَةً؟ قِيلَ: لأنَّ[٥] ذاتَ الحركةِ تَتَضَمَّنُ النقلَةَ منْ مكانٍ إلى مكانٍ، والتحولَ منْ[٦] حالٍ إلى حالٍ، فإذا قُدِّرَ ما ليسَ كذلكَ لم تكُنْ حَرَكَةً.

ونفسُ الإنسانِ هيَ في ذاتِهَا جاهلةٌ عاجزةٌ فقيرةٌ، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: الآية ٧٨].

وإنَّمَا يَأْتِيهَا العلمُ والقدرةُ والغِنَى من اللَّهِ بفضلِهِ ورحمتِهِ، فما حَصَلَ لها منْ كمالٍ وخيرٍ فَمِنَ اللَّهِ، وما حَصَلَ لها منْ عَجْزٍ وفقرٍ وجهلٍ يُوجِبُ الظلمَ والشرَّ فهوَ منها[٧] ومِنْ حَقِيقَتِهَا، وهذهِ أمورٌ عدميَّةٌ، وليسَ لها منْ نَفْسِهَا وجودٌ ولا كمالٌ، والأمورُ العدميَّةُ منْ لوازمِ وجودِهَا، ولوْ خُلِقَتْ[٨] على غيرِ ذلكَ لم تَكُنْ هيَ هذهِ النفسَ

---

(١) في (ك): العباد. (٢) في (ك) و(س): كثير.

(٣) مراد المؤلف رحمه الله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(٤) ساقطة من (ع). (٥) في (ع): أن.

(٦) في (س): عن، والصواب المثبت. (٧) في (ع): فيها.

(٨) في (ك): جعله، وفي (س): جعلت.

الإنسانيَّةَ بلْ مَخْلُوقًا آخَرَ.

فحقيقةُ نفسِ الإنسانِ جاهلةٌ ظالمةٌ فقيرةٌ مُحْتَاجَةٌ، والشرُّ الذي يَحْصُلُ لها نَوْعَانِ: **عدمٌ، ووُجودٌ**.

الشرُّ الذي يحصلُ للنفسِ نوعان: الشرُّ الأولُ وسببُهُ

فالأوَّلُ: بِعَدَمِ[1] العلمِ والإيمانِ والصبرِ وإرادةِ الخيراتِ، وعدمِ العملِ بها، وهذا العدمُ ليسَ لهُ فاعلٌ؛ إذ العدمُ المَحْضُ لا يكونُ لهُ فاعلٌ؛ لأنَّ تأثيرَ الفاعلِ إنَّمَا هوَ في أمرٍ وُجُودِيٍّ، وكذلكَ عَدَمُ اسْتِعْدَادِهَا للخيراتِ والكمالاتِ هوَ عَدَمٌ محضٌ ليسَ لهُ فاعلٌ، فإنَّ العدمَ ليسَ بشيءٍ أَصْلًا، وما ليسَ بشيءٍ لا يُقَالُ: إنَّهُ مفعولٌ لفاعلٍ[2]، فلا يُقَالُ: إنَّهُ مِن اللَّهِ، إنَّمَا يَحْتَاجُ إلى الفاعلِ الأمورُ الوجوديَّةُ، ولهذا مِنْ قولِ المسلمِينَ كُلِّهِم: «ما شاءَ اللَّهُ كَانَ، وما لَمْ يَشَأْ لم يَكُنْ»[3] فكلُّ كائنٍ فَبِمَشِيئَتِهِ كانَ، وما لم يَكُنْ فَلِعَدَمِ مشيئَتِهِ.

والعدمُ يُعَلَّلُ بعدمِ السببِ أو الشرطِ تارةً، وبوُجودِ المانعِ أُخْرَى، وقدْ يُقَالُ: «عِلَّةُ العَدَمِ عَدَمُ العِلَّةِ»[4].

وبعضُ الناسِ[5] يقولُ: «المُمْكِنُ لا يَتَرَجَّحُ أَحَدُ طَرَفَيْهِ على الآخَرِ إلاَّ بِمُرَجِّحٍ» فلا يُوجَدُ إلاَّ بِسَبَبٍ، ولا يُعْدَمُ إلاَّ بسببٍ.

قالَ: والتحقيقُ في هذا: أنَّ العَدَمَ ليسَ لهُ فاعلٌ ولا عِلَّةٌ فاعلةٌ[6] أَصْلًا؛ بلْ[7] إذَا أُضِيفَ إلى عدمِ السببِ أوْ عَدَمِ الشرطِ فمعنَاهُ الملازمةُ؛ أيْ: عَدَمُ العِلَّةِ اسْتَلْزَمَ عَدَمَ المَعْلُولِ، وعَدَمُ الشرطِ اسْتَلْزَمَ عدمَ المشروطِ.

فإذا قِيلَ: عُدِمَ لِعَدَمِ عِلَّتِهِ، [أيْ: عَدَمُ عِلَّتِهِ][8] مُسْتَلْزِمَةٌ لعدمِهِ، والنفسُ تَطْلُبُ

---

(١) في (ع): كعدم، والصواب المثبت. (٢) في (ك) و(س): الفاعل.

(٣) انظر: «الفتاوى» (٨/ ١٣١)، (١٠/ ٥٨٢)، (١٨/ ١٣٢)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٣٢٠)، و«منهاج السنة» (١/ ١٦٣، ٣٩٣)، (٣/ ٢٧٢)، (٥/ ٤١٣).

(٤) انظر: «الفتاوى» (١٤/ ٢٦)، «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٣٤١)، «منهاج السنة» (١/ ٢٦٩).

(٥) وهو قول ابن سيناء ومن تبعه كالرازي، انظر: «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» (ص١٥)، و«المطالب العالية» (١/ ٣٦)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٤٦)، و«منهاج السنة» (١/ ٢٥٤).

(٦) ساقطة من (س). (٧) ساقطة من (ك) و(س).

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من (ع).

سَبَبَ العدمِ، فتقولُ: لِمَ لَمْ يُوجَدْ كذا؟ فَيُقَالُ: لِعَدَمِ كذا، فَيُضَافُ عَدَمُ المعلولِ إلى عدمِ عِلَّتِهِ، لا إضافةَ تأثيرٍ، ولكن إضافةَ اسْتِلْزَامٍ وتعريفٍ[١].

وأمَّا التعليلُ بالمانعِ فلا يَكُونُ إلاَّ معَ قيامِ السببِ إذا جُعِلَ المانعُ مُقْتَضِيًا للعدمِ، وأمَّا إذا أُرِيدَ قياسُ الدلالةِ؛ فوجودُ المانعِ يَسْتَلْزِمُ عدمَ الحُكْمِ، سواءٌ كانَ المُقْتَضِي موجودًا أَوْ لم يَكُنْ.

والمقصودُ أنَّ ما عَدِمَتْهُ النفسُ مِنْ كمالِهَا فمِنْهَا؛ فإنَّها لا تَقْتَضِي إلاَّ العَدَمَ؛ أيْ: عَدَمُ اسْتِعْدَادِ نفسِهِ وقُوَّتِهَا هوَ[٢] السببُ في عدمِ هذا الكمالِ؛ فإنَّهُ كما يَكُونُ أحدُ الوُجُودَيْنِ سببًا للآخَرِ، فكذلكَ أَحَدُ العدمَيْنِ يكونُ سَبَبًا لعدمِ الآخرِ.

والموجودُ الحادثُ يُضَافُ إلى السببِ المُقْتَضِي لإيجادِهِ، وأمَّا المعدومُ فلا يَحْتَاجُ استمرارُهُ على العدمِ إلى فاعلٍ يُحْدِثُ العدمَ، بلْ يَكْفِي في استمرارِهِ عَدَمُ مشيئَةِ الفاعلِ المختارِ لهُ، فما شَاءَ اللَّهُ كانَ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ؛ لانتفاءِ مشيئَتِهِ، فانتفاءُ مشيئةِ كونِهِ سَبَبُ عدمِهِ. وهذا مَعْنَى قولِهِم: «عَدَمُ عِلَّةِ الوجودِ عِلَّةُ العَدَمِ»[٣].

وبهذا الاعتبارِ: المُمْكِنُ القابلُ للوُجودِ والعدمِ لا يَتَرَجَّحُ أحدُ طرفَيْهِ[٤] إلاَّ بِمُرَجِّحٍ، فَمُرَجِّحُ عَدَمِهِ عدمُ مُرَجِّحِهِ، ومَعْنَى التَّرْجِيحِ والسَّبَبِيَّةِ هَا هُنَا: الاستلزامُ لا التأثيرُ كما تَقَدَّمَ، فَظَهَرَ استحالةُ إضافةِ هذا الشرِّ إلى اللَّهِ ﷻ.

الشرُّ الثاني وسببُهُ

وأمَّا الشرُّ الثاني: وهو الشرُّ الوُجُودِيُّ - كالعقائدِ الباطلةِ، والإراداتِ[٥] الفاسدةِ - فهوَ مِنْ لوزامِ ذلكَ العدمِ؛ فإنَّهُ مَتى عُدِمَ العلمُ النافِعُ والعملُ الصالحُ من النفسِ؛ لَزِمَ أنْ يَخْلُفَهُ الشرُّ والجهلُ ومُوجَبُهُمَا ولا بُدَّ؛ لأنَّ النفسَ لا بُدَّ لها مِنْ أحدِ الضِّدَّيْنِ، فإذا لم تَشْتَغِلْ بالضِّدِّ النافعِ الصالحِ؛ اشْتَغَلَتْ بالضِّدِّ الضَّارِّ الفاسدِ، وهذا الشرُّ الوجوديُّ هوَ مِنْ خَلْقِهِ تَعَالَى؛ إذْ لا خَالِقَ سِوَاهُ، وهو خالِقُ كلِّ شيءٍ، لكنْ كلُّ ما خَلَقَهُ اللَّهُ فلا بُدَّ أنْ يَكُونَ لهُ في خَلْقِهِ حكمةٌ لأجلِهَا خَلَقَهُ، فلوْ لم يَخْلُقْهُ فَاتَتْ تلكَ الحكمةُ، وليسَ في الحكمةِ تَفْوِيتُ هذهِ الحكمةِ التي هيَ أَحَبُّ إليهِ - سبحانَهُ - من الخيرِ الحاصلِ

---

(١) انظر نحو هذا في: «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٤٦ - ٢٤٧).

(٢) في (س): هي، ولعل المثبت أوفق للسياق.

(٣) انظر: «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» للرازي(ص١٤٥).

(٤) في (ك) و(س) زيادة: (على الآخر).

(٥) في (س): الإرادة.

بعدَمِهَا، فإنَّ في وجودِهَا من الحكمةِ والغاياتِ التي يُحْمَدُ عليها - سبحانَهُ - أَضْعَافَ ما في عَدَمِهَا منْ ذلكَ، ووجودُ المَلْزُومِ بدونِ لازِمِهِ مُمْتَنِعٌ، وليسَ في الحكمةِ تَفْوِيتُ هذهِ الحكمةِ العظيمةِ لأجلِ ما يَحْصُلُ للنفسِ من الشرِّ، معَ ما حَصَلَ من الخيراتِ التي لم تَكُنْ تَحْصُلُ بدونِ هذا الشرِّ، [ووجودُ الشيءِ][1] لا يكونُ إلاَّ معَ وجودِ لوازِمِهِ وانتفاءِ أضدادِهِ، فانتفاءُ لوازِمِهِ يكونُ مُمْتَنِعًا لغيرِهِ، وحينئذٍ فقدْ يَكُونُ هُدَى هذهِ النفوسِ الفاجرةِ وسعادتُهَا[2] مَشْرُوطًا بلوازمَ لم تَحْصُلْ، أَوْ بِانْتِفَاءِ أضدادٍ لم تَنْتَفِ.

فإنْ قِيلَ: فَهَلاَّ حَصَلَتْ تلكَ اللوازمُ، وانْتَفَتْ تلكَ الأضدادُ؟

فهذا هوَ السؤالُ الأَوَّلُ[3]، وقدْ بَيَّنَّا أنَّ لوازمَ هذا الخلْقِ وهذهِ النشأةِ وهذا العالمِ، لا بُدَّ منها، فلوْ قُدِّرَ عَدَمُهَا لم يكنْ هذا العالمَ بلْ عَالَمًا آخَرَ، ونشأةً أُخْرَى، وخَلْقًا آخَرَ، وَبَيَّنَّا أنَّ هذا السؤالَ بمنزلةِ أنْ يُقَالَ:

تجردُ المخلوقاتِ من الأضدادِ ومقتضاه

هَلاَّ تَجَرَّدَ الغيثُ والأنهارُ عنْما يَحْصُلُ بِهِ منْ تغريقٍ وتعويقٍ وتخريبٍ وأذًى؟!

وهَلاَّ تَجَرَّدَت الشمسُ عَمَّا يَحْصُلُ منها منْ حرٍّ وسَمُومٍ وأَذًى؟!

وهَلاَّ تَجَرَّدَتْ طبيعةُ الحيوانِ عَمَّا يَحْصُلُ لهُ منْ أَلَمٍ وموتٍ وغيرِ ذلكَ؟!

وهَلاَّ تَجَرَّدَت الولادةُ عنْ مَشَقَّةِ الحملِ والطَّلْقِ وأَلَمِ الوضعِ؟!

وَهَلاَّ تَجَرَّدَ بَدَنُ الحيوانِ عنْ قَبُولِهِ للآلامِ والأوجاعِ، واختلافِ الطبائعِ الموجِبَةِ لتَغَيُّرِ[4] أحوالِهِ؟!

وَهَلاَّ تَجَرَّدَتْ فصولُ العامِ عَمَّا يَحْدُثُ فيها من البَرْدِ الشديدِ القاتلِ، والحرِّ الشديدِ المُؤْذِي؟!

فهلْ يَقْبَلُ عاقِلٌ هذا السؤالَ أوْ يُورِدُهُ؟!.

وهلْ هذا إلاَّ بمنزلةِ أنْ يُقَالَ: لِمَ كانَ المخلوقُ فَقِيرًا مُحْتَاجًا، والفقرُ والحاجةُ صِفَةُ نقصٍ، فَهَلاَّ تَجَرَّدَ منها، وخُلِعَتْ عليهِ خلعةُ الغِنَى المُطْلَقِ والكمالِ المُطْلَقِ؟ فهلْ يَكُونُ مَخْلُوقًا إذا كانَ غَنِيًّا غِنًى مُطْلَقًا؟.

من لوازمِ الخلقِ

ومعلومٌ أنَّ لوازمَ الخَلْقِ لا بُدَّ منها فيهِ، ولا بُدَّ لِلْعُلُوِّ منْ سفلٍ، والسفلِ[5] منْ

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (ع). (٢) في (س): وشهادتها.
(٣) سبق. (٤) في (س): لتغيير. (٥) في (ع): للسفل.

مركزٍ. ولوازمُ العلوِّ من السعةِ والإضاءةِ والبهجةِ والخيراتِ، وما هناكَ من الأرواحِ العلويَّةِ النَّيِّرَةِ المناسبةِ لِمَحَالِّهَا، وما يَلِيقُ بها وَيُنَاسِبُهَا من الابتهاجِ والسرورِ والفرحِ والقوَّةِ، والتَّجَرُّدُ منْ علائقِ الموادِّ السفليَّةِ[١] لا بُدَّ[٢] منها، ولوازمُ السفلِ والمركزِ من الضيقِ والحَصَرِ، ولوازمُ ذلكَ من الظلمةِ والغلظِ والشرِّ، وما هناكَ من الأرواحِ السفليَّةِ المظلمةِ الشِّرِّيرَةِ وأعمالِهَا وآثارِهَا لا بُدَّ منهُ.

فهُمَا عَالَمَانِ: عُلْوِيٌّ وسفليٌّ، ومَحَلاَّنِ وساكِنَانِ تُناسِبُهُمَا مَسَاكِنُهُمَا وَأَعْمَالُهُمَا وطَبَائِعُهُمَا، وقدْ خُلِقَ كلٌّ من المَحَلَّيْنِ مَعْمُورًا بِأَهْلَيْهِ وساكِنَيْهِ، حكمةً بالغةً، وقدرةً قاهرةً، وكلٌّ مِنْ هذهِ الأرواحِ لا يَلِيقُ بها غيرُ ما خُلِقَتْ لهُ مِمَّا يُنَاسِبُهَا ويُشَاكِلُهَا، قالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٨٤] أيْ: على ما يُشَاكِلُهُ ويُنَاسِبُهُ ويَلِيقُ بهِ، كَمَا يقولُ الناسُ: «كُلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يَنْضَحُ»[٣]، فَمَنْ أَرَادَ من الأرواحِ الخبيثةِ السفليَّةِ أنْ تكُونَ مجاورةً للأرواحِ الطَّيِّبَةِ العلويَّةِ في مقامِ الصدقِ بينَ المَلأِ الأَعْلَى؛ فَقَدْ أَرَادَ ما تَأْبَاهُ حكمةُ أَحْكَمِ الحاكِمِينَ، ولوْ أنَّ مَلِكًا منْ ملوكِ الدنيا جَعَلَ خَاصَّتَهُ وحَاشِيَتَهُ سَفَلَةَ الناسِ وسَقَطَهُم وغَرَثَهُم[٤] الذينَ تَنَاسَبَتْ[٥] أقوالُهُم وأعمالُهُم وأخلاقُهُم في القُبْحِ والرداءةِ والدناءةِ؛ لَقَدَحَ الناسُ في مُلْكِهِ وقالُوا: لا يَصْلُحُ للمُلْكِ، فما الظنُّ بِمُجَاوِرِي المَلِكِ الأعظمِ مالكِ الملوكِ في دارِهِ، وتَمَتُّعِهِم برؤيَةِ وجهِهِ، وسماعِ كلامِهِ، ومُرَافَقَتِهِم للملأِ الأَعْلَى الذينَ هم أَطْيَبُ خَلْقِهِ وأَزْكَاهُم، وأَشْرَفُهُم أَفَيَلِيقُ[٦] بذلكَ الرفيقِ الأَعْلَى، والمَحَلِّ الأَسْنَى، والدرجاتِ العُلَى روحٌ سفليَّةٌ أرضيَّةٌ قدْ أَخْلَدَتْ إلى الأرضِ، وعَكَفَتْ على ما تَقْتَضِيهِ طِبَاعُهَا مِمَّا يُشَارِكُهَا فيهِ - بلْ قدْ يَزِيدُ عليها[٧] - الحيوانُ البهيمُ، وقَصَرَتْ هِمَّتَهَا عليهِ، وَأَقْبَلَتْ بِكُلِّيَّتِهَا عليهِ؛ لا تَرَى نَعِيمًا ولا لَذَّةً ولا سُرُورًا إلاَّ ما وَافَقَ طِبَاعَهَا، منْ مَأْكَلٍ ومَشْرَبٍ ومَنْكَحٍ، منْ أينَ كانَ،

---

(١) في (س): العلية، والصواب المثبت، وهو مقتضى السياق. (٢) ساقطة من (س).

(٣) «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص٣٧٨ح٨١٠)، «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» للعجلوني (٢/ ١١٤ ح١٩٤٣).

(٤) غرثهم: أي: جياعهم. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٦١٤)، و«النهاية في غريب الأثر» للجزري (٣/ ٣٥٣).

(٥) في (ك) و(س): تناسب. (٦) في (ك): فيليق، والمثبت أصوب.

(٧) في (ك) و(س): تزيد على.

وكيفَ اتَّفَقَ؛ فالفرقُ بينها وبينَ الحميرِ والكلابِ والبقرِ بانْتِصَابِ القامةِ، ونُطْقِ اللسانِ، والأكلِ باليَدِ!! وإلاَّ فالقلبُ والطبعُ على قلوبِ هذهِ الحيواناتِ وطباعِهَا، ورُبَّمَا كانتْ طباعُ الحيواناتِ خيرًا منْ طباع هؤلاءِ وأَسْلَمَ، وأقبلَ للخيرِ، ولهذا جَعَلَهُم - سُبْحَانَهُ - شَرَّ الدوابِّ فقالَ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: (٢٢ - ٢٣].

فهلْ يَلِيقُ بِحِكْمَةِ العزيزِ الحكيمِ أنْ يَجْمَعَ بينَ خيرِ البَرِيَّةِ وَأَزْكَى الخَلْقِ، وبينَ شرِّ البريِّةِ وشرِّ الدوابِّ في دارٍ واحدةٍ، يَكُونُونَ فيها على حالٍ واحدةٍ من النعيمِ أو العذابِ؟

قالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦].

فَأَنْكَرَ عليهم الحُكْمَ بهذا، وأَخْرَجَهُ[١] مَخْرَجَ الإنكارِ لا مَخْرجَ الإخبارِ؛ لِيُنَبِّهَ العقولَ على أنَّ هذا مِمَّا تُحِيلُهُ الفِطَرُ، وتَأْبَاهُ العقولُ السليمةُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: الآية ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩].

بل الواحدُ من الخلقِ لا تَسْتَوِي أَعَالِيهِ وَأَسَافِلُهُ؛ فلا يَسْتَوِي عَقِبُهُ وعَيْنُهُ، ولا رَأْسُهُ وَرِجْلاَهُ، ولا يَصْلُحُ أَحَدُهُمَا لِمَا يَصْلُحُ لهُ الآخرُ.

واللَّهُ ﷻ قدْ خَلَقَ الخبيثَ والطَّيِّبَ، والسهلَ والحَزْنَ، والضارَّ والنافعَ. وهذهِ أجزاءُ الأرضِ: منها ما يَصْلُحُ جِلاءً للعَيْنِ، ومِنْها ما يَصْلُحُ للأَتُونِ[٢] والنارِ.

كمالُ القدرةِ والحكمةِ

وبهذا ونحوِهِ يُعْرَفُ كمالُ القدرةِ، وكمالُ الحكمةِ؛ فكمالُ القدرةِ بِخَلْقِ الأضدادِ، وكمالُ الحكمةِ تَنْزِيلُهَا[٣] مَنَازِلَهَا، ووَضْعُ كلٍّ منها في مَوْضِعِهِ.

(١) في (س): وأخرج، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.
(٢) الأتون: مخفف من الأتون، والأتون: أخدود الجيار والجصاص. «لسان العرب» باب الهمزة(١/ ٦٤).
(٣) في (ع): بتنزيلها.

والعالِمُ مَنْ لا يُلْقِي الحربَ بينَ قدرةِ اللَّهِ وحكمتِهِ[١]؛ فإنْ آمَنَ بالقدرةِ[٢]؛ قَدَحَ في الحكمةِ وعَطَّلَها، وإنْ آمَنَ بالحكمةِ؛ قَدَحَ في القدرةِ ونَقَضَهَا؛ بلْ يَرْبِطُ القدرةَ بالحكمةِ، ويَعْلَمُ شُمُولَهُمَا[٣] لجميعِ ما خَلَقَهُ اللَّهُ ويَخْلُقُهُ، فكما[٤] أنَّهُ لا يكونُ إلاَّ بقدرتِهِ ومشيئتِهِ؛ فكذلكَ لا يَكُونُ إلاَّ بِحِكْمَتِهِ.

وإذا كانَ لا سبيلَ للعقولِ البشريَّةِ إلى الإحاطةِ بهذا تَفْصِيلًا، فَيَكْفِيهَا الإيمانُ بما تَعْلَمُ وتُشَاهِدُ منهُ، ثمَّ تَسْتَدِلُّ على الغائبِ بالشاهدِ، وتَعْتَبِرُ ما عَلِمَتْ بما لم تَعْلَمْ.

ضربُ الأمثالِ والحكمةُ منْ ذلكَ

وقدْ ضَرَبَ اللَّهُ - سبحانَهُ - الأمثالَ لعبادِهِ في كتابِهِ، وبَيَّنَ لهم ما في لوازمِ ما خَلَقَهُ لهم وأَنْزَلَهُ عليهم من الغَيْثِ الذي بهِ حياتُهُم وأقواتُهُم، وحياةُ الأرضِ والدوابِّ، وما خَلَقَهُ لهم من المعادنِ[٥] و[٦] التي بها صلاحُ أبدانِهِم وأقواتِهِم وصنائِعِهِم من الشرِّ الجُزْئِيِّ[٧] المغمورِ[٨]، بالإضافةِ إلى الخيرِ الحاصلِ بذلكَ، فقالَ تعالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: الآية ١٧]، فَأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ الماءَ بسببِ[٩] مخالَطَتِهِ للأرضِ إذا سَالَ فلا بُدَّ منْ[١٠] أنْ يَحْمِلَ السيلُ من الغُثَاءِ والوسَخِ وغيرِهِ زَبَدًا عاليًا على وجهِ السَّيْلِ، فالذي لا يَعْرِفُ ما تَحْتَ الزَّبَدِ يَقْصُرُ نَظَرَهُ عليهِ، ولا يَرَى إلاَّ غُثَاءً وَوَسَخًا ونحوَ ذلكَ، ولا يَرَى ما تَحْتَهُ منْ مادةِ الحياةِ. وكذلكَ ما يُسْتَخْرَجُ من المعادنِ من الذهبِ والفضَّةِ والحديدِ والنُّحاسِ[١١] وغيرِهَا، إذا أُوقِدَ عليها في النارِ لِتَتَهَيَّأَ للانتفاعِ

(١) وهو قول جهم ومن تبعه كالأشعرية. انظر: «الفتاوى» لابن تيمية(٨/ ٣٧ - ٣٨).

(٢) في (ك): القدر، وما أثبت أصح؛ لاقتضاء سياق الكلام.

(٣) في (ع): شمولها، والصواب المثبت.

(٤) في (ك): كما، والصواب المثبت.

(٥) في (ع): المعارف، والصواب المثبت.

(٦) (الواو) ساقطة من (ع) و(ك) و(س).

(٧) في (ك) و(س): والخير وبين، وهو تصحيف.

(٨) في (ع) و(س): المعمور، والصواب المثبت؛ لإرادة المعنى، وهو كونه شرا غير محض، بل داخلا في جملة الخير.

(٩) في(ع) سبب.

(١٠) ساقطة من (ك).

(١١) في (ع) تقديم وتأخير في: (والحديد والنحاس).

بها، خَرَجَ منها خَبَثٌ ليسَ منْ جَوْهَرِهَا ولا يُنْتَفَعُ بهِ، وهذا لا بُدَّ منهُ في هذا وهذا.

وقدْ ذَمَّ - تَعَالَى - مَنْ ضَعُفَتْ[١] بَصِيرَتُهُ من المنافقِينَ، وعَمِيَ عَمَّا في القرآنِ مِمَّا بِهِ تُنَالُ كلُّ سعَادَةٍ وعِلْمٍ وهدًى وصلاحٍ وخيرٍ في الدنيا والآخرةِ، ولم يُجَاوِزْهُ[٢] بَصَرُهُ وَسَمْعُهُ رُعُودَ وعيدِهِ وبُرُوقَهَا وصَوَاعِقَهَا، وما أَعَدَّ اللَّهُ لأعدائِهِ منْ عذابِهِ ونَكَالِهِ وخزْيِهِ وعقابِهِ، الذي هوَ بالإضافةِ إلى ما فيهِ منْ حياةِ القلوبِ والأرواحِ، ومِنْ[٣] المعارفِ الإلهيَّةِ وتَبْيِينِ[٤] طُرُقِ[٥] العبوديَّةِ التي هيَ غايَةُ كمالِ العبدِ ليَسِيرٌ[٦]، وهو مقصودٌ لتكميلِ ذلكَ وتَمَامِهِ.

قالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠].

فهكذا حالُ منْ قَصَرَ نَظَرَهُ في بعضِ مخلوقاتِ الربِّ - تَعَالَى - على ما لا بُدَّ منهُ منْ شَرٍّ جزئيٍّ جِدًّا، بالإضافةِ إلى الخيرِ الكثيرِ، ولوْ لم يكنْ في هذهِ النشأةِ الإنسانيَّةِ إلاَّ خاصَّتُهُ وأولياؤُهُ منْ رُسُلِهِ وأنبيائِهِ وأتباعِهِم؛ لَكَفَى بها خيرًا ومصلحةً، ومَنْ عَدَاهُم - وإنْ كانوا أَضْعَافَ أضعافِ أَضْعَافِهِم - فَهُم كالقَشِّ والزبالةِ وغُثَاءِ السَّيْلِ، لا يُعْبَأُ بِكَثْرَتِهِم، ولا يَقْدَحُ في الحكمةِ الإلهيَّةِ، بلْ وجودُ الواحدِ الكاملِ منْ هذا النوعِ يُغْتَفَرُ معهُ آلافٌ[٧] مُؤَلَّفَةٌ من النوعِ الآخَرِ، فإنَّهُ إذا وُجِدَ واحدٌ يُوَازِنُ البَرِيَّةَ ويَرْجَحُ عليها؛ كانَ الخيرُ الحاصلُ بوجودِهِ والحكمةُ والمصلحةُ أضعافَ الشرِّ الحاصلِ منْ وجودِ أَضْدَادِهِ، وأَثْبَتَ وَأَنْفَعَ، وأَحَبَّ إلى اللَّهِ منْ فواتِهِ بتفويتِ ذلكَ الشرِّ المقابلِ لهُ.

وهذا كالشمسِ؛ فإنَّ الخيرَ الحاصلَ بها أَنْفَعُ للخلقِ، وأكثرُ وأثبتُ وأصلحُ منْ تفويتِهِ بتفويتِ الشرِّ المقابلِ[٨] لهُ بها.

---

(١) في (ك) و(س): ضعف، والمثبت هو الموافق للسياق.

(٢) في (ك) و(س): يجاوز. (٣) (من) ساقطة من (ك). (٤) في (ك): وتبين.

(٥) في (ع) و(س): طريق، وفي (ك): طريقة.

(٦) ساقطة من (ك)، (س). (٧) في (ك) و(س): لآلاف.

(٨) في (س): القابل، والصواب المثبت.

تفاضُلُ المخلوقاتِ في النفعِ

وأينَ نَفْعُ الشمسِ وصلاحُ النباتِ والحيوانِ بها منْ نَفْعِ الرُّسُلِ وصلاحِ الوجودِ بهم؟.

بلْ أينَ ذلكَ منْ نَفْعِ سَيِّدِ وَلَدِ آدمَ وَصَلاَحِ [القلوبِ[١]] والأبدانِ[٢] والدنيا والآخرةِ بهِ؟.

المثلُ المضروبُ للنفسِ البشريةِ

وقدْ ضُرِبَ للنفسِ الإنسانيَّةِ وما فيها من الخيرِ والشرِّ مثلٌ بدولابٍ[٣] أوْ طاحونٍ[٤] شديدِ الدورانِ، أيُّ[٥] شيءٍ خَطَفَهُ أَلْقَاهُ تحتَهُ وأَفْسَدَهُ، وعندَهُ قَيِّمُهُ الذي يُدِيرُهُ، وقدْ أَحْكَمَ أَمْرَهُ؛ لِيَنْتَفِعَ بهِ ولا يَضُرَّ أَحَدًا، فَرُبَّمَا جاءَ الغِرُّ[٦] الذي لا يَعْرِفُ، فَيَتَقَرَّبُ منهُ فَيَخْرُقُ ثوبَهُ أوْ بَدَنَهُ، أوْ يُؤْذِيهِ، فإذا قِيلَ لصاحبِهِ: لِمَ لَمْ تَجْعَلْهُ سَاكِنًا لا يُؤْذِي مَن اقْتَرَبَ منهُ؟ قالَ: هذهِ صفتُهُ اللازمةُ التي كانَ بها دولابًا وطاحونًا، ولوْ جُعِلَ على غيرِ هذهِ الصفةِ لمْ تَحْصُلْ بِهِ الحكمةُ المطلوبةُ منهُ.

وكذلكَ[٧] إذا قَدَرْنَا[٨] نارَ الأَتُونِ التي تَحْرِقُ ما وَقَعَ فيها، وعندَهَا وَقَّادٌ حاذقٌ يحشُّهَا[٩]، فإذا غَفَلَ عنها أَفْسَدَتْ، وإذا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَقْرَبَ منها نَهَاهُ وحَذَّرَهُ، فإذا اسْتَغْفَلَهُ مَنْ قَرُبَ منها حتَّى أَحْرَقَتْهُ لم يَقُلْ لصاحبِ النارِ: هَلاَّ قَلَّلْتَ حَرَّهَا لِئَلاَّ تُفْسِدَ مَنْ يَقْرَبُ منها وتَحْرِقَهُ؟ فإنَّهُ يَقُولُ: هذهِ صِفَتُهَا التي لا يَحْصُلُ المقصودُ منها إلاَّ بها، ولوْ جَعَلْتُهَا دونَ ذلكَ لم تَحْرِقْ أحجارَ الكِلْسِ[١٠]، ولم تَطْبُخ الآجُرَّ[١١]، ولم تُنْضِج

---

(١) ساقطة من (ك) و(س). (٢) في (ك) و(س) زيادة: (الدين).

(٣) الدولاب: من الآلات التي تستخدم لصب الماء. انظر: «معجم ما استعجم» لأبي عبيد الأندلسي(٢/ ٥٦٣).

(٤) الطاحون: جهاز يستخدم لطحن الدقيق ورفع الماء، ويدار بقوة الهواء. انظر: «الموسوعة العربية» لمحمد غربال(٢/ ١١٤٥).

(٥) في (ك): إلى، والصواب المثبت.

(٦) الغر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور مع حداثة سنه. انظر: «كتاب العين» (٤/ ٣٤٦).

(٧) في (ك): وكذا. (٨) في (ك) و(س): أوقد.

(٩) حش النار: أي: جمع اليها ما تفرق من الحطب، أو أشعلها. انظر: «كتاب العين» (٥/ ٣١١)، و«لسان العرب» باب الحاء(٣/ ١٨٩).

(١٠) الكلس: التكليس: التمليس: وهو ما طلي به حائط أو باطن قصر، شبه الجص من غير آجر. «لسان العرب» باب الكاف (١٢/ ١٤٠).

(١١) الآجر: طبيخ الطين، يعمل طوبا، ويبنى به. وهو: فارسي معرب. انظر: «لسان العرب» - باب =

الأطعمةَ الغليظةَ، ونحوَ ذلكَ.

فما يَحْصُلُ من الدولابِ والطاحونِ، ومِن النارِ منْ نَفْعِهَا هوَ منْ فضلِ اللَّهِ ورحمتِهِ، وما يَحْصُلُ بها منْ شرٍّ هوَ منْ طبيعَتِهَا التي خُلِقَتْ عليها، التي لا تَكُونُ نارًا إلاَّ بها، فلوْ خَرَجَتْ عنْ تلكَ الطبيعةِ لم تَكُنْ نَارًا.

وكذلكَ النفسُ: ما(١) يَحْصُلُ لها منْ شرٍّ فهو منها، ومنْ طبيعَتِهَا ولوازمِ نَقْصِهَا وعَدَمِهَا، وما حَصَلَ لها منْ خيرٍ فهوَ منْ فضلِ اللَّهِ ورحمتِهِ، واللَّهُ خَالِقُهَا وخالقُ كلِّ شيءٍ، قَامَ بها منْ قدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ وعملٍ وغيرِ ذلكَ، فأمَّا الأمورُ العدميَّةُ فهيَ باقيَةٌ على ما كانتْ عليهِ من العَدَمِ، والإنسانُ جاهلٌ ظالمٌ بالضرورةِ كما قالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢]، فإنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُ منْ بطنِ أُمِّهِ لا يَعْلَمُ شَيْئًا.

والظلمُ هوَ النقصُ، كما قالَ تَعَالَى: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣]. أيْ: لم تُنْقِصْ منهُ شيئًا، وهيَ ظالمةٌ نَفْسَهَا، فهيَ الظالمةُ المظلومةُ؛ إذْ(٢) كانتْ منقوصةً منْ كمالِهَا بعدمِ(٣) بعضِ الكمالاتِ، أوْ أَكْثَرِهَا منها(٤)، وتِلْكَ الكمالاتُ التي عُدِمَتْ كانَ وُجُودُهَا سَبَبًا لكمالاتٍ أُخَرَ، فَصَارَ عَدَمُهَا مُسْتَلْزِمًا لعدمِ تلكَ الكمالاتِ، [فَعَظُمَ النقصُ، واشْتَدَّ العيبُ بِحَسَبِهِ وفَقَدَتْ منْ لَذَّاتِهَا وسرورِهَا ونعيمِهَا(٥) وبَهْجَتِهَا ورَوْحِهَا بحَسَبِ ما فَقَدَتْ منْ تلكَ الكمالاتِ](٦) التي لا سَعَادَةَ لها بدونِهَا؛ فإنَّ أحدَ الموجودَيْنِ قدْ يَكُونُ مَشْرُوطًا بالآخرِ، فَيَسْتَحِيلُ وجودُهُ بدونِهِ؛ لأنَّ عَدَمَ الشرطِ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ المشروطِ، فإذا عَدِمَت النفسُ هذا الكمالَ المُسْتَلْزِمَ لكمالٍ آخرَ مِثْلَهُ أوْ أَعْلَى منهُ، - وهيَ موصوفةٌ بالنقصِ الذي هوَ الظلمُ والجهلُ ولَوَازِمُهُمَا(٧) مِنْ أصلِ الخِلْقةِ؛ صارتْ مُسْتَلْزِمَةً للشرِّ، وقوةُ شَرِّهَا وضَعْفُهُ بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وضَعْفِهَا في ذاتِهَا.

= الهمزة (١/ ٧٨)، و«مختار الصحاح» للرازي (ص٣).

(١) في (ك) و(س): فما. (٢) في (ك): إذا.

(٣) في (ع): يعدم، والصواب المثبت. (٤) في (س): بها، والصواب المثبت.

(٥) في (ع) تقديم وتأخير في: (وسرورها ونعيمها).

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٧) في (ك) و(س): ولوازمها، والصواب المثبت؛ لأنه إخبار عن أمرين.

أولُ نقصٍ دخل على أبي البشرِ وسببُهُ

وَتَأَمَّلْ أَوَّلَ نَقْصٍ دَخَلَ على أبي البَشَرِ، وسَرَى إلى أولادِهِ، كيفَ كانَ مِنْ عَدَمِ العِلْمِ والعَزْمِ، قالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: الآية ١١٥].

والنسيانُ سواءٌ كانَ عَدَمَ العلمِ أَوْ عَدَمَ الصبرِ كما فُسِّرَ بِهِمَا هَهُنَا، فهوَ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، ولهذا قالَ آدمُ لَمَّا رَأَى[1] ما دَخَلَ عليهِ مِنْ ذلكَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

فإنَّهُ[2] اعْتَرَفَ بنقصِ حظِّ نَفْسِهِ بما حَصَلَ لها مِنْ عَدَمِ العلمِ والصبرِ بالنسيانِ الذي أَوْجَبَ فواتَ حَظِّهِ من الجنَّةِ، ثمَّ قالَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] فإنَّهُ - سبحانَهُ - إنْ لم يَغْفِرِ السيِّئَاتِ الوجوديَّةَ، فَيَمْنَعُ أَثَرَهَا وعقابَهَا، ويَقِي العبدَ[3] ذلكَ، وإلاَّ ضَرَّتْهُ آثارُهَا ولا بُدَّ، كَآثَارِ الطعامِ المسمومِ إنْ لم يَتَدَارَكْهُ المُدَاوِي بشُرْبِ التِّرْيَاقِ[4] ونحوِهِ، وإلاَّ ضَرَّهُ ولا بُدَّ.

ضررُ السيئاتِ ومثلُهُ

وإنْ لم يَرْحَمْهُ - سبحانَهُ - بإيجادِ ما بِهِ تَصْلُحُ[5] النفسُ وتَصِيرُ عالِمَةً بالحقِّ عاملَةً بِهِ، وإلاَّ خَسِرَ؛ فالمغفرةُ تَمْنَعُ الشرَّ، والرحمةُ تُوجِبُ الخيرَ، والربُّ - سبحانَهُ - إنْ لم يَغْفِرْ للإنسانِ فَيَقِيَهُ السَّيِّئَاتِ، ويَرْحَمْهُ فَيُؤْتِيَهُ الحسناتِ وإلاَّ هَلَكَ ولا بُدَّ؛ إذْ[6] كانَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ ظَلُومًا بِنَفْسِهِ، فإنَّ نفسَهُ ليسَ عندَهَا خيرٌ يَحْصُلُ لها منها، وهيَ متحرِّكَةٌ بالذاتِ، فإنْ لم تَتَحَرَّكْ إلى الخيرِ؛ تَحَرَّكَتْ إلى الشرِّ، فَضَرَّتْ صَاحِبَهَا، وكَوْنُهَا متحرِّكَةً بالذاتِ منْ لوازمِ كونِهَا نَفْسًا؛ لأنَّ ما ليسَ حَسَّاسًا مُتَحَرِّكًا بالإرادةِ فليسَ نَفْسًا، وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[7].

---

(١) في (ع) زيادة: (أن). (٢) في (ك) و(س) زيادة: (إذا).

(٣) في (ك) و(س) زيادة: (من).

(٤) الترياق: أدوية ومعاجين تستعمل لدفع السموم، وقد يوضع فيها شيء من الخمر ولحم الأفاعي، وبذلك يحرم. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٤٥)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ١٠٦)، و«النهاية في غريب الحديث» (١/ ١٨٨)، و«لسان العرب» - باب التاء (٢/ ٣١).

(٥) في (ك) و(س): تصلح به. (٦) في (ك): إذا، والمثبت أصوب.

(٧) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٤٥)، والبخاري في: «الأدب المفرد» (٢٨٤) ح٨١٤)، وأبو داود (٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨) ح٤٩٥٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣/ ١١٤ح٧١٧٠) والطبراني في: «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٨٠ح٩٤٩)، والحديث صححه المؤلف كما سبق، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٣٥ح٤١٤٠)

فالحارثُ: الكاسِبُ العاملُ، والهَمَّامُ الكثيرُ الهَمِّ. والْهَمُّ مَبْدَأُ الإرادةِ، فالنفسُ لاتكونُ إلاَّ مُرِيدَةً عاملةً، فإنْ لم تُوَفَّقْ للإرادةِ الصالحةِ وإلاَّ وَقَعَتْ في الإرادةِ الفاسدةِ والعملِ الضارِّ، وقدْ قالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]، فَأَخْبَرَ - تَعَالَى - أَنَّ الإنسانَ خُلِقَ على هذهِ الصفةِ، وأنَّ مَنْ كانَ على غيرِهَا فلأجْلِ ما زَكَّاهُ اللَّهُ بِهِ منْ فضلِهِ وإحسانِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء: الآية ٢٨]، قالَ طاوسٌ ومقاتلٌ وغيرُهُمَا: «لا يَصْبِرُ عنْ[1] النساءِ»[2]، وَقَالَ الحسنُ: «هوَ خَلْقُهُ منْ ماءٍ مَهِينٍ»[3].

وَقَالَ الزَّجَّاجُ[4]: «ضَعْفُ عَزْمِهِ عَنْ قَهْرِ الهَوَى»[5].

والصوابُ أنَّ ضَعْفَهُ يَعُمُّ هذا كُلَّهُ، وَضَعْفُهُ أعظمُ منْ هذا وأكثرُ؛ فإنَّهُ ضعيفُ البِنْيَةِ، ضعيفُ القُوَّةِ، ضعيفُ الإرادةِ، ضعيفُ العِلْمِ، ضعيفُ الصبرِ. والآفاتُ إليهِ معَ هذا الضعفِ أَسْرَعُ[6] من السَّيْلِ في[7] الحدورِ.

فبالاضطرارِ لا بُدَّ لهُ منْ حافظٍ مُعِينٍ يُقَوِّيهِ ويُعِينُهُ وينْصُرُهُ[8] وَيُسَاعِدُهُ، فإنْ تَخَلَّى عنهُ هذا المُسَاعِدُ المُعِينُ، فالهلاكُ أَقْرَبُ إليهِ منْ نفسِهِ، وخَلْقُهُ على هذهِ الصفةِ هوَ من الأمورِ التي يُحْمَدُ عليها الربُّ - جَلَّ جلالُهُ - وَيُثْنى عليهِ بها، وهُوَ مُوجَبُ حكمتِهِ

---

(١) في (س): على.

(٢) ذكره البغوي في: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٧)، وابن الجوزي في: «زاد المسير» (٢/ ١١٢)، والقرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٩).

(٣) البغوي «معالم التنزيل» (١/ ٤١٧)، وابن الجوزي «زاد المسير» (٢/ ١١٢).

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، غلب عليه اسم الزجاج؛ لأنه كان أول حياته يحترف خراطة الزجاج، تعلم على ثعلب، ثم اتصل بالمبرد، واشتدت أواصر الاتصال بينهما إلى أن انتقل الزجاج لتعليم أبناء إحدى القبائل، ثم لتعليم ابن الوزير عبيد الله بن سليمان، فارتقى به الحال إلى أن صار من ندماء الخليفة المعتضد، له مجموعة من التآليف، منها كتاب: «معاني القرآن» و«الفرس» و«العروض» توفي سنة (٣١١هـ). انظر: «الفهرست» لابن النديم (ص٨٤ - ٨٥)، «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٦٠ت٢٠٩).

(٥) «معاني القرآن» (٢/ ٤٤)، وابن الجوزي «زاد المسير» (٢/ ١١٢).

(٦) في (س) زيادة: (إليه). (٧) في (ك) و(س) زيادة: (صيب).

(٨) في (ع): ويبصره.

وعزَّتِهِ، فكلُّ ما يَحْدُثُ مِنْ هذهِ الخِلْقةِ، وما[١] يَلْزَمُ عنها فهوَ بالنسبةِ إلى الخالقِ ﷻ خيرٌ وعدلٌ وحكمةٌ؛ إذْ مَصْدَرُ هذهِ الخلقةِ عنْ صفاتِ كمالِهِ منْ غِنَاهُ وعِلْمِهِ وعزَّتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ، وبالنسبةِ إلى العبدِ تَنْقَسِمُ إلى خيرٍ وشرٍّ، وحسنٍ وقبيحٍ، كما تكونُ بالنسبةِ إليهِ [طاعةً ومعصيَةً][٢] وَبِرًّا وفجورًا، بلْ أَخَصَّ منْ ذلكَ، مثلَ كونِهِ صلاةً وصيامًا وحجًّا وزِنًا وسرقةً وأَكْلًا وشُرْبًا؛ إذْ ذلكَ موجَبُ حاجتِهِ وظلمِهِ وجهلِهِ وفقرِهِ وضعفِهِ، وموجَبُ أمرِ اللَّهِ لهُ ونَهْيِهِ.

فلِلَّهِ - سبحانَهُ - الحكمةُ البالغةُ، والنعمةُ السابغةُ، والحمدُ المُطْلَقُ على جميعِ ما خَلَقَهُ وأَمَرَ بهِ، وعلى ما لم يَخْلُقْهُ مِمَّا لوْ شاءَهُ لَخَلَقَهُ، وعلى تَوْفِيقِهِ المُوجِبِ لطاعتِهِ، وعلى خذلانِهِ المُوقِعِ في معصيَتِهِ، وهُوَ - سبحانَهُ - سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غضبَهُ، وكَتَبَ على نفسِهِ الرحمةَ، وأَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وَأَتْقَنَ كلَّ ما صَنَعَ.

ما يحصلُ من ضررٍ مصدره الحكمةُ

وما يَحْصُلُ للنفوسِ البشريَّةِ من الضررِ والأذَى فَلَهُ - سبحانَهُ - في ذلكَ[٣] أَعْظَمُ حكمةٍ مطلوبةٍ، وتلكَ الحكمةُ إنَّما تَحْصُلُ على الوجهِ[٤] الواقعِ المُقَدَّرِ بِمَا خُلِقَ لها من الأسبابِ التي لا تُنَالُ غَايَاتُهَا إلاَّ بها، فوجودُ هذهِ الأسبابِ بالنسبةِ إلى الخالقِ الحكيمِ - سبحانَهُ - هوَ من الحكمةِ، ولهذا يَقْرِنُ سبحانَهُ في كتابِهِ بينَ اسمِه «الحكيمِ» واسمِه «العليمِ» تارةً، وبينَهُ وبينَ اسمِه «العزيزِ» تارةً، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النِّساء: الآية ٢٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨]، وقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٧]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النَّمل: الآية ٦].

فإنَّ العزَّةَ تَتَضَمَّنُ القوَّةَ، ولِلَّهِ القوَّةُ جَمِيعًا.

تصاريفُ «عَزَّ» ومعانيها

يُقَالُ: عَزَّ يَعَزُّ - بِفَتْحِ العَيْنِ - إذا اشْتَدَّ وَقَوِيَ، ومنهُ الأرضُ العَزَازُ: الصُّلبةُ الشديدةُ، وعَزَّ يَعِزُّ - بِكَسْرِ العَيْنِ - إذا امْتَنَعَ مِمَّنْ[٥] يَرُومُهُ، وعزَّ يَعُزُّ - بِضَمِّ العَيْنِ - إذا غَلَبَ وَقَهَرَ، فَأَعْطَوْا أَقْوَى الحركاتِ - وهيَ الضَّمَّةُ - لأَقْوَى المعاني وهُوَ الغَلَبَةُ

(١) (ما) ساقطة من (ك) و(س).
(٢) في (س): طاعته ومعصيته، والمثبت هو الموافق للسياق.
(٣) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في: (سبحانه في ذلك).
(٤) ساقطة من (س). (٥) في (س): مما.

والقهرُ للغَيْرِ، وأَضْعَفَهَا - وهيَ الفتحةُ - لأضعفِ هذهِ المعانِي، وهو كَوْنُ الشيءِ في نفسِهِ صُلْبًا، ولا يَلْزَمُ في[1] ذلكَ أنْ يَمْتَنِعَ عَمَّنْ يَرُومُهُ، والحركةُ - المُتَوَسِّطَةُ - وهيَ الكسرةُ - للمعنَى المُتَوَسِّطِ وهُوَ القَوِيُّ المُمْتَنِعُ عنْ غيرِهِ، ولا يَلْزَمُ منهُ أنْ يَقْهَرَ غَيْرَهُ وَيَغْلِبَهُ، فَأَعْطَوا الأَقْوَى للأَقْوَى، والأضعفَ للأضعفِ، والمُتَوَسِّطَ للمتوسِّطِ[2].

معنى العزِّ والذُّلِّ

ولا رَيْبَ أنَّ قَهْرَ المُريدِ عَمَّا يُريدُهُ منْ أَقْوَى أوصافِ القادرِ، فإنَّ قَهْرَهُ[3] عنْ إرادتِهِ وجَعْلَهُ غيرَ مُريدٍ كانَ أَقْوَى أنواعِ القهرِ. والعِزُّ ضِدُّ الذُّلِّ، والذُّلُّ أَصْلُهُ الضعفُ والعجزُ، فالعِزُّ يَقْتَضِي كمالَ القدْرَةِ والعِزَّةِ[4]، ولهذا يُوصَفُ بهِ المؤمنُ ولا يكونُ ذَمًّا، لهُ بخلافِ الكِبْرِ.

قالَ رجلٌ للحسنِ البَصْرِيِّ: «إنَّكَ مُتَكَبِّرٌ. فقالَ: لستُ بِمُتَكَبِّرٍ، ولكنِّي عَزِيزٌ[5]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨]».

وَقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: «ما زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»[6].

وَقَالَ النبيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ أَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ**»[7][8].

---

(١) في (ع) و(ك) و(س): من.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ودائما في لغة العرب الضم والواو أقوى من الياء والكسرة، والياء والكسرة أقوى من الألف والفتحة، وهكذا هو في النطق، وكذلك في سائر الحركات؛ فإن المحرك إلى أسفل كحركة الماء أثقل من المتحرك إلى فوق كالريح والهواء، والمتحرك على الوسط هو الفلك أقوى منهما» «جامع المسائل المجموعة الأولى» (ص٣٨).

(٣) في (س): قهر. (٤) ساقطة من (ك) و(س). (٥) لم أجده حسب جهدي.

(٦) رواه البخاري (٧/ ٥١ ح٣٦٨٤ فتح) و (٧/ ٢١٥ح٣٨٦٣ فتح).

(٧) عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله من بني مخزوم، ويكنى بأبي الحكم، كان من أشد الكفار عداء وإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح في غزوة بدر فقطع رجله، ثم أردف عليه معوذ بضربة أثخنته، وأجهز عليه ابن مسعود -رضي الله عنه- واحتز رأسه. انظر: «السيرة لابن هشام» (١/ ٢٦٥، ٢٩١، ٢/ ٧١٠ - ٧١١).

(٨) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٩٥)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٢٤٥ح٧٥٩)، والترمذي (٥/ ٦١٧ح٣٦٨١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب؛ والطبراني في: «المعجم الكبير» (١٠/ ١٩٦ =

وفي بعضِ الآثارِ: «أَنَّ الناسَ يَطْلُبُونَ العِزَّةَ فِي أَبْوَابِ المُلُوكِ، ولا يَجِدُونَهَا إلاَّ في طاعةِ اللَّهِ»[١].

وفي الحديثِ: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا بِطَاعَتِكَ، وَلاَ تُذِلَّنَا بِمَعْصِيَتِكَ**»[٢].

وَقَالَ بعضُهُم: «مَنْ أرادَ عِزًّا بلا سلطانٍ، وكثرةً بلا عشيرةٍ، وغِنًى بلا مالٍ، فَلْيَنْتَقِلْ مِنْ ذلِّ المعصيَةِ إلى عزِّ الطاعةِ»[٣].

فالعزَّةُ مِنْ جنسِ القدرةِ والقُوَّةِ، وقدْ ثبَتَ في «الصحيحِ»[٤] عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**».

مقتضى القدرةِ بلا حكمةٍ

فالقدرةُ إنْ لم يَكُنْ معها حكمةٌ، بلْ كانَ القادِرُ يَفْعَلُ ما يُرِيدُهُ بلا نظرٍ في العاقبةِ، ولا حكمةٍ محمودةٍ يَطْلُبُهَا بإرادتِهِ[٥]، ويَقْصِدُهَا بِفِعْلِهِ، كانَ فِعْلُهُ[٦] فَسَادًا.

كصاحِبِ شهواتِ الغيِّ والظلمِ، الذي يَفْعَلُ بِقُوَّتِهِ ما يُرِيدُهُ مِنْ شهواتِ الغيِّ في بَطْنِهِ وفَرْجِهِ، ومِنْ ظُلْمِ الناسِ، فإنَّ هذا وإنْ كانَ لهُ قُوَّةٌ وعِزَّةٌ، لكنْ لَمَّا لم يَقْتَرِنْ بها حكمةٌ كانَ ذلكَ معونةً على شَرِّهِ وَفَسَادِهِ، وكذلكَ العِلْمُ كَمَالُهُ أنْ تَقْتَرِنَ بِهِ الحكمةُ، وإلاَّ فالعالِمُ الذي لا يُرِيدُ ما تَقْتَضِيهِ الحكمةُ وتُوجِبُهُ، بلْ يُرِيدُ ما يَهْوَاهُ، سفيهٌ غاوٍ،

= - ١٩٧)، (١١/ ٢٥٥ح١١٦٥٧)، والحاكم في: «المستدرك» (٣/ ٨٩) ح٤٤٨٦) (٥/ ٥٧٤ح٦١٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٥/ ٣٠٥) ح٦٨٨١). قال ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٥٩) عن هذا الحديث: «وصححه ابن حبان». والحديث صححه أحمد شاكر، انظر: «حاشية مسند الإمام أحمد» (٨/ ٦٠) «حاشية» (٥٦٩٦)، وصححه الألباني «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٠٤ح٢٩٠٧).

(١) لم أجده حسب جهدي.

(٢) يروى نحوه عن أحمد بن جنبل رحمه الله من دعائه. انظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٨٧)، و«تهذيب الكمال» (١/ ٤٦٤)، وفي «الجواب الكافي» (ص١١٣): «... وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك...».

(٣) في «الفردوس بمأثور الخطاب» للديلمي (٣/ ٥٩٣ح (٥٨٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «من أراد عزًّا بلا عشيرة فليتق الله عز وجل»، وفي: «درء تعارض العقل والنقل»، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٥١٧) نحوه مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولم أجده حسب جهدي.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في (ك) و(س): بإرادتها، والصواب المثبت.

(٦) في (س): فعلها، والصواب المثبت، وهو المقتضي للسياق.

وعِلْمُهُ عَوْنٌ لهُ على الشرِّ والفسادِ.

هذا إذا كانَ عَالِمًا قَادِرًا مُرِيدًا، لهُ إرادةٌ منْ غيرِ حكمةٍ، وإنْ قُدِّرَ أنَّهُ لا إرادةَ لهُ بِحَالٍ، فهذا أَوَّلًا: مُمْتَنِعٌ من الحيِّ؛ فإنَّ وجودَ الشعورِ بدونِ حبٍّ ولا بغضٍ ولا إرادةٍ مُمْتَنِعٌ كوجودِ إرادةٍ بدونِ الشعورِ، وأمَّا القدرَةُ والقوَّةُ إذا قُدِّرَ وُجُودُهَا[١] بدونِ إرادةٍ فهيَ كقوَّةِ الجمادِ، فإنَّ القوَّةَ: الطبيعةُ[٢] التي هيَ مَبْدَأُ الفعلِ والحركةِ.

وقدْ قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ لِمَحَالِّهَا شُعُورًا يَلِيقُ بهِ، واحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤]، وبقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: الآية ٧٧]، وهذهِ مسألةٌ كبيرةٌ تَحْتَاجُ إلى كلامٍ لا يَلِيقُ بهذا الموضعِ.

والمقصودُ: أنَّ العلمَ والقدرَةَ المُجَرَّدَيْنِ عن الحكمةِ لا يَحْصُلُ بهما الكمالُ والصلاحُ، وإنَّمَا يَحْصُلُ ذلكَ بالحكمةِ مَعَهُمَا، واسمُهُ سبحانَهُ «الحكيمُ» يَتَضَمَّنُ حِكْمَتَهُ في خَلْقِهِ، وَأَمْرَهُ في إرادتِهِ الدينيَّةِ والكونيَّةِ، فهوَ حكيمٌ في كلِّ[٣] ما خَلَقَهُ [حكيمٌ في كلِّ][٤] ما[٥] أَمَرَ بِهِ.

مذاهبُ الناسِ في الحكمةِ والقدرِ

والناسُ في هذا الْمَقامِ أربعُ طَوائفَ:

مذهبُ الفلاسفةِ

الطائفةُ الأُولى: الْجَاحِدَةُ لقُدرَتِه وحِكْمَتِه، فلا يُثْبِتُونَ له تَعالى قُدرةً ولا حِكمةً، كما يَقولُه مَن يَنْفِي كونَه تعالى فاعلًا مختارًا، وأنَّ صُدورَ العالَمِ عنه بالإيجابِ الذاتيِّ لا بالقُدرةِ والاختيارِ، وهؤلاءِ يُثْبِتُون حِكمةً يُسَمُّونَها عِنايةً إِلَهِيَّةً، فهم[٦] من أشدِّ الناسِ تَنَاقُضًا؛ إذ لا يُعْقَلُ حكيمٌ لا قُدرةَ له ولا اختيارَ، وإنما يُسَمُّونَ ما في العالَمِ من[٧] المصالِحِ والْمَنافِعِ عنايةً إِلَهِيَّةً من غيرِ أن يَرْجِعَ منها إلى الربِّ تعالى إرادةٌ ولا حِكمةٌ، وهؤلاءِ كما أنهم مُكَذِّبونَ لجميعِ الرُّسُلِ والكُتُبِ، فهم مُخالِفونَ لصريحِ العَقلِ والفِطرةِ، قد[٨] نَسَبُوا الربَّ تعالى إلى أَعْظَمِ النقْصِ، وجَعَلُوا كلَّ قادرٍ مُريدٍ مُختارٍ أَكْمَلَ منه، وإن كان مَن كان، بل سَلْبُهم القُدرةَ والاختيارَ والفعْلَ عن ربِّ العالمينَ شَرٌّ

---

(١) في (ع) وجودهما، وهو الأصوب؛ لعود الضمير على مثنى. (٢) في (ع): الطبيعية.
(٣) ساقطة من (س).
(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س). (٥) في (ك): وما.
(٦) في (ع) و(ك) و(س) وهم. (٧) في (ك) (واو) بدلا من (من).
(٨) في(ع) و(س) وقد.

من شَرْكِ عُبَّادِ الأصنام به بكثيرٍ، وشَرٌّ من قولِ النَّصارَى: إنه - تعالى عن قولِهم - ثالثُ ثلاثةٍ، وإنَّ له صاحبةً ووَلدًا، فإنَّ هؤلاءِ أثبَتُوا له قُدرةً وإرادةً وفِعْلًا[١] اختياريًّا[٢] وحِكمةً، ووَصَفُوه مع ذلك بما لا يَليقُ به.

وأمَّا أولئك فنفَوْا رُبوبيَّتَه وقُدرتَه بالكُلِّيَّةِ، وأثْبَتُوا أسماءً لا حقائقَ لها ولا مَعْنًى[٣].

مذهبُ الجبريةِ في الحكمةِ والقدرِ

والطائفةُ الثانيةُ: أقَرَّتْ بقُدرَتِه وعُمومِ مَشيئَتِه للكائناتِ، وجَحَدَتْ حِكمتَه وما له في خَلْقِه من الغاياتِ المحمودةِ المطلوبةِ له سبحانَه التي يَفْعَلُ لأَجْلِها ويأْمُرُ لأَجْلِها، فحافَظَتْ على القَدَرِ وجَحَدَت الحِكْمَةَ، وهؤلاءِ هم النُّفاةُ للتعليلِ والأسبابِ والقُوَى والطبائعِ في المخلوقاتِ، فعندَهم لا يَفْعَلُ لشيءٍ[٤] ولا لأَجْلِ شيءٍ، وليس في القرآنِ عندَهم لامُ تَعليلٍ ولا باءُ تَسْبيبٍ[٥]، وكلُّ لامٍ تُوهِمُ التعليلَ فهي عندَهم لامُ العاقبةِ، وكلُّ باءٍ تُشْعِرُ بالتسَبُّبِ فهي عندَهم باءُ الْمُصاحَبَةِ.

وهؤلاءِ سَلَّطُوا نُفاةَ القَدَرِ عليهم بما نَفَوْهُ من الحِكمةِ والتعليلِ والأسبابِ، فاستَطَالُوا عليهم بذلك، ووَجَدُوا مَقالًا واسعًا بالشَّناعةِ، فقالوا وشَنَّعُوا، ولعَمْرُ اللهِ إنهم لَمُحِقُّون في أَكْثَرِ ما شَنَّعوا عليهم به؛ إذ نَفْيُ الحكمةِ والتعليلِ والأسبابِ له لوازِمُ في غايةِ الشناعةِ، والتزامُها مُكابَرَةٌ ظاهرةٌ عندَ عامَّةِ العُقلاءِ[٦].

مذهبُ القدريةِ في الحكمةِ والقدرِ

والطائفةُ الثالثةُ: أَقَرَّتْ بحِكْمَتِه، وأَثْبَتَت الأسبابَ والعِلَلَ والغاياتِ في أفعالِه وأحكامِه، وجَحَدَتْ بكمالِ[٧] قُدْرَتِه؛ فنَفَتْ قُدرتَه على شَطْرِ العالَمِ، وهو أَشرفُ ما فيه من أَفعالِ الملائكةِ والجِنِّ والإنْسِ وطاعاتِهم، بل عندَهم هذه كلُّها لا تَدْخُلُ تحتَ مَقدورِه تعالى، ولا يُوصَفُ بالقُدرةِ عليها، ولا هي داخلةٌ تحتَ مَشيئَتِه ولا مُلْكِه، وليس في مَقدورِه عندَهم أن يَجْعَلَ المؤمنَ مؤمنًا، والْمُصَلِّيَ مُصَلِّيًا، والْمُوَفَّقَ مُوَفَّقًا، بل هو الذي جَعَلَ نفسَه كذلك[٨].

---

(١) ساقطة من (س). (٢) في (س) اختيارًا.

(٣) انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي(١٤٥)، و«شفاء العليل» (٢/ ٥٢٤).

(٤) في (ع) شيء. (٥) في (ك) و(س) تسبب.

(٦) وهو قول الجهمية الجبرية ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم. انظر: «منهاج السنة» لابن تيمية(١/ ١٤٢).

(٧) (ع) و(ك) و(س) كمال.

(٨) وهم المعتزلة ومن وافقهم من متأخري الرافضة. انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار (ص٧٧١)، و«منهاج السنة» (١/ ١٢٩)، و«شفاء العليل» (٢/ ١٩٣).

وعندَهم أنَّ أفعالَ العِبادِ من الملائكةِ والجنِّ والإنْسِ كانت بغيرِ مَشيئتِه واختيارِه، فتعالى[١] اللهُ عن قولِهم.

وهؤلاءِ سَلَّطُوا عليهم نُفاةَ الحكْمَةِ والتعليلِ والأسبابِ فمَزَّقُوهم كلَّ مُمَزَّقٍ، ووَجَدُوا طريقًا مَهْيَعًا[٢] إلى الشناعةِ عليهم، وإبداءِ[٣] تَناقُضِهم فقالُوا وشَنَّعُوا ورَمَوْهُم بكلِّ دَاهيةٍ؛ إذ نَفْيُ قُدرةِ الربِّ تعالى على شَطْرِ الْمَملكةِ له لوازِمُ في غايةِ الشناعةِ والقُبحِ والفَسادِ، والتزامُها مُكابَرَةٌ ظاهِرَةٌ عندَ عامَّةِ العُقلاءِ، ونَفْيُ التزامِها تَناقُضٌ بَيِّنٌ، فصاروا بذلك مُذَبْذَبِينَ[٤] بينَ التناقُضِ - وهو أحْسَنُ حالَيْهِم[٥] - وبينَ التزامِ تلك العَظائمِ التي تُخْرِجُ عن الإيمانِ، كما كان نُفاةُ الحِكمةِ والأسبابِ والغاياتِ كذلك[٦].

مذهبُ أهلِ السنَّةِ في حِكمةِ اللهِ وقُدرتِه

فهَدَى اللهُ **الطائفةَ الرابعةَ** لِمَا اخْتَلَفوا فيه من الحقِّ بإذنِه - واللهُ يَهْدِي مَن يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ - فآمَنوا بالكتابِ كُلِّه، وأَقَرُّوا بالحَقِّ جَميعِه، ووافَقوا كلَّ واحدةٍ من الطائفتينِ على ما معها من الحقِّ، وخالَفُوهم فيما قالُوه من الباطلِ؛ فآمَنُوا بخَلْقِ اللهِ وأَمْرِه بقَدَرِه وشَرْعِه، وأنه سبحانه المحمودُ على خَلْقِه وأَمْرِه، وأنَّ له الحكمةَ البالغةَ والنعمةَ السابغةَ، وأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ فلا يَخْرُجُ عن مَقدورِه شيءٌ[٧] من الموجوداتِ؛ أعيانِها وأفعالِها وصِفاتِها، كما لا يَخْرُجُ عن عِلْمِه، فكلُّ ما تَعَلَّقَ به عِلْمُه من العالَمِ تَعَلَّقَتْ به قُدرتُه ومَشيئتُه. وآمَنوا مع ذلك بأنَّ له الْحُجَّةَ على خَلْقِه، وأنه لا حُجَّةَ لأَحَدٍ عليه، بل للهِ الْحُجَّةُ البالِغَةُ، وأنه لو عَذَّبَ أهلَ سماواتِه وأهلَ أَرضِه لعَذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، بل كان تعذيبُهم[٨] عَدْلًا منه وحِكمةً لا بِمَحْضِ المشيئةِ الْمُجَرَّدَةِ عن السببِ والحكمةِ، كما يقولُه الْجَبْرِيَّةُ، ولا يَجعلون القَدَرَ حُجَّةً لأنفسِهم ولا لغيرِهم، بل يُؤمنون به ولا يَحْتَجُّون به، ويَعلمونَ أنَّ اللهَ سبحانَه أَنْعَمَ عليهم

---

(١) في (ع) تعالى.

(٢) في (ك) و(س) وسيعًا، وكلاهما صواب؛ والمهيع: الطريق الواسع البين المنبسط. انظر: «الفائق في غريب الحديث» لمحمود بن عمر الزمخشري (٤/ ١٢٣)، و«النهاية في غريب الحديث» للجزري (٣/ ٣٧٧)، و«لسان العرب» باب الهاء (١٥/ ١٨٠).

(٣) في (ك) و(س) وأبدوا. (٤) ساقطة من (ك) و(س). (٥) في (ك) و(س) حالهم.

(٦) انظر مبحثًا نفيسًا للمؤلف رحمه الله في مناقشة الزائغين في حكمة الله تعالى في خلقه وأمره في كتابه القيم «شفاء العليل» (٢/ ٥٢٦ - ٧٣٢).

(٧) ساقطة من (ع). (٨) في (ك) و(س) زيادة: (منه).

بالطاعاتِ، وأنها من نِعمتِه عليهم وفَضْلِه وإحسانِه، وأنَّ المَعَاصِيَ من نفوسِهم الظالمةِ الجاهلةِ، وأنهم هم جُنَاتُها وهم الذين اجْتَرَحُوها، ولا يَحْمِلُونَها[١] على القضاءِ والقَدَرِ مع عِلْمِهِم بشُمولِ قَضائِه وقَدَرِه لِمَا في العالَمِ من خيرٍ وشرٍّ وطاعةٍ وعِصيانٍ وكُفْرٍ وإيمانٍ، وأنَّ مَشيئةَ اللهِ سبحانَه مُحيطةٌ بذلك كإحاطةِ عِلمِه به، وأنه لو شاءَ ألاَّ يُعْصَى لَمَا عُصِيَ، وأنه[٢] سبحانَه أَعَزُّ وأَجَلُّ مِن أن يُعْصَى قَسْرًا، والعِبادُ أَقَلُّ من ذلك وأَهْوَنُ، وأنه ما شاءَ اللهُ[٣] كان، وكلُّ كائنٍ فهو بمشيئتِه، وما لم يَشَأْ لم يكنْ، وما لم يكنْ فلِعَدَمِ مشيئتِه، فله الْخَلْقُ والأمْرُ، وله الْمُلْكُ والحمدُ، وله القُدرةُ التامَّةُ والحكمةُ[٤] البالغةُ.

فهذه الطائفةُ كُمَّلُ[٥] أهلِ البصَرِ التامِّ، والأُولى لهم العَمَى الْمُطْلَقُ، والثانيةُ والثالثةُ عُورٌ[٦]، كلُّ طائفةٍ منهما لهم عَينٌ عَمياءُ[٧]، ومع هذا فَسَرَى العَمَى من العينِ العَمياءِ إلى العينِ الصحيحةِ فأعماها [أو كادَ][٨]، ولا يَسْتَنْكِرُ [تكرارَ هذه][٩] الكلماتِ مَن يَعْلَمُ شِدَّةَ الحاجةِ إليها وضَرورةَ النفوسِ إليها، فلو تكَرَّرَتْ ما تكَرَّرَتْ[١٠] فالحاجةُ إليها في مَحَلِّ الضرورةِ، واللهُ الْمُستعانُ.

فصلٌ

قاعدةٌ نافعةٌ وأصلٌ جامعٌ في الحمدِ وإثباتِه كلِّه للهِ

ويَجْمَعُ هذين الأصلين العظيمين[١١] أصلٌ ثالثٌ هو عِقْدُ نِظامِهما[١٢] وجامِعُ شَمْلِهما، وبتحقيقِه وإثباتِه[١٣] على وَجْهِهِ يَتِمُّ بِناءُ هذين الأصلين، وهو إثباتُ الحمدِ كلِّه للهِ - ربِّ العالمينَ - فإنه المحمودُ على كلِّ[١٤] ما خَلَقَه، وأَمَرَ به، ونَهَى عنه،

---

(١) في (ع) يحملوها، والصواب المثبت.

(٢) في (ع) والله.

(٣) ليست في (ك) و(س).

(٤) في (ك) الحكمة الشاملة الثابتة والحجة البالغة، وفي (س) الحكمة الشاملة والحجة البالغة.

(٥) بياض في (ع) وفي (ك) و(س) هم.

(٦) ساقطة من (ك) و(س).

(٧) في (ك) تكرار كلمة (عين).

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من (س).

(٩) في (ع) نكرا وهذه، وهو تصحيف.

(١٠) في (ك) ما تقززت، وهو تصحيف.

(١١) سبق إيراد المؤلف رحمه الله لهذين الأصلين (ص٢٦١)، (٢٦٢).

(١٢) في (س) نظامها، والصواب المثبت؛ لعود الضمير على مثنى.

(١٣) في (ع) إبانته.

(١٤) ساقطة من (ك) و(س).

فهو المحمودُ على طاعاتِ العِبادِ ومعاصيهم وإيمانِهم وكُفْرِهم، وهو المحمودُ على خَلْقِ الأبرارِ والفُجَّارِ والملائكةِ والشياطينِ، وعلى خَلْقِ الرُّسُلِ وأعدائِهم، وهو المحمودُ على عَدْلِه في أعدائِه، كما هو المحمودُ على فَضْلِه وإنعامِه على أوليائِه، فكلُّ ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِ الكَوْنِ شاهدةٌ بحَمْدِه، ولهذا سَبَّحَ[١] بحَمْدِه السماواتُ السبْعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]، وكان مِن[٢] قولِ النبيِّ ﷺ عندَ الاعتدالِ من الركوعِ: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»[٣].

معنى قوله: مِنْ شيءٍ بعدُ

فله سبحانَه الحمدُ حمدًا يَمْلأُ المخلوقاتِ والفضاءَ الذي بينَ الأرضِ والسماواتِ[٤]، ويَملأُ ما يُقَدَّرُ بعدَ ذلك مما يَشاءُ[٥] اللهُ أن يُملأَ بِحَمْدِه.

وذلك يَحتمِلُ أَمرينِ:

أحدُهما: أن يَملأَ ما يَخْلُقُه اللهُ بعدَ السماواتِ والأرضِ، والمعنى: لك[٦] الحمدُ مِلْءَ ما خَلَقْتَه، ومِلءَ ما تَخْلُقُه بعدَ ذلك.

الثاني: أن يكونَ المعنى: مِلْءَ ما شِئْتَ من شيءٍ[٧] يَمْلَؤُه حَمْدُك، أي: يُقَدَّرُ مَمْلوءًا بِحَمْدِكَ وإن لم يكنْ موجودًا.

لكن[٨] قد[٩] يُقالُ: المعنى الأَوَّلُ أَقْوَى؛ لأنَّ قولَه: «[١٠] **مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**» يَقتضِي أنَّه شيءٌ يَشَاؤُه، وما شاءَ كان، فالمشيئةُ متعَلِّقَةٌ بعينِه لا بِمُجَرَّدِ مِلْءِ الحمْدِ له فتأَمَّلْه، لكنه إذا شاءَ كونَه، فله الحمدُ مِلْؤُه، فالمشيئةُ راجعةٌ إلى المَملوءِ بالحمْدِ، فلا بدَّ أن يكونَ شيئًا موجودًا يَمْلَؤُهُ حَمْدُه.

وأيضًا فإنَّ قولَه: «**مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**» يَقتضِي أنه شيءٌ يَشَاؤُه سبحانَه بعدَ هذه

---

(١) في (ك) و(س) تسبح. (٢) في (ك) و(س) في.

(٣) رواه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل (٦/ ٣٩١ - ٣٩٣ح٧٧١ نووي) بمثله بأطول منه في أثنائه.

(٤) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (الأرض والسماوات). (٥) في (ك) ما شاء، والصواب المثبت.

(٦) في (س) أن، والصواب المثبت. (٧) في (ك) و(س) زيادة: (بعد).

(٨) في (ع) يمكن، وفي (س) لو يكن، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.

(٩) ساقطة من (ك) و(س). (١٠) في (ع) زيادة: (ملء).

المخلوقاتِ، كما يَخْلُقُه بعدَ ذلك من مخلوقاتِه من القِيامةِ وما بعدَها.

ولو أُريدَ تَقديرُ خَلْقِه لقيلَ: ومِلْءَ ما شِئْتَ من شيءٍ مع ذلك؛ لأنَّ الْمُقَدَّرَ يكونُ مع الْمُحَقَّقِ.

وأيضًا[١] فإنه لم يَقُلْ: مِلءَ ما شِئْتَ أن يَملأَهُ الحمْدُ، بل قالَ: «ما شِئْتَ» والعبدُ قد حَمِدَ حمدًا أَخْبَرَ[٢] به، وأنشأَهُ ووَصَفَه بأنه يَمْلأُ ما خَلَقَه الربُّ وما يَشاؤُه[٣] بعدَ ذلك.

وأيضًا فقولُه: «**وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**» يَقْتَضِي إثباتَ مَشيئةٍ تَتَعَلَّقُ بشَيْءٍ بعدَ ذلك، وعلى الوجهِ الثاني قد تَتَعَلَّقُ المشيئةُ بِمِلْءِ الْمُقَدَّرِ، وقد لا تَتَعَلَّقُ.

وأيضًا فإذا قِيلَ: «**مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ**» كان الحمْدُ مَالِئًا لِمَا هو موجودٌ يَشاؤُه الربُّ دائمًا، ولا رَيبَ أنَّ له الحمْدَ دائمًا في الأُولَى والآخِرَةِ، وأمَّا إذا قُدِّرَ ما يَمْلَؤُهُ الحمْدُ وهو غيرُ مَوجودٍ؛ فالْمُقَدَّراتُ لا حَدَّ لها، وما مِن شيءٍ منها إلا يُمْكِنُ تَقديرُ شيءٍ بعدَه، وتقديرُ ما لا نِهايةَ له كتقديرِ الأعدادِ، ولو أُريدَ هذا المعنى لم يحْتَجْ إلى تَعليقِه بالمشيئةِ، بل قِيلَ: «مِلْءَ مَا لا يَتَنَاهَى» فأمَّا ما يَشاؤُه[٤] الربُّ تعالى؛ فلا يكونُ إلا مَوجودًا مقدَّرًا، وإن كان لا آخِرَ[٥] لنوعِ الحوادثِ و[٦] بَقاءِ ما يَبْقَى منها، فهذا كلُّه مِمَّا[٧] يَشاؤُه بَعْدُ.

وأيضًا فالحمدُ هو: الإخبارُ بِمَحاسِنِ المحمودِ على وَجْهِ الحبِّ له.

ومحاسِنُ المحمودِ تعالى إمَّا قائمةٌ بذاتِه وإمَّا ظاهِرَةٌ في مخلوقاتِه، فأمَّا المعدومُ الْمَحْضُ الذي لم يُخْلَقْ ولا خُلِقَ قطُّ؛ فذاكَ[٨] ليس فيه مَحاسِنُ ولا غيرُها، فلا مَحامِدَ فيه أَلْبَتَّةَ، فالحمدُ للهِ الذي يَمْلأُ المخلوقاتِ ما وُجِدَ منها، وما[٩] يُوجَدُ هو حَمْدٌ يَتَضَمَّنُ الثناءَ عليه بكَمالِه القائمِ بذاتِه والمحاسِنِ الظاهِرَةِ في مخلوقاتِه، وأمَّا ما لا وُجودَ له فلا مَحامِدَ فيه ولا مَذامَّ، فجَعْلُ الحمدِ مَالِئًا له جَعْلُهُ مالئًا لِمَا لا حَقيقةَ له. معنى الحمدِ

وقد اخْتَلَفَ الناسُ في معنى كونِ حَمْدِه يَمْلأُ السماواتِ والأرضَ وما بينَهما؛ فقالتْ

---

(١) ساقطة من (ك). (٢) في (س) أخبره، والصواب المثبت.
(٣) في (ك) شاءه، والصواب المثبت؛ لأن مقتضى السياق ما يكون في المستقبل.
(٤) في (ع) شاءه، والصواب المثبت. (٥) في (س) الأخر، والصواب المثبت.
(٦) في (س) أو، والصواب المثبت. (٧) في (ع) ما، والصواب المثبت.
(٨) في (ك) فذلك. (٩) (ما) ساقطة من (س).

طائفةٌ: هذا[(١)] على جِهَةِ التمثيلِ. أي: لو كان أَجسامًا لَمَلأَ السماواتِ والأرضَ وما بينَهما، قالوا: فإنَّ الحمدَ من قَبيلِ المعانِي والأعراضِ التي لا تُمْلأُ بها الأجسامُ، ولا تُمْلأُ الأجسامُ إلا بأجسامٍ[(٢)].

والصوابُ أنه لا يُحْتَاجُ إلى هذا التَّكَلُّفِ[(٣)] البارِدِ، فإنَّ مِلْءَ كلِّ شيءٍ يَكونُ بحَسَبِ المالِئِ والمملوءِ، فإذا قِيلَ: امْتَلأَ الإناءُ ماءً وامتلأَتِ الْجَفْنَةُ طَعامًا، فهذا الامتلاءُ نَوعٌ، وإذا قيلَ: امْتَلأَت الدارُ رِجَالًا وامتلأَت المدينةُ خَيْلًا ورجالًا فهذا نوعٌ آخَرُ.

وإذا قيلَ: امتلأَ الكتابُ سُطورًا، فهذا نوعٌ آخَرُ، وإذا قِيلَ: امْتَلأَتْ مَسامِعُ النَّاسِ حَمْدًا أو ذَمًّا لفُلانٍ، فهذا نوعٌ آخَرُ، كما في أَثَرٍ مَعروفٍ: «أَهْلُ الجَنَّةِ مَن امْتَلأَتْ مَسامِعُه من ثَناءِ الناسِ عليه، وأَهلُ النارِ مَن امْتَلأَتْ مَسامِعُه من ذَمِّ الناسِ لَهُ»[(٤)].

وقالَ عمرُ بنُ الْخَطَّابِ في عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ: «كَنِيْفٌ[(٥)] مُلِئَ عِلْمًا»[(٦)] ويُقالُ: فُلانٌ عِلْمُه قد مَلأَ الدنيا، وكان يُقالُ: مَلأَ ابنُ أبي الدُّنْيا[(٧)] الدُّنْيا عِلْمًا، ويُقالُ: صِيتُ

---

(١) ساقطة من (ك) و(س).

(٢) في (ع) و(ك) و(س) بالأجسام.		(٣) في (ك) للتكليف، والصواب المثبت.

(٤) رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٥٤ح٤٥٥)، وابن ماجه في «سننه» (٢/ ١٤١٢ح٤٢٢٤) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٧٠ح١٢٧٨٧)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢/ ٣٠٥ح٨١٤). قال الكناني في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٤٣): إسناده صحيح: رجاله ثقات. وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤١٣ح٣٤٠٣): حسن صحيح.

(٥) والكنف: وعاء يحفظ ويستر ما فيه، وهو أيضا وعاء طويل يكون فيه متاع التجار وأسقاطهم؛ ومنه قول عمر في عبد الله بن مسعود ﷺ: «كنيف ملئ علما». أي: أنه وعاء للعلم بمنزلة الوعاء الذي يضع الرجل فيه أداته، وتصغيره على جهة المدح له، وهو تصغير تعظيم للكنف. «لسان العرب» لابن منظور باب الكاف (١٢/ ١٧١). وانظر: «غريب الحديث» لابن سلام (١/ ١٦٩)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٢).

(٦) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٣٤٤)، (٦/ ٩)، و«فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (٢/ ٨٤٣ح١٥٥٠)، و«المدخل للسنن الكبرى» للبيهقي (١٤٠ح١٠٠)، و«صفة الصفوة» (١/ ٢١٠)، و«المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» (٥/ ٣١) كلاهما لابن الجوزي.

(٧) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي الأموي - مولاهم - أبو بكر بن أبي الدنيا، البغدادي الحافظ، مؤدب أولاد الخلفاء، صاحب التصانيف المشهورة، ومنها: «الفرج بعد الشدة»، «قصر =

فُلانٍ قد مَلأَ الدنيا فطَبَّقَ(١) الآفاقَ، وحُبُّه قد مَلأَ القلوبَ، [وبُغْضُ فُلانٍ قد مَلأَ القلوبَ](٢)، وامتلأ قَلْبُه رُعبًا، وهذا(٣) أكثرُ من أن تُستَوْعَبَ شَواهِدُه، وهو حقيقةٌ في بابِه، وجَعْلُ الْمَلْءِ والامتلاءِ حقيقةً للأجسامِ خاصَّةً تَحَكُّمٌ باطلٌ، ودَعْوَى لا دَليلَ عليها الْبَتَّةَ، والأصْلُ الحقيقةُ الواحدةُ، والاشتراكُ الْمَعنويُّ هو الغالبُ على اللغةِ والأفهامِ والاستعمالِ، فالمصيرُ إليه أَوْلَى من الْمَجازِ والاشتراكِ اللفظيِّ(٤)، وليس هذا مَوْضِعَ تقريرِ هذه(٥) المسألةِ؛ إذ(٦) المقصودُ أنَّ الربَّ تعالى أسماؤُه كلُّها حُسْنَى ليس فيها اسمُ سَوْءٍ، وأوصافُه كلُّها كَمالٌ ليس فيها صِفَةُ نَقْصٍ، وأفعالُه كلُّها حِكمةٌ ليس فيها فِعْلٌ خالٍ عن الحِكمةِ والْمَصلَحَةِ، وله الْمَثَلُ الأَعْلَى في السماواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ الحكيمُ، موصوفٌ بصِفاتِ(٧) الكمالِ، مَذكورٌ بنُعوتِ الجَلالِ، مُنَزَّهٌ عن الشبيهِ والْمِثالِ، ومُنَزَّهٌ عمَّا يُضادُّ صِفاتِ كَمالِه.

أسماءُ الربِّ كلُّها حُسْنى وصفاتُه كلُّها عَلْيَاءُ

وأفعالُه كلُّها حِكمةٌ

فمُنَزَّهٌ عن الموتِ الْمُضَادِّ(٨) للحياةِ.

وعن السِّنَةِ والنومِ والسَّهوِ والغَفلةِ، [الْمُضَادِّ للقَيُّومِيَّةِ](٩).

وموصوفٌ(١٠) بالعِلْمِ، مُنَزَّهٌ عن أضْدَادِه كُلِّهَا؛ من النِّسيانِ، والذُّهولِ، وعُزوبِ شيءٍ عن عِلْمِه.

موصوفٌ بالقُدرةِ التامَّةِ، مُنَزَّهٌ عن ضِدِّها؛ من العَجْزِ واللُّغوبِ والإعياءِ.

موصوفٌ بالعَدْلِ، مُنَزَّهٌ عن الظلْمِ.

مَوصوفٌ بالحِكْمَةِ، مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ والسفَهِ.

مَوصوفٌ بالسمْعِ والبَصَرِ، مُنَزَّهٌ عن أضدادِهما من الصَّمَمِ والبَكَمِ.

= الأمل»، «اليقين»، وغيره، له عجائب وغرائب، توفي سنة (٢٨١هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٩٧ - ٤٠٤ت١٩٢).

(١) في (ك) و(س) وضيق، والصواب المثبت. والمراد: عم جميع الأرض. انظر: «لسان العرب» باب الطاء(٨/ ١٢١).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (س). (٣) في (س) زيادة: (من).

(٤) ساقطة من (س). (٥) ساقطة من (ك) و(س). (٦) في (ك) و(س) والمقصود.

(٧) في (ك) و(س) بصفة. (٨) في (س) المضادة، والصواب المثبت.

(٩) في (س) المضادة للقيومة، وهو خطأ والصواب ما أثبت. (١٠) في (س) وهو موصوف.

مَوصوفٌ بالعُلُوِّ والفَوقيَّةِ، مُنَزَّهٌ عن ضِدِّ ذلك.

مَوصوفٌ بالْغِنَى التامِّ، مُنَزَّهٌ عمَّا يُضَادُّه بوَجْهٍ من الوُجوهِ، ومُسْتَحِقٌّ للحَمْدِ كلِّه فيَستحيلُ أن يكونَ غيرَ مَحمودٍ، كما يَستحيلُ أن يكونَ غيرَ قَادرٍ ولا خالِقٍ ولا حَيٍّ، بل[١] الحمْدُ كلُّه واجبٌ له لذاتِه؛ فلا يكونُ إلا مَحمودًا كما لا يكونُ إلا إلهًا وربًّا وقادرًا.

فإذا قِيلَ: «الْحَمْدُ كُلُّه للهِ» فهذا له مَعنيانِ:

أحدُهما: أنه مَحمودٌ على كلِّ شيءٍ، وبِكُلِّ[٢] ما يُحْمَدُ به المحمودُ الحمدَ[٣] التامَّ، وإن كان بعضُ خَلْقِه يُحْمَدُ أيضًا - كما يُحْمَدُ رُسُلُه وأنبياؤُه وأَتباعُهم - فذلك من حَمْدِه تَبَارَكَ وتعالى - بل هو المحمودُ بالقَصْدِ الأَوَّلِ وبالذاتِ، وما نَالُوه من الْحَمْدِ فإنما نَالُوه بحَمْدِه؛ فهو المحمودُ أوَّلًا وآخِرًا وظَاهِرًا وباطِنًا، وهذا كما أنه بكلِّ شيءٍ عَليمٌ، وقد عَلَّمَ غيرَه من عِلْمِه ما لم يكنْ يَعْلَمْه بدونِ تَعليمِه، وفي الدعاءِ المأثورِ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّه، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ**»[٤].

وهو سبحانَه له الْمُلْكُ وقد آتَى من مُلْكِه[٥] بعضَ خَلْقِه، وله الحمْدُ وقد آتَى غيرَه من الْحَمْدِ ما شاءَ.

وكما أنَّ مُلْكَ المخلوقِ داخلٌ في مُلْكِه، فحَمْدُه أيضًا داخلٌ في حَمْدِه، فما من محمودٍ يُحْمَدُ على شيءٍ مِمَّا[٦] دَقَّ أو جَلَّ إلا واللهُ المحمودُ عليه بالذاتِ والأَوَّلِيَّةِ[٧] والأَوْلَوِيَّةِ[٨] أيضًا، وإذا قالَ الحامدُ: «اللَّهُمَّ[٩] لَكَ الْحَمْدُ» فالمرادُ به: أنتَ الْمُسْتَحِقُّ

---

(١) في (ك) و(س) وله. (٢) في (س) وكل. (٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ١٥٧ - ١٥٨ح٥١٤٢)، وأحمد «في المسند» (٥/ ٣٩٥)، وابن أبي الدنيا في «الهواتف» باب هواتف الدعاء (٥١/ ح٦٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٩٧ح٤٤٠٠)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٩١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٧٧ح٢٩٥٩٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩٦): رواه أحمد وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات.

(٥) في (ك) و(س) المملكة، والصواب المثبت، وهو الموافق للسياق.

(٦) في (ع) ما، والمثبت أصوب. (٧) ساقطة من (ك). (٨) ساقطة من (س).

(٩) في (س) زيادة: (ربنا ولك).

لكلِّ حَمْدٍ، ليس المرادُ به الحمْدُ الخارجيُّ فقط.

المعنى الثاني للحمدِ

المعنى الثاني أن يُقالَ: «لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ» أي[١]: الحمدُ التامُّ الكاملُ، فهذا مُخْتَصٌّ باللهِ ﷻ ليس لغيرِه فيه شِرْكَةٌ.

التحقيقُ في معنى الحمدِ

والتحقيقُ: أنَّ له الحمدَ بالمعنَيَيْنِ جميعًا، فله عُمومُ الحمْدِ وكَمالُه، وهذا من خصائصِه سبحانه فهو المحمودُ على كلِّ حالٍ، وعلى كلِّ شيءٍ أَكْمَلَ حَمْدٍ وأَعْظَمَه، كما أنَّ له الْمُلْكَ التامَّ العامَّ، فلا يَمْلِكُ كلَّ شيءٍ إلا هو، وليس الْمُلْكُ التامُّ الكاملُ إلا له.

وأَتباعُ الرُّسُلِ [صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم][٢] يُثْبِتُون له كَمالَ الْمُلْكِ وكَمالَ الحمْدِ؛ فإنهم يقولون: إنه خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومَليكُه، لا يَخْرُجُ عن خَلْقِه وقُدرتِه ومَشيئتِه شيءٌ أَلْبَتَّةَ، فله الْمُلْكُ كُلُّه.

مذهبُ أهلِ السنةِ في القدرِ

والقَدَرِيَّةُ الْمَجُوسِيَّةُ يُخْرِجون من مُلْكِه أفعالَ العِبادِ؛ فيُخْرِجُون [طاعاتِ الأنبياءِ والمرْسَلينَ والملائكةِ والمؤمنينَ من مُلْكِه، كما يُخْرِجون][٣] سائرَ حَركاتِ الملائكةِ والجِنِّ والإنْسِ عن مُلْكِه.

وأتباعُ الرُّسُلِ يَجْعَلون ذلك كلَّه داخلًا تَحتَ[٤] مُلْكِه وقُدْرَتِه، ويُثْبِتُون له[٥] كَمالَ الحمْدِ أيضًا، وأنه المحمودُ على جميعِ ذلك، وعلى كلِّ ما خَلَقَه ويَخْلُقُه؛ لِمَا له فيه من الْحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ المقصودةِ بالفِعْلِ.

مذهبُ نفاةِ الحكمةِ والأسبابِ

وأمَّا نُفاةُ الحكمةِ والأسبابِ[٦] من مُثْبِتِي القَدَرِ؛ فهم في الحقيقةِ لا يُثْبِتُون له حَمْدًا كما لا يُثْبِتون له حِكمةً[٧]، [فإنَّ الحمدَ من لوازمِ الحكمةِ][٨]، والحكمةَ إنما تكونُ في حقِّ مَن يَفعلُ شيئًا لشيءٍ، فيُريدُ بما يَفعلُه الحكمةَ الناشئةَ من فِعلِه، فأمَّا مَن لا يَفْعَلُ شيئًا لشيءٍ أَلْبَتَّةَ فلا يُتَصَوَّرُ في حَقِّه الْحِكْمَةُ.

وهؤلاءِ يَقولون: ليس في أفعالِه وأحكامِه لامُ التعليلِ، وما اقْتَرَنَ بالمفعولاتِ من

---

(١) في (س) زيادة: (لك).

(٢) مابين المعقوفين ليس في (ك) و(س). (٣) ما بين المعقوفين ساقط من (س).

(٤) في (ك) و(س) في. (٥) ساقطة من (س). (٦) انظر: «المدارج» (٣/ ٤٤٩).

(٧) في (ك) و(س) الحكمة. (٨) ما بين المعقوفين ساقط من (س).

قُوَى وطَبَائعَ ومَصالِحَ؛ فإنما اقْتَرَنَتْ بها اقترانًا عاديًّا، لا أنَّ[١] هذا كان لأَجْلِ هذا، ولا شاءَ[٢] السببَ لأَجْلِ الْمُسَبَّبِ، بل لا سَبَبَ عندَهم ولا مُسَبَّبَ أَلْبَتَّةَ؛ إن هو إلا مَحْضُ المشيئةِ، وصَرْفُ الإرادةِ التي تُرَجِّحُ مِثلًا على مِثلٍ بلا[٣] مُرَجِّحٍ أَصْلًا، وليس عندَهم في الأجسامِ طبائعُ وقُوًى تكونُ أسبابًا لحركاتِها، ولا في العينِ قُوَّةٌ امتازَتْ بها على الرِّجْلِ [يُبْصَرُ بها][٤] ولا في القلْبِ قُوَّةٌ يُعْقَلُ بها امتازَ بها على الظَّهْرِ، بل خَصَّ سبحانَه أحدَ الجسمينِ بالرؤيةِ والعقلِ والذوْقِ تَخصيصًا لِمِثلٍ على مِثلٍ بلا سَبَبٍ أصلًا ولا حِكمةٍ، فهؤلاءِ لم يُثْبِتُوا له كَمالَ الْحَمْدِ، كما لم يُثْبِتْ له أولئك كَمالَ الْمُلْكِ، وكِلا القولينِ مُنْكَرٌ عندَ السلَفِ وجُمهورِ الأُمَّةِ، ولهذا كان مُنْكِرو الأسبابِ والقُوى والطبائعِ يَقولون: العقلُ نوعٌ من العلومِ الضَّروريَّةِ، كما قالَه القاضيان: أبو بكرِ بنُ الطَّيِّبِ[٥]، وأبو يَعْلَى بنُ الفَرَّاءِ[٦] وأتباعُهما، وقد نَصَّ أحمدُ على أنه غَريزةٌ، وكذلك الحارثُ الْمُحَاسِبِيُّ[٧] وغيرُهما[٨]، وأولئك لا يُثْبِتُون غَريزةً ولا قُوَّةً ولا طَبيعةً ولا

القولُ في العقلِ

---

(١) في (س) لأن، وهو تصحيف، ، والصواب المثبت.
(٢) في (ك) و(س) نشأ.
(٣) في (ك) و(س) بل لا، والصواب المثبت.
(٤) في (ع) ببصيرتها.
(٥) محمد بن الطيب بن محمد القاضي، أبو بكر الباقلاني البصري البغدادي، المالكي الأصولي المتكلم، صنف في الرد على الفرق الضالة كالرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرامية، وانتصر لطريقة الأشاعرة، وانتهت إليه الرئاسة في مذهبهم، من مؤلفاته: «الانتصار» و«كشف أسرار الباطنية» و«تمهيد الدلائل» و«دقائق الحقائق». توفي سنة(٤٠٣هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٧٩ - ٣٨٢ت٢٩٠٦)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢٩٦ - ٢٧٠ت٦٠٨).
(٦) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء، أبو يعلى، الحنبلي عالم عصره وفقيه زمانه، ولاه القائم العباسي قضاء دار الخلافة والحريم وحران وحلوان، اشترط عليهم شرائط من أجل أن يلي القضاء منها: أنه لا يحضر أيام المواكب، ولا يخرج في الاستقبالات، ولا يقصد دار السلطان، وله من المؤلفات كتاب: «أحكام القرآن» و«مسائل الإيمان» و«الرد على الجهمية» و«الكلام في الاستواء»، توفي سنة (٤٥٨هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٥٦ت٢٧٣٠)، «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٩٣ - ٢٣٠ت١٩٣).
(٧) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، من أكابر مشايخ الصوفية، زاهد واعظ، له ردود على المعتزلة وغيرهم، هجره الإمام أحمد وحذر من مجالسته لخوضه في علم الكلام، له مصنفات منها: «رسالة المسترشدين» و«الرعاية لحقوق الله» توفي سنة (٢٤٣هـ). انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٥٦ - ٦٠ت٦)، و«حلية الأولياء» (١٠/ ٧٣ - ١١٠ت (٤٦٥).
(٨) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العقل في لغة العرب يتناول العلم والعمل بالعلم جميعا، ومن أهل الكلام =

سَبَبًا، وأَبْطَلوا مُسَمَّيَاتِ هذه الأسماءِ جُملةً، وقالوا: إنَّ ما في الشريعةِ من المصالِحِ والْحِكَمِ لم يُشَرِّعِ الربُّ سبحانَه ما شَرَعَ من الأحكامِ لأَجْلِها، بل اتَّفَقَ اقترانُها بها أَمْرًا[(١)] اتِّفَاقِيًّا، كما قالوا نَظيرَ ذلك في المخلوقاتِ سواءٌ، والعِلَلُ عندَهم أماراتٌ مَحْضَةٌ لِمُجَرَّدِ الاقترانِ الاتِّفاقيِّ.

وهم فريقان:

أحدُهما: لا يُعَرِّجون على الْمُناسباتِ ولا يُثْبِتُون العِلَلَ بها أَلْبَتَّةَ، وإنما يَعتَمِدُون على تأثيرِ العِلَّةِ بنصٍّ أو إجماعٍ، فإنْ فُقِدَا فَزَعُوا إلى الأَقْيِسَةِ الشَّبَهِيَّةِ.

والفريقُ الثاني: أَصْلَحُوا الْمَذْهَبَ بعضَ الإصلاحِ، وقَوَّمُوه[(٢)] بعضَ الشيءِ، وأَزالوا تلكَ النَّفْرَةَ عنه، فأَثْبَتُوا الأحكامَ بالعِلَلِ، والعِلَلَ بالْمُناسَباتِ والْمَصالِحِ، ولم يُمْكِنْهم الكلامُ في الفِقْهِ إلا بذلك، ولكن جَعَلُوا اقترانَ أحكامِ تلك العِلَلِ والْمُناسَباتِ بها اقترانًا عاديًّا غيرَ مَقصودٍ في نفسِه، والعِلَلَ والْمُناسَبَاتِ أَماراتِ ذلك الاقترانِ. وهؤلاءِ يَسْتَدِلُّون على إثباتِ عِلْمِ الربِّ - تعالى - بما في مخلوقاتِه من الإحكامِ والإتقانِ والْمَصالِحِ، وهذا تَناقُضٌ [بَيِّنٌ منهم][(٣)]؛ فإنَّ ذلك إنما يَدُلُّ إذا كان الفاعلُ يَقْصِدُ أن يَفعلَ الفعلَ على وَجْهٍ مَخصوصٍ لأَجْلِ الحِكمةِ المطلوبةِ منه، وأَمَّا مَن لَمْ يَفْعَلْ لأَجْلِ ذلك الإحكامِ والإتقانِ، وإنما اتَّفَقَ اقترانُه بمفعولاتِه عادةً؛ فإنَّ ذلك الفِعْلَ

= من يجعله اسما لنوع من العلم فقط، فيقول: هو نوع من العلوم الضرورية، ومن الناس من يريد به العمل بالعلم فقط كما ذكره أبو البركات، وقد يراد بالعقل القوة التي في الإنسان وهي الغريزة التي بها يحصل له ذلك العلم والعمل به، ولهذا كان في كلام السلف كأحمد والحارث المحاسبي وغيرهما اسم العقل يتناول هذه الغريزة، ومن أنكر الغرائز والطبائع والقوى التي في الأعيان، وقال: إن القادر المختار يحدث جميع الحوادث بمجرد المشيئة التي ترجح أحد المتماثلين على الآخر لا بمرجح، كما يقوله أبو الحسن الأشعري ومن وافقه كالقاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي أبي الحسن بن الزاغوني، وأبي بكر بن عربي وغيرهم، فإن هؤلاء لا يجعلون اسم العقل إلا لنوع من العلوم الضرورية؛ إذ ليس عندهم طبيعة تكون بها العلوم والإرادات، وليس عندهم في الموجودات أسباب تحصل بها الحوادث، ولا يترجح حادث على حادث لمعنى فيه. «الصفدية» (٢/ ٢٥٧). وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٥٠)، و«الاستقامة» (٢/ ١٦١ - ١٦٢).

(١) ساقطة من (س). (٢) في (ع) و(ك) و(س) قربوه.

(٣) في (ع) من مذهبهم، والصواب هو المثبت؛ لتناسق السياق.

لا يَدُلُّ على العِلْمِ، ففي أفعالِ الحيواناتِ من الإحكامِ والإتقانِ والْحِكَمِ ما هو معروفٌ لِمَنْ تَأَمَّلَه، ولكن لَمَّا لم تكنْ تلك الْحِكَمُ والْمَصالِحُ مَقصودةً بها[١]؛ لم[٢] تَدُلَّ على عِلْمِها.

والمقصودُ أنَّ هؤلاءِ إذا قالوا: إنه - تعالى - لا يَفعلُ لِحِكْمَةٍ؛ امْتَنَعَ عندَهم أن يكونَ الإحكامُ دَليلًا على العِلْمِ، وأيضًا فعلى قولِهِم يَمْتَنِعُ أن يُحْمَدَ على ما فَعَلَه؛ لأنَّ ما حَصَلَ للعِبادِ من نَفْعٍ فهو سبحانَه لم يَقْصِدْ بما خَلَقَه نَفْعَهُم، ولا خَلَقَه لنَفْعِهم ومَصالِحِهم، بل إنما أَرادَ مُجَرَّدَ وُجودِه لا لأَجْلِ كذا، ولا لنَفْعِ أحدٍ، ولا لضَرِّه، فكيف يُتَصَوَّرُ في حقِّ مَن يكونُ فِعْلُه لذلك[٣] حَمْدًا؟ فلا يُحْمَدُ على فِعْلِ عَدْلٍ، ولا على تَرْكِ ظُلْمٍ؛ لأنَّ الظُّلْمَ - عندَهم - هو الْمُمْتَنِعُ الذي لا يَدْخُلُ في المقدورِ، وذلك[٤] لا يُمْدَحُ أحدٌ على تَرْكِه، وكلُّ ما أَمْكَنَ وُجودُه فهو عندَهم عَدْلٌ، فالظُّلْمُ[٥] مستحيلٌ عندَهم؛ إذ هو عِبارةٌ عن الممتَنِعِ المستحيلِ لذاتِه الذي لا يَدْخُلُ تحتَ المقدورِ، ولا يُتَصَوَّرُ فيه تَرْكٌ اختياريٌّ فلا يَتَعَلَّقُ به حَمْدٌ، وإخبارُه تعالى عن نفسِه بقِيامِه بالقِسْطِ حقيقتُه - عندَهم - مُجَرَّدُ كونِه فاعلًا، لا أنَّ هناك شيئًا هو قِسْطٌ في نفسِه يُمْكِنُ وُجودُ ضِدِّه، وكذلك قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٦] نَفْيٌ عندَهم لِمَا هو مُستحيلٌ في نفسِه لا[٦] حقيقةٌ له، كجَعْلِ الجسْمِ في مَكانينِ في آنٍ واحدٍ، وجَعْلِه مَوجودًا مَعدومًا في آنٍ واحدٍ، فهذا ونحوُه - عندَهم - هو الظُّلْمُ الذي تَنَزَّه عنه. وكذلك قولُه: **«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا بَيْنَكُم، فَلا تَظَالَمُوا»**[٧] فَالَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِه هُوَ الْمُسْتَحِيلُ الْمُمْتَنِعُ لِذَاتِهِ؛ كَالْجَمْعِ بَيْنِ النَّقِيضَيْنِ، وليس هناك مُمْكِنٌ يكونُ ظُلْمًا في نفسِه، وقد حَرَّمَه على نفسِه، ومعلومٌ أنه لا يُمْدَحُ الممدوحُ بتَرْكِ ما لو أرادَه لم يَقْدِرْ عليه[٨].

وأيضًا فإنه قالَ: **«وَجَعَلْتُه مُحَرَّمًا بَيْنَكُمْ»** فالذي حَرَّمَه على نفسِه هو الذي جَعَلَه مُحَرَّمًا بينَ عِبادِه، وهو الظلْمُ الْمَقدورُ الذي يَسْتَحِقُّ تاركُه الحمدَ والثناءَ، والذي أَوْجَبَ لهم هذا مُنَاقَضَةُ القَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، ورَدُّ أصولِهم، وهَدْمُ قَواعِدِهم، ولكن

(١) في(ك) و(س) و(ع) لها. (٢) ساقطة من (س).
(٣) في (ك) و(س) ذلك. (٤) في (س) لأن ذلك. (٥) في (ع) والظلم.
(٦) في (ك) ولا. (٧) رواه مسلم (١٦/ ١٠٢ح٢٥٧٧ نووي).
(٨) انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٥٠٦ - ٥٠٧)، و«شفاء العليل» (٢/ ٧٥٣ - ٧٥٤).

رَدُّوا باطلًا بباطلٍ، وقابَلُوا بِدْعَةً ببِدعةٍ وسَلَّطُوا عليهم خُصُومَهُم بما الْتَزَمُوه من الباطلِ، فصارَت الغَلَبَةُ بينَهم وبينَ خُصُومِهم سِجَالًا؛ مَرَّةً يَغْلِبُون، ومَرَّةً يُغْلَبون، لم يَسْتَقِرَّ لهم نُصْرَةٌ، وإنما النُّصرةُ التامَّةُ[(١)] لأهلِ السنَّةِ الْمَحْضَةِ الذين لم يَتَحَيَّزُوا إلى فئةٍ غيرِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم يَلْتَزِمُوا شيئًا[(٢)] غيرَ ما جاءَ به، ولم يُؤَصِّلُوا أَصْلًا ببدعةٍ يُسَلِّطُون عليهم به خُصومَهم، بل أَصْلُهم ما دَلَّ عليه كتابُ اللهِ وكلامُ رسولِه، وشَهِدَتْ به الفِطَرُ[(٣)] والعقولُ.

فصلٌ

والمقصودُ بيانُ شُمولِ حَمْدِه - تعالى - وحِكْمَتِه لكلِّ ما يُحْدِثُه من إحسانٍ ونِعمةٍ وامتحانٍ وبَلِيَّةٍ، وما يَقْضِيه من طاعةٍ ومَعصِيَةٍ، وأنه سبحانه محمودٌ على ذلك مشكورٌ، حَمْدَ المدْحِ وحَمْدَ الشكْرِ.

الحمدُ حَمْدَانِ: حَمْدُ مِدْحَةٍ وحمْدُ شُكْرَانٍ

أمَّا حَمْدُ المدحِ: فإنه مَحمودٌ على كلِّ ما خَلَقَ؛ إذ هو ربُّ العالمينَ، والحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

وأمَّا حَمْدُ الشكرِ: فَلأنَّ[(٤)] ذلك كلَّهُ نِعمةٌ في حقِّ المؤمنِ إذا اقْتَرَنَ بواجبِه.

فالإحسانُ[(٥)] والنعمةُ إذا اقْتَرَنَتْ بالشكْرِ؛ صارتْ نِعمةً، والامتحانُ والبَلِيَّةُ إذا اقْتَرَنا بالصبرِ كانا[(٦)] نِعمةً، والطاعةِ[(٧)] فمِنْ أجلِّ نِعمه.

وأمَّا الْمَعصيةُ فإذا اقْتَرَنتْ بواجبِها من التوبةِ والاستغفارِ والإنابةِ والذلِّ والخضوعِ؛ فقد تَرَتَّبَ عليها من الآثارِ المحمودةِ، والغاياتِ المطلوبةِ ما هو نِعمةٌ أيضًا، وإن كان سببُها مَسخوطًا مَبغوضًا للربِّ - تعالى - ولكنه يُحِبُّ ما يَترتَّبُ[(٨)] عليها من التوبةِ والاستغفارِ، وهو سبحانَه أَفْرَحُ بتوبةِ عبدِه من الرجُلِ إذا أَضَلَّ راحلتَه بأرضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ، عليها طَعامُه وشرابُه، فأَيِسَ منها ومن الحياةِ، فنامَ ثم استَيْقَظَ، فإذا بها قد تَعَلَّقَ خِطَامُها في أصلِ شجرةٍ، فجاءَ حتى أَخَذَها، فاللهُ أَفْرَحُ بتوبةِ العبدِ حينَ يَتوبُ

---

(١) في (ك) الثابتة، وفي (س) الثانية.
(٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) في (ك) و(س) الفطرة، والمناسب للسياق المثبت.
(٤) في (ع) فإن.
(٥) في (ع) و(ك) و(س) والإحسان، والصواب المثبت.
(٦) في (ع) صارا.
(٧) في (ع) وأما الطاعة.
(٨) في (ك) ترتب.

إليه من هذا براحلتِه، فهذا الفرَحُ العظيمُ الذي لا يُشْبِهُه شيءٌ أَحَبُّ إليه سبحانَه من عَدَمِه، وله أسبابٌ ولوازمُ لا بدَّ منها، وما يَحْصُلُ بتقديرِ عدَمِه من الطاعاتِ وإن كان مَحبوبًا له، فهذا الفرحُ أَحَبُّ إليه بكثيرٍ، ووُجودُه بدونِ لازِمِه مُمتنِعٌ، فله من الحكمةِ في تقديرِ أسبابِه ومُوجباتِه حكمةٌ بالغةٌ، ونعمةٌ سابغةٌ.

هذا بالإضافةِ إلى الربِّ - جلَّ جلالُه -، وأمَّا بالإضافةِ إلى العبدِ؛ فإنه قد يكونُ كمالُ عبُوديَّتِه وخضوعِه مَوقوفًا على أسبابٍ لا تَحْصُلُ بدونِها، فتقديرُ الذنْبِ عليه إذا اتَّصَلَ به التوبةُ والإنابةُ والخضوعُ والذلُّ والانكسارُ ودوامُ الافتقارِ كان من النِّعَمِ باعتبارِ غايتِه وما يَعْقُبُه، وإن كان من الابتلاءِ والامتحانِ باعتبارِ صورتِه ونفسِه.

والربُّ تعالى مَحمودٌ على الأمرينِ؛ فإن اتَّصَلَ بالذنبِ الآثارُ المحبوبةُ[1] للربِّ سبحانه من التوبةِ والإنابةِ والذلِّ والانكسارِ؛ فهو عينُ مصلحةِ العبدِ، والاعتبارُ بكمالِ النهايةِ لا يَنْقُصُ[2] البدايةَ، وإن لم يَتَّصِلْ به ذلك، فهذا لا يكونُ إلا من خُبثِ نفسِه وشرِّه وعدَمِ استعدادِه لمجاورةِ رَبِّه بينَ الأرواحِ الزكيَّةِ الطاهرةِ في الملإِ الأعلى.

ومعلومٌ أنَّ هذه النفسَ فيها من الشرِّ[3] والْخُبْثِ ما فيها، فلا بدَّ من خروجِ ذلك منها من القُوَّةِ إلى الفعلِ؛ ليَتَرَتَّبَ على ذلك الآثارُ المناسِبةُ لها، ومُساكنةُ مَن تليقُ مُساكنتُه، ومُجاورةُ الأرواحِ الخبيثةِ في الْمَحَلِّ الأسفَلِ، فإنَّ هذه النفوسَ إذا كانت مُهَيَّأَةً لذلك، فمِن الحكمةِ أن تَستخرِجَ منها الأسبابَ التي تُوَصِّلُها إلى ما هي مُهَيَّأَةٌ له، ولا يَليقُ بها سواهُ، والربُّ تعالى محمودٌ على ذلك أيضًا، كما هو محمودٌ على إنعامِه وإحسانِه على أهلِ الإحسانِ والإنعامِ القابلينَ له، فما كلُّ أحدٍ قابلًا لنِعْمَتِه تعالى؛ فحمدُه وحِكمتُه تَقتضِي أن لا يُودِعَ نِعَمَه[4] وإحسانَه وكُنوزَه في مَحَلٍّ غيرِ[5] قابلٍ لها.

خلقُ الأضدادِ مؤْذِنٌ بعظيمِ حِكمةِ الربِّ

ولا يَبْقَى إلا أن يُقالَ: فما الحِكمةُ في خَلْقِ هذه الأرواحِ التي هي غيرُ قابلةٍ لِنعمتِه؟ فقد تَقَدَّمَ[6] من الجوابِ عن[7] ذلك ما فيه كفايةٌ، وأنَّ خَلْقَ الأضدادِ والمتقابِلاتِ[8]

(١) في (ع) المحمودة.
(٢) في (س) بنقص.
(٣) في(س) الشرك، والصواب المثبت؛ لأنه المقتضي للسياق.
(٤) في (س) حمده، والصواب المثبت.
(٥) في (س) غيره، والصواب المثبت.
(٦) ص(٢٤١) وما بعدها.
(٧) في (س) من، والصواب المثبت.
(٨) في (ك) و(س) والمقابلات، والمثبت أصح.

موقفُ المؤمنِ من الحوادثِ

وترتيبَ آثارِها عليها من(١) مُوجِبِ رُبوبيَّتِه وحِكمتِه وعِلْمِه وعزَّتِه، وأنَّ تقديرَ عَدَمِ ذلك هَضْمٌ من جانبِ الربوبيَّةِ.

وأيضًا: فإنَّ هذه الحوادثَ نِعمةٌ في حقِّ المؤمنِ؛ فإنها إذا وَقَعَتْ فهو مأمورٌ أن يُنْكِرَها بقَلْبِه ويدِه ولسانِه، أو بقلبِه ولسانِه فقط، أو بقلبِه فقط، ومأمورٌ أن يُجاهِدَ أربابَها بحسَبِ الإمكانِ، فيَتَرتَّبُ(٢) له على الإنكارِ والجهادِ من مصالحِ قلبِه ونفسِه وبَدَنِه ومصالحِ دنياه وآخِرَتِه ما لم يكنْ يُنالُ بدونِ ذلك.

من حِكَمِ تَمكينِ أهلِ الكفْرِ

والمقصودُ بالقصْدِ الأوَّلِ إتمامُ نِعمتِه تعالى على أوليائِه ورُسُلِه وخاصَّتِه، فاستعمالُ أعدائه فيما تكْمُلُ به النعمةُ على أوليائِه غايةُ الحكمةِ، وكان في تَمْكِينِ أهلِ الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ من ذلك إيصالُ أوليائِه(٣) إلى الكمالِ الذي يَحْصُلُ لهم بِمُعاداةِ هؤلاءِ وجهادِهم والإنكارِ عليهم، والْمُوالاةِ فيه والمعاداةِ فيه، وبذْلِ نفوسِهم وأموالِهم وقُواهُم له، فإنَّ تَمامَ العُبوديَّةِ لا يَحْصُلُ إلا بالمحبَّةِ الصادقةِ، وإنما تكونُ المحبَّةُ صادقةً إذا بَذَلَ فيها المحِبُّ ما يَمْلِكُه من مالٍ ورياسةٍ وقُوَّةٍ في مَرضاةِ محبوبِهِ والتقرُّبِ إليه، فإنْ بَذَلَ له روُحَه كان هذا أعلى درجاتِ المحبَّةِ(٤).

الآثارُ المحمودةُ لخلقِ الأضدادِ

ومن المعلومِ أنَّ من لوازِمِ ذلك - التي لا تَحصُلُ إلا بها - أن يَخْلُقَ ذواتًا وأسبابًا وأعمالًا وأخلاقًا وطبائعَ تَقتضِي مُعاداةَ مَن يُحِبُّه، ويُؤْثِرُ مَرضاتَه لها، وعندَ ذلك تَتَحقَّقُ المحبَّةُ الصادقةُ من غيرِها، فكلُّ أحدٍ يُحِبُّ الإحسانَ والراحةَ والدَّعَةَ واللَّذَّةَ، ويُحِبُّ من يُوَصِّلُ إليه ذلك ويُحَصِّلُه له، ولكنَّ الشأنَ في أمرٍ وراءَ هذا وهو مَحَبَّتُه سبحانَه ومَحَبَّةُ ما يُحِبُّه مما هو أكرَهُ شيءٍ إلى النفوسِ، وأشقُّ شيءٍ عليها مما لا يُلائِمُها، فعندَ

(١) ساقطة من (ك) و(س). (٢) في (س) فترتب، والصواب المثبت.

(٣) ساقطة من (ك) و(س).

(٤) وكأن ابن القيم رحمه الله ينظر إلى بعض أبناء قومنا الذين أصابهم الهلع والخور، واستبطاء نصر الله، ولم يستحضروا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: الآية ٢١٤]، وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ١٤١]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٤٢] فيمموا جحر الضب يلتمسون رضا ممن لا يقبلون ثمنا إلا اتباع ملتهم وتناسوا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: الآية ١٢٠].

حصولِ أسبابِ ذلك يَتَبَيَّنُ مَن يُحِبُّ اللهَ لذاتِه، ويُحِبُّ ما يُحِبُّ، ممَّن[١] يُحِبُّه لأَجْلِ مَخلوقاتِه فقط من المأكَلِ والْمَشرَبِ والْمَنْكَحِ والرياسةِ، فإن أُعْطِيَ منها رَضِيَ، وإن مُنِعَها سَخِطَ، وعَتَبَ على ربِّه، ورُبَّما شكاه، وربما تَرَكَ عِبادتَه، فلولا خَلْقُ الأضدادِ، وتسليطُ أعدائِه وامتحانُ أوليائِه بهم[٢]؛ لم يَسْتَخْرِجْ خالصَ[٣] العبوديَّةِ من عَبيدِه الذين هم عَبيدُه، ولم يَحْصُلْ لهم عُبوديَّةُ الموالاةِ فيه والْمُعاداةِ فيه، والحبِّ فيه والبُغْضِ فيه، والعطاءِ له والْمَنْعِ له، ولا عُبُودِيَّةُ بذلِ الأرواحِ والأموالِ والأولادِ والقُوَى في[٤] جهادِ أعدائه ونُصْرَتِه، ولا عُبوديَّةُ مُفارَقَةِ الناسِ أحوجَ ما يكونُ إليهم - عبدُه[٥] - لأَجْلِه و[٦] في مَرضاتِه، فلا[٧] يَتَحَيَّزُ إليهم وهو يَرَى محابَّ نفسِه ومَلاذَّها بأيديهم، فيَرْضَى بِمُفارقتِهم ومُشاقَقَتِهم وإيثارِ مَوْلاه[٨] الحقِّ عليهم، فلولا الأضدادُ والأسبابُ التي تُوجِبُ ذلك، لم تَحْصُلْ هذه الآثارُ.

من حِكَمِ تسليطِ الشهوةِ والغضبِ على العبدِ

وأيضًا فلولا تسليطُ الشهوةِ والغضَبِ ودواعيهما على العبدِ، لم تَحْصُلْ له فضيلةُ الصبرِ وجِهادِ النفسِ ومَنْعِها من حُظوظِها[٩] وشَهَواتِها مَحَبَّةً للهِ، وإيثارًا لِمَرضاتِه، وطَلَبًا للزُّلْفَى لديه والقرْبِ منه.

وأيضًا فلولا ذلك لم تكنْ هذه النشأةُ الإنسانيَّةُ إنسانيَّةً[١٠]، بل كانت ملَكِيَّةً؛ فإنَّ اللهَ سبحانه خَلَقَ خَلْقَه أطْوارًا:

المفاضلةُ بين المخلوقاتِ

فخلقَ الملائكةَ عُقولًا لا شهواتِ لها، ولا طَبِيعَةَ تَتَقاضَى منها خِلافَ ما يُرادُ منها، من مَادَّةٍ نُورِيَّةٍ لا تَقْتَضِي شيئًا من الآثارِ والطبائعِ المذمومةِ.

وخَلَقَ الحيواناتِ ذواتِ شهواتٍ لا عُقولَ لها.

وخَلَقَ الثَّقَلَيْنِ: الجِنَّ والإنسَ، ورَكَّبَ فيهم العقولَ والشهواتِ والطبائعَ المختلِفَةَ، الْمُقتضيةَ[١١] لآثارٍ مُختلِفَةٍ بحسَبِ موادِّها وصُوَرِها وتركيبِها.

---

(١) في (س) فمن، والصواب المثبت.
(٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) في (ك) و(س) خاص، وهو تصحيف.
(٤) في (ك) (وجهاد) بدلا من (في جهاد) والصواب المثبت.
(٥) في (ك) و(س) عنده، وهو تصحيف.
(٦) ساقطة من (ك) و(س).
(٧) في (ك) ولا.
(٨) في (ع) موالاة.
(٩) في (ك) و(س) خوضها، وهو تصحيف.
(١٠) ساقطة من (س).
(١١) ساقطة من (س).

وهؤلاءِ هم أهلُ الامتحانِ والابتلاءِ، وهم[(١)] الْمُعَرَّضُون للثوابِ والعقابِ، ولو شاءَ سبحانَه لجَعَلَ خَلْقَه على طبيعةٍ واحدةٍ[(٢)] وخَلْقٍ واحدٍ، ولم يُفَاوِتْ بينَهم، لكن ما فَعَلَه سبحانَه هو مَحْضُ الحكمةِ، ومُوجَبُ الربوبيَّةِ، ومُقْتَضى الإلهيَّةِ، ولو كان الخلْقُ كلُّه طبيعةً واحدةً ونَمَطًا واحدًا؛ لوَجَدَ الْمُلْحِدُ مَقالًا وقالَ: هذا مُقْتَضَى الطبيعةِ، ولو كان فاعلًا بالاختيارِ؛ لتنَوَّعَتْ أفعالُه ومفعولاتُه، ولفَعَلَ الشيءَ وضِدَّهُ، والشيءَ وخِلافَه.

مناقشةُ أهلِ الطبيعةِ

وكذلك لولا شُهودُ هذه الحوادثِ المشهودةِ؛ لوَجَدَ الملحِدُ أيضًا مَقالًا وقالَ: لو كان لهذا العالَمِ خالِقًا مُختارًا؛ لوُجِدَتْ فيه[(٣)] الحوادثُ على حَسَبِ إرادتِه واختيارِه، كما رُوِيَ عن[(٤)] الحسنِ أو[(٥)] غيرِه قالَ: «كان أصحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ يقولون: جَلَّ رَبُّنا القديمُ[(٦)(٧)]؛ [لو][(٨)] لم يَتَغَيَّرْ هذا الخلْقُ؛ لقالَ الشاكُّ في اللهِ: لو كان لهذا العالَمِ خالقٌ لحادَثَه[(٩)]، بَيْنَا هو ليلٌ إذ جاءَ نهارٌ، و[(١٠)] بَيْنَا هو نهارٌ إذ جاءَ ليلٌ، وبَيْنَا[(١١)] هو صَحْوٌ إذ جاءَ غَيْمٌ، و[(١٢)] بَيْنَا هو غَيْمٌ إذ جاءَ صَحْوٌ، ونحوَ هذا من الكلامِ[(١٣)].

أقسامُ النوعِ الإنساني من حيثُ النشأةُ، والحكمةُ من ذلك

ولهذا يَسْتَدِلُّ سبحانَه في كتابِه بالحوادثِ تارةً وباختلافِها تارةً؛ إذ هذا وهذا مُستلزِمٌ[(١٤)] لرُبوبيَّتِه وقُدْرَتِه واختيارِه ووقوعِ[(١٥)] الكائناتِ على وَفْقِ مَشيئتِه، فتَنَوُّعُ أفعالِه ومَفعولاتِه من أعظمِ الأدِلَّةِ على رُبوبيَّتِه وحِكمتِه وعِلْمِه.

ولهذا سبحانه خَلَقَ النوعَ الإنسانيَّ أربعةَ أقسامٍ:

أحدُها: لا مِن ذَكَرٍ ولا أنثى، وهو خَلْقُ أبيهِم وأَصْلِهِم آدَمَ.

---

(١) ساقطة من (ك). (٢) ساقطة من (ك) و(س). (٣) ساقطة من (س).

(٤) ساقطة من (ك). (٥) في (س) (وغيره) بدلا من (أو غيره).

(٦) لم يرد في أسماء الله «القديم» ولا يسمى الله به؛ لأن أسماء الله توقيفية، ولم يرد هذا الاسم لا في كتاب ولا سنة؛ كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله انظر: «منهاج السنة» (٢/ ١٢٣ - ١٣١، ٤٩٥) وإن كان يجوز الإخبار به عن الله. انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٥٩).

(٧) في (ع) (لو لم) وفي (ك) و(س) أنه لو لم. .

(٨) ما بين القائمين ليس في الأصل، والصواب إثباته. (٩) في (س) لجاذبه.

(١٠) ساقطة من (ك) و(س).

(١١) ساقطة من (ك) وفي (س) بينا. (١٢) ساقطة من (س).

(١٣) لم أجد هذا القول حسب جهدي. (١٤) في (ك) و(س) يستلزم.

(١٥) في (ك) و(س) زيادة: (كل).

الثاني: [١] خَلْقُهُ من ذَكَرٍ بلا أُنثى، كخَلْقِ أُمِّهِم حَوَّاءَ من ضِلَعٍ من أضلاعِ آدَمَ من غيرِ أن تَحْمِلَ بها أُنثى، أو يَشْتَمِلَ عليها بَطْنٌ.

الثالث: خَلْقُهُ من أُنثى بلا ذَكَرٍ، كخَلْقِ المسيحِ عيسى ابنِ مَريمَ صَلَّى اللهُ على نَبِيِّنا وعليه.

الرابعُ: خَلْقُهُ سائرِ النوعِ الإنسانيِّ من ذَكَرٍ وأُنثى.

وكُلُّ هذا ليَدُلَّ عِبادَه على كمالِ قُدرتِه، ونُفوذِ مَشيئتِه، وكمالِ حِكْمَتِه، وأنَّ الأمرَ ليس كما يَظُنُّه أعداؤُه الجاحِدونَ له، الكافرون به من أنَّ ذلك أمْرٌ طَبيعيٌّ لم يَزَلْ هكذا ولا يَزالُ، وأنه ليس للنوعِ أبٌ ولا أمٌّ، وأنه ليس [إلا أرحامٌ][٢] تَدْفَعُ، وأرضٌ[٣] تَبْلَعُ، وطبيعةٌ تَفعلُ ما يُرى ويُشاهَدُ، ولم يَعْلَمْ هؤلاءِ الْجُهَّالُ الضُّلَّالُ أنَّ الطبيعةَ قُوَّةٌ وصِفةٌ فقيرةٌ[٤] إلى مَحَلِّها، مُحتاجةٌ إلى حاملٍ لها، وأنها من أدلِّ الدلائلِ على وُجودِ مَن طَبَعَها وخَلَقَها، وأَوْدَعَها الأجسامَ، وجَعَلَ فيها هذه الأسرارَ العجيبةَ، فالطبيعةُ مخلوقٌ من مَخلوقاتِه، ومَملوكٌ من مَمَالِيكِه وعَبيدِه، مُسَخَّرَةٌ لأمْرِه، مُنقادَةٌ لمشيئتِه، ودَلائلُ الصَّنْعةِ وأماراتُ الخَلْقِ والحدوثِ وشواهدُ الفقرِ والحاجةِ شاهدٌ[٥] عليها بأنها مَخلوقةٌ مَصنوعةٌ، لا تَخْلُقُ ولا تَفعلُ ولا تَتصرَّفُ في ذاتِها ونفسِها، فَضْلًا عن إسنادِ الكائناتِ إليها.

تَنَوُّعُ المخلوقاتِ من لَوازمِ الحكمةِ والربوبية

والمقصودُ أنَّ تَنويعَ المخلوقاتِ واختلافَها من لَوازمِ الحكمةِ والرُّبوبيَّةِ والمُلْكِ، وهو أيضًا من[٦] مُوجِباتِ الحمدِ، فله الحمدُ على ذلك كُلِّه أكملَ[٧] حَمْدٍ وأَتَمَّه، وأيضًا فإنَّ[٨] مخلوقاتِه هي[٩] مُوجِباتُ أسمائِه وصفاتِه، فلكلِّ[١٠] اسمٍ وَصِفَةٍ أثرٌ لا بدَّ من ظُهورِه فيه[١١] واقتضائِه له، فيَمْتَنِعُ تعطيلُ آثارِ أسمائِه وصِفاتِه كما يَمتنِعُ تعطيلُ ذاتِه عنها، وهذه الآثارُ لها مُتعلِّقاتٌ ولوازِمُ يَمْتَنِعُ أن لا تُوجَدَ، كما تَقَدَّمَ التنبيهُ عليه.

---

(١) في (ك) زيادة: (أن).
(٢) في (س) الأرحام، والصواب المثبت.
(٣) في (س) والأرض.
(٤) في (ع) مفتقرة.
(٥) في (س) شاهدة.
(٦) في (س) زيادة: (ملك).
(٧) في (س) وكل، وهو تصحيف.
(٨) في (س) فإنه، والصواب المثبت.
(٩) في (ك) و(س) هو، والصواب المثبت.
(١٠) في (ك) فإن لكل.
(١١) ساقطة من (ع).

وأيضًا فإنَّ تنويعَ أسبابِ الحمدِ أمرٌ مطلوبٌ للربِّ تعالى، محبوبٌ له؛ فكُلَّما تَنَوَّعَت أسبابُ الحمدِ؛ تَنَوَّعَ الحمدُ بتَنَوُّعِهَا وكَثُرَ بكَثْرَتِها، ومعلومٌ أنه سبحانَه محمودٌ على [انتقامِه من أهلِ الإجرامِ والإساءةِ، كما هو محمودٌ على][1] إكرامِه لأهلِ العدلِ والإحسانِ، فهو محمودٌ على هذا وعلى هذا، مع ما يَتْبَعُ ذلك[2] من حَمْدِه على حِلْمِه وعَفْوِه ومَغفرتِه، وتَرْكِ حقوقِه، ومُسامحةِ خَلْقِه بها، والعفوِ عن كثيرٍ من جِناياتِ العبيدِ، فنَبَّهَهم باليسيرِ من عقابِه وانتقامِه على الكثيرِ الذي عَفَا عنه، وأنه لو عاجَلَهم بعُقوبتِه ووَاخَذَهم بحَقِّه؛ لقَضَى إليهم أَجَلَهم، ولَمَا تَرَكَ على ظَهْرِها من دَابَّةٍ، ولكنه سَبَقَتْ رَحمتُه غَضَبَه، وعَفْوُه انتقامَه، ومَغفرتُه عِقابَه، فله الحمدُ على عَفْوِه وانتقامِه، وعلى عَدْلِه وإحسانِه، ولا سبيلَ إلى تعطيلِ أسبابِ حَمْدِه ولا بَعْضِها.

فلْيَتَدَبَّر اللبيبُ هذا الموضِعَ حقَّ التدبُّرِ، ولْيُعْطِهِ حَقَّه؛ يُطْلِعُه على أبوابٍ عظيمةٍ[3] من أسرارِ القدَرِ، ويَهْبِطُ به على رياضٍ منه مُعَشَّبَةٍ، وحدائقَ مُونَّقَةٍ، واللهُ الْمُوَفِّقُ الهادي للصوابِ.

تنويعُ اللهِ جلَّ جَلالُه للأدِلَّةِ التي تُعَرِّفُ عِبادَه به

وأيضًا فإنَّ اللهَ سبحانَه نَوَّعَ الأدِلَّةَ الدالَّةَ عليه، والتي تُعرِّفُ[4] عبادَه به غايةَ التنوُّعِ[5]، وصرَّفَ الآياتِ وضربَ الأمثالَ، ليُقيمَ عليهم حُجَّتَه البالغةَ، ويُتِمَّ بذلك عَلَيْهِم[6] نِعمته السابغةَ، ولا يكونُ لأحدٍ بعدَ ذلك حُجَّةٌ عليه سبحانَه، بل الحُجَّةُ كلُّها له، والنعمةُ كلُّها له، والقُدرةُ كلُّها له، فأقامَ عليهم حُجَّتَه، ولو شاءَ لسَوَّى بينَهم في الهدايةِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩]، [فأَخْبَرَ أنَّ له الحجَّةَ البالغةَ][7]، وهي التي بَلَغَتْ إلى صميمِ القلبِ، وخالَطَت العقلَ واتَّحَدَتْ به، فلا يُمْكِنُ العقلَ دَفْعُها ولا جَحْدُها، ثم أَخْبَرَ أنه سبحانَه قادرٌ على هدايةِ خَلْقِه كلِّهم، ولو شاءَ ذلك لَفَعَلَه لكمالِ قُدرتِه ونُفوذِ مَشيئتِه، ولكنَّ حِكْمَتَه تَأْبَى ذلك، وعدلَه يَأْبَى تَعذيبَ أَحَدٍ وأَخْذَه بلا حُجَّةٍ، فأقامَ الْحُجَّةَ، وصرَّفَ الآياتِ، وضَرَبَ الأمثالَ، ونَوَّعَ الأدِلَّةَ، ولو كان الخلْقُ كلُّهم على طَرِيقةٍ واحدةٍ من الهدايةِ؛ لَمَا حَصَلَتْ هذه الأمورُ، ولا تَنَوَّعَتْ هذه الأَدِلَّةُ والأَمثالُ، ولا ظَهَرَتْ عِزَّتُه

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (س).
(٢) ساقطة من (س).
(٣) في (س) عظمته، والصواب المثبت.
(٤) في (ك) زيادة: (تعرف).
(٥) في(س) للنوع، والصواب المثبت.
(٦) تقديم وتأخير في (بذلك عليهم).
(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (س).

سبحانَه في انتقامِه من أعدائِه، ونَصْرِ أوليائِهِ عليهم، ولا حُجَجُه التي أقامَها على صِدْقِ أنبيائِه ورُسُلِه، ولا كان للناسِ ﴿ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] ولا كان للخَلْقِ آيةٌ باقيةٌ ما بَقِيَت الدنيا في شأنِ موسى وقومِه، وفرعونَ وقومِه، وفَلْقِ البحرِ لهم، ودخولِهم جميعًا فيه، ثم أَنْجى موسى وقومَه لم يَغْرَقْ منهم أَحَدٌ، وأَغْرَقَ فرعونَ وقومَه لم يَنْجُ منهم أَحَدٌ، فهذا التعرُّفُ إلى عِبادِه، وهذه الآياتُ وهذه العِزَّةُ والحكمةُ لا سبيلَ إلى تعطيلِها ألبَتَّةَ، ولا تُوجَدُ بدونِ لَوازِمِها.

وأيضًا فإنَّ حقيقةَ الْمُلْكِ إنما يَتِمّ بالعطاءِ والمنعِ، والإكرامِ والإهانةِ، والإثابةِ والعقوبةِ، والغضبِ والرضا، والتَّوْلِيَةِ والعزْلِ، وإعزازِ مَن يَليقُ به العزُّ، وإذلالِ مَن يَليقُ به الذلُّ، قالَ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

وقالَ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، يَغْفِرُ ذنبًا، ويُفرِّجُ كَرْبًا، ويَكْشِفُ غمًّا، ويَنْصُرُ مَظلومًا، ويأْخُذُ ظالمًا، ويَفُكُّ عانيًا، ويُغْنِي فقيرًا، ويَجْبُرُ كَسيرًا، ويَشْفِي مريضًا، ويُقيلُ عَثْرةً، ويَسْتُرُ عَورةً، ويُعِزُّ ذليلًا ويُذِلُّ عزيزًا، ويُعْطِي سائلًا، ويَذْهَبُ بدولةٍ، ويأتي بأُخرى، ويُداوِلُ الأيَّامَ بينَ الناسِ، ويَرْفَعُ أقوامًا، ويَضَعُ آخرينَ، يَسُوقُ المقاديرَ التي قَدَّرَها قبلَ خلْقِ السماواتِ والأرضِ بخمسينَ ألفَ عامٍ إلى مَواقيتِها، فلا يَتَقَدَّمُ شيءٌ منها عن وَقْتِه، ولا يَتَأَخَّرُ، بل كلٌّ منها قد أَحصاهُ[١] كتابُه، وجَرَى به قَلَمُه، ونَفَذَ فيه حُكمُه، وسَبَقَ به عِلْمُه، فهو المتصرِّفُ في الْمَمَالِك كلِّها وَحدَه تَصَرُّفَ مَلِكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحيمٍ، تامِّ الْمُلْكِ، لا يُنازِعُه في مُلْكِه مُنازِعٌ، ولا يُعارِضُه فيه مُعارِضٌ، فتَصَرُّفُه في الْمَمْلَكَةِ دائرٌ بينَ العدلِ والإحسانِ، والحكمةِ والمصلحةِ والرحمةِ، فلا يَخْرُجُ تَصَرُّفُه عن ذلك.

وفي تفسيرِ الحافظِ أبي بكرٍ أحمدَ بنِ موسى بنِ مَرْدَوَيْهِ[٢] مِن حديثِ

---

(١) في (ك) و(س) زيادة: (كما أحصاه كتابه).

(٢) الحافظ: أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك الأصبهاني، سمع بأصبهان والعراق، كان إماما عالما =

الحمَّانيِّ(١)، ثنا إسحاقُ بنُ سليمانَ(٢)، عن مُعاويةَ بنِ يَحْيَى(٣)، عن يُونسَ بنِ مَيسرةَ(٤)، عن أبي إدريسَ(٥)، عن أبي الدرداءِ أنه سُئِلَ عن قولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩] فقالَ: «سُئِلَ عنها رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ**»(٦).

وفيه أيضًا من حديثِ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ(٧)، ....

= محدثا متقنا، صاحب «التفسير الكبير» و«التاريخ» توفي سنة (٤١٠هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٣٠٨ - ٣١١ت١٨٨)، «شذرات الذهب» (٥/ ٧٥).

(١) يحيى بن عبد الحميد الحماني الكوفي، روى عن شريك وطبقته، وثقه ابن معين، قال أحمد: كان يكذب جهارا، وضعفه النسائي، وقال الذهبي: شيعي بغيض. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٩٢ - ٣٩٣ت٩٥٦٧).

(٢) إسحاق بن سليمان الرازي كوفي نزل الري، روى عن مالك وابن أبي ذئب، وعنه أحمد بن حنبل وابن نمير، وثقه العجلي والنسائي وابن سعد والحاكم، توفي (سنة١٩٩هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥ت٤٣٦).

(٣) معاوية بن يحيى الصدفي الدمشقي، روى عن الزهري ويونس بن ميسرة، وعنه إسحاق بن سليمان الرازي وعيسى بن يونس، قال يحيى بن معين: هالك ليس بشيء، وقال أبو حاتم: ضعيف، وضعفه أبو داود والنسائي. انظر: «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢١٩ - ٢٢٠ت٤٠٢)

(٤) يونس بن ميسرة بن حلبس الدمشقي الأعمى، روى عن واثلة بن الأسقع وأبي إدريس الخولاني، وعنه معاوية بن يحيى الصدفي والأوزاعي، وثقه ابن سعد والعجلي والدارقطني وغيرهم، قتل سنة (١٣٢هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤٤٨ت٨٦٥).

(٥) عائذ الله بن عبد الله أبو إدريس الخولاني، ولد يوم حنين، وسمع من كبار الصحابة، روى عن عمر وأبي الدرداء، وعنه الزهري ويونس بن ميسرة، عالم الشام وفقيهها، توفي سنة (٨٠هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٧٢ - ٢٧٧ت٩٩)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٨٥ - ٨٧ت١٤١).

(٦) رواه أحمد بن عمرو بن الضحاك في «الآحاد والمثاني» من حديث عبد الله بن منيب (٤/ ٢٩٥ح٢٣١٦) والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٧٨ح٣١٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٥ - ٣٦) - ح١١٠١) والبخاري تعليقا - كتاب التفسير -موقوفا على أبي الدرداء (٨/ ٤٨٧) فتح)، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (ص١٢٩ - ١٣٠ح٣٠١)، وابن حبان (٢/ ٤٦٤ح٦٨٩). وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٣٢) وتصحيح الألباني له بعد أن ذكر له طرقا في «كتاب السنة» ومعه «ظلال الجنة» (ص١٣٠).

(٧) حماد بن سلمة بن دينار البصري، مولى ربيعة بن مالك، روى عن ابن أبي مليكة وثابت وأبي زيد، وعنه مالك وشعبة، وكان ثقة له أوهام، قال أحمد: هو أعلم الناس بحديث خاله حميد. وقال ابن معين: هو =

حدَّثنا الزُّبيرُ أبو[١] عبدِ السلامِ[٢]، عن أيُّوبَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ مكرزٍ[٣]، عن أبيه، قالَ: قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: «إنَّ ربَّكم ﷻ ليس عندَه ليلٌ ولا نهارٌ، نُورُ السماواتِ من نُورِ وَجْهِه، أيَّامُكم عندَه ثِنْتَا عشرةَ ساعةً؛ تُعْرَضُ عليه أعمالُكم بالأمْسِ ثلاثَ ساعاتٍ من أوَّلِ النهارِ، فيَطَّلِعُ منها على ما يَكْرَهُ فيَغْضَبُ، فيكونُ أوَّلُ مَن يَعْلَمُ بغَضَبِه حَمَلَةَ العَرْشِ، فتُسَبِّحُ حَمَلَةُ العرشِ وسُرادقاتُ العَرْشِ، والملائكةُ الْمُقَرَّبونَ وسائرُ الملائكةِ، ويَنْفُخُ جِبريلُ في القَرْنِ فلا يَبْقَى خلْقٌ للهِ في السماواتِ ولا في الأرضِ إلا سَمِعَه إلا الثَّقَلَيْنِ، ويُسَبِّحُونَه ثلاثَ ساعاتٍ حتى يَمْتَلِئَ الرحمنُ رحمةً، فتلك ستُّ ساعاتٍ، ثم يَدْعُو بالأرحامِ فيَنْظُرُ فِيهَا ثلاثَ ساعاتٍ ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦]، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشّورى: الآية ٤٩]، فتلك تسعُ ساعاتٍ، ثم يدعو بالأرزاقِ فيَنظرُ فيها ثلاثَ ساعاتٍ فـ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٦]، فتلك ثِنْتَا عشرةَ ساعةً، ثم قرأَ عبدُ اللهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرّحمن: الآية ٢٩] ثم قال: هذا شأنُكم وشأنُ ربِّكم ﷻ.

وذَكَرَه الطبرانيُّ في «الْمُعْجَمِ الكبيرِ» من وَجهٍ آخَرَ[٤].

= أعلم الناس بثابت، وكان عالما عابدا، كثير الحديث، توفي سنة (١٦٧هـ). انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٥٩٠ - ٥٩٥ت٢٢٥١)، «تهذيب التهذيب» (٣/ ١١ - ١٦ت١٤).

(١) في (س) ابن، والصواب المثبت كما في الأصل، وباقي النسخ، و المصادر التي خرجت الأثر.

(٢) الزبير بن جواتشير أبو عبد السلام، بصري، روى عن أيوب بن مكرز، وقيل: إن روايته عنه مرسلة، وعنه حماد بن سلمة، ذكره ابن حبان في «الثقات». «تعجيل المنفعة» (١/ ٥٤٤ت٣٣١)، و«تهذيب التهذيب» (١/ ٤٠٧ت٧٤٧).

(٣) أيوب بن عبد الله بن مكرز بن حفص القرشي العامري، روى عن ابن مسعود ووابصة بن معبد، وعنه الزبير وشريح بن عبيد. مستور، وذكره ابن حبان في «الثقات».
انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٩٠ت١٠٨٧) و«تهذيب التهذيب» (١/ ٤٠٧ - ٤٠٨ت٧٤٧).

(٤) رواه الأصبهاني في كتاب «العظمة» (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨ح٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٧ - ١٣٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢٠٠ح٨٨٨٦).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٥): رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه أبو عبد السلام، قال أبو حاتم: مجهول.
وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله - على الشك - لم أر من ذكره.

وهذا من تَمامِ تَصَرُّفِه في مُلْكِه سبحانَه، فلو قَصَرَ تصرُّفَه على وجهٍ واحدٍ ونَمَطٍ واحدٍ؛ لم يكنْ تَصَرُّفًا تامًّا.

تلازُمُ الْمُلْكِ والحمدِ في حَقِّه تعالى

والمقصودُ أنَّ الْمُلْكَ والحمْدَ في حَقِّه مُتلازِمانِ، فكلُّ ما شَمِلَه مُلْكُه وقُدرتُه شَمِلَهُ حَمْدُه، فهو مَحمودٌ في مُلكِه، وله الْمُلْكُ والقُدرةُ مع حَمْدِه، فكما يَستحيلُ خُروجُ شيءٍ من الموجوداتِ عن مُلْكِه وقُدرتِه؛ يَستحيلُ خُروجُها عن حَمْدِه وحِكمتِه، ولهذا يَحْمَدُ سبحانَه نفسَه عندَ خَلْقِه وأَمْرِه، لِيُنَبِّهَ عِبادَه على أن مَصْدَرَ خَلْقِه وأَمْرِه عن حَمْدِه؛ فهو محمودٌ على [كلِّ ما خَلَقَه وأَمَرَ به][1] حَمْدَيْنِ[2]: حمدَ شكرٍ وعُبوديَّةٍ، وحمدَ ثناءٍ وَمَدْحٍ.

التبارُكُ متضَمِّنٌ لحمْدِ العُبوديَّةِ والمدْحِ

ويَجْمَعُهما التَّبارُكُ، فـ: «تَبَارَكَ اللهُ» يَشملُ ذلك كلَّه، ولهذا ذَكَرَ هذه الكلمةَ عَقيبَ قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

فالحمدُ أوسعُ الصفاتِ، وأَعَمُّ المدائحِ، والطُرُقُ إلى العلمِ به في غايةِ الكثرةِ، والسبُلُ إلى اعتبارِه في ذَرَّاتِ العالَمِ وجُزئيَّاتِه، وتفاصيلِ الأمرِ والنهيِ واسعةٌ جِدًّا؛ لأنَّ جميعَ أسمائِه - تَبَارَكَ وتعالى - حَمْدٌ، وصفاتِه حمدٌ، وأفعالِه حمدٌ وأحكامِه حَمْدٌ، وعَدْلِه في[3] انتقامِه من أعدائِه حَمْدٌ، وفَضْلِه في[4] إحسانِه إلى أوليائِه حَمْدٌ، والخلْقُ والأمرُ إنما قامَ بحَمْدِه، ووُجِدَ بحَمْدِه، وظَهَرَ بحَمْدِه، وكان لغايةٍ[5] هي حَمْدُه، فحَمْدُه سببُ ذلك وغايَتُه ومَظْهَرُه وحامِلُه، فحَمْدُه رُوحُ كلِّ شيءٍ، وقِيامُ كلِّ شيءٍ بِحَمْدِه، وسَريانُ حَمْدِه في الوُجوداتِ[6]، وظُهورُ آثارِه فيه أمرٌ مَشهودٌ بالأبصارِ والبصائرِ؛ فمِن الطرُقِ الدالَّةِ على شُمولِ معنى الحمْدِ وانبساطِه على جميعِ المعلوماتِ مَعرفَةُ أسمائِه وصِفاتِه، وإقرارُ العبدِ بأنَّ للعالَمِ إلهًا حيًّا، جامِعًا لكلِّ صفةِ كمالٍ، واسمِ حسَنٍ، وثناءٍ جميلٍ، وفِعْلٍ كريمٍ، وأنه سبحانَه له القُدرةُ التامَّةُ، والمشيئةُ النافذَةُ، والعلْمُ المحيطُ، والسمْعُ الذي وَسِعَ الأصواتَ، والبصَرُ الذي أحاطَ بجميعِ الْمُبْصَرَاتِ، والرحمةُ التي وَسِعَتْ جميعَ المخلوقاتِ، والمُلْكُ الأعلى الذي لا يَخْرُجُ

---

(١) في (ع) خلقه وأمره.
(٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) في (ك) و(س) (واو) بدلا من (في)، والصواب المثبت.
(٤) في (ك) (واو) بدلا من (في).
(٥) في (ك) و(س) الغاية.
(٦) في (ع) و(ك) و(س) الموجودات.

عنه ذَرَّةٌ من الذرَّاتِ والغِنَى التامُّ المطلَقُ من جميعِ الجهاتِ، والحكمةُ البالغةُ المشهودُ أثَرُها[١] في الكائناتِ، والعِزَّةُ العاليةُ بجميعِ الوُجوهِ والاعتباراتِ، والكلماتُ التامَّاتُ النافذاتُ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ[٢] بَرٌّ ولا فاجرٌ من جَميعِ الْبَرِيَّاتِ، واحدٌ لا شريكَ له في رُبوبيَّتِه ولا في إلَهِيَّتِه، ولا شَبيهَ له في ذَاتِه، ولا في صِفاتِه، ولا في أَفعالِه، وليس له من يَشْرَكُه في ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِ مُلْكِه، أو يَخْلُفُه في تدبيرِ خَلْقِه، أو يَحْجُبُه عن داعيه و[٣] مُؤَمِّلِيهِ و سائلِيهِ، أو يَتَوَسَّطُ بينَهم وبينَه بتَلْبِيسٍ أو فِرْيَةٍ أو كَذِبٍ، كما يكونُ بينَ الرعايا وبينَ الملوكِ، ولو كان كذلك لفَسَدَ نظامُ الوُجودِ، وفَسَدَ العالَمُ بأَسْرِه، فـ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢].

فلو كان معه آلِهَةٌ أخرى - كما يَقولُ أعداؤه الْمُبْطِلون - لوَقَعَ من النَّقْصِ في التدبيرِ وفسادِ الأمْرِ كلِّه ما لا يَثْبُتُ معه حالٌ، ولا يَصلُحُ عليه[٤] وُجودٌ.

ومن أَعْظَمِ نِعَمِه علينا، وما [استَوْجَبَ به][٥] حَمْدَ عِبادِه له، أن جَعَلَنا[٦] عَبيدًا له خَاصَّةً، ولم يَجْعَلْنا نَهْبًا[٧] مُنقسِمينَ بينَ شُركاءَ مُتشاكِسِينَ، ولم يَجْعَلْنا عَبيدًا لإلهٍ نَحَتَتْه الأفكارُ، لا يَسْمَعُ أصواتَنا، ولا يُبْصِرُ أفعالَنا، ولا يَعْلَمُ أحوالَنا، ولا يَمْلِكُ لعَابِدِيهِ ضَرًّا ولا نَفْعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، ولا تَكَلَّمَ قطُّ ولا يَتَكَلَّمُ، ولا يَأْمُرُ ولا يَنْهَى، ولا تُرْفَعُ إليه الأَيْدِي، ولا تَعْرُجُ[٨] الملائكةُ والروحُ إليه، ولا يَصْعَدُ إليه[٩] الكَلِمُ الطَّيِّبُ، ولا يُرْفَعُ إليه العملُ الصالحُ، وأنه ليس داخلَ العالَمِ ولا خارِجَه، ولا فوقَه ولا عن يمينِه، ولا عن يَسارِه، ولا خَلْفَه، ولا أمامَه، ولا مُتَّصِلًا به، ولا مُنْفَصِلًا عنه، ولا [مُحَايِثًا[١٠] له ولا مُبَايِنًا[١١]][١٢]، ولا[١٣] مُسْتَوٍ[١٤] على عَرْشِه، ولا هو فوقَ عِبادِه[١٥]، وحظُّ العَرْشِ منه حظُّ الحشوشِ والأَخْلِيَةِ، ولا تَنْزِلُ

---

(١) في (ع) الرعاية، وفي (ك) و(س) آثارها، والصواب المثبت. (٢) في (س) لا يجاوزها.
(٣) في (ك) و(س) (أو) بدلًا من الواو. (٤) في (ع) معه.
(٥) في (ك) و(س) استوجبه، وهو تصحيف. (٦) في (ك) و(س) يجعلنا، والصواب المثبت.
(٧) في (ك) و(س) ربنا. (٨) في (س) زيادة: (إليه).
(٩) ساقطة من (ك). (١٠) في (ك) مجانبًا. (١١) في (س) زيادة: (له).
(١٢) في (ع) مماسا له ولا باينا، بدلا مما بين المعكوفتين.
(١٣) في (ك) و(س) زيادة: (هو). (١٤) في (ع) و(ك) و(س) مستويًا.
(١٥) في(ع) زيادة: (ولا عاليا عليهم).

الملائكةُ من عندِه بل لا يَنْزِلُ من عندِه شيءٌ، ولا يَصْعَدُ إليه شيءٌ ولا يَقْرُبُ منه شيءٌ، [ولا يَقْرُبُ من شيءٍ][(١)]، ولا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولا يَلْتَذُّ المؤمنون بالنظرِ إلى وَجْهِه الكريمِ في دارِ الثوابِ، بل ليس له وَجهٌ يُرَى، ولا له يَدٌ يَقْبِضُ بها السماواتِ وأُخرى يَقْبِضُ بهاَ الأرضَ، ولا له فِعْلٌ يَقومُ به، ولا حِكمةٌ تَقومُ به، ولا كَلَّم موسى تكليمًا، ولا تَجَلَّى للجَبَلِ فجَعَلَه دَكًّا هَشِيمًا، ولا يَجِيءُ يومَ القِيامةِ لفَصْلِ القضاءِ، ولا يَنْزِلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا فيقولُ: **«لا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي»**[(٢)]، ولا يَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِه إذا تابَ إليه، ويَجُوزُ في حِكمتِه تَعذيبُ أنبيائِه ورُسُلِه وملائكتِه، وأهلِ طاعتِه أجمعينَ من أهلِ السماواتِ والأَرَضينَ، وتَنْعِيمُ أعدائِه من الكُفَّارِ به، والمحارِبينَ له، والمكَذِّبينَ له ولرُسُلِه، والكلُّ بالنسبةِ إليه سواءٌ، ولا فَرْقَ أَلْبَتَّةَ إلا أنه أَخبرَ أنه لا يَفعلُ ذلك، فامْتَنَعَ للخبرِ بأنه لا يَفعلُه؛ لا لأنه في نفسِه مُنافٍ لحِكمتِه، ومع ذلك فرِضَاه عينُ غَضَبِه، وغَضَبُه عينُ رضاهُ، ومَحَبَّتُه كراهتُه، وكراهَتُه مَحَبَّتُه، إن هو إلا إرادةٌ مَحْضَةٌ ومَشيئةٌ صِرْفَةٌ يَشاءُ بها، لا لِحَكمةٍ ولا لغايةٍ ولا لأَجْلِ مَصلحةٍ. ومع ذلك يُعَذِّبُ عِبادَه على ما لم يَعملوه ولا قُدْرَةَ لهم عليه، بل يُعَذِّبُهم على نفسِ فِعْلِه الذي فَعَلَه هو ويَنْسِبُه[(٣)] إليهم، ويُعَذِّبُهم إذ لم يَفْعَلوا فِعْلَه، ويَلومُهم عليه ويَجوزُ في حِكمتِه أن يُعَذِّبَ رجالًا إذ لم يكونوا نِساءً، ونساءً حيث[(٤)] لم يكونوا رجالًا، وطِوالًا إذ[(٥)] لم يكونوا قِصارًا، وبالعكسِ، وسُودًا إذا لم يكونوا بِيضًا وبالعكسِ، بل تَعذيبُه لهم على مُخالفَتِه هو من هذا الجِنْسِ؛ إذ لا قُدرةَ لهم أَلْبَتَّةَ على فِعْلِ ما أُمِرُوا به، ولا تَرْكِ ما نُهوا عنه[(٦)].

فله الحمْدُ والْمِنَّةُ والثناءُ الحسَنُ الجميلُ إذ لم يَجْعَلْنا عَبيدًا لِمَن هذا شأنُه فنكونَ

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).

(٢) جزء من حديث رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٢ح٩١٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٦)، وأحمد ابن عمرو الشيباني في «الآحاد والمثاني» (٥/ ٢٠ - ٢٢ح٢٥٥٧)، وابن خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/ ٣١٢ - ٣١٥ح٣٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٢٢ح (١٠٣٠٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥/ ٤٩ - ٥١ح٤٥٥٦، ٤٥٥٨) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٤٤٦ح٧٦٢)، وأبو نعيم في «المسند المستخرج على صحيح مسلم» (٢/ ٣٥٣ح (١٧٢٥)، والصابوني في «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص٢١٥). قال ابن القيم: هذا حديث صحيح. «مختصر الصواعق» (٢/ ٣٧٥).

(٣) في (ك) و(س) ونسبه. (٤) في (ع) إذ.

(٥) في (ك) حيث، و(إذ) ساقطة من (س). (٦) وهؤلاء هم الجبرية الجهمية.

حالُ العبد إذا عُبِّدَ لغيرِ اللهِ

مُضَيَّعِينَ، ليس لنا ربٌّ نَقْصِدُه، ولا صَمَدٌ نتوَجَّهُ إليه ونَعْبُدُه، ولا إلهٌ نُعَوِّلُ عليه، ولا ربٌّ نَرْجِعُ إليه، بل قلوبُنا تُنَادِي في طرُقِ الْحَيْرَةِ: مَن دَلَّنَا وجَمَعَ علينا رَبًّا ضائعًا لا هو داخلَ العالَمِ ولا خارجَه، ولا مُباينٌ له ولا مُحايِثٌ[١] له، ولا مُتَّصِلٌ به ولا مُنفصِلٌ عنه، ولا نَزَلَ[٢] من عندِه شيءٌ، ولا يَصْعَدُ إليه شيءٌ، ولا كلَّمَ أحدًا ولا يُكَلِّمُه أحدٌ، ولا يَنبغِي [لأحدٍ أن يَذْكُرَ صفاتِه ولا يُعَرِّفُه بها، بل يَهْجُرُها بلسانِه، فلا يَتَكَلَّمُ بها، وبقَلْبِه؛ فلا يَعْقِلُها، ويَنبغِي][٣] له أن يُعاقَبَ بالقتلِ أو[٤] الضربِ والحبْسِ مَن ذَكَرَها، أو أَخْبَرَ عنه بها، أو أَثْبَتَها له، أو نَسَبَها إليه، أو عَرَّفَه بها، بل التوحيدُ الصِّرْفُ جَحْدُها وتعطيلُه عنها ونفيُ قيامِها به واتِّصافِه بها، وما لم تُدْرِكْه عقولُنا من ذلك فالواجبُ نفيُه وجَحْدُه وتكفيرُ مَن أَثْبَتَه، واستحلالُ دَمِه ومالِه، أو تبديعُه وتضليلُه وتَفسيقُه، وكلما كان النفيُ أَبْلَغَ كان التوحيدُ أَتَمَّ، فليس كذا وليس كذا أبلغَ في التوحيدِ من قولِنا: هو كذا وهو كذا.

حمدُ الصفاتِ والأسماءِ

فللَّهِ العِظَمُ[٥]؛ أعظمُ حَمْدٍ وأَتَمُّه وأَكْمَلُه على ما مَنَّ به من مَعرفَتِه وتَوحيدِه والإقرارِ بصفاتِه العُلَى وأسمائِه الْحُسْنَى، وإقرارِ قلوبِنا بأنه اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو، عالِمُ الغيبِ والشهادةِ، ربُّ العالمينَ، قَيُّومُ السماواتِ والأرَضينَ، إلهُ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ، [لم يَزَلْ][٦] ولا يَزَالُ موصوفًا بصِفاتِ الجلالِ، مَنعوتًا بنُعوتِ الكمالِ، مُنَزَّهًا عن أضدادِها من النقائصِ والتشبيهِ والْمِثالِ.

فهو الحيُّ القَيُّومُ، الذي لكمالِ حياتِه وقَيُّومِيَّتِه لا تَأْخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ.

مالِكُ السماواتِ والأرضِ، الذي لكمالِ مُلْكِه لا يَشْفَعُ عندَه أحدٌ إلا بإذنِه.

العالِمُ بكُلِّ شيءٍ، الذي لكمالِ عِلْمِه يَعْلَمُ ما بينَ أيدي الخلائقِ وما خَلْفَهم؛ فلا تَسْقُطُ ورقةٌ إلا بعِلْمِه، ولا تُحَرَّكُ[٧] ذَرَّةٌ إلا بإذنِه، يَعْلَمُ دَبيبَ الخواطِرِ في القلوبِ حيث لا يَطَّلِعُ عليها الْمَلَكُ، ويَعلمُ ما سيكونُ فيها[٨] حيث لا يَطَّلِعُ عليه القَلْبُ.

البصيرُ الذي لكمالِ بَصَرِه، يَرَى تفاصيلَ خَلْقِ الذَّرَّةِ الصغيرةِ وأعضائِها ولَحْمِها

---

(١) في (ع) مجانب. (٢) في (ع) و(ك) و(س) ينزل.
(٣) ما بين المعقوفين ساقط من (س). (٤) في (ك) (واو) بدلا من (أو).
(٥) في (ع) و(س) العظيم. (٦) ما بين المعقوفين ساقط من (ك) و(س).
(٧) في(ك) و(س) تتحرك. (٨) في (ع) و(ك) و(س) منها.

ودَمِها ومُخِّهَا وعُرُوقِها، ويَرَى دَبيبَها على الصخرةِ الصَّمَّاءِ في الليلةِ الظَّلماءِ، ويَرَى ما تَحْتَ الأَرَضينَ السبْعِ، كما يَرَى ما فوقَ السماواتِ السبعِ.

السَميعُ الذي قد اسْتَوَى في سَمْعِه سرُّ القولِ وجَهْرُه، وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، فلا تَخْتَلِفُ عليه أصواتُ الْخَلْقِ، ولا تَشْتَبِهُ عليه، ولا يَشْغَلُه منها سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغَلِّطُه المسائلُ، ولا يُبرِمُه كَثْرَةُ سؤالِ[(١)] السائلينَ.

قالتْ عائشةُ: «الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ؛ لقد جَاءَت الْمُجادِلَةُ تَشْكُو إلى رسولِ اللهِ ﷺ وإنه[(٢)] لَيَخْفَى عَلَيَّ بعضُ كلامِها، فأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: الآية ١]»[(٣)].

القديرُ الذي لكمالِ قُدرتِه يَهْدِي مَن يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ، ويَجعلُ المؤمِنَ مؤمنًا، والكافرَ كافرًا، والْبَرَّ بَرًّا، والفاجرَ فاجرًا، وهو الذي جَعَلَ إبراهيمَ وآلَه أئِمَّةً يَدْعُون إليه ويَهْدُون[(٤)] بأَمْرِه، وجعَلَ فِرعونَ وقَوْمَه أئِمَّةً يَدْعُونَ إلى النارِ.

ولكمالِ قُدرتِه لا يُحيطُ أحدٌ بشيءٍ من عِلْمِه إلا بما شاءَ سبحانَه أن يُعْلِمَه إيَّاهُ.

ولكمالِ قُدرتِه خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وما بينَهما في سِتَّةِ أيَّام وما مَسَّه مِن لُغوبٍ، ولا يُعْجِزُه أَحَدٌ مِن خَلْقِه ولا يَفوتُه، بل هو في قَبضتِه أين كانَ، فإنْ فَرَّ منه فإنما يَطْوِي المراحلَ في يديه كما قِيلَ:

وكيفَ يَفِرُّ المرءُ عنك بذَنْبِه ... إذا كان يَطْوِي في يديك الْمَرَاحِلا[(٥)]

---

(١) ساقطة من (ك) و(س). (٢) في (ك) و(س) وإني.

(٣) رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١/ ١٠٤ح٨)، والإمام أحمد في «مسنده» (٤٦/٤)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٤٣٨ح١٥١٤)، والبخاري (١٣/ ٣٨٤فتح) وابن ماجه (١/ ٦٧ح١٨٨)، و(١/ ٦٦٦ح٢٠٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٧٨ح٦٢٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٦٨ح٥٦٥٤) (٦/ ٤٨٢ح١١٥٧٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٢٣ح٣٧٩١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. ورواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤١٠ ح٦٨٩). قال ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٣٩): هذا حديث صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» (١/ ٣٧، ٣٥١، ٣٥٢ح١٥٥، ١٦٧٨).

(٤) في (ع) ويرشدون. (٥) لم أجده حسب جهدي.

ولكمالِ غِناهُ استحالَ إضافةُ الولَدِ والصاحبةِ والشريكِ والظَّهيرِ[١] والشفيع بدونِ إذْنِه إليه، ولكمالِ عَظَمَتِه وعُلُوِّه[٢] وَسِعَ كُرْسِيُّه السماواتِ والأرضَ ولم تَسَعْهُ أرضُه ولا سَماواتُه، ولم تُحِطْ به مَخلوقاتُه، بل هو العالي على كلِّ شيءٍ، [الظاهرُ فوقَ كلِّ شيءٍ][٣] وهو بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ، لا تَنْفَدُ كلماتُه ولا تَبِيدُ، بل لو أنَّ البحرَ يَمُدُّه من بَعْدِه سَبعةُ أَبْحُرٍ مِدَادًا، وأشجارُ الأرضِ أقلامًا، فكتبَ بذلك الْمِدادِ وتلكَ[٤] الأقلام؛ لنَفِدَ الْمِدادُ، وفَنِيَت الأقلامُ، ولم تَنْفَدْ كلماتُه؛ إذ هي غيرُ مَخلوقةٍ، ويَستحيلُ أن يَفْنَى غيرُ المخلوقِ بالمخلوقِ.

كلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ

ولو كان كلامُه مَخلوقًا - كما قالَه مَن لم يُقَدِّرْه حقَّ قَدْرِه، ولا أَثْنَى عليه بما هو أَهْلُه[٥] - لكانَ أَحَقَّ بالفَناءِ من هذا الْمِدادِ وهذه الأقلامِ؛ لأنه إذا كان مَخلوقًا فهو نوعٌ من أنواعِ مَخلوقاتِه، ولا يَحْتَمِلُ المخلوقُ إفناءَ هذا الْمِدادِ وهذه الأقلامِ، وهو باقٍ غيرُ فانٍ.

مَحَبَّةُ اللهِ لعِبادِه ومَحَبَّتُهم له

وهو سبحانه يُحِبُّ رُسلَه وعِبادَه المؤمنينَ ويُحِبُّونَهم[٦]، بل لا شيءَ أحبُّ إليهم منه، ولا أَشوقُ إليهم من لقائِه، ولا أَقَرُّ لعُيونِهم من رؤيتِه، ولا أَحْظَى عندَهم من قُرْبِه، وإنه سبحانَه له الحكمةُ البالغةُ في خَلْقِه وأَمْرِه، وله النعمةُ السابغةُ على خَلْقِه، وكلُّ نِعمةٍ منه فَضْلٌ، وكلُّ نِقمةٍ منه عَدْلٌ، وأنه أَرْحَمُ بعِبادِه من الوالدةِ بوَلَدِها، وأنه[٧] أَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِه من وَاجِدِ راحلتِه التي[٨] عليها طعامُه وشرابُه في الأرْضِ الْمُهْلِكَةِ بعدَ فَقْدِها واليأسِ منها، وأنه سبحانَه لم يُكَلِّفْ عِبادَه إلا وُسْعَهم وهو دونَ طاقتِهم؛ فقد يُطِيقُونَ الشيءَ ويَضيقُ عليهم بخِلافِ وُسعِهم؛ فإنه[٩] ما يَسَعُونَه ويَسْهُلُ عليهم ويَفْضُلُ قَدْرُهم عنه كما هو الواقعُ، وإنه سبحانَه لا يُعاقِبُ أحدًا بغيرِ فِعْلِه، ولا يُعاقِبُه على فِعْلِ غيرِه، ولا يُعاقِبُه بتَرْكِ ما لا يَقْدِرُ على فِعْلِه، ولا على فِعْلِ ما لا قُدْرَةَ له على تَرْكِه، وأنه سبحانَه حليمٌ[١٠] كريمٌ جَوَادٌ ماجِدٌ مُحسِنٌ وَدودٌ صَبورٌ شَكورٌ؛

---

(١) ساقطة من (ك) و(س). (٢) في (ك) ولعلوه.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من(ك) و(س). (٤) في (ك) و(س) وبتلك.

(٥) وهم المعتزلة. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني(١/ ٣٨).

(٦) كذا في الأصل وفي (ع) و(ك) و(س) ويحبونه، وهو الصواب. (٧) ساقطة من (ع).

(٨) في (ك) و(س) الذي، والصواب المثبت. (٩) في (ع) فإنهم، والصواب المثبت.

(١٠) في (ك) و(س) حكيم.

يُطاعُ فيُشْكَرُ، ويُعْصَى فيَغْفِرُ، لا أحدَ أَصْبَرُ على أَذًى سَمِعَه منه، ولا[١] أَحَبَّ إليه[٢] الْمَدْحُ منه ولا[٣] أَحَبَّ إليه العُذْرُ منه، ولا أَحَدَ أَحَبُّ إليه الإحسانُ منه؛ فهو محسِنٌ يُحِبُّ المحسنينَ، شكورٌ يُحِبُّ الشاكرينَ، جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، طَيِّبٌ يُحِبُّ كلَّ طَيِّبٍ، نظيفٌ يُحِبُّ النظافةَ، عليمٌ يُحِبُّ العلماءَ من عِبادِه، كريمٌ يُحِبُّ الكُرماءَ، قَوِيٌّ[٤]؛ والمؤمنُ القَوِيُّ أحبُّ إليه من المؤمنِ الضعيفِ، بَرٌّ[٥] يُحِبُّ الأبرارَ، عَدْلٌ يُحِبُّ أهلَ العدْلِ، حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ أهلَ الحياءِ والسِّتْرِ، عَفُوٌّ غفورٌ يُحِبُّ مَن يَعْفُو عن[٦] عِبادِه ويَغْفِرُ لهم، صادقٌ يُحِبُّ الصادقينَ، رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ وأهلَه، رَحيمٌ يُحِبُّ الرُّحماءَ، وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، يُحِبُّ أسماءَه وصفاتِه، ويُحِبُّ المتعبِّدِينَ له بها، ويُحِبُّ مَن يَسأَلُه بها ويَدْعُوه بها، ويُحِبُّ مَن يَعْرِفُها ويَعْقِلُها ويُثْنِي عليه بها ويَحْمَدُه ويَمْدَحُه بها؛ كما في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ: **«لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسَلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»**[٧].

وفي حديثٍ آخَرَ صحيحٍ: **«لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ[٨] مِنَ اللهِ؛ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»**[٩].

ولِمَحَبَّتِه لأسمائِه وصِفاتِه؛ أَمَرَ عِبادَه بِمُوجَبِها ومُقْتَضَاها؛ فأَمَرَهم[١٠] بالعدلِ والإحسانِ والبِرِّ والعفوِ والجودِ والصبرِ والمغفرةِ والرحمةِ والصدقِ والعلمِ والشكرِ والحِلْمِ والأَناةِ والتثبُّتِ.

---

(١) في(ع) زيادة: (أحد). (٢) ساقطة من (س). (٣) في(ع) زيادة: (أحد).

(٤) في (س) زيادة: (يحب). (٥) في (س) بل، وهو تصحيف.

(٦) في (س) من، والمثبت هو المقتضي للسياق.

(٧) رواه البخاري (٨/١٤٦ح٤٦٣٤ فتح) و) (٨/١٥٢ح٤٦٣٧فتح) و(٩/ ٢٣٠ح٥٢٢٠فتح) (١٣/ ٣٩٥ح٧٤٠٣فتح) ومسلم (١٧/ ٢٣١ - ٢٣٢)، ح٢٧٦٠نووي).

(٨) في(ك) و(س) سمعه، وهو كذا في البخاري، وفي رواية مسلم كالمثبت.

(٩) رواه البخاري (١٠/ ٥٢٧ح٦٠٩٩فتح)، و(١٣/ ٣٧٢) ح٧٣٧٨فتح)، ومسلم (١٧/ ٢٨٤ - ٢٨٥ح٢٨٠٤نووي).

(١٠) في (ع) وأمرهم.

أحبُّ الخلقِ إلى اللهِ وأبغضهُم إليهِ

ولَمَّا كان سبحانَه يُحِبُّ أسماءَه وصِفاتِه؛ كان أَحَبُّ خَلْقِه إليه[١] مَن اتَّصَفَ بالصفاتِ التي يُحِبُّها، وأَبْغَضُهم إليه مَن اتَّصَفَ بالصفاتِ التي يَكْرَهُها؛ فإنما أَبْغَضَ مَن اتَّصَفَ بالكِبْرِ والعظمةِ والجَبَروتِ؛ لأنَّ اتِّصافَه بها ظُلْمٌ؛ إذ لا تَليقُ به هذه الصفاتُ ولا تَحْسُنُ منه؛ لِمُنافَاتِها لصفاتِ العَبيدِ، وخُروجِ مَن اتَّصَفَ بها من رِبْقَةِ العبوديَّةِ، ومُفارقتِه[٢] لِمَنْصِبِه[٣] ومَرتبتِه، وتَعَدِّيه طَوْرَه وَحَدَّه، وهذا بخِلافِ[٤] ما تَقَدَّمَ من الصفاتِ كالعلْمِ والعَدلِ والرحمةِ والإحسانِ والصبرِ والشكرِ؛ فإنها لا تُنافِي العُبوديَّةَ، بل اتِّصافُ العبْدِ بها من كمالِ عُبوديَّتِه؛ إذ الْمُتَّصِفُ بها من العَبيدِ لم يَتَعَدَّ طَوْرَه، ولم يَخْرُجْ بها من دائرةِ العُبوديَّةِ.

الكمالُ من كلِّ وجهٍ للهِ وحدَه

والمقصودُ أنه سبحانَه لكمالِ أسمائِه وصِفاتِه موصوفٌ بكلِّ صفةِ كمالٍ، مُنَزَّهٌ عن كلِّ نَقْصٍ، له كلُّ ثَناءٍ حَسَنٍ، ولا يَصْدُرُ عنه إلا كلُّ فِعْلٍ جميلٍ، ولا يُسَمَّى إلا بِأَحْسَنِ الأسماءِ، ولا يُثْنَى عليه إلا بأكمَلِ الثناءِ وهو المحمودُ المحبوبُ الْمُعَظَّمُ، ذو الْجَلالِ والإكرامِ على كلِّ ما خَلَقَه وقَدَّرَه[٥] وعلى كلِّ ما أَمَرَ به وشَرَعَهُ.

من ثمراتِ الإيمانِ بأسماءِ اللهِ

ومَن كان له نَصيبٌ من مَعرفةِ أسمائِه الْحُسْنَى، واستقراءِ آثارِها في الْخَلْقِ والأَمْرِ، رَأَى الْخَلْقَ والأَمْرَ مُنتَظِمَيْنِ بها أكملَ انتظامٍ، ورَأَى سَرَيانَ آثارِ ها فيهما وعَلِمَ - بِحَسَبِ مَعرفتِه بها[٦] - ما يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه أن يَفعلَه وما لا يَليقُ فاسْتَدَلَّ بأسمائِه على ما يَفعلُه وما لا يَفعلُه، فإنه لا يَفْعَلُ خِلافَ مُوجَبِ حَمْدِه وحِكمتِه، وكذلك يَعْلَمُ ما يَليقُ به أن يَأْمُرَ به ويُشَرِّعَه مِمَّا لا يَليقُ به، فيَعْلَمُ أنه لا يَأْمُرُ بخِلافِ مُوجَبِ حَمْدِه وحِكْمَتِه.

موقفُ العبدِ من الأحكامِ المشتملة على ظلمٍ وجورٍ

فإذا رأى في بعضِ الأحكامِ جَوْرًا وظُلْمًا، أو سَفَهًا وعَبَثًا، [أو مَفسدةً][٧] أو ما لا يُوجِبُ حَمْدًا وثَناءً، فلْيَعْلَم أنه ليس من أحكامِه ولا دِينِه، وأنه بَريءٌ منه ورسولُه، فإنه إنما أَمَرَ بالعَدلِ لا بالظُّلْمِ، وبالمصلَحَةِ لا بالْمَفسدةِ، وبالحكمةِ لا بالعبَثِ والسفَهِ، وإنما بَعَثَ رسولَه بالحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، لا بالغِلْظَةِ والشدَّةِ، وبَعَثَه بالرحمةِ لا بالقَسوةِ،

---

(١) ساقطة من (ك) و(س). (٢) في (ك) ومفارقة. (٣) في (س) المنصبة.
(٤) في (ك) و(س) خلاف.
(٥) في (ك) و(س) تقديم وتأخير في (خلقه وقدره). (٦) في (س) بهما.
(٧) في (ك) و(س) ومفسدة.

فإنه أَرحمُ الراحمينَ، ورسولُه رَحْمَةٌ مُهداةٌ إلى العالمينَ، ودِينُه كُلُّه رَحْمَةٌ، وهو نَبِيُّ الرحمةِ وأُمَّتُه الأُمَّةُ المرحومةُ، وذلك كلُّه مُوجَبُ أسمائِه الْحُسْنَى وصِفاتِه الْعُلَى وأفعالِه الْحَميدةِ، فلا يُخْبَرُ عنه إلا بِحَمْدِه، ولا يُثْنَى عليه إلا بأَحْسَنِ الثناءِ، كما لا يُسَمَّى إلا بأحسَنِ الأسماءِ.

شمولُ حَمْدِه سبحانَه لِخَلْقِه وأَمْرِه

وقد نَبَّهَ سبحانَه على شُمولِ حَمْدِه لِخَلْقِه وأَمْرِه؛ بأنْ حَمِدَ نفسَه في أَوَّلِ الْخَلْقِ وآخِرِه، وعندَ الأمْرِ والشرعِ، وحَمِدَ نفسَه على رُبوبيَّتِه للعالمينَ، وحَمِدَ نفسَه على تَفَرُّدِه بالإلهيَّةِ وعلى حياتِه، وحَمِدَ نفسَه على امتناعِ اتِّصافِه بما لا يَليقُ بكمالِه من اتِّخاذِ الوَلَدِ والشريكِ، ومُوالاةِ أحَدٍ من خَلقِه لحاجةٍ[1] إليه، وحَمِدَ نفسَه على عُلُوِّه وكِبريائِه، وحَمِدَ نفسَه في الأُولَى والآخِرَةِ، وأَخْبَرَ عن سَريانِ حَمْدِه في العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، ونَبَّهَ على هذا كلِّه[2] في كتابِه، وحَمِدَ نفسَه عليه؛ فنوَّعَ[3] حَمْدَه وأسبابَ حَمْدِه، وجَمَعَها تارةً، وفَرَّقَها أُخرى؛ لِيَتَعَرَّفَ إلى عِبادِه ويُعَرِّفَهم كيف يَحْمَدُونَه، وكيف يُثْنُون عليه، ولِيَتَحَبَّبَ إليهم بذلك، ويُحِبَّهُم إذا عَرَفوه وأَحَبُّوه وحَمِدُوه؛ قالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤] وقالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: الآية ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ١ - ٢]، وقالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبإ: الآية ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر: الآية ١]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: الآية ٧٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ [غافر: ٦٥]، وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

وأخبرَ عن حَمْدِ خلقِه له بعدَ فَصْلِه بينَهم، والحكْمِ لأهلِ طاعتِه [بثوابِه وكَرامتِه][4]،

---

(١) في (ك) و(س) لحاجته. (٢) ساقطة من (س). (٣) في (ك) فتنوع.

(٤) في (ع) وثوابه بكرامته.

والحكم لأهلِ معصيتِه بعِقابِه وإهانتِه ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٥].

وأخْبَرَ عن حَمْدِ أهلِ الجنَّةِ له، وأنهم لم يَدْخُلوها إلا بِحَمْدِه، كما أنَّ أهلَ النارِ لم يَدْخُلُوها إلا بِحَمْدِه، فقالَ أهلُ الجنةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، و ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: الآية ١٠].

وقالَ عن أهلِ النارِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤ - ٧٥]. وقالَ تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: الآية ١١]، وشَهِدُوا على أنفسِهم بالكُفْرِ والظلْمِ، وعَلِمُوا أنهم كانوا كاذبينَ في الدنيا، مكَذِّبينَ بآياتِ ربِّهم، مُشركينَ به، جاحدينَ لإلهيَّتِه، مُفْتَرِينَ عليه، وهذا اعتِرافٌ منهم بعَدْلِه فيهم، وأَخْذِهم ببعضِ حقِّه عليهم، وأنه غيرُ ظالمٍ لهم، وأنهم إنما دَخَلوا النارَ [بعَدْلِه وحَمْدِه][(١)]، وإنما عُوقِبوا بأفعالِهم وبما كانوا قادرينَ على فعْلِه وتَرْكِه، لا كما تقولُ الْجَبْرِيَّةُ.

وتفصيلُ هذه الجملةِ[(٢)] مما لا سبيلَ للعقولِ البشريَّةِ إلى الإحاطةِ به ولا إلى التعبيرِ عنه، ولكن بالجُملةِ فكلُّ صفةٍ عُلْيا واسمٍ حَسَنٍ وثَناءٍ جميلٍ، وكلُّ حَمْدٍ ومَدْحٍ وتَسبيحٍ وتَنزيهٍ وتَقديسٍ وَجَلالٍ وإكرامٍ فهو للهِ ﷻ على أكْمَلِ الوُجوهِ وأَتَمِّها وأَدْوَمِها، وجميعُ ما يُوصَفُ به، ويُذْكَرُ[(٣)] به، ويُخْبَرُ عنه به فهو محامِدُ له وثناءٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ، فسبحانَه وبِحَمْدِه، لا يُحْصِي أحدٌ من خَلْقِه ثناءً عليه، بل هو كما أَثْنَى على نفسِه، وفوقَ ما يُثْنِي به عليه خَلْقُه، فله الحمدُ أوَّلًا وآخِرًا حَمْدًا كثيرًا طيِّبًا مُبارَكًا فيه، كما يَنبغِي لكَرَمِ وَجهِهِ وعزِّ جَلالِه ورَفيعِ مَجْدِه وعُلُوِّ جَدِّه.

فهذا تَنبيهٌ على أحدِ نَوْعَي حَمْدِه، وهو حمدُ الصفاتِ والأسماءِ.

النوعُ الثاني من أنواعِ الحمدِ: حمدُ النِّعَمِ والآلاءِ

والنوعُ الثاني: حَمْدُ النِّعَمِ والآلاءِ، وهذا مَشهودٌ للخَليقةِ - بَرِّها وفاجِرِها، مؤمنِها وكافِرِها - من جَزيلِ مَواهبِه، وسَعَةِ عَطاياهُ، وكريمِ أياديهِ، وجميلِ صنائعِه، وحُسْنِ

(١) في (س) تقديم وتأخير في (بحمده وعدله).
(٢) في (ك) و(س) الحكمة.
(٣) في (ك) يذكر، بحذف الواو.

مُعاملتِه لعِبادِه، وسَعَةِ رَحمتِه بهم[١]، وبِرِّه ولُطْفِه وحنانِه، وإجابتِه لدَعَواتِ المُضْطَرِّينَ، وكَشْفِ كُرُباتِ [الْمَكروبينَ، وإغاثةِ][٢] الملهوفينَ، ورحمةِ[٣] العالمينَ[٤]، وابتدائِه بالنِّعَمِ قبلَ السؤالِ ومن غيرِ استحقاقٍ، بل ابتداءٌ منه بِمُجَرَّدِ فضْلِه وكَرَمِه وإحسانِه، ودَفْعِ الْمِحَنِ والبلايا بعدَ انعقادِ أسبابِها، وصَرْفِها بعدَ وُقوعِها، ولُطْفِه تعالى في ذلك بإيصالِه[٥] إلى مَن أرادَه[٦] بأحْسَنِ الألطافِ، وتَبليغِه من ذلك إلى ما لا تَبْلُغُه الآمالُ، وهِدايتِه خاصَّتَهُ وعِبادَه إلى [سُبُلِ السلامِ][٧]، ومُدافعتِه عنهم أَحْسَنَ الدفاعِ، وحمايتِهم عن مَراتِعِ الآثامِ، وحَبَّبَ إليهم الإيمانَ وزَيَّنَه في قُلوبِهم، وكَرَّهَ إليهم الكُفْرَ والفسوقَ والعِصيانَ، وجَعَلَهم من الراشدينَ، وكَتَبَ في[٨] قلوبِهم الإيمانَ، وأَيَّدَهم برُوحٍ منه، وسَمَّاهم المسلمينَ قبلَ أن يَخْلُقَهُم، وذَكَرَهم قبلَ أن يَذْكُروه، وأعطاهم قبلَ أن يَسْأَلوه، وتَحَبَّبَ إليهم بنِعَمِه[٩] مع غِناهُ عنهم، وتَبَغُّضِهم إليه بالمعاصي وفَقْرِهم إليه، ومع هذا كلِّه فاتَّخَذَ لهم دَارًا، وأَعَدَّ لهم فيها من كلِّ ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وتَلَذُّه[١٠] الأَعْيُنُ، ومَلأَها من جميعِ الخيراتِ، وأَوْدَعَها من النعيمِ والْحَبْرَةِ والسرورِ والبهجةِ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، ثم أَرْسَلَ إليهم الرسلَ يَدْعُونهم إليها، ثم يَسَّرَ لهم الأسبابَ التي تُوَصِّلُهم إليها وأعانَهم عليها، ورَضِيَ منهم باليسيرِ في هذه الْمُدَّةِ القصيرةِ جِدًّا، بالإضافةِ إلى بَقاءِ دارِ النعيمِ، وضَمِنَ لهم إن أَحْسَنوا أن يُثِيبَهم بالحسَنَةِ عشرًا، وإن أساؤُوا واستَغْفَرُوه أن يَغْفِرَ لهم، ووَعَدَهم أن يَمْحُوَ ما جَنَوْهُ من السيِّئاتِ بما يَفعلونَه بعدَها من الحسناتِ، وذَكَّرَهم بآلائِه، وتَعَرَّفَ إليهم بأسمائِه، وأَمَرَهم بما أَمَرَهم به؛ رحمةً منه بهم وإحسانًا، لا حاجةً منه إليهم، ونَهاهُم عمَّا نَهاهم عنه؛ حمايةً وصِيانةً لهم، لا بُخْلًا منه عليهم، وخاطَبَهم بأَلْطَفِ الخطابِ وأحلاه[١١]، ونَصَحَهُم بأحسنِ النصائحِ، ووَصَّاهُم بأكمَلِ الوصايا، وأَمَرَهم بأشرَفِ الْخِصالِ، ونهاهم عن أقبحِ الأقوالِ والأعمالِ، وصَرَّفَ لهم

---

(١) في (ك) و(س) لهم، ولعل الصواب المثبت.

(٢) في (ع) المحزونين وإعانة، والمثبت هو الموافق للسياق.

(٣) في (ك) ورحمته. (٤) في (ك) و(س) للعالمين.

(٥) في (ك) و(س) باتصاله، وهو تصحيف. (٦) في (ع) مراده، والصواب المثبت.

(٧) في (ك) و(س) سبيل دار السلام. (٨) ساقطة من (ع).

(٩) ساقطة من (س). (١٠) في (ك) و(س) وتلذ. (١١) في (ك) وأجلاه.

الآياتِ، وضَرَبَ لهم الأمثالَ، ووسَّعَ لهم طُرقَ العلمِ به ومَعرفتِه، وفتَحَ لهم أبوابَ الهدايةِ، وعرَّفَهم الأسبابَ التي تُدْنيهِم من رِضاهُ وتُبْعِدُهم من غَضَبِه، ويُخاطِبُهم بألطَفِ الخطابِ، ويُسَمِّيهِم بأحسنِ أسمائِهم كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [البقرة: الآية ١٠٤]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: الآية ٣١]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: الآية ٥٣]، ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣١] فيُخاطِبُهم بخِطابِ الودادِ والمحبَّةِ والتَّلطُّفِ[(١)]، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: الآية ٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: الآية ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨﴾ [آل عمران: الآية ١١٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة: الآية ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٤ - ٢٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

---

(١) في (ع) والتعطف.

﴿ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

فتحتَ هذا الْخِطابِ: إني عادَيْتُ إبليسَ، وطَرَدْتُه من سَمائي، وباعَدْتُه من قُرْبِي؛ إذ لم يَسْجُدْ لأبيكم آدَمَ، ثم أنتم يا بَنِيهِ تُوَالُونَه وذُرِّيَّتَه مِن دوني، وهم أعداءٌ لكم!!

فلْيَتَأَمَّل اللبيبُ مَواقعَ هذا الْخِطابِ، وشِدَّةَ لُصُوقِه بالقلوبِ والتباسِه بالأرواحِ.

وأكثرُ القرآنِ جاءَ على هذا النَّمَطِ من خِطابِه لعِبادِه بالتَوَدُّدِ والتحنُّنِ واللُّطْفِ والنصيحةِ البالغةِ، وأَعْلَمَ عِبادَه سبحانَه أنه لا يَرْضَى لهم إلا أكرَمَ الوسائلِ، وأفْضَلَ الْمَنازِلِ، وأَجَلَّ العلومِ والْمَعَارِفِ.

قالَ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: الآية ٣]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

ويَتَنَصَّلُ(١) - سبحانَه - إلى عِبادِه من مَواضِعِ الظِّنَّةِ والتُّهْمَةِ التي نَسَبَها(٢) إليه مَن لم يَعْرِفْه حقَّ مَعرفتِه، ولا قَدَرَه حقَّ قَدْرِه من تكليفِ عِبادِه ما لا يَقْدِرُون عليه ولا طاقةَ لهم بفِعلِه الْبَتَّةَ، وتعذيبِهم إن شَكَرُوه وآمَنُوا به، وخَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما لا لحِكْمَةٍ ولا لغايةٍ، وأنه لم يَخْلُقْ خَلْقَه لحاجةٍ منه إلَيْهِم ولا لِيَتَكَثَّرَ بهم من قِلَّةٍ، ولا لِيَتَعَزَّزَ بهم [من ذِلَّةٍ، ولا لِيَسْتَعِينَ بهم](٣)، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] فأَخْبَرَ أنه لم يَخْلُق الجِنَّ والإِنْسَ لحاجةٍ منه إليهم، ولا لِيَرْبَحَ عليهم؛ لكن خَلَقَهم جُودًا وإحسانًا لِيَعْبُدُوه، فيَرْبَحوا هم عليه كلَّ الأرباحِ لقولِه(٤): ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ﴾

---

(١) يتنصل: أي: يتبرأ. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، باب النون (١٤/ ١٦٨ -١٦٩).

(٢) في (ع) ينسبها.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من (س) وسقط من(ك): ولا ليستعين بهم. (٤) في (ع) و(ك) و(س): كقوله.

[الإسراء: الآية ٧]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: الآية ٤٤].

وَلَمَّا أَمَرَهم بالوُضوءِ والْغُسْلِ من الْجَنابةِ الذي يَحُطُّ عنهم أوزارَهم، ويَدْخُلون به عليه، ويَرْفَعُ به دَرجاتِهم قالَ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦]، وقالَ في الأضاحِيِّ والْهَدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: الآية ٣٧] وقالَ عقِيبَ أَمْرِهم بالصدقةِ ونَهْيِهم عن إخراجِ الرَّديءِ من المالِ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] يقولُ سبحانَه: إني غَنِيٌّ عمَّا تُنفِقُون أن يَنالَنِي منه شيءٌ، حميدٌ مُسْتَحِقٌّ الْمَحامِدَ كُلَّها؛ فإنفاقُكم لا يَسُدُّ منه حاجةً، ولا يُوجِبُ له حَمْدًا، بل هو الغنيُّ بنفسِه، الحميدُ بنفسِه وأسمائِه وصِفاتِه، وإنفاقُكم إنما نَفْعُه لكم، وعائدتُه عليكم.

دواءُ مَن لم يُبَاشِرْ قَلْبُه حلاوةَ خِطابِ ربِّه

ومن الْمُتَعَيَّنِ على مَن لم يُبَاشِرْ قَلْبُه حلاوةَ هذا الخِطابِ وجَلالَتَه، ولُطْفَ مَوْقِعِه، وجَذْبَه للقلوبِ والأرواحِ، ومُخالطتَه لها - أن يُعالِجَ قَلْبَه بالتَّقْوى، وأن[1] يَستفرغَ منه الْمَوادَّ الفاسدةَ التي حالَتْ بينَه وبينَ حَظِّه من ذلك، ويَتَعَرَّضَ إلى الأسبابِ التي يَنالُه بها، من صِدْقِ الرغبةِ واللَّجْأِ إلى اللهِ أن يُحْيِيَ قَلْبَه ويُزَكِّيَه، ويَجْعَلَ فيه الإيمانَ والحكمةَ، فالقلبُ الْمَيِّتُ لا يَذوقُ طَعْمَ الإيمانِ، ولا يَجِدُ حَلاوتَه، ولا يَسْتَمْتِعُ[2] بالحياةِ الطَّيِّبَةِ لا في الدنيا ولا في الآخِرَةِ.

ومَن أَرادَ مُطالعَةَ أصولِ النِّعَمِ فَلْيَسْمُ[3] سَرْحَ[4] الفكرِ[5] في رِياضِ القرآنِ، ولْيَتَأَمَّلْ ما عدَّدَ اللهُ فيه من نِعَمِه، وتَعَرَّفَ بها إلى عِبادِه من أوَّلِ القرآنِ إلى آخرِه حينَ[6] خَلَقَ[7] النارَ، وابتلاهم بإبليسَ وحِزْبِه، وتَسليطِ أعدائِهم عليهم، وامتحانِهم بالشهواتِ والإراداتِ والْهَوَى؛ لتَعْظُمَ النعمةُ عليهم بِمُخالَفَتِها وبمحارَبَةِ[8] أعدائِه[9]،

---

(١) (أن) ساقطة من (ك). (٢) في (ك) و(س) يتمتع.

(٣) سما يسمو سموا: علاء وارتفع. انظر: «العين» للفراهيدي(٧/ ٣١٨).

(٤) سرح عنه فانسرح وتسرح: فرج. وإذا ضاق شيء ففرجت عنه قلت: سرحت عنه. «لسان العرب» باب السين (٦/ ٢٣٠).

(٥) في (ك) الذكر، والصواب المثبت.

(٦) في (ع) حتى، والصواب المثبت، وهذه الكلمة ساقطة من (س).

(٧) في (ك) و(س) زيادة: (أهل). (٨) في(ع) ومحاربة. (٩) ساقطة من (س).

فللهِ على أوليائِه وعِبادِه[١] أَتَمُّ نِعمةٍ وأَكْمَلُها في كلِّ ما خَلَقَه من محبوبٍ ومَكروهٍ، ونِعمةٍ ومِحنةٍ، وفي كلِّ ما أَحْدَثَه في الأرضِ من[٢] وَقائعِه بأعدائِه، وإكرامِه لأوليائِه، وفي كلِّ ما قَضَاه وقَدَّرَه.

وتفصيلُ ذلك لا تَفِي به أقلامُ الدنيا وأوراقُها، ولا قُوَى العِبادِ، وإنما هو التنبيهُ والإشارةُ.

ومن اسْتَقْرَى الأسماءَ الْحُسْنى؛ وَجدَها مَدائحَ وثَناءً، تَقْصُرُ بَلاغاتُ الواصفينَ عن بلوغِ كُنْهِها[٣]، وتَعْجِزُ الأوهامُ عن الإحاطةِ بالواحدِ منها، ومع ذلك فلِلَّهِ سبحانه مَحَامِدُ ومَدائحُ وأنواعٌ من الثَّناءِ لم تَتَحَرَّكْ بها الخواطِرُ، ولا هَجَسَتْ[٤] في الضمائرِ، ولا لاحَتْ[٥] لِمُتَوَسِّمٍ، ولا سَنَحَتْ[٦] في فِكْرٍ؛ ففي دُعاءِ أَعرَفِ الْخَلْقِ بِرَبِّه تعالى، وأَعْلَمِهم بأسمائِه وصِفاتِه ومَحامِدِه: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَه أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي**»[٧]، وفي

---

(١) في (ك) تقديم وتأخير في (أوليائه وعباده).

(٢) ساقطة من (ك).

(٣) كنه الشيء: قدره ونهايته وغايته. «لسان العرب» لابن منظور، باب الكاف (١٢/ ١٧٤).

(٤) ما يهجس في الضمائر، أي: ما يخطر بها ويدور فيها من الأحاديث والأفكار. «النهاية في غريب الحديث» لأبي السعادات الجزري (٥/ ٢٤٦).

(٥) ما لمحت في فكر. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، باب اللام (١٢/ ٣٥٤).

(٦) في (س) رسخت، والصواب المثبت، ومعنى سنحت، أي: عرضت وتيسرت. انظر: «لسان العرب»، باب السين (٦/ ٣٨٦).

(٧) بنحوه بأطول منه في أثنائه، رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٩١ - ٤٥٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤٠ح٢٩٣١٨)، والبزار في «مسنده» (٥/ ٣٦٣ح١٩٩٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩/ ١٩٨ - ١٩٩ح٥٢٩٧) وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٥٣ح٩٧٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٠٩ - ٢١٠ح١٠٣٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٩٠ح١٨٧٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه. والصحيح أنه سمع منه كما روى البخاري في «التاريخ الصغير» (١/ ٧٤ح٢٨٦) قال: حدثني مقدم بن محمد، حدثني عمي القاسم ابن يحيى، ثنا أبو عثمان عبد الله بن عثمان بن خثيم المكي، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه: أخر الوليد بن عقبة الصلاة بالكوفة، فانكفأ ابن مسعود إلى مجلسه وأنا مع أبي. قال الهيثمي في =

«الصحيح»[١] عنه ﷺ في حديثِ الشفاعةِ لَمَّا يَسْجُدُ بينَ يَدَيْ رَبِّه قالَ: «**فَيَفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِشَيْءٍ لا أُحْسِنُه الآنَ**»، وكان يقولُ في سجودِه: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[٢].

فلا يُحْصِي أحدٌ من خَلْقِه ثناءً عليه أَلْبَتَّةَ، وله أسماءٌ وأوصافٌ وحَمْدٌ وثناءٌ لا يَعْلَمُه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، ونِسبةُ ما يَعْلَمُ العِبادُ من ذلك إلى ما لا يَعْلَمُونَه كنَقْرَةِ عُصْفورٍ من[٣] بَحْرٍ.

جوابٌ على مَن اعتَرَضَ على بعضِ الْخَلْقِ والأمرِ

فإن قيلَ: فكيفَ تَصنعونَ بما يُشَاهَدُ من أنواعِ الابتلاءِ والامتحانِ والآلامِ للأطفالِ والحيواناتِ، ومَن هو خارجٌ عن التكليفِ، ومَن لا ثوابَ ولا عقابَ عليه؟ وما تَقولون في الأسماءِ الدالَّةِ على ذلك من المنتَقِمِ والقابضِ والخافِضِ ونحوِها؟.

قيلَ: قد تَقَدَّمَ من الكلامِ في ذلك ما يَكْفِي بعضُه لذي الفِطْرَةِ السليمةِ والعَقْلِ المستقيمِ، وأمَّا مَن فَسَدَتْ فِطرتُه، وانْتَكَسَ قَلْبُه، وضَعُفَتْ بَصيرَةُ عَقْلِه، فلو ضُرِبَ له من الأمثالِ ما ضُرِبَ[٤]، فإنه لا يَزيدُه إلا عَمًى وَتَحَيُّرًا.

ونحنُ نَزيدُ ما تَقَدَّمَ إيضاحًا وبَيانًا؛ إذ بَسْطُ هذا الْمَقامِ أَوْلَى مِن اختصارِه، فنقولُ: قد عَلِمْتَ أنَّ جميعَ أسماءِ الربِّ - جلَّ جلالُه - حُسْنَى، وصِفاتِه كمالٌ، وأفعالِه حكمةٌ ومَصلحةٌ، وله كلُّ ثناءٍ وكلُّ حَمْدٍ ومِدْحَةٍ، وكلُّ خيرٍ فمنه وله وبيدِه، والشرُّ ليس إليه بوَجْهٍ من الوُجوهِ، لا في ذاتِه، ولا في صِفاتِه، ولا في أفعالِه، ولا في أسمائِه، وإن كان في مَفعولاتِه، فهو خيرٌ بإضافتِه إليه، وشَرٌّ بإضافتِه إلى من صَدَرَ عنه ووَقَعَ به.

فتَمَسَّكْ بهذا الأصلِ ولا تُفارِقْه في كلِّ دقيقٍ وجليلٍ، وحَكِّمْهُ على كلِّ ما يَرِدُ

= «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٦، ١٨٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان. وصححه الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٨٣ح١٩٩).

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل السجود والحث عليه (٤/ ١٥٢ - ١٥٣ح٤٨٦) بنحوه.

(٣) في (ك) و(س) في.

(٤) في (ع) ما ضربها، والمثبت هو الصواب.

عليك، وحاكِمْ إليه، واجْعَلْه آخيَّتَك التي تَرْجِعُ إليها، وتَعْتَمِدُ عليها.

واعْلَمْ أنَّ للهِ خصائصَ في خَلْقِه، ورَحمةً وفَضلًا يَخْتَصُّ به مَن يَشاءُ، وذلك مُوجَبُ رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه وَحَمْدِه[١] وحِكْمَتِه، فإيَّاكَ ثم إيَّاكَ أن تُصْغِيَ إلى وَسوسةِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ والنفْسِ الجاهلةِ الظالِمَةِ أنه: هَلاَّ سَوَّى بينَ عِبادِه في تلك الخصائصِ، وقَسَمَها بينَهم على السواءِ؟! فإنَّ هذا عينُ الجهلِ والسفَهِ من الْمُعْتَرِضِ به، وقد بَيَّنَّا فيما تَقَدَّمَ أنَّ حِكْمَتَه تَأْبَى ذلك وتَمْنَعُ منه.

تَرَدُّدُ الأمْرِ بينَ فَضْلِ اللهِ وعَدْلِه

ولكن اعْلَمْ أنَّ الأمْرَ قِسمةٌ بينَ فَضْلِه وعَدْلِه؛ فيَخْتَصُّ برحمتِه مَن يَشاءُ، ويَقْصِدُ بعذابِه مَن يَشاءُ، وهو المحمودُ على هذا وهذا، فالطَّيِّبُونَ من خَلْقِه مَخصوصُونَ بفَضْلِه ورَحْمَتِه، والخبيثونَ مَقصودُون بعَذَابِه، ولكلِّ واحدٍ قِسْطُه من الحكمةِ والابتلاءِ والامتحانِ، وكلٌّ مُسْتَعْمَلٌ فيما هو له مُهَيَّأٌ وله مَخلوقٌ، وكلُّ ذلك[٢] خيرٌ ونَفْعٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ؛ فإنه تعالى خَلَقَهم للخيراتِ فهم لها عاملون، واستَعْمَلَهم فيها فلم يُدْرِكوا ذلك إلا به، ولا اسْتَحَقُّوه إلا بما سَبَقَ لهم من مَشيئتِه وقَسْمِه[٣]، فلذلك لا تَضُرُّهم الأدواءُ ولا السمومُ، بل متى وَسْوَسَ لهم العدوُّ واغتالَهم[٤] بشيءٍ من كَيْدِه، أو مَسَّهُم بشيءٍ من طَيْفِه؛ تَذَكَّروا فإذا هم مُبْصِرون، وإخوانُهم يَمُدُّونَهم في الغَيِّ ثم لا يُقْصِرون، وإذا واقَعُوا معصيةً صغيرةً أو كبيرةً عادَ ذلك عليهم رَحمةً، وانْقَلَبَ في حَقِّهم دواءً، وبُدِّلَ حَسنةً بالتوبةِ النَّصُوحِ والحسناتِ الماحيةِ؛ لأنه سبحانَه عَرَّفهم بنفسِه وبِفَضْلِه، وبأن قُلوبَهم بيدِه، وعِصْمَتَهم إليه، حيث نَقَضَ عَزَماتِهم، وقد عَزَمُوا أن لا يَعْصُوه، وأراهم عِزَّتَه في قَضائِه، وبِرَّه وإحسانَه في عَفْوِه ومَغفرتِه، وأشهدَهم نفوسَهم وما فيها من النقْصِ والظلْمِ والجهلِ، وأَشْهَدَهم حاجتَهم إليه، وافتقارَهم وذُلَّهم، وأنه إن لم يَعْفُ عنهم ويَغْفِرْ لهم؛ فليس لهم سبيلٌ إلى النجاةِ أبدًا؛ فإنهم لَمَّا أَعْطَوْه[٥] من أنفسِهم العزْمَ أن لا يَعْصُوه، وعَقَدُوا عليه قلوبَهم، ثم عَصَوْه بمشيئتِه وقُدْرَتِه؛ عَرَفُوا بذلك عظيمَ اقتدارِه، وجَميلَ سِتْرِه إيَّاهم، وكريمَ حِلْمِه عنهم، وسَعةَ مَغفرَتِه لهم، وَبَرْدَ[٦]

(١) في (س) وحده، والصواب المثبت.
(٢) ساقطة من (ع).
(٣) ساقطة من (ع)، وفي (ك) و(س) وقسمته.
(٤) في (ع) أو اغتالهم.
(٥) في (ك) و(س) أعطوا.
(٦) في (ك) و(س) برد.

عَفْوِه وحنانِه وعَطْفِه ورَأْفَتِه، وأنه حليمٌ ذو أناةٍ لا يَعْجَلُ، ورَحيمٌ سَبَقَتْ رحمتُه غضبَه، وأنهم مَتَى رَجَعُوا إليه بالتوبةِ[١]؛ وَجَدُوه غفورًا رحيمًا حليمًا كريمًا؛ يَغْفِرُ لهم السيِّئاتِ، ويُقِيلُهم العَثَرَاتِ، ويَوَدُّهم بعدَ التوبةِ ويُحِبُّهم، فتَضَرَّعوا إليه حينَئِذٍ بالدعاءِ، وتَوَسَّلُوا إليه بِذُلِّ العبيدِ[٢] وعزِّ الربوبيَّةِ، فتَعَرَّفَ سبحانَه إليهم بحسْنِ إجابتِه، وجميلِ عَطْفِه، وحُسْنِ امتنانِه في أن أَلْهَمَهم دُعاءَه، ويَسَّرَهم للتوبةِ والإنابةِ، وأَقْبَلوا[٣] بقلوبِهم إليه بعدَ إعراضِها عنه، ولم تَمْنَعْهُ معاصيهم وجِناياتُهم من عَطْفِه عليهم، وبِرِّه لهم، وإحسانِه إليهم فتابَ عليهم قبلَ أن يَتوبوا إليه، وأعطاهم قبلَ أن يَسألوه.

فلَمَّا تابوا إليه [واستَغْفَروه وأنابوا إليه][٤]؛ تَعَرَّفَ إليهم تَعَرُّفًا آخَرَ؛ فعرَّفَهم رحمتَه وحُسْنَ عائدتِه، وسَعَةَ مغفرتِه، وكريمَ عفوِه، وجميلَ صفحِه، وبرِّه وامتنانِه وكَرَمِه، وسرعةَ مُبادرَتِه قَبولَهم بعدَ أن كان منهم ما كان من طُولِ الشرودِ، وشِدَّةِ النفورِ، والإيضاعِ في طرُقِ معاصيه، وأَشْهَدَهم مع ذلك حَمْدَه العظيمَ، وبِرَّهُ العميمَ، وكَرَمَه في أن خَلَّى بينَهم وبينَ المعصيةِ فنالوها بنعمتِه وإعانتِه، ثم لم يُخَلِّ بينَهم وبينَ ما تُوجِبُه من الهلاكِ والفسادِ الذي لا يُرْجَى معه صلاحٌ[٥]، بل تَدارَكهم بالدواءِ[٦] الشافي، فاسْتَخْرَجَ منهم داءً لو اسْتَمَرَّ معهم لأَفْضَى[٧] إلى الهلاكِ، ثم تَدارَكهم برُوحِ الرجاءِ فقَذَفَه في قلوبِهم، وأَخْبَرَ أنه عندَ ظُنونِهم به، ولو أَشْهَدَهم عِظَمَ[٨] الجنايةِ وقُبحَ المعصيةِ وغَضَبَه ومَقتَه على مَن عصاه فقط؛ لأَوْرَثَهم ذلك المرضَ[٩] القاتلَ، والداءَ العُضالَ من اليأسِ من رَوْحِه والقنوطِ من رحمتِه، وكان ذلك عينَ هلاكِهم، ولكن رحِمَهم قبلَ البلاءِ، وفي حشوِ البلاءِ، وبَعْدَ البلاءِ، وجَعَلَ تلكَ الآثارَ التي [تُوجِبُها مَعْصِيَتُه][١٠] من الْمِحَنِ والبلاءِ والشدائدِ رحمةً لهم، وسببًا إلى عُلُوِّ دَرجاتِهم ونَيْلِ الزُّلْفَى والكرامةِ عندَه[١١]، فأَشْهَدَهم بالجنايةِ عِزَّةَ الرُّبوبيَّةِ وذلَّ العبيدِ[١٢]، ورَقَّاهُمْ

---

(١) في (ع) تقديم وتأخير في (إليه بالتوبة).
(٢) في (ك) العبودية.
(٣) في (ع) و(ك) و(س) وأقبل.
(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (س).
(٥) في (ك) و(س) فلاح، والمثبت أقرب للسياق.
(٦) في (ك) زيادة: (النائي).
(٧) في (ك) لأخرجهم، وفي (س) لأمضى.
(٨) في (ع) عظيم.
(٩) في (ع) بالمرض، والصواب المثبت.
(١٠) في (ك) توجبها المعصية، وفي (س) توجب معصيتهم.
(١١) في (ع) عندهم، وهو خطأ.
(١٢) في (ك) العبودية.

بآثارها إلى مَنازِلِ قُربِه ونَيْلِ كَرامتِه، فهم على كلِّ حالٍ يَرْبَحون عليه، ويَتَقَلَّبُون في كَرَمِه وإحسانِه، فكلُّ قضاءٍ يَقضِيهِ للمؤمنِ فهو خيرٌ له، يَسُوقُه به[١] إلى كَرامتِه وثوابِه، وكذلك عطاياه الدنيويَّةُ نِعَمٌ منه عليهم، فإذا استَرْجَعها أيضًا منهم، وسَلَبَهم إيَّاها؛ انْقَلَبَتْ من عطايا الآخِرةِ، كما قِيلَ: «إنَّ اللهَ يُنْعِمُ على عِبادِه بالعطايا الفاخرةِ، فإذا اسْتَرْجَعَها كانت من[٢] عطايا الآخِرَةِ»[٣].

والربُّ سبحانَه قد تَجَلَّى لقلوبِ المؤمنينَ العارفينَ، وظَهَرَ لها بقُدْرَتِه وجلالِه وكِبريائِه، ومَضَاءِ مشيئتِه، وعظيمِ سُلطانِه، وعَلِيِّ[٤] شأنِه وكَرَمِه وبِرِّه وإحسانِه وسَعَةِ مَغفرتِه ورَحمتِه، وما ألقاهُ في قلوبِهم من الإيمانِ بأسمائِه وصِفاتِه إلى حيث احْتَمَلَتْهُ القُوَى البَشريَّةُ مِن ذلك، ووراءَه مِمَّا لم تَحْتَمِلْه قُواهم، ولا يَخْطِرُ ببالٍ، ولا يَدخُلُ في خَلَدٍ ما[٥] لا نِسبةَ لِمَا عَرَفُوه إليه.

فاعْلَمْ أنَّ الذين كان قَسْمُهم أنواعَ المعاصي والفجورِ، وفُنونَ الكفْرِ والشرْكِ، والتقَلُّبَ في غَضَبِه وسَخَطِه، قلوبُهم وأرواحُهم شاهدةٌ عليهم بالمعاصي والكفْرِ، مُقِرَّةٌ بأنَّ له الْحُجَّةَ عليهم، وأنَّ حَقَّه قَبْلَهم، ولا يَدْخُلُ[٦] [النَّارَ منهم أحدٌ][٧] إلا وهو شاهدٌ بذلك، مُقِرٌّ به[٨]، مُعْتَرِفٌ اعترافَ طائعٍ مُختارٍ[٩]، لا مُكْرَهٍ مُضْطَهَدٍ.

فهذه شَهادتُهم على أنفسِهم وشَهادةُ أوليائِه عليهم، والمؤمنون يَشْهَدُونَ له[١٠] فيهم بشَهادةٍ أخرى لا يَشهدُ بها أعداؤُه، ولو شَهِدوا بها وبَاؤُوا بها؛ لكانتْ رَحمتُه أقربَ إليهم من عُقوبتِه، فيَشْهَدون بأنهم عَبيدُه ومِلْكُه، وأنه أَوْجَدَهم ليُظْهِرَ بهم مَجْدَه، ويُنَفِّذَ فيهم حُكْمَه، ويُمْضِيَ فيهم عَدْلَه، ويُحِقَّ عليهم كَلِمَتَه، ويُصَدِّقَ فيهم وَعِيدَه، ويَتَبَيَّنَ[١١] فيهم[١٢] سابقَ عِلْمِه، ويَعْمُرُ بها دِيارَهم ومساكنَهم التي هي مَحَلُّ عَدْلِه وحِكمتِه، ويَشْهَدَ[١٣] أولياؤُه عظيمَ مُلْكِه وعِزَّ سُلطانِه وصِدْقَ رُسلِه، وكمالَ حِكمتِه

---

(١) ساقطة من (ك) و(س).
(٢) ساقطة من (ك) و(س).
(٣) في (ك) للآخرة، والمثبت أولى.
(٤) في (ك) و(س) وعلو.
(٥) في (ع) و(ك) و(س) مما.
(٦) في (س) يذكر، وهو تصحيف.
(٧) في (ك) و(س) أحد منهم النار.
(٨) ساقطة من (س).
(٩) ساقطة من (ك) و(س).
(١٠) ساقطة من (ك) و(س).
(١١) في (ك) و(س) يبين.
(١٢) في (س) لهم.
(١٣) في (ك) و(س) وشهد.

وتَمامَ نِعْمَتِه عليهم، وقَدْرَ ما اخْتَصَّهُم به، ومن أيِّ شيءٍ حَماهم وصَانَهم، وأيَّ شيءٍ صَرَفَ عنهم، وأنه لم يكنْ لهم إليه وسيلةٌ قبلَ وُجودِهم يَتوَسَّلُون بها إليه، أن لا يَجعلَهم من أصحابِ الشمالِ، وأن يَجعلَهم من أصحابِ اليمينِ، وشَهِدوا له سبحانَه بأنَّ ما كان منه إليهم وفيهم مِمَّا يَقتضِيه إتمامُ كلماتِه الصدْقَ والعَدْلَ، وصِدْقَ قولِه وتحقيقَ[١] مُقْتَضَى أسمائِه؛ فهو مَحْضُ حَقِّه، وكلُّ ذلك منه حَسَنٌ جميلٌ، له عليه أَتَمُّ حمدٍ[٢] وأَكْمَلُه وأَفْضَلُه، وهو حُكْمٌ عدلٌ، وقضاءٌ فَصْلٌ، وأنه المحمودُ على ذلك كلِّه، فلا يَلْحَقُه منه ظُلْمٌ ولا جَوْرٌ ولا عَبَثٌ، بل ذلك عينُ الحكمةِ ومَحْضُ الحمدِ، وكمالٌ أَظْهَرَه في حَقِّه، وعِزٌّ أَبْدَاهُ، ومُلْكٌ أَعْلَنه، ومُرادٌ له أَنْفَذَه، كما فَعَلَ بالبُدْنِ وضُروبِ الأنعامِ؛ أَتَمَّ بها مَناسِكَ أوليائِه وقَرابينَ عِبادِه، وإن كان ذلك بالنِّسبةِ إلى الأنعامِ إهلاكًا[٣] وإتلافًا، فأعداؤُه الكفَّارُ المشرِكونَ به الجاحدونَ به[٤] أَوْلَى أن تكونَ دماؤُهم قرابينَ أوليائِه، وضَحايا المجاهدينَ في سبيلِه، كما قالَ حَسَّانُ بنُ ثابتٍ[٥]:

يَتَطَهَّرُون يَرَوْنَه قُربانَهم ... بدماءِ من عَلَقُوا به من الكفارِ

وكذلك لَمَّا ضَحَّى خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القَسْريُّ[٦] بشيخِ الْمُعَطِّلَةِ الفرعونيَّةِ الْجَعْدِ بنِ

---

(١) في(ك) و(س) وتحقق. (٢) في(ع) الحمد. (٣) في(ك) و(س) هلاكا.

(٤) ساقطة من (ك) و(س).

(٥) والقائل هو كعب بن زهير، كما ذكر ذلك ابن هشام في «السيرة» (٤/ ٥١٤) وفيه:

يتطهرون يرونه نسكا لهم ....

وحسان هو الصحابي الجليل: حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، المؤيد بروح القدس، شاعر رسول الله ﷺ، وهو من المخضرمين، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، توفي سنة (٥٤هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥١٢ - ٥٢٣ت١٠٦).

وكعب هو الصحابي الجليل: كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، شاعر مشهور، قال أبياتا أهدر بسببها رسول الله ﷺ دمه، وكتب إليه أخوه بجير: النجاء؛ فإن رسول الله لا يأتيه أحد مسلما إلا قبل منه، فقدم المدينة، وأنشد بين يدي رسول الله ﷺ قصيدته المشهورة: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول . فعفا عنه رسول الله ﷺ وكساه بردة. انظر: «الإصابة»، ومعه «الاستيعاب» (٣/ ٢٧٩ - ٢٨٠ت٧٤١٣).

(٦) أبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز البجلي القسري الدمشقي، ولي مكة للوليد بن عبد الملك ثم لسليمان، ثم ولي العراقين الكوفة والبصرة لهشام، روى عن أبيه وجده يزيد، وعنه سيار أبو الحكم وإسماعيل بن أوسط، كان جوادا كريما وخطيبا مفوها، وقد نسبت له أمور لا تصح عنه، فإنه كان قائما في إطفاء الضلال والبدع وسيفا مصلتا على أهل الزيغ؛ بل إن صحت العبارة فهو قصاب الزنادقة، قتل =

دِرْهَمٍ[١] فإنه خَطَبَهم في يومِ أَضْحًى، فلَمَّا أَكْمَلَ خُطبتَه قالَ: «أَيُّهَا الناسُ، ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللهُ ضَحاياكُم، فإنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، إنه زَعَمَ أنَّ اللهَ لم يُكَلِّمْ موسى تكليمًا، ولم يَتَّخِذْ إبراهيمَ خليلًا، تعالى اللهُ عمَّا يَقولُ الْجَعْدُ عُلُوًّا كبيرًا». ثم نَزَلَ فذَبَحَه، وكان ضَحِيَّتَه. ذكرَ ذلك البخاريُّ في كتابِ «خَلْقِ الأفعالِ»[٢].

فهذا شهودُ أوليائِه من شأنِ أعدائِه، ولكنْ أعداؤُه في غَفلةٍ عن هذا؛ لا يَشهدونَه، ولا يُقِرُّون به، ولو شَهِدُوه[٣] وأَقَرُّوا به؛ لأَدْرَكَهم[٤] حنانُه ورَحْمَتُه، ولكن لَمَّا حُجِبُوا عن مَعرفتِه ومَحَبَّتِه وتَوحيدِه، وإثباتِ أسمائِه الْحُسنى وصِفاتِه العُلَى، ووَصْفِه بما يَلِيقُ به، وتَنْزِيهِه عمَّا لا يَليقُ به؛ صاروا أَسْوَأَ حالًا من الأنعامِ، وضُرِبوا بالحِجابِ، وأُبْعِدوا عنه بأقصى البُعْدِ، وأُخْرِجوا من نورِه إلى الظلماتِ، وغُيِّبَتْ قلوبُهم من[٥] الجَهْلِ به، وبكمالِه وجلالِه وعَظَمَتِه في غَياباتٍ[٦]؛ لِيُتِمَّ عليهم أَمْرَه، ويُنْفِذَ فيهم حُكْمَه، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

❊ ❊ ❊

= سنة (١٢٦هـ). انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٢٢٦ - ٢٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٢٥ - ٤٣٢ت١٩١).

(١) الجعد بن درهم، أصله من خراسان ويقال: إنه من موالي بني مروان، سكن دمشق، أخذ بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر الرسول ﷺ عن يهودي باليمن، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان، وأخذ بشر المريسى عن الجهم، وأخذ أحمد بن أبي دؤاد عن بشر. وقد أقام الجعد بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فطلبه بنو أمية فهرب منهم، فسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان، فتقلد هذا القول عنه، ثم إن خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة، وذلك أن خالدا خطب الناس فقال في خطبته تلك: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٣٣ت١٩٢)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٣٩٩ت١٤٨٢)، «والبداية والنهاية» (٩/ ٣٥٠ - ٣٥١).

(٢) (١/ ٢٩). (٣) في (س) شهدوا به.

(٤) في (ك) و(س) لأدركتهم، والصواب المثبت. (٥) في (ك) في.

(٦) في (ك) غابات، وهو تصحيف.

فصلٌ
في أنَّ اللهَ خلقَ دارين
وخصَّ كلَّ دارٍ بأهلٍ

واللهُ سبحانهُ مع كونِهِ خالقَ كلِّ شيءٍ فهو موصوفٌ بالرضا والغضبِ، والعطاءِ والمنعِ، والخفضِ والرفعِ، والرحمةِ والانتقامِ.

فاقْتضتْ حكمتُه تعالى أنْ خلقَ دارًا لطالبي رِضَاهُ، العاملين بطاعتَهَ، المؤثرين لأمرِهِ، القائمين بمحابِّهِ، وهي الجنةُ.

وجعلَ فيها كلَّ شيءٍ مرضيٍّ، وملأَهَا من كلِّ محبوبٍ ومرغوبٍ ومشتهًى ولذيذٍ، وجعلَ الخيرَ بحذافيرِه فيها، وجعلها مَحِلَّ كلِّ طيبٍ من الذواتِ والصفاتِ والأقوالِ.

وخلقَ دارًا أخرى لطالِبِي أسبابِ غضبِهِ وسخطِهِ؛ المؤثرين لأغراضِهِم وحظوظِهِم على مرضاتِهِ، العاملين بأنواعِ مخالفتِهِ، القائمينَ بِمَا يكرُه من الأعمالِ والأقوالِ، الواصفين له بما لا يليقُ به، الجاحدين لما أخبرتْ به رسلُه من صفاتِ كمالِه، ونعوتِ جلالِهِ[1]، وهي جَهنَّمُ.

---

(١) قال المؤلف في «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦١-٣٦٣): «. . . الفرق بين الصفة والنعت من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن النعت يكون بالأفعال التي تتجدد. . . ، والصفة هي الأمور الثابتة اللازمة للذات. . .

الثاني: أنَّ الصفات الذاتية لا يطلق عليها اسم: «النعوت» كـ: «الوجه» و«اليدين» و«القدم» و«الأصابع»، وتُسمَّى صفاتٍ. . .

الثالث: أن النعوت: ما يظهر من الصفات، ويشتهر، ويعرفه الخاص والعام. والصفات أعم.

فالفرق بين النعت والصفة فرْقٌ ما بين الخاص والعام، ومنه قولهم في تحلية الشيء: «نَعْتُهُ كذا وكذا» لما يظهر من صفاته.

وقيل: هما لغتان، لا فرقَ بينهما، ولهذا يقول نحاة البصرة: «باب الصفة»، ويقول نحاة الكوفة: «باب النعت». والمراد واحدٌ. والأمر قريبٌ» اهـ.

وانظر: «اشتقاق أسماء الله» (ص/ ٢٥٧) للزجاجي، «الصاحبي» (ص/ ٨٨) لابن فارس، «الفروق بين المعاني» (ص/ ١٨) للعسكري، «الفروقات» (ص/ ٢٠٠) لإسماعيل حقي، «الكليات» (ص/ ٩٠١) لأبي البقاء.

وأودعَهَا كلَّ شيءٍ مكروهٍ، وشحنَهَا من كلِّ مؤذٍ ومؤلمٍ[١]، وجعل الشرَّ بحذافيرِه[٢] فيها، وجعلَهَا مَحلَّ كلِّ خبيثٍ من الذواتِ والصفاتِ والأقوالِ والأعمالِ.

فهاتانِ الدارانِ هما دارُ القرارِ.

اقتضاءُ الحكمةِ خلقَ الدُّنيَا ومَا فِيها:

اقتضاءُ الحكمةِ خلقَ الدنيا ومَا فِيها

وخلقَ دارًا ثالثةً هي كالمِينَا[٣] لهاتين الدارين، ومنها يتزودُ المسافرون إليهما، وهي دارُ الدنيا. ثم أخرج إليها من آثارِ الدارين بعضَ ما اقتضته أعمالُ أربابِهما[٤]، وما يُستدلُ به عليهما حتى كأنهما رأيُ عينٍ؛ ليصيرَ للإيمان[٥] بالداريْن - وإنْ كانَ غيبًا - وجهُ شهادةٍ؛ تستأنسُ به[٦] النفوسُ، وتستدلُ بهِ.

فأخرجَ سبحانه إلى هذه الدار من آثارِ رحمتِه من الثمارِ والفواكهِ والطيباتِ والملابسِ الفاخرةِ، والصورِ الجميلةِ، وسائرِ ملاذِّ النفوسِ ومشتهاها ما هو نفحةٌ من نفحاتِ الدار التي جعلَ ذلك كلَّه فيها على وجهِ الكمالِ.

فإذا رآهُ المؤمنون ذَكَّرَهم بما هناك من الحَبْرَةِ[٧] والسرورِ والعيشِ الرَّخِيِّ، كما قيل:

فإِذَا رآكَ المسلمُون تيقَّنُوا ... حُورَ الجنانِ لدى النعيمِ الخالِدِ[٨]

فشمَّروا إليه، وقالوا: «اللَّهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةِ»[٩]، . . . .

---

(١) في ك: «وسجنها من كل مُؤذٍ ومؤلم»، وفي س: «وسجنها ملأ كلِّ شيء مُؤذٍ ومؤلم».

(٢) في ك: «بحذافيرها». وهو غلط.

(٣) المينا -بالكسر والقصر-: كل مرسى للسفن. انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٢٣٧)، «القاموس المحيط» (ص/ ١٥٩٥).

(٤) في س: «أربابها». (٥) في ك و س: «الإيمانُ». وهو غلط. (٦) في ع: «تستأثِرُ به».

(٧) في ك و س: «من الخَيْر»، والحَبْرة -بفتح فسكون-: السرور والنَّعْمةُ-التي يَظْهر أثرُها-، وسعةُ العيْش، ويقال: الحَبَرَةُ - بفتحتين -، والحَبْرُ، والحُبُورُ. انظر: «لسان العرب» (٣/ ١٥)، «الصحاح» (١/ ٥٣٨)، «القاموس» (ص/ ٤٧٢).

(٨) لم أجده.

(٩) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٧٠)، (١٨٠)، (٢٠٥)، والبخاري رقم (٢٨٣٥)، ومسلم رقم (١٨٠٥): عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كانت الأنصار يوم الخندق تقول:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا =

وأحدثتْ[١] لهم رؤيتُه عزماتٍ وهِممًا وجِدًّا[٢] وتشميرًا؛ لأن النعيمَ يذكِّرُ بالنعيمِ، والشيءَ يذكرُ بجنسِه.

فإذا رأى أحدُهم ما يعجبُه ويروقُه - ولا سبيلَ له إليه - قال: «موعدُك الْجنَّةُ، وإنما هي عشيةٌ أوضُحاها».

= فأجابهم، فقال:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة».

وله ألفاظ.

وأخرج البخاري -الموضع السابق-رقم (٣٧٩٧)، ومسلم -الموضع السابق-رقم (١٨٠٤): عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: «جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق، وننقل التراب على أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار»

قوله: «**لا عيش**» أي: لا عيش باقٍ، أو لا عيش مطلوب.

ولا تعارض بين قوله ﷺ: «**اللهم لا عيش... الخ**» ، وقوله:

«أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابنُ عبدِ المطلبْ»

وقوله:

«هل أنت إلا أصبع دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ»

ونحوه، وبين قوله -تعالى-: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: الآية ٦٩] إذ إنه وقع اتفاقًا من غير قصْد كما يقع في كثير من كلام الناس؛ فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبرٌ لكان على وَزْن الشعر ولا يعدونه شعرًا. هذا أحسن ما قيل في وجْه الجمع، والله أعلم. انظر: «مشكل الآثار» (٨/ ٣٧٤-٣٨٧) للطحاوي، «شرح مسلم» (١٢/ ١١٨) للنووي، «فتح الباري» (٧/ ٣٩٤)، «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (ص/ ٥٠٨) لأبي يحيى زكريا الأنصاري، «فتح القدير» (٤/ ٣٧٩).

(١) في س: «وأحدث».

(٢) الهمة -بكسر الهاء، وتُفْتح-: أولُ العزيمة، وهي عَقْد القلب على فِعْل الشيء قبل أنْ يفعل من خير أو شرٍّ. والعزيمة الإرادة الجازمة.

قال المؤلف في «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٥): «... والفرق بين الجدِّ والعزم: أن العزم صدْق الإرادة واستجماعها، والجد صدق العمل، وبذل الجهد فيه».

وقد أمر الله ﷻ بتلقي أوامره بالعزم والجدِّ فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: الآية ٦٣] وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥]، وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: الآية ١٢] . اهـ.

انظر: «القاموس» (ص/ ١٤٦٨)، «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص/ ٥١٣)، (٧٤٣) للمناوي.

فوجودُ تلك المُشتَهَيَاتِ والملذوذاتِ في هذه الدارِ رحمةٌ من اللهِ؛ يسوقُ بها[(١)] عبادَه المؤمنين إلى تلك / الدارِ/[(٢)] - التي هي أكملُ منها، وزادٌ لهُمْ من هذِهِ الدارِ إليها.

فهي زادٌ وعبرةٌ ودليلٌ وأثرٌ من آثارِ رحمتِهِ التي أودعها تلك الدارَ.

فالمؤمنُ يهتزُّ برؤيتِها إلى ما أمامَه، ويثيرُ ساكنَ عزماتِهِ إلى تلك، فنفسُه ذواقةٌ تواقةٌ[(٣)]؛ إذا ذاقت شيئًا منها؛ تاقتْ إلى ما هو أكملُ منه حتى تتوقَ إلى النعيمِ المقيمِ، في جوارِ الربِّ الكريمِ.

وأخرجَ سبحانه إلى هذِهِ الدارِ - أيضًا - من آثارِ غضبِهِ ونقمتِهِ من العقوباتِ والآلامِ والمحنِ والمكروهاتِ من الأعيانِ والصفاتِ ما يُستدلُ بجنسِهِ على ما في دارِ الشقاءِ من ذلك، مع أنَّ ذلكَ من آثارِ النَّفَسَين: الشتائيِّ والصيفيِّ[(٤)] اللَّذينِ أذِنَ اللهُ سبحانَه بحكمتِهِ لِجهنَّمَ أن تتنفسَ بهما[(٥)]، فاقتضى ذانك النَّفَسانِ[(٦)] آثارًا ظهرتْ في هذِهِ الدارِ، كانَتْ دليلًا وعبرةً عليها.

وقد أشارَ تعالى إلى هذا المعنى، ونبَّه[(٧)] عليه بقولِهِ في نارِ الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝﴾ [الواقعة: الآية ٧٣]، تذكرةً تُذكِّرُ بنارِ الآخرةِ[(٨)]، ومنفعةً للنازلين

---

(١) في ع: «يشوِّق».

(٢) ما بين القائمين سقط من الأصل و ع، وهو في ك و س.

(٣) أي: شديدة الشَّوْق. يقال: تاقَتْ نفسُه إلى كذا، تَوْقًا وتؤُوقًا وتياقَةً وتوَقانًا، وتاقت كذا ك: «تاقت إليه».
انظر: «لسان العرب» (٢/ ٦٣)، «الصحاح» (٤/ ١٢٠٢)، «القاموس» (ص/ ١١٢٤).

(٤) في ك و س: «الشتاء والصيف».

(٥) في ع: «فيهما».
أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»، كتاب: وقوت الصلاة، باب: النهي عن الصلاة بالهاجرة، رقم (٢٧)، (ص/ ١٥)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٣٨)، رقم (٥٣٦)، ومسلم ح (٦١٧): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: **«اشتكت النار إلى ربِّها فقالت: ربِّ أكل بعضي بعضًا، فأَذِنَ لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحرِّ، وأشد ما تجدون من الزمهرير»**.

(٦) في ع و ك: «فاقتضت تلك النفسانِ».   (٧) في ع: «فنبَّه».

(٨) في ك و س: «تذكرةً يذكر بها الآخرة». أي: تذكرة للناس في الدنيا إذا أحسوا شدة حرارتها بنار الآخرة - التي هي أشد منها حرًّا -؛ لينزجروا عن الأعمال المسبِّبة لدخول النار، وهذا هو المأثور عن الأكثر. =

بالقواءِ وهم المسافرون(١)، يقال: «أقوى الرجلُ» إذا نزل بالقِيِّ، والقَوَى - وهي الأرضُ الخاليةُ -، وخَصَّ المقوين بالذكرِ - وإن كانت منفعتُها عامَّةً للمسافرين والمقيمين؛ تنبيهًا لعبادِهِ - والله أعلمُ بمرادِهِ من كلامه - على أنهم كلُّهم مسافرون، [وأنَّهُم](٢) في هذهِ الدارِ على جناحِ سفرٍ، ليسوا مقيمين، ولا مستوطِنين، وأنهم عابِرُو(٣) ....

= وقيل: «تذكرةً»: أي: تبصرةً في أمر البعث؛ لأنَّ من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها قادرٌ على إعادة ما تفرقت موادُّه. وقيل: تبصرةً في الظلام: يبصر بضوئها، قاله مجاهد وقتادة، انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٨) لابن كثير، «روح المعاني» للآلوسي (٢٧/ ١٥٠)، «فتح القدير» (٥/ ١٥٨) للشوكاني، «أضواء البيان» (٧/ ٧٩٦) للشنقيطي.

(١) في ك وس: «وهم مسافرون».
وهذا قول أكثر المفسرين، وهو مروي عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك، واختاره ابن جرير والبخاري، ورجحه ابن عطية والبغوي، واستظهره الشوكاني.
وقيل: المُقْوون: الجائعون، وهو مروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
وقيل: هم المستمتعون بالنار أجمعون، وهو مروي عن مجاهد وعكرمة وخصيف.
وقيل: هم الذين لا زاد معهم، ولا مَرَدَّ لهم، وهم الفقراء، قاله أبو عبيدة.
انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٢٠٢) لابن جرير، و«الجامع الصحيح» (٨/ ٣٩٩) للبخاري، «المحرر الوجيز» (١٤/ ٢٦٣) لابن عطية، «زاد المسير» (٨/ ١٤٩) لابن الجوزي، «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤/ ٩٢) لابن جزيٍّ، وعلى القول بأن المقوين هم: المسافرون، أو الجائعون، أو الفقراء: ليس للآية مفهوم مخالفة؛ لأنها واردة للامتنان، وهو مانع من موانع اعتبار مفهوم المخالفة-كما أشار إلى ذلك الشنقيطي في «مراقي السعود» (ص/ ٢٤):

.... ودَعْ إذا الساكتُ عنه خافا
أو جَهلَ الحكْمَ، أو النطقُ انجلَبْ للسُّؤل، أو جَرَى على الذي غَلَبْ
أو امتنانٍ أو وفاقِ الواقِعِ والجهلِ والتأكيد عند السامع» اهـ

انظر: «نشر البنود على مراقي السعود» (١/ ٩٢)، «أضواء البيان» (٧/ ٧٩٦).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في ك و س: «عابروا» -بالألف-. والقاعدة عند المتأخرين أنه: «لا تزاد الألف بعد الواو -التي هي علامة الرفع-في جمع المذكر السالم المضاف، وتزاد بعد الواو -التي هي واو الجماعة المتطرِّفة-، وتسمى ألف الفصل، أو الألف الفارقة؛ لأنها تفصل، وتُفْرِّق بين هاتين الواوين، تقول: عابرو سبيلٍ، عبروا، لم يعبروا، اعبُروا... الخ. انظر: «دليل الإملاء» (ص/ ٤٣) لفتحي الخولي، «فن الإملاء في العربية» (٢/ ٨١٤) للدكتور عبد الفتاح الحموز، «المرجع في الإملاء» (ص/ ١١٤) لراجي الأسمر.

سبيلٍ، وأبناءُ سفرٍ[١].

والمقصودُ أنَّهُ سبحانَه أشهدَهم في هذه ما أعدَّ لأوليائِه وأعدائِه في دارِ القرارِ، وأخرج إلى هذه الدار من آثارِ رحمتِه وعقوبتِه ما هو عبرةٌ ودِلالةٌ على ما هناك مِن خيرٍ وشرٍّ، وجعل هذه العقوباتِ والآلامَ والمحنَ والبلايا سياطًا[٢] يسوقُ بها عبادَه المؤمنين، فإذا رَأَوْهَا حَذِروا كلَّ الحذرِ، واستدلُّوا بما رَأَوْه منها، وشاهدُوه على ما في تلكَ الدارِ مِنْ المكروهاتِ والعقوباتِ، وكان وجودُها في هذه الدار وإشهادُهم إيَّاها، وامتحانُهم باليسيرِ منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرةً وتنبيهًا.

حكمةُ الامتزاجِ والاختلاطِ

ولما كانت هذه الدارُ ممزوجًا خيرُها بشرِّها، وأذاها براحتِها، ونعيمُها[٣] بعذابِها؛ اقتضتْ حكمةُ أحكمِ الحاكمين أن خَلَّصَ خيرَها من شرِّها، وخصَّه بدارٍ أخرى هي دارُ الخيراتِ المحضَةِ، ودارُ الشرورِ[٤] المحْضَةِ، فكتب على هذه الدارِ حُكْمَ الامتزاجِ والاختلاطِ، وخلطَ فيها بين الفريقين، وابتلى بعضَهم ببعضٍ، وجعل بعضَهم لبعضٍ فتنةً، حكمةً بالغةً بهرتِ العقولَ، وعزةً قاهرةً، فقام بهذا الاختلاطِ سوقُ العبوديةِ كما يحبُّه، ويرضاهُ، ولم تكنْ[٥] تقومُ عبوديتُه - التي يحبها، ويرضاها - إلا على هذا الوجهِ، بل العبدُ الواحدُ جَمَع فيه بين أسبابِ الخيرِ والشرِّ، وسَلَّطَ بعضَه على بعضٍ؛ ليستخرجَ منه ما يحبُّه من العبوديةِ - التي لا تحصلُ إلا بذلك -.

فلما حصُلتِ الحكمةُ المطلوبةُ من هذا الامتزاجِ والاختلاطِ أعقبهُ بالتميزِ

---

(١) وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٢٢): «... قال القشيري: وخص المسافر بالانتفاع بها؛ لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم؛ لأنَّ أهل البادية لابد لهم من النار؛ يوقدونها ليلًا؛ لتهرب منهم السباع، وفي كثير من حوائجهم» اهـ.

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨): «... ثم من لطف الله -تعالى- أنْ أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حَمْل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده، وأورى وأوقد نارًا، فأطبخ بها، واصطلى بها، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات؛ فلهذا أفرد المسافرون -وإنْ كان ذلك عامًّا في حقِّ الناس كلهم» اهـ.

وانظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٦٣)، «روح المعاني» (٢٧/ ١٥٠)، «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٢٧٤) للسعدي.

(٢) في ع: «سببًا لها». (٣) في س: «وتنعيمها».

(٤) في ك و س: «السرور». وهو خطأ. (٥) في ع و ك: «ولم يكن».

والتخليصِ؛ فميز بينهما بدارينِ ومحلينِ، وجعل لكل دارٍ ما يناسبُها، وأسكنَ فيها مَنْ يناسبُها، وخلقَ المؤمنينَ المتَّقينَ المخلصينَ لرحمتِه، وأعداءَهُ الكافرينَ لنقمَتِهِ، والمُخَلَّطين للأمرينِ [معًا][(١)]، فهؤلاءِ أهلُ الرحمةِ، وهؤلاءِ أهلُ النقمةِ، وهؤلاءِ أهلُ الرحمةِ والنقمةِ، وقِسْمٌ آخرُ لا يستحقون ثوابًا ولا عقابًا.

ورتَّبَ على كلِّ قسمٍ من هذه الأقسامِ[(٢)] حُكْمَه اللائقَ به، وأظهرَ فيه حكمتَه الباهرةَ[(٣)]؛ ليعلمَ العبادُ كمالَ قدرتِه وحكمتِه، وأنه يخلقُ ما يشاءُ، ويختارُ من خلقِه مَن يصلُحُ للاختيارِ، وأنه يضعُ ثوابَه موضعَه، وعقابَه موضعَه، ويجمعُ بينهما في المَحَلِّ المقتضِي لذلكَ، ولا يظلمُ أحدًا، ولا يبخسُه شيئًا من حقِّه، ولا يعاقبُه بغيرِ جنايتِه.

هذا مع ما في ضمنِ هذا الابتلاءِ والامتحانِ مِنَ الحِكَمِ الراجعةِ إلى العبيدِ أنفسِهم: مِنِ استخراجِ صبرهِم وشكرهِم وتوكلِهم وجهادِهم، واستخراجِ كمالاتِهم[(٤)] الكامنةِ[(٥)] في نفوسِهم من القوةِ إلى الفعلِ[(٦)]، ودفعِ الأسبابِ بعضِها ببعضٍ، وكسرِ كلِّ شيءٍ بمقابِلِهِ، ومصادمتِه بضدِّهِ[(٧)]؛ ليظهرَ عليه آثارُ القهرِ، وسماتُ الضعفِ والعجزِ، ويستيقنَ[(٨)] العبدُ أنَّ القهارَ لا يكونُ إلا واحدًا، وأنه يستحيلُ أن يكونَ له شريكٌ، بل القهرُ والوحدةُ متلازمان؛ فالملكُ والقدرةُ والقوةُ[(٩)] والعزةُ كلُّها للهِ الواحدِ القهارِ،

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.
(٢) في ك وس: «هذه الأقسام الخمسة».
(٣) في ع: «حكمته القاهرة».
(٤) في ع: «حالاتهم». وهو غلط.
(٥) أي: المختفية. يقال: «كَمِنَ له -كنَصَر، وسَمِعَ-، كُمُونًا، وأَكْمَنَه». انظر: «لسان العرب» (١٢/ ١٦٠)، «الصحاح» (٤/ ١٧٥٤)، «القاموس» (ص/ ١٥٨٤).
(٦) القوة: كَوْن الشيء مستعدًّا لأَنْ يوجَد، ولم يوجَد. والفعل: كونه خارجًا من الاستعداد إلى الوجود.
انظر: «المفردات» (ص/ ٦٩٤) للراغب الأصفهاني، «الكليات» (ص/ ٧١٧)، «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص/ ٥٩٣).
(٧) في ك و س: «وكَسْر كلِّ شيء بمقابلته ومصادمته بضدِّه». وهو أظهر.
(٨) في ك وس: «ويتيقَّن».
(٩) الفرق بين: «القدرة»، و«القوة» من وجهين:
أحدهما: أن القدرة يقابلها العجز، والقوة يقابلها الضعف، فالقوة أكمل من القدرة؛ إذ هي القدرة التامة.
الثاني: أن القدرة لا تضاف إلا إلى العاقل، والقوة تضاف إلى العاقل، وإلى غيره، فتقول: «إنسان قادر، وقوي، وجدار قوي... الخ». انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٧٥)، «المعجم الفلسفي» (٢/ ١٨٨) للدكتور جميل صليبا.

وَمَنْ سواه مربوبٌ مقهورٌ، له ضِدٌّ ومنافٍ[(١)] ومشارِكٌ.

أمثلةٌ على ذلك

فخَلَقَ الرياحَ، وسلَّط بعضَها على بعضٍ، تُصادِمُها وتَكْسَرُ سَوْرَتَها[(٢)]، وتذهبُ بها، وخَلَقَ الماءَ وسلَّطَ عليه الرياحَ تُصَرِّفُهُ وتكْسِرُه، وخَلَقَ النارَ وسلَّط عليها الماءَ يكسرُها، ويطفئُها، وخَلَقَ الحديدَ وسلَّط عليه النارَ تُذِيبُه وتَكْسَرُ قوتَه، وخلقَ الحجارةَ وسلَّط عليها الحديدَ يكسرُها ويُفَتِّتُهَا[(٣)]، وخَلَقَ آدمَ وذريَّتَه وسلَّط عليهم إبليسَ وذريَّتَه، وخَلَقَ إبليسَ وذريَّتَه وسَلَّطَ عليهم الملائكةَ يُشرِّدونهم كُلَّ مُشَرَّدٍ، ويَطرُدُونهم كلَّ مَطْرِدٍ، وخَلَقَ الحرَّ والبردَ والشتاءَ والصيفَ وسلَّط كلًّا منها[(٤)] على الآخر يُذْهبه ويقهرُه، وخَلَقَ الليلَ والنهارَ وقهرَ كُلًّا منهما بالآخرِ، وكذلك الحيوانُ على اختلافِ ضروبِهِ من حيوانِ البرِّ والبحرِ، لكلٍّ منه[(٥)] مُضادٌ ومغالبٌ.

فاستبان للعقولِ والفطرِ أن القاهرَ الغالبَ لذلك كلِّه واحدٌ، وأنَّ[(٦)] من تمام مُلْكِهِ إيجادَ العالَمِ على هذا الوجهِ، ورَبْطَ بعضِه ببعضٍ[(٧)]، وإحواجَ[(٨)] بعضِه إلى بعضٍ، وقَهْرَ بعضِه ببعضٍ، وابتلاءَ[(٩)] بعضِه ببعضٍ، وامتحانَ خيرِه وشرِّه، وجَعْلَ شرِّه لخيرِهِ[(١٠)] الفداءَ، ولهذا يُدْفَعُ إلى كلِّ مؤمنٍ يومَ القيامةِ كافرٌ[(١١)] فيقالُ له: «هَذَا فِدَاؤُك مِنَ النارِ»[(١٢)].

---

(١) في ع: «له ضدٌّ ومناوٍ».

(٢) أي: شدَّتَهَا وحِدَّتَهَا. انظر: «لسان العرب» (٦/ ٤٢٥)، «الصحاح» (١/ ٥٩٣)، «القاموس». (ص/ ٥٢٧).

(٣) في س: «ويفتقها».

(٤) في ك و س: «كلًّا منهما».

(٥) في ك و س: «لكلٍّ منهم».

(٦) في ع و س: «وأنَّه».

(٧) في س: «وربط بَعْضَه على بعضٍ».

(٨) في ع: «وإِخْرَاج». وفي س: «وأحْوجَ».

(٩) في س: «وابْتَلَى».

(١٠) في س: «بخيرِهِ».

(١١) في س: «كافرًا»، وعليه يكون الفعل: «يدفع» مبنيًا للمعلوم.

(١٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩١)، (٤٠٢)، (٤٠٧)، (٤٠٨)، (٤١٠)، ومسلم حديث، رقم (٢٧٦٧): عن أبي موسى رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة دَفَعَ الله** عَزَّوَجَلَّ **إلى كل مسلم** يهوديًا أو نصرانيًا، فيقول: هذا فكاكك من النار». وفي لفظ: «**لا يموت رجلٌ مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديًا أو نصرانيًا**». وفي لفظ آخرَ: «**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى**».

والفكاكُ -بالفتح والكسر، والفتح أفصح وأشهر- هو الخلاص والفداء. وأخرج أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٨): عن أبي موسى رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ هذه الأمة مرحومة؛ جَعَل الله عذابها بينها**، =

. . . .

= **فإذا كان يوم القيامة دُفع إلى كل امرئ منهم رجلٌ من أهل الأديان، فيقال: هذا يكون فداؤك من النار»**.
وأخرج ابن ماجه في «سننه»، كتاب: الزهد، رقم (٤٢٩٢) عن أنس بن مالك ﵁ نحوه.
أما كون اليهودي أو النصراني فداءً للمسلم من النار: فقال القاضي عياض في «إكمال المعلم بفوائد مسلم» (٨/ ٢٧١): «. . . معنى ذلك: أنَّ من استوجب النار لذنوبه من المؤمنين تفضل الله عليه برحمته، وغفر له ذنوبه، وعافاه من النار، وأنَّ من لم يكن أهلًا للعقوبة فهو معافى منها ابتداءً لفضل الله؛ فإنما يصلاها الأشقى -الذي كذَّب وتولى-، فهم أهلها، وعوَضُ هؤلاء الذين هم في النعيم. فتسميتهم فكاكًا لذلك». اهـ.

وليس فيما ذكر ﵀ إيضاح لكون الكافر فداءً للمسلم - كما قال الأبي في «إكمال إكمال المعلم» (٧/ ١٦٩)-، والأقرب تفسير ذلك بحديث أبي هريرة ﵁ أنَّ النبي ﷺ قال: **«ما منكم من رجل إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله»**، قال: **«فذلك قوله»**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: الآية ١٠] أخرجه ابن ماجه في «سننه»، رقم (٤٣٩٧)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٤٤٢)، والألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، رقم (٢٢٧٨)، وحديث أبي هريرة ﵁: قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار - لو أساء - ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة -لو أحسن-؛ ليكون عليه حسرة»** أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥١٤)، والبخاري في «صحيحه»، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم (٦٣٤١).
وبيان ذلك أن يقال: إن الله -تعالى- جعل للجنة أهلًا، وللنار أهلًا، وكل إنسان معرض لدخول الجنة، ولدخول النار، فإذا دخل المؤمن الجنة خلفه الكافر في النار؛ لاستحقاقه ذلك بكفره، فصار في معنى الفكاك للمؤمن.

كذا قرره البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٦٩) - (٢٧٤)، والنووي في «شرح مسلم» (١٧/ ٨٥)، والأبي في «إكمال إكمال المعلم» (٧/ ١٦٩)، والسنوسي. في «مكمل إكمال الإكمال» (٧/ ١٦٨)، والقرطبي في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٧/ ٢٠١)، و«التذكرة» (ص/ ١٥١)، والمناوي في «فيض القدير» (١/ ٤٢٨).

وقد علل البخاري هذا الحديث في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٥)، وقال: «. . . الخبر عن النبي ﷺ في الشفاعة، وأنَّ قومًا يعذبون ثم يخرجون من النار: أكثر وأبيَنُ» اهـ. قال البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٧٣): «. . . وحديث أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قد صح عند مسلم بن الحجاج وغيره، -رحمهم الله-، . . . ، ووجهه ما ذكرناه، وذلك لا ينافي حديث الشفاعة؛ فإنَّ حديث الفداء -وإن ورد مورد العموم في كل مؤمن- فيحتمل أنْ يكون المراد به كل مؤمن قد صارت ذنوبه مكفَّرةً بما أصابه من البلايا في حياته. . . ، وحديث الشفاعة يكون فيمن لم تصِرْ ذنوبه مكفَّرةً في حياته، ويحتمل أنْ يكون هذا القول لهم في حديث الفداء بعد الشفاعة. والله أعلم». اهـ، وانظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٠٥). =

وهكذا المؤمنُ[١] في الدنيا يُسلَّطُ عليه[٢] من الابتلاءِ والامتحانِ والمصائبِ ما يكون فداءَه من عذابِ اللهِ، وقد تكونُ تلك الأسبابُ فداءً له من شرورٍ أكبرَ[٣] منها في هذا العالم - أيضًا -.

فليعطِ اللبيبُ هذا الموضعَ حقَّه من التدبرِ؛ يتبينْ له حكمةُ اللطيفِ الخبيرِ.

فصل

إثباتُ الحكمةِ للهِ

وقدْ تقرَّرَ أن اللهَ سبحانَه كاملُ الصفاتِ، له الأسماءُ الحسنى، ولا يكونُ عن الكاملِ في ذاتِه وصفاتِه إلا الفِعْلُ المُحْكَمُ.

خلقُ اللهِ العبادَ على الفطرةِ

وهو سبحانه خَلَقَ عبادَه على الفطرةِ، وكلُّ مَوْلودٍ فإنما يُولدُ على الفطرةِ - التي فُطِرَ الخلائقُ عليها - ولكنَّ الآباءَ والكافِلِيْن للمولودِين يخرجونَهُم عن[٤] الفطرةِ، ويعدلونَ بهم عنها، ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرَها، ولكنْ أخرجوهم عن سَنَن الحنيفيةِ[٥]، ....

= وأما قوله ﷺ: «ويضعها على اليهود والنصارى»: فقال القرطبي في «المفهم» (٧/ ٢٠١): «... أي: أنه يضاعف عليهم عذاب ذنوبهم حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم وجُرْم مذنبي المسلمين-لو أخذوا بذلك-؛ وله -تعالى-أنْ يضاعف لمن يشاء العذاب، ويخففه عمَّنْ يشاء؛ بحكم إرادته العذاب ومشيئته؛ إذ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» اهـ. وهذا لا يصح؛ إذ هو مبنيٌّ على نفي الحِكَم والأسباب والعلل.

والأظهر ما قاله النووي في «شرح مسلم» (١٧/ ٨٥): «... معناه: أن الله -تعالى-يغفر تلك الذنوب للمسلمين، ويسقطها عنهم، ويضع على اليهود والنصارى مثلها بكفرهم وذنوبهم، فيدخلهم النار. بأعمالهم لا بذنوب المسلمين، ولا بد من هذا التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤]..

وقوله: «ويضعها» مجاز، والمراد: يضع عليهم مثلها بذنوبهم -كما ذكرناه- لكن لما أسقط ﷺ - عن المسلمين سيئاتهم، وأبقى على الكفار سيئاتهم، صاروا في معنى من حمل إثم الفريقين؛ لكونهم حملوا الإثم الباقي -وهو إثمهم-» اهـ.

(١) في ع: «وهكذا يكون المؤمن». (٢) في ك: «يُسلِّط اللهُ عليه». (٣) في ك وس: «أكثرَ».

(٤) في ك: «يخرجونهم من».

(٥) الحنيفية: مأخوذة من الحَنَف، يقال: «حَنِفَ ك: «فرح»، وحَنُف ك: «كَرُم»، فهو أحنفُ»، والمصدر الحَنَفُ -محركةً-. اختلف في أصله:

فقيل: هو الميل، ومنه: «رَجُلٌ أَحْنَفُ، وحَنْفاء»، وهو الذي تميل قدماه كلُّ واحدة إلى أختها، وقول =

وأفسدوا فطرَهم وقلوبَهم(١).

= أمّ الأحنف بن قيس ترقصه، وهو صبي:

والله لولا حَنفٌ برجلِهِ — ما كان في فتيانكم مِن مِثْلِهِ

وقول الشاعر:

إذا حَوَّل الظل العشي رأيتَه — حنيفيًا، وفي قَرْن الضحى يَتَنَصَّرُ

وهو يستعمل في الميل إلى الخير، والجَنَف -بالمعجمة- يستعمل في الميل إلى الجور.

وقيل: أصله «الاستقامة» والإقبال، وسُمِّي مائل القدمين بذلك؛ تفاؤلًا بالاستقامة، كما قيل للديغ: «سليمٌ»، وللمهلكة: «مفازةٌ»، وما أشبه ذلك.

فالحنيف على الأول هو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، أو من الشرك إلى التوحيد، و-على الثاني: هو المقبل على الله - تعالى - المستقيم على طاعته.

قال المؤلف في «جلاء الأفهام» (ص/ ١٥٥): «... والحنيف: المقبل على الله، المعرض عما سواه، ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى؛ فإن الحنَف هو الإقبال، ومَن أقبل على شيء مال عن غيره، والحَنَفُ في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلُها عن جهتها...» اهـ، وقال في «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٢١٥): «... والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميلُهُ عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعه لغةً» اهـ. وقال شيخه ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٣٩): «... والحنيف: المستقيم إلى ربه دون ما سواه» اهـ، وانظر: «الصحاح» (٣/ ١١٢)، «القاموس» (ص/ ١٠٣٦)، (١٠٣١)، «مفردات ألفاظ القرآن» (ص/ ٢٦٠) للراغب الأصفهاني، «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٤٥١)، «الكليات» (ص/ ٣٥٩)، (٤٠٩).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٣٣)، (٢٧٥)، (٣٩٣)، والبخاري، رقم (١٣٥٨)، ومسلم في كتاب: القدر، باب: معنى: «**كل مولود يولد على الفطرة**»...، رقم (٢٦٥٨): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تُنْتَج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحِسُّون فيها مِن جَدْعاء؟**» ثم يقول أبو هريرة: «اقرؤوا -إنْ شئتم-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠]. وفي لفظ لمسلم: «**ما من مولود إلا يُلد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويُشَرِّكانه**» فقال رجلٌ: «يا رسول الله أرأيت لو مات قبل ذلك؟ قال: «**اللهُ أعلم بما كانوا عاملين**». وفي لفظ آخر: «**ليس من مولود يُولد إلا على هذه الفطرة حتى يُعَبِّر عنه لسانه**».

قوله: «**تُنْتَج**» -بضمِّ أوله، وفتح المثناة، بعدها جيم، ورَفْع: «البهيمةُ»، ونَصْب: «بهيمةً» -أي: كما تَلِدُ البهيمةُ بهيمةً.

وقوله: «**يُلِدُ**» قال النووي في «شرح مسلم» (١٦/ ٢٠٩): «... هكذا هو في جميع النسخ: «يُلِدُ» بضم الياء المثناة تحت، وكسْر اللام، على وزن: «ضُرِب»، حكاه القاضي عن رواية السمرقندي، قال: وهو صحيح على إبدال الواو ياءً؛ لانضمامها. قال: وقد ذكر الهجري في نوادره: يقال: «وُلِدَ» و«يُلِدُ» بمعنى. قال القاضي: ورواه غير السمرقندي: «يولد». والله أعلم اهـ.

بالأضدادِ تخرجُ بعضُ المخلوقاتِ عن سننِ الإتقانِ

وهكذا بالأضدادِ والأغيارِ يَخرجُ بعضُ المخلوقاتِ عن سننِ الإتقانِ والحكمةِ، ولولا تلك الأضدادُ والأغيارُ، لكانت في مرتبتِها كالمولودِ في فطرتِه، ولذلك أمثلة:

المثالُ الأول

المثالُ الأولُ: أن الماءَ خلَقَه اللهُ - [في الأصل][١] - طاهرًا مطهِّرًا، فلو تُرِكَ على حالتِه - التي خُلِقَ عليها -، ولم يخالطْه ما يُزيلُ طهارتَه لم يكنْ إلا طاهرًا، ولكنْ بمخالطتِه أضدادَه[٢] من الأنجاسِ والأقذارِ تغيرت أوصافُه، وخرج عن الخِلْقةِ - التي خُلِقَ عليها - فكانت تلك النجاساتُ والقاذوراتُ بمنزلةِ[٣] أبوي الطفلِ وكافليهِ[٤] - الذين يهوِّدُونه، وينصِّرُونه، ويمجِّسُونه، ويشرِّكونه -.

[و][٥] كما أن الماءَ إذا فسد بمخالطةِ الأنجاسِ والقاذوراتِ لم يصلحْ للطهارةِ؛ فكذلك القلوبُ إذا فَسَدت فِطرُها بالأغيارِ؛ لم تصلحْ لحظيرةِ القُدْس[٦].

المثالُ الثاني

المثالُ الثاني: الشرابُ المعْتَصَرُ من العنبِ؛ فإنه طيبٌ يصلحُ للدواءِ ولإصلاحِ الغذاءِ وللمنافعِ[٧] - التي يصلحُ لها -[٨]، فلو[٩] خُلِّي على حالِه؛ لم يكن إلا طاهرًا طيِّبًا، ولكن أُفْسد بتهيئتِهِ للسُكرِ واتخاذِه مُسْكرًا، فخرجَ بذلك عن خِلْقته - التي خُلقَ عليها - من الطهارةِ والطِّيبِ؛ فصار أخبثَ شيءٍ وأنجسَه، فلوِ انقلبَ خلًّا، أو زال تغيُّرُ الماءِ؛ كان بمنزلةِ رجوعِ الكافرِ إلى فطرتِه الأُولى؛ فإنَّ الحكمَ إذا ثبتَ لعلةٍ؛ زال بزوالِها[١٠].

المثالُ الثالثُ

المثالُ الثالثُ: الأغذيةُ الطيبةُ النافعةُ إذا خالطتْ باطنَ الحيوانِ، واستقرتْ هنالك[١١]؛ خرجتْ عن حالتها التي خُلِقَتْ عليها، واكتسبتْ بهذه المخالطةِ والمجاورةِ خبثًا وفسادًا لم يكنْ فيها؛ لسلوكِها في غير طريقِها[١٢] التي بها كمالُها.

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٢) في س: «بمخالطةِ أضدادِه».
(٣) في ك وس: «بمعنى». (٤) في ك: «وكافله».
(٥) ما بين المعقوفين سقط من ك وس.
(٦) في ع: «فكذلك القلوب إذا فسدت فطرها بالأغيار؛ لم تصلح للطهارةِ، فكذلك لحظيرة القدس».
و«حظيرة القدس» هنا: هي الجنة. والحظيرة - في الأصل -: الموضع الذي يُحاط عليه؛ لتأوي إليه الغنم والإبل؛ يقيهما البَرْد والريح.
انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٤٠٤)، «القاموس» (ص/ ٤٨٣).
(٧) في س: «والمنافع». (٨) في ك: «التي تصلح لها». (٩) في ع: «ولو».
(١٠) في ك زيادة: «والله أعلم». (١١) في س: «هناك». (١٢) في ك و س: «طرقها».

فلما[١] أنزلَ اللهُ سبحانَه الماءَ طاهرًا نافعًا، فمازجَ الأرضَ، وسالتْ به أوديتُها؛ أوجدَ - جلَّ جلالُه - بينهما بسبب هذه المُخالطةِ والممازجةِ أنواعَ الثمارِ والفواكهِ والزروعِ والنخيلِ والزيتونِ وسائرِ الأغذيةِ والأقواتِ، وأوجدَ[٢] مع ذلك المرَّ والشوكَ والحنظلَ وغيرَ ذلك، واللقاحُ واحدٌ، ولكنَّ الأمَّ مختلفةٌ.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرّعد: الآية ٤].

ثُمَّ إنه سبحانَه يُصَرِّفُ ما أخرجهُ من هذا الماءِ، ويُقَلِّبُهُ، ويُحيلُ بعضَه إلى بعضٍ، ويَنْقِلُ بعضَه بالمخالَطةِ والمجاورةِ عن طبيعتِه إلى طبيعةٍ أخرى.

وهذا كما خَلَقَ كلَّ دابةٍ من ماءٍ، ثم خالفَ بين صورِها وقواها ومنافعِها وأوصافِها وما تصلحُ له[٣]، وأمشى بعضَها على بطنِه، |وبعضَها على رجلين|[٤] وبعضَها على أربعٍ حكمةً بالغةً، وقدرةً باهرةً[٥].

وكذلك سبحانَه يقلِّبُ الليلَ والنهارَ، ويُقَلِّبُ ما يوجدُ فيهما، ويُقَلِّبُ أحوالَ العالَمِ كما يشاءُ، ويسلكُ بذلك [كلِّه][٦] مسلكَ الحكمةِ البالغةِ التي بها يَتِمُّ مرادُه، ويَظْهَرُ مُلْكُهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وهذا القرآنُ المجيدُ عمدتُه ومقصودُه الإخبارُ عن صفاتِ الربِّ - جلَّ جلالُه -

---

(١) في باقي النسخ: «ولما». وهو أحسن.

(٢) في ع: «وإنْ وُجِد».

(٣) في ك وس: «وما يصلح لها».

(٤) ما بين القائمين سقط من الأصل، وهو في باقي النسخ.

(٥) كما قال -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾ [النّور: الآية ٤٥].

واختُلِفَ في المراد بالماء هنا؛ فقيل: هو أُمْنِيَةُ الذكور، وهو مروي عن جابر بن زيد، وقول جمهور المفسرين، واقتصر عليه ابن جرير، وقيل: هو الماء المعروف؛ لأنَّ آدم خُلق من الماء والطين، أو لأنَّ الدواب لا تعيش إلا بالماء، انظر: «جامع البيان» (١٨/ ١٥٥)، «البحر المحيط» (٦/ ٤٦٥) لأبي حيان، «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٠١).

(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

وأسمائِه وأفعالِه وأنواعِ حمدِه والثناءِ عليهِ، والإنباءُ عن عظمتِه وعلائِه[(١)] وحكمتِه، وإبداعِ صُنْعِهِ[(٢)] والتقدمُ إلى عبادِه بأمرِه ونهيِهِ على ألسنةِ رُسُلِهِ، وتصديقُهم بما أقامَه[(٣)] من الشَّواهِدِ والدِّلالاتِ على صدقِهم وبراهينِ ذلك ودلائلِهِ، وتبيينُ[(٤)] مرادِه من ذلك كُلِّه.

وكان من تمامِ ذلك الإخبارُ عن الكافرين والمكذبين، وذِكْرُ ما أجابوا به رُسُلَهم[(٥)]، وقابلوا [به][(٦)] رسالاتِ ربِّهِمْ، ووَصْفُ كُفرِهم وعنادِهم، وكيف كَذَبُواْ على الله، وكَذَّبُواْ رسله، وردُّوا أمرَه ونصائِحَه[(٧)].

وكان في اجتلابِ[(٨)] ذلك من العلومِ والمعارفِ والبيانِ وضوحُ[(٩)] شواهدِ الحقِّ، وقيامُ أدِلَّتِه وتنوعِهَا.

---

(١) في س: «وعِزَّته»، وهي غير واضحة في ك.
والعَلاَءُ -ك: «سَمَاء»-: الرِّفْعَة. انظر: «القاموس» (ص/ ١٦٩٤).

(٢) في ك و س: «وأنواع صنعه». (٣) في س: «وتصديقهم ما أقامه». (٤) في س: «وتبيّن».

(٥) في س: «رسله». (٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٧) في ك وس: «ومصالحه». ذكر المؤلف في «الصواعق المرسلة» (٢/ ٦٨٤): أنَّ معاني ألفاظ القرآن عشرة أقسام:
الأول: تعريفه -سبحانه- نفْسَه لعباده بأسمائه وصفاته، وأنه واحد لا شريك له، وما يتبع ذلك. **الثاني**: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته، وآثار حكمته فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته، وأصناف خليقته، وكذلك البراهين العقلية -التي أقامها على ذلك-، والأمثلة المضروبة. **الثالث**: ما اشتمل عليه بدء الخلق وإنشاؤه ومادته وابتداعه له، وما يتبع ذلك. **الرابع**: ذِكْر المعاد والنشأة الأُخرى. **الخامس**: ذكْر أحوال الناس في معادهم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وما يتبع ذلك. **السادس**: ذِكْر القرون الماضية، والأمم الخالية، وما جرى عليهم. **السابع**: الأمثال التي ضربها لهم، والمواعظ التي وعظهم بها. **الثامن**: ما تضمنه من الأمر والنهي، والتحليل والتحريم. **التاسع**: ما عَرَّفهم إياه من شَأْن عَدوِّهم، ومداخِلِهِ عليهم، و مكايده لهم. **العاشر**: ما يَخْتَصُّ بالسفير بينه وبين عباده، وذِكْرُ حقوقه على أمتِهِ، وما يتعلق بذلك.
وانظر: المرجع السابق (١/ ٤٨٦)، «البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٦) للزركشي، «القواعد الحسان» (ص/ ٦٢) للسعدي.

(٨) في ك و س: «فكان في اجتلاب»، وفي ع: «وكان في اختلاف».

(٩) في ك و س: «ووضوح».

وكان موقعُ هذا من خلقِه موقعَ تسبيحِه تعالى وتنزيهِه من الثناءِ عليهِ[١]؛ فإنَّ[٢] أسماءَه تعالى الحسنى وصفاتِه العلى هي موضعُ الحمدِ.

ومن تمامِ حمدِه تسبيحُه وتنزيهه عمَّا وصفَه به أعداؤُه والجاهلون به مما لا يليقُ به[٣].

وكان في تنوُّعِ تنزيهِه عن ذلك من العلومِ والمعارفِ وتقريرِ صفاتِ الكمالِ، وتكميلِ أنواعِ الحمدِ ما في[٤] بيانِ محاسنِ الشيءِ وكمالِه عند معرفةِ[٥] ما يضادُّه ويخالفُه، ولهذا كان تسبيحُه تعالى من تمامِ حمدِه، وحمدُه من تمامِ تسبيحِه، ولهذا كان التسبيحُ والتحميدُ قرينيْن.

فكان[٦] ما نسبَهُ إليه أعداؤُه والمعطِّلون لصفاتِ كمالِه من علوِّهِ على خلقِه، وإنزالِه كلامِه - الذي تكلَّمَ به - على رُسُلِهِ، وغير ذلك [من صفاتِ كمالِه - موجبًا لتنزيهِ رُسُلِهِ له، وتسبيحِهم عن ذلك][٧] مما نزَّه عنه نفسَه، وسبَّح به نفسَه.

فكان[٨] في [ذلك][٩] ظهورُ حمدِه لخلقِهِ[١٠] وتنوعُ أسبابِه، وكثرةُ شواهدِه، وسعةُ طُرقِ الثناءِ عليه بِه، وتقريرُ عظمتِه ومعرفتِهِ في قلوبِ عبادِه، فلولا معرفةُ الأسبابِ - التي يُسَبَّح، ويُنَزَّه، ويَتَعَالى عنها - وخَلْقُ مَنْ يُضيفُهَا إليهِ، ويَصفُهُ بِهَا؛ لمَا قَامَت حقيقةُ التسبيحِ، ولا ظهرَ لقلوبِ أهلِ الإيمانِ عن أي شيءٍ يسبِّحونَهُ، وعن ماذا ينزِّهونَهُ.

فلما رأَوْا في خلقه مَنْ قد نَسَبَهُ إلى ما لا يليقُ به، وجَحَدَ من كمالِهِ ما هو أَوْلى به سبَّحوه حينئذٍ تسبيحَ مُجِلٍّ له، معظِّمٍ له[١١]، منزِّهٍ له عن أمرٍ قد نسبه إليه أعداؤُه،

---

(١) قوله: «من الثناء عليه» متعلِّقٌ بقوله: «موقع» الثانية.
(٢) في ك و س: «وأنَّ».
(٣) في ك: «والجاهلون بما يليق به»، وفي س: «والجاهلون مما لا يليق به».
(٤) في ع: «وما في»، وفي س: «ينافي». وكلاهما خطأ.
(٥) في س: «معرفته».
(٦) في س: «وكان».
(٧) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٨) في ك وس: «وكان»
(٩) ما بين المعقوفين ليس في س.
(١٠) قوله: «لخلقه» متعلِّق بقوله: «ظهور». وفي س: «بخلقه».
(١١) ذكر المؤلف في «مدارج السالكين» (١/ ٥٥٠): أنَّ الإجلال تعظيم مقرون بحب.

والمعطلون لصفاتِه.

ونظيرُ هذا اشتمالُ(١) كلمةِ الإسلامِ - وهي شهادةُ أنْ لَا إله إلَّا اللهُ - على النفي والإثباتِ، فكان في الإتيان بالنفي في صدرِ هذه الكلمةِ من تقريرِ الإثباتِ، وتحقيقِ معنى الإلهيةِ، وتجريدِ التوحيدِ - الذي يُقصد - بنفيِ الإلهيةِ عن كلِّ من(٢) ادعيتْ فيه سوى الإلهِ الحقِّ - تباركَ وتعالى -، فتجريدُ هذا التوحيدِ مِن العقدِ واللسانِ(٣) بتصورِ(٤) إثباتِ الإلهيةِ لغيرِ اللهِ - كما قاله أعداؤُه المشركون -، ونفيُهُ وإبطالُهُ من القلبِ واللسانِ من تمامِ التوحيدِ وكمالِه وتقريرِه، وظهورِ أعلامِهِ، ووضوحِ شواهدِهِ وصدقِ براهينِه.

ونظيرُ ذلك - أيضًا - أن تكذيبَ أعداءِ الرسلِ [لهم](٥)، وردَّهُم ما جاؤوهم به(٦) كان من الأسبابِ الموجِبَةِ لظهورِ براهينِ صدقِ الرسلِ، ودفعِ ما احتجَّ به أعداؤُهم عليهم من الشُّبهِ(٧) الداحضةِ، ودحضِ حُجَجِهمُ الباطلةِ، وتقريرِ طرقِ الرسالةِ، وإيضاحِ أدلَّتِها؛ فإنَّ الباطلَ كلما ظهرَ فسادُه وبطلانُه، أسفرَ(٨) وجهُ الحقِّ، واستنارتْ معالِمُهُ، ووضحتْ سُبُلُهُ، وتقرَّرتْ براهينُهُ، فكَسْرُ الباطلِ، ودَحْضُ حُجَجِهِ، وإقامةُ الدليلِ على بطلانِهِ من أدلةِ الحقِّ وبراهينِهِ.

فتأمَّلْ كيف اقتضى الحقُّ وجودَ الباطل، وكيف تَمَّ ظهورُ الحقِّ بوجودِ الباطلِ، وكيف كان كفرُ أعداء الرسل بهم(٩) وتكذيبُهم لهم ودفعهُم ما جاؤوا به هو(١٠) من تمامِ صدقِ الرسلِ، وثبوتِ رسالاتِ اللهِ، وقيامِ حُجَجِهِ على العبادِ.

ولنضربْ لذلك مثالًا(١١) يتَبَيَّنُ به، وهو: مَلِكٌ له عَبْدٌ قد تَوَحَّد في العالَمِ بالشجاعةِ والبسالةِ(١٢)، والناسُ بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ، فمِنْ قائلٍ: «هو كذلك»، ومِنْ قائلٍ: «هو

---

(١) في ع: «استكمال». وهو خطأ.
(٢) في ك وس: «كل ما».
(٣) في ك: «من القلب واللسان».
(٤) في س: «يتصور».
(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.
(٦) في س: «ما جاؤوا به».
(٧) في ك وس: «من الشبهة».
(٨) في س: استقر». وهو خطأ.
(٩) في ع: «منهم».
(١٠) في س: «وهو». وهو خطأ.
(١١) في س: «مثلًا».
(١٢) البسالة والبسال: الشجاعة، يقال: «بسل -ك: «كرم»-، و الجمع بسلاء وبُسل. مشتقة من البسل، وهو الحرام والمنع وعبوس الوجه، وسمي الشجاع باسلًا؛ لما يوصف به من عبوس وجهه، أو لكون نفسه محرمة على أقرانه لشجاعته، أو لمنعه ما تحت يده من أعدائه، انظر: «لسان العرب» =

بخلافِ ما يُظَنُّ به؛ فإنه لم يقابلِ الشجعانَ، ولا واجهَ الأقرانَ، ولو نازلَ[(١)] الأقرانَ، وقابلَ الشجعانَ؛ لظهر أمرُه، وانكشفَ حالُه».

فسَمِع به شجعانُ العالَمِ وأبطالُهم[(٢)]، فقصدوه من كلِّ أوبٍ[(٣)]، وأَتَوْه من كلِّ قُطْرٍ، فأراد الملكُ أن يُظْهِرَ لرعيَّتِه ما هو عليه من الشجاعةِ، فمكَّن تلك الشجعانَ [والأبطالَ][(٤)] من منازلتِه ومقاومتِه، وقال: «دونَكُم وإيَّاه، وشأنَكُمْ به».

فهل تسليطُ الْمَلِكِ لأولئكَ على عبدِه ومملوكِه إلا لإعلاءِ شأنِه، وإظهارِ شجاعتِه في العالَمِ، وتخويفِ أعدائِه به، وقضاءِ الْملِكِ أوطارَه به.

وكما يترتبُ على هذا إظهارُ شجاعةِ عبدِه وقوتِه، وحصولُ مقصودِه بذلك، فكذلك يترتبُ عليه ظهورُ كَذِبِ منِ ادَّعى مقاومتَه، وظهورُ عجزِهم وفضيحتِهم وخزيِهم، وأنهم ليسوا ممن يصلحُ لمهماتِ المُلْكِ وحوائِجِه، فإذا عدل بهم عن مهماتِه وولاياتِه[(٥)]، وعدلَ بهَا عَنْهم؛ كان ذلك مُقْتَضَى حكمةِ الملِك، وحُسْنِ تصرفه في مُلكِه، وأنه لو استعمَلُهُم في تلك المهماتِ؛ لتشوشَ أمرُ المملكةِ، وحصلَ الخللُ والفسادُ، واللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه، وهو أعلمُ بالشاكرين.

والمقصودُ أن خلقَ الأسبابِ المضادةِ للحقِّ، وإظهارَها في مقابلةِ الحقِّ من أبينِ دِلالاتِه وشواهدِه، فكان في خَلْقِها من الحكمةِ ما لو فاتَتْ لفاتَتْ بها تلك الحكمةُ[(٦)] -

---

= (١/ ٤١٠)، «القاموس» (ص/ ١٢٤٨)، «التوقيف على مهمات التعريف» (ص/ ١٣١).

(١) في ك وس: «ولو بارز».

(٢) قال المؤلف في «الفروسية» (ص/ ٣٢٤): «. . . البطل: جمعه أبطال، وفي تسميته قولان:

أحدهما: لأنه يُبطل فعل الأقران، فتبطل عنده شجاعة الشجعان، فيكون «بطل» بمعنى مفعول في المعنى؛ لأنَّ هذا الفعل غير متعد. **والثاني**: أنه بمعنى فاعل لفظًا ومعنى؛ لأنه الذي يبطل شجاعة غيره، فيجعلها بمنزلة العدم، فهو بطل بمعنى مبطل، ويجوز أن يكون بطلٌ بمعنى مبطل -كوزن مكرم، وهو الذي قد بطله غيره، فلشجاعته تحاماه الناس، فبطلوا فعله باستسلامهم له، وترك محاربتهم إياه اهـ. وانظر: «لسان العرب» (١/ ٤٣٢)، «القاموس» (ص/ ١٢٤٩).

(٣) أي: من كل جهةٍ وناحيةٍ.

انظر: «الصحاح» (١/ ٧٦)، «النهاية» (١/ ٧٩)، «القاموس» (ص/ ٧٦).

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٥) في س: «وولايته».

(٦) في س: «ما لو فاتت لفاتت تلك». بدون كلمة: «الحكمة».

وهي أحبُّ إلى اللهِ تعالى من تفويتِها - بتقديرِ تفويتِ هذهِ الأسبابِ، واللهُ أعلمُ.

فصلٌ

طرقُ الناسِ في دخولِ الشرِّ في القضاءِ الإلهيِّ

وللناسِ في دخولِ الشرِّ في القضاءِ الإلهيِّ طرقٌ، فنذكرُها، ونذكرُ أصولَهم التي تفرَّعت عليها هذه الطرقُ قبلَ ذلك، فنقول:

للناس قائلان[١]:

قولُ أهلِ الإسلامِ

- **أحدُهُما**: قولُ أهلِ الإسلامِ، وأتباعِ المرسلينَ كلِّهم: إنّ اللهَ سبحانَه فعالٌ لما يريدُ، [يفعلُ][٢] باختيارِه وقدرتِه ومشيئتِه، فما شاءَ كانَ، وما لَمْ يشأْ لم يكنْ، وهو الذي يعبِّرُ عنه متأخِّرو المتكلمينَ[٣] بكونِه فاعلًا بالاختيارِ.

والفريقُ الثاني: قولُ من نفى ذلك، وقال: «صدورُ[٤] العالَمِ عنه تعالى صُدورًا ذاتيًّا كصدورِ النورِ عن الشمسِ، والحرارةِ عن النارِ، والتبريدِ عن الماءِ».

قولُ الفلاسفةِ المَشَّائين

ويسمِّي المتكلمون هذا الإيجابَ الذاتيَّ ومصدرَه: موجبًا بالذاتِ[٥].

وهذا قولُ الفلاسفةِ المشائين[٦]، وهو الذي يذكرُه ابنُ الخطيبِ[٧] وغيرُه عن

---

(١) في ك وس: «الناس قائلان». وصواب العبارة: «للناس قولان».

(٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في ع و س: «متأخروا المتكلمين» -بالألف-، وفي ك: «متأخرُ المتكلمين». وقد سبق ذكر القاعدة في ذلك.

(٤) في ع: «صدر». وهو الصواب.

(٥) في س: «موجبات الذات».

(٦) هم أتباع أرسطوطاليس بن نيقوماخوس، ولد في مدينة أسطاغيرا - مدينة يونانية على بحر إيجه - سنة (٣٨٤) ق. م، من أسرة توارثت الطب، وكان أبوه طبيبًا للملك المقدوني (أمنتاس) الثاني. لما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى أثينا، والتحق بمدرسة أفلاطون، وبقي فيها عشرين سنة حيث توفي صاحبها سنة (٣٤٨) ق. م، ثم انتقل إلى آسوس، ثم إلى أتارنوس في آسيا الصغرى، ثم عاد إلى أثينا أواخر سنة (٣٣٥) - ق. م، وأنشأ بها مدرسة في ملعب رياضي يسمى: «لوقيون»، ونسبت إليه، وبقي فيها اثنتي عشرة سنة، ولما مات الاسكندر المقدوني سنة (٣٢٣) ق. م انتقل إلى خالكيس وبها توفي سنة (٣٢٢) ق. م، وله من العمر اثنتان وستون سنة.

وكان من عادته أن يلقي دروسه ماشيًا، يغشاه التلاميذ ويسيرون من حوله، فلقب هو وأتباعه بـ: «المشائين».

انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٣٦٢) للشهرستاني، «تاريخ الفلسفة العربية» (ص/ ٦٣) للدكتور جميل صليبا، «تاريخ الفلسفة اليونانية» (ص/ ١١٢) ليوسف كرم، «أرسطو عند العرب» لعبد الرحمن بدوي.

(٧) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري، أبو المعالي، الملقب بـ: «فخر =

الفلاسفةِ، ولا يُحكى عنهم غيرُه، وإنما هو قولُ المشائين(١).

وقرَّبهُ متأخرُهم وفاضلُهم ابنُ سينا(٢) إلى الإسلامِ بعضَ التقريبِ - مع مباينتِهِ لما جاءتْ به الرسلُ، ولما دلَّ عليه صريحُ العقلِ والفطرةِ -.

والفريقان متفقون على أن مصدرَ(٣) الكائناتِ بأسِرها خيرٌ محضٌ من جميعِ الوجوهِ، وكمالٌ صرفٌ، ووجودُ الشرِّ في العالَمِ مشهودٌ، والخيرُ لا يصدرُ عنه إلا خيرٌ، فلا جَرَمَ(٤) اختلفتْ طرقُهم في كيفية دخول الشرِّ في القضاءِ الإلهيِّ، وتنوعت

= الدين الرازي»، ولد سنة (٥٤٣)هـ، أحد الفقهاء الشافعية، له نحوٌ من مائتي مصنف، منها: «مفاتيح الغيب»، و«المباحث المشرقية»، توفي سنة (٦٠٦)هـ. انظر: «البداية و«النهاية»» (١٣/ ٥٥)، «طبقات الشافعية» (٨/ ٨١-٩٦)، «الأعلام» (٦/ ٣١٣).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «تفسير سورة الإخلاص» ضمن: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٥١): «... وهكذا هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين؛ فإنَّ أولئك كانوا يقولون بحدوث العالم، وكانوا يقولون: إن فوق هذا العالم عالمًا آخر، يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ به الجنة، وكانوا يثبتون معاد الأبدان -كما يوجد هذا في كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة. وقد ذكروا أنَّ أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو اهـ.

وذكر سبب ذلك فقال «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٣٦): «... وسبب ذلك ما ذكره طائفة ممن جمع أخبارهم: أنَّ أساطينهم الأوائل كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان، وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بآثار الأنبياء ما عند سلفه، وكان عنده قدرٌ يسير من الصابئية الصحيحة، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية، وصارت قانونًا مشى عليه أتباعه، واتفق أنه قد يتكلم في طبائع الأجسام، أو في صورة المنطق - أحيانًا-بكلام صحيح.

وأما الأولون فلم يوجد لهم مذهبٌ تام مبتدع...» اهـ. وانظر: «لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول» (ص/ ٦١-١٢٠) للمكلاتي، «تاريخ الفكر الفلسفي» (ص/ ٢٣٧) للدكتور محمد علي أبو ريان.

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن سينا، أبو علي، شرف الملك، يلقب بـ: «الفيلسوف الرئيس»، ولد سنة (٣٧٠)هـ، نشأ وتعلم في بخارى، كان هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم العبيدي الباطني. حصر الغزالي كلامه في «مقاصد الفلاسفة»، ثم رد عليه في «تهافت الفلاسفة» في عشرين مجلسًا له، كفره في ثلاث منها: قدم العالم، إنكار المعاد الجثماني، إنكار علم الله بالجزئيات، وبدَّعه في البواقي. من كتبه: «الشفاء»، و«النجاة»، «مختصر الشفاء»، و«الإشارات والتنبيهات»، و«الحكمة المشرقية»، و«القانون». توفي سنة (٤٢٨)هـ. انظر: «البداية والنهاية»» (١٢/ ٤٣)، «لسان الميزان» (٢/ ٢٩١)، «الأعلام» (٢/ ٢٤١).

(٣) في ع: «ضبط». وهو غلط.

(٤) في س: «ولا جرم».

الطرقُ الأربعُ

إلى أربعةِ طُرقٍ:

الطريقُ الأُولى: طريقُ نفاةِ التعليلِ والحكمةِ والأسبابِ(١)؛ فإنهم سدُّوا على أنفسِهم هذا البابَ، وأثبتوا مشيئةً محضةً لا غايةَ لها، ولا سببَ، ولا حكمةَ يُفعلُ لأجلِها، ولا يَتوقَّفُ فعلُ المختارِ بها على مصلحةٍ ولا حكمةٍ، ولا غايةَ لها يُفعلُ(٢)، بلْ كلُّ مقدورٌ يحسنُ منه فعلُه. ولا حقيقةَ عندهم للقبيحِ إلا المستحيلَ لذاتِه الذي لا يوصفُ بالقدرةِ عليه.

وهؤلاءِ نَفَوْا مُسَمَّى الرحمةِ والحكمةِ، وإن أقرُّوا بلفظٍ لا حقيقةَ له.

وكان شيخُهم الجهمُ بنُ صفوانَ(٣) يقفُ بأصحابِه على المجْذومين(٤) وهم يتقلبون في بلائِهم، فيقول [لهم](٥): «أرحمُ الراحمين يفعلُ مثلَ هذا؟!»، يعني: أنه ليسَ في الحقيقةِ رحمةٌ، وإنما هو محضُ مشيئةٍ، وصرفُ إرادةٍ مجردةٍ عن الحكمةِ والرحمةِ.

طريقةُ القدريةِ النفاةِ

وهؤلاءِ قابلُوا أصحابَ الفريقِ(٦) الثاني(٧)، وهمُ الذين أثبتوا له حكمةً وغايةً، وقالوا: «لا يفعلُ شيئًا إلا لحكمةٍ وغايةٍ مطلوبةٍ».

ولكن حجَّروا عليه سبحانه في ذلك، وشرَعُوا له شريعةً وضعوها بعقولِهم، وظنوا أنَّ ما يَحسنُ من خلقِه تعالى يحسنُ منه، وما يقبحُ منهم [يقبح منه](٨)؛ فجعلُوا ما

---

(١) وهم الجهمية والأشاعرة، وطوائفُ من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، وكثيرٌ من نفاة القياس كابن حزم وغيره، انظر: «أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل» -ضمن» مجموع «الفتاوى» (٨/ ٨٣)- لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) في ع وس: «ولا غاية لها تفعل».

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) في باقي النسخ: «المجذمين». وكلاهما سائغ. والجُذام -بضم أوله-: علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها، وربما انتهى إلى تآكُل الأعضاء وسقوطها عن تقرُّح. يقال: «جُذِم ك: «عني»-فهو مجذوم ومجذَّمٌ وأجْذَمُ». انظر: «لسان العرب» (٢/ ٢٢)، «الصحاح» (٣/ ١٥٣١)، «القاموس» (ص/ ١٤٠٤).

(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٦) في باقي النسخ: «أصحاب الطريق».

(٧) وهم المعتزلة، وأكثر الشيعة ومن وافقهم. انظر: «أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة التعليل» ضمن «مجموع الفتاوى» (٨/ ٨٥)، «منهاج السنة» (٢/ ٢٢٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٨) ما بين المعقوفين ليس في س.

أثبتُوه له من الحكمةِ والرحمةِ من جنسِ ما هو للخلقِ[(١)]، ولهذا كانوا مشبِّهةَ الأفعالِ، كما أن من شبَهَهُ بخلقِه في صفاتِه فهو مشبِّهُ الصفاتِ، فاقْتَسموا التشبيهَ نصفَيْن[(٢)]: هؤلاءِ في أفعالِه، وإخوانُهم في صفاتِه.

وقالوا: إنه تعالى لو خصَّ بعضَ عبيدِه عن بعضٍ بإعطائِه توفيقًا وقدرةً وإرادةً، [و][(٣)] لم يعطِهَا الآخرَ؛ لكان ظُلمًا للذي منَعه.

وقالُوا: لو شاءَ من عبادِه أفعالَ المعاصِي؛ لكان [سَفَهًا][(٤)] يُنزَّه عنه - كما في الشاهدِ -، ولو شاءَ منهم الكُفرَ والفسوقَ والعصيانَ، ثم عذَّبهم عليه؛ لكانَ ظُلْمًا - [كما][(٥)] في الشاهدِ أيضًا - فإن السَّيِّدَ إذا أرادَ مِنْ عَبدِه شيئًا، ففعل العبدُ ما أراد سيِّدُه، فإنه إذا عذَّبَهُ عَدَّه الناسُ ظالمًا [له][(٦)].

وجعلوا العدلَ في حقِّه من جنسِ العدلِ في حقِّ عبادِه، والظلمَ الذي يُنزَّه[(٧)] عنه كالظلمِ الذي يتنزَّهُون[(٨)] عنه، وجعلُوا ما يَحسُنُ منه من جنسِ ما يحسُنُ منهم، وما يقبُحُ منه من جنسِ ما يقبُحُ منهم.

وقالوا: لو أرادَ الشرَّ لكان شِرِّيْرًا - كما في الشاهدِ - فإنَّ مُريدَ الشرِّ شريرٌ.

وقالوا: لو خَتَمَ على قلوبِ أعدائِه وأسماعِهم، وحال بينهُم وبينَ قلوبِهم، وأضلَّهم عنِ الإيمانِ، وجعلَ على أبصارِهم غشاوةً، وجعل من بين أيديهم سدًّا، ومن خلفِهم سدًّا، ثم عذَّبَهُم؛ لكانَ ظالمًا لهُم؛ لأن أحدَنا لو فعل ذلك بعبدِه، ثم عذَّبه؛ لكان ظالمًا له.

فهؤلاءِ [همُ][(٩)] المشبهةُ حقًّا في الأفعالِ، فعَدْلُهم تشبيهٌ، وتوحيدُهم تعطيلٌ، فجمعوا بين التشبيهِ والتعطيلِ.

تقسيمُهم الشرَّ إلى قسمين:

وهؤلاءِ قسَّموا الشرَّ الواقعَ في العالَمِ قسمين[(١٠)]:

---

(١) وهي -عندهم-مخلوقة مباينة له -تعالى-، لا يعود إليه منها وصف، ولا يقوم به فعل -كما سيأتي.

(٢) في ع: «فاقتسموا إلى مشبهة نصفين». وهو خطأ.

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ع وك.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٧) في ع: «تنزَّه».

(٨) في باقي النسخ: «يُنزَّهون».

(٩) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(١٠) في باقي النسخ: «إلى قسمين».

أحدُهما: شرورٌ هي أفعالُ العبادِ، وما تولَّد منها، فهذهِ لا تدخلُ - عندهم - في القضاءِ الإلهيِّ؛ تنزيهًا للربِّ تعالى عن نسبتِها إليه، ولا تدخلُ - عندهم - تحت قدرتِه، و[لا][1] مشيئتِه، ولا تكوينِه.

الأول الثاني: اضطرابُهم فيه

والثاني: الشرورُ التي لا تتعلقُ بأفعالِ العبادِ؛ كالسموم والأمراضِ وأنواعِ الآلامِ، وكإبليسَ وجنودِه وغيرِ ذلك من شرورِ المخلوقاتِ كإيلامِ الأطفالِ، وذبحِ الحيوانِ.

فهذا النوعُ هو الذي كدَّرَ على القدريَّةِ أصولَهم، وشوَّش عليهم قواعدَهم.

وقالوا: ذلك كلُّه حسنٌ؛ لما فيه من اللطفِ[2] والمصلحةِ العاجلةِ والآجلةِ.

قالوا: أما الآلامُ والأمراضُ فمفعولةٌ لغرضٍ صحيحٍ، وهو ما ضمنَ الربُّ سبحانَه لمن أصابَهُ بها من العِوضِ الوافِي.

قالوا: وذلك يَجْري مَجْرى استئجارِ أجيرٍ في فعلٍ شاقٍّ، فإنه لغرضِ[3] الاستئجارِ أخرجَ الاستئجارَ عن كونِه عبثًا، وبالأُجرةِ أخرجَهُ عن كونِهِ ظُلمًا، فكان حَسنًا.

قالوا: فإن قيل: إذا كان اللهُ تعالى قادرًا على التفضُّلِ بالعوضِ وبأضعافِه بدون توسُّطِ الألمِ، فأيُّ حاجةٍ إلى توسُّطِه؟!

وأيضًا: فإذا حسُن الألمُ لأجلِ العوضِ، فهل يحسُن منا[4] أن نؤلِمَ[5] أحدَنا بغيرِ إذنِه لعوضٍ[6] يصلُ إليهِ؟!

فالجوابُ: أن اللهَ سبحانَه لا يُمرضُ، ولا يُؤلِمُ إلا مَنْ يعلمُ من حالِه أنه لو أطْلعه[7] على الأعواضِ التي تصلُ إليهِ لرضِيَ بالألمِ، ولرغبَ فيه؛ لوفورِ الأعواضِ [وعظمِهَا][8]، وليس كذلك في الشاهدِ استئجارُ الأجيرِ من غيرِ اختيارِه.

قالوا: وليس كذلك إيلامُ أحدِنا لغيرِه لأجلِ التعويضِ؛ فإن من قطَعَ يدَ غيرِه أو رجلَه؛ ليعوِّضَه عنها لم يحسُن ذلك منه؛ لأن العوضَ يصلُ إليه وهو مقطوعُ اليدِ والرِّجلِ، وليس مِنَ العقلاءِ مَنْ يختارُ مُلْكَ الدنيا مع ذلك، واللهُ تعالى يوصِّلُ الأعواضَ في الآخرةِ إلى الأحياءِ وهُمْ أكملُ شيءٍ خِلقةً، وأتمُّه أعضاءً، فلذلك افترقَ

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ع. (٢) في س: «التلطف». (٣) في باقي النسخ: «بغرض».
(٤) في ع: «بنا». (٥) في ك و س: «أن يؤلم». (٦) في ع: «بعوض».
(٧) في س: «لو أطعمه». وهو غلط. (٨) ما بين المعقوفين ليس في ع.

الشاهدُ والغائبُ في هذا.

قالوا: فإن فرضتُمُوه في ضربٍ وجَلْدٍ مع سلامةِ الأعضاءِ؛ قَبُحَ؛ لأنه عبثٌ[١]، فإن فرضَ فيه مصلحةً، ورضيَ المضروبُ بذلك، وعظُمتِ الأعواضُ عنه؛ فهو حسنٌ في العقلِ لا محالةَ.

قالوا: وسرُّ الأمرِ أنَّ بالعوضِ يخرجُ الألمُ عن كونه ظُلمًا؛ لأنه نفعٌ عظيمٌ موقوفٌ على مضرَّةِ الألمِ، وباعتبارِ كونِهِ لُطْفًا في الدينِ يخرجُ عن كونِه عبثًا.

قالوا: وقد رأينا في الشاهدِ حسنَ الألمِ للنفعِ؛ فإنه يحسُن في الشاهدِ إيلامُ أنفسِنا، وإتعابُها في طلب العلومِ والأرباحِ التي لا يُعْبَرُ إليها إلا على جسرٍ مِنَ التعبِ والمشقةِ[٢].

قالوا: وهذا الوجهُ هو الذي حسُن لأجلِه إيلامُ الأطفالِ والبهائمِ؛ فإنه إيلامٌ للنفعِ؛ فإنَّ أبدانَ الأطفالِ لا تستقيمُ إلا على الأسبابِ الجالبةِ للآلامِ، وكذلك نفوسُهم إنما تكمُل بذلك، وإيلامُ الحيوانِ لنفعِ الآدمِي[٣] به غيرُ قبيحٍ.

قالوا: وأمَّا الألمُ المستحقُّ للعقوبةِ فإنه يحسُنُ[٤] في الشاهدِ، ولكنه غيرُ متحققٍ في الغائبِ بالنسبةِ إلى الأطفالِ والبهائمِ؛ لعدمِ تكليفِها، ولكن لا بدَّ في إيلامِها من مصلحةٍ ترجعُ إليها، وهي ما يحصلُ لهم من العوضِ في الآخرةِ.

قالوا: ويجبُ[٥] إعادتُها؛ لاستيفاءِ ذلك الحقِّ الذي لها، وهو العوضُ على الآلامِ التي حصلتْ لها.

قالوا: وبقاؤُها بعد الإعادةِ موقوفٌ [على مقدارٍ معلومٍ؛ لانقطاعِه][٦]، ونعيمُ

---

(١) في س: «عيب». والمثبت أحسن.

(٢) في ك: «التي لا يصل إليها إلا على جنس من التعب والمشقة»، وفي س: «التي لا تصل إليها إلا على جنس من التعب والمشقة». وما في الأصل هو المعهود في كلام المؤلف في مواضع، كقوله في «مفتاح دار السعادة» (ص/ ١٣٢): «. . . فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة، فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد» اهـ. وقوله في المرجع السابق (ص/ ٣٣٧): «. . . التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه-. . .» اهـ.

(٣) في ع: «الآدميين». (٤) في ك وس: «فإنه حسنٌ». (٥) في ك: «وتجب».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

الأطفالِ والمجانينِ دائمٌ.

واختلفوا في البهائمِ؛ فقال بعضُهم: يدومُ عوضُهم. وقال آخرون بانقطاعِه؛ فإنهم[(١)] يصيرون ترابًا.

قالوا: فإن لم يكنْ للبهائمِ عوضٌ يجبُ لأجلِه أن تعادَ؛ لم تجبْ إعادتُها عقْلًا، وتحسنُ[(٢)] إعادتُها، وما يحسنُ قد يفعلُه اللهُ، وقد لا يفعلُه.

وهل تجوزُ الآلامُ للتعويضِ [المجردِ][(٣)]؟.

فيه قولانِ لهم، مبنيان على أصلٍ اختلفوا فيه، وهو أنه: هل يحسُنُ منه تعالى التفضلُ بمثلِ العِوَضِ ابتداءً؟.

فصار بعضُهم إلى امتناعِه، كما يمتنعُ التفضلُ بمثلِ الثوابِ ابتداءً عندهم، وهم مجمعون على امتناعِه؛ لئلا يسوَّى بين العاملِ وغيرِه.

وصار من ينتمي إلى التحصيلِ منهم إلى أنَّ التفضلَ بمقدارِ الأعواضِ ممكنٌ غيرُ ممتنعٍ. فمن قال بامتناعِ التفضلِ بمقدارِ العوضِ جوَّز وقوعَ الآلامِ للتعويضِ المجردِ.

ومن جوَّز التفضُّلَ بأمثالِ الأعواضِ لم يحسُنْ عنده الآلامُ لمجردِ[(٤)] التعويضِ؛ بل قالوا: إنما يحسُنُ لوجهين [لا بدَّ من اقترانِهما][(٥)]:

أحدُهما: التزامُ التعويضِ.

والثاني: اعتبارُ غيرِ المؤلمِ بتلك الآلامِ، وكونِها ألطافًا في زجرِ غاوٍ عن غوايتِه إذا شاهدَها في غيرِه.

وذهب عَبَّادٌ الصيمريُّ[(٦)] منهم إلى أنَّ الآلامَ تحسُنُ لمجردِ الاعتبارِ من غيرِ تعويضٍ

---

(١) في ع: «وأنَّهم». (٢) في ك و س: «ويحسن».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في س. (٤) في ك وس: «بمجرَّد».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٦) هو عباد بن سليمان بن علي الضمري البصري المعتزلي، كنيته أبو سهل، خالف المعتزلة في أشياء اخترعها لنفسه، وكان قد أخذ عن هشام بن عمرو الفوطي، وجرت بينه وبين عبد الله بن سعيد بن كلاب مناظرات، وكان أبو علي الجبائي يصفه بالحذق في الكلام، ويقول: «لولا جنونه»!، من كتبه: «إنكار أن يخلق الناس أفعالهم»، و«تثبيت دلالة الأعراض»، و«إثبات الجزء الذي لا يتجزأ».
انظر: «الفهرست» (ص/ ٢١٥)، «لسان الميزان» (٣/ ٢٢٩)، «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٥١).

ردُّ جمهورِ القدريةِ عليه

لمن أصابتْه.

ورد عليه جماهيرُ القدريةِ ذلك.

قالوا: والآلامُ التي يفعلُها - سبحانَهُ - إما أن تكونَ مستحقَّةً كعقوباتِ الدنيا، وعذابِ الآخرةِ، وإما للتعويضِ، وإما للمصلحةِ الراجحةِ.

قالوا: وما يفعلُهُ في الآخرةِ منها فكلُّه للاستحقاقِ، وما يفعلُهُ في الدنيا فللعوضِ والمصلحةِ، وقد يفعلُهُ عقوبةً، وأمَّا ما شرَعَهُ من أسبابِ الألمِ فعقوباتٌ محضةٌ.

وأمَّا مشايخُ القومِ فقالوا: إنما يحسنُ منه - تباركَ وتعالى - الإيلامُ؛ لأنه المنعمُ بالصحةِ والحياةِ، ولأنه في حكمِ من أعارَ تلك المنفعةَ لمن لا يملكُها، فله قطعُها إذا شاء، ولأنه تعالى قادرٌ على التعويضِ، عالمٌ بقدرِه، وليس كذلك الواحدُ [مِنَّا](١).

قالوا: فإذا استرجعَ عاريَّةَ الصحةِ والحياةِ؛ خلفها الألمُ /والموتُ/(٢) ولا بدَّ.

وأطالوا الكلامَ في الآلامِ وأسبابِها، وما يحسُن منها، وما يقبحُ، وعلى أي وجهٍ تقع(٣)، وحصرُوا أنفسَهم غايةَ الحصرِ، فاستطالَتْ عليهِمْ الجبريةُ(٤) بالأسئلةِ والمضايقاتِ، وألجؤوهُم إلى مضايقَ تضايقُ عنها أن تولجَها(٥) الإبرُ، وأضحكُوا العقلاءَ منهم بإبداءِ تناقضِهم، وألزمُوهُم إلزاماتٍ لا بدَّ مِنِ التزامِها، أو تركِ المذهبِ.

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٢) ما بين القائمين سقط من الأصل، وهو في باقي النسخ.

(٣) في ك و س: «يقع».

(٤) الجبرية: نسبة إلى القول بالجبر، وهو في اصطلاح المتكلمين: نفي الفعل عن العبد، وإضافته إلى الله -تعالى-.

وهي صنفان: جبرية خالصة، وهي التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا، وإنما هو كالريشة في مهب الريح، أو ورق الشجر تحركها الرياح، كالجهمية -أتباع الجهم بن صفوان-، ويقرب منهم النجارية -أتباع أبي عبد الله الحسين بن محمد النجار-، والضرارية: -أتباع ضرار بن عمرو القاضي-.

وجبرية غير خالصة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وتنسب الفعل إليه على جهة الكسب والمباشرة، كالأشعرية. انظر: «الملل والنحل» (١/ ١٠٨)، «اعتقاد فرق المسلمين والمشركين» (ص٦٨)، «الخطط» (٢/ ٣٤٩)، «مجموع الفتاوى» (٨/ ١١٨)، (١٢٨)، (١٣/ ٢٢٨).

(٥) في ك: «أن يولجها».

مناظرةُ الأشعريِّ للجُبَّائي

وسأل أبو الحسنِ الأشعريُّ(١) أبا عليٍّ الجبائيَّ(٢) عن ثلاثةِ إخوةٍ لأبٍ وأمٍّ، مات أحدُهم صغيرًا، وبلغ الآخرُ، فاختار الإسلامَ، وبلغ الآخرُ فاختارَ الكُفرَ، فاجتمعوا عند ربِّ العالمين، فرفعَ درجةَ البالغِ المسلمِ، فقال أخوهُ الصغيرُ: يا ربُّ، ارفعْ درجتي حتى أبلغَ منزلةَ أخي، فقال: إنَّكَ لا تستحقُّ؛ إن أخاكَ بلغَ فعملَ أعمالًا استحق بِها تلك الدرجةَ، فقال: يا ربُّ، فهلا أحييتني حتى أبلغَ فأعملَ عملَه؟.

فقال: كانت المصلحةُ(٣) تقتضي اخترامَك قبلَ البلوغِ لأني علمتُ أنكَ لو بلغتَ لاخترتَ الكفرَ، فكانت المصلحةُ في قبضِك صغيرًا.

قال: فصاحَ الثالثُ من أطباقِ النارِ(٤)، وقال(٥): يا ربُّ فهلا فعلتَ معي هذا الأصلحَ، وقبضتني صغيرًا كما قبضتَ أخي صغيرًا؟.

فما جواب هذا أيها الشيخ؟. فلم يَحُرْ إليه(٦) جوابًا(٧).

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن الأشعري اليماني البصري، يرجع نسبه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولد سنة (٢٦٠)هـ، قدم بغداد، وأخذ الحديث عن زكريا الساجي، وتفقه بابن سريج، وكان معتزليا قبل ذلك، فتاب بالبصرة على المنبر، ثم أظهر فضائح المعتزلة وقبائحهم، وسلك طريق ابن كلاب في الصفات والقدر، وانتشر عنه هذا المذهب في العراق والشام، ثم انتشر في أمصار الإسلام، من كتبه: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، و«الإبانة عن أصول الديانة»، و«رسالة إلى أهل الثغر». توفي سنة (٣٢٤)هـ. انظر: «الملل والنحل» (١/ ١١٩)، «البداية و«النهاية»» (١٥/ ١٠١)، «الخطط» (٢/ ٣٥٨) للمقريزي، «الأعلام» (٥/ ٦٩).

(٢) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد، أبو علي الجبائي -بضم الجيم، وتشديد الباء المفتوحة-، نسبة إلى جباء من عمل خوزستان، ولد سنة (٢٣٥)هـ، وتتلمذ على الشحام من أصحاب أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة في زمانه وعليه اشتغل أبو الحسن الأشعري، ثم رجع عنه، وله تفسير مطول، له فيه اختيارات غريبة في التفسير، وقد رد عليه أبو الحسن الأشعري فيه، وقال: «كأن القرآن نزل بلغة أهل جباء» اهـ. ومن كتبه: «الرد على أهل النجوم». توفي سنة (٣٠٣)هـ. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٩٧)، «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ١٨٣)، «البداية والنهاية» (١٤/ ٧٩٨).

(٣) في ك و س: «تلك المصلحة». والمثبت أحسن.

(٤) في ك و س: «بين أطباق النار». وهو أحسن.

(٥) في ك: «فقال».

(٦) أي: لم يرجع، يقال: «حار، يحور، حورا ومحارا ومحارة وحؤورا». انظر: «لسان العرب» (٣/ ٣٨٣)، «القاموس» (ص/ ٤٨٦).

(٧) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» (٣/ ١٩٩) بعد أن ذكر هذه المناظرة: «... وذلك =

قالوا: وإذا علمَ سبحانَه من بعضِ العبيدِ أنه لا يختارُ الإسلامَ، وأنه لا يكونُ إلا كافرًا مفسدًا في الأرضِ؛ فأيُّ مصلحة لهذا العبدِ في إيجادِهِ؟.

= أنهم يوجبون عليه العدل بين المتماثلين، وأن يفعل بكل واحد منهما ما هو أصلح. وهنا قد فعل بأحدهما ما هو الأصلح -عندهم-دون الآخر» اهـ.

وقد ذكر هذه المناظرة الإيجي في «المواقف» (ص/ ٣٢٩)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٨٩)، وفي آخرها: «... قال الجبائي لأبي الحسن: وسوست؟ قال: لا والله، ولكن وقف حمار الشيخ» اهـ، والسبكي في «طبقات الشافعية» (٣/ ٣٥٦)، وقال: «... قلت: هذه مناظرة شهيرة، وقد حكاها شيخنا الذهبي». اهـ. وقد احتج الغزالي في «الاقتصاد في الاعتقاد» (ص/ ٨٣) بنحو ما احتج به الأشعري في هذه المناظرة، ولم يعزه إليه، فقال: «ندعي أنه لا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده، بل له أن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، خلافا للمعتزلة»، ثم رد عليهم، وقال في معرض الرد: «... وتدل عليه المشاهدة والوجود؛ فإنا نريهم من أفعال الله -تعالى-ما يلزمهم الاعتراف به بأنه لا صلاح للعبيد فيه؛ فإنا نفرض ثلاثة أطفال» ثم ذكره.

وقد بين المؤلف في «شفاء العليل» (ص/ ٢٦٨) أن هذه المناظرة ليس فيها إبطال الحكمة الإلهية فقال: «... لعمر الله إنها مبطلة لطريقة أهل البدع من المعتزلة والقدرية -الذين يوجبون على ربهم مراعاة الأصلح لكل عبد، وهو الأصلح عندهم، فيشرعون له شريعة بعقولهم، ويحجرون عليه، ويحرمون عليه أن يخرج عنها، ويوجبون عليه القيام بها، وكذلك كانوا من أحمق الناس وأعظمهم تشبيها للخالق بالمخلوق في أفعاله، وأعظمهم تعطيلا عن صفات كماله، فنزهوه عن صفات الكمال، وشبهوه بخلقه في الأفعال، وأدخلوه تحت الشريعة الموضوعة بآراء الرجال، وسموا ذلك عدلا وتوحيدا بالزور والبهتان، وتلك تسمية ما أنزل الله بها من سلطان، فالعدل قيامه بالقسط في أفعاله، والتوحيد إثبات صفات كماله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران ١٨]، فهذا العدل والتوحيد الذي جاء به المرسلون، وذلك التوحيد والعدل الذي جاء به المعطلون.

والمقصود أن هذه المناظرة وإن أبطلت قول هؤلاء، وزلزلت قواعدهم فإنها لا تبطل حكمة الله التي اختص بها دون خلقه، وطوى بساط الإحاطة بها عنهم، ولم يطلعهم منها إلا على ما نسبته إلى ما خفي عنهم كقطرة من بحار الدنيا، فكم لله -سبحانه-من حكمة في ذلك الذي أخرمه صغيرا، وحكمة في الذي مد له في العمر حتى بلغ وأسلم، وحكمة في الذي أبقاه حتى بلغ وكفر، ولو كان كل من علم أنه إذا بلغ يكفر يخترمه صغيرا لتعطل الجهاد، والعبودية -التي يحبها الله، ويرضاها-، ولم يكن هناك معارض، وكان الناس أمة واحدة، ولم تظهر آياته وعجائبه في الأمم، ووقائعه وأيامه في أعدائه، وإقامة الحجج وجدال أهل الباطل بما يدحض شبهتهم، وينصر الحق ويظهره على الباطل، إلى أضعاف أضعاف ذلك من الحكم التي لا يحصيها إلا الله؛ والله -سبحانه-يحب ظهور أسمائه وصفاته في الخليقة، فلو اخترم كل من علم أنه يكفر إذا بلغ لفات ذلك، وفواته مناف لكمال تلك الأسماء والصفات، واقتضائها لآثارها... اهـ.

قالوا: وأيُّ مصلحةٍ لإبليسَ وذريتِه الكُفَّارِ في إيجادِهم؟.

فإنْ قُلتم: عرَّضَهُم للثوابِ، قيل لكم[١]: كيفَ يعرِّضُهم لأمرٍ قد علمَ أنهم لا يفعلونه، وأنه[٢] لا يقعُ منهم ألبتةَ؟![٣] وَمِن هُنَا أَنْكَر غُلاتُهم العلمَ القديمَ، وكفَّرهمُ السلفُ على ذلك[٤].

وَمَنْ أقرَّ بِهِ منهم فإقرارُه به يُبْطِلُ[٥] مذهبَه[٦] وأصلَه في وجوبِ مراعاةِ الصلاحِ والأصلحِ.

وهذا معنى قولِ السلفِ: «ناظِرُوا القدريةَ بالعلمِ؛ فإنْ جحدُوه كَفَرُوا، وإن أقرُّوا به خُصِمُوا»[٧].

---

(١) في س: «قيل لهم». (٢) في ك وس: «ولأنه».

(٣) أي: ومثل هذا قبيح من المخلوق. ومعلوم أن المخلوق إذا كان قادرا على منع عبيده من القبائح، فمنعه لهم خير من أن يعرضهم للثواب مع علمه أنه لا يحصل لهم إلا العقاب، كالرجل الذي يعطي ولده أو غلامه مالا؛ ليربح فيه، وهو يعلم أنه يشتري به سما يأكله. فمنعه له من المال خير من أن يعطيه إياه مع علمه أنه يتضرر به، وكذلك إذا أعطى غيره سيفا؛ ليقاتل به الكفار، وهو يعلم أن لا يقاتل به إلا الأنبياء والمؤمنين، لكان ذلك قبيحا منه -وإن قال: «قصدت تعريض هذا للثواب، والله لا يقبح منه ذلك». انظر: «منهاج السنة» (٣/ ١٥٢) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤) منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وعبيد الله بن الحسن العنبري، وسعيد بن جبير والشعبي ونافع -مولى ابن عمر- والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور، وطاوس، وعمر بن عبد العزيز -رحمهم الله-. انظر: «السنة» (ص/ ٥٢٩-٥٣٣)، (٥٥٧-٥٦٢) للخلال، «السنة» (٢/ ٣٨٥) لعبد الله بن أحمد، «الشريعة» (ص/ ٢٠٠-٢٥٠) للآجري، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٧٠٦-٧٢٥).

(٥) في ك: «مبطل». (٦) في ع: «يبطل مذهبه -إن شاء الله-».

(٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (ص/ ١٢٠)، رقم (٦٧٠)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٧١٣)، رقم (١٣٢٥): عن أبي جعفر الخطمي قال: «شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر، فقال له: ويحك يا غيلان! ما هذا الذي بلغني عنك؟! قال: يكذب علي يا أمير المؤمنين، ويقال علي ما لا أقول. قال: ما تقول في العلم؟ قال: نفذ العلم. قال: أنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت، يا غيلان: إنك إن أقررت بالعلم؛ خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك أن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر»، في مناظرة طويلة. وأخرج ابن مندة في «الرد على الجهمية» (ص/ ١١٨)، رقم (٢٤٤): عن عمر بن عبد العزيز قال: «من أقر بالعلم فقد خصم». وأخرج عبد الله بن =

قالوا: وأمَّا حديثُ العِوضِ على الآلامِ فالربُّ - تباركَ وتعالى - قادرٌ على إيصالِ تلك المنافعِ بدونِ توسطِ الآلامِ(١).

قالوا: وهذا بخلافِ المستأجِرِ؛ فإن له منفعةً وحاجةً في توسُّطِ تعبِ الأجيرِ، واستيفاءِ منفعتِه، فأمَّا من يتعالى عنِ الانتفاعِ بخلقِه، ولا يحتاجُ إلى أحدٍ منهم ألبتةَ؛ فلا يعقلُ(٢) في حقِّه ذلك.

قالوا: وأمَّا وقوعُ الآلامِ على وجهِ العقوباتِ فذلك إنما يَحسنُ(٣) في الشاهدِ؛ لحصولِ التشفِّي من الجُناةِ(٤)، وإطفاءِ نارِ الغيظِ والغضبِ بالانتقامِ منهم، وذلك لحاجةِ المُعاقِبِ إلى العقابِ، وانتفاعِهِ به. وقياسُ الغائبِ على الشاهدِ في ذلك ممتنعٌ.

قالوا: وأمَّا الإيلامُ للاعتبارِ بأن يعتبرَ الغيرُ بالألمِ الواقعِ بغيرِه، فيكونُ ذلك أَدْعَى له(٥) إلى الإذعانِ والانقيادِ، فلا ريبَ أن الصبيَّ إذا شاهدَ المعلِّمَ يضربُ غيرَه على لعبِه وتفريطِه؛ كان ذلك مصلحةً واعتبارًا له، ولعلَّه أن ينتفعَ بضربِ ذلك الغيرِ أكثرَ مِن انتفاعِ المضروبِ، أو حيثُ لا ينتفعُ المضروبُ، ولكن إنَّما يحسُنُ ذلك إذا كان المضروبُ مستحقًّا للضربِ، فأين استحقاقُ الأطفالِ والبهائمِ؟!

قالوا: وكذلك تمكينُه تعالى عبادَه أن يؤلمَ بعضُهم بعضًا، ويضربَ(٦) بعضُهم بعضًا، مع قدرتِه على منعِ المؤلِمِ المُضَرِّ(٧) - أيَّ مصلحةٍ لمن مُكِّنَ من ذلك، وأُقدرَ عليهِ؟!

وهل كانتْ مصلحتُه إلا تعجيزَه، وأن يحالَ بينه وبين القدرةِ على الأذى، وضررِ العبادِ؟!(٨)

= أحمد في «السنة» (ص/ ١٢٠)، رقم (٦٦٩): عن حوثرة بن أشرس قال: سمعت سلاما أبا المنذر غير مرة يقول: «سلوهم عن العلم؛ هل علم أو لم يعلم؟ فإن قالوا: علم؛ فليس في أيديهم شيء، وإن قالوا: لم يعلم؛ فقد حلت دماؤهم».

(١) في ع: «تلك الآلام». (٢) في ك و س: «فلا يفعل». وهو غلط.

(٣) في ك و س: «يحصل». (٤) في ع: «في الحياة». وهو خطأ.

(٥) في ع: «أدعى لغيره».

(٦) في ع و ك: «ويضر». وهو أحسن؛ لقوله بعد: «المؤلم المضر». (٧) في ك: «والمضر».

(٨) في ك: «وصون العباد»، وفي س: «وصوت العباد».

قالوا: فهذه الشريعةُ التي وضعتُموها لربِّ العبادِ تعالى، وأوجبتُم[١] عليه ما أوجبتُم، وحرَّمتُم عليه ما حرَّمتُم، وحجَّرْتم عليه تصرفَه[٢] في مُلكِه بغيرِ ما أصَّلتُم، وفرَّعتم بعقولِكم وآرائِكم تشبيهًا له وتمثيلًا بخلقِه فيما يحسُنُ منهم، ويقبحُ مع أنها شريعةٌ باطلةٌ، ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ؛ فإنكم لم تطرِدوها، بل أنتم متناقضون فيها غايةَ التناقضِ، خارجُون فيها عما يوجِبُه كلُّ عقلٍ صحيحٍ، وفطرةٍ سليمةٍ، فلا للتشبيهِ والتمثيلِ طَرَدْتُم، ولا بالتعويضِ قلتُم، ولا على حقيقةِ الحكمةِ والحمدِ وقفتُم؛ بل أثبتُّم له تعالى نوعَ حكمةٍ لا تقومُ به، ولا ترجعُ إليه[٣]؛ بل هي قائمةٌ بالخلقِ فقط، وقَدَحْتُم بها في تَمامِ مُلكِه؛ كما أثبتَ له إخوانُكم من الجبريةِ قدرةٍ مجردةٍ عن حكمةٍ وحمدٍ وغايةٍ يفعلُ لأجلِها[٤]، بل جعلُوا حمدَه وحكمتَه اقترانَ أفعالِه بما اقترنتْ به[٥] من المصالحِ عادةً، ووقوعَها مطابقةً لمشيئتِه وعلمِه فقط، فَقَدَحُوا بذلك في تمامِ حمدِه.

طريقةُ أهل السنةِ والجماعةِ

وقامَ حزبُ اللهِ، وحزبُ رسولِه ﷺ، وأنصارُ الحقِّ بـ: «لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ» حقَّ القيامِ، ورعُوا هذهِ الكلمة حقَّ رعايتِها[٦] علمًا ومعرفةً وبصيرةً، ولم يُلقوا الحربَ بين حمدِه ومُلكِه، بل أَثْبتوا له المُلكَ التامَّ الذي لا يخرجُ عنه شيءٌ من الموجوداتِ: أعيانِها، وأفعالِها، والحمدَ التامَّ الذي وَسِعَ كلَّ معلومٍ، وشَمِلَ كلَّ مقدورٍ.

وقالوا: إنَّ له تعالى في كلِّ ما خلقَه وشرعَه حكمةً بالغةً، ونعمةً سابغةً، لأجلِها خلقَ وأمرَ، ويستحقُّ أن يُثْنَى عليه، ويُحَمَدَ لأجلِها، كما يُثنى عليه ويحمدُ لأسمائِه الحُسنى، ولصفاتِه العُلى، فهو المحمودُ على ذلك كلِّه أتمَّ حمدٍ وأكملَهُ؛ لِمَا اشتملتَ عليه صفاتُه من الكمالِ، وأسماؤُه من الحُسْنِ، وأفعالُه من الحِكَمِ والغاياتِ المقتضيةِ لحمدِه، المطابقةِ[٧] لحكمتِه، الموافقةِ لمحابِّهِ؛ فإنَّه سبحانه كاملُ الذاتِ، كاملُ الأسماءِ والصفاتِ، لا يصدرُ عنه إلا كلُّ فعلٍ كريمٍ، مطابقٍ للحكمةِ، موجبٌ للحمدِ،

---

(١) في ع: «وأوجبتم بها». (٢) في س: «في تصرفه».

(٣) في ك: «لا تقوم به، ولا ترجع إليه» بالمثناة التحتية والفوقية فيهما. وكلاهما سائغ.

(٤) في ك: «وغاية يفعل لأجلها» بالمثناة التحتية والفوقية. (٥) في س: «بما اقترن به».

(٦) في ع: «ورعوا هذه الطريق رعايتها». (٧) في س: «المطابق».

يترتبُ[١] عليه من محابِّه ما فعل لأجلِه.

أصولُ طريقةِ الجبريةِ والقدريةِ النفاةِ

وهذا أمرٌ ذهبَ عن[٢] طائفتي الجبريةِ والقدريةِ، وحالَ بينهم وبينه أصولٌ فاسدةٌ أصَّلُوها، وقواعدُ باطلةٌ أسَّسُوها من تعطيلِ بعضِ صفاتِ كمالِه، كما عطَّل الفريقان حقيقةَ محبَّتِه، وقالوا: إنه لا يُحبُّ ولا يُحَبُّ، بل حقيقةُ محبَّتِه - عندَ الجبريةِ - مشيئتُه وإرادتُه[٣]، ومحبةُ العبادِ له إرادتُهم لما يخلُقُه من النعيمِ في دارِ الثوابِ، فالمحبةُ عندهم إنما تعلقتْ بمخلوقاتِه لا بذاتِه، وحقيقةُ محبَّتِه وكراهتِه[٤] - عند القدريةِ - أمرُه ونهيُه، ومحبَّةُ العبادِ له محبتُهم لثوابِه المنفصلِ.

وأَصَّلَ الفريقان أنه لا تقومُ[٥] بذاتِه حكمةٌ، ولا غايةٌ يفعلُ لأجلِها، ثم اختلفوا؛ فقالتِ الجبريةُ: لا يفعلُ لغايةٍ، ولا لحكمةٍ أصلًا.

وتكايستِ القدريةُ بعضَ التكايُسِ فقالتْ: يفعلُ لغايةٍ وحكمةٍ لا ترجعُ إليه[٦]، ولا تقومُ به، ولا يعودُ إليه منها وصفٌ.

وأصَّل الفريقان أيضًا أنه لا يقومُ بذاتِه فعلٌ ألبتةَ، بل فعلُه عينُ مفعولِه، فعطَّلوا أفعالَه القائمةَ به، وجعلُوها نفسَ المخلوقاتِ المشاهدَةِ التي لا تقومُ به، فلم يقمْ به عندهم فعلٌ ألبتةَ، كما عطَّلَ الجهميةُ[٧] صفاتِه، فلم يُثبِتُوا له صفةً تقومُ به وإنْ تناقَضُوا، وكما عطَّلتِ السِّينَائِيَّةُ - أتباعُ ابنِ سينا - ذاتَه؛ فلم يُثبتوا له ذاتًا زائدةً على وجودٍ مجردٍ، لا يقارنُ ماهيةً ولا حقيقةً[٨].

---

(١) في ع: «مرتب».   (٢) في ك: «من».

(٣) وآخرون منهم يجعلونها نفس المفعولات -التي يحبها العباد-، فيجعلون محبته نفس خلقه. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٤).

(٤) في ع: «محبته وكرامته». وهو غلط.   (٥) في باقي النسخ: «لا يقوم». وكلاهما سائغ.

(٦) في ع: «لا ترفع إليه». وهو خطأ.   (٧) في ك و س: «غلاة الجهمية».

(٨) الماهية: تطلق -غالبا-على الأمر المتعقل، مثل المتعقل من: «الإنسان»، وهو الحيوان الناطق، مع قطع النظر عن الوجود الخارجي، والأمر المتعقل من حيث هو مقول في جواب: «ما هو؟» يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة. وقيل: إن الماهية أعم من الحقيقة؛ لأن الحقيقة لا تستعمل إلا في الموجودات، والماهية تستعمل في الموجودات والمعدومات. انظر: «التعريفات» (ص/ ٧)، (٤٠)، «المعجم الفلسفي» (٢/ ١٨٨) للدكتور جميل صليبا، «المعجم الفلسفي» (ص/ ١٦٥) إعداد مجمع اللغة العربية بمصر، «الكليات» (ص/ ٧٠١).

وأصَّلتِ الجبريةُ أنه تعالى لا ينزَّه عن فعلٍ مقدورٍ يكونُ قبيحًا بالنسبةِ إليه، بل كلُّ مقدورٍ ممكنٌ فهو جائزٌ عليه وإن عُلِمَ عَدَمَ فعلِهِ فبالسمع، وإلا فالعقلُ يقضي بجوازِه عليه، فلا ينزَّه عن مُمْكنٍ مقدورٍ إلا ما دلَّ عليه السمعُ[١]، فيكون تنزيهُه عنه لا لقبحِه في نفسِه؛ بل لأن وقوعَه يتضمنُ الخلفَ في خبرِه وخبرِ رسولِه ﷺ، ووقوعَ الأمرِ على خلافِ علمِه ومشيئتِه. فهذا حقيقةُ التنزيهِ عند القومِ.

وأصَّلتِ القدريةُ أن ما يحسُنُ من عبادِه يحسنُ منه، وما يقبَحُ منهم يقبحُ منه مع تناقضِهم في ذلك غايةَ التناقضِ.

فاقتضتْ هذهِ[٢] الأصولُ الفاسدةُ، والقواعدُ الباطلةُ فروعًا ولوازمَ، كثيرٌ[٣] منها مُخالفٌ لصريحِ العقلِ، ولسليمِ الفِطْرةِ، كما هو مخالفٌ لما أخبرتْ به الرسلُ عنِ اللهِ ﷻ، فجعلَ أربابُ هذه القواعدِ والأصولِ قواعدَهم وأصولَهم محكمةً، وما جاء به الرسولُ ﷺ مُتشابهًا!.

ثم أصَّلُوا أصْلًا في ردِّ هذا المتشابهِ إلى المُحكَمِ، وقالوا: الواجبُ فيما خالفَ هذه القواطعَ العقليةَ - بزعمهم - من الظواهرِ الشرعيةِ أحدُ أمرين:

إما تخريجُها على ما يعلمُ العقلاءُ أن المتكلمَ لم يُرِدْه بكلامِه من المجازاتِ البعيدةِ، والألغازِ المعقدةِ، ووحشيِّ اللغاتِ، والمعاني المهجورةِ التي لا يُعَرفُ أحدٌ من العربِ عبَّر عنها بهذه العباراتِ[٤]، ولا تحتملُها لغةُ القومِ ألبتةَ، وإنما هي محاملُ أنشؤُوها هم، ثم قالوا: «نحملُ اللفظَ عليها»، فأنشؤُوا محاملَ من تلقاءِ أنفسِهم، وحكمُوا على اللهِ ورسولِه بإرادتِها بكلامِه[٥]، فأنشؤُوا منكرًا، وقالوا زُورًا.

فإذا ضاقَ عليهم المجالُ، وغلبتْهُم النصوصُ، وبهرتهُم شواهدُ الحقيقةِ من اطرادِها، وعدمِ فَهْمِ العقلاءِ سواها، ومجيئِها على طريقةٍ واحدةٍ، وتنوُّعِ الألفاظِ الدالَّةِ على الحقيقةِ، واحتفَافِها بقرائنَ من السياقِ، والتأكيدِ، وغيرِ ذلك؛ يَقطع كلُّ سامعٍ بأن المرادَ حقيقتُها، وما دلت عليه؛ قالوا: الواجبُ ردُّها، وأن لا نشتغلَ بها[٦].

---

(١) في ك و س: «بالسمع».
(٢) في ع: «تلك».
(٣) في س: «كثيرة».
(٤) في س: «بهذه العبارة».
(٥) وهؤلاء أصحاب التحريف الذي يسمونه تأويلا.
(٦) في باقي النسخ: «وأن لا يشتغل بها».

وإنْ أحسنُوا العبارةَ والظنَّ؛ قالوا: الواجبُ تفويضُها، وأن نَكِلَ علمَها إلى اللهِ، من غيرِ أن يحصلَ لنا بها هُدًى، أو علمٌ، أو معرفةٌ باللهِ وأسمائِه وصفاتِه، أو ننتفعَ بها في بابٍ واحدٍ من أبوابِ الإيمانِ باللهِ، وما يُوصفُ به، وما يُنزَّه عنه، بل نُجرِي ألفاظَها على ألسنتِنا، ولا نعتقدَ حقيقتَها؛ لمخالفتِها للقواطعِ العقليةِ(١).

فسمُّوا أُصُولَهم الفاسدةَ، وشبهَهمُ الباطلةَ التي هي كبيتِ العنكبوتِ، وكما قال فيها القائلُ:

شبهٌ تَهافَتُ كالزُّجاجِ تخالُها(٢) حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مكسورُ(٣)

قواطعَ عقليةً مع اختلافِهم فيها، وتناقضِهم فيها، ومناقضتِها لصريحِ المعقولِ، وصحيحِ المنقولِ.

وسموا كلامَ اللهِ ورسولِه ﷺ ظواهرَ سمعيةً؛ إزالةً لحرمتِه من القلوبِ، ومنعًا للتعلُّقِ به، والتمسكِ بحقيقتِهِ في بابِ الإيمانِ، والمعرفةِ باللهِ وأسمائِه وصفاتِه.

فعبَّروا عن كلامِهم بأنه قواطعُ عقليةٌ، فيظنُّ الجاهلُ بحقيقتِه أنه إذا خالَفَهُ فقد خالَفَ صريحَ المعقولِ، وخرجَ عن حدِّ العُقَلاءِ، وخالَفَ القاطعَ.

وعبَّروا عن كلامِ اللهِ ورسولِه بأنه ظواهرُ؛ فلا جُنَاحَ على من صَرَفَهُ عن ظاهرِه، وكذَّب بحقيقتِه، واعتقدَ بطلانَ الحقيقةِ، بل هذا - عندهم - هو الواجبُ.

وأشهدَ اللهُ - سبحانَه - عبادَه الذين أوتوا العلمَ والإيمانَ أنَّ الأمرَ بعكسِ ما قالُوه،

---

(١) وهؤلاء أصحاب التجهيل، الذين بنوا مذهبهم على أصلين فاسدين:

أحدهما: أن نصوص الصفات من المتشابه.

والثاني: أن للمتشابه تأويلا لا يعلمه إلا الله -تعالى. انظر: «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٢٢-٤٢٤) للمؤلف.

(٢) أي: تظنها. يقال: «خال الشيء، يخال خيلا، وخيلة -ويكسران- وخالا وخيلانا -محركة- ومخيلة ومخالة وخيلولة»: إذا ظنه، وتقول في مستقبله: «إخال» -بالكسر. هذا الأفصح والأكثر استعمالا. ويقال: أخال -بالفتح. وهو القياس. انظر: «لسان العرب» (٤/ ٢٦٤)، «الصحاح» (٢/ ١٣٨٥)، «القاموس» (ص/ ١٢٨٧).

(٣) ذكره المؤلف في مواضع، ك: «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٧٧)، وشيخه ابن تيمية في مواضع، ك: «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٣١٤)، والسيوطي في «صون المنطق والكلام» (ص/ ٩٩)، (١٧٦)، ولم يعزه إلى أحد.

وأنَّ كلامَه، وكلامَ رسولِه هو الشفاءُ والعصمةُ والنورُ الهادي(١)، والعلمُ المطابقُ لمعلومِه، وأنه هو المشتملُ على القواطعِ العقليةِ السمعيةِ، والبراهينِ اليقينيةِ، وأن كلامَ هؤلاءِ المتهوِّكينَ(٢) الحيارى، المتضمّنَ لخلافِ ما أخبرَ به عن نفسِه، وأخبرَ به عنه رسولُه هو الشبهاتُ الفاسدةُ، والخيالاتُ الباطلةُ، وأنه كالسرابِ الذي يحسبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئًا، ووجدَ اللهَ عنده، فوفَّاه حسابَه، واللهُ سريعُ الحسابِ(٣).

وهؤلاءِ هُم أهلُ العلمِ حقًّا الذين شهد اللهُ سبحانه لهم به، فقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: الآية ٦].

ومن سواهم من الصُّمِّ والبُكمِ الذين قالَ اللهُ فيهم(٤): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: الآية ١٠]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرعد: الآية ١٩].

وكان ما شَهِدُوه من ذلك بالعقلِ والفطرةِ، لا بمجردِ الخبرِ، بل جاء إخبارُ الربِّ تعالى، وإخبارُ رسولِه ﷺ مطابقًا لِمَا في فِطَرِهِمُ السليمةِ، وعقولِهم المستقيمةِ، فتضافرَ على إيمانِهم به الشريعةُ المنزلةُ، والفطرةُ المكمَّلةُ، والعقلُ الصريحُ، فكانوا هم العقلاءَ حقًّا، وعقولُهم هي المعيارَ، فمن خالفها فقد خالف صريحَ المعقولِ، والقواطعِ العقليةِ.

---

(١) في ك: «النور والهادي».

(٢) المتهوك: المتحير، وفي حديث جابر مرفوعا: «**أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى**» أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٣٨)، (٣٧٨). قال ابن عون: فقلت للحسن: «ما متهوكون؟» قال: متحيرون. والمتهور: هو الذي يقع في الأمر بغير روية. انظر: «الصحاح» (٢/ ١٣٢٧)، «القاموس» (ص/ ١٢٣٧)، «النهاية» (٥/ ٢٨٢)، «شرح السنة» (١/ ٢٧١) للبغوي.

(٣) ذكر المؤلف في «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩٩٢): أن أهل السنة بنوا أصولهم على أربع قواعد: **إحداها**: أن ما جاء به الوحي هو الهدى والحق واليقين. **والثانية**: أن ما يقدر من الاحتمالات المعارضة لظاهره وحقيقته باطل لغة. **الثالثة**: أن ما يدعى أنه معارض لذلك من العقل فهو باطل. **الرابعة**: أن العقل موافق له معاضد، لا معارض مناقض.

(٤) في ك و س: «ومن سواه من الصم البكم الذين قال الله فيهم».

ومن أرادَ معرفةَ [صحةِ][(١)] هذا؛ فليقرأْ كتابَ شيخِنَا[(٢)] وهو: «بيانُ موافقةِ العقلِ الصريحِ للنقلِ الصحيحِ؛ فإنه كتابٌ لم يطرقْ العالَمَ له نظيرٌ في بابِهِ؛ فإنه هدمَ فيه قواعدَ أهلِ الباطِلِ من أُسِّها، فخرَّت عليهم سقوفُه من فوقِهم، وشيَّد فيه قواعدَ أهلِ السنةِ والحديثِ، وأحكمَها، ورفع أعلامَها، وقرَّرَها بمجامعِ الطرقِ التي يُقررُ بها[(٣)] الحقُّ من العقلِ والنقلِ والفطرةِ والاعتبارِ، فجاء كتابًا لا يَسْتغني من نصح نفسَه من أهلِ العلمِ عنه.

فجزاه اللهُ عن أهلِ العلمِ والإيمانِ أفضلَ الجزاءِ، وجزى العلمَ والإيمانَ عنه كذلك.

عودةٌ إلى الكلامِ على دخولِ الشرِّ في القضاءِ الإلهي: قولُ البكريةِ

فصلٌ

عدنا إلى تمامِ الكلامِ في كيفيةِ دخولِ الشرِّ في القضاءِ الإلهيِّ، وبيانِ طُرقِ الناسِ في ذلك، واختلافِهم في إيلامِ الأطفالِ والبهائمِ:

وقالتِ البَكْرِيَّةُ - وهم أتباعُ بكرِ ابنِ أختِ عبدِالواحدِ بن زيدِ البصريِّ[(٤)]: إن البهائمَ

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٢) هو شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، ولد سنة (٦٦١)هـ، كان آية في التفسير والفقه والأصول وغيرها، مؤلفاته كثيرة جدا، يقال: إنها تزيد على ثلاثمائة مجلد، من أعظمها: «درء تعارض العقل والنقل»، و«منهاج السنة النبوية»، و«الصارم المسلول»، و«اقتضاء الصراط المستقيم»، وله فتاوى ورسائل كثيرة جدا. سجن عدة مرات لصدعه بالحق، ودفاعه عن العقيدة الصحيحة، وفتاويه التي أغضبت بعض علماء عصره. توفي في دمشق في سجن القلعة، سنة (٧٢٨)هـ. انظر: «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٩٥-٣٠٢)، «الدرر الكامنة» (١/ ١٥٤)، «شذرات الذهب» (٦/ ٨٠).

(٣) في ك و س: «التي تقرر بها».

(٤) لم أجد له ترجمة مفصلة، وقد ذكرت كتب المقالات أنه كان يقول: «إن الكبائر التي تكون من أهل القبلة نفاق كلها، وإن مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة عابد للشيطان مكذب لله، جاحد له، منافق في الدرك الأسفل من النار، مخلد فيها أبدا إن مات مصرا، وإنه ليس في قلبه لله إجلال ولا تعظيم، وهو مع ذلك مؤمن مسلم»، وكان يوافق النظام في دعواه أن الإنسان هو الروح دون الجسد الذي فيه روح، وكان يقول: «إن الله يرى يوم القيامة في صورة يخلقها، وإنه يكلم عباده من تلك الصورة»، وكان يحرم أكل الثوم والبصل، ويوجب الوضوء من قرقرة البطن. وإليه تنسب فرقة البكرية. انظر: «مقالات الإسلاميين» =

والأطفالَ لا تألمُ البتةَ.

والذي حملهم على هذا موجبُ التعليلِ والحكمةِ، ولم يرتضوا ما قالت الجبريةُ من[١] نفي ذلك، ولا ما قالتِ المعتزلةُ من حديثِ الأعواضِ، وما فرَّعوه عليه، ولم يمكنهم القول بمذهبِ التناسخيةِ - القائلين بأن الأرواحَ الفاجرةَ الظالمةَ تودعُ في الحيواناتِ التي تناسبُها، فينالُها من ألمِ الضربِ والعذابِ بحسبِها -[٢] ولا بمذهبِ المجوسِ من إسنادِ الشرِّ والخيرِ إلى إلاهينِ مستقلينِ، كلٌّ منهما يذهبُ بخلقِه[٣]، ولا بقولِ من يقولُ: إن البهائمَ مُكلفةٌ مأمورةٌ، منهيةٌ، مثابةٌ، معاقبةٌ، وإن في كل أمةٍ منها رسولًا ونبيًّا منها، وهذهِ الآلامُ والعقوباتُ الدنيويةُ جزاءٌ على مخالفتِها لرسولِها

= (ص/٢٨٦)، «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣/ ١٥٧)، (٢٧٣)، (٤/ ٧٩)، «الفرق بين الفرق» (ص/ ٢٠٠)، «الخطط» (٢/ ٣٤٩) للمقريزي. وخاله هو عبد الواحد بن زيد، أبو عبيدة البصري، شيخ زاهد عابد، حدث عن الحسن وعطاء وغيرهما، قال البخاري: «تركوه»، وقال النسائي: «متروك الحديث»، وقال ابن حبان: «كان ممن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه»، وكان صاحب فنون، وعنده شيء من بدع القدرية النفاة، توفي بعد سنة خمسين ومائة. انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ١٥٥)، «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧٨)، «تاريخ الإسلام» (٦/ ٢٤٣).

(١) في ع: «في».

(٢) التناسخية: فرقة تزعم أن الأرواح تنتقل من شخص إلى آخر -كما ذكر المؤلف-، وأن ما تلقى من الراحة والتعب والدعة والنصب مرتب على ما أسلفه هذا الشخص؛ جزاء له، وأن الجنة والنار في هذه الأشخاص. وللتناسخ مراتب:

١-خروج الروح من جسم آدمي إلى جسم آدمي آخر، ويسمى النسخ.

٢-خروج الروح من جسم آدمي إلى جسم حيوان، ويسمى المسخ.

٣-خروج الروح من جسم آدمي إلى جسم حشرة من الحشرات، ويسمى الفسخ.

٤-خروج الروح من جسم آدمي إلى الشجر والنبات، ويسمى الرسخ.

وهذا المذهب من مذاهب الهنود واليونان قديما، وانتقل إلى بعض الغلاة، كغلاة الرافضة. انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ٩٠)، (٢٠٢)، «المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب» (٢/ ٦٣).

(٣) المجوس: هم القائلون بإثبات أصلين اثنين مدبرين يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد: **أحدهما**: النور، وهو مبدأ الخير كله، ويسمى أهوار مزدا. **والثاني**: الظلام، وهو مبدأ الشر كله، ويسمى أهرمان. وبعضهم يزعم أن هذين الأصلين أزليان، ويزعم آخرون أن النور أزلي، والظلام محدث، مع اختلافهم في سبب حدوثها. ومن فرق المجوس: الثنوية والديصانية والكيومرثية والمرقونية. انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٧٣)، «المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب» (١/ ٣٧).

ونبيها.

فلم يجدُوا بدًّا من التزامِ ما ذهبوا إليه من إنكارِ وقوعِ الآلامِ بها، ووصولِها إليها.

مناقشةُ هذا القولِ

وقد ردَّ عليهم الناسُ بأنَّهم [قد][١] كَابَرُوا الحسَّ، وجَحَدوا الضرورةَ، وأن العلمَ بخلافِ ما ذهبوا إليه ضروريٌّ.

وقال مَنْ أنصفَ القومَ: لا سبيلَ إلى نسبةِ هؤلاءِ إلى جحدِ الضرورةِ مع كثرتِهم، ولكنهم ربما رأَوْا الطفلَ والبهيمةَ[٢] لا تُدْرِكُ[٣] الآلامَ حسبَ ما يدركُها العقلاءُ؛ فإنَّ العاقلَ إذا أدركَ تَأْلَمُ جوارحُهُ، وأحسَّ به تألَّم قلبُه، وطالَ حزنُه، وكثُر هَمُّ روحِه وغمُّها، واشتدتْ فكرتُه في ذلك، وفي الأسبابِ الجالبةِ له، والأسبابِ الدافعةِ له، وهذهِ الآلامُ زائدةٌ على مجردِ ألمِ الطبيعةِ.

ولا ريبَ أن البهائمَ والأطفالَ لا تحصلُ[٤] لها تلك الآلامُ كما تحصلُ[٥] للعاقلِ المميِّزِ. فإن أرادَ القومُ هذا فَهُمْ مصيبُون.

وإن أرادُوا أنه[٦] لا شعورَ لها بالآلامِ ألبتةَ، وأنها لا تحسُّ بها فمكابرةٌ [ظاهرةٌ][٧]؛ فإنَّ الواحدَ منا يعلمُ باضطرارٍ أنه كان يألَمُ[٨] في طفوليَّتِه بمسِّ النارِ له، وبالضربِ، وغيرِ ذلك[٩].

قولُ طائفةٍ أخرى

وقالتْ طائفةٌ: كلُّ ما يتألمُ به الطفلُ والبهيمةُ ليس من فعلِ[١٠] اللهِ سبحانه، ولا فعلَ اللهِ فيه الألمَ؛ لما ثبتَ من حكمتِه.

مناقشةُ هذا القولِ

وهذا يشبهُ[١١] قولَهُم في أفعالِ الحيوانِ: إنها ليست من خلقِ اللهِ، ولا كانت بمشيئتِه.

ولكنَّ هذا أشدُّ فسادًا من ذلك؛ فإن هذهِ الآلامَ حوادثُ لا تتعلقُ باختيارِ من قامتْ به، ولا بإرادتِه[١٢] فلا بدَّ لها من مُحدِثٍ؛ إذ وجودُ حادثٍ بلا مُحدِثٍ مُحالٌ، واللهُ

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ. (٢) في ك و س: «أن الطفل والبهيمة».
(٣) في س «لا يدرك». (٤) في ك: «لا يحصل». (٥) في ك وس: «كما يحصل».
(٦) في س: «أنها». (٧) ما بين المعقوفين ليس في س. (٨) في باقي النسخ: «يتألم».
(٩) في ع: «وبغير ذلك». (١٠) في باقي النسخ: «ليس من قبل».
(١١) في ع و ك: «شبه». (١٢) في ع: «ولا بإراداته».

سبحانه خالقها بأسبابِها المفضيةِ إليها، فخالقُ السببِ خالقُ المسبَّبِ(١).

فإن أراد هؤلاءِ نفي فعلِها عن اللهِ سبحانه مباشرةً من غير توسُّطٍ بسببٍ(٢) أصلًا؛ فهذا قد يكونُ حقًّا.

وإن أرادوا أنها غيرُ منسوبةٍ إلى قدرتِه ومشيئتِه [البتةَ](٣)؛ فباطلٌ.

قولُ طائفةٍ أُخْرى

وذهبتْ طائفةٌ إلى أن في كلِّ نوعٍ من أنواعِ الحيواناتِ أنبياءَ ورسلًا، وأنها مستحِقَّةٌ للثوابِ والعقابِ، وأنَّ ما ينزلُ بها من الآلامِ فجزاءٌ لها، وعقوباتٌ على معاصيها ومخالفتِها. واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: الآية ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: الآية ٢٤].

قولُ طائفةٍ أُخْرى

وقالتْ طائفةٌ من التناسخيةِ: إن اللهَ خلقَ خلقَه كلَّهم جملةً واحدةً، بصفةٍ واحدةٍ، ثم أمَرَهم، ونَهاهم، فمن عصى منهم نَسَخَ روحَهُ في جسدٍ(٤) بهيمةٍ تُبْتَلى بالذبحِ والقتلِ كالدجاجِ والغنمِ والإبلِ والبقرِ والبراغيثِ والقملِ، فما يسلَّطُ(٥) على هذهِ البهائمِ من الآلامِ فهو للأرواحِ الآدميةِ التي أُودِعَتْ هذهِ الأجسادَ:

فمن كان منهم زانيًا، أو زانيةً كوفئَ بأن جُعِلَ في بدنِ حيوانٍ لا يمكنُه الجماعُ كالبغالِ، ومن كان منهم عفيفًا عن الزنا مع طلبِه وتَجَشُّمِه(٦) كُوفِئَ بأن جُعل في بدنِ تيسٍ، أو عصفورٍ أو ديكٍ.

ومن كان منهم جبارًا عنيدًا كُوفئ بأن جُعلَ في بدنِ قملةٍ أو قُرادةٍ(٧) ونحوهما إلى أن يقتصَّ منهم، ثم يُردُّون؛ فمن عصى منهم بعد كرَّته(٨) كُرِّر أيضًا عليه ذلك التناسخُ، هكذا أبدًا حتى يطيعَ طاعةً لا معصيةَ بعدَها أبدًا، فينتقلُ إلى الجنةِ من وقتِه، أو يعصي معصيةً لا طاعةَ معها، فينتقلُ إلى جهنَّمَ من وقتِه.

وقد ذهب إلى هذا المذهبِ من المنتسبين إلى الإسلامِ رجلٌ يقالُ له: أحمدُ بنُ

---

(١) في باقي النسخ: «للمسبب». (٢) في ع: «من غير توسط سبب». (٣) ما بين المعقوفين ليس في ع.
(٤) في س: «جسم». (٥) في ك و س: «فما سلط».
(٦) في ك: «مع ظلمه وغشمه»، وفي س: «مع ظلمه وغشه».
والتجشم: تكلف الأمر على مشقة، ك: «الجشم» و«الجشامة»، يقال: «تجشم الأمر، وجشمه» ك: «سمع». انظر: «لسان العرب» (٢/ ٢٩٠)، «القاموس» (ص/ ١٤٠٦).
(٧) في ع: «أو جرادة». (٨) في ك و س: «بعد كذبه».

حابطٍ[١]؛ طردًا لأصولِ[٢] القدريةِ وشريعتِهم التي شرعوها للهِ، فأوجبوا بها عليه، وحرَّمُوا.

قولُ المجوسِ

وذهبتِ[٣] المجوسُ إلى أنَّ هذهِ الآلامَ والشرورَ من الإلهِ الشرِّيرِ المظلمِ، فلا تضافُ إلى الإلهِ الخيِّرِ العادلِ، ولا تدخلُ[٤] تحت قدرتِه، ولهذا كان أشبهُ أهلِ البدعِ بهم القدريةَ النفاةَ.

قولُ الدهريَّةِ

وقالتِ الزنادقةُ[٥] والدهريةُ[٦]: كلُّ ذلك من تصرفِ الطبيعةِ وفعلِها، وليس لذلك

---

(١) هو أحمد بن حابط المعتزلي، من أصحاب النظام، وكان قد طالع كتب الفلاسفة أيضا، وضم إلى مذهب النظام ثلاث بدع: القول بالتناسخ، وحمل كل ما ورد من النصوص في إثبات رؤية الله -تعالى- في الآخرة على رؤية العقل الأول -الذي هو أول مبدع!-، وإثبات خالقين: أحدهما قديم، -وهو الله، والثاني محدث وهو عيسى ابن مريم، وأن المسيح ابن الله بمعنى التبني دون الولادة، وهو الذي يحاسب الخلائق يوم القيامة.

ويرى الشهرستاني أن قوله هذا مأخوذ عن النصارى، ويرى البغدادي أنه مأخوذ عن الثنوية. توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. انظر: «الملل والنحل» (١/ ٦٠)، «الفرق بين الفرق» (ص/ ٢٥٥) «لسان الميزان» (١/ ١٤٨)، «المعتزلة» (ص/ ١٤٢) لزهدي حسن.

(٢) في س: «طرد الأصول».

(٣) في باقي النسخ: «وذهب»، وكلاهما سائغ.

(٤) في ك و س: «ولا يدخل».

(٥) الزنادقة: أصل هذه الكلمة: «الزناديق»، حذفت الياء، وعوض عنها بالهاء، وهو جمع: «زنديق» -بكسر أوله، وسكون ثانيه-، فارسي معرب، أصله: «زنده» أي: دين المرأة، وقيل: «زند كراي» أي: دوام الدهر، ولهذا اللفظ إطلاقان في الجملة: **أحدهما**: يطلق في عرف كثير من أهل الكلام ونقلة مقالات الناس والعامة على من يقول بإله النور وإله الظلمة، وعلى من لا يؤمن بالآخرة والربوبية، وعلى المتهتك المستهتر الذي يتكلم في الدين بما هو كفر صراح دون نظر أو استدلال، وعلى من يقول بدوام الدهر، ونحوهم. **والثاني**: يطلق في عرف الفقهاء على المنافق الذي يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، سواء أبطن دينا من الأديان كدين اليهود أو النصارى، أو غيره؛ فإن مقصود الفقهاء هو التمييز بين الكافر وغير الكافر، والمرتد وغير المرتد، ومن أظهر ذلك أو أسره. انظر: «لسان العرب» (٣/ ١٨٧١)، «الصحاح» (٤/ ١٢٢٩)، «القاموس» (ص/ ١٥٥١)، «المجموع شرح المهذب» (١٩/ ٢٣٢)، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٧١)، (٦٣٩)، (٢٨/ ٤٣٤)، «فتح الباري» (١٢/ ٢٨٣).

(٦) الدهرية: طائفة من الأقدمين جحدوا الخالق المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه بلا خالق، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدا. انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ٤٧)، «المنقذ من الضلال» (ص/ ٩٦)، «بغية المرتاد» (ص/ ٤٣٠).

فاعلٌ مختارٌ مدبرٌ بمشيئتِه وقدرتِه، ولا بدَّ في النارِ من إحراقٍ ونفعٍ، وفي الماءِ من إغراقٍ ونفعٍ، وليسَ وراءَ ذلك شيءٌ.

فهذهِ مذاهبُ أهلِ الأرضِ في هذا المقامِ.

ولما انتهى أبو عيسى الورَّاقُ(١) إلى حيثُ انتهتْ إليه أربابُ المقالاتِ، فطَاشَ عقلُه، ولم يتسعْ لحكمةِ إيلامِ الحيوانِ وذبحِه، صنَّف(٢) كتابًا سمّاه: «النوحَ على البهائمِ»، فأقام عليها المآتمَ وناح، وباح بالزندقةِ الصُّراحِ(٣).

وممن كان على [هذا](٤) المذهبِ، أعمى البصرِ والبصيرةِ، كلبُ: «معرةِ النعمانِ»(٥) المُكنَّى بأبي العلاءِ المعرِّي(٦)؛ فإنه امتنعَ من أكلِ الحيوانِ - زعم - لظلمِه بالإيلامِ والذبحِ(٧).

---

(١) هو محمد بن هارون بن محمد أبو عيسى الوراق، من معتزلة بغداد، ونظارهم، وله تصانيف على مذهبهم منها: «المقالات في الإمامة»، و«المجالس».

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٤/ ٧٦٦): «... كان مصاحبا لابن الراوندي الزنديق، فلما علم الناس بأمرهما؛ طلب السلطان أبا عيسى، فأودع السجن إلى أن مات، وأما ابن الراوندي فهرب» اهـ. توفي سنة سبع وأربعين ومائتين. وانظر: «مروج الذهب» (٥/ ٤٧٤)، (٧/ ٢٣٦)، «لسان الميزان» (٥/ ٤١٢)، «الأعلام» (٧/ ١٢٨).

(٢) كذا في النسخ، ولعلها: «وصنف».

(٣) في ك: «وناح وباح، باح بالزندقة الصراح».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٥) «معرة النعمان»: مدينة قديمة مشهورة، من أعمال حمص، بين حلب وحماة، ماؤها من الآبار، وفيها الزيتون الكثير والتين، المعرة: الشدة، وتلون الوجه غضبا، اختلف في النعمان -هذا-، فقيل: إنه النعمان ابن بشير الصحابي رضي الله عنه، اجتاز بها، فمات له بها ولد، فدفنه فيها، فسميت به. وقيل: إنه النعمان الملقب بـ: «الساطع» ابن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمة بن تيم الله. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٨٢)، «مراصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (٣/ ١٢٨٨) لصفي الدين البغدادي.

(٦) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد، أبو العلاء المعري التنوخي، ولد سنة (٣٦٣)هـ، صاحب الدواوين والمصنفات في الشعر واللغة، مشهور بالزندقة والانحلال، أصابه الجدري وله أربع سنوات، فذهب بصره، وقال الشعر وله إحدى عشرة سنة، وكان في غاية الذكاء المفرط. انظر: «معجم الأدباء» (٣/ ١٠٧)، «وفيات الأعيان» (١/ ١١٣)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٣)، «البداية والنهاية» (١٥/ ٧٤٥-٧٥٣).

(٧) ومكث على هذا خمسا وأربعين سنة من عمره. =

طريقةُ الرازيِّ في هذا الباب

وأمَّا ابنُ خطيبِ الري[١] فإنه سلكَ في ذلك طريقةً مُركبةً من طريقةِ المتكلمين، وطريقةِ الفلاسفةِ المشَّائين[٢]، وهذَّبها، ونقَّحها، واعترفَ في آخرِها بأنه لا سبيلَ إلى الخلاصِ عن [المطالباتِ][٣] التي أوردها على نفسِه [إلا][٤] بالتزامِ أنه تعالى موجبٌ بالذاتِ، لا فاعلٌ بالقصدِ والاختيارِ.

فأقرَّ على نفسِه بالعجزِ عن أجوبةِ تلك المطالباتِ إلا بإنكارِ قدرةِ اللهِ ومشيئتِه وفعلِه الاختياري، وذلك جحدٌ لربوبيتِه، فزعم أنه لا يمكنُه تقريرُ حكمتِه إلا بجحد ربوبيتِه.

ونحن نذكرُ كلامَه بألفاظِه: قال في «مباحثِه المشرقيةِ»[٥] الفصلَ السادسَ، في كيفيةِ دخولِ الشرِّ في القضاءِ الإلهيِّ وقبلَ الخوضِ فيه لا بدَّ من تقديمِ مقدمتين:

نقلُ كلامه

المقدمةُ الأولى: الأمورُ التي يقالُ لها: إنه شرٌّ إما أن تكونَ أمورًا عدميةً، أو أمورًا وجوديةً: فإن كانت أمورًا عدميةً فهي على أقسامٍ ثلاثةٍ؛ لأنها إما أن تكون عدمًا[٦] لأمورٍ ضروريةٍ للشيءِ في وجودِه، مثل عدمِ الحياةِ، وإمَّا أن تكونَ عدمًا لأمورٍ نافعةٍ قريبةٍ من الضرورةِ كالعمى[٧]، و[إما][٨] ألا تكون كذلك، كعدمِ العلمِ بالفلسفةِ

= ومن قوله:

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ... ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل ... بما وضعت فالظلم شر القبائح»

ومن قوله في إيلام الأطفال:

يا طفل حلت بك الرزايا ... فأنت منها صريم سحر
بأي ذنب أخذت فينا ... لم تجن إلا كذنب صحر

ويقال: إنه أوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي ... وما جنيت على أحد

والمعنى: أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه في هذه الدار، حتى صار بسبب ذلك إلى ما صار إليه، وهو لم يجن على أحد بهذه الجناية. قال ابن كثير: «... وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاد الحكماء إلى آخر وقت، وأنه لم يقلع عن ذلك -كما ذكره بعضهم-، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها». اهـ. انظر: «وفيات الأعيان» (١/ ١١٥)، «البداية والنهاية» (١٥/ ٧٥١)، (٧٥٣)، «تاريخ الفلسفة العربية» (ص/ ٣٠٠) للدكتور جميل صليبا. وانظر: «لزوم ما لا يلزم» (١/ ٣٩٢)، «زجر النابح» (ص/ ١١٦) كلاهما للمعري.

(١) تقدمت ترجمته. (٢) تقدم التعريف بهم. (٣) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٥) (٢/ ٥٤٥-٥٥١). (٦) في ك: «عدميًا».
(٧) في ك وس: «كالأعمى». (٨) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

والهندسةِ.

وأما الأمورُ الوجوديةُ التي يقالُ لها: شرورٌ[١] فهي كالحرارةِ المفرقةِ[٢] لاتصالِ العُضْو.

واعلمْ أن الشرَّ بالذاتِ هو عدمُ ضرورياتِ الشيءِ، وعدمُ منافعِه، مثلُ عدمِ الحياةِ، وعدمِ البصرِ؛ فإن الموتَ والعَمى لا حقيقةَ لهما إلا أنهما عدمُ الحياةِ وعدمُ البصرِ، وهما من حيثُ هما كذلك شرٌّ، فإذًا[٣] ليس لهما اعتبارٌ آخرُ بحسبِه يكونان شرَّين. وأما عدمُ الفضائلِ المستغنى عنها - مثلُ عدمِ العلمِ بالفلسفةِ - فظاهرٌ أنَّ ذلك ليس بشرٍّ.

وأما الأمورُ الوجوديةُ فإنَّها ليست شرورًا بالذاتِ، بل بالعرضِ من حيث إنها تتضمنُ عدمَ أمورٍ ضروريةٍ، أو نافعةٍ، ويدلُّ عليه أنَّا لا نجدُ شيئًا من الأفعالِ التي يقالُ لها: شرٌّ إلا وهو كمالٌ بالنسبةِ إلى الفاعلِ.

وأمَّا شرِّيَّتُه فبالقياسِ إلى شيءٍ آخرَ، فالظلمُ - مثلًا - يصدرُ عن قوةِ طلابِه/[٤] للغلبةِ، وهي القوةُ الغضبيةُ، والغلبةُ هي كمالُها، وفائدةُ خلقتِها، فهذا الفعلُ[٥] بالقياسِ إليها خيرٌ؛ لأنها إن ضَعُفَتْ عنه فهو بالقياسِ إليها شرٌّ، وإنما كان شرًّا للمظلومِ لفواتِ المالِ وغيرِه عنه، والنفسُ الناطقةُ[٦] كمالُها الاستيلاءُ على هذهِ القوةِ، فعند قهرِ القوةِ الغضبيةِ يفوتُ النفسَ ذلك الاستيلاءُ، ولا جَرَمَ كان شرًّا لها.

وكذلك النارُ إذا أحرقتْ؛ فإنَّ الإحراقَ كمالُها، ولكنه[٧] شرٌّ بالنسبةِ إلى من زالتْ سلامتُه بسببِها.

---

(١) في ك وس: «التي يقال: إنها شرور».
(٢) في س: «المحرقة».
(٣) في باقي النسخ: «إذن» -بالنون-. **وفيها ثلاثة مذاهب**: **أحدها**: أن تكتب بالنون إذا كانت ناصبة للفعل المضارع، بشرطه، وبالألف إذا كانت مهملة، وهذا مذهب الفراء، وهو الشائع. **الثاني**: أن تكتب بالنون مطلقا. **والثالث**: أن تكتب بالألف مطلقا، وهو مذهب ابن قتيبة وغيره. انظر: «أدب الكاتب» (ص/ ٢٠٢) لابن قتيبة، «الكامل في النحو والصرف والإعراب» (ص/ ٢٠) لأحمد قبش، «فن الإملاء في العربية» (٢/ ٥٢٠) للدكتور عبد الفتاح الحموز.
(٤) في ك وس: «عن قوة ظلامة».
(٥) في س: «العقل».
(٦) في ع: «الباطنة».
(٧) في س: «ولكنها».

وكذلك القتلُ، وهو استعمالُ الآلةِ القطاعَةِ[١] في قطعِ رقبةِ إنسانٍ[٢]؛ فإن كونَ الإنسانِ قويًّا على استعمالِ الآلةِ ليس شرًّا له، بل خَيْرًا، وكذلك كونُ الآلةِ قطاعةً هو خيرٌ لها، وكذلك كونُ الرقبةِ قابلةً للانقطاعِ، كلُّ ذلك خيراتٌ، ولكنَّ القتلَ شرٌّ من حيثُ إنه متضمنٌ لزوالِ الحياةِ.

فثبت بما ذكرنا أن الأمورَ الوجودية، ليستْ شرورًا[٣] بالذاتِ، بلْ بالعرضِ[٤].

المقدمةُ الثانيةُ: أن الأشياءَ إما أن تكونَ ماديةً، أو لا تكون؛ فإن لم تكن ماديةً؛ لم يكن فيها ما بالقوةِ، فلا يكون فيها شرٌّ أصلًا، وإن كانت ماديةً كانت في معرضِ الشرِّ.

وعُرُوضُ الشرِّ لها إما أن يكون في ابتداءِ تكوُّنِها، أو بعد تكوُّنِها[٥]:

أمَّا الأولُ: فهو أن تكونَ[٦] المادةُ التي يتكون منها إنسانٌ أو فرسٌ[٧] يعرضُ لها من الأسبابِ ما يجعلُها رديئةَ المزاجِ، رديئةَ الشكلِ والخلقةِ، فرداءةُ مِزاجِ ذلك الشخصِ، ورداءةُ خلقِه ليس لأن الفاعلَ جَرَمَ، بل لأنَّ المنفعلَ[٨] لم يقبلْ.

وأما الثاني: وهو أن يعرضَ الشيءُ للشيء، وطروءُ طارئٍ عليه بعد تكوُّنِه[٩] فكذلك الطاريءُ إما شيءٌ يمنع المكمِّلَ من الإكمالِ، مثل تراكمِ السُّحبِ، وإظلالِ الجبالِ الشاهقاتِ، إذا صار مانعًا من تأثيرِ الشمسِ في النباتِ، وإما شيءٌ يفسدُها مثلُ البردِ[١٠] الذي يصلُ إلى النباتِ، فيفسدُ بسببِ ذلك استعدادُه للنشوءِ والنموِ.

وإذا عرفتَ[١١] ذلك فنقول: قد بَيَّنَّا أن الشرَّ بالحقيقةِ إما عدمَ ضرورياتِ الشيءِ، وإما عدمَ منافعِه.

فنقولُ: الموجودُ إما أن يكونَ خيرًا من كلِّ الوجوهِ، أو شرًّا من كلِّ الوجوهِ، أو خيرًا من وجهٍ، وشرًّا من وجهٍ. وهذا على ثلاثةِ أقسامٍ[١٢]؛ فإنه إما أن يكون خيرُه غالبًا

---

(١) في س: «القاطعة».
(٢) في س: «رقبة الإنسان».
(٣) في ك: «ليس شرا»، وغير واضحة في س.
(٤) في ك زيادة: «والله أعلم».
(٥) في س: «في ابتداء تكوينها، أو بعد تكوينها».
(٦) في ك وس: «أن يكون».
(٧) في ك و س: «التي تكون إنسانا أو فرسا».
(٨) في ك: «المنفعل به»، وفي س: «المنفعل له».
(٩) في س: «بعد تكوينه».
(١٠) في ع و س: «وإما شيء يفسد، وصار مثل البرد».
(١١) في س: «وإذا عرف».
(١٢) في ك: «وهذا على تقدير ثلاثة أقسام»، وفي س: «وهذا على تقدير أقسام».

على شرِّهِ، أو يكونَ[١] شرُّه غالبًا على خيرِه، أو يتساويا[٢] خيرُه وشرُّه.

فهذهِ أقسامٌ خمسةٌ: أما الذي يكونُ خيرًا من كلِّ الوجوهِ فهو موجودٌ، وأما الذي يكون كذلك لذاتِه فهو اللهُ - تبارك وتعالى - وأما الذي يكونُ لغيرِه فهو العقولُ والأفلاكُ؛ لأن هذه الأمورُ ما فاتها شيءٌ من ضرورياتِ ذاتِها[٣]، ولا من كمالاتِها.

وأما الذي كلُّه شرٌّ، أو الغالبُ فيه، أو المتساوي فهو غيرُ موجودٍ؛ لأن كلامَنا في الشيءِ بمعنى عدمِ الضرورياتِ والمنافعِ، لا بمعنى عدمِ الكمالِ الزائدِ، وإذا عنينا بالشرِّ ذلك فلا نشكُّ[٤] أن ذلك مغلوبٌ، والخيرَ غالبٌ؛ لأن الأمراضَ وإن كثرت إلا أن الصحةَ أكثرُ منها، فالحرقُ والغرقُ والخسفُ، وإن كانت قد تكثر، إلا أن السلامةَ أكثرُ منها.

فأمَّا الذي يكونُ خيرُه غالبًا على شرِّه فالأَوْلى فيه أن يكونَ موجودًا لوجهين:

الأول: أنه إن/ لم يوجدْ فلا بدَّ وأن يفوتَ الخيرُ الغالبُ، وفوتُ الخيرِ الغالبِ شرٌّ غالبٌ، فإذًا في عدمِه يكونُ الشرُّ أغلبَ من الخيرِ، وفي وجودِه يكونُ الخيرُ أغلبَ من الشرِّ، ويكونُ وجودُ هذا القسمِ أولى.

مثالُه: النارُ في وجودِها منافعُ كثيرةٌ، وأيضًا مفاسدُ كثيرةٌ، مثلُ إحراقِ الحيواناتِ، ولكنَّا إذا قابلنا منافعَها بمفاسدِها؛ كانت مصالحُها أكثرَ بكثيرٍ من مفاسدِها، ولو لم توجدْ لفاتت [تلك][٥] المصالحُ، فكانت[٦] مفاسدُ عدمِها أكثرَ من مصالِحِه، فلا جَرَمَ وجب إيجادُها وخلقُها.

الثاني: وهو الذي يكونُ خيرُه ممزوجًا بالشرِّ؛ ليس إلا الأمورَ التي تحت كرةِ القمرِ، فلا شكَّ[٧] أنها معلولاتُ العللِ الغالبةِ[٨]، فلو لم يوجدْ هذا القسمُ؛ لكانَ يلزمُ من عدمِها عدمُ عللِها[٩] الموجبةِ لها، وهي خيراتٌ محضةٌ، فيلزمُ من عدمِها عدمُ الخيراتِ المحضةِ، وذلك شرٌّ محضٌ.

فإذًا لا بدَّ من وجودِ هذا القسمِ.

---

(١) في س: «وإما أن يكون». (٢) في ك و س: «أو متساويا». (٣) في س: «ذواتها».
(٤) في ك وس: «فلا شك». (٥) ما بين المعقوفين ليس في س. (٦) في ك وس: «وكانت».
(٧) في ع: «ولا شك». (٨) في ك و س: «العالية». (٩) في ع: «علتها».

فإن قيل: فلم لم يخلقِ الخالقُ هذهِ الأشياءَ عَرِيَّةً عن(١) كلِّ الشرورِ؟.

فنقولُ: لأنه لو جَعَلَها كذلك؛ لكانَ هذا هو القسمَ الأولَ، وذلك مما قد فرغ منه

وبقيَ في العقلِ قسمٌ آخرُ، وهو الذي يكونُ خيرُه غالبًا على شرِّه وقد بَيَّنَّا أن الأَوْلى بهذا القسمِ أن يكونَ موجودًا.

قال: «وهذا الجوابُ [لا](٢) يعجبُني؛ لأن لقائلٍ أن يقولَ: إن جميعَ هذه الخيراتِ والشرورِ إنما توجدُ(٣) باختيارِ اللهِ [تعالى وإرادتِه](٤).

مثلًا: الاحتراقُ الحاصلُ عَقِيبَ النارِ ليس موجَبًا عن النارِ(٥)، بلِ اللهُ تعالى اختارَ خلقَه عَقِيبَ مُمَاسَّةِ النارِ، وإذا كان حصولُ الاحتراقِ عَقِيبَ مُمَاسَّةِ النارِ باختيارِ اللهِ وإرادتِه، وكان(٦) يمكنه أن يختارَ خلقَ الإحراقِ عندما يكونُ خيرًا، ولا يختار خلقَه عندما يكون شرًّا، ولا خلاصَ عن(٧) هذه المطالبةِ إلا ببيانِ كونِه ﷻ فاعلًا بالذاتِ، لا بالقصدِ والاختيارِ.

ويرجعُ حاصلُ الكلامِ في هذه المسألةِ إلى مسألةِ القِدَمِ والحدوثِ».

تعقيبُ المؤلِف على كلامِ الرازي

قلت: لما لم يكنْ عند الرازيِّ إلا مذهبُ الفلاسفةِ المشَّائين القائلين بالموجبِ بالذاتِ، أو مذهبُ القدريةِ المعتزلةِ القائلين بوجوبِ رعايةِ الصلاحِ أو الأصلحِ، أو مذهبُ الجبريةِ، نفاةِ الأسبابِ والعللِ والحِكَمِ، وكان الحقُّ عنده مترددًا بين هذه المذاهبِ الثلاثةِ؛ فتارةً يُرجِّحُ مذهبَ المتكلمين، وتارةً مذهبَ المشائين، وتارةً يُلقي الحربَ بين الطائفتين، ويقفُ في النِّظارةِ، وتارةً يتردَّدُ بين الطائفتين.

وانتهى إلى هذه المضايقِ(٨)، ورأى أنه لا خلاصَ له منه، إلا بالتزامِ طريقِ الجبريةِ وهي غيرُ مرضيةٍ عنده، وإن كان في كتبِه الكلاميةِ يعتمدُ عليها، ويرجعُ في مباحثِه إليها. أو طريقِ(٩) المعتزلةِ القائلين برعايةِ الصلاحِ وهي متناقضةٌ، غيرُ مُطَّردةٍ؛ لم يجدْ

---

(١) في ع: «عرية من»، وفي س: «عارية عن». (٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.
(٣) في ك: «إنما يوجد».
(٤) في ع: «وإراداته»، وما بين المعقوفين ليس في س. (٥) في ك و س: «من النار».
(٦) في ك و س: «فكان». (٧) في ع: «من». (٨) في ك و س: «هذا المضيق».
(٩) في ك و س: «وطريق».

بدًّا من تحيُّزِه إلى أعداءِ المِلَّةِ القائلين بأن اللهَ تعالى لا قُدْرةَ له، ولا مشيئةَ، ولا اختيارَ، ولا فعلَ يقومُ به.

ومعلومٌ أن هذهِ المذاهبَ بأسرِها باطلةٌ متناقضةٌ وإن كان بعضُها أبطلَ من بعضٍ.

أصلُ قولِ الرازي

وإنما ألجأه إلى التزامِ القولِ بإنكارِ الفاعلِ المختارِ في هذا المقامِ تسليمُهُ لهم الأصولَ الفاسدةَ، والقواعدَ الباطلةَ[١] التي قادَتْ إلى التزامِ بعضِ أنواعِ الباطلِ، ولو أعطى الدليلَ حقَّه، وضمَّ ما مع كلِّ طائفةٍ من الحقِّ إلى حقِّ الطائفةِ الأخرى، وتحيَّزَ إلى ما جاءت به الرسلُ على علمٍ وبصيرةٍ، وتقريرٍ لما جاؤُوا به بجميعِ طرقِ الحقِّ؛ لخلصَ[٢] من تلك المطالباتِ مع إقرارِه بأن ربَّ العالمين فعالٌ لما يريدُ، يفعلُ بمشيئتِه وقدرتِه وحكمتِه[٣]، وأن له المشيئةَ النافذةَ، والحكمةَ البالغةَ، وأن تقديرَ تجريدِ النارِ عما خُلِقت عليه من الإحراقِ[٤]، والماءِ عما خُلِق عليه، والرياحِ، والنفوسِ البشريةِ عما هُيِّئَتْ له، وخُلقت عليه منافٍ للحكمةِ المطلوبةِ المحبوبةِ للربِّ سبحانه، وأن هذا تقديرٌ لعالَمٍ آخرَ غيرِ هذا العالَمِ، وتعطيلٌ للأسبابِ[٥] التي نصَّبها اللهُ سبحانَه مقتضياتٍ لمسبباتِها، وأنَّ تلك الأسبابَ مظهرُ حكمتِه، و[متعلقُ][٦] حمدِه، وموضعُ تصرفِه بخلقِه وأمرِه[٧]، فتقديرُ تعطيلِها تعطيلٌ للخلقِ والأمرِ، وهو أشدُّ منافاةً للحكمةِ وإبطالًا لها.

مناقشةُ من يعطلُ الأسبابَ

واقتضاءُ هذهِ الأسبابِ لمسبباتِها كاقتضاءِ الغاياتِ لأسبابِها، فتعطيلُها عنها[٨] قدحٌ في الحكمةِ، وتفويتٌ لمصلحةِ العالَمِ التي عليها نظامُه، وبها قوامُه.

ولكن الربَّ سبحانه قد يخرقُ العادةَ، ويعطِّلُها عن مقتضياتِها أحيانًا إذا كان فيه مصلحةٌ راجحةٌ على مفسدةِ فواتِ تلك المسبباتِ، كما عطَّل النارَ التي أُلقي فيها إبراهيمُ، وجعلها عليه بردًا وسلامًا عن الإحراقِ؛ لما في ذلك من المصالحِ العظيمةِ، وكذلك تعطيلُ الماءِ عن إغراقِ موسى وقومِه، وعما خُلق عليه من الإسالةِ، والتقاءِ

---

(١) في ك: «والقواعد الفاسدة الباطلة».
(٢) في ك و س: «تخلص».
(٣) في ع: «وكلمته».
(٤) في ك: «الاحتراق».
(٥) في س: «وتعليل الأسباب». وهو غلط.
(٦) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.
(٧) في ك و س: «لخلقه وأمره».
(٨) في ك و س: «فتعطيلها منها».

أجزائِه بعضِها ببعضٍ: هو لما فيه من المصالحِ العظيمةِ، والآياتِ الباهرةِ، والحكمةِ التامَّةِ التي ظهرتْ في الوجودِ، وترتَّبَ عليها من مصالحِ الدنيا والآخرةِ ما ترتب.

فهكذا[١] سائرُ أفعالِه سبحانَه، مع أنه أشهدَ[٢] عبادَه بذلك أنه [هو][٣] مسببُ الأسبابِ، وأن الأسبابَ خلقُه [وملكُه][٤]، وأنه يملك تعطيلَها عن مقتضياتِها وآثارِها، وأن جَعْلَها[٥] كذلك لم يكنْ من ذاتِها وأنفسِها، بل هو الذي جَعَلَها كذلك، وَأَوْدَعَ فيها من القُوى والطبائعِ ما اقتضت به آثارُها، وأنه إن شاء أن يسلبَها إياها سَلَبَها.

مذهبُ الناسِ في الأسبابِ

لا كما يقول[٦] أعداؤُه من الفلاسفةِ والطَّبَائِعِيِّين[٧] وزنادقةِ[٨] الأطباءِ: إنَّهُ ليس في الإمكانِ تجريدُ هذهِ الأسبابِ عن آثارِها وموجبَاتِها، ويقولون: لا تعطيلَ في الطبيعةِ، وليست الطبيعةُ - عندهم - مربوبةً مقهورةً تحت قهرِ قاهرٍ، وتسخيرِ مُسخِّرٍ، يُصرِّفُها كيف يشاءُ، بل هي المتصرِّفةُ المدبِّرةُ.

ولا كما يقولُ من نقص علمُه ومعرفتُه بأسرارِ مخلوقاتِه، وما أَوْدَعَهَا من القُوى والطبائعِ والغرائزِ، وبالأسبابِ[٩] التي ربطَ بها خلقَه وأَمْرَه، وثوابَه وعقابَه، فجَحد ذلك كلَّه، وردَّ الأمرَ إلى مشيئةٍ محضةٍ مجردةٍ عن الحكمةِ والغايةِ، وعن ارتباطِ العالَمِ بعضِه ببعضٍ ارتباطَ الأسبابِ بمسبباتِها، والقُوى بمحالِّها.

تناقضُ من ينكرُ الفاعل المختار

ثم المحذورُ اللازمُ من إنكارِ الفاعلِ المختارِ الفعالِ[١٠] لما يريدُ بقدرتِه ومشيئتِه فوق كلِّ محذورٍ؛ فإن القائلَ بذلك يجعلُ هذه الشرورَ بأسرِها لازمةً له لزومَ الظلِّ[١١] لحاملِه، والحرارةِ للنارِ، لا يمكنُه[١٢] دفعُها، ولا تخليصُ الخيراتِ منها[١٣]، / فَهُم فرُّوا من إضافةِ الشرِّ إلى خلقِه ومشيئتِه واختيارِه، ثم ألزمُوه إياه، وأضافُوه إليه إضافةً لا يمكنُ إزالتُها، مع تعطيلِ قدرتِه ومشيئتِه وخلقِه، وعلمِه بتفاصيلِ أحوالِ عبادِه/[١٤]، وفي ذلك تعطيلُ ربوبيتِه للعالمين، فَفَرُّوا من محذورٍ بالتزامِ عدَّةِ محاذيرَ، واستجاروا

---

(١) في ع: «وهكذا». (٢) في باقي النسخ: «شهد».
(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٤) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٥) في ك: «وأن كونها». (٦) في س: «يقوله». (٧) في ع: «والطبائعية».
(٨) تقدم التعريف بالزنادقة. (٩) في ك: «والأسباب».
(١٠) في ع: «والفعال». (١١) في ك و س: «لزوم الطفل». وهو خطأ.
(١٢) في س: «ولا يمكنه». (١٣) في ك و س: «وتخليص الحرارة منها».
(١٤) ما بين القائمين ليس في الأصل، وهو في باقي النسخ.

من الرمضاءِ بالنارِ[١].

تناقضُ من ينفي الاستواءَ والعلوَّ

وهذا كما نزَّهَهُ الجهميةُ[٢] عنِ استوائِه على عرشِه، وعلوِّهِ على مخلوقاتِه؛ فرارًا من التحيُّزِ والجهةِ، ثم جعلُوه سبحانه في كلِّ مكانٍ، مخالطًا للقاذوراتِ والأماكنِ المكروهاتِ، وكلِّ مكانٍ يأنفُ العاقلُ من مجاورتِه، ففرُّوا من تخصيصِه بالعلو، فعمموا به كلَّ مكانٍ.

ولما علمتِ الفرعونيةُ بطلانَ هذا المذهبِ فرُّوا إلى شرٍّ منه، فأخلُوا داخلَ العالَمِ وخارجَه منه ألبتةَ، وقالوا: ليسَ فوقِ العرشِ ربٌّ يعبدُ، ولا إلهٌ يصلَّى له ويُسجدُ، ولا ترفعُ إليه الأيدي، ولا يصعدُ إليه الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ، ولا عُرِجَ بمحمدٍ ﷺ إليه، بل عُرِجَ به إلى عدمٍ صِرْفٍ، ولا فرقَ بالنسبةِ إليه بين العرشِ وبين أسفلِ سافلين[٣].

ومن المعلومِ أنه ليس موجودًا في أسفل سافلين، فإذا لم يكنْ موجودًا فوقَ العرشِ؛ فهذا إعدامٌ له ألبتةَ، وتعطيلٌ لوجودِه.

فلما رأتِ الحُلوليةُ وإخوانُهم من الاتحاديةِ - أشباهِ النصارى - ما في ذلك منَ الإحالةِ قالوا: بل هو هذا الوجودُ الساري في الموجوداتِ، الظاهرُ فيها على اختلافِ صُورِها وأنواعِها بحسبِها، فهو في الماءِ ماءٌ، وفي الخمرِ خمرٌ، وفي النارِ نارٌ، وهو حقيقةُ كلِّ شيءٍ وماهيتُه[٤]!!

---

(١) يشير إلى المثل الشهير:

المستغيث بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

وربما أنشده بعضهم:

.... كالمستغيث من الدعصاء بالنار

والدعصاء: الأرض السهلة المستوية تصيبها الشمس، فتحمى فتكون رمضاؤها أشد حرا من غيرها. وهذا المثل يضرب لمن يفر من الأمر إلى ما هو شر منه. قال البكري: «أصل هذا المثل، وأول من نطق به: التكلام الضبعي؛ وذلك أن جساس بن مرة لما طعن كليبا - وهو كليب وائل - استسقى عمرو بن الحارث ماء، فلم يسقه، وأجهز عليه، فقال التكلام في ذلك: «المستغيث بعمرو... الخ» اهـ، انظر: «الأغاني» (٢٠/ ١٣٢)، «فصل المقال في شرح الأمثال» (ص/ ٣٧٧) للبكري، «الأمثال» (ص/ ٢٦٣) لأبي عبيد، «جمهرة الأمثال» (٢/ ١٦٠) للعسكري.

(٢) سبق التعريف.

(٣) في ع: «السافلين»

(٤) تقدم معنى: «الماهية» (ص/ ١٦٢).

فنزَّهُوه عنِ استوائِه على عرشِهِ، وجعلُوه وجودَ كلِّ موجودٍ؛ خسيسٍ أو شريفٍ، صغيرٍ أو كبيرٍ، طيبٍ أو غيرِه؛ تعالى اللهُ عما يقولُ أعداؤُه علوًّا كبيرًا.

وكذلك القائلون بقِدَمِ العالَمِ نزَّهُوه عن قيامِ الإراداتِ والأفعالِ المتجددةِ به، ثم جعلُوا جميعَ الحوادثِ لازمةً له، لا ينفكُّ عنها[(١)].

ونزَّهُوه عن إرادتِه لخلقِ العالَمِ، وأن يكونَ صدورُه عن مشيئتِه وإرادتِه، وجعلُوه لازمًا لذاتِه كالمضطرِ إلى صدورِه عنه[(٢)].

تناقضُ بعضِ من يعطلُ الصفاتِ أو بعضَها

وكذلك المعتزلةُ[(٣)] الجهميةُ نزَّهُوه عن صفاتِ كمالِه؛ لئلا يقعُوا في تشبيهٍ بخلقِهِ، ثم شبَّهُوه بخلقِه في أفعالِه[(٤)]، وحكمُوا عليه بحُسْنِ ما يحسُنُ منهم، وقُبْحِ ما يقبُحُ منهم[(٥)]، مع تشبيهِه[(٦)] في سلبِ صفاتِ كمالِه بالجماداتِ [و][(٧)] الناقصاتِ؛ فإن من فرَّ من إثباتِ السمعِ والبصرِ والكلامِ والحياةِ [له][(٨)] لئلا يشبهَه؛ قد شبَّهَه بالأحجارِ التي لا تسمعُ، ولا تبصرُ، ولا تتكلمُ. ومن عطَّله عن صفةِ الكلامِ؛ لما يلزمْ من تشبيهٍ - بزعمه - فقد شبَّهه بأصحابِ الخَرَسِ والآفاتِ الممتنعِ منهم الكلامُ، ومن نزَّهه عن نزولِه كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا، ودُنُوِّه عشيةَ عرفةَ من أهلِ الموقفِ، ومجيئِه يومَ القيامةِ للقضاءِ بين عبادِه؛ فرارًا من تشبيهِه بالأجسامِ؛ فقد شبَّهَهُ بالجمادِ الذي لا يتصرفُ، ولا يفعلُ، ولا يجيءُ، ولا يأتي، ولا ينزلُ.

ومن نزَّهَه عن أن يفعلَ لغرضٍ[(٩)]، أو حكمةٍ، أو لداعٍ إلى الفعلِ؛ حذرًا من تشبيهِهِ بالفاعلين لذلك؛ فقد شبَّهَهُ بأهلِ السَّفهِ والعبثِ الذين لا يقصدُون بأفعالِهم غايةً محمودةً، ولا غرضًا مطلوبًا محبوبًا.

---

(١) سبق.

(٢) سبق.

(٣) سبق التعريف.

(٤) في ع: «لئلا يقعوا في تشبيهه، ثم شبهوه بخلقه في أفعاله»، وفي ك و س: «لئلا يقعوا في تشبيه، ثم شبهوه بخلقه في أفعاله».

(٥) انظر: السابق.

(٦) في باقي النسخ: «مع تشبيهه بها».

(٧) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٨) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٩) الأولى عدم إطلاق هذا اللفظ في حق الرب -تعالى-؛ لعدم وروده في النص، ولأنه لفظ محتمل لحق وباطل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» (١/ ٤٥٥): «. . . وأما لفظ: «الغرض» فالمعتزلة تصرح به . . .، وأما الفقهاء ونحوهم فهذا اللفظ يشعر عندهم بنوع من النقص؛ إما ظلم، وإما حاجة؛ =

ومن نزَّهَه عن خلقِ أفعالِ عبادِه، وتصرُّفِه فيهم بالهدايةِ والإضلالِ، وتخصيصِ من شاءَ منهم بفضلِه، ومنعِه[١] لمن شاء؛ حذرًا من الظلمِ - بزعمه؛ فقد وصفَه بأقبحِ الظلمِ والجورِ؛ حيث يخلِّد في أطباقِ النيرانِ من استنفذَ عمرَه كلَّه في طاعتِه إذا فعل قبلَ الموتِ كبيرةً واحدةً؛ فإنها تُحبطُ جميعَ تلك الطاعاتِ، وتجعلُها هباءً منثورًا، ويخلدُ في جهنمَ مع الكفارِ ما لم يتبْ منها، إلى غيرِ ذلك من أصولِهم الفاسدةِ[٢]. ﴿فَهَدَى[٣] ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٣].

يتخلقُ كمالُ العبدِ من إحدى جهتينِ

قاعِدَةٌ:

كمالُ العبدِ وصلاحُه يتخلقُ عنه من إحدى جهتين:

الجهةُ الأولى

- إما أن تكونَ[٤] طبيعتُه يابسةً قاسيةً، غيرَ لينةٍ، ولا منقادةٍ، ولا قابلةً لما به كمالُها وفلاحُها.

الجهةُ الثانيةُ

- وإما أن تكونَ لينةً منقادةً سلسةَ القيادِ، لكنها غيرُ ثابتةٍ على ذلك، بل سريعةُ الانتقالِ عنه، كثيرةُ التقلُّبِ.

فمتى رُزق العبدُ انقيادًا للحقِّ، وثباتًا عليه؛ فليبشِّرْ؛ فقد يُسِّرَ لكل خيرٍ[٥]، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ.

= فإن كثيرا من الناس إذا قال: «فلان له غرض في هذا، أو فعل هذا لغرضه»؛ أرادوا أنه فعله لهواه ومراده المذموم، والله منزه عن ذلك، فعبر أهل السنة بلفظ «الحكمة» و«الرحمة» و«الإرادة» ونحو ذلك مما جاء به النص. وطائفة من المثبتين للقدر من المعتزلة يعبرون بلفظ «الغرض» أيضا، ويقولون: «إنه يفعل لغرض»، كما يوجد ذلك في كلام طائفة من المنتسبين إلى السنة». اهـ، وانظر: المرجع السابق (٢/ ٣١٤)، (٣/ ١٤)، (٩١).

(١) في ك و س: «أو منعه».

(٢) في ع: «إلى غير ذلك من أصولهم الفاسدة، فهذا وأمثاله فروا منه»، وفي س: «إلى غير ذلك من أصولهم الفاسدة فروا منه».

(٣) في ع: «وهدى».

(٤) في س: «إما أن يكون».

(٥) في ك و س: «فقد بشر بكل خير».

قاعدةٌ:

حالا العبدِ عند الابتلاءِ

إذا ابتلى اللهُ عبدَه بشيءٍ من أنواعِ البلايا والمحنِ؛ فإن ردَّهُ ذلك الابتلاءُ والامتحانُ[١] إلى ربِّهِ، وجمعَه عليه، وطرحَه ببابهِ؛ فهو علامةُ سعادتِه وإرادةُ الخيرِ له[٢].

والشدَّةُ بتراءُ؛ لا دوامَ لها وإن طالتْ، فتقلُع عنه حين تقلُع[٣] وقد عُوِّضَ منها أجلَّ عوضٍ وأفضلَه، وهو رجوعُه إلى اللهِ بعد أن كان شاردًا عنه، وإقبالُه عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحُه على بابه وقد كان عنه معرضًا[٤]، وللوقوفِ على أبوابِ غيرِه متعرِّضًا، وكانت البليةُ في حقِّ هذا عينَ النعمةِ وإن ساءته، وكَرِهَها طبعُه، ونفرتْ منها نفسُه، فربما كان مكروهُ النفوسِ إلى محبوبِها سببًا ما مثلَه سببٌ. وقولُه تعالى في ذلك هو الشفاءُ والعصمةُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦]. وإن لم يرُدَّه ذلك البلاءُ إليه، بل شرَدَ قلبُه عنه، وردَّه إلى الخلقِ، وأنساه ذِكْرَ ربِّه والضراعةَ إليه، والتذللَ بين يديهِ، [والتوبةَ][٥] والرجوعَ إليه فهو علامةُ شقاوتِه، وإرادةُ الشرِّ به.

الحالةُ الثانيةُ

فهذا إذا أقلع عنه البلاءُ؛ ردَّه إلى حُكْمِ طبيعتِه، وسلطانِ شهوتِه ومرحِه وفرحِه، فجاءت طبيعتُه عند القدرةِ بأنواعِ الأَشَرِ والبَطَرِ، والإعراضِ عن شكرِ المُنعمِ عليه بالسراءِ، كما أعرضَ عن ذكرِه والتضرعِ إليه في الضراءِ، فبليةُ هذا وَبَالٌ عليه، و عقوبةٌ، ونقصٌ في حقِّهِ، وبليةُ الأولِ تطهيرٌ له، ورحمةٌ، وتكميلٌ، وباللهِ التوفيقُ.

قاعدةٌ:[٦]

مشاهدُ الناسِ في المعاصي

الناسُ في البلوى التي تجري عليهم أحكامُها بإرادتِهم وشهواتِهم متفاوتون بحسبِ شهودِهم لأسبابِها وغايتِها أعظمَ تفاوتٍ. وجماعُ ذلك ثمانيةُ مشاهدَ[٧]:

---

(١) في ك و س: «والمحن». (٢) في باقي النسخ: «إرادة الخير به».

(٣) في ع: «فإن طالت فيقلع عنه حين يقلع»، وفي ك و س: «وإن طالت فتقلع عنه حين يقلع».

(٤) في ك و س: «وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضا».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٦) في ع: «قاعدة في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب».

(٧) انظر: «المقدمة» مقارنة.

المشهدُ الأولُ

- **أحدُها**: شهودُ السببِ الموصِّلِ إليها، والغايةِ المطلوبةِ منها فقط، وهو شهودُ الحيواناتِ؛ إذ لا تشهدُ[١] إلا طريقَ [قضاءِ][٢] وَطَرِها، وبردِ النَّفسِ بعد تناولِها، وهذا الضربُ من الناسِ ليس بينه وبين الحيوانِ البهيمِ في ذلك فرقٌ إلا تدقيقُ[٣] الحيلةِ في الوصولِ إليها، وربما زاد غيرُه من الحيواناتِ عليه في[٤] تناولِها، ولذتِه بها[٥].

المشهدُ الثاني

- **المشهدُ الثاني**: من يشهدُ مع ذلك مجردَ الحُكْمِ القدريِّ، وجريانِه عليه، ولا يتجاوزُ[٦] شهودَه ذلك، وربما رأى أن الحقيقةَ هي توفيةُ هذا المشهدِ حقَّه، ولا يتمُ له ذلك إلا بالفناءِ عن شهودِ فعلِه هو جملةً، فيشهدُ الفاعلَ فيه غيرَه، والمحركَ له سواه، فلا ينسبُ إلى نفسِه فعلًا، ولا يرى لها إساءةً.

ويزعمُ أن هذا هو التحقيقُ والتوحيدُ، وربما زادَ على ذلك أنه يشهدُ نفسَه مطيعًا من وجهٍ، وإن كان عاصيًا من وجهٍ آخرَ؛ فيقولُ: «أنا مطيعٌ للإرادةِ والمشيئةِ، وإن كنت عاصيًا للأمرِ»[٧]. فإن[٨] كان ممن يرى الأمرَ تلبيسًا وضبطًا للرَّعاعِ[٩] عن الخبطِ، والجريانِ[١٠] مع حُكْمِ الطبيعةِ الحيوانيةِ فقط؛ رأى نفسَه مطيعًا لا عاصيًا، كما قال قائلُهم في هذا المعنى:

أصبحتُ منفعلًا لما يختارُه ... مني، ففعلي كلُّه طاعاتُ[١١]

---

(١) في ع: «إذ لا يشهد». (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٣) في ك و س: «إلا بدقيق». (٤) في ك: «مع». (٥) في س: «ولذتها بها».
(٦) في ك و س: «ولا يجاوز».
(٧) نسبه شيخ الإسلام -كما في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٥٧) -إلى بعض أصحاب علي بن أبي الحسن بن المنصور البسري، المعروف بـ«الحريري» (ت ٦٤٥هـ).
(٨) في ك و س: «وإن».
(٩) الرعاع: -بفتح أوله-: غوغاء الناس وسقطهم، واحده: رعاعة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٢٣٥)، «الصحاح» (٣/ ١٠١٥)، «القاموس» (ص/ ٩٣٣).
(١٠) في س: «والحرمان».
(١١) نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٥٧) لابن إسرائيل. وهو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر، نجم الدين أبو المعالي الشيباني الدمشقي، ولد سنة (٦٠٣)هـ، وصحب علي بن أبي الحسن البسري الحريري. قال ابن كثير: «. . . وكان أديبا فاضلا في صناعة الشعر، بارعا في النظم، ولكن في كلامه ونظمه ما يشير به إلى نوع من الحلول والاتحاد على طريقة ابن عربي وابن الفارض =

وأصحابُ المشهدِ الأولِ أقربُ إلى السلامةِ من هؤلاءِ، وخيرٌ منهم.

وهذا المشهدُ بعينِه هو المشهدُ الذي شهدَه المشركون - عُبَّادُ الأصنام -، ووقفوا عنده، كما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: الآية ٢٠]، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: الآية ٣٥]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ [يس: الآية ٤٧]، فهذا مشهدُ مَنْ أشرَك باللهِ، وردَّ أمرَه، وهو مشهدُ إبليسَ الذي انتهى إليه؛ إذ يقولُ لربِّهِ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[1]﴾ [الحِجر: الآية ٣٩].

المشهدُ الثالثُ

- **المشهدُ الثالثُ:** مشهدُ الفعلِ الكسبي القائمِ بالعبدِ فقط، ولا يشهدُ إلا صدورَه عنه، وقيامَه به، ولا يشهدُ مع ذلك مشيئةَ الربِّ له، ولا جريانَ حُكْمِهِ[2] القدريِّ به، ولا عزةَ الربِّ تعالى في قضائِه ونفوذِ أمرِه، بل قد فَنِيَ بشهودِ معصيتِه وذنبِهِ، وقبحِ ما اجترمُهُ عن شهودِ المشيئةِ النافذةِ، والقدرِ السابقِ:

أقسامُ أصحابِ هذا المشهدِ

إما لعدمِ اتساعِ قلبِه لشهودِ الأمرين؛ فقد امتلأَ من شهودِ ذنبه وجُرمِه وفعلِه، مع أنه مؤمنٌ بقضاءِ الربِّ وقدرِه، وأن العبدَ أقلُّ قدرًا من أن يُحْدِثَ في نفسِه ما لم تسبقْ[3] به مشيئةُ بارئِه وخالقِه.

وإما لإنكارِه القضاءَ والقدرَ جُملةً، وتنزيهِه للربِّ تعالى أن يُقدِّر على العبدِ شيئًا، ثم يلومُه عليه.

فأمَّا الأولُ - وإن كان مشهدُه صحيحًا، نافعًا له، موجبًا له أن لا يزال لائمًا لنفسه، مزريًا عليها، ناسبًا للذنبِ والعيبِ إليها، معترفًا بأنه يستحقُّ العقوبةَ والنكالَ، وأن اللهَ تعالى إنْ عاقَبَه فهو العادلُ فيه، وأنه هو الظالمُ لنفسِه، وهذا كلُّه حقٌّ لا ريبَ فيه -: لكنَّ صاحبَه ضعيفٌ مغلوبٌ على نفسِه، غيرُ مُعانٍ عليها، بل هو معها كالمقهورِ المخذولِ؛ فإنه لم يشهدْ عزَّةَ الربِّ تعالى في قضائِه ونفوذِ أمرِه الكونيِّ ومشيئتِه، وأنه

= وشيخه الحريري، والله أعلم بحاله وحقيقة أمره» اهـ. توفي بدمشق سنة (٦٧٧)هـ عن أربع وسبعين سنة.
انظر: «لسان الميزان» (٥/ ١٩٥)، «البداية والنهاية» (١٧/ ٥٤٩).

(١) في ك و س زيادة: «والله أعلم».
(٢) في س: «الحكم».
(٣) في ك: «ما لم يسبق».

لو شاء لعَصَمَهُ، وحفظَه، وأنه لا معصومَ إلا مَنْ عصَمَه[١]، ولا محفوظَ إلا مَنْ حفظه[٢]، وأنه هو مَحَلٌّ لجريانِ أقضيتِه وأقدارِه، مسوقٌ إليها في سلسلةِ إرادتِه وشهوتِه، وأنَّ تلك السلسلةَ طرفُها بيدِ غيرِه، فهو القادرُ على سوقِه بها إلى ما فيه صلاحُه وفلاحُه، وإلى ما فيه هلاكُه وشقاؤُه.

فهو لغيبتِهِ عن هذا المشهدِ، وغلبةِ شهودِ المعصيةِ والكسبِ على قلبِه لا يُعطي التوحيدَ حقَّه، ولا الاستعانةَ بربِّه، والاستغاثةَ به، واللجأَ إليه[٣]، والافتقارَ، والتضرعَ، والابتهالَ - حقَّه بحيثُ يشهدُ سرَّ قولِهِ ﷺ: «**أعوذُ برضاكَ من سخطِك، وأعوذُ بعفوِك من عقوبتِك، وأعوذُ بك منك**»[٤]؛ فإنه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيءٍ، والمستعاذُ منه واقعٌ بخلقِه ومشيئتِه، ولو شاءَ لم يكنْ. فالفِرارُ منه إليه، والاستعاذةُ منه به، ولا ملجأَ منه إلا إليه، ولا مهربَ منه إلا إليه، لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ.

وأمَّا الثاني - وهو منكرُ القضاءِ والقدرِ - فمخذولٌ محجوبٌ عن شهودِ التوحيدِ، مصدودٌ عن شهودِ الحكمةِ الإلهيةِ، موكولٌ إلى نفسِه، ممنوعٌ عن شهودِ عزَّةِ الربِّ تعالى في قضائِه، وكمالِ مشيئتِه، ونفوذِ حُكْمِه[٥]، وعن شهودِ عجزِه هو وفقرِه، وأنه لا توفيقَ له إلا باللهِ، وأنه إن لم يُعِنْه اللهُ فهو مخذولٌ، وإن لم يوفِّقْه ويخلقْ له عزيمةَ الرشدِ وفعلَهُ فهو عنه ممنوعٌ؛ فحجابُه عن اللهِ غليظٌ؛ فإنه لا حجابَ أغلظُ من الدعوى، ولا طريقَ إلى اللهِ أقربُ من دوامِ الافتقارِ إليه.

---

(١) في س: «إلا من عصمه الله». (٢) في س: «إلا من حفظه الله». (٣) في ك و س: «والالتجاء إليه».

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (١/٩٦)، (١١٨)، وأبو داود في «سننه»، رقم (١٤٢٧)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٣٥٦٦)، والنسائي في «سننه»، رقم (١٧٤٨)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (١١٧٩): عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول في آخر الوتر: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**». وأخرج الترمذي في «جامعه»، رقم (٣٤٩٣)، والنسائي في «سننه»، رقم (١١٣١): عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت نائمة إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته من الليل، فلمسته، فوقعت يدي على قدميه وهو ساجد، وهو يقول: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن، قد روي من غير وجه عن عائشة» اهـ.

(٥) في س: «ونفوذ حكمته».

المشهدُ الرابعُ

المشهدُ الرابعُ: مشهدُ التوحيدِ والأمرِ، فيشهدُ انفرادَ الربِّ تعالى بالخلقِ، ونفوذَ مشيئتِه، وتعلقَ الموجوداتِ بأسرِها بها، وجريانَ حُكْمِهِ على الخليقةِ[١]، وانتهاءَها إلى ما سبقَ في علمِه، وجرى به قلمُه.

ويشهدُ مع ذلك أمرَه ونهيَه، وثوابَه وعقابَه، وارتباطَ الجزاءِ بالأعمالِ، واقتضاءَها له ارتباطَ المسبباتِ بأسبابِها التي جُعلت أسبابًا مقتضيةً له شرعًا وقدرًا وحكمةً.

فشهودُه توحيدَ الربِّ تعالى، وانفرادَه بالخلق ونفوذَ مشيئتِه، وجريانَ قضائهِ وقَدَرِه - يفتحُ له بابَ الاستعانةِ[٢]، ودوامِ الالتجاءِ إليه، والافتقارِ إليه.

وذلك يُدنيه من عتبةِ العبوديةِ، ويطرحُه بالبابِ فقيرًا، عاجزًا، مسكينًا، لا يملكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً، ولا نشورًا.

وشهودُه أمرَه تعالى ونهيَه، وثوابَه وعقابَه يوجبُ له الجدَّ والتشميرَ، وبذلَ الوسعِ، والقيامَ بالأمرِ، والرجوعَ على نفسِه باللومِ والاعترافِ بالتقصيرِ.

فيكونُ سيرُه بين شهودِ العزَّةِ والحكمةِ والقدرةِ الكاملةِ، والعلمِ السابقِ، والمنَّةِ العظيمةِ، وبين شهودِ التقصيرِ والإساءةِ منه، وتطلُّبِ[٣] عيوبِ نفسِه وأعمالِها.

فهذا هو العبدُ الموفقُ، المعانُ، الملطوفُ به، المصنوعُ له، الذي أُقيمَ في مقامِ العبوديةِ، وضُمِنَ له التوفيقُ.

وهذا هو مشهدُ الرسلِ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم -؛ فهو مشهدُ أبيهم آدمَ إذ يقولُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

ومشهدُ أولِ الرسلِ نوحٍ إذ يقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: الآية ٤٧].

ومشهدُ إمامِ الحنفاءِ[٤]، وشيخِ الأنبياءِ إبراهيمَ - صلواتُ اللهِ وسلامُه [عليه و][٥] عليهم أجمعين - إذ يقولُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا

---

(١) في س: «وجريان حكمته على الحقيقة». (٢) في ك: «الاستعاذة». والمثبت أحسن.

(٣) في ع: «ويطلب». (٤) تقدم معنى: «الحنيفية».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك.

مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢]، وقال في دعائِه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥]، فعَلِمَ ﷺ أن الذي يحولُ بين العبدِ وبينَ الشركِ وعبادةِ الأصنامِ هو اللهُ، لا ربَّ غيرُه، فسأله أن يجنبَه [وبنيه][(١)] / عبادةَ الأصنامِ.

وهذا هو مشهدُ موسى إذ يقولُ في خطابِه لربه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥]، أي: إنْ ذلك إلا امتحانُك واختبارُك، كما يقالُ: «فَتَنْتُ الذهبَ»، إذا امتحنتُه، واختبرتُه، وليس من الفتنةِ التي هي الفعلُ السيءُ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: الآية ١٠]، وكما في قوله - تعالى -: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٩٣]؛ فإن تلك فتنةُ المخلوقِ؛ وموسى[(٢)] أعلمُ باللهِ تعالى أن يضيفَ إليه هذه الفتنةَ، وإنما هي كالفتنةِ في قوله - تعالى -: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: الآية ٤٠]، أي: ابتَلَيْنَاكَ، واختبرنَاكَ، وصرفناكَ في الأحوالِ التي قصَّها اللهُ سبحانه علينا من لَدُن ولادِه[(٣)] إلى وقتِ خطابِه له، وإنزالِه عليه كتابَه[(٤)].

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س. (٢) في ك: «فإن موسى». (٣) في ك: «ولادته».

(٤) **للفتنة معان:**

منها: الامتحان والاختبار، كما في الآيتين اللتين ذكرهما المؤلف، وقوله -تعالى-: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت ١-٢]، وقوله -تعالى-: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٦]، وقوله - تعالى-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: الآية ١٧]، ومنه سمي الأولاد والأزواج والأموال فتنة؛ اعتبارا بما ينال الإنسان من الاختبار والامتحان بهم كما قال -تعالى-: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٢٨]، وقال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٤].

ومنها: الشرك كما في قوله -تعالى-: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: الآية ١٩١]، وقوله -تعالى-: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٣].

ومنها: الكفر كما في قوله -تعالى-: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: الآية ٤٨]، وقوله -تعالى-: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: الآية ٤٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٤].

ومنها: العذاب سواء كان بالقتل أو بالإحراق بالنار أو غيرها، كما في قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: الآية ١٠]، وقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ =

والمقصودُ أن موسى ﷺ شهدَ توحيدَ الربِّ، وانفرادَه بالخلقِ والحُكمِ، وفعلَ السفهاءِ ومباشرتَهم الشركَ، فتضرَّع إليه بعزَّتِه وسلطانِه، وأضاف الذنبَ إلى فاعلِه وجانيهِ.

ومن هذا قوله ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القَصَص: الآية ١٦]، [قال تعالى][1]: ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القَصَص: الآية ١٦].

وهذا مشهدُ ذي النونِ إذ يقولُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، فوحَّد ربَّه تعالى، ونزَّهَهُ عن كلِّ عيبٍ، وأضافَ الظلمَ إلى نفسِه.

وهذا مشهدُ صاحبِ سيدِ الاستغفارِ ﷺ حين يقولُ في دعائِه[2]: **«اللَّهمَّ أنتَ ربي، لا إلهَ إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[3]؛ . . . .

= ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل: الآية ١١٠]، وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [البروج: الآية ١٠]، وقوله -تعالى-: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: الآية ١٤]، وقوله -تعالى-: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: الآية ١٠١]، وغيرها.

ومنها: الصد والرد كما في قوله -تعالى-: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: الآية ٤٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٣].

فالفتنة - بمعنى الشرك والكفر والعذاب والصد - هي الفعل السيء -كما قال المؤلف. انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص/ ٦٢١) للراغب الأصفهاني، «إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» (ص/ ٣٤٧) للدامغاني، «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٤١٠)، «الصحاح» (٥/ ١٧٤٥).

(١) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٢) في ك و س: «إذ يقول في دعائه».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٢)، (١٢٥)، والبخاري، رقم (٦٣٠٦)، والنسائي في «سننه»، رقم (٥٥٢٤)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٣٣٩٣): عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي...»** الحديث، وفي آخره: «... **من قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي؛ فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح؛ فهو من أهل الجنة**».

أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٥٦)، وأبو داود في، رقم (٥٠٧٠)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (٣٨٧٢)، والبغوي في «شرح السنة»، رقم (١٣٠٩) عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ =

فأقرَّ(١) بتوحيدِ الربوبيةِ(٢) المتضمنِ لانفرادِه سبحانه بالخلقِ، وعمومِ المشيئةِ ونفوذِها، وتوحيدِ الإلهيةِ(٣) المتضمنِ لمحبتِه، وعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، والاعترافِ بالعبوديةِ المتضمنِ للافتقارِ من جميعِ الوجوهِ إليه سبحانَه.

ثم قال: «**وأنا على عهدِك ووعدِك**»(٤)، فتضمَّنَ ذلك التزامَ شرعِه وأمرِه ودينِه، وهو عهدُه الذي عهد إلى عبادِه(٥)، وتصديقَ وعدِه، وهو جزاؤُه وثوابُه، فتضمَّنَ التزامَ الأمرِ، والتصديقَ بالموعودِ، وهو الإيمانُ والاحتسابُ(٦).

ثم لما عَلِم أن العبدَ لا يوفِّي هذا المقامَ حقَّه الذي يصلحُ له تعالى(٧)؛ عَلَّقَ ذلك باستطاعتِه وقدرتِه التي لا يتعدَّاها، فقال: «**ما استطعتُ**»، أي: ملتزمٌ ذلك بحسبِ استطاعَتي وقدرتي.

ثم شَهِدَ المشهدين المذكورين - وهما مشهدُ(٨) القدرةِ والعزةِ(٩)، ومشهدُ التقصيرِ من نفسِه -، فقال: «**أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ**»؛ فهذه الكلمةُ تضمَّنتِ المشهدين معًا.

ثم أضافَ النِّعمَ كلَّها إلى وليِّهَا وأهلِها والمبتدئ بها، والذنبَ إلى نفسِه وعملِه،

= أنه قال: «**من قال حين يصبح، أو حين يمسي: اللهم أنت ربي...**» الحديث، وفي آخره: «**...فمات من يومه أو من ليلته؛ دخل الجنة**».

(١) في ع: «فأخبر». (٢) بقوله: «**اللهم أنت ربي**». (٣) بقوله: «**لا إله إلا أنت**».

(٤) في س زيادة: «**ما استطعت**».

(٥) فالمعنى -على هذا-: وأنا مقيم على ما عهدت إلي من أمرك ونهيك. ويحتمل: وأنا مقيم على ما عاهدتك عليه من الإيمان بك وطاعتك. انظر: «النهاية في غريب الحديث»(٣/ ٣٢٤)، «شرح السنة» (٥/ ٩٤)، «فتح الباري» (١١/ ١٠٢).

(٦) وبعض الشراح -كالطيبي وغيره-لم يفرقوا بين العهد والوعد، ويجعل المعنى: وأنا مقيم على ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وطاعتك، قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ١٠٣): «... والتفريق بين العهد والوعد أوضح» اهـ، انظر: «معالم السنن» / للخطابي، «شرح السنة» (٥/ ٩٥)، «سبل السلام» (٤/ ٤٣١)، «فيض القدير» (٤/ ١١٩).

(٧) في س: «الذي لا يصلح له -تعالى». (٨) في ك: «وهما مشهدا».

(٩) في ك و س: «القدرة والقوة».

فقال: «**أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ وأبوءُ بذنبي**»[١]، فأنت المحمودُ [و][٢] المشكورُ، الذي له الثناءُ كلُّه، والإحسانُ كلُّه، ومنه النعمُ كلُّها، فلك الحمدُ كلُّه، ولك الثناءُ كلُّه[٣]، ولك الفضلُ كلُّه، وأنا المذنبُ المسيءُ، المعترفُ بذنبِه، المقِرُّ بخطيئِه؛ كما قال بعضُ العارفين: «العارفُ يسيرُ بين مشاهدةِ المِنَّةِ من اللهِ، ومطالعةِ عيبِ النفسِ، والعملِ».

فشهودُ المِنَّةِ يوجبُ له المحبةَ لربِّهِ سبحانه، وحمدَه والثناءَ عليه.

ومطالعةُ عُيبِ النفسِ والعملُ يوجبُ استغفارَهُ ودوامَ توبتِه، وتضرُّعَه، واستكانتَه لربِّه تعالى. ثم لما قام هذا بقلبِ الداعي، وتوسَّلَ إليه بهذهِ الوسائلِ قال: «**فاغفرْ لي؛ فإنه[٤] لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت**».

فَصْلٌ

أقسامُ أصحابِ هذا المشهدِ

ثم أصحابُ هذا المشهدِ فيه قسمان:

القسمُ الأولُ

- **أحدُهما**: من يشهدُ تسليطَ[٥] عدوِّه عليه، وقيادَه إياه بسلسلةِ الهوى، وكبحَهُ إياه بلجامِ الشهوةِ، فهو أسيرٌ معه بحيثُ يسوقُه إلى ضربِ عنقِه.

وهو مع ذلك ملتفتٌ إلى ربِّهِ وناصِرِه وَوَليِّهِ، عالِمٌ بأن نجاتَه في يديهِ، وأن ناصيتَهُ عدوِّهِ به[٦]، وأنه لو شاء لطردَه عنه، وخلَّصه من يديهِ، فكلما قادَهُ عدوُّه، وكبحَهُ

---

(١) قوله: «**أبوء**»: - بالموحدة والهمز ممدود-أي: أعترف وأقر، يقال: «باء، يبوء، بوءا وبواءا». وأصل البواء: اللزوم، ومنه قوله -تعالى-: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: الآية ٩٠] أي: لزمهم ورجعوا به، ومنه الحديث: «**من قال لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما**» أي: التزمها ورجع بها. قال البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٩٥): «. . . قوله: «**أبوء بنعمتك**» معناه: أعترف بالنعمة، وكذلك قوله: «**أبوء بذنبي**» معناه: الإقرار به، وفيه معنى ليس في الأول، تقول العرب: «باء فلان بذنبه» إذا احتمله كرها، لا يستطيع دفعه. . .». اهـ، وانظر: «فتح الباري» (١١/ ١٠٣).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٣) قال المؤلف في «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٢): «. . . الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه. . .، فإن تكرر فهو الثناء. . .؛ فإن الثناء مأخوذ من الثني، وهو العطف، ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه: «ثنيت الثوب»، ومنه التثنية في الاسم، فالمثني مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة» اهـ. وانظر: «الفروق بين المعاني» (ص/ ٣٧)، «الكليات» (ص/ ٣٦٥)، (٨٥٧).

(٤) في س: «إنه». (٥) في س: «تسلط».

(٦) كذا في الأصل وع، وفي ك: «عالم بأن نجاته في يديه، وناصية عدوه بين يديه»، وفي س: «عالم بأن =

بلجامِه؛ أكثرَ الالتفاتَ إلى وَليِّهِ وناصرِه، والتضرعَ إليه، والتذللَ بين يديهِ. وكلما زادَ[١] اغترابُه وبُعدُهُ عن بابِه، تذكَّر عطفَه وبرَّه وإحسانَه وجودَه وكرمَه وغنَاهُ وقدرتَه ورأفتَه ورحمتَه، فانجذبت دواعي قلبِه هاربةً إليه، مترامِيةً على بابِه، منطرحةً على فِنَائِه، كعبدٍ قد شُدَّت يداه إلى عُنقِه، وقُدِّمَ لتُضربَ[٢] عنقُه، وقدِ استسلم للقتلِ، فنظرَ إلى سيِّدِه أمامَهُ، وتذكَّر عطفَه ورأفتَه به[٣]، ووجدَ فُرجةً، فوثَبَ إليه منها، فهبَّهُ[٤] طَرَحَ نفسَهُ بين يديْهِ، ومدَّ له عنقَه، وقال: «أنا عُبيدُك[٥] ومسكينُك، وهذه ناصِيَتي بين يديْك، ولا خلاصَ لي من هذا العدوِّ إلا بك وإني مغلوبٌ، فانتصرْ».

فهذا مشهدٌ عظيمُ المنفعةِ، جليلُ الفائدةِ، تحته من أسرارِ[٦] العبوديةِ ما لا ينالُه الوصفُ.

وفوقَهُ مشهدٌ أجلُّ منه، وأعظمُ وأخصُّ، تجفو[٧] عنه العبارةُ وإن أشارت إليه بعضَ الإشارةِ، وقرَّبته إلى الفهمِ[٨] بضربِ مثلٍ يعبرُ منه إليه.

القسمُ الثاني

وذلك مثلُ عبدٍ أخذَه سيدُه بيدِه، وقدَّمَه لضربِ[٩] عنقِه بيدِه، فهو قد أحكم[١٠] ربطَه، وشدَّ عينيْهِ، وقد أيقنَ العبدُ أنه في قبضتِه، وأنه [هو][١١] قاتلُه، لا غيرُه.

وقد علم مع ذلك بِرَّه به ولطفَه ورحمتَه ورأفتَه وجودَه وكرمَه، فهو يناشدُه بأوصافِه، ويدخلُ عليه به، قد ذهبَ عن وهمِه وشهودِه كلُّ سببٍ[١٢]، وانقطع تعلقُه بشيءٍ سواه،

= نجاته في يديه، وناصية عدوه بيديه».

(١) في ك: «وكلما أراد». وهو خطأ.

(٢) في ك: «ليضرب»، وفي س: «لضرب».

(٣) في س: «عطفه ورأفته ورحمته».

(٤) في ك و س: «وثبة». وهو الصواب.

(٥) في ع: «أنا عبدك».

(٦) في س: «من سرائر».

(٧) في س: «تجفوا» -بالألف-. والقاعدة-عند المتأخرين-: أنه «لا تزاد الألف بعد الواو التي هي حرف علة، ولام الفعل، وتزاد بعد الواو التي هي واو الجماعة المتطرفة، وتسمى ألف الفصل، أو الألف الفارقة؛ لأنها تفصل، وتفرق بين هاتين الواوين، تقول: يدعو، يرجو، حضروا، لم يتكلموا، اعملوا... الخ». انظر: «المرجع في الإملاء» (ص/ ١١٤) لراجي الأسمر.

(٨) في ك: «وإن الإشارة إليه بعض الإشارة، وتقريبه إلى الفهم»، وفي س: «وإن أشارت إليه الإشارة، وتقريبه إلى الفهم».

(٩) في ك و س: «ليضرب».

(١٠) في س: «حكم».

(١١) ما بين المعقوفين ليس في س.

(١٢) في س: «كل ذنب». وهو غلط.

فهو مُعرِضٌ عن عدوِّه الذي كان سببَ غضبِ سيِّدِه عليه، قد مَحَا شهودَه من قلبِه، فهو مقصورُ النظرِ إلى سيدِه، وكونِه في قبضتِه، ناظرٌ إلى ما يصنعُه[١]، منتظرٌ منه ما يقتضيه[٢] عطفُه وبرُّه وكرمُه.

ومثلُ الأولِ مثلُ عبدٍ أمسكَه عدوُّهُ، وهو يخنقُه للموتِ، وذلك[٣] العبدُ يشهدُ خنقَ عدوِّهِ له[٤]، ويستغيثُ بسيِّدِه، وسيدُهُ يُغيثُه، ويرحمُه.

ولكن ما يحصلُ للثاني في مشهدِه [ذلك][٥] من الأمورِ العجيبةِ فوق ما يحصلُ للأولِ، وهو بمنزلةِ من قد أخذَهُ محبوبُه، فهو يخنقُهُ خنقه، وهو لا يشهدُ إلا خنقَه له، فهو يقولُ: «اخنقْ خنقَك؛ فأنت تعلمُ أنَّ قلبي يحبُّك»، وفي [هذا][٦] المثلِ إشارةٌ وكفايةٌ، ومن غَلُظَ حجابُه، وكثُفَتْ طِبَاعُه؛ لا ينفعُه التصريحُ، فضلًا عن ضربِ الأمثالِ، واللهُ المستعانُ، وعليه التكلانُ، ولا قوةَ إلا باللهِ. فهذهِ ستَّةُ مشاهدَ.

المشهدُ السابعُ

المشهدُ السابعُ: مشهدُ الحكمةِ، وهو أن يشهدَ حِكمَةَ اللهِ في تخليتِه بينه وبين الذنبِ، [وإقدارِهِ عليه، وتهيئةِ أسبابِه له، وأنه[٧] لو شاءَ لعصَمَهُ، وحالَ بينَهُ وبينَهُ، ولكنه خلَّى بينَهُ وبينَهُ][٨] لحكمٍ عظيمةٍ لا يعلمُ مجموعَها إلا اللهُ[٩]:

من حكمِ وقوعِ الذنبِ

- **أحدُها**: أنه يُحِبُّ التَّوابين، ويفرحُ بتوبتِهم، فلمحبتِه للتوبةِ[١٠]، وفرحِه بها قضى على عبدِه بالذنبِ، ثم إذا كان[١١] ممن سبقتْ له العنايةُ؛ قضى له بالتوبةِ.

- **الثاني**: تعريفُ العبدِ عزَّةَ الربِّ تعالى[١٢] في قضائِه ونفوذِ مشيئتِه وجريانِ حُكْمِه.

- **الثالثُ**: تعريفُه حاجتَه إلى حفظِه وصيانته، وأنه إن لم يحفظْه ويصنْه[١٣] فهو هالكٌ ولابدَّ، والشياطينُ قد مَدَّت أيديَها [إليه][١٤] تمزِّقُه كُلَّ مُمَزَّقٍ.

---

(١) في ع: «ما يصنعه به». (٢) في ع: «منتظر منه إلى ما يقتضيه». (٣) في س: «وهذا».
(٤) في ك و س: «يشهد دنو عدوه له». (٥) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٦) ما بين المعقوفين ليس في س. (٧) في ع: «فإنه».
(٨) ما بين المعقوفين ليس في س. (٩) انظر: «المقدمة» المقارنة.
(١٠) في س: «بالتوبة». (١١) في ع: «ثم إذا كان العبد».
(١٢) من قوله: «في قضائه ونفوذ مشيئته» إلى آخر الفصل سقط من الأصل، وهو في باقي النسخ.
(١٣) في س: «إن لم يحفظه ويعنه». (١٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

- **الرابعُ**: استجلابُه مِنَ العبدِ استغاثتَه به، واستعاذَتَه به من عدوِّه، وشرِّ نفسِه، ودعاءَ والتضرعَ إليه، والابتهالَ بين يديه.

- **الخامسُ**: إرادتُه من عبدِه تكميلَ مقامِ الذُّلِّ والانكسارِ؛ فإنه متى شَهِدَ صلاحَه واستقامتَه؛ شَمِخَ بأنفِه[(١)]، وظنَّ أنه وأنه، فإذا ابتلاهُ بالذنبِ؛ تصاغرتْ عنده نفسُه؛ وذلتْ، وتيقَّن أنه وأنه[(٢)].

- **السادسُ**: تعريفُه بحقيقةِ نفسِه، وأنها الظالمةُ الجاهلةُ، وأن كلَّ ما فيها من علمٍ، أو عدلٍ، أو خيرٍ[(٣)] فمن اللهِ منَّ به عليه، لا مِنْ نفسِه.

- **السابعُ**: تعريفُه عبدَه سِعَةَ حلمِه تعالى، وكرمِهِ في سترِه عليه؛ فإنه لو شاءَ لعاجَلَهُ على الذنبِ، ولهَتَكَهُ بين عبادِه، فلم يَصْفُ له معهم عيشٌ.

- **الثامنُ**: تعريفُه أنه لا طريقَ له إلى النجاةِ إلا بعفوِه ومغفرتِه.

- **التاسعُ**: تعريفُ كرمِه تعالى في قبولِه توبتَهُ، ومغفرتِه له على ظُلمِه وإساءتِه.

- **العاشرُ**: إقامةُ الحجَّةِ على عبدِه، وأنه له الحجةُ البالغةُ[(٤)]، فإن عذَّبَهُ فبعدْلِه، وببعضِ حقِّهِ عليه، بل باليسيرِ منه.

- **الحادي عشرَ**: أن يعاملَ عبادَه في إساءتِهم إليه وزلاتِهم معه بما يُحِبُّ أن يعامِلَه اللهُ [به][(٥)]؛ فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، فيعتمدُ[(٦)] في ذنوبِ الخلقِ معه ما يُحِبُّ أن يصنَعَهُ اللهُ بذنوبِه.

- **الثاني عشرَ**: أن يقيمَ معاذيرَ الخلائقِ، وتتسعَ رحمتُه لهم، مع إقامةِ أمرِ اللهِ فيهم؛ رحمةً لهم، لا قسوةً وفظاظةً عليهم[(٧)].

- **الثالثَ عشرَ**: أن يخلعَ صولةَ الطاعةِ والإحسانِ من قلبِه؛ فتتبدلُ[(٨)] بِرِقَّةٍ، ورأفةٍ ورحمةٍ.

---

(١) في س: «شمخ بنفسه بأنفه».

(٢) في ك و س: «وتيقن وتمنى أنه وأنه».

(٣) في ك و س: «من علم أو عمل أو خير».

(٤) في ك و س: «فإن له عليه الحجة البالغة».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٦) في ك و س: «فيعمل»، وهو أظهر.

(٧) في ك و س: «مع إقامة أمر الله فيهم، فيقيم أمر الله فيهم؛ رحمة لهم لا قسوة وفظاظة عليهم».

(٨) في س: «فتبدل».

- **الرابعَ عشرَ**: أن يُعَرِّيهِ من رداءِ العُجْبِ بعملِه كما قال النبيُّ ﷺ: **«لو لم تُذْنِبُوا لَخِفْتُ عليكم ما هو أشدُّ منه: العُجْب»** [(١)] - أو كما قال.

- **الخامسَ عَشرَ**: أن يُعَرِّيهِ من لباسِ الإدلالِ التي تصلحُ للملوكِ[(٢)]، ويُلْبِسَهُ لباسَ الذلِّ الذي لا يليقُ لعبدٍ[(٣)] سواه.

- **السادسَ عشرَ**: أن يستخرجَ من قلبه عبوديتَه بالخوفِ والخشيةِ وتوابعِهما من البكاءِ والإشفاقِ والندمِ.

- **السابعَ عشرَ**: أن يُعرِّفَه[(٤)] مقدارَ نعمةِ معافاتِه، وفضلَه في توفيقِه وعصمتِه؛ فإنَّ من تربَّى في العافيةِ لا يعرفُ ما يُقَاسِيهِ المُبْتَلى، ولا يعرفُ مقدارَ [نعمةِ][(٥)] العافيةِ.

- **الثامنَ عشرَ**: أن يستخرجَ منه محبَّتَه وشكرَه لربِّه إذا تابَ إليه، ورجَعَ إليه؛ فإنَّ اللهَ يحبُّه، ويوجبُ له بهذه التوبةِ مزيدَ محَّبةٍ وشكرٍ ورضا، لا يحصلُ بدونِ التوبةِ -

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ ٥٢٤)، رقم (٦٨٦٨)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ١٥٩)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ١١٥٢)، و القضاعي في «مسند الشهاب»، رقم (١٤٤٧)، (١/ ١١٧)، والديلمي في «الفردوس»، رقم (٥١٦٦)، (٣/ ٤١٧)، والبزار في «مسنده» (٤/ ٢٤٤)؛ كلهم من طريق سلام بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه مرفوعا: **«لو لم تكونوا تذنبون؛ لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب، العجب»**، وسلام هذا مختلف فيه؛ قال يحيى بن معين: «ضعيف الحديث» اهـ وقال البخاري: «منكر الحديث» اهـ، وقال ابن حبان: «. . . ممن فحش خطؤه، وكثر وهمه، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد». اهـ. وقال أحمد بن حنبل: «حسن الحديث» اهـ، وقال ابن عدي: «. . . أرجو أنه لا بأس به» اهـ. ورواه الديلمي أيضا في «الفردوس»، رقم (٥١٦٦)، (٣/ ٤١٧) من طريق كثير بن يحيى، عن أبيه، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا، قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٥/ ٢٠٥٣): «. . . سند ضعيف جدا» اهـ، قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٨٠): «. . . وما أحسنه من حديث لو صح» اهـ، وقد جود إسناد البزار: الهيثمي في «مجمع الزوائد». (١٠/ ٢٧٢)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٤٥)، رقم (٤٣٠٧)، وقال المناوي في «فيض القدير» (٥/ ٣٣١) متعقبا السيوطي في تضعيفه لهذا الحديث: «. . . وطرقه كلها ضعيفه. . .»، وكان ينبغي للمصنف تقويتها بتعددها الذي رقاه إلى رتبة الحسن، ولهذا قال في «المنار»: «هو حسن بها»، بل قال المنذري: «رواه البزار بإسناد جيد». اهـ، وحسنه أيضا الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، رقم (٦٥٨)، (٢/ ١٠١)، و«صحيح الجامع»، رقم (٥٣٠٣)، (٢/ ٩٣٨).

(٢) في ك و س: «الذي يصلح للملوك». (٣) في س: «بالعبد».

(٤) في س: «أن يعرف». (٥) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

وإن كان يحصلُ بغيرِها من الطاعاتِ أثرٌ آخرُ، لكنَّ هذا الأثرَ الخاصَّ لا يحصلُ إلا بالتوبةِ.

- **التاسعَ عشرَ**: أنه إذا شَهِدَ إساءتَه وظلمَه؛ استكثَرَ القليلَ من نعمةِ ربِّهِ(١)؛ لعلمِهِ بأنَّ الواصلَ إليه منها كثيرٌ على مسيءٍ مثلِه، واستقلالِ الكثيرَ من عملِه(٢)؛ لعلمِه بأنَّ الذي يصلحُ له أن يغسلَ به نجاستَه و[وَضَرَ](٣) ذنوبِه أضعافُ أضعافِ ما يفعلُه، فهو دائمًا مستقلٌ لعملِه كائنًا ما كان.

ولو لم يكن في فوائدِ الذنبِ وحِكَمِه إلا هذا وحده لكان كافيًا.

- **العشرون**: أنه يوجبُ له التيقظَ والحذرَ من مصائدِ العدُوِّ [ومكائدِه، ويُعرِّفَه من أين يدخلُ عليه](٤)، وبماذا يحذرُ منه، كالطبيبِ الذي ذاقَ المرضَ والدواءَ.

- **الحادي والعشرون**: أنَّ مثلَ هذا ينتفعُ به المرضى؛ لمعرفتِه بأمراضِهم وأدوائِها.

- **الثاني والعشرون**: أنه يرفعُ عنه حجابَ الدعوى، ويفتحُ له طريقَ الفاقةِ؛ فإنه لا حجابَ أغلظُ من الدعوى، ولا طريقَ أقربُ من العبوديةِ، فإنَّ دوامَ الفقرِ إلى اللهِ مع التخليطِ خيرٌ من الصفا مع العُجْبِ.

- **الثالث والعشرون**: أنه يكونُ في القلبِ أمراضٌ مزمنةٌ، لا يشعرُ بها، فيطلبُ دواءَها، فيَمُنُّ عليه اللطيفُ الخبيرُ، ويقضي عليه بذنبٍ ظاهرٍ، فيجدُ ألَمَ مرضِه، فيحتمي، ويشربُ الدواءَ النافعَ، فتزولُ تلك الأمراضُ التي لم يكنْ يشعرُ بها.

ومن لم يشعرْ بهذهِ اللطيفةِ فلغلظِ(٥) حجابِه، كما قيل:

لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقبُه   وربما صحتِ الأجسامُ بالعللِ(٦)

---

(١) في ك: «واستكثر القليل من نعمة الله». وهو غلط.

(٢) في ك: «فاستقل الكثير من عمله»، وفي س: «واستقل الكثير من عمله».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك وس، والوضر: الأثر، وجمعه: أوضار، يقال: وضر ك: «وجل»، يوضر، وضرا، فهو وضر، وهي وضرة ووضرى»، انظر: «لسان العرب» (٥/ ٢٨٤)، «الصحاح» (٢/ ٧٢٠)، «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ١٩٦)، «القاموس» (ص/ ٦٣٣).

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٥) في ك و س: «فغلظ». وهو خطأ.

(٦) لم أجده.

- **الرابع والعشرون**: أن يذيقَه ألَمَ الحجابِ والبعدِ بارتكابِ الذنبِ[(١)]؛ لتكمُلَ[(٢)] له نعمتُه وفرحُه وسرورُه، [و][(٣)] إذا أقبل بقلبِه إليه، وجمَعَهُ عليه، وأقامَهُ في طاعتِه، فيكونُ التذاذُه بذلك بعد أن صَدَرَ منه ما صَدَرَ بمنزلةِ التذاذِ الظمآنِ بالماءِ العذبِ الزُّلالِ، والشديدِ الخوفِ بالأمنِ، والمُحبِّ الطويلِ الهجرِ بوصلِ محبوبِه.

وإنَّ لطفَ الربِّ تعالى وبِرَّه وإحسانَه ليَبْلُغُ بعبدِه أكثرَ من هذا، فيا بؤسَ مَنْ أعرضَ عن معرفةِ ربِّه ومحبَّتِه!!

- **الخامس والعشرون**: امتحانُ العبدِ واختبارُه: هلْ يصلحُ لعبوديتِه وولايتِه أم لا؟ فإنه إذا واقَعَ الذنبَ؛ سُلِبَ حلاوةَ الطاعةِ والقربِ، ووقَعَ في الوحشةِ، فإن كان مِمَّنْ يصلحُ؛ اشتاقتْ نفسُه إلى لذةِ تلك المعاملةِ، فحنَّتْ وأنَّت، وتضرَّعَتْ، واستغَاثَتْ[(٤)] بربِّها؛ ليردَّها إلى ما عَوَّدَها من بِرِّه ولطفِه، وإن ركبت غَيَّهَا[(٥)]، واستمرَّ إعراضُها، ولم تَحِنَّ إلى معهدِها الأولِ، ومألفِها، ولم تحسَّ بضرورتِها وفاقتِها الشديدةِ إلى مراجعةِ قُرْبِها من رَبِّها؛ عُلِمَ أنها لا تصلحُ للهِ، وقد جاءَ هذا بعينِه في أثرٍ إلهيٍّ لا أحفظُه.

- **السادس والعشرون**: أن الحكمةَ الإلهيةَ اقتضتْ تركيبَ الشهوةِ والغضبِ في الإنسانِ، وفي ذلك حِكَمٌ عظيمةٌ[(٦)] لصانعِه - تبارك وتعالى.

ولا ريبَ أنهما داعيان إلى أثريها وموجبيهما[(٧)]، فلا بدَّ من ترتُّبِ أثرِ داعي[(٨)] الشهوةِ والغضبِ في الإنسانِ، أو بعضِها، ولو لم تخلقْ فيه هذه الدواعي؛ لم يكن إنسانًا، بل مَلِكًا.

فالذنبُ من موجباتِ البشريةِ، كما أن النسيانَ من موجباتِها، كما قال النبيُّ ﷺ: **«كُلُّ بني آدمَ خطَّاء[(٩)]، وخيرُ الخطَّائين التوابون»**[(١٠)].

---

(١) في س: «أنه يذيقه ألم الحجاب والتهديد بارتكاب الذنب». (٢) في س: «ليكمل».
(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٤) في ك و س: «واستعانت». والمثبت أظهر.
(٥) في ك و س: «وإن ركنت عنها». (٦) في ك: «حكمة عظيمة».
(٧) في ك و س: «إلى أثرهما وموجبهما». (٨) في ك: «دواعي».
(٩) في هامش ك: «لعله: خطاؤون».
(١٠) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/١٩٨)، والدارمي، رقم (٢٧٢٧)، وعبد بن حميد في «مسنده»، رقم (١١٩٥)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (٤٢٥١)، وابن عدي =

ولا يتمُّ الابتلاءُ والاختبارُ إلا بذلك[١].

- **السابع والعشرون**: أن ينسيَهُ رؤيةَ طاعاتِه[٢]، ويشغلَه برؤيةِ ذنبِه، فلا يزالُ نَصْبُ عَيْنَيْهِ؛ فإن اللهَ إذا أرادَ بعبدٍ خيرًا؛ سلب رؤيةَ أعمالِه الحسنةِ من قلبِه، والإخبارَ بها من لسانِه، وشغلَه برؤيةِ ذنبِه، فلا يزالُ نَصْبُ عينَيْهِ حتى يُدخِلَه الجنةَ؛ فإنَّ ما يقبلُ من الأعمالِ رُفِعَ من القلبِ رؤيتُه، ومن اللسانِ ذكرُه[٣].

وقال بعضُ السلفِ: «إن العبدَ[٤] ليعملُ الخطيئةَ فيدخلُ بها الجنةَ، ويعملُ الحسنةَ فيدخلُ بها النارَ، قالوا: كيف؟[٥]، قال: يعملُ الخطيئةَ فلا تزالُ نَصْبُ عينيه؛ إذا ذكرها نَدِمَ، واستقالَ[٦]، وتضرَّع إلى اللهِ[٧]، وبادرَ إلى مَحْوِها، وانكسرَ وذلَّ لربِّه، وزال عنه عُجْبُهُ وكِبْرُه. ويعملُ الحسنةَ فلا تزالُ نَصْبُ عينيه؛ يراها ويَمُنُّ بها، ويعتدُّ بها، ويتكبرُ بها[٨] حتى تُدخِلَه النارَ»[٩].

= في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥/ ١٨٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤٤): كلهم من طريق علي ابن مسعدة الباهلي، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وزاد أحمد: «**ولو أن لابن آدم واديين من مال؛ لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**».

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة» اهـ، وقال الحاكم: «صحيح» اهـ وتعقبه الذهبي بقوله: «بل فيه لين» اهـ، وقال ابن عدي: «ولعلي بن مسعدة غير ما ذكرت عن قتادة، وكلها غير محفوظة» اهـ، وقال العراقي: «... فيه علي بن مسعدة، ضعفه البخاري» اهـ، وقال المناوي في «فيض القدير» (٥/ ١٧): «... وقال جدي في أماليه: «حديث ضعيف». لكن انتصر ابن القطان لتصحيح الحاكم، وقال: «ابن مسعدة صالح الحديث، وغرابته إنما هي فيما انفرد به عن قتادة» اهـ، وقوى سنده الحافظ ابن حجر في «بلوغ المرام» (ص/ ٣٠١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٥١٥)، (٢/ ٨٣١)، و: «مشكاة المصابيح» رقم (٢٣٤١)، (٢/ ٧٢٤).

(١) في ك و س زيادة: «والله أعلم».
(٢) في ك و س: «رؤية طاعته».
(٣) في ك: «فإن ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره»، وفي س: «فإن ما يقبل من الأعمال ما رفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره».
(٤) في س: «إن الرجل».
(٥) في ك: «قالوا: كيف يعمل؟».
(٦) أي: طلب إلى الله -تعالى- أن يقيله، والإقالة: الفسخ، يقال: قاله البيع، وأقاله، وأقال الله عثرتك وأقالكها»، والمعنى: طلب إلى الله - تعالى - أن يعفو عنه، ويغفر هذا الذنب الذي عمله، انظر: «لسان العرب» (١١/ ٥٧٩)، «القاموس» (ص/ ١٣٥٩).
(٧) في س: «إلى مولاه».
(٨) في س: «ويتكثر بها».
(٩) في ك: «حتى يدخل النار».

- **الثامن والعشرون**: أنَّ شهودَ ذنبِه وخطيئتِه يوجبُ له أن لا يرى له على أحدٍ فضلًا، ولا له على أحدٍ حقًّا؛ فإنه يشهدُ عيبَ نفسِه وخطأَهَا وذنوبَها؛ فلا يظنُّ[١] أنه خيرٌ من مسلمٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، وإذا شَهِد ذلك من نفسِه لم يرَ لها على الناسِ حقوقًا من الإكرامِ يتقاضاهم إياها، ويذمُّهم على تركِ القيامِ بها؛ فإنها عنده أخسُّ قَدْرًا، وأقلُّ قيمةً من أن يكونَ لها على عبادِ اللهِ حقوقٌ يجبُ مراعاتُها، أو لها عليهم فضلٌ يستحِقُّ أن يكرموه لأجلِه، فيرى أنَّ من سلَّم عليه، أو لقيَهُ بوجهٍ [منبسطٍ][٢] قد أحسنَ إليه، وبذلَ له ما لا يستحقُّه، فاستراحَ في نفسِه، واستراح الناسُ من تَعَنُّتِه[٣] وشِكَايَتِهِ، فما أطيبَ عيشَه؛ وما أنعمَ بالَه، وما أقرَّ عينه!

وأين هذا ممن لا يزالُ عاتبًا على الخلقِ، شاكيًا تركَ قيامِهم بحقِّه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخطُ؟.

فسبحانَ ذي الحكمةِ الباهرةِ التي بهرتْ عقولَ العالمين.

- **التاسع والعشرون**: أنه يوجبُ له الإمساكَ عن عيوبِ الناسِ، والفكرِ فيها؛ فإنه في شغلٍ بعيبِه ونفسِه، وطُوبَى لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ الناسِ، وويلٌ لمن نَسِيَ عيبَه، وتفرَّغَ لعيوبِ الناسِ؛ فالأولُ علامةُ السعادةِ، و الثاني علامةُ الشقاوةِ.

الثلاثون: أنه يوجبُ له الإحسانَ إلى الناسِ، والاستغفارَ لإخوانِه [المؤمنين][٤] الخطائين مِن المؤمنين، فيصيرُ هِجِّيرَاهُ[٥]: «ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات»؛ فإنه يَشْهَدُ أنَّ إخوتَه[٦] الخطَّائين مصابون بمثلِ ما أُصيبَ به، محتاجون إلى مثلِ ما هو محتاجٌ إليه، فكما يحبُّ أن يستغفرَ له أخُوه المسلمُ يحبُّ أن يستغفرَ هو لأخيهِ المسلمِ.

وقد قال بعضُ السلفِ: «إن الله تعالى لما عَتَبَ على الملائكةِ في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٧]، وامتحنَ [منهم][٨] هاروتَ وماروتَ؛ جعلتِ

(١) في ك و س: «ولا يظن».
(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك.
(٣) في ك و س: «من تعتبه». وهو أظهر.
(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.
(٥) الهجيرى: الدأب والعادة والديدن، وكذا الهجير، والإهجيرى. انظر: «الصحاح» (٢/ ٧٢٦)، «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ٢٤٦).
(٦) في س: «أن إخوانه».
(٧) في س زيادة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.
(٨) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

الملائكةُ بعدَ ذلك تستغفرُ لبني آدمَ، ويدعون اللهَ لهم».

الحادي والثلاثون: أنه يوجبُ له سعةَ بطانِه[١]، وحلمِه[٢]، ومغفرتِه لمن أساءَ إليه؛ فإنه إذا شَهِدَ نفسَه مع ربِّه مسيئًا خاطئًا مذنبًا مع فرطِ إحسانِه إليه، وبرِّه [به][٣]، وشدَّةِ حاجتِه إلى ربِّه، وعدمِ استغنائِه عنه طرفةَ عين - وهذا حالُه مع ربِّه - فكيف يطمعُ أن يستقيمَ له الخلقُ، ويعاملونه[٤] بمحضِ الإحسانِ وهو لم يعاملْ ربَّه بتلك المعاملةِ؟!

وكيف يطمعُ أن يطيعَه مملوكُه وولدُه وزوجتُه في كلِّ ما يريدُ، وهو مع ربِّه ليس كذلك؟!

وهذا يوجبُ له أن يغفرَ لهم، ويسامحَهم، ويعفوَ[٥] عنهم، ويُغضِيَ عن الاستقصاءِ في طلبِ حقِّه قِبَلَهُمْ.

قاعدةٌ[٦]

ذكرُ الإنابةِ في القرآنِ

كثيرًا مما يتكررُ[٧] في القرآنِ ذكرُ الإنابةِ، والأمرُ بها؛ كقولِه - تعالى -: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٤]، وقولِه - حكايةً عن شعيبٍ أنه قال -: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: الآية ٨٨]، وقولِه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: الآية ٨]، وقولِه - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: الآية ٢٧]، وقولِه عن نبيِّهِ داودَ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: الآية ٢٤].

معنى الإنابةِ

فالإنابةُ[٨]: الرجوعُ إلى اللهِ، وانصرافُ دواعِي القلبِ وجواذبِه إليه، وهي تتضمنُ المحبةَ والخشيةَ؛ فإن المنيبَ محبٌّ لمن أناب إليه، خاضعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ.

والناسُ في إنابتِهم[٩] على درجاتٍ متفاوتةٍ:

فمنهم المنيبُ إلى اللهِ بالرجوعِ إليه من المخالفاتِ والمعاصي، وهذه الإنابةُ

---

(١) أي: سعة باله. انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٥٧)، «القاموس» (ص/ ١٥٢٤).

(٢) في س: «وحمله». وهو غلط. (٣) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٤) كذا في الأصل، وع، و ك، وفي س: «ويعاملوه». وهو الصواب.

(٥) في س: «ويعفوا» -بالألف- القاعدة في ذلك.

(٦) انظر: «المقدمة». (٧) في ك و س: «كثير ما يتكرر». (٨) في ك وس: «والإنابة».

(٩) في ك: «في إناباتهم».

مصدرُها مطالعةُ الوعيدِ، والحاملُ عليها العلمُ [والخشيةُ][(١)] والحذرُ.

ومنهم المنيبُ إليه بالدخولِ في أنواعِ العباداتِ والقرباتِ، فهو ساعٍ فيها بجهدِه[(٢)]، وقد حُبِّبَ إليه فعلُ الطاعاتِ وأنواعُ القرباتِ.

وهذه الإنابةُ مصدرُها الرجاءُ، ومطالعةُ الوعدِ والثوابِ، ومحبَّةُ الكرامةِ من اللهِ.

وهؤلاءِ أبسطُ نفوسًا من أهلِ القسمِ الأولِ، وأشرحُ صدورًا، وجانبُ الرجاءِ ومطالعةُ الرحمةِ والمنةِ أغلبُ عليهم، وإلا فكلُّ واحدٍ من الفريقين منيبٌ بالأَمْرَيْن جميعًا، ولكنْ خوفُ هؤلاءِ اندرجَ في رجائِهم، فأنابوا بالعباداتِ، ورجاءُ الأولين اندرجَ تحت خوفِهم، فكانت إنابتُهم بتركِ المخالفاتِ.

ومنهم المنيبُ إلى اللهِ بالتضرعِ والدعاءِ والافتقارِ إليه والرغبةِ وسؤالِ الحاجاتِ كلِّها منه.

ومصدرُ هذه الإنابةِ شهودُ الفضلِ والمنةِ والغِنَى والكرمِ والقدرةِ[(٣)]، فأنزلُوا به حوائِجَهم، وعلَّقُوا به آمالَهم، فإنابتُهم إليه من هذه الجهةِ مع قيامِهم بالأمرِ والنهي، ولكن إنابتُهم الخاصةُ إنما هي من هذه الجهةِ، وأما الأعمالُ فلم يُرْزَقُوا فيها الإنابةَ الخاصَّةَ.

ومنهم المنيبُ إليه عند الشدائدِ والضراءِ فقط إنابةَ اضطرارٍ، لا إنابةَ اختيارٍ[(٤)]، كحالِ الذين قال فيهم[(٥)]: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٦٧]، وقولِه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥].

وهؤلاءِ كلُّهم قد تكون/ أرواحُهم[(٦)] مُلْتَفِتَةً عن اللهِ سبحانه، مُعْرِضَةً عنه إلى مألوفٍ طبيعيٍ نفسانيٍّ، قد حال بينها وبين إنابتِها [بذاتِهَا][(٧)] إلى معبودِها وإلهِهَا الحقِّ، فهي ملتفتةٌ إلى غيرِه، ولها إليه إنابةٌ ما بحسبِ إيمانِها به، ومعرفتِها له[(٨)].

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س. (٢) في س: «بحمده». وهو غلط.

(٣) في ع: «ومصدر هذه الإنابة شهود الكريم الفضل والمنة والغنى الكرم والقدرة».

(٤) في س: «إنابة الاضطرار لا إنابة الاختيار». (٥) في ك وس: «قال في حقهم».

(٦) في باقي النسخ: «نفس أرواحهم». (٧) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٨) في س: «ولها إليه إنابة حادثة بحسب إيمانها به، ومعرفتها له».

فأعلى أنواعِ الإناباتِ إنابةُ الروحِ بجملتِها [إليه](١) **بشدةِ المحبةِ الخالصةِ،** المغنيةِ(٢) لهم عما سوى محبوبِهم ومعبودِهم، وحين أنابتْ إليه أرواحُهم؛ لم يتخلفْ منهم شيءٌ عن الإنابةِ؛ فإن الأعضاءَ كلَّها؛ رعيتُها وملكُها تبعٌ للروحِ.

فلما أنابتِ الروحُ بذاتِها إليه إنابةَ محبٍّ صادقِ المحبةِ، ليس فيه عِرْقٌ، ولا مَفْصِلٌ إلا وفيه حبٌّ ساكنٌ لمحبوبِه أنابت جميعُ القوى والجوارحِ:

فأناب القلبُ أيضًا بالمحبةِ والتضرعِ والذلِّ والانكسارِ.

وأناب العقلُ بانفعالِه لأوامرِ المحبوبِ ونواهيِهِ، وتسليمِه لها، وتحكيمِه إياها دون غيرِها، فلم يبقَ فيه منازعةُ شبهةٍ معترضةٍ دونها.

وأنابت النفسُ بالانقيادِ والانخلاعِ عن العوائدِ النفسانيةِ، والأخلاقِ الذميمةِ، والإراداتِ الفاسدةِ، وانقادت للأمرِ، خاضعةً له، راغبةً فيه(٣)، مؤثرةً إياه على غيرِهِ، فلمْ يبقَ فيها منازعةُ شهوةٍ تعترضها دون الأمرِ، وخرجت عن تدبيرِها واختيارِها؛ تفويضًا إلى مولاها الحقِّ، ورضًى بقضائِه، وتسليمًا لحكمِه. وقد قيل: «إن تدبيرَ العبدِ لنفسِه هو آخرُ الصفاتِ المذمومةِ في النفسِ».

وأناب الجسدُ بالأعمالِ والقيامِ بها: [فرضِها وسننِهَا على أكملِ الوجوهِ.

وأنابت كلُّ جارحةٍ وعضوٍ إنابتَها الخاصةَ بها](٤)، فلم يبقَ من هذا العبدِ المنيبِ عِرقٌ، ولا مِفْصَلٌ إلا وله إنابةٌ ورجوعٌ إلى الحبيبِ الحقِّ، الذي كلُّ محبةٍ سوى محبتِه عذابٌ على صاحبِها، وإن كانت عَذْبَةً في مبادِيها، فإنها عذابٌ في عواقبِها.

فإنابةُ العبدِ - ولو ساعةً من عمرِه - هذه الإنابةَ الخالصةَ أنفعُ له، وأعظمُ ثمرةً من إنابةِ سنينَ كثيرةٍ من غيرِه، فأين إنابةُ هذا من إنابةِ مَنْ قبله؟! وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ.

بل هذا روحُه منيبةٌ أبدًا، وإن توارى(٥) عنه شهودُ إنابتِها باشتغالٍ؛ فهي كامنةٌ فيها كمونَ النارِ في الرمادِ(٦).

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س. (٢) في ع: «المفنية». (٣) في ك: «وداعية فيه».
(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٥) في ك و س: «وإن توارت».
(٦) في ك و س: «كمون النار في الزناد»، وتقدم معنى «كامنة».

وأما أصحابُ الإناباتِ المتقدمةِ: فإنْ أناب أحدُهم ساعةً بالدعاءِ والذكرِ والابتهالِ؛ فلنفسِه وروحِه [وقلبِه][1] وعقلِه التفاتاتٌ عمن قد أنابَ إليه، فهو ينيبُ ببعضِه ساعةً، ثم يتركُ ذلك مُقْبِلًا على دواعي نفسِه وطبعِه. واللهُ الموفِّقُ المعينُ، لا ربَّ غيرُه، ولا إلهَ سواه.

قاعِدَةٌ

الطريقُ الموصلةُ إلى اللهِ شيئان

في ذكر طريقٍ موصلٍ[2] إلى الاستقامةِ في الأحوالِ والأقوالِ والأعمالِ:

وهي شيئان:

الأولُ: حراسةُ الخواطرِ

- **أحدُهما**: حراسةُ الخواطرِ، وحفظُها، والحذرُ [كلَّ الحذرِ][3] من إهمالِها والاسترسالِ معها؛ فإن أصلَ الفسادِ كلِّه من قِبَلِها يجيءُ؛ لأنها هي بَذْرُ الشيطانِ، والنفسُ في أرضِ القلبِ؛ فإذا تمكَّن بذرُها تعاهَدَهَا الشيطانُ بسَقْيه مرَّةً بعدَ أخرى حتى تصيرَ إراداتٍ، ثم يسقيها حتى تكونَ[4] عزائمَ، ثم لا يزالُ بها حتى تثمرَ الأعمالَ.

ولا ريبَ أن دَفْعَ الخواطرِ أيسرُ من دفعِ الإراداتِ والعزائمِ، فيجدُ العبدُ نفسَه عاجزًا، أو كالعاجزِ عن دفعِها بعد أن صارت إرادةً جازمةً، وهو المفرِّطُ؛ إذ لم يدافعْها وهي خاطرٌ ضعيفٌ، كمَنْ تهاون بشرارةٍ من نارٍ وقعتْ في حَطَب يابسٍ؛ فلما تمكَّنتْ منه؛ عجزَ عن إطفائِها.

فإن قلت: فما الطريقُ إلى حفظِ الخواطرِ؟ قلت: أسبابٌ عدَّةٌ:

الطريقُ إلى حفظِ الخواطرِ

- **أحدُها**: العلمُ الجازمُ باطِّلاعِ الربِّ تعالى، ونظرُه إلى قلبِك، وعلمُه بتفاصيلِ[5] خواطرِك.

- **الثاني**: حياؤُك منه.

- **الثالثُ**: إجلالُك له أَنْ يرى مثلَ تلك الخواطرِ في بيتِه الذي خلقه لمعرفتِه ومحبتِه.

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٢) في ع: «طريق قريب موصل»، وفي ك و س: «طريق يوصل».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٤) في ع و س: «حتى تصير». (٥) في ك و س: «بتفصيل».

- **الرابعُ**: خوفُك منه أن تسقطَ من عينِه بتلك الخواطرِ.

- **الخامسُ**: إيثارُك له أن يساكنَ(١) قلبَك غيرُ محبتِه.

- **السادسُ**: خشيتُك أن تتولدَ تلك الخواطرُ، ويَسْتَعِرَ شرارُها، فتأكلَ ما في القلبِ من الإيمانِ ومحبةِ اللهِ، فتذهبَ به جملةً(٢)، وأنت لا تشعرُ.

- **السابعُ**: أن تعلمَ أن تلك الخواطرَ بمنزلةِ الحَبِّ الذي يُلْقَى للطائرِ؛ ليُصادَ به، فاعلمْ أن كلَّ خاطرٍ منها فهو حبةٌ في فخٍّ منصوبٍ لصيدك وأنت لا تشعرُ.

- **الثامنُ**: أن تعلمَ أن تلك الخواطرَ الرديئةَ لا تجتمعُ هي [في خواطرِ الإيمانِ](٣)، ودواعي المحبةِ والإنابةِ أصلًا، بل هي ضدُّها من كلِّ وجهٍ، وما اجتمعا في قلبٍ إلا وغَلَبَ أحدُهما صاحبَه، وأخرجَه واستوطَنَ مكانَه.

فما الظنُّ بقلبٍ غلبتْ خواطرُ النفسِ والشيطانِ فيه خواطرَ الإيمانِ والمحبةِ والمعرفةِ، فأخرجتْها، واستوطنتْ مكانَها؟! لكن لو كان للقلبِ حياةٌ لشعرَ بألمِ ذلك، وأحسَّ بمصابِه.

- **التاسعُ**: أن يعلمَ أن تلك الخواطرَ بحرٌ من بحورِ الخيالِ، لا ساحلَ له، فإذا دخلَ القلبُ في غمراتِه؛ غَرِقَ فيه، وتاه في ظلماتِه، فيطلبُ الخلاصَ منه فلا يجدُ إليه سبيلًا، فقلبٌ تملكُهُ الخواطرُ بعيدٌ من الفلاحِ، معذبٌ مشغولٌ بما لا يفيدُ.

- **العاشرُ**: أن تلك الخواطرَ هي وادِي الحمْقى، وأماني الجاهلين، فلا تثمرُ لصاحبِها إلا الندامةَ والخزيَ، وإذا غلبتْ على القلبِ أورثَتْه الوساوسَ، وعزلَتْه عن سلطانِه(٤)، وأفسدتْ عليه رعيَّتَهَ، وألقَتْه في الأسرِ الطويلِ.

وكما أن هذا معلومٌ في الخواطرِ النفسانيةِ فهكذا الخواطرُ الإيمانيةُ الرحمانيةُ، هي أصلُ الخيرِ كلِّهِ؛ فإنَّ أرضَ القلبِ متى بُذِرَ فيها خواطرُ الإيمانِ والخشيةِ والمحبةِ والإنابةِ والتصديقِ بالوعدِ، ورجاءِ الثوابِ، وسُقِيَتْ مرَّةً بعد مرَّة، وتعاهَدَهَا صاحبُها

---

(١) في ك: «أن تساكن». (٢) في ع: «وتذهب به كله».

(٣) كذا في الأصل، وفي ع و ك: «هي وخواطر الإيمان»، وما بين المعقوفين ليس في س.

(٤) في ك: «سلطانها». وكلاهما سائغ، فالمثبت فيه إضافة اسم المصدر إلى فاعله، وما في ك فيه إضافة اسم المصدر إلى مفعوله.

بحفظِها ومراعاتِها والقيامِ عليها؛ أثمرت له كلَّ فعلٍ جميلٍ، وملأتْ قلبَه من الخيراتِ، واستعملت جوارحَه في الطاعاتِ، واستقرَّ بها المَلِكُ في سلطانِه، واستقامتْ له رعيتُه.

شرطا الانتفاعِ بحفظِ الخواطرِ

ولهذا لما تحققتْ طائفةٌ من السالكين ذلك؛ عَمِلتْ على حفظِ الخواطرِ، وكان[1] ذلك هو سيرَها، وجُلَّ عملِها[2]، وهذا نافعٌ لصاحبِه بشرطين:

- **أحدُهما**: ألا يتركَ به واجبًا، ولا سنةً.

- **الثاني**: أن لا يجعلَ مجردَ حفظِها هو المقصودَ، بل لا يتمُّ ذلك إلا بأنْ يجعلَ موضعَها خواطرَ الإيمانِ والمحبةِ والإنابةِ والتوكلِ والخشيةِ، فَيُفرِّغَ قلبَه من تلك الخواطرِ، ويعمرَّه بأضدادِها، وإلا فمتى عَمِلَ على تفريغِه منهما معًا؛ كان خاسرًا، فلابد من التفطُّنِ لهذا.

ومن هنا غلطَ أقوامٌ من أربابِ السلوكِ، وعَمِلُوا على إلغاءِ[3] الخواطرِ وإزالتِها جملةً، فبَذَرَ فيها الشيطانُ أنواعَ الشُّبهِ والخيالاتِ، فظنُّوها تحقيقًا وفتحًا رحمانيًّا، وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالاتٌ وفتوحاتٌ شيطانيةٌ.

والميزانُ هو الكتابُ الناطقُ، والفطرةُ السليمةُ، والعقلُ المؤيَّدُ بنورِ النبوَّةِ، واللهُ المستعانُ.

فصلٌ

الثاني: صدقُ التأهبِ للقاءِ اللهِ ﷻ.

صدقُ التأهبِّ للقاءِ اللهِ

وهذا من أنفعِ ما للعبدِ، وأبلغِه في حصولِ استقامتِه؛ فإنَّ مَنِ استعدَّ للقاءِ اللهِ؛ انقطعَ قلبُه عن الدنيا، ومطالبِها[4]، وخمدتْ من نفسِه نيرانُ الشهواتِ، وأخْبَتَ قلبُه إلى ربه تعالى، وعكفت همتُّه على اللهِ، وعلى محبتِه وإيثارِ مرضاتِه، واستحدثت همةً أخرى، وعلومًا أخر، ووُلِدَ ولادةً أخرى تكونُ نسبةُ قلبِه فيها إلى الدارِ الآخرةِ كنسبةِ جسمِه إلى هذه الدارِ بعد أن كان في بطنِ أمِّهِ، فيولدُ[5] قلبُه ولادةً حقيقيةً، كما وُلِدَ جسمُه حقيقةً، وكما كان بطنُ أمِّه حجابًا لجسمِه عن هذه الدارِ؛ فهكذا نفسُه وهواه

---

(١) في ك و س: «فكان». (٢) في ع: «وكل عملها». (٣) في باقي النسخ: «إلقاء».

(٤) في ك و س: «عن الدنيا وما فيها ومطالبها». (٥) في ك: «فتولد».

حجابٌ لقلبِه عن الدارِ الآخرةِ، فخروجُ قلبِه عن نفسِه بارزًا إلى الدارِ الآخرةِ كخروجِ جسمِه عن بطنِ أمِّهِ(١) بارزًا إلى هذهِ الدارِ.

وهذا معنى ما يُذْكرُ عن المسيحِ ﷺ أنه قال: «يا بني إسرائيلَ، إنكم لن تَلِجُوا ملكوتَ السماءِ حتى تولَدُوا مرتين»(٢).

ولما كان أكثرُ الناسِ لم يُولدوا هذه الولادةَ الثانيةَ، ولا تَصوَّرُوها - فضلًا عن أنْ يُصَدِّقُوا بها، فيقولُ القائلُ: «كيف يولدُ الرجلُ الكبيرُ؟!، أم كيف يولدُ القلبُ؟! - لم يكن لهم إليها همةٌ، ولا عزيمةٌ؛ إذ كيف يَعزمُ على الشيءِ مَنْ لا يعرفُه، ولا يصدِّقُه؟!.

ولكن إذا كُشِفَ حجابُ الغفلةِ عن القلبِ؛ صَدَّق بذلك، وعَلِمَ أنه لم يولدْ قلبُه بَعْدُ.

والمقصودُ أن صِدْق التأهبِ للقاءِ اللهِ هو مفتاحُ جميعِ الأعمالِ الصالحةِ، والأحوالِ الإيمانيةِ، ومقاماتِ السالكين إلى اللهِ(٣)، ومنازلِ السائرين إليه؛ من اليقظةِ والتوبةِ والإنابةِ والمحبةِ والرجاءِ والخشيةِ والتفويضِ والتسليمِ وسائرِ أعمالِ القلوبِ والجوارحِ، فمفتاحُ ذلك كلِّه صِدْقُ التأهبِ والاستعدادِ للقاءِ اللهِ.

والمفتاحُ بيدِ الفتاحِ العليمِ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه.

---

(١) في س: «من بطن أمه».

(٢) لم أجده. وقد ذكره المؤلف في «مداج السالكين» (٣/ ٩٤)، وقال: «... سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر ذلك ويفسره بأن الولادة نوعان: **أحدهما**: هذه المعروفة، **والثانية**: ولادة القلب والروح، وخروجهما من مشيمة النفس، وظلمة الطبع». اهـ.

(٣) الأحوال: جمع حال، وهو في اللغة: «ما عليه الإنسان من خير أو شر»، يذكر ويؤنث، ويجمع على أحوال وأحولة. والمقامات: جمع مقام، وهو يطلق في اللغة على: الإقامة، وعلى موضعها، يقال: مقام، ومقام، ومقامة، وأما في اصطلاح أرباب السلوك والتصوف فالأحوال: «معان ترد على القلب من غير اجتلاب، ولا اكتساب، ولا تعمد من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة، وتزول بظهور صفات النفس، وهي عارضة لا تدوم». والمقامات: «ما يتوصل إليها بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف، وهي راسخة ثابتة»، فالأحوال مواهب من عين الجود، والمقامات مكاسب ببذل المجهود، انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٣٣)، «القاموس» (ص/ ١٢٧٩)، (١٤٨٧)، «مدارج السالكين» (١/ ١٥١)، (٢/ ١٧٩)، (٤٦٦)، «طريق الهجرتين» (القسم الأول من التحقيق)، «التعريفات» (ص/ ١١٠)، (٢٨٩)، «الكليات» (ص/ ٣٧٥)، (٨٢٧).

قاعدةٌ شريفةٌ

الناسُ قسمان

الناسُ قسمان: عِلْيَةٌ، وسِفْلَةٌ(١).

فالعليةُ: مَنْ عرف(٢) الطريقَ إلى ربِّه، وسلَكها قاصدًا للوصولِ إليه، وهذا هو الكريمُ على ربِّه.

والسِّفْلَةُ(٣): من لم يعرفِ الطريقَ إلى ربِّه، ولم يتعرفْها، فهذا هو اللئيمُ، الذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: الآية ١٨].

والطريقُ إلى اللهِ - في الحقيقةِ - واحدٌ، لا تعددَ فيه، وهو صراطُه(٤) المستقيمُ الذي نصبه موصِّلًا لمن سلكه إليه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣](٥)، فوحَّدَ سبيلَه؛ لأنه في نفسِه واحدٌ، لا تعددَ فيه، وجَمَعَ السُّبُلَ المخالفةَ؛ لأنها(٦) كثيرةٌ متعددةٌ، كما ثبت أن النبيَّ ﷺ خطَّ خطًّا، ثم قال: **«هذا سبيلُ اللهِ»**، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه، وعن يسارِهِ، ثم قال: **«هذه سُبُلٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»**، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣](٧).

---

(١) في ع و س: «وسفلية». والعلية -بالكسر-: جمع علي، كـ«صبي» و«صبية»، وهو الشريف الرفيع، يقال: «فلان من علية الناس، وعليهم»، انظر: «الصحاح» (٥/ ١٩٣٨)، «القاموس» (ص/ ١٦٩٤)، والسفلة - بكسر فسكون، وبفتح وكسر-أي: الغوغاء والسقاط والأراذل، انظر: «الصحاح» (٤/ ١٤١٣)، «القاموس» (ص/ ١٣١٢).

(٢) في س: «وأما العلية: من عرف».

(٣) في ع وس: «والسفلية»، وفي ك: «والسفالة».

(٤) في س: «وهو الصراط».

(٥) في ع زيادة: «فتفرق بكم عن سبيله».

(٦) في س «فإنها».

(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٣٥)، (٤٦٥)، والدارمي في «سننه»، «المقدمة»، رقم (٢٠٢)، و ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ٨٨)، وابن حبان في «صحيحه»، رقم (٦)، (١/ ١٠٥-إحسان-)، والحاكم في «المستدرك»، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» اهـ ووافقه الذهبي، والطيالسي في «مسنده»، رقم (٢٤٤)، (١/ ٤١٢)، وابن أبي عاصم في «السنة»، رقم (١٧)، (ص/ ١٣)، وابن أبي حاتم وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٥) عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وصحح إسناده أحمد شاكر في «شرح المسند» (٦/ ٨٩)، (١٩٩)، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» (١/ ٥٩).

ومن هذا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧]، فوحَّدَ النورَ الذي هو سبيلُه، وجمعَ الظلماتِ التي هي سُبُلُ الشيطانِ.

ومَنْ فَهِمَ هذا؛ فَهِم السرَّ في إفرادِ النورِ، وجَمْعِ الظلماتِ في قولِه - تعالى -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١]، مع أن فيه سرًّا ألطفَ من هذا، يعرفُه مَنْ عرف منبعَ النورِ كلِّه، ومِن أين فاضَ؟ وعن ماذا حَصَل؟ وأن أصلَه كلَّه واحدٌ، وأما الظلماتُ فهي متعددةٌ بتعددِ الحجبِ المقتضِيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا، لكلِّ حجابٍ ظلمةٌ خاصةٌ.

ولا ترجعُ الظلماتُ إلى النورِ الهادي - جلَّ جلالُه - أصلًا لا وصفًا، و[لا][1] ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنما ترجعُ إلى مفعولاتِه سبحانَه، فهو جاعلُ الظلماتِ، ومفعولاتُه متعدِّدةٌ متكثرةٌ.

بخلافِ النورِ؛ فإنه يَرْجِعُ إلى اسمِه وصفتِه - [جلَّ جلالُه و][2] تعالى أن يكونَ كمثلِه شيءٌ -[3] فهو[4] نورُ السماواتِ والأرضِ.

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه[5]: «ليسَ عندَ ربِّكُم ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السماواتِ والأرضِ من نورِ وَجْهِهِ»، ذكره الدارميُّ عنه[6]، وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قلت: «يا

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في س زيادة: «وهو السميع البصير». (٤) في س: «وهو».

(٥) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب، أبو عبد الرحمن الهذلي، حليف بني زهرة، أسلم قديما قبل عمر، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عند البيت، وقريش في أنديتها، فقاموا إليه فضربوه، ولزم النبي ﷺ بعد أن أسلم، وكان يحمل نعليه وسواكه، وكان يقال له: «صاحب السواك والسواد» - والسواد: السرار -، وشهد بدرا، وبقية المشاهد، توفي سنة اثنتين وثلاثين عن بضع وستين سنة، ودفن بالبقيع. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٢٣٣)، «البداية والنهاية» (١٠/ ٢٤٩).

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٧٩)، رقم (٨٨٨٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٧٧)، رقم (١٤٧) وتمامه: «وإن مقدار كل يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة، فيعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار واليوم فيها ثلاث ساعات، فيطلع فيها على ما يكره فيغضب لذلك، فأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة، فينفخ جبريل في القرن، فلا يبقى شيء إلا يسبحه غير الثقلين، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن عز وجل رحمة. فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بما =

رسولَ اللهِ، هلْ رأيتَ ربَّك؟». قال: «**نورٌ، أنَّى أراه**»[(١)]؟!

والمقصودُ أنَّ الطريقَ إلى اللهِ تعالى واحدٌ؛ فإنه [هو][(٢)] الحقُّ المبينُ، والحقُّ واحدٌ، مرجعُه إلى واحدٍ.

وأما الباطلُ والضلالُ فلا ينحصرُ، بل كلُّ ما سواه باطلٌ، وكلُّ طريقٍ إلى الباطلِ باطلٌ[(٣)]، فالباطلُ متعدِّدٌ، وطرقُه متعدِّدة[(٤)].

وأما ما يقعُ في كلامِ بعضِ العلماءِ أَنَّ الطريقَ إلى اللهِ متعددةٌ متنوعةٌ، جعلها اللهُ كذلك؛ لتنوعِ الاستعداداتِ واختلافِها رحمةً منه وفضلًا: فهو صحيحٌ، لا ينافي ما ذكرناه من وحدةِ الطريقِ.

= في الأرحام، فينظر فيها ثلاث ساعات، فيصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو بكل شيء عليم، فتلك ثنتا عشرة ساعة. ثم قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]، هذا من شأنكم وشأن ربكم ﷻ».

وأخرجه الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (١/ ٤٧٥) مختصرا إلى قوله: «والملائكة المقربون وسائر الملائكة»، وابن مندة في «الرد على الجهمية» (ص/ ٩٩) إلى قوله: «نور السماوات من نور وجهه»، وقال: «وذكر الحديث بطوله» اهـ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص/ ٣١١) إلى قوله: «نور السماوات من نور وجهه»، ولم يشر إلى باقي الأثر، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٣) بطوله إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وأبي نعيم في «الحلية».

ومدار الأثر على الزبير بن جواتشير، أبي عبد السلام البصري، قال في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٥): «رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه أبو عبد السلام، قال أبو حاتم: مجهول، وذكره ابن حبان في «الثقات» اهـ، وشيخه فيه هو أيوب بن عبد الله بن كرز العامري القرشي الخطيب، قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٩٠): «تابعي كبير، قال ابن عدي: له حديث لا يتابع عليه» اهـ، وقال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص/ ١١٨)، رقم (٦١٧): «مستور من الثالثة» اهـ.

ومع هذا ففي متنه غرابة إلا قوله: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه»؛ فقد جاء ما يشهد له، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٤٧)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (١٧٨)، (١/ ١٦١).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٣) في ك: «فهو باطل»، وفي س: «فهي باطل».

(٤) تكلم المؤلف في «بدائع الفوائد» (١/ ١١٩-١٢٣) على سر إفراد النور وجمع الظلمات، وإفراد سبيل الحق وجمع سبل الباطل، وإفراد اليمين وجمع الشمائل... الخ فلينظر؛ فإنه بديع، وانظر أيضا: «مدارج السالكين» (١/ ٢١).

وكشفُ ذلك وإيضاحُه: أن الطريقَ - وهي واحدةٌ[١] - جامعةٌ لكل ما يُرْضِي اللهَ.

وما يُرضِيه سبحانَه متعدِّدٌ متنوِّعٌ، فجميعُ ما يُرضيه طريقٌ واحدٌ، ومراضيه متعددةٌ متنوعةٌ بحسبِ الأزمانِ، والأماكنِ، والأشخاصِ، والأحوالِ، وكلُّها طرقُ مرضاتِه[٢].

فهذهِ هي التي جعلها اللهُ سبحانَه برحمتِه وحكمتِه كثيرةً متنوِّعةً جدًّا؛ لاختلافِ استعداداتِ العبادِ وقوابلِهم.

ولو جَعَلَها نوعًا واحدًا مع اختلافِ الأذهانِ والعقولِ وقوةِ الاستعداداتِ وضَعْفِها؛ لم يسلكْها إلا واحدٌ بعد واحدٍ، ولكن لما اختلفتِ الاستعداداتُ؛ تنوعتِ الطرقُ؛ ليسلكَ كلُّ امرئٍ إلى ربِّه طريقًا يقتضيها استعدادُه وقوتُه وقبولُه[٣].

حكمةُ تنوعِ الشرائعِ

ومنْ هنا يُعلمُ تنوعُ الشرائعِ واختلافُها مع رجوعِها كلِّها إلى دينٍ واحدٍ، بل تنوُّعُ الشريعةِ الواحدةِ مع وحدةِ المعبودِ ودينِه..

ومنه الحديثُ المشهورُ: **«الأنبياءُ أولادُ علاتٍ؛ دينُهم واحدٌ»**[٤]، فأولادُ[٥]

---

(١) في ك و س: «أن الطريق هي واحدة»، وفي ع: «أن الطريق واحدة».

(٢) في س: «فكلها طرق مرضاته»، وفي ك: «وكلها طريق مرضاته».

(٣) قال المؤلف في «حادي الأرواح» (ص/ ٦٤): «. . . فإن قيل: فقد قال الله -تعالى-: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة ١٥-١٦] قيل: هي سبل تجمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي «شعب الإيمان»، يجمعها الإيمان، وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره، وطاعة أمره. وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها، ليس إلا. اهـ.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣١٩)، (٤٠٦)، (٤٣٧)، (٤٦٣)، (٤٨٢)، (٥٤١)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٣٤٤٢)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٢٣٦٥)، وأبو داود في «سننه»، رقم (٤٦٧٥): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أنا أولى الناس بابن مريم؛ الأنبياء أولاد علات، وليس بيني وبينه نبي»**، وفي لفظ لأحمد ومسلم: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»**، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **«الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي»**، وفي لفظ لأحمد والبخاري: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات: أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»**.

(٥) في س: «فإن أولاد».

العلات: أَنْ يكونَ الأبُ واحدًا، والأمهاتُ متعددةً(١)، فشبَّه دينَ الأنبياءِ بالأبِ الواحدِ، وشرائِعَهم بالأمهاتِ المتعددةِ؛ فإنها - وإن تعددت - فمرجعُها كلِّها إلى أبٍ واحدٍ(٢).

---

(١) أولاد العلات: أولاد الرجل من نسوة شتى، اختلف في وجه هذه التسمية؛ فقيل: سموا بذلك؛ لأن الذي تزوج امرأة على أولى قد كانت قبلها ناهلا، ثم عل من هذه، والعلل هو الشرب بعد الشرب. وقيل: سموا بذلك؛ لأنهم أولاد ضرائر، والعلات هن الضرائر، كل واحدة ضرة للأخرى. قال المؤلف في «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٠١): «. . . وهذا الثاني أظهر» اهـ. وانظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٩١)، «لسان العرب» (١١/ ٤٧٠)، «القاموس»، (ص/١٠٤٦)، (١٣٣٨)، (١٥٧٢)، «فتح الباري» (٦/ ٥٦٤)، «شرح مسلم» (١٥/ ١١٩) للنووي.

(٢) في ك: «فمرجعها إلى أب واحد كلها»، وقد اختلف في معنى حديث: «**الأنبياء أولاد علات...**»:

-فقال القاضي عياض في «إكمال المعلم بفوائد مسلم» (٧/ ٣٣٧): «. . . الظاهر في معناه: أن الأنبياء يختلفون في زمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، وبين بعضهم وبعض أنبياء أخر -وإن شملتهم النبوة-، وكأنهم أولاد علات؛ إذ لم يجمعهم زمن واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد، وعيسى لما كان قريب الزمن منه، ولم يكن بينهما نبي فكأنهما في زمن واحد، وابنا أم واحدة، فكانا بخلاف غيرهما، فلذلك قال: «أنا أولى به»، وفسر بقوله: «ليس بيني وبينه نبي» اهـ. وقال القرطبي في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٦/ ١٧٦) - بعد ما نقل كلام القاضي عياض هذا-: «. . . قلت: وهذا أشبه ما قيل في هذا الحديث». اهـ.

وقال المؤلف في «بدائع الفوائد» (٣/ ٢١٠): «. . . وفيه وجه آخر أحسن من هذا، وهو: أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه بالأب الواحد؛ لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم، فقال - تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣] . . .، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح، إلى خاتمهم محمد ﷺ. فهو بمنزلة الأب الواحد، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى، . . . فهذا أولى المعنيين بالحديث. وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم، ويجعلوا مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزلة الدين، وأصالة هذا وتذكيره، وفرعية الأم وتأنيثها، واتحاد الأب، وتعدد الأم يدل على أنه معنى الحديث، والله أعلم . اهـ.

وما استحسنه المؤلف هنا هو اختيار شيخه ابن تيمية رحمه الله، وهو قول جمهور العلماء انظر: «عمدة القاري شرح «صحيح البخاري» (١٦/ ٣٦) للعيني، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٨-٣٨٢)، «التوشيح شرح الجامع الصحيح» (٥/ ٢٢٢٢) للسيوطي.

وإذا عُلِمَ هذا فمن الناسِ من يكونُ سيدُ عملِه وطريقِهِ الذي تعبدَ بسلوكِه إلى اللهِ[(١)] **طريقَ العلمِ والتعليمِ**، قد وَفَّرَ عليه زمانَه، مبتغيًا به وجهَ اللهِ، فلا يزالُ كذلك، عاكفًا على طريقِ العلمِ والتعليمِ حتى يصلَ من تلك الطريقِ إلى اللهِ، ويفتحَ له فيها الفتحَ الخاصَّ، أو يموتَ في طريقِ طلبِه، فيُرجى له الوصولُ إلى مطلبِه بعدَ مماتِه، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠].

وقد حُكِي عن جماعةٍ كثيرةٍ ممن أدركه الأجلُ - وهو حريصٌ، طالبٌ للقرآنِ[(٢)] - أنه رؤي بعد موتِه، وأَخْبَرَ أنه في تكميلِ مطلوبِه، وأنه يتعلمُ في البرزخِ؛ فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاشَ عليه.

ومن الناسِ من يكونُ سيدُ عملِه الذكرَ؛ قد[(٣)] جعله زادَه لمعادِه، ورأسَ مالِه لمآلِه، فمتى فتَر عنه، أو قصَّر [فيه][(٤)]؛ رأى أنه قد غُبِن وخُسِرَ. **ومن الناسِ من يكونُ سيدُ عملِه وطريقِهِ الصلاةَ**، فمتى قصَّر في وِرْدِه منها[(٥)]، أوِ مضى عليه وقتٌ وهو غيرُ مشغولٍ بها، أو مستعدٍ لها؛ أظلمَ [عليه][(٦)] وقتُه، وضاقَ صدرُه. **ومنَ الناسِ من يكونُ طريقِهِ الإحسانَ والنفعَ المتعديَ**، كقضاءِ الحاجاتِ، وتفريجِ الكُرباتِ، وإغاثةِ اللهفاتِ، وأنواعِ الصدقاتِ، قد فُتِحَ له في هذا، وسلكَ منه طريقًا إلى ربِّه. **ومن الناسِ من يكونُ طريقُه تلاوةَ القرآنِ**؛ فهي[(٧)] الغالبُ على أوقاتِه، وهي أعظمُ أورادِه. **ومنهم من يكونُ طريقُه الصومَ**، فهو متى أفطر تَغَيَّرَ عليه قلبُه، وساءت حالُه. **ومنهم من يكونُ طريقُه الأمرَ بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكرِ**؛ قد فُتح له فيه[(٨)]، ونفذ منه إلى ربِّه. **ومنهم من يكونُ طريقُه الذي نَفَذَ فيه الحجَّ والاعتمارَ**، ومنهم من يكونُ طريقُه قطعَ العلائقِ[(٩)]، وتجريدَ

(١) في ك: «الذي تعبد سلوكه إلى الله».
(٢) في س: «وهو حريص على طلب القرآن».
(٣) في ك: «وقد».
(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك، وفي س: «عنه».
(٥) في ع: «في ورد منها».
(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٧) في ك و س: «وهي».
(٨) في ك و س: «قد فتح الله له فيه».
(٩) قال المؤلف في «الفوائد» (ص/ ١٩٠): «... والعلائق: هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها» اهـ، وقال أيضا في المرجع السابق (ص/ ٢٠٢): «... وأما العلائق: فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله، من ملاذ الدنيا، وشهواتها، ورياساتها، وصحبة الناس، والتعلق بهم» اهـ.

الهمةِ، ودوامَ المراقبةِ، ومراعاةَ الخواطرِ، وحفظَ الأوقاتِ أن تذهبَ ضائعةً.

ومنهم الجامعُ الفذُّ السالكُ إلى اللهِ في كلِّ وادٍ، الواصلُ إليه من كلِّ طريقٍ، فهو [قد][(١)] جعل وظائفَ عبوديتِه قِبلَةَ قلبِه، ونَصْبُ عينيه؛ يؤمُّها أين كانت، ويسيرُ معها حيثُ سارت، قد ضَرَب مع كلِّ فريقٍ بسهمٍ، فأين كانتِ العبوديةُ؛ وجدتَّه هناك؛ إن كان علمٌ وجدتَّه مع أهلِه، أو جهادٌ وجدتَّه في صَفِّ المجاهدين، أو صلاةٌ وجدتَّه في القانتين، أو ذِكْرٌ وجدتَّه في الذاكرين، أو إحسانٌ ونفعٌ وجدتَّه في زُمرةِ المحسنين، أو مراقبةٌ ومحبةٌ وإنابةٌ إلى اللهِ وجدتَّه في زمرةِ المحبين المنيبين؛ يدينُ بدينِ العبوديةِ أنَّى استقلتْ ركائِبُها، ويتوجَّه إليها حيثُ استقرتْ مضاربُها.

لو قيل له: ما تريدُ من الأعمالِ؟

لقال: «أريدُ أن أنفذَ أوامرَ ربي حيثُ كانت، [وأين كانت][(٢)]، جالبةً ما جلبتْ، مقتضيةً ما اقتضتْ، جمعْتني أو فرَّقتني، ليس لي مرادٌ إلا تنفيذُها والقيامُ بأدائِها، مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروحِ والقلبِ والبدنِ والسرِّ، قد سلمت إليه المبيعَ منتظرًا منه[(٣)] تسليمَ الثمنِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية ١١١]، فهذا هو العبدُ السالكُ إلى ربِّه، النافذُ إليه حقيقةً.

ومن النفوذِ إليه[(٤)] أن يتصلَ به قلبُه، ويعلقَ[(٥)] به تعلقَ المحبِّ التامِّ المحبةِ بمحبوبِه[(٦)]، فيسْلُو[(٧)] به عن جميعِ المطالبِ سواه، فلا يبقى في قلبِه إلا اللهُ وأمرُه، وطلبُ التقريبِ إليه[(٨)].

فإذا سلك العبدُ على هذا الطريقِ؛ عطف عليه ربُّه، فَقَرَّبَهُ، واصطفاهُ، وأخذَ بقلبِه إليه، وتولاه في جميعِ أمورِه؛ في معاشِه ودينِه، وتولى تربيتَه أحسنَ وأبلغَ مما يُربِّي الوالدُ الشفيقُ ولَدَه؛ فإنه سبحانَه القيومُ المقيمُ لكلِّ شيءٍ من المخلوقاتِ؛ طائعِها،

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.
(٢) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٣) في س: «منتظر منه».
(٤) في باقي النسخ: «ومعنى النفوذ إليه». وهو أظهر.
(٥) في س: «ويتعلق».
(٦) في ع: «لمحبوبه».
(٧) في ع: «فيسلوا» -بالألف-، سبق ذكر القاعدة في ذلك.
(٨) في ع: «فلا يبقى في قلبه إلا الله وأمره، وطلب التقرب إليه»، وفي ك و س: «فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله وأمره، وطلب التقرب إليه».

وعاصيها، فكيف تكونُ قيوميتُه(١) بمن أحبَّه وتولّاه وآثرَه على ما سواه(٢)، [ورضِي به](٣) من الناسِ حبيبًا وربًّا ووكيلًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا؟!.

فلو كشفَ الغطاءَ عن ألطافِه(٤) وبِرِّه وصُنعِه له من حيثُ يعلمُ، ومن حيثُ لا يعلمُ؛ لذابَ قلبُه حبًّا له(٥)، وشوقًا إليه، وتقطَّع شكرًا له، ولكن حَجَبَ القلوبَ عن مشاهدةِ ذلك إخلادُها إلى عالمِ الشهواتِ، والتعلقُ(٦) بالأسبابِ، فصُدتْ عن كمالِ نعيمِها، وذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ، وإلا فأيُّ قلبٍ يذوقُ حلاوةَ معرفةِ اللهِ ومحبتِه، ثم يركنُ إلى غيرِه، ويسكنُ إلى سواه؟!(٧)، هذا ما لا يكونُ أبدًا.

ومن ذاق شيئًا من ذلك، وعرفَ طريقًا(٨) موصلةً إلى اللهِ، ثم تركَها، وأقبل على إرادتِه(٩) وراحاتِه وشهواتِه ولذَّاتِه؛ وقعَ في آبارِ(١٠) المعاطبِ، وأوْدع قلبَه سجونَ المضايقِ، وعُذِّب في حياتِه عذابًا لم يُعذَّبْ به أحدٌ من العالمين(١١)؛ فحياتُه عجزٌ وغَمٌّ

---

(١) القيوم: فيعول من: «قام، يقوم»، وهو من أوصاف المبالغة. وأصله: «قيووم» قلبت الواو الأولى ياء؛ لسكون الياء قبلها، وأدغمت الأولى في الثانية، فقيل: قيوم، قال مجاهد: «هو القائم على كل شيء»، وقال الربيع: «القيوم: قيم كل شيء: يكلؤه، ويرزقه، ويحفظه»، وقال الحسن: «القيوم: الذي لا زوال له»، وقال السدي: «هو القائم»، وقال الضحاك: «القائم الدائم»، وقيل: «هو الذي لا ينام»، وقيل: «الذي لا بديل له»، واختار المؤلف وجماعة: أنه يشمل ذلك كله، قال في «مدارج السالكين» (٢/ ١١٦): «... هو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد، وقام كل شيء به، فكل ما سواه محتاج إليه بالذات» اهـ، وقال في «الكافية الشافية» (ص/ ١٤٦):

هذا ومن أوصافه القيوم والـ ... قيوم في أوصافه أمران
إحداهما القيوم قام بنفسه ... والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كل إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شأن كذا ... موصوفه أيضا عظيم الشان اهـ

انظر: «جامع البيان» (٣/ ٤)، (١٦٣)، «اشتقاق أسماء الله» (ص/ ١٠٥) للزجاجي، «مدارج السالكين» (٣/ ٢١٤)، (٢٨٠)، «مختصر الصواعق المرسلة» (١/ ٢٧٨)، «فتح القدير» (١/ ٢٧١)، «موسوعة: له الأسماء الحسنى» (١/ ٣٣٠) للشرباصي، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣١٣).

(٢) في ع: «وآثره عليها سواه». (٣) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٤) في ع: «ألطافه به». (٥) في ك و س: «محبة له».
(٦) في ع: «والتعليق». (٧) في باقي النسخ: «إلى ما سواه».
(٨) في ع: «طريقة». (٩) في ع: «على إراداته». (١٠) في ك و س: «في آثار».
(١١) في ع: «لم يعذبه أحد من العالمين»، وفي ك: «لم يعذب به أحدا من العالمين».

وحزنٌ، وموتُه كمدٌ[١] وحسرةٌ[٢]، ومعادُه أسفٌ وندامةٌ[٣]، قد فُرِطَ عليه أمرُه، وَشُتِّتَ عليه شَمْلُه، وأُحْضِرَتْ نفسُه الغمومَ والأحزانَ، فلا لذةَ الجاهلين، ولا راحةَ العارفين، يستغيثُ فلا يغاثُ، ويشتكي فلا يُشكى، قد ترحلتْ أفراحُه وسرورُه[٤] مُدْبِرَةً، وأقبلتِ آلامُه وأحزانُه وحسراتُه مقبلةً، فقد أبدلَ[٥] بأنسِه وحشةً، وبعزِّه ذلًّا، وبغناه فقرًا، وبجمعيته تشتتًا:

وأبعدُوه فلم يظفرْ بِقُربِهِمُ … وأَبدَلُوه مكانَ الأنس إيحاشا[٦]

ذلك بأنه عَرِفَ طريقَه إلى اللهِ، ثم تركها ناكبًا عنها، [مكبًّا][٧] على وجهِه، فأبصرَ ثم عَميَ، وعرفَ ثم أنكرَ، وأقبلَ ثم أدبرَ، ودُعِي فما أجاب، وفُتِحَ له فَوَلَّى ظهرَه البابَ.

قد تركَ طريقَ مولاه، وأقبلَ بكلِّيَّتِه على هواه، فلو نالَ بعضَ حظوظِه، وتلذَّذَ براحاتِه[٨] وشؤونِه فهو مقيدُ القلبِ عن انطلاقِه في فسحِ التوحيدِ[٩]، وميادينِ الأنسِ، ورياضِ المحبةِ، وموائدِ القربِ.

قد انحطَّ بسببِ إعراضِه عن إلهه الحقِّ إلى أسفلِ سافلين، وحصلَ في عدادِ الهالكين، فنارُ الحجابِ تطَّلعُ كلَّ وقتٍ على فؤادِه، وإعراضُ الكونِ عنه - إذ أعرضَ ربُّه[١٠] - حائلٌ بينه وبين مرادِه، قبرٌ يمشي على وجهِ الأرضِ، فروحُه في وحشةٍ من

(١) في س: «كد». والكمد -بالفتح مع سكون الميم أو تحريكها-، والكمدة: تغير اللون، وذهاب صفائه، والحزن الشديد المكتوم، ومرض القلب منه، يقال: «كمد ك: «فرح» فهو كامد وكمد وكميد، وأكمده فهو مكمود». انظر: «الصحاح» (٢/ ٤٦٤)، «القاموس» (ص/ ٤٠٣).

(٢) الحسرة: أشد التلهف على الشيء الفائت، يقال: «حسر على الشيء ك: «فرح» يحسر حسرا وحسرة، فهو حسير». والتحسر: التلهف. انظر: «الصحاح» (٢/ ٥٤٦)، «القاموس» (ص/ ٤٧٩).

(٣) الأسف: يكون على الفائت من فعل الإنسان ومن فعل غيره. والندم يتعلق بفعل النادم دون غيره. انظر: «الكليات» (ص/ ٣١١).

(٤) ذكر القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١١١): أن الفرح في القلب، والسرور في العين. وانظر: «الكليات» (ص/ ٥٠٨).

(٥) في ك: «قد بدل»، وفي س: «وأبدل».

(٦) لم أجده.

(٧) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٨) في ك: «براحته».

(٩) في ك و س: «في فسيح التوحيد».

(١٠) في ع و ك: «إذ أعرض عنه ربه»، وفي س: «إذا أعرض عن ربه».

جسمِه، وقلبُه في ملالٍ من حياتِه[١]، يتمنى الموتَ ويشْتهيه ولو كانَ فيه ما فيه، حتى إذا جاءَهُ الموتُ على تلك الحالِ - والعياذُ باللهِ - فلا تسألْ عما يَحِلُّ به من العذابِ الأليمِ؛ بسببِ وقوعِ الحجابِ بينه وبين مولاه الحقِّ، وإحراقِه بنارِ البعدِ عن قربِهِ والإعراضِ عنه، وقد حِيل بينه وبين سعادتِه وأمنيتِه.

فلو توهَّم العبدُ المسكينُ هذه الحالَ، وصوَّرَتْها له نفسُه، وأرتْه إياها على حقيقتِها؛ لتقطَّع - واللهِ - قلبُه، ولم يلتذَّ بطعامٍ ولا شرابٍ، ولخرجَ إلى الصعداتِ[٢] يجأرُ إلى اللهِ[٣]، ويستغيثُ به، ويستعتبُه[٤] في زمنِ الاستعتابِ.

هذا مع أنه إذا[٥] آثرَ شهواتِه ولذاتِه الفانيةَ التي هي كخيالِ طيفٍ[٦]، أو مُزنةِ[٧] صيفٍ - نغَّصَت[٨] عليه لذتُها أحوجَ ما كان إليها، وحيل بينه وبينها أقدرِ ما كان عليها.

---

(١) في ع: «قبر يمشي على وجه الأرض، فروحه في وحشة في جسمه، وقلبه في ملل من حياته»، وفي ك: «فهو يمشي على وجه الأرض، وروحه في وحشة في جسمه، وقلبه في هلاك من حياته»، وفي س: «فهو قبر يمشي على وجه الأرض، فروحه في وحشة في جسمه، وقلبه في هلاك من حياته».

(٢) الصعدات: جمع صعد، وصعد جمع صعيد، ك: «طريق وطرق وطرقات»، وهو وجه الأرض، والتراب. وقيل: هو جمع صعدة، ك: «ظلمة وظلمات»، وهي: فناء باب الدار، وممر الناس بين يديه انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٩)، «الصحاح» (٢/ ٤٣٤)، «القاموس» (ص/ ٣٧٤).

(٣) جأر ك: «منع» يجأر، جأرا وجؤارا ك: «خوار»: أي: رفع صوته بالدعاء، وتضرع، واستغاث. انظر: «الصحاح» (٢/ ٥٢٨)، «القاموس» (ص/ ٤٥٩).

(٤) أي: يطلب منه -تعالى- إزالة عتبه عليه. والعتب: الغضب والإعراض والملامة، يقال: «عتبه، يعتبه عتبا، وعتب عليه، يعتب ويعتب عتبا ومعتبا»، والاسم: المعتبة، والمعتبة -بالفتح وبالكسر-. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ١٧٥)، «الصحاح» (١/ ١٥٧)، «القاموس» (ص/ ١٤٣)، «بدائع الفوائد» (٤/ ١٨١).

(٥) في س: «مع أنه إذ». والمثبت أحسن.

(٦) الخيال والخيالة: ما تشبه للإنسان في اليقظة والمنام من صورة، جمعه: أخيلة، والطيف: مصدر: «طاف، يطيف طيفا ومطافا، ويطوف طوفا، فهو طائف»، ويسمى بالمصدر، ولا يقال إلا فيما كان في حال النوم، انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٩٣)، (٣/ ١٥٣)، «الصحاح» (٤/ ١٣٨٤)، (٣/ ١١٥٥)، «القاموس» (ص/ ١٠٧٨)، (١٢٨٨)، «الكليات» (ص/ ٤٣١).

(٧) المزنة -بالضم-: القطعة من السحاب، والجمع: مزن، انظر: «الصحاح» (٥/ ١٧٦٥)، «القاموس» (ص/ ١٥٩٣).

(٨) في س: «نغضت».

وتلك سنةُ اللهِ في خلقِه كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٤](١)، وهذا هو غِبُّ(٢) إعراضِه وإيثارِه شهوتَه على مرضاةِ ربِّه، فيعوِّق القدرُ عليه أسبابَ مرادِه، فيخسرُ الأمريْن جميعًا، فيكونُ معذَّبًا في الدنيا بتنغيصِ شهواتِه، وشدَّةِ اهتمامِه بطلبِ ما لم يُقْسَمْ له، وإن قُسِم له منه شيءٌ فحشوُهُ الخوفُ والحزنُ والنكدُ والألمُ(٣)، فَهَمٌّ لا ينقطعُ، وحسرةٌ لا تنقضي، وحرصٌ لا ينفدُ، وذلٌّ لا ينتهي، وطمعٌ لا يقلعُ(٤).

هذا في هذهِ الدارِ.

وأما(٥) في البرزخِ فأضعافُ أضعافِ ذلك؛ قد حيلَ بينه وبين ما يشتَهِي، وفاتَهُ ما كان يتمناه من قربِ ربِّه، وكرامتِه، ونيلِ ثوابِه، وأُحْضِرَ جميعَ غمومِه وأحزانِه.

[و](٦) أما في دارِ الجزاءِ فسجنُ أمثالِه من المبعودين(٧) المطرودين. فواغوثَاهُ، ثم واغوثاه بغياثِ المستغيثين(٨)، وأرحمِ الراحمين!

فمن(٩) أعرضَ عن اللهِ بالكليةِ؛ أعرض اللهُ عنه بالكليةِ، ومن أعرضَ اللهُ عنه؛ لزمَهُ الشقاءُ والبؤسُ والبخسُ في أحوالِه وأعمالِه، وقارنَهُ سوءُ الحالِ وفسادُه في دنياه ومآلِه(١٠)؛ فإنَّ الربَّ تعالى إذا أعرضَ عن جهةٍ؛ دارتْ بها النحوسُ، وأظلمتْ أرجاؤُها، وانكسفتْ أنوارُها، وظهرَ عليها وحشةُ الإعراضِ، وصارتْ مأوىً للشياطينِ، هدفًا(١١) للشرورِ، ومصبًّا للبلاءِ، فالمحرومُ كلَّ المحرومِ من عرف طريقًا

---

(١) قال المؤلف على هذه الآية «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٣): «. . . شبه -سبحانه- الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها، قادر عليها؛ سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، وشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرا منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء. . .» اهـ.

(٢) الغب -بالكسر- والمغبة -بالفتح-: عاقبة الشيء. انظر: «الصحاح» (١/ ١٧٠)، «القاموس» (ص/ ١٥٢).

(٣) في ك: «والآلام». (٤) في ع: «وطمع لا ينقطع». (٥) في ك: «فأما».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٧) في س: «من المبعدين». (٨) في س: «المستغيث».

(٩) في س: «ومن». (١٠) في س: «في دينه ومآله». (١١) في ك و س: «وهدفا».

إليه، ثم أعرضَ عنها، أو وجَدَ[١] بارقةً من حبِّه، ثم سُلِبها، لم ينفذْ إلى ربِّه منها، خصوصًا إذا مالَ بتلك الإرادةِ إلى شيءٍ من اللذاتِ، أو انصرفَ[٢] بجملتِه إلى تحصيلِ الأغراضِ[٣] والشهواتِ، عاكفًا على ذلك في ليلِه ونهارِه، وغدوِّه ورواحِه، هابطًا من الأوجِ الأعلى إلى الحضيضِ الأدنى، قد مضت عليه برهةٌ من أوقاتِه، وكان همُّه اللهَ، وبغيتُه قربَه ورضاه وإيثارَه على كلِّ ما سواه، على ذلك يُصبحُ ويُمسي، ويظلُّ ويُضحي، وكان اللهُ في تلك الحالِ وليَّه؛ لأنه وليُّ من تولَّاه، وحبيبُ من أحبَّهُ ووالاه، فأصبح [في][٤] سجنِ الهوى ثاويًا، وفي أسرِ العدو مقيمًا، وفي بئرِ المعصيةِ ساقطًا، وفي أوديةِ[٥] الحيرةِ والتفرقةِ هائمًا، معرضًا عن المطالبِ العاليةِ إلى الأغراضِ[٦] الخسيسةِ الفانيةِ، كان قلبُه يحومُ[٧] حولَ العرشِ، فأصبحَ محبوسًا في أسفلِ الحُشِّ:

فأصبح كالبازيِّ المنتِّفِ ريشهُ ... يرى حسراتٍ كلَّما طارَ طائرُ
/ يرى طائراتِ الجو يخفقن في الهوى ... فيذكر ريشًا من جناحيه وافرُ/ [٨]
وقد كان دهرًا في الرياض منعمًا ... على كل ما يهوى من الصيد قادرُ
إلى أن أصابته من الدهرِ نكبةٌ ... إذا هو مقصوصُ الجناحَينْ حَاسِرُ[٩]

فيا من ذاق شيئًا من معرفةِ ربِّه ومحبَّتِه، ثم أعرضَ عنها، واستبدلَ بغيرِها منها، يا عجبًا له؛ بأيِّ شيءٍ تَعَوَّضَ؟! وكيف [قَرَّ][١٠] قرارُه؟! فما[١١] طلب الرجوعَ إلى أحبَّتِه[١٢]، وما تَعَرَّض.

وكيف اتخذ سوى أحبَّتِه سكنًا[١٣]، وجعل[١٤] قلبَه لمن عاداه مولاه من أجلِه موطنًا؟![١٥]

---

(١) في س: «ووجد». (٢) في ك و س: «وانصرف».
(٣) في ك: «الأعراض» -بالعين المهملة. (٤) ما بين المعقوفين ليس في ك.
(٥) في ك: «وفي أدوية»، وفي الهامش: «لعله: أودية». (٦) في ك: «الأعراض» - بالمهملة.
(٧) في ك و س: «يحول». (٨) ما بين القائمين ليس في الأصل وع و ك، وهو في س.
(٩) في س: «فأصبح مقصوص الجناحين حاسر»، والأبيات لم أجدها.
(١٠) ما بين المعقوفين ليس في س. (١١) في س: «وما». (١٢) في ك و س: «إلى آخيته».
(١٣) في ك و س: «سوى آخيته مسكنا». (١٤) في ك: «أو دخل».
(١٥) في باقي النسخ: «وطنا».

أم كيف طاوعَهُ قلبُه على الاصطبارِ، ووافقَهُ على مساكنةِ الأغيارِ؟.[١]

فيا معرضًا عن حياتِه الدائمةِ، ونعيمِه المقيمِ، ويا بائعًا سعادتَه العُظْمى بالعذابِ الأليمِ، ويا مَسْخِطًا مَنْ حياتُه وراحتُه وفوزُه في رضاه، وطالبًا[٢] رضى مَنْ سعادتُه في إرضاءِ سواه، إنما هي لذةٌ فانيةٌ، وشهوةٌ منقضيةٌ، تذهبُ لذتُها[٣]، وتبقى تبعاتُها فرحُ ساعةٍ لا شهرٍ، وغَمُّ سنةٍ بل دهرٍ، طعامٌ لذيذٌ مسمومٌ، أولُه لذَّةٌ، وآخرُه هلاكٌ، فالعاملُ عليها، والساعي في تحصيلِها كدودةِ القزِّ؛ يسدُّ على نفسِه المذاهبَ[٤] بما نسجَ عليها من المعاطبِ، فيندمُ حين لا تنفعُ الندامةُ، ويستقيلُ حين لا تقبلُ الاستقالةُ.

فطوبى لمن أَقْبَلَ على اللهِ بكليَّتِه، وعكفَ عليه بإرادتِه ومحبَّتِه؛ فإنَّ اللهَ يُقبِلُ عليه بتولِّيهِ ومحبَّتِه وعطفِه ورحمتِه.

وإن اللهَ سبحانه إذا أقبلَ على عبدٍ؛ استنارتْ جهاتُه، وأشرقتْ ساحتُها، وتنورتْ ظلماتُها، وظهرَ عليه آثارُ إقبالِه من بهجةِ الجلالِ، وآثارِ الجمالِ، وتوجَّه إليه أهلُ الملأ الأعلى بالمحبةِ والموالاةِ؛ لأنهم تبعٌ لمولاهم، فإذا أحبَّ عبدًا أحبُّوه، وإذا والى وليًّا وَالُوه، «**إذا**[٥] **أحبَّ اللهُ العبدَ نادى: يا جبريلُ**[٦]**، إني أحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيُنادي جبريلُ في السماءِ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماءِ، ثم يحبُّه أهلُ الأرضِ، فيوضعُ له القبولُ بينهم**»[٧]، ويجعلُ اللهُ قلوبَ أوليائِه تفدُ إليه بالودِّ والمحبةِ

(١) في س: «على مساكنة الأغيار». (٢) في س: «وطلب». والمثبت أحسن.

(٣) في ك و س: «لذاتها». (٤) في ك: «تسد على نفسها المذاهب».

(٥) في س: «وإذا».

(٦) في س: «يا جبرائيل». وكلاهما لغة فيه. انظر: «القاموس» (ص/ ٤٦٠).

(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥١٤)، والبخاري في رقم (٣٢٠٩)، ورقم (٧٤٨٥)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٧١١١)، والترمذي، رقم (٥١٧١) من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانا، فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**». زاد الترمذي: «**فذلك قول الله**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: الآية ٩٦].

والرحمةِ.

وناهيك بمن[١] يتوجَّه إليه مالكُ الملكِ، ذو الجلالِ والإكرامِ بمحبَّته، ويقبلُ عليه بأنواعِ كرامتِه، ويلحظُه الملأُ الأعلى، وأهلُ الأرضِ بالتبجيلِ والتكريمِ، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

قاعدةٌ

القوتان: العلميةُ والعمليةُ وفائدتُهما

السائرُ إلى اللهِ تعالى والدارِ الآخرةِ - بل كلُّ سارٍ إلى مقصدٍ - لا يتمُّ سيرُه، ولا يصلُ إلى مقصودِه إلا بقوتين: قوةٍ علميةٍ، وقوةٍ عمليةٍ.

فبالقوةِ العلميةِ يبصرُ منازلَ الطريقِ، ومواضعَ السلوكِ، فيقصدَها سائرًا فيها، ويجتنبَ أسبابَ الهلاكِ ومواضعَ العطبِ، وطرقَ المهالكِ المنحرفةِ عن الطريقِ الموصِلِ.

فقوتُه العلميةُ كنورٍ عظيمٍ بيدِه، يمشي [به][٢] في ليلةٍ مظلمةٍ، شديدةِ الظلمةِ، فهو يُبْصرُ بذلك النُّورِ ما يقعُ الماشي في الظلمةِ في مثلِه؛ من الوِهَادِ[٣]، والمتالِفِ[٤]، ويَعْثُر به؛ من الأحجارِ، والشوكِ، وغيرِه، ويُبْصِر بذلك النورِ أيضًا أَعلامَ الطريقِ، وأدلَّتَها المنصوبةَ عليها، فلا يَضلُّ عنها.

فيكشفُ له النورُ عن الأمريْن: أعلامِ الطريقِ، ومعاطبِها[٥]، وبالقوةِ العمليةِ يسيرُ حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقةُ القوةِ العمليةِ؛ فإنَّ السيرَ هو عملُ المسافرِ.

وكذلك السائرُ إلى ربِّه، إذا أبصر الطريقَ، وأعلامَها[٦]، وأبصرَ المعاثِرَ[٧] والوهادَ والطرقَ الناكبةَ عنها؛ فقد حصل له شطرُ السعادةِ والفلاحِ.

---

(١) في ك و س: «وناهيك من».   (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) الوهاد والوهدان والأوهد، واحدها: وهدة، وهي الأرض المنخفضة، والهوة في الأرض. انظر: «الصحاح» (٢/ ٤٨٣)، «القاموس» (ص/ ٤١٨).

(٤) المتالف: جمع متلف ك: «مقعد»، وهو المهلك والمفازة. انظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٧٠)، «الصحاح» (٣/ ١١٠٢).

(٥) في ك: «أعلام الطريق وأدلتها ومعاطبها».

(٦) في س: «وأعلامه». وكلاهما سائغ؛ إذ الطريق يذكر ويؤنث. انظر: «القاموس» (ص/ ١١٦٨).

(٧) في ك و س: «المغاير».

وبقي عليه الشطرُ الآخرُ، وهو أن يضعَ عصاه على عاتِقِه، ويشمِّرَ مسافرًا في الطريقِ قاطعًا منازِلَها منزلةً بعد منزلةٍ، فكلما قطع مرحلةً استعدَّ لقطعِ الأخرى، واستشعرَ القربَ من المنزلِ، فهان عليه مشقةُ السفرِ، وكلما شكتْ[(١)] نفسُه من كلالِ السيرِ، ومواصلةِ الشدِّ والرحيلِ[(٢)]؛ وعدَهَا قُرْبَ التلاقِي، وبردَ العيشِ عند الوصولِ، فيُحدثُ لها ذلك نشاطًا [وفرحًا][(٣)] وهمةً، فهو يقولُ: «يا نفسُ أبشري؛ فقد قرُبَ المنزلُ، ودنا التَّلاقِي، فلا تنقطِعِي في الطريقِ دونَ الوصلِ[(٤)]، فيحالُ بينك وبين منازلِ الأحبةِ، فإنْ صبرتِ، وواصلتِ السرى[(٥)]؛ وصلتِ حميدةً مسرورةً جزلةً[(٦)]، وتلقتْكِ الأحبةُ بأنواعِ التحفِ والكراماتِ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبرُ ساعةٍ؛ فإنَّ الدنيا كلَّها كساعةٍ من ساعاتِ الآخرةِ، وعمرُكِ درجةٌ من درجِ تلك الساعةِ، فاللهَ اللهَ لا تنقطعي في المفازةِ[(٧)]، فهو - واللهِ - الهلاكُ والعطبُ لو كنتِ تعلمين».

---

(١) في س: «اشتكت»، في ك: «سكنت». (٢) في ك و س: «والرحل».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ع. (٤) في باقي النسخ: «الوصول».

(٥) في ك: «السَّيْر»، وفي س: «المسرى». والسُّرى: -ك: «الهدى»- يذكر ويؤنث، يقال: «سرى الرجل، يسري سُرى وسرْية وسُرية وسراية، وأسرى واسترى» بمعنى، وهو: السير ليلًا، هذا قول الأكثر. وقيل: سَرَى: سار نهارًا، وأسرى: سار ليلًا. وقيل: سرى: سار من آخر الليل، وأسرى: سار من أوله. وذهب جماعة - منهم - السهيلي إلى أنَّ «سرى» لازم، و«أسرى» متعد. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٣٦٣)، «الروض الأنف» (٣/ ٤١٢)، «الصحاح» (٥/ ١٨٩٦)، «القاموس» (ص/ ١٦٦٩)، «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٠٢)، «فتح الباري» (٧/ ٢٣٨)، (٨/ ٢٤٣).

(٦) في ك و س: «جذلة»، وهو أظهر. والجَذِلَةُ: الفرحة المبتهجة، يقال: «جذِل -ك: «فرح»- وزنًا ومعنى، يجذل، فهو جذلُ وجذلان»، وجاء في الشعر: جاذلٌ، وأجذله غيره، فاجتذل. انظر: «الصحاح» (٤/ ١٣٥٦)، «القاموس» (ص/ ١٢٦١).

(٧) المفازة: المُهلكة، والفلاة لا ماء بها، والجمع: مفاوز، من فَوَّز: أي: هلَكَ ومات. سميت بذلك تفاؤلًا بالفوز والسلامة، وقد كانت العرب تقلب الأسماء تطيَّرًا وتفاؤلًا، فيسمون اللديغ سليمًا؛ تفاؤلًا باسم السلامة، وتطيرًا من اسم السقم، ويسمون العطشان ناهلًا؛ تفاؤلًا باسم النهل -وهو: الشرب-، أي: سينهل. وقال المؤلف في «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٣): «. . . فإنهم سموه -أي: المريض- سليمًا باعتبار ما يهمه ويطلبه، ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة، فليس عنده أهم من السلامة، ولا هو أشد طلبًا منه لغيرها، فسُمِّي سليمًا لذلك، وهذا من جنس تسميتهم المهلكة: مفازةً؛ لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها -أي: نجاته-، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها. وهذا أحسن من قولهم: «إنما =

فإنِ استصعبتْ عليه فليذكِّرْها ما أمامها من أحبابِها، وما لديهِم من الإكرامِ والإنعامِ، وما خلفها من أعدائِها، وما لديهم من الإهانةِ والعذابِ وأنواعِ البلاءِ، فإن رجعت فإلى أعدائِها رجوعُها، وإن تقدَّمتْ فإلى أحبابِها مصيرُها، وإن وقَفت في طريقِها أدركها أعداؤُها؛ فإنهم وراءها في الطلبِ، ولا بدَّ لها من قِسْم من هذه الأقسامِ الثلاثةِ، فلتخترْ أيَّها شاءت، ولتجعلْ[(١)] حديثَ الأحبةِ [وشأنَهم][(٢)] حاديَها وسائقَها، ونورَ معرفتِهم وإرشادِهم هادِيها ودليلَها، وصدقَ ودادِهم وحبِّهم غذاءَها وشرابَها ودواءَها.

ولا يوحشْهُ انفرادُه في طريقِ سفرِه، ولا يغترَّ بكثرةِ المنقطعين؛ فألمُ[(٣)] انقطاعِه وبعادِه واصلٌ إليه دونهم، وحظُّه من القربِ والكرامةِ مختصٌّ به دونهم، فما معنى الاشتغالِ بهم، والانقطاعِ معهم؟!.

وليعْلَمْ أنَّ هذه الوحشةَ لا تدومُ، بل هي من عوارضِ الطريقِ، فسوف تبدو له الخيامُ، وسوف يخرجُ إليه الملتقون[(٤)] يهنِّئونَه بالسلامةِ والوصولِ إليهم، فيا قُرَّةَ عينِه إذ ذاك! ويا فرحتَه إذ يقولُ: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧]!.

ولا يستوحشْ مما يجدُه من كثافةِ الطبعِ، ودرنِ[(٥)] النفسِ، وبطءِ سيرِهَا؛ فكلَّما[(٦)] أدْمَنَ على السيرِ، وواظَبَ عليه غدوًّا ورواحًا وسحرًا؛ قرُب من المنزلِ[(٧)]، وتلطفت تلك الكثافةُ، وذابَتْ تلك الخبائثُ والأدرانُ، وظهرتْ[(٨)] عليه همةُ المسافرين وسيمَاهُم، فتبدلَتْ وحشتُه أُنْسًا، وكثافتُه لطافةً، ودرنُه طهارةً.

❊ ❊ ❊

= سميت مفازة، وسمى اللديغ سليمًا تفاؤلًا» وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذي ذكرناه، وداخلٌ فيه، فهو أعم وأحسن» اهـ. انظر: «لسان العرب» (٥/ ٣٩٢)، «الصحاح» (٢/ ٧٥٤)، «القاموس» (ص/ ٦٦٩)، «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٤٥).

(١) في س: «وليجعل».
(٢) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٣) في س: «فإنَّ أَلَمَ».
(٤) في ك و س: «المتلقون».
(٥) في ك و س: «ودؤب النفس».
(٦) في ك و س: «وكلما».
(٧) في ك و س: «من الدار».
(٨) في ك و س: «فظهرت».

فصلٌ

أقسامُ الناسِ في هاتين القوتين

فمن الناسِ مَن يكونُ(١) له القوةُ العلميةُ الكاشفةُ عن الطريقِ، ومنازلِهَا، وأعلامِهَا، وعوارضِهَا، ومعاثرِهَا.

وتكونُ هذه القوةُ أغلبَ القوتين عليه، ويكونُ ضعيفًا في القوةِ العمليةِ؛ يبصرُ بالحقائقِ(٢)، ولا يعملُ بموجَبِها، ويرى المتالفَ والمخاوفَ والمعاطبَ، ولا يتوقاها.

القسمُ الأولُ

فهو فقيهٌ ما لم يحضرِ العملَ، فإذا حضر العملَ؛ شاركَ الجُهَّالَ في التخلُّفِ، وفارَقَهُمْ في العِلمِ(٣).

---

(١) في ع و س: «تكون». (٢) في باقي النسخ: «يبصر الحقائق».

(٣) فهو جاهل باعتبار ترك العمل بموجب العلم.

وعليه فالجهل **نوعان**: جهل علم، وجهل عمل، **فالأول** هو الغي، **والثاني** هو الضلال. قال المؤلف في «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٤): «. . . والجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهلٌ لغةً وعُرْفًا وشرعًا وحقيقةً؛ قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧] قال له قومه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧] أي: من المستهزئين، وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٣] أي: من مرتكبي ما حرمتَ عليهم، وقال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النِّساء: الآية ١٧] قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ كل ما عُصي الله به فهو جهالة»، وقال غيره: «أجمع الصحابة أنَّ كل من عصى الله فهو جاهل»، وقال الشاعر:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهلِ الجاهلينا

وسُمي عدم مراعاة العلم جهلًا؛ إما لأنه لم ينتفع به، فنزل منزلة الجاهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله» اهـ، وقال شيخه ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٥٧): «. . . فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلًا بسيطًا، فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلًا مركبًا، فإن قال خلاف الحق عالمًا بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضًا. . .، وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق. . .؛ وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلابد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم، فيصير جهلًا بهذا الاعتبار» اهـ. وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٨٧-٢٩٥)، وقد عقد ابن فارس في «الصاحبي» (ص/ ٢٥٨) باب: نفي الشيء جملةً من أجل عدمه كمال صفته، وذكر شواهد عليه من القرآن وأشعار العرب؛ فلينظر.

وهذا هو الغالبُ على أكثرِ النفوسِ المشتغلةِ بالعلمِ، والمعصومُ من عَصَمَهُ اللهُ، فلا قوةَ إلا باللهِ.

القسمُ الثاني

ومن الناسِ من تكونُ[(١)] له القوةُ العمليةُ الإراديةُ، وتكونُ أغلبَ القوتين عليه.

وتقتضي هذه القوةُ السيرَ والسلوكَ، والزهدَ في الدنيا، والرغبةَ في الآخرةِ، والجِدَّ والتشميرَ في العملِ.

ويكونُ أعمى البصرِ عند ورودِ الشبهاتِ في العقائدِ، والانحرافاتِ في الأعمالِ والأقوالِ والمقاماتِ[(٢)]، كما كان الأولُ ضعيفَ العقلِ عند ورودِ الشهواتِ[(٣)]؛ فَدَاءُ هذا من جهلِه، وَدَاءُ الأَّولِ من فسادِ إرادتِه، وضَعْفِ عقلِه، وهذا حالُ أكثرِ أربابِ الفقرِ والتصوفِ، السالكين على غيرِ طريقِ العلمِ، بل على طريقِ الذوقِ والوجدِ والعادةِ، ترى[(٤)] أحدَهم أعمى عن مطلوبِه، لا يَدري مَن يعبدُ، ولا بماذا يعبدُه:

فتارةً يعبدُه بذوقِه ووجدِه، وتارةً يعبدُه بعادةِ قومِه وأصحابِه؛ من لُبْسٍ مُعَيَّنٍ، أو كَشْفِ رأسٍ، أو حلقِ لحيةٍ، ونحوِها.

وتارةً يعبدُه بالأوضاعِ التي وضعَها بعضُ المتحذلقين[(٥)]، وليس له[(٦)] أصلٌ في الدين.

وتارةً يعبدُه بما تحبُّه نفسُه، وتهواه[(٧)] كائنًا ما كان، وهنا طرقٌ ومتاهاتٌ لا يحصيها إلا ربُّ العبادِ.

فهؤلاءِ كلُّهم عُمْيٌ عن ربِّهم، وعن شريعتِه ودينِه، لا يعرفون شريعتَه ودينَه الذي بعثَ به رسلَه، وأنزل به كُتُبَه، ولا يَقْبَلُ من أحدٍ دينًا سواه، كما أنهم لا يَعرفون صفاتِ ربِّهم التي تَعرَّف بها إلى عبادِه على ألسنةِ رسُلِه، ودعاهم إلى معرفتِه ومحبَّتِه من طريقِها، فلا معرفةَ له بالربِّ، ولا عبادةَ له.

فمن كَملت له هاتان القوتان استقام له سيرُه إلى اللهِ تعالى، ورُجي له النفوذُ[(٨)]،

---

(١) في ك: «يكون».

(٢) في ع: «في الأعمال والأحوال والمقامات». وقد تقدم معنى: «الأحوال» و«المقامات» (ص/٢١٥).

(٣) في س: «عند ورود الشبهات». (٤) في ك: «يُرَى».

(٥) قال في «الصحاح» (٤/١٢٠٥): «... ويقال: حَذلَقَ الرجلُ -بزيادة اللام-، وتحذلق: إذا أظهر الحذق، وادَّعى أكثر مما عنده» اهـ.

(٦) في ع: «وليس لها». (٧) في ك: «ويهواه». (٨) في س: «الفوز».

وقوي على ردِّ القواطعِ والموانعِ بحولِ اللهِ وقوَّتِه؛ فإنَّ القواطعَ كثيرةٌ، شأنُها شديدٌ، لا يخلصُ من حبائلِها إلا الواحدُ بعد الواحدِ، ولولا القواطعُ والآفاتُ لكان الطريقُ معمورةً بالسالكين، ولو شاء اللهُ لأزالها، وذهب بها[١]، ولكن اللهَ يفعلُ ما يريدُ.

والوقتُ هو - كما قيل -: سيفٌ[٢]، فإن قطعتَه، وإلا قطَعَكَ[٣]. فإذا كان السيرُ ضعيفًا، والهمَّةُ ضعيفةً، والعلمُ بالطريقِ ضعيفًا، والقواطعُ الخارجةُ والداخلةُ كثيرةً شديدةً؛ فإنه جهدُ البلاءِ، ودركُ الشقاءِ، وسوءُ القضاءِ، وشماتةُ الأعداءِ[٤]، إلا أن

---

(١) في ع: «لذهب بها، ولأزالها». (٢) في س: كما قيل: الوقت سيفٌ.

(٣) هذا من كلام بعض الحكماء، وليس بحديث كما يظنه بعض العامة. انظر: «كشف الخفاء، ومزيل الإلباس» (٢/ ٤٧٥)، رقم (٢٩٣٩) للعجلوني.

(٤) جاءت السنة بالاستعاذة من هذه الأربع: فأخرج أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٦)، والبخاري رقم (٦٣٤٧)، ومسلم رقم (٢٧٠٧)، والنسائي في «سننه»، رقم (٥٤٩٣): من طريق سفيان بن عيينة عن سُميٍّ عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء». وفي لفظ للبخاري: «**تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**»، قال سفيان: «الحديث ثلاث، زدت أنا واحدةً، لا أدري أيتهن هي» اهـ. قال الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ١٥٣): «. . . وأخرجه الجوزقي من طريق عبد الله بن هاشم عن سفيان، فاقتصر على ثلاثة، ثم قال: «قال سفيان: وشماتة الأعداء»، وأخرجه الإسماعيلي من طريق ابن أبي عمر عن سفيان، وبيَّنَ أنَّ الخصلة المزيدة هي: «شماتة الأعداء»، وكذا أخرجه الإسماعيلي من طريق شجاع بن مخلد عن سفيان مقتصرًا على الثلاثة دونها، وعُرِف من ذلك تعيين الخصلة المزيدة اهـ.

قلت: ولذا لم يترجم بها البخاري؛ حيث ذكر هذا الحديث في موضعين، قال في الأول: «باب: التعوذ من جهد البلاء»، وفي الثاني: «باب: من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء. . .». وكذا النسائي في «سننه»، حيث ذكر الحديث في موضعين، قال في الأول: «الاستعاذة من سوء القضاء»، وفي الثاني: «الاستعاذة من درك الشقاء»، ولما ترجم بـ: «الاستعاذة من شماتة الأعداء»؛ ذكر حديث عبد الله بن عمرو الآتي.

و«الجَهْد» - بالفتح -: المشقة، أوالمبالغة والغاية، وبالضم: الوسع والطاقة. وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، وأما في المشقة والمبالغة والغاية فالفتح لا غير، وقيل: هما لغتان في الجميع، والفتح في المشقة والمبالغة والغاية أشهر وأفصح. و«البلاء»: بالفتح مع المدِّ، ويجوز الكسر مع القصر. انظر: «النهاية في غريب الحديث»» (١/ ٣٢٠)، «فتح الباري» (١/ ٢٤)، (١١/ ١٥٢)، «شرح مسلم» (١٧/ ٣١) للنووي.

و«الدرك» - بفتح الدال والراء -: اللِّحاق والإدارك، وبسكون الراء: التبعة، وأقصى قعر الشيء. هذا هو المشهور. وقيل: يجوز فيهما الوجهان. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١١٤)، «الصحاح» =

يتداركَ اللهُ العبدَ برحمةٍ منه[١] من حيثُ لا يحتسبُ، [فـ] يأخذُ[٢] بيدِه، ويخلِّصُه من أيدي القواطعِ، واللهُ وليُّ التوفيقِ.

قاعدةٌ نافعةٌ

العبدُ في الدنيا مسافرٌ إلى ربِّهِ

العبدُ من حين استقرتْ قدمُه في هذه الدارِ فهو مسافرٌ فيها إلى ربِّه، ومدَّةُ سفرِه هي عمرُه الذي كُتِبَ له، فالعمرُ هو مدَّةُ سفرِ الإنسان في هذه الدار إلى ربهِ تعالى.

ثم [قد][٣] جُعلتِ الأيامُ والليالي مراحلَ لسفرِه؛ فكلُّ يومٍ وليلةٍ مرحلةٌ من المراحلِ، فلا يزالُ [العبدُ][٤] يطويها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتى ينتهِيَ السفرُ.

فالكِّيسُ الفطنُ هو الذي يجعلُ كلَّ مرحلةٍ نصْبَ عينيهِ، فيهتمُّ[٥] بقطعِها سالمًا غانمًا، فإذا قَطَعَها؛ جعلَ الأخرى نصْب عينيه، ولا يطولُ عليه الأمدُ فيقسو[٦] قلبُه، ويمتدُّ أملُه، ويحضرُه التسويفُ والوعدُ والتأخيرُ والمَطْلُ[٧]، بل يَعُدُّ عمرَه تلك المرحلةَ الواحدةَ، فيجتهدُ في قطعِها بخيرِ ما بحضرتِهِ؛ فإنه إذا تيقنَ قصَرَها وسرعةَ انقضائِها؛ هان عليه العملُ، وطَوَّعتْ[٨] له نفسُه الانقيادَ إلى التزودِ، فإذا استقبلَ المرحلةَ الأخرى من عمرِه استقبَلَها كذلك، فلا يزالُ هذا دأبَهُ حتى يطوي مراحلَ عُمُرِه كلَّها، فيُحْمَدَ سَعْيُه، ويبتهجَ بما[٩] أعدَّه ليومِ فاقتِه وحاجتِه، فإذا طلع صبحُ الآخرةِ،

= (٤/ ١٣٠٠)، «القاموس» (ص/ ١٢١١) و«الشقاء»: الهلاك، ويطلق على السبب المؤدِّي إليه. انظر: «فتح الباري» (١١/ ١٥٢). و«سوء القضاء»: أي: كل ما يسوء العبد من المقضيات. و«شماتة الأعداء»: فرحهم ببلية تنزل بالمعادى. انظر: «شرح مسلم» (١٧/ ٣١) للنووي، «فتح الباري» (١١/ ١٥٣).

وأخرجه النسائي في «سننه»، رقم (٥٤٨٩)، والحاكم في «المستدرك» وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» اهـ، ووافقه الذهبي؛ من طريق حُيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: **«اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين، وغلبة العدو، وشماتة الأعداء»**. وصحح إسناده أحمد شاكر في «شرح المسند» (١٠/ ١١٣).

(١) في ك و س: «إلا أن يتداركه الله برحمةٍ منه». (٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٣) ما بين المعقوفين ليس في س. (٤) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.

(٥) في س: «فيهم».

(٦) في ك و س: «فيقسوا» - بالألف -، وفي هامش ك: «لعله: فيفتر».

(٧) في ك و س: «ويحضر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل». (٨) في ك و س: «فطوَّعت».

(٩) في س: «ويبتهج لما».

أقسامُ الناسِ في هذا السفرِ

وانقشَعَ ظلامُ الدنيا؛ فحينئذٍ يُحمدُ سُراهُ[(١)]، وينجلي[(٢)] عنه كَرَاهُ[(٣)]، فما أحسنَ ما يستقبلُ يومَه، وقد لاح صباحُه، واستبان فلاحُه.

ثم الناسُ في قطعِ هذه المراحلِ قسمان:

القسمُ الأولُ: الأشقياءُ

❑ **قَسْمٌ**[(٤)] قطعوها مسافرين فيها إلى دارِ الشقاءِ؛ فكلما قطعوا مرحلةً منها قُربُوا من تلك الدارِ، وبعدوا عن ربِّهم، وعن دارِ كرامتِه.

فقطعوا تلك المراحلَ بمساخطِ الربِّ، ومعاداتِه، ومعاداةِ رُسُلِه وأوليائِه ودينِه، والسعي في إطفاءِ نورِه، وإبطالِ دعوتِه - [دعوةِ الحقِّ][(٥)] - وإقامةِ دعوةِ غَيْرِها.

فهؤلاء جُعِلَت أيامُهم مراحلَ يسافرون فيها إلى الدارِ التي خُلِقُوا لها، واستُعْملوا بعمَلِهَا، فهم مصحوبون فيها بالشياطينِ الموكَّلَةِ بهم، حتى يسوقوهم إلى منازِلِهم سوقًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: الآية ٨٣]، أي: تزعِجُهم إلى المعاصي [والكفرِ][(٦)] إزعاجًا، وتسوقُهم سوقًا[(٧)].

القسمُ الثاني: السائرون إلى اللهِ وأقسامُهم

❑ **القسم الثاني:** قطعوا تلك المراحلَ سائرين فيها إلى اللهِ، وإلى دارِ السلامِ.

وهم ثلاثةُ أقسامٍ: ظالمٌ لنفسِه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ.

وهؤلاءِ كلُّهم مستعدون للسيرِ، موقنون بالرُّجْعَى إلى اللهِ، ولكن متفاوتون في

---

(١) تقدم معنى: «سرى».
(٢) في ك و س: «وينجاب».

(٣) الكرى: النعاس والنوم، يقال: «كرى الرجل -ك: «فرح»-، يكرى كرىً، فهو كرٍ وكَرْيَان وكَرِيٌّ، وامرأة كَرِيَةٌ -بالتخفيف-». انظر: «الصحاح» (٥/ ١٩٦٦)، «القاموس» (ص/ ١٧١٢).

(٤) في س: «فقسمٌ».
(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٧) قال المؤلف في «شفاء العليل» (ص/ ٦٢): «. . . وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: الآية ٨٣]»: الأز في اللغة: التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القِدر: الأزيز؛ لتحرُّك الماء عند الغليان، وفي الحديث: «كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء». وعبارات السلف تدور على هذا المعنى، قال ابن عباس: «تغريهم إغراءً»، وفي رواية أخرى عنه: «تَسُلُّهم سلًّا»، وفي رواية أخرى: «تُحَرِّضهم تحريضًا»، وفي أخرى: «تزعجهم للمعاصي إزعاجًا»، وفي أخرى: «توقدهم إيقادًا»، أي: كما يتحرك الماء بالوقد تحته، قال أبو عبيدة: «الأزيز: الإلهاب والحركة؛ كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزَّ قِدْرَك، أي: أَلْهِب تحتها النار، وائتزت القِدْر: اشتد غليانها، وهذا اختيار الأخفش. والتحقيق: أنَّ اللفظة تجمع المعنيين جميعًا اهـ. وانظر: «جامع البيان» (١٦/ ٩٤)، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٣٦) لابن كثير.

التزوُّدِ، وتعبئةِ الزادِ واختيارِه، وفي نفسِ السيرِ وسرعتِه وبطئِه:

فالظالمُ لنفسِه مقصرٌ في الزادِ، غيرُ آخذٍ منه ما يبلغُه المنزلَ؛ لا في قَدْرِهِ، ولا في صفتِه، بل مُفَرِّطٌ في زادِه الذي ينبغي له أن يتزودَه، ومع ذلك فهو متزودٌ ما يتأذَّى به في طريقِه، ويجدُ غِبَّ[١] أذاه إذا وصل المنزلَ بحسبِ ما تزودَ من ذلك المؤذي الضارِ.

والمقتصدُ اقتصرَ من الزادِ على ما يُبلِّغُه، ولم يشدَّ مع ذلك أحمالَ التجارةِ الرابحةِ[٢]، ولم يتزودْ ما يضرُّه، فهو سالمٌ غانمٌ، لكن فاتَتْهُ المتاجرُ الرابحةُ، وأنواعُ المكاسبِ الفاخرةِ.

والسابقُ بالخيراتِ همُّه[٣] في تحصيلِ الأرباحِ، وشدِّ أحمالِ التجاراتِ[٤]؛ لعلمِه بمقدارِ الربحِ الحاصلِ، فيرى خُسْرانًا أن يدَّخرَ شيئًا مما بيدِه ولا يتَّجرَ به[٥]، فيجدُ ربْحَه يومَ يغتبطُ التجارُ بأرباحِ تجاراتِهم، فهو كرجلٍ قد علم أن أَمَامَهُ بَلْدَةً يكسبُ الدرهَم فيها عشرةً، إلى سبعمائةٍ، وأكثرَ، وعنده حاصلٌ، و[له][٦] خبرةٌ بطريقِ ذلك البلدِ[٧]، وخِبْرةٌ بالتجارةِ، فهو لو أمكنه بيعُ ثيابِه، وكلِّ ما يملكُ حتى يهيئَ به تجارةً إلى ذلك البلدِ لفعلَ.

فهكذا حالُ السابقِ بالخيراتِ بإذنِ ربِّه[٨]؛ يرى خسرانًا بَيِّنًا أن يمرَّ عليه وقتٌ في غيرِ مَتْجَرٍ، فنذكُرُ - بعونِ اللهِ وفضلِه - نبذةً من متاجرِ الأقسامِ الثلاثةِ؛ ليعلمَ العبدُ من أيِّ التجارِ هو:

تفصيلُ حالِ الظالمِ لنفسه

❑ **فأما الظالمُ لنفسِه**، فإنه إذا استقبل مرحلةَ يومِه وليلتِه؛ استقبلها وقد سبقَتْ حظوظُه وشهواتُه إلى قلبِه، فحرَّكتْ جوارِحَه طالبةً لها، ساعيةً فيها، فإذا زاحمَهَا حقوقُ ربِّه فتارةً وتارةً، فمرةً يأخذُ بالرخصةِ، ومرةً بالعزيمةِ، ومرةً يُقْدِمُ على الذنب، وتركِ الحقِّ؛ تهاونًا ووعدًا بالتوبةِ، فهذا حالُ الظالمِ لنفسِه، مع حفظِ التوحيدِ

---

(١) تقدم معنى: «الغب».

(٢) في ع: «والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه، فشدَّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة». وهو غلط.

(٣) في س: «والسابق بالخيرات هو».

(٤) في س: «التجارة». (٥) في ع: «ولا يتجر فيه».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٧) في ك: «تلك البلدة».

(٨) في ك وس: «بإذن الله».

والإيمانِ باللهِ ورسولِه ﷺ[١] واليومِ الآخِرِ، والتصديقِ بالثوابِ والعقابِ، فمرحلةُ هذا مقطوعةٌ بالربحِ والخسرانِ، وهو للأغلبِ منهما، فإذا وَرَدَ القيامةَ مُيِّزَ رِبْحُهُ مِن خسرانِه، وحُصِّلَ ربحُه وحده، وخسرانُه وحده، وكان الحكمُ للراجحِ منهما، وحكمُ اللهِ ﷻ من وراءِ ذلك، لا يعدمُ عبادَه منه فضلَه وعدلَه[٢].

فصلٌ

تفصيلُ حالِ المقتصدينَ

❑ **وأما المقتصدون** فأدُّوا وظيفةَ تلك المرحلةِ، ولم يزيدُوا عليها، ولم ينقُصُوا منها[٣]؛ فلا حصَلُوا على أرباحِ التُّجارِ[٤]، ولا بخسُوا الحقّ الذي عليهم.

فإذا استقبلَ أحدُهم مرحلةَ يومِه؛ استقبَلَهَا بالطُّهورِ التَّامِّ، والصلاةِ التامَّةِ في وقتِها بأركانِها وواجباتِها وشرائطِها، ثم ينصرفُ منها إلى مباحاتِه ومعيشتِه وتصرفاتِه التي أذن اللهُ له فيها مشتغلًا [بها، قائمًا][٥] بأعبائِها، مؤديًا واجبَ الربِّ تعالى فيها، غيرَ متفرغٍ لنوافلِ العباداتِ، وأورادِ الأذكارِ والتوجهِ.

فإذا حضرتِ الفريضةُ الأخرى بادرَ إليها كذلك، فإذا أكملهَا؛ انصرفَ إلى حالِهِ الأولِ[٦]، فهو كذلك سائرَ يومِه، فإذا جاءَ الليلُ، فكذلك إلى حينِ النومِ، [ف][٧] يأخذُ مضجعَه حتى ينشقَّ الفجرُ، فيقومُ إلى عدانِه[٨] ووظيفتِه، فإذا جاء الصومُ الواجبُ قام بحقِّه، وكذلك الزكاةُ الواجبةُ، والحجُّ الواجبُ، وكذلك المعاملةُ مع الخلقِ، يقومُ فيها بالقسطِ؛ لا يظلِمُهم، ولا يَتْرُكُ حَقَّه لهم.

فصلٌ

❑ **وأمَّا السابقون بالخيراتِ فهم نوعان:** أبرارٌ، ومقرَّبون.

وهؤلاءِ الأصنافُ الثلاثةُ هم أصحابُ اليمينِ[٩]، وهم المقتصدون، والأبرارُ، والمقرَّبون.

---

(١) في س: «بالله ورسله».
(٢) في س: «لا يعدم فيه فضله وعدله».
(٣) في ك: «ولا نقصوا منها».
(٤) في س: «أرباح التجارة».
(٥) ما بين المعقوفين ليس في ع.
(٦) في س: «الأولى».
(٧) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.
(٨) في ك و س: «غذائه».
(٩) في ك و س: «هم أهل اليمين».

وأما الظالمُ لنفسِه فليس من أصحابِ اليمينِ عند الإطلاقِ، وإن كان مآله إلى أصحابِ اليمينِ، كما أنه لا يسمَّى مؤمنًا عند الإطلاقِ، وإن كان مصيرُه ومآلُه مصيرَ المؤمنين بعد أخذِ الحقِّ منه.

الخلافُ في آيةِ فاطِر

وقدِ اختُلِفَ في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ الآية [فاطر: الآية ٣٣]، هل ذلك راجعٌ إلى الأصنافِ الثلاثةِ: الظالمِ لنفسِه، والمقتصدِ، والسابقِ بالخيراتِ، أو يختصُّ بالقسمين الأخيرين - وهما المقتصدُ والسابقُ - دونَ الظالمِ؟ على قولين:

القولُ الأولُ

- **فذهبَتْ طائفةٌ** إلى أن الأصنافَ الثلاثةَ كلَّهم في الجنةِ. وهذا يُروى عن ابنِ مسعودٍ[(١)] وابن عباسٍ[(٢)] وأبي سعيد الخدري[(٣)] وعائشةَ أمِّ المؤمنين.

قال[(٤)] أبو إسحاقَ السبيعيُّ[(٥)]: «أما الذي سمعتُ منذ[(٦)] ستينَ سنةً فكلُّهم ناجٍ»[(٧)].

قال أبو داود الطيالسيُّ[(٨)]: ....

(١) تقدمت ترجمته. (٢) سبقت ترجمته. (٣) سبقت ترجمته.

(٤) في ك: «وقال».

(٥) هو عمرو بن عبد الله بن عبيد، ويقال: عمرو بن عبد الله بن علي، أبو إسحاق السبيعي الكوفي، وثقه أحمد ابن حنبل وابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: «... ويشبه الزهري في كثرة الرواية واتساعه في الرجال»، وقال شعبة: «كان هو أحسن حديثًا من مجاهد ومن الحسن وابن سيرين»، وكان عابدًا مكثرًا، لكنه اختلط باخرة، توفي سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٠٢)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٦٣).

(٦) في ع: «مُذْ».

(٧) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٦). وهذا القول مروي أيضًا عن البراء بن عازب، ومحمد ابن الحنفية، واختاره ابن جرير، والبغوي، وقال: «... وعليه عامة أهل العلم» اهـ، والنسفي وقال: «... وعليه الجمهور» اهـ. وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي، انظر: «جامع البيان» (٢١/ ٨٨)، «معالم التنزيل» (٦/ ٤٢٣)، «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٣/ ٣٤١)، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٢)، «فتح القدير» (٤/ ٣٤٩)، «أضواء البيان» (٢/ ١٠٣)، (٦/ ١٦٤)، «تفسير سفيان الثوري» (ص/ ٢٤٦).

(٨) هو سليمان بن داود بن الجارود، أبو داود الطيالسي البصري الحافظ، فارسي الأصل، وهو مولى لآل الزبير ابن العوام، وأمه فارسية، كانت مولاة لبني نصر بن معاوية، قال عمرو بن علي الفلاَّس: «ما رأيت في المحدثين أحفظ من أبي داود الطيالسي، سمعته يقول: «أسرد ثلاثين ألف حديث، ولا فخر»، وقال عمر بن شبَّه: «كتبوا عن أبي داود بأصبهان أربعين ألف حديث، وليس معه كتاب». وكان وكيع يقول: «أبو =

«نا الصلتُ بنُ دينارٍ[(١)] نا عقبةُ بنُ صهبانَ الهنائيُّ[(٢)] قال: «سألتُ عائشةَ عن قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢][(٣)]، فقالتْ لي: «يا بُني، كلُّ هؤلاءِ في الجنةِ؛ فأمَّا السابقُ بالخيراتِ فَمنْ مَضَى على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، يشهدُ[(٤)] له رسولُ اللهِ ﷺ بالحياةِ والرزقِ، وأما المقتصدُ[(٥)] فَمَن تَبِعَ أثَرَه من أصحابِه حتى لحقَ به، وأما الظالمُ لنفسِه فَمِثْلِي ومثْلُك»[(٦)]، قال: «فجعلَتْ نفسَها معنا»[(٧)].

وقال ابنُ مسعودٍ[(٨)]: «هذهِ الأمةُ يومَ القيامةِ أثلاثٌ[(٩)]: ثلثٌ يدخلون الجنةَ بغيرِ حسابٍ، وثلثٌ يُحَاسَبُون حسابًا يسيرًا، [ثم يدخلُون الجنةَ][(١٠)]، وثلثٌ يجيئون بذنوبٍ

= داود جبل العلم»، من كتبه: «المسند» توفي سنة أربع ومائتين. انظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ٤٠١)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ١٨٢)، «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٧٨).

(١) هو الصلت بن دينار الأزدي الهنائي، أبو شعيب البصري، المعروف بـ: «المجنون»، قال أحمد بن حنبل: «متروك الحديث، ترك الناس حديثه»، وقال ابن معين: «ليس بشيء»، وقال أبو داود: «ضعيف»، وقال يعقوب بن سفيان: «مرجئ ضعيف، ليس حديثه بشيء»، توفي قريبًا من سنة ستين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (١٣/ ٢٢١)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ٤٣٤).

(٢) هو عقبة بن صُهبان -بضم المهملة وسكون الهاء بعدها موحدة- الأزدي الحُدَّانيُّ، وقيل: الراسبي، وقيل: الهنائي البصري، وحُدَّان وراسب وهُناءة من الأزد. وثقه العجلي وأبو داود والنسائي ومحمد بن سعد، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وروى له الشيخان وغيرهما، مات بعد السبعين. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٢٠٠)، «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٤٢).

(٣) في «مسند أبي داود»: عن قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢].

(٤) في «مسند أبي داود» «شَهِدَ». (٥) في س: «وأما المقتصدون».

(٦) في «مسند أبي داود»: «فمثلي ومثلكم».

(٧) أخرجه أبو داود الطيالسي في «المسند» (٣/ ٩٢)، رقم (١٥٩٢)، والطبراني في «الأوسط»، رقم (٦٠٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٢٦): من طريق المعتمر بن سليمان عن الصلت بن دينار به، وصححه، وتعقبه الذهبي؛ لضعف الصلت هذا، وقال الطبراني: «... لم يرو هذا الحديث عن عقبة بن صهبان إلا أبو شعيب الصلت بن دينار تفرد به معتمر اهـ، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥١) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه، وقال في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٧): «... وفيه الصلت بن دينار، وهو متروك» اهـ.

(٨) تقدمت ترجمته. (٩) في «تفسير ابن جرير»: «ثلاثة أثلاث».

(١٠) ما بين المعقوفين ليس عند ابن جرير.

عظامٍ، فيقولُ[(١)] اللهُ: ما هؤلاءِ؟ - [وهو أعلمُ بِهم][(٢)] -، فتقولُ الملائكةُ: «هم مذنبون، إلا أنهم لم يُشْرِكوا»[(٣)]، فيقولُ ﷻ: أدخِلُوهم في سعةِ رحمتي»[(٤)].

وقال كعبٌ[(٥)]: «تحاذتْ مناكبُهم - وربِّ الكعبةِ -، وتفاضَلُوا بأعمالِهم»[(٦)].

وقال الحسنُ[(٧)]: «السابقُ[(٨)]: من رجحتْ حسناتُه، والمقتصدُ[(٩)]: من استوتْ حسناتُه وسيئاتُه، والظالمُ: من خفتْ موازينُه»[(١٠)].

---

(١) في «تفسير ابن جرير»: «حتى يقول». (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في «تفسير ابن جرير»: «هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك».

(٤) في «تفسير ابن جرير»: «ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢]. أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٥) قال: «حدثنا ابن حميد قال: حدثنا الحكم بن بشير، قال: حدثنا عمرو بن قيس عن عبد الله بن عيسى عن يزيد بن الحارث عن شقيق عن أبي وائل عن ابن مسعود به.

(٥) في ك: «فقال كعب». وهو كعب بن ماتع الحميري اليماني، العالم العلامة، كان يهوديًّا، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وقدم المدينة في أيام عمر رضي الله عنه فجالس الصحابة، وكان يحدث بالغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ، قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٣٤): «... فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب بأشياء من علوم أهل الكتاب، فيستمع له عمر؛ تأليفًا وتعجبًا مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر؛ فاستجاز كثير من الناس ما يورده كعب الأحبار لهذا المعنى، ولِمَا جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل، لكن كثيرًا ما يقع فيما يرويه غلط، وليس منه، ولكن من الكتب التي ينقل عنها؛ لأنها قد دخلها غلط كثير، وخطأ كثير... اهـ. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٨٩-٤٩٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٦) قال: «حدثني يعقوب بن إبراهيم قال: حدثنا ابن علية قال: أخبرنا حميد عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن أبيه: أنَّ ابن عباس سأل كعبًا عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢] الآية فقال: «تماسَّت مناكبهم -وربِّ الكعبة- ثم أعطوا الفضل بأعمالهم»، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٥) إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر بلفظ: «تحاكَّت».

(٧) سبقت ترجمته. (٨) في س: «السابقون». (٩) في س: «والمقتصدون».

(١٠) لم أجد من خرَّجه، وقد ذكره النسفي في «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٣/ ٣٤١)، ولم يعزه. والمشهور عنه رحمه الله القول بأن الظالم لنفسه -هنا- ليس من أهل الجنة؛ فقد أخرج ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٨)، والبيهقي في «البعث» (ص/ ٦٢)، رقم (٧٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٤) إلى عبد ابن حميد عنه أنه قال: «أما الظالم لنفسه فإنه هو المنافق - سقط هذا - وأما المقتصد والسابق بالخيرات فهما صاحبا الجنة»، وأخرج عبد بن حميد -كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٤) عن كعبٍ أنه قال في قوله =

حججُ القولِ الأولِ

واحتجتْ هذهِ الفرقةُ بأنه سبحانَه سمَّى الكلَّ مصطفَين، وأخبر أنه اصطفَاهم من جملةِ العبادِ، ومحالٌ أن يكون الكافرُ والمشركُ من المصطفَين؛ لأنَّ الاصطفاءَ هو الاختيارُ، وهو افتعالٌ من: «صفوةِ الشيءِ» - وهو خيارُه[١].

فعُلِمَ أن هؤلاءِ الأصنافَ الثلاثةَ صفوةُ الخلقِ، وبعضُهم خيرٌ من بعضٍ؛ فسابقُهم مصطفًى عليهم، ثم مقتصدُهم مصطفًى على ظالمِهم، ثم ظالمُهم مصطفًى على الكافرِ والمشركِ.

واحتجتْ أيضًا بآثارٍ روَتْها تؤيدُ ما ذهبتْ إليه: **فمنها**: ما رواه سلمانُ الشاذكونيُ[٢] نا حصينُ بنُ بهزٍ[٣] عن ابن أبي ليلى[٤]، عن أخيهِ[٥]، عن أبيه[٦]،

= تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [الرّعد: الآية ٢٣] قال: «دخلوها وربِّ الكعبة»، فأخبر الحسن بذلك فقال: «أبت -والله- عليهم الواقعة»، وسيأتي عزو المؤلف هذا القول له (ص/ ٢٥٦).

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٢٩٢)، «لسان العرب» (١٤/ ٤٦٢)، «القاموس» (ص/ ١٦٨٠).

(٢) في ك و س: «سليمان الشاذكوني». وهو الصواب، وهو سليمان بن داود المِنْقَري الشاذكوني البصري، أبو أيوب، قال أبو حاتم: «متروك الحديث»، وقال النسائي: «ليس بثقة»، وقال صالح بن محمد: «ما رأيت أحفظ من الشاذكوني، وكان يكذب في الحديث»، وقيل: «كان يتعاطى المسكر ويتماجَن»، توفي سنة أربع ومائتين، انظر: «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ١١٤٢)، «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٩١).

(٣) في ع: «حصين بن نَهْر»، وفي ك: «حصين بن بهر» والصواب: «حصين بن نُمَيْر». وهو حصين بن نُمير - مصغر- الواسطي، أبو محصن الضرير، مولى لهمدان، كوفي الأصل، قال ابن معين: «صالح»، وقال أبو حاتم: «صالح، ليس به بأس»، ووثقه العجلي وأبو زرعة، قال الحافظ في «تقريب التهذيب» رقم (١٣٨٩): «. . . لا بأس به، رمي بالنصب، من الثامنة . . اهـ، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٩١).

(٤) في س: «عن أبي ليلى». وهو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، أبو عبد الرحمن الكوفي الفقيه قاضي الكوفة، قال أحمد بن حنبل: «كان سيء الحفظ، مضطرب الحديث»، وقال ابن معين: «ليس بذاك»، وقال شعبة: «ما رأيت أحدًا أسوأ حفظًا من ابن أبي ليلى»، مات سنة ثمان وأربعين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٦٢٢)، «تهذيب التهذيب» (٩/ ٣٠١).

(٥) هو عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، وثقة ابن معين وغيره، وذكره ابن حبان في «الثقات»، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٦٢٩)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٢١٩).

(٦) هو عبد الرحمن بن أبي ليلى، واسمه: يسار، ويقال: بلال، ويقال: داود، أبو عيسى الكوفي، ولد لستٍّ بقين من خلافة عمر، روى عن أبي بن كعب وأسيد بن حضير وأنس بن مالك والبراء بن عازب وسمرة بن جندب وغيرهم من الصحابة ﵃، قال العجلي: «كوفي تابعي ثقة»، وقال يحيى بن معين: «ثقة»، توفي سنة ثلاث وثمانين، انظر: «تهذيب الكمال» (١٧/ ٣٧٢)، «تهذيب التهذيب» (٦/ ٢٦٠).

عن أسامةَ بنِ زيدٍ[١] عن النبيِّ ﷺ في هذه الآيةِ: «**كلُّهم في الجنةِ**»[٢].

ومنها: ما رواه الطبرانيُّ[٣]: نا أحمدُ بنُ حمادٍ بن زغبةَ[٤]، نا يحيى بنُ بكيرٍ[٥]، نا ابنُ لهيعةَ[٦] ....

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، أبو محمد المدني، مولى رسول الله ﷺ، وابن مولاه، وحِبه وابن حِبِّه، وأمه بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، وكان عمر رضي الله عنه إذا لقيه يقول: «السلام عليك أيها الأمير»، فضائله كثيرة، صحح ابن عبد البر أنه توفي سنة أربع وخمسين. انظر: «الاستيعاب» (١/ ٧٥)، «الإصابة» (١/ ٤٩)، «البداية والنهاية» (١١/ ٢٧١).

(٢) في باقي النسخ: قال: «**كلهم في الجنة**»، أخرجه البيهقي في «البعث» (ص/ ٥٩)، رقم (٦٣)، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٦٧)، رقم (٤١٠)، والبيهقي في «البعث» (ص/ ٥٩)، رقم (٦٤)، ولفظه: «**كلهم من هذه الأمة**»، وقد وقع في «المعجم الكبير»: «عن عمرو بن أبي قيس عن ابن أبي ليلى عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أسامة» وهو خطأ مطبعي، وقد نقله ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢٠) على الصواب: «عن ابن أبي ليلى عن أخيه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أسامة»، وقال الهيثمي «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦): «... رواه الطبراني، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو سيء الحفظ» اهـ. وله شواهد كما سيأتي.

(٣) هو سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني اللخمي، الحافظ الكبير، عُمِّر مائة سنة، وسمع من ألف شيخ، من مصنفاته المعاجم الثلاثة: «الكبير» و«الأوسط» و«الصغير»، وكتاب: «السنة»، و«مسند الشاميين»، وغيرها. توفي سنة ستين وثلاثمائة، انظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٠٧)، «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١١٩)، «البداية والنهاية» (١٥/ ٣٣١).

(٤) هو أحمد بن حَمَّاد بن مسلم بن عبد الله بن عمرو التُّجيبي، أبو جعفر المصري، و«زُغبة» -بضم الزاي وسكون الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة- لقبه، ولقب أبيه أيضًا. قال النسائي: «صالحٌ»، وقال الحافظ في «تقريب التهذيب» رقم (٢٨): «... صدوق» اهـ، توفي سنة ست وتسعين ومائتين. انظر: «تهذيب الكمال» (١/ ٢٩٦).

(٥) في س: «يحيى بن بكر» وهو خطأ. وهو يحيى بن عبد الله بن بكير القرشي المخزومي، أبو زكريا المصري، مولى بني مخزوم، وقد ينسب إلى جدِّه، قال أبو حاتم: «يكتب حديثه ولا يحتج به، و كان يفهم هذا الشأن»، وقال النسائي: «ضعيف»، وقال في موضع آخر: «ليس بثقة»، وذكره ابن حبان في «الثقات»، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين. انظر: «تهذيب الكمال» (٣١/ ٤٠١)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ٢٣٧).

(٦) هو عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فُرْعان الحضرمي الأعدوليّ، ويقال: الغافقي، أبو عبد الرحمن المصري الفقيه قاضي مصر، قال ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٢): «... كان شيخًا صالحًا، ولكنه كان يدلس عن الضعفاء قبل احتراق كتبه...، وقد سبرت أخبار ابن لهيعة من رواية المتقدمين والمتأخرين =

عن أحمدَ بن حازمٍ المعافريِّ[(١)] عن صالحٍ - مولى التوأمةِ[(٢)] - عن أبي الدرداءِ[(٣)] قال: قرأ النبيُّ ﷺ هذه الآيَةَ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢][(٤)]، فقال: «**أما السابقُ: فيدخلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ، وأما المقتصدُ: فيحاسبُ حسابًا يسيرًا، وأما الظالمُ: فيحبسُ في طولِ المحبسِ، ثم يتجاوزُ الله عنه**»[(٥)].

= عنه، فرأيت التخليط في رواية المتأخرين عنه موجودًا، وما لا أصل له من رواية المتقدمين كثيرًا، فرجعت إلى الاعتبار فرأيته كان يدلس عن أقوام ضعفى، عن أقوام رآهم ابن لهيعة ثقات، فالتزمت تلك الموضوعات به. . .، وأما رواية المتأخرين عنه بعد احتراق كتبه ففيها مناكير كثيرة؛ وذاك أنه كان لا يبالي؛ ما دُفع إليه قرأه، سواء كان ذلك من حديثه أو غير حديثه، فوجب التنكب عن رواية المتقدمين عنه قبل احتراق كتبه؛ لما فيها من الأخبار المدلسة عن الضعفاء والمتروكين، ووجب ترك الاحتجاج برواية المتأخرين عنه بعد احتراق كتبه؛ لما فيه مما ليس من حديثه» اهـ. توفي سنة أربع وسبعين ومائة، وانظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ١٦٦)، «تهذيب الكمال» (١٥/ ٤٧٨).

(١) قال ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ١٧٢): «أحمد بن حازم، أظنه مدنيًّا، ويقال: مزني، معافري مضري، ليس بالمعروف، يحدث عنه ابن لهيعة، ويحدث أحمد هذا عن عمرو بن دينار وعبد الله ابن دينار وعطاء وابن المنكدر وصفوان بن سليم بأحاديث عامتها مستقيمة» اهـ. وقال الحافظ في «لسان الميزان» (١/ ١٦٥): «أحمد بن حازم المعافري، صاحب ذاك الجزء الذي رواه عنه ابن لهيعة، لا يعرف، ولكنها نسخة حسنة الحال، لم يرو عنه سوى ابن لهيعة، مات شابًّا بمصر» اهـ.

(٢) هو صالح بن نَبْهَان، مولى التوأمة بنت أُمَيَّة بن خلف الجُمَحي، أبو محمد المدني، يقال: إنَّ التوأمة كانت معها أخت لها في بطن واحد، فسمِّيت هذه التوأمة، وسميت تلك باسم آخر. روى عن أنس بن مالك وابن عباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم ﷺ، اختلط في آخر عمره، وقال أحمد بن حنبل: «. . . من سمع منه قديمًا فذاك، وقد روى عنه أكابر أهل المدينة، وهو صالح الحديث، ما أعلم به بأسًا»، وقال ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٤/ ١٣٧٥): «. . . وهو في نفسه ورواياته لا بأس به إذا سمعوا منه قديمًا، والسماع القديم: سمع منه ابن أبي ذئب وابن جريج وزياد بن سعد وغيرهم ممن سمع منه قديمًا، فأما من سمع منه بأَخِرَةٍ فإنه سَمِع وهو مختلط، ولحقه مالك والثوري وغيرهم بعد الاختلاط. . .» اهـ، توفي سنة خمس وعشرين ومائة، وانظر: «تهذيب الكمال» (١٣/ ٩٩)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ٤٠٥).

(٣) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية بن عامر بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري، أبو الدرداء الخزرجي، صاحب رسول الله ﷺ، أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا، فأبلى بلاءً حسنًا، وفضائله كثيرة، مات سنة اثنتين وثلاثين، انظر: «الإصابة» (٣/ ١٠١)، «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٤٦٩).

(٤) في ك و س زيادة: «بإذن الله». (٥) لم أجده في معاجم الطبراني المطبوعة.

ومنها: ما رواه زكريا الساجيُّ(١) عن الحسنِ بن علي الواسطيِّ(٢) عن أبي سعيدٍ الخزاعي(٣) عن الحسنِ بن سالمٍ(٤) عن سعدِ بن طريفٍ(٥) عن أبي هاشمٍ الطائي(٦) قال: «قدمتُ المدينةَ فدخلتُ مسجدَها، فجلستُ إلى ساريةٍ، فجاء حذيفةُ فقال: «لأحدثنك(٧) بحديثٍ سمعتُه من رسولِ اللهِ ﷺ، [سمعته](٨) يقولُ: «**يبعثُ اللهُ - تباركَ وتعالى - هذه الأمةَ - أو كما قال - ثلاثةَ أصنافٍ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾** [فاطر: الآية ٣٢](٩): **فالسابقُ بالخيراتِ يدخلُ الجنةَ بلا حسابٍ، والمقتصدُ يحاسَبُ حسابًا يسيرًا، والظالمُ لنفسِه يدخلُ الجنةَ برحمةِ اللهِ**»(١٠).

ومنها: ما رواه الطبرانيُّ(١١) عن محمدِ بن إسحاقَ بن راهويه(١٢) نا أبي(١٣) نا

---

(١) في ك: «زكريا الباجي». وهو خطأ، وهو زكريا بن يحيى بن داود، أبو يحيى الساجي البصري، حافظ ثبت، قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ٦١): «ما علمت فيه جرحًا أصلًا، وقال أبو الحسن بن القطان: «مختلف فيه في الحديث؛ وثقه قوم، وضعفه آخرون. . .» انتهى، ولا يغتر أحد بقول ابن القطان، قد جازف بهذه المقالة، وما ضعف زكريا الساجي هذا أحدٌ قط. . . اهـ، توفي سنة سبع وثلاثمائة.

(٢) هو الحسن بن علي بن راشد الواسطي، نزيل البصرة، قال أبو حاتم: «مستقيم الحديث جدًّا» اهـ وقال أسلم بن سهل: «ثقة»، انظر: «تهذيب الكمال» (٦/ ٢١٥).

(٣) في ك و ع: «عن أبي نصر الخزاعي». لم أجده. (٤) لم أجدْه.

(٥) هو سعد بن طريف الإسكاف الحَذَّاء الحنظلي الكوفي، قال أحمد بن حنبل: «ضعيف الحديث»، وقال ابن معين: «ليس بشيء»، وقال في موضع آخر: «لا يحل لأحدٍ أن يروي عنه»، وقال عمرو بن علي: «ضعيف الحديث، وهو يفرط في التشيع»، ورماه ابن حبان بالوضع، انظر: «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ١١٨٦)، «تهذيب الكمال» (١٠/ ٢٧١).

(٦) لم أجدْه. (٧) في ك و س: «ألا أحدثنك».

(٨) ما بين المعقوفين ليس في س. (٩) في ك زيادة: «بإذن الله».

(١٠) أخرجه ابن مردويه والديلمي -كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٤) - بلفظ: «**يبعث الله الناس على ثلاثة أصناف ...**» الخ.

(١١) تقدمت ترجمته.

(١٢) في ع: «محمد بن الحسن بن راهويه». وهو خطأ. وهو محمد بن إسحاق بن راهويه الحنظلي، الإمام العالم الفقيه الحافظ، قاضي نيسابور، أبو الحسن، قتلته القرامطة بطريق مكة سنة أربع وتسعين ومائتين، وقد قارب الثمانين. انظر: «لسان الميزان» (٥/ ٦٥)، «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٥٤٤).

(١٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه، أبو يعقوب التميمي ثم الحنظلي المروزي، الإمام الكبير، =

جريرٌ[١] عن الأعمشِ[٢] عن رجلٍ - سماه - عن أبي الدرداءِ[٣] قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] الآية قال: «**السابقُ بالخيراتِ والمقتصدُ يدخلان الجنةَ بغيرِ حسابٍ، والظالمُ لنفسِه يحاسبُ حسابًا يسيرًا، ثم يدخلُ الجنةَ**»[٤].

ومنها: ما رواه ابنُ لهيعةَ[٥] عن أبي جعفرٍ[٦] ....

= شيخ المشرق سيد الحفاظ، ولد سنة إحدى وستين ومائة، وارتحل في سنة أربع وثمانين ومائة، ولقي الكبار، وكتب عن خلق من أتباع التابعين، وحدَّث عنه الأئمة كالإمام أحمد وابن معين والشيخين وأبي داود والنسائي وغيرهم، توفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين. انظر: «تهذيب التهذيب» (١/ ٢١٦-٢١٩)، «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣٥٨-٣٨٣).

(١) هو جرير بن عبد الحميد بن قرط الضَّبي، أبو عبد الله الرازي القاضي، ولد بأصبهان، ونشأ بالكوفة، قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص/ ١٩٦)، رقم (٩٢٤): «. . . ثقة، صحيح الكتاب، قيل: كان في آخر عمره يهم من حفظه» اهـ، توفي سنة ثمان وثمانين ومائة. وانظر: «تهذيب الكمال» (٤/ ٥٤٠).

(٢) هو سليمان بن مِهْرَان، أبو محمد الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي، الإمام الحافظ، أصله من نواحي الرِّي، ولد سنة إحدى وستين، روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وأبي وائل والمعرور بن سويد وجماعة من الصحابة والتابعين، كان عزيز النفس قنوعًا، وله رزق على بيت المال في الشهر خمسة دنانير، قُرِّرَت له في آخر عمره. توفي سنة ثمان وأربعين ومائة، وقيل: سبع وأربعين. انظر: «طبقات ابن سعد» (٦/ ٣٤٢)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٢٦).

(٣) تقدمته ترجمته.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٢٦): من طريق أبي زكريا يحيى بن محمد العنبري عن محمد بن عبد السلام عن إسحاق بن راهويه به، ومن طريقه البيهقي في «البعث» (ص/ ٥٨)، رقم (٦٢). وفي سنده اختلاف كما سيأتي (ص/ ٢٨٠). قال الحاكم: «. . . وقد اختلفت الروايات عن الأعمش في إسناد هذا الحديث، فروي عن الثوري عن الأعمش عن أبي ثابت عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقيل: عن شعبة عن الأعمش عن رجل من ثقيف عن أبي الدرداء، وقيل: عن الثوري -أيضًا- عن الأعمش قال: ذَكَرَ أبو ثابت عن أبي الدرداء، وإذا كثرت الروايات في الحديث ظهر أنَّ للحديث أصلًا» اهـ.

(٥) تقدمته ترجمته.

(٦) هو عبيد الله بن أبي جعفر المصري، أبو بكر الفقيه، مولى بني كنانة، ويقال: مولى بني أمية. قال أحمد: «ليس به بأس». وقال أبو حاتم: «ثقة»، ووثقه النسائي وابن سعد، توفي سنة ست وثلاثين ومائة.

انظر: «تهذيب الكمال» (١٩/ ١٨)، «تهذيب التهذيب» (٧/ ٥).

عن يونسَ بن عبدِ الرحمن[١] عن أبي الدرداءِ[٢] قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في هذه الآيةِ: «﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢] إلى قوله: ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: الآية ٣٢] قال: «**فأمَّا السابقون فيدخلون الجنةَ بغيرِ حسابٍ، وأما المقتصدُ فيحاسبُ حسابًا يسيرًا، وأما الظالمون فيحاسبون، فيصيبهم عناءٌ وكربٌ، ثم يدخلون الجنةَ، ثم يقولون**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: الآية ٣٤]»[٣].

ومنها: ما رواه الحميديُّ:[٤] ثنا سفيانُ[٥] ثنا طعمةُ بن عمرو الجعفريُّ[٦] عن رجلٍ قال: قال أبو الدرداءِ[٧] لرجلٍ: «ألا أحدثُك بحديثٍ أخصّك به، لم أحدثْ به أحدًا؟، قال رسولُ اللهِ ﷺ: [«**فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد [ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله»]**[٨] الآية [فاطر: الآية ٣٢] قال: «**جناتُ عدنٍ**»، قال: «**دَخلُوا الجنةَ جميعًا**»[٩].

واحتجت أيضًا بالآياتِ والأحاديثِ التي تشهدُ بنجاةِ الموحدين من أهلِ الكبائرِ ودخولِهم الجنةَ، واحتجت أيضًا بأنَّ ظلمَ النفسِ إنما يرادُ به[١٠] ظلمُها بالذنوبِ والمعاصِي؛ **فإنَّ الظلمَ ثلاثةُ أنواعٍ**:

الظلمُ ثلاثةُ أنواعٍ

١ - **[ظلمٌ]**[١١] **في حقِّ النفسِ** باتباعها شهواتِها، وإيثارِهَا لها على طاعةِ ربِّها.

---

(١) قال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٤١): «يونس بن عبد الرحمن، روى عن أبي موسى الأشعري، وروى عنه ابن أبي جعفر، نا عبد الرحمن قال: سئل أبو زرعة عنه فقال: «لا أعرفه إلا في هذا الحديث» اهـ.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) لم أجده بهذا السند، وسيأتي من طريق أخرى.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران واسمه: ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي، مولى محمد بن مزاحم، وكان أعور، إمام حافظ متقن، قال الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز» اهـ، وكان يعد من حكماء أهل الحديث، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ١٧٧)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).

(٦) في ك و س: «طعيمة بن عمرو الجعفري». وهو خطأ. وهو طعمة بن عمرو الجعفري العامري الكوفي، قال ابن معين: «ثقة»، وقال أبو حاتم: «صالح الحديث»، وذكره ابن حبان في «الثقات»، توفي سنة تسع وستين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (١٣/ ٣٨٣)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ١٣).

(٧) تقدمت ترجمته.

(٨) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٩) لم أجده.

(١٠) في ك: «إنما يراد بها».

(١١) ما بين المعقوفين ليس في س.

٢ - **وظلمٌ في حقِّ الخلقِ** بالعدوانِ عليهم، ومنعهم حقوقَهم.

٣ - **وظلمٌ في حقِّ الربِّ بالشركِ به**(١).

فظلمُ النفسِ إنما هو بالمعاصي، وقد تواترتِ النصوصُ بأنَّ العصاةَ من الموحدين مآلُهم إلى الجنةِ؛ [لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٥]](٢).

- **وقالت طائفة**: بلِ الوعدُ بالجناتِ إنما هو للمقتصدِ والسابقِ دونَ الظالمِ لنفسِه؛ فإنَّ الظالمَ لَنفسِه لا يدخلُ تحتَ الوعدِ المطلقِ. القولُ الثاني

والظالمُ لنفسِه [هنا](٣) هو الكافرُ، والمقتصدُ: المؤمنُ العاصي(٤)، والسابقُ: المؤمنُ التقيُّ.

وهذا يُروى عن عكرمةَ(٥) والحسنِ(٦) وقتادةَ(٧)، وهو اختيارُ جماعةٍ من

---

(١) قال المؤلف في «الوابل الصيب» (ص/٣٣): «... والظلم عند الله ﷻ يوم القيامة له دواوين ثلاثة:
١-ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به؛ فإنَّ الله لا يغفر أنْ يشرك به.
٢-وديوان لا يترك الله -تعالى- منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا؛ فإنَّ الله يستوفيه كله.
٣-وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه ﷻ؛ فإن هذا الديوان أخف الدواوين، وأسرعها محوًا؛ فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفِّرة ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك؛ فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها» اهـ.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٣) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٤) في س: «والمقتصد: الموحِّد العاصي».

(٥) هو عكرمة بن عبد الله، أبو عبد الله البربري ثم المدني الهاشمي، مولى ابن عباس، روى عن مولاه وعائشة وأبي هريرة وعقبة بن عامر وأبي سعيد وغيرهم، قال: «طلبت العلم أربعين سنة، وكان ابن عباس يضع الكبل في رجليَّ على تعليم القرآن والسنن» اهـ، وهو ثقة ثبت عالم بالتفسير، توفي سنة أربع ومائة بالمدينة، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٩٥)، «طبقات المفسرين» (١/ ٣٨٦) للداودي.

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السَّدُوسي البصري الضرير الأكمه، وسدوس هو ابن شيبان ابن ذُهل بن ثعلبة بن بكر بن وائل، حافظ عصره، قدوة المفسرين والمحدثين، روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن سرجس وأبي الطفيل الكناني وابن المسيب وأبي العالية الرياحي وغيرهم، وروى عنه =

المفسرين، منهم صاحبُ: «الكشافِ»(١)، ومنذرُ بنُ سعيدٍ [في «تفسيرِهِ»](٢)، والرمانيُّ(٣)، وغيرُهم؛ قالوا: وهذه الآيةُ متناولةٌ لجميعِ أقسامِ الخلقِ: شقيِّهِم وسعيدِهم، وهي نظيرُ آيةِ الواقعةِ قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾(٤) [الواقعة: الآيات ٧ - ١٠].

قالوا: فأصحابُ الميمنةِ همُ المقتصدون، وأصحابُ المشأمةِ همُ الظالمون

= أئمة الإسلام: أيوب السختياني ومعمر بن راشد والأوزاعي وشعبة وحماد بن سلمة وغيرهم، كان يقول: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا»، ويقول: «ما سمعت شيئًا إلا حفظته»، ولد سنة ستين، وتوفي سنة ثماني عشرة ومائة، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٩)، «البداية والنهاية» (٩/ ٣١٣)، «شذرات الذهب» (١/ ١٥٣).

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٠٨-٣٠٩): وهو محمد بن عمر بن محمد بن أحمد، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، النحوي اللغوي المفسر، قدم بغداد فسمع من أبي الخطاب بن البطر، والشقاني وجماعة، وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري وأبي منصور الأصبهاني، وكان معتزليًّا قويًّا في مذهبه، مجاهرًا به، داعية إليه، من كتبه: «الفائق في غريب الحديث»، و«المفصل»، و«المقامات» وغيرها، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، انظر: «طبقات المفسرين» (٢/ ٣١٤) للداودي، «طبقات المفسرين» (ص/ ٤١) للسيوطي.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في س. وهو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله النفري الكزني، من فحص البلوط بالأندلس، كان متفننًا في ضروب العلم، ورحل فروى عن ابن المنذر كتابه: «الإشراف»، تفقه بفقه داود الظاهري، وكان عالمًا بالتفسير والأحكام، من كتبه: «الأحكام» و«الناسخ والمنسوخ»، و«تفسير القرآن»، توفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، انظر: «طبقات المفسرين» (٢/ ٣٣٦) للداودي.

(٣) هو علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن، النحوي، يُعْرَف بالإخشيدي، وبالورَّاق، وهو بالرُّمَّاني أشهر، قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٩٩): «. . . ، أخذ عن ابن دريد والزجاج وابن السرَّاج، وروى عنه هلال بن المحسِّن والتنوخي والجوهري، وكانت له يدٌ طولى في القرآن والفقه واللغة، له تفسير كبير، و«شرح كتاب سيبويه» و«شرح جمل ابن السرَّاج» و«صنعة الاستدلال في الكلام»، وغيرها، وكان معتزليًّا شيعيًّا، توفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. ، انظر: «الأنساب» (ص/ ٢٥٨) للسمعاني، «معجم الأدباء» (١٤/ ٧٣)، «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥٣٣)، «البداية والنهاية» (١٥/ ٤٥٠)، «طبقات المفسرين» (ص/ ٦٨) للسيوطي، «طبقات المفسرين» (١/ ٤١٩) للداودي.

(٤) في ع زيادة: «أولئك المقربون».

لأنفسِهم، والسابقون همُ السابقون بالخيراتِ.

قالوا: ولم يصطفِ اللهُ من خلقِه ظالمًا لنفسِه، بلِ المصطفَوْن من عبادِه هم صفوتُهم وخيارُهم(١)، والظالمون لأنفسِهم ليسوا خيارَ العبادِ بل شرارُهم، فكيف يوقعُ عليهم اسمَ المصطفين، ويتناولهم فعلُ الاصطفاء؟!.

قالوا: وأيضًا صفوةُ اللهِ هم أحباؤُه، واللهُ لا يحبُّ الظالمين، فلا يكونون مصطفين.

قالوا: ولأن الظالمَ لنفسِه وإن كان ممن أُوْرِث الكتابَ؛ فهو بتركِهِ للعملِ(٢) بما فيه قد ظَلَم نفسَه، واللهُ - تعالى - إنما اصطفى من عبادِه من أورثَهُ كتابَه؛ ليعملَ بما فيه، فأمَّا من نبذَهُ وراءَ ظهرِه فليس من المصطفين من عبادِه.

قالوا: ولأنَّ الاصطفاءَ افتعالٌ من: «صفوةِ الشيءِ» وهو خلاصتُه ولبُّه، وأصلُه: «اصتفا»، فأبدلت التاءُ طاءً؛ لوقوعِها بعد الصادِ، كـ: «الاصطباحِ»، و«الاصطلامِ» ونحوه، والظالمُ لنفسِه ليس صفوةَ العبادِ، ولا خلاصتَهم، ولا لبَّهم، فلا يكونُ مصطفًى(٣).

قالوا: ولأن اللهَ - تعالى - سلَّم على المصطفين من عبادِه فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: الآية ٥٩]، وهذا يقتضي سلامتَهم من كلِّ شرٍ وكلِّ عذابٍ، والظالمُ لنفسِه غيرُ سالمٍ من هذا ولا هذا، فكيف يكونُ من المصطفين؟!.

قالوا: وأيضًا فطريقةُ القرآنِ أن الوعدَ المطلقَ بالثوابِ إنما يكونُ للمتقين لا للظالمين؛ كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: الآية ٦٣]، فأين الظالمُ لنفسِه هنا؟!، وقولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: الآية ١٥]، وقولِه: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٦]، والقرآنُ مملوءٌ من هذا.

---

(١) في س: «هم صفوته وخياره». (٢) في س: «بتركه العمل».

(٣) وقال آخرون من أصحاب هذا القول: «إنَّ الاصطفاء هنا هو الاصطفاء في الخلقة، وإرسال الرسل ونحو ذلك». ولا يخفى بُعْدُهُ. انظر: «معالم التنزيل» (٦/ ٤٢٣) للبغوي.

ولم يجئ فيه موضعٌ واحدٌ بإطلاقِ الوعدِ بالثوابِ للظالمِ لنفسِه أصلًا.

قالوا: و- أيضًا - فلم يجئ في القرآنِ ذكرُ الظالمِ لنفسِه إلا في معرضِ الوعيدِ، لا الوعدِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٦]، [وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبَإ: الآية ١٩]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٨]، وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾[(١)] [يونس: الآية ٤٥]. قالوا: وأيضًا فالظالمُ لنفسِه هو الذي خفتْ موازينُه، ورجحتْ سيئاتُه، والقرآنُ كلُّه يدلُّ على خسارتِه وأنه غيرُ ناجٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٨ - ٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٨ - ٩]. فكيف يذكرُ وعدَه بِجَنَّاتِهِ [وكرامتِه][(٢)] للظالمين أنفسِهم، الخفيفةِ موازينُهم؟!

قالوا: وأيضًا فقولُه تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرّعد: الآية ٢٣] مرفوعٌ؛ لأنه بدلٌ من قولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢]، وهو بدلُ نكرةٍ من معرفةٍ: كقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: ١٥ - ١٦]، وحَسَّنَ وقوعَه مجيءُ النكرةِ موصوفةً لتخصيصِها بالوصفِ، وقربِها من المعرفةِ.

ومعلومٌ أنَّ المبدَّلَ منه - وهو: «الفضلُ الكبيرُ» - مختصٌ بالسابقين بالخيرات، والمعنى: أن سبقَهم بالخيراتِ بإذنِه هو الفضلُ الكبيرُ[(٣)]، وهو جناتٌ عدنٍ يدخلونها، وجَعَلَ السبقَ بالخيراتِ نفسَ الجناتِ؛ لأنه سَبَبُهَا ومُوْجِبُها.

قالوا: وأيضًا - فإنه وصفَ حِليتَهم فيها بأنها أساورُ من ذهبٍ ولؤلؤٍ، وهذه جناتُ السابقين، لا جناتُ المقتصدين؛ فإنَّ جناتِ الفردوسِ أربعٌ، كما ثبت في «الصحيحِ» عن النبيِ ﷺ أنه قال: «**جنتانِ من ذهبٍ: آنيتُهما وحليتُهما وما فيهما، وجنتانِ من فضةٍ: آنيتُهما وحليتُهما وما فيهما، وما بين القومِ وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداءُ الكبرياءِ**

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في ك وس: «ذلك هو الفضل الكبير».

على وجهِه في جنةِ عدنٍ» [(١)].

ومعلومٌ أن الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضلُ من الفِضِّيَّتين، فإذا كانتِ الجنتان الذهبيتان للظالمين لأنفسِهم[(٢)]؛ فمن يسكنُ الجنتين الفضيتين؟!.

فعُلِمَ أن هذهِ الجناتِ المذكورةَ لا تتناولُ الظالمين لأنفسِهم.

قالوا: وأيضًا فإنَّ أقربَ المذكوراتِ إلى ضميرِ الداخلين همُ السابقون بالخيراتِ، فوجب اختصاصُهم بالدخولِ إلى الجناتِ المذكورةِ.

قالوا: وفي اختصاصِهم بعد ذكرِ الأقسامِ بذكر ثوابِهم، والسكوتِ عن الآخرين ما هو معلومٌ من طريقةِ القرآنِ؛ إذ يصرحُ بذكرِ ثوابِ الأبرارِ والمتقين والمخلصين والمحسنين، ومن رجحتْ حسناتُهم، ويذكرُ عقابَ الكفارِ والفجارِ والظالمين لأنفسِهم، ومن خفتْ موازينُهم، ويسكتُ عن القسمِ الذي فيه شائبتان، وله مادَّتَان.

هذهِ[(٣)] طريقةُ القرآنِ؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤].

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ.

قالوا: وفي السكوتِ عن شأنِ صاحبِ الشائبتين تحذيرٌ عظيمٌ، وتخويفٌ له؛ فإنَّ أمرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس [له][(٤)] عليه ضمانٌ، ولا له عنده وعدٌ، فليحذرْ[(٥)] كلَّ الحذرِ، وليبادرْ بالتوبةِ النصوحِ التي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النجاةُ والفلاحُ.

قالوا: وأيضًا فمن المحال أن يقعَ على أحدٍ من المصطفين اسمُ الظلم مطلقًا، وإنما يقعُ اسمُ: الظلم / مطلقًا/[(٦)] على الكافرِ؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٤١١)، والبخاري رقم (٤٨٧٨)، ومسلم رقم (١٨٠)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٢٥٢٨)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (١٨٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، بدون قوله: **«وحليتهما»**.

(٢) في س: «للظالمين أنفسَهُم».

(٣) في س: «وهذه».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٥) في ك و س: «وليحذر».

(٦) ما بين القائمين ليس في الأصل، وهو في باقي النسخ.

مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: آية ٨]، مع قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧]، والظالمُ لا وليَّ له، فلا يكونُ من المؤمنينَ.

قالوا: و أيضًا فمن تدبَّر الآياتِ، وتأمَّلَ سياقَها؛ وجدها قدِ استوعبتْ جميعَ أُقسامِ الخلقِ، ودلَّت على مراتبهم في الجزاءِ(١)، فذكر سبحانَهُ [فيها](٢) أنَّ الناسَ نوعان: ظالمٌ، ومحسنٌ، ثم قسَّمَ المحسنين(٣) إلى قسمين: مقتصدٍ، وسابقٍ، ثم ذكر جزاءَ المحسنِ، فلما فرغ منه ذكر جزاءَ الظالمِ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطِر: الآية ٣٦]، و[قد](٤) قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبِيَاء: الآية ٢٩]، فذكر أنواعَ العبادِ، وجزاءَهم.

قالوا: وأيضًا فهذه طريقةُ القرآنِ في ذكرِ أصنافِ الخلقِ الثلاثةِ، كما ذكرَهُم تعالى في سورةِ: «الواقعةِ»، [و«المطففين»]، وسورة «الإنسان».

فأما سورة «الواقعة»](٥) فذكرهم في أولِ ها، وفي آخرِ ها، فقال في أولِها: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ٧ - ١٢]، فأصحابُ المشأمةِ هم الظالمون، وأما أصحابُ اليمينِ فقسمان: أبرارٌ، وهم أصحابُ الميمنةِ، وسابقون، وهم المقربون.

و قال في آخرِها: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، فذكَرَ حالَهُم في القيامةِ الكبرى في أولِ السورةِ، ثم ذكر حالَهم في القيامة الصغرى في البرزخ في آخر السورة، ولهذا قدَّم قبله ذِكرَ الموتِ ومفارقة الروح، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ

---

(١) في س: «في الخير». وهو خطأ. (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في باقي النسخ: «ثم قسم المحسن». وهو أحسن.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س. (٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧]، ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الواقعة: الآية ٨٨] إلى آخرها.

وأمَّا في أولِها فذكر أقسامَ الخلقِ عقبَ قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقعة: ١ - ٧].

وأما [في][1] **سورةِ «الإنسانِ»**: فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: الآية ٤]، فهؤلاءِ [هم][2] الظالمون، أصحابُ المشأمةِ، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: الآية ٥]، فهؤلاء المقتصدون، أصحابُ اليمينِ.

ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: الآية ٦]، فهؤلاءِ المقربون السابقون، ولهذا خصَّهم بالإضافةِ إليه، وأخبر أنهم يشربون بتلك العينِ صِرْفًا محضةً، وأنها تمزجُ للأبرارِ مزجًا، كما [قال][3] في سورةِ «المطففين» في شرابِ الأبرارِ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [٢٧ - ٢٨].

وقال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ٢٨] ولم يقل: «منها»؛ إشعارًا بأن ريَّهم بالعينِ نفسِها خالصةً[4]، لا بها وبغيرها، فضَمَّن «يشرب» [معنى][5] «يُروى»، فعُدِّي بالباءِ.

وهذا ألطفُ مأخذًا، وأحسنُ معنًى من أن يجعلَ الباءَ بمعنى: «مِن»، ولكن يُشْرَّبُ الفِعْلُ معنى فِعْلٍ آخرَ، فيُعَدَّى تعديتَهُ.

وهذهِ طريقةُ الحُذَّاقِ من النُّحاةِ، وهي طريقةُ سيبويهِ وأئمةِ أصحابِه[6].

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.
(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.
(٣) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٤) في س: «خاصّةً».
(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٦) إذا عُدِّي الفعل بحرفٍ، وهو يتعدى بغيره ففيه قولان:

قول البصريين: إن الفعل يُضَمَّن معنى فعل مناسبٍ يتعدى بهذا الحرف؛ لأن المعنى المتبادر من الحرف له، ولا ينوب عنه غيره فيه، كما أن أحرف النصب والجزم لا ينوب بعضها عن بعض. وهذا القول -كما قال المؤلف- ألطف مأخذًا وأحسن معنى؛ لأن الفعل على هذا يكون دالًّا على معنيين: المعنى الأصلي له، ومعنى الفعل الذي عُدِّي تعديته. =

. . . .

= قول الكوفيين وبعض المتأخرين: إنَّ الحرف المذكور يكون بمعنى الحرف الذي يتعدى به هذا الفعل؛ لأن الحروف -عندهم- ينوب بعضها عن بعض. مثاله: قوله - تعالى -: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٧٧]، فالبصريون يضمنون الفعل: «نصر» معنى «خلَّص» و«نجَّى»، فيكون دالًّا على الخلوص والنجاة مع النصر، والكوفيون ومَن تبعهم يجعلون الحرف «من» بمعنى «على». قال المؤلف في «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠): «. . . ولكن نذكر قاعدة. . . ، وهي أنَّ الفعل المعدَّى بالحروف المتعدِّدة لابد أنْ يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإنْ ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو: «رغبت عنه» و«رغبت فيه»، و«عدلت إليه» و«عدلت عنه»، و«ملت إليه» و«ملتُ عنه»، و«سعيت إليه» و«سعيت به»، وإنْ تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق، نحو: «قصدتُ إليه» و«قصدت له»، و«هديته إلى كذا» و«هديته لكذا»:

وظاهريَّة النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه -رحمه الله تعالى-، وطريقة حذاق أصحابه: يضمنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار، تستدعي فطنة ولطافة في الذهن، نحو قوله -تعالى-: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسَان: الآية ٦]؛ فإنهم يضمنون «يشرب» معنى «يروى»؛ فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين: أحدهما بالتصريح به، والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار.

وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها. . . .

وهذا أحسن من أن يقال: «يشرب منها»؛ فإنه لا دلالة فيه على الرِّي، وأنْ يقال: «يروى بها»؛ لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: «يشرب بها»؛ دلَّ على الشرب بصريحه، وعلى الرِّي، بخلاف الباء [كذا، ولعلها: بدلالة الباء]؛ فتأمله.

ومن هذا قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٥]، وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء، ولكن ضُمِّن معنى «يهمّ فيه بكذا»؛ وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة -وإن لم تكن جازمة-، وهذا باب واسع، لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران. . .» اهـ.

وقد تكلم المؤلف أيضًا على قوله -تعالى-: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسَان: الآية ٦] في «حادي الأرواح» (ص/ ١٣٦)، وذكر قول البصريين، وقول الكوفيين ومن تبعهم، ثم قال: «. . . وقالت طائفة: الباء للظرفية، و«العين»: اسم للمكان، كما تقول: كنا بمكان كذا وكذا. . .» اهـ. =

وقال في الأبرارِ: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٥]؛ لأن شربَ المقربين لما كان أكملَ؛ استُعِيرَ له الباءُ الدالةُ على شربِ الرِّيِّ بالعينِ خالصةً.

ودلالةُ القرآنِ ألطفُ وأبلغُ من أنْ يحيطَ بها البشرُ.

وقال تعالى في سورةِ «المطففين»: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: ٧ - ١٧]، فهؤلاءِ الظالمون، أصحابُ الشمالِ، ثم قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ [المطففين: ١٨ - ١٩]، فهؤلاءِ الأبرارُ المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابَهم - أي: يكتبُ بحضرتِهم ومشهدِهم، لا يغيبون عنه - اعتناءً به، وإظهارًا لكرامةِ صاحبِه ومنزلتِه عند ربِّه.

ثم ذكر سبحانَه نعيمَ الأبرارِ ومجالسَهم[(١)]، ونظرَهم إلى ربِّهم، وظهورَ نضرةِ النعيمِ[(٢)] في وجوهِهم.

ثم ذكر شرابَهم فقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٥ - ٢٦]، ثم قال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧ - ٢٨]، والتسنيمُ[(٣)]: أعلى أشربةِ الجنةِ.

فأخبر سبحانَه أن مزاجَ شرابِ الأبرارِ من التسنيمِ، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاجٍ، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطفّفين: الآية ٢٨]، كما قال في سورةِ الإنسانِ، سواءً.

قال ابنُ عباسٍ[(٤)] وغيرُه: «يشربُ بها المقربون صِرفًا، وتمزجُ[(٥)] لأصحابِ اليمينِ

= وانظر: «الخصائص» (٢/ ٣٠٦-٣١٥) لأبي الفتح ابن جني، «مغني اللبيب» (٢/ ٣٧٢) لابن هشام، «الكليات» (ص/ ٢٦٧)، «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٤٢)، «مجلة مجمع اللغة العربية» (١/ ٢٠٢-٢٦٨) بحث: «التضمين».

(١) في ك: «ومجالستهم». (٢) في س: «وظهور لذَّة نظْرة النعيم».

(٣) التسنيم -في الأصل-: الارتفاع، وضدُّ التسطيح، ومنه: سنام البعير؛ لعلوِّه من بدنه، وتسنيم القبور. انظر: «القاموس» (ص/ ١٤٥٢).

(٤) تقدمت ترجمته. (٥) في ك و س: «ويمزح».

مزجًا»[١]؛ وهذا لأن الجزاءَ وفاقُ العملِ، فكما خلُصتْ أعمالُ المقربين كلُّها للهِ؛ خلُصَ شرابُهم، وكما مزجَ الأبرارُ الطاعاتِ بالمباحاتِ؛ مزجَ لهم شرابَهم، فمن أخلصَ أُخلِصَ شرابُه، ومن مُزِجَ مزج شرابُه[٢]:

فيا لاهيًا[٣] في غمرةِ الجهلِ والهوى ... صريعًا على فُرشِ الرَّدَى يتقلبُ
تأملْ - هداك اللهُ - ما ثَمَّ، وانتبه ... فهذا شرابُ القوم حقًّا يُركَّبُ
وتركيبُه في هذهِ الدارِ إنْ تَفُتْ[٤] ... فليس له بعدَ المنيةِ مطلبُ
فيا عجبًا من مُعْرِضٍ عن حياتِهِ ... وعن حظِّهِ العالي ويلهو ويلعبُ
ولو عَلِمَ المحرومُ أيَّ بضاعةٍ ... أضاع لأمسى قلبه يَتَلَهَّبُ
فإن كان لا يدري[٥] فتلك مصيبةٌ ... وإن كان يدري[٦] فالمصيبةُ أصعبُ
بلى سوف يدري[٧] حين ينكشفُ الغِطَا ... ويصبح[٨] مسلوبًا ينوحُ ويندبُ
وتعجبُ ممن باع شيئًا بدون ما ... يساوي بلا علم، وأمرُكَ أعجبُ
لأنك قد بِعْتَ الحياة وَطِيبَهَا ... بلذة حلم عن قليل سَتَذْهَبُ[٩]
فهلا عكستَ الأمرَ إن كنت حازمًا ... ولكنْ أضعتَ الحزمَ، والحلمُ[١٠] يغلِبُ
تَصُدُّ وتنأى عن حبيبِكَ دائمًا ... فأين عن الأحبابِ - ويحكَ - تذهبُ[١١]

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٦٩)، والبيهقي في «البعث» (ص/ ١٩١)، رقم (٣٦٣)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢٨) إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (١٥٢٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ١٤٢)، رقم (١٥٩٣٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٦٩)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢٨) إلى سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم: عن ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرج نحوه ابن المنذر عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢٨).

(٢) عقد المؤلف في «حادي الأرواح» (ص/ ١٣١-١٣٨) بابًا في ذكر أنهار الجنة وعيونها وأصنافها ومجراها الذي تجري فيه وفي «الكافية الشافية» (ص/ ٢٢٤-٢٢٥) فصلًا في أنهار الجنة، وآخر في شراب أهلها؛ فليُنظر.

(٣) في ك: «أيا لاهيًا»، وفي س: «يا لاهيًا».

(٤) في ع و ك: «إن يفت».

(٥) في س: «لا تدري». (٦) في س: «وإن كنتَ تدري». (٧) في س: «تدري».

(٨) في س: «وتصبح». (٩) في ك و س: «سيذهب».

(١٠) في ك و س: «والحكم». وهو الصواب. (١١) في ع: «مَذْهَبُ».

ستعلمُ يومَ الحشرِ أيَّ تجارةٍ أضَعتَ إذا تلك الموازينُ تُنصَبُ[(١)]

قالوا: فهكذا هذه الآياتُ التي في سورةِ الملائكةِ، ذكر فيها الأقسامَ الثلاثةَ: الظالمَ لنفسِه - وهو من أصحابِ الشمالِ -، وذكر المقتصدَ - وهو من أصحابِ اليمينِ -، وذَكَرَ السابقين - وهم المقربون.

قالوا: وليس في الآيةِ ما يدلُّ على اختصاصِ الكتابِ بالقرآنِ، والمصطَفَين بهذه الأمةِ[(٢)]، بل الكتابُ اسمُ جنسٍ لكتُبِهِ[(٣)] التي أنزلها على رسُلِه؛ فإنه أورثها المصطفين من عبادِه من كلِّ أمَّةٍ، وهم الأنبياءُ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم -، هم الذين أورثوه[(٤)] أولًا، ثم أُورِثَه المصطفون[(٥)] من أممِهم بعدَهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر: الآيتان ٥٣ - ٥٤]، فأخبر أنه إنما يكونُ هدىً وذكرى لمن له لُبُّ عقلٍ بهذا الكتابِ، وعمل بما فيه، والعاملُ بما فيه هو الذي أورثه اللهُ علمَه.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشّورى: الآية ١٤]، كيف حذف الفاعلَ هنا، وبني الفعلَ للمفعولِ لَمَّا كان في مَعْرِضِ الذمِّ لهم، ونفي العلمَ عنهم، ولَمَّا كان في سياقِ ذكرِ نعمِه وآلائِه ومننِه عليهم قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [غافر: الآية ٥٣]؟ ونظيرُه هذهِ الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢].

ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩]؛ فإنه[(٦)] لما كان الكلامُ في سياقِ ذمِّهم على اتباعِهم شهواتهم، وإيثارِهم العرضَ الفاني على حظِّهم من الآخرةِ، وتماديهِم في ذلك؛ لم ينسبِ التوريثَ إليه، بل نسبه إلى المحلِّ، فقال: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩]، ولم يقل: «أورثناهمُ الكتابَ».

وقد ذكرتُ نظيرَ هذا في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أنه للمدحِ، و﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إما

---

(١) لم أجدها، والأظهر أنها للمؤلف. (٢) في ع: «بهذه الآية». وهو غلط.

(٣) في ع: «اسم جنس للكتب»، وفي ك و س: «اسم جنس الكتب». (٤) في ك: «ورثوه».

(٥) في س: «أورثه المصطفين». (٦) في ك و س: «وأنه».

في سياق الذمِّ، وإما منقسمٌ في كتابِ «التحفةِ المكيةِ»[(١)].

والمقصودُ أن الذين أورثهم الكتابَ هم المصطفون من عبادِه أولًا وآخرًا.

قالوا: وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٣٢] لا[(٢)] يرجعُ إلى المصطفين، بل إما أن يكونَ الكلامُ قد تَمَّ عند قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢]، ثم استأنفَ جملةً أخرى ذَكَر[(٣)] فيها أقسامَ العبادِ، وأن منهم ظالمًا[(٤)]، ومنهم مقتصدٌ، ومنهم سابقٌ، ويكون الكلامُ جملتين مستقلتين، بَيَّن في إحداهما أنه أورثَ كتابه مَن اصطفاه من عبادِه، وبَيَّنَ في الأخرى أنَّ من عبادِه ظالمًا[(٥)]، ومقتصدًا، وسابقًا.

وإما أن يكون المعنى تقسيمَ المرسَلِ إليهم بالنسبةِ إلى قبولِ الكتابِ، وأن منهم مَنْ لم يقبلْهُ - وهو الظالمُ لنفسِه -، ومنهم من قبلهُ مقتصدًا فيه، ومنهم من قبلهُ سابقًا بالخيراتِ بإذن ربِّه[(٦)].

قالوا: والذي يدلُّ على هذا الوجهِ أنه سبحانه ذكَرَ إرسالَه في كلِّ أمَّةٍ[(٧)] نذيرًا ممن تقدَّمَ هذه الأمَّةَ، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: الآية ٢٤]، ثم ذكر أن رسلَهم

---

(١) بسط المؤلف الكلام على هذه النكتة في «مفتاح دار السعادة» (ص/ ١٠٢ - ١٠٥)، وقال في آخره: «... فالأقسام أربعة:

١- ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ﴾، وهذا لا يذكره -سبحانه- إلا في معرض المدح.

٢- و﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾ لا يكون قط إلا في معرض الذم.

٣- و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ﴾ أعمُّ منه؛ فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يُفرد به الممدوحون قط.

٤- و﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ﴾ يعمُّ الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم...» اهـ. وكذا في «بدائع الفوائد» (٢/ ٢١٤-٢١٥)، وذكر أنه بسط الكلام على ذلك في كتاب: «الفوائد المكية»، ثم قال: «ومثله قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: الآية ١٤]، وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩] ... اهـ.

وأما «التحفة المكية» فهو من كتبه المفقودة، واسمه كاملًا: «التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية» - كما ذكر في «بدائع الفوائد» (٤/ ١٦٧)، انظر: «ابن قيم الجوزية: حياته، آثاره، موارده» (ص/ ٢٢٨) لبكر أبو زيد.

(٢) كذا في جميع النسخ، والصواب: «فلا». (٣) في ك و س: «وذكر».

(٤) في س زيادة: «لنفسه». (٥) في ك زيادة: «لنفسه».

(٦) في ك و س: «بإذن الله». (٧) في ع: «ذَكَرَ إرساله في كلامه». وهو غلط.

جاءَتهُم بالبيناتِ وبالزبرِ وبالكتابِ المنيرِ[١].

والبيناتُ والآياتُ الدالةُ[٢] على صدقِهم، وصحةِ رسالتِهم.

والزُّبُرُ: الكتابُ[٣]، واحدُها: «زَبورٌ» بمعنى: مزبورٍ، أي: مكتوبٍ[٤].

والكتابُ المنيرُ[٥] من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لتميزِه عن[٦] المسمى العامِّ بفضيلةٍ وشرفٍ امتاز بها، واختُصَّ بها عن غيرِه، وهو كعطفِ جبريلَ وميكائيلَ على الملائكةِ، وكعطفِ أُولِي العزمِ على النبيين من قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: الآية ٧].

والكتابُ المنيرُ - ها هنا - هو التوراةُ والإنجيلُ.

ثم ذكر إهلاكَ المكذبين لكتابِه ورسلِه[٧]، فقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٢٦].

ثم ذكر التَّالِينَ لكتابِه - وهم المتَّبِعُون له، العامِلُون بشرائعِه - فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٩، ٣٠].

ثم ذكر الكتابَ الذي خصَّ به خاتمَ أنبيائِه ورسلِه محمدًا ﷺ، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٣١].

ثم ذَكَر سبحانه مَنْ أورثَهُم الكتابَ بعد أولئك، وأنه اصطَفَاهُم لتوريثِ كتابِه؛ إذ رَدَّهُ المكذبون، ولم يقبَلُوا توريثَه.

قالوا: وأما قولُكُم: «إن الاصطفاءَ: افتعالٌ من الصفوةِ، وهي الخيارُ، وهي إنما

---

(١) في ك: «وبالكتاب المبين».

(٢) كذا في الأصل، وفي ع: «فالبينات والآيات الدالة...»، وفي ك: «والبينات: الآيات الدالة...»، وفي س: «فالبينات: الآيات الدالة...». وهو الصواب.

(٣) في ك و س: «والزبر: الكتب». وهو أحسن.

(٤) انظر: «لسان العرب» (٤/ ٣١٥)، «القاموس» (ص/ ٥٠٩).

(٥) في باقي النسخ: «والكتاب المبين».

(٦) في ك: «ليميزه على»، وفي س: «ليميزه عن».

(٧) في ك: «المكذبين بكتابه ورسله».

مناقشةُ أصحابِ القولِ الثاني

تكونُ في السعداءِ»: فهذا بعينِه حجةٌ لنا في أنَّ الظالمَ لنفسِه ليس مِمَّنِ اصطفَاهُ اللهُ من عبادِه، وقد تقدَّم تقريرُه.

قالوا: وأما الآثارُ التي رويتُمُوهَا عن النبيِّ ﷺ في ذلك فكلُّها ضعيفةُ الأسانيدِ، أو منقطعةٌ[١] لا تثبتُ؛ كيف وهي معارضةٌ بآثارٍ مثلِها، أو أقوى منها[٢]:

قال ابنُ مردويهِ[٣] في «تفسيرِه»: «حدَّثنا الحسنُ بنُ عبدِاللهِ[٤]، حدثنا صالحُ بنُ أحمدَ[٥] حدثنا أحمدُ بنُ محمدِ بنِ المُعَلَّى الآدميُّ[٦]، حدثنا حفصُ بنُ عمارٍ[٧]، حدثنا مباركُ بنُ فضالةَ[٨] عن عبيدِ اللهِ بنِ عُمَرَ[٩].

عن نافعٍ[١٠] عن بن عمرَ[١١]، عن النبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ

(١) في ك و س: «ومنقطعة». (٢) في س: «وأقوى منها».

(٣) هو أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، الحافظ الكبير، الثبت العلامة، كان بصيرًا بالرجال، طويل الباع، مليح التصانيف، من كتبه: «التفسير» و«التاريخ» و«المستخرج على صحيح البخاري»، ولد سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ومات سنة عشر وأربعمائة، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٣٠٨)، «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٥٠)، «طبقات المفسرين» (١/ ٩٣) للداودي.

(٤) في باقي النسخ: «حدثنا الحسن بن عبد الله بن الحسن» لم أجده. (٥) لم أجده.

(٦) في س: «حدثنا محمد بن أحمد بن المعلى الأدمي». وهو خطأ. وهو أحمد بن محمد بن المعلى الأدمي، أبوبكر البصري، قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص/ ٩٨)، رقم (٩٩): «صدوق من الحادية عشرة» اهـ، وانظر: «تهذيب الكمال» (١/ ٤٧١).

(٧) في ك: «حفص بن عمارة». وهو خطأ. وهو حفص بن عمار المعلم، مجهول، وقد ذكره ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٢/ ٧٩٩)، وساق له مناكير، وانظر: «لسان الميزان» (٢/ ٣٢٤).

(٨) هو مبارك بن فضالة بن أبي أمية القرشي العدوي، أبو فضالة البصري، كان صاحب فضل وصلاح، قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص/ ٩١٨)، رقم (٦٥٠٦): «. . . صدوق يدلس ويسوِّي» اهـ. توفي سنة ست وستين ومائة، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٧/ ١٨١)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠٠).

(٩) هو عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أبو عثمان القرشي العدوي ثم العمري المدني، إمام مجوِّد حافظ، ولد بعد السبعين أو نحوها، وهو من صغار التابعين، قال أبو حاتم: «سألت أحمد بن حنبل عن مالك وأيوب وعبيد الله بن عمر: أيهم أثبت في نافع؟ قال: عبيدالله أثبتهم وأحفظهم وأكثرهم رواية»، وقال أبوبكر بن مَنْجويه: «كان عبيد الله من سادات أهل المدينة، وأشراف قريش فضلًا وعلمًا وعبادةً وشرفًا وحفظًا وإتقانًا، توفي سنة سبع وأربعين ومائة تقريبًا». انظر: «الجرح والتعديل» (٥/ ٣٢٦)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٠٤).

(١٠) سبقت ترجمته. (١١) سبقت ترجمته.

لِنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] قال: «**الكافرُ**»[(١)].

قالوا: وأما النصوصُ الدالةُ على أنَّ أهلَ التوحيدِ يدخلون الجنةَ فصحيحةٌ، لا ننازعُكُم فيها، غيرَ أنها مطلقةٌ، ولها شروطٌ وموانعُ، كما أن النصوصَ الدالةَ على عذابِ أهلِ الكبائرِ[(٢)] صحيحةٌ متواترةٌ، ولكن لها شروطٌ وموانعُ، يتوقفُ لحوقُ الوعيدِ عليها، فكذلك نصوصُ الوعدِ يتوقفُ مقتضاها على شروطِها، وانتفاءِ موانِعها.

قالوا: وأما قولُكم: «إنَّ ظُلْمَ النفسِ إنما يرادُ به ظلمُها بالذنوبِ والمعاصي دونَ الكفرِ»: فليس بصحيحٍ؛ فقد ذُكِرَ في القرآنِ[(٣)] ما يدلُّ[(٤)] على أن ظلمَ النفسِ يكونُ بالكفرِ والشركِ، ولو لم يكن في هذا إلا قولُ موسى [لقومِه][(٥)]: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبَإ: الآية ١٩]، ونظائرُه كثيرةٌ[(٦)].

ردُّ أصحابِ القولِ الأولِ على أصحابِ القولِ الثاني

قالتِ[(٧)] **الطائفةُ الأولى**: لو تدبرتُم القرآنَ حقَّ تدبرِه، وأعطيتم الآياتِ حقَّها من الفهمِ، وراعيتم وجوهَ الدلالةِ، وسياقَ الكلامِ؛ لعلمتم أنَّ الصوابَ معنا، وأن هذهِ الأقسامَ الثلاثةَ من[(٨)] الأقسامِ التي خُلِقَتْ للجنةِ، وهم درجاتٌ عند اللهِ، وأن هذا التقسيمَ الذي دلَّت عليه أخصُّ من التقسيمِ المذكورِ في سورةِ «الواقعةِ» و«الإنسانِ» و«المطففين»؛ فإن ذلك تقسيمٌ للناسِ[(٩)] إلى شقيٍّ وسعيدٍ، وتقسيمُ السعداءِ[(١٠)] إلى أبرارٍ ومقربين، وتلك القسمةُ خاليةٌ عن ذكرِ العاصي الظالمِ لنفسِه/ .

وأما هذهِ الآياتُ: ففيها تقسيمُ الأمةِ[(١١)] إلى محسنٍ ومسيءٍ، والمسيءُ هو الظالمُ لنفسِه/[(١٢)]، والمحسنُ نوعان: مقتصدٌ، وسابقٌ بالخيراتِ، فإنَّ الوجودَ شاملٌ لهذا

---

(١) عزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٢) إلى ابن مردويه من حديث عمر رضي الله عنه، وليس ابن عمر.

(٢) في ع: «عذاب أهل النار».

(٣) في ع: «فقد ذكر من القرآن»، وفي ك و س: «فقد ذكرنا في القرآن». (٤) في ك: «ما دَلَّ».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٦) انظر (ص/ ٢٧٥). (٧) في ك: «فقالت».

(٨) كذا في الأصل وع، وفي ك و س: «وهي». والصواب: «هي».

(٩) أي: الناس من جميع الأمم: أمة محمد ﷺ ومن قبلها من الأمم. انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨٣).

(١٠) في ع: «للسعداء».

(١١) أي: أمة محمد ﷺ خاصة. انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨٣).

(١٢) ما بين القائمين سقط من الأصل، وهو في باقي النسخ.

القسمِ، بل هو أغلبُ أقسامِ الأمَّةِ، فكيف يخلو القرآنُ عن ذكرِه، وبيانِ حكمِه؟!

ثم لما استوفى أقسامَ الأمَّةِ، ذَكَرَ الخارجين عنهم(١) وهم الذين كفروا.

فعمتِ الآيةُ أقسامَ الخلقِ كلِّهم.

وعلى ما ذهبتُم إليه تكونُ الآيةُ قد أَهْمَلَتْ ذِكْرَ القسمِ الأغلبِ الأكثرِ، وكرَّرَتْ ذكرَ حُكْمِ الكافرِ أولًا وآخرًا، ولا ريبَ أن ما ذكرناه أولى؛ لبيانِ حِكْمةِ(٢) هذا القسمِ، وعمومِ الفائدةِ.

وأيضًا فإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] صريحٌ في أن الذين أورثهمُ الكتابَ هم المصطفون من عبادِه.

وقوله ﷻ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] إما أن يرجعَ إلى الذين اصطفاهم، وإما أن يرجعَ إلى العبادِ. ورجوعُه إلى الذين اصطفى(٣) أَوْلى لوجهين:

أحدُهما: أَنَّ قولَهُ: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢](٤) إنما يرجعُ إلى المصطفين لا إلى العبادِ، فكذلك قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢].

ولا يقالُ: بلِ الضمائرُ كلُّها تعودُ على العبادِ؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ، والإتيانَ بالفاءِ، والتقسيمَ المذكورَ كلَّه يدلُّ على أنَّ المرادَ بيانُ أقسامِ الوارثين للكتابِ، لا بيانُ أقسامِ العبادِ؛ إذ لو أرادَ ذلك لَأَتَى بلفظٍ يُزيلُ الوهمَ، ولا يلتبسُ به المرادُ بغيرِهِ، وكان وجهُ الكلامِ على هذا أنْ يقالَ: «ومن عبادِنا ظالمٌ لنفسِه ومقتصدٌ وسابقٌ بالخيراتِ، ثم أورثْنا الكتابَ الذين اصطفينا [منهم](٥)»، وهذا معنى الكلامِ عندكم(٦).

ولا ريبَ أنَّ سياقَ الآيةِ لا يدلُّ عليه، إنما يدلُّ على أنه أورث الكتابَ طائفةً من عبادِه، وأنَّ تلك الطائفةَ ثلاثةُ أقسامٍ.

هذا وجهُ الكلامِ الذي يدلُّ عليه ظاهرُه.

---

(١) في س: «الخارجين منهم».

(٢) في ع و س: «لبيان حُكْم هذا القسم». وهو أحسن.

(٣) في ع: «الذين اصطفينا»، وفي س: «الذين اصطفاهم».

(٤) في ع و س زيادة: «بالخيرات».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٦) في ع: «وهذا هو معنى الكلام عندكم».

الثاني: أنك إذا قلتَ: «أعطيتُ مَالِي البالغين من أولادِي[(١)]: فمنهم تاجرٌ، ومنهم خازنٌ، ومنهم مُبَذِّرٌ [و][(٢)] مُسْرِفٌ»: هل يَفهمُ من هذا أحدٌ قطُّ أنَّ هذا التقسيمَ لجملةِ أولادِهِ؟!.

بل لا يُفْهَم منه إلا أنَّ أولادَه كانوا في أخذِهم المالَ أقسامًا ثلاثةً؛ ولهذا أَتَى فيها بالفاءِ الدالةِ على تفصيلِ ما أجمله أوَّلًا، كما إذا قلت: «خذْ هذا المالَ فأعطِ فلانًا كذا، وأعطِ فلانًا كذا»، ونظائرُه متعددةٌ، ولا وجهَ للإتيانِ بالفاءِ هنا[(٣)] إلا تفصيلُ المذكورِ أوَّلًا، لا تفصيلُ المسكوتِ عنه.

والآيةُ قد سكتتْ عن تفصيلِ العبادِ الذين اصطَفَى منهم مَنْ أورَثَهُ الكتابَ، فالتفصيلُ للمذكورِ ليس إلا[(٤)]، فتأملْه؛ فإنه واضحٌ.

قالوا: وأما قولُكم: «إنَّ اللهَ لا يصطَفِي مِن عبادِه ظالمًا لنفسِه؛ لأنَّ الاصطفاءَ هو الاختيارُ من الشيءِ صفوتَه وخيارَه» إلى آخر ما ذكرتم: فجوابُهُ أنَّ كونَ العبدِ مصطَفًى للهِ، ولِيًّا له، محبوبًا له[(٥)]، ونحو ذلك من الأسماءِ الدالةِ على شرفِ منزلةِ العبدِ، وتقريبِ اللهِ له لا تنافي[(٦)] ظلمَ العبدِ نفسَه - أحيانًا - بالذنوبِ والمعاصي، بل أبلغُ من ذلك أنَّ صِدِّيقيَّتَه[(٧)] لا تُنافي ظلمَه لنفسِه، ولهذا قال صدِّيق الأُمَّةِ وخيارُها للنبيِّ ﷺ: «عَلِّمْني دعاءً أدعُو به في صلاتي»، فقال: «**قل: اللَّهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندِك، وارحمْني؛ إنك أنت الغفورُ الرحيمُ**»[(٨)]، و[قد][(٩)] قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥]، فأخبرَ سبحانَه عن صفاتِ المتقين، وأنهم يقعُ منهم ظلمُ النفسِ والفاحشةُ، لكن لا يُصِرُّون على ذلك، وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِى

---

(١) في ع: «أعطيت مالي للبالغين من أولادي»، وفي س: «أعطيت مالي والبالغين من أولادي»!.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ع. (٣) في ك وس: «ها هنا».

(٤) في ع: «بالتفصيل المذكور ليس إلا»، وفي س: «فالتفصيل المذكور ليس إلا».

(٥) في ك و س: «ومحبوبًا له». (٦) في باقي النسخ: «لا ينافي». (٧) في س: «أنَّ الصِّدِّيقيَّة».

(٨) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤ - ٧)، والبخاري.

(٩) ما بين المعقوفين ليس في س.

جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]، فهؤلاءِ الصديقون قد أخبر سبحانه أنَّ لهم أعمالًا سيئةً يكفرُّها، ولا ريبَ أنها ظلمٌ للنفسِ(١).

وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: الآية ١٦]، وقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٢]، وقال يونسُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: ١٠ - ١١].

وإذا كان ظُلْمُ النفسِ لا ينافِي الصدِّيقيَّةَ والولايةَ، ولا يُخْرِجُ العبدَ عن كونِه منَ المتَّقِين، بل يجتمعُ فيه الأمران: يكون وليًّا للهِ، صديقًا متقيًا، وهو مسيءٌ ظالمٌ لنفسِه: عُلِم أنَّ ظلمَه لنفسِه لا يُخْرِجُه عن كونِه من الذين اصطفاهمُ اللهُ من عبادِه، وأورثهم كتابَه؛ إذ هو مصطَفًى من جهةِ كونِه من ورثةِ الكتابِ علمًا وعملًا، ظالمٌ لنفسِه من جهةِ تفريطِه في بعضِ ما أُمِرَ به، وتعدِّيهِ بعضَ ما نُهِيَ عنه، كما يكونُ الرجلُ وليًّا للهِ، محبوبًا له من جهةٍ، ومبغوضًا له من جهةٍ أخرى، وهذا عبدالله حمارٌ كان(٢) يكثرُ شربَ الخمرِ، واللهُ يبغضُه من هذه الجهةِ، ويحبُّ اللهَ ورسولَهُ، واللهُ يحبُّه ويواليه مِنْ هَذِهِ الجهةِ، ولهذا نَهَى النبيُّ ﷺ عن لعنِهِ، وقال: **«إنَّه يحبُّ اللهَ ورسولَهُ»**(٣).

ونكتةُ(٤) المسألةِ: أنَّ الاصطفاءَ والولايةَ والصدِّيقيةَ، وكونَ الرجلِ من الأبرارِ والمتقين ونحو ذلك، كلُّها مراتبُ تقبلُ التجزئَ والانقسامَ، والكمالَ والنقصانَ، كما هو ثابتٌ باتفاقِ السلفِ(٥) في أصلِ الإيمانِ(٦).

---

(١) في س: «أنها من ظلم النفس».
(٢) في س: «وكان».
(٣) أخرجه البخاري، رقم (٦٧٨٠) عن عمر رضي الله عنه.
(٤) النُّكْتَةُ: مسألة لطيفة أُخرجَتْ بدقَّة نَظَر وإمعان فكر، من: «نكت رُمْحَه بالأرض» أي: أثَّر فيها، وسُمِّيت المسألة الدقيقة نكتة؛ لتأثر الخواطِر في استنباطها. انظر: «التعريفات» (ص/ ٢٦٦) للجرجاني، «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص/ ٧١٠) للمناوي.
(٥) في س: «باتفاق المسلمين».
(٦) قال المؤلف في كتاب: «الصلاة وحكم تاركها» (ص/ ٢٨): «. . . وها هنا أصل آخر، وهو أنَّ الرجل=

وعلى هذا فيكونُ هذا القسمُ(١) مصطفًى من وجهٍ، ظالمًا لنفسِه من وجهٍ آخرَ(٢).

وظلمُ النفسِ نوعان:

ظلمُ النفسِ نوعان

❑ **نوعٌ لا يبقى معه شيءٌ من الإيمانِ والولايةِ والاصطفاءِ(٣)**، وهو ظلمُها بالشركِ والكفرِ.

❑ **ونوعٌ يبقى معه حظُّه من الإيمانِ والاصطفاءِ والولايةِ**، وهو ظلمُها بالمعاصي، وهو درجاتٌ متفاوتةٌ في القدرِ والوصفِ(٤).

فهذا التفصيلُ يكشفُ قناعَ المسألةِ، ويزيلُ إشكالَها، بحمدِ اللهِ.

قالوا: وأما قولكم: «إن قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ مرفوعٌ؛ لأنه بدلٌ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: الآية ٣٢]، وهو مختصٌّ بالسابقين، وذِكْر حِلْيتِهم فيها من أساورَ من ذهبٍ يدلُّ على ذلك...» إلى آخرِه: فجوابُه من وجهين:

❑ **أحدُهما**: أنَّ هذا بعينِه(٥) واردٌ عليكم؛ فإنَّ المقتصِدَ من أهلِ الجناتِ، ومعلومٌ

= قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية. ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل...»، ثم ذكر الأدلة على هذا الأصل من القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة، فلينظر.

(١) في س: «هذا التقسيم». وهو غلط. (٢) في ع: «ظالم من وجه لنفسه».

(٣) في ك و س: «من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء».

(٤) **فالأول**: هو الظلم الأكبر، ومن شواهد قوله -تعالى-: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤]، وقوله -تعالى-: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات (٢٢-٢٣]، وقوله -تعالى-: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: الآية ١٩]، وقول موسى لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة: الآية ٥٤].

والثاني: هو الظلم الأصغر، ومن شواهده قوله -تعالى-فيمن يتعدى حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٩]، وقول يونس ﷺ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، وقول آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٣]، وقول موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ [القصص: الآية ١٦].

ونظيره تقسيم الكفر والنفاق والشرك والفسق والجهل إلى أكبر وأصغر، وقد بين ذلك مع شواهده: المؤلف في كتاب: «الصلاة وحكم تاركها» (ص/ ٢٥-٢٨).

(٥) في ع: «أنَّ هذا نفسه».

أنَّ جناتِ السابقين بالخيراتِ أعلى وأفضلُ من جناتِه، فما كان جوابَكم عن المقتصدِ فهو الجوابُ بعينِه عن الظالمِ لنفسِه؛ فإنَّ التفاوتَ حاصلٌ بين جناتِ الأصنافِ الثلاثةِ، ويختصُّ كلُّ صنفٍ بما يليقُ بهم[١]، ويقتضِيه مقامُهم وعملُهم.

الجوابُ الثاني: أنه سبحانه ذكرَ جزاءَ السابقين بالخيراتِ هنا مشوِّقًا لعبادِه إليه، منبِّهًا لهم على مقدارِه وشرفِه، وسكتَ عن جزاءِ الظالمين لأنفسِهم والمقتصدين؛ ليحذر الظالمون، ويجدَّ المقتصدون.

وذكر في سورةِ «الإنسانِ» جزاءَ الأبرارِ؛ منبهًا به على ما هو أعلى وأجلُّ منه؛ وهو جزاءُ المقرَّبين السابقين؛ ليدلَّ على أنَّ هذا[٢] إذا كان جزاءَ الأبرارِ المقتصدين، فما الظنُّ بجزاءِ المقَّربين السابقين؟ فقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: ٥ - ٢١]، فذكر هنا الأساورَ من الفضةِ، والأكوابَ من الفضةِ في جزاءِ الأبرارِ.

وذكر في سورةِ «الملائكةِ» الأساورَ من الذهبِ في جزاءِ السابقين بالخيراتِ.

فعُلِمَ جزاءُ المقتصدين من سورةِ «الإنسانِ»، وعُلِم جزاءُ السابقين في سورةِ «الملائكةِ»، فانتظمتِ السورتان - جزاءُ الفريقين[٣] - على أتمِّ الوجوهِ، واللهُ أعلمُ بأسرارِ كلامِه وحكمِه.

قالوا: وهذا هو الجوابُ عن قولِكم: «إنَّ الضميرَ يختصُّ به أقربُ مذكورٍ إليه».

قالوا: وأما قولُكم: «إن الظالمَ لنفسِه إنما هو الكافرُ»: فقد تقدَّم جوابُه، وذكرنا ما يبطلُه.

قالوا: وأما قولُكم: «إنَّ هذه الآياتِ نظيرُ آياتِ «الواقعةِ» و«الإنسانِ»[٤] وسورةِ «المطففين» في تقسيمِ الناسِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: أصحابُ الشمالِ، وأصحابُ اليمينِ، والمقرَّبون»: فلا ريبَ أنَّ هذهِ الآيةَ وافيةٌ بالأقسامِ الثلاثةِ مع مزيدِ تقسيمٍ آخرَ، وهو تقسيمُ أصحابِ اليمينِ إلى ظالمٍ لنفسِه، ومقتصِدٍ، فهي مشتملةٌ على تلك الأقسامِ

---

(١) في ع: «بما يليق به».

(٢) في ع: «على أنَّ هذا الجزاء».

(٣) في ك و س: «جزاء المقرَّبين».

(٤) في باقي النسخ: «وسورة الإنسان».

وزيادةٍ.

قالوا: وأما قولُكم: «إنَّ الآثارَ الدالةَ على [أنَّ][١] الأصنافَ الثلاثةَ هم السعداءُ أهلُ الجنةِ ضعيفةٌ، لا تقومُ[٢] بها حجةٌ»: فجوابُه أنَّها قد بلغت في الكثرةِ إلى حدٍّ يشدُّ بعضُها [بعضًا، ويشهدُ بعضُها][٣] لبعضٍ.

ونحن نسوقُ منها آثارًا غيرَ ما ذكرناه، يُعلمُ به[٤] كثرتُها، وتعددُ طرقِها:

فروى ابنُ مردويهِ[٥] في «تفسيره» من حديثِ سفيانَ[٦]، عن الأعمشِ[٧]، عن رجلٍ، عن أبي ثابتٍ: أنَّ رجلًا دخلَ المسجدَ فقال: «اللهمَّ ارحمْ غُربتي، وآنسْ وحشَتِي، وسُقْ لي جليسًا صالحًا»، فقال أبو الدرداءِ: «إن كنتَ صادقًا لأَنا أسعدُ بذلك منك[٨]؛ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: **«أما السابقُ بالخيراتِ فيدخلُ[٩] الجنةَ بغيرِ حسابٍ، وأما المقتصدُ فيحاسبُ حسابًا يسيرًا، وأما الظالمُ لنفسِه فيحاسبُ[١٠] في المقامِ حتى يدخلَه الهمُّ والحزنُ، ثم يدخلُ الجنةَ»**، ثم قرأ هذهِ الآيةَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[١١].

وقد ذكرنا - فيما تقدَّم - حديثَ ابنِ أبي ليلى[١٢]، عن أخيه[١٣] عيسى، عن أبيهِ[١٤]، عن أسامةَ بن زيدٍ، في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«كلُّهم من هذهِ الأمةِ»**[١٥]. وروى ابن

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س. (٢) في ك و س: «لا يقوم».
(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٤) في ع: «تعلم به».
(٥) تقدمت ترجمته. (٦) تقدمت ترجمته. (٧) تقدمت ترجمته.
(٨) في ع: «إن كنت صادقًا أنا أسعد بذلك منك». (٩) في س: «فيُدْخِلُه».
(١٠) في س: «فيحبس».
(١١) قال في «مجمع الزوائد» (١٧/ ٩٨): «... رواه الطبراني وأحمد باختصار إلا أنه قال: عن الأعمش، عن ثابت - أو أبي ثابت -: «أن رجلًا دخل المسجد مسجد دمشق» فذكر الحديث باختصار، ولم يقل فيه: «عن الله تبارك وتعالى»، وثابت بن عبيد ومن قبله من رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني رجل غير مسمًّى» اهـ.
(١٢) تقدمت ترجمته. (١٣) تقدمت ترجمته. (١٤) تقدمت ترجمته.
(١٥) سبق.

مردويهِ(١) أيضًا من حديثِ الفضلِ بن عميرةَ القيسيِّ(٢)، عن ميمونِ بن سياه(٣)، عن أبي عثمانَ النهديِّ(٤) قال: سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ يقول على المنبرِ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**سابقُنا سابقٌ، ومقتصدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفورٌ له**»، وقرأ عمرُ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢](٥).

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) في ك و س: «الفضل بن عميرة العبسي»، وهو خطأ. وهو الفضل بن عميرة القيسي الطُّفَاوي، أبو قتيبة البصري، ذكره ابن حبان في «الثقات» (٥/ ٩)، وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٣٠): «منكر الحديث» اهـ، وقال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٨١): «ذكره الساجي في «الضعفاء» وقال: في حديثه ضعف، وعنده مناكير» اهـ، وقال في «تقريب التهذيب» رقم (٦٠٨٢): «فيه لين» اهـ. وقال العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٣): «الفضل بن عميرة الطفاوي عن ميمون بن سياه، ولا يتابع على حديثه» اهـ.

(٣) هو ميمون بن سِيَاه، أبو بَحْر البصري، روى عن أنس بن مالك وجندب بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم، ضعفه ابن معين وعبد الله بن أحمد الدورقي والعقيلي، وقال أبو داود: «ليس بذاك»، وقال ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٦): «كان ممن ينفرد بالمناكير عن المشاهير، لا يعجبني الاحتجاج بخبره إذا انفرد» اهـ، وقال يعقوب بن سفيان: «لين الحديث»، وقال الدارقطني: «يُحتج به»، وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٧٠٤٥): «صدوق عابد يخطئ» اهـ، وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٠٤)، «ميزان الأعتدال» (٤/ ٢٠).

(٤) هو عبد الرحمن بن مَلٍّ -بتثليث الميم- بن عمرو بن عدي بن وهب بن ربيعة، أبو عثمان النهدي الكوفي وسكن البصرة، أدرك الجاهلية، وأسلم على عهد النبي ﷺ ولم يلْقَه، روى عن أبي بن كعب وعلي ابن أبي طالب وعمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وسلمان الفارسي وطلحة بن عبيدالله وغيرهم ﷺ، وكان كثير العبادة، حسن القراءة، قال أبو زرعة: «بصري ثقة»، وقال ابن المديني: «كان جاهليًّا ثقة»، وقال معتمر بن سليمان عن أبيه: «كنت أبتدئ أبا عثمان بالحديث فيحدثني به»، توفي سنة خمس وتسعين تقريبًا، وله مائة وأربعون سنة، وقيل: مائة وثلاثون. انظر: «طبقات ابن سعد» (٧/ ٩٧)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٧٥)، «تهذيب الكمال» (١٧/ ٤٢٤).

(٥) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٣)، من طريق عمرو بن الحصين، عن الفضل بن عميرة به، وقال: «وهذا يروى من غير هذا الوجه بنحو هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا» اهـ. انظر: «تهذيب التهذيب» (٨/ ٢١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص/ ٥٩)، رقم (٦٥) من طريق حفص بن خالد بن جابر، عن ميمون بن سياه، عن عمر به، وقال: «... فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر رضي الله عنه، وروي من وجه آخر غير قوي عن عمر موقوفًا عليه» اهـ.

ورُوي أيضًا من حديثِ أبي داودَ[١]، عن شعبةَ[٢]، عن الوليدِ بن العيزارِ[٣] قال: سمعتُ رجلًا من ثقيفَ يحدثُ، عن رجلٍ من كنانةَ[٤]، عن أبي سعيدٍ[٥]: أن النبيَّ ﷺ قال في هذه الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] قال: «**كلُّهُم في الجنةِ**»، أو قال: «**كلُّهم بمنزلةٍ واحدةٍ**» - قال شعبةُ أحدَهُما[٦].

ورواه داودُ بنُ إبراهيمَ[٧]، عن شعبةَ به قال: «**دخلُوا الجنةَ كلُّهم**» أو: «**كلُّهم بمنزلةٍ واحدةٍ**»[٨]. فهذا حديثٌ صحيحٌ إلى شعبةَ، وإذا كان شعبةُ في حديثٍ لم يُطْرَحْ، بل شُدَّ يديْكَ به[٩]. ورواه يحيى بنُ سعيد[١٠]، عن الوليدِ بن العيزارِ، فذكره بمثلِه.

---

(١) هو الطيالسي. تقدمت ترجمته.

(٢) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي مولاهم، أبو بسطام الواسطي ثم البصري، من سادات أهل زمانه حفظًا وإتقانًا وورعًا وفضلًا، وهو أول من فتَّش بالعراق عن أمر المحدِّثين، وجانَبَ الضعفاء والمتروكين، وصار عَلَمًا يُقتدى به، وتبعه عليه بعده أهل العراق، قال أحمد: «كان شعبة أمة وحده في هذا الشأن، أي: في الرجال»، وقال الشافعي: «لولا شعبة ما عُرِفَ الحديث بالعراق»، توفي سنة ستين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (٤/ ٣٣٨).

(٣) هو الوليد بن العيزار بن حريث العبدي الكوفي، وثقة ابن معين وأبو حاتم، وذكره ابن حبان في «الثقات». انظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ١٤٥).

(٤) في ع: «يحدث عن رجل عن رجل من كنانة».

(٥) تقدمت ترجمته.

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي في «المسند» (٣/ ٦٨١)، رقم (٢٣٥٠) عن شعبة به، ومن طريقه البيهقي في «البعث والنشور» (ص/ ٥٨)، رقم (٦١). وأخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٧٨)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٩٠)، والترمذي في «جامعه»، أبواب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة الملائكة، وقال: «هذا حديث غريب حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه» من طريق محمد بن جعفر، عن شعبة بلفظ: «**هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة**» بلا شك. ووقع في «المسند»: «محمد بن شعبة» وهو خطأ، وفي «تفسير ابن جرير»: «الوليد بن المغيرة» وهو خطأ أيضًا. وقال البيهقي بعد أن ساق الحديث بسنده: «يريد - والله أعلم -: كلهم بمنزلة واحدة في أن منازلهم الجنة، ثم يتفاوتون في الدرجات» اهـ.

(٧) هو داود بن إبراهيم، قاضي قزوين، قال أبو حاتم: «متروك الحديث، كان يكذب» اهـ. انظر: «الجرح والتعديل» (٣/ ٤٠٧).

(٨) في ك و س: «عن شعبة به، وقالوا: «**دخلوا الجنة، كلهم بمنزلة واحدة**».

(٩) في س: «يدرك به».

(١٠) هو يحيى بن سعيد بن فرُّوخ القطان التميمي، أبو سعيد البصري الأحول الحافظ المكثر، إمام أهل زمانه، قال ابن المديني: «ما رأيت أحدًا أعلم بالرجال من يحيى بن سعيد»، وقال أحمد بن حنبل: «ما رأت =

وروى محمدُ بنُ سعدٍ(١)، عن أبيه(٢)، عن عمِّه(٣)، حدَّثنا أبي عن أبيه(٤)، عن ابنِ عباسٍ(٥) في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢] الآية قال: «جعل اللهُ أهلَ الإيمانِ على ثلاثِ منازلَ كقولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ [الواقعة: الآية ٤١]، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الواقعة: الآية ٢٧]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١]، فهم على هذا المثالِ»(٦).

قلت: يريدُ ابنُ عباسٍ: أنَّ اللهَ قسَّمَ أصحابَ اليمينِ إلى ثلاثِ منازلَ، كما قسَّم الخلقَ في «الواقعةِ» إلى ثلاثِ منازلَ؛ فإنَّ أصحابَ الشمالَ المذكورين في «الواقعةِ» هم الكفارُ المنكرون للبعثِ، فكيف تكونُ هذهِ منزلةً من منازلِ أهلِ الإيمانِ؟!.

ويجوزُ أنْ يريدَ: أنَّ الظالمين لأنفسِهم المستحقين للعذابِ هم من أهلِ الشمالِ، ولكن إيمانُهم يجعلُهم آخرًا مِن أهلِ اليمينِ.

ورُوي من حديثِ معاويةَ بن صالحٍ(٧)، عن علي بن أبي طلحةَ(٨)، عن ابن عباسٍ(٩) في هذه الآيةِ قال: «هُمْ أمةُ محمدٍ ﷺ، ورَّثَهم اللهُ سبحانَه كلَّ كتابٍ

= عيناي مثله»، انظر: «تهذيب الكمال» (٣١/ ٣٢٩).

(١) في س: «وروى محمد بن سعيد». وهو غلط. وهو محمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية بن سعد العوفي، قال الخطيب: «كان لينًا في الحديث»، وقال الدارقطني: «لا بأس به»، توفي سنة ست وسبعين ومائتين. انظر: «الكامل في ضعفاء الرجال» (٦/ ٢٢٥١)، «ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٦٠).

(٢) قال أحمد بن حنبل: «جهميٌّ»، وقال مرةً: «لم يكن هذا ممن يستاهل أن يكتب عنه، ولا كان موضعًا لذاك». انظر: «لسان الميزان» (٣/ ١٩).

(٣) هو الحسين بن الحسن بن عطية العوفي، ضعفه ابن معين وأبو حاتم والنسائي، وقال الجوزجاني: «واهي الحديث»، وقال ابن حبان: «روى أشياء لا يتابع عليها، لا يجوز الاحتجاج بخبره»، توفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة. انظر: «لسان الميزان» (٢/ ٢٧٨).

(٤) قال ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٦/ ٢٢٥١): «عطية وأولاده فيهم ضعفٌ» اهـ.

(٥) تقدمت ترجمته.

(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٨٩)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٤) إلى ابن مردويه.

(٧) هو معاوية بن صالح الحضرمي الحِمْصي، قال أبو حاتم: «لا يُحتج به»، ولم يُخرِّج له البخاري، وليَّنه ابن معين. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ١٣٥).

(٨) سبقت ترجمته.

(٩) في ك: «وروي من حديث معاوية بن أبي صالح، عن علي بن أبي طالب، عن ابن عباس»!. وفي س:=

أنزلَهُ، فظالمُهم يغفرُ له، ومقتصدُهم يحاسبُ حسابًا يسيرًا، وسابقُهم يدخلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ»[(١)].

وروي من حديثِ عثمانَ بن أبي شيبةَ[(٢)]، حدثنا الحسنُ بن عبدِ الرحمنِ بن أبي ليلى[(٣)]، حدَّثنا عمرانُ بنُ محمدٍ بن أبي ليلى[(٤)]، حدَّثنا أبي[(٥)]، عن الحكمِ[(٦)]، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلى[(٧)]، عن البراءِ بن عازبٍ[(٨)] - أو عن رجلٍ، عن البراءِ [بن عازبٍ][(٩)] - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ [بِإِذْنِ ٱللَّهِ][(١٠)]﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] [قال][(١١)]: «كلُّهم ناجٍ، وهي هذهِ

= «وروى من حديث معاوية بن صالح عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس».

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٨٨) والبيهقي في «البعث والنشور» (ص/ ٦٢)، رقم (٧٣) من طريق معاوية به.

(٢) هو عثمان بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي، أبو الحسن بن أبي شيبة الكوفي، ثقة حافظ شهير، له أوهام، توفي سنة تسع وثلاثين ومائتين، انظر: «تهذيب التهذيب» (٥/ ٦٩).

(٣) هو الحسن بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال أبو زرعة: «صدوق»، وقال ابن حبان في «الثقات» (٨/ ١٧٨): «مستقيم الحديث إذا لم يكن في إسناد خبره ضعيف» اهـ، انظر: «لسان الميزان» (٢/ ٢١٨).

(٤) هو عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقد ينسب إلى جدِّ أبيه، روى له الترمذي وابن ماجه، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٩٦)، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٥٢٠١): «مقبول من الثامنة» اهـ.

(٥) تقدمت ترجمته.

(٦) هو الحكم بن عتيبة الكندي، أبو محمد - ويقال: أبو عبد الله، ويقال: أبو عمر - الكوفي، ثقة ثبت فقيه عالم عالي رفيع كثير الحديث، وكان من فقهاء النخعي، وكان صاحب سُنة واتباع، توفي سنة ثلاث عشرة ومائة، وقيل: بعدها، انظر: «تهذيب الكمال» (٧/ ١١٤).

(٧) تقدمت ترجمته.

(٨) هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن مَجْدعة الأنصاري الحارثي الأوسي، صحابي جليل، وأبوه صحابي أيضًا، روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، وحدَّث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وعنه جماعة من الصحابة والتابعين، توفي سنة اثنتين وسبعين، انظر: «الإصابة» (١/ ٢٧٨)، «البداية والنهاية» (١٢/ ١٧٤).

(٩) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(١٠) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(١١) ما بين المعقوفين ليس في س.

الأمةُ»(١).

ورواه الفريابيُّ(٢): حدثنا سفيانُ(٣)، عن ابنِ أبي ليلى(٤)، عن الحكم، عن رجلٍ حدَّثه عن البراءِ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ في هذهِ الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢][إلى آخر الآية](٥) قال: «كلٌّ ناجٍ» (٦).

وقال آدمُ بنُ أبي إياسٍ(٧): حدثنا أبو فضالةَ(٨)، عن الأزهرِ بن عبدِ اللهِ الحرازِ(٩)، حدثنا من سمع عثمانَ بنَ عفانَ يقولُ: «ألا وإنَّ سابقَنا أهلُ جهادِنا، ألا وإنَّ مقتصدَنا أهلُ حضرِنا، ألا وإنَّ ظالمَنا أهلُ بدوِنا»(١٠).

---

(١) عزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٣) إلى الفريابي وابن مردويه.

(٢) في ك: «ورواه الفريابي». وهو محمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الضَّبي مولاهم، أبو عبد الله الفريابي، صاحب سفيان بن عيينة، كان رجلًا صالحًا ورعًا، وثقه العجلي والنسائي وأبو حاتم، توفي سنة اثنتي عشرة ومائتين، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٧/ ٥٢).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) في ك: «الآية»، وما بين المعقوفين ليس في س.

(٦) عزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٣) إلى الفريابي وابن مردويه بلفظ: **«كلهم ناج، وهي هذه الأمة»**.

(٧) هو آدم بن أبي إياس، واسمه: عبد الرحمن بن محمد، ويقال: ناهية بن شعيب الخراساني، أبو الحسن العسقلاني، نشأ ببغداد، وارتحل في طلب الحديث، فاستوطن عسقلان، إلى أن مات. قال أحمد بن حنبل: «كان مكينًا عند شعبة». وقال أبوحاتم: «ثقة مأمون متعبد من خيار عباد الله»، توفي سنة عشرين ومائتين، انظر: «تهذيب التهذيب» (١/ ١٩٦).

(٨) هو فرج بن فضالة بن النعمان بن نعيم التَّنُوخي القضاعيُّ، أبو فضالة الحِمْصي، ويقال: الدمشقي، ضعفه ابن معين وابن المديني والنسائي والدارقطني والساجي، وقال البخاري ومسلم: «منكر الحديث»، توفي سنة تسع وسبعين ومائة، انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ١١٤).

(٩) هو أزهر بن عبد الله بن جُمَيْع الحَرَازِي الحِميري الهَوْزي الحمصي، قال البخاري: «أزهر بن يزيد وأزهر ابن سعيد وأزهر بن عبد الله: الثلاثة واحد، نسبوه مرة مرادي، ومرة حمصي، ومرة هوزي، ومرة حرازي»، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٣٥١): «صدوق، تكلموا فيه للنصب من الخامسة» اهـ، وانظر: «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٢٧).

(١٠) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» (ص/ ٦٠)، رقم (٦٦): من طريق سعيد بن منصور، عن أبي فضالة به، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٣) إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وقد تقدَّم حديثُ عائشةَ، وأبي الدرداءِ، وحذيفةَ.

قالوا: فهذِهِ الآثارُ يشدُّ[١] بعضُها بعضًا؛ فإنها[٢] قد تعددتْ طرقُها، واختلفتْ مخارجُها، وسياقُ الآيةِ [يشهدُ][٣] لها بالصحةِ، فلا يعدلُ عنها[٤].

والمقصودُ الكلامُ على مراحلِ العالمين، وكيفيةِ قطعِهم إيَّاها، فلنرجعْ إليه[٥] فنقولَ:

تفصيلُ حالِ الأشْقيَاءِ

أما الأشقياءُ فقطعوا تلك المراحلَ سائرين إلى دارِ الشقاءِ، متزودين غضبَ الربِّ سبحانه، ومعاداةَ كتبِه ورسلِه وما بعثُوا به، ومعاداةَ أوليائِه، والصدَّ عن سبيلِهِ، ومحاربةَ مَن يدعو[٦] إلى دينِه، ومقاتلةَ[٧] الذين يأمُرون بالقسطِ من الناسِ، وإقامةَ دعوةٍ غيرِ دعوةِ اللهِ سبحانه التي بعثَ بها رسلَه؛ لتكونَ الدعوةُ له وحده، فقطعَ هؤلاءِ الأشقياءُ مراحلَ أعمارِهم في ضدِّ ما يحبُّه ويرضاه[٨].

تفصيلُ حالِ الظالمِ لنفسِهِ

وأما السائرون إليه: فظالِمُهم قطعَ مراحلَ عُمرِه في غفلاتِه، وإيثارِ شهواتِه ولذاتِه على مراضي الربِّ سبحانه وأوامرِه، مع إيمانِه باللهِ وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرَ، لكنَّ نفسَه مغلوبةٌ معه، مأسورٌ مع حظِّه وهواه، يعلمُ سوءَ حالِه، ويعترفُ بتفريطِه، ويعزمُ على الرجوعِ إلى اللهِ، فهذا حالُ [المؤمنِ][٩] المسلمِ.

وأما مَنْ زُيِّن له سوءُ عملِه فرآه حسنًا، وهو غيرُ معترفٍ ولا مقرٍّ ولا عازمٍ على الرجوعِ إلى اللهِ والإنابةِ إليه أصلًا: فهذا لا يكادُ إسلامُه أنْ يكونَ صحيحًا أبدًا، ولا يكونُ هذا إلا منسلخَ القلبِ من الإيمانِ - نعوذُ باللهِ من الخذلانِ.

تفصيلُ حالِ المقتصدين

وأما الأبرارُ المقتصدون: فقطعوا مراحلَ سفرِهم بالاهتمامِ بإقامةِ أمرِ اللهِ، وعَقْدِ القلبِ على تركِ مخالفتِه ومعاصِيهِ، فَهِمَمُهم مصروفةٌ إلى القيامِ بالأعمالِ الصالحةِ، واجتنابِ الأعمالِ القبيحةِ:

---

(١) في ع: «يُسْنِدُ».

(٢) في باقي النسخ: «وإنها».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٤) في س: «فلا تعدل عنها».

(٥) في س: «ولنرجع إليه».

(٦) في ك و س: «مَنْ يدعوا» -بالألف-، وقد سبق ذكر القاعدة في ذلك.

(٧) في ك: «ومعاملة».

(٨) في ك و س: «ما يحبه الله ويرضاه».

(٩) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

فأولُ ما يستيقظُ أحدُهم من منامِه يسبقُ إلى قلبِه القيامُ إلى الوضوءِ والصلاةِ كما أمره اللهُ، فإذا أدَّى فرضَ وقتِه[١]؛ اشتغل بالتلاوةِ والأذكارِ إلى حينِ تطلعُ الشمسُ، فيركعُ[٢] الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه اللهُ فيه من الأسبابِ، فإذا حضر فرضُ الظهرِ؛ بادر إلى التَّطَهُّرِ[٣] والسعيِ إلى الصفِّ الأولِ من المسجدِ، فأدَّى فريضتَه كما أُمِر، مكملًا لها[٤] بشرائطِها وأركانِها وسننِها وحقائقِها الباطنةِ؛ من الخشوعِ والمراقبةِ والحضورِ بين يدي الربِّ، فينصرفُ من الصلاةِ وقد أثَّرت في قلبِه وبدنِه[٥] وسائرِ أحوالِه آثارًا تبدو على صفحاتِه ولسانِه وجوارحِه، ويجدُ ثمرتَها في قلبِه من الإنابةِ إلى دارِ الخلودِ، والتجافي عن دارِ الغرورِ، وقلةِ التكالُبِ[٦] والحرصِ على الدنيا وعاجلِها، قد نَهتهُ صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكرِ، وحبَّبت إليه[٧] لقاءَ اللهِ، ونفَّرته من كلِّ قاطعٍ يقطعُه عن اللهِ، فهو مغمومٌ مهمومٌ كأنه في سجنٍ حتى تحضرَ الصلاةُ، فإذا حضرتْ قام إلى نعيمِه وسرورِه وقرةِ عينِه، وحياةِ قلبِه، فهو لا تطيبُ له الحياةُ إلا بالصلاةِ[٨].

هذا وهمْ في ذلك كلِّه مراعون لحفظِ السننِ، لا يُخِلُّون منها بشيءٍ ما أمكَنَهُم؛ فيقصِدُون من الوضوءِ أكملَه، ومن الوقتِ أوَّلَه[٩]، ومن الصفوفِ أوَّلَها، عن يمينِ الإمامِ، أو خلفَ ظهرِه، ويأتون بعدَ الفريضةِ بالأذكارِ المشروعةِ كالاستغفارِ ثلاثًا،

---

(١) في ع: «فَرْض الله».

(٢) في ع: «فركع». (٣) في ك: «إلى التطهير». (٤) في ع: «بكمالها».

(٥) في س: «وفي بدنه». (٦) في ك: «وقلة التكاليف». وهو خطأ.

(٧) في ك: «وحبب إليه».

(٨) أفاض المؤلف في ذكر ما تضمنته الصلاة من المصالح الدنيوية والأخروية في «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص/ ٢٢٧-٢٣٠)، قال في مطلع هذا البحث: «... ويكفي العاقل البصير الحي القلب فكرة في فرع واحد من فروع الأمر والنهي، وهو الصلاة، وما اشتملت عليه من الحكم الباهرة، والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن والقوى التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة، واستفرغوا قواهم وأذهانهم؛ لَمَا أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها، وغاياتها المحمودة...»، وكذا في «الوابل الصَّيِّب» (ص/ ٣٤-٤٢)، وفيه بيان أثر الصلاة على العبد، وشرط ذلك، وبيان أقسام الناس في الصلاة؛ فلينظر.

(٩) إلا ما استثناه الشارع كصلاة الظهر في شدة الحر، وصلاة العشاء حيث لا يشق على الناس، والله أعلم.

وقول: «**اللَّهمَّ أنت السلامُ، ومنك السلامُ، تباركت يا ذا الجلالِ والإكرامِ**»(١).

وقول: «**لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ، اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجدُّ**(٢)، **لا إله إلا اللهُ، ولا نعبدُ إلا إياه، له النعمةُ، وله الفضلُ، وله الثناءُ الحسنُ، لا إله إلا اللهُ مخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون**»(٣)، ثم يُسبحونَ، ويحمدونَ، ويكبرونَ تسعًا وتسعين، ويختمون المائةَ بـ: «**لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ**»(٤).

---

(١) أخرج أحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٥)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٥٩١)، وأبو داود في «سننه»، رقم (١٥١٣)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٣٠٠)، والنسائي في «سننه»، رقم (١٣٣٨)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (٩٢٨)، والدارمي في «سننه»، رقم (١٣٤٨): كلهم من طريق الأوزاعي، عن أبي عمار شدَّاد ابن عبد الله، عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينصرف من صلاته -ولفظ مسلم والنسائي: «إذا انصرف من صلاته»-: استغفر ثلاثًا، وقال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**». زاد مسلم: «قال الوليد -وهو ابن مسلم الراوي، عن الأوزاعي- فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: «**أستغفر الله، أستغفر الله**».

(٢) الجدُّ: الحَظُّ، و الحُظْوَة، والرِّزْقُ، والعَظَمَةُ، انظر: «القاموس» (ص/ ٣٤٦).

(٣) أخرج أحمد في «المسند» (٤/ ٢٤٥)، (٢٤٧)، (٢٥٠)، (٢٥٤)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٨٤٤)، ومسلم، رقم(٥٩٣)، والنسائي، رقم (١٣٤٢)، وأبوداود في «سننه»، رقم (١٥٠٥)، والدارمي في «سننه»، رقم (١٣٤٩): عن وَرَّادٍ مولى المغيرة بن شعبة قال: «كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية: إنَّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة، وسلم قال: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ**». وفي لفظ للبخاري والنسائي: «... سمعته يقول عند انصرافه من الصلاة: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**»، ثلاث مرات.

وأخرجوه أيضًا في المواضع السابقة عن عبد الله بن الزبير ﵄: أنه كان يقول في دُبُر كل صلاة حين يسلِّم: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون**»، واللفظ لمسلم.

(٤) أخرج أحمد في «المسند» (٢/ ٣٧١)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٥٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٩٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ١٠٦)، وابن حبان في «صحيحه»، رقم (٢٠١٠)، (٣/ ٢٣١) [إحسان] عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «**من سبح الله في دُبُر كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثين،** =

ومن أراد المزيدَ قرأ آيةَ الكرسيِ(١)، . . . .

= وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون»، وقال: «تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ غفرت خطاياه، وإنْ كانت مثل زبدِ البحر».

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة»، رقم (١٠٠)، (ص/ ١٨٢)، والطبراني في «المعجم الكبير»، رقم (٧٥٣٢)، (٨/ ١١٤) وفي «مسند الشاميين» رقم (٨٢٤)، (٢/ ٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، رقم (١٢٤)، (ص/ ١٠١) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دُبُرَ كلِّ صلاة مكتوبة؛ لم يمنعه من دخول الجنة إلا أنْ يموت».

وزاد الطبراني في بعض طرقه: «وقل هو الله أحد».

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٤٨): «. . . رواه النسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح. وقال شيخنا أبو الحسن: «هو على شرط البخاري». . .، وزاد الطبراني في بعض طرقه: «وقل هو الله أحد»، وإسناده بهذه الزيادة جيد أيضًا اهـ.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٠٢): «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» بأسانيد، وأحدها جيد» اهـ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١١٠٣)، رقم (٦٤٦٤)، وفي «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢/ ٦٩٧)، رقم (٩٧٢).

وأخرج أبونعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢١) عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة ما بينه وبين أن يدخل الجنة إلا أن يموت، فإذا مات دخل الجنة». وقال: «. . . حديث غريب من حديث المغيرة، تفرد به هاشم عن هاشم عن عمر عنه، ما كتبناه عاليًا إلا من حديث مكي». اهـ.

وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» رقم (٢٧٣٣)، (٣/ ٨٣) عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله إلى الصلاة الأخرى». حسَّن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٤٨)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٤٨).

وقال المصنف في «زاد المعاد» (١/ ٣٠٤): «. . . وقد رُوي هذا الحديث من حديث أبي أمامة وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك، وفيها كلها ضعف، ولكن إذا انضم بعضها إلى بعض - مع تباين طرقها، واختلاف مخارجها - دلت على أن الحديث له أصل، وليس بموضوع. وبلغني عن شيخنا أبي العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - أنه قال: ما تركتها عقيب كل صلاة اهـ.

وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣١٥): «. . . وقد روى ابن مردويه من حديث علي والمغيرة ابن شعبة وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث، ولكن في إسناد كل منهما ضعف» اهـ.

وقال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ١٩٧): «. . . أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»؛ لتفرد محمد بن حميد به، وردوه بأنه احتج به أَجَلُّ من صنف في الصحيح - وهو البخاري -، ووثقه أشد الناس مقالة في الرجال: ابن معين. . .، وقال ابن حجر في «تخريج المشكاة»: غفل ابن الجوزي في زعمه وضعه، =

والمعوذتين[١] عَقِيبَ[٢] كلِّ صلاةٍ؛ فإنَّ فيهما أحاديثَ رواها النسائيُّ وغيرُه[٣].

ثم يركعون السنةَ على أحسنِ الوجوهِ، ثم هذا دأبُهم في كلِّ فريضةٍ.

فإذا كان قبلَ غروبِ الشمسِ توفروا[٤] على أذكارِ المساءِ الواردةِ في السنةِ نظيرِ أذكارِ الصباحِ الواردةِ في أولِ النهارِ، لا يُخِلُّون بها أبدًا.

فإذا جاء الليلُ كانوا فيه على منازِلِهم من مواهبِ الربِّ تعالى التي قسَمَها بين عبادِه.

فإذا أخذوا مضاجعَهم أتوا بأذكارِ النومِ الواردةِ في السنةِ، وهي كثيرةٌ تبلغُ نحوًا من أربعين[٥]، فيأتون منها بما عَلِمُوه، وما يَقْدِرُون عليه من قراءةِ سورةِ الإخلاصِ والمعوذتين ثلاثًا، ثم يمسحون بها رؤوسَهم ووجوهَهم وأجسادَهم ثلاثًا[٦]، ويقرؤون آيةَ الكرسيِّ[٧] ....

= وهو من أسمح ما وقع له، وقال الدمياطي: له طرق كثيرة إذا انضم بعضها إلى بعض أحدثت قوةً، ونقل الذهبي في «تاريخه» عن السيف بن أبي المجد الحافظ قال: صنف ابن الجوزي كتاب «الموضوعات» فأصاب في ذكره أحاديث مخالفة للعقل والنقل، ومما لم يصب فيه إطلاقه الوضع على أحاديث بكلام بعضهم في أحد رواتها كـ: «فلان ضعيف، أو لين، أو غير قوي»، وليس ذلك الحديث مما يشهد القلبُ ببطلانه، ولا يعارض الكتاب والسنة، ولا حجة بأنه موضوع سوى كلام رجل في رواته، وهذا عدوان ومجازفة، فمن ذلك هذا الحديث» اهـ.

(١) أخرج أحمد في «المسند» (٤/ ١٥٥)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٢٩٠٣)، وقال: «حسن غريب» اهـ، وأبو داود في «سننه»، رقم (١٥٢٣)، والنسائي في «سننه»، رقم (١٣٣٧) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوِّذات في دبر كل صلاة»، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤/ ٧٥)، رقم (١٥١٤)، و«الكلم الطيب» (٦٩/ ١١٢).

(٢) في ك: «عقب».

(٣) في ع: «فإنَّ فيهما الحديث رواه النسائي وغيره»، وفي ك و س: «فإنَّ فيها أحاديث رواها النسائي وغيره».

(٤) في س: «توافروا». (٥) في س: «تبلغ من نحو أربعين».

(٦) أخرج أحمد في «المسند» (٦/ ١١٦)، (١٥٤)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٥٠١٧)، وأبو داود في «سننه»، رقم (٥٠٥٧)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٣٤٠٢): عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جَمَعَ كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: «قل هو الله أحد» و«قل أعوذ برب الفلق» و«قل أعوذ برب الناس»، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات».

(٧) أخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٥٩) (ص/ ١٩٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ٣٩) =

وخواتيمَ سورةِ البقرةِ[١]، ويسبحونَ ثلاثًا وثلاثين، ويحمدونَ ثلاثًا وثلاثين، ويكبرونَ أربعًا وثلاثين[٢]، ثم يقولُ أحدُهم: «**اللَّهمَّ إني أسلمتُ نفسي إليك، ووجهتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأً ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابِكَ الذي أنزلتَ، ونبيِّكَ[٣] الذي أرسلتَ**»[٤].

= رقم (٢٤٢٤)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» رقم (٣٥٥)، (١/ ١١٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٤٦٠)، رقم (١١٩٦): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ». وفي آخره: «. . . قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله. قال: «**ما هي؟**» قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. . .، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه صدقك، وهو كذوب، تعلم من تخاطب مذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**» قال: لا، قال: «**ذاك شيطان**».

وعلقه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الوكالة، باب: إذا وكَّل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكِّل. . .، رقم (٢٣١١).

(١) أخرج أحمد في «المسند» (٤/ ١٢١)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٤٠٠٨)، ومسلم، رقم (٨٠٧): عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**».

(٢) أخرج أحمد في «المسند» (١/ ٩٥)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٣١١٣)، ومسلم، رقم (٢٧٢٧): عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ فاطمة رضي الله عنها اشتكت ما تلقى من الرَّحى في يدها، وأتى النبيَّ ﷺ سبيٌ، فانطلقت، فلم تجده، ولقيت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال النبي ﷺ: «**على مكانكما**» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «**ألا أعلمكما خيرًا مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما: أن تكبرا الله أربعًا وثلاثين، وتسبحاه ثلاثًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم**». قال علي رضي الله عنه: «ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ. قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: «ولا ليلة صفين».

(٣) في ع: «وبنبيك».

(٤) أخرج أحمد في «المسند» (٤/ ٢٩٠)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٢٤٧)، ومسلم، رقم (٢٧١٠): عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي**»، وذكره، ثم قال: «**واجعلهنَّ من آخر كلامك؛ فإن متَّ من ليلتك مُتَّ وأنت على الفطرة**»، قال: فرددتهنَّ لأستذكرهنَّ، فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت، قال: «**قل: آمنت بنبيك الذي أرسلت**»، وفي لفظ: «**وإن أصبحت أصبت خيرًا**»، وفي لفظ آخر: «. . . أن رسول الله ﷺ أوصى رجلًا إذا أخذ مضجعه من الليل أن يقول. . .»، وفي لفظ للبخاري: «أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قال. . .».

وإنْ شاءَ قال: «**باسمِكَ ربِّي وضعتُ جنبي، وبك أرفعُه، فإنْ أمسكتَ نفسي فاغفرْ لها، وإنْ أرسلتَها فاحفظْها بما تحفظُ به عبادَكَ الصالحين**»(١).

وإنْ شاءَ قال: «**اللَّهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ، وربَّ العرشِ العظيمِ، ربِّي وربَّ كلِّ شيءٍ، فالقَ الحبِّ والنوى، منزلَ التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ**(٢)**، أعوذُ بكَ من شرِّ كل دابةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها، أنت الأولُ فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخرُ فليس بعدَك شيءٌ، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطنُ فليس دونك شيءٌ، اقضِ عني الدينَ، وأغنِني من الفقرِ**»(٣).

وبالجملةِ فلا يزالُ يذكرُ اللهَ على فراشِه حتى يغلبَه النومُ وهو يذكرُ اللهَ.

فهذا منامُه عبادةٌ، وزيادةٌ له في قربِه من اللهِ.

فإذا استيقظ عاد إلى عادتِه الأولى.

ومع هذا فهو قائمٌ بحقوقِ العبادِ؛ من عيادةِ المرضى، وتشييعِ الجنائزِ، وإجابةِ الدعوةِ، والمعاونةِ لهم بالجاهِ والبدنِ والنفسِ والمالِ(٤)، وزيارتِهم، وتفقدِهم(٥)، وقائمٌ بحقوقِ أهلِه وعيالِه.

---

(١) أخرج البخاري، رقم (٦٣٢٠)، ومسلم، رقم (٢٧١٤): عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره، فلينفض بها فراشه، وليسمِّ الله؛ فإنه لا يعلم ما خلفه بعده على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن، وليقل: باسمك ربي...**» الخ» وفي لفظ: «**... إن أمسكت نفسي فارحمها**».

(٢) في ك و س: «والفرقان».

(٣) أخرج أحمد في «المسند» (٢/ ٣٨١)، (٤٠٤)، ومسلم، رقم (٢٧١٣)، وأبو داود في «سننه»، رقم (٥٠٥١)، والترمذي، رقم (٣٤٠٠)، وابن ماجه، رقم (٢٨٧٣): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضاجعنا أن نقول: «**اللهم رب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر**»، واللفظ لمسلم، وفي لفظ له: «**أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته**».

(٤) في س: «والمعاونة في الجاه والبدن والنفس والمال».

(٥) في ع: «وتعهدهم».

فهو متنقلٌ(١) في منازلِ العبوديةِ كيف نقله فيها الأمرُ، فإذا وقع منه تفريطٌ في حقٍّ من حقوقِ اللهِ؛ بادَرَ إلى الاعتذارِ، والتوبةِ، والاستغفارِ، ومَحْوِهِ، ومداواتِهِ بعملٍ صالحٍ يُزِيْلُ أَثَرَه.

فهذا وظيفتُه دائمًا.

تفصيلُ حالِ السابقين

وأما السابقون المقربون: فنستغفرُ اللهَ الذي لا إله إلا هو أولًا من وصفِ حالِهم(٢)، وعدمِ الاتصافِ به، بل ما شممنا له رائحةً، ولكنْ محبةُ العلمِ(٣) تحملُ على تعرُّفِ منزلتِهم، والعلمِ بها وإن كانتِ النفوسُ مَتَخَلِّفَةً منقطعةً عن اللَّحاقِ بهم؛ ففي معرفةِ حالِ القومِ فوائدُ عديدةٌ:

منها: أن لا يزالَ المتخلِّفُ المسكينُ مُزْرِيًا على نفسِه(٤)، لائمًا لها(٥).

ومنها: أنه لا يزالُ(٦) منكسرَ القلبِ بين يدي ربِّه تعالى، ذليلًا له، حقيرًا، يشهدُ(٧) منازلَ السابقين، وهو في زُمرةِ المنقطعين، ويشهدُ بضائِعَ التجارِ، وهو في رفقةِ المحرومين.

ومنها: أنه عساه أن تنهضَ همتُه يومًا [ما](٨) إلى التشبثِ والتعلقِ بساقةِ القومِ، ولو من بعيدٍ.

ومنها: أنه لعلَّه أن يَصْدُقَ في الرغبةِ واللجإِ إلى من بيدِه الخيرُ كلُّه أن يُلحقَه بالقومِ، ويُهَيِّئَهُ لأعمالِهم، فيصادفَ ساعةَ إجابةٍ لا يسألُ اللهَ ﷻ فيها شيئًا إلا أعطاهُ.

ومنها: أن هذا العلمَ [هو](٩) من أشرفِ علومِ العبادِ(١٠)، وليس بعد علمِ التوحيدِ أشرفُ منه، وهو لا يناسبُ إلا النفوسَ الشريفةَ، [و](١١) لا يناسبُ النفوسَ الدنيئةَ المَهِيْنَةَ، فإذا رأى نفسَه تناسبُ هذا العلمَ، وتشتاقُ إليه، وتحبُّه، وتأنسُ بأهلِه فلْيُبْشِرْ

---

(١) في ك و س: «منتقل». (٢) في ك و س: «حالتهم». (٣) في س: «ولكن محبة القوم».

(٤) أي: عائبًا وعاتبًا لها، ولا يعدها شيئًا، يقال: «زَرَى عليه زريًا وزراية ومزراة وزُريانًا»، فهو زارٍ، وأزرى فهو مُزرٍ، لكنه قليلٌ. انظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٨٨)، «القاموس» (ص/ ١٦٦٦).

(٥) في ع: «مزريًا على نفسه، ذامًّا لها، لائمًا لها»، وفي ك و س: «مزريًا على نفسه، ذامًّا لها».

(٦) في ك و س: «أن لا يزال». (٧) في ك و س: «يشهد له».

(٨) ما بين المعقوفين ليس في س. (٩) ما بين المعقوفين ليس في س.

(١٠) في س: «علوم العبادة». وهو خطأ. (١١) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.

بالخيرِ؛ فقد أُهِّل له، فليقلْ لنفسِه: «يا نفسُ، قد حصل لك شطرُ السعادةِ، فاحرصي على الشطرِ الآخرِ؛ فإن السعادةَ في العلم بهذا الشأنِ، والعَمَلِ به، فقد قَطَعْتِ نصفَ المسافةِ، فهلاَّ تقطعين باقيها، فتفوزين[(١)] فوزًا عظيمًا؟».

ومنها: أن العلمَ بكلِّ حالٍ خيرٌ من الجهلِ، فإذا كان اثنان: أحدُهما عالمٌ بهذا الشأنِ، غيرُ موصوفٍ به، ولا قائمٌ به. وآخرُ جاهلٌ به، غيرُ متصفٍ به، فهو خِلْوٌ من الأمرين: فلا ريبَ أن العالِمَ به خيرٌ من الجاهلِ[(٢)] - وإن كان العالِمُ المتصفُ به خيرًا منهما، فينبغي أن يُعْطَى كلُّ ذي حقٍّ حَقَّهُ، ويُنزَّلَ في مرتبتِه.

ومنها: أنه إذا كان العلمُ بهذا الشأنِ همَّه ومطلوبَه؛ فلا بدَّ أن ينالَ منه بحسبِ استعدادِه، ولو لحظةً[(٣)]، ولو بارقةً، ولو أنه يحدِّثُ نفسَه بالنهضةِ إليه.

ومنها: أنه لعله يجري منه على لسانِه ما ينتفعُ به غَيْرُه؛ بقصدِه، أو بغيرِ قصدِه، واللهُ لا يضيعُ مثقالَ ذرةٍ، فعسى أن يُرْحَمَ بذلك العاملِ[(٤)].

وبالجملةِ ففوائدُ العلمِ بهذا الشأْنِ لا تنحصرُ، فلا ينبغي أن تُصْغِيَ إلى من يثبطُك عنه، ويقولُ: «إنه لا ينفعُ»؛ بل احذرْه، واستعنْ باللهِ، ولا تعجزْ[(٥)]، ولكن لا تغترْ، وفرِّقْ بين العلمِ والحالِ.

وإياك أن تظنَّ أن بمجردِ علمِ هذا الشأنِ[(٦)] قد صِرْتَ من أهلِه، هيهات ما أظهر الفرقَ بين العالِمِ بوجهِ الغِنَى، وهو فقيرٌ، وبين الغَنِيِّ بالفعلِ، وبين العالِمِ بأسبابِ الصحةِ، وحدودِها، وهو سقيمٌ، وبين الصحيحِ بالفعلِ[(٧)].

---

(١) كذا في جميع النسخ، والصواب: «فتفوزي»؛ منصوب بأن مضمرة وجوبًا بعد فاء السبب المسبوقة بالتحضيض.

(٢) في ك: «من الجاهل به». (٣) غير واضحة في ك، وبياض في س.

(٤) أشار في هامش س إلى أنَّ في نسخة: «القائل»، والمعنى على هذا: «فعسى الله - تعالى- أن يرحم هذا السامع بسبب ما سمعه من هذا القائل الذي جرى هذا الكلام على لسانه بقصد أو بغير قصد». والمعنى على مافي الأصل وباقي النسخ: «فعسى الله -تعالى-أن يرحم هذا القائل الذي جرى على لسانه هذا الكلام بقصد أو بغير قصد بسبب انتفاع السامع لهذا الكلام الذي عمل بمقتضاه».

(٥) في س: «ولا تعجزن». (٦) في ك: «العلم بهذا الشأن».

(٧) تقدم معنى: «القوة» و«الفعل».

فاسمعِ الآنَ وصفَ القومِ، وأحْضِرْ ذهنَك لشأنِهم العجيبِ، وخَطَرِهم(١) الجليلِ، فإن وجدتَ من نفسِك حركةً وهِمَّةً إلى التشبهِ بهم فاحمدِ اللهَ، وادخلْ؛ فالطريقُ واضحٌ، والبابُ مفتوحٌ:

إذا أعجبتك(٢) خصالُ امرئٍ فكنه يكنْ منك ما يعجبُك(٣)
فيلس على الجودِ والمكرماتِ إذا جئتها حاجبٌ يحجبُك(٤)

فنبأُ القوم عجيبٌ، [وحالُهم أعجبُ](٥)، وأمرُهم أخفى(٦) إلا على من له مشاركةٌ مع القومِ؛ فإنه يطَّلِعُ من حالِهم على ما يُرِيْه إياه القدْرَ المشتركَ.

وجملة أمرِهم: أنهم قومٌ قدِ امتلأتْ قلوبُهم من معرفةِ اللهِ، وعَمُرَتْ بمحبَّتِه وخشيتِه وإجلالِه ومراقبتِه، فَسَرَتِ المحبةُ في أجزائِهم، فلم يبقَ فيها عرقٌ، ولا مَفْصِلٌ إلا وقد دخلَه الحبُّ.

قد أنساهم حُبُّه ذِكْرَ غيرِه، وأوحشَهُم أنسُهم به ممن سواه.

قد فنوا بحبِّه عن حبِّ ما سواه(٧)، وبذكرِه عن ذكرِ من سواه، وبخوفِه ورجائِه والرغبةِ إليه(٨) والرهبةِ منه والتوكيلِ عليه، والإنابةِ إليه، والسكونِ إليه(٩)، والتذللِ والانكسارِ بين يديهِ عن تعلقِ ذلك منهم بغيرِه.

فإذا وضع أحدُهم جنبَه على مضجعِه، صعدتْ أنفاسُه(١٠) إلى إلهِه ومولاه، واجتمعَ همُّه عليه متذكرًا صفاتِه العُلى وأسماءَه الحُسْنى، مشاهدًا له في أسمائِه وصفاتِه، قد

---

(١) الخَطَرُ والخَطْرُ -بالفتح، والسكون-: القدر والشرف، يقال: «رجلٌ خطيرٌ، وقد خُطِر -بالضم- خُطُورةً». انظر: «الصحاح» (٢/ ٥٦٠)، «القاموس» (ص/ ٤٩٤).

(٢) في ع و س: «وإذا أعجبتك»، وفي ك: «وإذا أعجبك».

(٣) في ك: «فكنه يكن مثل ما يعجبك»، وفي س: «فكنه تكن مثل ما يعجبك».

(٤) البيتان ذكرهما المؤلف في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩) بإبدال: «خصال» بـ: «خلال»، ولم يعزهما لأحد.

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك و س. (٦) في ك: «يخفى»، وفي س: «خفيٌّ».

(٧) في باقي النسخ: «مَنْ سواه».

(٨) قال المؤلف في «مدارج السالكين» (٢/ ٥٨): «... والفَرْق بين الرغبة والرجاء: أنَّ الرجاء طمعٌ، والرغبة طلبٌ؛ فهي ثمرة الرجاء؛ فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمَنْ رجا شيئًا طلبه، ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه...» اهـ.

(٩) في ع: «والشكوى إليه». والمثبت أحسن. (١٠) في س: «أنفاسهم».

تجلَّت [له](١) على قلبِه أنوارُها، فانصبغَ قلبُه بمعرفتِه ومحبتِه، فبات جسمُه في فراشِه يتجافى عن مضجعِه، وقلبُه قد أوى إلى مولاه وحبيبِه، فآواه إليه، وأسجدَه بين يديهِ، خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كلِّ جهةٍ من جهاتِه، فيا لها سجدةً ما أشرفها سجدةً(٢)، لا يرفعُ رأسَه منها إلى يومِ اللقاءِ.

وقيل لبعضِ العارفين: «أيسجدُ القلبُ بين يدي ربِّه؟» قال: «إي واللهِ سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها إلى [يومِ](٣) القيامةِ».

فشتان بين قلبٍ يبيتُ عند ربِّه، قد قطعَ في سفرِه إليه بيداءَ الأكوانِ، وخرقَ حُجُبَ الطبيعةِ، ولم يقفْ عند رسمٍ، ولا سكنَ إلى علمٍ، حتى دخل على ربِّه في داره، فشاهد(٤) عزَّ سلطانِه، وعظمةَ جلالِه، وعلوَّ شأنِه، وبهاءَ كمالِه، وهو مستوٍ على عرشِهِ، يدبِّرُ أمرَ عبادِه، وتصعدُ إليه شؤونُ العبادِ(٥)، وتُعرَضُ عليه حوائجُهم وأعمالُهم، فيأمرُ فيها بما يشاءُ(٦)، فيُنزِلُ الأمرَ من عندِه نافذًا كما أَمَرَ، فيُشاهِدُ المَلِكَ الحقَّ قيومًا بنفسِه، مقيمًا لك ما سواه(٧)، غنيًّا عن كلِّ من سواه، وكلُّ من سواه فقيرٌ إليه(٨): ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: الآية ٢٩] يغفرُ ذنبًا، ويفرِّجُ كُرُبًا، ويفكُّ عانيًا(٩)، وينصرُ ضعيفًا، ويجبرُ كسيرًا، ويُغني فقيرًا، ويميتُ ويُحيي، ويسعدُ ويُشقي، ويُضِلُّ ويَهدي، ويُنعمُ على قومٍ، ويسلبُ نعمتَه(١٠) عن آخرين، ويعزُّ أقوامًا، ويذلُّ آخرين، ويرفعُ أقوامًا، ويضعُ آخرين.

ويشهدُه كما أخبر عنه أعلمُ الخلقِ به، وأصدقُهم في خبرِه؛ حيثُ يقولُ في الحديثِ الصحيحِ: «**يمينُ اللهِ ملأى، لا يَغِيضُها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفقَ منذُ**

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ. (٢) في ك و س: «مِن سجدة».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ع. (٤) في ع: «مشاهدًا».

(٥) في ع: «وهو مستوٍ على عرشه، يدنو من عباده، وتصعد إليه شؤون العباد».

(٦) في ك: «بما شاء».

(٧) تقدم بيان معنى اسم الله: «القيوم».

(٨) في ك: «فقيرًا إليه». وكلاهما سائغ، فعلى الرفع تكون الواو استئنافية، وعلى النصب تكون عاطفة على قوله: «الملك الحق قيومًا».

(٩) العاني: الأسيرُ، وكلُّ من ذلَّ واستكان وخضع، يقال: «عنا يعنو عُنُوًّا وعَنَاءً» إذا صار أسيرًا. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٣١٤)، «القاموس» (ص/ ١٦٩٦).

(١٠) في ك: «نعمه».

خلقَ الخلقَ[(١)]؛ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينِه، وبيدِه الأخرى الميزانُ يخفضُ ويرفعُ»[(٢)].

فيشاهدُه كذلك: يقسِّمُ الأرزاقَ، ويجزلُ العطايا، ويمنُّ بفضلِه[(٣)] على من يشاءُ من عبادِه بيمينِه، وباليدِ الأخرى الميزانُ يخفضُ [به][(٤)] من يشاءُ، ويرفعُ به من يشاءُ؛ عدلًا منه وحكمةً - لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيمُ.

فيشهدُه وحده القيومَ بأمرِ السماواتِ والأرضِ ومن فيهن، ليس له بوابٌ فيُسْتَأْذَن، ولا حاجبٌ فيَدخلُ عليه [به][(٥)]، ولا وزيرٌ فيُؤتى، ولا ظهيرٌ فيستعانُ به، ولا وليٌّ من دونِه فيتشفعُ[(٦)] به إليه، ولا نائبٌ عنه فيعرِّفُه حوائجَ عبادِه، ولا معينٌ له فيعاونُه على قضائِها، [بل قد][(٧)] أحاطَ سبحانه بها علمًا، ووسِعَها قدرةً ورحمةً، فلا تزيدُه كثرةُ الحاجاتِ إلا جودًا وكرمًا، فلا يشغلُه منها شأنٌ عن شأنٍ، ولا تغلطُه[(٨)] كثرةُ المسائلِ، ولا يتبرمُ بإلحاحِ المُلِحِّين، لوِ اجتمعَ أوَّلُ خلقِه وآخرُهم، وإنسُهم وجنُّهم، وقاموا في صعيدٍ واحدٍ، ثم سألوه، فأعطى كلًّا منهم مسألتَه؛ ما نقصَ ذلك مما عنده ذرةً واحدةً إلا كما يُنقِصُ المخيطُ البحرَ إذا غُمِسَ فيه، ولو أن أوَّلَهم وآخرَهم، وإنسَهم وجنَّهم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منهم ما زاد ذلك في ملكِه شيئًا، [ولو أن أوَّلَهم

---

(١) في س: «منذ خَلَقَ السماوات».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣١٣)، والبخاري، رقم (٤٦٨٤)، ومسلم، رقم (٩٩٣): عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: **«قال الله -تبارك وتعالى-: «يا بن آدم، أنفقْ أُنفِقْ عليك»**. وقال رسول الله ﷺ: **«يمين الله -وفي لفظ: يد الله- ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنَّه لم يغض ما في يمينه»**، وقال: **«وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان: يخفض ويرفع»**.

قوله: «لا يغيضها» - بالغين المعجمة، والضاد المعجمة الساقطة -: أي: لا ينقصها. يقال: «غاض الماء، يغيض»: إذا نقص، و«غاضه الله» لازم ومتعدٍّ. وقوله: «سحاء»: ضُبطت بوجهين:

أحدهما: بالتنوين على المصدر. قال النووي في «شرح مسلم» (٧/ ٨٠): «... وهذا هو الأصح الأشهر» اهـ. والثاني: بالمدِّ على الوصف، ووزنه «فعلاء»، صفة لليد، والمعنى: دائمة العطاء، يقال: «سحَّ -بفتح أوله، مُثَقَّلٌ- يسح -بكسر السين، ويجوز الضمُّ»، وقوله: «الليلَ والنهارَ»: بالنصب على الظرفية، أي: فيهما. ويجوز الرفع على الفاعلية.

انظر: «شرح مسلم» (٧/ ٧٩) للنووي، و«فتح الباري» (٨/ ٢٠٢)، (١٣/ ٤٠٦).

(٣) في س: «بالفضل».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٦) في س: «فيشفع».

(٧) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٨) في ك: «ولا يغلطه».

وآخرَهم، وإنسَهم وجنَّهم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منهم ما نقص ذلك من ملكِه شيئًا][١]؛ ذلك بأنه الغنيُّ الجوادُ الماجدُ؛ فعطاؤُه كلامٌ، وعذابُه كلامٌ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢].

ويشهدُه كما أخبر عنه أيضًا الصادقُ المصدوقُ حيث يقولُ: **«إن اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يخفضُ القسطَ، ويرفعُه، يرفعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ النهارِ[٢]، وعملُ النهارِ قبلَ الليلِ[٣]، حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهِه ما أدركه[٤] بصرُه من خلقِه»** [٥].

وبالجملةِ فيشهدُه في كلامِه؛ فقد تجلَّى سبحانَه لعبادِه في كلامِه، وتراءى لهم فيه، وتعرَّف إليهم فيه، فبعدًا وتبًّا للجاحدين والظالمين! ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

أخرج أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٤)، (١٦٠)، (١٧٧)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٢٥٧٧)، والترمذي، رقم (٢٤٩٥)، وابن ماجه، رقم (٤٢٥٧): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال: **«يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»**. واللفظ لمسلم.

(٢) في ك وس: «قبل عمل النهار». (٣) في ك و س: «قبل عمل الليل». (٤) في س: «ما انتهى إليه».

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٥)، (٤٠١)، (٤٠٥)، ومسلم رقم (١٧٩)، وابن ماجه، رقم (١٩٥) عن أبي عُبَيْدَة عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: **«إنّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أنْ ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور»** وفي لفظ لأحمد ومسلم: **«النار»، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**.

وفي لفظ لابن ماجه: «. . . ثم قرأ أبو عُبَيْدَة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: الآية ٨]».

وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]، لا إلهَ إلا هو الرحمنُ الرحيمُ[١].

فإذا صارتْ صفاتُ ربِّه وأسماؤُه مشهدًا لقلبِهِ؛ أَنْسَتْهُ ذكرَ غيرِه، وشغَلتْه عن حبِّ سواه[٢]، وجذبتْ دواعي قلبِه إلى حبِّه تعالى بكلِّ جزءٍ من أجزاءِ قلبِه وروحِه وجسمِه، فحينئذ يكونُ الربُّ تعالى سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبه يسمعُ، وبه يُبصرُ، وبه يبطشُ، وبه يمشي، كما أخبر عن نفسِه على لسانِ رسولِه ﷺ[٣].

ومَنْ غَلُظَ حِجَابُهُ، وكثف طبعُه، وصلُب عودُه: فهو عن فهمِ هذا بمعزلٍ، بل لعله أن يفهمَ منه ما لا يليقُ بربِّه[٤] تعالى من حلولٍ أو اتحادٍ، أو يفهمْ منه غيرَ المرادِ منه، فيُحرِّفُ معناه ولفظَه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠].

وقد ذكرتُ معنى الحديثِ، والردَّ على من حرَّفَه، وغلطَ فيه في كتابِ: «التحفةِ المكيةِ»[٥].

وبالجملةِ فيبقى قلبُ العبدِ الذي هذا شأنُه عرشًا للمثلِ الأعلى، أي: عرشًا لمعرفةِ محبوبِه، ومحبتِه وعظمتِه وجلالِه وكبريائِه.

وناهيك بقلبٍ هذا شأنُه، فيا له من قلبٍ من ربِّه ما أَدْنَاه! ومن قربِه ما أَحْظَاه!

فهو ينزِّه قلبَه أن يساكنَ سواه، أو يطمئنَ بغيرِه، فهؤلاءِ قلوبُهم قد قطعتِ الأكوانَ، وسجدتْ تحت العرشِ، وأبدانُهم في فرشِهم، كما قال أبو الدرداءِ[٦]: «إذا نام العبدُ

---

(١) في س: «لا إله إلا هو العزيز الحكيم الرحمن الرحيم».

(٢) في ك و س: «عن حُبِّ مَنْ سواه».

(٣) أخرج أحمد في «المسند» (٦/ ٢٥٦)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٦٥٠٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٤)، والبيهقي في «الزهد» رقم (٦٩٠)، و«السنن» (٣/ ٣٤٦)، (١٠/ ٢١٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٧)، رقم (١٢٤٨): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله - تعالى - قال: مَنْ عادَى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبيته، فكنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته»**.

(٤) في س: «ما لا يليق به - تعالى-».

(٥) تقدم الكلام.

(٦) تقدمت ترجمته.

المؤمنُ عُرِجَ بروحِه حتى تسجدَ تحت العرشِ، فإن كان طاهرًا أُذِنَ لها في السجودِ/، وإن كان جُنُبًا لم يؤذنْ لها»(١).

وهذا - واللهُ أعلمُ - هو السرُّ الذي لأجلِه أمر النبيُّ ﷺ الجنبَ إذا أرادَ النومَ أن يتوضأَ، وهو: إما واجبٌ على أحدِ القولين، أو مؤكدُ الاستحبابِ على القولِ الآخرِ؛ فإن الوضوءَ يخففُ حدثَ الجنابةِ، ويجعلُه طاهرًا من بعضِ الوجوهِ، ولهذا روى الإمامُ أحمدُ وسعيدُ بنُ منصورٍ وغيرُهما عن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنهم إذا كان أحدُهم جنبًا، ثم أراد أن يجلسَ في المسجدِ توضأَ، ثم جلس فيه»(٢).

حكمةُ وضوءِ الجنبِ عند النومِ

وهذا مذهبُ [الإمامِ](٣) أحمدَ وغيرِه، مع أن المساجدَ لا تحلُّ لجنبٍ، [فدلَّ](٤) على أن وضوءَه رفعَ حكمَ الجنابةِ المطلقةِ الكاملةِ التي تمنعُ الجسدَ(٥) من الجلوسِ في بيتِ اللهِ، وتمنعُ الروحَ من السجودِ بين يدي اللهِ سبحانَه.

فتأملْ هذهِ المسألةَ، وتفهمْها(٦)، واعرفْ بها مقدارَ فقهِ الصحابةِ، وعمقِ علومِهم، فهل ترى أحدًا من المتأخرين وصل إلى مبلغِ هذا الفقهِ الذي خصَّ اللهُ به خيارَ عبادِه، وهم أصحابُ نبيِّه؟، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ(٧).

فإذا استيقظ هذا القلبُ من منامِه، صعد إلى اللهِ بهمِّه وحبِّه وأشواقِه؛ مشتاقًا إليه،

---

(١) في ك وس: «لم يؤذن لها بالسجود». أخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٢/ ٧٦٢)، رقم (٩٨٤): من طريق ابن لهيعة، عن عثمان بن نعيم الرعيني، عن أبي عثمان الأصبحي، عن أبي الدرداء به.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور -كما ذكر المؤلف-في «سننه» (٤/ ١٢٧٥)، رقم (٦٤٦) عن عطاء بن يسار، وصحح إسناده ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٩٦)، ولم أجده في «المسند».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٥) في ك و س: «التي تمنع الجنب».

(٦) في ك و س: «وفقْهَهَا».

(٧) اختلف أهل العلم في مكث الجنب في المسجد على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يجوز مطلقًا، وهو مروي عن بعض السلف، اختاره المزني وابن المنذر، وابن مسلمة من المالكية، وداود الظاهري وابن حزم.

الثاني: أنه لا يجوز مطلقًا، وهو قول الجمهور كأبي حنيفة ومالك والشافعي والثوري وإسحاق بن راهويه.

الثالث: أنه يجوز إذا توضأ، وهو قول أحمد بن حنبل -كما ذكر المؤلف-، واختاره شيخه ابن تيمية.

انظر: «الأم» (١/ ٥٤) للشافعي، «الأوسط» (٢/ ١٠٨) لابن المنذر، «المحلى» (٢/ ١١٦) لابن حزم، «معرفة السنن والآثار» (٣/ ٤٠٤) للبيهقي، «المغني» (١/ ٢٠٠)، «الإنصاف» (١/ ٢٤٤)، «كشاف القناع» (١/ ١٦٨).

طالبًا له، محبًّا له، عاكفًا عليه، فحالُه كحالِ المحبِّ الذي غابَ عن محبوبِه الذي لا غِنَى له عنه، ولا بدَّ له منه، وضرورتُه إليه أعظمُ من ضرورتِه إلى التنفُّسِ[١] والطعامِ والشرابِ، فإذا نامَ غابَ عنه.

فإذا استيقظ عاد إلى الحنينِ إليه، وإلى الشوقِ الشديدِ، والحبِّ المقلقِ، فحبيبُه آخرُ خطراتِه عند منامِه، وأولُها عند استيقاظِه، كما قال بعضُ المحبين لمحبوبتِه[٢]:

أآخرُ شيءٍ أنتِ في كلِّ هجعةٍ وأولُ شيء أنتِ عند هبوبي[٣]

فقد أفصح هذا المحِبُّ عن حقيقةِ المحبَّةِ، وشروطِها، فإذا كان هذا في محبةِ مخلوقٍ لمخلوقٍ؛ فما الظنُّ لمحبةِ[٤] المحبوبِ الأعلى؟!.

فأُفٍّ لقلبٍ لا يصلحُ لهذا، ولا يصدقُ به؛ لقد صُرِفَ[٥] عنه خيرُ الدنيا والآخرةِ.

❋ ❋ ❋

(١) في ك و س: «إلى النفس».

(٢) في ك و س: «لمحبوبه».

(٣) البيت ذكره المؤلف في «روضة المحبين» (ص/ ٢٧٣)، ولم يعزه لأحد.

(٤) في ك و س: «فما الظن في محبة المحبوب الأعلى»؟!.

(٥) في ك: «لقد صُرفت».

فَصْلٌ

فإذا استيقظَ أحدُهم وقد بدَر إلى قلبِه هذا الشأنُ؛ فأولُ ما يَجري على لسانِه ذكرُ محبوبِه، والتوجهُ إليه، واستعطافُه والتملقُ(١) بين يديهِ، والاستعانةُ به أن لا يُخلِيَ بينَه وبين نفسِه، وأن لا يكِلَه إليها فيَكِلَه إلى ضيعةٍ(٢) وعجزٍ وذنبٍ وخطيئةٍ، بل يكلؤه كلاءةَ(٣) الوليدِ الذي لا يملكُ لنفسِه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فأولُ ما يبدأُ به [قولُ](٤): «الحمدُ للهِ الذي أحيانَا بعد ما أماتنَا وإليه النشورُ»(٥)، متدبرًا لمعناها؛ من ذكرِ نعمةِ اللهِ عليه بأنْ أحياهُ بعد نومِه الذي هو أخو الموتِ(٦)، وأعاده إلى حالِه سويًّا سليمًا محفوظًا مما لا يعلمُه، ولا يخطرُ ببالِه من المؤذياتِ

---

(١) التَّمَلُّق والتِّمْلاقُ: التَّوَدُّد والتلطُّف الشديد، يقال: «تملَّقه وتملَّق له» إذا تودَّد إليه، وتلطف له. انظر: «الصحاح» (٤/ ١٢٧٩)، «القاموس» (ص/ ١١٩٣).

(٢) الضَّيْعةُ: الهلاكُ والتلف، يقال: «ضاع يضيع ضَيْعًا -ويُكْسر- وضَيْعَةً وضَيَاعًا -بالفتح»، ومنه قولهم: «فلان بدارِ مَضِيْعَةٍ» مثال «مَعِيْشَة». انظر: «لسان العرب» (٨/ ٢٣٠)، «الصحاح» (٣/ ١٠٣٩)، «القاموس» (ص٩٥٩).

(٣) الكِلاءة والكِلاءُ -بكسرهما-: الحفظ والحراسة، يقال: «كَلأه -كمَنَعَه- يكلؤه»، ويقال: «اذهَبْ في كلاءة الله»، و«اكتَلأَتْ عيني»: إذا لم تنم، وسَهِرَتْ وحَذِرَتْ أمْرًا. انظر: «لسان العرب» (١/ ١٤٥)، «الصحاح» (١/ ٥٤)، «القاموس» (ص/ ٦٤).

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٥) أخرج أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٥)، (٣٩٧)، (٣٩٩)، (٤٠٧)، والبخاري في «صحيحه»، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نام، رقم (٦٣١٢)، وأبو داود في «سننه»، كتاب «الأدب»، باب: ما يقول عند النوم، رقم (٥٠٤٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، رقم (٧٤٧)، (ص/ ٣٦٠): عن حذيفة ﵁ قال: «كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خَدِّه ثم قال: «**اللهم باسمك أموت وأحيا**»، وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**».

(٦) اخْتُلِفَ في وجْه تسمية النوم موتًا: فقال في «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٣٦٩): «... سمي النوم موتًا؛ لأنه يزول معه العقل والحركة؛ تمثيلًا وتشبيها، لا تحقيقًا» اهـ. -وقيل: سُمِّي مَوْتًا لانقطاع الانتفاع بالحياة؛ إذ هي محل طاعة الله -تعالى-، وطاعة رسوله ﷺ، فمن نام زال عنه هذا الانتفاع، فكان كالميِّت. نقله الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ١١٨) عن الطيبي.

وقيل: إن الموت في كلام العرب يطلق على مفارقة الروح للبدن، وعلى السكون، يقال: «ماتت الريح» أي: سَكَنَتْ. انظر: «القاموس» (ص٢٠٦).

والمهلكاتِ التي هي[(١)] غرضٌ وهدفٌ لسهامِها كلِّها؛ تقصدُه بالهلاكِ، أو الأذى[(٢)]، [و][(٣)] التي من بعضِها أرواحُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ؛ فإنها تلتقي بروحِه إذا نام، فتقصدُ إهلاكَه وأذاه، فلولا أنَّ اللهَ سبحانَه يدفعُ عنه؛ لما سَلِمَ.

هذا وكم تلقى الروحُ في تلك الغيبةِ من أنواعِ الأذى والمخاوفِ والمكارهِ والتفزيعاتِ[(٤)] ومحاربةِ الأعداءِ، والتشويشِ والتخبيطِ بسببِ ملابستِها لتلك الأرواحِ:

فمن الناسِ من يشعرُ بذلك؛ لرقةِ روحِه ولطافتِها، ويجدُ آثارَ ذلك[(٥)] فيها إذا استيقظ من الوحشةِ والخوفِ والفزعِ والوجعِ الروحيِّ الذي ربما غلب[(٦)] حتى سرى إلى البدنِ.

ومن الناسِ من تكونُ[(٧)] روحُه أغلظَ وأكثفَ وأقسى من أن تشعرَ بذلك، فهي مثخنةٌ بالجراحِ، مزمنةٌ بالأمراضِ، ولكن لنومِهَا لا تحسُّ بذلك.

هذا وكم من مريدٍ لإهلاكِ جسمِه من الهوامِّ وغيرِها، قد[(٨)] حَفِظَهُ منه، فهي في أجحارِها محبوسةٌ عنه، لو خلِّيت وطبعَها لأهلكتْه، فمن الذي[(٩)] كلأه وحرسَه وقد غاب عنه حِسُّه[(١٠)] وعلمُه وسمعُه وبصرُه؟!.

فلو جاءه[(١١)] البلاءُ من أيِّ مكانٍ جاء؛ شعرَ به، ولهذا ذكَّر سبحانَه عبادَه هذهِ النعمةَ، واعتدَّها عليهم[(١٢)] من جملةِ نعمِه، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٤٢].

فإذا تصوَّر العبدُ ذلك فقال: «الحمدُ للهِ»؛ كان حمدُه أبلغَ وأكملَ من حمدِ الغافلِ عن ذلك، ثم تفكَّر في أن الذي أعاده بعد هذهِ الإماتةِ حيًّا سليمًا قادرٌ[(١٣)] على أن يعيدَه بعد موتتِه الكبرى حيًّا كما كان، ولهذا يقولُ بعدَها: «**وإليه النشورُ**»، ثم يقولُ: «لا إلهَ

(١) في س: «التي هو». وهو الصواب.
(٢) في س: «تقصده بالإهلاك والأذى».
(٣) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٤) في ك وس: «والتفريعات»!.
(٥) في س: «أَثَرَ ذلك».
(٦) في س: «غلبتْ».
(٧) في ك: «من يكون».
(٨) في ك و س: «وقد».
(٩) في ك وس: «فمَنْ ذا الذي».
(١٠) في ك: «جسمه».
(١١) في ك: «فلو جاء».
(١٢) في ك: «وأعَدَّها عليهم»، وفي س: «وعَدَّها عليهم».
(١٣) في س: «قادرًا» -بالنصب. وهو غلط.

إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ للهِ، وسبحانَ اللهِ، واللهُ أكبرُ[١]، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ»، ثم يدعو[٢] ويتضرعُ[٣].

ثم يقومُ إلى الوضوءِ بقلبٍ حاضرٍ مستصحبٍ لما فيه، ثم يُصلِّي ما كتب اللهُ له، صلاةَ مُحِبٍّ ناصحٍ لمحبوبِهِ، متذللٍ منكسرٍ بين يديه، لا صلاةَ مدلٍّ بها عليه، يرى من أعظمِ نعمِ محبوبِهِ عليه أن أقامَه، وأنامَ غيرَه، واستزارَه، وطردَ غيرَه، وأَهلَهُ، وحرم غيرَه، فهو يزدادُ[٤] بذلك محبةً إلى محبَّتِه، يرى أن قرةَ عينِه، وحياةَ قلبِه، وجنَّةَ روحِه، ونعيمَه ولذَّتَه وسرورَه في تلك الصلاةِ، فهو يتمنى طولَ ليلِه، ويهتمُّ بطلوعِ الفجرِ، كما يتمنى المُحِبُّ الفائزُ بوصلِ محبوبِه ذلك، فهو كما قيل:

يودُّ أنَّ ظلامَ الليلِ دامَ لهُ ... وزِيدَ فيهِ سوادُ القلبِ والبصرِ[٥]

فهو يتملقُ فيها مولاهُ تملُّقَ المحبِّ لمحبوبِه العزيزِ الرحيمِ، ويناجِيهِ بكلامِه، معطيًا لكلِّ آيةٍ حظَّها من العبوديةِ؛ فتجذبُ قلبَه وروحَه إليه آياتُ المحبةِ والودادِ، والآياتُ التي فيها الأسماءُ والصفاتُ، والآياتُ التي تعرَّفُ بها إلى عبادِه بالآئِه وإنعامِه عليهم وإحسانِه إليهم، وتُطيِّبُ له[٦] السيرَ آياتُ الرجاءِ والرحمةِ وسعةِ البرِّ والمغفرةِ، فتكونَ له بمنزلةِ الحادي الذي يطيبُ له السيرُ، ويهونُه عليه، وتقلقُه[٧] آياتُ الخوفِ والعدلِ والانتقامِ وإحلالِ غضبِه بالمُعْرِضين عنه، العادِلِينَ به غيرَه[٨]، المائِلِينَ إلى سواهُ،

---

(١) في ك و س: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

(٢) في س: «ثم يدعوا» -بالألف-، سبق ذكر القاعدة في ذلك.

(٣) أخرج أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٣)، والبخاري، رقم (١١٥٤)، والنسائي، رقم (٨٦١)، (ص/ ٤١٠)، وأبو داود، رقم (٥٠٦٠)، والترمذي، رقم (٣٤١٤)، وابن ماجه، رقم (٣٨٧٨)، والبيهقي رقم (٣٦٦)، (٢/ ١٢٦): عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: ربِّ اغفر لي؛ غُفر له»** أو قال: **«فدعا؛ استجيب له، فإن هو عزم ثم قام فتوضأ فصلى قُبلت صلاته»** . زاد ابن ماجه: **«العلي العظيم»** بعد الحوقلة.

(٤) في ك: «فهو مزداد». (٥) لم أجده. (٦) في ك و س: «ويطيب له».

(٧) في ك: «ويقلقه».

(٨) أي: الجاعلين لله -تعالى- مِثْلًا ونظيرًا في استحقاق العبادة. والعَدْل -بالفتح والكسر- والعديل: هو المِثل والنظير كما قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١]، قال المؤلف في «مدارج السالكين» (٣/ ٢١): «أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين. =

فيجمعَه عليه، ويمنعَه أن يشردَ قلبُه عنه.

فتأملْ هذهِ النكتةَ[١]، وتفقَّه فيها، واللهُ المستعانُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

وبالجملةِ فيشاهدُ المتكلمُ سبحانَه وقد تجلى في كلامِه، ويُعطي كلَّ آيةٍ حظَّها من عبوديةِ قلبِه الخاصَّةِ الزائدةِ على مجردِ تلاوتِها، والتصديقِ بأنها كلامُ اللهِ، بل الزائدةِ[٢] على نفسِ فهمِها ومعرفةِ المرادِ منها.

ثَمَّ شأنٌ آخرُ، لو فطِن له العبدُ لَعَلِمَ أنه كان قبلُ يلعبُ، كما قيل:

وكنتُ أرى أنْ قد تناهَى بي الهوى ... إلى غايةٍ ما بعدها لي مذاهبُ
فلما تلاقينا وعاينْت حُسْنَها ... تيقنتُ أني إنما كنتُ ألعبُ[٣]

فوأسفاه وواحسرتاه! كيف ينقضي الزمانُ وينفَدُ[٤] العمرُ والقلبُ محجوبٌ، ما شمَّ لهذا رائحةً، [و][٥] خرجَ من الدينا كما دخل إليها، وما ذاق أطيبَ ما فيها، بل عاشَ فيها عيشَ البهائمِ، وانتقلَ منها انتقالَ المفاليسِ، فكانت حياتُه عجزًا، وموتهُ كَمَدًا، ومعادُه حسرةً وأسفًا؟!.

اللهمَّ فلك الحمدُ، وإليك المُشْتَكى، وأنت المستعانُ، وبك المستغاثُ، وعليك التُّكلانُ، ولا حولَ ولاقوةَ إلا بك.

* * *

= وقيل: الباء بمعنى: «عن»، والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره، وهذا ليس بقوي؛ إذ لا تقول العرب: «عدلت بكذا»، أي: عدلت عنه، وإنما جاء هذا في فعل السؤال نحو: «سألت بكذا»، أي: عنه؛ كأنهم ضمَّنوه: «أعتنيتُ به، واهتممتُ»، ونحو ذلك» اهـ. وانظر: «لسان العرب» (١١/ ٤٣٠)، «القاموس» (ص/ ١٣٣١)، «الداء والدواء» (ص/ ١٩٧)، «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٢٣١)، «إغاثة اللهفان» (١/ ٦١).

(١) تقدم معنى: «النكتة».

(٢) أشار في هامش س إلى أن في نسخة: «الزيادة».

(٣) البيتان ذكرهما المؤلف في «مفتاح دار السعادة» (ص/ ١٣٢)، ولم يعزهما.

(٤) في س: «وينفذ».

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ع.

فصلٌ

فإذا صلَّى ما كتب اللهُ؛ جلسَ مُطْرِقًا بين يدي ربِّه تعالى؛ هيبةً له وإجلالًا، واستغفرَهُ استغفارَ من قد تيقَّنَ أنه هالكٌ إن لم يغفرْ له، ويرحمْه.

فإذا قَضَى من الاستغفارِ وطرًا[١] وكان عليه بعدَ ليلٍ؛ اضطجع على شقِّه الأيمنِ؛ مجمًّا نفسَه، مريحًا لها، مقويًّا لها على أداءِ وظيفةِ الفرضِ، فيستقبلُه نشيطًا بجَدِّه وهمَّتِه، كأنه لم يزلْ نائمًا طولَ ليلتِه لم يعملْ شيئًا، فهو يريدُ أن يستدركَ ما فاته في صلاةِ الفجرِ[٢]، فيصلي السنةَ، ويبتهلُ إلى اللهِ بينها وبين الفريضةِ؛ فإن لذلك الوقتِ شأنًا يعرفُه من عرفَه، ويكثرُ فيه من قولِ: «يا حيُّ يا قيومُ، لا إلهَ إلا أنت»؛ فلهذا الذكرِ في هذا الموطنِ[٣] تأثيرٌ عجيبٌ.

ثم ينهضُ إلى صلاةِ الصبحِ قاصدًا الصفَّ الأولَ عن يمينِ الإمامِ[٤]، أو خلفَ قفاه[٥]، فإنْ فاتَه ذلك؛ قصد القربَ منه مهمَا أمكن؛ فإن للقربِ من الإمامِ تأثيرًا في سرِّ الصلاةِ، ولهذا القربِ تأثيرٌ في صلاةِ الفجرِ خاصةً، يعرفُه من عرفَ قولَه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] قيل: يشهدُه اللهُ ﷻ وملائكتُه. وقيل: يشهدُه ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ، فيتفقُ نزولُ هؤلاءِ البدلِ عند صعودِ أولئك، فيجتمعون في صلاةِ الفجرِ؛ وذلك لأنها في أوَّلِ ديوانِ النهارِ، وآخرِ ديوانِ الليلِ، فيشهدُها ملائكةُ الليلِ والنهارِ[٦].

الخلافُ في آيةِ الإسراءِ

واحتج لهذا القولِ بما في «الصحيحِ» من حديثِ الزهريِّ[٧]، عن أبي سلمةَ[٨]، عن

---

(١) الوَطَرُ -محرَّكة-: الحاجة، أو حاجة لك فيها هَمٌّ وعناية، فإذا بلغتها فقد قضيت وطرك، ولا يُبْنَى منه فِعْلٌ، وجمعه: «أوطارٌ». انظر: «الصحاح» (٢/ ٧٢١)، «القاموس» (ص/ ٦٣٤).

(٢) قوله: «في صلاة الفجر» متعلق بقوله: «أن يستدرك».

(٣) في ك: «في هذا الوقت».

(٤) في س: «عند يمين الإمام». (٥) في ك: «وخلْفَ قفاه». (٦) في ك: «وملائكة النهار».

(٧) سبقت ترجمته.

(٨) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري المدني، قيل: اسمه «عبد الله»، وقيل: «إسماعيل»، وقيل: «اسمه وكنيته واحد»، تابعي جليل، وكان ثقة إمامًا فقيهًا كثير الحديث، توفي سنة أربع وتسعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. انظر: «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٣٧٠).

أبي هريرةَ[١] رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فَضْلُ صلاةِ الجميعِ[٢] على صلاةِ الواحدِ خمسٌ وعشرون درجةً، ويجتمعُ[٣] ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الفجرِ**»، يقولُ أبو هريرةَ: «[و][٤] اقرؤوا - إن شئتُم -: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨]، رواه البخاريُّ في «الصحيحِ»[٥].

حجةُ القولِ الثاني

قال أصحابُ القولِ الأولِ: وهذا لا يُنافي قولنا؛ وهو أن يكونَ اللهُ سبحانَه وملائكةُ الليلِ والنهارِ يشهدون قرآنَ الفجرِ. وليس المرادُ الشهادةَ العامَّةَ؛ فإن اللهَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، بل المرادُ شهادةٌ خاصَّةٌ، وهي شهادةُ حضورٍ ودنوٍّ متصلٍ بدنوِّ الربِّ تعالى ونزولِه إلى سماءِ الدنيا في الشطرِ الأخيرِ من الليلِ؛ وقد روى الليثُ بنُ سعدٍ[٦]: حدثني زيادُ بنُ محمدٍ[٧]، عن محمدِ بنِ كعبٍ القرظيِّ[٨]، عن فضالةَ بن عبيدِ الأنصاريِّ[٩]، عن أبي الدرداءِ[١٠]، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ عز وجل ينزلُ في ثلاثِ ساعاتٍ يَبقِين من الليلِ، فيفتحُ الذكرَ في الساعةِ الأولى الذي لم يره غيرُه، فيمحو الله ما يشاءُ ويثبتُ[١١]، ثم ينزلُ في الساعةِ الثانيةِ إلى جنةِ عدْنٍ، وهي دارُه التي لم ترَها عينٌ، ولم تخطرْ على قلبِ بشرٍ، وهي مسكنُه، لا يسكنُها معه من بني آدمَ غيرُ ثلاثٍ، وهم: النبيُّون والصِّدِّيقون والشهداءُ، ثم يقولُ: طُوبَى لمن دخلك، ثم ينزلُ في الساعةِ الثالثةِ إلى سماءِ الدنيا برُوحِه وملائكتِه، فتنتفضُ، فيقولُ: قومِي بعزَّتي، ثم يطَّلِعُ إلى**

حججُ القولِ الأولِ

---

(١) سبقت ترجمته. (٢) في س: «الجمع». (٣) في ك: «وتجتمع».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٥) في ك: في «صحيحه». أخرجه البخاري -كما ذكر المؤلف-، رقم (٦٤٨)، ومسلم، رقم (٦٤٩).

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) في ك: «حدثني زيادة». وهو الصواب؛ وهو زيادة بن محمد الأنصاري من بني عمرو بن عوف، قال البخاري والنسائي وأبو حاتم: «منكر الحديث»، وقال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٠٨): «منكر الحديث جدًّا، يروي المناكير عن المشاهير، فاستحق الترك» اهـ. انظر: «تهذيب الكمال» (٩/ ٥٣٣)، «تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٩٢).

(٨) سبقت ترجمته.

(٩) هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صُهَيْبة، أبو محمد الأنصاري الأوسي صاحب النبي ﷺ، شهد أحدًا والخندق والمشاهد كلها، ثم خرج إلى الشام، فلم يزل بها حتى مات، وكان قاضيًا بها في زمن معاوية، كانت وفاته سنة ثلاث وخمسين. انظر: «طبقات ابن سعد» (٧/ ٤٠١)، «الإصابة» (٣/ ٥٠).

(١٠) تقدمت ترجمته رضي الله عنه. (١١) في س زيادة: «وعنده أم الكتاب».

عبادِه، فيقولُ: هلْ من مستغفرٍ فأغفرَ له؟، ألا من سائلٍ يسألُني فأعطيَه؟، ألا من داعٍ يدعوني فأجيبَه؟ حتى تكونَ[(١)] صلاةُ الفجرِ، ولذلك يقولُ اللهُ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨]؛ **يشهدُه اللهُ ﷻ و[ملائكتُه][(٢)]: ملائكةُ الليلِ والنهارِ»[(٣)].**

ففي هذا الحديثِ أن النزولَ يدومُ إلى صلاةِ الفجرِ.

وعلى هذا فيكونُ شهودُ اللهِ سبحانه لقرآنِ الفجرِ مع شهودِ ملائكةِ الليلِ والنهارِ له، وهذهِ خاصَّةٌ لصلاةِ الصبحِ، ليست لغيرِها من الصلواتِ.

وهذا لا يُنافي دوامَ النزولِ في سائرِ الأحاديثِ إلى طلوعِ الفجرِ، ولا سيما وهو معلقٌ[(٤)] في بعضِها على انفجارِ الصبحِ وهو اتساعُ ضوئِه[(٥)]، وفي لفظٍ: **«حتى يضيء**

---

(١) في ك وس: «حتى يكون». (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ١٣٩٠)، والدارقطني في «النزول» (ص/ ١٥١)، رقم (٧٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٢٢)، رقم (٤٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص/ ٣٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٤٢)، رقم (٧٥٦)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٩٣) وقال: «. . . والحديث في نزول الله ﷻ إلى السماء الدنيا ثابت فيه أحاديث صحاح، إلا أنَّ زيادة هذا جاء في حديثه بألفاظ لم يأت بها الناس، ولا يتابعه عليها منهم أحدٌ» اهـ.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٨): رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» والبزار بنحوه، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث» اهـ، وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٢٥): «. . . هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد» اهـ، وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٩٨)، وقال: «. . . فهذه ألفاظ منكرة، لم يأت بها غير زيادة» اهـ.

(٤) في ك: «مطلق». وهو خطأ.

(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه»، رقم (٧٥٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٠١)، رقم (١٩٣): عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله -تبارك وتعالى- إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يُعطى؟ هل من داع يُستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح».**

وأخرج أحمد في «المسند» (٤/ ١٦)، والدارمي في «الرد على بشر المريسي» (١/ ٢١١)، والآجري في «الشريعة» (ص/ ٣١٠)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٤١)، رقم (٧٥٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣١٢): عن رفاعة الجهني ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله ﷻ إلى السماء الدنيا، فيقول: لا أسأل عن عبادي أحدًا غيري: من ذا الذي يدعوني أستجيب له؟ من ذا الذي يستغفرني أغفرَ له؟ من ذا الذي يسألني أعطِيه؟ حتى ينفجر الفجر».**

الفجرُ»(١)، وفي لفظٍ: «**حتى يسطعَ الفجرُ**»(٢)، وذلك هو وقتُ قراءةِ الفجرِ.

وهذا دليلٌ على استحبابِ تقديمِها، مع مواظبةِ النبيِّ ﷺ وخلفائِه الراشدين على تقديمِها في أولِ وقتِها، فكان النبيُّ ﷺ يقرأُ فيها بالستين إلى المائةِ(٣)، ويطيلُ ركوعَها وسجودَها، وينصرفُ منها، والنساءُ لا يُعْرفْنَ من الغلسِ(٤)، وهذا لا يكونُ إلا مع شدةِ التقديمِ أولَ الوقتِ(٥)؛ لتقعَ القراءةُ في وقتِ النزولِ، فيحصلَ الشهودُ المخصوصُ.

[هذا](٦) مع أنَّه قد جاءَ في بعضِ الأحاديثِ - مصرَّحًا به - دوامُ ذلك إلى الانصرافِ من صلاةِ الصبحِ، رواه الدارقطنيُّ في كتابِ: «نزولِ الربِّ تعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا» من حديثِ محمدِ بن عمرو(٧)، عن أبي سلمةَ(٨)، عن أبي هريرةَ(٩) رضي الله عنه أن

---

(١) أخرج أحمد في «المسند» (٢/ ٤١٩)، ومسلم، رقم (٧٥٨)، والترمذي، رقم (٤٤٦)، والدارقطني في «النزول» (ص/ ١٢٨)، رقم (٤٨): عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له؟ من ذا الذي يسألني فأعطِيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفرَ له؟، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر**».

(٢) أخرج أحمد في «المسند» (١/ ٤٤٦)، والدارقطني في «النزول» (ص/ ٩٩) رقم (١٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣١٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٤٩)، رقم (٧٦٥): عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل يفتح أبواب السماء ثلث الليل الباقي، ثم يهبط إلى السماء الدنيا، ثم يبسط يده، ثم يقول: ألا عبد يسألني فأعطِيَه؟ حتى يسطعَ الفجر**».

(٣) أخرج البخاري في «صحيحه»، رقم (٥٤١)، ومسلم، رقم (٦٤٧): عن أبي برزة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يصلي الصبح وأحدنا يعرف جليسه، ويقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة، وكان يصلي الظهر إذا زالت الشمس، والعصر وأحدنا يذهب إلى أقصى المدينة والشمس حية، ولا يبالي بتأخير العشاء إلى ثلث الليل».

(٤) أخرج أحمد في «المسند» (٦/ ٣٣)، (٣٦)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٣٧٢)، ومسلم رقم (٦٤٥)، وأبو داود، رقم (٤٢٣)، والترمذي، رقم (١٥٣)، والنسائي، رقم (٥٤٦)، وابن ماجه، رقم (٦٦٩): عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كُنَّ نساءُ المؤمنات يصلين مع النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم يرجعن إلى أهلهنَّ، فلا يعرفهنَّ أحد من الغَلَسِ»، والغَلَسُ -محركةً-: ظلمة آخر الليل. انظر: «القاموس» (ص/ ٧٢٣).

(٥) في س: «في أول الوقت». (٦) ما بين المعقوفين ليس في ك و س.

(٧) هو محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، أبو عبد الله، ويقال: أبو الحسن المدني، قال أبو حاتم: «صالح الحديث، يكتب حديثه، وهو شيخ»، وقال النسائي: «ليس به بأس»، وذكره ابن حبان في: «الثقات» (٧/ ٣٧٧)، وقال: «كان يخطئ»، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٦٢٢٨): «صدوق له أوهام» اهـ، توفي سنة أربع وأربعين ومائة. وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٦/ ٢١٢).

(٨) تقدمت ترجمته. (٩) تقدمت ترجمته.

رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ينزلُ اللهُ ﷻ كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا**(١) **لنصفِ الليلِ الآخرِ - أو الثلثِ الآخرِ -** (٢)**، يقولُ: من ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيَه؟ من ذا الذي يستغفرُني فأغفرَ له؟ حتى يطلعَ الفجرُ**، أو: **ينصرفَ القارئُ من صلاةِ الصبحِ**»(٣)، رواه عن محمدٍ جماعةٌ منهم سليمانُ ابنُ بلالٍ(٤)، وإسماعيلُ بنُ جعفرٍ(٥)، والدراورديُّ(٦)، وحفصُ بنُ غياثٍ(٧)، ويزيدُ بنُ هارونَ(٨) وعبدُ الو هابِ

(١) في ك: «إلى سماء الدنيا». (٢) في ك: «والثلث الآخر»، وهو الذي في «النزول».

(٣) أخرجه الدارقطني في «النزول» (ص/ ١٠٢)، رقم (١٣) -كما ذكر المؤلف-، وأحمد في «المسند» (٢/ ٥٠٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٠٢)، رقم (١٩٤)، والدارمي في «سننه»، كتاب: الصلاة، باب: «ينزل الله إلى السماء الدنيا»، رقم (١٤٥٠)، (١/ ٣٦٩).

(٤) هو سليمان بن بلال القرشي التيمي، أبو محمد، ويقال: أبو أيوب المدني، قال أحمد بن حنبل: «لا بأس به»، وقال ابن معين: «ثقة صالح»، وقال ابن سعد: «كان بربريًّا جميلًا حسن الهيئة، عاقلًا، وكان يفتي بالبلد، ووُلِّي خراج المدينة، وكان ثقة كثير الحديث»، توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة.
انظر: «تهذيب التهذيب» (٤/ ٣٠٤)، «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٢٥).

(٥) هو إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزرقي مولاهم، أبو إسحاق المدني، قارئ أهل المدينة، ثقة حافظ مأمون، روى له الجماعة، توفي سنة ثمانين ومائة.
انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ٥٦).

(٦) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي، أبو محمد المدني، مولى جُهينة، ولد بالمدينة ونشأ بها، وسمع بها العلم، ولم يزل بها حتى توفي سنة سبع وثمانين ومائة، روى له الجماعة والبخاري مقرونًا بغيره، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٤١٤٧): «صدوق، كان يحدث من كتب غيره فيخطئ» اهـ.
وانظر: «تهذيب الكمال» (١٨/ ١٨٧).

(٧) هو حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي، أبو عمر الكوفي قاضيها، وولي القضاء ببغداد أيضًا، وثَّقه ابن معين والنسائي، وقال العجلي: «ثقة مأمون فقيه»، وقال يعقوب بن شيبة: «ثقة ثبت إذا حدَّث من كتابه، ويُتَّقَى بعض حفظه»، قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (١٤٣٩): «ثقة فقيه تغير حفظه قليلًا في الآخر» اهـ. توفي سنة أربع وتسعين ومائة. انظر: «تهذيب الكمال» (٧/ ٥٦).

(٨) هو يزيد بن هارون بن زاذي - ويقال: زاذان -بن ثابت السلمي، أبو خالد الواسطي.
قال أحمد بن حنبل: «كان حافظًا متقنًا للحديث، صحيح الحديث عن حجاج بن أرطاة، قاهرًا لها حافظًا».
وقال أبو حاتم: «ثقة إمام صدوق لا يسأل عن مثله».
وقال ابن المديني: «ما رأيت رجلًا قط أحفظ من يزيد بن هارون»، وكان معروفًا بطول الصلاة ليلًا ونهارًا، توفي سنة ست ومئتين.
انظر: «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٢٦١).

ابنُ عطاءٍ[١]، ومحمدُ بنُ جعفرٍ[٢]، والنضرُ بنُ شميلٍ[٣]، كلُّهم قال: «**أو ينصرفَ القارئُ من صلاةِ الفجرِ**».

فإذا كانتْ هذه اللفظةُ محفوظةً عن النبيِّ ﷺ فهي صريحةٌ في المعنى، كاشفةٌ للمرادِ، وإن لم تكنْ محفوظةً، وكانت من شكِّ الراوي: هل قال هذا، أو هذا، فقد قدَّمنا أنه لا منافاةَ بين اللفظين، وأن حديثَ الليثِ بنِ سعدٍ عن محمدِ بن زيادٍ يدلُّ على دوامِ النزولِ إلى وقتِ صلاةِ الفجرِ، وأن تعليقَه بالطلوعِ لكونِه أولَّ الوقتِ الذي يكونُ فيه الصعودُ، كما رواه يونسُ بنُ أبي إسحاقَ[٤]، عن أبيه[٥]، عن الأغرِّ أبي مسلمٍ[٦] قال: «شُهِدَ[٧] على أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخدريِّ[٨] أنهما شهدا على النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ ﷻ يمهلُ، حتى إذا ذهب ثلثُ الليلِ؛ هبطَ إلى هذهِ السماءِ، ثم أمر بأبوابِ السماءِ ففتحت، ثم قال: هل من سائلٍ فأعطيَه؟ هل من داعٍ فأجيبَه؟ هل من**

---

(١) هو عبد الوهاب بن عطاء الخفاف، أبو نصر العجلي مولاهم البصري، سكن بغداد، وكان أعلم الناس بحديث ابن أبي عروبة، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٤٢٩٠): «صدوق ربما أخطأ...» اهـ، توفي سنة أربع ومئتين. وانظر: «تهذيب الكمال» (١٨/ ٥٠٩).

(٢) هو محمد بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزرقي، مولاهم المدني، أخو إسماعيل بن جعفر، قال ابن معين: «ثقة»، وقال ابن المديني: «معروف»، وقال النسائي: «صالح»، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٧/ ٤٠٢)، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٥٧٨٩): «ثقة من السابعة» اهـ. وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٥٨٣).

(٣) هو النضر بن شميل المازني، أبو الحسن النحْوي البصري، نزل مرو، وثقه ابن معين والنسائي وأبو حاتم، وكان إمامًا في العربية والحديث، وهو أول من أظهر السنة بمرو وجميع خراسان، وكان أروى الناس عن شعبة، توفي سنة ثلاث ومئتين.
انظر: «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٣٧٩).

(٤) هو يونس بن أبي إسحاق -واسمه: عمرو- بن عبد الله الهَمْداني السَّبيعي -بفتح المهملة، وكسر الموحدة-، أبو إسرائيل الكوفي، والد إسرائيل وعيسى، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٧٩١٠): «صدوق، يَهِمُ قليلًا» اهـ، توفي سنة اثنتين وخمسين ومئة. وانظر: «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٤٨٨).

(٥) تقدمت ترجمته.

(٦) هو الأغر أبو مسلم المديني، نزيل الكوفة، روى عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، وروى له الجماعة، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٦١٩): «ثقة من الثالثة» اهـ. وانظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ٣١٧).

(٧) كذا في الأصل وع، ولعلها: «أشهد»، وفي ك وس: «شهدتُ».

(٨) تقدمت ترجمته.

مستغفرٍ فأغفرَ له؟ هل من مستغيثٍ أغيثَه؟[١]، **هل من مضطرٍ أكشفَ عنه؟ فلا يزالُ ذلك**[٢] **مكانَه حتى يطلعَ الفجرُ في كلِّ ليلةٍ من الدنيا، ثم يصعدُ إلى السماءِ**»، قال الدارقطنيُّ: «فزاد فيه يونسُ بنُ [بي][٣] إسحاقَ زيادةً حسنةً»[٤].

والمقصودُ ذكرُ القربِ من الإمامِ في صلاةِ الفجرِ، وتقديمُها في أولِ وقتِها[٥].

عودةٌ إلى وصفِ حالِ السابقِ بالخيرات

فإذا فرغ[٦] من صلاةِ الصبحِ أقبلَ بكلِّيتِه على ذكرِ اللهِ، والتوجهِ إليه بالأذكارِ التي شُرِعَتْ أولَ النهارِ، فيجعلَها وِرْدًا لا يُخِلُّ به أبدًا، ثم يزيدَ عليها ما شاءَ من الأذكارِ الفاضلةِ، أو قراءةِ القرآنِ حتى تطلعَ الشمسُ حسناءَ، فإذا طلعت؛ فإن شاء ركعَ ركعتي الضحي، وزادَ ما شاء، وإن شاء قَامَ من غيرِ ركوعٍ، ثم يذهبُ متضرعًا إلى ربِّه، سائلًا له أن يكونَ ضامنًا عليه[٧]، متصرفًا في مرضاتِه بقيةَ يومِه، فلا ينقلبُ[٨] إلا في شيءٍ يظهرُ له فيه مرضاةُ ربِّه، وإن كان من الأفعالِ العاديةِ الطبيعيةِ؛ قلبَهُ عبادةً بالنيةِ، وقصد الاستعانةَ به على مرضاةِ الربِّ.

وبالجملةِ فيقفُ عند أولِ الداعي إلى فعلِه، فيفتشُ، ويستخرجُ منه مَنْفذًا ومسلكًا يسلكُ به إلى ربِّه، فينقلبُ في حقِّه عبادةً وقربةً.

وشتان كم بين هذا[٩]، وبين مَنْ إذا عُرِضَ له أمرٌ من أوامرِ الربِّ لا بدَّ له من فعلِه؛ [وقف][١٠]، وفتَّش فيه على مرادٍ لنفسِه، وغرضٍ لطبعِه، ففعله لأجلِ ذلك، وجعل الأمرَ طريقًا له، ومنفذًا لمقصدِه، فسبحان من فاوَتَ بين النفوسِ إلى هذا الحدِّ والغايةِ. فهذا عباداتُه عاداتٌ، والأولُ عاداتُه[١١] عباداتٌ.

---

(١) في ع: «فأغيثه». (٢) في «النزول»: «فلا يزال كذلك».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه»، رقم (٧٥٨)، والدارقطني في «النزول» (ص/ ١٣٣)، رقم (٥٥)، والآجري في «الشريعة» (ص/ ٣٠٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ص/ ٢٢٠)، رقم (٥٠٢).

(٥) في ك وس: زيادة والله أعلم. (٦) في ع وس: «فصل: فإذا فرغ...».

(٧) الضامن -هنا-: الحافظ والراعي له.

انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ١٠٢)، «القاموس» (ص/ ١٥٦٤).

(٨) في ك: «فلا يتقلب». (٩) في ك وس: «وشتان كم بين هذا وهذا».

(١٠) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(١١) في ك: «عادته».

فإذا جاء فرضُ الظهرِ بادر إليه [كذلك][١] مكملًا له، ناصحًا فيه لمعبودِه كنصحِ المحبِّ الصادقِ المحبةِ لمحبوبِه الذي قد طلب منه أن يعملَ له شيئًا ما، فهو لا يُبْقي مجهودًا، بل يبذلُ مقدورَه كلَّه في تحسينِه وتزيينِه وإصلاحِه وإكمالِه؛ ليقعَ موقعًا من محبوبِه، فينالَ به رِضَاهُ عنه، وقربَه منه.

أفلا يستحي العبدُ من ربِّه ومولاه ومعبودِه أن لا يكونَ في عملِه هكذا، وهو يرى المحبين في أشغالِ محبوبيهم[٢] من الخلقِ، كيف يجتهدون في إيقاعِها على أحسنِ وجهٍ وأكملِه، بل هو يجدُ من نفسِه ذلك مع من يحبُّه من الخلقِ؟!.

فلا أقلَّ من أن يكونَ مع ربِّه بهذِه المنزلةِ.

ومن أنْصَفَ نفسَه، وعرف أعمالَه؛ استحى من اللهِ أن يواجِهَه بعملِه، أو يرضاه لربِّه، وهو يعلمُ من نفسِه أنه لو عمل لمحبوبٍ له من الناسِ عملًا؛ لبذلَ فيه نصحَه، ولم يدع من حسنِه شيئًا إلا فعلَه.

وبالجملةِ فهذا حالُ هذا العبدِ مع ربِّه في جميعِ أعمالِه، فهو يعلمُ أنه لا يُوَفِّي هذا المقامَ حقَّه، فهو أبدًا يستغفرُ اللهَ عَقِيبَ كلِّ عملٍ.

وكان النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من الصلاةِ استغفرَ ثلاثًا[٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⁽١٨⁾﴾ [الذاريات: الآية ١٨]، قال الحسنُ[٤]: «مَدُّوا الصلاةَ إلى السحرِ، ثم جلسوا يستغفرون ربَّهم»[٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⁽١٩٩⁾﴾ [البقرة: الآية ١٩٩]، فأمر سبحانَه بالاستغفارِ بعد الوقوفِ بعرفةَ والمزدلفةِ، وشرع للمتوضئِ أن يقولَ بعد وضوئِه: **«اللَّهمَّ اجعلْني من التوابين واجعلْني من المتطهرين»**[٦].

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.
(٢) في ك وس: «محبوبهم».
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) هو البصري، تقدمت ترجمته.
(٥) اختُلف في قوله -تعالى-: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⁽١٨⁾﴾ [الذاريات: الآية ١٨] على قولين:

أحدهما: أن المعنى: وبالأسحار هم يصلون لله -تعالى-؛ لأن صلاتهم هي طلب منهم للمغفرة. وهذا قول الضحاك ومجاهد والكلبي ومقاتل.

والثاني: أن المعنى: وبالأسحار هم يسألون الله المغفرة، وهو قول الحسن وابن زيد، انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٢٦/ ٢٠٠)، «فتح القدير» (٥/ ٨٤).

(٦) أخرج أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٥)، (١٥٣)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٢٣٤)، وأبو داود في «سننه» =

فهذهِ توبةٌ بعدَ الوضوءِ، وتوبةٌ بعدَ الحجِّ، وتوبةٌ بعدَ الصلاةِ، وتوبةٌ بعد قيامِ الليلِ.

وصاحبُ(١) هذا المقامِ مضطرٌّ إلى التوبةِ والاستغفارِ كما تبين، فهو لا يزالُ مستغفرًا تائبًا، وكلما كثرتْ(٢) طاعاتُه كثرتْ توبتُه واستغفارُه.

فَصْلٌ

وجماعُ الأمرِ في ذلك إنما هو بتكميلِ عبوديةِ [اللهِ ﷻ في الظاهرِ والباطنِ، فتكونُ حركاتُ نفسِه، وجسمِه كلُّها [في](٣) محبوباتِ اللهِ.

فكمالُ عبوديةِ](٤) العبدِ موافقتُه لربِّه في محبةِ ما أحبَّه، وبذلُ الجهدِ في فعلِه، وموافقتُه في كراهةِ(٥) ما كرهه، وبذلُ الجهدِ في تركِه.

وهذا إنما يكونُ للنفسِ المطمئنةِ، لا الأمارةِ، ولا اللوامةِ(٦).

فهذا كمالٌ من جهةِ الإرادةِ والعملِ.

وأما من جهةِ العلمِ والمعرفةِ: فأن تكونَ بصيرتُه منفتحةً(٧) في معرفةِ الأسماءِ والصفاتِ والأفعالِ، له شهودٌ خاصٌّ فيها، مطابقٌ لما جاء به الرسولُ ﷺ، لا مخالفٌ له؛ فإنَّ بحسَبِ مخالفتِه له في ذلك يقعُ الانحرافُ.

ويكونُ مع ذلك قائمًا بأحكامِ العبوديةِ الخاصَّةِ التي تقتضيها كلُّ صفةٍ بخصوصِها.

= رقم (١٦٩)، والنسائي في «سننه»، رقم (١٤٨)، وابن ماجه، رقم (٤٧٠): عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: **«ما منكم من أحد يتوضأ، فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»**، واللفظ لمسلم. وفي لفظ لأبي داود: **«ثم رفع نظره إلى السماء فقال...»** إلخ. وأخرج ابن ماجه في «سننه» -الموضع السابق- رقم(٤٦٩): عن أنس بن مالك رضي الله عنه بمثله. وزيادة: **«اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»** أخرجها الترمذي في «جامعه»، كتاب: الطهارة، بابٌ في ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

(١) في س: «فصاحب». (٢) في س: «وكلما أكثر». (٣) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ع، وفي ك وس: «وكمال عبودية...».

(٥) في ك: «كراهية».

(٦) في ع وس: «لا للأمارة ولا اللوامة»، وفي ك: «لا للأمارة بالسوء ولا اللوامة».

(٧) في ك: «متفتحةً».

وهذا سلوكُ الأكياسِ[١] الذين هم خلاصةُ العالَمِ.

والسالكون على هذا الدربِ أفرادٌ من العالمِ.

[وهو][٢] طريقٌ سهلٌ قريبٌ موصلٌ، طريقٌ آمنٌ، أكثرُ السالكين في غفلةٍ عنه، ولكن يستدعي رسوخًا في العلمِ، ومعرفةً تامةً به، وإقدامًا على ردِّ الباطلِ المخالِفِ له ولو قاله من قاله.

وليس عند أكثرِ الناسِ سوى رسومٍ تلقوها عن قومٍ معظمين عندَهم، فهم لإحسانِ ظنِّهم بهم[٣] قد وقفوا عند أقوالِهم، ولم يتجاوزوها [إلى غيرِها][٤]، فصارت حجابًا لهم، وأيُّ حجاب.

فمن فتح اللهُ بصيرةَ قلبِه[٥] وإيمانِه حتى خرقَها، وجاوَزَها إلى مقتضى الوحي والفطرةِ والعقلِ؛ فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا، ولا يخافُ عليه إلا مِنْ ضعفِ همَّتِهِ، فإذا انضاف إلى ذلك الفتحِ همةٌ عاليةٌ فذاك[٦] السابقُ حقًّا، واحدُ الناسِ بزمانِه[٧]، لا يُلْحَقُ شأْوه[٨]، ولا يُشَقُّ غبارُه.

فشتان بين[٩] من يتلقى أحوالَه وارداتِه[١٠] عن الأسماءِ والصفاتِ، وبين من يتلقاها عن الأوضاعِ الاصطلاحيةِ والرسومِ، أو عن مجردِ ذوقِه ووجدِه؛ إذا استحسن شيئًا قال: هذا هو الحقُّ.

فالسيرُ إلى اللهِ من طريقِ الأسماءِ والصفاتِ شأنُه عجبٌ[١١]، وفتحُه عجبٌ، صاحبُه قد سبق السعاةَ[١٢] وهو مستلقٍ على فراشِه، غيرُ تعبٍ، ولا مكدودٍ، ولا مشتتٍ عن وطنِه، ولا مشردٍ عن سكنِه، ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨].

وليس العجبُ من سائرٍ في ليلِه ونهارِه وهو في الثرى[١٣] لم يبرحْ من مكانِه؛ وإنما

---

(١) الكَيْسُ: العَقْلُ وخلاف الحُمْق. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٢١٧)، «القاموس» (ص/ ٧٣٧).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في س. (٣) في ك وس: «ثم لإحسان ظنِّهم بهم».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٥) في س: «فمَنْ فتح الله على بصيرة قلبه». (٦) في ع وك: «فذلك».

(٧) في س: «بزمانه». (٨) الشَّأْوُ: السَّبْق، والغاية، والأَمَدُ. انظر: «القاموس» (ص/ ١٦٧٤).

(٩) في س: «فشتان ما بين». (١٠) في ع وك: «وإرادته». (١١) في ك وس: «عجيب».

(١٢) في ع: «السعادة». (١٣) في س: «وهو في المسير».

العجبُ من ساكنٍ لا يُرى عليه أثرُ السفرِ، وقد قطع المراحلَ والمفاوزَ[١].

فسائرٌ قد ركبته نفسُه، فهو حاملُها، سائرٌ بها، ملبوكٌ بها: [٢] يعاقبُها، وتعاقبُه، ويجرُّها، وتهربُ منه، ويخطو بها خطوةً إلى أمامِه، فتجذبُه خطوتين إلى ورائِه، فهو معها في جهدٍ، وهي معه كذلك.

وسائرٌ قد ركب نفسَه، وملَكَ عنانَها، فهو يسوقُها كيف يشاءُ، وأين يشاءُ، لا تَلْتوي عليه، ولا تنجذبُ ولا تهربُ منه، بل هي معه كالأسيرِ الضعيفِ في يدِ مالكِه وآسرِه، وكالدابةِ الريضةِ المنقادةِ في يدِ سائِسِها وراكبِها، فهي منقادةٌ معه حيثُ قادها، فإذا رام التقدمَ جمزتْ به وأسرعتْ، فإذا أرسلها سارت به وجرت في الحلبةِ إلى الغايةِ، لا يردُّها شيءٌ[٣]، فتسيرَ به، وهو ساكنٌ على ظهرِها، ليس كالذي نزل عنها، فهو يجرُّها بلجامِها ويشحطُها، ولا تنشحطُ، فشتان بين[٤] المسافريْنِ.

فتأملْ هذا المثَلَ؛ فإنه مطابقٌ لحالِ السائرين المذكورين، واللهُ يختصُّ برحمتِه من يشاءُ.

فصل

ومِن شأنِ القومِ أن تنسلخَ نفوسُهم من التدبيرِ والاختيارِ الذي يخالفُ تدبيرَ ربِّهم تعالى[٥]، واختيارَه، بل قد سلَّموا إليه سبحانه التدبيرَ كلَّه، فلا يزاحمُ[٦] تدبيرُهم تدبيرَه، ولا اختيارُهم اختيارَه؛ لتيقُّنِهم أنه الملكُ القاهرُ القابضُ على نواصي الخلقِ، المتولِّي لتدبيرِ [أمرِ][٧] العالَمِ كلِّه، وتيقُّنِهم مع ذلك أنه الحكيمُ في أفعالِه الذي لا

من شأنِ السعداءِ إنسلاخُ=

(١) تقدم معنى: «المفازة» (ص/ ٢٣٣).

(٢) في س: «ملبوك»، وفي ك: «مكبوك». والمثبت هو الصواب. واللَّبْك: الخلط، ك: «التلبيك»، والشيء المختلط، ك: «اللَّبْكة»، و«أمرٌ لَبِكٌ» -ك: «كتِفٍ»-: ملتبس مختلط.

قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٣١): «اللام والباء والكاف أصل صحيح يدل على خلط شيء بشيء، يقال: «لبكتُ على فلان الأمرَ، أَلبِكُه» إذا خلطته عليه. . .، ويقال: «لبكتُ الطعام بعَسَل وغيره» إذا خلطتهما». اهـ.

(٣) في ك وس: «ولا يردها شيء». (٤) في س: «فشتان ما بين».

(٥) في ك وس: «الذي يخالف تدبيره تعالى». (٦) في ك وس: «فلم يزاحم».

(٧) ما بين المعقوفين ليس في س.

= نفوسِهم من التدبيرِ والاختيار الذي يخالفُ تدبيرَ ربهم واختياره

تخرجُ أفعالُه عن الحكمةِ والمصلحةِ والرحمةِ، فلم يُدخلوا أنفسَهم معه في تدبيرِه لملكِه وتصريفِه أمورَ عبادِه بـ: «لو كان كذا وكذا»، ولا بـ: «عسى، ولعلَّ»، ولا بـ: «ليت»، بل ربُّهم تعالى أجلُّ وأعظمُ في قلوبِهم من أن يَعْترضُوا عليه، أو يسخطُوا[١] تدبيرَه، أو يتمنوا سواه، وهم أعلمُ به، وأعرفُ بأسمائِه وصفاتِه من أن يتهموه في تدبيرِه، أو يظنوا به الإخلالَ بمقتضى حكمتِه وعدلِه، بل هو[٢] ناظرٌ بعينِ قلبِه إلى باريْ الأشياءِ وفاطرِها، ناظرٌ إلى إتقانِ صُنعِه، مشاهدٌ لحكمتِه فيه، وإن لم يَخرجْ ذلك على[٣] مكاييلِ عقولِ البشرِ، وعوائدِهم، ومألوفاتِهم.

قال بعضُ السلفِ: «لو قُرِضَ جسمي بالمقاريضِ؛ كان أحبَّ إليَّ من أن أقولَ لشيءٍ قضاه اللهُ: ليته لم يقضِه!»، وقال آخرُ: «أذنبتُ ذنبًا أبكي عليه منذُ ثلاثين سنةً - وكان قدِ اجتهدَ في العبادةِ - فقيل له[٤]: وما هو؟ قال: قلتُ مرةً لشيءٍ كان: ليتَه لم يكنْ»[٥].

وبعضُ العارفين يجعلُ عيبَ المخلوقاتِ، وتنقُّصَها[٦] بمنزلةِ العيبِ لصانِعِها وخالقِها؛ لأنها صنعُه وأثرُ حكمتِه، وهو سبحانه أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَه، وأتقنَ كلَّ شيءٍ، فهو[٧] أحكمُ الحاكمين، وأحسنُ الخالقين، له في كلِّ شيءٍ حكمةٌ بالغةٌ، وفي كلِّ مصنوعٍ صنعٌ متقنٌ، والرجلُ إذا عاب صنعةَ رجلٍ آخرَ وذمَّها؛ سرى ذلك إلى الصانعِ[٨]، فمن عاب صنعةَ الربِّ سبحانه بلا إذنِه سرى ذلك إلى الصانعِ[٩]؛ لأنه كذلك[١٠] صنعَهَا، وعن حكمتِه أظهَرَهَا؛ إذ كانتِ[١١] الصنعةُ مجبولةً لم تصنع نفسَها؛ ولا صُنْع لها في خلقِها.

فالعارفُ لا يعيبُ إلا ما عابه اللهُ، ولا يذمُّ إلا ما ذمَّه[١٢]، وإذا سبقَ إلى قلبِه ولسانِه[١٣] عيبُ ما لم يعبْه اللهُ، وذمُّ ما لم يذمَّه؛ تاب إلى اللهِ منه[١٤]، كما يتوبُ صاحبُ الذنبِ من ذنبِه؛ فإنه يستحي من اللهِ أن يكونَ في دارِه وهو يعيبُ آلاتِ تلك

---

(١) في ك وس: «أو يستخطوا». (٢) كذا في جميع النسخ. (٣) في ك: «عن».
(٤) في ك وس: «قيل له». (٥) في س: «ليته من لم يكن». (٦) في ك و س: «وتنقيصها».
(٧) في ك و س: «وهو». (٨) في ك وس: «إلى صانعها».
(٩) ما بين القائمين ليس في الأصل وع، وهو في ك وس. (١٠) في ع: «لأنه لذلك».
(١١) في س: «إذا كانت». (١٢) في س: «إلا ما ذَمَّهُ الله». (١٣) في س: «أو لسانه».
(١٤) في س: «وذمَّ ما لم يذمه الله وتاب إلى الله منه».

الدارِ وما فيها، فهو يرى نفسَه بمنزلةِ رجلٍ دخل إلى دارِ ملكٍ من الملوكِ، ورأى ما فيها من الآلاتِ والبناءِ والترتيبِ، فأقبل يعيبُ منها بعضَها، ويذمُّه، ويقولُ: «لو كان كذا بدل كذا؛ لكان خيرًا، ولو كان هذا في مكانِ هذا؛ لكانَ أولى»، وشاهدَ الملكَ يولِّي ويعزلُ، ويُعطي، ويحرمُ، فجعلَ يقولُ: «لو وُلي هذا مكانَ فلانٍ كان خيرًا[1]، ولو عزلَ هذا المتولِّي لكانَ أَوْلى، ولو عُوفِيَ هذا، ولو أُغْنِيَ هذا؛ فكيفَ يكوُن مقتُ المَلِكِ لهذا المعْترِضِ، وإخراجُه من قربِهِ؟! وكذلك لو أضافه صاحبٌ له، فقدَّم إليه طعامًا، فجعل يعيبُ صنعتَه، ويذمُّه؛ أكان ذلك يهونُ على صاحبِ الطعامِ؟!.

قالت عائشةُ ﵂: «ما عاب رسولُ اللهِ ﷺ طعامًا قطُّ؛ إن اشتهى شيئًا أكلَهُ، وإلا تركَهُ»[2].

والمقصودُ أنَّ من شأنِ القومِ تركَ الاهتمامِ بالتدبيرِ والاختيارِ، بل همُّهُم كلُّه في إقامةِ حقِّه عليهم.

فأمَّا[3] التدبيرُ العامُّ والخاصُّ فقد سلَّمُوه لولي الأمرِ كلِّه، ومالكِه الفعالِ لما يريدُ. ولعلك تقولُ: «ومَنِ الذي[4] ينازعُ اللهَ في تدبيرِه»؟!.

فانظرْ إلى نفسِك في عجزِها وضعفِها وجهلِها: كيف هي عرضةٌ للمنازعةِ، لكن منازعةُ جاهلٍ عاجزٍ ضعيفٍ، لو قَدِرَ لظهرتْ منه العجائبُ، فسبحانَ من أذلَّه بعجزِه وضعفِه وجهلِه، وأراه العبرَ في نفسِه - لو كان ذا بصرٍ -: كيف هو عاجزُ القدرةِ، جبارُ الإرادةِ، عبدٌ مربوبٌ، مُدَبَّرٌ مملوكٌ، ليس له من الأمرِ شيءٌ، وهو مع ذلك ينازعُ اللهَ ربوبيتَه وحكمتَه وتدبيرَه، لا يرضى بما رضيَ اللهُ به، ولا يسكنُ عند مجاري أقدارِه، بل هو عبدٌ ضعيفٌ مسكينٌ، يتعاطى الربوبيةَ، فقيرٌ مسكينٌ في مجموعِ حالاتِه، يرى نفسَه غنيًّا، جاهلٌ ظالمٌ، ويرى نفسَه عارفًا محسنًا، فما أجهلَه بنفسِه وبربِّه، وما أتركه لحقِّه، وأشدَّه إضاعةً لحظِّه!.

ولو أحضر رشدَه لرأى ناصيتَه ونواصيَ الخلائقِ بيدِ اللهِ؛ يخفضُها ويرفعُها كيف

---

(١) في س: «لولا هذا مكان هذا لكان خيرًا».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٢٧/٢)، (٤٧٤)، (٤٧٩)، (٤٨١)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٣٥٦٣)، ومسلم، رقم (٢٠٦٤)، وابن ماجه، رقم (٣٢٥٩): عن أبي هريرة ﵁ قال: «ما عاب...». ولم أجدْه عن عائشة ﵂.

(٣) في باقي النسخ: «وأمَّا». (٤) في ك وس: «ومن ذا الذي».

شاء[١]، وقلوبُهم بيدِه سبحانه وفي قبضتِه؛ يقلبُها كيف يشاءُ، يُزيغُ منها من يشاءُ، ويقيمُ من يشاءُ[٢]، ولكان هذا غالبًا على شهودِ قلبِه، فيغيبُ به عن مشيئاتِه وإرادتِه[٣] واختيارِه، ولعرفَ [أن][٤] التدبيرَ [والركونَ][٥] إلى حولِ العبدِ وقوَّتِه من الجهلِ بنفسِه وبربِّه، فينفي العلمَ باللهِ [الجهلَ][٦] عن قلبِه، فتُمحى منه[٧] الإراداتُ والمشيئاتُ والتدبيراتُ، ويفوِّضُها إلى مالكِ القلوبِ والنواصي، فيصيرُ بذلك عبدًا لربِّه، تقلبُه يدُ القدرةِ، ويصيرُ ابنَ وقتِه، لا ينتظرُ وقتًا آخر يدبرُ نفسَه فيه؛ لأن ذلك الوقتَ بيدِ موقتِه، فيرى نفسَه بمنزلةِ الميتِ في قبرِه ينتظرُ[٨] ما يُفعلُ به، مستسلمٌ للهِ[٩]، منقطعُ المشيئةِ والاختيارِ، هذا فيما يجري على أحدِهم من فعلِ اللهِ وحكمِه وقضائِه الكوني.

فإذا جاء الأمرُ[١٠]؛ جاءتِ الإرادةُ والاختيارُ والسعيُ والجدُّ واستفراغُ الفكرِ، وبذلُ الجهدِ، فهو قويٌّ حيٌّ فعالٌ، يشاهدُ عبوديةَ مولاه في أمرِه، فهو متحركٌ فيها بظاهرِه وباطنِه، قد أخرَجَ مقدورَه من القوةِ إلى الفعلِ[١١].

وهو مع ذلك مستعينٌ بربِّه، قائمٌ بحولِه وقوتِه، ملاحظٌ[١٢] لضعفِه وعجزِه، قد تحقَّقَ معنى[١٣]: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، فهو ناظرٌ بقلبِه إلى مولاه الذي حرَّكَهُ، مستعينٌ به في أن يوفِّقَه لما يحبُّه ويرضاه، عينُه في كلِّ لحظةٍ شاخصةٌ إلى حقِّه المتوجهِ عليه لربِّه؛ ليؤدِّيَه في وقتِه على أكملِ أحوالِه.

فإذا وردتْ عليهم أقدارُه[١٤] التي تصيبُهم بغيرِ اختيارِهم، قابلوها بمقتضاها من

---

(١) في س: «كيف يشاء». (٢) في ع: «يقلبها كيف يشاء، يرفع مَنْ يشاء».
(٣) في ع: «وإراداته». (٤) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٥) ما بين المعقوفين ليس في س. (٦) ما بين المعقوفين ليس في س. (٧) في ك وس: «فتمتحي».
(٨) في ك: «وينتظر»، وفي س: «فينتظر». (٩) في س: «مستسلمًا لله».
(١٠) أي: الأمر الشرعي الديني. (١١) تقدم معنى: «القوة» و«الفعل».
(١٢) في س: «ملاحظة». (١٣) في س: «قد تحقق بمعنى».
(١٤) أي: أقداره التي لا توافق محبتهم وإرادتهم. وقد ذكر المؤلف في «عدة الصابرين» (ص/ ٩١) أنها نوعان:
أحدهما: ما لا صنع للآدمي فيه، كـ: «الفقر» و«المرض» و«الحر» و«البرد»، ونحو ذلك.
والثاني: ما كان من جهة الآدمي كـ«السب» و«الضرب» وغيرهما.
فالأول: فيه المراتب الثلاث التي ذكرها المؤلف: الرضا، الشكر، الصبر.
والثاني: فيه هذه المراتب ويضاف إليها أربع أُخر: العفو والصفح، وسلامة القلب من إرادة =

العبوديةِ، وهم فيها على مراتبَ ثلاثةٍ: مراتبُ السعداءِ

إحداها: الرضا عنه فيها، والمزيدُ من حبِّه والشوقِ إليه. وهذا نشأ[١] من مشاهدتِهم لِلُطفِه فيها، وبرِّه وإحسانِه العاجلِ والآجلِ، ومن مشاهدتِهم حكمتَه فيها، ونصبَها سببًا لمصالِحِهم، وسوقِهم بها[٢] إلى حبِّه ورضوانِه، ولهم في ذلك مشاهدُ أُخرُ لا تسعُها العبارةُ، وهي فتحٌ من اللهِ على العبدِ، لا يبلغُه علمُه، ولا عملُه. الأُولى

المرتبةُ الثانيةُ: شكرُه عليها كشكرِه على النعمِ، وهذا فوق الرضا عنه بها، ومنه ينتقلُ إلى هذهِ المرتبةِ. هذه مرتبتان لأهلِ هذا الشأنِ. الثانيةُ

والثالثةُ: للمقتصدين: وهي مرتبةُ الصبرِ - التي إذا نزلَ منها؛ نزلَ إلى نقصانِ الإيمانِ، وفواتِه من التسخطِ والتشكي، واستبطاءِ الفرجِ، واليأسِ من الروحِ، والجزعِ الذي لا يفيدُ إلا فواتَ الأجرِ، وتضاعفَ المصيبةِ. الثالثةُ

فالصبرُ أولُ منازلِ الإيمانِ ودرجاتِه، وأوسطُها، وآخرُها؛ فإنَّ صاحبَ الرضا والشكرِ لا يُعدمُ الصبرَ في مرتبتِه، بلِ الصبرُ معه وبه يتحققُ الرضا والشكرُ، ولا تصَوُّرَ ولا تحقُّقَ لهما بدونِه[٣].

وهكذا كلُّ مقامٍ مع الذي فوقه، كالتوكلِ مع الرضا، وكالخوفِ والرجاءِ مع الحبِّ؛ فإن المقامَ الأولَ لا ينعدمُ بالترقي إلى الآخرِ، ولو عُدم لخلفه ضدُّه، وذلك رجوعٌ إلى نقصِ الطبيعةِ، وصفاتِ النفسِ المذمومةِ، وإنما يندرجُ حكمُه في المقامِ الذي [هو][٤] أعلى منه، فيصيرُ الحكمُ له، كما يندرجُ مقامُ التوكلِ في مقامِ المحبةِ والرضا.

وليس هذا كمنازلِ سيرِ الأبدانِ الذي إذا قطع منها منزلًا خلَّفَهُ وراءَ ظهرِه، واستقبل

= التشفي والانتقام، وشهود القدر، والإحسان إلى المسيء. وقد ذكر المؤلف في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣١-٣٣٧): أنَّ للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجناياتهم عليه، وهي: مشهد القدر، ومشهد الصبر، ومشهد العفو والصفح والحلم، ومشهد الرضا، ومشهد الإحسان، ومشهد السلامة وبرد القلب، ومشهد الأمن، ومشهد الجهاد، ومشهد النعمة، ومشهد الأسوة، ومشهد التوحيد، وقد بيَّن هذه المشاهد بيانًا شافيًا، فلتنظر.

(١) في ع وك: «وهذا ينشأ». (٢) في س: «وشوقهم بها». (٣) في ك وس: «دُوْنَهُ».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

المنزلَ الآخرَ معرضًا عن الأولِ بارتحالِه[(١)].

بل هذا بمنزلةِ[(٢)] التاجرِ الذي كلما باعَ شيئًا من مالِه، وربحَ فيه، ثم باعَ الثاني وربحَ بهما معًا[(٣)]، وهكذا أبدًا يكونُ ربحُه في كلِّ صفقةٍ متضاعفًا بانضمامِه إلى ما قبله، فالربحُ الأولُ اندرج في الثاني، ولم يُعدم.

الردُّ على من يجعلُ المقاماتِ الإيمانيةَ من منازلِ العوامِّ

فتأمل هذا الموضعَ، وأعطِهِ حقَّه؛ يزُلْ عنك ما يعرضُ من الغلطِ[(٤)] في عللِ المقاماتِ، وتعلمْ أن دعوى المدعي أنها من منازلِ العوامِّ، ودعوى أنها معلولةٌ [غلطٌ][(٥)] من وجهين:

الأولُ

أحدُهما: أن أعلى المقاماتِ مقرونٌ بأدناها، مصاحبٌ له [كما تقدم][(٦)]، متضمنٌ له تضمُّنَ الكلِّ لجزئِه[(٧)]، أو مستلزمٌ له استلزامَ الملزومِ للازمِه، لا ينفكُّ عنه أبدًا، ولكن لاندراجِه فيه، وانطواءِ حكمِه تحته يصيرُ المشهدُ والحكمُ للعالي.

الثاني

الوجهُ الثاني: أن تلك المقاماتِ والمنازلَ إنما تكونُ في منازلِ العوامِّ[(٨)]، وتعرُضُ لها العللُ بحسبِ متعلقاتِها وغاياتِها، فإن كان متعلقُها وغايتُها[(٩)] بريئًا من شوائبِ العللِ وهو أجلُّ متعلقٍ وأعظمُه؛ فلا علةَ فيها بحالٍ، وهي من منازلِ الخواصِّ

(١) في ع: «تاركًا له». (٢) في ك وس: «كمنزلة».

(٣) في ع وك: «ثم باع الثاني وربح، فقد ربح بهما معًا»، وفي س: «ثم باع الثاني وربح فيه، فقد ربح بهما معًا».

(٤) في س: «من اللفظ». (٥) ما بين المعقوفين ليس في س، ولا يستقيم الكلام بدونه.

(٦) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٧) الكلُّ: «ما تركب من جزئين فأكثر»، والجزء: «ما تركب منه ومن غيره كلٌّ»، مثل: «إنسان»؛ الذي يطلق على اليد والرجل والرأس، و«البيت»؛ الذي يطلق على السقف والجدران والأبواب.

والكلي: «ما لا يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه»، والجزئي: «ما يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه»، مثل: «حيوان»؛ الذي يطلق على الإنسان والبهيمة وغيرهما. فالكل ينقسم إلى أجزائه، والكلي ينقسم إلى جزئياته، وكل جزئي يطلق عليه اسم الكلي، والجزء لا يطلق عليه اسم الكل، والكل موجود في الخارج، والكلي لا يوجد في الخارج.

انظر: «معيار العلم» (ص/٧٣-٧٥)، «المعجم الفلسفي» (ص/٢٣٣)، «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» (ص/ ٣٤-٣٨).

(٨) في ع وك: «إنما تكون من منازل العوام»، وفي س: «إنما هي منازل العوام».

(٩) في ك: «وغاياتها».

حينئذٍ، وإن كان متعلقُها حظًا للعبدِ، أو أمرًا مشوبًا بحظِّه؛ فهي معلولةٌ من جهةِ تعلقِها بحظِّه.

أمثلةٌ على ذلك

ولنذكر لذلك أمثلةً:

المثال الأول

المثالُ الأولُ: «الإرادةُ»؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه جعلَها من منازلِ صفوةِ عبادِه، وأَمَرَ رسولَه ﷺ أن يصبرَ نفسَه مع أهلِها فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى حكايةً عن أوليائِه قولَهُم: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: الآية ٩]، وهذه لامُ التعليلِ الداخلةُ على الغاياتِ المرادةِ، وهي كثيرةٌ في القرآنِ.

كلامُ ابنِ العريفِ على الإرادة

فقالتْ طائفةٌ[(١)]: «الإرادةُ حِلْيةُ العوامِّ، وهي تجريدُ القصدِ[(٢)]، وجزمُ النيةِ، والجَدُّ في الطلبِ[(٣)]، وذلك في طريقِ الخواصِّ [نقصٌ و][(٤)] تفرقٌ، ورجوعٌ إلى النفسِ[(٥)]؛ فإنَّ إرادةَ العبدِ عينُ حظِّه، وهو رأسُ الدعوى.

وإنما الجمعُ والوجودُ فيما يرادُ بالعبدِ[(٦)]، لا فيما يريدُ؛ كقولِه - تعالى[(٧)] -: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: الآية ١٠٧]، فيكونُ مرادُه ما يرادُ به، واختيارُه ما اختِير له؛ إذ لا إرادةَ للعبدِ مع سيِّدِه، ولا نظرَ، كما قال[(٨)]:

أريدُ وصالَه، ويريدُ هجري ... فأتركُ ما أريدُ لما يريدُ

ومن هذا[(٩)] قولُ أبي زيدٍ[(١٠)]: قيل لي: ما تريدُ؟ قلت: «أريدُ أن لا أريدُ؛ لأني أنا

---

(١) وهو أبو العباس ابن العريف في كتابه: «محاسن المجالس» (ص/٢).

(٢) في «محاسن المجالس» (ص/٢): «وهي تجريد القصد إلى الله تعالى» اهـ.

(٣) في «محاسن المجالس» (ص/٢): «والجَدُّ في الطلب له» اهـ.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٥) في «محاسن المجالس» (ص/٢): «ورجوع إلى الأسباب والنفس» اهـ.

(٦) في «محاسن المجالس» (ص/٢): «فيما يراد بالعبد من الله» اهـ.

(٧) في «محاسن المجالس» (ص/٣): «قال الله تعالى» اهـ.

(٨) في «محاسن المجالس» (ص/٣): «فيكون مراده ما يراد به مما وزد الشرع بإرادته، واختيار ما يختار له الشرع؛ إذ لا اختيار للعبد مع ربِّه وسيده، ولا إراده له مع إرادته فيما شرع كما قيل» اهـ.

(٩) في ع: «ومن هنا».

(١٠) في باقي النسخ و: «محاسن المجالس» (ص/٣): «قول أبي يزيد»، وهو الصواب. وهو طيفور بن عيسى =

المرادُ، وأنت المريدُ»[(١)].

مناقشتُهُ من وجوهٍ

فيقال: ليس المرادُ من: «العوام» في كلامِهم العامَّةَ الجهالَ، وإنما مرادُهم بهذه اللفظةِ عمومُ السالكين، دونَ أهلِ الخصوصِ الواصلين [إلى][(٢)] منازلِ الفناءِ وعينِ الجمعِ. وإذا عُرف هذا فالكلامُ على ما ذُكر في الإرادةِ من وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ

- **أحدُها**: أنَّ الإرادةَ هي مركبُ العبوديةِ، وأساسُ بنائِها الذي لا تقومُ إلا عليه؛ فلا عبوديةَ لمن لا إرادةَ له، بل أكملُ الخلقِ عبوديةً ومحبةً وأصحُّهم حالًا، وأقومُهم معرفةً: أتمُّهم إرادةً، فكيف يقالُ: «إنها حيلةُ[(٣)] العوامِّ، أو من منازل العوامِ»؟!.

الوجهُ الثاني

- **الوجهُ الثاني**: أنه يلزمُ من هذا أن تكونَ المحبةُ من منازلِ العوامِّ، وتكونَ معلولةً أيضًا؛ لأنها إرادةٌ تامةٌ للمحبوبِ، ووجودُ المحبةِ بلا إرادةٍ كوجودِ الإنسانيةِ من غيرِ حيوانيةٍ، وكوجودِ مقامِ الإحسانِ بدونِ الإيمانِ والإسلامِ.

فإذا كانت الإرادةُ معلولةٌ[(٤)] - وهي من منازلِ العوامِّ - لزم أن تكونَ المحبةُ كذلك.

فإن قيل: المحبةُ التي لا علةَ فيها هي تجردُ المحبِّ عن الإرادةِ، وفناؤُه بإرادةِ محبوبِه عن إرادتِه.

قيل: هذا هو حقيقةُ الإرادةِ: أن يُبقي[(٥)] مرادُه مرادَ محبوبه، فلو لم يكن مريدًا لمرادِ محبوبِه؛ لم يكنْ موافقًا له في الإرادةِ. والمحبةُ هي موافقةُ المحبوبِ في إرادتِه.

فعاد الأمرُ إلى ما أشرنا إليه: أن المعلولَ من ذلك ما تعلقَ بحظِ المريدِ دونَ [حقِّ][(٦)] محبوبِه، فإذا صارت إرادتُه موافقةً لإرادةِ محبوبِه لم تكنْ تلك الإرادةُ من

= ابن شروسان البسطامي، من مشاهير الصوفية، كان جده مجوسيًّا فأسلم، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٦): «. . . وله نكت مليحة، وجاء عنه أشياء مشكلة، لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر، والغيبة والمحو، فتطوى، ولا يحتج بها؛ إذ ظاهرها إلحاد. . .» اهـ، ولد سنة ثمان وثمانين ومائة، وتوفي سنة إحدى وستين ومائتين. انظر: «طبقات الصوفية» (ص/ ٦٧-٧٤)، «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٣-٤٢).

(١) إلى هنا انتهى النقل من: «محاسن المجالس» (ص/ ٢-٣).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٣) في ك و س: «حلية».

(٤) في ع: «من معلوله».

(٥) في ع: «أنْ ينفي».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

منازلِ العوامِّ، ولا معلولةً، بل هذه أشرفُ منازلِ الخواصِّ، وغايةُ مطالبِهم، وليس وراءَها إلا التجردُ عن كلِّ إرادةٍ، والفناءُ بشهودِه عن إرادةِ ما يريدُ، وهذا هو الذي يشيرُ إليه(١) السالكون إلى منازلِ الفناءِ، ويجعلونه غايةَ الغاياتِ.

وهذا عند الكُمَّلِ(٢) نقصٌ، وتغييرٌ في وجهِ المحبةِ، وهضمٌ لجانبِ العبوديةِ، وفناءٌ بحظِّ المحبِّ من مشاهدتِه جمالَ محبوبِه(٣)، وفنائِه فيه عن حقِّ المحبوبِ ومرادِه، فهو الوقوفُ مع نفسِ الحظِّ، والهروبُ عن حقِّ المحبوبِ ومرادِه.

وهل مَثَلُ هذا إلا كَمَثَلِ رجلين ادعيا محبةَ مَلِكٍ، فحضرا بين يديهِ فقال: ما تريدان؟ فقال أحدُهما: أريدُ أن لا أريدُ شيئًا، بل أفنى عن إرادتي، وأكونُ أنا المرادَ، وأنت تريدُ بي ما تشاءُ. وقال الآخرُ: بل أريدُ أن أنفقَ أنفاسي وذراتي في محابِّك ومرضاتِك، منفذًا لأوامرِك، مشمرًا في طاعتِك؛ أتوجهُ حيثُ توجهني، وأفعلُ ما تأمرُني، هذا الذي أريدُه. فقال للآخرِ(٤): وأنا أريدُ منك أن تفعلَ مثلَ هذا، فإني سأبعثُكما في أشغالي ومهماتي. فأمَّا أحدُهما فقال: «لا حظَّ لي سوى اتباعِ مرضاتِك، والقيامِ بحقوقِك.

وقال الآخرُ: لا أريدُ إلا مشاهدتَك، والنظرَ إليك، والفناءَ فيك.

فهل يكونان في نظرِه سواءً؟ وهل تستوي منزلتُهما عنده؟.

ولو أفعموا(٥) النظرَ؛ لعلموا أن صاحبَ الفناءِ هو طالبُ الحظِّ، الواقفُ معه، وأن الآخرَ وإن لم ينسلخْ من الحظِّ، ولكنْ حظُّه مرادُ المحبوبِ منه، لا مرادُهُ هو من المحبوبِ.

وبين الأمرين من الفرقِ كما بين الأرضِ والسماءِ.

فالعجبُ ممن يفضِّلُ صاحبَ الحظِّ الذي يريدُه من محبوبِه على من صار حظُّه مرادَ محبوبِه منه، بل الفناءُ الكاملُ أن يفنى بإرادتِه عن إرادةِ ما سواه(٦)، وبحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبرجائِه عن رجاءِ ما سواه، وبخشيتِه عن خشيةِ ما سواه، وبالتوكلِ عليه عن

---

(١) في ع: «يَسيرُ إليه». (٢) في ك وس: «وهذا عند أهل الكمال».

(٣) في ك: «من مشاهدة جمالِ محبوبه»، وفي ع: «من مشاهدته كمالَ محبوبه».

(٤) في س: «وقال الآخر». (٥) في ع: «ولو أنعموا»، وفي س: «ولو أمعنوا».

(٦) في ك وس: «مَن سواه».

التوكلِ على [ما][١] سواه، ليس أن تفنى بحظِّك منه عن مرادِه منك.

وهذا موضعُ يشتَبِهُ علمًا وحالًا وذوقًا، إلا على من فتح اللهُ عليه بفرقانٍ بين هذا وهذا.

الوجهُ الثالثُ

الوجهُ الثالثُ: أن الإرادةَ إنما تكونُ ناقصةً بحسبِ نقصانِ المرادِ:

فإذا كان مرادُها أشرفَ المرادِ؛ فإرادتُه[٢] أشرفُ الإراداتِ، ثم إذا كانتِ الوسيلةُ إليه أجلَّ الوسائلِ، وأنفعَها، وأكملَها؛ فإرادتُها كذلك، فلا تخرجُ إرادتُه عن إرادةِ أشرفِ الغاياتِ، وإرادةِ أقربِ الوسائلِ إليه وأنفعِها.

فأيُّ علةٍ في هذهِ الإرادةِ؟ وأيُّ شيءٍ فوقها للخواصِّ؟.

الوجهُ الرابعُ

الوجهُ الرابعُ: أنَّ نقصانَ الشيءِ يكونُ من وجهين:

أحدُهما: أن يُوجبَ ضررًا.

والثاني: أن يكونَ له ثمرةٌ نافعةٌ، لكن يشغلُ عما هو أكملُ منه.

وكلاهُما منتفٍ عن الإرادةِ، فكيف تكونُ ناقصةً معلولةً؟.

فإن قيل: لما كان الوقوفُ معها رجوعًا إلى النفسِ، وتفرقًا ووقوفًا مع حظِّ المريدِ؛ كانت ناقصةً؛ قيل: هذا منشأُ الغلطِ.

الوجهُ الخامسُ

وجوابُه بالوجهِ الخامسِ: وهو أن يقالَ: قولُه: «إنَّ الإرادةَ تَفرَّق»: فإن أردتُم بالتفرقِ شهودَ المريدِ لإرادتهِ ومرادِه[٣]، ولعبوديَّتِهِ[٤] ولمعبودِهِ، ولمحبَّتِهِ ومحبوبهِ[٥]؛ فلم قلتم: إنَّ هذا التفرقَ نقصٌ؟.

وهل هذا إلا عينُ الكمالِ؟ وهل تتمُّ العبوديةُ إلا بهذا؟ فإنَّ من شَهِدَ عبوديتَه، وغابَ بها عن معبودِه؛ كان محجوبًا، ومن شَهِدَ المعبودَ، وغاب به عن شهودِ عبوديتِه وقيامِه بما أَمَره به؛ كان ناقصَ العبوديةِ، ضعيفَ الشهودِ، وهل الكمالُ إلا شهودُ المعبودِ مع شهودِ عبادتِه؛ فإنها عينُ حقِّه ومرادِه ومحبوبِهِ من عبدِه، فهل يكونُ شهودُ العبدِ لحقِّ محبوبِه ومرادِه منه، وأنه قائمٌ به ممتثلٌ له نقصًا. وتكونُ غيبتُه عن ذلك، وإعراضُه عنه، وفناؤُه عن شهودِه كمالًا؟، وهل هذا إلا قلبٌ للحقائقِ؟!.

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ع. (٢) في س: «فإنَّ إرادته». (٣) في ك وس: «ولمراده».
(٤) في س: «وعبوديته». (٥) في ك: «ولمحبوبه».

فغايةُ صاحبِ هذا الحالِ والمقامِ[١] أن يكونَ معذورًا بضيقِ قلبِه عن شهودِ هذا.

وهذا: إما لضعفِ المحلِّ، أو لغلبةِ الواردِ، وعجزه عن احتمالِ شيءٍ آخرَ معه.

فأما أن يكونَ هذا هو الكمالَ المطلوبَ، والآخرُ نقصٌ؛ فكلَّا.

وأين مقامُ مَنْ يشهدُ عبوديتَه، ومنةَ اللهِ عليه فِيها، وتوفيقَه لها، وجعلَه محلًّا وآلةً [لها][٢]، وهو ناظرٌ مع ذلك إلى معبودِه بقلبِه، شاهدًا له، فانيًا عن شهودِ غيرِه في عبوديتِه - مِنْ مقامِ مَنْ لا يتسعُ لهذا وهذا؟!.

وتأملْ حالَ أكملِ الخلقِ وأفضلِهم وأشدِّهم حبًّا للهِ ﷺ؛ كيف كانَ في عبادتِه جامعًا بيْنَ الشهودين، حتى كان لا يغيبُ عن أحوالِ المأمومين، فضلًا عن شهودِ عبادتِه؛ فكان يراعي أحوالَهم، وهو في ذلك المقامِ بين يدي ربِّه - سبحانه وتعالى -، فالكُمَّلُ[٣] من أمَّتِه على منهاجِه وطريقتِه في ذلك ﷺ.

فالواجبُ التمييزُ [بين المراتبِ، وإعطاءُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ فقد جعلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ قَدْرًا.

وإن أردتُم بالتفريقِ[٤] شتاتُ القلبِ][٥] في شعابِ الحظوظِ وأوديةِ الهوى: فهذه الإرادةُ لا تستلزمُ شيئًا من ذلك، بل هي جمعيةُ القلبِ[٦] على المحبوبِ، وعلى مَحَابِّه ومراداتِه.

ومثلُ هذا التفرُّقِ هو عينُ البقاءِ، ومحضُ العبوديةِ، ونفسُ الكمالِ، وما عداه فمحضُ حظِّ العبدِ، لا حقِّ محبوبِه.

الوجهُ السادسُ

الوجه السادسُ: أنَّ قولَه: «الإرادةُ[٧] رجوعٌ إلى النفسِ، وإنَّ إرادةَ العبدِ عينُ حظِّهِ»: كلامٌ فيه إجمالٌ، وتفصيلٌ، فيقالُ: ما تريدون بقولِكم: «إن الإرادةَ رجوعٌ إلى النفسِ».

أتريدون أنها رجوعٌ عن إرادةِ الربِّ وإرادةِ محابِّه إلى إرادةِ النفسِ وحظوظِها؟.

أم تريدون أنها رجوعٌ إلى إرادةِ النفسِ لربِّها ولمرضاتِه؟.

---

(١) تقدم معنى: «الحال» و«المقام». (٢) ما بين المعقوفين ليس في س. (٣) في ك: «فالكامل».
(٤) في ع وك: «بالتفرُّق». (٥) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٦) في ع: «بل هي جعبة القلب». وهو خطأ. (٧) في ك وس: «إنَّ الإرادة».

فإن أردتُم الأولَ؛ عُلِمَ أنَّ هذهِ الإرادةَ معلولةٌ ناقصةٌ فاسدةٌ، ولكن ليست هذه الإرادةَ التي نتكلمُ فيها[١].

وإن أردتُم المعنى الثانيَ؛ فهو عينُ الكمالِ، وإنما النقصانُ خلافُه.

الوجهُ السابعُ

الوجهُ السابعُ: أنَّ قولكم: «إن هذهِ الإرادةَ عينُ حظِّ العبدِ»: قلنا: نعم، وهي أكبرُ حظٍّ له، وأجلُّه وأعظمُه، وهل للعبدِ حظٌّ أشرفُ من أن يكونَ اللهُ وحده إلٰهَه ومعبودَه ومحبوبَه ومرادَه؟!.

فهذا هو الحظُّ الأوفرُ، والسعادةُ العُظمى، ولكن لِمَ قلتم: «إن اشتغالَ العبدِ بهذا الحظِّ نقصٌ في حقِّهِ»[٢].

وهل فوق هذا كمالٌ فيطلبُه العبدُ؟!.

ثم يقالُ: لو كان فوقه شيءٌ أكملُ منه؛ لكان اشتغالُ العبدِ به؛ وطلبُه إياه اشتغالًا بحظِّه أيضًا، فيكونُ ناقصًا، فأين الكمالُ؟!.

فإن قلتم: «في تركِه حظوظَهُ كلَّها»؟!

قيل لكم: وتركُه هذا الحظَّ أيضًا هو من حظوظِهِ؛ فإنه لا يبقَى معطلًا فارغًا خِلْوًا من الإرادةِ أصلًا، بل لا بدَّ له من إرادةٍ ومرادٍ، وكلُّ إرادةٍ عندكم[٣] رجوعٌ إلى الحظِّ، فأيُّ شيءٍ اشتغل به وبإرادتِه كان وقوفًا مع حظِّه[٤]، فيا للهِ العجبُ؛ متى يكونُ عبدًا محضًا خالصًا لربِّه؟!.

الوجهُ الثامنُ

يوضحُ هذا الوجْهُ الثامنُ[٥]: أنَّ الحيَّ لا ينفكُّ عن الإرادةِ ما دامَ شاعرًا بنفسِه، وإنما ينفكُّ عنها إذا غاب عنه شعورُه بعارضٍ من العوارضِ.

فالإرادةُ[٦] من لوازمِ الحياةِ، فدعوى أنَّ الكمالَ في التجردِ عنها دعوى باطلةٌ مستحيلةٌ طبعًا وحِسًّا، بل الكمالُ في التجردِ عن الإرادةِ التي تزاحمُ مرادَ المحبوبِ، لا عن الإرادةِ التي توافقُ مرادَه.

---

(١) في ك وس: «التي يتكلم فيها».

(٢) في ع: «إنَّ اشتغال العبد بِهِ، وطلبه إياه نقص في حقه».

(٣) في س: «وكل إرادة لكم». (٤) في ك: «عنْ حظه».

(٥) في ع: «يوضحه الوجه الثامن». (٦) في س: «فإن الإرادة».

الوجهُ التاسعُ: قولُه: «الجمعُ والوجودُ فيما يرادُ بالعبدِ، لا فيما يريدُ... إلى آخرِه. فيقالُ: هذا على نوعين: الوجهُ التاسعُ

أحدُهما: ما يُرادُ بالعبدِ من المقدورِ الذي يجري عليه بغيرِ اختيارِه كالفقرِ والغِنى، والصحةِ والمرضِ، والحياةِ والموتِ، وغيرِ ذلك.

فهذا لا ريبَ أن الكمالَ فناءُ العبدِ فيه[1] عن إرادتِه[2]، ووقوفُه مع ما يُرادُ به، لا يكونُ له إرادةٌ تُزاحِمُ إرادةَ اللهِ منه، كحالِ الثلاثةِ الذين قال أحدُهم: «أنا أُحِبُّ الموتَ للقاءِ اللهِ»، وقال الآخرُ: «أحبُّ البقاءَ لطاعتِه[3] وعبادتِه»، فقال الثالثُ: «غلطتُما، ولكنْ أنا أحبُّ من ذلك ما يحبُّ؛ فإن كان يحبُّ إماتَتي أحببتُ الموتَ، وإن كان يحبُّ حياتي أحببتُ الحياةَ، فأنا أحبُّ ما يحبُّه من الحياةِ والموتِ»، فهذا أكملُ منهما، وأصحُّ حالًا.

[فهذا][4] فيما يرادُ بالعبدِ.

والنوعُ الثاني: ما يرادُ من العبدِ من الأوامرِ والقرباتِ.

فهذا ليس الكمالُ إلا في إرادتِه، وإن فرقتَه؛ فهو مجموعٌ في تفرقتِه[5]، متفرقٌ في جمعيتِه.

وهذا حالُ الكُمَّلِ من الناسِ: متفرقُ الإرادةِ في الأمرِ، مجتمعٌ على الآمرِ، فهو مجموعٌ عليه، متفرقٌ فيه؛ ولا تكونُ[6] فعلُ المراداتِ المختلفةِ بإرادةٍ واحدةٍ بالعينِ، وإنما غايتُها أن يكونَ[7] هنا إرادتان:

إحداهُما: إرادةٌ واحدةٌ للمرادِ المحبوبِ.

والثانية: إراداتٌ متفرقةٌ[8] لحقِّه ومحابِّه، وما أمرَ به، فهو[9]، وإن تعددتْ وتكثرتْ؛ فمرجعُها إلى مرادٍ واحدٍ، بإرادةٍ [واحدةٍ][10] كليةٍ، وكلُّ فعلٍ منها له إرادةٌ جزئيةٌ تخصُّه[11].

---

(١) في ك: «أن الكمال فيه فناء العبد فيه».
(٢) في س: «عن إراداته».
(٣) في ك: «لطاعة الله».
(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٥) في س: «في تفريقه».
(٦) في ع وس: «ولا يكون».
(٧) في ع وس: «أن تكون».
(٨) في س: «إرادة متفرقات».
(٩) في س: «فهي».
(١٠) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.
(١١) في ك وس: «جزئية محضة».

الوجهُ العاشرُ

الوجْهُ العاشرُ: أنَّ قول أبي يزيدَ: «أريدُ أن لا أريدَ» تناقضٌ بَيِّنٌ؛ فإنه قد أراد عدمَ الإرادةِ، فإذا قال: «أريدُ أن لا أريدَ» يقالُ له: فقدْ أردتَ، وأحسنُ من هذا أن يكونَ الجوابُ: «أريدُ ما تريدُ لا ما لا تريدُ»(١).

وإذا كانَ لا بدَّ من إرادةٍ ففرقٌ بين الإرادتين: إرادةِ سلبِ الإرادةِ، وإرادةِ موافقةِ المحبوبِ في مرادِه، واللهُ أعلمُ.

الوجهُ الحادي عشرَ

الوجْهُ الحادي عَشَرَ: أنه فسَّر الإرادةَ بتجريدِ القصدِ، وجزمِ النيَّةِ، والجدِّ في الطلبِ.

وهذا هو عينُ كمالِ العبدِ، وهو متضمنٌ للصدقِ، والإخلاصِ(٢)، والقيامِ بالعبوديةِ، فأيُّ نقصٍ في تجريدِ القصدِ؛ وهو تخليصُه من كلِّ شائبةٍ نفسانيةٍ، أو طبيعيةٍ، وتجريدُه للمرادِ المحبوبِ وحده، والجدُّ في طلبِه، وطلبِ مرضاتِه، وجزمُ النيةِ؛ وهو أن لا يعترِيها وقفةٌ ولا تأخرٌ(٣). وهذا الأمرُ هو غايةُ منازلِ الصديقين.

وصديقيةُ العبدِ بحسبِ رسوخِه في هذا المقامِ، وكلما ازدادَ قربُه، وعلا مقامُه؛ قويَ عزمُه، وتجردَ صدقُه، فالصادقُ لا نهايةَ لطلبِه، ولا فتورَ لقصدِه، بل قصدُه أتمُّ، وطلبُه أكملُ، ونيتُه أجزمُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: الآية ٩٩]، واليقينُ هنا الموتُ باتفاقِ أهلِ الإسلامِ(٤)، فجاءَه ﷺ اليقينُ إذ جاءَه وإرادتُه وقصدُه ونيتُه في الذروةِ العليا، ونهايةِ كمالِها وتمامِها.

فأين العلةُ في هذهِ الإرادةِ؟!.

ولكنَّ العلةَ والنقصَ في الإرادةِ التي يكونُ مصدرُها النفسُ والهوى، وغايتُها نيلَ حظِّ المريدِ من محبوبِه، وإن كان المحبوبُ يريدُ ذلك، لكنْ غيرُه أحبُّ إليه منه، وهو أن يكونَ مرادُه محضَ حقِّ محبوبِه، وحصولِ مرضاتِه، فانيًا عن حظِّه هو من محبوبِه، بل قد صار حظُّه منه نفسَ حقِّه ومرادِه.

فهذِهِ هي الإرادةُ والمحبةُ التي لا علةَ فيها، ولا نقصَ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يمُنَّ علينا، ويحيينا ولو بِنَفَسٍ منها، كما مَنَّ بعلمِها

---

(١) في س: «أريد ما تريد لا ما لا أريد».

(٢) في ع: «وهو يتضمن الصدق والإخلاص».

(٣) في ك وس: «ولا تأخير».

(٤) في س: «واليقين ها هنا: الموت بإجماع أهل الإسلام».

ومعرفتِها(١)؛ إنه جوادٌ كريمٌ.

الوجهُ الثاني عشرَ

الوجْهُ الثاني عَشَرَ: أنه قال بعدَ هذا: «فصحةُ الإرادةِ بذلُ الوسعِ، واستفراغُ الطاقةِ مع تركِ الاختيارِ، والسكونِ إلى مجاري الأقدارِ، فيكونُ كالميتِ بين يدي الغاسلِ؛ يقلِّبُه كيف يشاءُ»، فأين هذا من قولِه: «وذلك في طريقِ الخواصِّ نقصٌ وتفرقٌ»، وهل يكونُ بذلُ الوسعِ، واستفراغُ الطاقةِ إلا مع تمامِ الإرادةِ؟!.

وإنما الذي يعرضُ له النقصُ من الإرادةِ نوعان:

أحدُهما: إرادةٌ مصدرُها طلبُ الحظِّ.

والثاني: اختيارُه فيما يفعلُ به بغيرِ اختيارِه.

فعن هاتين الإرادتين ينبغي الفناءُ، وفيهما يكونُ النقصُ، فالكمالُ تركُ الاختيارِ فيهما، والسكونُ إلى مرادِ المحبوبِ وحقِّه في الأُولى، وإلى مجاري أقدارِه وحكمِه في الثانيةِ؛ فيكونُ في الأُولى حيًّا فعالًا منازعًا لقواطعِه عن مرادِ محبوبِه، وفي الثانيةِ كالميتِ بين يدي الغاسلِ يقلبُه كيف يشاءُ.

وبهذا التفصيلِ ينكشفُ سرُّ هذه المسألةِ، ويحصلُ التمييزُ بين محضِ العبوديةِ، وحظِّ النفسِ، واللهُ الموفقُ للصوابِ.

فصلٌ

المثالُ الثاني الزهدُ

المثالُ الثاني: «الزهدُ».

كلامُ ابنِ العريفِ على الزهدِ

قال أبو العباسِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو للعوامِّ أيضًا(٢)؛ لأنه حبسُ النفسِ عن الملذوذاتِ، وإمساكُهَا عن فضولِ الشهواتِ، ومخالفةُ دواعي الهوى(٣)، وتركُ ما لا يغني من الأشياءِ(٤).

---

(١) في ك وس: «كما مَنَّ بتعليمها ومعرفتها».

(٢) في س: «هو من منازل العوام أيضًا»، والذي في «محاسن المجالس». (ص/ ٤): «وأما الزهد فإنه للعوام أيضًا».

(٣) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «فإنه حبس النفس عن الملذوذات، و إمساكها بعد تفريق المجموع، وترك طلب المفقود عن فضول الشهوات، ومخالفة داعي الهوى».

(٤) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «من كل شيء».

وهذا نقصٌ في طريقِ الخاصَّةِ(١)؛ لأنه تعظيمٌ للدنيا، واحتباسٌ عن انتقادِها(٢)، وتعذيبٌ للظاهرِ بتركِها مع تعلقِ الباطنُ بها.

والمبالاةُ بالدنيا عينُ الرجوعِ إلى ذاتِك(٣)، وتضييعُ الوقتِ في منازعةِ نفسِك، وشهودِ حبسِك(٤)، وبقائِك معك؛ ألا ترى إلى مَنْ أعطاه اللهُ الدنيا بحذافيرِها كيف قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: الآية ٣٩]، وذلك حيثُ غافلَه(٥) باطنُه من شهودِها، وظاهرُه من التعلقِ بها(٦)؟.

فالزهدُ(٧): **صرفُ الرغبةِ إليه، وتعلقُ الهمةِ به**، والاشتغالُ به عن كلِّ شيءٍ يشغلُ عنه؛ ليتولَّى هو حسمَ(٨) هذهِ الأسبابِ عنك(٩)، كما قيل: «إن بعضَ المريدين سأل بعضَ المشايخِ(١٠)، فقال: أيُّها الشيخُ، بأيِّ شيءٍ تدفعُ إبليسَ إذا قصدَك(١١) بالوسوسةِ؟ فقال الشيخُ: «إني لا أعرفُ إبليسَ، فأحتاجَ إلى دفعِه، نحنُ [قومٌ](١٢) صرفنا هِمَمَنا إليه، فكفانا ما دونَه، كما قيل:

تسترتُ عن دهْري بظلِّ جناحِهِ ... فعينِي ترى دهْرِي، وليسَ يراني

---

(١) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «الخواص».

(٢) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «عن أبعادها»، وأشار المحقق إلى أن في نسخة: «عن انتقادها».

(٣) في ك وس: «إلى ذلك».

(٤) غير واضحة في ع، وفي «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «وشهود حِسِّك».

(٥) كذا في الأصل، وهي غير واضحة في ك، وفي هامش س: «لعله: عافى».

(٦) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «وبقائك معك على حرصك، ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ الآية [القَصَص: الآية ٨٣]، وإلى قوله لمَن أعطاه الدنيا بحذافيرها: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب»، فعافى باطنه من شهودها، وظاهره من التعلُّق بها».

(٧) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «فالزهد في الحقيقة».

(٨) في هامش ع: «لعله: فسخ»، والمثبت من الأصل، وهو الذي في «محاسن المجالس» (ص/ ٤)، وأشار المحقق إلى أنَّ في نسخة: «جَسْم» بالمعجمة، وهو الذي في س.

(٩) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤) زيادة: «وتكون معه كالطفل ابن شهر مع أمه؛ لا إرادة له، ولا حكم مع أمه».

(١٠) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «بعض الشيوخ».

(١١) في «محاسن المجالس» (ص/ ٤): «إذا كمدك»، وأشار المحقق إلى أنَّ في نسخة: «إذا قصدك».

(١٢) ما بين المعقوفين ليس في «محاسن المجالس».

فلو تسألِ الأيامَ ما اسمْي ما دَرَتْ ... وأين مكاني ما عرفن مكاني

مناقشتُهُ من وجوهٍ

فيقال: الكلامُ على هذا من وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ

أحدُهما: أن جعلَ الزهدِ للعوامِّ؛ لِمَا ذكرَهُ[١] إنما يتمُّ إذا كان [الزهدُ][٢] ملزومًا لمنازعةِ النفسِ ومجاذبتِها لدواعي الشهوةِ والهوى، وحينئذٍ فيكونُ قلبُه مشغولًا بتلك الدواعي والجواذبِ، ونفسُه تطالبُه بها، وزهدُه يأمرُه باجتنابِها.

ولا ريبَ أن فوق هذا مقامًا أعلى منه، وهو طمأنينةُ نفسِه، وسكونُها[٣] إلى محبوبِها، وانجذابُ دواعيها إلى محابِّه ومرضاتِه، وهذا للخواصِّ من المؤمنين.

ولكنْ هذهِ المنازعةُ غيرُ لازمةٍ للزهدِ وإن كان لا بدَّ منها في حكمِ الطبيعةِ؛ لتحققِ الابتلاءِ والامتحانِ، وليتحققَ[٤] تركُ العبدِ حظَّه وهواه لربِّه؛ إيثارًا له على هواه ونفسِه.

الوجهُ الثاني

الثاني: أنَّهُ [و][٥] لو كانتِ هذه المنازعةُ، وحبسُ النفسِ عن الملذوذاتِ من لوازمِ الزهدِ؛ لم يكنْ فيها نقصٌ ولا علةٌ؛ فإنها من لوازمِ الطبيعةِ وأحكامِ الجبلَّةِ، وهي كالجوعِ والعطشِ والألمِ والتعبِ، فحبسُ النفسِ عن إجابةِ دواعيها؛ إيثارًا للهِ تعالى ومرضاتِه[٦] عليها لا يكونُ نقصًا، ولا مستلزمًا لنقصٍ.

الخلافُ في المفاضلةِ بين مَنْ له داعيةٌ وشهوةٌ وهو يحبسها

وقد اختلف أربابُ السلوكِ [وأهلُ الطريقِ][٧] هنا في هذهِ المسألةِ، وهي: أيُّهما أفضلُ: من له داعيةٌ وشهوةٌ، وهو يحبسُها للهِ، ولا يطيعُها؛ حبًّا له[٨]، وحياءً منه وخوفًا. أو من لا داعيةَ له تنازعُه، بل نفسُه خاليةٌ من تلك الدواعي والشهوةِ، قد اطمأنت إلى ربِّها، واشتغلتْ به عن غيرِه، وامتلأتْ بحبِّه وإرادتِه، فليس فيها موضعٌ لإرادةِ غيرِه، ولا حبِّه؟.

القولُ الأولُ وحججه

- **فرجحتْ طائفةٌ الأولَ**، وقالتْ: هذا يدلُّ على قوةِ تعلُّقِه وشدَّةِ محبَّتِه، فهو يعاصي دواعي الطبعِ والشهوةِ، ويقهرُها سلطانُ محبَّتِه وإرادتِه وخوفِه من اللهِ، وهذا يدلُّ على تمكُّنِه من نفسِه، وتمكُّنِ حالِه مع اللهِ، وغلبةِ دواعي الحقِّ[٩] عنده على داعي الطبعِ والنفسِ[١٠].

---

(١) في ك: «ما ذكره». (٢) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٣) في ع: «وركونها».
(٤) في ع: «ولتحقق». (٥) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٦) في س: «ولمرضاته».
(٧) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٨) في ع: «حبًّا لله».
(٩) في ك: «داعي الحق». (١٠) في س: «دواعي الطبع والنفس».

قالوا: وأيضًا فله مزيدٌ في حالِه وإيمانِه بهذا الإيثارِ والتركِ، مع حضورِ داعي الفعلِ[١] عندَه، ومزيدٌ بمجاهدةِ عدوِّهِ[٢] الباطنِ ونفسِه وهواه، كما يكونُ له مزيدٌ بمجاهدةِ عدوهِ[٣] الظاهرِ.

قالوا: والذوقُ والوجدُ يشهدُ بمزيدِه[٤] من الحبِّ والأُنسِ والسرورِ والفرحِ بربِّه عند إيثارِه على دواعي الهوى والنفسِ.

والمطمئنُ الذي ليس فيه[٥] هذا الداعي ليس له مزيدٌ من هذهِ الجهةِ، وإن كان مزيدُه من جهةٍ أخرى، فهي مشتركةٌ بينهما، ويختصُّ هذا بمزيدِه من الإيثارِ والمجاهدةِ.

قالوا: وأيضًا فهذا مبتلىً بهذهِ الدواعي والإراداتِ، وذاك مُعافىً منها.

وقد جرتْ سنةُ اللهِ في المؤمنين من عبادِه أن يبتليَهم على حسبِ إيمانِهم، فمن ازداد إيمانُه زيد في بلائِه، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**يُبْتلى المرءُ[٦] على حسبِ دينِه: فإن كان في دينِه صلابةٌ شُدِّدَ عليه البلاءُ، وإن كان في دينِه رقةٌ [خُفِّفَ عنه البلاءُ]**»[٧].

والمرادُ بالدينِ هنا الإيمانُ الذي يثبتُ عند نوازلِ[٨] البلاءِ؛ فإن المؤمنَ يُبتلى على قدرِ ما يحملُه إيمانُه من واردِ البلاءِ.

الفرقُ بين الصبرِ على=

قالوا: فالبلاءُ بمخالفةِ دواعي النفسِ والطبعِ من أشدِّ البلاءِ؛ فإنه لا يصبرُ عليه إلا الصديقون.

---

(١) في س: «دواعي الفعل». (٢) في ك وس: «ومزيدُ مجاهدة عدوِّه».

(٣) في ك وس: «مزيد مجاهدة عدوِّه». (٤) في ك وس: «يشهد لمزيده».

(٥) في س: «ليس له فيه». (٦) في س: «المؤمن»، وأشار في الهامش إلى أنَّ في نسخة: «المرء».

(٧) ما بين المعقوفين ليس في ع، والحديث أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢)، (١٧٤)، (١٨٠)، (١٨٥)، والترمذي، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه، رقم (٤٠٢٣)، والدارمي، رقم (٢٦٨١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٠): عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قلت: «يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى المرء على حسب دينه؛ فإن كان هو في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه من خطيئة**»، قال الألباني في «تخريج أحاديث المشكاة» (١/ ٤٩٤): «وإسناده حسنٌ» اهـ.

(٨) في س: «عند نزول».

البلاءِ والصبرِ عن المعصيةِ

وأما البلاءُ الذي يجري على العبدِ بغيرِ اختيارِه كالمرضِ والجوعِ والعطشِ ونحوها فالصبرُ عليه لا يتوقفُ على الإيمانِ، بل يصبرُ عليه البرُّ والفاجرُ، لا سيما[١] إذا علم أنه لا معولَ له إلا الصبرُ؛ فإنه إن لم يصبرِ اختيارًا؛ صبر اضطرارًا.

ولهذا كان بين ابتلاءِ يوسفَ الصديقِ ﷺ بما فعل به[٢] إخوتُه من الأذى، والإلقاءِ في الجبِّ[٣]، وبيعِه بيعَ العبيدِ، والتفريقِ بينه وبين أبيه - وابتلائِه بمراودةِ المرأةِ [له][٤] وهو شابٌّ عزبٌ غريبٌ بمنزلةِ العبدِ لها، وهي الداعيةُ [له][٥] إلى ذلك: فرقٌ عظيمٌ، لا يعرفُه إلا من عرف مراتبَ البلاءِ[٦]؛ فإن الشبابَ داعٍ إلى الشهوةِ، والشابُّ قد يستحي من أهلِه ومعارفِه[٧] من قضاءِ وطرِه، فإذا صار في دارِ الغربةِ زال ذلك الاستحياءُ والاحتشامُ، وإذا كان عزبًا كان أشدَّ لشهوتِه، وإذا كانت المرأةُ هي الطالبةَ كان أشدَّ، وإذا كانت جميلةً كان أعظمَ، فإن كانت ذاتَ منصبٍ كان أقوى في الشهوةِ، فإن كان ذلك في دارِها، وتحت حكمِها بحيثُ لا يخافُ[٨] الفضيحةَ، ولا الشهرةَ[٩] كان أبلغَ، فإنِ استوثقتْ بتغليقِ الأبوابِ، والاحتفاظِ من الداخلِ كان أقوى أيضًا للطلبِ، فإن كان الرجلُ مملوكَها[١٠]، وهي كالحاكمةِ عليه[١١]، الآمرةِ الناهيةِ [له][١٢]؛ كان أبلغَ في الداعي، فإذا كانتِ المرأةُ شديدةَ العشقِ والمحبةِ للرجلِ، قد امتلأ قلبُها من حبِّه؛ فهذا الابتلاءُ الذي لا يصبرُ معه إلا مثلُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين[١٣].

---

(١) في ك: «ولا سيما». (٢) في ك وس: «لما فعل به».

(٣) الجُبُّ: -بالضم-: البئرُ، أو الكثيرة الماء، البعيدة القعر، أو الجيّدة الموضع من الكلأ، أو التي لم توطأ. أو مما وُجد لا مما حفره الناس، والجمع: أجبابٌ وجِبَّات وجِبَبَة. انظر: «الصحاح» (١/ ٨٥)، «القاموس» (ص/ ٨٣).

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٥) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٦) في س: «مراتب الابتلاء». (٧) في ع: «بين أهله ومعارفه».

(٨) في ك: «لا تخاف» بالمثناة الفوقية.

(٩) في س: «ولا الشهوة». وهو غلط. (١٠) في ك وس: «كمملوكها».

(١١) في ع: «وهي الحاكمة عليه». (١٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(١٣) في س: «الذي صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين». وقد أخرج أحمد في «المسند» (٢/ ٩٦)، والبخاري (٣٣٨٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**». =

ولا ريبَ أن هذا الابتلاءَ أعظمُ من الابتلاءِ الأولِ، بل هو من جنسِ ابتلاءِ الخليلِ ﷺ بذبحِ ولدِه؛ إذ كلاهما ابتلاءٌ بمخالفةِ[1] الطبعِ ودواعي النفسِ والشهوةِ، ومفارقةِ حكمِ الطبعِ جملةً.

وهذا بخلافِ البلوى التي أصابتْ ذا النون صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، والتي أصابت أيوبَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين.

المفاضلةُ بين الملائكةِ وصالحي البشرِ

قالوا: وأيضًا فإن هذهِ هي النكتةُ التي من أجلِها كان صالحو البشرِ[2] أفضلَ من الملائكةِ؛ لأن الملائكةَ عبادتُهم بريئةٌ عن شوائبِ دواعي النفوسِ، والشهواتُ البشريةُ؛ فهي صادرةٌ عن غيرِ معارضةٍ لا مانعَ ولا عائقَ، وهي كالنفسِ للحيِّ.

وأما عباداتُ البشرِ، فمع منازعاتِ النفوسِ وقمعِ الشهواتِ، ومخالفةِ دواعي الطبعِ، فكانت[3] أكملَ.

ولهذا كان أكثرُ الناسِ على تفضيلِهم على الملائكةِ؛ لهذا المعنى ولغيرِه[4].

= وقد قال المؤلف في «الداء والدواء» (ص/ ٢٣٦-٢٣٩): «. . . وكان الداعي ها هنا -أي: في قصة يوسف هذه- في غاية القوة؛ وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركّبه الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة. . .، **الثاني**: أن يوسف ﷺ كان شابًّا، وشهوة الشاب وحدَّته أقوى، **الثالث**: أنه كان عَزَبًا، لا زوجة له ولا سُرِّية. . .، **الرابع**: أنه كان في بلاد غربة. . .، **الخامس**: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال. . .، **السادس**: أنها غير أبية ولا ممتنعة. . .، **السابع**: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد. . .، **الثامن**: أنه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها. . .، **التاسع**: أنه لا يخشى أن تنمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة والراغبة. . . **العاشر**: أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار. . .، **والحادي عشر**: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهنَّ عليه. . .، **والثاني عشر**: أنها توعدتْه بالسّجن والصغار. . .، **الثالث عشر**: أنَّ الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه. . .» إلى أن قال: «. . . وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة، لعلنا -إن وفقنا الله- أنْ نفردها في مصنف مستقل» اهـ باختصار.

(١) في س: «لمخالفة».

(٢) في ك: «صالحوا البشر» -بالألف- سبق ذكر القاعدة في ذلك.

(٣) في ك وس: «فكان».

(٤) المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة مسألة شهيرة، اختلف الناس فيها على ثلاثة مذاهب:

أحدها: تفضيل صالحي البشر، وهو مذهب جمهور أهل السنة، وجمهور أصحاب الأشعري، **والثاني**: تفضيل الملائكة، وهو مذهب قليل من أهل السنة، ومذهب المعتزلة وبعض الأشاعرة والصوفية =

فمن لم تُخلقْ له[1] تلك الدواعي والشهواتُ فهو بمنزلةِ الملائكةِ.
ومن خُلقتْ له، وأعانه اللهُ على دفعِها وقهرِها وعصيانِها كان أكملَ وأفضلَ.

= ونصره ابن حزم.

والثالث: التوقف، وهو مذهب أبي حنيفة.

واختار المؤلف وشيخه ابن تيمية التفضيل، قال في «بدائع الفوائد» (٣/ ١٦١-١٦٣): «... وأكثر الناس إذا تكلم في التفضيل لم يفصل جهات الفضل، ولم يوازن بينهما، فيبخس الحق، وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم».

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل؛ فأجاب فيها بالتفصيل الشافي». ثم ذكر جملة من هذه المسائل، ثم قال: «ومنها: أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة: أيهما أفضل؟ فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى، منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الربِّ، ولا ريب أنَّ هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة، وبهذا التفصيل يتبين سِرُّ التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه...» اهـ.

وقد رأى جمع من أهل العلم أنَّ من فضول العلم الخوضَ في هذه المسألة؛ لقلة ما يترتب على معرفتها من الفائدة، ولأنه لم يُنقل فيها عن السلف شيء؛ فقال البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٧٩): «... والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به» اهـ، وقال تاج الدين الفزاري الشافعي في «الإشارة في البشارة في تفضيل البشر على الملك» (ص/ ٥): «اعلم أنَّ هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخلُ كلامه عن ضعف واضطراب» اهـ، وقال ابن أبي العز الحنفي في «شرح الطحاوية» (٢/ ٤١٠): «... وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة؛ لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يُعني، و«**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» إلى أن قال: «وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل؛ ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول...» اهـ، وقال الشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ١٩٥): «... وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافًا كثيرًا، وأطالوا الكلام في غير طائل، وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه؛ فالكلام فيها لا يعنينا» اهـ، وقال أيضًا (٣/ ٢٢): «... على أنَّ هذه المسألة-أعني مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر- ليست من مسائل الدِّين في وردٍ ولا صدر، فما أغنى عباد الله عنها، وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف» اهـ، وقال أيضًا (٣/ ٢٤٤): «... وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة، ولا تتعلق به فائدة، وهي مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء، أو الأنبياء على الملائكة...» اهـ.

(١) في ك: «فمن لم يخلق».

قالوا: وأيضًا فإنَّ حقيقةَ المحبةِ إيثارُ المحبوبِ ومرضاتِهِ على ما سواه.

قالوا: وكيف يصحُّ الإيثارُ ممن لا تنازعُه نفسُه وطبعُه إلى غيرِ المحبوبِ.

قالوا: وليس العجبُ من قلبٍ خالٍ عن الشهواتِ والإراداتِ، قد ماتَتْ دواعي طبعِه وشهوتِهِ إذا عكَفَ على محبوبِهِ ومعبودِهِ، واطمأنَ إليه، واجتمعت همَّتُه عليه؛ وإنما العجبُ من قلبٍ قد ابتُلي[١] بما ابتُلي به من الهوى، والشهوةِ، ودواعي الطبيعةِ مع قوةِ سلطانِها وغلبتِها، وضعفِه، وكثرةِ الجيوشِ التي تُغيرُ على قلبِه كلَّ وقتٍ إذا آثر ربَّه ومرضاتِهِ على هواه، وشهوتِه، ودواعي طبعِه، فهو هاربٌ إلى ربِّه من بين تلك الجيوشِ، وعاكفٌ عليه في تلك الزعازعِ والأهويةِ[٢] التي تغشى على الأسماعِ والأبصارِ والأفئدةِ، يتحملُ منها لأجلِ محبوبِه ما لا تتحملُه[٣] الجبالُ الراسياتُ.

قالوا: وأيضًا فنهيُ النفسِ عن الهوى عبوديةٌ خاصَّةٌ لها تأثيرٌ خاصٌّ، وإنما يحصلُ[٤] إذا كان ثَمَّ ما ينهى عنه النفسَ.

قالوا: وأيضًا فالهوى عدوُّ الإنسانِ، فإذا قهر عدوَّه، وصار تحت قبضتِه وسلطانِه؛ كان أقوى وأكملَ ممن لا عدوَّ له يقهرُه.

قالوا: ولهذا كان حالُ النبيِّ ﷺ في قهرِه قرينَه حتى انقادَ، وأسلَم له، فلم يكنْ يأمرُه إلا بخيرٍ[٥] - أكملَ من حالِ عمرَ حيثُ كان الشيطانُ إذا رآه يفرُّ. . . . .

---

(١) في س: «قد امتلأ». (٢) في س: «الزعازع والأهواء». (٣) في ك: «ما لا يتحمله».

(٤) في س: «وإنما تحصل».

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٥)، (٣٩٧)، (٤٠١)، (٤٦٠)، ومسلم، رقم (٢٨١٤): عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكِّل به قرينه من الجنِّ، وقرينه من الملائكة»**، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياي، إلا أنَّ الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»**.

قوله: «**... وقرينه من الملائكة**»: قال ابن كثير في «البداية و«النهاية» (١/ ١١٩): «. . . يحتمل أنَّ القرين من الملائكة غير القرين الموكَّل بحفظ الإنسان، وإنما هو موكَّل به؛ ليهديه ويرشده بإذن ربِّه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد، كما أنه قد وُكِّل به القرين من الشياطين، لا يألوه جهدًا في الخبال والإضلال. والمعصوم مَنْ عَصَمه الله عز وجل، وبالله المستعان» اهـ.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢٨١٥): عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلًا، قالت: «فَغرْتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: **«مالك يا عائشة؟ أغِرْتِ؟»** فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟! فقال رسول الله ﷺ: **«أقد جاءكِ شيطانُكِ؟»** قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ =

منه[١]، وكان إذا سلك فجًّا سلك فجًّا غيرَ فجِّه[٢].

وبهذا خرج الجوابُ عن السؤالِ المشهورِ، وهو: «كيفَ لا يقفُ الشيطانُ لعمرَ، بل يفرُّ منه[٣]، ومع هذا قد تفلَّتَ على النبيِّ ﷺ، وتعرضَ له وهو في الصلاةِ، وأراد أن يقطعَ عليه صلاتَه[٤]، ومعلومٌ أن حالَ الرسولِ ﷺ أكملُ وأقوى»؟.

القولُ الثاني وحججُهُ

= قال: «**نعم**»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «**نعم**»، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «**نعم، ولكنّ ربي أعانني عليه حتى أسلم**». وقوله: «**إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم**»: اختُلِف في معناه؛ للاختلاف في ضبطه:

١-فرواه جمهور الرواة بصيغة الماضي المبني على الفتح، أي: دخل في الإسلام.

٢-ورواه بعضهم بصيغة المضارع المرفوع بالضم، أي: أسلمُ أنا من شرِّه. قال ابن الجوزي في «ذمِّ الهوى» (ص/ ١٤٣): «... وجمهور الرواة يروون هذا الحديث «...**فأسلمَ**» على مذهب الفعل الماضي، يريدون: أنَّ الشيطان قد أسلمَ، إلا سفيان بن عيينة؛ فإنه يقول: «فأسلم أنا من شرِّه»، وكان يقول: «الشيطان لا يُسْلِمُ».

وهذا الذي ذهب إليه سفيان: مذهبٌ حسنٌ؛ يُظْهِرُ أثر المجاهدة، إلا أن مسلمًا قد روى في «صحيحه» -وذكر حديث ابن مسعود-، وهذا يدل على أنَّ الشيطان أسلم؛ لأنه لو لم يُسْلم لما كان يأمر بالخير، وكفى بهذا ردًّا لقول ابن عيينة» اهـ.

واختار هذا القاضي عياض في «إكمال المعلم» (١٢/ ١٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١/ ١٠١-١٠٥)، والنووي في «شرح مسلم» (١٧/ ١٥٧).

(١) في ع وك: «نَفَرَ منه».

(٢) أخرجه البخاري، رقم (٣٦٨٣)، ومسلم، رقم (٢٣٩٦): عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساءٌ من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عاليةً أصواتهنَّ، فلما استأذن عُمَرُ قُمْن يبتدرن الحجاب، فَأَذِن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سِنَّك يا رسول الله! ، فقال رسول الله ﷺ: «**عجبتُ من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلما سَمِعْن صوتك ابتدرن الحجاب**»، قال عمر: فأنت يا رسول الله أحقُّ أنْ يهبْن، ثم قال عمر: أيْ عدوَّات أنفسِهن أتهبنني ولا تهبْنَ رسول الله ﷺ؟! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قطُّ سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك**».

والفجُّ: الطريق الواسع بين جبلين، وكذا الفِجَاجُ. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٤١٢)، «القاموس» (ص/ ٢٥٧).

(٣) في ع: «بل نَفَرَ منه».

(٤) أخرجه البخاري، رقم (٤٦١)، ومسلم، رقم (٥٤١) واللفظ لمسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ عفريتًا من الجنّ جعل يفتك علي البارحة؛ ليقطع عليَّ الصلاة، وإن الله أمكنني** =

والجوابُ: ما ذكرناه، وهو أنَّ شيطانَ عمرَ كان يفرُّ منه[(١)]، فلا يقدرُ أحدُهما على قهرِ صاحبِه.

وأما الشيطانُ الذي تعرض للنبيِّ ﷺ فقد أخذه، وأسره، وجعله في قبضتِه كالأسيرِ. وأين من يهربُ منه عدوُّه فلا يظفرُ به، إلى من يظفرُ بعدوِّه، فيجعلَه في أسرِه، وتحت قبضتِه[(٢)]. فهذا، ونحوه مما احتجَّ به أربابُ هذا القولِ.

واحتجَّ أربابُ القولِ الثاني - وهم الذين رجَّحُوا مَنْ لا منازعةَ في طباعِه، ولا هوى له يغالبُه - بأن قالوا: كيف تستوي النفسُ المطمئنةُ إلى ربِّها، العاكفةُ على حبِّه، التي لا منازعةَ فيها أصلًا، ولا داعيةَ تدعوها إلى الإعراضِ عنه، والنفسُ المشغولةُ بمحاربةِ هواها[(٣)] ودواعيها وجواذِبِها؟!.

قالوا: وأيضًا ففي الزمنِ الذي يشتغلُ هذا بنفسِه، ومحاربةِ هواه وطبعِه؛ يكونُ صاحبُ النفسِ المطمئنةِ قد قطعَ مراحلَ من سيرِه، وفاز بقربٍ فات صاحبَ المحاربةِ والمنازعةِ.

قالوا: وهذا كما لو كان رجلان مسافرين في طريقٍ، فطلع على أحدِهما قاطعٌ اشتغل بدفعِه عن نفسِه، ومحاربتِه؛ ليتمكنَ من سيرِه، والآخرُ[(٤)] سائرٌ لم يعرضْ له قاطعٌ، بل هو على جادةِ سيرِه، فإن هذا يقطعُ من المسافةِ أكثرَ مما يقطعُ[(٥)] الأولُ، ويقربُ إلى الغايةِ أكثرَ من قربِه.

قالوا: وأيضًا فإن للقلبِ قوةً يسيرُ بها، فإذا صرفَ تلك القوةَ في دفعِ العوارضِ والدواعي القاطعةِ له عن السيرِ؛ اشتغل قلبُه بدفعِها عن السيرِ في زمنِ المدافعةِ.

قالوا: ولأنَّ المقصودَ بالقصدِ الأولِ إنما هو السيرُ إلى اللهِ. والاشتغالُ بدفعِ العوارضِ مقصودٌ لغيرِه.

والاشتغالُ بالمقصودِ لنفسِه أولى وأفضلُ من الاشتغالِ بالوسيلةِ.

= **منه، فذُعتُه فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون -أو كلكم- ثم ذكرتُ قولَ أخي سليمان ﷺ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: الآية ٣٥]، فرَدَّه اللهُ خاسئًا».**

(١) في ع: «كان نَفَرَ منه».
(٢) في ك وس: «وتحت يده وقبضته».
(٣) في س: «بمحاربة هواه».
(٤) في س: «وآخره».
(٥) في ع وك: «ما يقطع».

قالوا: وأيضًا فالعوارضُ المانعةُ للقلبِ من سيرِه هي[١] من بابِ المرضِ.

واجتماعُ القلبِ على اللهِ، وطمأنينتُه به، وسكونُه إليه بلا منازعٍ، ولا جاذبٍ، ولا معارضٍ هو صحتُه[٢] وحياتُه ونعيمُه.

فكيف يكون القلبُ الذي يعرضُ له مرضٌ، وهو[٣] مشغولٌ بدوائِه أفضلَ من القلبِ [الصحيحِ][٤] الذي لا داءَ به، ولا علةَ؟!.

قالوا: وأيضًا فهذهِ الدواعي والميولُ والإراداتُ التي في القلبِ تقتضي جذبَه وتعويقَه عن وجهةِ سيرِه[٥]، وما فيه من داعي المحبةِ والإيمانِ يقتضي جذبَه عن طريقِها، فتتعارضَ[٦] الجواذبُ، فإن لم توقفْه عوَّقته ولا بدَّ، فأين السيرُ بلا معوقٍ[٧] من السيرِ مع المعوقِ؟!.

قالوا: وأيضًا فالذي يُسَيِّرُ العبدَ بإذنِ ربِّه[٨] إنما هو همَّتُه.

والهمةُ إذا علتْ وارتفعتْ؛ لم تلحقْها[٩] القواطعُ والآفاتُ، كالطائرِ إذا علا وارتفعَ في الجوِّ؛ فات الرماةَ، ولم تلحقْه[١٠] الحصا، ولا البنادقُ، ولا السهامُ، وإنما تدركُ هذه الأشياءُ للطائرِ إذا لم يكنْ عاليًا.

فكذلك الهمةُ العاليةُ قد فاتتِ الجوارحَ[١١] والكواسرَ[١٢]، وإنما تلحقُ الآفاتُ والدواعي والإراداتُ الهمةَّ النازلةَ، فأمَّا إذا علتْ فلا تلحقُها الآفاتُ.

قالوا: وأيضًا فالحسُّ والوجودُ شاهدٌ بأن قلبَ المحبِّ متى خلا من غيرِ المحبوبِ، واجتمعتْ شؤونُه كلُّها على محبوبِه، ولم يبقْ فيه التفاتٌ إلى غيرِه؛ كان أكملَ محبةً من القلبِ الملتفتِ إلى الرقباءِ، المهتمِّ[١٣] بمحاربتِهم، ومدافعتِهم والهربِ منهم،

(١) في ك وس: «وهي». وهو خطأ. (٢) في س: «هو محبته». (٣) في ع: «فهو».
(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٥) في ك وس: «وجه سيره».
(٦) في س: «فتعارض». (٧) في ك: «بلا تعويق». (٨) في س: «بإذن الله».
(٩) في ك: «لم يلحقها». (١٠) في ك وس: «ولم يلحقه».
(١١) الجوارح: جمع جارحة، وهي ذوات الصيد من السباع والطير. انظر: «الصحاح» (١/ ٣١٥)، «القاموس» (ص/ ٢٧٥).
(١٢) الكواسر: جمْعُ كاسِر، وهو العقاب. انظر: «الصحاح» (٢/ ٦٨٩)، «القاموس» (ص/ ٦٠٤).
(١٣) في ك وس: «المقيم».

والتواري عنهم.

قالوا: فكم بين محبٍّ يجتازُ على الرقباءِ، فيطرقون من هيبتِه وخشيتِه، ولا يرفعُ أحدٌ منهم رأسَه إليه، وبين محبٍّ إذا اجتاز بالرقباءِ؛ هاشوا عليه كالزنابيرِ[١] أو كالكلابِ[٢]، فاشتغلَ بدفعِهم وحرابِهم، أَوْ جَدَّ[٣] في الهربِ منهم.

فكيف يُسَّوى هذا بهذا؟! أم كيف يُفَضَّلُ عليه مع هذا التباينِ؟!.

قالوا: وأيضًا فالمحبةُ الخالصةُ الصادقةُ حقيقتُها أنها نارٌ تحرقُ من القلبِ ما سوى مرادِ المحبوبِ، وإذا احترقَ ما سوى مرادِه؛ عُدِمَ وذهب أثرُه.

فإذ بقيَ في القلبِ شيءٌ من سوى مرادِه؛ لم تكنِ المحبةُ تامَّةً ولا صادقةً، بل هي محبةٌ مشوبةٌ بغيرِها، فالمحبُّ الصادقُ ليس في قلبِه سوى مرادِ محبوبِه حتى ينازعَه ويدافعَه.

والآخرُ في قلبِه بقيةٌ لغيرِ المحبوبِ، فهو جاهدٌ على إخراجِها وإعدامِها.

قالوا: وأيضًا فالوارداتُ الإلهيةُ تردُ على القلوبِ على قدرِ استعدادِها وقبولِها، فإذا صادفتِ القلبَ فارغًا خاليًا من العوارضِ والمنازعاتِ ودواعي الطبعِ والهوى؛ ملأَتْهُ على قدرِ فراغِه، وإذا امتلأَ منها؛ لم يبقْ لأضدادِها وأعدائِها فيه مسلكٌ[٤]، وإذا صادفتْ فيه موضعًا مشغولًا بغيرٍ من الأغيارِ[٥]؛ لم تساكنْ ذلك الموضعَ، فيدخلُ الضدُّ والعدُوُّ من تلك الثلمةِ، كما قال القائلُ:

لَا كَانَ مَنْ لسواكَ[٦] فيه بقيةٌ يَجِدَ السبيلَ بها إليه العذلَ[٧].

وقالَ:

ومهما بقي للصَّحوِ فيه بقيةٌ يَجِدْ نحوَكَ اللاَّحِي[٨] سبيلًا إلى العذلِ

---

(١) الزنابيرُ: جَمْعُ زِنْبَرٍ، وهو الأسد، أو جمع: زنبور، وهو ذباب لسّاع، والأول أظهر. انظر: «لسان العرب» (٤/ ٣٣١)، «القاموس» (ص/ ٥١٥).

(٢) في ك وس: «كالزنابير وكالكلاب».

(٣) في ك: «وجَدَّ».

(٤) في ع: «ملك».

(٥) في ك: «مشغولًا بغيره من الأغيار».

(٦) في ك: «لا كان لمن سواك».

(٧) العُذَّل: جمع عَذَّالٍ، وهو كثير الملامة، كـ: «العُذَّال» و«العَذَلة». انظر: «الصحاح» (٤/ ١٤٣٧)، «القاموس» (ص/ ١٣٣٢).

(٨) اللاَّحي: الشاتم. انظر: «القاموس» (ص/ ١٧١٤).

قالوا: وأيضًا فدواعي الطبعِ، وإراداتُ النفسِ وشهواتُها مصدرُها: إما جهلٌ، وإما ضعفٌ؛ فإنها لا تصدرُ إلا من جهلِ العبدِ بآثارِها وموجباتِها، أو يكونُ عالمًا بذلك[١]، لكن فيه ضعفٌ وعجزٌ يمنعُه[٢] عن محوِها من قلبِه بالكليةِ.

وما كان سببُه جهلًا أو عجزًا لا يكونُ كمالًا، ولا مستلزمًا لكمالٍ.

وأما القلبُ الخالي منها، ومن الاشتغالِ بدفعِها؛ فقلبٌ شريفٌ قويٌّ علويٌّ رفيعٌ.

قالوا: وأيضًا فهذهِ الإراداتُ والدواعي لا تُسَيِّرُ العبدَ، بل إما أن تنكِّسَه إن أجابَها، وإما أن تعوِّقَه وتوقِفَه إنِ اشتغلَ بمدافعتِها.

وأما إراداتُ القلبِ السليمِ منها، والنفسِ المطمئنةِ بربِّها: فكلُّ إرادةٍ منها تسيرُ به[٣] مراحلَ على مهلةٍ، فهو يسيرُ رويدًا، وقد سبق السعاةَ، كما قيل:

مَنْ لِي بمثلِ سَيْرِك المُذلَّلِ[٤] تمشي رويدًا وتَجِي في الأوَّلِ

قالوا: وأيضًا فإنَّ هذهِ الدواعيَ والإراداتِ إنما تُحمدُ عاقبتُها إذا ردَّتْ صاحبَها إلى حالِ السليمِ منها، فيكونُ كمالُه في تشبُّهِهِ به[٥]، وسيرِه معه، فكيف يكونُ أكملَ ممن كمالُه إنما هو في تشبهِهِ به؟![٦].

قالوا: وأيضًا فالنفوسُ ثلاثةٌ: أمارةٌ، ولوامةٌ، ومطمئنةٌ.

والنفسُ الأمارةُ: هي المطيعةُ لدواعي طبعِها[٧] وشهواتِها، فمبادئُ كونِها أمَّارةً هي تلك الدواعي والإراداتُ، فتستحكمُ فتصيرَ عزماتٍ، ثم توجبَ الأفعالَ، فمبدأُ صفةِ الذمِّ فيها تلك الدواعي.

وأمَّا النفسُ المطمئنةُ: فهي التي عُدِمتْ هذهِ المبادئَ، فعُدِمت غاياتِها، فكيف تكونُ مبادئُ النفسِ الأمارةِ مما يوجبُ لها مزيةً على النفسِ المطمئنةِ؟!.

فهذا ونحوه مما احتجتْ به هذهِ الطائفةُ أيضًا لقولِها.

الفصلُ بين القولين

والحقُّ: أن كِلا الطائِفَتين على صوابٍ من القولِ، لكنْ كلُّ فرقةٍ لحظَتْ غيرَ

---

(١) في ك: «في ذلك». (٢) في س: «مَنَعَهُ». (٣) في "تسير بها".

(٤) في س: «المُدَلَّل»-بالدال المهملة. (٥) في ك وس: «في تشبيهه به».

(٦) في ك: «فكيف يكون أكمل مَنْ كماله إنما هو في تشبيهه به»، وفي س: «فكيف يكون أكمل ممن كماله إنما هو في تشبيهه به».

(٧) في ع: «طباعها».

بيانُ ما تقدم بمسألةٍ أخرى وهي: إذا كانَ للعبد حالٌ أو مقامٌ ثم نزلَ عنه إلى ذنبٍ ثم تابَ منه: هل يعودُ إلى مثلِ ما كان أو أنقصَ أو أكملَ؟

ملحظِ[١] الفرقةِ الأخرى؛ فكأنهما لم يتواردا على محلٍّ واحدٍ، بل الفرقةُ الأولى نظرتْ إلى نهايةِ سيرِ المجاهدِ لنفسِهِ وإراداتِهِ[٢]، وما ترتَّب له عليها من الأحوالِ والمقاماتِ[٣]، فأوجبَ لها شهودُ نهايتِهِ رجحانَه، فحكمت بترجيحِهِ، واستحلَّتْ بتفضيلِهِ.

والفرقةُ الثانيةُ نظرتْ إلى بدايتِهِ في شأنِهِ ذلك، ونهايةِ النفسِ المطمئنةِ، فأوجبَ لها شهودُ الأمرين الحُكْمَ بترجيحِ القلبِ الخالي من تلك الدواعي ومجاهدتِها.

وكلُّ واحدةٍ[٤] من الطائفتين فقد أدلتْ بحججٍ لا تُمانَعُ، وأتتْ ببيناتٍ لا تُرَدُّ، ولا تُدَافعُ.

وفَصْلُ الخطابِ[٥] في هذهِ المسألةِ يظهرُ بمسألةٍ ترتضعُ معها من لبانِها[٦]، وتخرجُ[٧] من مشكاتِها، وهي أن العبدَ إذا كانَ له حالٌ أو مقامٌ مع اللهِ، ثم نزلَ عنه إلى ذنبٍ ارتكَبَهُ، ثم تابَ من ذنبِهِ: هل يعودُ إلى مثلِ ما كان؟ أو لا يعودُ؛ بل إن رجعَ رجعَ إلى أنزلَ مِنْ مقامِهِ وأنقصَ من رتبتِهِ؟ أو يعودُ خيرًا مما كان؟.

فقالتْ طائفةٌ: يعودُ بالتوبةِ إلى مثلِ حالِهِ الأولى[٨]؛ فإن: **«التائبَ من الذنبِ كمنْ لا ذنبَ له»**[٩]، وإذا مُحِيَ أثرُ الذنبِ بالتوبةِ؛ صارَ وجودُه كعدمِهِ. . . . .

(١) في ك: «غير ما لحظ». (٢) في س: «نظرت إلى نهاية خير المجاهدة لنفسه وإرادته».

(٣) تقدم معنى: «الأحوال» و«المقامات». (٤) في ك: «وكل واحدٍ».

(٥) فصل الخطاب: هو «تلخيص الكلام بحيث لا يشتبه على السامع ما أُريد به»، وقد يجعل بمعنى المفعول، أي: المفصول من الخطاب الذي يبينه المخاطِبُ، أو بمنعى الفاعل، أي: الفاصل من الخطاب بين الأمرين المشتبهين. انظر: «الكليات» (ص/ ٦٨٧) لأبي البقاء.

(٦) اللَّبانُ -بالفتح-: الصَّدْر، أو وسطه، أو ما بين الثديين، وبالكسر: الرَّضاعُ. انظر: «الصحاح» (٥/ ١٧٥٨)، «القاموس» (ص/ ١٥٨٦).

(٧) في س: «ويخرج». (٨) في ع: «الأوَّل».

(٩) أخرجه ابن ماجه في «سننه»، رقم (٤٢٥٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٥٠)، رقم (١٠٢٨١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢١٠)، قال في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٠): «ورجاله رجال الصحيح؛ إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه» اهـ، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٢): «. . . ورواة الطبراني رواة الصحيح» اهـ، وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص/ ١٥٢): «رجاله ثقات، بل حسنّه شيخنا -أي: ابن حجر-يعني: لشواهده، وإلا فأبوعبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع من أبيه» اهـ. ثم =

فكأنه[١] لَم يكنْ، فيعودُ إلى مثلِ حالِه.

قالوا: ولأن التوبةَ هي الرجوعُ إلى اللهِ بعدَ الإباقِ منه[٢]؛ فإنَّ المعصيةَ إباقُ العبدِ من ربِّه، فإذا تابَ إلى اللهِ؛ فقد رجعَ إليه.

وإذا كان مسمَّى التوبةِ هو[٣] الرجوعَ، فلو لم يعدْ إلى حالتِه الأُولى مع اللهِ؛ لم تكنْ توبتُه تامَّةً. والكلامُ إنما هو في التوبةِ النصوحِ.

قالوا: ولأنَّ التوبةَ كما ترفعُ أثرَ الذنبِ في الحالِ بالإقلاعِ عنه، وفي المستقبلِ بالعزمِ على أن لا يعودَ: فكذلك ترفعُ أثرَه في الماضي جملةً.

ومن أثرِه في الماضي انحطاطُ منزلتِه عند اللهِ، ونقصانِه عنده، فلا بدَّ من ارتفاعِ هذا الأثرِ بالتوبةِ، وإذا ارتفع بها عادَ إلى مثلِ حالِه.

قالوا: ولأنه لو بَقِيَ نازلًا من مرتبتِه، منحطًّا عن منزلتِه بعد التوبةِ كما كانَ قبلَها؛ لم تكنِ التوبةُ قد محتْ أثرَ الذنبِ، ولا أفادتْ في الماضي شيئًا.

وإن عاد إلى دونِ منزلتِه، ولم يبلغْها[٤] فبلوغُه تلك الدرجةَ إنما كان بالتوبةِ، فلو ضَعُفَ تأثيرُ التوبةِ عن إعادتِه إلى منزلتِه الأُولى لضعفٍ عن تبليغِه تلك المنزلةَ التي وصل إليها، وإن لم تكنِ التوبةُ ضعيفةَ التأثيرِ عن تبليغِه تلك المنزلةَ؛ لم تكن ضعيفةَ التأثيرِ عن إعادتِه إلى المنزلةِ الأُولى.

قالوا: وأيضًا فاللهُ سبحانَه[٥] ربطَ الجزاءَ بالأعمالِ ربطَ الأسبابِ بمسبباتِها، فالجزاءُ من جنسِ العملِ، فكما رجع التائبُ إلى اللهِ بقلبِه رجوعًا تامًّا، رجع اللهُ عليه بمنزلتِه وحالِه، بل ما رجعَ العبدُ إلى اللهِ تعالى حتى رجعَ اللهُ بقلبِه إليه أولًا، فرجع

= ذكر شواهده، وانظر: «فيض القدير» (٣/ ٢٧٦)، وحسنه أيضًا الألباني كما في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤١٨)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١/ ٤١٠)، تحت حديث رقم (٦١٥)، (٦١٦).

(١) في ع: «وكَأَنَّهُ».

(٢) الإبَاقُ والأبْقُ والأَبَق -بالسكون والتحريك-: الذِّهاب والشرود، يقال: «أَبَقَ العبدُ، كـ«سَمع» و«ضَرَب» و«منع»: إذا ذهب بلا خوف ولا كَدِّ عَمَلٍ، أو استخفى ثم ذهب، فهو آبِقٌ وأبوقٌ، والجَمْعُ أُبَّاقٌ وأُبَّقٌ. انظر: «الصحاح» (٤/ ١١٩٥)، «القاموس» (ص/ ١١١٦).

(٣) في ع: «هي».

(٤) في س: «ولم تبلغها».

(٥) في ع: «فإنَّ الله سبحانه».

اللهُ، وتاب عليه ثانيًا[١]، فتوبةُ العبدِ محفوفةٌ بتوبتين من اللهِ: توبةٍ منه إذنًا وتمكينًا؛ فتاب بها العبدُ، وتاب اللهُ عليه قبولًا ورِضىً، فتوبةُ العبدِ بين توبتين من اللهِ.

وهذا يدلُّ على عنايتِه سبحانه وبرِّهِ ولطفِه بعبدِه التائبِ. فكيف يقالُ: إنه لا يعيدُه مع هذا اللطفِ والبرِّ[٢] إلى حالِه؟!.

قالوا: وأيضًا فإنَّ التوبةَ من أجلِّ الطاعاتِ وأوجبِها[٣] على المؤمنين، وأعظمِها غناءً عنهم، وهم إليها أحوجُ من كلِّ شيءٍ، وهي من أحبِّ الطاعاتِ إلى اللهِ سبحانه؛ فإنه يحبُّ التوابين، ويفرحُ بتوبةِ عبدِه إذا تاب إليه أعظمَ فرحٍ وأكملَه.

وإذا كانت بهذِهِ المثابةِ؛ فالآتي بها آتٍ بما هو من أفضلِ القرباتِ وأجلِّ الطاعاتِ.

فإذا كان قد حصلَ له بالمعصيةِ انحطاطٌ ونزولُ مرتبةٍ؛ فبالتوبةِ يحصلُ له[٤] مزيدُ تقدمٍ وعلوِّ درجةٍ، فإن لم تكنْ درجتُه بعدَ التوبةِ أعلى فإنَّها لا تكونُ أنزلَ.

قالوا: وأيضًا فإنا إذا قابلنا بين جنايةِ المعصيةِ، والتقربِ بالتوبةِ؛ وجدْنَا الأثرَ الحاصلَ من التوبةِ أرجحَ من الأثرِ الحاصلِ من المعصيةِ، والكلامُ إنما هو في التوبةِ النصوحِ الكاملةِ.

وجانبُ الفضلِ أرجحُ من جانبِ العدلِ، ولهذا كان جانبُ العدلِ آحادًا بآحادٍ، وجانبُ الفضلِ آحادًا بعشراتٍ إلى سبعمائةٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وهذا يدلُّ على رجحانِ جانبِ الفضلِ وغلبتِه، وكذلك مصدرُهما من الغضبِ والرحمةِ؛ فإنَّ رحمةَ الربِّ تعالى تغلِبُ غضبَه[٥].

---

(١) في باقي النسخ: «فرجع الله إليه، وتاب عليه ثانيًا».

(٢) في ع: «مع هذا اللطف الأكبر»!.

(٣) في س: «من أجل الطاعات وواجباتها».

(٤) في ك: «ونزول مرتبته، فالتوبة تحصُل له».

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٢)، (٢٥٨)، (٢٦٠)، (٢٩٣)، (٣٥٨)، (٣٨١)، (٣٩٧)، (٤٣٣)، (٤٦٦)، والبخاري، رقم (٣١٩٤)، ومسلم، رقم (٢٧٥١): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما قضى الله -في لفظ: «لما خلق الله»- الخلق كتب في كتابٍ فهو عنده فوق العرش: «إن رحمتي غلبت غضبي»**.

وفي لفظ: **«سبقت غضبي»**.

قالوا: وأيضًا فالذنبُ بمنزلةِ المرضِ، والتوبةُ بمنزلةِ العافيةِ، والعبدُ إذا مَرِضَ ثم عُوفي وتكاملَتْ عافيتُه؛ رجعتْ صحتُه إلى ما كانتْ، بل ربما يرجعُ[١] أقوى وأكملَ مما كانت عليه؛ لأنه رُبما كان معه في حالِ العافيةِ آلامٌ وأسقامٌ كامنةٌ[٢]، فإذا اعتلَّ؛ ظهرتْ تلك الأسقامُ، ثم زالتْ بالعافيةِ جملةً، فتعودُ قوتُه خيرًا مما كانت وأكملَ.

وفي مثلِ هذا قال الشاعرُ:

لَعَلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبه ... ورُبَّمَا صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ[٣]

القولُ الثاني وحججُهُ

وهذا الوجهُ هو أحدُ ما احتجَّ به من قال: «إنه يعودُ[٤] خيرًا مما كان قبلَ التوبةِ».

واحتَجُّوا لقولِهم[٥] أيضًا بأنَّ التوبةَ تُثْمِرُ للعبدِ محبةً من اللهِ خاصةً، لا تحصلُ بدونِ التوبةِ، بلِ التوبةُ شرطٌ في حصولِها، وإن حَصَلَ له محبةٌ أخرى بغيرِها من الطاعاتِ؛ فالمحبةُ الحاصلةُ [له][٦] بالتوبةِ لا تُنَالُ بغيرِها؛ فإنَّ اللهَ يحبُّ التوابين، ومن محبتِه لهم[٧] فرحُهُ بتوبةِ أحدِهم أعظمَ فرحٍ وأكملَه.

فإذا أثمرتْ له التوبةُ هذهِ المحبةَ، ورجَعَ بِهَا إلى طاعاتِه[٨] التي كانَ عليها أولًا؛ انضم أثرُها إلى أثرِ تلك الطاعاتِ، فقوي الأثران، فحصل له المزيدُ من القربِ والوسيلةِ.

وهذا بخلافِ ما يظنُّه من نقصتْ معرفتُه بربِّه من أنه سبحانَه إذا غَفَرَ لعبدِه ذنبَه؛ فإنَّهُ لا يعودُ[٩] الودُّ الذي كان له منه قبلَ الجنايةِ.

واحتجُّوا في ذلك بأثرٍ إسرائيليٍّ مكذوبٍ: أنَّ اللهَ سبحانَه قال لداودَ: «يا داودُ، أمَّا الذنبُ فقد غفرناه، وأمَّا الودُّ فلا يعودُ»[١٠]؛ وهذا كذبٌ قطعًا؛ فإن الودَّ يعودُ بعد

---

(١) في ع: «تَرْجع».
(٢) انظر معنى: «الكامنة» (ص/ ٣٢٤).
(٣) لم أجده.
(٤) في ك: «إنه يعود بالتوبة».
(٥) أي: الذين قالوا: «إنه يعود خيرًا مما كان قبل التوبة».
(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.
(٧) في س: «له».
(٨) في س: «طاعته».
(٩) في ع: «لا يعود له».
(١٠) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠٤): «... وما يذكر في الإسرائيليات: «إنَّ الله قال لداود: أما الذنب فقد غفرناه، وأما الود فلا يعود»: فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعًا لنا، وليس لنا أن نبني ديننا على هذا؛ فإنَّ دين محمد ﷺ في التوبة جاء بما لم يجئ به شرع مَنْ قبله، ولهذا قال: «**أنا نبي الرحمة، وأنا نبي التوبة**»، وقد رفع به من الآصار والأغلال ما كان على مَن قبلنا، وقد قال تعالى في =

التوبةِ النصوحِ أعظمَ مما كان؛ فإنه(١) سبحانَه يحبُّ التوابين، ولو لم يعدِ الودُّ؛ لما حصلتْ لهم محبَّتُه(٢).

وأيضًا فإنه يفرحُ بتوبةِ التائبِ، ومُحَالٌ أن يفرحَ بها أعظمَ فرحٍ وأكملَه وهو لا يحبُّه.

وتأمَّلْ سرَّ اقترانِ هذين الاسمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٣، ١٤]؛ تجدْ فيه من الردِّ والإنكارِ على مَنْ قال: «لا يعودُ الودُّ والمحبةُ منه لعبدِه أبدًا» ما هو من كنوزِ القرآنِ، ولطائفِ فهمِه، وفي ذلك ما يهيجُ القلبَ السليمَ، ويأخذُ بمجامعِه، ويجعلُه عاكفًا على ربِّه الذي لا إلهَ له غيرُه، ولا ربَّ [له](٣) سواه عُكُوفَ المحبِّ الصادقِ على محبوبِه الذي لا غِنَى له عنه، ولا بدَّ له منه، ولا تندفعُ ضرورتُه بغيرِه أبدًا(٤).

واحتجوا أيضًا بأنَّ العبدُ قد يكونُ بعد التوبةِ خيرًا منه قبلَ الخطيئةِ؛ لأن الذنبَ يُحْدِثُ له من الخوفِ والخشيةِ والانكسارِ والتذللِ للهِ، والتضرعِ بين يديهِ، والبكاءِ على خطيئتِه، والندمِ عليها، والأسفِ والإشفاقِ - ما هو مِنْ أفضلِ أحوالِ العبدِ، وأنفعِها له في دنياه وآخرتِه.

ولم تكنْ هذهِ الأمورُ لتحصلَ بدونِ أسبابِها؛ إذ حصولُ الملزومِ بدونِ لازمِه مُحَالٌ.

واللهُ تعالى يحبُّ من عبدِه كسرتَه وتضرُّعَه وذلَّه بين يديهِ، واستعطافَه وسؤالَه أن يعفوَ عنه، ويغفرَ له، ويتجاوزَ عن جرمِه وخطيئتِه.

فإذا قضى عليه بالذنبِ فترتبتَ عليه هذهِ الآثارُ المحبوبةُ له؛ كان ذلك القضاءُ خيرًا

= كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢]، وأخبر أنه -تعالى- يفرح بتوبة عبده التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد اليأس، فإذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب، وتلك محبته؛ كيف يقال: «إنه لا يعود لمودته»؛ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤- ١٦]» اهـ.

(١) في ك: «فإنَّ الله سبحانه». (٢) في س: «حصلت له محبته»، وفي ك: «حصلت لهم محبة».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٤) قال المؤلف في «التبيان في أقسام القرآن» (ص/ ٦٠): «. . . وما ألطف اقتران اسم: «الودود» بـ«الرحيم» وبـ: «الغفور»؛ فإنَّ الرجل قد يغفر لمَن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم مَن لا يحب، والرب -تعالى- يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك؛ فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان» اهـ.

له، وليس ذلك إلا للمؤمنِ، ولهذا قال بعضُ السلفِ: «لو لم تكنِ التوبةُ أحبَّ الأشياءِ إليه؛ لما ابتَلَى بالذنبِ أكرمَ الخلقِ عليه»، وقيل: «إنَّ في بعضِ الآثارِ يقولُ اللهُ تعالى لداودَ: «يا داودُ كنتَ تدخلُ عليَّ دخولَ الملوكِ على الملوكِ، واليومَ تدخلُ عليَّ دخولَ العبيدِ على الملوكِ»[(١)].

قالوا: وقد قال غيرُ واحدٍ من السلفِ: «كان داودُ بعدَ التوبةِ خيرًا منه قبلَ الخطيئةِ».

قالوا: ولهذا قال سبحانَه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: الآية ٢٥]، فزاده على المغفرةِ أمرين: **الزلفى**: وهي درجةُ القربِ منه، وقد قال فيها سلفُ الأمَّةِ وأئمتُها ما لا تحتملُه عقولُ الجهميةِ وفراخُهم، ومن أراد معرفتَها فعليه بتفاسيرِ السلفِ. **والثاني حسنُ المآبِ**: وهو حسنُ المنقلبِ، وطيبُ المأوى عندَ اللهِ.

قالوا: ومن تأملَ زيادةَ القربِ التي أُعْطِيها داودُ بعدَ المغفرةِ؛ عَلِمَ صحةَ ما قلنا، وأنَّ العبدَ بعد التوبةِ يعودُ[(٢)] خيرًا مما كان.

قالوا: وأيضًا فإنَّ للعبوديةِ لوازمَ وأحكامًا وأسرارًا وكمالاتٍ لا تحصلُ إلا بها، ومن جملتِها تكميلُ مقامِ الذلِّ للعزيزِ الرحيمِ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه يحبُّ من عبدِه أن يكملَ مقامَ الذلِّ له، وهذا هو حقيقةُ العبوديةِ، واشتقاقُها يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ العربَ تقولُ: «طريقٌ مُعَبَّدٌ»، أي: مذلَّلٌ بوطءِ الأقدامِ[(٣)]. **والذلُّ أنواعٌ**:

أكملُها: ذلُّ المحبِّ لمحبوبِه.

الثاني: ذلُّ المملوكِ لمالكِه.

الثالثُ: ذلُّ الجاني بين يديِ المنعمِ عليه، المحسنِ إليه، المالكِ له.

الرابعُ: ذلُّ العاجزِ عن جميعِ مصالحِه وحاجاتِه بين يديِ القادرِ عليها، التي هي في يدِه وبأمرِه، وتحت هذا قسمان:

أحدُهما: ذلُّه له في أن يجلبَ له[(٤)] ما ينفعُه.

---

(١) لم أجده.

(٢) في س: «وأنَّ العبد بعد التوبة يعود بعد التوبة»!.

(٣) انظر: «لسان العرب» (٣/ ٢٧٠)، «الصحاح» (٢/ ٤٣٨)، «القاموس» (ص/ ٣٧٨)، «مدارج السالكين» (١/ ١١٨).

(٤) في س: «ذُلُّه له بأنْ يجلب له».

والثاني: ذلُّه له في أن يدفعَ عنه ما يضرُّه على الدوامِ، ويدخلُ في هذا ذلُّ المصائبِ كالفقرِ والمرضِ وأنواعِ البلاءِ والمِحَنِ.

فهذه خمسةُ أنواعٍ من الذلِّ، إذا وفَّاهَا العبدُ حقَّها، وشَهِدَهَا كما ينبغي، وعَرِفَ ما يرادُ منه(١)، وقامَ بين يدي ربِّه مستصحبًا لها، شاهدًا لذلِّهِ من كلِّ وجهٍ، ولعزةِ ربِّه وعظمتِه وجلالِه؛ كانت قليلُ أعمالِه قائمةً مقامَ الكثيرِ من أعمالِ غيرِه.

قالوا: وهذهِ أسرارٌ لا تُدركُ بمجردِ الكلامِ، فمن لا نصيبَ له منها فلا يضرُّه أن يُخليَ المطيَّ وحادِيَها، ويُعطي القوسَ باريها:

فللكثافةِ أقوامٌ لها خُلِقُوا وللمحبَّةِ أكبادٌ وأجفانُ(٢)

قالوا: وأيضًا فقد(٣) ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**للهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه من أحدِكم أضلَّ راحلتَه**»(٤).

---

(١) في س: «وعرف ما يراد به منه».

(٢) لم أجده. (٣) في ك: «قد».

(٤) أخرجه مسلم، رقم (٢٦٧٥)، والترمذي، رقم (٣٥٣٨)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (٤٢٤٧). وأخرجه البخاري، رقم (٦٣٠٩)، ومسلم، رقم (٤٧٤٧): عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره، قد أضله بأرض فلاة**»، ولفظ مسلم: «**إذا استيقظ على بعيره**».

قال النووي في «شرح مسلم» (١٧/ ٦٣): «... هكذا هو في جميع النسخ: «**إذا استيقظ على بعيره**»، وكذا قال القاضي عياض: إنه اتفقت عليه رواة صحيح مسلم. قال: قال بعضهم: وهو وهم، وصوابه: «**إذا سقط على بعيره**» أي: وقع عليه وصادفه من غير قصد. قال القاضي: وقد جاء في الحديث الآخر عن ابن مسعود: «**قال: فأرجع إلى المكان الذي كنتُ فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته...**»، وفي كتاب البخاري: «**فنام نومة فرفع رأسه، فإذا راحلته عنده**». قال القاضي: وهذا يصحح رواية: «**استيقظ**». قال: ولكن وجه الكلام وسياقه يدل على: «**سقط**» كما رواه البخاري» اهـ.

وأخرج البخاري في «صحيحه» -الموضع السابق- رقم (٦٣٠٨)، ومسلم في «صحيحه» -الموضع السابق- رقم (٢٧٤٤): عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوِّيَّة مَهْلَكَة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**» واللفظ لمسلم.

وأخرج مسلم في «صحيحه» -الموضع السابق- رقم (٢٧٤٧): عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: =

قالوا: وهذا أعظمُ ما يكونُ من الفرحِ وأكملُه، فإنَّ صاحبَ هذه الراحلةِ كان عليها مادةُ حياتِه من الطعامِ والشرابِ، وهي مركبُه الذي يقطعُ به مسافةَ سفرِه، فلو عُدِمَهُ؛ لانقطع في طريقِه، فكيف إذا عُدِمَ مع مركبِه طعامَه[(١)] وشرابَه؟!.

ثم إنه عُدِمها في أرضٍ دَوِيَّةٍ، لا أنيسَ بها ولا معينَ، ولا من يأوي له، ويرحمُه، ويحملُه.

ثم إنها مَهْلَكَةٌ، لا ماءَ بها ولا طعامَ. فلما أيسَ من الحياةِ بفقدِها، وجلسَ ينتظرُ الموتَ؛ إذا هو[(٢)] براحلتِه قد أشرفَتْ عليه، ودنَتْ منه. فأيُّ فرحةٍ تعدلُ فرحةَ هذا؟ ولو كان في الوجودِ فرحٌ أعظمُ من هذا؛ لمثَّلَ به النبيُّ ﷺ. ومع هذا ففرحُ[(٣)] اللهِ بتوبةِ عبدِه إذا تاب إليه أعظمُ من فرحِ هذا براحلتِه.

وتحت هذا سرٌّ عظيمٌ، يختصُّ اللهُ بفهمِه من يشاءُ، فإن كنتَ ممن غلظَ حجابُه، وكثفَتْ نفسُه وطباعُه؛ فعليك بوادِي الحَمْقَى، وهو وادي المُحَرِّفِينَ للكلمِ عن مواضعِه، الواضِعِينَ له على غيرِ المرادِ منه، فهو وادٍ قد سلكَهُ خلقٌ[(٤)]، وتفرَّقُوا في شعابِه وطرقِه ومتاهاتِه، ولم تستقرْ[(٥)] لهم فيه قدمٌ، ولا لجؤُوا منه إلى ركنٍ وثيقٍ، بلْ هم [فيه][(٦)] كحاطبِ الليلِ[(٧)]، وحاطبِ السيلِ[(٨)].

وإن[(٩)] نَجَّاك اللهُ من هذا الوادي؛ فتأملْ هذهِ الألفاظَ النبويةَ المعصومةَ التي مقصودُ المتكلمِ بها غايةُ البيانِ[(١٠)]، مع مصدرِها عن كمالِ العلمِ باللهِ، وكمالِ النصيحةِ للأمَّةِ.

= **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».**

(١) في ك: «مركبه وطعامه». (٢) في س: «إذْ هو». (٣) في ك: «يفرح».

(٤) في س: «خلقٌ كثير». (٥) في ك وس: «ولم يستقر».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٧) في ع: «كحاطب ليلٍ».

(٨) في باقي النسخ: «وحاطم السيل». (٩) في ع: «فإنْ».

(١٠) وبيان الرسول ﷺ على وجهين:

الأول: بيان بالأدلة العقلية الدالة على الأمور الإلهية، والمعارف الدينية. **والثاني**: بيان بالخبر المجرد. انظر: «الفرقان بين الحق والباطل» ضمن: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٣٦).

ومع هذهِ المقاماتِ الثلاثةِ - أعني: كمالَ بيانِ المتكلمِ، وفصاحتِهِ، وحسنِ تعبيرِه عن المعاني، وكمالَ معرفتِه وعلمِهِ بما يعبرُ عنه، وكمالَ نصحِه وإرادتِه لهدايةِ الخلائقِ: يستحيلُ عليه أن يخاطبَهم بشيءٍ، وهو لا يريدُ منهم ما يدلُّ عليه خطابُه[١]، بل يريدُ منه[٢] أمرًا بعيدًا عن ذلك الخطابِ، إنما يدلُّ عليه كدلالةِ الألغازِ والأحاجي مع قدرتِه على التعبيرِ عن ذلك المعنى بأحسنِ عبارةٍ[٣] وأوجزِها، فكيف يليقُ به أن يعدلَ عن مقتضى البيانِ الرافعِ للإشكالِ، المزيلِ للإجمالِ، ويُوقِعُ الأمةَ في أوديةِ التأويلاتِ، وشعابِ الاحتمالاتِ والتجويزاتِ؟!.

سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ.

وهل قدَّر الرسولَ ﷺ حقَّ قدرِه، [أو مرسلَه حقَّ قدرِه][٤] من نسبِ كلامِه سبحانه أو كلامَ رسولِه إلى مثلِ ذلك؟!

ففصاحةُ الرسولِ ﷺ، وبيانُه وعلمُه ومعرفتُه ونصحُه وشفقتُه تحيلُ عليه[٥] أن يكونَ مرادُه من كلامِه ما يحملُه عليه المُحَرِّفون للكلمِ[٦] عن مواضعِه، المتأوِّلُون له على غيرِ تأويلِه، وأن يكونَ كلامُه من جنسِ الألغازِ والأحاجي، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين[٧].

---

(١) في ك: «ما يدل على خطابه». (٢) في ع: «بل يريد منهم». (٣) في ع: «بأيسر عبارة».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س. (٥) في ع: «عليهم». (٦) في ع: «المحرِّفون الكلمَ».

(٧) عقد المؤلف في «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٢٠-٣٢٩) فصلًا في «بيان أنه مع كمال علم المتكلم، وفصاحته، وبيانه، ونصحه يمتنع عليه أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته...»، وساق فيه مناظرة جرت بين شيخه: عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (ت (٧٢٧)هـ) -أخي شيخ الإسلام- وبين بعض الجهمية، وأخرى بينه وبين بعض أهل الكتاب. وجاء في المناظرة الأولى: «... ومن أبين المحال، وأوضح الضلال حمل ذلك كله على خلاف حقيقته وظاهره، ودعوى المجاز فيه والاستعارة، وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين، وأن تأويلاتهم هي المرادة من هذه النصوص؛ إذ يلزم من ذلك أحد محاذير ثلاثة لابد منها أو من بعضها، وهي: القدح في علم المتكلم بها، أو في بيانه، أو في نصحه. وتقرير ذلك أن يقال: إما أن يكون المتكلم بهذه النصوص عالمًا أن الحق في تأويلات النفاة المعطلين، أو لا يعلم ذلك، فإن لم يعلم ذلك، -والحق فيها- كان ذلك قدحًا في علمه.

وإن كان عالمًا أن الحق فيها فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على التعبير بعباراتهم التي هي تنزيه لله بزعمهم عن التشبيه والتمثيل والتجسيم، أو لا يكون قادرًا على تلك العبارات.

فإن لم يكن قادرًا على التعبير بذلك لزم القدح في فصاحته، وكان ورثة الصابئة وأفراخ الفلاسفة =

فإن قلت: فهل من مسلكٍ غيرِ هذا الوادي الذي ذممتَه، فيُسْلَكَ فيه[١]، أو من طريقٍ يستقيمُ عليه السالكُ؟.

الطريقةُ الصحيحةُ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ وأصلُ الضلالِ فيه

قلت: نعمْ - بحمدِ اللهِ - [الطريقُ][٢] واضحةُ المنارِ، بَيِّنَةُ الأعلامِ، مضيئةٌ للسالكين، وأولُها أن تحذفَ خصائصَ المخلوقين عن إضافتِها إلى صفاتِ ربِّ العالمين، فإنَّ هذهِ العُقْدَةَ هي أصلُ بلاءِ الناسِ، فمَنْ حلَّها؛ فما بعدَها أيسرُ منها، ومَنْ هلكَ بها؛ فما بعدَها أشدُّ منها، وهل نفى أحدٌ ما نفى من صفاتِ الربِّ تعالى، ونعوتِ جلالِه[٣] إلا لسبقِ نظرِه الضعيفِ إليها، واحتجابِه بها عن أصلِ الصفةِ، وتجردِها عن خصائصِ المحدثِ؛ فإنَّ الصفةَ يلزمُها لوازمُ باختلافِ محلِّها، فيظنُّ القاصرُ[٤] إذا رأى ذلك اللازمَ في المحلِّ المحدثِ أنه لازمٌ لتلك الصفةِ مطلقًا، فهو يفرُّ من إثباتِها للخالقِ سبحانه حيثُ لم تتجردْ في ظنِّه عن ذلك اللازمِ.

وهذا كما فعلَ مَنْ نَفَى عنه سبحانه الفرحَ والمحبةَ والرضى والغضبَ والكراهةَ والمقتَ والبغضَ، وردَّها كلَّها إلى الإرادةِ؛ فإنه فَهِمَ فرحًا مستلزمًا لخصائصِ المخلوقِ من انبساطِ دمِّ القلبِ، وحصولِ ما ينفعُه، وكذلك فَهِمَ غضبًا هو غليانُ دمِّ القلبِ؛ طلبًا للانتقامِ[٥]، وكذلك فَهِمَ محبةً ورضىً وكراهةً ورحمةً مقرونةً بخصائصِ المخلوقين، فإن ذلك هو السابقُ إلى فهمِه، وهو المشهودُ في علمِه الذي لم تصلْ معرفتُه إلى سواه، ولم يُحِطْ علمُه بغيرِه.

ولما كان ذلك هو السابقَ إلى فهمِه؛ لم يجدْ بُدًّا من نفيِهِ عن الخالقِ تعالى، والصفةُ لم تتجردْ في عقلِه عن هذا اللازمِ، فلم يجدْ بُدًّا من نفيِهَا.

ثم لأصحابِ هذهِ الطريقِ مسلكان:

أحدُهما: مسلكُ التناقضِ البَيِّنِ، وهو إثباتُ كثيرٍ من الصفاتِ، ولا يلتفتُ فيها إلى

= وأوقاح المعتزلة والجهمية وتلامذة الملاحدة أفصح منه، وإن كان قادرًا على ذلك، ولم يتكلم به، وتكلم دائمًا بخلافه وما يناقضه كان ذلك قدحًا في نصحه» اهـ باختصار.

(١) في ك وس: «فنسلك فيه». (٢) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٣) في ك: «أو نعوت جلاله». وقد تقدم معنى: «الصفات» و«النعوت» (ص/١٢٧).

(٤) في ع: «العاجز».

(٥) مع أن غليان دم القلب طلبًا للانتقام ليس بلازمٍ للغضب في حق المخلوق، بل قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده، فلا يكون هنا انتقام أصلًا. انظر: «الأكملية» ضمن: «مجموع الفتاوى» (٦/ ١١٩).

هذا الخيالِ، بل يُثبتُها مجردةً عن خصائصِ المخلوقِ كالعلمِ والقدرةِ والإرادةِ والسمعِ والبصرِ وغيرها.

فإن كان إثباتُ تلك الصفاتِ التي نفاها يستلزمُ[١] المحذورَ الذي فرَّ منه؛ فكيف لم يستلزمْه إثباتُ ما أثبته؟![٢].

وإن كان إثباتُ ما أثبته لا يستلزمُ محذورًا؛ فكيف يستلزمُه إثباتُ ما نفاه؟![٣].

وهل في التناقضِ أعجبُ من هذا؟!.

والمسلكُ الثاني: مسلكُ النفي العامِّ، والتعطيلِ المحضِ؛ هربًا من التناقضِ، والتزامًا لأعظمِ الباطلِ، وأمحلِ المحالِ.

فإذن الحقُّ المحضُ في الإثباتِ المحضِ الذي أثبتَه اللهُ تعالى لنفسِه في كلامِه، وعلى لسانِ رسولِه من غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، ومن غيرِ تحريفٍ ولا تبديلٍ.

ومنشأُ غلطِ المحرِّفين إنما هو ظنُّهم أن ما يلزمُ الصفةَ في المحلِّ المعينِ يلزمُها لذاتِها، فينفون ذلك اللازمَ عن اللهِ تعالى، فيضطرُّونَ في نفيِهِ إلى نفيِ الصفةِ. ولا ريبَ أن الأمورَ ثلاثةٌ:

- أمرٌ يلزمُ الصفةَ لذاتِها من حيثُ هي، فهذا لا يجبُ - بل لا يجوزُ - نفيُه، كما يلزمُ العلمَ والسمعَ والبصرَ من تعلقِها بمعلومٍ ومسموعٍ ومبصرٍ، فلا يجوزُ نفيُ هذهِ التعلقاتِ عن هذهِ الصفاتِ؛ إذ لا تحققَ لها بدونِها.

وكذلك الإرادةُ - مثلًا - تستلزمُ العلمَ لذاتِها، فلا يجوزُ نفيُ لازمِها عنها، وكذلك السمعُ والبصرُ والعلمُ تستلزمُ الحياةَ، فلا يجوزُ نفيُ لوازمِها، وكذلك كونُ المرئي مرئيًّا حقيقةً له لوازمُ لا ينفكُ عنها، ولاسبيلَ إلى نفيِ تلك اللوازمِ إلا بنفيِ الرؤيةِ، وكذلك الفعلُ الاختياريُّ له لوازمُه التي لا بدَّ فيه منها، فمن نفى لوازمَه[٤]؛ لزمَه نفيُ الفعلِ ولا بدَّ.

---

(١) في ك: «استلزم».

(٢) في ع: «فكيف لم يستلزم إثبات ما أثبته»، وفي س: «فكيف يستلزم إثبات ما أثبته»!. والمثبت هو الصواب.

(٣) في س: «فكيف يستلزم إثبات ما نفاه»!. والمثبت هو الصواب.

(٤) في س: «لوازمها».

ومن هنا كان أهلُ الكلامِ أكثرَ الناسِ تناقضًا واضطرابًا؛ فإنهم ينفُون الشيءَ ويُثبِتُون ملزومَه، ويُثبتون الشيءَ وينفُون لازمَه، فتتناقضَ[(١)] أقوالُهم وأدلتُهم، ويقعَ السالكُ خلفَهم في الحيرةِ والشكِّ، ولهذا يكونُ نهايةُ [أمرِ][(٢)] أكثرِهم الشكَّ والحيرةَ[(٣)]، حاشا من هو في خِفَارةِ بَلَادَتِه منهم[(٤)]، أو من قد خَرَقَ تلك الخيالاتِ، وقطعَ تلك الشبهاتِ، وحكَّم الفطرةَ والشرعةَ والعقلَ المؤيَّدَ بنورِ الوحيِ عليها، فنقدَها نقدَ الصيارفِ؛ فنفى زغلَها، وعَلِمَ أن الصحيحَ منها:

إما أن يكونَ قد تولتِ النصوصُ بيانَه، وإما أن يكونَ فيها غنيةٌ عنه بما هو خيرٌ منه، وأقربُ طريقًا، وأسهلُ تناولًا.

ولا يستفيدُ المؤمنُ البصيرُ بما جاء به الرسولُ ﷺ، العارفُ به مِن المتكلمين سوى مناقضةِ بعضِهم بعضًا، ومعارضتِه[(٥)]، وإبداءِ بعضِهم عوارَ بعضٍ، ومحاربةِ بعضِهم بعضًا، فيتولَّى بعضُهم محاربةَ بعضٍ، ويسلمُ[(٦)] ما جاءَ به الرسولُ ﷺ.

فإذا رأى المؤمنُ، العالمُ، الناصحُ للهِ ولرسولِه أحدَهم قد تعدَّى ما جاء به الرسولُ؛ يناقضُه، ويعارضُه، [ويضادُّه][(٧)]؛ فليعلمْ[(٨)] أنهم لا طريقَ لهم إلى ذلك أبدًا، ولا يقعُ ردُّهم إلا على آراءِ أمثالِهم وأشباهِهم، وأما ما جاء به الرسولُ ﷺ فمحفوظٌ، محروسٌ، مصونٌ من تطرقِ[(٩)] المعارضةِ والمناقضةِ إليه.

فإذا[(١٠)] وجدت شيئًا من ذلك في كلامِهم؛ فبدارِ بدارِ إلى إبداءِ فضائحِهم، وكشفِ تلبيسِهم ومحالِهم وتناقضِهم، وتبيينِ كذبِهم على العقلِ والوحيِ؛ فإنهم لا يردُّون شيئًا مما جاءَ به الرسولُ ﷺ إلا بزخرفٍ من القولِ، يغترُّ به ضعيفُ العقلِ والإيمانِ، فاكشفْه

---

(١) في س: «فتناقض». (٢) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٣) في س: «ولهذا يكون نهاية أكثر أمرهم الشك والحيرة».

(٤) أي: مَنْ هو في حَبْس بلادته. والخِفارة -بالكسر والضم-، يقال: «خفرت الرجلَ»: إذا أجرته وحفظته، و«خفرته»: إذا كنت له خفيرًا، أي: حاميًا وكفيلًا ومانعًا، و«تخفَّرت به»: إذا استجرت به، والخِفارة -بالكسر-في النخل: حِفْظُه من الفساد، وفي الزرع: الشراحة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٥٢)، «الصحاح» (٢/ ٥٦٠)، «القاموس» (ص/ ٤٩٤).

(٥) في ع: «ومعارضتهم»، وفي س: «ومعارضة». (٦) في ك: «وليسلم».

(٧) ما بين المعقوفين ليس في س. (٨) في ع: «فيعلم». (٩) في س: «من طرق».

(١٠) في باقي النسخ: «فإنْ».

ولا تهبْه، تجدْه ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ولولا أن كلَّ مسائلِ القومِ، وشبهِهم - التي خالفوا فيها النصوصَ - بهذهِ المثابةِ لذكرنا من أمثلةِ ذلك ما تقرُّ به عيونُ أهلِ الإيمانِ، السائرين إلى اللهِ على طريقِ الرسولِ ﷺ وأصحابه.

وإن وفَّق اللهُ سبحانه جرَّدْنا لذلك كتابًا مفردًا، وقد كفانا شيخُ الإسلامِ: ابنُ تيميةَ - [قدَّس اللهُ روحَه، ونوَّر ضريحَه][١] - هذا المقصدَ[٢] في عامَّةِ كتبِه، لا سيما كتابُه الذي وسمَه بـ: «بيانُ موافقةِ العقلِ الصريحِ للنقلِ الصحيحِ»، فمزَّق فيه شملَهم كلَّ ممزقٍ، وكشفَ فيه أسرارَهم، وهتَكَ أستارَهم، فجزاه اللهُ عن الإسلامِ وأهلِه أفضلَ الجزاءِ[٣].

لا تَرِدُ شبهةٌ صحيحةٌ على ما جاءَ في النصوصِ

واعلمْ[٤] أنه لا تَرِدُ شبهةٌ صحيحةٌ قطُّ على ما جاء به الرسولُ ﷺ، بل الشبهةُ التي يوردُها أهلُ البدعِ والضلالِ على أهلِ السنةِ لا تخلو من [أحدِ][٥] قسمين:

- إما أن يكونَ القولُ الذي أوردت[٦] عليه ليس من أقوالِ الرسولِ ﷺ، بل تكونُ[٧] نسبتُه إليه غلطًا، وهذا لا يكونُ متفقًا عليه بين أهلِ السنةِ أبدًا، بل يكونُ قد قاله بعضُهم وغلَط فيه؛ فإن العصمةَ إنما هي لمجموعِ الأمَّةِ، لا لطائفةٍ معينةٍ منها.

وإما أن يكونَ القولُ الذي أوردت[٨] عليه قولًا صحيحًا، لكن لا تردُ تلك الشبهةُ عليه.

وحينئذٍ فلا بدَّ لها من أحدِ أمرين: إما أن تكونَ لازمةً، وإما ألا تكونَ لازمةً.

فإن كانتْ لازمةً لما جاء به الرسولُ ﷺ فهي حقٌّ، لا شبهة؛ إذ لازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا ينبغي الفرارُ منها - كما يفعلُ الضعفاءُ من المنتسبين إلى السنةِ -، بل كلُّ ما لَزِمَ من الحقِّ فهو حقٌّ يتعينُ القولُ به كائنًا ما كان.

وهل تَسَلَّطَ أهلُ البدعِ والضلالِ على المنتسبين للسنةِ[٩] إلا بهذهِ الطريقِ؛ ألزموهم

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك، وفي س الجملة الأولى فقط.
(٢) س: «هذا القصد». (٣) في ك: «مِنْ أفضل الجزاء».
(٤) في ع: «وأعلمهم». وهو غلط. (٥) ما بين المعقوفين ليس في س. (٦) في س: «وَرَدَتْ».
(٧) في ك: «بل يكون». (٨) في س: «الذي ورَدَتْ». (٩) في ع: «إلى السنة».

بلوازمَ تلزمُ الحقَّ فلم يلتزِمُوهَا(١)، ودفعوهَا، وأثبتُوا ملزوماتِها، فتسلَّطُوا عليهم بما أنكرُوه، لا بما أثبتُوه، فلو أثبتُوا لوازمَ الحقِّ، ولم يفرُّوا منها؛ لم يجدْ أعداؤُهم إليهم سبيلًا.

وإن لم تكنْ لازمةً لهم؛ فإلزامُهم إياها باطلٌ، وعلى النقدين(٢) فلا طريقَ لهم إلى ردِّ أقوالِهم، وحنيئذٍ فلهم جوابان: مركبٌ مجملٌ، ومفردٌ مفصلٌ:

أما الأولُ: فيقولون لهم: هذه اللوازمُ التي تلزمونا بها:

إما أن تكونَ لازمةً في نفسِ الأمرِ، وإما أن لا تكونَ لازمةً، فإن كانت لازمةً فهي حقٌّ(٣)؛ إذ قد ثبت أن ما جاء به الرسولُ ﷺ هو(٤) الحقُّ الصريحُ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ.

وإن لم تكنْ لازمةً فهي مندفعةٌ، ولا يجوزُ إلزامُها(٥).

وأما الجوابُ المفصلُ: فيفردون كلَّ إلزامٍ بجوابٍ، ولا يردُّونه(٦) مطلقًا، ولا يقبلُونه مطلقًا، بل ينظرون إلى ألفاظِ ذلك الإلزامِ ومعانيه؛ فإن كان لفظُها موافقًا لما جاء به الرسولُ ﷺ، يتضمنُ إثباتَ ما أثبتَهُ، أو نفيَ(٧) ما نفَاهُ؛ فلا يكونُ المعنى إلا حقًّا، فيقبلُون ذلك الإلزامَ.

وإن كان مخالفًا لما جاء به الرسولُ ﷺ، متضمنًا لنفيِ(٨) ما أثبتَهُ، أو إثباتِ(٩) ما نفاه؛ كان باطلًا لفظًا ومعنىً، فيقابِلُونه بالردِّ.

وإن كان لفظًا مجملًا محتملًا لحقٍّ وباطلٍ؛ لم يقبلوه مطلقًا، ولم يردوه مطلقًا حتى يستفسروا قائلَه ما(١٠) أرادَ به:

فإن أراد معنىً صحيحًا مطابقًا لما جاء به الرسولُ ﷺ قَبِلُوه، ولم يطلقوا اللفظَ المحتملَ إطلاقًا.

وإن أرادَ معنىً باطلًا ردُّوه، ولم يطلِقُوا نفيَ اللفظِ المحتملِ أيضًا. فهذهِ قاعدتُهم التي بها يعتصِمُون، وعليها يعوِّلُون. وبسطُ هذهِ الكلماتِ يستدعي أسفارًا، لا سِفْرًا

---

(١) في ك وس: «فلم يلزموها». (٢) في باقي النسخ: «وعلى التقديرين».
(٣) في ع: «فهي أحقُّ». (٤) في ك وس: «فهو».
(٥) في باقي النسخ: «ولا يجوز إلزامها ولا التزامها». (٦) في ع: «فلا يردونه».
(٧) في ك وس: «ونفي». (٨) في س: «متضمنًا بنفي»!. (٩) في س: «وإثبات».
(١٠) في س: «ماذا».

واحدًا. ومن لا ضياءَ له لا ينتفعُ بها ولا بغيرِها، فلنقتصرْ عليها، ولنعدْ إلى المقصودِ، فنقولُ - وباللهِ التوفيقُ -:

عودةٌ إلى الكلامِ على فرحِ الله بالتوبةِ

فرحُ الربِّ تعالى هذا الفرحَ العظيمَ بتوبةِ عبدِه إذا تابَ إليه هو من ملزوماتِ محبَّتِه، ولوازمِها - أعني كونَه محبًّا لعبادِه المؤمنين، محبوبًا لهم.

وإنما خلقَ خلقَه لعبادتِه المتضمنةِ لكمالِ محبتِه والخضوعِ له، ولهذا خلقَ الجنةَ والنارَ، ولهذا أرسلَ الرُّسُلَ، وأنزلَ الكُتُبَ.

وهذا هو الحقُّ الذي خلقَ به[1] السماواتِ والأرضَ، وأنزل به الكتابَ، قال تعالى[2]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحِجر: الآية ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يُونس: ٣- ٥].

وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

فهذا أمرُه وتنزيلُه مصدرُه الحقُّ، والأولُ خلقُه وتكوينُه مصدرُه الحقُّ أيضًا، فبالحقِّ كان الخلقُ والأمرُ، وعنه صدر الخلقُ والأمرُ.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦].

فأخبر سبحانه أن الغايةَ المطلوبةَ من خلقِه هي عبادتُه التي أصلُها كمالُ محبتِه، وهو سبحانه كما أنه يحبُّ أن يُعْبَدَ، ويحبُّ أن يُحْمَدَ ويُثنى عليه، ويُذْكَرَ بأوصافِه العُلَى وأسمائِه الحسنى، كما قال النبيُّ ﷺ في الحديثِ الصحيحِ: **«لا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من اللهِ، ومن أجلِ ذلك أثنى على نفسِه»**[3]، وفي «المسندِ» من حديثِ الأسودِ بنِ

---

(١) في س «الذي خَلَقَ الله به». (٢) في س: «وقال -تعالى».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨١)، (٤٢٥)، (٤٢٦)، (٤٣٦)، (٤٤٨)، والبخاري، رقم (٤٦٣٤)، ومسلم، رقم (٢٧٦٠)، والترمذي رقم (٣٥٣٠)، والدارمي رقم (٢١١٣): عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا أحد أغير من الله؛ ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله؛ ولذلك مدح نفسه»**. زاد مسلم في لفظ: **«وليس أحد أحب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل»**.

سريع[١] أنه قال: «يا رسولَ اللهِ، إني حمدتُ ربي بمحامدَ»، فقال: «**إن ربَّكَ يحبُّ الحمدَ**»[٢]، فهو يحبُّ نفسَه، ومن أجلِ ذلك يُثني على نفسِه، ويحمدُ نفسَه، ويقدسُ نفسَه، ويحبُّ من يُحبُّه ويحمدُه ويُثني عليه، بل كلما كانت محبةُ عبدِه له أقوى؛ كانت محبةُ اللهِ له أكملَ وأتمَّ، فلا أحدَ أحبُّ إليه ممن يحبُّه ويحمدُه ويثني عليه.

ومن أجلِ ذلك كان الشركُ أبغضَ الأشياءِ إليه؛ لأنه ينقصُ هذهِ المحبةَ، ويجعلُها بينه وبين من أشركَ به، ولهذا لا يغفرُ اللهُ سبحانه أن يُشْرَكَ به[٣]؛ لأن الشركَ يتضمنُ نقصانَ هذهِ المحبةِ، والتسويةَ فيها بينه وبين غيرِه.

ولا ريبَ أن هذا من أعظمِ ذنوبِ المحبِّ عند محبوبِه التي ينقصُ بها من عينِه، وتنحطُّ بها[٤] مرتبتُه عنده إذا كان من المخلوقين، فكيف يحتملُ ربُّ العالمين أن يشركَ بينه وبين غيرِه في المحبَّةِ؟! والمخلوقُ لا يحتملُ ذلك، ولا يرضى به، ولا يغفرُ هذا الذنبَ لمحبِّهِ أبدًا، وعساه أن يتجاوزَ لمحبِّهِ عن غيرِه من الهفواتِ والزلاتِ[٥] في حقِّه، ومتى عَلِمَ بأنه يحبُّ غيرَه كما يحبُّه لم يغفرْ له[٦] هذا الذنبَ، ولم يقربْه إليه، هذا مقتضى الطبيعةِ والفطرةِ.

أفلا يستحي العبدُ أن يسوي بين إلهِه ومعبودِه وبين غيرِه في هذهِ العبوديةِ والمحبةِ؟!.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

---

(١) هو الأسود بن سَرِيع بن حمير بن عبادة بن النزَّال بن مرة بن عبيد التميمي، أبو عبد الله السعدي المنقري، له صحبة، غزا مع النبي ﷺ أربع غزوات، ونزل البصرة، وكان شاعرًا محسنًا قاصًّا، توفي سنة اثنتين وأربعين. انظر: «الإصابة» (١/ ٤٤)، «تهذيب الكمال» (٣/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٥)، (٤٣٦)، (٤/ ٢٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٣٤٢)، (٨٥٩)، (٨٦١)، (٨٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٦٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٠٨٢). قال في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩٨): «... وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح» اهـ، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٥/ ٣٨١)، رقم (٢٩٢٢)، و«ضعيف الجامع» رقم (١٣٢٦).

(٣) في س: «ولهذا لا يغفر الله -سبحانه- لِمَنْ يشرك به».

(٤) في ك وس: «وتسقط بها». (٥) في ع: «من النفرات والزلات».

(٦) في ك وس: «لم يغتفر له».

أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥]، فأخبرَ سبحانه أن من أحبَّ شيئًا [من][1] دونِ اللهِ كما يحبُّ اللهُ فقد اتخذه نِدًّا[2].

وهذا معنى قولِ المشركين [في النارِ][3] لمعبودِيهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٩٧، - ٩٨]، فهذه تسويةٌ في المحبةِ والتألهِ، لا في الذاتِ والأفعالِ/ والصفاتِ.

والمقصودُ أنه سبحانه يحبُّ نفسَه أعظمَ محبةً، ويحبُّ من يحبُّه، وخلقَ خلقَه لذلك، وشرع شرائعَه، وأنزل كتبَه لأجلِ ذلك، وأعدَّ الثوابَ والعقابَ لأجلِ ذلك.

وهذا هو محضُ الحقِّ الذي به قامتِ السماواتُ والأرضُ، وكان الخلقُ والأمرُ، فإذا قام به العبدُ فقد جاء منه الأمرُ[4] الذي خُلِقَ له، فرضِيَ عنه[5] صانعُهُ وبارئُهُ، وأحبَّه؛ إذ[6] كان كما يحبُّ ويرضى، فإذا صدفَ عن ذلك، وأعرضَ عنه، وأبقَ[7] عن مالكِه وسيدِه؛ أبغضَه ومقتَه؛ لأنه خرج عما خُلِقَ له، وصار إلى ضدِّ الحالِ التي هو لها[8]، فاستوجبَ منه[9] غضبَه بدلًا من رضاه، وعقوبتَه[10] بدلًا من رحمتِه، فكأنه استدعى من ربِّه أن يعاملَه من نفسِه بخلافِ ما يحبُّ؛ فإنه سبحانه عفوٌّ يحبُّ العفوَ، محسنٌ يحبُّ الإحسانَ، جوادٌ يحبُّ الجودَ، سبقت رحمتُه غضبَه.

فإذا أبقَ منه العبدُ، وخامَرَ عليه[11] ذاهبًا إلى عدوِّه؛ فقد استدعي منه أن يجعلَ غضبَه غالبًا على رحمتِه، وعقوبتَه على إحسانِه، وهو سبحانه يحبُّ من نفسِه الإحسانَ

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.

(٢) قوله -تعالى-: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: مصدرٌ مُضاف إلى مفعوله -وهو لفظ الجلالة-، والفاعل محذوف، وقد اختُلِفَ فيه على قولين: **الأول**: أنه «المؤمنون»، والمعنى: يحبونهم كما يحب المؤمنون الله -تعالى- وهذا اختيار ابن جرير، **والثاني**: أنه «متخذو الأنداد»، والمعنى: يحبونهم كما يحبون الله -تعالى- فيكون قد أثبت لهم محبةً لله، لكنها محبة يشركون فيها غيره. وهذا اختيار المؤلف وشيخه ابن تيمية. انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٦)، «مدارج السالكين» (١/ ١٦٥)، (٣/ ٢٠)، «روضة المحبين» (ص/ ١٩٨).

(٣) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٤) في ك: «فقد قام بالأمر».

(٥) في س: «فرضي به عنه».

(٦) في س: «إذا».

(٧) تقدم معنى: «أبق».

(٨) في ع: «التي هي لها».

(٩) في س: «مِنْ».

(١٠) في ك: «وعقوبته له».

(١١) أي: اختلف، وتغيَّرَ عليه. انظر: «الصحاح» (٢/ ٥٦١)، «القاموس» (ص/ ٤٩٥).

والبرَّ والإنعامَ، فقد استدعى من ربِّه فعلَ ما غيرُه أحبُّ إليه منه، وهو بمنزلةِ عبدِ السوءِ الذي يحملُ أستاذَه من المخلوقين، المُحْسِنَ إليه، الذي طبيعتُه الإحسانُ والكرمُ على خلافِ مقتضى طبيعتِه وسجيتِه، فأستاذُه يحبُّ بطبعِه[١] الإحسانَ، وهو بإساءتِه ولؤمِه يكلفُه ضدَّ طباعِه، ويحملُه على خلافِ سجيتِه، فإذا راجع هذا العبدُ ما يحبُّ سيدُه، ورجَعَ إليه، وأقبلَ إليه، وأعرضَ عن عدوِّهِ[٢]؛ فقد صَارَ إلى الحالِ التي تقتضي محبةَ سيدِه له، وإنعامَه عليه، وإحسانَه إليه، فيفرحُ به - ولا بدَّ - أعظمَ فرحٍ، وهذا الفرحُ هو دليلٌ [على][٣] غايةِ الكمالِ والغنى والمجدِ.

فليتدبرِ اللبيبُ وجودَ هذا الفرحِ، ولوازمَه وملزوماتِه؛ يجدْ في طيِّهِ من المعارفِ الإلهيةِ ما لا تتسعُ له إلا القلوبُ المهيأةُ لهذا الشأنِ، المخلوقةُ له.

وهذا[٤] فرحُ محسنٍ برٍّ لطيفٍ جوادٍ غنيٍّ حميدٍ، لا فرحُ محتاجٍ إلى حصولِ ما يفرحُ به، مستكملٍ به[٥]، مستفيدٍ له من غيرِه[٦]، فهو عينُ الكمالِ، لازمٌ للكمالِ، ملزومٌ له.

وألطفُ من هذا الوجهِ: أن اللهَ سبحانه خلقَ عبادَه المؤمنين، وخلقَ كلَّ شيءٍ لأجلِهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: الآية ٢٠]، وكرَّمَهم، وفضَّلهم على كثيرٍ ممن خلقَ فقال: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٧٠]، وقال][٧] لصالحِيهم وصفوتِهم: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣٣]، وقال تعالى لموسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: الآية ٤١]، واتخذَ منهم الخليلين والخلةُ أعلى درجاتِ المحبةِ.

وقد جاء في بعضِ الآثارِ: «يقولُ تعالى: ابنَ آدمَ، خلقتُك لنفسِي، وخلقتُ كلَّ شيءٍ لك[٨]، فبحقِّي عليك لا تشتغلْ بما خلقتُه لك عما خلقتُك له»[٩]، وفي أثرٍ آخرَ:

---

(١) في ك وس: «لطبْعِهِ». (٢) في س: «ورَجَعَ عَنْ عدوِّه».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في س. (٤) في ك: «ولهذا». (٥) في ك وس: «متكمِّل به».

(٦) في س: «مستقبل له مِن غيره». (٧) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.

(٨) في س: «وخلقت كل شيء لأجلك».

(٩) ذَكَرَ شيخ الإسلام ابن تيمية أنه أثرٌ إسرائيلي. انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢).

«يقولُ تعالى: ابنَ آدمَ خلقتُك لنفسِي فلا تلعبْ، وتكفلتُ برزقِك فلا تتعبْ، ابنَ آدمَ اطلبني تجدْني، فإن وجدتني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإن فاتك فاتك كلُّ شيءٍ، وأنا أحبُّ إليك من كلِّ شيءٍ»(١).

فاللهُ سبحانه خلقَ عبادَه له، ولهذا اشترى منهم أنفسَهم، وهذا عقدٌ لم يعقدْه مع خلقٍ غيرِهم فيما أخبر به على لسانِ رسولِه ﷺ؛ ليُسلِمُوا إليه النفوسَ التي خلقَها له(٢).

وهذا الشراءُ دليلٌ على أنها محبوبةٌ له، مصطفاةٌ عندَه، مرضيةٌ لديهِ. وقدرُ السلعةِ يُعْرَفُ بجلالةِ قدرِ مُشْتَرِيهَا، وبمقدارِ ثمنِها، هذا إذا جهِلَ قدرَهَا في نفسِهَا، فإذا عَرِفَ قدرَ السلعةِ، وعرفَ مشترِيهَا، وعرفَ الثمنَ المبذول فيها؛ علم شأنَهَا ومرتبتَهَا في الوجودِ(٣).

فالسلعةُ أنت، واللهُ المشترِي، والثمنُ جنَّتُه والنظرُ إلى وجهِه، وسماعُ كلامِه في دارِ الأمنِ والسلامِ، واللهُ سبحانه لا يصطفي لنفسِه إلا أعزَّ الأشياءِ وأشرفَها وأعظمَها قيمةً.

وإذا كان قد اختارَ العبدُ لنفسِه، وارتضَاهُ لمعرفتِه ومحبَّتِه، وبنى له دارًا في جوارِه وقربِه، وجعل ملائكتَه خدمَه؛ يسعُون في مصالحِه في يقظتِه ومنامِه، وحياتِه وموتِه، ثم إن العبدَ أبق عن سيدِه ومالكِه ذاهبًا عنه، معرضًا عن رضاه، ثم لم يكفِه ذلك حتى خامر عليه، وصالحَ عدوَّه ووالَاهُ من دونِهِ، وصارَ من جندِه مؤثرًا لمرضاتِه على مرضاةِ ولِّيهِ ومالكِه؛ فقد باع نفسَه التي اشتراها منه إلهُه ومالكُه، وجعل ثمنَها جنَّتَه والنظرَ إلى وجهِه من عدوِّهِ وأبغضِ خلقِه إليه، واستبدل غضبَه برضاه، ولعنتَه برحمتِه ومحبتِه.

---

(١) لم أجده.

(٢) قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: الآية ١١١].

وقد عَقدَ المؤلف رحمه الله في «حادي الأرواح» (ص/ ٧٠-٧٣) بابًا في عَرْض الرب -تعالى- سلعته «الجنة» على عباده، وثمنها الذي طلبه منهم، وعَقْد التبايع الذي وقع بين المؤمنين وبين ربهم، فليراجعْ.

(٣) في ع: «في الجود».

فأيُّ مقتٍ خَلَّى هذا المخدوعُ عن نفسِه لم يتعرضْ له من ربِّه؟!، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠]، فتأملْ ما تحت هذه المعاتبةِ، وما في طيِّ هذا الخطابِ من سوءِ حالِ العبدِ[1]، وما تعرضَ له من المقتِ والخزيِّ والهوانِ، ومن استعطافِ ربِّه، واستعتابِه ودعائِه إياه إلى العودِ إلى وليِّهِ ومولاه الحقِّ الذي هو أولَى به[2].

فإذا عادَ إليه، وتابَ إليه فهو بمثابةِ من أسرَ له العدوُّ محبوبًا له، واستولُوا عليه، وحالُوا بينه وبينه، فهرَب منهم ذلك المحبوبُ، وجاءَ إلى مُحِبِّهِ اختيارًا وطوعًا حتى توسَّدَ عتبةَ بابِه، فخرجَ المُحِبُّ من بيتِه فوجدَ محبوبَه متوسِّدًا عتبةَ بابِه، واضعًا خدَّه وذقنَه عليها، فكيف يكونُ فرحُه به؟! - وللهِ المثلُ الأعلى.

ويكفي في هذا المثلِ الذي ضربَهُ رسولُ اللهِ ﷺ لمن فتحَ اللهُ عينَ قلبِه فأبصرَ ما في طيِّهِ، وما في ضمنِهِ، وعلم أنه ليس كلامَ مجازفةٍ ولا مبالغةٍ ولا تخييلٍ، بل كلامُ معصومٍ في منطقِه وعلمِه وقصدِه وعملِه، كلُّ كلمةٍ منه في موضعِها ومنزلتِها ومقرِّها،

---

(١) في باقي النسخ: «من سوء هذا العبد».

(٢) قال المؤلف رحمه الله في «الداء والدواء» (ص/ ٩٢): «... وقد قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] يقول -سبحانه-لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدْره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أنْ يسجدوا له؛ تكريمًا له، وتشريفًا، فأطاعوني، وأبى عدوِّي وعدوُّه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أنْ تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدوٍّ لكم؟! فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء؛ فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع، وموالاة أوليائه. وأما أن توالي أعداء الملك، ثم تدعي أنك موال له؛ فهذا محال. هذا لو لم يكن عدو الملك عدوًّا لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟!. فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه، ونبه -سبحانه- على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾، كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، فتبين أن عداوته لربه، وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟! وما هذا الاستبدال؟!...، ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيفٌ عجيبٌ، وهو: أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة!» اهـ.

لا يتعدَّى بها عنه، ولا يقصرُ بها.

والذي يزيدُ هذا المعنى تقريرًا: أن محبةَ الربِّ لعبدِه سبقَتْ محبةَ العبدِ له سبحانه؛ فإنه لولا محبةُ اللهِ [له][(١)]؛ لما جَعَلَ محبتَه في قلبِه، فلما أحبَّه ألهمَهُ حبَّه وآثرَهُ به[(٢)]، فلما أحبَّهُ العبدُ جازاه على تلك المحبةِ محبةً أعظمَ منها؛ **فإنهَ من تقربَ إليه شبرًا؛ تقرَّب إليه ذراعًا**، ومن تقرَّب إليه ذراعًا؛ تقرَّب إليه باعًا، ومن أتاه مشيًا؛ أتاه هرولةً[(٣)].

وهذا دليلٌ على أن محبةَ اللهِ لعبدِه الذي يحبُّه فوق محبةِ العبدِ له.

فإذا[(٤)] تعرَّض هذا المحبوبُ[(٥)] لمساخطِ حبيبِه؛ فهو بمنزلةِ المحبوبِ الذي فرَّ من محبِّه، وآثَرَ غيرَه عليه، فإذا عاوَدَهُ وأقبلَ إليه وتخلَّى عن غيرِه، فكيف لا يفرحُ به مُحِبُّهُ أعظمَ فرحٍ وأكملَه؟!.

والشاهدُ أقوى شاهدٍ بهذا، والفطرةُ والعقلُ، فلو لم يخبرِ الصادقُ المصدوقُ بما أخبرَ به مِن هذا الأمرِ العظيمِ؛ لكانَ في الفطرةِ والعقلِ ما يشهدُ به.

فإذا انضافت الشرعةُ المنزَّلةُ إلى الفطرةِ المكملةِ إلى العقلِ الصحيحِ المنورِ[(٦)]

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٢) في ك وس: «فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه؛ فإنه ألهمه حُبَّه، وآثره به».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥١)، (٤١٣)، (٤٨٠)، (٤٨٢)، (٥٢٤)، (٥٣٤)، والبخاري، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم، رقم (٢٦٧٥)، والترمذي، رقم (٣٦٠٣)، وابن ماجه، رقم (٣٨٢٢): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبد ي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**» واللفظ للبخاري. وفي لفظ لمسلم: «**إذا تلقاني عبدي بشبر تلقيته بذراع، وإذا تلقاني بذراع تلقيته بباع، وإذا تلقاني بباع جئته أتيته بأسرع**».

قال النووي في «شرح مسلم» (١٧/ ٤): «... **وإذا تلقاني بباع جئته أتيته**»: هكذا هو في أكثر النسخ: «**جئته أتيته**»، وفي بعضها: «**جئتُه بأسرع**»، وفي بعضها: «**أتيتُه**»، وهاتان ظاهرتان، والأول صحيح أيضًا، والجمع بينهما للتوكيد وهو حسنٌ، لا سيما عند اختلاف اللفظ، والله أعلم». اهـ.

قال أبو عيسى الترمذي: «... ويروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث: «**من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا**» يعني: بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسَّرَ بعض أهل العلم هذا الحديث. قالوا: إنما معناه يقول: إذا تقرب إليَّ العبد بطاعتي وبما أمرتُ تُسَارع إليه مغفرتي ورحمتي» اهـ.

(٤) في ك وس: «وإذا». (٥) في ع: «هذا المحب».

(٦) في س: «الصحيح المؤيَّد المُنَوَّر».

فذلك الذي لا غايةَ بعدَه[١] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

فَصْلٌ

ومتى أرادَ العبدُ شاهدًا على هذا من نفسِه، فلينظرْ إلى الفرحةِ التي[٢] يجدُها بعد التوبةِ النصوحِ، والسرورِ واللذةِ التي تحصلُ له؛ والجزاءُ من جنسِ العملِ، فلما تابَ إلى اللهِ ففرحَ اللهُ بتوبتِه؛ أعقبَهُ فرحًا عظيمًا.

كلُّ تائبٍ لابدَّ لهُ من عصرةٍ

وهاهنا دقيقةٌ قَلَّ من يتفطنُ لها إلا فقيهٌ في هذا الشأنِ، وهي أن كلَّ تائبٍ لا بدَّ له في أولِ توبتِه من عصرةٍ وضغطةٍ في قلبِه من همٍّ أو غمٍّ أو ضيقٍ أو حزنٍ، ولو لم يكنْ إلا تألمُه بفراقِ محبوبِه، فينضغطُ لذلك، وينعصرُ قلبُه، ويضيقُ صدرُه.

فأكثرُ الخلقِ رجعوا من التوبةِ، ونكسوا على رؤوسِهم لأجلِ هذه المحنةِ.

والعارفُ الموفقُ يعلمُ أن الفرحةَ والسرورَ واللذةَ الحاصلةَ عقيبَ التوبةِ تكونُ على قدرِ هذهِ العصرةِ، فكلما كانت أقوى وأشدَّ كانتِ الفرحةُ واللذةُ أكملَ وأتمَّ.

ولذلك أسبابٌ عديدةٌ:

أسبابُها

منها: أن هذهِ العصرةَ والقبضَ دليلٌ على حياةِ قلبِه، وقوةِ استعدادِه، ولو كان قلبُه ميّتًا، واستعدادُه ضعيفًا؛ لم يحصلْ [له][٣] ذلك.

وأيضًا: فإن الشيطانَ لصُّ الإيمانِ، واللصُّ إنما يقصدُ المكانَ المعمورَ، وأمَّا المكانُ الخرابُ الذي لا يرجُو أن يظفرَ منه بشيءٍ؛ فلا يقصدُه، فإذا قويت المعارضاتُ الشيطانيةُ والعصرةُ؛ دلَّ على أن في قلبِه من الخيرِ ما يشتدُّ[٤] حرصُ الشيطانِ على نزعِه منه.

وأيضًا: فإن قوةَ المعارضِ والمضادِّ تدلُّ[٥] على قوةِ معارضِه وضدِّه[٦].

ومثلُ هذا: إما أن يكونَ رأسًا في الخيرِ، أو رأسًا في الشرِّ؛ فإن النفوسَ الأبيةَ القويةَ إن كانت خيرةً؛ رأستْ في الخيرِ، وإن كانت شريرةً رأستْ في الشرِّ.

---

(١) في س: «الذي لا غاية له بعده».
(٢) في ك: «الذي».
(٣) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٤) في س: «ما يشد».
(٥) في ك وس: «يدل» -بالمثناة التحتية- وكلاهما سائغ.
(٦) في ع: «تدل على قوة معارضته وضدِّه»!.

وأيضًا: فإن بحسبِ موافقتِه[١] لهذا العارضِ وصبرِه عليه يثمرُ له ذلك من اليقينِ والثباتِ والعزمِ ما يوجبُ زيادةَ انشراحِه وطمأنينتِهِ[٢].

وأيضًا: فإنه كلما عظمَ المطلوبُ كثُرتِ العوارضُ والموانعُ دونَه، هذهِ سنةُ اللهِ في الخلقِ.

فانظره إلى الجنةِ وعظمِها، وإلى الموانعِ والقواطعِ التي حالَتْ دونَها حتى أوجبتْ أن ذهبَ من كلِّ ألفِ رجلٍ واحدٌ إليها[٣].

وانظرْ إلى محبةِ اللهِ، والانقطاعِ إليه، والإنابةِ إليه، والتبتلِ إليه وحدَه، والأنسِ به، واتخاذِه وليًّا ووكيلًا وكافيًا وحسيبًا: هل يكتسبُ العبدُ شيئًا أشرفَ منه؟.

وانظر إلى القواطعِ والموانعِ الحائلةِ دونَه حتى قد تعلقَ كلُّ قومٍ بما تعلَّقوا به دونَهُ.

والطالبون له[٤]: منهم الواقفُ مع عملِه، والواقفُ مع علمِه، والواقفُ مع حالِه، والواقفُ مع ذوقِه وجمعيتِه وحظِّه من ربِّه، والمطلوبُ منهم وراء ذلك كلِّه.

والمقصودُ أن هذا الأمرَ الحاصلَ بالتوبةِ لمَّا كان من أجلِّ الأمورِ، وأعظمِها نُصِبَتْ عليه المعارضاتُ والمحنُ؛ ليتميزَ الصادقُ من الكاذبِ، وتقعَ الفتنةُ، ويحصلَ الابتلاءُ، ويتميزَ من يصلحُ ممن لا يصلحُ، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هُود: ٧].

---

(١) في ع: «بحسب مدافعته». وهو الصواب.

(٢) في ك: «زيادةً بانشراحه وطمأنينته».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢)، والبخاري، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم، رقم (٢٢٢): عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألفٍ تسمائة وتسعة وتسعين، قال: فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد**». قال: فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: «**أبشروا؛ فإن يأجوج ومأجوج ألف، ومنكم رجل**»، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «**والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرَّقمة في ذراع الحمار**».

(٤) في س: «فالطالبون له».

ولكن إذا صبرَ على هذهِ العصرةِ قليلًا[(١)]؛ أفضَتْ به إلى رياضِ الأنسِ، وجناتِ الانشراحِ، وإن لم يصبرْ لها؛ انقلب على وجهِهِ - واللهُ الموفقُ لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه.

والمقصودُ أن هذا الفرحَ من اللهِ بتوبةِ عبدِه - مع أنه لم يأتِ نظيرَهُ في غيرِها من الطاعاتِ - دليلٌ على عظمِ قدرِ التوبةِ وفضلِها عند اللهِ، وأن التعبدَ له بها من أشرفِ التعبداتِ[(٢)].

وهذا يدلُّ على أن صاحبَها يعودُ أكملَ مما كان قبلَها.

فهذا بعضُ ما احُتجَّ به لهذا القولِ.

القولُ الثالثُ وحججُهُ

وأما الطائفةُ التي قالت: «لا يعودُ إلى مثلِ ما كان، بل لا بدَّ أن ينقصَ عن حالِه: فاحتجوا بأن الجنايةَ توجبُ الوحشةَ وزوالَ المحبةِ، ونقصَ العبوديةِ - لا ريبَ - فليس العبدُ الموفرُ أوقاتِه على طاعةِ سيدِه[(٣)] كالعبدِ المفرطِ في حقوقِه، وهذا مما لا يمكنُ جحدُه ومكابرتُه.

فإذا تابَ إلى ربِّه، ورجعَ إليه؛ آثرت توبتُه تركَ مؤاخذتِه بالذنبِ، والعفوَ عنه.

وأما مقامُ القربِ والمحبةِ فهيهاتَ أن يعودَ.

قالوا: ولأن هذا في زمنِ اشتغالِه بالمعصيةِ، قد فاتَهُ فيه السيرُ إلى اللهِ، فلو كان واقفًا في موضعِه؛ لفاتَهُ التقدمُ، فكيف وهو في زمنِ المعصيةِ كان سيرُه إلى وراءِ وراءِ؟!. فإذا تاب واستقبل سيرَه فإنه يحتاجُ إلى سيرٍ جديدٍ، وقطعِ مسافةٍ حتى يصلَ إلى الموضعِ الذي تأخَّر عنه[(٤)].

قالوا: ونحنُ لا ننكرُ أنه قد يأتي بطاعاتٍ وأعمالٍ تبلِّغُه إلى منزلتِه، وإنما أنكرنَا أن يكونَ بمجردِ التوبةِ النصوحِ يعودُ إلى منزلتِه وحالتِه، وهذا مما لا يكونُ؛ فإنه بالتوبةِ قد وجَّه وجهَه إلى الطريقِ، فلا يصلُ إلى مكانِه الذي رجع منه إلا بسيرٍ مستأنفٍ يوصلُ إليه، ونحن لا ننكرُ أن العبدَ بعدَ التوبةِ يعملُ أعمالًا عظيمةً لم يكنْ ليعلمَها قبلَ الذنبِ

---

(١) في س: «هذه العصرة القليلة».

(٢) انظر كلام المؤلف على حديث: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده»**، «مدارج السالكين» (١/ ٢٣٠-٢٣٩).

(٣) في س: «على طاعة الله».   (٤) في باقي النسخ: «الذي تأخر منه».

توجبُ له التقدمَ.

قالوا: وأيضًا فلو رجع إلى حالِه[(١)] التي كان عليها، أو إلى أرفعَ منها؛ لكان بمنزلةِ المداومِ على الطاعةِ، أو أحسنَ حالًا منه، فكيف يكونُ هذا؟! وأين مسيرُ[(٢)] صاحبِ الطاعةِ في زمنِ اشتغالِ هذا بالمعصيةِ؟! وكيف يلتقي رجلان أحدُهما سائرٌ نحو المشرقِ، والآخرُ نحو المغربِ؟! فإذا رجع أحدُهما إلى طريقِ الآخرِ، والآخرُ مُجِدٌّ على سيرِه، فإنه لا يزالُ سابقَه ما لم يعرضْ له فتورٌ أو توانٍ.

هذا[(٣)] مما لا يمكنُ جحدُه ودفعُه.

قالوا: وأيضًا فمرضُ القلبِ[(٤)] بالذنوبِ على مثالِ مرضِ الجسمِ بالأسقامِ، والتوبةُ بمنزلةِ شُربِ الدواءِ، والمريضُ إذا شرب الدواءَ، وصحَّ فإنه لا تعودُ[(٥)] إليه قوتُه قبلَ المرضِ، وإن عادتْ فبعدَ حينٍ.

قالوا: وأيضًا فهذا في زمنِ معالجةِ التوبةِ ملبوكٌ في نفسِه[(٦)]، مشغولٌ بمداواتِها ومعالجتِها، [و][(٧)] في زمنِ الذنبِ مشغولٌ بشهوتِها، والسالمُ من ذلك مشغولٌ بربِّه، قد قرب منه في سيرِه، فكيف يلحقُه هذا؟!.

فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفةُ لقولِها.

اختيارُ ابن تيمية

وجرت هذهِ المسالةُ بحضرةِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ[(٨)]، فسمعتُه يحكي هذهِ الأقوالَ الثلاثةَ حكايةً مجردةً، فإمَّا سألتهُ وإما سُئِلَ عن الصواب منها، فقال: «الصوابُ أن من التائبين من يعودُ إلى مثلِ حالِه، ومنهم من يعودُ أكملَ مما كان[(٩)]، ومنهم من يعودُ أنقصَ مما كان[(١٠)].

فإن كان بعدَ التوبةِ خيرًا مما كان قبلَ الخطيئةِ، وأشدَّ[(١١)] حذرًا، وأعظمَ تشميرًا، وأعظمَ ذلًّا وخشيةً وإنابةً؛ عاد إلى أرفعَ مما كان، وإن كان قبلَ الخطيئةِ أكملَ في هذهِ

(١) في س: «إلى حالته».
(٢) في ع وك: «وأين سير».
(٣) في س: «وهذا».
(٤) في س: «فإنَّ مرض القلب».
(٥) في ع وك: «فإنه لا يعود».
(٦) في ك: «مكبول مع نفسه».
(٧) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٨) في ك زيادة: «رَحِمَهُ اللَّهُ». وقد تقدمت ترجمته.
(٩) في ك وس: «ومنهم من يعود إلى أكمل منها».
(١٠) في س: «ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان».
(١١) في س: «أو أشد».

الأمورِ، ولم يَعُدْ بعد التوبةِ إليها؛ عادَ إلى أنقصَ مما كان عليه، وإن كان بعد التوبةِ مثلَ ما كان قبلَ الخطيئةِ؛ رجع إلى مثلِ منزلتِه».

هذا معنى كلامِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخلافُ في التائبِ: هل تُمْحَى سيئاتُهُ لا له ولا عليه؟

قلت: **وهاهنا مسألةٌ** - هذا الموضعُ أخصُّ المواضعِ ببيانِها -، وهي أن التائبَ إذا تاب إلى اللهِ توبةً نصوحًا: فهل تُمحى تلك السيئاتُ، وتذهبُ، لا له ولا عليه، أو إذا مُحِيت أثيبَ له[١] مكان كلِّ سيئةٍ حسنةٌ؟

هذا مما اختلف الناسُ فيه من المفسرين وغيرِهم قديمًا وحديثًا، قال الزجاجُ[٢]: «ليس يَجعلُ مكانَ السيئةِ الحسنةَ، لكن يَجعلُ مكانَ السيئةِ التوبةَ، والحسنةُ مع التوبةِ»[٣]، قال ابنُ عطيةَ[٤]: «يجعلُ أعمالَهم بدلَ معاصِيهم الأُولى طاعةً، فيكونَ ذلك سببًا لرحمةِ اللهِ إياهم، قاله ابنُ عباسٍ وابنُ جبيرٍ[٥] وابنُ زيدٍ والحسنُ»، وردَّ[٦] على مَنْ قال: «هو في يومِ القيامةِ».

القولُ الأولُ

قال: «وقد ورد حديثٌ في كتابِ مسلمٍ من طريقِ أبي ذرٍّ يقتضي أنَّ اللهَ تعالى يومَ القيامةِ يجعلُ لمن يريدُ المغفرةَ لهُ منَ الموحِّدِين بدلَ سيئاتِه حسناتٍ، وذكرَهُ الترمذيُّ والطبريُّ، وهذا[٧] تأويلُ سعيدِ بنِ المسيبِ في هذهِ الآيةِ».

---

(١) في ع وك: «أثبت له».

(٢) هو إبراهيم بن السَّرِي بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، كان فاضلًا ديِّنًا حسن الاعتقاد، كان أول أمره يَخْرُط الزجاج، فأحب علم النحو، وله مصنفات حسنة، منها: «معاني القرآن وإعرابه» و«فعلت وأفعلت» وغيرها، توفي سنة (٣١١)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٦٠)، «البداية والنهاية» (١٥/ ٧).

(٣) نصُّ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٦): «ليس أنَّ السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن التأويلَ أنَّ السيئة تُمحى بالتوبة، وتكتب الحسنة مع التوبة، والكافر يُحْبِط الله عمله، ويثبت الله عليه السيئات» اهـ.

(٤) هو عبد الحق بن غالب، أبو محمد الغرناطي، المفسر الفقيه العارف بالأحكام والحديث، وله شعر، وولي قضاء المريَّة، وكان كثير الغزوات في جيوش المُلَثَّمِين، من كتبه: «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، توفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة. انظر: «طبقات المفسرين» (ص/ ٧٠) للسيوطي، «الأعلام» (٣/ ٢٨٢).

(٥) في س: «قاله ابن عباس وابن جرير». وهو غلط. وقد قدمت ترجمة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) في المطبوع من: «المحرر الوجيز» (١١/ ٧٧): «وردُّوا».

(٧) أي: أن السيئات نَفْسَها تنقلب إلى حسناتٍ يوم القيامة.

قال ابنُ عطيةَ: «وهو معنى كرمِ العفو»[١]، هذا آخرُ كلامِه.

قلت: [و][٢] سيأتي - إن شاء اللهُ - ذكرُ الحديثِ بلفظِه، والكلامُ عليه.

قال المهدويُّ[٣]: «ورُوي معنى هذا القولِ عن سلمانَ الفارسيِّ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ، وغيرِهما».

وقال الثعلبيُّ[٤]: «قال ابنُ عباسٍ وابنُ جريجٍ والضحاكُ وابنُ زيدٍ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: الآية ٧٠]: يبدلهم[٥] اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشركِ محاسنَ الأعمالِ في الإسلامِ، فيبدلهم بالشركِ إيمانًا، وبقتلِ المؤمنين قتلَ المشركين، وبالزنا عفةً وإحصانًا»[٦].

القولُ الثاني

وقال آخرون[٧]: يعني[٨] يبدلُ اللهُ سيئاتِهم التي عملُوها في حالِ إسلامِهم حسناتٍ يومَ القيامةِ.

أصلُ القولين

وأصلُ القولين أن هذا التبديلَ: هلْ هو في الدنيا أو يومَ القيامةِ؟

فمَنْ قال: «إنَّه في الدُّنيا» قال: «هو تبديلُ الأعمالِ القبيحةِ، والإراداتِ الفاسدةِ بأضدادِها[٩]، وهي حسناتٌ، وهذا تبديلُ حقيقةٍ».

حججُ القولِ الأولِ

والذين نصرُوا هذا القولَ احتجُّوا بأنَّ السيئةَ لا تنقلبُ حسنةً، بل غايتُها أن تُمحى

---

(١) انظر: «المحرَّر الوجيز» (١١/ ٧٧).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.

(٣) هو أحمد بن عمار، أبو العباس المهدوي التميمي، مقرئ أندلسي، أصله من المهدية، رحل إلى الأندلس في حدود (٤٠٨)هـ، وصنَّف كتبًا منها: «التفصيل الجامع لعلوم التنزيل»، وهو تفسير كبير مخطوط، توفي بعد سنة ثلاثين وأربعمائة. انظر: «طبقات النحاة» (١/ ٢٢٧) لابن قاضي شهبة، «طبقات المفسرين» (١/ ٥٦) للداودي.

(٤) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي، كان أوحد زمانه في علم القرآن، وله اشتغال بالتاريخ، قال ابن السمعاني: «يقال له: الثعلبي والثعالبي، وهو لقب لا نسب» اهـ من مصنفاته: «الكشف والبيان في تفسير القرآن» و«عرائس المجالس»، توفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة. انظر: «طبقات المفسرين» (١/ ٦٥) للداودي، «طبقات المفسرين» (ص/ ١٧) للسيوطي.

(٥) في ك: «يبدل».

(٦) وهو اختيار ابن جرير في «تفسيره»: «جامع البيان» (١٩/ ٣٠).

(٧) في ع: «وقال الآخرون».

(٨) في ع: «معنى».

(٩) في ع: «فمَن قال: «إنه في الدنيا» هل هو تبديل الأعمال... إلخ».

وتكفَّرُ ويذهبُ أثرُها، فأما أن تنقلبَ حسنةً فلا؛ فإنها[١] لم تكنْ طاعةً، وإنما كانت بغيضةً مكروهةً للربِّ، فكيف تنقلبُ[٢] محبوبةً له مرضيةً؟!.

قالوا: وأيضًا فالذي دلَّ عليه القرآنُ إنما هو تكفيرُ السيئاتِ ومغفرةُ الذنوبِ؛ كقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عِمران: الآية ١٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: الآية ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣]، والقرآنُ مملوءٌ من ذلك.

وفي «الصحيحِ» من حديثِ قتادةَ، عن صفوانَ بنِ محرزٍ[٣] قال: «قال رجلٌ لابنِ عمرَ: كيف سمعت رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ في النجوى؟

قال: سمعتُه يقولُ: «**يدنو المؤمنُ يومَ القيامةِ من ربِّه حتى يضعَ عليه كنفَه، فيقرره بذنوبِه، فيقولُ: هل تعرفُ؟ فيقولُ: ربِّ أعرفُ[٤]، قال: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا، وأنا[٥] أغفرُها لك اليومَ، فيُعطى صحيفةَ حسناتِه. وأما الكفارُ[٦] والمنافقون فيُنادى بهم[٧] على رؤوسِ الأشهادِ: «هؤلاءِ الذين كذَبوا على اللهِ ﷻ»**»[٨].

هذا الحديثُ المتفقُ عليهِ، الذي تضمنَ العنايةَ بهذا العبدِ إنما فيه سترُ ذنوبِه عليه في الدنيا، ومغفرتُها له يومَ القيامةِ، ولم يقلْ له: «وأعطيتُك[٩] بكلِّ سيئةٍ منها حسنةً»،

---

(١) في ك: «لأنها». (٢) في ك: «فكيف تكون».

(٣) هو صفوان بن محرز بن زياد المازني البصري، قال الأصمعي: «كان نازلًا فيهم، ولم يكن منهم»، وقال غيره: صفوان بن محرز الباهلي. روى عن جندب البجلي وابن عباس وابن عمر وابن مسعود وعمران بن حصين وغيرهم، وكان ذا فضل وورع، توفي سنة أربع وسبعين. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٨٦)، «تهذيب الكمال» (١٣/ ٢١١).

(٤) في س: «رب اغفر». (٥) في ع: «فأنا». (٦) في س: «وأما الكافرون».

(٧) في س: «فيناديهم».

(٨) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٧٤)، (١٠٥)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٢٤٤١)، ومسلم في «صحيحه»، رقم (٢٧٦٨)، قوله: «**حتى يضع عليه كنَفَه**»: أي: ستره وحرزه، كما فسره عبد الله بن المبارك، أحد رواة الحديث، كما عند البخاري في «خلق أفعال العباد»، رقم (٢٤٨)، (ص/ ٩٢)، قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٤٨٥): «. . . ومن رواه بالمثناة المكسورة فقد صحف، على ما جزم به جمع من العلماء» اهـ وانظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٢٠٥)، و«فتح الباري» (٥/ ١١٦).

(٩) في س: «فأعطيتُك».

فدلَّ على أن غايةَ السيئاتِ مغفرتُها وتجاوزُ اللهِ عنها، وقد قال تعالى في حقِّ الصادقين: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٥]، فهؤلاءِ خيارُ الخلقِ، وقد أخبر أنه يكفرُ عنهم سيئاتِ أعمالِهم، ويجزيهم بأحسنِ ما عملوا، وأحسنَ ما عملوا إنما هو الحسناتُ لا السيئاتِ.

فدلَّ على أن الجزاءَ بالحسنى إنما يكونُ[١] على الحسناتِ وحدَها، وأما السيئاتُ: فحسبُها أن تلغى[٢]، ويبطلُ أثرُها.

قالوا: وأيضًا فلو انقلبتِ السيئاتُ أنفسُها حسناتٍ في حقِّ التائبِ؛ لكان أحسنَ حالًا من الذي [لم][٣] يرتكبْ منها شيئًا، وأكثرَ حسناتٍ منه؛ لأنه إذا شاركَهُ في حسناتِه التي فعلها، وامتازَ عنه بتلك السيئاتِ، ثم انقلبَتْ له حسناتٍ ترجَّحَ عليه[٤]، وكيف يكونُ صاحبُ السيئاتِ أرجحَ ممن لا سيئةَ له؟!.

قالوا: وأيضًا فكما أن العبدَ إذا فعل حسناتٍ، ثم أتى بما يحبطُها فإنها لا تنقلبُ سيئاتٍ يعاقبُ عليها، بل يبطلُ أثرُها، ويكونُ لا له ولا عليه، وتكونُ عقوبتُه عدمَ ترتبِ ثوابِه عليها؛ فهكذا من فعلَ سيئاتٍ، ثم تابَ منها[٥]؛ فإنَّها لا تنقلبُ حسناتٍ.

فإن قلتم: وهكذا التائبُ يكونُ ثوابُه عدمَ ترتبِ العقوبةِ على سيئاتِه»؛ لم ننازعْكُم في هذا، وليس هذا معنى الحسنةِ؛ فإنَّ الحسنةَ تقتضي ثوابًا وجوديًّا.

حججُ القولِ الثاني

واحتجتِ الطائفةُ الأخرى - التي قالت: هو تبديلُ السيئةِ بالحسنةِ حقيقةً يومَ القيامةِ - بأن قالت: حقيقةُ التبديلِ إثباتُ الحسنةِ مكانَ السيئةِ، وهذا إنما يكونُ في السيئةِ المحققةِ، وهي التي قد فعلتْ ووقعتْ، فإذا بدلتْ حسنةً كان معناه أنها مُحيت، وأُثبت مكانَها حسنةٌ.

قالوا: ولهذا قال سبحانَه: ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفُرقان: الآية ٧٠]، فأضاف السيئاتِ إليهم؛ لكونِهم باشَرُوهَا واكتسبوها. ونكَّر الحسناتِ، ولم يضفْها إليهم؛ لأنها من غيرِ صنعِهم وكسبِهم، بل هي مجردُ فضلِ اللهِ وكرمِه.

قالوا: وأيضًا فالتبديلُ في الآيةِ إنما هو فعلُ اللهِ، لا فعلُهم؛ فإنه أخبرَ أنه هو يبدلُ

(١) في ع: «إنما تكون». (٢) في س: «أنْ تُلْقَى».

(٣) ما بين المعقوفين سقط من س. (٤) في ع: «رجح عليه»، وفي ك: «يرجح عليه».

(٥) في ع: «ثم مات عنها».

سيئاتِهم حسناتٍ، ولو كان المرادُ ما ذكرتم؛ لأضاف التبديلَ إليهم؛ فإنهم هم الذين بدَّلوا[(١)] سيئاتِهم حسناتٍ.

والأعمالُ إنما تضافُ إلى فاعلِها وكاسبِها كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٩]، وأما ما كان من غيرِ الفاعلِ، فإنه يجعلُ من تبديلِه [هو][(٢)] كما قال - تعالى -: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سَبَإ: الآية ١٦].

فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدلُ سيئاتِهم حسناتٍ؛ دلَّ[(٣)] على أنه شيءٌ فعله هو سبحانه بسيئاتِهم، لا أنهم فعلوه من تلقاءِ أنفسِهم، وإن كان سببُه منهم، وهو التوبةُ والإيمانُ والعملُ الصالحُ.

قالوا: ويدلُّ عليه ما رواه مسلمٌ في «صحيحِه» من حديثِ الأعمشِ[(٤)] عن المعرورِ ابن سويدٍ[(٥)] عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي لأعلمُ آخرَ أهلِ الجنةِ دُخولًا الجنةَ، وآخرَ أهلِ النارِ خروجًا منها: رجلٌ يُؤتَى به يومَ القيامةِ، فيقالُ: اعرضوا عليه صغارَ ذنوبِه، وارفعوا عنه كبارَها، فتعرضُ عليه[(٦)] صغارُ ذنوبِه، فيقالُ: عملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعم، لا يستطيعُ أن ينكرَ، وهو مشفقٌ من كبارِ ذنوبِه أن تعرضَ عليه، فيقالُ له: فإن لك[(٧)] مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عملتُ أشياءَ لا أراها هاهنا**» فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه»[(٨)].

---

(١) في ك وس: «يبدلون». (٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٣) في س: «فدلَّ». (٤) تقدمت ترجمته.

(٥) هو المعرور بن سُوَيْد الأسدي، أبو أمية الكوفي، روى عن ابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبي ذر وأم سلمة، قال العجلي: «كوفي تابعي ثقة»، وقال أبو حاتم: «ثقة»، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٥/ ٤٥٧)، وقال الأعمش: «رأيته وهو ابن عشر ومائة سنة أسود الرأس واللحية». توفي سنة ثلاث وثمانين. انظر: «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٣٠)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ٦٣).

(٦) في ك وس: «فيعرض عليه». (٧) في س: «فَلَكَ».

(٨) أخرجه مسلم، رقم (١٩٠)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٢٧٢٣)، واللفظ لمسلم، وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٠) مختصرًا. قوله: «حتى بدت نواجذه»: قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ٢٠): «. . . النواجذ من الأسنان: الضواحِك -وهي التي تبدو عند الضحك-، والأكثر والأشهر أنها أقصى الأسنان، والمراد الأول؛ لأنه ما كان يَبْلُغُ به الضحك حتى تبدوَ أواخر أضراسه، كيف وقد جاء في صفة ضَحِكِهِ: «**جُلُّ ضَحِكِهِ التبسُّم**؟» اهـ.

وقال الإمامُ أحمدُ: «حدثنا وكيعٌ، حدثنا الأعمشُ، عن المعرورِ بن سويدٍ، عن أبي ذرٍّ [قال](١): قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤتى بالرجلِ يومَ القيامةِ فيقالُ: اعرضوا عليه صغارَ ذنوبِه، قال: فتُعرض عليه، ويُخَبَّأ عنه كبارُها/ فيقالُ: عملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا وهو مقرٌّ، لا ينكرُ، وهو مشفقٌ من الكبارِ/ (٢)، فيقالُ: أعطوه مكانَ كلِّ سيئةٍ [عملَهَا](٣) حسنةً، قال: فيقولُ: إنَّ لي ذنوبًا ما أراها**»، فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه»(٤).

قالوا: وأيضًا فروى أبو حفصٍ المستملي(٥)، عن محمدِ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ أبي رزمةَ(٦)، حدثنا الفضلُ بنُ موسى القطيعيُّ(٧)، عن أبي العنبسِ(٨)، عن أبيه(٩)، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه(١٠) قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ليتمنينَّ أقوامٌ أنهم أكثروا من**

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٢) ما بين القائمين ليس في الأصل، وهو في باقي النسخ و«المسند».

(٣) ما بين المعقوفين ليس في «المسند».

(٤) «المسند» (٥/ ١٥٧).

(٥) هو عمر بن حفص المستملي الهمذاني. انظر: «المعجم في أسامي الشيوخ» رقم (٣٥٠) للإسماعيلي، و«الإكمال» (٤/ ٤٨٨) لابن ماكولا، و«الأنساب» (٥٠٧٦) للسمعاني.

(٦) هو محمد بن عبد العزيز بن أبي رِزمة واسمه: غزوان اليشكري مولاهم، أبو عمرو المروزي، قال أبو حاتم: «صدوق»، ووثقهُ الدارقطني، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٩/ ٩٥)، توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. انظر: «تهذيب الكمال» (٩/ ٣١٣)، «تهذيب التهذيب» (٢٦/ ٨).

(٧) في باقي النسخ: «القطعي». والمثبت هو الصواب. وهو الفضل بن موسى السِّيناني، أبو عبد الله المروزي، وسينان قرية من قرى مرو. وثقه ابن معين وابن سعد ووكيع، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٧/ ٣١٩)، توفي سنة (١٩١). انظر: «تهذيب الكمال» (٢٣/ ٢٥٤)، «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢١٠).

(٨) هو سعيد بن كثير بن عبيد القرشي التيمي، أبو العنبس الملائي الكوفي، وهو الأصغر، وثقه ابن معين والدارقطني، وقال أبو حاتم: «صالح الحديث»، وذكره ابن حبان في «الثقات» (١/ ١٦١)، وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص/ ٢٤٠)، رقم (٢٣٨١): «ثقة». انظر: «تاريخ الإسلام» (٦/ ٧٠)، «تهذيب الكمال» (٤/ ٧٣).

(٩) هو كثير بن عبيد القرشي التيمي، أبو سعيد الكوفي، روى عن زيد بن ثابت، وأبي هريرة، وأسماء بنت أبي بكر، وأختها عائشة رضي الله عنهم، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٥/ ٣٣٠)، وروى له البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود، وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص/ ٤٦٠)، رقم (٥٦١٩): «مقبول». وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٤/ ١٤٣).

(١٠) تقدمت ترجمته.

السيئاتِ»، قيل: منْ هم؟، قال: «**الذين بدلَّ اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ**»[(١)].

قالوا[(٢)]: وهؤلاءِ هم الأبدالُ في الحقيقةِ؛ فإنهم إنما سمُّوا أبدالًا؛ لأنهم بدَّلوا أعمالَهم السيئةَ بالأعمالِ الحسنةِ، فبدَّلَ اللهُ سيئاتِهم[(٣)] التي عملوها حسناتٍ.

قالوا: وأيضًا فالجزاءُ من جنسِ العملِ، فكما بدَّلوا هم أعمالَهم السيئةَ بالحسنةِ؛ بدلها اللهُ من صحفِ الحفظةِ حسناتٍ؛ جزاءً وفاقًا.

مناقشةُ أصحابِ القولِ الأولِ

قالتِ الطائفةُ الأولى: كيف يمكنكُم الاحتجاجُ بحديثِ أبي ذرٍّ على صحةِ قولِكم: وهو صريحٌ في أن هذا - الذي قد بُدِّلت سيئاتُه حسناتٍ - قد عُذِّب عليها في النارِ، حتى كان آخرَ أهلِها خروجًا منها؟!

فهذا قد عُوقب على سيئاتِه، فزالَ أثرُها بالعقوبةِ، فبُدل مكانَ كلِّ سيئةٍ منها حسنةً.

وهذا حكمٌ غيرُ ما نحن فيه؛ فإنَّ الكلامَ في التائبِ من السيئاتِ، لا فيمن ماتَ مصرًّا عليها، غيرَ تائبٍ [منها][(٤)] فأين أحدُهما من الآخرِ؟!.

أدلة القول الثاني

وأما حديثُ الإمامِ أحمدَ: فهو الحديثُ بعينِه إسنادًا ومتنًا، إلا أنه مختصرٌ، وأما حديثُ أبي هريرةَ: فلا يثبتُ مثلُه، ومَنْ أبو العنسِ ومَنْ أبوه حتى يُقْبَلَ منهما تفردُهما بمثلِ هذا الأمرِ الجليلِ؟ وكيف يصحُّ مثلُ هذا الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ مع شدةِ حرصِه على التنفيرِ من السيئاتِ، [وتقبيحِ أهلِها][(٥)] وذمِّهم وعيبِهم، والإخبارِ بأنها تنقصُ الحسناتِ، وتضادُّها؟!

فكيف يصحُّ عنه ﷺ أنه يقولُ: «**ليتمنينَّ أقوامٌ أنهم أكثرُوا منها**»؟! ثم كيف يتمنى المرءُ إكثارَه منها مع سوءِ عاقبتِها، وسوءِ مغبتِها؟! وإنما يُتمنى الإكثارُ من الطاعاتِ.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٥٢)، والديلمي في «الفردوس» (٣/ ٤٩٠)، رقم (٥٣٩٦): من طريق الفضل به، وأشار السيوطي في «الجامع الصغير» (٢/ ٤٤٧)، رقم (٧٥٤٩) إلى صحته، وقال المناوي: «وإسناده حسن» اهـ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٩٤٦)، رقم (٥٣٥٩)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥/ ٢٠٩)، رقم (٢١٧٧)، لكن قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص/ ٢٩٩): «وخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفًا، وهو أشبه من المرفوع» اهـ.

(٢) في ع: «قال».　　　(٣) في ك زيادة: «بالأعمال».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

(٥) ما بين المعقوفين ليس في س.

وفي الترمذي مرفوعًا: «**ليتمنينَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ أنَّ جلودَهم كانت تقرضُ بالمقاريضِ؛ لما يرون من ثوابِ أهلِ البلاءِ**»[(١)]، فهذا فيه تمني البلاءِ يومَ القيامةِ؛ لأجلِ مزيدِ ثوابِ أهلِه، وأما تمني الحسناتِ: فهذا لا ريبَ فيه، وأما تمني السيئاتِ: فكيف يتمنى العبدُ أنه أكثرَ[(٢)] من السيئاتِ؟!، هذا مما لا يكونُ أبدًا[(٣)]، وإنما يتمنى المسيءُ أن لو لم يكنْ أساءَ، وأما تمنيه أن يكونَ ازدادَ من إساءتِه فلا.

قالوا: وأما ما ذكرتُم من أن التبديلَ هو إثباتُ الحسنةِ مكانَ السيئةِ: فحقٌّ، وكذلك نقولُ: إنَّ الحسنةَ المفعولةَ صارتْ في مكانِ السيئةِ التي لولا الحسنةُ؛ لحلَّت محلَّها.

قالوا: وأما احتجاجُكم بإضافةِ السيئاتِ إليهم، وذلك يقتضي أن تكونَ هي السيئاتِ الواقعةَ، وتنكيرِ الحسناتِ، وهو يقتضي أن تكونَ حسناتٍ من فضلِ اللهِ: فهو حقٌّ لا ريبَ، ولكن من أين يبقى[(٤)] أن يكونَ فضلُ اللهِ بها مقارنًا لكسبِهم إياها بفضلِه؟!.

قالوا: وقولُكم[(٥)]: إن التبديلَ مضافٌ إلى اللهِ، لا إليهم، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدَّلها سبحانه من الصحفِ، لا أنهم[(٦)] هم الذين بدَّلوا الأعمالَ بأضدادِها: فهذا لا دليلَ لكم [فيه][(٧)]؛ فإنَّ اللهَ سبحانه خالقُ أفعالِ العبادِ، فهو المبدلُ للسيئاتِ حسناتٍ خلقًا وتكوينًا، وهم المبدلون لها فعلًا وكسبًا.

قالوا: وأما احتجاجُكم بأن الجزاءَ من جنسِ العملِ، فكما بدَّلوا سيئاتِ أعمالِهم بحسناتِهم[(٨)]؛ بدَّلَها اللهُ كذلك في صحفِ الأعمالِ»: فهذا حقٌّ، وبه نقولُ، وأنه بُدلت السيئاتُ التي كانت مهيأةً معدةً[(٩)] أن تحلَّ في الصحفِ حسناتٍ[(١٠)] حلت موضعَها. فهذا منتهى إقدامِ الطائفتين، ومَحَطُّ[(١١)] نظرِ الفريقين.

الحكمُ بين القولين

وإليك - أيُّها المنصفُ - الحكمُ بينهما؛ فقد أدلى كلٌّ منهما بحجتِه، وقامَ

---

(١) أخرجه الترمذي، رقم (٢٤٠٢)، عن جابر رضي الله عنه بلفظ: «**يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض**». وحسنه لشواهده الألباني في «تخريج أحاديث المشكاة» (١/ ٤٩٦)، وانظر: «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٤٦)، «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٠٤).

(٢) في باقي النسخ: «أنه كان أكثر».

(٣) في باقي النسخ: «هذا ما لا يكون أبدًا».

(٤) في باقي النسخ: «ولكن من أن ينفي».

(٥) في ك وس: «وأما قولكم».

(٦) في س: «لأنهم» وهو الصواب.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وباقي النسخ، ولابد منه.

(٨) في ع: «بمحاسنهم».

(٩) في س: «ومُعَدَّة».

(١٠) في ع وس: «بحسنات».

(١١) في س: «ومَحْظُ».

ببينتِه[١]، والحقُّ لا يعدوهما، ولا يتجاوزُهما، فأرشدَ اللهُ من أعانَ[٢] على هدىً، فنال به درجةَ الداعين إلى اللهِ، القائمين ببيانِ حججِه ودينِه، أو عَذَرَ طالبًا منفردًا في طريقِ مطلبِه، قد انقطعَ رجاؤُه من رفيقٍ في الطريقِ، فغايةُ أمنيَّتِه أن يُخلَّى بينه وبين سيرِه، وأن لا يُقطعَ عليه طريقُه.

فمن دُفِعَ له[٣] مثلُ هذا العلمِ، ولم يشمرْ إليه؛ فقد رضي بالدونِ، وحصلَ على صفقةِ المغبونِ، ومن شمَّرَ إليه، ورامَ أن لا يعارضَهُ معارضٌ، ولا يتصدَّى له ممانعٌ؛ فقد منَّى نفسَه المحالَ، وإنْ صبرَ على لَأْوائِها وشدتِها فهو - واللهِ - الفوزُ المبينُ، والحظُّ الجزيلُ، وما توفيقي إلا باللهِ، وإليه أنيبُ[٤].

فالصوابُ - إن شاء اللهُ - في هذهِ المسألةِ أن يقالَ: لا ريبَ أن الذنبَ نفسَه لا ينقلبُ حسنةً، والحسنةُ إنما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا، ولهذا كان تاركُ المنهياتِ إنما يثابُ على كفِّ نفسِه وحبسِها عن مواقعةِ المنهي، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، [و][٥] هو متعلقُ الثوابِ.

وأما من لم يخطرْ[٦] ببالِه الذنبُ أصلًا، ولم يُحدِّثْ به نفسَه؛ فهذا كيف يثابُ على تركِه؟!، ولو أثيب مثلُ هذا على تركِ هذا الذنبِ؛ لكان مثابًا على تركِ ذنوبِ العالَمِ التي لا تخطرُ[٧] ببالِه، وذلك أضعافُ حسناتِه بما لا يُحصى؛ فإن التركَ مستصحبٌ معه، والمتروكُ لا ينحصرُ، ولا ينضبطُ، فهل يثابُ على ذلك كلِّه؟! هذا مما لا يتوهم.

وإذا كانتِ الحسنةُ لا بدَّ أن تكونَ أمرًا وجوديًّا؛ فالتائبُ من الذنوبِ التي قد عملها قد قارن كلَّ ذنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفسَه عنه، وعزم[٨] على تركِ معاودتِه، وهذهِ حسناتٌ بلا ريبٍ، وقد محتِ التوبةُ أثرَ الذنبِ، وخلفَهُ هذا الندمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ قد بدلت السيئةَ حسنةً[٩].

وهذا معنى قولِ بعضِ المفسرين: «يجعلُ مكانَ السيئةِ التوبةَ، والحسنةُ مع

---

(١) في ك وس: «وأقام بينتَهُ». (٢) في ع: «مَنْ دَلَّ». (٣) في ك: «فمَنْ وقع له».
(٤) في باقي النسخ: «عليه توكلت، وإليه أنيب».
(٥) ما بين المعقوفين ليس في س. (٦) في س: «وأما مَنْ لا يخطر». (٧) في س: «التي لم تخطر».
(٨) في باقي النسخ: «وعَزْمه». (٩) في ع: «فقد بُدِّلت تلك السيئةُ حسنةً».

التوبةِ».

فإذا كانت كلُّ سيئةٍ من سيئاتِه قد تاب منها؛ فتوبتُه منها حسنةٌ حلَّت مكانَها.

فهذا معنى التبديلِ؛ لا أن[١] السيئةَ نفسَها تنقلبُ حسنةً، و[لهذا][٢] قال بعضُ المفسرين في هذهِ الآيةِ: «يعطيهم بالندمِ على كلِّ سيئةٍ أساؤوها حسنةً».

وعلى هذا فقد زالَ - بحمدِ اللهِ - الإشكالُ، واتضحَ الصوابُ، وظهرَ أن كلَّ واحدةٍ من الطائفتين ما خرجَتْ عن موجبِ العلمِ والحجةِ.

وأما حديثُ أبي ذرٍّ، وإن كان التبديلُ فيه في حقِّ المصرِّ الذي عُذِّبَ على سيئاتِه فهو يدلُّ بطريقِ الأولى[٣] على حصولِ التبديلِ للتائبِ المقلعِ[٤] النادمِ على سيئاتِه؛ فإن الذنوبَ التي عُذِّبَ عليها المصرُّ لما زال أثرُها بالعقوبةِ؛ بقيت كأنْ لم تكن، فأعطاه اللهُ مكانَ كلِّ سيئةٍ منها حسنةً؛ لأن ما حصل له يومَ القيامةِ من الندمِ المفرطِ عليها مع العقوبةِ اقتضى زوالَ أثرِها، وتبديلَها حسناتٍ؛ فإن الندمَ لم يكن في وقتٍ ينفعُه، فلما عوقب عليها، وزال أثرُها؛ بدَّلها اللهُ [له][٥] حسناتٍ، فزوالُ أثرِها بالتوبةِ النصوحِ أعظمُ من زوالِ أثرِها بالعقوبةِ.

فإذا بُدِّلَتْ بعدَ زوالِها بالعقوبةِ حسناتٍ: فَلأنْ تُبَدَّلَ بعد زوالِها بالتوبةِ حسناتٍ أَوْلى وأَحْرَى، وتأثيرُ التوبةِ في هذا المحوِ والتبديلِ أقوى من تأثيرِ العقوبةِ؛ لأن التوبةَ فعلٌ اختياريٌّ، أتى به العبدُ طوعًا ومحبةً للهِ، وفرقًا منه.

وأما العقوبةُ فالتكفيرُ بها من جنسِ التكفيرِ بالمصائبِ التي تصيبُه بغيرِ اختيارِه، بل بفعلِ اللهِ[٦]، ولا ريبَ أن تأثيرَ الأفعالِ الاختياريةِ التي يحبُّها اللهُ، ويرضاها في محوِ الذنوبِ[٧] أعظمُ من تأثيرِ المصائبِ التي تنالُه بغيرِ اختيارِه.

عودةٌ إلى مناقشةِ كلامِ ابنِ العريفِ على الزهدِ

ولنرجع الآنَ إلى المقصودِ، وهو الكلامُ على ما ذكره أبو العباسِ ابنُ العريفِ في عللِ المقامَاتِ؛ فقد ذكرنا كلامَه في علةِ مقامِ «الإرادةِ»، [والكلامِ عليه، وذكرنا كلامَه في مقامِ «الزهدِ»، وقولَه: «إنه من مقاماتِ العامةِ»][٨]، وذكرنا أن الكلامَ على

---

(١) في س: «لأنَّ». وهو خطأ.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من ك وس.
(٣) في ك: «بالطريق الأولى».
(٤) في س: «المقطع». وهو غلط.
(٥) ما بين المعقوفين ليس في ع.
(٦) في س: «بل فعل الله».
(٧) في ع: «أثر الذنوب».
(٨) ما بين المعقوفين سقط من ك وس.

ذلك من وجوهٍ، هذا آخرُ الوجهِ الثاني منها.

الوجهُ الثالثُ

الوجهُ الثالثُ أن يقالَ: قولُه: «الزهدُ تعظيمٌ للدنيا، واحتباسٌ عن الانتفاعِ بها . . .»[١] إلى آخرِ الفصلِ:

إن أراد به أن زهدَه دليلٌ على تعظيمِ الدنيا[٢]، وأن لها في قلبِه من القدرِ والمنزلةِ ما يكرَهُ لأجلِه نفسَه على تركِها، أو مستلزمٌ لذلك[٣]: فالزهدُ لا يدلُّ على هذا التعظيمِ، ولا يستلزمُه، وإن كان من عوارضِ غلباتِ الطبعِ[٤] التي تُذَمُّ مساكنتُها، وانحجابُ القلبِ بها، بل زهدُه فيها دليلٌ على خروجِ عظمِها من قلبِه، وقلةِ مبالاتِه بها، وتركِ الاهتبالِ بشأنِها[٥]، فكيف يكونُ هذا نقصًا بوجهٍ؟!.

بل النقصُ في الزهدِ يكونُ من أحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ:

إما أن يزهدَ فيما ينفعُه منها، ويكونَ قوةً له على سيرِه، ومعونةً له على سفرِه، فهذا نقصٌ؛ فإن حقيقةَ الزهدِ هي أن تزهدَ فيما لا ينفعُك[٦]، والورعُ أن تجتنبَ ما قد يضرُّك. فهذا الفرقُ بين الأمرين[٧].

الثاني: أن يكونَ زهدُه مشوبًا: إما بنوعِ عجزٍ، أو ملالةٍ وسآمةٍ، وتأذيهِ بها وبأهلِها، وتعبِ قلبِه بشغلِه بها، ونحوِ هذا من المزهداتِ فيها، كما قيل لبعضِهم: ما الذي أوجبَ زهدَك في الدنيا؟ قال: «قلةُ وفائِها، وكثرةُ جفائِها، وخسةُ شركائِها».

فهذا زهدٌ ناقصٌ؛ فلو صَفَتْ للزاهدِ من تلك العوارضِ؛ لم يزهدْ فيها، بخلافِ من كان زهدُه فيها لامتلاءِ قلبِه من الآخرةِ، ورغبتِه في اللهِ وقربِه، فهذا لا نقصَ في زهدِه، ولا علةَ من جهةِ كونِه زهدًا.

---

(١) في ع وك: «واحتباس عن انتقادها»، وفي س: «واحتباس عن انقيادها».

(٢) في ع: «تعظيمه للدنيا»، وفي ك: «تعظيمٍ للدنيا».

(٣) في ع: «أنْ يستلزم لذلك»!. (٤) في ع: «الطباع».

(٥) في هامش س: «لعله: الاحتفاء بشأنها». (٦) في ك: «فيما لا ينفعك منها».

(٧) قال المؤلف في «مدارج السالكين» (٢/ ١٠): «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدَّس الله روحه- يقول: «الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما يخاف ضرره في الآخرة»، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها» اهـ. وقد بسط شيخ الإسلام الكلام على هذا كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١٥-٦١٩)، وانظر: «أنوار البروق» (٤/ ٢١٠) للقرافي.

الثالثُ: أنْ يشهدَ زهدَه، ويلحظَهُ، ولا يفنى عنه بما زهد لأجلِه، فهذا نقصٌ أيضًا؛ فالزهدُ كلُّه أن تزهدَ في رؤيةِ زهدِك، وتغيبَ برؤيةِ الفضلِ ومطالعةِ المنةِ، وأن لا تقفَ عنده فتنقطعَ، بل أعرضْ عنه جادًّا في سيرِك غيرَ ملتفتٍ إليه، مستصغرًا لحالِه بالنسبةِ [إلى مطلوبِك][١].

مع أن هذهِ العلةَ مطردةٌ في جميعِ المقاماتِ على ما فيها، كما سننبِّهُ عليه[٢] إن شاء اللهُ؛ فإن ربطَ هذا الشأنِ بالنصوصِ النبويةِ، والعقلِ الصريحِ، والفطرةِ الكاملةِ من أهمِّ الأمورِ، فلا يحسنُ بالناصحِ لنفسِه أن يقنعَ فيه بمجردِ تقليدِ أهلِه، فما أكثرَ غلطَهم فيه، وتحكيمَهم [فيه][٣] مجردَ الذوقِ، وجعلَ [حُكْمِ][٤] ذلك الذوقِ كليًّا عامًّا، فهذهِ ونحوُهَا[٥] من مثاراتِ الغلطِ.

الوجهُ الرابعُ

الوجهُ الرابعُ: إن الزهدَ على أربعةِ أقسامٍ:

- **أحدها**: فرضٌ على كلِّ مسلمٍ، وهو الزهدُ في الحرامِ.

وهذا متى أُخِلَّ به انعقَدَ سببُ العقابِ، فلا بدَّ من وجودِ مسببِهِ ما لم ينعقدْ سببٌ آخرُ يضادُّه.

- **الثاني**: زهدٌ مستحبٌ، وهو على درجاتٍ [في][٦] الاستحبابِ بحسبِ المزهودِ فيه، وهو الزهدُ في المكروهِ، وفضولِ المباحاتِ، والتفننِ في الشهواتِ المباحةِ.

- **الثالث**: زهدُ الداخلين في هذا الشأنِ، وهم المشمِّرُون في السيرِ إلى اللهِ، وهو نوعان:

أحدُهما: الزهدُ في الدنيا جملةً، وليس المرادُ تخليتَها من اليدِ، ولا إخراجَها وقعودَه صفرًا منها، وإنما المرادُ إخراجُها من قلبِه بالكليةِ؛ فلا يلتفتُ إليها، ولا يدعُها تساكنُ قلبَه وإن كانت في يدِه.

فليس الزهدُ أن تتركَ الدنيا من يدِك، وهي في قلبِك، وإنما الزهدُ أن تتركَها من قلبِك، وهي في يدِك.

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ع.
(٢) في ع: «كما سينبه عليه».
(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.
(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.
(٥) في ك: «فهذا ونحوه».
(٦) ما بين المعقوفين ليس في ع.

وهذا كحالِ الخلفاءِ الراشدين، وعمرَ بنِ عبدِالعزيزِ[١] الذي يُضربُ بزهدِه المثلُ مع أن خزائنَ الأموالِ تحت يدِه، بل كحالِ سيدِ ولدِ آدمَ ﷺ حيثُ فتحَ [اللهُ][٢] عليه من الدنيا ما فتحَ، ولا يزيدُه ذلك إلا زُهدًا فيها.

ومن هذا الأثرُ المشهورُ - وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا -: «**ليس الزهدُ في الدنيا بتحريمِ الحلالِ، ولا إضاعةِ المالِ، ولكن الزهدُ في الدنيا أن تكونَ بما في يدِ اللهِ أوثقَ منك بما في يدِك، وأن تكونَ في ثوابِ المصيبةِ - إذا أصبتَ بها - أرغبَ منك فيها لو أنها بقيتْ لك**»[٣].

والذي يصححُ هذا الزهدَ ثلاثةُ أشياءَ:

أحدها: علمُ العبدِ أنها ظلٌّ زائلٌ، وخيالٌ زائرٌ، وأنها كما قال تعالى فيها: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾ [الحديد: الآية ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: الآية ٤٥].

وسمَّاها سبحانه متاعَ الغرورِ، ونهى عن الاغترارِ بها، وأخبرنا عن سوءِ عاقبةِ المغترِّين [بها][٤]، وحذرنا مثلَ مصارعِهم، وذمَّ من رضي بها، واطمأنَّ إليها.

وقال النبيُّ ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكبٍ قَالَ في ظلِّ شجرةٍ، ثم رَاحَ**

---

(١) سبقت ترجمته. (٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٣) أخرجه الترمذي، رقم (٢٤٤٣)، وابن ماجه، رقم (٤١٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، رقم (١٠٧٧٤)، وفي إسناده عمرو بن واقد الدمشقي وهو متروك، قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو إدريس الخولاني اسمه: عائذ بن عبد الله، وعمرو بن واقد منكر الحديث» اهـ، وقال في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٩): «. . . رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه عمرو بن واقد، وقد ضعفه الجمهور، وقال محمد بن المبارك: كان صدوقًا، وبقية رجاله ثقات» اهـ، وقال الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (ص/ ٣٣٧): «ضعيف جدًّا» اهـ.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

وتَرَكَهَا»(١)، وفي «المسندِ» عنه ﷺ حديثُ معناه: **«إن اللهَ جعل طعامَ ابنِ آدمَ، وما يخرجُ منه مثلًا للدنيا؛ فإنه، وإن قَزَحَه وملحَه فلينظرْ إلى ماذا يصيُر»**(٢)، فما اغترَّ بها،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٩١)، (٤٤١)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٢٤٨٣)، وابن ماجه في «سننه»، أبواب الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (٤١٠٩)، وأبوداود الطيالسي في «مسنده»، رقم (٣٦)، (ص/ ٢٧٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٣٠)، والبغوي في «شرح السنة»، كتاب: الرقاق، رقم (٤٠٣٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح» اهـ. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثَّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، فقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: **«ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»** . وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٤٣٨)، و«فقه السيرة»، رقم (٤٧٨).

(٢) ولفظه: **«إنَّ مطعَم ابن آدم جُعل مثلًا للدنيا، وإنْ قزحه وملحه فانظروا إلى ما يصير»**. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٦)، وأحمد في «الزهد» رقم (٢٠٥)، وابن المبارك في «الزهد» (٢) (١٦٩)، رقم (٤٩٤)، (٤٩٥)، وأبوداود الطيالسي في «المسند» (١/ ٤٤٣)، رقم (٥٥١)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص/ ٨٢)، رقم (٢٠٥)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (ص/ ٣١٦)، رقم (٢٦٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٩٨)، رقم (٥٣١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٤٧٦)، رقم (٧٠٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٥٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٢٥٩)، رقم (٥٢٦٤)، (٥٢٦٥)، وفي «الزهد الكبير» (ص/ ١٧٦)، رقم (٤١٢): من طريق عتي بن ضمرة التميمي، عن أُبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، وألفاظهم متقاربة.

وأخرجه موقوفًا: ابن أبي الدنيا في «الجوع» (ص/ ١٠٨)، رقم (١٦٦)، وفي «التواضع والخمول» (ص/ ٢٠٣)، رقم (٢١١)، وابن المبارك في «الزهد الكبير» (ص/ ١٦٩)، رقم (٤٩٣)، وأبو داود الطيالسي في «المسند» (١/ ٤٤٢)، رقم (٥٥٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٥٤).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٨): «أخرجه عبد الله بن أحمد في «زياداته على مسند أحمد»، والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح غير عتي، وهو ثقة» اهـ، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٧٨): «رواه عبد الله بن أحمد في «زوائده» بإسناد جيد قوي» اهـ، وأشار السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٢٤٥٠) إلى أنه حسن، وحسنه الألباني كما في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١/ ٤٣٨)، رقم (٢١٩٥)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٢٣٨٢). وله شاهد من حديث الضحاك بن سفيان الكلابي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا ضحاك، ما طعامك؟»** قال: يا رسول الله، اللحم واللبن. قال: **«ثم يصير إلى ماذا؟»** قال: إلى ما قد علمت. قال: **«فإن الله -تبارك وتعالى- ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلًا للدنيا»** . أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٣/ ٤٥٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٣٥٨)، رقم (٨١٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٢٦١)، رقم (٥٢٦٦)، قال الهيثمي في =

ولا سكنَ إليها إلا ذو همَّةٍ دنيَّةٍ، وعقلٍ حقيرٍ، وقدرٍ خسيسٍ.

- **الثاني**: علمُه أنَّ وراءَها دارًا أعظمَ منها قدرًا، وأجلَّ خطرًا، وهي دارُ البقاءِ، وأن نسبتَها إليها كما قال النبيُّ ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرةِ إلا كما يُدخلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِّ، فلينظرْ بم ترجعُ»**(١).

فالزاهدُ فيها بمنزلةِ رجلٍ في يدِه درهمٌ زغلٍ قيل له: «اطرحْه، ولك عوضُه مائةُ ألفِ دينارٍ مثلًا»(٢)، فألقاه من يدِه، رجاءَ ذلك العوضِ.

فالزاهدُ فيها؛ لكمالِ رغبتِه فيما هو أعظمُ منها زهدٌ فيها.

- **الثالثُ**: معرفتُه أن زهدَه فيها لا يمنعُه شيئًا كُتب له منها(٣)، وأن حرصَه عليها لا يجلبُ له ما لم يقضَ له منها، فمتى تيقن ذلك، وصار له علمُ يقينٍ؛ هان عليه الزهدُ

= «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٨): «رجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان، وقد وثِّق» اهـ، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٤٣): «رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح إلا علي بن زيد بن جدعان» اهـ.

وآخر من حديث أبي عثمان النهدي، عن سلمان رضي الله عنه قال: «جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: **«ألكم طعام؟»** قالوا: نعم. قال: **«فلكم شراب؟»** قالوا: نعم. فقال: **«فتصفونه؟»** قالوا: نعم. قال: **«وتبردونه؟»** قالوا: نعم. قال: **«فإن معادهما كمعاد الدنيا؛ يقوم أحدكم إلى خلف بيته فيمسك على أنفه من نتنه»** أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (ص/ ١٠٩)، رقم (١٦٧)، وابن المبارك في «الزهد الكبير» (ص/ ١٧٠)، رقم (٤٩١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٣٠)، رقم (٦١١٩)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٨): «ورجاله رجال الصحيح» اهـ.

قوله: **«وإن قَزَّحَه ومَلَّحه»**: قال الزمخشري في «الفائق في غريب الحديث» (٣/ ١٨٩): «أي: تَوْبَلَه، من: «القَزْح» وهو التابَلُ، و«ملَّحه» من: «مَلَح القِدْرَ» -بالتخفيف- إذا ألقى ملحًا بقَدَر، وأما: «مَلَّحَها» و«أَمْلَحَها» فإذا أكثر ملحها حتى تفسد، ومنه قالوا: «رجلٌ مليحٌ قَزِيحٌ»؛ شُبِّه بالمَطْعم الذي طُيِّب بالملح والقزْح» اهـ. وقال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٥٨): «والمعنى: أن المَطْعم وإن تكلف الإنسان التنوُّق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يُكره ويُستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها، ونَظْم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار» اهـ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٩)، ومسلم، رقم (٢٨٥٨)، والترمذي، رقم (٢٣٢٣)، وابن ماجه، رقم (٤١٠٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٢)، (٤/ ٣١٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد...» اهـ، ووافقه الذهبي، عن المستورد بن شداد رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) في ك: «اطرحه، فلك عوضه، فلك مائة ألف دينار مثلًا».

(٣) في ع: «فيها».

فيها؛ فإنه متى تيقنَ ذلك، وثلجَ له صدرُه، وعَلِمَ أن مضمونَه منها[١] سيأتيه؛ بقي حرصُه وتعبُه وكدُّه ضائعًا، والعاقلُ لا يرضى لنفسِه بذلك.

فهذِهِ الأمورُ الثلاثةُ تُسَهِّلُ على العبدِ الزهدَ فيها، وتثبتُ قدمَه في مقامِه، واللهُ الموفقُ لمن يشاءُ.

- **النوعُ الثاني**: الزهدُ في نفسِك، وهو أصعبُ الأقسامِ وأشقُّها، وأكثرُ الزاهدين إنما وصلُوا إليه، ولم يَلِجُوه[٢]؛ فإن الزاهدَ يُسَهِّلُ عليه الزهدَ في الحرامِ سوءُ مغبتِه، وقبحُ ثمرتِه، وحمايةً لدينِه[٣]، وصيانةً لإيمانِه، وإيثارًا للذةِ والنعيمِ على العذابِ، وأنفةً من مشاركةِ الفساقِ والفجرةِ، وحميةً من أن يستأسرَ لعدوِهِ.

ويُسَهِّلُ عليه الزهدَ في المكروهاتِ وفضولِ المباحاتِ علمُه بما يفوتُه بإيثارِها من اللذةِ والسرورِ الدائمِ والنعيمِ المقيمِ.

ويُسَهِّلُ عليه زهدَه في الدنيا معرفتُه بما وراءَها، وما يطلبُه من العوضِ التامِّ، والمطلبِ الأعلى.

وأما الزهدُ في النفسِ فهو ذبحُها بغيرِ سكينٍ، وهو نوعان:

أحدُهما: وسيلةٌ وبدايةٌ، وهو أن تميتَها فلا يبقى لها عندك من القدرِ شيءٌ[٤]، فلا تغضبُ لها، ولا ترضى لها، ولا تنتصرُ لها، ولا تنتقمُ لها، قد سُلِبْتَ عرضَها ليومِ فقرِها وفاقتِها[٥]، فهي أهونُ عليك من أن تنتصرَ لها، [أو تنتقمَ لها][٦]، أو تجيبَهَا إذا دعتك، أو تكرمَهَا إذا عصتك، أو تغضبَ لها إذا ذُمَّتَ، بل هي عندك أبخسُ[٧] مما قيلَ فيها، أو ترفِهَهَا[٨] عما فيه حظُّك وفلاحُك، وإن كان صعبًا عليها. وهذا وإن كان ذبحًا لها، وإماتةً عن طباعِها وأخلاقِها؛ فهو عينُ حياتِها وصحتِها، ولا حياةَ لها بدونِ هذا ألبتةَ. وهذه العقبةُ هي آخرُ عقبةٍ يُشْرِفُ منها على منازلِ المقرَّبين، وينحدرُ منها إلى وادي البقاءِ، ويشربُ من عينِ الحياةِ، ويخلِّصُ روحَه[٩] من سجونِ المحنِ والبلاءِ

---

(١) في ع: «فيها». (٢) في ع: «ولم يلحقوه». (٣) كذا في جميع النسخ.

(٤) في ع: «فلا تبقي لها عندك من القَدْر شيئًا».

(٥) أي: جعلته في سبيل الله -تعالى- ليوم القيامة. انظر: «القاموس» (ص/ ١٣٠٨).

(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٧) في ك وس: «أخس». (٨) في ك: «أو ترفعها».

(٩) في ك: «ويخلص نفسه وروحه»، وفي ع: «وتخلص روحه».

وأسرِ الشهواتِ، وتتعلقُ بربِّها ومعبودِها ومولاها الحقِّ، فيا قرةَ عينِها به، ويا نعيمَها وسرورَها بقربِه، ويا بهجتَها بالخلاصِ من عدوِّها، ومصيرِها إلى وليِّها ومولاها ومالِكِ أمرِها ومتولي مصالحِها، وهذا الزهدُ هو أولُ نقدةٍ من مهرِ الحبِّ، فيا مفلسُ تأخرْ.

- **والنوعُ الثاني**: غايةٌ وكمالٌ، وهو أن تبذلَهَا[١] للمحبوبِ جملةً؛ بحيثُ لا تستبقي[٢] منها شيئًا بل تزهدُ[٣] فيها زهدَ المحبِّ في قدرٍ خسيسٍ من مالِه، قد تعلقتْ رغبةُ محبوبِه به، فهل يجدُ[٤] من قلبِه رغبةً في إمساكِ ذلك القدرِ، وحبسِه عن محبوبِه؟!.

فهكذا زهدُ المحبِّ الصادقِ في نفسِه قد خرجَ عنها، وسلَّمَها لربِّه، فهو يبذلُها له دائمًا بتعرضٍ منه[٥] لقبولِها.

وجميعُ مراتبِ الزهدِ المتقدمةِ مبادٍ ووسائلُ لهذهِ المرتبةِ، ولكن لا تصحُّ إلا بتلك المراتبِ، فمن رامَ الوصولَ إلى هذهِ المرتبةِ بدونِ ما قبلَها فمُتَعَنٍّ مُتمنٍّ، كمن رامَ الصعودَ إلى أعلى المنارةِ بلا سلمٍ [كما][٦] قال بعضُ السلفِ: «إنما حُرِموا الوصولَ بتضييعِ الأصولِ، فمن ضيَّعَ الأصولَ؛ مُنِعَ الوصولَ».

وإذا عُرف هذا، فكيف يُدَّعى أن الزهدَ من منازلِ العوامِّ، وأنه نقصٌ في طريقِ الخاصةِ؟! وهل الكمالُ إلا في الزهدِ؟! وما النقصُ إلا في نقصانِه، واللهُ الموفقُ للصوابِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) في ك: «أنْ يبذلها». (٢) في ك وس: «لا يستبقي». (٣) في ك وس: «بل يزهد».

(٤) في ع: «تجد». (٥) في ع وس: «يتعرض منه»، وفي ك: «معرض منه».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

فصلٌ

المثالُ الثالثُ: التوكلُ

المثالُ الرابعُ: «التوكلُ»[١]:

قال أبو العباسِ[٢]: «هو للعوامِّ أيضًا[٣]؛ لأنه كِلتُكَ أمرَك إلى مولاكَ، والتجاؤُك إلى علمِه ومعرفتِه؛ لتدبيرِ أمرِك وكفايةِ همِّك[٤].

كلامُ ابنِ العريفِ على التوكلِ

وهذا في طريقِ الخواصِّ عِمىً عن الكفايةِ[٥]، ورجوعٌ إلى الأسبابِ؛ لأنك رفضتَ الأسبابَ، ووقفتَ مع التوكلِ، فصار بدلًا عن تلك الأسبابِ؛ فإنك[٦] معلقٌ بما رفضتَهُ من حيثُ معتقدُك الانفصالَ[٧].

وحقيقةُ التوكلِ عندَ القومِ: التوكلُ في تخليصِ القلبِ من علةِ التوكلِ، وهو أن يعلمَ أن اللهَ تعالى لم يتركْ أمرًا مهملًا، بل فرغَ من الأشياءِ، وقدَّرها، وإن اختلفَ منها شيءٌ في العقولِ[٨]، أو تشوَّشَ في المحسوسِ، أو اضطربَ في المعهودِ؛ فهو المدبِّرُ له، وشأنُه سوقُ المقاديرِ إلى المواقيتِ.

والمتوكلُ[٩] مَنْ أراحَ نفسَه من كدِّ النظرِ في مطالعةِ السببِ[١٠]؛ سكونًا إلى ما سبقَ من القسمةِ مع استواءِ الحالين عندَه، وهو أن يعلمَ أن الطلبَ لا يَجْمَعُ، والتوكُّلَ لا يَمْنَعُ[١١]، ومتى طالعَ بتوكلِه عرضًا[١٢]؛ كان توكلُه مدخولًا، وقصدُه معلولًا.

---

(١) كذا في جميع النسخ، وهو المثال الثالث كما في «محاسن المجالس» (ص/ ٥) فقد تقدم: المثال الأول - وهو الإرادة- والثاني -وهو الزهد.

(٢) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥-٦).

(٣) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «وأما التوكل فإنه للعوامِّ أيضًا».

(٤) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «والتجاؤك إلى علمه ورأفته؛ ليدبر أمرك ويكفيك همك».

(٥) في س: «عن الكفاية به».

(٦) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥)، وع: «فكأنك».

(٧) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «الانفصالَ عنه».

(٨) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «في المعقول».

(٩) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «فالمتوكِّل».

(١٠) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «من كدِّ النظر ومطالعة السبب»، وفي ك وس: «من كل النظر في مطالعة السبب».

(١١) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥) زيادة: «إذ الله بالغ أمره».

(١٢) في «محاسن المجالس» (ص/ ٥): «عوضًا».

مناقشتُهُ من وجوهٍ

فإذا خلص من رقِّ هذهِ الأسبابِ، ولم يلاحظْ في توكلِه سوى خالصِ حقِّ اللهِ؛ كفاه اللهُ تعالى كلَّ مُهمٍّ».

ثم ذكر حكايةً عن موسى ﷺ أنه في رعايتِه نامَ عن غنمِه، فاستيقظَ، فوجد الذئبَ واضعًا عصَاهُ على عاتقِه يرعاها، فعجبَ من ذلك؛ فأوحى اللهُ إليه: «يا موسى كنْ لي كما أريدُ؛ أكنْ لك كما تريدُ»(١). فيقالُ: الكلامُ على هذا من وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ

- **أحدُها**: أنَّ جعلَه التوكلَ من منازلِ العوامِّ باطلٌ - كما تقدم - بلِ الخاصَّةُ أحوجُ إليه من العامَّةِ، وتوكلُ الخواصِّ أعظمُ من توكلِ العوامِّ.

والتوكلُ مصاحبٌ للصادقِ من أولِ قدمٍ يضعُه في الطريقِ إلى نهايتِه، وكلما ازدَادَ قربُه، وقوي سيرُه؛ ازدَادَ تَوكلُه، فالتوكلُ مركبُ السائرِ الذي لا يتأتى له السيرُ إلا به، ومتى نزلَ عنه انقطَعَ لوقتِه.

وهو من لوازمِ الإيمانِ ومقتضياتِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣]، فجعل التوكلَ شرطًا في الإيمانِ، فدلَّ على انتفاءِ الإيمانِ عند انتفاءِ التوكلِ، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: الآية ٨٤]، فجعل دليلَ صحةِ الإسلامِ التوكلَ، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١، ١٦٠، المائدة: ١١، التوبة: ٥١، إبراهيم: ١١، المجادلة: ١٠، التغابن: ١٣]، فذكرُ اسمِ الإيمانِ ههنا دونَ سائرِ أسمائِهم دليلٌ على استدعاءِ الإيمانِ للتوكلِ، وأن قوةَ التوكلِ وضعفَه بحسبِ قوةِ الإيمانِ وضعفِه، وكلما قوي إيمانُ العبدِ؛ كان توكلُه أقوى(٢)، وإذا ضعُفَ الإيمانُ؛ ضعُفَ التوكلُ، وإذا كان التوكلُ ضعيفًا؛ فهو دليلٌ على ضعفِ الإيمانِ ولا بد.

ذكرُ التوكلِ في القرآنِ

واللهُ تعالى يجمعُ بين التوكلِ والعبادةِ، و[بين](٣) التوكلِ والإيمانِ، وبين التوكلِ والتقوى، وبين التوكلِ والإسلامِ، وبين التوكلِ والهدايةِ:

فأما التوكلُ والعبادةُ فقد جمع سبحانه بينهما في سبعةِ مواضعَ من كتابِه:

- **أحدُها**: في سورةِ «أمِّ القرآنِ»، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(١) انظر: «محاسن المجالس» (ص/ ٥-٦).

(٢) في ك: «وكلما قوي إيمان العبد قوي توكله، كان توكله أقوى»!. وفيها تكرار.

(٣) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

والثاني: قولُهُ حكايةً عن شعيبٍ أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: الآية ٨٨].

والثالثُ: قولُهُ حكايةً عن أوليائِه وعبادِه المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المُمتحنة: الآية ٤].

والرابعُ: قولُه تعالى لنبيِّهِ محمدٍ ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨، ٩].

والخامِسُ: قولُه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هُود: الآية ١٢٣][(١)].

السادسُ: قولُه تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحَج: الآية ٧٨].

السابعُ: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرّعد: الآية ٣٠].

فهذه سبعةُ مواضعَ[(٢)] جمعت الأصلين: التوكلَ - وهو[(٣)] الوسيلةُ - والإنابةَ - وهي الغايةُ - فإن العبدَ لابدَّ له من غايةٍ مطلوبةٍ، ووسيلةٍ موصلةٍ إلى تلك الغايةِ، فأشرف غاياتِه التي لا غايةَ له أجلُّ منها: عبادةُ ربِّه والإنابةُ إليه. وأعظمُ وسائلِه التي لا وسيلةَ له غيرُها ألبتةَ التوكلُ على اللهِ، والاستعانةُ به، ولا سبيلَ له إلى هذهِ الغايةِ إلا بهذهِ الوسيلةِ، فهذهِ أشرفُ الغاياتِ، وتلك أشرفُ الوسائلِ.

وأما الجمعُ بين الإيمانِ والتوكلِ: ففي مثلِ قولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المُلك: الآية ٢٩]، ونظيرُه قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٣]، وقولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٢].

وأما الجمعُ بين التوكلِ والإسلامِ: ففي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يُونس: الآية ٨٤].

---

(١) في ع وك: «يعملون» بالتحتية، وهي قراءة أبي عمرو، وابن كثير، وشعبة، والكسائي، وقرأها بالفوقية نافع، وابن عامر وحفصٌ.

(٢) في باقي النسخ: «فهذه السبعة مواضع».

(٣) في ك وس: «وهي».

وأما الجمعُ بين التقوى والتوكلِ: ففي مثلِ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١- ٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

وأما الجمعُ بين التوكلِ والهدايةِ: ففي قولِ الرسلِ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم - لقومِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: الآية ١٢]، وقال ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل: الآية ٧٩]، فأمر سبحانه رسولَه بالتوكلِ عليه، وعَقَّبَ هذا الأمرَ بما هو موجبٌ للتوكلِ، مصححٌ له، مستدعٍ لثبوتِه وتحققِه، وهو قولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: الآية ٧٩]؛ فإن كونَ العبدِ على الحقِّ يقتضي تحقيقَ مقامِ التوكلِ على اللهِ، والاكتفاءِ به، والإيواءِ إلى ركنِه الشديدِ؛ فإن اللهَ هو الحقُّ، وهو وليُّ الحقِّ وناصرُه ومؤيدُه، وكافي مَنْ قام به، فما لصاحبِ الحقِّ ألَّا يتوكلَ عليه، وكيف يخافُ وهو على الحقِّ؟! كما قالتِ الرسلُ لقومِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: الآية ١٢]، فعجبوا من تركِهم التوكلَ على اللهِ وقد هداهم، فأخبرُوا[1] أن ذلك لا يكونُ أبدًا.

وهذا دليلٌ على أنَّ الهدايةَ والتوكلَ متلازمان، فصاحبُ الحقِّ لعلمِه بالحقِّ، وليقينِه[2] بأنَّ اللهَ وليُّ الحقِّ وناصرُه - مضطرٌ إلى توكلِه على اللهِ، لا يجدُ بُدًّا من توكلِه؛ فإن التوكلَ يجمعُ أصلين: علمَ القلبِ وعملَه:

التوكلُ يجمعُ علمَ القلبِ وعملَهُ

أما علمُه: فيقينُه بكفايةِ وكيلِه، وكمالِ قيامِه بما وكلَه إليه، وأن غيرَه لا يقومُ مقامَه في ذلك.

وأما عملُه: فسكونُه إلى وكيلِه وطمأنينتُه[3] إليه وتفويضُه وتسليمُه أمرَه إليه، ورضاه بتصرفِه له فوق رضاه بتصرفِه هو لنفسِه.

فبهذين الأصلين يتحققُ التوكلُ، وهما جماعُه، وإن كان التوكلُ أُدخِلَ في عملِ القلبِ من علمِه - كما قال الإمامُ أحمدُ: «التوكلُ عملُ القلبِ» -، ولكن لابدَّ فيه من العلمِ، وهو إما شرطٌ[4]، وإما جزءٌ من ماهيتِه.

---

(١) في باقي النسخ: «وأخبروا». (٢) في باقي النسخ: «ولثقته». (٣) في س: «والطمأنينة».
(٤) في باقي النسخ: «إما شرطٌ فيه».

والمقصودُ أن القلبَ متى كان على الحقِّ؛ كان أعظمَ لطمأنينتِه ووثوقِه بأنَّ اللهَ وليُّه وناصرُه، وسكونُه إليه، فما له أن لا يتوكلَ على ربِّه؟!.

وإذا كان على الباطلِ علمًا وعملًا، أو أحدَهما؛ لم يكن مطمئنًّا واثقًا بربِّه؛ فإنه لا ضمانَ له عليه، ولا عهدَ له عنده؛ فإنَّ اللهَ سبحانه لا يتولى الباطلَ، ولا ينصرُه، ولا يُنسبُ إليه بوجهٍ، فهو منقطعُ النسبِ إليه[١] بالكليةِ؛ فإنَّه سبحانه هو الحقُّ[٢]، وقولُه الحقُّ، ودينُه الحقُّ، ووعدُه حقٌّ[٣]، ولقاؤُه حقٌّ، وفعلُه كلُّه حقٌّ، ليس في أفعالِه شيءٌ باطلٌ، بل أفعالُه بريئةٌ من الباطلِ، كما أقوالُه سبحانه كذلك.

فلما كان الباطلُ لا يتعلقُ به سبحانه، بل هو مقطوعُ النسبةِ إليه[٤]؛ كان صاحبُه كذلك، ومن لم يكنْ له تعلقٌ باللهِ[٥]، وكان منقطعًا عن ربِّه؛ لم يكنِ اللهُ وليَّه، ولا ناصرَه، ولا وكيلَه، فتدبرْ هذا السرَّ العظيمَ في اقترانِ التوكلِ والكفايةِ بالحقِّ والهدى، وارتباطِ أحدِهما بالآخرِ.

ولو لم يكنْ في هذهِ الرسالةِ إلا هذهِ الفائدةُ السرِّيَّةُ[٦]؛ لكانت حقيقة أن تودعَ في خزانةِ القلبِ؛ لشدةِ الحاجةِ إليها، واللهُ المستعانُ، وعليه التكلانُ.

فظهر أن التوكلَ أصلٌ لجميعِ مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، ولجميعِ أعمالِ الإسلامِ، وأن منزلتَه منها منزلةُ الجسدِ من الرأسِ، فكما لا يقومُ الرأسُ إلا على البدنِ، فكذلك لا يقومُ الإيمانُ ومقاماتُه وأعمالُه إلا على ساقِ التوكلِ، واللهُ أعلمُ.

الوجهُ الثاني

- **الوجهُ الثاني**: أنَّ قولَه في التوكلِ: «إنه في طريقِ الخواصِّ عمًى عن الكفايةِ، ورجوعٌ إلى الأسبابِ. . .» إلى آخرِ كلامِه: مضمونُه: أن التوكلَ لا يتمُّ إلا برفضِ الأسبابِ، والإعراضِ عنها جملةً.

والتوكلُ من أقوى الأسبابِ وأعظمِها في حصولِ المطلوبِ، فكأنه قد رفضَ سببًا، وتعلقَ بسببٍ، وقد ناقضَ في أمرِه، ولهذا قال: «فصَارَ بدلًا عن تلك الأسبابِ،

---

(١) في ك وس: «النسبة إليه». (٢) في ك وس: «فإنه -سبحانه- هو الموفق».

(٣) في س: «ووعده الحقُّ».

(٤) في ع: «بل هو مقطوع عنه ألبتة»، وفي ك وس: «بل هو مقطوع ألبتة».

(٥) في ك وس: «بالله العظيم».

(٦) أي: الفُضْلَى الخالصة، نسبةً إلى السِّر، وهو الأرض الكريمة، وجوف كل شيء ولبُّه، ومحْضُ النَّسَب وأفضله، وبطن الوادي وأطيبه، وخالص كلِّ شيء. انظر: «القاموس» (ص/ ٥٢٠).

وكأنك[١] تعلقتَ بما رفضته»، فهذهِ هي النكتةُ[٢] التي لأجلِها صارَ التوكلُ عنده من منازلِ العوامِّ، وهذهِ هي غيرُ مسألةِ الجمعِ بين التوكلِ والسببِ، بل هذهِ مسالةُ تعليلِ نفسِ التوكلِ.

فيقالُ: قولُك: «إنه عمًى عن الكفايةِ» ليس كذلك؛ بل هو نظرٌ إلى نفسِ الكفايةِ وملاحظةٌ لها.

ولا ريبَ أن الكفايةَ من اللهِ لا تُنالُ إلا بأسبابِها من عبوديتِه، وسببُها المقتضي لها هو التوكلُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: الآية ٣] أي: كافيه؛ فجعَلَ التوكلَ سببًا للكفايةِ، فربَطَ الكفايةَ بالتوكلِ كربطِ سائرِ الأسبابِ بمسبباتِها، فكيف يقالُ: «إن التوكلَ عمًى عن الكفايةِ»؟!، وهل التوكلُ إلا محضُ العبوديةِ التي جزاؤُها الكفايةُ، وهي لا تحصلُ بدونِه؟ بلِ العلةُ هاهنا شهودُ حصولِها بفعلِك، وتوكلِك غيرَ ناظرٍ إلى مسبِّبِ الأسبابِ الذي أجرى عليك هذا السببَ؛ ليوصِّلَك[٣] به إلى الكفايةِ، فأولُ الأمرِ وآخرُه منه؛ فهو المنعمُ بالسببِ والمسببِ جميعًا، ولكن لا يوجبُ نظرُ العبدِ إلى المسبِّبِ المنعمِ بالسببِ قَطْعَ نظرِه عن السببِ والقيامِ به، بل الواجبُ القيامُ بالأمرين معًا.

- **الوجهُ الثالثُ**: أن قولَه: «إنه رجوعٌ إلى الأسبابِ»: الوجهُ الثالثُ

إن أرادَ به أنه رجوعٌ إلى سببٍ يُنْقِصُ العبوديةَ، ويُضْعِفُ التوكُّلَ؛ فليس كذلك، وظاهرٌ أن الأمرَ ليس كذلك.

وإن أرادَ به أنه رجوعٌ إلى سببٍ نصبه اللهُ مقتضيًا للكفايةِ منه، ورتَّبَ عليه جزاءً لا يحصلُ بدونِه؛ فهذا حقٌّ، ولكن القيامُ بهذا السببِ محضُ الكمالِ، ونفسُ العبوديةِ، وهو كجعلِ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ أسبابًا مقتضيةً للفلاحِ والسعادةِ، بل كجعلِ سائرِ أعمالِ القلوبِ والجوارحِ أسبابًا مقتضيةً لما رُتِّبَ عليها من الجزاءِ، وهل الكمالُ إلا القيامُ بهذهِ الأسبابِ؟!.

فالأسبابُ التي تكونُ مباشرتُها نقصًا هي الأسبابُ التي تُضْعِفُ التوكلَ، وأما أن يكونَ التوكلُ نفسُه ناقصًا؛ لكونِ التحققِ به تحققًا بالسببِ[٤]: فقلبٌ للحقائقِ.

---

(١) في ع: «فكأنك». (٢) تقدم معنى: «النكتة». (٣) في س: «يوصلك».

(٤) في س: «لكون التحقق محققًا بالسبب».

الوجهُ الرابعُ

- **الوجهُ الرابعُ**: أنَّ قولَه: «لأنك رفضتَ الأسبابَ، ووقفتَ مع التوكلِ»: إن أراد به رفضَ الأسبابِ جملةً: فهذا كما أنه ممتنعٌ عقلًا وحسًّا، فهو محرمٌ شرعًا ودينًا؛ فإنَّ رفضَ الأسبابِ بالكليةِ انسلاخٌ من العقلِ والدينِ. وإن أرادَ به رفضَ الوقوفِ معها والوثوقَ بها، وأنه يقومُ بها قيامَ ناظرٍ إلى مسببِها[١]: فهذا حقٌّ.

ولكنِ النقصُ لا يكونُ في السببِ ولا في القيامِ به، وإنما يكونُ في الإعراضِ عن المسببِ تعالى كما تقدم، [وإلَّا][٢] فمنعُ الأسبابِ أن تكونَ أسبابًا[٣] قدحٌ في العقلِ والشرعِ، وإثباتُها، والوقوفُ معها، وقطعُ النظرِعن مسبِّبِها قدحٌ في التوحيدِ والتوكلِ، والقيامُ بها وتنزيلُها منازلَها، والنظرُ إلى مسببِها، وتعلقُ القيامِ به جمعٌ بين الأمرِ[٤] والتوحيدِ، وبين الشرعِ والقدرِ، وهو الكمالُ، واللهُ أعلمُ.

الوجهُ الخامسُ

- **الوجهُ الخامسُ**: قولُه: «فصارَ التوكلُ بدلًا عن تلك الأسبابِ»: هذا حقٌّ؛ فإنَّ التوكلَ من أعظمِ الأسبابِ، ولكنه بدلٌ عنها، كما تكونُ الطاعةُ بدلًا عن المعصيةِ، والتوحيدُ بدلًا من[٥] الشركِ، فهو بدلٌ واجبٌ مأمورٌ به مطلوبٌ من العبدِ، والمذمومُ أن يجعلَ العبدُ الأسبابَ بدلًا عن التوكلِ، لا أن يجعلَ التوكلَ بدلًا عن الأسبابِ.

الوجهُ السادسُ

- **الوجهُ السادسُ**: قولُه: «فكأنك تعلقتَ بما رفضتَه من حيثُ معتقدُك الانفصالَ»: ليس كذلك؛ فإنَّ المرفوضَ هو التعلقُ بغيرِ اللهِ، والالتفاتُ إلى سواه[٦]، فهذا الذي[٧] رفضَهُ.

وأما الذي تعلقَ به فهو التوكلُ على اللهِ، واللجأُ إليه، والتفويضُ إليه، والاستعانةُ به، فقد رفضَ المخلوقَ، وتعلقَ بالخالقِ، فكيف يقالُ: «إنه تعلقَ بما رفضَهُ»؟!.

الوجهُ السابعُ

- **الوجهُ السابعُ**: أن قولَه: «من حيثُ معتقدُك الانفصالَ»: يشيرُ به إلى أن التوكلَ نوعُ تفرقةٍ وانفصالٍ يشهدُ فيه مع اللهِ غيرَه، وهذا منافٍ للفناءِ في التوحيدِ، وألا يشهدَ مع اللهِ غيرَه أصلًا، وهذا هو قطبُ رحَى السيرِ[٨] الذي يشيرُ إليه القومُ، والعلمُ الذي

---

(١) في س: «إلى سببها». وهو غلط.
(٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.
(٣) في س: «أن تكون سببًا».
(٤) في س: «الأمرين». وهو غلط.
(٥) في ع وك: «عن».
(٦) في ع: «إلى ما سواه».
(٧) في باقي النسخ: «فهذا هو الذي».
(٨) القطب -مثلثة القاف-وك: «عُنُق»: الحديدةُ التي تدور عليها الرَّحى، ويطلق على سيِّدِ القوم، وملاكِ =

يشمِّرُون إليه، ولأجلِه يجعلون كلَّ ما دونه من المقاماتِ معلولًا.

تفصيلُ القولِ في الفناءِ

ولابد من فصلِ القولِ فيه بعونِ اللهِ وتأييدِه؛ فإنه نهايةُ إقدامِهم، وغايةُ مرامِهم، فنقولُ - وباللهِ التوفيقُ -:

الفناءُ الذي يشارُ إليه على ألسنةِ السالكين ثلاثةُ أقسام: فناءٌ عن وجودِ السوى، وفناءٌ عن شهودِ السوى، وفناءٌ عن عبادةِ السوى وإرادتِه، وليس هنا قسمٌ رابعٌ:

أقسام الفناء

القسم الأول

فأما القسمُ الأولُ: فهو فناءُ القائلين بوحدةِ الوجودِ، وهو فناءٌ باطلٌ في نفسِه، مستلزمٌ جحدَ الصانعِ - سبحانه - وإنكارَ ربوبيتِه وخلقِه وشرعِه، وهو غايةُ الإلحادِ والزندقةِ.

وهذا هو الذي يشيرُ إليه علماءُ الاتحاديةِ، ويسمونه: «التحقيقَ»، وغايةُ أحدِهم فيه أن لا يشهدَ ربًّا وعبدًا، وخالقًا ومخلوقًا، وآمرًا ومأمورًا، وطاعةً ومعصيةً، بل الأمرُ كلُّه واحدٌ.

فيكونُ السالكُ - عندهم - في بدايتِه يشهدُ طاعةً ومعصيةً، ثم يرتفعُ عن هذا الفرقِ الكثيفِ[(١)] - عندهم - إلى أن يشهدَ الأفعالَ كلَّها طاعةً للهِ، لا معصيةَ فيها، وهو شهودُ الحكمِ والقدرِ، فيشهدُها طاعةً؛ لموافقتِها الحكمَ والمشيئةَ.

وهذا ناقصٌ - عندهم - أيضًا؛ إذ هو متضمنٌ للفرقِ، ثم يرتفعُ - عندهم - عن هذا الشهودِ [إلى][(٢)] أن لا يشهدَ لا طاعةً ولا معصيةً؛ إذ الطاعةُ والمعصيةُ إنما تكونُ من غيرٍ لغيرٍ، وما ثَمَّ غيرٌ، فإذا تحققَ بشهودِ ذلك، وفني فيه؛ فقد فني عن وجودِ السوى، فهذا هو التحقيقُ[(٣)] - عندهم - [و][(٤)] من لم يصلْ إليه فهو محجوبٌ.

ومن أشعارِهم في هذا قولُ قائلِهم:

وما أنت غيرُ الكونِ، بل أنت عينُه ... ويفهمُ هذا السرَّ مَنْ هو ذائقُ[(٥)].

= الشيء ومداره. والمعنى: أن هذا الفناء عليه مدار السير، وهو الغاية المطلوبة من السلوك، وما سواه من المقامات فمعلولٌ. انظر: «القاموس» (ص/ ١٦١).

(١) في س: «للكشف». وهو غلط. (٢) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٣) في ع وك: «فهذا هو غاية التحقيق».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٨٠)، ولم يعزه لأحد.

وقولُ الآخرِ:

ما الأمرُ إلا نسقٌ واحدٌ ما فيه من مدحٍ ولا ذمٍّ.
وإنما العادةُ قد خُصِّصَتْ والطبعُ والشارعُ بالحكمِ[١].

وقالَ الآخرُ[٢]:

وما الموجُ إلا البحرُ، لا شيءَ غيرُهُ وإنْ فرَّقَتْهُ كثرةُ المتعددِ[٣].

القسمُ الثاني اختلافُ أهلِهِ فيهِ

والقسمُ الثاني من أقسامِ الفناءِ: هو الذي يشيرُ إليه المتأخِّرُون من أربابِ السلوكِ، وهو الفناءُ عن شهودِ السوى، مع تفريقِهم بين الربِّ والعبدِ، وبين الطاعةِ والمعصيةِ، وجعلِهم وجودَ الخالقِ غيرَ وجودِ المخلوقِ، ثم هم مختلفُون في هذا الفناءِ على قولين:

- **أحدُهما**: أنه الغايةُ المطلوبةُ من السلوكِ، وما دونه بالنسبةِ إليه ناقصٌ؛ ومن هنا يجعلون المقاماتِ والمنازلَ معلولةً.

- **والقولُ الثاني**: أنه من لوازمِ الطريقِ، لابدَّ منه للسالكِ، ولكنِ البقاءُ أكملُ منه، وهؤلاءِ يجعلونَهُ ناقصًا، ولكن لابدَّ منه، وهذهِ طريقةُ كثيرٍ من المتقدمين.

وهؤلاءِ يقولون: «إنَّ الكمالَ شهودُ العبوديةِ مع شهودِ المعبودِ، فلا يغيبُ بعبادتِه عن معبودِه، ولا بمعبودِه عن عبادتِه، ولكن لقوةِ الواردِ، وضعفِ المحلِّ، وغلبةِ استيلاءِ الواردِ على القلبِ حتى يملكَه من جميعِ جهاتِه: يقعُ الفناءُ.

التحقيقُ فيه أسبابُهُ

والتحقيقُ أنَّ هذا الفناءَ ليس بغايةٍ، ولا هو من لوازمِ الطريقِ، بل هو عارضٌ من عوارضِ الطريقِ، يعرضُ لبعضِ السالكين دونَ جميعِهم، وسببُه أمورٌ ثلاثةٌ:

أحدُها: قصدُه وإرادتُه والعملُ عليه؛ فإنه إذا علمَ أنه الغايةُ المطلوبةُ، شمَّرَ[٤] سائرًا إليه، عاملًا عليه، فإذا أشرفَ عليه؛ وقفَ[٥] معه، ونزلَ بواديهِ، وطلَبَ مساكنتَه.

فهؤلاءِ إنما يحصلُ لهم الفناءُ؛ لأنَ سيرَهم كان على طلبِ حظِّهم ومرادِهم من اللهِ، وهو الفناءُ، لم يكنْ سيرُهم على تحصيلِ مرادِ اللهِ منهم، وهو القيامُ بعبوديتِه، والتحققُ بها[٦]، والسائرُ على طلبِ تحصيلِ مرادِ اللهِ منه[٧] لا يكادُ الفناءُ يحلُّ بساحتِه، ولا يعتريه.

---

(١) لم أجده. (٢) في س وع: «وقول الآخر». (٣) لم أجده.
(٤) في س: «استمرَّ». (٥) في س: «ووقف». والمثبت هو الصواب.
(٦) في ك: «والتحقيق بها». (٧) في س: «مراد الله منهم». وهو غلطٌ.

السببُ الثاني: قوةُ الواردِ بحيثُ يغمرُه، ويستولي عليه، فلا يبقى فيه متسعٌ لغيرِه أصلًا.

السببُ الثالث: ضعفُ المحلِّ عن احتمالِ ما يردُ عليه. فمن هذهِ الأسبابِ الثلاثةِ يعرضُ الفناءُ.

ولما رأى الصادقُ في طريقِه، السالِكُ إلى ربِّه أنَّ أكثرَ أصحابِ الفرقِ محجوبون عن هذا المقامِ، مشتتون في أوديةِ الفرقِ، وشهدُوا نقصَهم، ورأوا ماهم فيه من الفناءِ أكملُ: ظنوا أنه لا كمالَ وراءَ ذلك، وأنه الغايةُ المطلوبةُ، فمن هنا جعلوه غايةً.

القسمُ الثالثُ

ولكنَّ أكملَ من ذلك وأعلى وأجلَّ هو **القسمُ الثالثُ**، وهو الفناءُ عن عبادةِ السوى، وإرادتِه، ومحبتِه، وخشيتِه، ورجائِه، والتوكلِ عليه، والسكونِ إليه، فيفنى بعبادةِ ربِّه، ومحبتِه، وخشيتِه، ورجائِه، والتوكلِ عليه[١]، وبالسكونِ إليه - عن عبادةِ غيرِه، وعن محبتِه، ورجائِه، والتوكلِ عليه، مع شهودِ الغيرِ ومعاينتِه.

فهذا أكملُ من فنائِه عن عبوديةِ الغيرِ، ومحبتِه مع عدمِ شهودِه له[٢] وغيبتِه عنه.

فإذا شَهدَ[٣] الغيرَ في مرتبتِه[٤] أوجبَ شهودُه له زيادةً في محبةِ معبودِه، وتعظيما له، وهروبا إليه، وظنًّا به[٥]؛ فإنَّ نظرَ المحبِّ إلى مناوي[٦] محبوبِه ومضادِّه يوجبُ زيادةَ محبةٍ له[٧]، وفي هذا المعنى قال القائلُ:

وإذا نظرتُ إلى أميرِي زادني حبًا له نظرِي إلى الأمراءِ[٨].

وكان النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائِه: «**اللَّهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ**»[٩]، وفي سجودِه: «**اللَّهمَّ لك سجدتُ،**

---

(١) في باقي النسخ: «وبالتوكل عليه». (٢) في س: «مع عدم شهودٍ له».

(٣) في ع: «فإنه إذا شهد». (٤) في س: «بمرتبته».

(٥) كذا في جميع النسخ: «ظنًّا به» بالظاء المشالة، والصواب: «ضِنًّا به». يقال: «ضنَّ يَضِن -بفتح الضاد وكسرها، ضَنَانةً وضِنًّا -بالكسر- وهو ضِنِّي -بالكسر-» أي: خاصٌّ بي؛ لمكانته مني، وموقعه عندي، وضنائنُ الله: خواصُّ خلقه. انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٢٦١)، «القاموس» (ص/ ١٥٦٤).

(٦) في ك وس: «إلى مبادي». (٧) في ك وس: «زيادة حبِّه له». (٨) لم أجده.

(٩) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٢)، والبخاري، رقم (١١٢٠)، ومسلم، رقم (٧٦٩): عن ابن عباس ﵄: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «**اللهم لك الحمد، أنت** =

وبك آمنتُ» ، وكذلك في ركوعِه : «اللَّهمَّ لك ركعتُ، وبك آمنتُ»(١) .

فهذا دعاءُ مَنْ قد جمع بين شهودِ عبوديتِه، وشهودِ معبودِه، ولم يغبْ بأحدِهما عن الآخرِ، وهل هذا إلا كمالُ العبوديةِ: أن يشهدَ ما يأتي به من العبوديةِ موجهًا لها إلى المعبودِ الحقِّ، محضرًا لها بين يديهِ، متقربًا بها إليه.

فأما الغيبةُ عنها بالكليةِ بحيثُ تبقى الحركاتُ كأنها طبيعيةٌ غيرُ واقعةٍ بالإرادةِ: فهذا وإن كان أكملَ من حالِ الغائبِ بشهودِ عبوديتِه عن معبودِه؛ فحالُ الجامعِ بين شهودِ العبوديةِ والمعبودِ أكملُ منهما(٢)، وإذا عرفت هذه القاعدةَ؛ ظهر أن تعليلَه التوكلَ بما ذكر تعليلٌ باطلٌ.

الوجهُ الثامنُ

- **الوجهُ الثامنُ**: أن التوكلَ على اللهِ نوعان:

= نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قيام السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومَن فيهنّ، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت، وأسررت وأعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»، وله ألفاظ فيها تقديم وتأخير، واختلافٌ يسير.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٩٥)، (١٠٢)، ومسلم، رقم (٧٧١)، والترمذي، رقم (٣٤٢١)، وأبو داود، رقم (٧٦٠): عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها؛ لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك» ، وإذا ركع قال: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي» ، وإذا رفع قال: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد» ، وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» ، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت» ، واللفظ لمسلم.

(٢) في س: «أكمل منها».

أحدُهما: توكلٌ عليه في تحصيلِ حظِّ العبدِ من الرزقِ والعافيةِ وغيرِهما[١].

الثاني: توكلٌ عليه في تحصيلِ[٢] مرضاتِه - سبحانه.

فأما النوعُ الأولُ: فغايتُه المطلوبةُ وإن لم تكنْ عبادةً؛ لأنها محضُ حظِّ العبدِ، فالتوكلُ على اللهِ في حصولِه عبادةٌ؛ فهو منشأٌ لمصلحةِ دينِه ودنياه.

وأما النوعُ الثاني[٣]: فغايتُه عبادةٌ، وهو في نفسِه عبادةٌ، فلا علةَ فيه بوجْهٍ؛ فإنه استعانةٌ باللهِ على مايرضيه، فصاحبُه متحققٌ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]، فتركُه تركٌ لشطرِ الإيمانِ، والعلةُ إنما هي في ضعفِ هذا التوكلِ.

فهب أن التوكلَ في حصولِ الحظِّ معلولٌ؛ فيلزمُ[٤] من هذا أن يكونَ التوكلُ في حصولِ مرادِ الربِّ تعالى ومرضاتِه معلولًا!

الوجهُ التاسعُ

- **الوجْهُ التاسعُ**: قولُه: «وحقيقةُ التوكلِ عند القومِ التوكلُ في تخليصِ القلوبِ من علةِ التوكلِ»، فيقالُ: إذا كان هذا التوكلُ - عندك - ليس بمعلولٍ، ولا هو عمى عن الكفايةِ، ولا رجوعٌ إلى الأسبابِ بعدَ رفضِها: بطلَ تعليلُك التوكلَ[٥] بما عللتَه به.

وإن كانت هذهِ العلةُ بعينها موجودةً في هذا التوكلِ؛ بطلَ أن يكون علةً، فلزم[٦] بطلانُ كونِه معلولًا على التقديرين، وظهر أن العلةَ في التوكلِ لا تخرجُ عن أحدِ شيئين:

إما أن يكونَ متعلقُه حظًّا من حظوظِك، وإما وقوفَك معه[٧]، وركونَك إليه فقط.

فإذا خلص التوكلُ من هذا وهذا؛ فلا علةَ تلحقُه، ولا نقيصةَ تدركُه.

الوجهُ العاشرُ

- **الوجْهُ العاشرُ**: أن علةَ التوكلِ - عنده - هي تركُ التوكلِ - كما فسره -، فكيف يتوكلُ في تركِ التوكلِ؟!، وهل هذا إلا جمعٌ بين متضادَيْنِ؟!.

الوجهُ الحادي عشرَ

- **الوجْهُ الحادي عشرَ**: قولُه: «وهو أن تعلمَ[٨] أن اللهَ - تبارك وتعالى - لم يتركْ أمرًا مهملًا، بل فرغَ من الأشياءِ وقدَّرها، وإن اختلفَ منها شيءٌ في العقولِ، أو تشوش

(١) في باقي النسخ: «وغيرها». (٢) في ك وس: «في حصول».
(٣) في باقي النسخ: «والنوع الثاني». (٤) في ع وس: «أفيلزم» -بهمزة الاستفهام-. وهو أحسن.
(٥) في ك وس: «بَطَلَ تعليل التوكلِ». (٦) في ع: «فيلزم». (٧) في س: «وقوفك معك».
(٨) في ك: «أن يعلم».

في المحسوسِ، أو اضطرب في المعهودِ: فهو المدبرُ له، وشأنُه سوقُ المقاديرِ إلى المواقيتِ.

والمتوكلُ من أراحَ نفسَه من كدِّ النظرِ في مطالعةِ السببِ، سكونًا إلى ما سبق من القسمةِ مع استواءِ الحالين عنده...» إلى آخرِ كلامِه.

فيقالُ: هو سبحانه فرغَ من الأشياءِ، وقدَّرها بأسبابِها المفضيةِ إليها، فكما أن المسبباتِ من قدرِه الذي فرغ منه؛ فأسبابُها أيضًا من قدرِه الذي فرغَ منه، فتقديرُه المقاديرَ بأسبابِها لا ينافي القيامَ بتلك الأسبابِ، بل يتوقفُ حصولُها عليها، وقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ فقيل له: «أرايتَ أدويةً نَتداوى بها، ورُقَىً نسترقي بها: هل تردُّ من قدرِ اللهِ شيئًا؟ فقال: **«هي من قدرِ اللهِ»**[(١)]. وسُئِلَ ﷺ: أعُلِمَ أهلُ الجنةِ والنارِ؟ فقال: «نعم»، قالوا: ففيمَ العملُ؟ قال: **«اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له»**[(٢)]، فأمرهم بالأعمالِ، وأخبرهم أنَّ اللهَ يَسَّرَ كلَّ عبدٍ لما خُلق له، فجعل عملَه سببًا لنيلِ ما خلقَ له من الثوابِ والعقابِ، فلا بدَّ من إثباتِ السببِ والمسببِ جميعًا.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢١)، والترمذي، رقم (٢٢٣٨)، وابن ماجه، رقم (٣٤٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٩٩) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي: عن ابن أبي خزامة، عن أبيه قال: «سألت رسول الله ﷺ: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورُقَىً نسترقي بها، وتُقَىً نتقيها: أترد من قدر الله -تبارك وتعالى- شيئًا؟» الحديث.

قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث الزهري، وقد روى غير واحد، عن سفيان، عن الزهري، عن أبي خزامة، عن أبيه، و هذا أصح، هكذا قال غير واحد، عن الزهري، عن أبي خزامة، عن أبيه» اهـ.

وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٨٤٦٧): «ابن أبي خِزَامة عن أبيه، وقيل: عن أبي خزامة عن أبيه، وهو الصحيح. مجهول، من الثالثة» اهـ، والحديث ضعفه الألباني كما في «التعليقات الرضية على الروضة الندية» (٢/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، رقم (٦٥٩٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٩)، وأبو داود في «سننه»، رقم (٤٧٠٩): عن عمران بن حصين رضي الله عنه، دون قوله: **«اعملوا»**.

وأخرجه البخاري في «صحيحه»، رقم (١٣٦٢)، ومسلم رقم (٢٦٤٧): عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسًا، وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه، فقال: **«ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار»** قالوا: يا رسول الله فلم نعمل؟!

قال: **«لا، اعملوا؛ فكلٌّ ميسر لما خلق له»**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: الآية ١٠].

الوجهُ الثاني عشرَ

- **الوجْهُ الثاني عشَرَ**: قولُه: «المتوكلُ من أراحَ نفسَه من كدِّ النظرِ في مطالعةِ السببِ؛ سكونًا إلى ما سبق من القسمةِ، مع استواءِ الحالين عنده»: فهذا الكلامُ إن أُخذ[١] على إطلاقِه؛ فهو باطلٌ قطعًا؛ فإنَّ السكونَ إلى ما سبق من القسمةِ، وتركَ السببِ في أعمالِ البرِّ عينُ العجزِ وتعطيلِ الأمرِ والشرعِ.

ولا يجوزُ شرعًا ولا عقلًا التسويةُ بين الحالين.

وأما السكونُ إلى ما سبقَ من القسمةِ في أسبابِ المعيشةِ فهو حقٌّ، ولكنِ الكمالُ أن يكونَ ساكنًا إلى ما سبق مع قيامِه [بالسببِ][٢]، وهذهِ حالُ الكُمَّلِ من الصحابةِ ومَنْ بعدَهم، فالكمالُ هو تنزيلُ الأسبابِ منازلَها علمًا وعملًا، لا الإعراضُ عنها ومحُوهَا، ولا الانتهاءُ إليها، والوقوفُ عندها.

الوجهُ الثالثَ عشرَ

- **الوجْهُ الثالثَ عشرَ**: قولُه: «مع استواءِ الحالين عندَه، وهو أن يعلمَ أن الطلبَ لا يجمعُ، والتوكلَ لا يمنعُ»: يشيرُ به إلى استواءِ الحالين في مباشرةِ السببِ وتركِه؛ نظرًا إلى ما سبق.

وهذا ليس بمأمورٍ ولا مقدورٍ[٣]؛ فإنه لا تستوي[٤] الحالتان شرعًا ولا قدرًا، [وكيف يستوي ما لم يسوِّهِ اللهُ شرعًا ولا قدرًا؟!][٥].

الوجهُ الرابعَ عشرَ

- **الوجْهُ الرابعَ عشرَ**: قولُه: «الطلبُ لا يجمعُ، والتوكلُ لا يمنعُ»: فقد بيَّن[٦] أن التوكلَ لا ينافي الطلبَ، بل حقيقةُ التوكلِ وكمالُه مقارنتُه للطلبِ[٧]، ومصاحبتُه للسببِ، وأما توكلٌ مجردٌ عن الطلبِ والسببِ فعجزٌ وأمانيُّ، فتوكلُ الحراثِ إنما هو بعدَ شقِّ الأرضِ وبذرِها، وحينئذٍ يصحُّ منه التوكلُ في طلوعِ الزرعِ، وأما توكلُه من غيرِ حرثٍ ولا بذرٍ فعجزٌ وبطالةٌ[٨].

---

(١) في ع: «إنْ حُمِل»، وفي الهامش: «صوابُهُ: إنْ أُخذ».

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٣) في ك وس: «ولا معذور». وهو غلطٌ.

(٤) في ك وس: «لا يستوي». (٥) ما بين المعقوفين ليس ع وك. (٦) في ع: «فقد تبين».

(٧) في ك: «مقارنته الطلبَ».

(٨) بيَّن المؤلف الفَرْق بين: «التوكل» و«العجز» و«الأماني» و«البطالة» في مواضع من كتبه، وحاصله: أنَّ التوكل: عمل القلب وعبوديته؛ اعتمادًا على الله، وثقة به، وتفويضًا إليه مع القيام بالأسباب المأمور بها.

والعجز والأماني: تعطيل الأمرين أو أحدِهما؛ إما تعطيل السبب، وإما القيام به مع الاعتماد عليه =

الوجهُ الخامسَ عشرَ

- **الوجْهُ الخامسَ عشرَ**: قولُه: «ومتى طالعَ بتوكلِه عرضًا؛ كان توكلُه مدخولًا، وقصدُه معلولًا. فإذا خلُص من رقِّ هذهِ الأسبابِ، ولم يلاحظْ في توكلِه سوى خالصِ حقِّ اللهِ؛ كفاهُ[1] كلَّ مُهمٍّ»: فيقالُ: التوكلُ يكونُ في أحدِ شيئين:

إما في حصولِ حظِّ العبدِ ورزقِه ونصرِه وعافيتِه، وإما في حصولِ مرادِ ربِّه منه، وكلاهما عبادةٌ مأمورٌ بها.

والثاني أكملُ من الأولِ بحسبِ المتوكلِ فيه، ولكنْ توكلُه في الأولِ لا يكونُ معلولًا من حيثُ هو توكلٌ، وإنما تكونُ علتُه إذا صرف[2] توكلُه إلى ما غيرُه أَوْلى بالتوكلِ منه، وهذا إنما يكونُ نقصًا إذا ضعف توكلُه في الأمرِ ومرادِ اللهِ منه.

وأما إن لم يُضْعِفْه، بل أعطى كلَّ مقامٍ حقَّه من التوكلِ؛ فهذا محضُ العبوديةِ - واللهُ أعلمُ.

فَصْلٌ

المثالُ الرابعُ: الصبرُ

المثالُ الخامسُ[3]: «الصبرُ».

قال أبو العباسِ[4]: «وهو [مِن][5] منازلِ العوامِّ أيضًا[6]؛ لأنَّ الصبرَ: حبسُ النفسِ على مكروهٍ[7]، وعقلُ اللسانِ عن شكوى[8]، ومكابدة الغُصَصِ في تحمُّلِه[9]، وانتظارُ

= والغفلة عن المسبِّب، والإعراض عنه. وذكر أن الناس انقسموا في هذا الموضع طرفين ووسطًا: فأحدُ الطرفين عطَّل السبب؛ محافظة على التوكل -في زعمه-، والآخر: عطل التوكل؛ محافظةً على السبب. والوسط: مَنْ علم أن حقيقة التوكل لا تتمُّ إلا بالقيام بالسبب. انظر: «الروح» (ص/ ٣٧٧)، «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٨-١٣٠)، «أنوار البروق» (٤/ ٢٢١) للقرافي.

(١) في ع: «كفاه الله».

(٢) في ع وك: «أنه صَرَفَ»، وفي س: «أنْ يصرف».

(٣) كذا في جميع النسخ، وهو المثال الرابع، فقد تقدم المثال الأول -وهو الإرادة-، والثاني -وهو الزهد-، والثالث -وهو التوكل-.

(٤) في «محاسن المجالس» (ص/ ٦-٨).

(٥) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٦) في «محاسن المجالس» (ص/ ٦): «وأما الصبر فهو من منازل العوام».

(٧) في «محاسن المجالس» (ص/ ٦): «المكروه».

(٨) في «محاسن المجالس» (ص/ ٦): «عن شكواه».

(٩) في «محاسن المجالس» (ص/ ٦): «في تحمُّلِ».

الفرجِ عند عاقبتِه».

كلامُ ابنِ العريفِ على الصبرِ

وهذا في طريقِ الخاصَّةِ تجلدٌ ومناوأةٌ[١] وجرأةٌ[٢] ومنازعةٌ؛ فإنَّ حاصلَه يرجعُ[٣] إلى كتمانِ الشكوى في تحاملِ الأذى بالبلوى.

والحقيقةُ[٤] الخروجُ عن الشكوى بالتلذذِ[٥] بالبلوى، والاستبشارِ باختيارِ المولى.

وقيل: إنه على ثلاثِ مقاماتٍ مرتبةٍ بعضُها فوق بعضٍ:

- **فالأولُ**[٦]: التصبرُ، وهو تحملُ مشقةٍ، وتجرعُ غُصةٍ في الثباتِ[٧] على ما يجري من الحِكَمِ، وهذا هو التصبرِ للهِ[٨]، وهو صبرُ العوامِّ.

- **والثاني**: الصبرُ، وهو نوعُ سهولةٍ تُخَفِّفُ[٩] على المبتلَى بعضَ الثقلِ، وتسهِّلُ عليه صعوبةَ المرادِ[١٠]، وهو الصبرُ للهِ[١١]، وهو صبرُ المريدين.

مناقشتُه من وجوهٍ

- **والثالثُ**: الاصطبارُ، وهو التلذذُ بالبلوى، والاستبشارُ باختيارِ المولى، وهذا هو الصبرُ على اللهِ، وهو صبرُ العارفين». والكلامُ على هذا من وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ

- **أحدُها**: أن يقالَ: الصبرُ نصفُ الدينِ؛ فإنَّ الإيمانَ نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورى: ٣٣]، وقال النبيُّ ﷺ: **«والذي نفسي بيدِه لا يقْضي اللهُ للمؤمنِ قضاءً إلا كان خيرًا له؛ إن أصابتْه سراءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابتْه ضراءُ صَبَرَ، فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمنِ»**[١٢]، فمنازلُ الإيمانِ كلُّها بين الصبرِ

---

(١) في «محاسن المجالس» (ص/٦): «تجلُّد ومقاومة»، وأشار المحقق إلى أنَّ في نسخة: «تجلد ومغاواة».

(٢) في س: «وجراءة».

(٣) في «محاسن المجالس» (ص/٦): «راجعٌ».

(٤) في «محاسن المجالس» (ص/٦): «والحقيقة عند القوم».

(٥) في س: «بالتقلل». وهو خطأ.

(٦) في «محاسن المجالس» (ص/٧): «فالأولى».

(٧) في «محاسن المجالس» (ص/٧): «في التثبت»، وأشار المحقق إلى أن في نسخة: «في الثبات».

(٨) في «محاسن المجالس» (ص/٧) «وهذا هو الصبر لله»، وأشار المحقق إلى أن في نسخة: «وهذا هو التصبر لله». وهو الصواب.

(٩) في ك: «يخفف»، وعليه يكون فاعله: «نوع»، وعلى المثبت يكون فاعله: «سهولة».

(١٠) في «محاسن المجالس» (ص/٧) «صعوبة الموارد».

(١١) في «محاسن المجالس» (ص/٧) «وهذا هو الصبر بالله».

(١٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/٣٣٢)، (٣٣٣)، (٦/١٥)، (١٦)، ومسلم في «صحيحه» (٢٩٩٩) =

والشكرِ[1]، والذي يوضحُ هذا:

= والدارمي في «سننه»، رقم (٢٦٧٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٤٠)، رقم (٧٣١٦)، (٧٣١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨/ ٤٠٩)، رقم (٤١٦٩)، وفي «سننه»، (٣/ ٣٧٥): عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»** واللفظ لمسلمٍ.

والمراد بالمقضيِّ في الحديث: ما يصيب المؤمن من النعم والمصائب التي ليست باختياره - كما ألمح إليه المؤلف في الوجه الثاني - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣١٧): «وما تسأله طائفة من الناس، وهو أنه ﷺ قال: **«لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له»** وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب، فكيف يكون ذلك خيرًا؟!.

وعنه جوابان:

-**أحدهما**: أنَّ أعمال العباد لم تدخل في الحديث؛ إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب، كما في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩]، ولهذا قال: **«إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»**، فجعل القضاء ما يصيبه من سراء وضراء. هذا ظاهر لفظ الحديث، فلا إشكال عليه.

-**الوجه الثاني**: أنه إذا قدر أنَّ الأعمال دخلت في هذا؛ فقد قال النبي ﷺ: **«مَن سرته حسنته، وساءته سيئته؛ فهو مؤمن»**، فإذا قضى له بأنْ يُحسن فهذا مما يسره، فيشكر الله عليه. وإذا قضى عليه بسيئة فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها، فإن تاب أُبدلت بحسنة، فيشكر الله عليها، وإنْ لم يتب ابتلي بمصائب تكفرها، فصبر عليها، فيكون ذلك خيرًا له. والرسول ﷺ قال: **«لا يقضي الله للمؤمن»**، والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب، بل يتوب منه، فيكون حسنة...

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه، ودعاء الله واستغفاره إياه، وشهوده فقره وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو، فيحصل للمؤمن -بسبب الذنب- من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك، فيكون هذا القضاء خيرًا له. فهو في ذنوبه بين أمرين: إما أن يتوب، فيتوب الله عليه، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله، وإما أن يُكَفَّر عنه بمصائب، تصيبه ضراء فيصبر عليها، فيُكَفَّر عنه السيئات بتلك المصائب، وبالصبر عليها ترتفع درجاته» اهـ.

(١) عقد المؤلف في «عدة الصابرين» (ص/ ١٤٠-١٤٣) بابًا في «أن الصبر نصف الإيمان» ذكر فيه لهذا التصنيف عشر اعتبارات، وهي ملخصة على النحو التالي:

-**الأول**: أن الدين كله يرجع إلى شيئين: فعل المأمور -وهو حقيقة الشكر-، وترك المحظور -وهو الصبر.

-**الثاني**: أن الإيمان مبني على ركنين: اليقين والصبر، فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبالصبر ينفِّذُ ما أُمِر به، ويكف نفسه عما نُهي عنه.

-**الثالث**: أن الإيمان قول وعمل، والقول: قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، =

الوجهُ الثاني

- **الوجْهُ الثاني**: وهو أن العبدَ لا يخلُو قطُّ من أن(١) يكونَ في نعمةٍ أو بليةٍ؛ فإن كان في نعمةٍ؛ ففرضُها الشكرُ والصبرُ:

أما الشكرُ: فهو قيدُها وثباتُها والكفيلُ بمزيدِها.

وأما الصبرُ: فعن مباشرةِ الأسبابِ التي تسلبُها، وعلى القيامِ بالأسبابِ التي تحفظُها، فهو أحوجُ إلى الصبرِ فيها من حاجةِ المبتَلَى(٢).

ومن هنا يعلمُ سرُّ مسألةِ: «الغني الشاكرِ، والفقيرِ الصابرِ»(٣)، وإن كلًّا منهما

= فهذه أركان الإيمان الأربعة التي قام عليها بناؤه، وهي ترجع إلى علم وعمل، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر، فصار الإيمان نصفين: الصبر، وما تولد عنه من العلم والعمل.

-**الرابع**: أن الدين كله: إقدام على طاعة، وإحجام عن معصية، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

-**الخامس**: أن الدين كله: رغبة ورهبة، وكلاهما لا يقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

-**السادس**: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره فيهما، أو ينفعه في إحداهما، ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة، ويترك ما يضره فيها، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

-**السابع**: أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

-**الثامن**: أن العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا، وداع يدعوه إلى الآخرة، فعصيان الأول هو الصبر، وإجابة الثاني هو الشكر.

-**التاسع**: أن مدار الدين على أصلين: العزم والثبات، وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات.

-**العاشر**: أن الدين مبنيٌّ على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله -تعالى-: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العَصر: الآية ٣]، ولا يمكن العبد أن يعمل بالحق في نفسه، وينفذه في الناس إلا بالصبر، فكان الصبر نصف الإيمان. وبالله التوفيق، وعليه التكلان.

(١) في س: «لا يخلو قط: إما أنْ».

(٢) ذكر المؤلف في «عدة الصابرين» (ص/ ٨٧) أن العبد أحوج إلى الصبر في النعمة من وجوه: **أحدها**: ألا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم. . . **الثاني**: ألا ينهمك في نيلها، ويبالغ في استقصائها. **الثالث**: أن يصبر على أداء حق الله فيها. . . **الرابع**: أن يصبر عن صرفها في الحرام. . . اهـ. باختصار.

(٣) انظر: «المقدمة».

مسألةُ الغنيِّ الشاكرِ والفقيرِ الصابرِ

محتاجٌ إلى الشكرِ والصبرِ، وأنه قد يكونُ صبرُ الغَنِيِّ أكملَ من صبرِ الفقيرِ، كما قد يكونُ شكرُ الفقيرِ أكملَ من شكرِ الغنيِّ، فليس التفضيلُ بينهما بالغنى ولا بالفقرِ، وإنما هو بالأعمالِ؛ فأفضلُهما أعظمُهما شكرًا وصبرًا، فإن فَضْلَ أحدِهِما في ذلك فضلُ صاحبِهِ؛ فالشكرُ مستلزمٌ للصبرِ لا يتمُّ إلا به، والصبرُ مستلزمٌ للشكرِ لا يتمُّ إلا به، فمتى ذهب الشكرُ ذهب الصبرُ، ومتى ذهب الصبرُ ذهب الشكرُ، وإن كان في بليةٍ ففرضُها الصبرُ، والشكرُ أيضًا:

أما الصبرُ فظاهرٌ، وأما الشكرُ: فالقيامُ بحقِّ اللهِ عليه في تلك البليةِ؛ فإنَّ للهِ على العبدِ عبوديةً في البلاءِ كما له عليه عبوديةٌ في النعماءِ، وعليه أن يقوم بعبوديتِهِ في هذا وهذا. فعلم أنه لا انفكاكَ له عن الصبرِ ما دام سائرًا إلى اللهِ.

الوجهُ الثالثُ

- **الوجْهُ الثالثُ**: أنَّ الصبرَ ثلاثةُ أقسامٍ[١]: إما صبرٌ عن المعصيةِ فلا يرتكبُها، وإما صبرٌ على الطاعةِ حتى يؤديها، وإما صبرٌ على البليةِ فلا يشكو ربَّه فيها.

وإن كان[٢] العبدُ لا بدَّ له من واحدٍ من هذهِ الثلاثةِ[٣]؛ فالصبرُ لازمٌ له أبدًا، لا خُروجَ له عنه ألبتةَ.

الوجهُ الرابعُ

- **الوجْهُ الرابعُ**: أنَّ اللهَ تعالى ذكر الصبرَ في كتابِهِ في نحوِ تسعينَ موضعًا[٤]:

فمرةً أمر به، ومرةً أثنى على أهلِهِ، ومرةً أمر نبيَّه ﷺ أن يبشرَهم، ومرةً جعلَه شرطًا في حصولِ النصرِ والكفايةِ، ومرةً أخبرَ أنه مع أهلِهِ، وأثنى به على صفوتِهِ من العالمين - وهم أنبياؤُه ورسلُه - فقال عن نبيِّهِ أيوبَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية ٤٤].

وقال تعالى لخاتمِ أنبيائِهِ ورسلِهِ[٥]: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥].

---

(١) أي: من حيث متعلَّقه.

(٢) في باقي النسخ: «وإذا كان». وهو أحسن.

(٣) في ع وس: «الثلاث».

(٤) عقد المؤلف في «عدة الصابرين» (ص/٩٨-١٠٣) بابًا في «ذكر ما ورد في الصبر في نصوص الكتاب العزيز»، فلينظر.

(٥) في س: «وقال -تعالى- عن خاتم أنبيائه ورسله».

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١٢٧]، وقال يوسفُ الصديقُ - وقد قال له إخوتُه: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٠].

وهذا يدلُّ على أنَّ الصبرَ من أَجَلِّ مقاماتِ الإيمانِ، وأن أخصَّ الناسِ باللهِ وَأولَاهُم به أشدُّهم قيامًا وتحققًا به، وأن الخاصَّةَ أحوجُ إليه من العامَّةِ.

الوجهُ الخامسُ

- **الوجهُ الخامسُ**: أنَّ الصبرَ سببٌ في حصولِ كلِّ كمالٍ[١]، فأكملُ الخلقِ أصبرُهم، ولم يتخلفْ عن أحدٍ كمالُه الممكنُ إلا مِن ضَعْفِ صبرِهِ؛ فإنَّ كمالَ العبدِ بالعزيمةِ والثباتِ؛ فمن لم يكنْ له عزيمةٌ فهو ناقصٌ، ومن كانت له عزيمةٌ، ولكن لا ثباتَ له عليها؛ فهو ناقصٌ.

فإذا انضم الثباتُ إلى العزيمةِ، أثمَرَ كلَّ مقام شريفٍ، وحالٍ[٢] كاملٍ، ولهذا في دعاءِ النبيِّ ﷺ الذي رواه الإمامُ أحمدُ وابنُ حبانَ في «صحيحِهِ»: «**اللَّهمَّ إني أسألُك الثباتَ في الأمرِ والعزيمةَ على الرشدِ**»[٣].

---

(١) في باقي النسخ: «كل كمال ممكن». وهو أحسن.

(٢) انظر: «الفرق بين المقام والحال».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٣). من طريق روح، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: «كان شداد بن أوس في سفر، فنزل منزلًا، فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة؛ نعبث بها، فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها، وأزمها إلا كلمتي هذه، فلا تحفظوها علي، واحفظوا مني ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كنز الناس الذهب والفضة؛ فاكنزوا هذه الكلمات: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم؛ إنك أنت علَّام الغيوب**»، وحسان لم يدرك شدادًا.

وأخرجه ابن حبان في «صحيحه»، (٣/ ٢١٥)، رقم (٩٣٥): من طريق سويد بن عبد العزيز، عن الأوزاعي، عن حسان ابن عطية، عن أبي عبيد الله مسلم بن مشكم، قال: «خرجت مع شداد» بنحوه.

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٨)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي: من طريق عكرمة بن عمار قال: «سمعت شدادًا أبا عمار يحدث عن شداد بن أوس» بنحوه.

وأخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٥)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٣٤٠٧)، وقال: «هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه» اهـ، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢٩٣)، رقم (٧١٧٥)، (٧١٧٦)، (٧١٧٧): من طرق عن أبي مسعود الجريري، عن أبي العلاء بن الشخير، عن رجل من بني حنظلة، وفي «المسند» =

ومعلومٌ أن شجرةَ الثباتِ والعزيمةِ لا تقومُ إلا على ساقِ الصبرِ.

فلو علم العبدُ الكنزَ الذي تحت هذهِ الأحرفِ الثلاثةِ - أعني اسمَ: «الصبرِ» - لما تخلف عنه؛ قال النبيُّ ﷺ: **«ما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبرِ»**(١)، وقال عمرُ ابنُ الخطابِ رضي الله عنه حين غُشي عليه: «أدركناه بالصبرِ»(٢)، وفي مثلِ هذا قال القائلُ:

= عن الحنظلي، عن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من رجل يأوي إلى فراشه، فيقرأ سورة من كتاب الله عز وجل إلا بعث الله إليه ملكًا يحفظه من كل شيء يؤذيه حتى يهب متى هب»**، قال: وكان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات ندعو بهن صلاتنا، أو قال: في دبر صلاتنا: **«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد»** الحديث.

وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢٩٣)، رقم (٧١٧٨): من طريق بشر بن المفضل، عن الجريري عن أبي العلاء، عن رجل من بني مجاشع، عن شدادٍ بنحوه، وبرقم (٧١٧٩): من طريق عدي بن المفضل، عن الجريري، عن أبي العلاء، عن رجلين قد سماهما، عن شداد بنحوه، بدون ذكر قراءة السورة، وبرقم (٧١٨٠): من طريق حماد بن سلمة، عن الجريري، عن أبي العلاء، عن شدادٍ بنحوه، بدون ذكر قراءة السورة.

وأخرجه النسائي في «سننه»، رقم (١٣٠٤): من طريق الجريري، عن أبي العلاء، عن شدادٍ: أن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته: **«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»** الحديث، بدون ذكر قراءة السورة. قال في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٢٠): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، وهو ليس على شرطه، وفيه من لم يسم -كما ترى-» اهـ، وأشار السيوطي في «الجامع الصغير» (١/ ١٣٠)، رقم (١٥٠١) إلى ضعفه، وقال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٣١) بعد أن ذكر تصحيح الحاكم: «قال الحافظ العراقي: قلت: بل هو منقطع ضعيف» اهـ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢)، (٤٧)، (٩٣)، والبخاري، رقم (١٤٦٩)، ومسلم، رقم (١٠٥٣): عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: **«ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ومَنْ يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً...»** الحديث، واللفظ للبخاري.
والاستعفاف: ألا يسأل الناس بلسانه، والاستغناء: ألا يستشرف بقلبه. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧٥).

(٢) كذا في الأصل و(ك) و(س)، وفي ع: «وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خير عيشنا أدركناه بالصبر»، وهو الصواب، فقد أخرجه أحمد في «الزهد» (ص/ ١٤٦): عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن مجاهد قال: قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، ووكيع بن الجراح في «الزهد» (٢/ ٤٤٩)، رقم (١٩٨)، وابن المبارك في «الزهد» (ص/ ١١٤)، رقم (٢٢٢): عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد، عن عمر بلفظ أحمد، وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (٢/ ١٩٥): عن الليث، عن =

نَزِّهْ فؤادَكَ عن سوانَا والْقِنَا ... فجنابُنَا حِلٌّ لكلِّ مُنَزِّهِ
والصبرُ[١] طَلْسَمٌ لِكَنْزِ وصالِنَا ... مَنْ حَلَّ ذا الطلسمَ فازَ بكنزِهِ[٢]

فالصبرُ طلسمٌ على كَنزِ السعادةِ، مَنْ حَلَّه؛ ظَفَرَ بالكَنزِ.

الوجهُ السادسُ

- **الوجْهُ السادسُ**: قولُه: «الصبرُ: حبسُ النفسِ على مكروهٍ، وعقلُ[٣] اللسانِ عن الشكوى، ومكابدةُ الغصصِ في تحملِه، وانتظارُ الفرجِ عند عاقبتِه»، فيقالُ: هذا أحدُ أقسامِ الصبرِ - وهو الصبرُ على البلاءِ -.

وأما الصبرُ على الطاعةِ: فقد يعرضُ فيه[٤] ذلك أو بعضُه، وقد لا يعرضُ فيه، بل يتحلَّى بها، ويأتي بها محبةً ورضىً، ومع هذا فالصبرُ واقعٌ عليها؛ فإنه حبسُ النفسِ على مداومتِها والقيامِ بها، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية [الكهف: الآية ٢٨].

وأما الصبرُ عن المعصيةِ: فقد يعرضُ فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرضُ فيه؛ لتمكُّنِ الصابرِ من قهرِ داعيها وغلبتِه.

وإذا كان ما ذُكِرَ من الأمورِ الأربعةِ إنما يعرضُ في الصبرِ على البليةِ؛ فقولُه: «إنه في طريقِ الخاصَّةِ تجلدٌ ومناوأةٌ وجرأةٌ[٥] ومنازعةٌ» ليس كذلك؛ وإنما فيه التجلدُ، فأين المناوأةُ والجرأةُ والمنازعةُ؟!.

وأما لوازمُ الطبيعةِ من وجودِ ألمِ البلوى: فلا تنقلبُ[٦] ولا تعدمُ[٧]، فلا يصحُّ أن يقالَ: إن وجودَ التألمِ، والتجلدَ عليه، وحبسَ النفسِ عن التسخطِ، واللسانِ عن الشكوى - جرأةٌ[٨] ومنازعةٌ؛ بل هو محضُ العبوديةِ والاستكانةِ وامتثالِ الأمرِ، وهو

= عمرو بن الحارث، عن عمر بلفظه، وذكره البخاري في «صحيحه»، كتاب: الرقاق، باب: الصبر عن محارم الله. . . ، (١١/ ٣٠٩) معلقًا مجزومًا به.

(١) في ك: «فالصبر».

(٢) ذكرهما المؤلف في «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٣)، و«الفوائد» (ص/ ٣٠)، (٧٨)، ولم يعزهما لأحد.

(٣) في ع: «وعَقْد». (٤) في ك: «فقد تعرض فيه». (٥) في س: «وجراءة».

(٦) في س: «فلا يتقلب». وهو خطأ.

(٧) في ك وع: «فلا ينقلب ولا يعدم» بالتحتية في الفعلين، والمثبت هو الصواب.

(٨) في س: «وجراءة».

من عبوديةِ اللهِ سبحانه المفروضةِ على عبدِه في البلاءِ، فالقيامُ بها عينُ كمالِ العبدِ.

ولوازمُ الطبيعةِ لابدَّ منها، ومن رامَ ألا يجدَ البردَ والحرَّ والجوعَ والعطشَ والألمَ عند تمامِ أسبابِها وعللِها: فقد رامَ الممتنعَ، وهل ترتَّب الأجرُ[1] إلا على وجودِ تلك الآلامِ والمشاقِّ والصبرِ عليها؟!.

وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ**»[2]، وقيل له في مرضِه: «إنَّك لتوعكُ وعكًا شديدًا، قال: «**أجل؛ إنَّ لي أجرَ رجلين منكم**»[3] يعني في وعكِه ﷺ ولا ريبَ أن ذلك الوعكَ كان مؤلمًا له ﷺ، وأيضًا [فإنَّه][4] في مرضِ موتِه قال: «**وارأساه!**»[5]، وهذا إنما هو من وجودِ ألمِ الصداعِ، وكان يقولُ في غمراتِ الموتِ: «**اللَّهمَّ أعِنِّي على سكراتِ الموتِ**»، [ويُدْخِلُ يدَه في قدحِ الماءِ، ويسمحُ بها وجهَه من كُرَبِ الموتِ][6]؛ وهذا كلُّه لتكميلِ أجرِه، وزيادةِ

---

(١) في ك وس: «وهل يترتب الأجر». (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨١)، (٤٤١)، (٤٤٥)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم، رقم (٢٥٧١): عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يصيبه أذًى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاته كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها**».

والوَعْك: أذى الحُمَّى ووجعها ومَغْثُها في البدن، والألم من شدة التعب. انظر: «القاموس» (ص/ ١٢٣٦).

(٤) ما بين المعقوفين ليس في س.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١٤٤)، والبخاري، رقم (٥٦٦٦): عن القاسم بن محمد قال: «قالت عائشة رضي الله عنها: «وارأساه! فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك لو كان وأنا حي، فأستغفر لك، وأدعو لك**»، فقالت عائشة: واثكلياه! والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذاك لظلت آخر يومك معرِّسًا ببعض أزواجك، فقال النبي ﷺ: «**بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ، لَقَدْ هَمَمْتُ - أَوْ «أَرَدْتُ» - أَنْ أُرْسِلَ إِلَي أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ، فَأَعْهَدُ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ أَوْ يَتَمَنَّى الْمُتَمَنُّونَ**»، ثم قلت: يأبى الله، ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله، ويأبى المؤمنون».

(٦) ما بين المعقوفين ليس في ك وس.

والحديث أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٦٤)، (٧٠)، (٧٧)، (١٥١)، والترمذي في «جامعه»، رقم (٩٧٨)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (١٦٢٣) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (١٠٩٣): كلهم من طريق موسى بن سرجس، عن القاسم بن محمد، عن عائشة رضي الله عنها به، ولفظ الترمذي: «غمرات الموت» =

رفعةِ درجاتِه ﷺ، وهل كان ذلك إلا محضَ العبوديةِ وعينَ الكمالِ؟! ، وهل الجرأةُ[١] والمناوأةُ والمنازعةُ إلا في تركِ الصبرِ، وفي التسخطِ والشكوى؟!.

الوجهُ السابعُ

- **الوجْهُ السابعُ**: قولُه: «فإنَّ حاصلَه يرجعُ إلى كتمانِ الشكوى في تحاملِ الأذى بالبلوى، والاستبشارِ باختيارِ المَوْلى»، فيقالُ: الذي يمكنُ الخروجُ عنه هو الشكوى.

وأما أن يخرجَ[٢] عن ذوقِ البلوى، فلا يجدُه، أو يتلذذَ بها: فهذا غيرُ ممكنٍ، ولا هو في الطبيعةِ، وإنما الممكنُ أن يشاهدَ العبدُ في تضاعيفِ البلاءِ لُطْفَ صنعِ اللهِ به، وحسنَ اختيارِه له[٣]، وبرَّهُ به في حملِه عنه، فيخفَّ عنه[٤] مؤنةُ حملِه، وتشتغلَ النفسُ باستخراجِ لطائفِ صنعِ اللهِ به، وبرِّهِ وحسنِ اختيارِه عن شهودِ حملِه، فيحصلَ[٥] له لذةٌ بما شهدِه من ذلك.

وفوق هذا مرتبةٌ أرفعُ منه، وهي أن يشهدَ أن هذا مرادُ محبوبِه[٦]، وأنه بمرأىَ منه ومَسْتعٍ، وأنه هديتُه إلى عبدِه، وخِلْعَتُه التي خلَعَهَا عليه؛ ليرفلَ له في أذيالِ التذللِ والمسكنةِ والتضرعِ لعزتِه وجلالِه؛ فيعلمَ العبدُ أن حقيقةَ المحبةِ هي موافقةُ المحبوبِ في محابِّه؛ فيحبَّ ما يحبُّه محبوبُه، فيحبَّ العبدُ تلك الحالَ من حيثُ موافقتُه لمحبوبِه، وإن كرهها من حيثُ الطبعُ البشريُّ؛ فإنَّ هذهِ الكراهةَ لا تنافي محبتَه لها، كما يُكرُه طبعُه الدواءُ الكريهُ، وهو يحبُّه من وجهٍ آخرَ، وهذا لا ينكرُ في المحبةِ المتعلقةِ بالمخلوقِ مع ضعفِها وضعفِ أسبابِها، كما قال القائلُ في ذلك:

أهوى هواهُ، وبُعدي عنه يعجِبُهُ فالبعدُ قد صَارَ لي في حبِّهِ أربَا[٧]

= أو «سكرات الموت» بالشك.

وموسى بن سَرْجِس -بفتح السين، وسكون الراء، وكسر الجيم - قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» رقم (٧٨٤١): «مستور» اهـ، والحديث ضعفه الألباني كما في «ضعيف ابن ماجه» (ص/ ١٢٣)، رقم (٣٥٧).

(١) في س: «الجراءة».
(٢) في ك: «وأما الخروج».
(٣) في ك: «وحسن إحسانه له».
(٤) في س: «فيخفف عنه».
(٥) في ع: «فتحصل».
(٦) في ع: «مراد محبوبه منه».
(٧) ذكره المؤلف في «روضة المحبين» (ص/ ٣٢٤) بلفظ: «أهوى هواها وطول البعد يعجبها. . . فمن رأى والهًا قبلي أخا كلفٍ» اهـ، ولم يعزه.

وقالَ الآخرُ:

أُرِيدُ وصالَهُ ويريدُ هَجْرِي ... فأتركُ ما أُرِيدُ لِمَا يُريدُ(١)

وقالَ الآخرُ:

وأهنْتِنِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي جَاهِدًا ... مَا مَنْ يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ أُكْرِمُ(٢)

وإنه لتبلغُ المحبةُ بالعبدِ إلى حيثُ يفنى بمرادِ محبوبِهِ عن مرادِه هو منه، فإذا شهد مرادَ محبوبِه أحبَّهُ، وإن كان كريهًا إليه.

فهذا لا يُنْكَرُ، ولكن لا يُنافي التألمَ بمرادِ المحبوبِ المنافي للمحبِّ، وصبرَه عليه(٣)، بل يجتمعُ في حقِّه الأمران(٤).

وتَقْوَى(٥) هذهِ المحبةُ باستبشارِه وعلمِه بعاقبةِ تلك البلوى، وإفضائِها إلى غايةِ النعيمِ واللذةِ، فكُلَّما قويَ علمُه بذلك، وقويت محبتُه لِمَنْ ذَكَرَهُ بابتلائِه؛ ازداد تَلذذُه بها مع الكراهةِ الطبيعيةِ التي هي من لوازمِ الخلقةِ، ولا سيما إذا علم المحبُّ - الذي أحبُّ الأشياءِ إليه أن يجري ذكرُه على بالِ محبوبِه - أن محبوبَه قد ذكره بنوعٍ من الامتحانِ؛ فإنه يفرحُ بذكرِه له وإن ساءَه ما ذكرَهُ به، كما قال القائلُ:

لئِنْ ساءَنِي أَنْ نَلْتَنِي بمساءَةٍ ... لقد سَرَّنِي أَنِّي خَطرتُ ببالكا(٦)

- **الوجْهُ الثامنُ**: قولُه: «وهو على ثلاثِ مقاماتٍ مرتبةٍ بعضُها فوق بعضٍ: فالأولُ: التصبرُ» إلى قولِه: «وهو صبرُ العوامِّ»: فيقالُ: لا ريبَ أن التصبرَ مؤذنٌ بتكلفٍ وتحملٍ على كُرْهٍ، ولكن هذا لابدَّ منه في الصبرِ، وهو سببُه الذي ينالُه به، فالتصبرُ من العبدِ، والصبرُ ثمرتُه التي يفرغُها(٧) اللهُ إذا تعاطاه وتكلفه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ومَنْ يتصبرْ يصبرْه اللهُ**»(٨).

الوجهُ الثامنُ

فمنزلةُ التصبرِ من الصبرِ منزلةُ التعلمِ والتفهمِ من العلمِ والفهمِ، فلا بدَّ منه في

---

(١) لم أجده.

(٢) في ك وس: «ممن يكرم». والبيت عزاه المؤلف في «روضة المحبين» (ص/ ٥٠)، (٣٢٤) إلى أبي الشيص محمد بن عبد الله بن رزين.

(٣) أي: لا ينافي الفناء بمراد محبوبه التألمَ بهذا المراد، والصبرَ عليه.

(٤) في ك: «الأمرين». وهو غلط ظاهر. (٥) في ك: «ويُقَوِّي». (٦) لم أجده.

(٧) في ع: «يفرغها». وهو غلط. (٨) تقدم تخريجه.

حصولِ الصبرِ(١).

الوجهُ التاسعُ

- **الوجْهُ التاسعُ**: قولُه: «والثاني: الصبرُ، وهو نوعُ سهولةٍ يخففُ على المُبْتَلَى بعضَ الثقلِ، ويسهلُ عليه صعوبةَ المرادِ، وهو الصبرُ للهِ، وهو صبرُ المريدين»: فقد تقدَّم أن الصبرَ ثمرةُ التصبرِ، وكلاهُمَا إنما يُحْمَدُ إذا كان للهِ، وإنما يكونُ إذا كان باللهِ، فما لم يكنْ به لا يكونُ، وما لم يكنْ له لا ينفعُ ولا يثمرُ، فكلاهما لا يحصلُ للمريدِ السالِكِ مقصودُه إلا أن يكونَ باللهِ وللهِ، قال تعالى في الصبرِ به: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١٢٧]، وقال في الصبرِ له: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

الخلافُ في المفاضلةِ بين الصبر له وبه

واختلفَ الناسُ: أيُّ الصبرين أعلى وأفضلُ: الصبرُ له أو به؟:

- **فقالتْ طائفةٌ** - منهم صاحبُ [كتابِ](٢): «منازِلِ السائرين»(٣) -: «وأضعفُ الصبرِ الصبرُ للهِ، وهو صبرُ العامَّةِ، وفوقُهُ الصبرُ باللهِ وهو صبرُ المريدِ، وفوقهما الصبرُ على اللهِ وهو صبرُ السالِكِ».

القولُ الأولُ ووجهُهُ

ووجْهُ هذا القولِ: **أن الصبرَ للهِ هو صبرُ العابدِ** الذي يصبرُ نفسَه لأمرِ اللهِ؛ طلبًا لمرضاتِه وثوابِه، فهو صابرٌ على العملِ، صابرٌ عن المحرماتِ.

وأما الصبرُ به: فهو تبرؤٌ من الحولِ والقوةِ، وإضافةُ ذلك إلى اللهِ ﷻ، وهو صبرُ المريدِ.

وأما الصبرُ على اللهِ: فصبرُ السالِكِ على ما تجيءُ به أقدارُه وأحكامُه.

الصوابُ فيما تقدم

- **والصوابُ**: أن الصبرَ للهِ أكملُ من الصبرِ به؛ فإنَّ الصبرَ له متعلقٌ بإلهيتِه ومحبتِه، والصبرُ به متعلقٌ بربوبيتِه ومشيئتِه، وما له أكملُ مما به؛ فإنَّ ما له هو الغايةُ، وما به هو الوسيلةُ، فالصبرُ به وسيلةٌ، والصبرُ له غايةٌ، وبينهما من التفاوتِ ما بين الغاياتِ والوسائلِ.

وأيضًا فإن الصبرَ له متعلقٌ بقولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والصبرَ به متعلقٌ بقولِه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وهاتان الكلمتان منقسمتان بين العبدِ وبين اللهِ كما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه(٤)، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي التي للهِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٥)، «عدة الصابرين» (ص/ ٣٦)، «الفروقات» (ص/ ٢١٩).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٣) وهو أبو إسماعيل الهروي، تقدمت ترجمته.

(٤) أخرج مسلم في «صحيحه»، رقم (٣٩٥)، وأبو داود في «سننه»، رقم (٨٢١)، والترمذي في «جامعه» =

التي للعبدِ، وما للهِ أكملُ مما للعبدِ، فما تعلَّقَ بما هو له أفضلُ مما تعلق بما هو للعبدِ.

وأيضًا فالصبرُ له مصدرُه المحبةُ، والصبرُ به مصدرُه الاستعانةُ، والمحبةُ أكملُ من الاستعانةِ.

وأما الصبرُ على اللهِ سبحانه: فهو الصبرُ على أحكامِه الدينيةِ والكونيةِ، فهو يرجعُ إلى الصبرِ(١) على أوامرِه، والصبرِ على ابتلائِه، فليس في الحقيقةِ قسمٌ ثالثٌ - واللهُ أعلمُ.

فقد تبينَ أن الصبرَ بجميعِ أقسامِه أصلُ مقاماتِ الإيمانِ، وهو أصلٌ لكمالِ العبدِ(٢) الذي لا كمالَ له بدونِه، ولا يُذَمُّ منه إلا قسمٌ واحدٌ، وهو الصبرُ عن اللهِ سبحانه؛ فإنه صبرُ المُعْرِضين المحجُوبين، فالصبرُ عن المحبوبِ أقبحُ شيءٍ وأسوؤُه، وهو الذي يُسْقِطُ المحبَّ من عينِ محبوبِه، فإنَّ المحبَّ كلما كان أكملَ محبةً؛ كان صبرُه عن محبوبِه متعذرًا.

الوجهُ العاشرُ

- **الوجهُ العاشرُ:** قولُه: «الثالثُ: الاصطبارُ، وهو التلذذُ بالبلوى، والاستبشارُ باختيارِ المولى، وهذا هو الصبرُ على اللهِ، وهو صبرُ العارفين»: فيقالُ: «الاصطبارُ»: افتعالٌ من الصبرِ، كـ: «الاكتسابِ» و«الاتخاذِ»، وهو مشعرٌ بزيادةِ المعنى على الصبرِ؛ كأنه صارَ سجيةً وملكةً؛ فإنَّ هذا البناءَ مؤذنٌ بالاتخاذِ والاكتسابِ، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القَمَر: الآية ٢٧]، فالاصطبارُ(٣) أبلغُ من الصبرِ، كما أن الاكتسابَ أبلغُ من الكسبِ، ولهذا كان في العملِ - الذي يكونُ على صاحبِه -، والكسب فيما له(٤)، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦]؛ تنبيهًا على أن الثوابَ

= رقم (٢٩٥٣)، والنسائي في «سننه»، رقم (٩١٠)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (٨٣٨): عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«قال الله -تعالى-: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] **قال الله -تعالى-: حمدني عبدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] **قال الله -تعالى-: أثنى علي عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] **قال: مجدني عبدي، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] **قال: هذا بيني وبين عبد ي، ولعبد ي ما سأل، فإذا قال:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»**.

(١) في ع: «إلى التصبر». (٢) في ع: «وهو أصل كمال العبد».

(٣) في ع: «والاصطبار». (٤) في ع: «وذاك فيما له».

يحصلُ لها بأدنى سعيٍ وكسبٍ، وأن العقابَ إنما هو باكتسابِها وتصرفِها وما تعانيه(١).

وإذا علم هذا فالتلذذُ بالبلوى، والاستبشارُ باختيارِ اللهِ سبحانه لا يختصُّ الاصطبارَ؛ بل يكونُ مع الصبرِ ومع التصبرِ، ولكن لَمَّا كان الاصطبارُ أبلغَ من الصبرِ وأقوى؛ كان بهذا التلذذِ والاستبشارِ أَوْلى - واللهُ أعلمُ.

أسبابُ الصبرِ عن المعصيةِ

قاعِـدَةٌ

الصبرُ عن المعصيةِ ينشأُ من أسبابٍ عديدةٍ:

الأولُ

- **أحدُها**: علمُ العبدِ بقبحِها ورذالتِها ودناءتِها، وأن اللهَ إنما حرَّمها ونهى عنها صيانةً [لعبدِه](٢)، وحمايةً عن الدنايا والرذائلِ، كما/ يحمي الوالدُ الشفيقُ ولدَه عما يضرُّه.

وهذا السببُ يحملُ العاقلَ على تركِها، ولو لم يُعَلَّقْ عليها وعيدٌ بالعذابِ(٣).

الثاني

- **السببُ الثاني**: الحياءُ من اللهِ ﷻ؛ فإنَّ العبدَ متى عَلِمَ بنظرِه إليه ومقامِه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمعٍ(٤)، وكان [حيًّا](٥) حييًّا؛ استحى من ربِّه أن يتعرضَ

---

(١) ذكر المؤلف في «شفاء العليل» (١/ ١٠٩) اختلاف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟ واختار ما ذكره هنا. وقال في «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٤): «قال -سبحانه-: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦] يعني: من السيئات؛ لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة شهوة، ولا إغراء عدوٍّ. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي.

وفيه فرق أحسن من هذا، وهو أنَّ الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة، فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمُّله.

وأما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهمِّ بالحسنة ونحو ذلك، فخصَّ الشر بالاكتساب، والخير بأعمَّ منه؛ ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: **«إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها»**. أما حديث الواسطة وعدمها فضعيف؛ لأن الخير أيضًا بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر، فالفرق ما ذكرنا، والله أعلم» اهـ. وانظر: «الكليات» (ص/ ١٦١)، «الفروقات» (ص/ ٢١٥). وانظر الفرق بين الصبر والاصطبار في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٥)، «عدة الصابرين» (ص/ ٣٦)، «الفروقات» (ص/ ٢١٩).

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك وس. (٣) في ك: «وعيدُ العذاب» -بالإضافة.

(٤) في ك وس: «ومستمع». (٥) ما بين المعقوفين ليس في ك.

لمساخطِه.

الثالثُ - **السببُ الثالثُ**: مراعاةُ نعمِه عليك، وإحسانِه إليك؛ فإنَّ الذنوبَ تُزِيلُ النعمَ - ولابد -، فما أذنب عبدٌ ذنبًا إلا زالت عنه نعمةٌ من اللهِ بحسبِ ذلك الذنبِ، فإنْ تابَ ورجع؛ رجعتْ إليه أو مثلُها، وإن أصرَّ لم ترجعْ إليه، ولا تزالُ الذنوبُ تزيلُ عنه نعمةً نعمةً حتى تسلبَ النعمَ كلَّها، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية ١١].

وأعظمُ النعمِ الإيمانُ، وذنبُ الزنا والسرقةِ وشربِ الخمرِ وانتهابِ النهبةِ تزيلُها وتسلبُها، وقال بعضُ السلفِ: «أذنبتُ ذنبًا؛ فحُرِمْتُ قيامَ الليلِ سنةً»، وقال آخرُ: «أذنبتُ ذنبًا؛ فحرمتُ فهمَ القرآنِ»، وفي هذا قيل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَهَا فإنَّ المعاصي تزيلُ النِّعَمْ(١)

وبالجملةِ فالمعاصي(٢) نارُ النعمِ، تأكلُها كما تأكلُ النارُ الحطبَ - عياذًا باللهِ من زوالِ نعمتِه، وتحويلِ عافيتِه.

الرابعُ - **السببُ الرابعُ**: خوفُ اللهِ وخشيةُ عقابِه.

وهذا إنما يثبتُ بتصديقِه في وعدِه ووعيدِه، والإيمانِ به وبكتابِه وبرسولِه.

وهذا السببُ يقوى بالعلمِ واليقينِ، ويضعفُ بضعفِهما، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨]، وقال بعضُ السلفِ: «كفى بخشيةِ اللهِ علمًا، وبالاغترارِ باللهِ جهلًا»(٣).

الخامسُ - **السببُ الخامسُ**: محبةُ اللهِ سبحانه، وهي من أقوى الأسبابِ في الصبرِ عن مخالفتِه ومعاصيهِ؛ فإنَّ المحبَّ لمَنْ يحبُّ مطيعٌ، وكلما قويَ سلطانُ المحبةِ في القلبِ؛ كان اقتضاؤُه للطاعةِ، وتركِ المخالفةِ أقوى.

وإنما تصدرُ المعصيةُ والمخالفةُ من ضعفِ المحبةِ وسلطانِها.

وفرقٌ بين مَنْ يحملُه على تركِ معصيةِ سيدِه خوفُه من سوطِه وعقوبتِه، وبين مَنْ

---

(١) لم أجده. (٢) في ك: «فإنَّ المعاصي».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٨٩)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص/ ١٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يحملُه على ذلك حبُّه لسيدِه، وفي هذا قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نعم العبدُ صهيبٌ، لو لم يخفِ اللهَ لم يعصِه»[١]، يعني: أنه لو لم يخفْ من اللهِ؛ لكان في قلبِه من محبةِ اللهِ وإجلالِه ما يمنعُه من معصيتِه؛ فالمحبُّ الصادقُ عليهِ رقيبٌ من محبوبِه، يَرعى قلبَه وجوارحَه، وعلامةُ صدقِ المحبةِ شهودُ هذا الرقيبِ ودوامُه.

وهاهنا لطيفةٌ يجبُ التنبهُ لها، وهي أنَّ المحبةَ المجردةَ لا توجبُ هذا الأثرَ ما لم تقترنْ بإجلالِ المحبوبِ وتعظيمِه، فإذا قارنها الإجلالُ والتعظيمُ[٢]؛ أوجبتْ هذا الحياءَ والطاعةَ، وإلا فالمحبةُ الخاليةُ عنهما إنما توجبُ نوعَ أُنسٍ وانبساطٍ وتذكرٍ واشتياقٍ، ولهذا يتخلفُ عنها أثرُها وموجبُها، ويفتشُ العبدُ قلبَه فيرى فيه نوعَ محبةٍ للهِ، ولكن لا تحملُه[٣] على تركِ معاصيه، وسببُ ذلك تجردُها عن الإجلالِ والتعظيمِ، فما عَمَرَ القلبَ شيءٌ كالمحبةِ المقترنةِ بإجلالِ اللهِ وتعظيمِه، وتلك من أفضلِ مواهبِ اللهِ لعبدِه - أو أفضلُها - وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ.

السادسُ

- **السببُ السادسُ**: شرفُ النفسِ وزكاؤُها وفضلُها وأنفتُها وحميتُها أن تختارَ الأسبابَ التي تحطُّها، وتضعُ قدرَها، وتخفضُ منزلتَها، وتحقرُها، وتسوي بينها وبين السفلةِ.

السابعُ

- **السببُ السابعُ**: قوةُ العلمِ بسوءِ عاقبةِ المعصيةِ، وقبحِ أثرِها والضررِ الناشئِ منها من سوادِ الوجهِ، وظلمةِ القلبِ، وضيقِه، وغمِّه، وحزنِه، وألمِه، وانحصارِه، وشدةِ قلقِه، واضطرابِه، وتفرقِ شملِه[٤] وضعفِه عن مقاومةِ عدوهِ، وتعريهِ من زينتِه بالثوبِ الذي جمَّلَه اللهُ وزيَّنه به، والعصرةِ التي تنالُه، والقسوةِ والحيرةِ في أمرِه، وتخلي وليِّه وناصرِه عنه، وتولي عدوهِ المبينِ له، وتواري العلمِ الذي كان مستعدًّا له عنه، ونسيانِ ما كان حاصِلًا له، أو ضعفِه - ولابدَّ -، ومرضِه الذي إذا استحكم به فهو الموتُ - ولابدَّ -؛ فإن الذنوبَ تميتُ القلوبَ.

عواقبُ المعصيةِ الدنيويةِ والأخرويةِ

ومنها: ذلُّه بعد عزِّه.

---

(١) لم أجدْه.

(٢) في ك: «الإجلال في التعظيم».

(٣) في ك: «ولكن لا يحمله» بالمثناه التحتية، وعليه يكون الفاعل قوله: «نوع» وعلى المثبت يكون الفاعل قوله: «محبة لله».

(٤) في ك: «وتمزُّق شملِه».

ومنها: أنه يصيرُ أسيرًا في يدِ أعدائِه بعدَ أن كان مَلِكًا متصرفًا يخافُه أعداؤُه.

ومنها: أنه يضعفُ تأثيرُه، فلا يبقى له نفوذٌ في رعيتِه ولا في الخارجِ، فلا رعيتَه تطيعُه إذا أمرها، ولا ينفذُ في غيرِهم.

ومنها: زوالُ أمنِه، وتبدلُه به مخافةً، فأخوفُ الناسِ أشدُّهم إساءةً.

ومنها: زوالُ الأنسِ، والاستبدالُ به وحشةً، وكلما ازداد إساءةً إزداد وحشةً.

ومنها: زوالُ الرضى، واستبدالُه بالسخطِ.

ومنها: زوالُ الطمأنينةِ باللهِ، والسكونِ إليه، والإيواءِ عنده، واستبدالِ الطردِ والبعدِ منه.

ومنها: وقوعُه في بئرِ الحسراتِ، فلا يزالُ في حسرةٍ دائمةٍ؛ كلما نال لذةً نازعتْه نفسُه إلى نظيرِها إن لم يقضِ منها وطرًا، أو إلى غيرِها[1] إن قضى وطرَه منها، وما يعجزُ عنه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما يقدرُ عليه، وكلما اشتدَّ نزوعُه، وعرفَ عجزَه؛ اشتدتْ حسرتُه وحزنُه، فيا لها نارًا قد عُذِّبَ بها القلبُ في هذهِ الدارِ قبلَ نارِ اللهِ الموقدةِ التي تطلعُ على الأفئدةِ.

ومنها: فقرُه بعدَ غناه؛ فإنه كان غنيًّا بما معه من رأسِ مالِ الإيمانِ، وهو يتجرُ به، ويربحُ الأرباحَ الكثيرةَ، فإذا سُلِبَ رأسَ مالِه؛ أصبح فقيرًا معدمًا، فإما أن يسعى[2] في تحصيلِ[3] رأسِ مالٍ آخرَ بالتوبةِ النصوحِ، والجدِّ، والتشميرِ، وإلا[4] فقد فاته ربحٌ كثيرٌ بما أضاعَهُ من رأسِ مالِه.

ومنها: نقصانُ رزقِه؛ فـ: «**إنَّ العبدَ يُحْرَمُ الرزقَ بالذنبِ يصيبُه**»[5].

---

(١) في ع: «وإلى غيرها». (٢) في ع: «فأنى له أن يسعى». والمثبت هو الصواب.

(٣) في ك: «بتحصيل». (٤) ما بين القائمين سقط من الأصل وك.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٧)، (٢٨٠)، (٢٨٢)، وابن ماجه في «سننه»، رقم (٩٠)، رقم (٤٠٢٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٤٤١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٠٠)، رقم (١٤٤٢)، وابن حبان في «صحيحه»، (٣/ ١٥٣)، رقم (٨٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٦٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٦)، رقم (٣٤١٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ١٦٩): من طريق سفيان الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد** =

ومنها: ضعفُ بدنِه.

ومنها: زوالُ المهابةِ والحلاوةِ التي أُلبِسها[١] بالطاعةِ، فيبدلُ بها مهانةً وحقارةً.

ومنها: حصولُ البغضةِ والنفرةِ منه في قلوبِ الناسِ.

ومنها: ضياعُ أعزِّ الأشياءِ عليه وأنفسِها وأغلاها[٢]، وهو الوقتُ الذي لا عوضَ منه، ولا يعودُ عليه[٣] أبدًا.

ومنها: طمعُ عدوِّهِ فيه، وظفرُه به؛ فإنه إذا رآه منقادًا له، مستجيبًا لما يأمرُه [به][٤] اشتدَّ طمعُه فيه، وحدَّث نفسَه بالظفرِ به، وجعلَهُ من حزبِه حتى يصيرَ هو وليَّه دونَ مولاه الحقِّ.

ومنها: الطبعُ والرينُ على قلبِه؛ فإنَّ العبدَ إذا أذنبَ نُكِتَ في قلبِه نكتةً سوداءً، فإن تاب منها صُقِلَ قلبُه، وإن أذنب ذنبًا آخرَ نُكِتَ فيه نكتةً أخرى، ولا تزالُ[٥] حتى تعلو قلبَه، فذلك هو الرَّانُ، قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطفِّفين: الآية ١٤].

ومنها: أنه يُحْرَمُ حلاوةَ الطاعةِ، فإذا فعلها لم يجدْ أثرَها في قلبِه من الحلاوةِ والقوةِ ومزيدِ الإيمانِ والعقلِ والرغبةِ في الآخرةِ؛ فإنَّ الطاعةَ تثمرُ هذهِ الثمراتِ - ولابد.

ومنها: أنها تمنعُ[٦] قلبَه من ترحلِه من الدنيا، ونزولِه بساحةِ القيامةِ؛ فإن القلبَ لا يزالُ مشتتًا مضيَّعًا حتى يرحلَ من الدنيا، وينزلَ في الآخرةِ، فإذا نزلَ فيها أقبلَتْ إليه وفودُ التوفيقِ والعنايةِ من كلِّ جهةٍ، واجتمع على جمعِ أطرافِه، وقضاءِ جهازِه، وتعبئةِ زادِه ليومِ معادِه، وما لم يترحلْ إلى الآخرةِ ويحضرُها؛ فالتعبُ والعناءُ والتشتتُ والكسلُ والبطالةُ لازمةٌ له - لا محالةَ.

= في العمر إلا البر، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

وأخرج ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ص/ ٥٧)، رقم (٦٤) الجملة الأخيرة منه.

قال في «مجمع الزوائد» (٨/ ١): «... وسألت شيخنا أبا الفضل العراقي رحمه الله عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن» اهـ.

(١) في ك: «التي لبسها». (٢) في ك: «وأعلاها» -بالمهملة. (٣) في ك: «إليه».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٥) في ع: «فلا يزال»، وفي ك: «ولا يزال».

(٦) في ك: «ومنها: أنْ يمنع».

ومنها: إعراضُ اللهِ وملائكتِه وعبادِه عنه؛ فإن العبدَ إذا أعرضَ عن طاعةِ اللهِ، واشتغلَ بمعاصيه؛ أعرضَ اللهُ عنه؛ فأعرضتْ عنه ملائكتُه وعبادُه، كما أنه إذا أقبلَ على اللهِ؛ أقبلَ [اللهُ](١) عليه، وأقبلَ بقلوبِ خلقِه إليه.

ومنها: أن الذنبَ يستدعي ذنبًا آخرَ، ثم يقوى أحدُهما بالآخرِ، فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمعُ الثلاثةُ، فتستدعي رابعًا، وهَلُمَّ جرًّا حتى تغمرَه ذنوبُه، وتحيطَ به [خطيئتُه](٢)، قال بعضُ السلفِ: «إن من ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها، ومن عقوبةِ السيئةِ السيئةَ بعدَها»(٣).

ومنها: علمُه بفواتِ ما هو أحبُّ إليه، وخيرٌ له منها من جنسِها وغيرِ جنسِها؛ فإنه لا يجمعُ اللهُ لعبدٍ بين لذةِ المحرماتِ في الدنيا ولذةِ ما في الآخرةِ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠]، فالمؤمنُ لا يُذْهِبُ طيباتِه في الدنيا، بل لابدَّ أن يتركَ بعضَ طيباتِه للآخرةِ، وأما الكافرُ فإنه لا يؤمنُ بالآخرةِ، فهو حريصٌ على تناولِ حظوظِه كلها، وطيباتِه في الدنيا.

ومنها: علمُه بأن أعمالَه هي زادُه ووسيلتُه إلى دارِ إقامتِه، فإن تَزَوَّدَ من معصيةِ اللهِ؛ أوصلَهُ ذلك الزادُ إلى دارِ العصاةِ والجناةِ، وإن تزوَّدَ من طاعتِه؛ وصل إلى دارِ أهلِ طاعتِه وولايتِه.

ومنها: علمُه بأن عملَه هو وليُّه في قبرِه، وأنيسُه فيه، وشفيعُه عند ربِّه، والمخاصِمُ والمحاجُّ عنه، فإنْ شاءَ جعلَه له، وإن شاءَ جعلَه عليه.

ومنها: علمه بأنَّ أعمالَ البرِّ تنهضُ بالعبدِ، وتقومُ به، وتصعدُ إلى اللهِ به، فبحسبِ قوةِ تعلقِه بها يكونُ صعودُه مع صعودِها.

وأعمالُ الفجورِ تهوي به، وتجذبُه إلى الهاويةِ(٤)، وتجرُّه إلى أسفلِ سافلين، وبحسبِ قوةِ تعلقِه بها يكونُ هبوطُه معها، ونزولُه إلى حيثُ تستقرُّ به، قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: الآية ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٢) ما بين المعقوفين ليس في ع.

(٣) ذكره البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/٤٤٦)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/٢٦٦) عن أبي الحسن المزين.

(٤) في ع: «وأعمال الفجور تجذبه وتهوي به إلى الهاوية».

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٠]، فلما لم يفتحْ[(١)] أبوابَ السماءِ لأعمالِهم، بل أُغْلِقَتْ عنها؛ لم تُفتحْ لأرواحِهم عند المفارقةِ، بل أُغلقتْ عنها.

وأهلُ الإيمانِ والعملِ الصالحِ لما كانت أبوابُ السماءِ مفتوحةً لأعمالِهم حتى وصلت إلى اللهِ سبحانه؛ فُتِحَتْ لأرواحِهم حتى وصلتْ إليه سبحانه[(٢)]، وقامتْ بين يديهِ، فرحمَها، وأمرَ بكتابةِ اسمِها في عِلِّيِّين.

ومنها: خروجُه من حصنِ اللهِ الذي لا ضيعةَ على من دخلَه[(٣)]، فيخرجُ بمعصيتِه منه إلى حيثُ يصيرُ نهبًا للصوصِ وقُطَّاعِ الطريقِ، فما الظنُّ بمن خرجَ من حصنٍ حصينٍ لا تدركُه[(٤)] فيه آفةٌ إلى خربةٍ موحشةٍ مأوى اللصوصِ وقطاعِ الطريقِ، فهل يتركون معه شيئًا من متاعِه؟!.

ومنها: أنه بالمعصيةِ قد تعرَّضَ لمحقِ بركتِه في كلِّ شيءٍ من أمرِ دنياه وآخرتِه؛ فإن الطاعةَ تجلبُ للعبدِ بركاتِ كلِّ شيءٍ، والمعصيةُ تمحقُ عنه كلَّ بركةٍ.

وبالجملةِ: فآثارُ المعصيةِ القبيحةُ أكثرُ من أن يحيطَ بها العبدُ علمًا.

وآثارُ الطاعةِ الحسنةُ أكثرُ من أن يحيطَ بها علمًا، فخيرُ الدنيا والآخرةِ بحذافيرِه في طاعةِ اللهِ، وشرُّ الدنيا والآخرةِ بحذافيرِه في معصيتِه، وفي بعضِ الآثارِ يقولُ اللهُ تعالى: «**من ذا الذي أطاعني فشقيَ بطاعتي؟! ومن ذا الذي عصاني فسعدَ بمعصيتي؟!**»[(٥)].

- **السببُ الثامنُ**: قصرُ الأملِ، وعلمُه بسرعةِ انتقالِه، وأنه كمسافرٍ دخل قريةً وهو مزمعٌ[(٦)] على الخروجِ منها، أو كراكبٍ قال في ظلِّ شجرةٍ، ثم سار وتركَهَا، فهو لعلمِه الثامنُ

(١) في ع: «فلمّا لم تفتح» -بالمثناة الفوقية.

(٢) في ع: «حتى وصلت إلى الله -سبحانه».

(٣) أي: لا هلاك ولا تلف ولا آفة على مَنْ دخله. انظر: «القاموس» (ص/ ٩٥٩).

(٤) في باقي النسخ: «لا يدركه» -بالمثناة التحتية-، وكلاهما سائغ.

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ٣٦)، وفي «التاريخ» (١/ ٣٢٠) عن وهب بن منبه. وقد بسط المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام على آثار المعاصي والذنوب الدنيوية والأخروية في «الداء والدواء» (ص/ ٤٥-١٣٨) فلينظر؛ فإنه نفيس.

(٦) أي: عازمٌ. انظر: «القاموس» (ص/ ٩٣٧).

بقلةِ مقامِه وسرعةِ انتقالِه حريصٌ على تركِ ما يثقلُه حملُه، ويضرُّه ولا ينفعُه، حريصٌ على الانتقالِ بخيرِ ما بحضرتِه، فليس للقلبِ أنفعُ من قصرِ الأملِ، ولا أضرُّ من التسويفِ وطولِ الأملِ.

التاسعُ

- **السببُ التاسعُ**: مجانبةُ الفضولِ في مطعمِه، ومشربِه، وملبسِه، ومنامِه، واجتماعِه بالناسِ؛ فإن قوةَ الداعي إلى المعاصي إنما تنشأُ[١] من هذهِ الفضلاتِ؛ فإنها تطلبُ لها مصرفًا، فيضيقُ عليها المباحُ، فتتعداه إلى الحرامِ.

ومن أعظمِ الأشياءِ ضررًا على العبدِ بطالتُه وفراغُه؛ فإن النفسَ لا تقعدُ فارغةً، بل إن لم يشغلْها بما ينفعُها شغلتْه بما يضرُّه - ولابدَّ.

العاشرُ

- **السببُ العاشرُ** - وهو الجامعُ لهذهِ الأسبابِ كلِّها -: [وهو][٢] ثباتُ شجرةِ الإيمانِ في القلبِ، فصبرُ العبدِ عن المعاصي إنما هو بحسبِ قوةِ إيمانِه، فكلما كان إيمانُه أقوى؛ كان صبرُه أتمَّ، وإذا ضعُفَ الإيمانُ ضعُفَ الصبرُ؛ فإنَّ مَنْ باشرَ قلبُه الإيمانَ بقيامِ اللهِ عليه ورؤيتِه له، وتحريمِه لما حرم عليه، وبغضِه له، ومقتِه لفاعلِه، وباشرَ قلبُه الإيمانَ بالثوابِ والعقابِ والجنةِ والنارِ - امتنعَ منه أن لا يعملَ بموجبِ هذا العلمِ.

ومن ظنَّ أنه يقوى على تركِ المخالفاتِ والمعاصي بدونِ الإيمانِ الراسخِ الثابتِ فقد غلط.

فإذا قوي سراجُ الإيمانِ في القلبِ[٣]، وأضاءَتْ جهاتُه كلُّها به، وأشرقَ نورُه في أرجائِه؛ سرى ذلك النورُ إلى الأعضاءِ، وانبعث إليها؛ فأسرعتِ الإجابةُ لداعي الإيمانِ، وانقادتْ له طائعةً مذللةً غيرَ متثاقلةٍ ولا كارهةٍ، بل تفرحُ بدعوتِه حين يدعوها، كما يفرحُ الرجلُ بدعوةِ حبيبِه المحسنِ إليه إلى محلِّ كرامتِه، فهو كلَّ وقتٍ يترقبُ[٤] داعيه، ويتأهبُ لموافاتِه، واللهُ يختصُّ برحمتِه من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) في ع: «إنما نشأ». (٢) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٣) في ع: «على القلب».
(٤) في ع: «يرقب».

فَصْلٌ

أسبابُ الصبر على الطَاعِة

والصبرُ على الطاعةِ ينشأُ من معرفةِ هذهِ الأسبابِ، ومن معرفةِ ما تجلبُه الطاعةُ من العواقبِ الحميدةِ، والآثارِ الجميلةِ.

ومن أقوى أسبابِها الإيمانُ والمحبةُ، فكلما قويَ داعي الإيمانِ والمحبةِ في القلبِ كانت استجابتُه للطاعةِ بحسبِه.

الخلاف في المفاضلةِ بين الصبرِ عن المعصيةِ والصبر على الطاعةِ

وهاهنا مسألةٌ تكلم فيها الناسُ، وهي: أيُّ الصبرين أفضلُ: صبرُ العبدِ عن المعصيةِ أم صبرُه على الطاعةِ؟:

القولُ الأولُ وحججُهُ

- **فطائفةٌ رجَّحتِ الأولَ**، وقالتْ: الصبرُ عن المعصيةِ من وظائفِ الصديقين، كما قال بعضُ السلفِ: «أعمالُ البرِّ يفعلُها البرُّ والفاجرُ، ولا يقوى على تركِ المعاصي إلا صدِّيقٌ»(١).

قالوا: ولأن داعيَ المعصيةِ أشدُّ من داعي تركِ الطاعةِ؛ فإن داعيَ المعصيةِ داعٍ إلى أمرٍ وجوديٍّ تشتهيهِ النفسُ، وتلتذُّ به، والداعي إلى تركِ الطاعةِ الكسلُ والبطالةُ والمهانةُ، ولا ريبَ أن داعيَ المعصيةِ أقوى.

قالوا: ولأن العصيانَ قد اجتمعَ عليه داعي النفسِ، والشيطانُ، والهوى، وأسبابُ الدنيا، وقرناءُ الرجلِ، وطلبُ التشبهِ والمحاكاةِ، وميلُ الطبعِ، وكلُّ واحدٍ من هذهِ الدواعي يجذبُ(٢) العبدَ إلى المعصيةِ، ويطلبُ(٣) أثرَه، فكيف إذا اجتمعتْ، وتظاهرتْ على القلبِ؟! فأيُّ صبرٍ أقوى من صبرِه عن إجابتِها؟! ولولا أنَّ اللهَ يصبرُه لما تأتيَّ منه الصبرُ. وهذا القولُ - كما ترى - حجتُه في غايةِ الظهورِ.

- **ورجَّحتْ طائفةٌ الصبرَ على الطاعةِ**؛ بناءً على أن فعلَ المأموراتِ(٤) أفضلُ من تركِ المنهياتِ، واحتجتْ على ذلك بنحوٍ من عشرين حجةً(٥)، ولا ريبَ أن فعلَ

---

(١) عزاه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٩٧)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/ ٦٤) إلى سهل بن عبد الله التستري.

(٢) في ع: «تجذب». (٣) في ع: «وتطلب».

(٤) في ك: «بناءً منها على أن فعل المأمور».

(٥) ذكره رحمه الله في «عدة الصابرين» (ص/ ٥٨-٦٤).

المأموراتِ إنما يتمُّ بالصبرِ عليها، فإذا كان فعلُها أفضلَ كان الصبرُ عليها أفضلَ.

فصلُ النزاعِ في المسألةِ

وفَصْلُ النزاع في ذلك أن هذا يختلفُ باختلافِ الطاعةِ والمعصيةِ؛ فالصبرُ على الطاعةِ العظيمةِ[١] الكبيرةِ أفضلُ من الصبرِ عن المعصيةِ الصغيرةِ الدنيةِ، والصبرُ عن المعصيةِ الكبيرةِ أفضلُ من الصبرِ على الطاعةِ الصغيرةِ، فصبرُ العبدِ على الجهادِ - مثلًا - أفضلُ وأعظمُ من صبرِه عن كثيرٍ[٢] من الصغائرِ، وصبرُه عن كبائرِ الإثمِ والفواحشِ أعظمُ من صبرِه على صلاةِ الضحى وصومِ يومٍ تطوعًا ونحوِه.

فهذا فصلُ النزاعِ في المسألةِ - واللهُ أعلمُ.

فَصلٌ

أسبابُ الصبر على البلاءِ

والصبرُ على البلاءِ[٣] ينشأُ[٤] من أسبابٍ عديدةٍ:

- **أحدُها**: شهودُ جزائِها وثوابِها.

- **الثاني**: شهودُ تكفيرِها للسيئاتِ ومحوِها لها.

- **الثالثُ**: شهودُ القَدَرِ السابقِ الجاري بها، وأنها مقدرةٌ في أمِّ الكتابِ قبلَ أن تخلقَ[٥]، فلا بدَّ منها؛ فجَزَعُه لا يزيدُه إلا بلاءً.

- **الرابعُ**: شهودُه حقَّ اللهِ عليه في تلك البلوى، وواجبِه فيها، وهو الصبرُ بلا خلافٍ بين الأمةِ، أو الصبرُ والرضى على أحدِ القولين، فهو مأمورٌ بأداءِ حقِّ اللهِ وعبوديتِه عليه في تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفتْ عليه.

- **الخامسُ**: شهودُ ترتبِها عليه بذنبِه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: الآية ٣٠]، وهذا عامٌّ في كلِّ مصيبةٍ دقيقةٍ وجليلةٍ، فيشغلُه شهودُ هذا السببِ بالاستغفارِ الذي هو أعظمُ الأسبابِ في دفعِ تلك المصيبةِ، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنبٍ، ولا رُفِعَ[٦] بلاءٌ إلا بتوبةٍ»[٧].

- **السادسُ**: أن يعلمَ أنَّ اللهَ قد ارتضَاها له، واختارَها وقسمَها، وأنَّ العبوديةَ

---

(١) في ك: «الطاعة المعظَّمة». (٢) في ك: «على كثير». وهو غلط ظاهر.

(٣) كذا في جميع النسخ، والصواب: «البلوى»؛ لقوله بعد «شهود جزائها وثوابها...» إلخ.

(٤) في ع: «نشأ». (٥) في ك: «قبل أن يُخلق» -بالمثناة التحتية-، والمثبت أظهر.

(٦) في ك: «ولا دُفِع» -بالدال المهملة. (٧) لم أجده.

تقتضي رضاه بما رضيَ له به سيدُهُ ومولاهُ، فإنْ لم يوفِ هذا المقامَ حقَّه؛ فهو لضعفِه، فلينزلْ إلى مقامِ الصبرِ عليها، فإن نزلَ عنه؛ نزلَ إلى مقامِ الظلمِ وتعدِّي الحقِّ.

- **السابعُ**: أن يعلمَ أن هذهِ المصيبةَ هي دواءٌ نافعٌ ساقه إليه الطبيبُ، العليمُ بمصلحتِه، الرحيمُ له، فليصبرْ على تجرعِه، ولا يتقيَّأهُ بتسخطِه وشكواه، فيذهبَ نفعُه باطلًا.

- **الثامنُ**: أن يعلمَ أن في عُقْبى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافيةِ والصحةِ وزوالِ الألمِ ما لا تحصلُ[(١)] بدونِه، فإذا طالعتْ نفسُه كراهيةَ هذا الدواءِ ومرارتَه؛ فلينظرْ إلى عاقبتِه وحسنِ تأثيرِه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦]، وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: الآية ١٩]، وفي مثلِ هذا قال القائلُ:

لَعَلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ   وربما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ.

- **التاسعُ**: أن يعلمَ أنَّ المصيبةَ ما جاءتْ لتهلكَه وتقتلَه، وإنما جاءتْ لتمتحنَ صبرَه وتبتليهِ، فيتبين حينئذٍ: هل يصلحُ لاستخدامِه وجعلِه من أوليائِه وحزبِه أم لا؟، فإن ثبتَ؛ اصطفاه واجتباه وخلع عليه خِلَعَ الإكرامِ، وألبسه ملابسَ الفضلِ، وجعلَ أولياءَه وحزبَه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهِه، ونكَصَ على عقبيهِ؛ طُرِدَ وصُفِعَ قفاه، وأُقْصِي، وتضاعفتْ عليه المصيبةُ وهو لا يشعرُ في الحالِ بتضاعفِها[(٢)] وزيادتِها، ولكن سيعلمُ بعد ذلك بأن المصيبةَ في حقِّه صارت مصائبَ، كما يعلمُ الصابرُ أن المصيبةَ في حقِّه صارت نعمًا عديدةً، وما بين هاتين المنزلتين[(٣)] إلا صبرُ ساعةٍ، وتشجيعُ القلبِ في تلك الساعةِ.

والمصيبةُ لا بدَّ أن تقلعَ عن هذا وهذا، ولكن تقلعُ عن هذا بأنواعِ الكراماتِ والخيراتِ، وعن الآخرِ بالحرمانِ والخذلانِ؛ [لأن][(٤)] ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ، وفضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

- **العاشرُ**: أن يعلمَ أنَّ اللهَ سبحانه يربِّي عبدَه على السراءِ والضراءِ، والنعمةِ

---

(١) في ك: «ما لا يحصل» -بالمثناة التحتية.

(٢) في ع: «بتضاعيفها».

(٣) في ع: «وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ع.

والبلاءِ؛ فيستخرجَ منه عبوديتَه في جميعِ الأحوالِ؛ فإن العبدَ - على الحقيقةِ - من قام بعبوديةِ اللهِ على اختلافِ الأحوالِ.

وأما عبدُ[١] السراءِ والعافيةِ الذي يعبدُ اللهَ على حرفٍ: فإن أصابه خيرٌ اطمأن به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهِهِ؛ فليس من عبيدِه الذي[٢] اختارهم لعبوديتِه.

ولا ريبَ أن الإيمانَ الذي يثبتُ على محكِّ الابتلاءِ والعافيةِ هو الإيمانُ النافعُ وقتَ الحاجةِ، وأما إيمانُ العافيةِ فلا يكادُ يصحبُ العبدَ، ويبلغُه منازلَ المؤمنين، وإنما يصحبُه إيمانٌ يثبتُ على البلاءِ والعافيةِ.

فالابتلاءُ كيرُ العبدِ، ومحكُّ إيمانه: فإما أن يخرجَ تِبْرًا أحمرَ، وإما أن يخرجَ زغلًا محضًا، وإما أن يخرجَ فيه مادتان: ذهبيةٌ ونحاسيةٌ، فلا يزالُ به البلاءُ حتى يُخْرِجَ[٣] المادةَ النحاسيةَ من ذهبِه، ويبقي ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبدُ أن نعمةَ اللهِ عليه في البلاءِ ليستْ بدونِ نعمتِه عليه في العافيةِ؛ لشغلَ قلبَه بشكرِه، ولسانُهُ يقولُ: «**اللَّهمَّ أَعِنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك**»، وكيف لا يشكرُ من قَيِّضُ له[٤] ما يستخرجُ به خبثَه ونحاسَه[٥]، ويُصَيِّرُه تبرًا خالصًا يصلحُ لمجاورتِه والنظرِ إليه في دارِه؟!.

فهذهِ الأسبابُ ونحوها تثمرُ الصبرَ على البلاءِ، فإن قويت أثمرتِ الرضى والشكرَ، فنسألُ اللهَ أن يسترَنا بعافيتِه، ولا يفضحَنا بابتلائِه بمنِّهِ وكرمِه.

❊ ❊ ❊

---

(١) في ع: «وأما عند» -بالموحدة الفوقية-. وهو خطأ ظاهر.

(٢) في ع: «الذين». وهو الصواب.

(٣) في ك: «حتى تخرج» -بالمثناة الفوقية-، وعليه يكون من الفعل الثلاثي، وفاعله: «المادةُ»، وعلى المثبت يكون من الفعل الرباعي، وفاعله ضمير مستتر يعود على: «البلاء».

(٤) في ك: «مَنْ قيض الله له».

(٥) في ع: «ونجاسته». والمثبت أظهر.

فَصْلٌ

المثالُ الخامسُ: الحزنُ

المثالُ السادسُ: «الحزنُ»[(١)]:

قال أبو العباسِ[(٢)]: «وهو من منازِلِ العوامِّ[(٣)]؛ وهو انخلاعٌ عن السرورِ، وملازمةُ الكآبةِ؛ لتأسفٍ عن فائتٍ[(٤)]، أو توجعٍ لممتنعٍ.

كلامُ ابنِ العريفِ على الحزمِ

وإنما كان من منازِلِ العامَّةِ؛ لأن فيه نسيانَ المنةِ، والبقاءَ في رقِّ الطبعِ، وهو في مسالِكِ الخواصِّ حجابٌ؛ لأن معرفةَ اللهِ تعالى جلا نورُها كلَّ ظلمةٍ، وكشَفَ سرورُها كلَّ غمةٍ، فبذلك فليفرحوا[(٥)]، وقيل: أوْحَى اللهُ تعالى إلى داودَ: «بي فافرحْ[(٦)]، وبذكري فتلذذْ، وبمعرفتِي فافتخرْ، فعما قليلٍ أفرغُ الدارَ من الفاسقين، وأنزلُ نقمتِي[(٧)] على الظالمين»[(٨)].

مناقشتُه

- **اعلمْ** أن الحزنَ من عوارضِ الطريقِ، ليس من مقاماتِ الإيمانِ، ولا من منازلِ السائرين، ولهذا لم يأمرِ اللهُ به في موضعٍ قطُّ، ولا أثنى على أهلِه، ولا رتَّبَ عليه جزاءً ثوابًا[(٩)]؛ بل نهى سبحانه عنه في غيرِ موضعٍ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التّوبَة: الآية ٤٠].

فالحزنُ هو بليةٌ من البلايا التي نسألُ اللهَ دفعَها وكشفَها، ولهذا يقولُ أهلُ الجنةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٤]، فحمدُوه سبحانه على أن أذهبَ عنهم

---

(١) كذا في جميع النسخ، وهو المثال الخامس؛ فقد تقدم المثال الأول -وهو الإرادة-، والثاني -وهو الزهد-، والثالث -وهو التوكل-، والرابع -وهو الصبر.

(٢) في «محاسن المجالس» (ص/٨-٩).

(٣) في «محاسن المجالس» (ص/٨): «وأما الحزن فإنه من منازل العامة».

(٤) في «محاسن المجالس» (ص/٨): «على فائت».

(٥) في «محاسن المجالس» (ص/٨) زيادة: «هو خير مما يجمعون».

(٦) في ك زيادة: «يا داود بي فافرح». (٧) في «محاسن المجالس» (ص/٨): «وأُنزل لعنتي».

(٨) انتهى النقل من: «محاسن المجالس». (٩) في ك: «ولا ثوابًا».

تلك البليةَ، ونجَّاهم منها، وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقولُ في دعائِه: «**اللَّهمَّ إني أعوذُ بكَ من الهمِّ والحزنِ، والعجزِ والكسلِ، والجبنِ والبخلِ، وضلعِ الدينِ وغلبةِ الرجالِ**»(١)، فاستعاذَ ﷺ من ثمانيةِ أشياءَ، كلُّ شيئين منها قرينان:

فالهمُّ والحزنُ قرينان(٢)، وهما الألمُ الواردُ على القلبِ؛ فإن كان على ما مضى فهو الحزنُ، وإن كان على ما يُستقبلُ فهو الهمُّ.

فالألمُ الواردُ إن كان مصدرُه فوتَ الماضي؛ أثَّرَ الحزنَ، وإن كان مصدرُه خوفَ الآتي؛ أثَّرَ الهمَّ(٣).

والعجزُ والكسلُ قرينان؛ فإنَّ تخلفَ مصلحةِ العبدِ وكمالِهِ عنه إن كان من عدمِ القدرةِ؛ فهو عجزٌ، وإن كان من عدمِ الإرادةِ؛ فهو كسلٌ.

والجبنُ والبخلُ قرينان؛ فإنَّ الإحسانَ يُفرِحُ القلبَ، ويشرحُ الصدرَ، ويجلبُ النعمَ، ويدفعُ النقمَ، وتركُه يوجبُ الغمَّ والضيقَ، ويمنعُ وصولَ النعمِ إليه؛ فالجبنُ: تركُ الإحسانِ بالبدنِ، والبخلُ: تركُ الإحسانِ بالمالِ.

وضلعُ الدينِ وغلبةُ الرجالِ قرينان(٤)؛ فإنَّ القهرَ والغلبةَ الحاصلةَ للعبدِ إما منه، وإما من غيرِه، وإن شئتَ قلت: إما بحقٍّ، وإما بباطلٍ، فضلعُ الدينِ غلبةٌ سببُها منه وهي غلبةٌ بحقٍّ، وغلبةُ الرجالِ قهرٌ بباطلٍ من غيرِه(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٣)، (١١٧)، (١٢٢)، (١٥٩)، (٢٠٨)، (٢١٤)، (٢٢٠)، (٢٢٦)، (٢٣١)، والبخاري في «صحيحه»، رقم (٦٣٩): عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في ك: «فالهمُّ قرين الحزن».

(٣) وقيل في الفرق بينهما: الهم لمكروهٍ يُتَوَقَّع، والحزن لمكروهٍ واقعٍ، اختاره الكرماني. وقيل: الهمّ لما يتصوره العقل من المكروه في الحال، والحزن لما وقع في الماضي، اختاره الحافظ ابن حجر. انظر: «صحيح البخاري بشرح الكرماني» (٢٢/ ١٥٩)، «فتح الباري» (١١/ ١٧٨).

(٤) في ك: «وغلبة الدين وقهر الرجال».

(٥) وقال الكرماني في «شرح البخاري» (٢٢/ ١٥٩): «... وهذا الدعاء من جوامع الكلم لما قالوا: أنواع الرذائل ثلاثة: نفسانية وبدنية وخارجية. والأول بحسب القوى التي للإنسان - العقلية والغضبية والشهوية - ثلاث أيضًا: فالهم والحزن تتعلق بالعقلية، والجبن بالغضبية، والبخل بالشهوية، والعجز والكسل بالبدنية، والثاني يكون عند سلامة الأعضاء وتمام الآلات والقوى، والأول عند نقصان عضو ونحوه، والضلع والغلبة للخارجية، والأول مالي والثاني جاهي، والدعاء مشتمل على الكل» اهـ.

والمقصودُ أن النبيَّ ﷺ جعل الحزنَ مما يستعاذُ منه؛ وذلك لأن الحزنَ يضعفُ القلبَ، ويوهنُ العزمَ، ويفترُ الإرادةَ[١]، ولا شيءَ أحبُّ إلى الشيطانِ من حزنِ المؤمنِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: الآية ١٠].

فالحزنُ مرضٌ من أمراضِ القلبِ يمنعُه من نهوضِه وسيرِه وتشميرِه. والثوابُ عليه ثوابُ [على][٢] المصائبِ التي يُبتلى العبدُ بها بغيرِ اختيارِه كالمرضِ والألمِ ونحوِهما.

وأما أن يكونَ عبادةً مأمورًا بتحصيلِها وطلبِها فلا؛ ففرقٌ[٣] / بين/[٤] ما يثابُ عليه العبدُ من المأموراتِ، وما يثابُ عليه من البلياتِ.

يُحمدُ في الحزنِ سببُهُ ومصدرُهُ ولازمُهُ لا ذاتُهُ

ولكن يحمدُ في الحزنِ سببُه ومصدرُه ولازمُه لا ذاتُهُ؛ فإن المؤمنَ إما أن يحزنَ على تفريطِه وتقصيرِه في خدمةِ ربِّه وعبوديتِه، وإما أن يحزنَ على تورطِه في مخالفتِه ومعصيتِه وضياعِ أيامِه وأوقاتِه، وهذا يدلُّ على صحةِ الإيمانِ في قلبِه، وعلى حياتِه حيثُ شعر[٥] قلبُه بمثلِ هذا الألمِ، فحزنَ عليه، ولو كان قلبُه ميتًا؛ لم يحسَّ بذلك، ولم يحزنْ، ولم يتألمْ، فما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ، وكلما كان قلبُه أشدَّ حياةً؛ كان شعورُه بهذا الألمِ أقوى.

ولكنَّ الحزنَ لا يجدي عليه؛ فإنه يضعفُه - كما تقدم -، بل الذي ينفعُه أن يستقبلَ السيرَ، ويجدَّ ويشمرَ ويبذلَ جهدَه.

وهذا نظيرُ مَنِ انقطعَ عن رفقتِه في السفرِ، فجلسَ في الطريقِ حزينًا كئيبًا، يشهدُ انقطاعَه وسبقَ رفقتِه، فقعودُه لا يُجدي عليه شيئًا، بل إذا عرف الطريقَ فالأَوْلى له أن ينهضَ ويجدَّ في السيرِ، ويحدثَ نفسَه باللحاقِ بالقومِ، وكلما[٦] فترَ وحزن حدَّث نفسَه باللحاقِ برفقتِه، ووعدها - إن صبرت - أن تلحقَ بهم، ويزولَ عنها وحشةُ الانقطاعِ، فهكذا السالكُ إلى منازلِ الأبرارِ، وديارِ المقربين.

وأخصُّ من هذا: الحزنُ[٧] على قطعِ الوقتِ بالتفرقةِ المضعفةِ للقلبِ عن تمامِ سيرِه

---

(١) في ع: «ويغيِّر الإرادة»، وفي ك: «ويضر الإرادة».

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك. (٣) في ع: «فرق».

(٤) ما بين القائمين ليس في الأصل، وهو في باقي النسخ.

(٥) في ك: «حيث شغل». (٦) في ك: «فكلما».

(٧) في ك: «وأخصُّ من هذا حزنه».

وجدِّه في سلوكِه؛ فإنَّ التفرقةَ من أعظمِ البلاءِ على السالكِ، ولا سيما في ابتداءِ أمرِه.

فالأولُ حزنٌ على التفريطِ في الأعمالِ(١)، وهذا حزنٌ على نقصِ حالِه مع اللهِ، وتفرقةِ قلبِه [عنه](٢)، وكيف صار وقتُه ظرفًا لتفرقةِ حالِه، واشتغالِ قلبِه بغيرِ معبودِه؟!

وأخصُّ من هذا الحزن حزنُه على جزءٍ من أجزاءِ قلبِه؛ كيف هو خالٍ عن محبةِ اللهِ؟! وعلى جزءٍ من أجزاءِ بدنِه؛ كيف هو متصرفٌ في غيرِ محابِّ اللهِ؟!.

فهذا حزنُ الخاصَّةِ.

ويدخلُ في هذا حزنُهم على كلِّ معارضٍ يشغلُهم(٣) عما هم بصددِه من خاطرٍ، أو إرادةٍ، أو شاغلٍ من خارجٍ.

فهذِهِ المراتبُ من الحزنِ لابدَّ منها في الطريقِ، ولكنِ الكَيِّسُ [مَنْ](٤) لايدعُها تملكُه وتقعدُه، بل يجعلُ عوضَ فكرتِهِ فيها فكرتَه فيما يدفعُها به؛ فإن المكروهَ إذا وردَ على النفسِ: فإن كانت صغيرةً اشتغلت بفكرِها فيه، وفي حصولِه عن الفكرةِ في الأسبابِ التي يدفعُها به، فأورثها الحزنَ.

وإن كانت نفسًا كبيرةً شريفةً لم تفكرْ فيه، بل تصرفُ فكرَها إلى ما ينفعُها، فإن علمت منه مخرجًا؛ فكرتْ في طريقِ ذلك المخرجِ وأسبابِه، وإن علمت أنه لا مخرجَ منه؛ فكرتْ في عبوديةِ اللهِ فيه، فكان ذلك عوضًا لها من الحزنِ.

فعلى كلِّ حالٍ لا فائدةَ لها في الحزنِ أصلًا - واللهُ أعلمُ.

وقال بعضُ العارفين: «ليستِ الخاصَّةُ من الحزنِ في شيءٍ».

- **وقولُه** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معرفةُ اللهِ جلا نورُها كلَّ ظلمةٍ، وكشف سرورُها كلَّ غمةٍ»: كلامٌ في غايةِ الحسنِ؛ فإنَّ مَنْ عرف اللهَ أحبَّه - ولابدَّ -، ومَنْ أحبَّهُ انقشعتْ عنه سحائبُ الظلماتِ، وانكشفت عن قلبِه الهمومُ والغمومُ والأحزانُ، وعُمِّرَ قلبُهُ بالسرورِ والأفراحِ، وأقبلتْ إليه وفودُ التهاني والبشائرِ من كلِّ جانبٍ؛ فإنه لا حزنَ مع اللهِ

---

(١) في ع: «فالأول حزنه على التوسط في الأعمال». وهو خطأ.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك.

(٣) في ك: «ليشغلهم».

(٤) ما بين المعقوفين ليس في ك.

أبدًا، ولهذا قال تعالى حكايةً عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه [أبي بكرٍ][(١)]: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، فدلَّ [على][(٢)] أنه لا حزنَ مع اللهِ، وأن من كان اللهُ معه؛ فما له وللحزنِ؟!.

وإنما الحزنُ - كلُّ الحزنِ - لمن فاته اللهُ، فمن حصل اللهُ له فعلى أيِّ شيءٍ يحزنُ؟! ومن فاته اللهُ فبأيِّ شيءٍ يفرحُ؟!؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: الآية ٥٨]، فالفرحُ بفضلِه ورحمتِهِ تبعٌ للفرحِ به سبحانه، فالمؤمنُ يفرحُ بربِّه أعظمَ من فرحِ كلِّ أحدٍ بما يفرحُ به من حبيبٍ، أو جاهٍ[(٣)]، أو مالٍ، أو نعمةٍ، أو ملكٍ؛ ففرحُ المؤمنِ[(٤)] بربِّه أعظمُ من هذا كلِّه.

ولا ينالُ القلبُ حقيقةَ الحياةِ حتى يجدَ طعمَ هذهِ الفرحةِ والبهجةِ، فيظهرَ سرورُها في قلبِه، ونضرتُها في وجهِهِ، فيصيرَ له حالٌ من حالِ أهلِ الجنةِ حيثُ لقَّاهم اللهُ نضرةً وسرورًا، فلمثلِ هذا فليعملِ العاملون، وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون، فهذا هو العلمُ الذي شمَّر إليه أولو الهممِ والعزائمِ، واستبق إليه أصحابُ الخصائصِ والمكارمِ.

تلك المكارمُ، لا قَعبان من لبنٍ ... شيبًا بماء فعادا بعدُ أبوالا[(٥)].

فَصْلٌ

المثالُ السابعُ: «الخوفُ».

الخوفُ وما يتعلقُ بِهِ

قال أبو العباسِ[(٦)]: هو الانخلاعُ عن طمأنينةِ الأمنِ، والتيقظُ لنداءِ الوعيدِ، والحذرُ من سطوةِ العقابِ. وهو من منازلِ العوامِّ أيضًا، وليس في منازلِ الخواصِّ خوفٌ؛ لأنه لا أمانَ للغافلِ، إنما يعبدُ مولاه على وحشةٍ من نظرِه ونُفرةٍ من الأنسِ به عندَ

---

(١) ما بين المعقوفين ليس في باقي النسخ.
(٢) ما بين المعقوفين ليس في ك.
(٣) في ك: «من حبيب أو حياة».
(٤) في ك: «يفرح المؤمن».
(٥) في ك: «وفيه قيل: تلك المكارم...» الخ وهو لأبي الصلت الثقفي كما في «الشعر والشعراء» (١/ ٣٠٠).
والقَعبان: مثني: «قعب»، وهو القدح الضخم. انظر: «القاموس» (ص/ ١٦٢).
(٦) أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي، أبو العباس ابن الصائف، المشهور بابن العرِّيف؛ لأن أباه كان عِرِّيفًا، أي: رئيسًا للشرطة في طنجة. له شعر ومشاركة في العلوم، صنف كتاب: «محاسن المجالس» و«مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة». ينظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٩٣)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠/ ١١١)، و«المغرب في حلي المغرب» لابن سعيد المغربي (٢/ ٢١١)، «الأعلام» للزركلي (١/ ٢١٥).

ذكره، ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ [الشورى: الآية ٢٢]». وأما الخواصُّ، أهلُ الاختصاصِ، فإنهم جعلوا الوعيدَ منه وعدًا، والعذابَ فيه عَذبًا؛ لأنهم شاهدوا المبتَلِي في البلاءِ، والمُعذِّبَ في العذابِ، فاستعذبوا ما وجدوا في جنبِ ما شاهدوا، وفي ذلك[١] قال قائلُهم:

سَقَمي في الحبِّ عَافِيَتِي ووجُودي في الهوى عَدَمِي
وعَذابٌ تَرتضُون بهِ في فَمِي أَحلَى من النعمِ[٢]..

ومن كان مستغرقًا في المشاهدةِ[٣] حلَّ في بساطِ الأنسِ[٤]، فلا يبقى للخوفِ

---

(١) في ك: «ما شاهدوا في ذلك».

(٢) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (٤٥١)، ونسبه السبكي للغزالي، كما في «الطبقات» (٦/ ٢٢٢)، وذكره التلمساني في «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ونسبه للحلاج (٥/ ٥٩٨)، وفي مثل هذا ذكر ابن الجوزي في «المدهش» (٤٥١):

مرض الحب شفائي في الهوى كلما أكربني أطربني
فبقائي من فنائي فيكم وسروري منكم في حَزني
وشربتم بوصال مهجتي وأنا منتظر للثمنِ
كيف أرجو البرء من داء الهوى وطبيبي في الهوى أمرضني
وإذا البلوى أفادت قربكم فمن النعمى داوم المحنِ

(٣) المشاهدة عند الصوفية تعني: المحاضرة والمداناة، وقيل: هي رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة كأنه رآه بالعين. وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال:

فالأول: الأصاغر، وهم المريدون، يشاهدون الأشياء بعين العبر، ويشاهدونها بأعين الفكر. والثاني: الأواسط، وهؤلاء قال فيهم الخراز: الخلق في قبضة الحق وفي ملكه. فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في همه غير الله. والثالث: ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكي: إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت فشاهدوه بكل شيء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم له، ولهم به، فكانوا غائبين حاضرين، وحاضرين غائبين، على انفراد الحق في الغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهرًا وباطنًا، وباطنًا وظاهرًا، وآخرًا وأولًا، وأولًا وآخرًا، انظر: «الرسالة القشيرية في علم التصوف» لعبد الكريم القشيري (٧٥) و«معجم اصطلاحات الصوفية» لعبد الرزاق الكاشاني (٣٤٧)، و«التعريفات» لعلي ابن محمد الجرجاني (٢٧٤)، و«المعجم الصوفي» د. عبد المنعم الحفني (٢٣٢)، و«معجم المصطلحات الصوفية»، د. أنور أبي خزام (١٦٣).

(٤) الأنس عند الصوفية أصله: الاسترواح بروح القُرب، والأنس بالشواهد التي تشهد بأنه قد تقدم في السلوك وتَقرَّب، وهو: التذاذ الروح بكمال الجمال، وهو من آثار مشاهدة الحضرة الإلهية في القلب وهو جمال الجلال، وقيل: هو ضد الهيبة، ينظر: «معجم اصطلاحات الصوفية» لعبد الرزاق الكاشاني (٢٧٦) =

بساحتِه ألمٌ؛ لأن المشاهدةَ توجبُ الأنسَ، والخوفَ يوجبُ القبضَ(١)(٢).

ثم ذكر حكايةَ المضروبِ الذي ضُرب مائةَ سوطٍ، فلم يتألمْ لأجلِ نظرِ محبوبِه إليه، ثم ضُرب سوطًا، فصاح لمَّا تَوارى عنه محبوبُه(٣).

قال: وقد قيل في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشّورى: الآية ٢٦]: دليلُ خطابِه أن المؤمنين لهم عذابٌ، ولكن ليس بشديدٍ، وإنما كان عذابُ الكافرين شديدًا لأنهم لا(٤) يشاهدون المعذِّبَ لهم، و العذابُ على شهودِ المُعذِّبِ عَذبٌ، والثوابُ على الغفلةِ من المعطي صعبٌ. فالخوفُ إذًا من منازلِ العوامِّ»(٥).

والكلامُ على ما ذكره من وجوهٍ:

ردُّ ابنِ القيم على ابنِ العريفِ جعلَهُ الخوفَ من منازلِ العوامِّ

أحدُها: أن الخوفَ أحدُ أركانِ الإيمانِ(٦) والإحسانِ الثلاثةِ التي عليها مدارُ مقاماتِ السالكين جميعِها، وهي(٧): الخوفُ، والرجاءُ، والمحبةُ. وقد ذكرها(٨) سبحانه في قولِه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسرَاء: الآية ٥٧] فذكر الحبَّ، والخوفَ، والرجاءَ، والمعنى: أن هؤلاءِ الذين تدعونهم من دونِ اللهِ من الملائكةِ، والأنبياءِ، والصالحين يتقربون إلى ربِّهم، ويخافُونه، ويرجُونه، فهم عبيدُه كما أنكم عبيدُه، فلماذا تعبدونهم من دونِه، وأنتم وهم عبيدٌ له؟ وقد أمر سبحانه بالخوفِ منه في قولِه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٥] فجعل الخوفَ منه شرطًا في

= و«المعجم الصوفي» للحفني (٣٥) و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (٤٨).

(١) القبض: حال شريف لأهل المعرفة، إذا قبضهم الحق أحشمهم عن إتيان المباحات، وتناول الأكل والشرب والكلام، ويقابله البسط، فإذا بسطهم ردهم إلى هذه الأشياء، وتولى حفظهم، فالقبض حال رجل عارف ليس فيه فضل لشيء غير معرفته، والقبض حالة بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء، ينظر: «الرسالة القشيرية» (٥٨)، و«معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (٣٥٢)، و«المعجم الصوفي» للحفني (١٩٨)، و«معجم المصطلحات الصوفية»، د. أنور أبي خزام (١٣٩).

(٢) كتاب «محاسن المجالس» لابن العريف (ص/٨٣-٨٤)، تحقيق آسين بلاثيوس، باريس، الطبعة (١٩٣٣م).

(٣) المصدر السابق (٨٤)، وكتاب: «مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب» لابن الدباغ (٧٥). والآيات من سورة «الإسراء» (٥٦-٥٧).

(٤) في س: «لم». (٥) «محاسن المجالس» (ص/ ٨٤). (٦) في م: «والإسلام».

(٧) في ع: «وهو». (٨) في ك، س: «ذكره».

الخوف شرطٌ في تحقيق الإيمان

تحققِ الإيمانِ، وإن كان الشرطُ داخلًا في الصيغةِ على الإيمانِ؛ فهو المشروطُ في المعنى، والخوفُ شرطٌ في حصولِه وتحققِه؛ وذلك لأن الإيمانَ سببُ الخوفِ الحاملُ[١] عليه، فحصولُ المسبَّبِ شرطٌ في تحققِ السببِ، كما أن حصولَ السببِ موجبٌ لحصولِ مسبَّبه[٢]، فانتفاءُ الإيمانِ عند انتفاءِ الخوفِ انتفاءٌ للمشروطِ[٣] عند انتفاءِ شرطِه، وانتفاءُ الخوفِ عند انتفاءِ الإيمانِ انتفاءٌ للمعلولِ[٤] عند انتفاءِ علتِه. فتدبرْه.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني، والجزاءُ محذوفٌ مدلولٌ عليه بالأولِ عند سيبويهِ وأصحابِه [٥]، أو هو المتقدمُ نفسُه، وهو جزاءٌ وإن تقدم، كما هو مذهبُ الكوفيين[٦]، وعلى التقديرين فأداةُ الشرطِ قد دخلتْ على السببِ المقتضي للخوفِ وهو الإيمانُ، وكلٌّ[٧] منهما مستلزمٌ للآخرِ. لكن الاستلزامُ مختلفٌ، وكلٌّ منهما منتفٍ عند انتفاءِ الآخرِ، لكنْ جهةُ الانتفاءِ مختلفةٌ كمَا تقدم.

والمقصودُ: أن الخوفَ من لوازمِ الإيمانِ وموجباتِه، فلا يتخلفُ عنه، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] وقد أثنى سبحانه على أقربِ عبادِه إليه

---

(١) في ك، س: «الحاصل».

(٢) قال الإمام الشاطبي: «الأصل المعلوم في الأصول: أن السبب إذا كان متوقف التأثير على شرط، فلا يصح أن يقع المسبب دونه» «الموافقات» (١/ ٢٦٨)، وينظر: «إعلام الموقعين» للمؤلف (٣/ ٢٦١).

(٣) في ك: «المشروط». (٤) في ع: «المعلول».

(٥) ينظر: «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٦٨)، وسيبويه هو: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ثم البصري، الملقب بـ«سيبويه»، إمام النحاة، طلب الفقه والحديث مدّة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير، قال إبراهيم الحربي: سمي سيبويه لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحسن. وقال عنه العيشي: قد تعلق من كل علم بسبب، وضرب بسهم في كل أدب، مع حداثة سنه، عاش اثنتين وثلاثين سنة، ت (١٨٠)هـ، ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٨/ ٣٥١)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ١٨٢)، و«البلغة في تراجم أئمة النحو» للفيروزأبادي (١٦٣)، «الأعلام» للزركلي (٥/ ٨١)، و«سيبويه إمام النحاة» لكوركيس عواد (ص/ ٨) وما بعدها، و«أئمة النحاة في التاريخ» د/ محمد محمود غالي (٥٧).

(٦) ينظر: «شرح الرضي لكافية ابن الحاجب» (ق٢/ ج٢/ ص٩١٨)، و«ارتشاف الضرب» لأبي حيان الأندلسي (٤/ ١٨٧٩).

(٧) في م: «فكل».

بالخوفِ منه؛ فقال عن أنبيائِه بعد أن أثنى عليهم ومدحَهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: الآية ٩٠] فالرغبُ: الرجاءُ [والرغبة][(١)].

والرهبُ: الخوفُ والخشيةُ[(٢)]. وقال عن ملائكتِهِ الذين قد أمَّنهم من عذابِه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: الآية ٥٠] وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنِّي أعلمُكم باللهِ وأشدُّكم له خشيةً**»[(٣)] وفي لفظٍ آخرَ: «**إنِّي أخوفُكم للهِ[(٤)] وأعلمُكم بما أتَّقي**»[(٥)] و«كان ﷺ يصلي ولصدرِه أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ من البكاءِ»[(٦)] وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: الآية ٢٨] فكلما كان العبدُ باللهِ أعلمَ؛ كان له أخوفَ.

قال ابنُ مسعودٍ[(٧)]: «كَفَى[(٨)] بخشيةِ اللهِ علمًا»[(٩)].

ونقصانُ الخوفِ من اللهِ إنما هو لنقصانِ معرفةِ العبدِ به، فأعرفُ الناسِ أخشاهم للهِ، ومن عرف اللهَ، اشتدَّ حياؤُه منه، وخوفُه [له][(١٠)]، وحبُّه له، وكلما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفًا وحبًّا، فالخوفُ من أجلِّ منازلِ الطريقِ، وخوفُ الخاصَّةِ أعظمُ من خوفِ العامَّةِ، وهم إليه أحوجُ، وهو بهم ألصقُ[(١١)]، ولهم ألزمُ.

أسبابُ حصولِ الخوفِ

فإن العبدَ إما أن يكونَ مستقيمًا، أو مائلًا عن الاستقامةِ، فإن كان مائلًا عن الاستقامةِ؛ فخوفُه من العقوبةِ على ميلِه. ولا يصحُّ الإيمانُ إلا بهذا الخوفِ، وهو ينشأُ

---

(١) سقط من ك.

(٢) روى ابن جرير الطبري عن ابن جريج قال: «رغبًا في رحمة الله، ورهبًا من عذاب الله» وروى أيضًا عن ابن زيد قال: «رغبًا ورهبًا: خوفًا وطمعًا» «جامع البيان» (١٧/ ٨٤).

(٣) رواه البخاري، ح (٦٨٥١). ومسلم، ح (٢٣٥٦)، وأحمد (٦/ ٤٥). من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٤) في ع، م: «بالله».

(٥) رواه مسلم، ح (١٨٦٨). من حديث عائشة بنحوه.

(٦) رواه أبو داود، ح (٩٠٤) «بنحوه»، والنسائي، ح (١٢١٤). وأحمد (٤/ ٢٥)، من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٧٠)، ح (٧٩٩).

(٧) عبد الله بن مسعود: سبقت ترجمته.

(٨) في ك، س: «وكفى».

(٩) رواه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (ص/ ١٥)، رقم (٤٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٠٤) وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص/١٥٨)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٨٩)، رقم (٨٩٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، (١/ ٤٧١-٤٧٢)، رقم (٧٤٦)، وفي كتاب: «الزهد الكبير» (٢/ ٢١٥-٢١٦) رقم (٥٤٨).

(١٠) سقط من م.

(١١) في ك، س: «أليق».

من ثلاثةِ أمورٍ:

أحدُها: معرفتُه بالجنايةِ وقبحِها.

والثاني: تصديقُ الوعيدِ، وأن الله رَتَّب على المعصيةِ عقوبتَها.

والثالثُ: أنه لا يعلمُ لعلَّه يُمنعُ من التوبةِ، ويحالُ بينه وبينها إذا ارتكب الذنبَ.

الحاملُ على الذنبِ

فبهذهِ الأمورِ الثلاثةِ يتمُّ له الخوفُ، وبحسبِ قوتِها وضعفِها تكونُ قوةُ الخوفِ وضعفُه؛ فإن الحاملَ على الذنبِ إما أن يكونَ عَدَمَ علمِهِ بقبحِه، وإما عَدَمَ علمِهِ بسوءِ عاقبتِه، وإما أن يجتمعَ له الأمران، لكن يحملُه عليه اتكالُه على التوبةِ، وهو الغالبُ من ذنوبِ أهلِ الإيمانِ، فإذا علم قبحَ الذنبِ، وعلم سوءَ مغبتِه، وخاف أن لا يُفتحَ له بالتوبةِ[١]، بل يُمْنَعُها، ويحالُ بينه وبينها؛ اشتدَّ خوفُه، وهذا قبل الذنبِ، فإذا عَمِله[٢]؛ كان خوفُه أشدَّ.

وبالجملةِ: فمَنِ استقرَّ في قلبِه ذكرُ الدارِ الآخرةِ وجزائِها، وذكرُ المعصيةِ والتوعدِ عليها، وعُدِمَ الوثوقَ بإتيانِه بالتوبةِ النصوحِ؛ هاجَ[٣] من قلبِه من الخوفِ ما لا يملكُه، ولا يفارقُه، حتى ينجوَ.

و[أمَّا][٤] إن كانَ مستقيمًا مع اللهِ؛ فخوفُه يكونُ مع جريانِ الأنفاسِ؛ لعلمِه بأن اللهَ مقلبُ القلوبِ، وما من قلبٍ إلا وهو بين أصبعين من أصابعِ الرحمنِ ﷻ؛ فإن شاء أن يقيمَه أقامَه، وإن شاءَ أن يزيغَه أزاغَه، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ[٥]، وكانت أكثرُ يمينِه ﷺ: «**لا ومقلبِ القلوبِ، لا ومقلبِ القلوبِ**»[٦] وقال بعضُ السلفِ: «القلبُ أشدُّ تقلبًا

---

(١) في م: «باب التوبة». (٢) في س: «علمه». (٣) في ك: «وهاج».

(٤) سقط من م.

(٥) رواه ابن ماجه في «المقدمة» (١/ ٧٢)، ح (١٩٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢) والبيهقي في «سننه» (٤/ ٤١٤)، رقم (٧٧٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٠٦)، رقم (١٩٢٦) و(٤/ ٣٥٧)، رقم (٧٩٠٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، وهو من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٠).

(٦) رواه البخاري، ح (٦٢٤٣)، وفي «الأيمان والنذور»، ح (٦٢٥٣)، وفي «التوحيد»، ح (٦٩٥٦)، وأبو داود، ح (٣٢٦٣)، والترمذي، ح (١٥٤٠)، والنسائي، ح (٣٧٦١)، وأحمد (٢/ ٢٥)، (٦٧) (٦٨)، (١٢٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مِنَ القِدْرِ إذا استجمعت غليانًا»(١).

وقال بعضُهم: «مثلُ القلبِ في سرعةِ تقلبِه كريشةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ تقلبُها الرياحُ ظهرًا لبطنٍ»(٢). ويكفي في هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] فأيُّ قرارٍ لمن هذهِ حالُه؟ ومن أحقُّ بالخوفِ منه(٣)؟ بل خوفُه لازمٌ له في كلِّ حالٍ، وإن(٤) توارى عنه بغلبةِ حالةٍ أخرى عليه؛ فالخوفُ حَشْوُ(٥) قلبِه، لكن توارى عنه بغلبةِ غيرِه، فوجودُ الشيءِ غيرُ العلمِ به؛ فالخوفُ الأولُ ثمرةُ العلمِ بالوعدِ والوعيدِ، وهذا الخوفُ(٦) ثمرةُ العلمِ بقدرةِ(٧) اللهِ، وعزَّتِه، وجلالِه، وأنه الفعالُ لما

---

(١) قال ﷺ: **«لقلب ابن آدم أشد انقلابًا من القِدْرِ إذا استجمعت غليًا»**. رواه أحمد (٦/ ٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٥٣)، (٢٥٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه» من حديث المقداد بن الأسود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٤٧)، ورواه ابن المبارك عن عبد الله بن رواحة، ينظر «الزهد» (٤٩٠).

(٢) عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة»** رواه ابن ماجه، في «المقدمة»، باب في القدر، ح (٨٨)، وأحمد (٤/ ٤٠٨)، (٤١٩) والبيهقي في «الشعب» (١/ ٤٧٤). وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٢٢).

(٣) قال المؤلف ـ رحمة الله عليه ـ حول هذا الموضوع في «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٧): «المشهد الحادي عشر، وهو: مشهد العجز والضعف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة، تقلبها الرياح يمينًا وشمالًا ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر، تهيج بها الرياح، وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة، وتخفضها تارة أخرى، تجري عليه أحكام القدر، وهو كالآلة طريحًا بين يدي وليه، ملقى ببابه، واضعًا خده على ثرى أعتابه، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله، كشاة مُلقاة بين الذئاب والسباع، لا يردها عنها إلا الراعي، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاءً، وهكذا حال العبد ملقىً بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم، وكفهم عنه، لم يجدوا إليه سبيلًا، وإن تخلَّى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين، لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفر به منهم، وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقًّا ويعرف ربه...».

(٤) في م: «فإن».

(٥) الحَشَى: هو ما بين آخر الأضلاع إلى الورك، فهو ما في البطن من كبد وطحال وكرش وما تبع ذلك. ينظر: «العين»، المنسوب للخليل بن أحمد (٣/ ٢٦١)، «و«الصحاح»» للجوهري (٥/ ١٨٤٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٤/ ١٧٨).

(٦) في س: «وهذا هو الخوف».

(٧) في س: «بقدر».

يريدُ، وأنه المحركُ للقلبِ، المصرفُ له، المقلبُ له كيف يشاءُ، لا إلهَ إلا هو.

الوجهُ الثاني

الوجهُ الثاني: قولُه: «ليس في منازلِ الخواصِّ خوفٌ»[١] قد تبين فسادُه، وأن الخاصَّةَ أشدُّ خوفًا [للهِ][٢] من العامَّةِ.

الوجهُ الثالثُ

الوجهُ الثالثُ: قولُه: «الغافلُ يعبدُ ربَّهَ على وحشةٍ من نظرِه، ونفرةٍ من الأنسِ به عند ذكرِه ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ [الشورى: الآية ٢٢][٣]» الآية[٤]: فهذا إنما هو وحشةٌ[٥] ونفارٌ، وهو غيرُ الخوفِ؛ فإن الوحشةَ إنما تنشأُ من عدمِ الخوفِ، وأما الخوفُ فإنه يوجبُ هروبًا إلى اللهِ، وجمعيةً عليه، وسكونًا إليه، فهي مخافةٌ مقرونةٌ بحلاوةٍ وطمأنينةٍ وسكينةٍ ومحبةٍ، بخلافِ خوفِ المسيءِ الهاربِ من اللهِ؛ فإنه خوفٌ مقرونٌ بوحشةٍ ونفرةٍ؛ فخوفُ الهاربِ إليه[٦] سبحانه محشوٌّ بالحلاوةِ والسكينةِ والأنسِ، لا وحشةَ معه؛ وإنما يجدُ الوحشةَ من نفسِه، فله نظران: نظرٌ إلى نفسِه وجنايتِه، فيوجبُ له وحشةً. ونظرٌ إلى ربِّه وقدرتِه عليه وعزِّه وجلالِه، فيوجبُ له خوفًا مقرونًا بأنسٍ وحلاوةٍ وطمأنينةٍ.

الوجهُ الرابعُ

الوجْهُ الرابعُ[٧]: أن استشهادَه بقولِه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الشورى: الآية ٢٢] ليس استشهادًا صحيحًا؛ فإن هذا وصفٌ لحالِهم في الآخرةِ عند معاينةِ العذابِ أو عندَ الموتِ. فهذا إشفاقٌ مقرونٌ بالاستيحاشِ؛ لأنه قد علم أنه صائرٌ [إليه كمن قَدِم إلى العقوبةِ، ورأى أسبابَها، فهو مشفقٌ منها إذا رآها؛ لعلمِه بأنه صائرٌ][٨] إليها[٩]. فليستِ الآيةُ من الخوفِ المأمورِ به في شيءٍ.

---

(١) كتاب: «محاسن المجالس» (٨٣).
(٢) سقط من م، ك، س.
(٣) في ع زيادة: «مما كسبوا».
(٤) كتاب: «محاسن المجالس» (٨٣).
(٥) الوَحْش أصله: كل شيء من دواب البر مما لا يُسْتَأْنس، ويراد به: الخلوة والهم، وكل شيء يستوحش عن الناس، ولا يستأنس بهم. ينظر: «العين» (٣/ ٢٦٢)، و«الصحاح» للجوهري (٣/ ٨٦٠)، و«لسان العرب» (٦/ ٣٦٨).
(٦) في ع: «إلى الله».
(٧) في الأصل: «الثالث» وهو خطأ، وفي م: «قوله».
(٨) سقط من م.
(٩) ينظر: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» لابن جرير الطبري (٢٥/ ٢٢)، و«معالم التنزيل» للبغوي (٤/ ١٢٤)، و«زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٧/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٢).

الوجه الخامس

الوجْهُ الخامسُ[١]: أن الخوفَ يتعلقُ بالأفعالِ، وأما الحبُّ فإنه يتعلقُ بالذاتِ والصفاتِ. ولهذا يزولُ الخوفُ في الجنةِ[٢]، وأما الحبُّ فيزدادُ. ولما كان الحبُّ يتعلقُ بالذاتِ؛ كان من أسمائِه سبحانه: «الودودُ»، قال البخاريُّ في «صحيحِه»: «الحبيبُ»[٣].

الخوفُ يتعلقُ بالأفعالِ

وأما الخوفُ فإنما متعلقُه أفعالُ الربِّ سبحانه، ولا يخرجُ عن كونِ سببِه جنايةَ العبدِ، وإن كانتْ جنايتُه من قدرِ اللهِ.

ولهذا قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يرجونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنَّ عبدٌ إلا ذنبَه»[٥].

فمتعلقُ الخوفِ ذنبُ العبدِ وعاقبتُه، وهي مفعولاتٌ للربِّ، فليس الخوفُ عائدًا إلى نفسِ الذاتِ.

الفرقُ بين الخوفِ والحبِّ

والفرقُ بينه وبين الحبِّ: أن الحبَّ سببُه الكمالُ. وذاتُه تعالى لها الكمالُ المطلقُ، وهو متعلقُ الحبِّ التامِّ. وأما الخوفُ فسببُه توقعُ المكروهِ، وهذا إنما يكونُ في الأفعالِ والمفعولاتِ، وبهذا يعلمُ بطلانُ قولِ من زعم أنه سبحانه يُخافُ لا لعلةٍ ولا لسببٍ؛ بل كما يُخافُ السيلُ الذي لا يَدري العبدُ من أين يأتيهِ.

وهذا بناءٌ من هؤلاءِ على نفي محبتِه سبحانه وحكمتِه. وأنه ليس إلا محضَ المشيئةِ والإرادةِ التي تُرجِّحُ مِثلًا على مِثلٍ بلا مُرَجِّحٍ، ولا يُراعى فيها حكمةٌ ولا مصلحةٌ، وهؤلاءِ عندهم الخوفُ يتعلقُ بنفسِ الذاتِ من غيرِ نظرٍ إلى فعلِ العبدِ، وأنه سببُ المخافةِ؛ إذ ليس عندهم سببٌ ولا حكمةٌ، بل إرادةٌ محضةٌ يفعلُ بها مايشاءُ من تنعيمٍ

---

(١) في الأصل «الرابع» وهو خطأ.

(٢) حيث إن الخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا فإنه يزول بزوال الخوف، فإن أهل الجنة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يُونس: الآية ٦٢]. ينظر: «مدارج السالكين» للمؤلف (١/ ٥١٤).

(٣) «صحيح البخاري»: كتاب التفسير، باب: «تفسير سورة البروج» (٤/ ١٨٨٥)، وكتاب التوحيد، باب: «وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم» (٦/ ٢٦٩٨).

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) رواه العدني في كتاب «الإيمان» (ص/ ٨٥)، رقم (١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥-٧٦)، وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٣٢٦).

وتعذيبٍ[1]. وعند هؤلاءِ فالخوفُ لازمٌ للعبدِ في كلِّ حالٍ، أحسنَ أم أساءَ.

وليس لأفعالِهم تأثيرٌ في الخوفِ. وهذا من قلةِ نصيبهم من المعرفةِ باللهِ وكمالِه وحكمتِه.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللَّهُ. بعد أن ساق هذا القول: «وهذا قول كثير ممن يثبت القدر وينتسب إلى أهل السنة من أهل الكلام والفقه وغيرهم، وقد قال بهذا طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وهو قول الأشعري وأصحابه، وقول كثير من نفاة القياس في الفقه الظاهرية كابن حزم وأمثاله» «مجموع «الفتاوى» (٨/ ٨١).

وقال المؤلف. رَحِمَهُ اللَّهُ. «فسلك الجبرية وادي الجبر، وطريق المشيئة المحضة الذي يرجح مِثلًا على مِثل من غير اعتبار علة ولا غاية ولا حكمة» «شفاء العليل» (١/ ١١٣)

ثم ذكر شيخ الإسلام القول الثاني في هذه المسألة. «الفتاوى» (٨/ ٨٤). فقال: «والتقدير الثاني: قول من يجعل العلة الغائبة قديمة».

وهم يثبتون الحكم والغايات، غير أنهم يقولون: إنها قديمة ليست مقارنة للمفعول، وهو قول عبد الله بن كلاب وأصحابه، فيزعمون أنه سبحانه لم يزل راضيًا عمن يعلم أنه يموت مؤمنًا، وإن كان أكثر عمره كافرًا، ساخطًا على من يعلم أنه يموت كافرًا وإن كان أكثر عمره مؤمنًا، قالوا: وإرادة الله سبحانه لكون الشيء هي الكراهة أن لا يكون. ينظر: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ٢٢٦).

ثم ذكر شيخ الإسلام القول الثالث: . «الفتاوى» (٨/ ٨٩-٩٣). فقال: «منهم من قال: إن الحكمة المطلوبة مخلوقة منفصلة عنه أيضًا، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم» ثم قال: «وأنتم عللتم أفعاله فرارًا من العبث، فوقعتم في العبث، فإن العبث هو: الفعل الذي ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل».

وأما القول الرابع: وهو أن الله فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة؛ فهذا قول أكثر الناس من المسلمين وغير المسلمين، وقول طوائف من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم. . . وقول أكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير. ويقولون: إنه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه، وقد لا يعلمون ذلك». اهـ باختصار.

وذكر المؤلف في «شفاء العليل» (١/ ١٩٠) «أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فَعَل كما هي ناشئة عن أسباب بها فَعَلَ، وقد دلَّ كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها» ثم ساق أنواعًا كثيرة من الأدلة، تحت كل نوع منها مجموعة من النصوص الشرعية.

وللمزيد في أقوال الناس في هذه المسألة ينظر: «الفتاوى» لشيخ الإسلام (٨/ ٨١) وما بعدها و«الصفدية» له (١/ ١٤٣)، و«شفاء العليل» لابن القيم (١/ ١١٣) و (١/ ١٨٥) وما بعدها.

وأين هذا من قولِ أميرِ المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «لا يرجونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبَه»[(٢)]؟ فجعل الرجاءَ متعلقًا بالربِّ تعالى؛ لأن رحمتَه من لوازمِ ذاتِه، وهي سبقت غضبَه. وأما الخوفُ فمتعلقٌ بالذنبِ؛ فهو سببُ المخافةِ، حتى لو قُدِّرَ عدمُ الذنبِ بالكليةِ لم تكنْ مخافةٌ.

أسبابُ خوفِ الملائكةِ والأنبياءِ

فإن قيل: فما وجهُ خوفِ الملائكةِ، وهم معصومون من الذنوبِ التي هي أسبابُ المخافةِ، وشدةِ خوفِ النبيِّ ﷺ مع علمِه بأن اللهَ قد غفرَ له ما تقدَّم[(٣)] وما تأخَّر[(٤)] وأنه أقربُ الخلقِ إلى اللهِ [وسيلةً]؟![(٥)].

قيل: عن هذا أربعةُ أجوبةٍ:

الجوابُ الأولُ

الجوابُ الأولُ: أن هذا الخوفَ على حسبِ القربِ من اللهِ والمنزلةِ عنده.

وكلما كان العبدُ أقربَ إلى اللهِ؛ كان خوفُه منه أشدَّ؛ لأنه يطالَبُ بما لا[(٦)] يطالَبُ به غيرُه، ويجبُ عليه من رعايةِ تلك المنزلةِ وحقوقِها ما لا يجبُ على غيرِه.

ونظيرُ هذا في الشاهدِ: أن الماثلَ بين يدي أحدِ الملوكِ المشاهدَ له أشدُّ خوفًا منه من البعيدِ [عنه، بحسبِ قُربِه منه، ومنزلتِه عندَه، ومعرفتِه به وبحقوقِه، وأنه يُطالَبُ[(٧)] من حقوقِ الخدمةِ وآدابِها بما لا يُطالَبُ به غيرُه، فهو أحقُّ بالخوفِ من البعيدِ][(٨)].

ومن تصوَّر هذا حقَّ تصورِه؛ فَهِمَ قولَه ﷺ: «**إنِّي أعلمُكم باللهِ وأشدُّكم له خشيةً**»[(٩)] وفَهِمَ قولَه ﷺ في الحديثِ الذي رواه أبو داودَ، وغيرُه، من حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ[(١٠)] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ تعالى لو عذَّب أهلَ سمواتِه وأهلَ أرضِه؛ لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحمهم؛ كانت رحمتُه لهم خيرًا من أعمالِهم**»[(١١)].

وليس المرادُ به: لو عذَّبهم لتصرفَ في ملكِه. والمتصرفُ في ملكِه غيرُ ظالمٍ. كما

---

(١) علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبقت ترجمته. (٢) سبق تخريجه.

(٣) في م، ك، س: «ما تقدم من ذنبه».

(٤) عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**». رواه البخاري، ح (٤٥٥٦). ومسلم في: «التوبة»، ح (٢٨١٩)، بنحوه.

(٥) سقط من ك، س. (٦) في ك: «لم». (٧) في ك: «مطالب».

(٨) سقط من م. (٩) سبق تخريجه. (١٠) سبقت ترجمته.

(١١) رواه أبو داود، ح (٤٦٩٩)، وابن ماجه، «المقدمة»، ح (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٢)، (١٨٩)، من حديث أُبي بن كعب، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، (٣/ ٨٩٠).

يظنُّه كثيرٌ من الناسِ(١)، فإن هذا لا يتضمنُ مدحًا. والحديثُ إنما سيق للمدحِ وبيانِ عظمِ حقِّ اللهِ على عبادِه، وأنه لو عذَّبهم [لعذبهم](٢) بحقِّه عليهم، ولم(٣) يكنْ تعذيبُه ظلمًا لهم بغيرِ استحقاقٍ، فإنَّ حقَّه سبحانه عليهم أضعافُ أضعافِ ما أتوا.

ولهذا قال بعده: «**ولو رحمهم كانتْ(٤) رحمتُه خيرًا لهم من أعمالِهم**» يعني أن رحمتَه لهم ليستْ [ثمنًا لأعمالِهم، ولا تبلغُ أعمالُهم رحمتَه؛ فرحمتُه لهم ليست](٥) على قدرِ أعمالِهم؛ إذ أعمالُهم لا تستقلُّ باقتضاءِ الرحمةِ، وحقوقُ عبوديتِه وشكرِه التي يستحقُّها عليهم لم يقوموا بها، فلو عذَّبهم والحالةُ هذهِ؛ لكان(٦) تعذيبًا بحقِّه، وهو غيرُ ظالمٍ لهم فيه [ولا سيما](٧) فإن أعمالَهم لا توازي القليلَ من نعمِه عليهم. فتبقى نعمُه الكثيرةُ لا مقابلَ لها من شكرِهم، فإذا عذَّبهم على تركِ شكرِهم وأداءِ حقِّه الذي ينبغي له سبحانه؛ عذَّبهم [بحقِّه](٨) ولم يكنْ ظالمًا لهم.

فإن قيل: فهم إذا فعلوا مقدورَهم من شكرِه وعبوديتِه لم يكنْ ما عداه مما ينبغي له سبحانه مقدورًا لهم. فكيف يحسنُ العذابُ [عليه](٩)؟.

قيل: الجوابُ من وجهين:

الجوابُ الأولُ: أن المقدورَ للعبدِ لا يأتي به كلِّه

أحدُهما: أن المقدورَ للعبدِ لا يأتي به كلِّه، بل لا [بدَّ](١٠) من فتورٍ وإعراضٍ وغفلةٍ وتوانٍ. وأيضًا ففي نفسِ قيامِه بالعبوديةِ لا يوفيها حقَّها الواجبَ لها من كمالِ المراقبةِ والإجلالِ والتعظيمِ والنصيحةِ التامَّةِ للهِ فيها، بحيثُ يبذلُ مقدورَه كلَّه في تحسينِها وتكميلِها ظاهرًا وباطنًا، فالتقصيرُ لازمٌ في حالِ التركِ، وفي حالِ الفعلِ.

ولهذا لما سأل الصديقُ النبيَ ﷺ دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال له: «**قلْ: اللَّهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. فاغفرْ لي مغفرةً من عندِك، وارحمني إنك أنتَ الغفورُ الرحيمُ**»(١١) فأخبر عن ظلمِه لنفسِه مؤكدًا له بـ (إنَّ)

---

(١) ينظر في هذا: «جامع الرسائل» لشيخ الإسلام (١/ ١١٩) وما بعدها، و«شفاء العليل» للمؤلف (١/ ١١٢) وما بعدها.

(٢) سقط من ك، س. (٣) في س: «لم». (٤) في ع: «لكانت».

(٥) سقط من ك، س. (٦) في م: «كان». (٧) سقط من م.

(٨) في ع: «عذبهم بحقه وأداء حقه الذي ينبغي له سبحانه، ولم يكن» وما بين المعقوفين سقط من ك، س.

(٩) سقط من م. (١٠) سقط من ك.

(١١) رواه البخاري، ح (٦٩٥٣)، ومسلم، ح (٢٧٠٥)، والترمذي، ح (٣٥٣١)، والنسائي، ح (١٢٨٥) =

المقتضيةِ ثبوتَ الخبرِ وتحققِه، ثم أكده بالمصدرِ النافي للتجوزِ والاستعارةِ[١]، ثم وصفه بالكثرةِ المقتضيةِ لتعددِه وتكثرِه، ثم قال: «**فاغفرْ لي مغفرةً من عندِك**» أي: لاينالُها عملِي ولا سعيي، بل عملي يقصرُ عنها، وإنما هي من فضلِك وإحسانِك، لا بكسبي ولا باستغفاري وتوبتي. ثم قال: «**وارحمني**» أي: ليس مُعَوَّلي إلا على مجردِ رحمتِك، فإن رحمتني وإلا فالهلاكُ لازمٌ لي. فليتدبرِ اللبيبُ هذا الدعاءَ وما فيه من المعارفِ والعبوديةِ، وفي ضمنِه: إنك[٢] لو عذبتني لعدلت فيَّ ولم تظلمْني، وإني[٣] لا أنجو إلا بمغفرتِك ورحمتِك. ومن هذا قولُه ﷺ: «**لنْ[٤] يُنجِّيَ أحدًا منكم عملُهُ**» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدنِي اللهُ برحمةٍ منه وفضلٍ**»[٥] فإذا كان عملُ العبدِ لا يستقلُّ بالنجاةِ، فلو لم ينجِّهِ اللهُ لم يكنْ قد بخسَه شيئًا من حقِّه ولا ظلمه؛ فإنه ليس معه ما يقتضي نجاتَه، وعملُه ليس وافيًا بشكرِ القليلِ من نِعمِه، فهل يكونُ ظالمًا [له][٦] لو عَذَّبه؟ وهل تكونُ رحمتُه له جزاءً لعملِه، ويكونُ العملُ ثمنًا لها مع تقصيرِه فيه وعدمِ توفيتِه ما ينبغي له من بذلِ النصيحةِ فيه، وكمالِ العبوديةِ من الحياءِ [والمراقبةِ][٧] والمحبةِ، والخشوعِ، وحضورِ القلبِ بين يدي اللهِ في العملِ كلِّه[٨]. ومن عَلِمَ هذا عَلِم السرَّ[٩] في كونِ أعمالِ الطاعاتِ تختمُ بالاستغفارِ، ففي صحيحِ مسلمٍ عن ثوبانَ[١٠] رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا سلَّم من صلاتِه استغفر ثلاثًا. وقال: «**اللَّهمَّ أنتَ السلامُ، ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ**»[١١]

= وابن ماجه، ح (٣٨٣٥) وأحمد (١/ ٣)، (٧). من حديث أبي بكر. رضي الله عنه.

(١) هو قوله: «ظُلْمًا». (٢) في س: «أنه». (٣) في م: «ولأني».

(٤) في ك: «لا».

(٥) رواه البخاري، ح (٦٠٩٨)، ومسلم، ح (٢٨١٦)، وابن ماجه، ح (٤٢٠١)، وأحمد (٢/ ٤٥١)، (٤٨٢) (٤٩٥) (٥٠٣)، (٥١٤)، (٥٣٧)، من حديث أبي هريرة. رضي الله عنه.

(٦) سقط من ك. (٧) سقط من ك. (٨) في ك، س: «له».

(٩) في م: «أن السر».

(١٠) ثوبان بن بُجْدُد، أبو عبد الله، قيل: من حمير من اليمن، وقيل: من السراة، موضع بين مكة واليمن مولى رسول الله ﷺ، اشتراه النبي ﷺ، ثم أعتقه، ولم يزل معه سفرًا وحضرًا حتى مات ﷺ، توفي بحمص سنة (٥٤)هـ. انظر: «أسد الغابة» (١/ ٣٤٠) و«الإصابة» (١/ ٤١٣).

(١١) رواه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ح (٩٣١)، وأبو داود، كتاب: الطهارة، باب: ما يقول الرجل إذا سلم، ح (١٥١٣)، والترمذي =

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: الآية ١٩٩] فأخبر عن استغفارِهم عقيبَ صلاةِ الليلِ.

قال الحسنُ[١]: «مدُّوا الصلاةَ إلى السحرِ، فلما كان السحرُ جلسُوا يستغفرون اللهَ»[٢]. وأمر اللهُ تعالى عبادَه بالاستغفارِ عقيبَ الإفاضةِ في الحجِّ، فقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: الآية ١٩٩] وشرَّع رسولُ الله ﷺ للمتوضئِ أن يختمَ وضوءَه بالتوحيدِ والاستغفارِ، فيقولُ: «**أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه. اللَّهمَّ اجعلْني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**»[٣] فهذا ونحوه مما يبين حقيقةَ الأمرِ، وأن كلَّ أحدٍ محتاجٌ إلى مغفرةِ اللهِ ورحمتِه، وأنه لا سبيلَ إلى النجاةِ بدونِ مغفرتِه ورحمتِه أصلًا.

الجوابُ الثاني

الجوابُ الثاني: أنه لو فُرِضَ [أن][٤] العبدَ يأتي بمقدورِه كلِّه من الطاعةِ ظاهرًا وباطنًا؛ فالذي ينبغي لربِّه تعالى فوقُ ذلك، وأضعافُ أضعافِه. فإذا عجزَ العبدُ عنه؛ لم يستحقَّ ما يترتبُ عليه من الجزاءِ. والذي أتى به لا يقابلُ أقلَّ النعمِ. فإذا حُرِمَ جزاءَ العملِ الذي ينبغي للربِّ من عبدِه؛ كان ذلك تعذيبًا له، ولم يكنِ الربُّ تعالى ظالمًا له في هذا الحرمانِ. ولو كان عاجزًا عن أسبابِه فإنه لم يمنعْه حقًّا يستحقُّه عليه فيكونَ ظالمًا بمنعِه. فإذا أعطاه الثوابَ كان مجردُ صدقةٍ منه، وفضلٍ تصدقَ بها عليه لا ينالُها عملُه، بل هي خيرٌ من عملِه وأفضلُ وأكثرُ، ليست معاوضةً عليه. [واللهُ أعلمُ][٥].

الجوابُ الثالثُ=

الجوابُ الثالثُ عن السؤالِ الأولِ: أنَّ العبدَ إذا علم أن اللهَ سبحانه هو مقلبُ القلوبِ، وأنه يحولُ بين المرءِ وقلبِه، وأنه سبحانه كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، يفعلُ ما يشاءُ

= كتاب الصلاة، باب: ما يقول إذا سلم من الصلاة، ح (٣٠٠)، والنسائي، كتاب: السهو، باب: الاستغفار بعد التسليم، ح (١٣٣٧)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما يقال بعد التسليم، ح (٩٢٨)، وأحمد (٥/ ٢٧٥)، (٢٧٩).

(١) الحسن: سبقت ترجمته.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٢٥)، رقم (١٢٠٨)، وابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٥٩) رقم (٢٩٩)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٦٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٦/ ١٩٨).

(٣) رواه الترمذي، ح (٥٥)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»، (١/ ١٨)، ح (٤٨).

(٤) سقط من ع. (٥) سقط من م.

=أن العبدَ لا يأمنُ من تقلبِ القلبِ وإزاغتِهِ

ويحكمُ ما يريدُ، وأنه يهدي من يشاءُ، ويضلُّ من يشاءُ، ويرفعُ من يشاءُ، ويخفضُ من يشاءُ - فما يؤمنُه أن يقلبَ اللهُ قلبَه، ويحولَ بينَه وبينَه، ويزيغَهُ بعد إقامتِه؟. وقد أثنى اللهُ سبحانه على عبادِه المؤمنين بقولِهم[(١)]: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عِمران: الآية ٨] فلولا خوفُ الإزاغةِ لما سألوه أن لا يزيغَ قلوبَهم.

وكان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: «**اللَّهمَّ مصرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبنَا على طاعتِك**»[(٢)] «**ومثبتَ القلوبِ ثبتْ قلوبنا على دينِك**»[(٣)] وفي الترمذيِّ عنه ﷺ أنه كان يَدعو: «**أعوذُ بعزتِكَ أن تضلني، أنتَ الحيُّ الذي لا تموتُ**»[(٤)] وكان من دعائِه: «**اللَّهمَّ إني أعوذُ برضاكَ من سخطِك، وأعوذُ بمعافاتِكَ من عقوبتِكَ وأعوذُ بِكَ منك**»[(٥)] فاستعاذَ ﷺ بصفةِ الرضى من صفةِ الغضبِ، وبفعلِ العافيةِ من فعلِ العقوبةِ، واستعاذَ به[(٦)] منه باعتبارين. وكأن في استعاذتُه به منه جَمعًا لما فصَّله في الجملتين قبلَه؛ فإن الاستعاذةَ[(٧)] به سبحانه منه ترجعُ إلى معنى الكلامِ قبلَها، مع تضمنِها فائدةً شريفةً، وهي كمالُ التوحيدِ، وأن الذي يستعيذُ به العائذُ[(٨)] ويهربُ منه إنما هو فعلُ اللهِ ومشيئتُه وقَدَرُه، فهو وحده المتفردُ بالحكمِ. فإذا أراد بعبدِه سوءًا؛ لم يُعذْه منه إلا هو. فهو الذي يريدُ به ما يسوؤه، وهو الذي يريدُ دفعَه [عنه][(٩)]. فصار سبحانه مستعاذًا به منه باعتبارِ الإرادتين ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: الآية ١٧] فهو الذي يمسُّ بالضرِّ، وهو الذي يكشفُه، لا إلهَ إلا هو، فالمهربُ منه إليه، والفرارُ منه إليه، واللجأُ[(١٠)] منه إليه، كما أن الاستعاذةَ منه به؛ فإنه لا ربَّ غيرُه، ولا مدبرَ للعبدِ سواه. فهو الذي يحركُه ويقلبُه، ويصرفُه كيف يشاءُ.

الجوابُ الرابعُ: أن اللهَ سبحانه هو الذي يخلقُ أفعالَ العبدِ الظاهرةَ والباطنةَ، فهو

---

(١) في م: «بقوله».

(٢) رواه مسلم، ح (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه، «المقدمة»، ح (١٩٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٠).

(٤) رواه البخاري، ح (٦٩٤٨) ومسلم، ح (٢٧١٧)، وأحمد (١/ ٣٠٢)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٥) رواه مسلم، ح (٤٨٦)، وأبو داود، ح (٨٧٩)، والترمذي، ح (٣٤٩٣)، والنسائي، ح (١٦٩)، وح (١١٣٠)، وابن ماجه، ح (٣٨٣٨)، وأحمد (٦/ ٥٨)، (٢٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) في ك، س: «واستعاذته». (٧) في ع: «للاستعاذة». (٨) في ع: «العابد».

(٩) سقط من م. (١٠) في م: «الملجأ».

الجوابُ الرابعُ: أن اللهَ هو الذي يجعلُ الإيمانَ في القلبِ

الذي يجعلُ الإيمانَ والهدى في القلبِ، ويجعلُ فيه التوبةَ والإنابةَ والإقبالَ والمحبةَ والتفويضَ وأضدادَها. والعبدُ في كلِّ لحظةٍ مفتقرٌ إلى هدايةٍ يجعلُها اللهُ في قلبِه، وحركاتٍ يحركُه بها[1] في طاعتِه. و هذا إلى اللهِ سبحانه، فهو[2] خلقَهُ وقدرَهُ، وكان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: «**اللَّهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها**»[3] وعلَّم حصينَ بنَ المنذرِ[4] أن يقولَ: «اللَّهمَّ ألهمني رشْدي، وقِني شرَّ نفسِي»[5]، وعامَّةُ أدعيتِه ﷺ متضمنةٌ لطلبِ توفيقِ ربِّه، وتزكيتِه له، واستعمالِه في

---

(١) في ع: «يحركها به» وفي س: «يحركها بها». (٢) في م: «فهو في».

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢)، والنسائي (٥٤٥٨، ٥٥٣٨)، وأحمد (٤/ ٣٧١)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٤) في جميع النسخ: «حصين بن المنذر» وقد ذكره المؤلف في «النونية» (٧٦)، فقال:

وأذكُرْ حَـدِيـثَ حُـصَـيْـنٍ الـثِّـقَـةِ الـرَّضِـيِّ أَعْـنـي أَبَـا عِـمْـرَانِ
إذ قال ربي في السماء لرغبتي ولـرهـبَـتـي أدعُـوهُ كـلَّ أوَانِ
فـأَقَـرَّهُ الـهَـادِي الـبَـشِـيـرُ ولَـمْ يَـقُـلْ أَنْـتَ المجَـسِّـمُ قـائِـلٌ بِـمَـكَـانِ

وينظر: «توضيح المقاصد» لابن عيسى (١/ ٥٢٠)، و«شرح القصيدة النونية» لمحمد خليل هراس: (١/ ٢٨٤). ويعني به: الحصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، والد عمران بن الحصين، مختلف في صحبته وإسلامه قال الطبراني: «الصحيح أن حصينًا أسلم». وقال ابن حجر: «لم يصب من نفى إسلامه». ينظر: «أسد الغابة» (١/ ٥٧٥)، و«الإصابة» (٢/ ٨٦)، و«تقريب التهذيب» (١٧٠).

(٥) رواه الترمذي، ح (٣٤٨٣)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٣)، والدارمي في «الرد على المريسي» (١/ ٢٢٧)، وابن أبي عاصم، في «الآحاد والمثاني» (٤/ ٣٢٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٤)، وفي «الأوسط» (٢/ ٢٨٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٢٩)، كلهم بنحوه من طريق أبي معاوية محمد بن خازم، عن شبيب بن شيبة، عن الحسن البصري، عن عمران بن حصين. وشبيب بن شيبة المنقري ضعفه غير واحد؛ قال الدارقطني: «متروك» ينظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٣/ ٣٦٢)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٤/ ٢٧٠). والحسن البصري لم يسمع من عمران، قال الحافظ بن حجر: «وقال ابن المديني وأبو حاتم: لم يسمع منه وليس يصح ذلك من وجه يثبت» «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٣٤)، وانظر: «المراسيل» لابن أبي حاتم (٣٨) و«جامع التحصيل» للعلائي (١٦٤)، و«تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل» لابن العراقي (٧١).

وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه». وقال الألباني: «ضعيف» ينظر: «ضعيف سنن الترمذي»، ح (٦٩٠) (ص/ ٤٥٢). ورواه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٧٧)، ح (١٧٧)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٤٩)، والذهبي في «العلو للعلي الغفار» (٢٥)، من طريق عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين، قال: حدثني أبي عن أبيه، عن جده، فذكر الحديث. وخالد بن محمد ضعفه الدارقطني. «الضعفاء» لابن الجوزي (١/ ٢٤٦) =

محابِّه، فمَن هُداه وصلاحُه وأسبابُ نجاتِه بيدِ غيرِه وهو المالكُ له [ولها][(١)]، المتصرفُ فيه بما يشاءُ، ليس له من أمرِه شيءٌ؟! من أحقُّ بالخوفِ منه؟! وهبْ أنه قد خلقَ له في الحالِ الهدايةَ، فهل هو على يقينٍ وعلمٍ أن اللهَ سبحانه يخلقُها له في المستقبلِ ويُلهمُه رشدَه أبدًا؟ فعُلِم أن خوفَ المقربين عند ربِّهم أعظمُ من خوفِ غيرِهم، واللهُ المستعانُ.

خوفُ السابقين من فواتِ الإيمانِ

ومن هاهنا كان خوفُ السابقين من فواتِ الإيمانِ كما قال بعضُ السلفِ[(٢)]: أنتم تخافون الذنبَ وأنا أخافُ الكفرَ. وكان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يقولُ لحذيفةَ[(٣)] رضي الله عنه: «نشدتُكَ اللهَ، هل سمَّاني لكَ رسولُ اللهِ ﷺ؟ - يعني في المنافقين - فيقولُ: لا، ولا أُزكي بعدَكَ أحدًا»[(٤)] يعني: لا أفتحُ عليَّ هذا البابَ في سؤالِ الناسِ [لي][(٥)]، وليس مرادُه أنه لم يخلصْ من النفاقِ غيرُكَ.

الوجهُ السادسُ

الوجْهُ السادسُ[(٦)]: قولُه: [وأما الخواصُّ[(٧)] [فإنهم][(٨)] جعلوا الوعيدَ منه وعدًا، والعذابَ فيه عذبًا؛ لأنهم شاهدوا المبتلي والمعذِّب، فاستعذبوا ما وجدُوا في جنب ما شاهدوا][(٩)]... إلى آخرِ كلامِه.

= و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٤١٥). وطليق بن محمد قال عنه الدارقطني: «لا يحتج به». «ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٧٣). ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٤٤)، بنحوه، قال: حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن التميمي، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن عمران بن حصين. ورجاله ثقات.

(١) سقط من: ك.

(٢) ينظر: «الجواب الكافي» للمؤلف (ص/ ٤٨). وقال الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٢): وروي عن المسيح عليه السلام أنه قال: «يا معشر الحواريين، أنتم تخافون المعاصي، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر».

(٣) حذيفة بن حِسل بن جابر، أبو عبد الله العبسي، واليمان لقب حِسل بن جابر، صاحبُ سرِّ النبي ﷺ في المنافقين، لم يُعلمهم أحدًا غيره، ولاَّه عمر المدائن بفارس، فكان من الولاة الفاتحين، توفي سنة (٣٦)هـ. ينظر: «أسد الغابة» (١/ ٥٣٢)، و«الإصابة» (٢/ ٤٤).

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢/ ٢٧٦)، وذكره الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٥٨).

(٥) سقط من ع.

(٦) في الأصل و م: «الخامس» وهو خطأ في الترقيم.

(٧) في «محاسن المجالس» (ص/ ٨٣): «وأما أهل الاختصاص». (٨) سقط من م.

(٩) كتاب «محاسن المجالس» (ص/ ٨٣).

الإنكارُ على مَنْ جعلَ الوعيدَ وعدًا والعذابَ عذبًا

فيقالُ: هذا الكلامُ ونحوه من رعوناتِ[١] النفسِ، ومن الشطحاتِ التي يجبُ إنكارُها، فمَن الذي جعل وعيدَ اللهِ وعدًا، وعقابَه ثوابًا، وعذابَه عَذْبًا؟ وهل هذا إلا إنكارٌ لوعيدِه وعذابِه في الحقيقةِ؟ وأيُّ عذابٍ أشدُّ من عذابِه؟ نعوذُ باللهِ منه، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآية ٢] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا أظهرُ في كلِّ ملةٍ من أن يحتاجَ إلى الاستدلالِ عليه. وإنما ينسبُ هذا المذهبُ للملاحدةِ[٢] القائلين[٣] بوحدةِ الوجودِ[٤] كما قال قائلُهم[٥]:

وَلَمْ يَبقَ إلاَّ صَادقُ الوَعدِ وَحدَه ... فمَا لِوَعيدِ الحَقِّ عَيْنٌ تُعَايَنُ
وإنْ دَخلُوا دَارَ الشَّقَاءِ فإنَّهم ... على لَذَّةٍ فيهَا نَعيمٌ مبايِنُ
نَعيمُ جِنانِ الخُلدِ والأمرُ وَاحدٌ ... وبَينَهما عندَ التَجلِّي تبايُنُ
يُسمَّى عَذابًا مِنْ عُذُوبَةِ طَعْمِهِ ... وذاكَ له كالقِشرِ والقِشرُ صَائنُ

فهذا القائلُ خطَّ على تلك النقطةِ التي نقطَهَا أبو العباسِ[٦]، ولعلَّ الكلامَين من مِشكاةٍ[٧] واحدةٍ، وهذا مباينٌ للمعلومِ[٨] بالاضطرارِ من دينِ الرسلِ، وما أَخْبَرَتْ به عن اللهِ، وأخبَرَ به على لسانِ رسلِه.

فإن قيل: ليس مرادُه ما ذكرْتُم وفهمتُم من كلامِه، وإنما مرادُه أنه سبحانه إذا ابتلى عبدَه في الدنيا فهو لكمالِ محبتِه له، يتلذذُ بتلك البلوى، ويعدُّها نعمةً، وليس مرادُه عذابَ[٩] الآخرةِ.

---

(١) الرعونة هي: الحمق والاسترخاء. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧١٢)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٣/ ١٨٢)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٥٤٩).

(٢) سبق التعريف بهم. (٣) في م: «إلى الملاحدة القائلين».

(٤) وهم القائلون: إن العالم كله هو الله، والله هو العالم، وليس عندهم إلا شيء واحد، فالله عندهم هو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفاته، وكلامه هو كلام الله ﷻ، فلا خالق ولا مخلوق عندهم. ينظر: «المعجم الفلسفي» (٢/ ١٦٠)، و«الموسوعة العربية الميسرة» (٢/ ١٩٤٥)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢/ ٣٦٤) وما بعدها.

(٥) القائل: ابن عربي. ينظر: «فصوص الحكم» مع شرحه، لعبد الرزاق الكاشاني (ص/ ١٢٢).

(٦) أبو العباس بن العريف: سبقت ترجمته.

(٧) المشكاة: هي الكوة غير النافذة، وقيل: هي الحديدة التي يعلق عليها القنديل. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٢)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٣٣٤)، و«لسان العرب» (١٤/ ٤٤١).

(٨) في ع: «للمعلوم». (٩) في م: «نعيم».

قيل: قولُه عن الخواصِّ: «إنَّهم جعلوا الوعيدَ منه وعدًا»[١] يَنفي ما ذكرتم من التأويلِ؛ فإن ابتلاءَ الدنيا غيرُ الوعيدِ. وأيضًا فإنه في مقامِ الخوفِ، ونفيهِ عن الخاصَّةِ محتجًّا عليه بأنهم يرون العذابَ عذبًا، والوعيدَ وَعدًا، فما لهم وللخوفِ؟ هذا مقصودُه من سياقِ كلامِه، واحتجاجُه عليه بهذا الهذيانِ الذي يسخرُ[٢] منه العقلاءُ، بل نحنُ لا ننكرُ أن العبدَ إذا تمكن حبُّ اللهِ في قلبِه، حتى ملكَ جميعَ أجزائِه؛ فإنه قد يتلذذُ بالبلوى أحيانًا، وليس ذلك دائمًا، ولا أكثريًّا، ولكنه يعرضُ عند[٣] هيجانِ[٤] الحبِّ، وغلبةِ الشوقِ، فيقهرُ شهودَ الألمِ، ثم يراجعُ طبيعتَه، فيذوقَ الألمَ. ولكن أين هذا مِنْ[٥] جَعلِ الوعيدِ وعدًا، والعذابِ عذبًا؟.

وإن أُحسِنَ الظنُّ بصاحبِ هذا الكلامِ؛ ظُنَّ به أنه ورد عليه واردٌ من الحبِّ، يخيلُ في نفسِه أن محبوبَه إذا توعَّدَهُ؛ كان ذلك منه وعدًا[٦]، وإن عذبَه كان عذابُه عنده عذبًا؛ لموافقتِه مرادَ محبوبِه. وهذا خيالٌ فاسدٌ وتقديرٌ في النفسِ، وإلا فالحقيقةُ الخارجيةُ تُكَذِّبُ هذا الخيالَ الباطلَ. بل لو صُبَّ عليه أدنى شيءٍ من عذابِه؛ لصَاحَ واستغاثَ وطلبَ العفوَ والعافيةَ. وحكمةُ اللهِ سبحانه تقتضي[٧] تعجيزَ هذهِ النفوسِ الجاهلةِ الرعناءِ الحمقاءِ بأدْنَى شيءٍ يكونُ من الألمِ والوجعِ، حتى يتبينَ لها دعاويها الكاذبةُ وشطحُها الباطلُ. وهذا سيدُ المحبِّين وسيدُ ولدِ آدمَ استعاذتُه[٨] باللهِ من عذابِه وبلائِه وسؤالِه عافيتَه ومعافاتِه معلومةٌ في أدعيتِه وتضرعِه إلى ربِّه وابتهالِه إليه في ذلك، وهي أكثرُ وأشهرُ من أن تذكرَ هاهنا، إنَّما في سيدِ المحبين أسوةٌ وقدوةٌ، ولكن قد ابتلي كثيرٌ من أهلِ الإرادةِ بالشطحِ[٩]، كما ابتلي كثيرٌ من أهلِ الكلامِ بالشكِّ.

---

(١) كتاب «محاسن المجالس» لابن العريف (ص/ ٨٣).
(٢) في ع: «سخر».
(٣) في ع: «عن».
(٤) هاج، أي: «اضطرب وثار». ينظر: «المُغْرِب في ترتيب المعرب» لابن المطرزي (٢/ ٣٩٣)، و«لسان العرب» لابن منظور (٢/ ٣٩٤)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص/ ٢٧٠).
(٥) في س: «ممن».
(٦) في ك: «وعدًا منه».
(٧) في م: «تقضي».
(٨) في ع: «استعاذ».
(٩) الشطح عند الصوفية: كلام يترجمه اللسان عن وجْد يفيض عن هدنة مقرون بالدعوى. وقيل: كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهو من زلات المحققين؛ فإنه دعوى حق يفصح بها العارف لكن من غير إذن إلهي، فهو حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم، فعبروا عنه بعبارة مشكلة يستغربها السامع. ينظر: «المعجم الصوفي» للحفني (١٣٤)، و«معجم المصطلحات =

والمُعَافى من عافاه اللهُ من هذا وهذا. فنسألُ اللهَ عافيتَه ومعافاتِه.

الوجهُ السابعُ

الوجهُ السابعُ[١]: قولُه: «إنَّ عذابَ الكافرين إنما كان شديدًا؛ لأنهم لا يشاهِدُون المعذِّبَ لهم، والمؤمنون يشاهِدُونه؛ فلم يكنْ عذابُهم شديدًا»[٢] ليس كذلك؛ فإن عذابَ الكافرين شديدٌ في نفسِه؛ لغلظِ جُرمِهم، وهو الكفرُ، وهو دائمٌ لا انقطاعَ له.

و[أما][٣] المؤمنون الذين يُعذَّبُون[٤] بذنوبِهم: فعذابُهم أضعفُ من عذابِ الكافرين لأنَّ عذابَهم على الذنوبِ، وهي دونَ الكفرِ، وهو منقطعٌ.

والآيةُ لم يُرَدْ بها إثباتُ عذابٍ للمؤمنين[٥] دونَ عذابِ الكافرين، وإنما سِيقَتْ لبيانِ عذابِ الكافرين حَسْب. فمفهومُها نفيُ العذابِ عن المؤمنين، لا إثباتَ[٦] عذابٍ غيرِ شديدٍ[٧] - واللهُ أعلمُ.

الوجهُ الثامنُ

الوجهُ الثامنُ[٨]: قولُه: «وللخواصِّ الهيبةُ[٩]»، وهي أقصى درجةٍ يشارُ إليها في [غايةِ][١٠] الخوفِ، والخوفُ يزولُ بالأمنِ، وينتهي به خوفُ الشخصِ على نفسِه من العقابِ، فإذا أَمِنَ العقابَ؛ زالَ الخوفُ، والهيبةُ لا تزولُ أبدًا؛ لأنها مستحقةٌ للربِّ بوصفِ[١١] التعظيمِ والإجلالِ، وذلك الوصفُ مستحقٌّ على الدوامِ، وهذهِ المعارضةُ والهيبةُ تعارضُ المكاشفَ أوقاتَ المناجاةِ، وتصونُ المشاهدَ أحيانَ المشاهدةِ، وتعصمُ المعاينَ بصدمةِ العزةِ، ومنه قال قائلُهم:

أَشْتَاقُه فَإِذَا بَدَا أَطْرَقْتُ مِنْ إجلالِه

= الصوفية» د: أنور أبي خزام (١٠٣).

(١) في الأصل، وفي ع، م: «الوجه السادس» وهو خطأ في الترقيم.

(٢) كتاب: «محاسن المجالس» (٨٤). (٣) سقط من م. (٤) في م: «المعذبون».

(٥) في م: «المؤمنين». (٦) في س: «لإثبات».

(٧) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٢٥/٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤/١١٦).

(٨) في الأصل، وفي ع، م: «الوجه السابع» وهو خطأ في الترقيم.

(٩) الهيبة عند الصوفية: تعظيم في القلب يمنع من النظر إلى غير المحبوب، وهذا المقام ذاتي للمحب لا يفارقه إلا أنه يشتد عند تجلي صفات الجلال، وهو ينشأ حين يتجلى الحق تعالى على قلب العبد، فيشاهد الجلال ويكون نصيبه في ذلك الهيبة، لذا قالوا: إن الهيبة درجة العارفين، والأنس درجة المريدين. ينظر: «المعجم الصوفي» للحفني (٢٥٤)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأنور أبي خزام (١٨٠).

(١٠) سقط من م. (١١) في ك، س: «فوصف».

لا خِيفَةً بَلْ هَيبَةً وصيَانَةً لَجَمَالِهِ
وأَصدُّ عَنه تَجلُّدًا وأَرومُ طَيفَ خَيالِهِ[(١)]»[(٢)]

فيقال: من العجائبِ أنَّ المعنى الذي أمرَ اللهُ به في كتابِه، وأثْنَى به على خاصَّةِ عبادِه وأقربِهِم إليه. وهم أنبياؤه ورسلُه وملائكتُه. يُجْعَلُ[(٣)] ناقصًا من منازلِ العوامِّ، ويعمدُ إلى معنىً لم[(٤)] يذكرْه اللهُ ولا رسولُه، ولا علَّقَ به زيادةَ المدحِ والثناءِ في موضعٍ واحدٍ، فيجعلُ هو الكمالَ، وهو للخواصِّ من العبادِ.

الفرقُ بين الهيبةِ والإجلالِ وبين الخشيةِ والمخافةِ

فأين في القرآنِ والسنةِ ذكرُ الهيبةِ والأمرُ بها، ووصفُ خاصتِه بها؟ ونحن لا ننكرُ أن الهيبةَ من لوازمِ الإيمانِ، وموجباتِه، ولكنِ المُنْكَرُ أن يكونَ الوصفُ الذي وصفَ به أنبياءَه وملائكتَه ناقصًا، والوصفُ الذي لم يذكرْه هو الكاملَ التامَّ! وهذا المعنى المعبرُ عنه[(٥)] بالهيبةِ حقٌّ، ولكن لم[(٦)] تجئِ العبارةُ عنه في القرآنِ والسنةِ بلفظِ الهيبةِ، وإنما جاءَتْ بلفظِ الإجلالِ كقولِ النبيِّ ﷺ: **«إنَّ من إجلالِ اللهِ إجلالَ ذي الشيبةِ [المسلم]**[(٧)]**، وحاملِ القرآنِ غيرِ الغالي فيهِ، والجافِي عنه، و الإمامِ العادلِ»**[(٨)] فالإجلالُ هو: التعظيمُ، وكذلك الهيبةُ[(٩)]. يوضحُ هذا:

الوجهُ التاسعُ

الوجْهُ التاسعُ[(١٠)]: وهو أنَّ الهيبةَ والإجلالَ يجوزُ تعلقُها بالمخلوقِ، كما قال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ من إجلالِ اللهِ إجلالَ ذي الشيبةِ المسلمِ»** الحديثُ. وقال ابنُ عباسٍ عن

---

(١) أنشد عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي، المعروف بالببغاء. المتوفى سنة (٣٩٨)هـ.:

أشتاقه فإذا بدا عرضت من إجلاله
وأصد عنه إذا دنا والروم طيف خياله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله
فالموت من إعراضه والموت من إقباله

أورده ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٢٨٩)، بسنده إلى الببغاء.

(٢) كتاب: «محاسن المجالس» لابن العريف (ص/ ٨٤-٨٥). (٣) في م: «يجعله».

(٤) في ع: «ما لم». (٥) في م: «به». (٦) في س: «إنما».

(٧) سقط من س.

(٨) رواه أبو داود، ح (٤٨٤٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح (٤٠٥٣)، (٣/ ٩١٨).

(٩) ينظر: كتاب «العين» (٤/ ٩٨)، و«الصحاح» للجوهري (١/ ٢١٢)، و«لسان العرب» (١/ ٧٨٩).

(١٠) في الأصل وع، و م: «الثامن» وهو خطأ في الترقيم.

عمرَ: «هبتُه، وكان مهيبًا»[١].

وأما الخشيةُ والمخافةُ فلا تصلحُ إلا للهِ وحدَه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥] وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: الآية ١٨] فالخوفُ عبوديةُ القلبِ، فلا يصلحُ إلا للهِ [وحدَهُ][٢] كالذلِّ، والمحبةِ، والإنابةِ، والتوكلِ والرجاءِ وغيرِها من عبوديةِ القلبِ، فكيف[٣] تُجعَلُ المهابةُ المشتركةُ أفضلَ منه وأعْلَى؟ وتأملْ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: الآية ٥٢] كيف جعل الطاعةَ له[٤] ولرسولِه، والخشيةَ والتقوى له وحده، وقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: الآية ٩] كيف جعل[٥] التعزيرَ[٦] والتوقيرَ[٧][٨] للرسولِ وحدَهُ. والتوقيرُ هو: التعظيمُ الصادرُ عن الهيبةِ والإجلالِ. هذا حقيقتُه، فعلم أن الخوفَ من أجلِّ[٩] مقاماتِ الخواصِّ، وأنهم إليه أحوجُ، وبه أقومُ من غيرِهم.

الوجهُ العاشرُ: قولُهُ: الخوفُ يزولُ بالأمنِ

الوجْهُ العاشرُ[١٠] قولُه: «الخوفُ يزولُ بالأمنِ، والهيبةُ لا تزولُ أبدًا...» إلى آخرِه[١١] فيقالُ: هذا حقٌّ؛ فإنَّ الخوفَ إنما يكونُ قبلَ دخولِ الجنةِ، فإذا دخلُوهَا زالَ عنهم الخوفُ الذي كان يصحبُهم في الدنيا، وفي عرصاتِ القيامةِ، وبُدِّلُوا به[١٢] أمنًا؛

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٥٣)، من غير قوله: «وكان مهيبًا» وحسنه الألباني في «الإرواء» (٦/ ١٤٦).

(٢) سقط من ك، س.
(٣) في ك، س: «وكيف».
(٤) في ك، س: «لله».

(٥) في ك: «يجعل».

(٦) التعزير هو: التعظيم، والتبجيل، والتوقير، والإعانة، والنصرة مرة بعد مرة، وأصل التعزير: المنع والرد فكأن مَنْ نصرته قد رددت عنه أعداءه، ومنعتهم من أذاه، ولهذا قيل للتأديب الذي هو دون الحد: تعزير؛ لأنه يمنع الجاني من معاودة الذنب. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٦٣٩)، و«النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٢٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٥٦٢).

(٧) التوقير: التعظيم، والتبجيل، والترزين. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٢٣)، و«الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (٢٢٩)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٩١).

(٨) في م، ك، س: «التوقير والتعزير».
(٩) في ع: «أكمل».

(١٠) في الأصل وع، و م: «التاسع» وهو خطأ في الترقيم.

(١١) كتاب: «محاسن المجالس» (٨٤-٨٥).
(١٢) في ع: «منه».

لأنهم قد أَمِنُوا العذابَ، فزايَلَهُم[١] الخوفُ منه. ولكن لا يدلُّ هذا على أنه كان مقامًا ناقصًا في الدنيا، كما أن الجهادَ من أشرفِ المقاماتِ، وقد زالَ عنهم في الآخرةِ. وكذلك الإيمانُ بالغيبِ أجلُّ المقاماتِ على الإطلاقِ، وقد زالَ في الآخرةِ، وصارَ الأمرُ شهادةً. وكذلك الصلاةُ، والحجُّ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ، وبذلُ النفسِ للهِ، وهي من أشرفِ الأعمالِ، وكلُّها تزولُ في الجنةِ، وهذا لا يدلُّ على نقصانِها، فإنَّ الجنةَ ليست دارَ سعيٍ وعملٍ، إنما هي دارُ نعيمٍ وثوابٍ.

الوجهُ الحادي عشرَ

الوجهُ الحادي عشرَ[٢]: أن الخوفَ إنما زال في الجنةِ؛ لأن تعلقَه إنما هو بالأفعالِ، لا بالذاتِ - كما تقدم - وقد أمَّنهم ما كانوا يَخَافُون منه. فقد أَمِنوا أن يفعلوا[٣] ما يخافون منه، وأن يَفعلَ بهم ربُّهم ما يخيفُهم. ولكن كان الخوفُ في الدنيا أنفعَ شيءٍ لهم، فبه وصلُوا إلى الأمنِ التامِّ؛ فإن اللهَ سبحانه لا يجمعُ على عبدِه مخافَتَيْنِ ولا أمنين[٤]؛ فمَنْ خافَهُ في الدنيا؛ أمَّنَهُ يومَ القيامةِ، ومن أَمِنَهُ في الدنيا ولم يخفْه؛ أخافَهُ في الآخرةِ. وناهيك شرفًا وفضلًا بمقامٍ ثمرتُه الأمنُ الدائمُ المطلقُ.

الوجهُ الثاني عشرَ

الوجْهُ الثاني عشرَ[٥]: أن الإجلالَ والمهابةَ والتعظيمَ إنما لم تزلْ؛ لأنها متعلقةٌ بنفسِ الذاتِ، وهي موجودةٌ في دارِ النعيمِ. وأما الخوفُ فإنه إنما زال؛ لأنه وسيلةٌ إلى توفيةِ العبوديةِ والقيامِ بالأمرِ. والوسيلةُ تزولُ عند حصولِ الغايةِ، ولكنْ زوالُ الوسيلةِ عند حصولِ الغايةِ لا يدلُّ على أنها ناقصةٌ. وإذاكانت تلك الغايةُ لا كمالَ للعبدِ بدونِها؛ فالوسيلةُ إليها كذلك.

الوجهُ الثالث عشرَ

الوجْهُ الثالثَ عشرَ[٦]: قولُه: «وهذهِ المعارضةُ، والهيبةُ[٧][٨] تعارضُ المكاشفَ[٩] أوقاتَ المناجاةِ، وتصونُ المشاهدَ أحيانَ..........................

(١) أي: فارقهم وزال عنهم. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٤/١٤٠٨)، و«لسان العرب» (١١/٣١٦).

(٢) في الأصل و ع، و م: «العاشر» وهو خطأ في الترقيم.

(٣) في ك، س: «أن لا يفعلوا».

(٤) في ك، س «اثنتين».

(٥) في الأصل و ع: «الحادي عشر» وهو خطأ في الترقيم.

(٦) في الأصل و ع: «الثاني عشر» وهو خطأ في الترقيم.

(٧) في كتاب: «محاسن المجالس» (ص/ ٨٥) «وهذه الهيبة تعارض».

(٨) الهيبة: سبق التعريف بها.

(٩) المكاشفة عند الصوفية: حضور القلب بنعت البيان، فيكشف له الله ﷻ ما يستتر على الفهم كأنه رآه رأي العين، إما ببصره أو ببصيرته أو بهما معًا، فالكشف عندهم موصل إلى اليقين، قال الغزالي: «وهم يميلون إلى العلوم الإلهامية، دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون =

= قولُهُ: وهذه المعارضةُ والهيبةُ تعارضُ المكاشفَ

المشاهدةِ[١]، وتعصمُ المعاينَ بصدمةِ العزةِ». فيقالُ: لا ريبَ أن الحبَّ والأنسَ المجردَ عن الإجلالِ والتعظيمِ يبسطُ النفسَ، ويحملُها على بعضِ الدَّعَاوَى، والرعوناتِ، والأماني الباطلةِ، وإساءةِ الأدبِ، والجنايةِ على حقِّ المحبةِ. فإذا قارن المحبةَ مهابةُ المحبوبِ، وإجلالُه، وتعظيمُه، وشهودُ عزِّ جلالِه، وعظيمِ سلطانِه؛ انكسرتْ نفسُه له، وذلَّتْ لعظمتِه، واستكانَتْ لعزتِه، وتصاغرتْ لجلالِه، وصَفَتْ من رعوناتِ النفسِ، وحماقاتِها، ودعاويها الباطلةِ، وأمانيها الكاذبةِ ولهذا في الحديثِ: «**يقولُ اللهُ ﷻ: أين المتحابون بجلالِي؟ اليومَ أظلُّهم في ظِلِّي يومَ لا ظلَّ إلا ظلي**»[٢] فقال: «**أين المتحابُّون بجلالِي**» فهو حبٌّ بجلالِه سبحانه، وتعظيمِه، ومهابتِه، ليس حبًّا بمجردِ جمالِه؛ فإنه سبحانه الجليلُ الجميلُ.

الحبُّ النافعُ هو الناشئُ من التعظيمِ والإجلالِ

والحبُّ الناشئُ عن شهودِ هذين الوصفين هو الحبُّ النافعُ الموجبُ لكونِهم في ظلِّ عرشِه يومُ القيامةِ. فشهودُ الجلالِ وحْدَهُ يُوجبُ خوفًا وخشيةً وانكسارًا، وشهودُ الجمالِ وحْدَهُ يُوجبُ حبًّا بانبساطٍ، وإذلالٍ، ورعونةٍ. وشهودُ الوصفين معًا يُوجبُ حبًّا مقرونًا بتعظيمٍ، وإجلالٍ، ومهابةٍ. وهذا هو غايةُ كمالِ العبدِ - واللهُ أعلمُ.

إنشادُ ابنِ العريفِ للأبياتِ في غايةِ القبحِ

وإنشادُه هذهِ الأبياتَ الثلاثةَ[٣] في هذا المقامِ في غايةِ القبحِ؛ فإنَّ هذا المحبَّ نفى خوفَه من محبوبِه، وأخبَرَ أنه يصدُّ عن محبوبِه، ويُعْرِضُ عنه؛ إظهارًا للتجلدِ، إما على محبوبِه، وذلك قبيحٌ في حكمِ المحبةِ؛ فإن التذللَ للمحبوبِ، وتملقَه، واستعطافَه والانكسارَ له، أَوْلى بالمحبِّ من تجلُّدِه وتعزُّزِه، كما قيل:

اخضَعْ [وذِلَّ][٤] لِمَنْ تُحبُّ فليسَ في ... شَرعِ الهَوى أَنِفٌ يُشَال[٥] ويُعقَدُ[٦].

= والبحث عن الأقاويل والأدلة» «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٩). ينظر: «معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (٣٤٦)، و«التعريفات» للجرجاني (٢٩٢)، و«المعجم الصوفي» للحفني (٢٣٨)، و«معجم المصطلحات الصوفية»، د: أنور أبي خزام (١٦٦).

(١) المشاهدة: سبق التعريف بها.

(٢) رواه مسلم، ح (٢٥٦٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٣٣٨، ٣٧٠، ٥٢٣)، (٥٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تقدم.

(٤) سقط من س.

(٥) قال ابن فارس: «شول: الشين والواو واللام أصل واحد يدل على الارتفاع». ينظر: «مقاييس اللغة» (٥٤٣)، و«العين» (٦/ ٢٨٥)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١/ ١٣٢٠).

(٦) ينظر في «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» للمؤلف (١٨٢)، (٢٨٢)، و«مدارج السالكين» للمؤلف (١/ ٢٠٧)، و«مفتاح دار السعادة» (٢٤)، و«ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة (ص/ ٣٠)، من غير نسبة.

ثم أخبر أنه يرومُ طيفَ خيالِه، فهو طالبٌ لحظِّه من محبوبِه، لا لمرادِ محبوبِه منه. فهذا محبٌّ لنفسِه، وقد جَعَلَ طيفَ محبوبِه وسيلةً إلى حصولِ مرادِه، فأحبَّه حبَّ الوسائلِ بخلافِ من قد أحبَّ محبوبَه لذاتِ المحبوبِ، ففني عن مرادِه هو منه بمرادِ محبوبِه فصار مرادُه مرادَ محبوبِه، فحصل الاتحادُ في المرادِ، لا في الإرادةِ، ولا في المريدِ، هذا إن كان صدُّه عنه تجلُّدًا عليه، وإن كان تجلُّدًا على الرقيبِ[١] خوفًا منه؛ فهو ضعيفُ المحبةِ؛ لأنَّ فيه بقيةً ليست مع محبوبِه، بل مع رقيبِه، فهلا ملأَ الحبُّ قلبَه، فلم يبقَ فيه بقيةٌ يلاحِظُ بها الرقيبَ والعاذلَ[٢]؟ كما قيل:

لا كَان مَنْ لِسواكِ فِيهِ بَقيةٌ ... يَجِدُ السَّبيلَ بها إليهِ العُذَّلُ[٣]

وبالجملةِ فهذهِ أبياتٌ ناقصةُ المعنى، لا يصلحُ الاستشهادُ بها في هذا المقامِ - واللهُ أعلمُ.

فَصْلٌ

فصلٌ في المحبة

والمقصودُ: الكلامُ على عللِ المقاماتِ، وبيانُ ما فيها من خطأٍ وصوابٍ، ولما كان أبو العباس بنُ العريفِ[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ قد تعرَّض لذلك في كتابِه: «محاسنِ المجالسِ»؛ ذكَرْنَا كلامَه فيه، ومَا لَهُ، ومَا عَلَيْهِ. ثم ذكرَ بعد هذا فصلًا في المحبةِ، وفصلًا في الشوقِ، فنذكر كلامَه في ذلك، وما يفتحُ اللهُ به تتميمًا للفائدةِ، ورجاءَ المنفعةِ[٥]، وأن يَمُنَّ اللهُ العزيزُ الوهابُ بفضلِه ورحمتِه، فيرقى[٦] عبدُه من العلمِ إلى الحالِ، ومن الوصفِ إلى الاتصافِ، إنه قريبٌ مجيبٌ.

كلامُ ابن العريفِ في المحبةِ

قال أبو العباس رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما المحبةُ فقد «كثرتْ إشارةُ»[٧] أهلِ التحقيقِ[٨] في العبارةِ عنها، وكلٌّ نطَقَ بحسبِ ذوقِه[٩]. . . . .

---

(١) في س: «عن الرب».
(٢) في ع: «الغافل».
(٣) ذكره المؤلف في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢)، (٢٧٢)، ولم ينسبه إلى أحد.
(٤) سبقت ترجمته.
(٥) في ك، س: «للمنفعة».
(٦) في ك، س: «ويرقى».
(٧) في ك، س: «أشار» وفي كتاب: «محاسن المجالس» (٩٠): «وقد اختلفت إشارات أهل التحقيق. . .».
(٨) في ك: «أهل التحقيق إلى».
(٩) الذوق عند الصوفية: نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من =

وانفسحَ بمقدارِ شوقِه»[١].

قلت: الشيءُ إذا كان من الأمورِ الوجدانيةِ الذوقيةِ التي إنما تُعْلَمُ بآثارِها وعلاماتِها، وكان مما يقعُ فيه التفاوتُ بالشدةِ والضعفِ، وكان له لوازمُ وآثارٌ وعلاماتٌ متعددةٌ؛ اختلفتِ العباراتُ عنه بحسبِ اختلافِ هذهِ الأشياءِ. وهذا شأنُ المحبةِ؛ فإنها ليستْ بحقيقةٍ معايَنَةٍ تُرى بالأبصارِ، فيشتركُ الواصفون لها في الصفةِ. وهي في نفسِها متفاوتةٌ أعظمَ تفاوتٍ ما بين[٢] العلاقةِ التي هي تعلقُ القلبِ بالمحبوبِ، والخلةِ التي هي أعلى مراتبِ الحبِّ، وبينهما درجاتٌ متفاوتةٌ تفاوتًا لا ينحصرُ. ولها آثارٌ توجبُها، وعلاماتٌ تدلُّ عليها، فكلٌّ أدركَ [بعضَ آثارِها أو][٣] بعضَ علاماتِها، فعبَّر بحسبِ ما أدركه، وهي وراءَ ذلك كلِّه، ليس اسمُها كمُسمَّاها، ولا لفظُها مبينًا لمعناها. وكذلك اسمُ المصيبةِ والبليةِ والشدةِ والألمِ؛ إنما تدلُّ أسماؤُها عليها نوعَ دِلالةٍ لا تكشفُ حقيقتَها، ولا تُعْلَمُ حقيقتَها إلا بذوقِها ووجودِها. وفرقٌ بين الذوقِ والوجودِ، وبين التصورِ والعلمِ. فالحدودُ والرسومُ التي قيلتْ في المحبةِ صحيحةٌ غيرُ وافيةٍ بحقيقتِها، بل هي إشاراتٌ وعلاماتٌ وتنبيهاتٌ.

فَصْلٌ

التعظيمُ المانعُ من الانقيادِ لغيرِ المحبوبِ

قال: «وهي ـ على الإجمالِ قبلَ أن ننتهي إلى التفصيلِ ـ وجودُ تعظيمٍ في القلبِ يمنعُ الانقيادَ[٤] لغيرِ محبوبِه»[٥] فيقالُ: هذا التعظيمُ المانعُ من الانقيادِ لغيرِ المحبوبِ هو أثرٌ من آثارِ المحبةِ، وموجبٌ من موجباتِها، لا أنه نفسُ المحبةِ؛ فإنَّ المحبةَ إذا كانتْ صادقةً أوجبَتْ للمحبِّ تعظيمًا لمحبوبِه يمنعُه من انقيادِه إلى غيرِه. وليس مجردُ التعظيمِ هو المانعَ له من الانقيادِ إلى غيرِه؛ بلِ التعظيمُ المقارنُ للحبِّ هو الذي يمنعُ

= غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره، وأهل الذوق من تكون أحكام تجلياتهم نازلة من مقام أرواحهم وقلوبهم إلى مقام نفوسهم وقواهم، كأنهم يجدون ذلك حسًّا، ويدركونه ذوقًا، ويلوح ذلك من وجوههم». ينظر: «الرسالة القشيرية» للقشيري (٧٢)، و«التعريفات» للجرجاني (١٤٤)، و«المعجم الصوفي» للحفني (١٠٠)، و«معجم مصطلحات الصوفية» للدكتور: أنور أبي خزام (٨٧)، و«المصادر العامة للتلقي عند الصوفية»، صادق سليم صادق (٥٣٨) وما بعدها.

(١) كتاب: «محاسن المجالس» (ص/ ٩٠).
(٢) في س: «فإن».
(٣) سقط من س.
(٤) في «محاسن المجالس» (٩٠): «يمنع الشخص من الانقياد».
(٥) كتاب: «محاسن المجالس» (ص/ ٩٠).

من الانقيادِ إلى غيرِ المحبوبِ.

فإنَّ التعظيمَ إذا كان مجردًا عن الحبِّ؛ لم يمنعِ انقيادَ القلبِ إلى غيرِ المعظَّمِ. وكذلك إذا كان الحبُّ خاليًا عن التعظيمِ، لم يمنعِ المحبَّ أن ينقادَ إلى غيرِ محبوبِه، فإذا اقترنَ الحبُّ بالتعظيمِ، وامتلأ القلبُ بهما؛ امتنعَ انقيادُه إلى غيرِ المحبوبِ.

المحبةُ المشتركةُ وأنواعُهَا

والمحبةُ المشتركةُ ثلاثةُ أنواعٍ:

أحدُها: محبةٌ طبيعيةٌ مشتركةٌ، كمحبةِ الجائعِ للطعامِ، والظمآنِ للماءِ، وغيرِ ذلك، وهذهِ لا تستلزمُ التعظيمَ.

والنوعُ الثاني: محبةُ رحمةٍ وإشفاقٍ؛ كمحبةِ الوالدِ لولدَهُ الطفلَ ونحوِها، وهذهِ أيضًا لا تستلزمُ التعظيمَ.

والنوعُ الثالثُ: محبةُ أنسٍ وإلفٍ، وهي محبةُ المشتركين في صناعةٍ أو علمٍ أو مرافقةٍ أو تجارةٍ أو سفرٍ. بَعْضِهم بعضًا، وكمحبةِ الإخوةِ بعضِهم بعضًا.

فهذهِ الأنواعُ الثلاثةُ هي المحبةُ التي تصلحُ للخلقِ بعضِهم من بعضٍ، ووجودُها فيهم لا يكونُ [شركًا][1] في محبةِ اللهِ. ولهذا «كان رسولُ اللهِ ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ»[2].

و«كان أحبُّ الشرابِ [إليه][3] الحلوَ الباردَ»[4]. و«كان أحبُّ اللَّحمِ إليه

---

(١) سقط من س.

(٢) رواه البخاري، كتاب: الطلاق، باب: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التّحْريم: الآية ١]، ح (٤٨٦٣)، وفي كتاب: الأطعمة باب: الحلواء والعسل، ح (٥١١٥)، وفي كتاب: الأشربة، باب: الباذق ومن نهى عن كل مسكر من الأشربة، ح (٥٢٧٧)، وفي كتاب: الحيل، باب: ما يكره من احتيال المرأة مع الزوج والضرائر ح (٦٥٧١)، ومسلم، كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينوِ الطلاق، ح (١٤٧٤)، وأبو داود، كتاب: الأشربة، باب: في شراب العسل، ح (٣٧١٥) والترمذي، كتاب: الأطعمة عن رسول الله، باب: ما جاء في حب النبي الحلواء والعسل، ح (٨٣١) وابن ماجه، كتاب: الأطعمة، باب: الحلواء، ح (٣٣٢٣)، وأحمد (٦/ ٥٩)، عن عائشة ﵂.

(٣) سقط من س.

(٤) رواه الترمذي، كتاب: الأشربة عن رسول الله، باب: ما جاء أيُّ الشراب كان أحب إلى رسول الله ح (١٨٩٥)، وأحمد (٦/ ٣٨)، (٤٠)، عن عائشة. ﵂.، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، ح (١٥٤٥)، (٢/ ١٧٤).

الذراعِ»[١]. وكان يحبُّ نساءَه، وكانت عائشةُ رضي الله عنها أحبَّهُنَّ إليه»[٢]. و«كان يُحبُّ أصحابَه وأحبُّهم إليه الصديقَ رضي الله عنه».

المحبةُ الخاصةُ لا تصلحُ إلا لله

وأما المحبةُ الخاصَّةُ التي لا تصلحُ إلا للهِ وحده، ومتى أحبَّ العبدُ بها غيرَه كان شركًا لا يغفرُه اللهُ؛ فهي محبةُ العبوديةِ المستلزمةِ للذلِّ والخضوعِ[٣] والتعظيمِ وكمالِ الطاعةِ وإيثارِه على غيرِه. فهذهِ المحبةُ لا يجوزُ تعلقُها بغيرِ اللهِ أصلًا، وهي التي سوَّى المشركون بين آلهتِهم وبين اللهِ فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] وأصحُّ القولين أن المعنى: يحبُّونَهم كما يحبُّون اللهَ. ويسوُّون بين اللهِ وبين أندادِهم في الحبِّ[٤].

منزلةُ المحبةِ الخاصةِ

ثم نفى ذلك عن المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥]؛ فإنَّ الذين آمنوا وأخلصُوا حبَّهم للهِ؛ لم يشركُوا به معه غيرَه، وأما المشركون فلم يُخْلِصُوه للهِ. والمقصودُ من الخلقِ والأمرِ إنما هو هذهِ المحبةُ، وهي أولُ دعوةِ الرسلِ[٥]،

---

(١) رواه البخاري، ح (٣١٦٢)، و ح (٤٤٣٥)، ومسلم، ح (١٩٤)، والترمذي، ح (١٨٣٨)، وح (٢٤٣٤)، وأحمد (٢/ ٤٣٦)، (٥٤٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري، ح (٣٤٦٢)، وفي المغازي، ح (٤١٠٠)، ومسلم، ح (٢٣٨٤)، من حديث أبي عثمان النهدي، عن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: **«عائشة»**، قلت: مِن الرجال؟ قال: **«أبوها»**، قلت: ثم مَن؟ قال: **«عمر»**، فعد رجالًا...».

(٣) في ك: «الخشوع».

(٤) في الآية قولان:

أحدهما: أنهم يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، وهذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي العالية، وابن زيد ومقاتل، والفراء، وهو قول بعض النحويين.

الثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أي: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة، وقد اختاره أبو إسحاق الزجاج، وقال: والقول الأول ليس بشيء، ودليل نقضه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية جواب من رجح القول الأول عن حجة القول الثاني، وفصَّل في ذلك، ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٨).

وينظر: «معاني القرآن وإعرابه» لأبي إسحاق الزجاج (١/ ٢٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٦٦)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٣٦)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٢٠٤)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٨/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: **«إنك ستأتي قومًا أهل** =

وآخرُ كلامِ العبدِ المؤمنِ - الذي إذا مَاتَ عليه دخَلَ الجنةَ[(١)] - اعترافُه وإقرارُه بهذهِ المحبةِ، وإفرادُ الربِّ تعالى بها فهو أولُ ما يدخلُ به في الإسلامِ، وآخرُ ما يخرجُ به من الدنيا[(٢)] إلى اللهِ، وجميعُ الأعمالِ كالأدواتِ والآلاتِ لها، وجميعُ المقاماتِ وسائلُ إليها، وأسبابٌ لتحصيلِها وتكميلِها وتحصينِها[(٣)] من الشوائبِ والعللِ، فهي قطبُ رَحَى السعادةِ، وروحُ الإيمانِ، وساقُ شجرةِ الإسلامِ، ولأجلِها أنزل اللهُ الكتابَ والحديدَ؛ فالكتابُ هادٍ إليها، ودالٌّ عليها، ومفصلٌ لها، والحديدُ لِمَنْ خرجَ عنها وأشركَ فيها مع اللهِ غيرَه، ولأجلِها خلقتِ الجنةُ والنارُ.

فالجنةُ دارٌ أهلُها الذين[(٤)] أخلصُوها للهِ وحده، فأخلَصَهُم لها، والنارُ دارُ مَنْ أشركَ فيها مع اللهِ غيرَه، وسوَّى بينه وبين اللهِ فيها، كما أخبر تعالى عن أهلِها أنهم يقولُون في النارِ لآلهتِهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] وهذهِ التسويةُ لم تكنْ منهم في الأفعالِ والصفاتِ بحيثُ اعتقدوا أنها مساويةٌ للهِ في أفعالِه وصفاتِه، وإنما كانت تسويةً منهم بين اللهِ وبينها في المحبةِ والعبوديةِ فقط، مع إقرارِهم بالفرقِ بين اللهِ وبينها، فتصحيحُ هذهِ المسألةِ هو تصحيحُ شهادةِ «أن لا إلهَ إلا اللهُ».

فحَقِيقٌ بمن نَصَحَ نفسَه، وأحبَّ سعادتَها ونجاتَها، أن يتيقَّظَ لهذهِ المسألةِ علمًا وعملًا وحالًا، وتكونَ أهمَّ الأشياءِ عنده وأجلَّ علومِه وأعمالِه؛ فإن الشأنَ كلَّه فيها، والمدارُ عليها، والسؤالَ يومَ القيامةِ عنها؛ قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] قال غيرُ واحدٍ من السلفِ: هو عن قولِ «لا إلهَ إلا اللهُ»[(٥)]، وهذا حقٌّ؛ فإن السؤالَ كلَّه عنها، وعن أحكامِها وحقوقِها، وواجباتِها،

= كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة...» الحديث، رواه البخاري، ح (١٤٢٥)، ومسلم، ح (١٩). وغيرهما.

(١) عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**» رواه مسلم (٢٦).

(٢) في ع: «الذنب» وهو خطأ. (٣) في ع: «وتخليصها». (٤) في س: «الذي».

(٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] قال: «**عن لا إله إلا الله**» رواه الترمذي: في كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة «الحجر» ح (٣١٢٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧/ ١١١)، و الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٧)، والطبراني في «الدعاء» (٤٣٨)، والإمام الرازي في «الفوائد» (١/ ٣٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٩٥)، ومحمد ابن عبد الواحد الأصبهاني في «مجلس إملاء في رؤية الله تعالى» (١١٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف =

ولوازمِها، فلا يُسْأَلُ أحدٌ قطُّ إلا عنها، وعن واجباتِها ولوازمِها، وحقوقِها. قال أبو العاليةِ[(١)]: «كلمتان يُسْأَلُ عنهما الأولُون والآخرُون: ماذا كنْتُم تعبدُونَ؟ وماذا أجبْتمُ المرسلين؟»[(٢)] فالسؤالُ عَنْ مَاذَا كانوا يعبدون هو السؤالُ عنها نفسِها، والسؤالُ عَنْ مَاذَا أجابوا المرسلين[(٣)] سؤالٌ عنِ الوسيلةِ والطريقِ المؤديةِ إليها؛ هل سلكُوها وأجابوا الرسلَ لما دعوهُم إليها؟ فعاد الأمرُ كلُّه إليها.

وأمرٌ هذا شأنُه حقيقٌ بأن تثنى عليه الخناصرُ، ويُعَضُّ عليه بالنواجذِ، ويقبضُ فيه على الجمرِ، ولا يُؤخذُ بأطرافِ الأناملِ. ولا يُطلبُ على فضلةٍ، بل يُجْعَلُ هو المطلبَ الأعظمَ، وما سواه إنما يطلبُ على الفضلةِ. واللهُ الموفقُ لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه.

فَصْلٌ

إيثارُ المحبوبِ على غيرِهِ موجبُ المحبةِ ومقتضاهَا

قال: «وقيل: المحبةُ إيثارُ المحبوبِ على غيرِه»[(٤)] وهذا الحدُّ أيضًا من جنسِ ما قبلَه؛ فإنَّ إيثارَ المحبوبِ على غيرِه موجبُ المحبةِ ومقتضاها، فإذا استقرَّتِ المحبةُ في القلبِ؛ استدعتْ من المحبِّ إيثارَ محبوبِه على غيرِه، وهذا الإيثارُ علامةُ ثبوتِها وصحتِها، فإذا آثر غيرَ المحبوبِ عليه؛ لم يكنْ محبًّا له، وإنْ زَعَمَ أنه محبٌّ، فإنما هو محبٌّ لنفسِه ولحظِّه ممن يحبُّه، فإذا رأى حظًّا آخرَ هو أحبُّ إليه من حظِّه الذي يريدُه من محبوبِه؛ آثر ذلك الحظَّ المحبوبَ إليه. فهذا موضعٌ يغلطُ فيه الناسُ كثيرًا؛ إذ أكثرُهم إنما هو محبٌّ[(٥)] لحظِّه ومرادِه، فإذا عَلِمَ أنه عند غيرِه؛ أَحَبَّ ذلك الغيرَ حبَّ

= سنن الترمذي»، (ص/ ٢٨٨)، وذكره البخاري موقوفًا عن أنس رضي الله عنه، في «خلق أفعال العباد»، (ص/ ٥٠). وقد روي موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما. رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١١٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٧)، والطبراني في «الدعاء» (٤٣٨). وروي أيضًا عن مجاهد؛ رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٧)، والطبراني في «الدعاء» (٤٣٨)، رقم (١٤٩٦و١٤٩٧).

(١) رفيع بن مهران، أبو العالية الرياحي البصري، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أحد الأعلام أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، توفي سنة (٩٣)هـ. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٧)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٤٩)، و«طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ١٧٨)، و«طبقات المفسرين» لأحمد الأدنروي (ص/ ٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٦٧)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٤١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٦٠).

(٣) في ك: «الرسول».

(٤) كتاب «محاسن المجالس»، (ص/ ٩٠).

(٥) في ك: «يحب».

الوسائلِ لا حبًّا له لذاتِه، ويظهرُ هذا عند حالتين:

إِحْدَاهُمَا: أن[١] يرى حظًّا له آخرَ عند غيرِه، فيؤثرُ ذلك الحظَّ، ويتركُ محبوبَه.

الثانيةُ: [أنه][٢] إذا نال ذلك الحظَّ من محبوبِه، فتُرَتْ محبتُه، وسكَنَ قلبُه، وترحَّلَ قاطنُ المحبةِ من قلبِه، كما قيل: «من ودَّك لأمرٍ ولَّى عند انقضائِه»[٣]. فهذِهِ محبةٌ مشوبةٌ بالعللِ.

المحبةُ الخالصةُ وأمارتُهَا

بلِ المحبةُ الخالصةُ[٤] أن يحبَّ المحبوبَ لكمالِه، وأنه أهلٌ أن يُحَبَّ لذاتِه وصفاتِه.

[وأنَّ الذي يوجبُ هذهِ المحبةَ فناءُ العبدِ عن إرادتِه بمرادِ محبوبِه، فيكونُ عاملًا على مرادِ محبوبِه منه، لا على مرادِه هو من محبوبِه][٥]. فهذِهِ هي المحبةُ الخالصةُ من درنِ[٦] العللِ وشوائبِ النفسِ، وهي التي تستلزمُ إيثارَ المحبوبِ على غيرِه - ولابد. وكلما كان سلطانُ هذهِ المحبةِ أقوى؛ كان هذا الايثارُ أتمَّ، وفي مثلِ هذا قيل[٧]:

---

(١) في ك، س: «أنه». (٢) سقط من م، ك، س.

(٣) اشتهر على الألسن أنه حديث، بلفظ: «من أحبَّك لشيء؛ ملَّك عند انقضائه» وهو ليس بحديث. ينظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (١٠٥٣)، و«تمييز الطيب من الخبيث» للزبيدي (١٥٨)، و«الشذرة في الأحاديث المشتهرة» للدمشقي (٢/ ٩٠٢).

(٤) في س: «الخاصة». (٥) سقط من م، ك، س.

(٦) في س: «الخاصة من دون»، وفي م: «الخالصة من دون».

(٧) القائل: هو الإمام الشافعي، ينظر «ديوانه» (ص/ ٥٣)، وفيه:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع

ونسبه المبرد في «الكامل» (١/ ٢٣٤)، لمحمود الوراق وليس في «ديوانه»، وفيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع

ونسبه الجاحظ في «المحاسن والأضداد» (١٠٤)، لذي الرمة، غير أنه ذكر «بديع» مكان «شنيع» و«يطيع» مكان «مطيع»، ونسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (٣/ ١٧٦)، لمحمود الوراق، وفيه:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه ... هذا محال في القياس بديعُ
لو كنت تضمر حبه لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع
في كل يوم يبتليك بنعمة ... منه وأنت بشكر ذاك مضيعُ

ونسبه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٨٦) للحسن بن محمد ابن الحنفية، وفيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... عار عليك إذا فعلت شنيع

وفي البيت الثاني: «لمن أحب» مكان «لمن يحب». ونسبه أيضًا لرابعة العدوية، وفيه:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه ... هذا محال في الفعال بديع

وفي البيت الثاني: «لمن أحب» مكان «لمن يحب». =

تَعصي الإلهَ وأنتَ تَزعمُ حُبَّهُ   هَذا مُحالٌ في القياسِ شَنيعُ
لو كَان حُبُّكَ صَادقًا لأَطَعتَهُ   إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ

أنواعُ إيثارِ المحبوبِ

وهاهنا دقيقةٌ ينبغي التفطُّنُ لها، وهي أن إيثارَ المحبوبِ نوعان:

إيثارُ معاوضةٍ ومتاجرةٍ، وإيثارُ حبٍّ وإرادةٍ.

فالأولُ: يُؤثرُ محبوبَه على غيرِه؛ طلبًا لحظِّه منه، فهي تبذُلُ[1] ما يؤثره لتعاوضِهِ بخيرٍ منه.

والثاني: يؤثرُه إجابةً لداعي محبتِه، فإنَّ المحبَّةَ الصادقةَ تدعوه دائمًا إلى إيثارِ محبوبِهِ، فإيثارُه هو أجلُّ حظوظِهِ، فحظُّه في نفسِ الإيثارِ، لا في العوضِ المطلوبِ بالإيثارِ، وهذا لا يفهمُه إلا النفسُ اللطيفةُ الوادعةُ[2] المشرقةُ، وأما النفسُ الكثيفةُ فلا خبرَ عندها من هذا، وما هو بعشِّهَا فلتُدْرَجْ.

فَصلٌ

الإيثارُ ومكانتُهُ في الدينِ

والدينُ كلُّه والمعاملةُ في الإيثارِ، فإنه تقديمٌ وتخصيصٌ لِمَنْ تؤثرُه بما تؤثرُه به على نفسِك، حتى [قيل][3]: إن من شرطِه الاحتياجَ من جهةِ المؤثرِ؛ إذ لو لم يكنْ محتاجًا إليه؛ لكان بذلُه سخاءً وكرمًا[4]. وهذا إنما يصحُّ في إيثارِ المخلوقِ، واللهُ سبحانه يؤثرُ عبدَه على غيرِه من غيرِ احتياجٍ منه سبحانه؛ فإنه الغنيُّ الحميدُ. وفي الدعاءِ المرفوعِ: «**اللَّهمَّ زدْنا ولا تنقصْنا، وأعطِنا ولا تحرمْنا، وأكرمْنا ولا تهِنّا، وآثرْنا ولا تؤثرْ**

= وأيضًا لأبي العتاهية، وفيه:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه   هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك خالصًا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وذكره ابن عديم في «بغية الطلب في تاريخ حلب» (٢/ ٩٦٣)، واختلف فيه الشطر الثاني من البيت الأول وفيه:

....   هذا وربي في الفعال بديع

(١) في م: «فهو يبذل».   (٢) في س: «الورعة».   (٣) سقط من ك، س.

(٤) قد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مراتب الإنفاق في كتابه «مدارج السالكينَ» (٢/ ٢٩٢) فقال: «فإن المراتب ثلاث: إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه، فهو منزلة «السخاء». الثانية: أن يعطي الأكثر، ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى فهو «الجود». الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار»، وعكسها «الأثرة»، وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه».

علينا، وأرضِنا وارضَ عنا»[١]. وقيل: من آثر اللهَ على غيرِه آثره اللهُ على غيرِه[٢].

والفرقُ بين الإيثارِ والأثرةِ: أن الإيثارَ: تخصيصُ الغيرِ بما تريدُه لنفسِك[٣]، والأثرةُ: اختصاصُك به عن الغيرِ[٤]، وفي الحديثِ: «بايعْنا رسولَ اللهِ ﷺ على السمعِ والطاعةِ في عسرِنا ويسرِنا، ومنشطِنا ومكرهِنا وأثرةٍ علينا»[٥].

إذا عرف هذا، فالإيثارُ إما أن يتعلقَ بالخلقِ، وإما أن يتعلقَ بالخالقِ. فإنْ تعلقَ بالخلقِ؛ فكمالُه أن تؤثرَهم على نفسِك بما[٦] لا يضيعُ عليك وقتًا، ولا يفسدُ عليك حالًا[٧]، ولا يهضمُ لك دينًا، ولا يسدُّ عليك طريقًا، ولا يمنعُ لك واردًا.

فإن كان في إيثارِهم شيءٌ من ذلك؛ فإيثارُ نفسِك عليهم أَوْلى، فإنَّ الرجلَ من لا يؤثرُ بنصيبِه من اللهِ أحدًا كائنًا من كان. وهذا في غايةِ الصعوبةِ على السالِك، والأولُ أسهلُ منه.

الإيثارُ المحمودُ

فإن الإيثارَ المحمودَ الذي أثنى اللهُ على فاعلِه: الإيثارُ بالدنيا لا بالوقتِ والدينِ وما يعودُ بصلاحِ القلبِ. قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩][٨] فأخبرَ تعالى أن إيثارَهم إنما هو بالشيءِ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب ح (١٣٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤)، عن عمر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»، ح (٦٢٠) (ص/ ٣٩٨).

(٢) ذكره المؤلف في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٠)، و«جلاء الأفهام» (٤٥٤)، و«روضة المحبين» (٤٠٦).

(٣) ينظر: «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص/ ١٤٣)، و«لسان العرب» (٤/ ٧)، و«التعريفات» للجرجاني (ص/ ٥٩).

(٤) ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (١٠)، و«الفائق» للزمخشري (٣/ ٢٧٦)، و«النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٢)، و«لسان العرب» (٤/ ٨).

(٥) رواه البخاري، ح (٦٦٤٧)، ومسلم، ح (١٧٠٩) والنسائي، ح (٤١٥٤)، وابن ماجه، ح (٢٨٦٦) وأحمد (٥/ ٣١٨)، (٣٢١)، عن عبادة بن الصامت. رضي الله عنه.

(٦) في ع: «ما». (٧) في ع: «مالًا».

(٨) جاء في سبب نزول الآية كما روى البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] الآية ح (٤٦٠٧)، ومسلم في كتاب: الأشربة، باب: إكرام الضيف، ح (٢٠٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله**، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا =

الذي إذا وُقِيَ الرجلُ الشحَّ[1] به، كان من المفلحين، وهذا إنَّما هو[2] فضولُ الدنيا، لا الأوقاتُ المصروفةُ في الطاعاتِ؛ فإن الفلاحَ - كلَّ الفلاحِ - في الشحِّ بها، فَمْن لم يكنْ شحيحًا بوقتِه؛ تركَهُ الناسُ على الأرضِ عُريانًا مفلسًا.

فالشحُّ بالوقتِ هو عمارةُ القلبِ وحفظُ رأسِ مالِه. ومما يدلُّ على هذا: أنه سبحانه أمرَ بالمسابقةِ في أعمالِ البرِّ، والتنافسِ فيها، والمبادرةِ إليها، وهذا ضدُّ الإيثارِ بها، قال اللهُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] وقال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقَرَة: الآية ١٤٨].

وقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفِين: الآية ٢٦] وقال النبيُّ ﷺ: «**لو يعلمِ الناسُ**

= يا رسول الله فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «**لقد عجب الله** ﷻ - أو ضحك - من فلان وفلانة» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحَشر: الآية ٩].

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٥٩)، ح (٣٤٧٩) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٢٦)، عن ابن عمر ﵄ قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منا، قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث إليه واحدًا إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات، حتى رجعت إلى الأول فنزلت: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحَشر: الآية ٩] إلى آخر الآية، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال الحافظ ابن حجر ﵀ بعد سياقه للحديث الأول: «هذا هو الأصح في سبب نزول هذه الآية» ثم ذكر الحديث الثاني، وقال بعده: «ويحتمل أن تكون نزلت بسبب ذلك كله» «فتح الباري» (٧/ ١٢٠).

(١) الشح: هو البخل مع الحرص، وهو أشد من البخل، وأبلغ في المنع منه، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام، وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف.

ينظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ٣٣٢)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٢٥٦)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٤٤٨)، و«لسان العرب» لابن منظور (٢/ ٤٩٥).

وقال الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ٤٣) «وأما العلماء: فإنهم يرون أن الشح في هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق، ثم روى بسنده أن رجلًا أتى ابن مسعود فقال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ [الحَشر: الآية ٩] وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء. قال: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ذلك البخل، وبئس الشيء البخل» ثم ساق نصوصًا أخرى.

(٢) في ع: «وهذا إنما هو من فضول الدنيا».

حكمُ الإيثارِ

ما في النداءِ والصفِّ الأولِ؛ لكانتْ قرعةٌ»[١] والقرعةُ إنما تكونُ عند التزاحمِ والتنافسِ[٢] لا عند الإيثارِ، فلم يجعلِ الشارعُ الطاعاتِ [والقرباتِ][٣] محلًّا للإيثارِ؛ بل محلًّا للتنافسِ والمسابقةِ، ولهذا قال الفقهاءُ: لا يستحبُّ الإيثارُ بالقرباتِ[٤].

والسرُّ فيه - واللهُ أعلمُ - أن الإيثارَ إنما يكونُ بالشيءِ الذي يضيقُ عن الاشتراكِ فيه؛ فلا يسعُ المؤثِرَ والمؤثَرَ، بل لا يسعُ إلا أحدَهما. وأما أعمالُ البرِّ والطاعاتِ فلا ضيقَ على العبادِ فيها، فلو اشتركَ الألوفُ المؤلفةُ في الطاعةِ الواحدةِ؛ لم يكنْ عليهم فيها ضيقٌ ولا تزاحمٌ، ووسِعَتْهُم كلَّهم، وإن قُدِّرَ التزاحمُ في عملٍ واحدٍ، أو مكانٍ لا يمكنُ أن يفعلَه الجميعُ - بحيثُ إذا فعَلَهُ واحدٌ فاتَ على غيرِه - فإنَّ في العزمِ والنيةِ الجازمةِ على فعلِه من الثوابِ ما لفاعلِه، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ في غيرِ حديثٍ[٥]،

---

(١) رواه البخاري، ح (٥٩٠)، و ح (٦٢٤)، ومسلم، ح (٤٣٩)، والنسائي، ح (٥٤٠) و ح (٦٧١)، وأحمد، (٢/ ٢٣٦)، (٢٧٨)، (٣٠٣) (٣٧٤-٣٧٥)، (٥٣٣)، كلهم بنحوه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في م: «التنافس والتزاحم». (٣) سقط من م.

(٤) ينظر في هذه المسألة: «المهذب» للشيرازي (١/ ١١٤)، و«المجموع» للنووي (٢/ ٢٩٩)، و«الفروع» لابن مفلح (٢/ ٨٤)، و«الموافقات» للشاطبي (٢/ ٣٥٦) و«المنثور» للزركشي (١/ ٢١٢)، و«الأشباه والنظائر» لابن نجيم (١٤٤). وكره الإيثار بالقرب لأمور:

الأول: أن الإيثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها، والتأخر عن فعلها، فلو ساغ الإيثار بها؛ لأفضى إلى التقاعد والتكاسل عنها.

الثاني: أن الله عز وجل يحب المبادرة والمسارعة إلى خدمته والتنافس فيها، فإن ذلك أبلغ في العبودية؛ إذ إن الملوك تحب المسارعة والمنافسة في طاعتها وخدمتها، فالإيثار بذلك مناف لمقصود العبودية؛ فإن الله سبحانه أمر عبده بهذه القربة إما إيجابًا وإما استحبابًا، فإذا آثر بها ترك ما أمره وولاه غيره، وقد قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحَديد: الآية ٢١] الآية وقال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٨] ومعلوم أن الإيثار بها ينافي الاستباق إليها والمسارعة، وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضًا بالقرب، ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها، قال عمر: «والله ما سابقني أبو بكر إلى خير إلا سبقني إليه» حتى قال: «والله لا أسابقك إلى خير أبدًا» وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ٢٦] يقال: نافست في الشيء منافسة ونفاسًا إذا رغبت فيه على وجه المباراة، ومن هذا قولهم: «شيء نفيس» أي: هو أهل أن يتنافس فيه ويرغب فيه. وهذا أنفس مالي أي: أحبه إلي. وأنفسني فلان في كذا، أي: أرغبني فيه، وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه. ينظر «كتاب الروح» للمؤلف (١٣٠)، بتصرف.

(٥) روى البخاري، ح (٢٨٣٤)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إذا مرض العبد أو** =

فإذا قُدِّرَ فوتُ مباشرتِه له؛ فلا يفوتُ عليه عزمُه ونيتُه لفعلِه.

وأيضًا فإنَّه إذا فاتَ عليه؛ كان في غيرِه من الطاعاتِ والقرباتِ عوضٌ منه، إما مُسَاوٍ له، وإما أزيدُ[(١)]، وإما دونَه. فمتى أَتَى بالعوضِ، وعَلِمَ اللهُ من نيتِه وعزيمتِه الصادقةِ إرادتَه لذلك العملِ الفائتِ؛ أعطاهُ ثوابَه و ثوابَ ما يُعَوَّضُ به عنه، فجَمَعَ له الأمرين. و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤][(٢)].

وأيضًا فإنَّ المقصودَ رغبةُ العبدِ في التقربِ إلى اللهِ، وابتغاءُ الوسيلةِ إليه، والمنافسةُ في محابِّه. والإيثارُ بهذا التقربِ يدلُّ على رغبتِه عنه، وتركِه له، وعدمِ المنافسةِ فيه، وهذا بخلافِ ما يحتاجُ إليه العبدُ من طعامِه وشرابِه ولباسِه إذا كانَ أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختصَّ به أحدُهما؛ فاتَ الآخرَ، فندبَ اللهُ سبحانه عبدَه إذا وجَدَ [من نفسِه][(٣)] قوةً وصبرًا على الإيثارِ به ما لم يخرمْ عليه دينًا، أو يجلبْ له مفسدةً، أو يقطعْ عليه طريقًا؛ عزم على سلوكِه إلى ربِّهِ، أو يشوشْ عليه قلبَه، بحيثُ يجعلُه متعلقًا بالخلقِ فمفسدةُ الإيثارِ هنا أرجحُ من مصلحتِه، فإذا ترجحتْ مصلحةُ الإيثارِ بحيثُ تتضمنُ إنقاذَ نفسٍ من هلكةٍ أوعطبٍ[(٤)] أوشدةِ ضرورةٍ. وليس بالمؤثرِ[(٥)] نظيرُها. تعيَّنَ عليه الإيثارُ، فإن كان به[(٦)] نظيرُها، لم يتعينْ عليه الإيثارُ، ولكنْ لو فعله؛ لكان[(٧)] غايةَ الكرمِ والسخاءِ والإحسانِ؛ فإنه[(٨)] مَنْ آثرَ حياةَ غيرِه على حياتِه، وضرورتَه على

= سافر؛ **كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا»** وروى أيضًا في كتاب: المغازي، باب: نزول النبي ﷺ بالحجر، ح (٤٠٧١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**».

(١) في م: «زائد».

(٢) وأخرج أبو داود في كتاب: الصلاة، ح (٥٦٤)، وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن وضوءه، ثم راح فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله - جل وعلا - مثل أجر من صلاها وحضرها، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئًا**»، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٤٤)، ح (١١٦٦).

(٣) سقط من م.

(٤) العَطب: هو الهلاك يكون في الناس وغيرهم.

ينظر: «كتاب العين» (٢/ ٢٠٢)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٧٩٦)، و«لسان العرب» (١/ ٦١٠).

(٥) في م: «للمؤثر». (٦) في م: «له». (٧) في م: «كان».

(٨) في م: «فإن».

ضرورتِه، فقد استولى على أمدِ الكرمِ والسخاءِ[(١)]، وحازَ قصباتِه[(٢)] وضربَ فيه بأوفرِ الحظِّ. وفي هذا الموضعِ مسائلُ فقهيةٌ ليس هذا موضعَ ذكرِها.

الطرقُ المؤديةُ إلى الإيثارِ

فان قيل: فما الذي يُسَهِّلُ على النفسِ هذا الإيثارَ؛ فان النفسَ مجبولةٌ على [الأثرةِ لا على][(٣)] الإيثارِ؟ قيلَ: يسهِّلُه أمورٌ:

الأولُ: رغبةُ العبدِ

أحدُها: رغبةُ العبدِ في مكارمِ الأخلاقِ ومعاليهَا؛ فإنَّ من أفضلِ أخلاقِ الرجلِ وأشرفِها وأعلاها الإيثار[(٤)]، وقد جَبَلَ اللهُ القلوبَ على تعظيمِ صاحبِه ومحبتِه، كما جَبَلَهَا على بُغْضِ المستأثرِ ومقتِه، لا تبديلَ لخلقِ اللهِ.

والأخْلاقُ ثلاثةٌ: خُلُقُ الإيثارِ، وهو خُلُقُ الفضلِ. وخُلُقُ القسمةِ [والتسويةِ][(٥)] وهو خُلُقُ العدلِ. وخُلُقُ الاستئثارِ[(٦)] والاستبدادِ، وهو خُلُقُ الظلمِ؛ فصاحبُ الإيثارِ محبوبٌ مطاعٌ مهيبٌ. وصاحبُ العدلِ لا سبيلَ للنفوسِ إلى أذاهُ والتسلطِ عليه؛ ولكنَّها لا تنقادُ إليه انقيادَها لِمَنْ يؤثرُها. وصاحبُ الاستئثارِ النفوسُ إلى أذاه والتسلطِ عليه[(٧)] أسرعُ من السيلِ[(٨)] في حدورِه. وهل أزال الممالكَ وقلعَهَا إلا الاستئثارُ؟ فإنَّ النفوسَ لا صبرَ لها عليه.

الأخلاقُ ثلاثةٌ

ولهذا أمر رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه بالسمعِ والطاعةِ لولاةِ الأمرِ، وإنِ استأثَرُوا عليهم[(٩)]؛ لِمَا في طاعةِ المستأثرِ من المشقَّةِ و الكُرْهِ.

---

(١) في س: «والسخاء والإحسان».

قال المؤلف. رَحِمَهُ ٱللَّهُ. في «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٦-٥٠٧): «وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة وعاينوا التلف ومع بعضهم ماء، فآثر على نفسه واستسلم للموت، كان ذلك جائزًا، ولم يقل: إنه قاتلٌ لنفسه ولا أنه فعل محرمًا، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعُدَّ ذلك من مناقبهم وفضائلهم».

(٢) يقال: حاز قصب السبق، أي: استولى على الأمد، وأصل هذا القول أنهم كانوا ينصبون في مضمار السباق قصبة، فمن سبق اقتلعها ليُعلم أنه هو السابق من غير نزاع. ينظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٢٤٧)، و«لسان العرب» لابن منظور (١/ ٦٧٧)، و«المصباح المنير» للفيومي (٢/ ٥٠٤).

(٣) سقط من س.

(٤) قد سبق ذكر مراتب الإنفاق والبذل والعطاء.

(٥) سقط من م. (٦) في م: «الإيثار». (٧) في م: «إليه».

(٨) في س: «السبيل».

(٩) روى البخاري في كتاب: الفتن: «**ستروν بعدي أمورًا تنكرونها**»، ح (٦٦٤٧)، ومسلم في الإمارة، =

الثاني

الثاني: النفرةُ من أخلاقِ اللئامِ، ومقتُ الشحِّ وكراهتُه له.

الثالثُ

الثالثُ: تعظيمُ الحقوقِ التي جعلَها اللهُ للمسلمين بعضِهم على بعضٍ، فهو يرعَاهَا حقَّ رعايتِها، ويخافُ من تضييعِها، ويعلمُ أنه إن لم يبذلْ فوقَ العدلِ، لم يمكنْه الوقوفُ مع حدِّه، فإنَّ ذلك عَسِرٌ جدًّا، بل لا بدَّ من مجاوزتِه إلى الفضلِ، أو التقصيرِ عنه إلى الظلمِ، فهو لخوفِه من تضييعِ الحقِّ والدخولِ في الظلمِ يختارُ الإيثارَ بما لا ينقصُه، ولا يضرُّه، ويكتسبُ به جميلَ الذكرِ في الدنيا وجزيلَ الأجرِ في الآخرةِ، مع ما يجلبُه له الإيثارُ من البركةِ وفيضانِ الخيرِ عليه، فيعودُ عليه من إيثارِه أفضلُ مما بذله. ومَنْ جرَّب هذا؛ عرفَهُ، ومن لم يجربْه فليستقرِ أحوالَ العالمِ. والموفَّقُ من وفقَه اللهُ.

فصلٌ

الإيثارُ المتعلقُ بالخالقِ وعلامةُ صحتِهِ وما يسهلُهُ

والإيثارُ المتعلقُ بالخالقِ أَجَلُّ من هذا وأفضلُ، وهو إيثارُ رضَاهُ على رِضَى غيرِه، وإيثارُ حبِّه على حبِّ غيرِه، وإيثارُ خوفِه ورجائِه على خوفِ غيرِه ورجائِه، وإيثارُ الذلِّ [له][1] والخضوعِ والاستكانةِ والضراعةِ والتملقِ[2] على بذلِ ذلك لغيرِه. وكذلك إيثارُ الطلبِ منه والسؤالِ، وإنزالُ الفاقاتِ به على تعلقِ ذلك بغيرِه؛ فالأولُ آثر بعضَ العبيدِ على نفسِه فيما هو محبوبٌ له، وهذا آثرَ اللهَ على غيرِه - ونفسُه من أعظمِ الأغيارِ - فآثر اللهَ عليها، فتركَ محبوبَها لمحبوبِ اللهِ.

وعلامةُ صحةِ هذا الإيثارِ شيئان:

الأولُ: فعلُ ما يحبُّهُ

أحدُهما: فعلُ ما يحبُّه[3] اللهُ إذا كانتِ النفسُ تكرهُه وتهربُ منه.

الثاني: تركُ ما يكرهُهُ

والثاني: تركُ ما يكرهُه إذا كانتِ النفسُ تحبُّه وتهواهُ، فبهذين الأمرين يصحُّ مقامُ الإيثارِ، ومؤنةُ هذا الإيثارِ شديدةٌ؛ لغلبةِ الأغيارِ، وقوةِ داعي العادةِ والطبعِ، فالمحنةُ

= ح (١٧٠٩) وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال: **«إلا أن نزوا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»**.

(١) سقط من س.

(٢) التملق: التلطف والتودد، وأصله من التليين، يقال للصَفات الملساء اللينة: «مَلَقة». ينظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٢٧٩)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٤٧)، و«القاموس المحيط» (٣/ ٣٨٥).

(٣) في ك، س: «يحب».

فيه عظيمةٌ، والمؤنةُ فيه شديدةٌ، والنفسُ عنه ضعيفةٌ، ولا يتمُّ فلاحُ[(١)] العبدِ وسعادتُه إلا به، وإنه ليسيرٌ على من يسَّرَه اللهُ عليه، فحقيقٌ بالعبدِ أن يَتَسَنَّم[(٢)] إليه وإنْ صعُبَ المرتَقَى، وأن يشمِّرَ إليه وإنْ عظُمَتْ فيه المحنةُ، ويحتملَ فيه خطرًا يسيرًا لملكٍ عظيمٍ، وفوزٍ كبيرٍ؛ فإنَّ ثمرةَ هذا في العاجلِ والآجلِ ليست تُشْبِه ثمرةَ شيءٍ من الأعمالِ، واليسيرُ منه يُرقِي العبدَ، ويسيرُه ما لا يرقى غيرُه إليه في المُدَدِ المتطاولةِ و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الجمعة: الآية ٤][(٣)]، ولا تتحققُ المحبةُ إلا بهذا الإيثارِ.

والذي يُسَهِّلُه على العبدِ أمورٌ:

أحدُها: أن تكونَ طبيعتُه لينةً منقادةً سَلِسةً، ليستْ بجافيةٍ ولا قاسيةٍ، بل تنقادُ معه بسهولةٍ.

الثاني: أن يكونَ إيمانُه راسخًا، ويقينُه قويًّا؛ فإنَّ هذا ثمرةُ الإيمانِ ونتيجتُه.

الثالثُ: قوةُ صبرِه وثباتِه. فبهذهِ الأمورِ الثلاثةِ ينهضُ[(٤)] إلى هذا المقامِ، ويسهلُ عليه دركُه.

نقصُ الإيثارِ بأمرين الأولُ: جمودُهَا الثاني: ضعفُ النفسِ

والنقصُ والتخلفُ في النفسِ عن هذا يكونُ من أمرين:

أحدُهما: أن تكونَ جامدةً غيرَ سريعةِ الإدراكِ، بل بطيئةٌ، فلا يكادُ يرى[(٥)] حقيقةَ الشيءِ إلا بعدَ عسرٍ. وإن رآها[(٦)] اقترنتْ به الأوهامُ والشكوكُ والشبهاتُ والاحتمالاتُ، فلا يتخلصُ[(٧)] له رؤيتُها وعيانُها.

الثاني: أن تكونَ القريحةُ وقَّادةً[(٨)] درَّاكةً[(٩)]، لكنَّ النفسَ ضعيفةٌ مهينةٌ؛ إذا أبصرتِ

---

(١) في ع: «صلاح».

(٢) يتَسَنَّم: أي: يعلو، ويرتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ [المطفّفين: ٢٧] وهو ماء في الجنة سمي بذلك؛ لأنه يجري من علوٍّ، من فوق الغرف والقصور، و«لسان العرب» لابن منظور (١٢/ ٣٠٨).

(٣) في ع زيادة: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. والآية من سورة «الجمعة» (٤).

(٤) في م: «العبد».

(٥) في ك، س: «فلا تكاد ترى»، وفي م: «ولا تكاد ترى».

(٦) في م، ك «رأتها».

(٧) في ك: «تتخلص».

(٨) وقَّادة أي: سريعة التوقد في النشاط والمَضاء، ينظر: «العين» (٥/ ١٩٧)، «لسان العرب» (٣/ ٤٦٦)، و«القاموس المحيط» (١/ ٤٨٠).

(٩) الدَّرَك: لحاق الشيء بالشيء، والوصول إلى الحاجة والمطلوب، يقال: فرسٌ دَرَكُ الطريدةِ: إذا كانت =

الحقَّ والرشدَ؛ ضَعفَتْ عن إيثارِه، فصاحبُها يسوقُها سوقَ العليلِ المريضِ، كلما ساقَهُ خطوةً؛ وقف خطوةً، أو كسوقِ الطفلِ الصغيرِ الذي تعلَّقَتْ نفسُه بشهواتِه ومألوفاتِه، فهو يسوقُه إلى رشدِه وهو ملتفتٌ إلى لهوِهِ ولعبِه، لا ينساقُ معه إلا كرهًا. فإذا رُزِقَ العبدُ قريحةً وقَّادةً، وطبيعةً منقادةً؛ إذا زجرَها انزجرتْ، وإذا قادها انقادتْ بسهولةٍ وسرعةٍ ولِينٍ، وأُيِّدَ مع ذلك بعلمٍ نافعٍ وإيمانٍ راسخٍ؛ أقبلتْ إليه وفودُ السعادةِ من كلِّ جانبٍ. ولما كانت هذهِ القرائحُ والطبائعُ ثابتةً للصحابةِ ﷺ، وكمَّلها اللهُ لهم بنورِ الإسلامِ، وقوةِ اليقينِ، ومباشرةِ الإيمانِ لقلوبِهم؛ كانوا أفضلَ العالمين بعد الأنبياءِ والمرسلين، وكان مَنْ بعدَهم «**لو أنفقَ مثلَ جبلِ أحدٍ ذهبًا؛ ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه**»[١]. ومن تصوَّر هذا الموضعَ حقَّ تصورِه؛ علم من أين يلزمُه النقصُ والتأخرُ، ومن أين يتقدمُ[٢] ويترقى في درجاتِ السعادةِ. وباللهِ التوفيقُ.

فَصْلٌ

فصلٌ في المحبةِ

قال: «وقيل: المحبةُ[٣]: موافقةُ المحبوبِ فيما ساءَ وسرَّ، ونفعَ وضرَّ[٤] كما قيل[٥]:

وأَهَنتِنَي فَأَهنتُ نَفسِي صَاغِرًا ... مَا مَنْ يَهونُ عَليكِ مِمَّن أُكْرِمُ[٦]»[٧]

موافقةُ المحبوبِ

فيقال: وهذا الحدُّ أيضًا من جنسِ ما قبلَه؛ فإنَّ موافقةَ المحبوبِ من موجباتِ المحبةِ وثمراتِها، وليست نفسَ المحبةِ، بل المحبةُ تَستدعي الموافقةَ، وكلما كانت المحبةُ أقوى كانتِ الموافقةُ أتمَّ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ

= لا تفوته طريدة، والمراد هنا: نفس سريعة الإدراك والوصول إلى الشيء، ينظر: «العين» (٥/ ٣٢٧-٣٢٨)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (ص/ ٣٥٢) و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٣٠٠)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٠/ ٤١٩).

(١) رواه البخاري، ح (٣٤٧٠)، ومسلم، ح (٢٥٤١)، وأبو داود، ح (٥٨٤٦)، والترمذي، ح (٣٨٦١)، وأحمد (٣/ ١١)، (٥٤)، (٦٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) في ك، س: «يتقدم ويتأخر».

(٣) في م زيادة: «موافقة المحب».

(٤) ينظر نحوه لرويم بن أحمد، «طبقات الصوفية» للسلمي (١٥٠).

(٥) لأبي الشيص: «ديوانه» (ص/ ١٠١)، سيأتي (ص/ ٢٠٦).

(٦) في م و«محاسن المجالس» (٩١): «يُكرم».

(٧) كتاب «محاسن المجالس»، (ص/ ٩١).

﴿ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] قال الحسنُ[(١)]: «قال قومٌ على عهدِ النبيِّ ﷺ: إنا نحب ربَّنا فأنزل اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١][(٢)]. وقال الجنيدُ[(٣)]: «ادَّعى قومٌ محبةَ اللهِ، فأنزل اللهُ آيةَ المحنةِ، وهي قولُه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١]»[(٤)]. يعني أن متابعةَ الرسولِ هي موافقةُ حبيبِكم؛ فإنه المبلغُ عنه ما يحبُّه وما يكرهُه. فمتابعتُه موافقةُ اللهِ في فعلِ ما يحبُّ، وتركِ ما يكرَهُ.

قال مالكٌ[(٥)] رَحِمَهُ اللَّهُ في هذهِ الآيةِ: «من أحبَّ طاعةَ اللهِ أحبَّه اللهُ؛ وحبَّبَه إلى خلقِه»[(٦)]. وإنما كانتْ موافقةُ المحبوبِ دليلًا على محبتِهِ؛ لأن مَنْ أحبَّ حبيبًا فلا بدَّ أن يحبَّ ما يحبُّه، ويبغضَ ما يبغضُه، وإلا لم يكنْ محبًّا له محبةً صادقةً بل إن تخلفَ ذلك عنه؛ لم يكنْ محبًّا له، بل يكونُ مُحبًّا لمرادِه منه، أحبَّه محبوبُه، أم كرِهَه، ومحبوبُه عنده وسيلةٌ إلى ذلك المرادِ. فلو حصل له حظُّه من غيرِه [لرحَلَ غرضُه][(٧)]. فهذهِ المحبةُ المدخولةُ الفاسدةُ، وإذا كانت المحبةُ الصحيحةُ تستدعي حبَّ ما يحبُّه المحبوبُ وبغضَ ما يبغضُه، فلا بدَّ أن يوافقَه فيه.

موافقةُ المحبوبِ ليس في مرادِهِ الكونِيِّ

ولكن هاهنا مسألةٌ يغلطُ فيها كثيرٌ من المدَّعين للحبِّ، وهي أن موافقةَ المحبوبِ في مرادِه ليس المَعْنِيُّ بها [مرادَه][(٨)] الخَلْقِيَّ الكَوْنِيَّ، فإنَّ كلَّ الكونِ مرادُه، وكلَّ ما

---

(١) الحسن البصري: سبقت ترجمته.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٣٢)، وأورده الواحدي في «أسباب النزول» (٨٦)، والقرطبي في «التفسير» (٤/ ٦٠).

(٣) الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، ثم البغدادي الخراز، أبو القاسم، شيخ الصوفية، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، قال: كنت أفتي في حلقة أبي ثور ولي عشرون سنة، توفي سنة: (٢٩٧)هـ. انظر: «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٤١)، و«وفيات الأعيان» (١/ ١٩١)، و«السير» (١٤/ ٦٦)، و«الوفيات» لابن قنفذ (١٩٦).

(٤) ينظر نحوه في «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٩)، وفي «مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ٢٢).

(٥) مالك بن أنس: سبقت ترجمته.

(٦) لم أقف عليه عن مالك، وإنما رواه معمر بن راشد في «جامعه» (١٠/ ٤٥١)، قال: كتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد: «سلام عليك، أما بعد: فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى عباده، وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه بغَّضه إلى عباده»، ورواه هَناد في كتاب: «الزهد» (١/ ٢٩٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١١٣)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢/ ٢٩٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ٢٤٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ١٥٣)، رقم (٣١٩٠).

(٧) في س: «أو غرضه». (٨) سقط من م.

يفعلُه الخلائقُ فهو موجبُ مشيئتِه وإرادتِه الكونيةِ، فلو كانتْ موافقتُه في هذا المرادِ هي محبتَه؛ لم يكنْ له عدوٌّ أصلًا، وكانتِ الشياطينُ والكفارُ والمشركون عبادُ الأوثانِ والشمسِ والقمرِ أولياءَه وأحبابَه(١)، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وإنما يظنُّ ذلك مَنْ يظنُّه مِنْ أعدائِه الجاحدين لإلهيتِه ودينِه، الذين يسوُّون بين أوليائِه وأعدائِه، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] فأنكر سبحانه على من سوَّى بين المسلمين والمُجْرِمينَ، وبين المُطيعِينَ والمُفسِدِين، مع أن الكلَّ تحت المرادِ الكونيِّ والمشيئةِ العامَّةِ.

وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ(٢) . قدَّس اللهُ روحَه(٣) . يقولُ(٤): «قال لي بعضُ شيوخِ هؤلاءِ: المحبةُ نارٌ تحرقُ من القلبِ ما سِوَى مرادِ المحبوبِ، والكونُ كلُّه مرادُه، فأيُّ شيءٍ أبغضُ منه؟ قال: فقلتُ له: فإذا كان المحبوبُ قد أبغضَ [بعضَ](٥) ما في الكونِ، فأبغضَ قومًا، ولعنَهم، ومقتَهم، وعادَاهُم، فأحببتَهم أنت وواليتَهم، تكونُ مواليًا للمحبوبِ موافقًا له، أو مخالفًا [له] معاديًا له؟ قال: فكأنما أُلقم حجرًا».

وينلغُ الجهلُ والكفرُ ببعضِ هؤلاءِ إلى حدٍّ بحيثُ إذا فعل محظورًا يزعمُ أنه مطيعٌ للهِ فيه(٦)، ويقولُ: أنا مطيعٌ لإرادتِه، وينشدُ في ذلك: يبلغُ الجهلُ والكفرُ ببعضِ الناسِ =

أَصبحتُ مُنْفَعِلًا لما يَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعاتُ(٧)

(١) ينظر في هذه المسألة: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٢١٠) وما بعدها، و«الاستقامة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٧٧) وما بعدها، و«شفاء العليل» للمؤلف (١/ ٤).

(٢) سبقت ترجمته. (٣) في م: «رَحِمَهُ اللهُ».

(٤) ذكره في «الاستقامة» (٢/ ٧٨)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٢٥-١٢٦).

(٥) سقط من م. (٦) في م: «به».

(٧) نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللهُ. في «الفتاوى» (٨/ ٢٥٧)، لابن إسرائيل: محمد بن سِوَار بن إسرائيل بن خضر بن إسرائيل الشيباني، نجم الدين أبي المعالي، الشاعر الصوفي.

قال عنه ابن حجر: «صحب الحريري واقتدى به منذ بلوغه الحلم، وسلك في النظم طريق ابن الفارض، وزاد عليه في اللطف والانسجام، وحذا حذوه في الاتحاد، لكنه يصرح، وابن الفارض يلوح». وله =

= إذا فعلَ معصيةً أنه يزعمُ الطاعةَ

ويقولُ أحدُهم: «إبليسُ وإن عصى الأمرَ، لكنَّه أطاعَ الإرادةَ!»[١] يعني أن فعلَه طاعةٌ للهِ من حيثُ موافقةُ إرادتِه، وهذا انسلاخٌ من ربقةِ العقلِ والدينِ، وخروجٌ عن الشرائعِ كلِّها، فإنَّ الطاعةَ إنما هي موافقةُ الأمرِ الدينيِّ الذي يحبُّه اللهُ ويرضاه، وأما دخولُه تحت القَدَرِ الكونيِّ الذي يبغضُه، ويسخطُه، ويكفرُ فاعلُه ويعاقبُه؛ فهي المعصيةُ والكفرُ ومعاداتُه ومعاداةُ دينِه. ولا ريبَ أن المسرفين على أنفسِهم المنهَمِكينَ في الذنوبِ والمعاصي، المُعْتَرِفينَ بأنهم عصاةٌ مذنبون - أقربُ إلى اللهِ من هؤلاءِ العارِفِينَ المنسلِخِينَ عن دينِ الأنبياءِ كلِّهم، الذين لا عقلَ لهم ولا دينَ. فنسألُ اللهَ أن يثبتَ قلوبَنا على دينِه.

ردُّ المؤلفِ على استشهادِهِ بأبياتِ أبي الشيصِ

وأما البيتُ الذي استشهَدَ به، فهو من أبياتٍ لأبي الشيصِ[٢]، يقولُ فيها[٣]:

وَقَفَ الهوى بي حَيثُ أَنتِ فليسَ لِي … مُـتَـأَخَّـرٌ عـنـهُ ولا مُـتَـقَـدَّمُ
وأَهنْتِني فأَهنتُ نَفْسي جَاهدًا … ما مَن يَهُون عليكِ مِمَّنْ أُكْرِمُ[٤]
أَشْبَهتِ أعدَائي فصِرْتُ أُحبُّهم … إذْ كَانَ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي مِنهُمُ
أَجِدُ المَلامَةَ فِي هواكِ لَذِيذَةً … حُبًّا لِذِكْرِكِ فلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وقد ناقضَ فيها في دعوَاهُ مناقضةً بَيِّنةً؛ فإنَّه أخبرَ أن هواه قد صارَ وَقْفًا عليها، لا يزولُ عنها، ولا يتحولُ بتقدمٍ، ولا تأخُّرٍ، ثم أخبَرَ أنه قد بلغَ به حبُّها وهواهَا إلى أن صارَ مرادُها من نفسِه عينَ مرادِه هو، فلما أرادتْ إهانتَهُ بالصدِّ والهجرانِ والبعدِ، سعى هو في إهانةِ نفسِه بجهدِه موافقةً لها في إرادتِها، فصارتْ إهانتُه لنفسِه مرادةً محبوبةً[٥]

= ديوان شعر مخطوط كتب سنة (٧٠٧)هـ. وتوفي سنة (٦٧٧)هـ، ينظر: «لسان الميزان» (٥/ ١٩٥)، و«العبر» (٥/ ٣١٦)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٣٥٩)، و«الأعلام» (٦/ ١٥٣).

(١) ذكره شيخ الإسلام، ابن تيمية. رَحِمَهُ اللَّهُ. في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٧) و (٢٥٧).

(٢) محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي، يكنى أبا جعفر، وأبو الشيص لقب له، كان أحد شعراء الرشيد وكان من أعذب الناس ألفاظًا، وأجودهم كلامًا، وكان يفضل على شعراء زمانه، توفي سنة: (١٩٦)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ٤٠١)، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٢٤٩)، و«الأعلام» (٦/ ٢٧١).

(٣) ديوان أبي الشيص، (ص/ ١٠١)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٥/ ٣٣٧)، و«الأمالي» للقالي (١/ ٢٢٢)، و«الأغاني» للأصفهاني (١٦/ ٤٣٥)، وكتاب «الصناعتين» للعسكري (١٢٩).

(٤) في ديوان أبي الشيص (ص/ ١٠١)، وفي «الأغاني» (١٦/ ٤٣٥): «يُكْرَمُ».

(٥) في س: «مراد محبوبه».

له من حيثُ هي مرادةٌ محبوبةٌ لها، وزعمَ أنه لو أَكْرَمَ نفسَه؛ لكانَ مخالفًا لمحبوبتِه مكرمًا لِمَنْ أهانتْه[١]. ثم نقضَ هذا الغرضَ من حيثُ شَبَهُهَا بأعدائِه الذين هم أبغضُ شيءٍ إليه. ووجْهُ هذا التشبيهِ أنه لم يحصلْ منها مِنْ حظِّه ومرادِه على شيءٍ؛ بلِ الذي يحصلُ له منها مثلُ ما يحصلُ [له][٢] من أعدائِه من إهانتِهم له وأذاهُ، فصار حظُّه منها ومن أعدائِه واحدًا، فصارتْ شبيهةً بِهِم، فأين هذا من الموافقةِ التامَّةِ لها في مرادِها، بحيثُ يهينُ نفسَه لمحبتِها في إهانتِه؟.

ثم أخبر أن له منها حظًّا مرادًا، وأن ذلك الحظَّ الذي يريدُه لم يحصلْ له، وإنما حصُلَ له منه[٣] نظيرُ ما يحصلُ له من أعدائِه. وهذهِ شكايةٌ في الحقيقةِ، وإخبارٌ عن محبةٍ معلولةٍ بالحظِّ، وشكايةٍ للحبيبِ بتفويتِه عليه. ثم إنه أخبرَ عن جنايةٍ أخرى،

---

(١) قال المؤلف ـ رحمه الله ـ بعد ذكر الأذى من المحبوب: (وهذا موضع انقسم المحبون فيه قسمين:

ففرقة قالت: ليس بحب صحيح ما يزيله الأذى، قالوا: بل المحب يلتذُّ بأذى محبوبه له، كما قال أبو الشيص... فهذا هو الحب على الحقيقة؛ فإنه متضمن لغاية الموافقة، بحيث قد اتخذ مراده ومراد محبوبه من نفسه، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له، وأحب أعداءه لما أشبههم محبوبه في أذاه، وهذا وإن كانت الطباع تأباه لكنه موجب الحب التام ومقتضاه.

وقالت فرقة: بل الأذى مزيل للحب؛ فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها، كما أن القلوب مجبولة على حب من يحسن إليها، وما ذكره أولئك فدعوى منهم.

والإنصاف أن يقال: يجتمع في القلب بغض أذى الحبيب وكراهته ومحبته من وجه آخر، فيحبه ويبغض أذاه، وهذا هو الواقع والغالب منها يواري المغلوب، ويبقى الحكم له، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعر في قوله:

ولو قلتِ طأْ في النار أعلمُ أنه ... رضًا لكِ أو مُدْنٍ لنا من وصالِكِ
لقدَّمتُ رجلي نحوها فوطئتُها ... هدىً منكِ لي أو ضِلَّةً من ضِلالِكِ
وإن ساءني أن نِلْتِني بمساءةٍ ... فقد سرَّني أني خَطَرتُ ببالِكِ

فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوؤه أن يناله محبوبه بمساءة، ويسره خطورُه بباله، لا كمن ادعى أنه يلتذ بأذى محبوبه له؛ فإن هذا خارج عن الطباع، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلة إلى رضى المحبوب وقربه، فإنه يلتذ به إذا لاحظ غايته وعاقبته، فهذا يقع، وقد أخبرني بعض الأطباء، قال: إني ألتذ بالدواء الكريه إذا علمت ما يحصل به من الشفاء، وأضعه على لساني وأترشفه محبة له» «روضة المحبين» (٧١-٧٢).

والتلذذ بالأذى يسمى عندهم: «حب الحب» أي: حب كل ما يحبه المحبوب، ينظر: «مشارق أنوار القلوب» لابن الدباغ (٧٥). والأبيات لابن الدمينة في «ديوانه» (٢١٠).

(٢) سقط من م. (٣) في م: «منها».

وهي أنه شركٌ بينها وبين أعدائِه في حبِّه لها، فصارَ حبُّه مُنقسِمًا: بعضُه لها، وبعضُه لأعدائِه لشبهِهِم إياها، ثم إنَّ في الشعرِ جنايةً أخرى عليها، وهو أنه شبَّهها بمن جُبِلَتِ القلوبُ على بُغْضِه، وهو العدُّو، واللائقُ تشبيهُ الحبيبِ بما هو أحبُّ الأشياءِ إلى النفسِ؛ كالسمعِ والبصرِ، والحياةِ، والروحِ والعافيةِ، كما هو عادةُ الشعراءِ والناسِ في نظمِهم ونثرِهم، كما هو معروفٌ بينهم وهو جادةُ كلامِهم.

ثم أخبر بمحبتِه لأعدائِه لشبهِهِم بها، فتضمَّنَ كلامُه معاداةَ من يحبُّه، ومحبةَ من يعاديهِ، فإنها إذا أشبهتْ أعداءَه؛ لزِمَ أن يحصلَ لها نصيبٌ من معاداتِه، وإذا أشبهَهَا أعداؤُه؛ لزِمَ أن يحصلَ لهم نصيبٌ من محبتِه، كما صرَّح به في جانبِهم، وتركَ التصريحَ به في جانبِها، وهو مفهومٌ من كلامِه.

ثم أخبر أنه يلتذُّ بملامةِ اللُّوَّامِ في هواها؛ لما يتضمَّنُ[1] من ذِكَراهَا. وهذا يدلُّ على قوةِ محبتِها، وسماعِ ذكرِها، وهذا غرضٌ صحيحٌ، مع أنه مدخولٌ أيضًا؛ فإنَّ محبوبتَه قد تكرهُ ذلك؛ لما يتضمنُ من فضيحتِها به، وجعلِها مضغةً للماضغين، فيكونُ مُحبًّا لنفسٍ ما تكرهُهُ. وهذه محبةٌ فاسدةٌ معلولةٌ ناقضةٌ لدعواهُ موافقتَها في محابِّها.

فَصْــلٌ

سفرُ القلبِ نحوَ المحبوبِ أثرٌ من آثارِ المحبةِ

قال: «وقيل[2]: المحبةُ: القيامُ بين يديهِ وأنتَ قاعدٌ، ومفارقةُ المضجعِ وأنتَ راقدٌ، والسكوتُ وأنتَ ناطقٌ، ومفارقةُ المألوفِ والوطنِ وأنتَ مستوطنٌ»[3] فيقالُ: وهذا أيضًا أثرٌ من آثارِ المحبةِ، وموجبٌ من موجباتِها، وحكمٌ من أحكامِها.

وهو صحيحٌ فإن المحبةَ توجبُ سفرَ القلبِ نحوَ المحبوبِ دائمًا، والمحبُّ[4] في وطنِه [قاطنٌ][5][6]، وتوجبُ مثولَه وقيامَه بين يديْ محبوبِه، وهو قاعدٌ، وتجافِيهِ عن مضجعِه ومفارقتِه إياه وهو فيه راقدٌ، وفراغَه لمحبوبِه بكلِّه[7]، وهو مشغولٌ في الظاهرِ

---

(١) في س: «تضمن».　　(٢) في س: «وقد قيل».

(٣) كتاب: «محاسن المجالس»، (ص/ ٩١).　　(٤) في س: «والمحبوب».

(٥) سقط من ك، س.

(٦) القُطُون: الإقامة بالمكان ولزومه وتوطنه ينظر: «العين» (٥/ ١٠٤)، و«الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧٥٠)، و«النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٨٥)، و«لسان العرب» (١٣/ ٣٤٢-٣٤٣)، و«القاموس» (٤/ ٢٦١).

(٧) في م: «كله».

بغيرِه. كما قال بعضُهم[١]:

وأُدِيمُ نَحْوَ مُحدِّثِي لِيَرَى ... أَنْ قَدْ عَقِلْتُ وعندَكُمْ عَقْلِي

وقال بعضُ المريدين[٢] لشيخِهِ: «أيسجدُ القلبُ بينَ يديّ اللهِ؟ فقال: نعم سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها إلى يومِ القيامةِ»[٣]. فهذهِ سجدةٌ متصلةٌ بقيامِه وقعودِه، وذهابِه ومجيئِه، وحركتِه وسكونِه، وكذلك[٤] يكونُ جسدُه في مضجعِه، وقلبُه قد قطع المراحلَ مسافرًا إلى حبيبِه، فإذا أخذَ مضجعَه اجتمَعَ [عليه][٥] حبُّه وشوقُه، فيهزُّه المضجعُ إلى سكنِه، كما قالَ تعالىَ [في حقِّ المحبِّين][٦]: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦][٧]» فلما تجافتْ قلوبُهم[٨] عن المضاجعِ؛ جافتِ[٩] الجنوبُ عنها، واستخدمتْها، وأمرتْها فأطاعتْها. وقال القائلُ[١٠]:

نَهارِي نَهارُ النَّاسِ حتَّى إذا بَدَا ... لِيَ اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إليكِ المضَاجِعُ

ويُحْكَى أن بعضَ الصالحين اجتازَ بمسجدٍ، فرأى الشيطانَ واقفًا ببابِه لا يستطيعُ دخولَه، فنظر، فإذا فيه رجلٌ نائمٌ، وآخرُ قائمٌ يُصلي. فقال له: أيمنعُك هذا المصلِّي من دخولِه؟ فقال: كلَّا؛ إنما يمنعُني ذلك الأسدُ الرابضُ، ولولا مكانُه لدخلتُ». وبالجملةِ فقلبُ المحبِّ دائمًا في سفرٍ لا ينقضي نحوَ محبوبِه، كُلما قطع مرحلةً ومنزلةً؛ تبدتْ له أُخرى، كما قيل:

---

(١) هو لمجنون ليلى، «ديوانه»، (ص/ ٢٣٤)، وفيه «قد فهمت» مكان «قد عقلت». وينظر: «الأغاني» للأصفهاني (٢/ ٣٧و٦٥)، و«المنتظم» لابن الجوزي (٦/ ١٠٨)، وعندهم «لَحْظ» مكان «نحو».

(٢) المريد عند الصوفية: هو الذي صح له الابتداء، وقد دخل في جملة المنقطعين إلى الله تعالى بالاسم وتشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولم يترسم بعدُ بحال ولا مقام، فهو في السير مع إرادته.

ينظر: «المعجم الصوفي» للحفني (٢٢٩)، و«معجم مصطلحات الصوفية»، د: أنور أبي خزام (١٦١).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢١/ ٢٨٧) و (٢٢/ ١٣٨)، و«مدارج السالكين» للمؤلف (١/ ٤٢٩)، عن سهل بن عبد الله التستري.

(٤) في م: «ولذلك». (٥) سقط من س. (٦) سقط من م.

(٧) في س زيادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣].

(٨) في م: «القلوب». (٩) في م: «تجافت».

(١٠) قيس بن ذريح، «ديوانه»، (ص/ ٥٠، ١٠٦)، وهو في «ديوان مجنون ليلى» (ص/ ١٢٧)، وانظر: «الأمالي» للقالي (٢/ ٣٢٠)، و«الأغاني» للأصفهاني (٢/ ٤٢) و (٩/ ٢٥٠)، و«المنتظم» لابن الجوزي (٦/ ١٠٢).

إذا قَطَعْن عَلَمًا بَدَا عَلَمْ[١]

فهو مسافرٌ[٢] بين أهلِهِ وظاعنٌ[٣] وهو في دارِه، وغريبٌ [وهو][٤] بين إخوانِه وعشيرتِه، يرى كلَّ أحدٍ عندَهُ، ولا يرى نفسَه عند أحدٍ؛ فقوةُ تعلقِ المحبِّ بمحبوبِه توجبُ له أن لا يستقرَّ قلبُه دونَ الوصولِ إليه، وكلما هدأتْ حركاتُه، وقلَّتْ شواغلُه؛ اجتمعتْ عليه شؤونُ قلبِه، وقَوِيَ سيرُه إلى محبوبِه، ومحكُّ هذهِ الحالِ يظهرُ في مواطنَ أربعةٍ:

أحدُهَا: عندَ أخذِ مضجَعِهِ

أحدُها: عند أخذِ مضجعِه وتفرُّغ حواسِّه وجوارحِه من الشواغلِ، واجتماعِ قلبِه على ما يحبُّه؛ فإنه لا ينامُ إلا على ذكرِ مَنْ يحبُّه وشغلِ قلبِه به.

الثاني: عند انتباهِهِ منَ النومِ

الموطنُ الثاني: عند انتباهِهِ من النومِ، فأولُ شيءٍ يسبقُ إلى قلبِه ذكرُ محبوبِه؛ فإنه إذا استيقَظَ وَرُدَّتْ إليه روحُه؛ رُدَّ معها إليه ذكرُ محبوبِه الذي كان قد[٥] غابَ عنه في النومِ، ولكن كان قد خالطَ روحَه وقلبَه، فلما رُدَّتْ إليه الروحُ أسرعَ من الطرفِ؛ رُدَّ إليه ذكرُ محبوبِه متصلًا بها، مصاحبًا لها. فوَرَد عليه قبل كلِّ واردٍ، وهجَمَ عليه قبلَ كلِّ طارقٍ، فإذا وردتْ عليه الشواغلُ والعوارضُ[٦]؛ وردَتْ على محلٍّ ممتلىءٍ بمحبةِ ما يحبُّه، فوردتْ على ساحتِه من ظاهرِها، فإذا قَضَى وطرَه منها؛ قضَاهُ بمصاحبتِه لما في قلبِه من الحبِّ؛ فإنه قد لزِمَهُ كملازمةِ الغريمِ لغريمِه، ولذلك يُسمَّى غرامًا وهو: الحبُّ اللازمُ الذي لا يفارقُ[٧]، فسمع بمحبوبِه، وأبصرَ به[٨]، وبطشَ به ومَشِي به، فصارَ محبوبُه في وجودِه في محلِّ سمعِه الذي يسمعُ به، وبصرِه الذي يُبصرُ به، ويدِه التي يبطشُ بها، ورجلِه التي يمشي بها[٩]. هذا مثلُ محبوبِه في وجودِه، وهو غيرُ

---

(١) بيت من مشطور الرجز، لجرير، وبعده: فهنَّ بحثًا كمُضلاتِ الخَدَمْ «ديوانه»، (ص/ ٤٢٤)، وانظر: «الأغاني» للأصفهاني (٨/ ١٨)، و«خزانة الأدب» للحموي (٥/ ١٦٥).

(٢) في م: «وهو».

(٣) الظعن: هو السير والذهاب. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧٣٢)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٧٠)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٥٦٦).

(٤) سقط من ع. (٥) في م: «قد كان». (٦) في ك، س: «والقواطع».

(٧) ينظر: «العين» (٤/ ٤١٨)، و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦١٧)، و«لسان العرب» (١٢/ ٤٣٦-٤٣٧) و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٤٧٥).

(٨) في س: «وأبصره».

(٩) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما** =

متحدٍّ به، بل هو قائمٌ بذاتِه مباينٌ له.

وهذا المعنى مفهومٌ بين الناسِ، لا ينكرُه منهم إلا غليظُ الحجابِ، أو قليلُ العلمِ ضعيفُ العقلِ، يجدُ محبوبَه قد استولى على قلبه وذِكْرِه، فيظنُّ أنه هو نفسُ ذاتِه الخارجةِ قد اتحدتْ به، أو[(١)] حلَّتْ فيه، فينشأُ من قسوةِ الأولِ وكثافتِه، وغلظِ حجابِه، وقلةِ علمِ الثاني ومعرفتِه، وضعفِ تمييزِه - ضلالُ الحلولِ[(٢)] والاتحادِ[(٣)]، وضلالُ الإنكارِ والتعطيلِ[(٤)] والحرمانِ، ويخرجُ من بين فرثِ هذا ودمِّ هذا لبنُ الفطرةِ

= **تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته»** رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، ح: (٦١٣٧)، وغيره.

(١) في ع: «إذ».

(٢) الحلول عند الصوفية: هو الزعم بأن الله ﷻ اصطفى أجسامًا حَلَّ فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية. ينظر: «المعجم الصوفي»، د: عبد المنعم الحفني (ص/٨١).

وقد ذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن الحلول نوعان: **أحدهما**: الحلول المعين، وهو كقول النصارى والغالية في الأئمة من الرافضة في المشايخ من جهال الفقراء والصوفية.

والثاني: الحلول المطلق، وهو: أن الله ﷻ بذاته حالٌّ في كل شيء، وهذا قول قدماء الجهمية. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٦٥-٤٦٦) و (١٠/ ٥٩)، و«التحفة العراقية» (٦٤).

(٣) الاتحاد: هو تصيير ذاتين واحدة، وهو حال الصوفي الواصل، وقيل: هو شهود وجود الحق الواحد المطلق من حيث إن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد، معدومة في أنفسها، لا من حيث إن لما سوى الله وجودًا خاصًّا به يصير متحدًا بالحق. تعالى الحق عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقيل: هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل به موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودًا به معدومًا بنفسه، لا من حيث إن له وجودًا خاصًّا اتحد به؛ فإنه محال. ينظر: «معجم اصطلاحات الصوفية» عبد الرزاق الكاشاني (ص/ ٤٩)، و«المعجم الصوفي»، د: عبد المنعم الحفني (ص/ ١١). وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية الاتحادية قسمين:

الأول: الاتحاد المقيد، وهو قول النصارى، والغلاة من الرافضة والنساك وغيرهم.

الثاني: الاتحاد المطلق، وهو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، ثم قال: «فهذا تعطيل للصانع وجحود له، وهو جامع لكل شرك» «مجموع الفتاوى»: (١٠/ ٥٩).

(٤) التعطيل في اللغة مأخوذ من «العَطَل» وهو خلو يد المرأة من القلائد ونحوها من الحلي، فأصله في الحلي ويستعمل في الخلو والفراغ من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحَجّ: ٤٥] أي: تركت فلا تُورَدُ ولا يسقى منها. وهو في الشرع: جحد أسماء الرب، أو صفاته، أو شيء منها، أو شيء من معانيها =

الأولى[١] خالصًا سائغًا للشَّاربينَ.

الموطنُ الثالثُ: عند دخولِهِ الصلاةَ

الموطنُ الثالثُ: عند دخولِه في الصلاةِ، فإنها محكُّ الأحوالِ، وميزانُ الإيمانِ، بها يوزنُ إيمانُ الرجلِ، ويتحققُ حالُه ومقامُه ومقدارُ قربِه من اللهِ ونصيبُه منه؛ فإنها محلُّ المناجاةِ والقربةِ، ولا واسطةَ فيها بين العبدِ وبين ربِّه، فلا شيءَ أقرُّ لعينِ المحبِّ، ولا ألذُّ لقلبِه، ولا أنعمُ لعيشِه منها، إن كان محبًّا فإنه لا شيءَ آثرُ عند المحبِّ، ولا أطيبُ له من خلوتِه بمحبوبِه، ومناجاتِه له، ومثولِه بين يديهِ، قد أقبلَ بقلبِه على محبوبِه، وقد أقبل محبوبُه عليه، وكان قبل ذلك مُعذَّبًا بمقاساةِ الأغيارِ، ومواصلةِ الخلقِ، والاشتغالِ بهم، فإذا قام إلى الصلاةِ، هرب من سوى اللهِ إليه، وأوى عنده، واطمأن بذكرِه، وقرَّتْ عينُه بالمثولِ بين يديهِ ومناجاتِه، فلا شيءَ أهمُّ إليه من الصلاةِ، كأنه في سجنٍ وضيقٍ وغمٍّ[٢] حتى تحضرَ الصلاةُ، فيجدَ قلبَه قد انفسحَ وانشرحَ واستراحَ كما قال النبيُّ ﷺ [لبلالٍ][٣]: **«يا بلالُ، أرحْنا بالصلاةِ»**[٤] ولم يقلْ: أرِحْنا منها، كما يقولُ المبطلون الغافلون.

وقال بعضُ السلفِ: «ليس بمستكمِلِ الإيمانِ من لم يزلْ في همٍّ وغمٍّ حتى تحضرَ الصلاةُ فيزولُ همُّه وغمُّه»[٥] أو كما قال. فالصلاةُ قرةُ عيونِ المحبِّين، وسرورُ أرواحِهم، ولذةُ قلوبِهم، وبهجةُ نفوسِهم، يحمِلُون همَّ الفراغِ منها إذا دخلُوا فيها، كما يحملُ الفارغُ البطَّالُ همَّها حتى يقضيَها بسرعةٍ، فلهم فيها شأنٌ وللنقارين شأنٌ، يشكون إلى اللهِ سوءَ صنيعِهم بهم إذا ائتمُّوا بهم، كما يشكو الغافلُ المعرضُ تطويلَ إمامِه، فسبحان من فاضلَ بين النفوسِ، وفاوتَ بينها هذا التفاوتَ العظيمَ.

= ويدخل تحت هذا فِرق كثيرة. ينظر: «العين» (٩/٢)، و«لسان العرب» لابن منظور (١١/ ٤٥٤)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٣٣٥)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٨٦)، و«نهاية الإقدام في علم الكلام» للشهرستاني (١٢٣-١٣٠)، و«مقالة التعطيل» و«الجعد بن درهم» د: محمد التميمي (١٣).

(١) في م: «الأزلي».

(٢) في م: «وهَمٍّ وغم».

(٣) سقط من م. وهو: بلال بن رباح الحبشي، اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد، فأعتقه فلزم النبي ﷺ، وأذن له، وشهد المشاهد كلها. توفي بالشام سنة (٢٠)هـ. ينظر: «الاستيعاب» (١/ ١٧٨)، و«أسد الغابة» (١/ ٢٨٣)، و«الإصابة» (١/ ٣٢٦).

(٤) رواه أبو داود، ح (٤٩٨٥)، وأحمد (٥/ ٣٦٤و٣٧١) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٤١)، ح (٤١٧١).

(٥) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٦٠٦).

وبالجملةِ فمن كانتْ قرةُ عينِه في الصلاةِ؛ فلا شيءَ أحبُّ إليه وأنعمُ[١] عنده منها وبِودِّه[٢] أن لو قطع عمرَه بها غيرَ مشتغلٍ بغيرِها، وإنما يُسلِّي نفسَه إذا فارقَهَا بأنه سيعودُ إليها عن قربٍ، فهو دائمًا يثوبُ إليها، ولا يقضي منها وطرًا، فلا يزنُ العبدُ إيمانَه ومحبتَه للهِ بمثلِ ميزانِ الصلاةِ؛ فإنها الميزانُ العادلُ، الذي وزنُه غيرُ عائلٍ.

الموطنُ الرابعُ: عند الشدائدِ

الموطنُ الرابعُ: عند الشدائدِ والأهوالِ، فإنَّ القلبَ في هذا الموطنِ لا يذكرُ إلا أحبَّ الأشياءِ إليه، ولا يهربُ إلا إلى محبوبِه الأعظمِ عنده. ولهذا كانوا يفتخرون بذكرِهم من يحبونه عند الحربِ[٣] واللقاءِ، وهو كثيرٌ في أشعارِهم، كما قال[٤]:

ذَكَرْتُكِ والخَطِّيُّ يَخْطِرُ بَيْننا ... وقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا المُثَقَّفةُ السُّمْرُ

وقالَ غيرُه[٥]:

ولَقَدْ ذَكَرْتُكِ[٦] والرِّمَاحُ كأنَّها ... أَشْطَانُ بِئرٍ في لَبَانِ[٧] الأَدْهَمِ

وقد جاء في بعضِ الآثارِ: يقولُ تبارك وتعالى: «**إن عبدِي - كلَّ عبدِي - الذي يذكرُني وهو ملاقٍ قرنَه[٨]**»[٩] **والسرُّ في هذا. واللهُ أعلمُ. أن عند معاينةِ[١٠] الشدائدِ والأهوالِ يشتدُّ خوفُ القلبِ من فواتِ أحبِّ الأشياءِ إليه، وهي حياتُه التي لم يكنْ يؤثرُها إلا لقربِه من محبوبِه، فهو إنما يحبُّ حياتَه لتنعمِه بمحبوبِه، فإذا خافَ فوتَها؛ بَدَرَ إلى قلبِه ذكرُ المحبوبِ الذي يفوتُ بفواتِ حياتِه. ولهذا - واللهُ أعلمُ - كثيرًا ما**

---

(١) في م: «ولا أنعم». (٢) في ك، س: «ويود». (٣) في س: «الحروب».

(٤) أبو عطاء السندي، ينظر: «الكامل في التاريخ» (١٠/ ٨٦)، و«مغني اللبيب»، لابن هشام (٥٥٧)، و«ديوان الحماسة» لأبي تمام (١/ ١٢)، «شرح التبريزي» (١/ ٣٠)، و«تزيين الأسواق»، لداود الأنطاكي (٢/ ٢٠٧) و«ديوان الصبابة»، لأحمد بن حجلة (ص/ ٢٢١).

(٥) عنترة بن شداد، في «ديوانه»، (ص/ ٢١٦)، و«الكتاب» لسيبويه (٢/ ٢٤٦)، و«مثلثات قطرب» (ص/ ٥٣) و«أسماء خيل العرب وفرسانها»، لمحمد بن زياد الأعرابي (١٢٠)، و«سر صناعة الإعراب» لابن جني (٤٠٣) وفيها: «يدعون عنتر والرماح كأنها. . .» والأشطان: جمع شَطن وهو الحبل الطويل الشديد الفتل. واللُّبان: الصدر. والأدهم: اسم فرسه، ينظر: كتاب «المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ١٠٣). وينظر: «العين» (٦/ ٢٣٦)، و (٨/ ٣٢٦)، و«الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧٢٥، ١٧٥٨).

(٦) في ع: «رأيتك». (٧) في ك، س: «لباب». (٨) في س: «قرينه».

(٩) رواه الترمذي، ح (٣٥٨٠)، قال الترمذي: حديث غريب. . . وليس إسناده بالقوي، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»، (ص/ ٤٧٢).

(١٠) في ك، س: «مصائب».

يعرضُ للعبدِ عند موتِه لهجُه بما يحبُّه وكثرةُ ذكرِه له، وربما خرجتْ روحُه وهو يلهجُ به».

و [قد][(١)] ذكر ابنُ أبي الدنيا[(٢)] في كتابِ «المحتضرين»[(٣)]، عن زفرَ[(٤)] رَحِمَهُ اللَّهُ أنه جعلَ يقولُ عند موتِه: لها ثلاثةُ أخماسِ الصداقِ، لها ربُعُ الصداقِ، لها كذا حتى ماتَ لامتلاءِ قلبِه. رَحِمَهُ اللَّهُ. من [محبةِ][(٥)] الفقهِ والعلمِ.

مَنِ اشتغلَ بذكرِ الله ومحبتِهِ حال حياتِهِ وَجَدَ ثمارَ ذلك عند مماتِهِ

وأيضًا فإنه عند الموتِ تنقطعُ شواغلُه وتتعطلُ حواسُّه، فيظهرُ ما في القلبِ، ويقوى سلطانُه، فيبدو ما فيه من غيرِ حاجبٍ ولا مدافعٍ. وكثيرًا ما سُمِعَ من بعضِ المحتضرين عند الموتِ: شاه مات، وسُمِعَ من آخرَ بيتُ شعرٍ لم يزلْ يغنِّي به حتى مات، وكان مغنيًّا، وأخبرني رجلٌ عن قرابةٍ له أنه حضرَهُ عند الموتِ. وكان تاجرًا يبيعُ القماشَ. قال: فجعل يقولُ: هذهِ قطعةٌ جيدةٌ، هذهِ على قدرِك، هذهِ مشتراها رخيصٌ تساوي كذا وكذا، حتى مات. والحكاياتُ في هذا[(٦)] كثيرةٌ جدًّا.

فمن كان مشغولًا باللهِ وبذكرِه ومحبتِه في حالِ حياتِه؛ وجدَ ذلك أحوجَ ما هو إليه عند خروجِ روحِه إلى اللهِ، ومن كان مشغولًا بغيرِه في حالِ حياتِه وصحتِه، فيعسرُ عليه اشتغالُه باللهِ وحضورُه معه عند الموتِ، ما لم تدركْه عنايةٌ من ربِّه، ولأجلِ هذا [كان][(٧)] جديرًا[(٨)] بالعاقلِ أن يُلزِمَ قلبَه ولسانَه ذكرَ اللهِ حيثما كان، لأجلِ تلك اللحظةِ التي إن فاتتْه شقي شقاوةَ الأبدِ. فنسألُ اللهَ أن يعينَنا على ذكرِه وشكرِه وحسنِ عبادتِه.

فَصْلٌ

تعاريفُ أخرى للمحبةِ

وقد قيل في المحبةِ حدودٌ كثيرةٌ غيرُ ما ذكره أبو العباسِ[(٩)]؛ فقيل: «المحبةُ ميلُ

---

(١) سقط من ك، س. (٢) سبقت ترجمته.

(٣) (ص/١٧٨-١٧٩)، رقم (٢٤٩)، بنحوه.

(٤) زفر بن الهذيل بن قيس بن أسلم العنبري، أبو الهذيل، فقيه كبير من أصحاب أبي حنيفة، جمع بين العلم والعبادة، وهو أحد العشرة الذين دَونوا الكتب، ت (١٥٨)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (١/٣٤٢)، و«السير» (٨/٣٨)، و«الأعلام» (٣/٤٥)، و«مقدمة كتاب الإمام زفر وآرائه الفقهية» د: عطية الجبوري (١/٤٩)، وما بعدها.

(٥) سقط من ع. (٦) في م: «المعنى». (٧) سقط من م.

(٨) في م: «جديرٌ». (٩) سبقت ترجمته.

القلبِ إلى محبوبِه»[١]. وهذا الحدُّ لا يعطي تصورَ حقيقةِ المحبةِ؛ فإنَّ المحبَّةَ أعرفُ عندَ القلبِ من الميلِ. وأيضًا فإنَّ الميلَ لا يدلُّ على حقيقةِ المحبةِ؛ فإنها أخصُّ من مجردِ ميلِ القلبِ[٢]؛ إذ قد يميلُ قلبُ العبدِ إلى الشيءِ ولا يكونُ محبًّا له؛ لمعرفتِه بمضرتِه له، فإن سُمِّيَ هذا الميلُ[٣] محبةً؛ فهو اختلافُ عبارةٍ.

وقيل: «المحبةُ: علمُ المحبِّ بجمالِ المحبوبِ ومحاسنِه»[٤]. وهذا حدٌّ قاصرٌ؛ فإنَّ العلمَ بجمالِه ومحاسنِه هو السببُ الداعي إلى محبتِه، فعبر عن المحبةِ بسببِها.

وقيل: «المحبةُ تعلقُ القلبِ بالمحبوبِ»[٥].

وقيل: «انصبابُ القلبِ إلى المحبوبِ»[٦].

وقيل: «سكونُ القلبِ إليه»[٧].

وقيل: «اشتغالُ القلبِ بالمحبوبِ بحيثُ لا يتفرغُ قلبُه لغيرِه»[٨].

وقيل: «المحبةُ بذلُ المجهودِ في معرفةِ محبوبِك، وبذلُ المجهودِ في مرضاتِه»[٩].

وقيل: «هيمانُ[١٠] القلبِ عند ذكرِ المحبوبِ»[١١].

وقيل: «شجرةٌ تنبتُ في القلبِ تُسقى بماءِ الموافقةِ[١٢]، وإيثارِ رضى

---

(١) ينظر: «التعرف لمذهب التصوف» للكَلاَباذي (١٠٩)، و«الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢١)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ١٦٥)، وهو للجنيد.

(٢) في م: «الميل». (٣) في ع: «الدليل».

(٤) ينظر نحوه في كتاب: «مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب» لابن الدباغ، (ص/ ٢١).

(٥) ينظر نحوه في «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٧٩)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ١٦٥).

(٦) ينظر «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ١٦٥).

(٧) ينظر نحوه في «قوت القلوب» للمكي (٢/ ١٠٦و١٣٤)، ولعلي بن سهل نحوه، ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (١٨٨).

(٨) ينظر نحوه لذي النون، في «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٧٠).

(٩) ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي، (ص/ ٣٤٤)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٨٣)، و«الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢٤)، وهو: لأبي الحسن البوشنجي.

(١٠) في م، ك، س: «هيجان».

(١١) ينظر: «اللمع» للطوسي، (ص/ ٩٤).

(١٢) في م: «المراقبة».

المحبوبِ»[(١)].

وقيل: «المحبةُ حفظُ الحدودِ، فليس بصادقٍ من ادعى[(٢)] محبةَ اللهِ ولم يحفظْ حدودَه»[(٣)].

وقيل: «المحبةُ إرادةٌ لا تنقصُ بالجفاءِ، ولا تزيدُ بالبرِّ»[(٤)].

وقيل: «[(٥)] فطامُ الجوارحِ عن استعمالِها في غيرِ مرضاةِ المحبوبِ»[(٦)].

وقيل: «المحبةُ هي السخاءُ بالنفسِ للمحبوبِ»[(٧)].

وقيل: «المحبةُ أن لا يزالَ على قلبِك[(٨)] رقيبٌ من المحبوبِ لا يمكنُك من الانصرافِ عنه أبدًا»[(٩)].

وأنشدَ في ذلك[(١٠)]:

أَبَتْ غَلَبَاتُ الشَّوقِ إلا تَقَرُّبًا ... إليكِ ويَأْبى العُذلُ إلا تَجَنُبا
وما كان صَدِّي عَنكِ صَدَّ مَلامةٍ ... ولا ذَلكَ الإعرَاضُ إلا تَقَرُّبَا
وما كان ذاك العَذْلُ إلا نَصِيحةً ... ولا ذَلكَ الإغْضَاء إلا تَهَيُّبَا
عليَّ رقِيبٌ مِنكِ حَلَّ بِمُهْجَتِي ... إذا رُمْتُ تَسهِيلاً عليَّ تَصَعَّبَا

وقيل: «المحبةُ سقوطُ كلِّ محبةٍ من القلبِ سوى محبةِ حبيبِك»[(١١)].

وقيل: «المحبةُ صدقُ المجاهدةِ في أوامرِ اللهِ، وتجريدُ المتابعةِ لسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ»[(١٢)].

---

(١) ينظر «طبقات الصوفية» للسلمي، (ص/١٩٣)، «و«حلية الأولياء»» (١٠/ ٢١٤)، وهو لأبي العباس بن مسروق الطوسي.

(٢) في س: «الداعي».

(٣) القائل: يحيى بن معاذ، ينظر: «الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢٢).

(٤) ينظر نحوه في «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٨٣)، و«الرسالة القشيرية» (٣٢٢) ليحيى بن معاذ.

(٥) في م: «المحبة فطام. . .».

(٦) ينظر نحوه ليحيى بن معاذ: «الرسالة القشيرية» (٣٣٠).

(٧) ينظر نحوه ليحيى بن معاذ: «الرسالة القشيرية» (١٦٦).

(٨) في م، ك، س: «عليك».

(٩) لم أقف عليه في ما تيسر لي من مراجع.

(١٠) لم أجدها في ما اطلعت عليه من مراجع.

(١١) هو لمحمد بن الفضل الفراوي، «الرسالة القشيرية» (٣٢٣).

(١٢) ينظر نحوه لسهل بن عبد الله كما في «اللمع» للطوسي، (ص/ ٨٧).

وقيل: «المحبةُ أن لا يفترَ من ذكرِه، ولا يملَّ من حقِّه، ولا يأنسَ بغيرِه»[١]

وقال أبو يزيدَ[٢]: «المحبةُ استقلالُ الكثيرِ من نفسِك، واستكثارُ القليلِ من حبيبِك»[٣].

وقيل: «المحبةُ أن يميتَك حبيبُك وتحيا به»[٤].

وقال أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ[٥]: «المحبةُ أن تَهبَ كلَّكَ لمن أحببتَ، فلا يبقي لك منك شيءٌ»[٦].

وقيل: «أن تمحوَ من قلبِك ما سوى المحبوبِ[٧]»[٨].

وقيل: «المحبةُ نسيانُ حظِّك من محبوبِك، وفقرُك[٩] بكلِّك إليه»[١٠].

---

(١) ينظر نحوه لذي النون، كما في «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٤٦١).

(٢) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى البسطامي، أحد مشايخ الصوفية، قال ابن كثير: «وقد حكي عنه شطحات ناقصات، وقد تأولها كثير من الفقهاء والصوفية وحملوها على محامل بعيدة، وقد قال بعضهم: إنه قال ذلك في حال الاصطلام والغيبة، ومن العلماء من بدّعه وخطّأه وجعل ذلك من أكبر البدع وأنها تدل على اعتقاد فاسد كامن في القلب ظهر في أوقاته والله أعلم»، وتوفي سنة (٢٦١)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٤٣٩)، و«السير» (١٣/ ٨٦)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٣٨).

(٣) ينظر: «الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢١).

(٤) سُئل الجنيد بن محمد عن التصوف فقال: «أن يميتك الحق عنك ويحييك به». ينظر: «الرسالة القشيرية» (٢٨٠)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن عديم الحلبي (١٠/ ٤٦١٧).

(٥) محمد بن المبارك بن يعلى، القرشي الصوري القلانسي، أبو عبد الله، حافظ فقيه، مفتي دمشق، قال عنه ابن معين: كان شيخ دمشق بعد أبي مسهر، وقال أبو داود: كان رجل الشام بعد أبي مسهر. توفي بدمشق سنة (٢١٥)اهـ.

ينظر: «السير» (١٠/ ٣٩٠)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٨٣).

(٦) ينظر: «الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢١)، و«روضة التعريف بالحب الشريف» لابن الخطيب السلماني (١/ ٣٨٠)، و«غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية» لابن عباد الرندي (٢/ ١٦١).

(٧) في س: «المحبة».

(٨) لدلف الشبلي، ينظر «الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢١)، و«روضة التعريف بالحب الشريف» لابن الخطيب السلماني (١/ ٣٨٠).

(٩) في ع: «أو فقرك».

(١٠) ينظر نحوه في «الرسالة القشيرية» (٣٢٢)، لأبي يعقوب السوسي.

وقال النصرُ أباذي[١]: «المحبةُ مجانبةُ السلو على كلِّ حالٍ»[٢].

وقال الحارثُ بنْ أسدٍ[٣]: «المحبةُ ميلُك إلى المحبوبِ بكليتِك، ثم إيثارُك له على نفسِك وروحِك ومالِك، ثم موافقتُك له سرًّا وجهرًا، ثم علمُك بتقصيرِك في حبِّه»[٤].

وقيل: «المحبةُ سُكْرٌ لا يصحو[صاحبُه][٥] إلا بمشاهدةِ المحبوبِ»[٦].

وقيل: «المحبةُ إقامتُك[٧] بالبابِ على الدوامِ»[٨].

وقيل: «الحبُّ[٩] حرفان: حاءٌ وباءٌ، فالحاءُ: الخروجُ عن الروحِ، وبذلُها للمحبوبِ والباءُ: الخروجُ عن البدنِ، وصرفُه في طاعةِ المحبوبِ»[١٠].

وقال أبو عمرُ الزجاجيُّ[١١]: . . . .

---

(١) إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه الخرساني النصر أباذي النيسابوري، أبو القاسم، شيخ الصوفية بنيسابور، كان عالمًا بالحديث، كثير الرواية، توفي بمكة سنة (٣٦٧)هـ. ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٣٦٢)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ١٦٩)، و«السير» (١٦/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «الرسالة القشيرية»، (ص/ ٣٢٣).

(٣) الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي، شيخ الصوفية، له كتب كثيرة في الزهد، وفي أصول الديانة، والرد على المخالفين من المعتزلة، والرافضة، وغيرهما، قال الذهبي: «المحاسبي كبير القدر، وقد دخل في شيء يسير من الكلام، فنقم عليه، وورد أن الإمام أحمد أثنى على حال الحارث من وجه، وحذر منه».
ينظر: «تاريخ بغداد» (٨/ ٢١١)، «وفيات الأعيان» (١/ ٢٢٠)، و«السير» (١٢/ ١١٠).

(٤) «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٨٣)، و«الرسالة القشيرية» (٣٢٤)، و«حدائق الحقائق» لزين الدين الرازي (١٦١).

(٥) سقط من ك، س.

(٦) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص/ ٣٢٥) و«حدائق الحقائق» لزين الدين الرازي (١٦١).

(٧) في م: «إقامة».

(٨) في «الرسالة القشيرية» (ص/ ٣٢١): «قال أحمد بن عطاء: المحبة إقامة العتاب على الدوام».

(٩) في ك، س «المحبة».

(١٠) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص/ ٣٢٨).

(١١) محمد بن إبراهيم بن يوسف بن محمد الزجاجي، نيسابوري الأصل، صَحِبَ أبا عثمان، والجنيد والنوري، ورويمًا، وإبراهيم الخواص، وغيرهم، دخل مكة، وأقام بها، وصار شيخها، حتى توفي بها سنة (٣٤٨)هـ.
ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي، (ص/ ٤٢٣)، و«الرسالة القشيرية» (٤١٦)، و«الطبقات الكبرى» للشعراني (١٦٨).

«سألتُ الجنيدَ[١] عن المحبةِ، فقال: تريدُ الإشارةَ؟ قلت: لا. قال: تريدُ الدعوى؟ قلت: لا، قال: فأيش[٢] تريدُ؟ قلت: عينَ المحبةِ. فقال: أن تحبَّ ما يحبُّ اللهُ في عبادِه، وتكرهُ ما يكرهُه اللهُ في عبادِه»[٣].

وقيل: «المحبةُ: معيةُ القلبِ والروحِ مع المحبوبِ معيةً لا تفارقُه؛ فإنَّ المرءَ مع من أحبَّ»[٤].

لا توصفُ المحبةُ بأوضحَ من لفظِهَا

وقد قيل فيها[٥] حدودٌ أكثرُ من هذا، وكلُّ هذا تَعنٍ. ولا توصفُ المحبةُ، ولا تُحَدُّ بحدٍّ أوضحَ من المحبةِ، ولا أقربَ إلى الفهمِ من لفظِها. وأما ذكرُ الحدودِ والتعريفاتِ فإنما يكونُ عند حصولِ الإشكالِ والاستعجامِ على الفهم، فإذا زالَ الإشكالُ، وعُدِمَ الاستعجامُ؛ فلا حاجةَ إلى ذكرِ الحدودِ والتعريفاتِ، كما قال بعضُ العارفين: «كلُّ[٦] لفظ يعبرُ به عن الشيءِ فلا بدَّ أن يكونَ ألطفَ وأرقَّ منه. والمحبةُ ألطفُ وأرقُّ من كلِّ ما يعبرُ به عنها»[٧].

فصل

هل المحبةُ لها صيغةٌ يعبرُ بها عنها

قال أبو العباس[٨]: «وقال قومٌ: ليس للمحبةِ صيغةٌ يعبرُ بها عن حقيقتِها؛ فإن الغيرةَ من أوصافِ المحبةِ، والغيرةَ تأبى إلا التسترَ والاختفاءَ، وكلُّ من بسطَ لسانَه بالعبارةِ عنها والكشفِ عن سرِّها، فليس له منها ذوقٌ، وإنما حرَّكه وجدانُ الرائحةِ، ولو ذاقَ منها شيئًا، لغابَ عن الشرحِ والوصفِ. والمحبةُ[٩] لا تظهرُ على المحبِّ بلفظِه، وإنما تظهرُ عليه بشمائلِه ونحولِه، ولا يفهمُ حقيقتَها من المحبِّ[١٠] سوى المحبوبِ،

(١) الجنيد: سبقت ترجمته. (٢) في س: «فأي شيء».
(٣) ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي، (ص/ ١٣٥)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٨١).
(٤) ينظر نحوه: «الرسالة القشيرية» (٣٢٨). (٥) في ك، س: «في المحبة».
(٦) في ك: «إن كل...».
(٧) ينظر نحوه: في «قوت القلوب» في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي (٢/ ١٣٢)، و«طبقات الصوفية» للسلمي (١٦٠)، و«الرسالة القشيرية» (١٩٦)، و«روضة التعريف بالحب الشريف» لابن الخطيب السلماني (١/ ٣٥٥)، وهو لسمنون بن حمزة.
(٨) أبو العباس بن العريف: سبقت ترجمته. (٩) في ك، س: «فإن المحبة».
(١٠) في م: «المحبة».

لموضعِ امتزاجِ الأسرارِ من القلوبِ، كما قيل[١]:

تُشِيرُ فَأَدْرِي مَا تَقولُ بِطَرَفِها وأُطْرِقُ [طَرفي][٢] عِنْدَ ذَاكَ فَتَعلمُ
تَكَلَّمُ مِنَّا في الوجُوهِ عُيونُنَا فنحنُ سُكوتٌ والهَوى يَتَكَلَّمُ»[٣]

قلت: كلُّ معنَى فله صيغةٌ تعبرُ به عنه، ولا سيما إذا كانَ[٤] من المعاني المعروفةِ للخاصِّ والعامِّ. ولكنَّ العبارةَ قد تكونُ كاشفةً للمعنى مطابقةً له، كلفظِ الدرهمِ والخبزِ والماءِ واللبنِ ونحوها، وهي أكثرُ الألفاظِ، وقد يكونُ المعنى فوق ما يشيرُ إليه اللفظُ ويعبرُ عنه، وهو أجلُّ من أن يدلَّ لفظُه على كمالِ ماهيتِه، وهذا كأسماءِ الربِّ تبارك وتعالى وأسماءِ كتابِه. وكذلك اسمُ الحبِّ؛ فإنه لا يكشفُ اسمُه مسمَّاه، بل مسمَّاه فوق لفظِه، وكذلك اسمُ الشوقِ والعشقِ والموتِ والبلاءِ ونحوها.

وقد يكونُ المعنى دونَ اللفظِ بكثيرٍ، واللفظُ أجلُّ منه وأعظمَ. وهذا[٥] كلفظِ الجوهرِ الفردِ الذي هو عبارةٌ عن أقلِّ شيءٍ وأصغرِه وأدقِّه وأحقرِه، فليس معناه على قدرِ لفظِه[٦]. وإذا عرف هذا فقولُهم: «ليس للمحبةِ صيغةٌ يعبرُ بها عن حقيقتِها» المرادُ به أن لفظَها لا يفهمُ حقيقةَ معناها[٧]، ومعناها فوق ما يفهمُ من لفظِها. وقولُه: «الغيرةُ[٨] من أوصافِ المحبةِ، وهي تأبى إلا التسترَ والاختفاءَ» هذا كلامٌ في حكمِ المحبةِ ومقتضاها لا في حقيقتِها ومعناها. والمحبُّون متباينُون في هذا الحكمِ، فمنهم مَنْ يجعلُ الغيرةَ من لوازمِ المحبةِ وعلامةِ ثبوتِها وتمكنِها، ويجعلُ نداءَ المرءِ عليها وبسطَ لسانِه بالإخبارِ بها دليلًا على أنه دعي فيها، وأنَّ ما معه منها رائحتُها لا حقيقتُهَا، وحقيقتُها تأبى إلا التسترَ والكتمانَ.

---

(١) القائل هو: العباس بن الأحنف، «ديوانه»، (ص/ ٢٧٣)، غير أنه قال: «تحدث عنا في الوجوه...» مكان «تكلم منا...»، وانظر: «روضة التعريف بالحب الشريف» لابن الخطيب (١/ ٣٨١)، من غير نسبة، وفيه: «فتفهم» مكان: «فتعلم».

(٢) سقط من ك، س.

(٣) كتاب «محاسن المجالس» (ص/ ٩١).

(٤) في ك، س: «كانت».

(٥) في ك، س: «وهذا هو».

(٦) ينظر تفصيل تعريف الجوهر الفرد في «مقالات الإسلاميين» للأشعري (٢/ ٨)، و«التعريفات» للجرجاني (ص/ ١٠٨)، و«الموسوعة العربية الميسرة» (١/ ٦٧٣). وهو يطلق في لغة العرب على كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به، «لسان العرب» (٤/ ١٥٢).

(٧) في س: «ومعنا».

(٨) في ك: بياض بمقدار كلمة.

طريقةُ الملامتيةِ

وهذهِ طريقةُ الملامتيةِ[١]. كما قيل[٢]:

لا تُنكِري جَحْدِي هَواكِ فإنَّما ذَاكَ الجحُودُ عليهِ سِترٌ مُسبَلُ

ولهذا قيل: «المحبةُ كتمانُ[٣] الإرادةِ، وإظهارُ الموافقةِ»[٤]، وهذهِ الطائفةُ رأت أن كمالَ المحبةِ بكتمانِها لأسبابٍ عديدةٍ:

الأول

أحدُها: أن الحبَّ كلما كان مكتومًا، كان أشدَّ وأعظمَّ سريانًا وسكونًا في أجزاءِ القلبِ كلِّها، كما قيل: «الحبُّ أقتلُه أكتمُه»[٥]، فإذا أفشاه المحبُّ وأظهرَهُ وباحَ به ونادىَ عليه؛ ضعُفَ أثرُه، وصارَ عُرْضَةً للزوالِ.

الثاني: الحبُّ كنزٌ من الكنوزِ

الثاني: أن الحبَّ كنزٌ من الكنوزِ، بل هو أعظمُ الكنوزِ المودعةِ في سرِّ العبدِ وقلبِه، فلا طريقَ للصوصِ عليه، فإذا باحَ به، ونادى عليه؛ فقد دلَّ قطاعَ الطريقِ واللصوصَ على موضعِ كنزِه، وعرَّضهم لسلبِه منه؛ فإنَّ النفوسَ غيارةٌ مغيرةٌ، تغارُ على المحبوبِ

---

(١) الملامتية: فرقة صوفية أنشأها حمدون القصَّار، المتوفى سنة (٢٧١)هـ، قالوا برفع التكاليف، وحاربوا تشوف النفس بمداومة الملامة لها، لا يظهر عليهم من تقواهم شيء، ويخفون عبادتهم وطاعتهم وتقربهم إلى الله عن أعين الناس، ويكتمون العبادة كما يكتم العاصي المعاصي، كل هذا مخافة رضا النفس وكبرها ومدح الناس أو الرياء، فلم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر ألبتة، بل يجدون لذة في كتمانهم وعدم اطلاع الناس عليهم، ينظر: «الرسالة القشيرية» (٤٢٦)، و«التعريفات» للجرجاني (٢٩٥)، و«المعجم الصوفي» (٢٣٩) و«الموسوعة الصوفية» (٣٧٢)، كلاهما لـ د: عبد المنعم الحفني، و«المعجم الصوفي»، د: سعاد الحكيم، (ص/ ١٠٠٤)، و«مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ١٧٧).

(٢) لم أجده. (٣) في ع: «كمال».

(٤) قال أبو علي أحمد الروذباري: «المحبة الموافقة»، ينظر: «الرسالة القشيرية» للقشيري (٣٢١)، وقال ابن يزدانيار: «المحبة: أصلها الموافقة، والمحب هو الذي يؤثر رضى محبوبه على كل شيء» ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٣٠٨)، وقال القشيري (ص/ ٣٢٨): وكالإجماع من إطلاقات القوم أن المحبة هي الموافقة».

(٥) قال عبد الله بن محمد الراسبي: «المحبة إذا ظهرت افتضح فيها المحب، وإذا كُتِمت قتلت المحب كَمدًا» «طبقات الصوفية» للسلمي (٣٨٠).

وقال أسامة بن منقذ، «ديوانه»، (ص/ ٨٤):

وإعلانُهم للهوى فاضِحٌ قتولٌ وكِتمانُهم أقتَلُ
وإنْ جَحَدوا الحبَّ خوفَ الوُشَا ة أقرَّتْ بهِ أدمعٌ تهملُ

وجاء في كتاب «التعرف لمذهب التصوف»، للكلاباذي، (١١٠):

وكُفَّ طَرفي إلا عنْ رِعَايتهِ والحبُّ يُعمي وفيهِ القتلُ إنْ كُتِما

أن يشاركَها في حبِّه أحدٌ. فإذا غارت عليه أغارت على القلوبِ التي فيها حبُّه، فانتزعتْه منه. وهذهِ الآفةُ قد ابتلي بها كثيرٌ من السالكين، [الذين هم في الحقيقةِ قطاعُ الطريقِ على السالكين][(١)] إلى اللهِ، وسَوَّلت لهم أنفسُهم أن هذهِ غيرةٌ منهم على محبوبِهم أن تحبَّه[(٢)] مثلُ هذهِ النفوسِ المتلوثةِ بالدنيا، وغرَّتهم أنفسُهم ومنَّتْهم أنهم يغارون[(٣)] على اللهِ.

ويحولون[(٤)] بين تلك النفوسِ وبين محبَّتِه[(٥)]، فغاروا، وأغاروا، ونهبوا واستلبوا. وهذهِ الطريقةُ عند المحبِّين المخلصين أولياءِ اللهِ الدَّاعين إلى اللهِ؛ عداوةٌ للهِ في الحقيقةِ ومعاونةٌ للشيطانِ، وقعودٌ على[(٦)] طريقِ اللهِ المستقيمِ الذي خلقَ عبادَه لأجلِه وأمرهم به. فالحذرُ من هؤلاءِ القطاعِ اللصوصِ حَمَلَ أهلَ المحبةِ على المبالغةِ في كتمانِها، وإظهارِ التخلي منها بأسبابٍ يلامون عليها ظاهرًا، وقلوبُهم مغمورةٌ بالمحبةِ مأهولةٌ بها[(٧)]. وهذا الذي ظنُّوه غيرةً هو من تلبيسِ الشيطانِ وخدعِه لهم ومكرِهِ بهم، وإنما هو حسدٌ حملهم على أن فعلوه[(٨)] وقالوا به وسمَّوه غيرةً[(٩)].

وإنما[(١٠)] غيرةُ المحبين للهِ أن يغارَ أحدُهم لمحارمِ اللهِ إذا انتُهِكَتْ، فيغارَ للهِ، لا على اللهِ كما قال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ اللهَ يغارُ، وإن المؤمنَ يغارُ، وغيرةُ اللهِ أن يأتيَ العبدُ ما**

---

(١) سقط من م. (٢) في ك، س: «يُحب». (٣) في ع: «يغاروا».

(٤) في ع: «يحولوا». (٥) في ك: «المحبة». (٦) في م: «عن».

(٧) للمزيد في مسألة: كتمان المحبة وإخفائها، ينظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ١٣٠) وما بعدها.

(٨) في م، ك: «يعدوه».

(٩) وقد ذكر شيخ الإسلام عن هذه الغيرة عندهم أنها: «حسد وكبر يسمونه غيرة، فيحب أحدهم أن لا يشركه غيره في التقرب إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، ويريدون أن يسموا ذلك باسم حسن؛ لئلا يُذَمُّوا عليه ويسمونه غيرة؛ لأن من عادة البشر إذا أحب أحدهم إنسانًا محبة طبيعية، سواء كانت محبته محرمة كمحبة الأمرد والمرأة الأجنبية، أو غير محرمة كمحبة أم - أنه ببشريته يغار من أن يشاركه في ذلك أحد فجعلوا محبتهم لله بمنزلة هذه المحبة، وهذا من أعظم الجهل والظلم، بل محبة الله من شأنها أن يحب العبد أن جميع المخلوقات يشركونه في ذلك، كما قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه»**.

ينظر: «الاستقامة» (٢/ ٤٢-٤٣). وللمزيد في مبحث الغيرة، ينظر: «مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ٤٢) وما بعدها، و«روضة المحبين» للمؤلف (٢٩٤) وما بعدها.

(١٠) في س: «وإنما الغيرة غيرة...».

حرَّم عليه»[١].

فغيرةُ المحبِّ هي الموافقةُ [لغيرةِ محبوبِه][٢]، وهي أن يغارَ مما يغارُ منه المحبوبُ، وأما إذا كان المحبوبُ يحبُّ من يحبُّه، وهذا يغارُ ممن يحبُّه[٣]، فهو في الحقيقةِ ساعٍ في خلافِ مرادِ محبوبِه وفي إعدامِ ما يحبُّه محبوبُه، فأين هذا من الغيرةِ المحبوبةِ للهِ؟ وإنما هذهِ غيرةٌ من أخيه المسلمِ، كيف خصَّه اللهُ بعطائِه وألْبَسَهُ ثوبَ نعمائِه، فهي غيرةٌ منه، لا غيرةٌ على اللهِ، فإن اللهَ لا يغارُ عليه، بل يغارُ له. وسنفردُ. إن شاء اللهُ - للغيرةِ فصلًا نذكرُ فيه أقسامَها وحقيقتَها[٤].

الثالثُ: المحبةُ تستدعي شغلَ القلبِ بالمحبوبِ

الثالثُ: أن المحبةَ التامَّةَ تستدعي شغلَ القلبِ بالمحبوبِ، وعدمَ تفرغِه للشرحِ والوصفِ، فلو صدقتْ محبتُه؛ لاستغرقَ فيها عن شرحِ حالِه ووصفِه، فهذهِ طريقةُ هؤلاءِ، ومنهم من يجعلُ تهتكَه وبوحَه بها، وإعلانَه[٥] لها من تمامِها وقوتِها، ومن علاماتِ قهرِها له وأنها غلبتْ على سرِّه حتى لم يطقْ صبرُه كتمانَها، كما قال النوريُّ[٦]: «المحبةُ هتكُ الأستارِ، وكشفُ الأسرارِ»[٧]. فهذا حالُ النوريِّ وأضرابِه.

وعند هؤلاءِ: التكتمُ[٨] ضعفٌ في المحبةِ وجورٌ فيها، وحقيقتُها أنَّ تخلِّيَها ومقتضاها من ظهورِ آثارِها على الجوارحِ والبدنِ، فإنْ أثَّرَتْ حركةً لم يسكنْها، وإن أثَّرَتْ دمعةً لم يرسلْها[٩]، وإن أثَّرَتْ تنفسًا لم يكظمْه، وإن أثَّرَتْ بذلًا وإيثارًا لم يمسكْه.

---

(١) رواه البخاري، ح (٤٩٢٥)، وليس فيه: «**وإن المؤمن يغار**» ومسلم، ح (٢٧٦١)، والترمذي، ح (١١٦٨)، وأحمد (٢/ ٣٤٣)، (٣٨٧)، (٥١٩)، (٥٣٦)، (٥٣٩) عن أبي هريرة. رضي الله عنه. وعن ابن مسعود. رضي الله عنه.، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه**». رواه البخاري، ح (٤٣٥٨)، ومسلم ح (٢٧٦٠)، وغيرهما.

(٢) سقط من م. (٣) في س: «ممن يحبه الله».

(٤) وقد أفرد المؤلف.رحمة الله عليه. بابًا مستقلًّا في الغيرة. ينظر: «روضة المحبين» (٢٩٤-٣١٥)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٢-٥٠).

(٥) في ك، س: «وإعلامه».

(٦) أحمد بن محمد الخرساني البغوي النوري، أصله من خرسان، شيخ الصوفية في العراق، صحب سري السقطي وكان الجنيد يعظمه، وقد كان مشهورًا بكثرة العبادة، توفي سنة (٢٩٥)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ١٣٠)، و«السير» (١٤/ ٧٠)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١١٣).

(٧) ينظر: كتاب: «اللمع» للطوسي (٨٧)، و«الرسالة القشيرية» (٣٢٤).

(٨) في م: «الكتم». (٩) في ع، ك، س: «يمسكها».

وكمالُ المحبةِ عندهم: أن تنادى عليه أعضاؤه وألفاظُه وألحاظُه وحركاتُه وسكناتُه بالحبِّ نداءً لا يملكُ إنكارَه. وقال عليُّ بنُ عبيدٍ(١): كتبَ يحيى بنُ معاذٍ(٢) إلى أبي يزيدَ(٣): «سكرتُ من كثرةِ ما شربتُ من كأسِ محبتِه».

فكتبَ إليه أبو يزيدَ: غيرُك شربَ بحورَ السمواتِ والأرضِ وما روي بعدُ، ولسانُه خارجٌ، وهو يقولُ: هلْ من مزيدٍ؟»(٤). فلم يرَ هذان العارفان التكتمَ(٥) بها وإخفاءَها وجحدَها، وهما هما.

وكان الأستاذُ أبو علي الدقاقُ(٦) ينشدُ كثيرًا:

لي سَكْرَتَانِ وللنَّدمَان واحِدَةٌ شَيء خُصِصتُ بهِ مِنْ بَينِهم وَحْدِي(٧)

وجاء رجلٌ إلى عبدِ اللهِ بن منازلٍ(٨) فقال: «رأيتُ في المنامِ كأنك تموتُ إلى سنةٍ. فقال عبدُالله: لقد أجَّلْتِنَي إلى [أجلٍ](٩) بعيدٍ، أعيشُ إلى سنةٍ؟! [لقد كان لي](١٠) أنسٌ ببيتٍ سمعتُه من أبي عليٍّ(١١):

---

(١) هو علي بن عبيد السمهداني، ينظر: «الحلية» (١٠/ ٤٠).

(٢) يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، أبو زكريا، أحد مشايخ الصوفية، أصله من الري، له مواعظ مشهورة أقام ببلخ، وتوفي بنيسابور سنة (٢٥٨)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٠٨)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٢٨٥)، و«السير» (١٣/ ١٥).

(٣) أبو يزيد: سبقت ترجمته.

(٤) ينظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٤٠)، و«الرسالة القشيرية» (٣٢٥).

(٥) في م: «الكتم».

(٦) الحسن بن علي الدقاق النيسابوري، أبو علي، كان يعظ الناس، ويذكرهم، وكان يتكلم على الأحوال والمعرفة، توفي سنة (٤١٢)هـ. ينظر: «البداية والنهاية» (١٢/ ١٤).

(٧) البيت لأبي نواس، «ديوانه» (٢٧)، وفيه: «لي نشوتان». وينظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٥/ ٣٣٨)، ونسبه في «الرسالة القشيرية» (٣٤٩)، وفي «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٧١)، للشبلي دلف بن جَحْدر.
ذكره القشيري في «الرسالة» (٣٢٦).

(٨) في م: «بن المبارك» وهو تصحيف، سيأتي بيانه. وهو: عبد الله بن محمد بن مُنازل، أبو محمد الصوفي، من أجل مشايخ نيسابور، له طريقة يتفرد بها صحب حمدون القصار، وكان عالمًا بعلوم الظاهر، كتب الحديث الكثير، ورواه، توفي بنيسابور سنة (٣٢٩)هـ، ينظر: «طبقات الصوفية»، ص: (٣٦٦)، و«الرسالة القشيرية» (٤٣٥)، و«الأعلام» (٤/ ١٢٠).

(٩) سقط من ع.

(١٠) سقط من ك، وفي س: «لقد كان أنس...».

(١١) أبو علي الثقفي، محمد بن عبد الوهاب النيسابوري، لقي أبا حفص النيسابوري، وحمدون القصار =

يا مَن شَكَا شَوقَهُ مِنْ طُولِ فُرقَتِهِ اصبِرْ لَعلَّك تَلقى مَنْ تُحِبُّ غَدًا»[١]

وقال الشبليُّ[٢]: «المحبُّ إذا سَكتَ هلَكَ، والعارفُ[٣] إن لم يسكتْ هلَكَ»[٤].

والتحقيقُ: أن هذا هو حالُ المتمكنِ في حبِّه، الذي:

التحقيقُ في كتمانِ المحبةِ

تزولُ الجبالُ الراسياتُ وقلبُهُ على الودِّ لا يَلوِي ولا يتغير[٥]

والأولُ حالُ المريدِ المبتدئِ الذي قد علقتْ نارُ المحبةِ في قلبِه، ولم يتمكنِ اشتعالُها، فهو يخافُ عليها عواصفَ الرياحِ[٦] أن تطفِئَها، فهو يخبئُها، ويكتمُها[٧]، ويسترُها من الرياحِ جهدَه، فإذا اشتعلتْ، وتمكن وقودُها في القلبِ؛ لم تزدْها كثرةُ الرياحِ إلا وقودًا واشتعالًا. فهذا يختلفُ باختلافِ الناسِ وتفاوتِهم في قوةِ المحبةِ وضعفِها.

والمقصودُ: أن من بسطَ لسانَه بالعبارةِ عنها، والكشفِ عن سرِّها وأحكامِها؛ لن

= وبه ظهر التصوف بنيسابور، توفي سنة (٣٢٨)هـ. ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٣٦١)، و«الرسالة القشيرية» (٤٠٢)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبه (٢/ ١١٨)، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي (١/ ٣١٥).

(١) ينظر «الرسالة القشيرية» (٣٣٠)، وفيه عن عبد الله بن المبارك، وهو تصحيف؛ إذ أن ابن المبارك توفي سنة (١٨١)هـ فكيف يسمع من أبي علي الثقفي المتوفى سنة (٣٢٨)هـ؟!.

(٢) دُلَف بن جَحْدر، وقيل: ابن جعفر، وقيل: جعفر بن يونس، الشبلي البغدادي، خرساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، من مشايخ الصوفية، كان فقيهًا عالمًا بمذهب مالك، توفي ببغداد سنة (٣٣٤)هـ، انظر: «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٨٩)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٣٢٣)، و«السير» (١٥/ ٣٦٧).

(٣) العارف عند الصوفية: من أشهده الله على ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، فهتك الحُجُبَ بينه وبين مولاه، وله مرآة إذا نظر فيها تجلى له بها مولاه، فالمعرفة حال تحدث من شهوده، والعارف لا يكون عارفًا إلا إذا كان أشد الخلق تحيرًا بالخالق، وقال إسحاق النهرجوري: «لا يصل العارف إلى ربه إلا بقطع القلب عن ثلاثة أشياء: العلم، والعمل، والخلق»، ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٢٨٨)، و«الرسالة القشيرية»: (٣١١)، و«معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (١٢٤)، و«المعجم الصوفي» للحفني: (١٦٥)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأنور أبي خزام (١١٧).

(٤) ينظر: «الرسالة القشيرية» (٣٢٤)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٦٠).

(٥) ذكره المؤلف في «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢٠)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٢٧)، من غير نسبة.

(٦) في س: «الريح».

(٧) في ع: «يكمنها»، وفي م: «يَلُمُّها».

يُؤْمَنَ أن يكونَ من أهلِ العلمِ بالمحبةِ، لا من المتَّصفِين بها حالًا[١]، فكم بين العلمِ بالشيءِ والاتصافِ به ذوقًا[٢] وحالًا؛ فَعِلمُ المحبةِ شيءٌ ووجودُها في القلبِ شيءٌ، وكثيرٌ من المحبين الذين قد امتلأت قلوبُهم محبةً لو سُئل عن حَدِّها وأحكامِها وحقيقتِها لم يطقْ أن يعبرَ عنها، ولا يتهيأ له أن يصفَها ويصفَ أحكامَها، وأكثرُ المتكلمين فيها إنما تكلَّمُوا فيها بلسانِ العلمِ لا بلسانِ الحالِ، وهذا - واللهُ أعلمُ - هو معنى قولِ بعضِ المشايخِ: «أعظمُ الناسِ حجابًا عن اللهِ أكثرُهم إليه إشارةً»[٣]؛ فإنه إنما حظُّه منه الإشارةُ إليه، لا عكوفُ القلبِ عليه؛ كالفقيرِ الذي دأبُه وصفُ الأغنياءِ وأموالِهم ووصفُ الدنيا وممالكِها، وهو خلوٌّ من ذلك.

ولا ريبَ أن وجودَ الحبِّ في القلبِ وتركَ الكلامِ [فيه][٤] علمًا خيرٌ من كثرةِ الكلامِ في هذهِ المسألةِ وخلوِّ القلبِ منها. وخيرٌ من الرجلين مَنِ امتلأ قلبُه منها حالًا و ذوقًا، وفاضتْ على لسانِه إرشادًا وتعليمًا ونصيحةً للأمةِ. فهذا حالُ الكُمَّلِ من الناسِ. واللهُ المسؤولُ من فضلِه وكرمِه.

قولُه: «والمحبةُ لا تظهرُ على المحبِّ بلفظِه، وإنما تظهرُ عليه بشمائلِه ونحولِه»[٥] هذا حقٌّ؛ فإنَّ دِلالةَ الحالِ على المحبةِ أعظمُ من دِلالةِ القالِ[٦] عليها، بل الدلالةُ عليها في الحقيقةِ هو شاهدُ الحالِ لا صريحُ المقالِ. ففرقٌ بين من يقولُ لك بلسانِه: إني أحبُّك، ولا شاهدَ عليه من حالِه، وبين من هو ساكتٌ لا يتكلمُ، وأنت ترى شواهدَ

---

(١) الحال عند الصوفية: ما يرد على القلب أو يحل به من كرب، أو حزن، أو بسط، أو قبض، وتسمى الحال بالوارد، ولذا قالوا: لا وِرد لمن لا وارد له، وقيل: الأحوال: هي المواهب الفائضة على العبد من ربه، إما واردة عليه ميراثًا للعمل الصالح المزكي للنفس، المصفي للقلب، وإما نازلة من الحق تعالى امتنانًا محضًا، وسميت الأحوال أحوالًا؛ لحلول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الحقية ودرجات القرب، ينظر: «الرسالة القشيرية» (٥٧)، و«معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (٨١)، و«التعريفات» للجرجاني (١١٠-١١١)، و«المعجم الصوفي» للحفني (٧١).

(٢) الذوق: سبق التعريف به.

(٣) ينظر نحوه لأبي يزيد البسطامي: «طبقات الصوفية» للسلمي (٧٣)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ٣٨)، وكذا نحوه لذي النون المصري: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٩/ ٣٥٣)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٥/ ٣٥٤).

(٤) سقط من س.

(٥) كتاب: «محاسن المجالس» (ص/ ٩١).

(٦) في م، س: «المقال».

أحوالِه كلُّها ناطقةً بحبِّه لك.

قال جعفرٌ[١]: «قال الجنيدُ[٢]: دفع السريُّ[٣] إليَّ رقعةً وقال: هذهِ خيرٌ لك من سبعمائةِ قصةٍ[٤] وكذا وكذا، فإذا فيها:

ولما ادَّعيتُ الحُبَّ قالتْ كَذَبتَني ... فَمَا لي أَرى الأعضَاءَ مِنكَ كَواسِيَا
فما الحبُّ حتَّى يَلصقَ القَلبُ بالحَشَا ... وتَذبُلَ حتَّى لا تُجيبَ المُنَاديَا
وتَبخلَ حتَّى لا يُبقِي لَكَ الهوى ... سِوَى مُقلةٍ تَبكِي بِهَا وتُنَاجِيَا»[٥]

وبالجملةِ: فشاهدُ المحبةِ الذي لا يكذبُ هو شاهدُ الحالِ، وأما شاهدُ المقالِ فصادقٌ وكاذبٌ.

قولُه: «ولا يفهمُ حقيقتَها من المحبِّ[٦] سوى المحبوبِ؛ لموضعِ امتزاجِ الأسرارِ من القلوبِ»[٧] يعني أن حقيقةَ المحبةِ وسرَّها لا يفهمُه من المحبِّ إلا محبوبُه؛ وذلك لشدةِ الاتصالِ الذي بينه وبين محبوبِه في الباطنِ، فروحُه أقربُ شيءٍ إليه، وأما الغيرُ، وإن علم أنه محبٌّ بظهورِ أثرِ المحبةِ عليه، وقيامِ شاهدِها، لكن لا يدركُ[٨] تلك اللطيفةَ والحقيقيةَ التي يدركُها المحبوبُ من محبِّه[٩]؛ لموضعِ اتصالِ سرِّه به، وقربِ

---

(١) جعفر بن محمد بن نصير بن قاسم، أبو محمد الخواص البغدادي، المعروف بالخُلْدي، بغدادي المولد والمنشأ، شيخ الصوفية في وقته، وإليه المرجع في علومهم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم، توفي ببغداد سنة (٣٤٨)هـ. ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٣٢٦)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ٣٨١)، و«تاريخ بغداد» (٧/ ٢٢٦)، و«السير» (١٥/ ٥٥٨).

(٢) الجنيد: سبقت ترجمته.

(٣) السري بن المغَلِّس السقطي، أبو الحسن البغدادي، من كبار الصوفية، خال الجنيد وأستاذه وتلميذ معروف الكرخي، مشهور بالورع وكثرة العبادة، توفي سنة (٢٥٣)هـ، ينظر: «تاريخ بغداد» (٩/ ١٨٧)، «وفيات الأعيان» (١/ ٣٦٠)، و«السير» (١٢/ ١٨٥)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٥).

(٤) في م: «فضة»، وفي س: «هذه سهية فضة وكذا...».

(٥) ينظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٨٥)، و«الرسالة القشيرية» (٣٢٤)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٠/ ١٩٥)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٢/ ١٢٧)، ونسبت الأبيات عدا الثالث لمجنون ليلى، ينظر: «خزانة الأدب» للحموي (١/ ٤٢٤)، و«المستطرف» للأبشيهي (٢/ ٣٨٤-٣٨٥)، وذكرهما من غير نسبة ابن الخطيب في «روضة التعريف بالحب الشريف» (٢/ ٦٦٦).

(٦) في س: «المحبة».

(٧) كتاب «محاسن المجالس» (ص/ ٩١).

(٨) في ع: «يدري».

(٩) في م: «محبته».

ما بين الروحين، ولا سيَّما[(١)] إذا كانتِ المحبةُ من الطرفين، فهناك العجبُ، والمناجاةُ والملاطفةُ، والإشارةُ، والعتابُ، والشكوى، وهما ساكنان [(٢)] لا يدري جليسُهما [بعجيبِ][(٣)] شأنِهما.

فصــلٌ

قال: «وأما محبةُ العوامِّ فهي محبةٌ تُنْبِتُ من مطالعةِ المنةِ، وتثبتُ باتباعِ السنةِ، وتنمو على الإجابةِ للغايةِ، وهي محبةٌ تقطعُ الوسواسَ، وتُلَذِّذُ الخدمةَ، وتُسَلِّي عن المصائبِ وهي في طريقِ[(٤)] العوامِّ عمدةُ الإيمانِ»[(٥)].

تنقسمُ المحبةُ باعتبارِ الباعثِ عليها قسمَينِ

فيقالُ: لا ريبَ أن المحبةَ درجاتٌ متفاوتةٌ[(٦)]؛ بعضُها أكملُ من بعضٍ. فكلُّ درجةٍ خاصةٌ بالنسبةِ إلى ما تحتها، عامَّةٌ بالنسبةِ إلى ما فوقها، فليس انقسامُها إلى خاصٍّ وعامٍّ انقسامًا حقيقيًّا متميزًا بفصلٍ[(٧)] يميزُ أحدَ النوعين عن الآخرِ، وإنما تنقسمُ باعتبارِ الباعثِ عليها، وسببِها، وتنقسمُ بذلك إلى قسمين:

أحدُهما: محبةٌ تنشأُ من الإحسانِ، ومطالعةِ الآلاءِ والنعمِ، «**فإن القلوبَ جُبِلتْ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليها، وبغضِ مَنْ أساءَ إليها**»[(٨)]، ولا أحدٌ أعظمَ إحسانًا من اللهِ

(١) في ع: «لا سيما». (٢) في م: «ساكتان». (٣) سقط من ك، س.
(٤) في ك: «طريقة». (٥) كتاب «محاسن المجالس» لابن العريف، (ص/ ٩١).
(٦) في م: «متقاربة». (٧) في ك، س: «متميزًا بالنسبة بفصل...».
(٨) روي في حديث عن إسماعيل بن الخياط عن الأعمش عن خيثمة عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**إن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها**» رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٨٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٣٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٨١)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٧/ ٣٤٦)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٥٢٠)، وابن نقطة في «التقييد» (٢٩٨).
وإسماعيل الخياط قال فيه أحمد: «كتبت عنه ثم حدث بأحاديث موضوعة؛ فتركناه»، وقال البخاري ومسلم والنسائي والدارقطني: «متروك»، وقال ابن حبان: «يضع الأحاديث على الثقات»، وقال الحافظ ابن حجر: «منكر الحديث...» قال أبو الفتح الأزدي: «كوفي زائغ»، ينظر: «العلل المتناهية» (٢/ ٥٢١)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٣٦٨)، و«لسان الميزان» (١/ ٤٤٦)، و«تهذيب التهذيب» (١/ ٢٣٧).
وروي موقوفًا كما عند ابن حبان في «روضة العقلاء» (٢٤٣)، وهو من هذه الطريق، وعليه فهو موضوع مرفوعًا وموقوفًا. ينظر: «فيض القدير» للمناوي (٣/ ٣٤٥)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني (٢/ ٦٥-٦٦) ح (٦٠٠).

سبحانه؛ فإنَّ إحسانَه على عبدِه في كلِّ نَفسٍ ولحظةٍ، وهو يتقلبُ في إحسانِه في جميع أحوالِه ولا سبيلَ [له][1] إلى ضبطِ أجناسِ هذا الإحسانِ فضلًا عن أنواعِه أو عن[2] أفرادِه ويكفي أنَّ من بعضِ أنواعِه: نعمةَ النفسِ التي لا تكادُ تخطرُ ببالِ العبدِ، وله عليه في كلِّ يومٍ وليلةٍ فيه أربعةٌ وعشرون ألفَ نعمةٍ، فإنه يتنفسُ في اليومِ والليلةِ أربعةً وعشرين ألفَ نفسٍ[3].

نعمةُ النَّفْسِ

وكلُّ نَفَسٍ نعمةٌ منه سبحانه، فاذا كان أدنى نعمةٍ عليه في كلِّ يوم [وليلةٍ][4] أربعة وعشرين ألفَ نعمةٍ، فما الظنُّ بما فوق ذلك وأعظمُ منه؟! ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]، هذا إلى ما يُصْرَفُ عنه من المضراتِ وأنواعِ الأذى التي تقصدُه[5]، ولعلَّها توازي النعمَ في الكثرةِ، والعبدُ لا شعورَ له بأكثرِها أصلًا، واللهُ سبحانه يكلؤُه منها بالليلِ والنهارِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٢]، وسواءٌ كان المعنى: من يكلؤكم ويحفظُكم منه إذا أراد بكم سوءًا؟ ويكونُ ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ [الأنبياء: الآية ٤٢] مضمنًا معنى: يجيرُكم وينجيكم من بأسِه[6]، أو كانت (مَنْ) للبدليةِ[7]، أي: من يكلؤكم بدلَ الرحمنِ سبحانه؟[8] أي: هو[9] الذي يكلؤكم وحدَه لا كالئَ لكم غيرُه. ونظيرُ (مَنْ) هذهِ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾ [الزّخرُف: الآية ٦٠] على أحدِ القولين[10]، أي:

---

(١) سقط من م. (٢) في ع: «عن أنواعه وعن...».

(٣) جاء في «معجم الشيوخ» لمحمد بن أحمد الصيداوي (١/ ١١٤)، عن السدي أنه قال: «قرأت في الإنجيل: «ابن آدم أعطيتك ثلاث خصال ما لم تسلني...» ثم قال السدي: «الليل والنهار أربعة وعشرين ساعة يتنفس فيها ابن آدم ثلاثين ألف نفس، كل ساعة ألف نفس ومائتي وخمسين نفسًا».

(٤) سقط من ك، س.

(٥) قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرّعد: الآية ١١] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية ١١] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: الآية ١١].

(٦) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٣٩٣)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٤٥)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٥)، و«تفسير أبي السعود» (٦/ ٦٩)، و«روح المعاني» للآلوسي (١٧/ ٥١).

(٧) في م، ك، س: «البدلية». (٨) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٠). (٩) في م: «أي: هذا هو».

(١٠) تنظر الأقوال في «تفسير مجاهد» (٢/ ٥٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٥/ ٨٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» =

عوضكُم وبدلُكم[١].

واستشهد على ذلك بقولِ الشاعرِ[٢]:

جاريةٌ[٣] لم تأكُلِ المُرَقَّقَا ولم تَذُقْ مِنَ البُقُولِ الفُسْتُقا

أي: لم تأكلِ الفستقَ بدلَ البقولِ[٤]، وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعمٌ عليهم بكلاءتِهم وحفظِهم وحراستِهم مما يؤذيهم بالليلِ والنهارِ وحده، لا حافظَ لهم غيرُه. هذا مع غناه التامِّ عنهم، وفقرِهم التامِّ إليه؛ فإنه سبحانه غنيٌّ عن خلقِه من كلِّ وجهٍ وهم فقراءُ محتاجون اليه من كلِّ وجهٍ.

وفي بعضِ الآثارِ يقولُ تعالى: «**أنا الجوادُ ومن أعظمُ مني جودًا وكرمًا؟ أبيتُ أكلأُ عبادي في مضاجعِهم، وهم يبارزُونني بالعظائمِ**»[٥] وفي الترمذيِّ: أن النبيَّ ﷺ لما رأى

= للزجاج (٤/ ٤١٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٣٧٩)، و«تفسير الواحدي» (٢/ ٩٧٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٤٣)، و«البيان في غريب إعراب القرآن» لابن الأنباري (٢/ ٣٥٥)، و«زاد المسير» (٧/ ٣٢٥) و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٣).

(١) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٤١٧)، و«شرح ابن عقيل» (٣/ ١٨)، و«الأمالي» لابن الشجري (١/ ٥٥) و (٢/ ٢٧٣)، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٢٢٨)، و«اللباب في علل البناء والإعراب» للعكبري (١/ ٢٥٤)، وقيل: إن المعنى: لحوَّلنا بعضكم ملائكة فتكون (مِنْ) ابتدائية أو تبعيضية، و(ملائكة) مفعول ثان. ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٢٢٨)، و«روح المعاني» للآلوسي (٢٥/ ٩٣).

(٢) يعمر الراجز، أبو نخيلة، ينظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، (ص/ ٤٠٤)، وفيه: برِّية لم تأكل. . . . وأورده أبو عبد الله اللَّخْمي في «المدخل إلى تقديم اللسان وتعليم البيان» (٦٠) بلفظه، وابن عقيل في «شرحه لألفية ابن مالك» (٣/ ١٨)، وابن هشام في «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» (١/ ٤٢٢)، وابن منظور في «لسان العرب» (٩/ ١٥٧) و (١١/ ٦١)، والسيوطي في «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» (٢/ ٤٢٧) وفيها: «برِّية لم تأكل. . .».

(٣) في ك، س: «وجارية. . .».

(٤) قال الجوهري في «الصحاح» (٤/ ١٣٤٣) بعد ذكر البيت: «ظن هذا الأعرابي أن الفُسْتُقَ من البَقْل وهكذا يروى بالباء، وأنا أظنه بالنون؛ لأن الفستق من النَقْل وليس من البَقْل».
قال ابن هشام متعقبًا الجوهري: «والمعنى على قول الجوهري: إنها تأكل النقول إلا الفستق، وإنما المراد أنها لا تأكل إلا البقول؛ لأنها بدوية» «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» (٤٢٢).

(٥) أورده الديلمي في «الفردوس بمأثور» (٥/ ٢٤٧)، رقم (٨٠٩٢)، وفيه: «**يقول الله ﷻ: من أعظم مني جودًا؛ أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني....**» عن أنس رضي الله عنه.

السحابَ قال: «**هذهِ روايا الأرضِ يسوقُها [اللهُ]**[١] **إلى قوم لا يذكرونه، ولا يعبدونه**»[٢] وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «**لا أحدَ أصبرُ على أذىً يسمعُه**[٣] **من اللهِ؛ إنهم ليجعلون له الولدَ، وهو يرزقُهم ويعافيهم**»[٤] وفي بعضِ الآثارِ: «**يقولُ تعالى: ابنَ آدمَ؟ خيري إليكَ نازلٌ وشرُّك إليَّ صاعدٌ. [كم]**[٥] **أتحببُ إليك بالنعمِ وأنا غنيٌّ عنك. وكم تتبغضُ إليَّ بالمعاصي، وأنت فقيرٌ إليَّ. ولا يزالُ الملكُ الكريمُ يعرجُ إليَّ منكَ بعملٍ قبيحٍ**»[٦] ولو لم يكنْ مِنْ تحبُّبِه إلى عبادِه، وإحسانِه إليهم، وبرِّه بِهم إلا أنه سبحانه خلقَ لهم ما في السمواتِ والأرضِ[٧] وما في الدنيا والآخرةِ، ثم أهَّلَهم وكرَّمَهم، وأرسلَ إليهم رسلَه، وأنزلَ عليهم كتبَه، وشرعَ لهم شرائعَه، وأذن لهم في مناجاتِه كلَّ وقتٍ أرادوا، وكتب لهم بكلِّ حسنةٍ يعملونها عشرةً أمثالَها، إلى سبعمائةِ ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وكتب لهم بالسيئةِ واحدةً، فإن تابوا منها محاهَا وأثبت مكانَها حسنةً[٨]، وإذا بلغت ذنوبُ أحدِهم عنانَ السماءِ، ثم استغفره، غفرَ له، ولو لقيه بقرابِ

---

(١) سقط من م.

(٢) رواه الترمذي، ح (٣٢٩٨)، بلفظ: «**هذه روايا الأرض يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه**....»، وأحمد (٢/ ٣٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.، وضعفه الألباني: «ضعيف سنن الترمذي»، (ص/ ٤٢٢).

(٣) في س: «سمعه».

(٤) رواه البخاري، ح (٥٧٤٨)، وح (٦٩٤٣)، ومسلم، ح (٢٨٠٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٥) (٤٠١)، (٤٠٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) سقط من م.

(٦) أورده الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٥/ ٢٣٣)، عن علي رضي الله عنه. يقول الله عز وجل: «**ابن آدم، ما أنصفتني، أتحبب إليك بالنعم، وتتمقت إليَّ بالمعاصي، خيري منى عليك منزل، وشرُّك إليَّ صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني كل يوم وليلة بعمل قبيح**...» ورواه الرافعي في «أخبار قزوين» (٣/ ٤)، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (ص/ ١٩)، عن مالك بن دينار قال: «قرأت في بعض الكتب...» وذكر نحوه، وكذا أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٧)، وكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٤٠).

(٧) في ع: «وما في الأرض».

(٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فَمْن هَمَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها؛ كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها؛ كتبها الله له سيئة واحدة**» رواه البخاري، ح (٦١٢٦)، ومسلم، ح (١٣١)، وغيرهما.

الأرضِ خطايا، ثم لقيه بالتوحيدِ لايشركُ به شيئًا؛ لأتاه بقرابِها مغفرةً[١]، وشرع لَهُم التوبةَ الهادمةَ للذنوبِ، فَوَفَّقَهُم لفعلِها، ثم قَبِلَها منهم، وشرعَ لهم الحجَّ الذي يهدمُ ما قبلَه فوفقهُم لفعلِه، وكفَّر عنهم سيئاتِهم به[٢]، وكذلك ما شرعَهُ لهم من الطاعاتِ والقرباتِ هو الذي أمدَّهم بها وخلَقَها لهم وأعطَاهُم إيَّاهَا ورتَّبَ عليها جزاءَها؛ فمنه السببُ ومنه الجزاءُ، ومنه التوفيقُ، ومنه العطاءُ، أولًا وآخرًا، وهم محلُّ إحسانِه فقط، ليس منهم شيءٌ إنما الفضلُ كلُّه، والنعمةُ كلُّها والإحسانُ كلُّه منه أولًا وآخرًا؛ أعطى عبدَه مالَه، وقال: تقربْ بهذا إليَّ أقبلْه منك؛ فالعبدُ له، والمالُ له، والثوابُ منه، فهو المعطي أولًا وآخرًا، فكيف لا يُحَبُّ مَنْ هذا شأنُه؟ وكيف لا يَسْتَحِي العبدُ[٣] أن يصرفَ شيئًا من محبتِه إلى غيرِه؟ ومَنْ أَوْلى بالحمدِ والثناءِ والمحبةِ منه سبحانه؟ ومَنْ أَوْلى بالكرمِ، والجودِ، والإحسانِ منه؟ فسبحانه وبحمدِه، لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيمُ.

ويفرحُ سبحانه بتوبةِ أحدِهم إذا تاب إليه أعظمَ فرحٍ وأكملَه[٤]، ويكفرُ عنه ذنوبَه ويوجبُ له محبتَه بالتوبةِ، وهو الذي ألهمَهُ إيَّاهَا، ووفَّقَهُ لها، وأعانَهُ هو عليها[٥].

ومَلأَ سبحانه سماواتِه من ملائكتِه[٦]، واستعمَلَهُم في الاستغفارِ لأهلِ الأرضِ

---

(١) عن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى: يا بن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني؛ غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة»** رواه الترمذي، ح (٣٥٤٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٧٥)، ح (٢٨٠٥).

(٢) عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حج لله فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه»** رواه البخاري، ح (١٤٤٩) ومسلم، ح (١٣٥٠).

(٣) في م: «وكيف يليق بالعبد».

(٤) عن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانطلقت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح»** رواه مسلم، ح (٢٧٤٧)، وغيره.

(٥) في ع، م: «وأعانه عليها».

(٦) عن أبي ذر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أَطَّت السماء وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدًا، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم =**

واستعمل حملةَ العرشِ منهم في الدعاءِ لعبادِه المؤمنين، والاستغفارِ لذنوبِهم، ووقايتِهم عذابَ الجحيمِ، والشفاعةِ إليه بإذنِه أن يدخلَهم جناتِه[(١)]. فانظرْ إلى هذهِ العنايةِ وهذا الإحسانِ، وهذا التحننِ، والعطفِ[(٢)]، والتحبُّبِ إلى العبادِ، واللطفِ التامِّ بهم، ومع هذا كلِّه بعد أن أرسلَ[(٣)] إليهم رسلَه، وأنزلَ عليهم كتبَه، وتعرَّفَ إليهم بأسمائِه وصفاتِه وآلائِه، ينزلُ[(٤)] كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا، يسألُ عنهم، ويستعرضُ حوائجَهم بنفسِه، ويدعُوهم إلى سؤالِه، فيدعُوَ مسيئَهم إلى التوبةِ، ومريضَهم إلى أن يسألَه أن يشفيَه، وفقيرَهم إلى أن يسألَه غناه، وذا حاجتِهم يسألَه[(٥)] قضاءَها [كلَّ ليلةٍ][(٦)] ويدعوهم سبحانه إلى التوبةِ[(٧)]، وقد حاربُوه، وعذَّبوا أولياءَه، وحرَّقوهم بالنارِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البُرُوج: الآية ١٠][(٨)].

قال بعضُ السلفِ: «انظُروا إلى كرمِه؛ كيف عذَّبُوا أولياءَه، وحرَّقُوهم بالنارِ، ثم هو يدعُوهم إلى التوبةِ؟!»[(٩)]، فهذا البابُ يدخلُ منه كلُّ أحدٍ إلى محبتِه سبحانه، فإن نعمَه[(١٠)] على عبادِه مشهودةٌ لهم، يتقلبون فيها على عددِ الأنفاسِ واللحظاتِ. وقد روي في بعضِ الأحاديثِ مرفوعًا: «**أحِبُّوا اللهَ؛ لما يغذُوكم به من نعمِه، وأحبُّوني**

= **قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، لوددت أني كنت شجرة تُعضد**» رواه الترمذي، ح (٢٣١٢)، وحسنه الألباني دون قوله: «**لوددت..**»، «صحيح الترمذي» (٢/ ٢٦٨)، ح (١٨٨٢).

(١) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧- ٩].

(٢) في م: «والتعطف». (٣) في ع: «ومع هذا فقد أرسل...». (٤) في س: «ينزل إليهم...».

(٥) في م: «أن يسأله...». (٦) سقط من م.

(٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه من يستغفرني فأغفرَ له**» رواه البخاري، ح: (١٠٩٤)، ومسلم، ح (٧٥٨)، وغيرهما.

(٨) في ع، ك، س: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البُرُوج: الآية ١٠].

(٩) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٧٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٩) و (٤/ ٤٩٧)، كلاهما بنحوه عن الحسن البصري رحمه الله.

(١٠) في ك، س: «نعمته».

لحبِّ(١) اللهِ»(٢) فهذهِ محبةٌ تنشأُ من مطالعةِ المننِ والإحسانِ، ورؤيةِ النعمِ والآلاءِ(٣)، وكلما سافرَ القلبُ بفكرِه فيها؛ ازدادتْ محبتُه، وتأكدتْ، ولا نهايةَ لها فيقِفُ سفرُ(٤) القلبِ عندها، بل كلما [ازدادَ فيها نظرًا](٥)؛ ازدادَ فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبطِ القليلِ منها، فيستدلُّ بما عرفه على ما لم يعرفْه، واللهُ سبحانه دعا عبادَه إليه من هذا البابِ، حتى إذا دخلُوا منه دُعُوا من البابِ الآخرِ، وهو بابُ الأسماءِ والصفاتِ الذي إنما يدخلُ منه إليه(٦) خواصُّ عبادِه وأولياؤُهُ، وهو بابُ المحبِّينَ حقًّا، الذي لا يدخلُ منه غيرُهم، ولا يشبعُ من معرفتِه أحدٌ منهم، بل كلما بَدَا له منه علمٌ؛ ازداد شوقًا ومحبةً وظمأً. فإذا انضمَّ داعي الإحسانِ والإنعامِ إلى داعي الكمالِ والجمالِ؛ لم يتخلفْ عن محبةِ مَنْ هذا شأنُه إلا أردأُ القلوبِ، وأخبثُها وأشدُّها نقصًا، وأبعدُها من كلِّ خيرٍ؛ فإن اللهَ فطر القلوبَ على محبَّةِ المحسنِ الكاملِ في أوصافِه وأخلاقِه، وإذا كانت هذهِ فطرةَ اللهِ التي فَطَرَ عليها قلوبَ عبادِه؛ فمِنَ المعلومِ أنه لا [أحدَ](٧) أعظمُ إحسانًا منه سبحانه، ولا شيءَ أكملُ منه ولا أجملُ(٨)، فكلُّ كمالٍ وجمالٍ في المخلوقِ من آثارِ صنعِه سبحانه، وهو الذي لا يُحَدُّ كمالُه، ولا يُوصَفُ جلالُه وجمالُه، ولا يُحصي أحدٌ من خلقِه ثناءً عليه بجميلِ صفاتِه وعظيمِ إحسانِه، وبديعِ أفعالِه، بل هو كما أثنى على نفسِه(٩).

بابُ الأسماءِ والصفاتِ وهو القسمُ الثاني الباعثُ على المحبةِ

القلوبُ مفطورةٌ على محبةِ المحسنِ الكاملِ في أوصافِهِ

---

(١) في م: «يجب».

(٢) رواه الترمذي، ح (٣٧٨٩) عن ابن عباس، وقال: هذا حديث حسن غريب، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص/٥٠٩) ح (٧٩٢).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللَّهُ.:

«ومن المعلوم أن المشركين يحبون آلهتهم محبة قوية، كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٣] وهذا وإن كان يقال إنه: لما يظنونه فيهم من أنها تنفعهم، فلا ريب أن الشيء يُحب لهذا، ولهذا، ولكن إذا ظن أنه متصف بصفات الكمال، كانت محبته أشد، مع قطع النظر عن نفعه. والحديث الذي يروى: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي**» إسناده ضعيف؛ فإن الله يُحبُّ أن يُحبَّ لذاته، وإن كانت محبته واجبة لإحسانه». «منهاج السنة» (٥/ ٣٩٦).

(٤) في س: «صفر». (٥) سقط من س. (٦) في م: «يدخل إليه منه».

(٧) سقط من م. (٨) في م: «أجمل منه ولا أكمل».

(٩) عن عائشة. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه =

وإذا كان الكمالُ محبوبًا لذاتِه ونفسِه، وجَبَ أن يكونَ اللهُ سبحانه هو المحبوبَ لذاتِه وصفاتِه؛ إذ لا شيءَ أكملُ منه، وكلُّ اسمٍ من أسمائِه وصفةٍ من صفاتِه تستدعي محبةً خاصَّةً؛ فإنَّ أسماءَه كلَّها حسنى، وهي مشتقةٌ من صفاتِه[١]، وأفعالُه دالةٌ عليها؛ فهو المحبوبُ المحمودُ [لذاتِه، ولصفاتِه[٢]، وأفعالِه، وأسمائِه، فهو المحبوبُ المحمودُ][٣] على كلِّ ما فعل، وعلى كلِّ ما أمَرَ؛ إذ ليس في أفعالِه عبثٌ، ولا في أوامرِه سفهٌ؛ بل أفعالُه كلُّها لا تخرجُ عن الحكمةِ والمصلحةِ والعدلِ والفضلِ والرحمةِ[٤]، وكلُّ واحدٍ من ذلك يستوجبُ الحمدَ والثناءَ والمحبةَ [عليه[٥]، وأوامرُه كلُّها مصلحةٌ تستوجبُ الحمدَ[٦]، والمحبةَ][٧] عليها، وكلامُه كلُّه صدقٌ وعدلٌ، وجزاؤُه كلُّه فضلٌ وعدلٌ؛ فإنه إن أعطى فبفضلِه ورحمتِه ونعمتِه، وإن مَنَعَ أو عاقَبَ فبعدلِه وحكمتِه:

مَا للعِبَادِ عَليهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا ولا سَعيٌ لَديهِ ضَائعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعدلِه، أو نُعِّموا ... فبِفَضلهِ، وهُو الكَريمُ الواسعُ[٨]

ولا يتصورُ بشرٌ[٩] هذا المقامَ حقَّ تصورِه، فضلًا عن أن يوفِّيَه حقَّه، فأعرفُ خلقِه به

= وهو في المَسْجَد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**» رواه مسلم، ح (٤٨٦). المَسْجَد: المكان الذي يُسجَدُ فيه. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٢٠٤).

(١) في س: «وهي مشتقة من صفاته وأفعالِه، وأفعالهُ دالة...».

(٢) في ع، ك، س: «ولصفاته».

(٣) سقط من م.

(٤) قال المؤلف ﷺ في «شفاء العليل» (١٩٠): «الأصل الخامس أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا ولا لغير معنىً ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دلَّ كلامه وكلام رسوله ﷺ على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها» ثم ذكر بعض أنواع الأدلة، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة.

(٥) «وهذا لما في أفعاله من الغايات والعواقب الحميدة التي يستحق فاعلها الحمد، فهو يُحمد على نفس الفعل وعلى قصْد الغاية الحميدة به، وعلى حصولها، فهنا ثلاث أمور» «شفاء العليل» للمؤلف (٢٠٢).

(٦) في ع: «تستوجب الحمد والثناء والمحبة».

(٧) سقط من ك.

(٨) ذكر ابن الجوزي البيت الأول: «التذكرة في الوعظ» (١/ ٥٩)، وانظر البيتين في «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٩٦).

(٩) في ك، س: «نشر».

محبةُ الله من آثارِ صفاتِ كمالِهِ

وأحبُّهم له يقولُ: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك**»[١] ولو شهد [العبدُ][٢] بقلبِه صفةً واحدةً من أوصافِ كمالِه؛ لاستدعَتْ منه المحبةَ التامةَ عليها وهل مع المحبِّين محبةٌ إلا من آثارِ صفاتِ كمالِه، فإنهم لم يَرَوْهُ في هذهِ الدارِ، وإنما وصلَ إليهم العلمُ بآثارِ صفاتِه، وآثارِ صنعِه، فاستدلُّوا بما علمُوه على ما غابَ عنهم [وإلا][٣] فلو شاهدُوه ورأوا جلالَه وكمالَه وجمالَه[٤] سبحانه؛ لكانَ [لهم][٥] في حبِّه شأنٌ آخرُ، وإنما تفاوتتْ مراتبُهم في محبتِه على حسبِ تفاوتِ مراتبِهم في معرفتِه والعلمِ به.

فأعرفُهم له[٦] أشدُّهم حبًّا له، ولهذا كانت رسلُه - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم - أعظمَ الناسِ حبًّا له، والخليلان من بينهم أعظمَهُم حبًّا، وأعرفُ الأمةِ [به][٧] أشدُّ له حبًّا [من غيرِه][٨]، ولهذا[٩] كان المنكرون لحبِّه سبحانه من أجهلِ الخلقِ به، فإنهم منكرون لحقيقةِ الإلهيةِ، ولملةِ[١٠] الخليلين - صلى اللهُ عليهما وسلم - ولفطرةِ اللهِ التي فطرَ عبادَه عليها، ولو رجعُوا إلى قلوبِهم، لوجدوا حبَّه فيها، ووجدُوا معتقدَهم وبحثَهم يكذبُ فطرَهم، وإنما بُعِثَتِ الرسلُ بتكميلِ هذهِ الفطرِ[١١]، وإعادةِ ما فَسَدَ[١٢] منها إلى الحالةِ الأُولَى التي فُطِرَتْ عليها، وإنما دُعُوا إلى القيامِ بحقوقِها ومراعاتِها؛ لئلا تفسدَ وتنتقلَ عما خُلِقَتْ له.

وهلِ الأوامرُ والنواهي إلا خدمٌ[١٣] وتوابعُ ومكملاتٌ[١٤] ومصلحاتٌ لهذهِ الفطرةِ؟ وهل خلَق اللهُ سبحانه خلقَه إلا لعبادتِه التي هي غايةُ محبتِه والذلِّ له؟ وهل هُيِّئَ الإنسانُ إلا لها؟ كما قيل:

قَدْ هَيَّؤُوكَ لأَمرٍ لَو فَطنتَ لَهُ ... فاربأْ بِنَفسكِ أَنْ ترعى مَع الهَمَلِ[١٥]

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سقط من م، ك، س.
(٣) سقط من ك، س.
(٤) في م، ك، س: «وجماله وكماله».
(٥) سقط من ك.
(٦) في م: «به».
(٧) سقط من س.
(٨) سقط من ك.
(٩) في م: «وبهذا».
(١٠) في ك، س: «ولخلة».
(١١) في م، س: «الفطرة».
(١٢) في ك، س: «أفسد».
(١٣) في س: «خُدام».
(١٤) في ع: «وتكميلات».
(١٥) البيت لأبي إسماعيل الطُّغْرائي، وهو آخر بيت من قصيدته المشهورة بلامية العجم. ينظر: «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» لخليل بن أيبك الصفدي (٢/ ٤٣٨)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن عديم الحلبي (٦/ ٢٦٩٤)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ١٨٨).

محبةُ الله حقٌّ لا تزولُ ولا تبطلُ

وهل في الوجودِ محبةٌ حقٌّ غيرُ باطلةٍ إلا محبتُه سبحانه؟ فإنَّ كلَّ محبةٍ متعلقةٍ بغيرِه فباطلةٌ زائلةٌ ببطلانِ متعلقِها، وأما محبتُه سبحانه فهي الحقُّ التي لا تزولُ، ولا تبطلُ(١)، كما لا يزولُ متعلقُها، ولا يفنى، وكلُّ ما سوى اللهِ باطلٌ، ومحبةُ الباطلِ باطلٌ، فسبحان اللهِ كيف تُنْكَرُ المحبةُ الحقُّ التي لا محبةَ أحقُّ منها، ويُعْتَرَفُ بوجودِ المحبةِ الباطلةِ المتلاشيةِ؟! وهل تعلقتِ المحبةُ بموجودٍ محدثٍ إلا لكمالٍ في وجودِه بالنسبةِ إلى غيرِه؟ وهل ذلك الكمالُ إلا من آثارِ صنعِ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ؟ وهل الكمالُ كلُّه إلا له؟.

فكلُّ من أحبَّ شيئًا لكمالٍ مَا يدعُوه إلى محبتِه، فهو دليلٌ وعبرةٌ على محبةِ اللهِ، وأنه أَوْلى بكمالِ الحبِّ من كلِّ شيءٍ(٢).

كلُّ كمالٍ في الوجودِ دليلٌ على كمالِ مبدعِهِ

ولكن إذا كانتِ النفوسُ صغارًا كانت محبوباتُها على قدرِها، وأما النفوسُ الكبارُ الشريفةُ فإنها [إنما](٣) تبذلُ حبَّها لأجلِّ الأشياءِ وأشرفِها.

والمقصودُ أن العبدَ إذا اعتبر كلَّ كمالٍ في الوجودِ وَجَدَهُ من آثارِ كمالِه سبحانه فهو دالٌّ على كمالِ مُبدعِه، كما أن كلَّ علمٍ في الوجودِ فمن آثارِ علمِه، وكلَّ قدرةٍ فمن آثارِ قدرتِه. ونسبةُ الكمالاتِ الموجودةِ في العالمِ العلويِّ والسفليِّ إلى كمالِه كنسبةِ علومِ الخلقِ وقدرِهم وقواهم وحياتِهم إلى علمِه سبحانه وقدرتِه وقوتِه وحياتِه، فإذًا لا

---

(١) في س: «فهو الحق الذي لا يزول ولا يبطل».

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي تستوي أفراده؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كُلِّية تستوي أفرادها، ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية؛ لم يصلوا بها إلى يقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب؛ لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها، ولكن يُستعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلًا، أو شمولًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّحل: الآية ٦٠] مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وهو ما كان كمالًا للموجود غير مستلزم للعدم، فالواجب القديم أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق المربوب المعلول المدَبَّر فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره، فهو أحق به منه. وأن كل نقص وعيب في نفسه، وهو ما تضمن سلب هذا الكمال، إذا وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى». «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩٧).

(٣) سقط من ك.

نسبةَ أصلًا بين كمالاتِ العالمِ وكمالِ اللهِ ـ جلَّ جلالُه ـ، فيجبُ أن لا يكونَ بين محبَّتِه تعالى ومَحَبَّةِ غيرِه من الموجوداتِ نسبةٌ، بل يكونُ حبُّ العبدِ له أعظمَ من حبِّه لكلِّ شيءٍ بما لا نسبةَ بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] فالمؤمنون أشدُّ حبًّا لربِّهم ومعبودِهم تعالى من كلِّ محبٍّ لكلِّ محبوبٍ، هذا مقتضى عقدِ الإيمانِ الذي[١] لا يتمُّ إلا به.

أفرضُ مسألةٍ على العبدِ

وليستْ هذهِ المسألةُ من المسائلِ التي للعبدِ عنها غنىً، [أو منها بدٌّ، كدقائقِ][٢] العلمِ والمسائلِ التي يختصُّ بها بعضُ الناسِ دون بعضٍ؛ [بل][٣] هذهِ أفرضُ مسألةٍ على العبدِ، وهي أصلُ عقدِ الإيمانِ الذي لا يدخلُ فيه الداخلُ إلا بها[٤]، ولا فلاحَ للعبدِ ولا نجاة له من عذابِ اللهِ إلا بها، فليشتغلْ بها العبدُ أو ليعرضْ عنها، ومن لم يتحققْ بها علمًا وحالًا وعملًا؛ لم يتحققْ بشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ؛ فإنها سرُّها وحقيقتُها ومعناها، وإنْ أَبَى ذلك الجاحِدُون، وقصَّر عن علمِه الجاهلون؛ فإنَّ الإلهَ هو المحبوبُ المعبودُ[٥] الذي تألهُهُ القلوبُ بحبِّها، وتخضعُ له، وتذلُّ له وتخافُه، وترجُوه، وتنيبُ إليه في شدائدِها، وتدعوه في مهماتِها، وتتوكلُ عليه في مصالحِها، وتلجأُ إليه وتطمئنُّ بذكرِه، وتسكنُ إلى حبِّه، وليس ذلك إلا للهِ وحده؛ ولهذا كانت أصدقَ الكلامِ[٦]، وكان أهلُها أهلَ اللهِ وحزبَه، والمنكرون لها أعداءه وأهلَ غضبِه

«لا إله إلا الله» أصدقُ الكلامِ

---

(١) في س: «الذين». (٢) في م: «ومنها تُذكر دقائق». (٣) سقط من م.

(٤) عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»** .رواه البخاري، ح (١٦)، وح (٢١)، ومسلم، ح (٤٣)، وغيرهما.

(٥) في م: «المعبود المحبوب».

(٦) قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (٢٤/ ٣-٤) عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٣]، بعد أن ذكر الأقوال في هذه الآية: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ عَنَى بقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٣] كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق: هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائنًا من كان، مِن نبي الله وأتباعه» وقد رُوي عن ابن عباس أن الصدق في الآية: «لا إله إلا الله» وبه قال سعيد بن جبير. وينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٧٩)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٧/ ١٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤).

ونقمتِه. فهذهِ المسألةُ قطبُ رَحَى الدينِ الذي عليه مدارُه، وإذا صحتْ صحَّ بها كلُّ مسألةٍ وحالٍ[١] وذوقٍ[٢]، وإذا لم يصححْها العبدُ، فالفسادُ لازمٌ له في علومِه وأعمالِه وأحوالِه وأقوالِه، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ. فلنرجعْ إلى شرحِ كلامِه.

كلامُ ابنِ العريفِ عن محبةِ العوامِّ

فقولُه: وأما محبةُ العوامِّ فهي محبةٌ تنبتُ من مطالعةِ المنةِ»[٣] يعني أن لهذهِ المحبةِ منشأً وثبوتًا[٤]، ونموًّا. فمنشؤُها: الإحسانُ ورؤيةُ فضلِ اللهِ ومنتِه على عبدِه، وثبوتُها باتباعِ أوامرِهِ التي شرعَهَا على لسانِ رسولِه. ونموُّهَا - وهو زيادتُها-: يكونُ بإجابةِ العبدِ لدواعي فقرِه وفاقتِه إلى ربِّه، فكُلَّما[٥] دعاه فقرُه وفاقتُه إلى ربِّه أجاب هذا الداعيَ، وهو فقيرٌ بالذاتِ، فلا يزالُ فقرُه يدعُوه إليه، فإذا دامَ[٦] استجابتُه له بدوامِ الداعي؛ لم تزلِ المحبةُ تنمو[٧] وتتزايدُ، فكلما أخطرَ الربُّ تعالى في قلبِه خواطرَ الفقرِ والفاقةِ [إليه][٨]؛ بادر قلبُه بالإجابةِ والانكسارِ بين يديهِ؛ ذلًّا وفاقةً وحبًّا وخضوعًا، وإنما كانتْ هذهِ محبةَ العوامِّ عنده؛ لأن منشأَها من الأفعالِ، لا من الصفاتِ والجمالِ، ولو قطع الإحسانَ عن هذهِ القلوبِ لتغيرتْ، وذهبتْ محبتُها[٩] أو ضعفتْ؛ فإن[١٠] باعثَها إنما هو الإحسانُ «ومن ودَّك لأمرٍ ولَّى عند انقضائِه»[١١] فهو برؤيةِ الإحسانِ مشغولٌ، وبتوالي النعمِ عليه محمولٌ.

قولُه: «وهي محبةٌ تقطعُ الوسواسُ[١٢]، وتلذذُ الخدمةَ، وتُسَلِّي عن المصائبِ، وهي في طريقِ العوامِّ عمدةٌ للإيمانِ». إنما كانتْ هذهِ المحبةُ قاطعةً للوسواسِ لإحضارِ

(١) الحال: سبق التعريف به.
(٢) الذوق: سبق التعريف به.
(٣) كتاب «محاسن المجالس» (٩١).
(٤) في م: «وثباتًا».
(٥) في ع: «وكلما».
(٦) في م: «دامت».
(٧) في م: «تنمى».
(٨) سقط من س.
(٩) في س: «ومحبتها».
(١٠) في م: «لأن».
(١١) قد ورد ذكره (ص/ ١٨٩).
(١٢) الوسواس: (فِعْلَالٌ) من وسوس، وأصل الوسوسة: الحركة، أو الصوت الخفي، الذي لا يُحس فيحترز منه، فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد، ومن هذا وسوسة الحلي، وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر - والله تعالى أعلم - أنها سُميت وسوسة؛ لقربها وشدة مجاورتها لمحلِّ الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن، فقيل: وسوسة الحلي؛ لأنه صوت مجاور للأذن، كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في أذن من يوسوس له. «بدائع الفوائد» للمؤلف (٢/ ٤٧٤). وينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٨٣١)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٥٢٢)، و«المُغرب في ترتيب المعرب» لابن المطرزي (٢/ ٣٥٣)، و«لسان العرب» (٦/ ٢٥٤).

المحبِّ قلبَه بين يدي محبوبِه. والوسواسُ إنما ينشأُ[(١)] من الغيبةِ والبعدِ، وأما الحاضرُ المشاهدُ فما له وللوسواسِ؟ فالمُوسوسُ يجاهدُ نفسَه وقلبَه ليحضرَه بين يدي معبودِه، والمحبُّ لم يغبْ قلبُه عن محبوبِه، فيجاهدَه على إحضارِه، فالوسواسُ والمحبةُ متنافيان[(٢)]. ومن وجْهٍ آخرَ أن المحبَّ قد انقطعتْ[(٣)] عن قلبِه وساوسُ الأطماعِ؛ لامتلاءِ قلبِه من محبةِ حبيبِه، فلا تتواردُ على قلبِه جواذبُ الأطماعِ والأماني[(٤)]؛ لاشتغالِه بما هو فيه.

وأيضًا فإن الوسواسَ والأمانيَّ إنما تنشأُ من حاجتِه وفاقتِه إلى ما تعلقَ طمعُه به. وهذا عبدٌ قد جنى من الإحسانِ، وأعطي من النعمِ ما سدَّ حاجتَه، وأغنى فاقتَه، فلم يبقْ له طمعٌ ولا وسواسٌ، بل بقي حبُّه للمنعمِ عليه، وشكرُه له، وذكرُه إياه في محلِّ وساوسِه وخواطرِه؛ لمطالعتِه نعمَ اللهِ عليه، وشهودِها منها ما لم يشهدْ غيره.

المحبُّ يتلذذُ بخدمةِ محبوبِهِ

وقولُه: «وتُلَذِّذُ الخدمةَ» هو صحيحٌ؛ فإن المحبَّ يتلذذُ بخدمةِ محبوبِه وتصرفِه[(٥)] في طاعتِه، وكلما كانتِ المحبةُ أقوى؛ كانتْ لذةُ الطاعةِ والخدمةِ أكملَ. فليزنِ العبدُ إيمانَه ومحبتَه لله بهذا الميزانِ، ولينظرْ هلْ هو ملتذٌّ[(٦)] [بخدمتِه كالتذاذِ المحبِّ][(٧)] بخدمةِ محبوبِه، أو متكرهٌ لها يأتي بها على السآمةِ والمللِ والكراهةِ؟ فهذا محكُّ إيمانِ العبدِ ومحبتِه للهِ.

قال بعضُ السلفِ: «[إني][(٨)] أدخلُ في الصلاةِ، فأحملُ هَمَّ خروجِي منها، ويضيقُ صدري إذا عرفتُ أني خارجٌ منها»[(٩)]. ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«جُعِلَتْ قرةُ عيني في الصلاةِ»**[(١٠)] ومن كانتْ قرةُ عينِه في شيءٍ فإنه يودُّ أن لا يفارقَه، ولا يخرجَ منه، فإن

---

(١) في ع: «يغشى».

(٢) «فإن الوساوس والمحبة متناقضان؛ فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب، والوساوس تقتضي غيبته عنه، حتى توسوس له نفسه بغيره، فبين المحبة والوساوس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة، فعزيمة المحبة تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره، وذلك سبب الوساوس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغًا لوسواس الغير؛ لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى، ومن أين يجتمع الحب والوسواس» «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦).

(٣) في م: «قطعت». (٤) في م: «والغاني». (٥) في س: «وتعرفه».

(٦) في س: «متلذذ». (٧) سقط من ك، س. (٨) سقط من ع.

(٩) لم أجده.

(١٠) رواه النسائي، ح (٣٩٣٩)، وأحمد (٣/ ١٢٨)، (١٩٩) (٢٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن =

قرةَ عينِ العبدِ [بالشيءِ][(١)] نعيمُه[(٢)] وطيبُ حياتِه به.

وقال بعضُ السلفِ[(٣)]: «إنِّي لأفرحُ بالليلِ حينَ يقبلُ؛ لما يلذُّ[(٤)] به عيشي[(٥)]، وتقرُّ به عيني من مناجاةِ من أُحِبُّ، وخلوتي بخدمتِه والتذلُّلِ بين يديهِ. وأغتمُّ للفجرِ إذا طلعَ، لما أشتغل به بالنهارِ عن ذلك». فلا شيءَ ألَذُّ للمحبِّ من خدمةِ محبوبِه وطاعتِه.

وقال بعضُهم: «تعذبتُ بالصلاةِ عشرين سنةً، ثم تنعمتُ بها عشرين سنةً»[(٦)].

اللذةُ بالخدمةِ تحصلُ بالمصابرةِ على التكرهِ والتعبِ

وهذهِ اللذةُ والتنعُّمُ بالخدمةِ إنما تحصلُ بالمصابرةِ على التكرهِ والتعبِ أولًا، فإذا صبَرَ عليه، وصدقَ في صبرِه؛ أفضَى به إلى هذهِ اللَّذةِ. قال أبو يزيدَ[(٧)]: «سُقْتُ نفسي إلى اللهِ وهي تبكي، فما زلتُ أسوقُها حتى انساقتْ إليه وهي تضحكُ»[(٨)] ولا يزالُ السالكُ عرضةَ الآفاتِ والفتورِ والانتكاسِ حتى يصلَ إلى هذهِ الحالِ[(٩)]، فحينئذٍ يصيرُ نعيمُه في سيرِه، ولذتُه في اجتهادِه، وعذابُه في فتورِه ووقوفِه، فيرى أشدَّ الأشياءِ عليه ضياعَ شيءٍ من وقتِه ووقوفِه عن سيرِه، ولا سبيلَ إلى هذا إلا بالحبِّ المزعجِ.

وقولُه: «وتُسَلِّي عن المصائبِ»[(١٠)] صحيحٌ؛ فإن المحبَّ يَتسلَّى بمحبوبِه عن كلِّ مصيبةٍ يصابُ بها دونَه، فإذا سلَّم له [محبوبُه][(١١)]، لم يبالِ بما فاتَه، ولا[(١٢)] يجزعْ على ما نالَهُ؛ فإنه يرى في محبوبِه عوضًا عن كلِّ شيءٍ، ولا يرى في شيءٍ غيرِه عوضًا منه أصلًا؛ فكلُّ مصيبةٍ عنده هينةٌ إذا أبقتْ عليه محبوبَه.

ولهذا لما خرجتْ تلك المرأةُ الأنصاريةُ يومَ أحدٍ تنظرُ ما فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ؛ مرتْ بأبيِها وأخيِها مقتولَيْنِ فلم تقفْ عندَهما، وجاوزتهما تقولُ: ما فعل رسولُ اللهِ ﷺ؟

= النسائي» (٣/ ٨٢٧)، ح (٣٦٨١).

(١) سقط من ك، س. (٢) في س: «نعمه».

(٣) روي هذا عن علي بن بكار، والفضيل بن عياض، وغيرهما، بنحوه. ينظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٣٥٨).

(٤) في ك، س: «يلتذ». (٥) في م: «تلذُّ به عيشتي».

(٦) روي هذا عن ثابت البناني بلفظ: «كابدت الصلاة...» ينظر: «حلية الأولياء»، لأبي نعيم (٢/ ٣٢١)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٣/ ٢٦٠)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٢٢٤). وروي أيضًا عن عتبة ابن أبان البصري المعروف بـ«عتبة الغلام». ينظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ١٠)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٣٧٣).

(٧) أبو يزيد: سبقت ترجمته. (٨) ينظر: «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٣١).

(٩) في م: «المرتبة». (١٠) كتاب «محاسن المجالس» (ص/ ٩١).

(١١) سقط من م. (١٢) في م: «ولم»، وفي ك، س: «فلا».

فقيل لها: ها هو ذا حيٌّ، فلما نظرتْ إليه قالتْ: ما أُبالي إذ سلمتَ هَلَكَ مَنْ هَلَكَ[١].

ولو لم يكنْ في المحبةِ من الفوائدِ إلا هذهِ الفائدةِ وحدَها؛ لكفَى بها شرفًا؛ فإنَّ المصائبَ لازمةٌ للعبدِ لا محيدَ له عنها، ولا يمكنُ دفعُها [وحملُها][٢] بمثلِ المحبةِ. وهكذا مصائبُ الموتِ وما بعدَه[٣] إنما تسهلُ وتهونُ بالمحبةِ وكذلك مصائبُ القيامةِ. وأعظمُ المصائبِ مصيبةُ النارِ، ولا يدفعُها إلا محبةُ اللهِ وحده ومتابعةُ رسولِه ﷺ. فالمحبةُ أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ كما قال سمنون[٤]: «ذهب المحبُّون للهِ بشرفِ الدنيا والآخرةِ؛ فإن النبيَّ ﷺ قال: «**المرءُ مع من أحبَّ**»[٥] فهُم معَ اللهِ تعالى.

وقوله: «وهي في طريقِ العوامِّ عمدةُ الإيمانِ»[٦] كلامٌ قاصرٌ؛ فإنها عمودُ الإيمانِ وعمدتُه، وساقُه الذي لا يقومُ إلا عليه، فلا إيمانَ بدونِها ألبتةَ. وإنما مرادُه [أن][٧] هذهِ المحبةَ الخاصَّةَ التي تنشأُ من رؤيةِ النعمِ هي عمدةُ إيمانِ العوامِّ.

وأما الخواصُّ فعمدةُ إيمانِهم محبةٌ تنشأُ من معرفةِ الكمالِ، ومطالعةِ الأسماءِ والصفاتِ[٨].

فصــلٌ

كلامُ ابنِ العريفِ على محبةِ الخواصِّ

قال أبو العباسِ: «وأما محبةُ الخواصِّ فهي: محبةٌ خاطفةٌ، تقطعُ العبارةَ، وتدقُّ الإشارةَ[٩]، ولا تنتهي بالنعوتِ، ولا تعرفُ إلا بالحيرةِ والسكوتِ».

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٦٣)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٧٤)، و«الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء»، للكلاعي (٢/ ٨٤)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٤٨)، و«السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون» لابن برهان الدين الحلبي (٢/ ٥٤٢).

(٢) سقط من ك.

(٣) في ك، س: «بعدها».

(٤) ينظر قول سمنون بن حمزة الخواص، في «الرسالة القشيرية» (٣٢٢).

وهو: سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن وقيل: أبو بكر، بصري، سكن بغداد، وصحب سريًّا السقطي، شاعر، كان كثيرًا ما يتكلم بالمحبة، حتى سمي «سمنون المحب»، وكان أحد مشايخ الصوفية بالعراق، وتوفي فيها سنة (٢٩٨)هـ. ينظر: «حلية الأولياء»، لأبي نعيم (١٠/ ٣٠٩)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ٢٣٤)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٢٣).

(٥) رواه البخاري، ح (٥٨١٦)، ومسلم، ح (٢٦٤٠)، وأحمد (١/ ٣٩٢)، عن ابن مسعود. رضي الله عنه.

(٦) كتاب: «محاسن المجالس» (٩١).

(٧) سقط من ك.

(٨) في ك، س زيادة: والله أعلم.

(٩) الإشارة عند الصوفية: الإخبار في غير الاستعانة باللسان، وقيل: ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة =

وقال بعضُهم:

تَقولُ وقَدْ أُلبِستُ وَجْدًا وحِيرةً ... وقَدْ ضَمَّنا بعد التَفرقِ مَحْضَرُ
أَلستَ الذي كُنَّا نُحدَّثُ أَنَّه ... وَلُوعٌ بذِكْرَانا[١] فأينَ التذَكُّرُ
فَردَّ عليها الوجْدُ أَفنَيتِ ذِكرَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إلا زَفْرَةٌ[٢] وتَحَيُّرُ»[٣]

فيقالُ: ههنا مرتبتان من المحبةِ مختلف في أيِّهما أكملُ من الأخرى:

إحداهما: هذهِ المرتبةُ التي أشار إليها المصنفُ، وهي الدرجةُ الثالثةُ التي ذكرها شيخُ الإسلامِ[٤] في منازلِه، فقال: «والدرجةُ الثالثةُ محبةٌ خاطفةٌ تقطعُ العبارةَ، وتدقُّ الإشارةَ، ولا تنتهي بالنعوتِ، وهذهِ المحبةُ قطبُ[٥] هذا الشأنِ، وما دونها محالٌ تُنادي عليها الألسنُ، وادعتها الخليقةُ، وأوجبتها العقولُ»[٦].

والمرتبةُ الثانيةُ: عند صاحبِ المنازلِ ومَنْ تَبِعَهُ دون هذهِ المرتبةِ، وهي المحبةُ التي تنشأُ من مطالعةِ الصفاتِ، فقالَ في منازلِه: «والدرجةُ الثانيةُ: محبةٌ تبعثُ على إيثارِ الحقِّ على غيرِه، وتُلهجُ اللسانَ بذكرِه، وتُعلقُ القلبِ بشهودِه، وهي محبةٌ تظهرُ من مطالعةِ الصفاتِ، والنظرِ في الآياتِ، والارتياضِ بالمقاماتِ»[٧]. وإنما جعل هؤلاءِ هذهِ المحبةَ أنقصَ من المحبةِ الثالثةِ بناءً على أصولِهم في أن الفناءَ[٨] هو غايةُ السالكِ

= للطافة معناه، وتكون مع القرب، ومع حضور الغيب، وتكون مع البعد. ينظر: «المعجم الصوفي» للحفني (٢٣)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (٤٣).

(١) في م: «بذكراها».
(٢) في ع: «فكرة» وفي م: «حسرة».
(٣) كتاب: «محاسن المجالس» (ص/ ٩١-٩٢).
(٤) سبقت ترجمته.
(٥) في م، و«منازل السائرين» (ص/ ٩٠) «هي قطب..».
(٦) «منازل السائرين» للهروي (ص/ ٩٠)، وفيه: «وما دونها محاب نادت عليها الألسن».
(٧) المصدر السابق (٨٩).
(٨) الفناء عند الصوفية: تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات، فكلما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية مقامها، وقيل: الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء عكسه، وهو ثبوت النعوت المحمودة. وقيل: الفناء: هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل، فجعله دكًا، وخرَّ موسى صعقًا، وهو أن لا ترى شيئًا إلا الله، ولا تعلم إلا الله، وتكون ناسيًا لنفسك ولكل الأشياء سوى الله. ينظر: «المعجم الصوفي» للحفني (ص/ ١٩٦).
وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ الفناء ثلاثة أقسام:
الأول: الفناء عن عبادة ما سوى الله، والاستعانة به بحيث لا يعبد إلا الله، ولا يستعين إلا بالله، وهذا =

التي لا غايةَ له وراءَها، فهذهِ المحبةُ لما أفنتِ المحبَّ، واستغرقَتْ روحَه بحيثُ غَيَّبَتْهُ عن شهودِهِ، وفَنِيَ فيها المحبُّ، وانمحتْ رسومُه بالكليةِ، ولم يبقَ هناكَ إلا محبوبُه وحدَه، فكأنه هو المحبُّ لنفسِه بنفسِه؛ إذ فَنِيَ مَنْ لم يكنْ، وبقي مَنْ لم يزلْ، ولما ضاقَ نطاقُ النطقِ بهم عن التعبيرِ عنها؛ عدلُوا إلى التعبيرِ عنها بكونِها: «قاطعةً للعبارةِ، مدققةً للإشارةِ» يعني تدقُّ عنها الإشارةُ؛ لأنَ[(١)] الإشارةَ تتناولُ محبًّا ومحبوبًا، وفي هذهِ المحبةِ قد فني المحبُّ، فانقطع تعلُّقُ الإشارةِ به؛ إذ الإشارةُ لا تتعلقُ بمعدوم. وسرُّ هذا المقامِ عندهم هو الفناءُ في الحبِّ، بحيثُ لا يشاهدُ له رسمًا، ولا محبةً، ولا سببًا[(٢)] ولهذا كانتِ الدرجتان اللتان قبلَه عنده معلولتين؛ لأنهما مصحوبان[(٣)] بالبقاءِ[(٤)] وشهودِ الأسبابِ، بخلافِ الثالثةِ.

ولهذا قال: «ولا تنتهي بالنعوتِ»[(٥)] يعني أن النعتَ لا يَصِلُ إليها، ولا يدركُها، وهذا بناءً على قاعدتِه في كلِّ بابٍ من أبوابِ كتابِه، يجعلُ الدرجةَ الثالثةَ[(٦)] التي تتضمنُ الفناءَ أكملَ مما قبلَها، والصوابُ: أن الدرجةَ الثانيةَ أكملُ من هذهِ وأتمُّ، وهي

= هو دين الإسلام، **والثاني**: الفناء عن شهود ما سوى الله بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده، وهذا لمن لم يقدر على الجمع بين شهود الحقائق وعبادة الخالق، بل ما شهده عنده ومعبوده واحد، فمشهوده واحد، **الثالث**: وهو فناء الكافرين، وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق، أو وجود نفسه عين وجوده. «الاستقامة» (٢/ ١٤٢-١٤٣). وقال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الفناء عن شهود السوى فهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية ويعدونه غاية»... ثم ذكر أصل هذا الفناء، فقال: «وأصل هذا الفناء: الاستغراق في توحيد الربوبية، وهو رؤية تفرد الله بخلق الأشياء وملكها واختراعها، وأنه ليس في الوجود قط إلا ما شاءه وكونه، فيشهد ما اشتركت فيه المخلوقات من خلق الله إياها ومشيئته لها وقدرته عليها وشمول قيوميته وربوبيته لها، ولا يشهد ما افترقت فيه من محبة الله لهذا وبغضه لهذا، وأمره بما أمر به ونهيه عما نهى عنه، وموالاته لقوم ومعاداته لآخرين» «مدارج السالكين» (١/ ١٥٨).

(١) في م، ك، س: «ولأن». (٢) في م: «سببًا ولا محبة».

(٣) في م، ك، س: «مصحوبتان».

(٤) البقاء عند الصوفية: هو رؤية العبد قيام الله على كل شيء، وقيل: بقاء رؤية العبد بقيام الله له في قيامه لله بالله، وقيل: هو أن يفني عمَّا له ويبقى بما لله. ينظر: «المعجم الصوفي» للحفني (٤٤-٤٥)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (٥٤).

(٥) «منازل السائرين» للهروي (ص/ ٩٠)، وفيه: «وما دونها محاب نادت عليها الألسن».

(٦) في ك، س: «العالية».

درجةُ الكُمَّلِ من المحبِّين(١)، ولهذا كان إمامُهم وسيدُهم وأعظمُهم حبًّا ﷺ في الذروةِ العُليا من المحبةِ، وهو مراعٍ لجزوماتِ الأمرِ(٢) ولحزوياتِ (٣) الأمَّةِ، مثلُ سماعِه بكاءَ الصبيِّ في الصلاةِ فيخففُها لأجلِه(٤). ومثلُ التفاتِه في صلاتِه إلى الشعبِ الذي بعثَ منه العينَ يتعرفُ له أمرَ العدوِّ(٥) هذا وهو في أعلى درجاتِ(٦) المحبةِ. ولهذا رأى ما رأى ليلةَ الإسراءِ(٧)، وهو ثابتُ الجأشِ، حاضرُ القلبِ، لم يفنَ عن تلقيِّ خطابِ ربِّه وأوامرِه ومراجعتِه في أمرِ الصلاةِ مرارًا(٨).

---

(١) في م: «وهي درجة بين المحبين».

(٢) في م: «لحرمات»، وفي ك: «لجريان الأمور»، وفي س: «لجزيات».

(٣) في م: «لحرمات»، وفي ك، س: «ولجزيات». وقال في «لسان العرب» (١٤/ ١٧٥): «الحَزَّاء والحازي: الذي يحرزُ الأشياء ويقدرها بظنه».

(٤) عن أبي قتادة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي؛ كراهية أن أشق على أمه»** رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، ح (٦٧٥)، وغيره.

(٥) عن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه. قال: «ثُوِّبَ بالصلاة - يعني صلاة الصبح - فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشِعب» رواه أبو داود، ح (٩١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٧٢)، ح (٨١٠).

(٦) في ك، س: «درجة». (٧) في ك: «في ليلة الإسراء».

(٨) يشير المؤلف رحمه الله إلى حديث فرض الصلاة، ونصه: عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما. أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: **«بينما أنا في الحطيم»** - وربما قال: **«الحجر مضطجعًا - إذ أتاني آت»**، فقد قال: وسمعته يقول: **«فشق ما بين هذه إلى هذه»**، فقلت للجارود، وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: **«من قصّهِ إلى شعرته، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض»** فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم **«يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح»**. إلى أن قال: **«ثم فُرضت علي الصلوات، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى، فقال: بم أُمرت؟ قال: أُمرتُ بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع** =

حالُ البقاءِ في الحبِّ أكمَلُ من حالِ الفناءِ

ولا ريبَ أن هذهِ الحالَ أكملُ من حالِ موسى الكليمِ [صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهما وعلى جميعِ النبيين][(١)]؛ فإنَّ موسى خرَّ صعقًا وهو في مقامِه في الأرضِ لما تجلَّى ربُّه للجبلِ[(٢)]، والنبيُّ ﷺ قطعَ تلك المسافاتِ، وخرقَ تلك الحجبَ، ورأى ما رأى، وما زاغَ بصرُه ولا طَغَى[(٣)]، ولا اضطربَ فؤادُه، ولا صعقَ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، ولا ريبَ أن الوراثةَ المحمديةَ أكملُ من الوراثةِ الموسويةِ[(٤)]. وتأملْ شأنَ النسوةِ اللَّاتي رأينَ يوسفَ، كيف أدهَشَهُنَّ حسنُه، وتعلقتْ قلوبُهن به، وأفناهُنَّ عن أنفسِهن حتى قَطَّعْن أيديَهُنَّ[(٥)]، وامرأةُ العزيزِ أكملُ حبًّا منهن له وأشدُّ، ولم يعرضْ لها ذلك، مع أن حبَّها أقوى وأتمُّ؛ لأن حبَّها كان مع البقاءِ[(٦)] وحبَّهن كان مع الفناءِ[(٧)].

فالنسوةُ غيبهُنَّ حسنُه وحبُّه[(٨)] عن أنفسِهن، فبلغْنَ من تقطيعِ أيدِيهنَّ ما بلغْنَ، وامرأةُ العزيزِ لم يغيبْها حبُّها له عن نفسِها، بل كانتْ حاضرةَ القلبِ متمكنةً في حبِّها، فحالُها حالُ الأقوياءِ من المحبيِّن، وحالُ النسوةِ حالُ أصحابِ الفناءِ[(٩)].

= عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت، فأُمرتُ بعشر صلوات كل يوم، فرجعت، فقال مثله، فرجعت، فأُمرتُ بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بما أُمرتَ؟ قلت: أُمرتُ بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى، وأُسلِّم، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي». رواه البخاري، ح (٣٦٧٤)، ومسلم، ح (١٦٤)، وغيرهما.

(١) سقط من ك، س.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].

(٣) في م، ك: «وما طغى». (٤) في س: «الموسية».

(٥) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: الآية ٣١].

(٦) البقاء: سبق التعريف به. (٧) الفناء: سبق التعريف به. (٨) في ع: «حسن وجهه».

(٩) قال المؤلف رحمه الله: «وانظر إلى النسوة، كيف قطعن أيديهن لما طلع عليهن يوسف، وشاهدن ذلك الجمال، ولم يتقدم لهن من عشقه ومحبته ما تقدم لامرأة العزيز، فأفناهنَّ شهود جماله عن حالهن، حتى قطعن أيديهن، وأما امرأة العزيز فإنها، وإن كانت صاحبة المحبة، فإنها كانت قد أَلِفَت رؤيته =

ومما يدلُّ على أن حالَ البقاءِ في الحبِّ أكملُ من حالِ الفناءِ: أنَّ الفناءَ[١] إنما يعرضُ لضعفِ النفسِ عن [حملِ][٢] واردِ المحبةِ فتمتلئُ به، وتضعفُ عن حملِه، فيُفْنِيَهَا، ويغيبَهَا عن تمييزِها وشهودِها، فيورثَهَا الحيرةَ والسكوتَ.

وأما حالُ البقاءِ فيدلُّ على ثباتِ النفسِ وتمكنِها، وأنها حملتْ من الحبِّ ما لم يطقْ حملَه صاحبُ الفناءِ، فتصرفتْ في حبِّها، ولم يتصرفْ فيها. والكاملُ[٣] من إذا ورد عليه الحالُ تصرَّفَ هو فيه، ولا[٤] يدعُ حالَه يتصرفُ فيه.

وأيضًا فإن البقاءَ متضمنٌ لشهودِ كمالِ المحبوبِ[٥]، ولشهودِ[٦] ذلِّ عبوديتِه في[٧] محبتِه، ولشهودِ مراضيهِ وأوامرِه، والتمييزِ بين ما يحبُّه ويكرهُه، والتمييزِ بين المحبوبِ إليه والأحبِّ، والعزمِ على إيثارِ الأحبِّ إليه؛ فكيف يكونُ الفاني عن شهودِ هذا بتغييبِ الحبِّ له أكملَ وأقوى؟! وأيُّ عبوديةٍ للمحبوبِ في فناءِ المحبِّ في محبتِه؟! وهل العبوديةُ - كلُّ العبوديةِ - إلا في البقاءِ والصَّحْوِ[٨]، وكمالِ التمييزِ وشهودِ عزةِ محبوبِه وذلِّهِ هو في حبِّه واستكانتِه فيه، واجتماعِ إرادتِه كلِّها في تنفيذِ مرادِ محبوبِه؟ فهذا وأمثالُه مما يدلُّ على أن الدرجةَ الثانيةَ التي أشارَ إليها أكملُ من الثالثةِ وأتمُّ، وهكذا في جميعِ أبوابِ الكتابِ - واللهُ أعلمُ.

وكأني بكَ تقولُ: لا أقبلُ[٩] في هذا إلا كلامَ مَنْ قطعَ هذهِ المفاوزَ حالًا[١٠] وذوقًا[١١]، وأما الكلامُ فيها بلسانِ العلمِ المجردِ فغيرُ مقبولٍ، والمحِبُّون أصحابُ

= ومشاهدته، فلما خرج لم يتغيّر عليها حالها كما تغيّر على العواذل، فكان مقامها البقاء ومقامهن الفناء، وحصل لهنَّ الفناء من وجهين:

أحدهما: ذهولهن عن الشعور بقطع ما في أيديهن حتى تخطاه القطع إلى الأيدي.

الثاني: فناؤهن عن الإحساس بألم القطع». «مدارج السالكين»، (٣/ ٣٧٣-٣٧٤).

(١) في م: «أنه إنما». (٢) سقط من ك، س. (٣) في ك: «والكمال».

(٤) في م: «فلا». (٥) في م: «متضمن لكمال المحبوب». (٦) في ع: «وشهود».

(٧) في ك: «ومحبته».

(٨) الصحو عند الصوفية: هو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة وزوال الإحساس. ينظر: «الرسالة القشيرية» (٧١)، و«التعريفات» للجرجاني (١٧٣)، و«المعجم الصوفي» للحفني (١٤٣) و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (١٠٨).

(٩) في م، ك، س: «يُقبل». (١٠) الحال: سبق التعريف به. (١١) الذوق: سبق التعريف به.

الحالِ والذوقِ في المحبةِ لهم شأنٌ وراءَ الأدلةِ والحججِ(١).

ردُّ العلمِ الصحيحِ بمجردِ الذوقِ والحالِ أصلُ الضلالةِ

فاعلمْ أولًا: أن كلَّ [حالٍ](٢)، وذوقٍ، ووجدٍ(٣)، وشهودٍ(٤) لا يُشرقُ عليه نورُ العلمِ المؤيَّدِ بالدليلِ، فهو من عيشِ النفسِ وحظوظِها، فلو قُدِّرَ أنَّ المتكلمَ إنما تكلَّمَ بلسانِ العلمِ المجردِ؛ فلا ريبَ أن ما كشفَهُ العلمُ الصحيحُ المؤيَّدُ بالحجةِ أنفعُ من حالٍ يخالفُ العلمَ والعلمُ يخالفُه. وليس من الإنصافِ ردُّ العلمِ الصحيحِ بمجردِ الذوقِ والحالِ، وهذا أصلُ الضلالةِ، ومنه دخلَ الداخلُ على كثيرٍ من السالكين في تحكيمِ أذواقِهم ومواجيدِهم على العلمِ، فكانت فتنةً في الأرضِ وفسادًا كبيرًا(٥). وكم قد ضلَّ وأضلَّ(٦) محكِّمُ الحالِ على العلمِ، بل الواجبُ تحكيمُ العلمِ على الحالِ، وردُّ

(١) وذلك أنهم يزعمون أن الله يقذف نورًا عرفانيًّا، وذلك بتجلِّيه في قلوب أوليائه، وبه يفرقون بين الحق والباطل، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره، وهو ما يسمونه بالذوق.

(٢) سقط من م.

(٣) الوجد عند الصوفية: هو ما يصادف القلب، ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل: هو بروق تلمع ثم تخمد سريعًا، وقيل: هو عبارة عن حالة يثمرها السماعُ، وهو وارد حق جديدٍ عقيب السماع، يجده المستمع من نفسه، وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين؛ فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات، ومشاهدات، من قبيل العلوم والتنبيهات، وإما أن ترجع إلى تغيرات، وأحوال ليست من العلوم، بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم. ينظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٢٩٣)، و«المعجم الصوفي» للحفني (٢٥٧)، و«المصادر العامة للتلقي عند الصوفية»، صادق سليم صادق (٦١٩)، وما بعدها.

(٤) سبق التعريف بالمشاهدة.

(٥) قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذوق، والحال، والوجد، هل هو حاكم، أو محكوم عليه، فيُحكم عليه بحاكم آخر، أو يُتحاكم إليه؟ فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة، حيث جعلوه حاكمًا، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد، وجعلوه محكًّا للحق والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص، وحكَّموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد، فعظم الأمر، وتفاقم الفساد والشر، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم، وانعكس السير، وكان إلى الله، فصيَّروه إلى النفوس، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله، وهؤلاء يعبد ون نفوسهم!.
فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه، وفي غيره، فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد، فهو حظه وشهوته، مالًا كان، أو رياسة، أو صورة، أو حالًا، أو ذوقًا، أو وجدًا، ثم مَن قدَّمه على مراد الله فهو أسوأ حالًا ممن عرف أنه نقصٌ ومحنةٌ، وأن مراد الله أولى بالتقديم منه، فهو يتوب منه كلَّ وقت إلى الله.
«مدارج السالكين» (١/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٦) في س: «وضلَّ».

مشايخُ الطريقِ يوصُون بلزومِ العلمِ

الحالِ إليه، فما زكَّاه شاهدُ العلمِ فهو المقبولُ، وما جرحَهُ شاهدُ العلمِ فهو المردودُ، وهذهِ وصيةُ أربابِ الاستقامةِ من مشايخِ الطريقِ [رضي اللهُ عنهم (كلِّهم)[1]][2] يوصُون بذلك، ويخبِرُون أن كلَّ ذوقٍ ووجدٍ لا يقومُ عليه شاهدان اثنان من العلمِ فهو باطلٌ[3].

ويقالُ ثانيًا: ليس من شرطِ[4] قبولِ العلمِ بالشيءِ من العالمِ به، أن يكونَ ذائقًا له أفتراك لا تقبلُ معرفةَ الآلامِ والأوجاعِ وأدويتَها إلا ممن قد مرضَ[5] وتداوى بها؟ أفيقولُ[6] هذا عاقلٌ؟!.

ويقالُ ثالثا: أتريدُ بالذوقِ أن يكونَ القائلُ قد بلغ الغايةَ القصوى في هذهِ المرتبةِ، فلا يقبلُ إلا ممن هذا شأنُه، أو تريدُ أنه لا بدَّ أن يكونَ له أذواقُ أهلِه من حيثُ الجملةُ؟ فإن أردتَ الأولَ، لزمَكَ[7] أن لا يُقبلَ من أحدٍ؛ إذ ما من ذوقٍ إلا وفوقه أكملُ منه، وإن أردتَ الثاني، فمِنْ أين لك نفيُه عن صاحبِ العلمِ؟ ولكن لإعراضِك عن العلمِ وأهلِه، صرت تظنُّ أن أهلَ العلمِ لهم العلمُ والكلامُ والوصفُ، وللمعرضين عنه

---

(١) سقط من م. (٢) سقط من ك، س.

(٣) قال أبو سليمان الداراني: «ليس لمن أُلهم شيئًا من الخير أن يفعله، حتى يسمع فيه بأثر، فإذا سمع بأثر كان نورًا على نور». «إحياء علوم الدين» (١/ ٨١)، وقال أيضًا: «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة» «طبقات الصوفية» للسلمي (٧٦)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ٢٢٩)، وقال أحمد بن أبي الحواري: «من عمل بلا اتباع سنة، فباطل عمله» «طبقات الصوفية» للسلمي (٩٢).

وقال الجنيد: «الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول، واتبع سنته، ولزم طريقته فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه» «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٥٧)، و«طبقات الصوفية» للسلمي (١٣٢)، وقال أيضًا: «عِلمُنا منوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به» «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٥٥)، و«تلبيس إبليس» (٢٠٨)، وقال أبو عثمان الحيري: «من أمرَّ السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمرَّ الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النُّور: الآية ٥٤]، «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٤)، وللمزيد في هذا الموضوع، ينظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (٢٠٧) وما بعدها، و«الاستقامة» لابن تيمية (٢٤٩) وما بعدها، و«مدارج السالكين» للمؤلف (٢/ ٤٦٤) وما بعدها، و«مصرع التصوف للبقاعي» (٢٠٩).

(٤) في س: «شروط». (٥) في م، ك، س: «مرض بها، وتداوى بها».

(٦) في ك: «فيقول». (٧) في ك: «ألزمك».

الذوقُ، والحالُ، والاتصافُ، والظنُّ يخطئُ تارةً، ويصيبُ - واللهُ أعلمُ.

فصــلٌ

قال أبو العباسِ: «فعند القومِ كلُّ ما هو من العبدِ فهو علةٌ تليقُ بعجزِ العبدِ وفاقتِه، وإنما عينُ الحقيقةِ عندهم أن يكونَ قائمًا بإقامتِه له، محبًّا بمحبتِه له، ناظرًا بنظرِه له من غيرِ أن يبقى معه بقيةٌ تُناطُ باسمٍ، أو تَقفُ على رسمٍ، أو تَتعلقُ بأثرٍ، أو تُنعتُ بنعتٍ، أو تُوصفُ بوصفٍ، أو تُنسبُ إلى وقتٍ، صمٌّ بكمٌ عميٌّ لدينا محضرون»[(١)].

مقامُ الفناءِ عندهُم غايةُ الغاياتِ وما دونَهُ مرقاةٌ إليه

فيقالُ: هذا هو مقامُ الفناءِ الذي يشيرُ إليه كثيرٌ من المتأخرين، ويجعلونه غايةَ الغاياتِ ونهايةَ النهاياتِ، وكلُّ ما دونه فمرقاةٌ إليه، وعيلةٌ عليه. ولهذا كانتِ المحبةُ عندهم آخرَ منازلِ الطريقِ، وأولَ أوديةِ الفناءِ، والعقبةَ التي ينحدرُ منها على منازلِ المَحْوِ[(٢)]، وهي آخرُ منزلٍ[(٣)] يلقى فيه مقدمةُ العامةِ ساقةَ الخاصَّةِ، وما دونها أغراضٌ لأعواضٍ[(٤)]. فجعلوا المحبةَ منزلةً من المنازلِ ليستْ غايةً، وجعلوها أولَ الأوديةِ التي يسلكُ فيها أصحابُ الفناءِ، فهي أولُ أوديتِهم، والعقبةُ التي ينحدرون منها إلى منازلِ الفناءِ والمحو[(٥)]. فليست هي الغايةَ عندهم، وأصحابُها عندهم [هم][(٦)] مقدمةُ العامةِ، وساقةُ أصحابِ الفناءِ عندهم مقدَّمُون عليهم، سابقون لهم؛ فإنهم ساقةُ

---

(١) كتاب: «محاسن المجالس» لابن العريف (٩٣).

(٢) في م، ك، س: «المحق». والمحو عند الصوفية: رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله، وتحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها، كالسكر من الخمر، ومحو الجمع. والمحو الحقيقي: فناء الكثرة في الوحدة، ومحو العبودية، ومحو عين العبد، وهو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان، فالوجود ليس إلا عين الحق. تعالى. ينظر: «مدارج السالكين»، المؤلف (٣/ ٣٣)، و«الرسالة القشيرية» (٧٣)، و«التعريفات» للجرجاني (٢٦٤) و«المعجم الصوفي» للحفني (٢٢٤)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (١٥٨).

(٣) في س: «منازل».

(٤) يعني: أن ما دون المحبة من المقامات فهي أغراض من المخلوقين، لأجل أعواض ينالونها، وأما المحبون فإنهم عبيد، والعبد، ونفسه، وعمله، ومنافعه ملك لسيده، فكيف يعاوضه على ملكه، والأجير عند أخذ الأجرة ينصرف، والعبد في الباب لا ينصرف، فلا عبودية إلا عبودية أهل المحبة الخالصة، ينظر: «مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ٣٥).

(٥) في م: «المحق». (٦) سقط من س.

الخاصةِ، وهؤلاءِ مقدمةُ العامةِ. وهذا[١] كلُّه بناءً على أن الفناءَ هو الغايةُ التي لا غايةَ للعبدِ وراءَها، ولا كمالَ له يطلبُه فوقها. وقد تبيَّنَ ما في ذلك وما هو الصوابُ بحمدِ اللهِ[٢].

فقولُه رَحِمَهُ اللهُ: «كلُّ ما هو من العبدِ، فهو علةٌ تليقُ بعجزِ العبدِ وفاقتِه».

ردُّ المؤلفِ على ابنِ العريفِ جعلَهُ العبوديةَ علَّةً

يقالُ: إذا كان إنما منه العبوديةُ التي يحبُّها اللهُ كسبًا ومباشرةً؛ فهو قائمٌ بها، شاهدٌ لمقيمِه فيها، مطالعٌ لمنِّهِ[٣] وفضلِه[٤]، فأيُّ علةٍ هنا سوى وقوفِه مع شهودِها منه وغيبتِه عن شهودِ إقامةِ اللهِ له، وتحريكِه إياه وتوفيقِه له؟ فالعلةُ هي[٥] هذا[٦] الشهودُ وهذهِ الغيبةُ[٧] المنافيةُ لكمالِ الافتقارِ والفاقةِ إلى اللهِ، وأما شهودُ فقرِه وفاقتِه في مجموعِ[٨] حالاتِه وحركاتِه وسكناتِه إلى وليِّهِ وباريهِ، مستعينًا به أن يقيمَه في عبوديتِه، خالصةً له، فلا علةَ هناك.

قولُه: «وإنما عينُ الحقيقةِ أن يكونَ قائمًا بإقامتِه له...» إلى آخرِ كلامِهِ.

يقالُ: إن أردتَ أنه يشهدُ إقامةَ اللهِ [له][٩] حتى قامَ[١٠]، ومحبتَه له حتى أحبَّه ونظرَه إلى عبدِه، حتى أقبلَ عبدُه عليه ناظرًا إليه بقلبِه، فهذا حقٌّ؛ فإنَّ ما مِنَ اللهِ سبقَ ما مِنَ العبدِ، فهو الذي أحبَّ عبدَه أولًا، فأحبَّه العبدُ، وأقامَ عبدَه[١١] في طاعتِه فقام بإقامتِه، ونظر إليه، فأقبلَ العبدُ عليه، وتابَ عليه أولًا، فتابَ إليه العبدُ.

وإن أردتَ أنه [لا][١٢] يشهدُ فعلَه ألبتةَ، بل يفنى عنه جملةً، ويشهدُ أن اللهَ وحدَه هو الذاكرُ لنفسِه، الموحدُ لنفسِه، المحبُّ لنفسِه، وأن هذهِ الأسبابَ والرسومَ تصيرُ عدمًا صرفًا في شهودِه، وإن لم تفنَ وتُعدم في الخارجِ. وهذا هو مرادُ القومِ. فدعوى أن

---

(١) في ك، س: «فهذا».
(٢) سبق الإشارة إلى ذلك (ص/٧١٨).
(٣) في ك: «لمنته».
(٤) في م: «لفضله ومَنِّه».
(٥) في س: «فالعلة في هذا..».
(٦) في ك: «بهذا الشهود».
(٧) الغيبة عند الصوفية: غيبة القلب عن مشاهدة الخلق لاشتغال الحس بما ورد إليه، وقيل: هي أن يغيب عن حظوظ نفسه، فلا يراها، وهي قائمة معه موجودة فيه، غير أنه غائب عنها بشهود ما للحق. ينظر: «الرسالة القشيرية» (٦٩)، و«التعريفات» للجرجاني (٢٠٩)، و«المعجم الصوفي» للحفني (١٨٦) و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (١٣٢).
(٨) في ك: «ومجموع...».
(٩) سقط من ك، س.
(١٠) في م: «حتى قام له».
(١١) في ك، س: «العبد».
(١٢) سقط من م.

هذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ فوقه، ولا غايةَ وراءَه، دعوى مجردةٌ لا يستدلُّ عليها مدعيها بأكثرَ من الذوقِ والوجدِ، وقد تقدَّمَ أن هذا ليس بغايةٍ، وإنما غايتُه أن يكونَ من عوارضِ الطريقِ، وأن شهودَ الأشياءِ في مراتبِها ومنازلِها التي أنزلها اللهُ سبحانه إياها أكملُ وأتمُّ.

ويكفي في نقضِ[١] هذا الاحتجاجُ عليه بصفاتِ الكفار؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذمَّهُم، بأنهم صمٌّ، بكمٌ، عميٌ[٢]، فهذهِ صفاتُ نقصٍ وذمٍّ[٣]، لا صفاتُ كمالٍ ومدحةٍ، وهل الكمالُ إلا في حضورِ السمعِ، والبصرِ، والعقلِ وكمالِ التمييزِ، وتنزيلِ الخلقِ والأمرِ منازلَهما، والتفريقِ بين ما فرَّق اللهُ بينه؟ فالأمرُ كلُّه فرقانٌ وتمييزٌ وتبيينٌ، فكلما[٤] كان تمييزُ العبدِ وفرقانُه[٥] أتمَّ؛ كان حالُه أكملَ، وسيرُه أصحَّ، وطريقُه أقومَ وأقربَ. والحمدُ اللهِ ربِّ العالمين.

فصــلٌ

فصلٌ في الشوقِ

قال أبو العباسِ: «وأما الشوقُ فهو: هبوبُ القلبِ إلى غائبٍ، وإعوازُ الصبرِ عن فقدِه، وارتياحُ السرِّ إلى طلبِه. وهو من مقاماتِ العوامِّ، فأما[٦] الخواصُّ؛ فهو عندهم علةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ الشوقَ إنما يكونُ إلى غائبٍ. ومذهبُ هذهِ الطائفةِ إنما قامَ على المشاهدةِ. والطريقُ عندهم أن يكونَ العبدُ غائبًا والحقُّ ظاهرًا[٧]، ولهذا المعنى لم ينطقْ بالشوقِ كتابٌ ولا سنةٌ صحيحةٌ؛ لأنَّ[٨] الشوقَ مُخبرٌ عن بعدٍ، ومشيرٌ إلى غائبٍ، وهو يَطَّلعُ إلى إدراكٍ[٩]: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] وقيلَ[١٠]:

وَلا مَعْنَى لِشَكوى الشَّوقِ يَومًا   إلى مَنْ لاَ يَزولُ عَن العِيَانِ»[١١]

اختلف الناسُ في الشوقِ والمحبةِ: أيُّهما أعلى؟

---

(١) في م، ك، س: «بعض».

(٢) قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧١].   (٣) في م: «ذم ونقص».

(٤) في ع: «وكلما».   (٥) في ع: «كان فرقان العبد وتمييزه».

(٦) في ك، س، و«محاسن المجالس» (٩٤): «وأما الخواص..».

(٧) في «محاسن المجالس» (٩٤): «والحق حاضرًا».   (٨) في م، س: «إلا أن».

(٩) في «محاسن المجالس»: «وتَطلع إلى مُدرَك».

(١٠) ذكره ابن الدباغ في: «مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب» (٨٥) من غير نسبة.

(١١) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٣-٩٤).

فقالتْ طائفةٌ: المحبةُ أعلى من الشوقِ. هذا قولُ ابنِ عطاءٍ(١) وغيرِه. واحتجوا بأن الشوقَ غايتُه أن يكونَ أثرًا من آثارِ المحبةِ، ومتولدًا(٢) عنها، فهي أصلُه، وهو فرعُها، قالوا: والمحبةُ توجبُ آثارًا كثيرةً فمن آثارِها: الشوقُ(٣).

وقالتْ طائفةٌ منهم سريُّ السقطيُّ(٤) وغيرُه: الشوقُ(٥) أعلى. قال الجنيدُ(٦): سمعتُ السريَّ يقولُ: «الشوقُ أجلُّ مقاماتِ العارفِ، إذا تحققَ [فيه، وإذا تحققَ](٧) في الشوقِ؛ لَهَى عن كلِّ شيءٍ يشغلُه عمن يشتاقُ إليه»(٨). وإنما يظهرُ سرُّ المسألةِ بذكرِ فصلين.

فصلٌ في حقيقةِ الشوقِ

[الفصلُ](٩) الأولُ في حقيقةِ الشوقِ

وهو «سفرُ القلبِ في طلبِ محبوبِهِ»(١٠)، بحيثُ لا يقرُّ قرارُه حتى يظفرَ به، ويحصلَ له. وقيلَ: هو لهيبٌ ينشأُ بين أثناءِ الحشا، سببُه الفرقةُ. فإذا وقع اللقاءُ أطفأ ذلك اللهيبَ(١١). وقيل: الشوقُ هبوبُ [القلبِ](١٢) إلى محبوبٍ غائبٍ [عنه]»(١٣).

---

(١) سئل أحمد بن عطاء عن الشوق، فقال: «احتراق الأحشاء، وتلهُّب القلوب، وتقطع الأكباد. وسئل أيضًا عن الشوق، فقيل له: هل الشوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبة؛ لأن الشوق يتولد منها». «الرسالة القشيرية» (٣٣٠).

وهو: أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدَميُّ البغدادي، أبو العباس، الصوفي، كان أحد شيوخهم الموصوفين بالعبادة والاجتهاد، وكثرة القراءة للقرآن، حتى أنه كان يختم في كل يوم، وقد كان موافقًا للحلاج في بعض اعتقاده على ضلاله، فعاقبه الوزير حامد بن العباس بالضرب البليغ على شدقيه، وضربه بخفيه على رأسه، ومات بعد سبعة أيام من ذلك، سنة (٣٠٩)هـ.

ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٢٦٥)، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٥/ ٢٦)، و«السير» (١٤/ ٢٥٥)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٥٤).

(٢) في س: «يتولد».

(٣) قال ذو النون عن المؤمن بعد ذكره للخوف والهيبة والرجاء: «فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه؛ سكن بعدها درجة الشوق». «حلية الأولياء» (٩/ ٣٦٠).

(٤) سري السقطي: سبقت ترجمته. (٥) في س: «والشوق». (٦) الجنيد: سبقت ترجمته.

(٧) سقط من م، س. (٨) «الرسالة القشيرية» للقشيري (٣٣٢).

(٩) سقط من س. (١٠) «روضة المحبين» للمؤلف (٣٠)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٥٣).

(١١) «الرسالة القشيرية» للقشيري (٣٣١). (١٢) سقط من ك.

(١٣) سقط من س، ك. وانظر: «منازل السائرين» للهروي (٩١).

وقال ابنُ خفيفٍ[(١)]: الشوقُ: ارتياحُ القلوبِ بالوجدِ ومحبةِ اللقاءِ والقربِ[(٢)].

وقيل: الشوقُ نزوعُ القلبِ نحو المحبوبِ من غيرِ منازعٍ[(٣)]، ويقالُ: الشوقُ انتظارُ اللقاءِ بعدَ البعادِ[(٤)].

فهذهِ الحدودُ ونحوها مشتركةٌ في أن الشوقَ إنما يكونُ مع الغيبةِ من[(٥)] المحبوبِ، وأما مع حضورِه ولقائِه فلا شوقَ[(٦)]. وهذه حجةُ من جعل المحبةَ أعلى منه؛ فإن المحبةَ لا تزولُ باللقاءِ.

الفصلُ الثاني

فصلٌ في الفرقِ بين الشوقِ والمحبةِ

والفرقُ بينهما فرقُ ما بين الشيءِ وأثرِه؛ فإنَّ[(٧)] الحاملَ على الشوقِ هو المحبةُ، ولهذا [يقالُ][(٨)]: لِمَحَبَّتِي له اشتقتُ إليه، وأحببتُه، فاشتقتُ إلى لقائِه. ولا يقالُ: لشوقي إليه أحببتُه، ولا اشتقتُ إلى لقائِه، فأحببتُه. فالمحبةُ بذرٌ في القلبِ، والشوقُ بعضُ ثمراتِ ذلك البذرِ، وكذلك من ثمراتِها: حمدُ المحبوبِ، والرِّضَى عنه، وشكرُه، وخوفُه، ورجاؤُه، والتنعمُ بذكرِه، والسكونُ إليه. والأنسُ به، والوحشةُ بغيرِه، وكلُّ هذهِ من أحكامِ المحبةِ وثمراتِها وموجباتِها، فمنزلةُ الشوقِ من المحبةِ منزلةُ الهربِ من البغضاءِ والكراهةِ؛ فإنَّ القلبَ إذا أبغضَ الشيءَ وكرِهَهُ؛ جَدَّ في الهربِ منه، وإذا أحبَّه جَدَّ في الهربِ إليه وطلبِه، فهوحركةُ القلبِ في الظفرِ بمحبوبِه، ولشدةِ ارتباطِ الشوقِ بالمحبةِ يقعُ كلُّ واحدٍ منهما موقعَ صاحبِه، ويفهمُ منه، ويعبرُ [به][(٩)] عنه[(١٠)].

---

(١) محمد بن خفيف بن إسفكشار الضبي الفارسي الشيرازي، أبو عبد الله، شيخ الصوفية، صحب رويم بن أحمد، وابن عطاء، ولقي الحلاج، فقيه شافعي، ذكر ابن الجوزي «في «تلبيس إبليس» (ص/٤٤٦) عنه حكايات تدل على أنه كان يذهب مذهب الإباحية، توفي سنة (٣٧١)هـ. ينظر: «طبقات الصوفية» (ص/٤٦٢)، و«السير» (١٦/ ٣٤٢)، «البداية والنهاية» (١١/ ٣١٩).

(٢) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص/ ٣٣١).

(٣) لم أجده.

(٤) ينظر نحوه في «حلية الأولياء» (١٠/ ٧٨).

(٥) في م: «عن».

(٦) سوف يورد المؤلف فصلًا مستقلًّا في مسألة الشوق، وهل يزول باللقاء أم يقوى.

(٧) في م: «فإذًا».

(٨) سقط من س.

(٩) سقط من س.

(١٠) قال في «حلية الأولياء» (١٠/ ٧٩): «قيل: الحب هو الشوق؛ لأنك لا تشتاق إلا إلى حبيب، فلا فرق بين الحب والشوق، إذا كان الشوق فرعًا من فروع الحب الأصلي».

فصل

المسألةُ الأولى: هل يجوزُ إطلاقُ الشوقِ على الله تعالى

وأما المسائلُ: فإحدَاهَا: هل يجوزُ إطلاقُه على اللهِ تعالى؟ فهذا مما لم يردْ به القرآنُ ولا السنةُ بصريحِ لفظِه.

قال صاحبُ «منازلِ السائرين»[1] وغيرُه: وسببُ ذلك أن الشوقَ إنما يكونُ لغائبٍ[2]. ومذهبُ هذهِ الطائفةِ إنما قام على المشاهدةِ، ولهذا السببِ عندهم لم يجىء في حقِّ اللهِ ولا في حقِّ العبدِ. وجوَّزَتْ طائفةٌ إطلاقَه كما يطلقُ عليه سبحانه [المحبةُ][3]، ورووا في أثرٍ أنه تعالى يقولُ: «**طال شوقُ الأبرارِ إلى لقائي وأنا إلى لقائِهم أشوقُ**»[4] قالوا: وهذا الذي تقتضيه الحقيقةُ، وإن لم يردْ به لفظٌ صريحٌ. فالمعنى حقٌّ فإن كلَّ محبٍّ فهو مشتاقٌ إلى لقاءِ محبوبِه. قالوا: وأما قولُكم: إن الشوقَ إنما يكونُ إلى غائبٍ، وهو سبحانه لا يغيبُ عن عبدِه، ولا يغيبُ العبدُ عنه[5]؛ فهذا حضورُ العلمِ، وأما اللقاءُ والقربُ فأمرٌ آخرُ؛ فالشوقُ يقعُ بالاعتبارِ الثاني، وهو قربُ الحبيبِ ولقاؤُه والدنوُّ منه، وهذا له أجلٌ مضروبٌ لا ينالُ قبلَه. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: الآية ٥].

قال أبو عثمانَ الحيريُّ[6]: «هذا تعزيةٌ للمشتاقين، معناهُ: إني أعلمُ أنَّ اشتياقكم

---

(١) أبو إسماعيل الهروي: سبقت ترجمته.

(٢) «منازل السائرين» (٩١). (٣) سقط من ك، س.

(٤) ينظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٩١)، و«الفردوس بمأثور الخطاب» للديلمي (٥/ ٢٤٠) عن أبي الدرداء، وهو حديث ضعيف، ينظر: «الأحاديث التي لا أصل لها في كتاب الإحياء» للسبكي (٣٣١)، و«تذكرة الموضوعات» لمحمد طاهر الفتني (١٩٦).

(٥) في حاشية الأصل وع زيادة: «.. وفي أثر آخر: أن الله تعالى أوحى إلى داود ﷺ: «قل لشبان بني إسرائيل: لِمَ تشغلون أنفسكم بغيري، وأنا مشتاق إليكم، وما هذا الجفاء؟ وفي أثر آخر: أوحى الله إلى داود: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم؛ لماتوا شوقًا إليَّ، وانقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود، هذه إرادتي في المدبرين، فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ؟»». ينظر: «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).

(٦) سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري الصوفي، الأستاذ أبو عثمان، ولد بالري ونشأ بها، ثم انتقل إلى نيسابور، فسكنها حتى مات، سمع من محمد بن مقاتل بالري ومحمد بن الأَخْمَسيِّ وحميد بن الربيع بالعراق. توفي سنة (٢٩٨)هـ. انظر: «تاريخ بغداد» (٩/ ٩٩)، و«طبقات الصوفية» (ص/ ١٧٠)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٣٦٦) و«السير» (١٤/ ٦٢).

إليَّ غالبٌ، وأنا أجَّلْتُ للقائِكم[١] أجلًا، وعن قريبٍ يكونُ وصولُكم إلى من تشتاقون إليه[٢]»[٣].

والصوابُ أن يقالَ: إطلاقُ اللفظِ متوقفٌ[٤] على السمعِ، ولم يردْ به، فلا ينبغي إطلاقُه. وهذا كلفظِ العشقِ أيضًا؛ فإنه لمَّا لم يردْ به سمعٌ؛ فإنه يمتنعْ إطلاقُه عليه سبحانه[٥]. واللفظُ الذي أطلقه سبحانَهُ على نفسِه وأخبرَ به عنها أتمُّ من هذا وأجلُّ

---

(١) في م: «لكم». (٢) في ك: «إلي».

(٣) ينظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٧٩)، و«الرسالة القشيرية» (ص/ ٣٣٢).

(٤) في م، س: «اطلاقه متوقف».

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «مع أنه قد يقال: الشوق أيضًا صفة نقص، ولهذا لم يثبت ذلك في حق الله تعالى، وقد روي: «**طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق**»، وهو حديث ضعيف. «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣١٧)، وقال أيضًا: «والناس في العشق على قولين:

قيل: إنه من باب الإرادات، وهذا هو المشهور، وقيل: من باب التصورات، وأنه فساد في التخييل حيث يتصور المعشوق على ما هو به، قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق، ولا أنه يعشق؛ لأنه منزَّه عن ذلك، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالًا فاسدًا، وأما الأولون؛ فمنهم من قال: يوصف بالعشق؛ فإنه المحبة التامة، والله يُحِبُّ ويحَبُّ. وروي في أثر عن عبد الواحد بن زيد أنه قال: «**لا يزال عبدي يتقرب إليَّ، يعشقني، وأعشقه**» وهذا قول بعض الصوفية، والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ في حق الله؛ لأن العشق هو: المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها، فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته، قال هؤلاء: والعشق مذموم مطلقًا، لا يمدح لا في محبة الخالق ولا المخلوق؛ لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود، وأيضًا فإن لفظ العشق إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأة، أو صبي، ولا يستعمل في محبة كمحبة الأهل، والمال، والوطن، والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين، وهو مقرون كثيرًا بالفعل المحرم، إما بمحبة امرأة أجنبية، أو صبي يقترن به النظر المحرم واللمس المحرم، وغير ذلك من الأفعال المحرمة» «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٣٠-١٣١).

وقال في «النبوات» (١٠١): «فإن الذين قالوا: «لا يجوز وصفه بأنه يُعشق» منهم من قال: لأن العشق هو: الإفراط في المحبة، والله تعالى لا إفراط في حبه، ومنهم من قال: العشق لا يكون إلا مع فساد التصور للمعشوق، وإلا فمع صحة التصور لا يحصل إفراط في الحب، وهذا المعنى لا يمدح فاعله؛ فإن من تصور في الله ما هو منزه عنه، فهو مذموم على تصوره، ولوازم تصوره، ومنهم من قال: لأن الشرع لم يرِد بهذا اللفظ، وفيه إبهام وإيهام، فلا يطلق، وهذا أقرب»، وينظر كذلك: «قاعدة في المحبة» (ص/ ١١٦-١٢٣).

وقال ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ١٧٦): «ولكن لا يوصف به الرب تعالى، ولا العبد في محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم، واختلف في سبب المنع؛ فقيل: عدم التوقيف، وقيل غير ذلك، ولعلَّ امتناع إطلاقه: أن العشق محبة مع شهوة».

شأنًا، وهو لفظُ المحبةِ؛ فإنه سبحانه يوصفُ من كلِّ صفةِ كمالٍ بأكملِها وأجلِّها، وأعلاها؛ فيوصفُ من الإرادةِ بأكملِها، وهو الحكمةُ، وحصولُ كلِّ ما يريدُ بإرادتِه، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧].

وبإرادةِ اليسرِ لا العسرِ، كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] وبإرادةِ الإحسانِ، وإتمامِ النعمةِ على عبادِه، كقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النِّسَاء: الآية ٢٧]؛ فإرادةُ التوبةِ له، وإرادةُ الميلِ لمبتغي الشهواتِ. وقولُه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٦] وكذلك الكلامُ يصفُ نفسَه منه [بأعلى أنواعِهِ؛ كالصدقِ والعدلِ والحقِّ، وكذلك الفعلُ يصفُ نفسَه منه](١) بأكملِه، وهو العدلُ والحكمةُ والمصلحةُ والنعمةُ. وهكذا المحبةُ وصفَ نفسَه منها بأعلاها وأشرفِها، فقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤] و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢] و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢) [آل عِمرَان: الآية ١٤٦]، ولم يصفْ نفسَه بغيرِها من العلاقةِ، والميلِ، والصبابةِ والعشقِ، والغرامِ، [ونحوِها](٣)؛ فإن مُسمَّى المحبةِ أشرفُ وأكملُ من هذهِ المسمياتِ، فجاء في حقِّه إطلاقُه دونَها. وهذهِ المسمياتُ لا تنفكُ عن لوازمَ ومعانٍ ينزَّه تعالى عن الاتصافِ بها(٤)، وهكذا جميعُ ما أطلقه على نفسِه من صفاتِه العُلَى، [أكملُ] معنًى [و] لفظًا مما لم يطلقْه، فالعليمُ الخبيرُ أكملُ من الفقيهِ والعارفِ، والكريمُ الجوادُ أكملُ من السخيِّ، والخالقُ البارئُ المصورُ أكملُ من الصانعِ الفاعلِ، ولهذا لم تجىء هذهِ في أسمائِه الحسنى، والرحيمُ والرؤوفُ أكملُ من الشفيقِ [والمشفقِ](٥).

حكمُ اشتقاقِ أسماءِ الربِّ من أفعالِهِ

فعليك بمراعاةِ ما أطلقه سبحانه على نفسِه من الأسماءِ والصفاتِ، والوقوفِ معها وعدمِ إطلاقِ(٦) ما لم يطلقْه على نفسِه، ما لم يكنْ مطابقًا لمعنى أسمائِه وصفاتِه، وحينئذٍ فيطلقُ المعنى لمطابقتِه لها دونَ اللفظِ، ولا سيما إذا كان مجملًا أو منقسمًا إلى ما يمدحُ به. وغيرُه؛ فإنه لا يجوزُ إطلاقُه إلا مقيدًا، وهذا كلفظِ الفاعلِ والصانعِ؛ فإنه

(١) سقط من ك، س.
(٢) في ع: «ويحب الصابرين، ويحب المحسنين».
(٣) سقط من م.
(٤) سيأتي قريبًا.
(٥) سقط من ك، س.
(٦) في س: «الإطلاق».

لا يطلقُ عليه في أسمائِه الحسنى إلا إطلاقًا مقيدًا، كما أطلقَه على نفسِه، كقولِه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧] وقولِه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النَّمل: الآية ٨٨] فإنَّ اسمَ الفاعلِ والصانعِ منقسمُ المعنى إلى ما يمدحُ عليه ويذمُّ[١]، ولهذا المعنى. واللهُ أعلمُ. لم يجيء في الأسماءِ الحسنى المريدُ، كما جاء فيها السميعُ البصيرُ، ولا المتكلمُ ولا الآمرُ الناهي؛ لانقسامِ مُسمَّى هذهِ الأسماءِ، بل وصف نفسَه بكمالاتِها وأشرفِ أنواعِها.

ومن هنا يعلمُ غلطُ بعضِ المتأخرين وزلقُهُ الفاحشُ في اشتقاقِه[٢] له سبحانه من كلِّ فعلٍ أخبرَ به عن نفسِه [اسمًا][٣] مطلقًا، وأدخله في أسمائِه الحُسنى، فاشتقَّ له اسمَ الماكرِ، والخادعِ، والفاتنِ، والمُضِلِ، والكاتبِ[٤]، ونحوِها من قولِه: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفَال: الآية ٣٠] ومن قولِه: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٢] ومن قولِه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: الآية ١٣١] ومن قولِه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرّعد: ٢٧] وقولِه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجَادلة: الآية ٢١] وهذا خطأٌ من وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ سبحانه لم يطلقْ على نفسِه هذهِ الأسماءَ؛ فإطلاقُها عليه لا يجوزُ.

الثاني: أنه سبحانه إنما أخبرَ عن نفسِه بأفعالٍ مختصةٍ مقيدةٍ، فلا يجوزُ أن ينسبَ إليه مسمَّى الاسمِ عند الإطلاقِ.

الثالثُ: أن مُسَمَّى هذهِ الأسماءِ منقسمٌ إلى ما يمدحُ عليه المُسَمَّى به، وإلى ما يذمُّ. فيحسنُ في موضعٍ، ويقبحُ في موضعٍ، فيمتنعُ إطلاقُه عليه سبحانه من غيرِ تفصيلٍ.

---

(١) قال شيخ الإسلام ﷺ: «والمقصود هنا التنبيه على الفرق بين المتكلم والمريد وغيرهما حيث جاءت النصوص باسم العليم، والقدير، والسميع، والبصير، ولم تأتِ باسم المريد والمتكلم، بما يدل على مطلق الإرادة والكلام، وإنما جاءت بما يدل على الكلام المحمود، لا باسم يشترك فيه المحمود والمذموم». «شرح العقيدة الأصفهانية» (٢٢).

قال المؤلف: «وأما لفظ الصانع فلم يرد في أسماء الرب سبحانه، ولا يمكن ورودها؛ فإن الصانع من صنع شيئًا عدلًا كان أو ظلمًا وسفهًا أو حكمة، جائزًا أو غير جائز، وما انقسم مسماه إلى مدح وذم لم يجئ اسمه المطلق في الأسماء الحسنى، كالفاعل، والعامل، والصانع والمريد، والمتكلم؛ لانقسام معاني هذه الأسماء إلى محمود ومذموم، بخلاف العالم، والقادر، والحي، والسميع والبصير» «شفاء العليل» (١/ ١٣٢).

(٢) في ك: «اشتقاقها». (٣) سقط من م. (٤) في م زيادة: «والغالب».

الرابعُ: أن هذهِ ليست من الأسماءِ الحسنى التي يُسمَّى بها سبحانه، فلا يجوزُ أن يُسَمَّى بها؛ فإنَّ أسماءَ الربِّ تعالى كلَّها حسنى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهي التي يُحبُّ سبحانه، و يُثْنى عليه[١] ويحمدُ، ويمجدُ بها دونَ غيرِها.

الخامسُ: أن هذا القائلَ لو سُمي بهذِهِ الأسماءِ، وقيل: هذهِ مدحتُك، وثناءٌ عليك فأنتَ الماكرُ، الفاتنُ، المخادعُ، المضلُّ، اللاعنُ[٢]، الفاعلُ، الصانعُ، ونحوْها أكان[٣] يَرضى بإطلاقِ هذهِ الأسماءِ عليه ويعدُّها مدحةً؟ وللهِ المثلُ الأعلى ﷻ عما يقولُ الجاهلون به علوًّا كبيرًا.

السادسُ: أن هذا القائلَ يلزمُهُ أن يجعلَ من أسمائِهِ اللاعنَ[٤]، والجائيَ، والآتيَ والذاهبَ، والتاركَ، والمقاتلَ، والصارفَ، والمنزلَ، والنازلَ، والمُدَمْدِمَ[٥] والمدمرَ، وأضعافَ أضعافِ ذلك، فيشتقُّ له أسماءِ من كلِّ فعلٍ أخبرَ به [عن نفسِه][٦] وإلا تناقضَ تناقُضًا بَيِّنًا، ولا يمكِنُه[٧]. ولا أحدًا من العقلاءِ طَرَدَ ذلك، فعُلِم بطلانُ قولِه[٨]. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

---

(١) في م: «عليه بها». (٢) في ع: «الأعز». (٣) في ك، س: «لما كان».

(٤) في ع: «الأعز».

(٥) دمدمت الشيء: إذا ألزقته بالأرض، وطحطحته، ويراد به الطحن، والرجف، والإهلاك، والغضب والإطباق على الشيء وتسويته، ينظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٥٦٠)، «لسان العرب» (١٢/ ٢٠٨- ٢٠٩).

(٦) سقط من م. (٧) سقط من س.

(٨) قال ابن حزم: «ولا يحل لأحد أن يشتق لله تعالى اسمًا لم يُسَمَّ به؛ برهان ذلك أنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝﴾ [الشمس: الآية ٥] وقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ [الطارق: الآية ١٦] وقال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝﴾ [آل عمران: الآية ٥٤] ولا يحل لأحد أن يسميه البنّاء، ولا الكيّاد، ولا الماكر، ولا المتجبر، ولا المستكبر، لا على أنه المجازي بذلك، ولا على وجه أصلًا، ومن ادعى غير هذا فقد ألحد في أسمائه تعالى، وتناقض» «المحلى» (١/ ٣٠).

وللمزيد ينظر: «المقصد الأسنى في شرح معاني الأسماء الحسنى» للغزالي (١٧٣)، و«الجواب الصحيح» لشيخ الإسلام (٥/ ٧) وما بعدها، و«شفاء العليل» للمؤلف (١/ ١٣٢)، و«بدائع الفوائد» له أيضًا (١/ ١٧٠)، و«معنى لا إله إلا الله» للزركشي (١٤٠) وما بعدها، و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (١/ ١٢٥)، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» للشيخ: محمد العثيمين (ص/ ٢١) و«القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف» د: إبراهيم البريكان (ص/ ١٦٦)، و«أسماء الله الحسنى» عبد الله الغصن =

فصلٌ

فصلٌ: شوقُ العبدِ إلى الله وإلى لقائِهِ

وأما المسألةُ الثانيةُ: وهي: هلْ يطلقُ على العبدِ أنه يشتاقُ[١] إلى اللهِ، وإلى لقائِه؟: فهذا غيرُ ممتنع، فقد روى الإمامُ أحمدُ في «مسندِه»، والنسائيُّ وغيرُهما من حديثِ حمادِ بن سلمةَ[٢]، عن عطاءِ بن السائبِ[٣]، عن أبيهِ[٤]، قال: صلَّى بِنَا عمارُ بنُ ياسرٍ[٥] صلاةً، فأوجز فيها، فقلتُ: خففتَ يا أبا اليقظانِ، فقال: وما عليَّ من ذلك، ولقد دعوتُ اللهَ بدعواتٍ سمعتُها من رسولِ الله ﷺ. فلما قام تبعه رجلٌ من القوم، فسأله عن الدعواتِ، فقال: «**اللَّهمَّ بعلمِك الغيبَ، وقدرتِك على الخلقِ، أحيني ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي، وتوفني إذا علمتَ الوفاةَ خيرًا لي، اللَّهمَّ إني أسألُك خشيتَك في الغيبِ والشهادةِ، وأسألُك كلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرضا، وأسألُك القصدَ في الغنى والفقرِ[٦]، وأسألُك نعيمًا لا ينفدُ، وقرةَ عينٍ لا تنقطعُ، وأسألُك الرضا بعد القضاءِ، وبردَ العيشِ بعد الموتِ، وأسألُك لذةَ النظرِ إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائِك، في غيرِ ضراءَ مضرةٍ ولا فتنةٍ مضلةٍ. اللَّهمَّ زيِّنا بزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هداةً مهتدين**»[٧]. فهذا فيه إثباتُ لذةِ النظرِ إلى وجهِهِ الكريمِ، وشوقِ أحبابِه [إليهِ و][٨]إلى لقائِهِ. فإنَّ حقيقةَ الشوقِ إليه هو الشوقُ إلى لقائِه.

قال أبو القاسمِ القشيريُّ[٩]:

= (١٣٥)، و«النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» محمد الحمود (١/ ٣١) وما بعدها و«معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى» د: محمد التميمي.

(١) في م: «مشتاق».
(٢) سبقت ترجمته.

(٣) عطاء بن السائب بن زيد الثقفي سبقت ترجمته.

(٤) السائب بن زيد الثقفي سبقت ترجمته.

(٥) عمار بن ياسر: سبقت ترجمته.

(٦) في م، ك، وفي النسائي، وأحمد: «في الفقر والغنى».

(٧) رواه النسائي، ح (١٣٠٥)، وأحمد (٤/ ٢٦٤) وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٢٨٠)، ح (١٢٣٧).

(٨) سقط من ك، س.

(٩) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، الخرساني، النيسابوري، الصوفي، المفسر شيخ خرسان في عصره، كان علامة في الفقه، والتفسير، والحديث، والأصول، والأدب، والشعر وعِلم =

سمعتُ الأستاذَ أبا علي[(١)] يقولُ في قولِه ﷺ: «**أسألُكَ الشوقَ إلى لقائِكَ**» قال: كان الشوقُ مائةَ جزءٍ، فتسعةٌ وتسعون له، وجزءٌ متفرقٌ في الناسِ. فأرادَ أن يكونَ ذلك الجزءُ أيضًا له[(٢)]، فغارَ أنْ تكونَ شظيةٌ[(٣)] من الشوقِ لغيرِه. قال: وسمعتُه يقولُ في قولِ موسى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: الآية ٨٤]، قال: معناه شوقًا إليك، فستره بلفظِ الرِّضَى»[(٤)]، وهذا أكثرُ مشايخِ الطريقِ يطلقونه، ولا يمتنعون[(٥)] منه.

وقيل: «إن شعيبًا بكى حتى عميَ بصرُه، فأوحى اللهُ إليه: إنْ كان هذا لأجلِ الجنةِ؛ فقد أبحتُها لك، وإن كان لأجلِ النارِ؛ فقد أجرتُكَ منها. فقال: لا، بلْ شوقًا إليك»[(٦)]. وقال بعضُ العارفين: «مَنِ اشتاقَ إلى اللهِ؛ اشتاقَ إليه كلُّ شيءٍ». وقال بعضُهم: قلوبُ المشتاقين منورةٌ بنورِ اللهِ ﷻ؛ فإذا تحرك اشتياقُهم، أضاء النورُ ما بين السماءِ والأرضِ، فيعرضهم اللهُ على الملائكةِ، فيقولُ: هؤلاءِ المشتاقون إليَّ إني أشهدُكم أني إليهم أشوقُ»[(٧)]، وإذا كان الشوقُ هو سفرَ القلبِ في طلبِ محبوبِه ونُزوعَه إليه؛ فهو من أشرفِ مقاماتِ العبدِ وأجلِّها، وأعلاها، ومن أنكر شوقَ العبدِ إلى ربِّه، فقد أنكرَ محبتَه[(٨)] له؛ لأنَّ المحبةَ تستلزمُ الشوقَ، فالمحبُّ[(٩)] دائمًا مشتاقٌ إلى لقاءِ حبيبِه، لا يهدأُ قلبُه، ولا يقرُّ قرارُه إلا بالوصولِ إليه.

وأما[(١٠)] قولُه: «إن الشوقَ عند الخواصِّ عِلةٌ عظيمةٌ؛ لأن الشوقَ إنما يكونُ إلى غائبٍ، ومذهبُ هذهِ الطائفةِ إنما قام على المشاهدةِ»[(١١)].

أنواعُ المشاهدةِ

فيقالُ: [المشاهدةُ][(١٢)] نوعان: مشاهدةُ عرفانٍ، ومشاهدةُ عيانٍ. وبينهما من التفاوتِ ما بين اليقينِ والعيانِ. ولا ريبَ أن مشاهدةَ العرفانِ متفاوتةٌ بحسبِ تفاوتِ الناسِ في المعرفةِ، ورسوخِهم فيها، وليس للمعرفةِ نهايةٌ تنتهي إليها، بحيثُ إذا وَصَلَ

= التصوف، صَحِبَ أبا علي الدقاق، وله تصانيف منها: «التيسير في علم التفسير»، و«الرسالة»، و«المناجاة» وغيرها، توفي سنة (٤٦٥)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (١١/ ٨٣)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٩٨)، و«السير» (١٨/ ٢٢٧).

(١) أبو علي الدقاق: سبقت ترجمته.
(٢) في ك، س: «له أيضًا».
(٣) في م: «شعبة».
(٤) «الرسالة القشيرية» (٣٣١).
(٥) في م: «يمنون».
(٦) المصدر السابق (٣٣٣).
(٧) المصدر السابق (٣٣١-٣٣٢).
(٨) في م: «المحبة».
(٩) في س: «فإن المحب».
(١٠) في ك، س: «فأما».
(١١) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٤).
(١٢) سقط من ك.

إليها العارفُ[١]؛ سكنَ قلبُه عن الطلبِ، بل كُلَّما وصل منها إلى معلمٍ ومنزلةٍ؛ اشتدَّ شوقُه إلى ما وراءَه، فكلما[٢] ازدادَ معرفةً؛ ازداد شوقًا؛ فشوقُ العارفِ أعظمُ الشوقِ، فلا يزالُ في مزيدٍ من الشوقِ ما دام في مزيدٍ من المعرفةِ، فكيف يكونُ الشوقُ عنده علةً عظيمةً؟ هذا من المحالِ البيِّنِ. بل من عرفَ اللهَ؛ اشتاق إليه، وإذا كانتِ المعرفةُ لا نهايةَ لها، فشوقُ العارفِ لا نهايةَ له. هذا مع الشوقِ الناشئِ عن طلبِ اللقاءِ والرؤيةِ، والمعرفةِ العيانيةِ.

فإذا كان القلبُ[٣] حاضرًا عند ربِّه، وهو غيرُ غائبٍ عنه؛ لم يوجبْ له هذا أن لا يكونَ مشتاقًا إلى لقائِه ورؤيتِه، بل هذا يكونُ أتمَّ لشوقِهِ وأعظمَ. فظهر أن قولَه:

«إن الشوقَ علةٌ عظيمةٌ في طريقِ الخواصِّ» كلام بُاطلٌ على كلِّ تقديرٍ، وأن الشوقَ بالحقيقةِ إنما هو شوقُ الخواصِّ العارفين باللهِ، والعبدُ إذا كانَ له مع اللهِ حالٌ أو مقامٌ، وكَشَفَ له عما هو أفضلُ منه وأجلُّ، اشتاق إليه بالضرورةِ، ولم يكنْ شوقُه علةً له ونقصًا في حالِه، بل زيادةً وكمالًا، ويكونُ تركُ الشوقِ هو العلةَ. وقد تقدَّمَ أنه لا غايةَ للمعرفةِ تنتهي إليها. فيبطلُ الشوقُ بنهايتِها، بل لا يزالُ العارفُ في مزيدٍ من معرفتِهِ وشوقِهِ. واللهُ المستعانُ.

تركُ الشوقِ هو العلةُ

فصلٌ: هل يزولُ الشوقُ باللقاءِ أم يقوى؟

فصلٌ

وأما المسألةُ الثالثةُ: وهي: هل يزولُ [الشوقُ][٤] باللقاءِ، أم يقوى؟:

فقالتْ طائفةٌ: الشوقُ يزولُ باللقاءِ؛ لأنه طلبٌ، فإذا حصلَ المطلوبُ، زالَ الطلبُ[٥]؛ لأن تحصيلَ الحاصلِ محالٌ، ولا معنى للشوقِ إلى شيءٍ حاصلٍ، وإنما يكونُ الشوقُ إلى شيءٍ مرادِ الحصولِ محبوبِ الإدراكِ[٦].

وقالتْ طائفةٌ أخرى: ليس كذلك، بل الشوقُ يزيدُ بالوصلِ واللقاءِ، ويتضاعفُ

---

(١) العارف: سبق التعريف به. (٢) في س: «فكما». (٣) في ك، س: «العبد».

(٤) سقط من م.

(٥) ولهذا إنما يقال للغائب: أنا إليك مشتاق، وأما من لم يزل حاضرًا مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه. «روضة المحبين» للمؤلف (٣٢).

(٦) «قيل لبعض المحبين: هل تشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلى غائبٍ، وهو حاضر» «الرسالة القشيرية» (٣٣١)، وقال داود الطائي: «إنما يُشتاق إلى غائب» «حلية الأولياء» (٧/ ٣٦٠).

بالدُّنوِّ، ولهذا قال القائلُ:

وأَعظمُ مَا يَكونُ الشَّوقُ يَومًا إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِن الدِّيارِ[١]

ولهذا قال بعضُهم: «شوقُ أهلِ القربِ أتمُّ من شوقِ المحجوبين»[٢]، واحتجتْ هذهِ الطائفةُ: بأن الشوقَ من آثارِ الحبِّ ولوازمِه، وكما[٣] أن الحبَّ لا يزولُ باللقاءِ؛ فهكذا الشوقُ الذي لايفارقُه. قالوا: ولهذا لا يزولُ الرِّضى والحمدُ والإجلالُ والمهابةُ التي هي من أثارِ المحبةِ باللقاءِ، فهكذا الشوقُ يتضاعفُ ولا يزولُ[٤]. والقولان حقٌّ.

فصلُ الخطابِ في المسألةِ

وفصلُ الخطابِ في المسألةِ: أن المحبَّ إذا اشتاق إلى لقاءِ محبوبِهِ، فإذا حصُلَ له اللقاءُ؛ زالَ ذلك الشوقُ الذي كان متعلقًا بلقائِه، وخَلَفه شوقٌ آخرُ أعظمُ منه، وأبلغُ إلى مزيدِ قربِهِ، والحظوةِ عندَه. وأما إذا قُدِّر أنه لقيَه، ثمَّ احتجَبَ عنه؛ ازداد شَوقُه إلى لقاءٍ آخرَ، ولا يزالُ يحصلُ له الشوقُ كلما حُجِبَ عنه، فهذا لا ينقطعُ شوقُه أبدًا، فهو إذا رآه بُلَّ شوقُه برؤيتِه، فإذا[٥] عَدَلَ عنه الطرفَ؛ عاودَهُ الشوقُ، كما قيل:

مَا يَرجعُ الطَّرفُ عَنه عِندَ رؤيَتِه حتَّى يعودَ إليهِ الطرفُ مُشتَاقا[٦]

أنواعُ الشوقِ

وإنما الشأنُ في دوامِ الشوقِ حالَ الوصولِ واللقاءِ، فاعلمْ أن الشوقَ نوعان: شوقٌ

---

(١) البيت لإسحاق الموصلي، ينظر: «الأمالي» للقالي (١/ ٥٦)، «الأغاني» للأصفهاني (٥/ ٣٦٩)، و«يتمية الدهر» لأبي منصور الثعالبي (٣/ ١٠٢)، و«خزانة الأدب» للحموي (١/ ٥١)، وفيها: «وأبرح ما يكون» مكان «وأعظم ما يكون» وفي «ديوان إسحاق» (١٣٣):

وكل مسافر يزداد شوقًا إذا دنت الديار من الديار

(٢) «الرسالة القشيرية» (٣٣٢). (٣) في ك، س: «فكما».

(٤) «قالوا: ومن الدليل على أن الشوق يكون حال اللقاء أعظم: أنا نرى المحب يبكي عند لقاء محبوبه، وذلك البكاء إنما من شدة شوقه إليه، ووَجْدِه به، ولذلك يَجدُ عند لقائه نوعًا من الشوق لم يجدْه في حال غيبته عنه» «مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ٥٣). و«سئل الجنيد: من أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سرورًا به وَوَجْدًا من شدة الشوق إليه» «الرسالة القشيرية» (٣٣٣) وللمزيد في هذه المسألة يراجع: «روضة المحبين» للمؤلف (٣٢)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٥٤).

(٥) في ك" «وإذا زال عنه» وفي س: «فإذا عزل عنه».

(٦) أورده ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (٦/ ٤٣٣)، ونسبه العسكري في «ديوان المعاني» (٢٢٣)، لأبي نواس وليس في «ديوانه»، وكلاهما بلفظ:

ما يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها القلب مشتاقا

وأورده أبو منصور الثعالبي في «يتيمة الدهر» (١/ ١٢١) وفيه: «حين يبصره» مكان «عند رؤيته»، و«القلب» مكان «الطرف». وذكره في «الرسالة القشيرية» (٣٢٩) بلفظه.

إلى اللقاءِ، فهذا يزولُ باللقاءِ، وشوقٌ في حالِ اللقاءِ، وهو تعلقُ الروحِ بالمحبوبِ تعلقًا لا ينقطعُ أبدًا، فلا تزالُ[١] الروحُ مشتاقةً إلى مزيدِ هذا التعلقِ وقوتِهِ اشتياقًا لا يهدأ. وقد أفصح بعضُ المحبين للمخلوقِ عن هذا المعنى، بقولِهِ:

أُعَانِقُهَا والنفسُ بَعدُ مَشُوقةٌ ... إلَيها وهَلْ بَعد العِنَاقِ تَدَاني
وأَلثمُ فَاهَا كَيْ تزُولَ صَبَابتي ... فَيشتدُّ ما أَلقَى مِنَ الهَيمانِ[٢]

فالشوقُ في حالِ الوصلِ والقربِ إلى مزيدِ النعيمِ واللذةِ لا ينقطعُ، والشوقُ في حالِ السيرِ إلى اللقاءِ ينقطعُ.

ونستغفرُ اللهَ من الكلامِ فيما لسنا بأهلٍ [له][٣].

فالخوفُ أولى بالمسيء ... إذا تَألَّهَ و الحَزنْ
والحُبُّ يجمُلُ بالتُّقِيِّ ... وبالنُّقِيِّ[٤] مِنَ الدَّرنْ
لَكنْ إذا [مَا][٥] لَمْ يُحبـ ... ـكم المُسيُء إذًا فَمنْ
وإذا تَخوَّنَ فعلُنَا[٦] ... فَعَلى المحبَّةِ مُؤتَمنْ
أَيُحَبُّ شيءٌ غَيرُكم ... وحَيَاتِكم كَلَّا ولَنْ
أَيُحَبُّ مَنْ تَأتي محبـ ... ـتُهُ بأنوَاعِ المِحَنْ
والسَّعدُ فيها ذَابِحٌ ... والقلبُ فيها مُمتحَنْ
دونَ الذي في حُبهِ ... نَيلُ السعَادةِ والمِنَنْ
ومَحلُّ بَدرِ كَمَالِها ... سَعدُ السعودِ هو الوَطنْ
والقلبُ حِينَ يَحِلُّ في ... تِلكَ المَنازلِ والدِّمنْ
يُمسي ويُصبح مِنْ رِضَا ... ه ومِنْ مُنَاهُ فِي وَطنْ
أَيُحبُّهمُ قلبٌ ويخـ ... ـشَى أَنْ يُضَامَ فَلا[٧] إِذَنْ[٨]

---

(١) في س: «فلا تزل».

(٢) لابن الرومي، ينظر: «ديوانه» (ص/٤٠٦) و«الأمالي» للقالي (١/ ٢٣٠)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٢١/ ١٢٢)، وفيها جميعًا: «تموت حزازتي» مكان «تزول صبابتي».

(٣) تكملة من ك، س. (٤) في ك، س: «وبالنقاء». (٥) سقط من س.

(٦) في م: «بعلمنا». (٧) في م: «ولا».

(٨) في «الرسالة القشيرية» (٣٣٢)، ذكر البيتين الأولين، ونسبهما إلى ذي النون المصري، وكذا في «حلية الأولياء» (١٠/ ٧٩).

فصلٌ

فصلٌ: الفرقُ بين الشوقِ والاشتياقِ

وأما المسألةُ الرابعةُ، وهي: الفرقُ بين الشوقِ والاشتياقِ: فقال أبو عبدِ الرحمنِ السلميُّ[١]: سمعتُ النصرَ أباذي[٢] يقولُ: «للخلقِ كلِّهم مقامُ الشوقِ، وليس لهم مقامُ الاشتياقِ. ومن دخل في حالِ الاشتياقِ هَام فيه[٣] حتى لا يُرَى له أثرٌ ولا قرارٌ»[٤]. وهذا يدلُّ على أن الاشتياقَ عنده غيرُ الشوقِ[٥]، ولا ريبَ أن الاشتياقَ مصدرُ: اشتاقَ، يشتاقُ، اشتياقًا، كما أن التشوقَ[٦] مصدرُ: تَشوَّقَ، تَشوقًا. والشوقَ في الأصلِ مصدرُ[٧]: شَاقه، يَشُوقُه، شوقًا، مثل: شاقه شوقًا، إذا دعاه إلى الاشتياقِ. فالاشتياقُ[٨] مطاوعُ شاقهَ، يقالُ: شاقني، فاشتقتُ إليه، ثم صار الشوقُ[٩] اسمَ مصدرِ الاشتياقِ، وغلبَ عليه، حتى لا يفهمَ [منه][١٠] عند الإطلاقِ إلا الاشتياقُ القائمُ بالمشوقِ. والمشوقُ هو: الصَّبُّ المشتاقُ. والشائقُ هو: الذي[١١] قامَ به داعي[١٢] الشوقِ، فههنا ألفاظٌ: الشوقِ، والاشتياقِ، والتشوقِ، والشائقِ والمشوقِ، والشيقِ. فهذهِ ستةُ ألفاظٍ:

أحدُها: الشوقُ: وهو في الأصلِ مصدرُ الفعلِ المتعدي: شاقَه، يشوقُه، ثم صار في اسمِ مصدرِ الاشتياقِ.

اللفظُ الثاني: الاشتياقُ، وهو مصدرُ: اشتاقَ اشتياقًا، والفرقُ بينه وبين الشوقِ هو

---

(١) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى، الأزدي، السلمي، النيسابوري، أبو عبد الرحمن، شيخ خرسان وكبير الصوفية، صاحب تصانيف كثيرة، منها - تفسير على طريقة الصوفية - وسنن، وتاريخ، وتراجم وغيرها، ولم يكن ثقة في الحديث، وقيل: إنه كان يضع الحديث للصوفية، وقد توفي سنة (٤١٢)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٤٨)، و«السير» (١٨/ ٢٤٧)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ١٤).

(٢) النصر أباذي: سبقت ترجمته. (٣) في س: «ختم عليه».

(٤) «الرسالة القشيرية» (٣٢٩-٣٣٠).

(٥) قال عبد الكريم القشيري في «الرسالة» (٣٢٩): «سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يفرق بين الشوق والاشتياق، فيقول: الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء».

(٦) في س: «التشويق». (٧) في ك: «اسم مصدر». (٨) في س: «والاشتياق».

(٩) في س: «التشوق». (١٠) سقط من س. (١١) في م: «مَنْ».

(١٢) في ك: «وادعي» وفي س: «دواعي».

الفرقُ بين المصدرِ، واسمِ المصدرِ[١].

اللفظُ الثالثُ: التشوقُ، وهو مصدرُ: تَشوَّقَ، إذا اشتاق مرةً بعدَ مرةٍ، كما يقالُ: تَجرَّعَ، وتَعلَّم، وتَفهَّم. وهذا البناءُ يشعرُ بالتكلفِ، وتناولِ الشيءِ على مُهْلةٍ[٢].

اللفظُ الرابعُ: الشائقُ: وهو الداعي للمشوقِ إلى[٣] الاشتياقِ.

اللفظُ الخامسُ: المشوقُ، وهو المشتاقُ الذي قد حصلَ له الشوقُ

اللفظُ[٤] السادسُ: الشيِّقُ، وهو (فَيْعِلٌ)[٥] بمنزلةِ (هيّن وليّن)، وهو المشتاقُ. فهذهِ فروقُ ما بين هذه الألفاظِ[٦]، وأما كونُ الاشتياقِ أبلغَ من الشوقِ؛ فهذا قد يقالُ فيه: إنه الأصلُ، وهو أكثرُ حروفًا من الشوقِ، وهو يدلُّ على المصدرِ والفاعلِ. وأما الشوقُ ففرعٌ عليهِ؛ لأنه اسمُ مصدرٍ، وأقلُّ حروفًا. وهو إنما يدلُّ على المصدرِ المجردِ، فهذهِ ثلاثةُ[٧] فروقٍ بينهما - واللهُ أعلمُ.

فصلٌ

فصلٌ: مراتبُ الشوقِ

وأما المسألةُ الخامسةُ وهي في مراتبِ الشوقِ ومنازلِه:

فقال صاحبُ «منازلِ السائرين»[٨]: «هو على ثلاثِ درجاتٍ:

الدرجةُ الأولى: شوقُ العابدِ إلى الجنةِ؛ ليأمنَ الخائفُ، ويفرحَ الحزينُ، ويظفرَ الآملُ.

والدرجةُ الثانيةُ: شوقٌ إلى اللهِ ﷻ، زرعَه الحبُّ الذي نبتَ على حافاتِ المننِ، فعلَّقَ قلبَه بصفاتِه المقدسةِ، واشتاقَ[٩] إلى معاينةِ لطائفِ كرمِه، وآياتِ برِّه، وعلامةِ

---

(١) سبق بيان الفرق في (ص/ ٧٣٣).

(٢) ينظر: «المفصل في صناعة الإعراب» لأبي القاسم الزمخشري (٣٧١)، و«الشافية» لجمال الدين الدويني (٢١).

(٣) في س: «وإلى». (٤) في س: «واللفظ». (٥) في ك: «فعيل».

(٦) ينظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٥٤٣)، و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٢٤١)، و«لسان العرب»: (١٠/ ١٩٢).

(٧) في جميع النسخ: «ثلاث»، والمثبت هو الصواب؛ لأن المعدود جمع (فرق)، وهو مذكر.

(٨) عبد الله الهروي: سبقت ترجمته. (٩) في «منازل السائرين» (٩٢): «فاشتاق».

فضلِه. وهذا شوقٌ تغشاهُ[١] المبَارُّ، وتخالجُه المَسارُّ، ويُقَارِنُه[٢] الاصطبارُ.

والدرجةُ الثالثةُ: نارٌ أضرمَهَا صفوُ المحبةِ، فَنَغَّصَتِ العيشَ، وسَلَبَتِ السَّلْوةَ[٣]، ولم يُنَهْنِهْهَا[٤]مَعْزًى[٥] دونَ اللقاءِ»[٦].

قلت: الدرجةُ الأولى: هي شوقٌ إلى فضلِ اللهِ وثوابِه. والثانيةُ: شوقٌ إلى لقائِه ورؤيتِهِ. والثالثةُ: شوقٌ إليه، لا لعلةٍ، ولا لسببٍ لا يلاحظُ[٧] فيه غيرُ ذاتِه.

فالأولُ: حظُّ[٨] المشتاقِ من أفعالِهِ وإنعامِهِ، **والثاني**: حظُّه من لقائِه ورؤيتِهِ، **والثالثُ**: قد فنيتْ فيه الحظوظُ، واضمحلتْ[٩] فيه الأقسامُ.

في الشوق ثلاثُ فوائدَ

وقولُه في الدرجةِ الأُولى: «ليأمنَ الخائفُ، ويفرحَ الحزينُ، ويظفرَ الآملُ»:

هذهِ ثلاثُ فوائدَ، ذكرها في هذا الشوقِ: أمنُ الخائفِ، وفرحُ الحزينِ، والظفرُ بالأملِ. فهذهِ المقاصدُ لما كانت حاصلةً بدخولِ الجنةِ، [و][١٠]كانتْ متصورةً

---

(١) في «منازل السائرين» (٩٢): «تَفْثَأُه» وهو من الفعل: فَثَأَ، أي: سكن، يقال: فَثَأَ غضبه، أي: كسر غضبه، وسكنه، ينظر: «المحيط في اللغة» للصاحب بن عباد (١٠/ ١٨٤)، و«النهاية في غريب الحديث»» لابن الأثير (٣/ ٤١٢)، «لسان العرب» (١/ ١٢٠)، و«القاموس المحيط» (٦٠).

(٢) في «منازل السائرين» (٩٢): «يقاويه».

(٣) السَّلْوة: الرغد من العيش، والرفاهية، والنعمة، ينظر: «العين» (٧/ ٢٩٧)، و«غريب الحديث» لابن سلام (٤/ ٢٨٥)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٩٦).

(٤) النَّهْنَهَةُ: الكف، والمنع، والزجر، وفي حديث وائل: **«لقد ابتدرها اثنا عشر ملكًا، فما نَهْنَهَهَا شيء دون العرش»** أي: ما منعها، وكفها عن الوصول إليه. ينظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ١٣٨)، و«لسان العرب» (١٣/ ٥٥٠).

(٥) في ع، س: «تعزي» وفي «منازل السائرين»: «مُعْزٍ»، ويكون المعنى على هذا: أن هذه النار لا يكفها ولا يمنعها شيء من الشدائد، حيث إن: المَعَزُ، هو: الشدة والصلابة، يقال: ما أَمْعَزَه من رجل!، أي: ما أشده وأصلبه! وروي عن عمر: «تَمَعْزَزُوا، واخْشَوْشِنُوا»، أي: كونوا أَشِدَّاء صُبُرًا، من المَعَزِ، وهو: الشدة. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٦٠)، و«النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير (٤/ ٣٤٢)، و«لسان العرب» (٥/ ٤١١-٤١٢).

(٦) «منازل السائرين» (٩٢). (٧) في ك: «ولا يلاحظ». (٨) في ك: «لحظ».

(٩) الضحل: القريب القعر، والماء الرقيق على وجه الأرض ليس له عمق، فهو يطلق على القليل من الشيء الذي يكاد يذهب. ينظر: «العين» (٣/ ١٠٤)، «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٢٦)، «لسان العرب» (١١/ ٣٩٠).

(١٠) سقط من ك.

للنفسِ؛ اشتدَّ[(١)] الشوقُ إليها؛ لحصولِ[(٢)] [هذهِ المطالبِ، وهي معنى الفوزِ والفلاحِ.

وجماعُ ذلك أمرانِ: أحدُهما: النجاةُ من كلِّ مكروهٍ، والثاني:][(٣)] الظفرُ بكلِّ محبوبٍ. فهذان هما المُشَوِّقَان إلى الجنةِ.

وقولُه في الثانيةِ: «شوقٌ إلى اللهِ زرعَهُ الحبُّ»: قد تقدَّم أن الشوقَ ثمرةُ الحبِّ. وقولُه: «الذي نَبَتَ[(٤)] على حَافَاتِ[(٥)] المننِ» أي: أنشأه الفكرُ في مننِ اللهِ تعالى وأياديهِ، وأنعامِهِ المتواترةِ، وفيه إشارةٌ إلى أن هذا الحبَّ الذي هو نابتٌ على الحافاتِ والجوانبِ بعده حبٌّ أكملُ منه، وهو الحبُّ الناشئُ من شهودِ كمالِ الأسماءِ والصفاتِ، وذلك ليس من نباتِ الحافاتِ، ولكن من الحبِّ الأولِ يُدخلُ إلى[(٦)] هذا كما تقدَّم[(٧)]. ولهذا قال: «فعلَّقَ قلبَه بصفاتِهِ المقدسةِ».

إكرامُ الربِّ عبدَه بأنواعِ كراماتِهِ دليلٌ على أنه مقبولٌ عندهُ

وقولُه: «واشتاقَ إلى معاينةِ لطائفِ كرمِهِ، وآياتِ برِّهِ، وعلامةِ فضلِهِ»: يشيرُ به إلى ما يكرمُ اللهُ به عبدَه من أنواعِ كراماتِهِ التي يُسْتَدَلُّ بها على أنه مقبولٌ عند ربِّهِ، ملاحَظٌ بعنايتِهِ، وأنه قد استخدمَهُ وكتبه في ديوانِ أوليائِهِ وخواصِّهِ.

ولا ريبَ أن العبدَ متى شاهَدَ تلك العلاماتِ والآياتِ قوي قلبُه، وفَرِحَ بفضلِ ربِّه، وعَلِمَ أنه [قد][(٨)] أُهِّلَ، فطابَ له السيرُ، ودامَ اشتياقُه، وزالتْ عنه العللُ، وما لم يُنعمْ عليه بشيءٍ من ذلك لم يزلْ كئيبًا حزينًا خائفًا أن يكونَ مِمَّن لا يصلحُ لذلك الجنابِ، ولم يؤهَّلْ لتلك المنزلةِ.

وقولُه: «وهذا شوقٌ تغشاهُ [المبارُّ][(٩)]»: هي جمعُ مبرَّةٍ، وهي[(١٠)]: البرُّ، أي: أن هذا الشوقَ مشحونٌ بالبرِّ، مغشي به، وهو إما برُّ القلبِ، وهو كثرةُ خيرِه، فهذا القلبُ أكثرُ القلوبِ خيرًا، فيفعل البرَّ تقربًا إلى من هو مشتاقٌ إليه، فهو يجيشُ بأنواعِ البرِّ،

---

(١) في ك: «أشد». (٢) في م: «بحصول»، وفي ك، س: «فحصول».

(٣) سقط من م، ك، س.

(٤) في س: «ينبت» والمثبت من الأصل، ومن كتاب «منازل السائرين» للهروي.

(٥) يقال: حَافَّة، وحُيَّف، وحِيفَةٌ: ناحية الشيء وجانبه. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١١١٣)، و«لسان العرب» (٩/ ٦٠)، و«القاموس المخيط» (١٠٣٧).

(٦) في ك: «في».

(٧) قد سبق كلام المؤلف في مسألة محبة العبد ربه لكماله جل وعلا.

(٨) سقط من س. (٩) سقط من م. (١٠) في م: «وهو».

وهذهِ من فوائدِ المحبةِ، أنَّ قلبَ صاحبِها تنبعُ منه عيونُ الخيرِ، وتتفجرُ منه ينابيعُ البرِّ [أو][(١)] يريدُ به[(٢)] أن مَبارَّ اللهِ ونعمَه تغشاهُ على الدوامِ.

وقولُه: «وتخالِجُهُ المسارُّ» أي: مخالطةُ السرورِ في غضونِ أشواقِهِ؛ فإنها أشواقٌ لا وحشةَ معها، ولا ألمَ، بل هي محشوةٌ بالمسراتِ.

معنى قولِهِ: ويقارنُهُ الاصطبارُ

وقولُه: «ويقارنُه الاصطبارُ» أي: صاحبُه له قوةٌ على اصطبارِهِ على مرضاةِ حبيبِهِ [لشدةِ شوقِهِ][(٣)] إليه، وإنما يضعفُ الصبرُ لضعفِ المحبةِ. والمحبُّ من أصبرِ الخلقِ كما قيل:

نفسُ المحبِّ على الآلامِ صابرةٌ   لعَلَّ مُسقِمَها يومًا يُداوِيها[(٤)]

وقولُه في الدرجةِ الثالثةِ: «إنها نارٌ أضرَمَها صفوُ المحبةِ»: يعني أن هذا الشوقَ يتوقدُ من خالصِ المحبةِ التي لا يشوبُها علةٌ، فهو أشدُّ أنواعِ الشوقِ، ولهذا [نغَّصَتِ العيشَ] أي: كَدَّرَتْهُ، ونغَّصَتِ المشتاقَ فيه؛ لأنه لا يصلُ إلى محبوبِه ما دامَ فيه، فهو يترقَّبُ مفارقتَه.

معنى قوله: وسلبتِ السلوةَ

وقولُه: «وسلبتِ السَّلْوةَ»: يعني أن صاحبَه لم يبقَ له مطمعٌ في سلوةٍ أبدًا، وهذا أعظمُ ما يكونُ من الحبِّ. والشوقُ: أن المحبَّ ييأسُ من السلوِ، وينقطعُ طمعُه منه كما ييأسُ من الأمورِ الممتنعةِ؛ كرجوعِ أيامِ الشبابِ عليه، وعودِه طفلًا، ونحو ذلك[(٥)].

وقولُه: «ولم يُنَهْنِهَا مَغْزًى[(٦)] دونَ اللقاءِ» أي: أن هذهِ النارَ لا يبردُها، ولا يُفْتِرُ

---

(١) سقط من ك، س.   (٢) في ع: «منه».

(٣) سقط من م، ك، وفي س: «لشوقه إليه».   (٤) لم أجده.

(٥) وقد قال أبو صخر الهذلي:

فيا حُبَّها زِدْني جَوًى كلَّ ليلةٍ   ويا سَلوَةَ الأيامِ موعدُكِ الحشرُ

ينظر: «الأغاني» للأصفهاني (٥/ ١٩٩) و(٢٤/ ١٠٩)، و«الحماسة» لأبي تمام بشرح التبريزي (٣/ ١١٩) و«المدهش» لابن الجوزي (٤٤٢)، و«خزانة الأدب» للحموي (٣/ ٢٣٤).

وقال ابن الجوزي في «المدهش» (٣٠٦): «إذا تمكنت المحبة؛ استحال السَّلو، وتعلقت يد المحبة بتلابيب القلب، فلا يمكنه التخلص، فيدور معها في دار المداراة» وقال أيضًا (ص/ ٤٤٢): «متى وقع السلو في حب صادق؟» وفي «معجم السفر» لأبي طاهر السلفي (١١٧)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٦/ ٥٢):

أما السلو فمستحيل   والليل بعدكم طويل
يا من ذُلِلْتُ لحبِّهِ   والحب صاحبه ذليل

(٦) في ك، س: «معزىً». ومَغْزَى: أي: مقصد، ومراد ومطلب، يقال: غَزَا الشيء غَزْوًا: أراده وطلَبَه، =

حرَّهَا مقصودٌ، ولا مطلبٌ، ولا مرادٌ، دون لقاءِ محبوبِهِ، فليس له سبيلٌ إلى تبريدِها وتسكينِها إلا بلقاءِ محبوبِهِ.

فصلٌ

مقامُ الصحوِ والبقاءِ أفضلُ من المحوِ والفناءِ

قال أبو العباسِ[(١)]: «فهذهِ كلُّها عللٌ أَنِفَ[(٢)] الخواصُّ منها، وأسبابٌ انفطَمُوا[(٣)] عنها، فلم يبقَ لهم مع الحقِّ إرادةٌ، ولا في عطائِهِ تشوقٌ إلى استزادةٍ. فهو مُنتهى زادِهِم، وغايةُ رغبتِهِم، فيعتقدون أنَّ ما دونَه قاطعٌ عنه ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٩][(٤)].

وإنما زهدُهم جمعُ الهمةِ عن تعريفاتِ الكونِ؛ لأن الحقَّ عافاهُم بنورِ الكشفِ عن التعلقِ بالأحوالِ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: ٤٦، ٤٧][(٥)].

قلت: يشيرُ بذلك إلى المحو[(٦)]، ومقامِ الفناءِ[(٧)]، الذي هو غايةُ الغاياتِ عنده، وقد تقدم الكلامُ عليه وأن مقامَ الصحو[(٨)] والبقاءِ[(٩)] أفضلُ منه، وأتمُّ عبوديةً. وينبغي أن يعرفَ أن مراعاةَ مقامِ الفناءِ، الذي جعلوه غايةً، آل بكثيرٍ من طالبيهِ إلى تركِ القيامِ بالأعمالِ جملةً، ورأوا أنها عللٌ قاطعةٌ عنه، واشتدَّ نكيرُ الشيوخِ والأئمةِ عليهم، حتى قال شيخُ الطائفةِ الجنيدُ[(١٠)] [رَحِمَهُ ٱللَّهُ][(١١)]:

«إنَّ الذي يزني ويسرقُ خيرٌ من هؤلاءِ[(١٢)]. وهم نوعان:

= ومَغْزَى الكلام أي: مراده ومقصده. ينظر: «الصحاح» للجوهري: (٥/ ١٩٤٦)، و«لسان العرب» (١٥/ ١٢٣) و«القاموس المحيط» (١٦٩٨).

(١) أبو العباس ابن العريف: سبقت ترجمته.

(٢) يقال: أَنِفَ من الشيء، يأنَف أَنَفًا: إذا كرهه، وشرفت عنه نفسه. «النهاية في غريب الأثر» (١/ ٧٥) و«لسان العرب» (٩/ ١٥).

(٣) في «محاسن المجالس» (٩٥): «انفصلوا».

(٤) في ك: «قل الله شهيد».

(٥) كتاب «محاسن المجالس»، (ص/ ٩٥).

(٦) المحو: سبق التعريف به.

(٧) الفناء: سبق التعريف به.

(٨) الصحو: سبق التعريف به.

(٩) البقاء: سبق التعريف به.

(١٠) الجنيد: سبقت ترجمته.

(١١) سقط من ك، س.

(١٢) جاء رجل إلى الجنيد، فقال له: «أهل المعرفة بالله يَصِلون إلى ترك الحركات من البر، والتقرب إلى الله =

نوعٌ جرَّدوا [شهودَ][(١)] الفناءِ في شهودِ الحكمِ، وهو الحكمُ القدريُّ، ورأوا أنه نهايةُ التوحيدِ، فآل بهم استغراقُهم فيه إلى اطراحِ الأسبابِ، حتى قال قائلُهم:

«العارفُ لا[(٢)] يعرفُ معروفًا، ولا ينكرُ منكرًا؛ لاستبصارِه بسرِ اللهِ في القدرِ»[(٣)].

والنوعُ الثاني: أصحابُ تجريدِ الفناءِ في الإرادةِ [فجرَّدُوا الفناءَ في الإرادةِ][(٤)] تجريدًا آلَ بهم إلى تركِ الأسبابِ جملةً.

والطائفتان منحرفتان ضالتان خارجتان عن العلمِ والدينِ[(٥)] ولهذا قال لهم شيخُ

= فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأَوكَدُ في معرفتي، وأقوى في حالي».

ينظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٧٨)، و«طبقات الصوفية» للسلمي (١٣١)، و«الرسالة القشيرية» (٣١٤).

(١) سقط من ك، س. (٢) في م: «لم».

(٣) قال ابن سينا في «الإشارات» (٤/ ١٠٤-١٠٥): «العارف لا يعنيه التجسس والتحسس، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر، كما لا تعتريه الرحمة؛ فإنه مستبصر بسر الله في القدر». ونسبه إليه المؤلف كما في «شفاء العليل»: (١/ ١٤)، وذكره أيضًا في «مدارج السالكين» (١/ ١٦٣)، (٢٤٥) و (٣/ ١٢٣)، (٣٤٣)، (٥٠٩).

(٤) سقط من م.

(٥) قال شيخ الإسلام. رَحِمَهُ ٱللَّهُ.: «وكلا الطائفتين الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة، والمحبة، والدنو والقرب منه من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزلين من عند الله، الذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية، ولا يصلون إلى الفرق الثاني، ويقولون: إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة، ولا يستقبح سيئة، ويجعلون هذا غاية السلوك.

والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه، ويحبونه ويكرهونه، ويأمرون به وينهون عنه، ولكن بإرادتهم ومحبتهم وهواهم، لا بالكتاب المنزل من عند الله.

كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله، وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة: أن لا إله إلا الله، وشهادة: أن محمدًا رسول الله؛ فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي أن لا يحب إلا الله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وإنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله، وهذا ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين، والفناء في هذا هو الفناء المأمور به، الذي جاءت به الرسل وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه».

«مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٣٧-٣٣٨).

القومِ الجنيدُ(١): عليكم بالفرقِ(٢) الثاني. يعني أن الفرقَ فرقان: فرقٌ بالطبعِ والهوى، وهو الفرقُ الذي شهدوه وفرُّوا منه إلى معنى الجمعِ(٣). ولكن بعد الجمعِ فرقٌ ثانٍ، وهو الفرقُ بالأمرِ والمحبةِ، لا بالشهوةِ والطبعِ، وهو دينُ الرسلِ [صلواتُ اللهِ عليهم وسلامُهُ](٤). فإن دينَهم مبناه على الفرقِ الأمْرِيِّ الشرعيِّ بين محبوبِ الربِّ ومأمورِه، وبين مسخوطِهِ ومنهيِهِ، فمن لم يشهدْ هذا الفرقَ [ولم يكنْ من أهلِهِ؛ لم يكنْ من أتباعِ الرسلِ. والكمالُ(٥) شهودُ الجمعِ في هذا الفرقِ](٦) فيشهدُ انفرادَ اللهِ وحده بالخلقِ والأمرِ، ويشهدُ الفرقَ بين ما يحبُّه، فيؤثرَه(٧)، ويقدِّمَه، وبين ما يبغضُه فيتركَه، ويتجنبَه(٨)، فيصيرَ له هذا الفرقُ في محلِّ فرقِهِ الطبعيِّ الحسيِّ بين ما يلائمُه وينافرُه.

الفرقُ بالطبعِ والهوى

الفرقُ بالأمرِ والمحبةِ

---

(١) الجنيد: سبقت ترجمته.

(٢) الفرق عند الصوفية: ما نسب إليك، والجمع: ما سلب عنك، فما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء المعاني وإسداء اللطف والإحسان فهو جمع، وقيل هو: إشارة إلى خلق بلا حق. «المعجم الصوفي» للحفني (١٩١)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأبي خزام (١٣٥). وقد قسم المؤلف. رَحِمَهُ اللهُ. الفرق قسمين: محمود ومذموم.

فالأول: الفرق بين القديم والمحدث، والخالق والمخلوق، وهو ما يقابل جمع الملاحدة.

والثاني: تفرقة الهمة والإرادة، وهو ما يقابل الجمع بين الإرادة والطلب على المراد المطلوب وحده، وهذا فرق مذموم» ينظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٢٧).

(٣) الجمع عند الصوفية: اتصال لا يشاهد صاحبهُ إلا الحق. سبحانه. فمتى شاهد غيره فما جمع.

فإذا قلت: الله ولا سواه فقد جمعت. «المعجم الصوفي» للحفني (٦٨)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأنور أبي خزام (٦٩). وقد قسم المؤلف الجمع قسمين:

الأول: جمع الوجود، وهو جمع الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، وهو جمع يسقط الفرق بين الخالق والمخلوق، وهو أبطل الباطل، وأهله هم أهل الإلحاد والكفر والوثنية.

الثاني: الجمع بين الإرادة والطلب علي المراد وحده، وهذا هو الجمع الصحيح» «مدارج السالكين» (٣/ ٤٢٧).

(٤) سقط من ك، س. (٥) في ك: «فإن الكمال». (٦) سقط من م.

(٧) في ك، س: «ويؤثره».

(٨) قال شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللهُ.: «فإن المراد بالجمع: أن يشهد الأشياء كلها مجتمعة في خلق الرب ومشيئته، وأنها صادرة بإرادته، لا يرجع مِثلًا عن مِثل، فلا يفرق بين مأمور ومحظور، وحسن وقبيح، وأولياء الله وأعدائه.

والوقوف عند هذا الجمع، هو الذي أنكره الجنيد، وغيره، من أئمة طريق أهل الله، أهل الحق فإنهم أمروا بالفرق الثاني، وهو: أن يشهد مع هذا الجمع أن الرب فرَّق بين ما أمر به، وبين ما نهى عنه؛ فأحب هذا =

ومن المعلومِ أن صاحبَ الجمعِ لا بدَّ أن يفرقَ بطبعِهِ وحسِّهِ، وإن ادعى عدمَ التفريقِ طبعًا؛ فإنه كاذبٌ مفترٍ، وإذا كان لا بدَّ من الفرقِ، فالفرقُ الشرعيُّ الإيمانيُّ الذي بعث اللهُ به رسلَه أولى به من الفرقِ الطبعيِّ الحيوانيِّ الذي شاركه فيه سائرُ البهائمِ. وأبطلُ من هذا الجمعِ الجمعُ في الوجودِ، وهو أن يرى الوجودَ كلَّه واحدًا، لا فرقَ فيه أصلًا، وإنما التفريقُ بالعادةِ والوهمِ فقط، كما يقولُه زنادقةُ القائلين بوحدةِ الوجودِ[١] الذين لا يفرِّقون بين الخالقِ والمخلوقِ، بل يجعلون وجودَ أحدِهما وجودَ الآخرِ، بل ليس عندهم أحدُهما والآخرُ؛ إذ[٢] ما ثمَّ غيرُهُ[٣]، فهذا جمعٌ في الوجودِ، وجمعُ أولئك جمعٌ في الشهودِ، وهَدَى اللهُ الذين آمنوا لِمَا اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنِهِ، فكانوا أصحابَ الجمعِ في الفرقِ، ففرقوا بين ما فَرَّق اللهُ بينه بإذنِه، وجمعوا الأشياءَ كلَّها في خلقِهِ وأمرِه، وجمعوا إرادتَهم [ومحبتَهم (وشهودَهم)[٤] فيه؛ فكانوا أصحابَ جمعٍ في فرقٍ،][٥] وفرقٍ في جمعٍ، فهؤلاءِ خواصُّ الخلقِ، [فنسألُ اللهَ العظيمَ من فضلِهِ وكرمِهِ. خواصُّ الخلقِ

فهؤلاءِ][٦] هم الذين لم يبقَ لهم مع الحقِّ إرادةٌ، بل صارتْ إراداتُهم تابعةً لإرادتِهِ، فحصلَ الاتحادُ في المرادِ فقط، لا في الإدارةِ ولا في المريدِ، فأصحابُ الوحدةِ ظنُّوا الاتحادَ في المريدِ، وأصحابُ الحلولِ[٧] توهَّمُوا الاتحادَ في الإرادةِ، وهدى اللهُ الذين آمنوا لِمَا اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنِهِ، فعلموا أن المرادَ واحدٌ؛ فالاتحادُ وقع في المرادِ فقط، لا في الإرادةِ ولا في المريدِ.

وقولُه: «فيعتقدون أن ما دونه قاطعٌ عنه»: إنما يكونُ ما دونه قاطعًا عنه إذا وقف العبدُ معه، وتعلقت إرادتُه به، وانصرف طلبُه إليه، وأما إذا جعله وسيلةً إلى اللهِ

= وأبغض هذا، وأثاب على هذا، وعاقب على هذا، فيحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويشهد الفرق في الجمع، والجمع في الفرق، لا يشهد جمعًا محضًا، ولا فرقًا محضًا» «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٦٩-٣٧٠). وينظر كذلك: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٦٩) و(١٠/ ٢٤٣)، و«منهاج السنة» (٣/ ١٦٨) و (٥/ ٣٣٩)، و«الاستغاثة» (٢/ ٧٤١)، و«الفتاوى الكبرى» (٢/ ٣٠٧)، (٤٠٤)، و«مدارج السالكين» للمؤلف (١/ ٢٤٧).

(١) أهل وحدة الوجود: سبق التعريف بهم.
(٢) في ك: «إذا».
(٣) في ك، س: «غير».
(٤) سقط من م.
(٥) بياض في ك، إذ إنه في الحاشية، ولم يتضح.
(٦) سقط من م.
(٧) أصحاب الحلول: سبق التعريف بهم.

وطريقًا يصلُ بها إليه؛ لم يكنْ قاطعًا ولا حجابًا، بل يكونُ حاجبًا موصلًا إليه، وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] المرادُ بالآيةِ: شهادتُه سبحانه لرسولِهِ بتصديقِهِ على رسالتِهِ؛ فإنَّ المشركين قالُوا لرسولِ اللهِ ﷺ: مَنْ يشهدُ لَكَ عَلَى ما تقولُ؟[١] فأنزل اللهُ تعالى آياتِ شهادتِهِ له، وشهادةِ ملائكتِهِ، وشهادةِ [علماءِ][٢] أهلِ الكتابِ له، فقالَ تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: الآية ٤٣] أي: ومَنْ عنده علمُ الكتابِ يشهدُ لي وشهادتُهُ مقبولةٌ؛ لأنها شهادةٌ بعلمٍ، وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء: الآية ١٦٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] فأخبر سبحانه في هذهِ[٣] المواضعِ بشهادتِهِ لرسولِهِ، وكفى بشهادتِهِ إثباتًا لصدقِهِ، وكفى به شهيدًا.

شهادةُ الله سبحانه لرسولِهِ ﷺ

فإن قيل: وما شهادتُه سبحانه لرسولِهِ ﷺ؟:

قيل: هي ما أقامَ على صدقِهِ من الدِّلالاتِ والآياتِ المستلزمةِ لصدقِهِ بعدَ العلمِ بها ضرورةً؛ فدلالتُها على صدقِهِ أعظمُ من دلالةِ كلِّ بينةٍ وشاهدٍ على حقٍّ؛ فشهادتُه سبحانه لرسولِهِ ﷺ أصدقُ شهادةً، وأعظمُها، وأدلُّها على ثبوتِ المشهودِ به، فهذا وجهٌ.

ووجهٌ آخرُ أنه صدَّقه بقولِهِ، وأقامَ الأدلةَ القاطعةَ على صدقِهِ فيما يخبرُ [به][٤] عنه. [فإذا أخبر عنه] أنه شهد له قولًا؛ لزم ضرورةُ صدقِهِ في ذلك الخبرِ، وصحتِ الشهادةُ له به قطعًا، فهذا معنى الآيةِ[٥]، وكأنه أجنبي عما . . . .

---

(١) أورده النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٢٩١) و (٤/ ١٩٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (١٨٠) والبغوي في «تفسيره» (٣/ ١٣٣)، عن الكلبي، والقرطبي في «تفسيره» (٦/ ٣٩٩)، عن الحسن، وينظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٩٨).

(٢) سقط من م. (٣) في ك: «هذا». (٤) سقط من م.

(٥) قال الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٢٣٤):

والشاهد هو المبين لدعوى المدعي، فأمر الله جل ثناؤه نبيه بأن يحتج عليهم بالواحد، الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الظلمات والنور، وخلقهم أطوارًا، على ما بيَّن في كتابه، وأمر أن يعلمهم أن شهادة الله بأنه واحد، وإقامة البراهين في توحيده أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به يشهد له بأنه رسوله فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ الذي اعترفتم بأنه خالق هذه الأشياء». وينظر في هذا: «تفسير الطبري» =

استشهد[١] به المصنفُ.

ونظيرُ هذا استشهادُهم بقولِهِ تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩١]» حتى رتَّب على ذلك بعضُهم أن الذكرَ بالاسمِ المفردِ، وهو اللهُ أفضلُ من الذكرِ بالجملةِ المركبةِ؛ كقولِهِ: «سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ» وهذا فاسدٌ مبنيٌّ على فاسدٍ؛ فإنَّ الذكرَ بالاسمِ المفردِ غيرُ مشروعٍ أصلًا، ولا يفيدُ شيئًا، ولا هو كلامٌ أصلًا، ولا يدلُّ على مدحٍ ولا تعظيمٍ، ولا يتعلقُ به إيمانٌ، ولا ثوابٌ، ولا يدخلُ به الذاكرُ في عقدِ الإسلامِ جملةً. فلو قال الكافرُ: «الله، الله» من أولِ عمرِهِ إلى آخرِه، لم يصرْ بذلك مسلمًا، فضلًا عن أن يكونَ من جملةِ الذكرِ، أو يكونَ أفضل الأذكارِ.

الذكرُ المفردُ

وبالغ بعضُهم في ذلك حتى قال: الذكرُ بالاسمِ المضمرِ أفضلُ من الذكرِ بالاسمِ الظاهرِ، فالذكرُ بقولِهِ: «هو، هو» أفضلُ من الذكرِ بقولِهِم[٢]: «الله، الله»، وكلُّ هذا من أنواعِ الهوسِ والخيالاتِ الباطلةِ المفضيةِ بأهلِها إلى أنواعٍ من الضلالاتِ، فهذا فسادُ هذا البناءِ الهائرِ[٣].

= (٦/ ١٦١) و«تفسير الواحدي» (١/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٨٩) و«زاد المسير» (٣/ ١٣)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٣٩٩).

(١) في م، س: «استدل». (٢) في ع: «بقوله».

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد دل الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة على جنس المشروع المستحب في ذكر الله ودعائه كسائر العبادات، وبين النبي مراتب الأذكار، كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب: **«أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»** ثم ساق جمعًا من الأدلة في ذلك، ثم قال: «فأما الاسم المفرد مظهرًا مثل: (الله، الله) أو مضمرًا مثل: (هو، هو)، فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضًا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضُلال المتأخرين.

وربما غلا بعضهم في ذلك، حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة، وربما قال بعضهم: (لا إله إلا الله) للمؤمنين، و (الله) للعارفين، و (هو) للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته، أو في جماعته على: (الله الله الله)، أو على: (هو)، أو: (يا هو)، أو: (لا هو إلا هو)، وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك، واستدل عليه تارة بوجدٍ، وتارة برأي، وتارة بنقل مكذوب، كما =

وأما فسادُ المبني عليه فإنهم ظنُّوا أن قولَه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: قُلْ هذا الاسمَ، فقل: الله، الله، وهذا من عدمِ فهمِ القومِ لكتابِ اللهِ؛ فإن اسمَ اللهِ هنا جوابٌ[(١)] لقولِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٩١] إلى أن قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: قل اللهُ أنزلَه؛ فإن السؤالَ معادٌ في الجوابِ فيتضمنُه، فيحذفُ اختصارًا، كما تقولُ: من خلقَ السمواتِ والأرضَ؟ فيقال: اللهُ. أي: الله خُلقَهُمَا، فيحذفُ الفعلُ؛ لدلالةِ السؤالِ عليه، فهذا معنى الآيةِ الذي لا تحتملُ غيرُه[(٢)].

= يروي بعضهم أن النبي ﷺ لقن علي بن أبي طالب أن يقول: (الله الله الله)، فقالها النبي ثلاثًا، ثم أمر عليًّا، فقالها ثلاثًا، وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث» ثم رد على استدلالهم بآية الأنعام. «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٥٣-٥٥٨) بتصرف.

والناظر في حال الصوفية يجد أن صيغ الذكر عندهم قد تعددت وتنوعت، فمنهم من يكون ذكره بالاسم المفرد، ومنهم من يذكر بـ(هو هو)، ومنهم من يكون ذكره: «آه آه» وغير ذلك.

وهذا التنوع بالذكر عندهم راجع إلى تعدد الطرق الصوفية، واختلاف الشيوخ في تقرير الذكر للمريدين حيث إن كل واحد منهم يُحرم على مريده أن يذكر ربه بغير ما شرَّع له، وبغير ما أذن له فيه، أو أن يذكر ربه بما تذكر به الطرق الأخرى، وهم يعتقدون أن أسماء الله قد يضر ذكرها هذا، وينفع ذاك، أو أنها تضر في حال، وتنفع في أخرى، والخبير بما ينفع الذاكر، أو يضره، إنما هو الشيخ، لهذا لا يستطيع الذاكر أن يقول: (لا إله إلا الله)، إلا إذا أمره بها شيخه. فوضع كل منهم لأتباعِ طريقته منهجًا خاصًّا بالذكر، وأذكارًا مخصوصة، ثم زعموا أن هذا الذكر الخاص قد أخذوه من الرسول منامًا، وبعضهم زعموا أنهم أخذوه يقظة، ومنهم من زعم أن الخضر هو الذي أوحي له به، إلى غير ذلك من المزاعم والترهات التي يضللون بها الجهال، حتى يضفي كل واحد منهم على ذكره الخاص نوعًا من القداسة. ينظر في هذا: «هذه هي الصوفية» لعبد الرحمن الوكيل (١٤٤)، و«الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» لعبد الرحمن عبد الخالق (٤٤١)، «التصوف بين الإفراط والتفريط» د: عمر كامل (٧٦)، و«ابن تيمية والصوفية» لمحمد أحمد درنيقة (١٠١)، و«التصوف وابن تيمية» د: مصطفى حلمي (٥١٤).

(١) في ك: «جوابًا».

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٥٩): «ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم، فخطأ واضح، ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٩١] أي: قل: الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلام تام، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب، وهذا =

قولُه: «وإنما زهدُهم جمعُ الهمةِ عن تفريقاتِ(١) الكونِ؛ لأن الحقَّ عافاهم بنورِ الكشفِ(٢) عن التعلقِ بالأحوالِ(٣)»(٤) فيقالُ: الكشفُ الذي أوجبَ لهم هذا الجمعَ، وقطع هذا التعلقَ، هو الكشفُ الإيمانيُّ القرآنيُّ، فهو في الحقيقةِ الكشفُ النافعُ الجاذبُ لصاحبِهِ إلى سلوكِ منازلِ الأبرارِ، والوصولِ إلى مقامِ القربِ(٥)، ولا سيما إذا قارنه الكشفُ عن عيوبِ النفسِ، وعللِ الأعمالِ، فناهيكَ به من كشفٍ.

أفضلُ كشفٍ يعطاه العبدُ

والكرامةُ المرتبةُ [عليه](٦) هي لزومُ الاستقامةِ ودوامُ العبوديةِ، فهذا أفضلُ كشفٍ يعطاهُ العبدُ، وهذهِ أفضلُ كرامةٍ يكرمُ بها الوليَّ. رزقنا اللهُ من فضلِهِ وبرِّهِ.

وأما استشهادُه بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص: الآية ٤٦] فهذهِ الآيةُ يخبرُ فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءَهُ ورسلَه من اختصاصِهم بالآخرةِ، وفيها قولان:

أحدُهما: أن المعنى: نزعْنا من قلوبِهِم حبَّ الدنيا، وذكرَها، وإيثارَها، والعملَ لها [وأخلصناها لحبِّ(٧) الآخرةِ وذكرِها وإيثارِها والعملِ لها](٨).

والقولُ الثاني: إنا أخلصناهم(٩) بأفضلِ ما في الدارِ الآخرةِ، واختَصَّيْنَاهُم به عن

= قياس مطرد في مثل هذا في كلام العرب، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] وقوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٠- ٦٢] وكذلك ما بعدها، وقوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧] على قراءة أبي عمرو، وتقول في الكلام: من جاء؟ فتقول: زيد، ومن أكرمت؟ فتقول: زيدًا، وبمن مررت؟ فتقول: بزيد، فيذكرون الاسم الذي هو جواب: (مَنْ)، ويحذفون المتصل به؛ لأنه قد ذكر في السؤال مرة، فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان؛ لما في ذلك من التطويل والتكرير».

(١) في «محاسن المجالس»: «تفرقات». (٢) الكشف: سبق التعريف به.

(٣) الحال: سبق التعريف به. (٤) «محاسن المجالس» (٩٥).

(٥) في ك، س: «مقامات القريب». (٦) سقط من س.

(٧) في م: «بحب». (٨) سقط من ك.

(٩) في س: «إنا أخلصناهم بخالصة».

العالمين[١].

قولُه: «وتوكلُهم: رضَاهُم[٢] بتدبيرِ الحقِّ، وتخلُّصُهم من تدبيرِهم، وفراغُ هممِهم[٣] من إجالتِها[٤] في إصلاحِ شؤونِهم، بوقوفِهم على فراغِ المدبرِ منها، ومرّها على علمِه بمصالحِهم فيها، ونفوسُهم مطمئنةٌ بذلك ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الفجر: الآية ٢٧] الآية»[٥].

وقد تقدَّمَ الكلامُ على التوكلِ، وبيانُ أنه من مقاماتِ العارفين، وأنه لا انفكاكَ للمؤمنِ منه، وذكرُ العلةِ فيه ما هي.

وقولُه: «وتوكلُهم: رضاهم بتدبيرِ الحقِّ» الرضى بالتدبيرِ ثمرةُ التوكلِ وموجبُه، لا أنه نفسُ التوكلِ، فالمقدورُ[٦] يكشفُه[٧] أمران:

التوكلُ قبلَ وقوعِهِ، والرضى به بعدَ وقوعِهِ، ومن هنا قال بعضُهم: حقيقةُ التوكلِ الرضى؛ لأنه لما كان ثمرتُه وموجبُه؛ استدلَّ له عليه استدلالًا بالأثرِ على المؤثرِ وبالمعلولِ على العلةِ.

ولهذا[٨] في الحديثِ الذي رواه [الإمامُ][٩] أحمدُ والنسائيُّ وغيرُهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال في دعائِهِ: **«اللَّهمَّ إني أسألُك بعلمِك الغيبَ وقدرتِك على الخلقِ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيرًا لي. اللَّهمَّ وأسألُك خشيتَك في الغيبِ والشهادةِ، وأسألُك كلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرضى، وأسألُك القصدَ في الفقرِ والغنى، وأسألُك نعيمًا لا ينفدُ، وأسألُك قرةَ عينٍ لا تنقطعُ، وأسألُك الرضى بعد القضاءِ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ١٢٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٦٦) و«زاد المسير» (٧/ ١٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤١).

(٢) في ك، س: «ورضاهم». (٣) في س: «همهم».

(٤) في م، ك، س: «اجتيالها». واجتال: إذا ذهب، وجاء، وطاف، ومنه الجولان في الحرب، ويقال: اجتال الرجل الشيء: إذا ذهب به وطرده وساقه. ينظر: «لسان العرب» (١١/ ١٣١)، و«القاموس المحيط» (١٢٦٧).

(٥) «محاسن المجالس» (٩٥).

(٦) في س: «في المقدور». (٧) في م: «يكتنفه».

(٨) في ك، س: «ولهذا قال في الحديث».

(٩) سقط من م.

«وأسألُك بردَ العيشِ بعد الموتِ» الحديث، وقد تقدم[١].

فقال: «وأسألُك الرضى بعد القضاءِ» وأما التوكلُ فإنما يكونُ قبلَه.

العبدُ دائرٌ بين مأمورٍ يفعله ومحظورٍ يتركهُ

وقولُه: «وتخليصُهم من تدبيرِهم» هذا مقامٌ كثيرًا ما يشيرُ إليه السالكون، وهو تركُ التدبير، وينبغي أن لا يؤخذَ على إطلاقِهِ، بل لا بدَّ فيه من التفصيلِ، فيقالُ: العبدُ دائرٌ بين مأمورٍ يفعلُه، ومحظورٍ يتركُه، وقد يجري عليه بلا إرادةٍ منه ولا كسبٍ، فوظيفتُه في المأمورِ كمالُ التدبيرِ، والجدُّ والتشميرُ، وأن يدبرَ الحيلةَ في تنفيذِهِ بكلِّ ما يمكنُه، فتركُ التدبيرِ هنا تعطيلٌ للأمرِ. بل يدبرُ فعلَه ناظرًا [إلى تدبيرِ الحقِّ له، وأن تدبيرَه إنما يتمُّ بتدبيرِ اللهِ له، فلا يكونُ هنا قدريًا[٢] مجوسيًا[٣] ناظرًا][٤] إلى فعلِهِ، جاحدًا لتدبيرِ اللهِ وتقديرِهِ ومعونتِهِ، ولا قدريًّا مجبرًا[٥][٦]، واقفًا مع القدرِ جاحدًا لفعلِهِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) القدرية: اسم أطلقه أهل السنة والجماعة على الذين يزعمون أنهم الفاعلون لأفعالهم دون الله ﷻ، فهم يكذبون بتقدير الله ﷻ لأفعال العباد، ويقولون: لا قدر، والأمر أُنُف، ويقولون: إن الله لم يُقدر الكتابة، ولا الأعمال في السابق، وأول من أظهر القول بالقدر هو معبد الجهني، ثم غيلان الدمشقي، والجعد بن درهم. وقد تبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كابن عمر، وجابر، وأبي هريرة، وابن عباس، وأنس، وغيرهم، وأوصوا بأن لا يسلم على القدرية، ولا يصلى على جنائزهم، ولا يعاد مرضاهم، وهم صنفان: غلاة: وهم المنكرون للمراتب الأربع. وغير غلاة: وهم المنكرون لمرتبتين، وهما: الخلق والمشيئة. ينظر: «الفَرق بين الفِرق» (١٨)، و«الملل والنحل» (١/ ٤٣)، و«حز الغلاصم في إفحام المخاصم» لأبي الحسن ابن حيدرة (١٠٩)، و«القدرية والمرجئة» د: ناصر العقل (١٩).

(٣) عن ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» رواه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القدر، ح (٤٦٩١) وأحمد (٥/ ٤٠٦)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ٨٨٧)، ح (٣٩٢٥).

وقد سموا مجوسًا لمشابهتهم المجوس القائلين بإلاهين: النور والظلمة، وهؤلاء قالوا: إن الله خلق كل شيء عدا فعل العبد، فأثبتوا خالقين اثنين كما فعل المجوس.

(٤) سقط من س. (٥) في ك: «ومجبرًا».

(٦) الجبرية: من فرق المرجئة، وسموا بذلك نسبة إلى قولهم بالجبر، حيث قالوا بأن الله ﷻ جبر الخلق على الإيمان والكفر والطاعة، وخلقها فيهم، فأنكروا أن يكون للعبد فعل، بل قالوا هو: كالريشة في مهب الريح، لا قدرة له، ولا إرادة، وهم أصناف، فمنهم: الجبرية الخالصة، وهي لا تثبت للعبد فعلًا، ولا قدرة على الفعل أصلًا، والمتوسطة، وهي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. ينظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٨٥)، و«اعتقادات فرق المسلمين» للرازي (٦٨)، و«القضاء والقدر» د: عبد الرحمن المحمود (١٩٩).

وتدبيرِهِ، ومحلِّ أمرِ اللهِ ونهيهِ [منه][١]؛ فإن فعلَه الاختياريَّ هو محلُّ الأمرِ والنهي، فمن جحد فعلَ نفسِهِ فقد عطَّلَ الأمرَ والنهي، وجحَدَ محلَّهما.

ووظيفتُه في المحظورِ الفناءُ عن إرادتِهِ وفعلِهِ، فإن عارضتْه أسبابُ الفعلِ؛ فالواجبُ عليه الجدُّ في الهربِ، والتشميرُ في الكفِّ والبعدِ، وهذا تدبيرُه[٢] للنهي. وأما القدرُ الذي يصيبُه بغيرِ إرادتِهِ فهذا[٣] الذي يحسنُ فيه إسقاطُ التدبيرِ جملةً وصبرُه ورضاه بما قسم له من محبوبٍ ومكروهٍ. فعلى هذا التفصيلِ ينبغي أن يوضعَ إسقاطُ التدبيرِ.

وجماعُ ذلك أنك تسقطُ التدبيرَ في حظِّكَ، وتكونُ قائمًا بالتدبيرِ في حقِّ ربكَ. وهكذا ينبغي أن تفرغَ الهمةَ من إجالتِها في إصلاحِ شأنِكَ؛ فإنَّ إصلاحَ شأنِكَ بحصولِ حظوظِكَ يحسنُ[٤] فيه فراغُ الهمةِ، وتركُ التدبيرِ، وأما إصلاحُ شأنِكَ بأداءِ حقِّ اللهِ فالواجبُ شغلُ الهمةِ وإجالتُها في القيامِ به.

وقولُه: «بوقوفِهِم على فراغِ المدبرِ منها، ومَرِّها على علمِه بمصالحِهم فيها».

فلا ريبَ أن اللهَ سبحانه قضى القضيةَ، وفرغَ من تقديرِ[٥] أمورِ الخلائقِ، ولكنْ قدَّرها بأسبابِها المفضيةِ إليها، فلا يكونُ وقوفُ العبدِ على فراغِهِ سبحانه من أقضيتِهِ في خلقِهِ وتدبيرِهِ مانعًا له من قيامِهِ بالأسبابِ؛ التي جعلها طرقًا لحصولِ ما قضاه [منها][٦].

مباشرةُ الأسبابِ

وكذلك يباشرُ العبدُ الأسبابَ التي بها حفظُ حياتِهِ؛ من الطعامِ، والشرابِ، واللباسِ والمسكنِ، ولا يكونُ وقوفُه مع فراغِ المدبرِ منها مانعًا له من تعاطيها.

وكذلك يباشرُ الأسبابَ الموجبةَ لبقاءِ النوعِ؛ من النكاحِ، والتسريِّ، ولا يكونُ وقوفُه مع فراغِ اللهِ من خلقِهِ مانعًا له [من ذلك][٧].

وهكذا جميعُ مصالحِ الدنيا والآخرةِ، وإن كانت مفروغًا منها قضاءً وقدرًا، فهي منوطةٌ بأسبابِها التي يتوقفُ حصولُها عليها شرعًا وخلقًا[٨].

---

(١) سقط من ك، س. (٢) في ك: «تدبير». (٣) في ع: «فهو».
(٤) في ع: «ويحصل». (٥) في ك: «تدبير». (٦) سقط من ك، س.
(٧) سقط من م، ك، س.
(٨) في م: «خلقًا وشرعًا».
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «جامع الرسائل» (١/ ٩٢-٩٣): «والذين ظنوا هذا أصل شبهتهم أنهم =

وأما استدلالُهُ بقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ فالنفسُ المطمئنةُ هي التي اطمأنتْ إلى ربِّها، وسكنتْ إلى حبِّه، واطمأنتْ بذكرِهِ، وأيقنتْ بوعدِهِ ورضيتْ بقضائِهِ[١]، وهي ضدُّ النفسِ الأمارةِ بالسوءِ، فلم تكنْ طمأنينتُها لمجردِ إسقاطِ تدبيرِها، بل بالقيامِ بحقِّهِ، والطمأنينةِ بحبِّهِ وبذكرِهِ.

فصلٌ

فصلٌ في الصبرِ

قال: «وصبرُهم: صونُهم قلوبَهم عن خواطرِ السوءِ بأن اللهَ تعالى قضى قضاءً عاريًا عن الرأفةِ[٢]، خارجًا عن الخيرةِ، قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: الآية ١٧]»[٣] قد تقدَّمَ الكلامُ في الصبرِ، وأقسامِهِ، وبيانُ مرتبتِهِ من الإيمانِ. وما ذكره في «تفسيرِه» هاهنا غيرُ مطابقٍ لمعناه، وهو تفسيرٌ بعيدٌ جدًّا؛ فإن الصبرَ من أعمالِ القلوبِ، وهو حبسُ النفسِ وكفُّها عن التسخطِ[٤].

وأما صونُ القلبِ عن اعتقادِ ما لا يليقُ باللهِ سبحانه فلا يقالُ له: صبرٌ، [بل][٥] هذا

= لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئًا فلا بد أن يكون، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ما سبق به علمه فهو كائن لا محالة، صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه، وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع، وهذا غلط عظيم، ضَلَّ فيه طوائف».

ثم قال: «قد ثبت في «الصحيح» في مواضع تُبين أن ما سبق به الكتاب سُبق بالأسباب التي تفضي إليه، فالسعادة سُبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به سعيدًا، والشقاوة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به شقيًّا، فالقدر يتضمن الغاية وسببها، لم يتضمن غاية بلا سبب، كما تضمن أن هذا يولد له بأن يتزوج، ويطأ المرأة».

(١) ينظر تفسير الآية في «تفسير الطبري» (٣٠/ ١٩٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٨٦)، و«زاد المسير» (٩/ ١٢٣) و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٧).

(٢) في ك: «المرافقة». (٣) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٦).

(٤) في م، ك، س: «التسخط». والصبر: أصله الحبس، وكل من حبس شيئًا فقد صَبَرَه، يقال: صَبَرْتُ الدابة، أي: حبستها بلا علف.

وهو في الشرع: حبس النفس على ما يقتضيه الشرع؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة، سُمِّيَ صبرًا ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سُمِّيَ شجاعة، ويضاده الجبن، ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٦٠٥)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٢٧٣)، و«المُطْلِع على أبواب المقنع» لابن أبي الفتح الحنبلي (١٤٤)، و«لسان العرب» (٤/ ٤٣٨)، و«التعاريف» للمناوي (٤٤٧).

(٥) سقط من ع، م.

من لوازمِ الإيمانِ، وهو كاعتقادِ أنه سبحانه حكيمٌ، رحيمٌ، عليمٌ، سميعٌ، بصيرٌ، إلى غيرِ ذلك من صفاتِ كمالِهِ، فلا يقالُ: الصبرُ: صونُ القلبِ عن اعتقادِ أضدادِها هذا بعيدٌ جدًّا، وتكلفٌ زائدٌ لتفسيرِ الصبرِ، وهل فَهِمَ أحدٌ قطُّ هذا المعنى من قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠] وقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطُّور: الآية ٤٨] وقولِه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ١٢٧]. وقولِه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: الآية ١٣٠] [وقولِه][(١)]: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفَال: الآية ٤٦] وسائرِ نصوصِ الصبرِ.

أقضيةُ الربِّ لا تخرجُ عن الحكمةِ والرحمةِ والعدلِ

ومن العجبِ جعلُ الصبرِ الذي هو نصفُ الإيمانِ[(٢)] من منازلِ العوامِّ وتفسيرُه بهذا التفسيرِ! نعم، يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن ينزِّه ربَّه سبحانه عن أن يقضيَ قضاءً يُنافي حكمتَه، وعدلَه، وفضلَه، وبرَّه، وإحسانَه، بل كلُّ أقضيتِهِ لا تخرجُ عن الحكمةِ

---

(١) سقط من س.

(٢) عن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان نصفان: نصف في الصبر، ونصف في الشكر**» رواه أبو بكر السامري في «فضيلة الشكر» (٣٩) رقم (١٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٢٧)، والديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (١/ ١١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١٢٣)، رقم (٩٧١٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، (ص/ ٣٣٩). وروى تمام الرازي في «الفوائد» (٢/ ٤٠)، رقم (١٠٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (١٣/ ٢٢٦)، رقم (٧١٩٧)، من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، عن محمد بن خالد المخزومي، عن سفيان الثوري، عن زبيد الأيامي، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**» وأورد البخاري تعليقًا الشطر الثاني منه في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» (١/ ١١). قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٥/ ١٥٢): «محمد بن خالد المخزومي، عن سفيان الثوري، قال ابن الجوزي: مجروح» ثم قال: «قال أبو علي النيسابوري: هذا حديث منكر لا أصل له من حديث زبيد، ولا من حديث الثوري». وقال في «الفتح». (١/ ٤٨).: «أخرجه أبو نعيم والبيهقي في «الزهد» من حديثه - يعني ابن مسعود - ولا يثبت رفعه» وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١/ ٥٠٦)، رقم (٤٩٩).

وروي عن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ موقوفًا عليه، رواه وكيع في «الزهد» (٢/ ٤٥٦)، رقم (٢٠٣) وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٣٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٤)، رقم (٣٦٦٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٠٤)، رقم (٨٥٤٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٧٤)، رقم (٤٨) وقال الحافظ في «الفتح» (١/ ٤٨): «هذا التعليق طرف من أثرٍ وصله الطبراني بسند صحيح، وبقيته: «**والصبر نصف الإيمان**»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٧): «رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح».

والرحمةِ والعدلِ والمصلحةِ، وإن كان كثيرٌ من المتكلمين ينازعُ [في][1] هذا الأصلِ، ويقولُ: الذي يُنزِّه اللهُ عنه من الأقضيةِ هو المستحيلُ الممتنعُ، وأما الممكنُ فلا يقبحُ منه شيءٌ[2]، وهؤلاءِ لا معنى لصونِ القلوبِ[3] عن خواطرِ السوءِ المتعلقةِ بما يقضيه اللهُ عندهم إلا صونُها[4] عن خواطرِ[5] الممتنعاتِ والمستحيلاتِ فقط. وبالجملةِ هذا مقامٌ آخرُ غيرُ مقامِ الصبرِ، بل هذا بابٌ من أبوابِ المعرفةِ والعلمِ و(لكلِّ مقامٍ مقالٌ)[6].

وأما استشهادُه بقولِهِ: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] [فالبلاءُ الحسنُ هنا هو: النعمةُ بالظفرِ والغنيمةِ، والنصرُ على الأعداءِ[7] وليس من الابتلاءِ الذي هو الامتحانُ بالمكروهِ، بل مِنْ: أبلاهُ بلاءً حسنًا][8]: إذا أنعم عليك، يقالُ: (أبلاكَ اللهُ، ولا ابتلاكَ)، فأبلاه في الخيرِ[9]، وابتلاه بالمكارهِ غالبًا[10] كما في الحديثِ: «**إني مبتليك ومبتلٍ بكَ**»[11].

---

(١) سقط من س.

(٢) وهم الجبرية نفاة الحكمة والتعليل، القائلون بأنه يجوز عليه كل ممكن، ولا ينزه عن فعل قبيح، بل كل ممكن فإنه لا يقبح منه، وإنما القبيح المستحيل لذاته كالجمع بين النقيضين، فيجوز عليه تعذيب ملائكته وأنبيائه، ورسوله، وأهل طاعته، وإكرام إبليس، وجنوده، وجعلهم فوق أوليائه في النعيم المقيم أبدًا». «شفاء العليل» للمؤلف (١/ ٢٢٠).

(٣) في ك، س: «القلب». (٤) في س: «صونًا». (٥) في م: «الخواطر».

(٦) مثل مشهور من أمثال العرب، يراد به: أن لكل أمر أو فعل أو كلام موضعًا لا يصلح في غيره، قال الحطيئة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

تَحَنَّنْ عليَّ هداكَ المليكُ ... فإنَّ لكلِّ مقامٍ مَقَالا
ولا تأخُذنِّي بقولِ الوشاةِ ... فإنَّ لكلِّ زمانٍ رجالا

ينظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٢٩٣)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٩٨)، و«جمهرة خطب العرب» (١/ ١٣٨). والبيتان في «ديوان الحطيئة» (٧٢).

(٧) قال الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٦) «معناه: ولينعم على المؤمنين بالله ورسوله بالظفر بأعدائهم، ويغنمهم ما معهم، ويثبت لهم أجور أعمالهم، وجهادهم مع رسول الله ﷺ». وللمزيد ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٤٠٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ١٤١) و«تفسير الواحدي» (١/ ٤٣٤)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٣٨)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٣٤).

(٨) سقط من ع. (٩) في ك، س: «بالخير».

(١٠) ينظر في هذا: «النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير (١/ ١٥٥)، و«لسان العرب» (١٤/ ٨٤).

(١١) رواه مسلم، ح (٢٨٦٥)، بلفظ: «**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك**»، وأحمد (٤/ ١٦٢).

فصـــلٌ

فصلٌ في الحزنِ

قال: «وحزنُهم: يأسُهم عن أنفسِهم الأمارةِ بالسوءِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العَاديَات: الآية ٦] »[١] وقد تقدَّم أيضًا الكلامُ على ما ذكره في الحزنِ.

وأما تفسيرُه إياه بأنه «يأسُهم عن أنفسِهم الأمارةِ بالسوءِ» فليس بالبيِّنِ؛ فإن الحزنَ هو: الأسفُ على فوتِ محبوبٍ أو حصولِ مكروهٍ، وإن تعلقَ ذلك بالماضي كان حزنًا، وإن تعلق بالمستقبلِ كان خوفًا وهمًّا[٢].

وأما اليأسُ عن النفسِ الأمارةِ بالسوءِ فليس بحزنٍ، إلا أن يكونَ مرادُه أن حزنَهم ينشأُ عن النفسِ الأمارةِ بالسوءِ لا عن المطمئنةِ؛ فإنَّ النفسَ المطمئنةَ لا تحزنُ، وإنما تحزنُ الأمارةُ لفواتِ محبوبِها، وهذا ليس كما قال؛ فإنَّ المطمئنةَ[٣] تحزنُ على تقصيرِها في أداءِ الحقِّ، وعلى تضييعِها الوقتَ، وإيثارِها غيرَ اللهِ عليه في الأحيانِ، وهذا الحزنُ لا بدَّ منه [لها][٤]؛ إذِ التقصيرُ والتضييعُ لازمٌ.

وأما استشهادُه على ذلك بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العَاديَات: الآية ٦] فوجهُهُ: أن الكنودَ هو: «الكفورُ، وهو الذي يذكرُ المصائبَ، وينسى النعمَ»[٥]، ولا ريبَ أن الحزنَ ينشأُ عن هذين، ولا ريبَ أن الحزنَ الناشئَ عن الكنودِ حزنٌ[٦] ناشئٌ

---

(١) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٦).

(٢) الحُزْنُ، والحَزَنُ، أصله: خشونة في الأرض، ثم أطلق على تلك الخشونة التي تكون في النفس لما يحصل فيها من الضيق والغم والهَمِّ، وإذا جاء الحَزَنُ منصوبًا فتحوه، كقوله: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التّوبَة: الآية ٩٢].

وإذا جاء مرفوعًا أو مكسورًا، ضمُّوه كـ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٦] وقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٤] والمراد به هنا: غم يلحق من فوات نافع، أو حصول ضار.

وقيل: الخوف: علة المتوقع، والحزن: علة الواقع. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٦٩٣)، و«الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (٢٩٧)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (١١٥).

(٣) في م، ك، س: «فإن النفس المطمئنة».

(٤) سقط من ك، س.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٢٧٨)، وأورده القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٦)، عن الحسن البصري. رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٦) في ك: «حزنًا».

عن النفسِ الأمارةِ بالسوءِ، وأما الحزنُ على تقصيرِه وتضييعِ وقتِهِ فليس من هذا، وقد تقدَّم ذلك، وذكرُ أقسامِ الحزنِ ومتعلقاتِهِ[1].

فصـــلٌ

قال: «وخوفُهم: هيبةُ الجلالِ، لا خوفُ العذابِ؛ فإنَّ خوفَهم مناضلةٌ عن النفسِ وضنٌّ بها، وهيبةَ الجلالِ: تعظيمُ الحقِّ ونسيانُ النفسِ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٥٠].

وقال في حقِّ العوامِّ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النّور: الآية ٣٧]»[2] وقد تقدَّم الكلامُ أيضًا[3] على ما ذكره في الخوفِ وعلتِهِ.

كيف يقالُ: إن خوفَ العذابِ نقصٌ؟

وقولُه: «هو هيبةُ الجلالِ، لا خوفُ العذابِ» تقدَّم بيانُ بطلانِهِ، وأنَّ اللهَ سبحانه أثنى على خاصَّةِ أوليائِهِ من الملائكةِ والأنبياءِ وغيرِهم ممن عبَّدهم المشركون بأنهم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: الآية ٥٧].

فكيف يقالُ: إن خوفَ العذابِ نقصٌ ومناضلةٌ عن النفسِ؟ (هذا من الترهاتِ والرعوناتِ، ودعاوى الأنفسِ.

وقولُه: «إن الخوفَ مناضلةٌ عن النفسِ»)[4] فسبحان اللهِ! هل يقالُ لمن خاف اللهَ وخاف عقوبتَه: إنه يناضلُ ربَّه [عن نفسِهِ][5]؟! ولو كان مناضلةً، فهو مناضلةٌ للعدوِّ وللهوى وللشهوةِ[6]، وهذهِ المناضلةُ من أعظمِ أنواعِ العبوديةِ؛ فإنَّ من خافَ شيئًا؛ ناضَلَ عنه، فهو مناضلةٌ عن العذابِ وأسبابِهِ، وما ثَمَّ إلا مناضلةٌ أو إلقاءٌ باليدِ إلى التهلكةِ، ولولا هذهِ المناضلةُ؛ لحصلَ الاستسلامُ للعقوبةِ.

والمناضلةُ المحذورةُ[7]: المناضلةُ عن محبوباتِ الربِّ وأوامرِه.

وليس الضنُّ بالنفسِ عن[8] عذابِ اللهِ بنقصٍ[9]؛ بل الكمالُ والفوزُ والنعيمُ في

---

(١) ينظر: «طريق الهجرتين»، (ص/ ٢٨٥)، تحقيق محمد بشير عيون.
(٢) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٦).
(٣) في ك، س: «تقدم أيضًا الكلام».
(٤) ما بين القوسين سقط من م، س.
(٥) سقط من ك، س.
(٦) في ك، س: «والهوى والشهوة».
(٧) في س: «المحظورة».
(٨) في س: «على».
(٩) في ك: «نقصًا»، وفي س: «نقص».

ضنِّ العبدِ بنفسِهِ، عن أن يسلمَها لعذابِ اللهِ، ومَنْ لم يضنَّ بنفسِهِ؛ فليس فيه خيرٌ ألبتةَ، والضنُّ بالنفسِ إنما يذمُّ إذا ضنَّ بها عن بذلِها في محبوبِ الربِّ تعالى، وأوامرِهِ، وأما إذا ضنَّ [بها][1] عن عذابِهِ، فهل يكون هٰذا علةً؟ وهل العلةُ كلُّها إلا في عدمِ هذهِ المناضلةِ والضنِّ؟.

الهيبةُ لا تستلزمُ نسيانَ النفسِ

قولُه: «وهيبةُ الجلالِ تعظيمُ الحقِّ، ونسيانُ النفسِ»: قد تقدم الكلامُ في الهيبةِ والتعظيمِ، وأنهما غيرُ الخوفِ والخشيةِ[2]. ولا تستلزمُ هذهِ الهيبةُ أيضًا نسيانَ النفسِ، ولا يكونُ [شعورُ][3] العبدِ بنفسِهِ في هذا المقامِ نقصًا، ولا علةً، كما تقدم؛ بل هو أكملُ لاستلزامِهِ البقاءَ[4] الذي هو أقوى وأكملُ من الفناءِ[5].

وأما قولُه تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: الآية ٥٠] فهو حجةٌ عليه كما تقدم.

لا يصحُّ تفسيرُ الخوفِ بالخشيةِ في الآيةِ لوجهين

ولا يصحُّ تفسيرُ الخوفِ هنا بالهيبةِ لوجهين:

أحدُهما: أنه خروجٌ عن حقيقةِ اللفظِ ووضعِهِ الأصليِّ بلا موجبٍ.

الثاني: أن هذا وصفٌ للملائكةِ، وقد وصفَهُم سبحانه بخوفِهِ وخشيتِهِ، فالخوفُ في هذه الآيةِ، والخشيةُ في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨] فوصفَهم بالخشيةِ والإشفاقِ، ووصفَهُم بخوفِ العذابِ في قولِه: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: الآية ٥٧] وهم خواصُّ خلقِهِ. فإياكَ ورعوناتِ النفسِ، وحماقاتِها، وجهالاتِها، ولا تكنْ ممنْ لا يقدرُ اللهَ حقَّ قدرِهِ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إن اللهَ لو عذَّب أهلَ سماواتِهِ وأرضِهِ؛ لعذَّبهُم وهو غيرُ ظالمٍ لهم**»[6] فإذا عَلِمَ المقربُ العارفُ أنَّ اللهَ لو عذَّبه لم يظلمْه؛ فمن أحقُّ بالخوفِ منهُ؟.

قولُه: «وقال في حقِّ العوامِّ[7]: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:

---

(١) سقط من س.

(٢) الخشية: تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل. «التعريفات» للجرجاني (١٣٣)، وينظر: «الفروق اللغوية» للعسكري (٢٧٠)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (١٤٩).

(٣) سقط من س. (٤) البقاء: سبق التعريف به. (٥) الفناء: سبق التعريف به.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) العامة عند الصوفية: هم الذين اقتصر علمهم على الشريعة، ويُسمى علماؤهم: علماء الرسوم. =

٣٧] هذا من الشطحاتِ القبيحةِ الباطلةِ؛ فإن هذا صفةُ خواصِّ عبادِهِ وعارفِيهم، وهُم الذين قالَ فيهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٧، ٣٨] فهؤلاءِ خواصُّ الخلقِ، وهم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ، ومَنْ تبعَهم بإحسانٍ، أفلا يستحي مَنْ جعلَ هذا الوصفَ للعوامِّ؟ ولا ريبَ أن هذا مصدرُه إما جهلٌ مفرطٌ وإما تقليدٌ لقائلٍ لا يدري لازمَ قولِهِ. هذا إن أُحْسِنَ الظنُّ بقائلِهِ[1]، وإن كان مصدرُهُ غيرَ ذلك؛ فأدْهى وأمرُّ. ولولا أن هذهِ الكلماتِ ونحوَها مَهَاوٍ ومعاطبُ[2] في الطريقِ؛ لكان الإعراضُ[3] عنها إلى ما هو أهمُّ منها أَوْلى. واللهُ المستعانُ.

فصلٌ

استدلالُ ابنِ العريفِ بالآيةِ على الرجاءِ، وردُّ المؤلفِ عليه

قال: «ورجاؤُهم: ظمؤُهم إلى الشرابِ الذي هم فيه غَرْقَى، وبه سَكْرَى؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٥]»[4] وهذا أيضًا من [ذلك][5] النمطِ. ورجاءُ الأنبياءِ والرسلِ، فمَنْ دونهم إنما هو طمعُهُم [في رحمتِهِ ومغفرتِهِ.

وانظرْ إلى دعوى هؤلاءِ، وإلى قولِ إمامِ[6] الحنفاءِ خليلِ الرحمنِ صلى ﷺ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ]﴾[7] أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٢] كيف علق رجاءَه وطمعَهُ بمغفرةِ اللهِ له [و][8] قال تعالى عن خاصَّةِ خلقِهِ وأعلمِهم[9] به أنَّهم ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: الآية ٥٧].

ومن العجبِ استدلالُه بقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٥] فما لهذهِ الآيةِ وما للرجاءِ؟ ولا سيَّما ما ذكَرَهُ المصنفُ من[10] تفسيرِه[11] رجاءَ القومِ،

= «معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (١٢٥)، و«المعجم الصوفي»: للحفني (١٦٨)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأنور أبي خزام (١١٨).

(١) في ك: «القائله».

(٢) العطب: الهلاك، ومعاطب: مهالك. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٦١٠)، و«القاموس المحيط» (١٤٠).

(٣) في ع: «للإعراض».

(٤) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٦).

(٥) سقط من س.

(٦) في م: «أبي».

(٧) سقط من س.

(٨) سقط من ك

(٩) في س: «ولعلمهم».

(١٠) في ك، س: «في».

(١١) ينظر تفسير الآية في «تفسير الطبري» (١٩/ ١٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٣١)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٧٠)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٧).

والاستشهادِ بهذا من جنسِ الألغازِ.

ومعنى الآيةِ: التنبيهُ على هذهِ الدلالةِ الباهرةِ على قدرةِ الربِّ تعالى، وعجيبِ مخلوقاتِهِ الدالةِ عليه، والمعنى: انظرْ كيف بسطَ ربُّكَ الظلَّ[١]. والظلُّ[٢] ما قبلَ الزوالِ، والفيءُ بعدَه، فمدَّه سبحانه، وبسطَه عند طلوعِ الشمسِ؛ فإنه يكونُ مديدًا أطولَ ما يكونُ، وجعل الشمسَ دليلًا عليه؛ فإنَّها هي التي تُظْهِرُهُ، وتبينُه، ثم كلما ارتفعتِ الشمسُ شيئًا؛ انقبضَ من الظلِّ جزءٌ، فلا يزالُ ينقبضُ يسيرًا يسيرًا حتى ينتهِيَ إلى غايتِه، فإذا أخذتِ الشمسُ في الجانبِ الغربيِّ؛ انبسطَ بعدَ انقباضِهِ شيئًا فشيئًا، حتى يصيرَ كهيئتِهِ عند طلوعِها. ولهذا كان الزوالُ يعرفُ بانتهاءِ الظلِّ في قصرِه، فإذا أخذَ في الزيادةِ بعد تَناهِي القصرِ[٣]؛ فقد تحققَ الزوالُ[٤].

معنى الآيةِ التنبيهُ على قدرةِ الربِّ وعجيبِ مخلوقاتِهِ

ولو شاءَ اللهُ سبحانه لجعلَهُ ساكنًا دائمًا على حالةٍ واحدةٍ، لا[٥] يتحركُ بالزيادةِ والنقصانِ، فالظلُّ أحدُ الأدلةِ الدالةِ على الخالقِ ﷻ[٦].

---

(١) في ك: «فالظل».

(٢) الظلُّ: ما كان بالغداة، وهو: ما لم تنسخه الشمس، والفيء: ما كان بالعشي، وهو: ما انصرفت عنه الشمس بعد الزوال، وسُميَ فيءًا؛ لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب. ينظر: «لسان العرب» (١/ ١٢٥)، و«القاموس المحيط» (١٣٢٧).

(٣) في ك: «تناهي قصره القصر».

(٤) الزوال هو: الذهاب والاستحالة والاضمحلال، والمراد بزوال الشمس: ذهابها وميلانها عن كبد السماء. ينظر: «لسان العرب» (١١/ ٣١٣)، (٣١٥)، و«القاموس المحيط» (١٣٠٧)، و«الكافي» لابن عبد البر (٣٤) و«المجموع» للنووي (٣/ ٢٨)، و«المُطلع» لابن أبي الفتح الحنبلي (١٤).

(٥) في ك: «قد لا».

(٦) قال الفيروزآبادي: «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ [الفُرقان: الآية ٤٦] إشارة إلى نسخ ظل الشمس، أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه بسط الظل ومَدَّه، وجعله متحركًا تبعًا لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك؛ إما بسكون المظهر له والدليل عليه، وإما بسبب آخر، ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضًا يسيرًا، وهو شيءٌ بعد شيء لم يقبضه جملة. فهذا من أعظم آياته الدالة على كمال قدرته وحكمته.

فندب سبحانه إلى رؤية صنعه وقدرته وحكمته في هذا الفَرْد من مخلوقاته. ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظلٌّ له، من جبل، وبناء، وحجر، وغيره، فلم ينتفع به أحد؛ فإن كمال الانتفاع به تابع لمدِّه وبسطه، وتحوُّله من مكان إلى مكان. وفي مَدّه وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يُحصى، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قُبض دفعة واحدة لتعطلت مرافق العالم ومصالحه. =

وأما دلالةُ هذهِ الآيةِ على الرجاءِ فيحتاجُ إلى إشارةٍ وتكلفٍ غيرِ مقصودٍ بها، وآياتُ الرجاءِ في القرآنِ أكثرُ وأظهرُ وأصرحُ في المقصودِ، ظاهرةً(١) واستنباطًا.

فالظاهرةُ كقولِهِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] وقولِه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ٥٧] وقولِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: الآية ٥]. والمستنبطةُ كآياتِ البشارةِ كلِّها كقولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٣]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٥٥]، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: الآية ٢٣].

فصـــلٌ

استدلالُ ابنِ العريفِ بالآية على الشكرِ، وردُّ المؤلفِ عليه

قال: «وشكرُهم: سرورُهم بموجودِهم واستبشارُهم بلقائِهِ ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: الآية ١١١]»(٢) وهذا أيضًا من النمطِ المتقدم، وشكرُ القومِ هو عملُهم بطاعةِ اللهِ، واستعانتُهم بنعمِهِ على محابِّهِ، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبإ: الآية ١٣] وقال النبيُّ ﷺ لما قيل له: أتفعلُ هذا وقد غفر اللهُ ما تقدم من ذنبِك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟**»(٣) فسمَّى الأعمالَ شكرًا، وأخبر أن شكرَه قيامُه بها، ومحافظتُه عليها.

فحقيقةُ الشكرِ هو الثناءُ على المنعمِ ومحبتُه، والعملُ بطاعتِهِ(٤)، كما قال:

= وفي دلالة الشمس على الظِّلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من اليوم، وما بقي منه، وفي تحركه وانتقاله ما يَبْرد ما أصابه حرُّ الشمس، وينتفع الحيوان والشجر والنبات. فهو من آيات الله الدالة عليه «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٤/ ٢٢٩).

(١) في م: «ظهورًا».

(٢) كتاب «محاسن المجالس» (٩٦).

(٣) رواه البخاري ح (٤٥٥٦)، ومسلم، ح (٢٨١٩)، والترمذي، ح (٤١٢) والنسائي، ح (١٦٤٤) وابن ماجه، ح (١٤١٩) وأحمد (٤/ ٢٥١)، (٢٥٥)، عن المغيرة بن شعبة. رضي الله عنه.

(٤) الشكر: قيل: هو مقلوب الكَشْر، أي: الكشف، ويضاده الكفر، وهو: نسيان النعمة، والشكر: تصور النعمة وإظهارها، وقيل: هو على ثلاثة أنواع:

١- شكر القلب، وهو تصور النعمة. ٢- شكر اللسان. ٣- شكر سائر الجوارح.

فهو على هذا مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثني على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه في طاعته، ويتلذذ بذلك، ويعتقد أنه موليها. ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (٢٦٥)، و«الفائق» للزمخشري (١/ ٣١٤)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٤٩٣)، و«لسان العرب» (٤/ ٤٢٤).

أَفادَتكم النَّعماءُ عِندي[١] ثَلاثةً يَدي ولسَاني والضميرَ المُحجبَا[٢]

فاليدُ للطاعةِ، واللسانُ للثناءِ[٣]، والضميرُ[٤] للحبِّ[٥] والتعظيمِ.

وأما السرورُ به - وإن كان من أجلِّ المقاماتِ - فإنَّ العبدَ إنما يسرُّ بمن هو أحبُّ الأشياءِ إليه، وعلى قدرِ حبِّهِ له يكونُ سرورُه [به][٦]، فهذا[٧] السرورُ ثمرةُ الشكرِ لا أنه نفسُ الشكرِ. وكذلك[٨] الاستبشارُ والفرحُ بلقائِهِ، إنما هو ثمرةُ الشكرِ وموجبُه، وهو كالرضى من التوكلِ، وكالشوقِ[٩] من المحبةِ، وكالأنسِ من الذكرِ، وكالخشيةِ من العلمِ، وكالطمأنينةِ من اليقينِ، فإنها ثمراتٌ لها، وآثارٌ وموجباتٌ، فعلى قدرِ[١٠] شكرِهِ للهِ بالأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ، وتصحيحِ العبوديةِ يكونُ سرورُه [به][١١] واستبشارُه بلقائِهِ.

وأما قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ [التوبة: الآية ١١١] فهذا إنما قاله للشاكرين الذين يُقَاتِلُون في سبيلِهِ؛ فيَقتلون، ويُقتَلُون، ثم وصفَهم بعد ذلك بقيامِهِم بأعمالِ الشكرِ، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: الآية ١١٢] فهؤلاءِ هُم المستبشرون ببيعِهِم، جَعَلَنَا اللهُ منهم بِمَنِّهِ وكرمِهِ.

فصــلٌ

فصلٌ في قولِهِ: ومحبتُهم فناؤهُم

قال: «ومحبتُهم: فناؤُهم في محبةِ[١٢] الحقِّ ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: الآية ٣٢]»[١٣] وقد تقدم الكلامُ على هذا بما فيه كفايةٌ، وبيَّنَّا أن البقاءَ في المحبةِ أفضلُ وأكملُ من الفناءِ فيها من وجوهٍ متعددةٍ، وأن الفناءَ إنما هو لضعفِ المُحبِّ عما حمل، وأما الأقوياءُ فهم. مع شدةِ محبتِهم. في مقامِ البقاءِ والتمييزِ.

---

(١) في م: «مني».

(٢) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٤٧)، و«الفائق» له (١/ ٣١٤)، و«المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي (١/ ٥٠٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ١١١)، و«نفح الطيب» للتلمساني (٦/ ٢٧٤).

(٣) في ع: «والقلب». (٤) في ع: «والقلب». (٥) في م: «للمحبة».

(٦) سقط من س. (٧) في ك: «وهذا». (٨) في ك: «فكذلك».

(٩) في م: «والشوق». (١٠) في ع: «قدره». (١١) سقط من ك، س.

(١٢) في س: «محبته».

(١٣) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٦).

وأما استدلالُه بقولِهِ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: الآية ٣٢] فالآيةُ إنما سيقتْ في الإنكارِ على من يعبدُ غيرَ اللهِ ويشركُ به، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ فمن عبدَ غيرَ اللهِ فما عبد إلا الضلالَ المحضَ، والباطلَ البحتَ، وأما من عَبَدَ اللهَ بأمرِهِ، وكان في مقامِ التمييزِ بين محابِّهِ ومساخطِهِ، مفرقًا بينهما، يحبُّ هذا، ويبغضُ هذا، ناظرًا بقلبِه إلى ربِّهِ، عاكفًا بهمتِهِ عليه، منفذًا لأوامرِهِ، فهو مع الحقِّ المحضِ[(١)].

فصلٌ

فصلٌ في الشوقِ

قال: «وشوقُهم: هربُهم من رسمِهم وسماتِهم[(٢)] استعجالًا للوصولِ[(٣)] إلى غايةِ المنى ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾»[(٤)] قد تقدَّمَ الكلامُ في الشوقِ مُستوفًى، وليس الهربُ من الغيرِ والضدِّ هو الشوقَ بل هنا مهروبٌ منه، ومهروبٌ إليه، فالشوقُ هو: سفرُ القلبِ نحو المحبوبِ، وهذا لا يتمُّ إلا بالهربِ من ضدِّهِ، فليسَ الشوقُ هو نفسَ الهربِ من الرسومِ والسماتِ.

* * *

(١) في ك، س زيادة: «والله أعلم».

(٢) الرسم عند الصوفية: هو الخلق وصفاتهم؛ لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله. وقيل: هو ما رُسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق، فيُمْتَحى بإظهار سلطان الحق عليه.
ينظر: «معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (١٦٧)، و«المعجم الصوفي» للحفني (١٠٧)، و«معجم المصطلحات الصوفية» لأنور أبي خزام (٩٠).

(٣) في ع: «في الوصول».

(٤) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٦-٩٧).

فصـــلٌ

معنى الحقيقةِ عند الصوفيةِ

قال: «فالإرادةُ، والزهدُ، والتوكلُ، والصبرُ، والحزنُ، والخوفُ، والرجاءُ والشكرُ، والمحبةُ، والشوقُ من منازلِ أهل الشرعِ السائرين إلى عينِ الحقيقةِ، فإذا شاهدُوا عينَ الحقيقةِ؛ اضمحلتْ فيها أحوالُ الشاهدين، حتى يفنى ما لم يكنْ، ويبقى ما لم يزلْ»[(١)].

الحقائقُ ثلاثٌ

قلتُ: الحقائقُ التي يشارُ[(٢)] إليها على لسانِ أهلِ السلوكِ ثلاثةٌ:

حقيقةٌ إيمانيةٌ نبويةٌ: وهي حقيقةُ العبوديةِ التي هي كمالُ الحبِّ وكمالُ الذلِّ، وسيرُ أهلِ الاستقامةِ إنما هو إلى هذهِ الحقيقةِ، ومنازلُ السيرِ التي ينزلون فيها هي منازلُ الإيمانِ الموصلةُ إليها. والمنحرفُون لا يرضُون بهذهِ الحقيقةِ، ولا يقِفُون معها، ويرونَهَا منزلةً من منازلِ العامَّةِ![(٣)].

الحقيقةُ الثانيةُ: [حقيقةٌ][(٤)] كونيةٌ قدريةٌ: يشاهدون فيها انفرادَ[(٥)] الربِّ تعالى بالتكوينِ والإيجادِ وحْدَهُ[(٦)]، وأن العالَمَ كالمواتِ[(٧)]؛ يقلبُه، ويصرفُه كيف شاءَ، وهم يعظِّمُون هذا المشهدَ، ويرون الفناءَ فيه غايةً ما بعدَها شيءٌ[(٨)]، وهذا مِن أغلاطِهم في المعرفةِ والسلوكِ؛ فإنَّ هذا المشهدَ لا يُدخلُ صاحبَهُ في الإيمانِ؛ فضلًا عن أن يكونَ

---

(١) كتاب: «محاسن المجالس» (٩٧).

(٢) في ك: «أشار» وفي س: «يشير».

(٣) فصاحب هذه الحقيقة في مشهد الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والتفريق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، وهذه الحقيقة هي التي جاءت به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ونزلت بها الكتب، وهذا التوحيد كثير في القرآن، وهو أول الدين وآخره، وباطن الدين وظاهره؛ فلا شيء فوقه، ولا أكمل منه، وهؤلاء القوم يرونها من توحيد العامة!.
ينظر: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام (٥/ ٣٤٣)، و«مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ٤٨٠).

(٤) سقط من س. (٥) في ع: «أنوار». (٦) في ك: «على حدة».

(٧) في ك: «كانوا كالموات».

(٨) وهو عندهم توحيد الخاصة: وهو الفناء في توحيد الربوبية، بأن يشهد ربوبية الرب بكل ما سواه، وأنه وحده رب كل شيء ومليكه، ويغلب على القلب شهود الواحد، كما يقال: غاب بموجوده عن وجوده وبمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، وهم يرون الفناء فيه غاية. ينظر: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام (٥/ ٣٥٥)، و«مدارج السالكين» للمؤلف (٣/ ٤٩٤).

أفضلَ مشاهدِ أولياءِ اللهِ المُقرَّبين؛ فإنَّ عُبَّادَ الأصنامِ شهدُوا هذا المشهدَ، ولم ينفعْهُم وحدَهُ، قالَ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: الآية ٨٧]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ [الزخرف: الآية ٢٠]، ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] وهذا كثيرٌ في القرآنِ(١)؛ فالفناءُ في هذا المشهدِ لا يُدْخِلُ العبدَ في دائرةِ الإسلامِ، فكيف يجعلُه هو الحقيقةَ التي ينتهي إليها سيرُ السالكين، ويجعلُ حقيقةَ الإيمانِ ودعوةَ الرسلِ منزلًا(٢) من منازلِ(٣) العامَّةِ؟! وهل هذا إلا غايةُ الانحرافِ والبعدِ عن الصراطِ المستقيمِ وقلبٌ للحقائقِ؟(٤) وكم قد هلك في هذهِ الحقيقةِ مِن أُمَمٍ لا يُحْصيهم إلا اللهُ، وكم عَطَّلَ [لأجلِها](٥) الواقفون معها من الشرائعِ، وخرَّبوا من المنازلِ، وما نجا من معاطبِها إلا مَنْ شَمِلَتْه(٦) العنايةُ الربانيةُ، ونفذ ببصرِه من هذهِ الحقيقةِ إلى الحقيقةِ الإيمانيةِ النبويةِ، حقيقةِ رُسلِ اللهِ وأنبيائِهِ وأتباعِهم، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاءُ.

الحقيقةُ الثالثةُ: حقيقةٌ اتحاديةٌ

والحقيقةُ الثالثةُ: حقيقةٌ اتحاديةٌ(٧) بل وحديةٌ، لا يُفَرِّقُ فيها بين الربِّ والعبدِ، ولا بين القديمِ والمحدثِ، ولا بين صانعٍ ومصنوعٍ، بل الأمرُ كلُّه واحدٌ، والأمرُ المخلوقُ(٨) هو عينُ الأمرِ الخالقِ، وهذهِ الحقيقةُ التي يشيرُ إلى عينِها طائفةُ الاتحاديةِ، ويعدُّون من لم يكنْ من أهلِها محجوبًا. وهذهِ حقيقةٌ كُفريةٌ اتحاديةٌ، وهي مع ذلك خيالٌ فاسدٌ، وعقلٌ منكوسٌ، وذوقٌ من عينٍ منتنةٍ، وكُفرُ أهلِها أعظمُ من كفرِ كلِّ أُمَّةٍ؛

---

(١) وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللَّهُ. هذه الأدلة؛ كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨٥).

(٢) في ك، س: «منزلة». (٣) في ك: «المنازل».

(٤) قال المؤلف. رَحِمَهُ اللَّهُ. بعد ذكر التوحيد الأول عندهم، وهو توحيد العامة:

«فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٠]، فالخلق قسمان: **الأول**: سفيه لا أسفه منه، وهو من رغب عن ملة الرب إلى الشرك. **والثاني**: رشيد، وهو من تبرأ من الشرك قولًا، وعملًا، وحالًا، وبهذا أمر سبحانه جميع المرسلين»، ينظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨١-٤٨٢)، بتصرف.

(٥) سقط من ع. (٦) في م، س: «سلمته». (٧) الاتحادية: سبق التعريف بها.

(٨) في ك، س: «لمخلوق».

فإنهم جَحَدُوا الصانعَ حقًّا، وإنْ أثبَتُوه، جَعَلُوا وجودَه وجودَ كلِّ موجودٍ[(١)] والذين أثبَتُوا الصانعَ سبحانه، وعدَلُوا به غيرَه، وسَوَّوْا بينه وبين غيرِه في العبادةِ - مقالتُهم خيرٌ من مقالةِ هؤلاءِ الذين جعلُوه وجودَ كلِّ موجودٍ، وعينَ كلِّ شيءٍ[(٢)] - تعالى اللهُ عما يقولُ الكاذبون المفترون علوًّا كبيرًا[(٣)].

فعليك بالفرقِ بين السائِرِينَ إلى [عينِ][(٤)] هذهِ الحقيقةِ، والسائرين إلى عينِ الحقيقةِ الكونيةِ الحكميةِ. والسائرين إلى عينِ الحقيقةِ المحمديةِ الإبراهيميةِ الحنيفيةِ، التي هي حقيقةُ جميعِ الأنبياءِ والمرسلين، وفيها تفاوتتْ[(٥)] مراتبُ السالكين، ومنازلُهم من القربِ من ربِّ العالمين.

قال شيخُ هذهِ الحقيقةِ لما تحقق فناءُ تلك[(٦)] الرسومِ وأُفُولِها: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: الآية ٧٩] وهذا التوجهُ يتضمنُ محبتَه دونَ غيرِهِ، وعبادتَه وطاعتَه دونَ غيرِهِ.

فهذهِ هي الحقيقةُ حقًّا، وما سواها باطلٌ حقيقةً [و][(٧)] قالَ تعالى لأكرمِ خلقِهِ عليه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النّحل: الآية ١٢٣] فأمره تعالى أن يقتديَ بأبيهِ إبراهيمَ في هذهِ الحقيقةِ، وكان ﷺ يُعَلِّمُ أصحابَه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولُوا: «**أصبحْنا على فطرةِ الإسلامِ، وكلمةِ الإخلاصِ، ودينِ نبيِّنَا محمدٍ، وملةِ أبينا إبراهيمَ حنيفًا مسْلمًا وما كان مِنَ المشركين**»[(٨)] فنسألُ اللهَ [العظيمَ][(٩)] أن يهبَ لنا هذهِ الحقيقةَ، ويثبتَنا عليها، ويعيذَنا مِمَّا سِواهَا، إنه قريبٌ مجيبٌ[(١٠)].

---

(١) في ع: «كل موجود به».　　(٢) في ع: «كل موجود».

(٣) وحقيقة هذا القول لا يكون إلا بأن يصير الرب والعبد شيئًا واحدًا، وهو الاتحاد، فيتحد اللاهوت والناسوت، كما يقول النصارى» «منهاج السنة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٧٠). وللمزيد في هذا المذهب الضال، ينظر: «الرد على القائلين بوحدة الوجود» لعلي القاري، و«التصوف وابن تيمية» د: مصطفى حلمي (٣٢٢) و«موقف الإمام ابن القيم من الصوفية» لمصطفى مراد (١٤٧)، و«هذه هي الصوفية» لعبد الرحمن الوكيل (٣٤)، و«الصوفية معتقدًا ومسلكًا» د: صابر طعيمة (٢٠٥).

(٤) سقط من ك.　　(٥) في س: «تفاوت».　　(٦) في ع: «هذه».

(٧) سقط من ك، س.

(٨) رواه أحمد (٣/ ٤٠٦)، (٤٠٧)، والدارمي، ح (٢٦٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٨٥٤)، ح (٤٦٧٤).

(٩) سقط من ع.　　(١٠) في ك، س زيادة: «بمنه وكرمه».

فصــلٌ

الطبقةُ الأولى: المصطفون من عبادِهِ

في مراتبِ المكلفين في الدارِ الآخرةِ وطبقاتِهم فيها وهم ثماني عشرةَ طبقةً:

الطبقةُ الأولى: وهي العُليا على الإطلاقِ، مرتبةُ[1] الرسالةِ، فأكرمُ الخلقِ على اللهِ وأخصُّهم بالزُّلْفَى لديهِ رسلُهُ[2]، وهم المصطفون من عبادِهِ الذين سَلَّم عليهم في العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٨١]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٧٩] [3] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٣٠] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النَّمل: الآية ٥٩] وكلمةُ (السلامِ) هنا يُحْتَمَلُ أن تكونَ داخلةً في حيزِ القولِ، فتكونَ معطوفةً على الجملةِ الخبريةِ، وهي: (الحمدُ للهِ)، ويكونَ الأمرُ بالقولِ متناولًا للجملتين معًا، وعلى هذا فيكونُ الوقفُ على الجملةِ الأخيرةِ، ويكونُ محلُّها النصبَ محكيةً بالقولِ[4]، ويحتملُ أن تكونَ جملةً مستأنفةً مستقلةً معطوفةً على جملةِ الطلبِ، وعلى هذا فلا محلَّ لها من الإعرابِ[5]. وهذا التقديرُ أرجحُ، وعليه يكونُ السلامُ من اللهِ عليهم، وهو المطابقُ لِمَا تقدَّمَ من سلامِه سبحانه على رسلِهِ. وعلى التقديرِ الأولِ يكونُ أمرًا بالسلامِ عليهم[6].

ولكن يقالُ على هذا: كيفَ يعطفُ الخبرُ على الطلبِ مع تنافرِ ما بينهما؟ فلا يحسنُ أن تقولَ: قُمْ، وذهب زيدٌ، ولا: اخرجْ، وقعدَ عمرو، ويجابُ عن هذا بأن جملةَ الطلبِ قد حُكيتْ بجملةٍ خبريةٍ، ومثلُ هذا لا يمتنعُ العطفُ فيه بالخبرِ على الجملةِ

---

(١) في م: «وهي مرتبة». (٢) في س: «ورسله».

(٣) في س: «وقال». (٤) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ١٧٤).

(٥) ينظر: «روح المعاني» للآلوسي (٢٠/ ٣).

(٦) اختلف المفسرون في المُسَلَّم عليه في هذه الآية، على أقوال:

الأول: أنهم الرسل، وهو مروي عن ابن عباس.

والثاني: أنهم أصحاب محمد ﷺ، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس، وبه قال السدي وسفيان الثوري.

والثالث: أنهم الذين وحدوه، وآمنوا به.

والرابع: أنه محمد ﷺ، قاله ابن السائب. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٢)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٤٣)، و«كتاب القطع والائتناف» للنحاس (٥٣٨)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٦/ ١٨٤) و«البحر المحيط» لأبي حيان (٨/ ٢٥٦).

الطلبيةِ؛ لعدمِ تنافرِ الكلامِ فيه وتباينِه[١]، ونظيرُ هذا[٢] قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: الآية ١٠١] فقولُه: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ [يونس: الآية ١٠١][٣] ليس معطوفًا على المحكي بالقولِ، وهو (انظروا)، بل معطوفٌ على الجملةِ الكبرى على أن عطفَ الخبرِ على الطلبِ كثيرٌ كقولِهِ تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: الآية ١١٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون: الآية ١١٨].

والمقصودُ أنه على هذا القولِ يكونُ اللهُ سبحانه قد سَلَّم على المصطفين من عبادِهِ، والرسلُ أفضلُهم، وقد أخبرَ سبحانه أنه أخلصَهُم بخالصةٍ ذكرى الدارِ، وأنهم عنده من المصطفين الأخيارِ[٤]، ويكفي في فضلِهم وشرفِهِم أن اللهَ سبحانه اختصَّهم بوحيِهِ، وجعلَهُم أمناءَ على رسالتِهِ، ووسائطَ بينَه وبين عبادِهِ، وخصَّهم بأنواعِ كرامتِهِ[٥]؛ فمِنْهُم مَنِ اتخذَهُ خليلًا[٦]، ومنهم من كلَّمه تكليمًا[٧]، ومنهم مَنْ رفَعَهُ على سائرِهم درجاتٍ[٨]، ولم يجعلْ لعبادِهِ وصولًا إليه إلا من طريقِهِم، ولا دخولًا إلى جنتِهِ إلا خلفَهم، ولم يكرمْ أحدًا منهم بكرامةٍ إلا على أيدِيهم، فهم أقربُ الخلقِ إليه وسيلةً، وأرفعُهم عنده درجةً، وأحبُّهم إليه، وأكرمُهم عليه.

وبالجملةِ فخيرُ الدنيا والآخرةِ إنما نالَهُ العبادُ على أيدِيهم، وبهم عُرف اللهُ، وبهم عُبدَ وأُطيعَ، وبهم حصلتْ محابُّهُ تعالى في الأرضِ، وأعلاهُم منزلةً أُولُو العزم منهم، المذكُورُون[٩] في قولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ

---

(١) عطف الخبر على الإنشاء، وبالعكس مسألة خلافية؛ فمنع منه البيانيون وابن مالك، وابن عصفور، وأجازه الصفار، وهو تلميذ ابن عصفور، وجماعة، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥] وبقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية [الصف: ١٣]. ينظر: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام (٦٢٧)، و«موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب» لخالد الأزهري (١٦٤).

(٢) في ع: «ويظهر هذا».

(٣) في م زيادة: «والنُّذُر».

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ [ص: ٤٦، ٤٧].

(٥) في س: «الكرامات».

(٦) قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٥].

(٧) قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤].

(٨) قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقَرَة: الآية ٢٥٣].

(٩) في ك، س: «المذكورين».

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: الآية ١٣] وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: الآية ٧].

وهؤلاءِ هم الطبقةُ العُليا من الخلائقِ، وعليهم تدورُ الشفاعةُ حتى يَردُّوها إلى خاتَمِهم وأفضلِهم ﷺ[١].

الطبقةُ الثانيةُ: مَنْ عداهُم مِنَ الرسلِ

الطبقةُ الثانيةُ: مَنْ عَداهُم مِنَ الرسلِ، على مراتبِهم من تفضيلِ اللهِ[٢] بعضَهم على بعضٍ.

الطبقةُ الثالثةُ: الأنبياءُ

الطبقةُ الثالثةُ: الأنبياءُ الذين لم يُرْسَلُوا إلى أُمَمِهم، وإنما كانتْ لهم النبوةُ دونَ الرسالةِ، فاختُصُّوا عن الأمةِ بإيحاءِ اللهِ إليهم، وإرسالِه ملائكتَه إليهم، واختُصَّتِ الرسلُ عنهم بإرسالِهم إلى الأُمةِ، يدعونهم إلى اللهِ بشريعتِهِ وأمرِه، واشتركُوا في الوَحْيِ، ونزولِ الملائكةِ عليهم[٣].

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم؛ فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، فيأتونني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسَل تُعْطَ، واشفعْ تشفعْ، فأقول: يا رب، أمتي أمتي فيقال: انطلق فأَخْرِج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقلْ يُسمعْ لك، وسَلْ تُعْطَ واشفعْ تشفعْ، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأَخْرِج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق، فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِرَّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقلْ يسمعْ لك وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تشفعْ، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأَخْرِج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردلٍ من إيمان، فأخرجه من النارِ، فأنطلق، فأفعل»** . رواه البخاري ح(٧٠٧٢)، ومسلم ح(١٩٣) وغيرهما.

(٢) في م، ك، س: «من تفضيلهم».

(٣) وقد ذكر أهل العلم فروقًا بين النبي والرسول؛ فذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في «النبوات» (ص/١٨٤): «أن النبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي، وليس برسول» وقال شارح «العقيدة الطحاوية» (١٦٧): وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي، وليس برسول، =

الطبقةُ الرابعةُ: ورثةُ الرسلِ

الطبقةُ الرابعةُ: ورثةُ الرسلِ وخلفاؤُهم في أممِهم، وهم القائمون بما بُعِثُوا به عِلمًا وعملًا، ودعوةً للخلقِ إلى اللهِ على طريقِهم ومنهاجِهم، وهذهِ أفضلُ مراتبِ الخلقِ بعدَ الرسالةِ والنبوةِ، وهي مرتبةُ الصديقيةِ، ولهذا قَرَنَهُم اللهُ تعالى في كتابِهِ بالأنبياءِ فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النِّساء: الآية ٦٩] فجعلَ درجةَ الصديقيةِ تلي درجةَ[1] النبوةِ، وهؤلاءِ هم الربانيون، وهم الراسخون في العلمِ، وهم الوسائطُ بين الرسولِ ﷺ وأمَّتِهِ[2]، فهم خلفاؤُه، وأولياؤُه، وحزبُه، وخاصَّتُه، وحملةُ دينِهِ، وهم المضمُون لهم أنهم لا يزالون على الحقِّ لا يضرُّهم [مَنْ خذلَهم، ولا][3] مَنْ خالَفَهُم حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهُم[4] على ذلك، و قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ [الحَديد: الآية ١٩].

وقد قيل: إن الوقفَ على قولِهِ: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ [الحَديد: الآية ١٩] [ثم يبتدئُ][5] ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحَديد: الآية ١٩] فيكونُ الكلامُ جملتين أخبر في إحدَاهما عن المؤمنين باللهِ ورسلِهِ، أنهم هم الصديقون، والإيمانُ التامُّ يستلزمُ العلمَ والعملَ، والدعوةَ إلى اللهِ سبحانه بالتعليمِ، والصبرِ عليه، وأخبر في الثانيةِ أن الشهداءَ عند ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم، ومرتبةُ الصديقين فوق مرتبةِ الشهداءِ[6]؛ ولهذا قدَّمهم عليهم في الآيتين؛ هنا وفي سورةِ النساءِ، وهكذا جاء ذكرُهم مقدمًا على الشهداءِ في كلامِ النبيِّ ﷺ في قولِهِ: «**اثبتْ أُحُد؛ فإنما عليك نبيٌّ وصديقٌ وشهيدانِ**»[7] ولهذا كان نعتُ الصديقيةِ وصفًا لأفضلِ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ والمرسلين، وهو أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه، ولو كان بعد النبوةِ درجةٌ أفضلُ من الصديقيةِ، لكانتْ نعتًا له رضي الله عنه.

= فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول». وكأن المؤلف رحمه الله يرى هذا الرأي حيث أفرد طبقة مستقلة للأنبياء، وبين أن الله اختصهم بالوحي عن سائر الأمة، واختص الرسل عنهم بإرسالهم إلى الأمة يدعونهم إلى الله بشريعته وأمره. وينظر في هذا: «تفسير الآلوسي» (١٧/ ١٧٢)، و«الرسل والرسالات» لـ د: عمر الأشقر (١٤) و«دراسات في النبوة والأنبياء» لـ د: عبد العزيز العسكر (٨٥).

(١) في ك: «فجعل درجة الصديقية معطوفًا على درجة».
(٢) في م: «وبين أمته».
(٣) سقط من ع.
(٤) في س: «حتى يأتي بأمره وهم».
(٥) سقط من ك.
(٦) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣١٢-٣١٣).
(٧) في ك، س: «وشهيد». والحديث رواه البخاري، وح (٣٤٩٦)، وأبو داود، ح (٣٦٩٧)، عن أنس. رضي الله عنه.

وقيل: إن الكلامَ كلَّه جملةٌ واحدةٌ، وأخبرَ عن المؤمنين بأنهم هم الصديقون والشهداءُ عند ربِّهم(١) وعلى هذا فالشهداءُ هم: الذين يستشهِدُهمُ اللهُ على الناسِ يومَ القيامةِ(٢)، وهو قولُه: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] وهمُ المؤمنون، فوصفَهم بأنهم صِدِّيقون في الدنيا، وشهداءُ على الناسِ يومَ القيامةِ(٣)، ويكونُ الشهداءُ وصفًا لجملةِ المؤمنين الصديقين، وقيلَ: الشهداءُ همُ الذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ(٤)، وعلى هذا القولِ يترجحُ أن يكونَ الكلامُ جملتين(٥)، ويكونَ قولُه: ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النِّساء:

---

(١) وقد ذكر الطبري اختلاف أهل التفسير في الوقف في هذه الآية، فقال: «فقال بعضهم: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ منفصل من الذي قبله، والخبر عن ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ مُتناهٍ عند قوله: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحَديد: الآية ١٩] و﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ مرفوع بقوله: «هُمْ» ثم ابتدأ الخبر عن الشهداء» وذكر أن هذا مروي عن ابن عباس، ومسروق، والضحاك» ثم قال: «وقال آخرون: بل قوله ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ من صفة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، قالوا: إنما تناهى الخبر عن ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عند قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحَديد: الآية ١٩] ثم ابتدأ الخبر عما لهم، فقيل: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحَديد: الآية ١٩] وذكر هذا عن مجاهد وغيره» «تفسير الطبري» (٢٧/ ٢٣٠-٢٣١). وينظر: «القطع والائتناف» للنحاس (٧٠٨-٧٠٩)، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٢٥٦) «تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٨)، و«زاد المسير» (٨/ ١٧٠)، و«التفسير الكبير» للرازي (٢٩/ ٢٠٢).

(٢) في م: «يوم القيامة على الناس».

(٣) والشهداء على هذا المعنى اختلف فيهم على قولين:

الأول: أنهم الأنبياء خاصة، وهو قول ابن عباس، ومروي عن مقاتل وغيرهما، **الثاني**: أنهم الشاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان لله، قاله مجاهد وغيره. ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٦٥٨)، و«تفسير الطبري» (٢٧/ ٢٣١)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٢٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٨)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ١٧٠).

(٤) وهو مروي عن الضحاك، ومقاتل بن سليمان وغيرهما. وينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٢٧/ ٢٣١)، و«القطع والائتناف» للنحاس (٧٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٨)، و«زاد المسير» (٨/ ١٧٠).

(٥) قال الطبري: «والذي هو أولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب: قول من قال: الكلام والخبر عن ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متناهٍ عند قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحَديد: الآية ١٩]، وإن قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحَديد: الآية ١٩] خبر مبتدأ عن الشهداء، وإنما قلنا: إن ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن ذلك هو الأغلب من معانيه في الظاهر، وأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم شهيد، لا بمعنى غيره، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه، فيكون ذلك وجهًا، وإن كان فيه بعض البعد؛ لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل»، «تفسيره» (٢٧/ ٢٣١).

الآية ٦٩] مبتدأً خبرُه ما بعده؛ لأنه ليس كلُّ مؤمنٍ صديقٍ شهيدًا في سبيلِ اللهِ.

ويرجحُهُ أيضًا أنه لو كان (الشهداء) داخلًا[(١)] في جملةِ الخبرِ [عنِ المؤمنين][(٢)] لكان قولُه: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٢] داخلًا أيضًا في جملةِ الخبرِ عنهم، ويكونُ قد أخبر عنهم بثلاثةِ أشياءَ:

أحدُها: أنَّهُم همُ الصديقون.

والثاني: أنهم الشهداءُ[(٣)].

والثالثُ: أنهم لهم[(٤)] أجرُهم [ونورُهم][(٥)].

وذلك يتضمنُ عطفَ الخبرِ الثاني على الأولِ. ثم ذكر الخبرَ الثالثَ مجردًا عن العطفِ وهذا كما تقولُ: زيدٌ كريمٌ وعالمٌ له مالٌ، والأحسنُ في هذا تناسبُ الأخبارِ بأن تجردَها كلَّها من العطفِ أو تعطفَها جميعًا، فتقولُ: زيدٌ كريمٌ عالمٌ له مالٌ[(٦)]، أو كريمٌ وعالمٌ وله مالٌ[(٧)]. فتأملْه.

ويرجحُه أيضًا: أن الكلامَ يصيرُ جملًا مستقلةً، قد ذكر فيها أصنافَ خلقِهِ السعداءِ وهمُ الصديقون، والشهداءُ، والصالحون، وهم المذكورون في [أولِ][(٨)] الآيةِ، وهم المتصدقُون الذين أقرضوا اللهَ قرضًا حسنًا، فهؤلاءِ ثلاثةُ أصنافٍ.

ثم ذكر الرسلَ في قولِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] فيتناولُ[(٩)] ذلك الأصنافَ الأربعةَ المذكورةَ في سورةِ النساءِ[(١٠)]، فهؤلاءِ هم السعداءُ، ثم ذكر الأشقياءَ، وهم نوعان: كفارٌ، ومنافقون، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ وذكَرَ المنافقين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[(١١)]».

---

(١) في م: «داخلين». (٢) سقط من ك، س.

(٣) في ك، س: «أنهم هم الشهداء». (٤) في ك، س: «أن لهم».

(٥) سقط من ع، م، وفي م زيادة: «عند ربهم». (٦) في س: «ماله».

(٧) فعلى هذا يترجح عند المؤلف أن الكلام جملتان، فيوقف على قوله: ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٩].

(٨) سقط من م، ك، س. (٩) في م، س: «فتتناول».

(١٠) وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: الآية ٦٩].

(١١) في م، ك، س: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٣].

فهؤلاءِ أصنافُ العَالَمِ كلُّهم، وتركَ سبحانه ذكرَ المخلَّطِ صاحبِ الشائبتين، على طريقةِ[(١)] القرآنِ في ذكرِ السعداءِ والأشقياءِ[(٢)] دونَ المخلطين غالبًا، لسرٍّ اقتضتْه حكمتُه [ﷻ][(٣)].

فليحذرْ صاحبُ التخليطِ؛ فإنه لا ضمانَ له على اللهِ، ولا هو من أهلِ وعدِهِ المطلقِ، ولا ييأسُ من روحِ اللهِ؛ فإنه ليس من الكفارِ الذين قُطع[(٤)] لهم بالعذابِ؛ ولكنه بين الجنةِ والنارِ، واقفٌ بين الوعدِ والوعيدِ، كلٌّ منهما يدعوه إلى موجبِه؛ لأنه أتى سببَهُ[(٥)]. وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلةِ بين المنزلتين[(٦)]، ولكن غلطوا في تخليدِه في النارِ، ولو نزلوه منزلةً بين المنزلتين، ووكَلُوه إلى المشيئةِ، وقالوا بأنه يخرجُ من النارِ بتوحيدِه وإيمانِهِ؛ لأَصَابُوا[(٧)]، ولكن منزلةٌ بين منزلتين وصاحبُها[(٨)] مخلدٌ في النارِ، مما لا يقتضيهِ عقلٌ ولا سمعٌ، بل النصوصُ الصريحةُ المعلومةُ الصحةُ تشهدُ ببطلانِ قولِهم[(٩)] واللهُ أعلمُ.

وأيضًا فصاحبُ الشائبتين يُعلمُ حكمُهُ من نصوصِ الوعدِ والوعيدِ، فإنَّ اللهَ سبحانه رتَّبَ على كلِّ عملٍ جزاءً في الخيرِ والشرِّ، فإذا أتى العبدُ بهما كان فيه سببُ الجزاءين، واللهُ لا يضيعُ مثقالَ ذرةٍ، فإن كان عملُ الشرِّ مما يوجبُ سقوطَ أثرِ الحسنةِ؛ كالكفرِ؛

---

(١) في ك، س: «طريق». (٢) في م: «والأشقياء في دون». (٣) سقط من ك، س.

(٤) في م، س: «قد قطع». (٥) في س: «بسببه».

(٦) قال الإسفراييني: «ومما اتفقوا عليه من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق الملي في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن، ولا هو كافر، وإنه إن خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلدًا في النار مع جملة الكفار ولا يجوز لله تعالى أن يغفر له، أو أن يرحمه» «التبصير في الدين» (٦٥)، وينظر: «معارج القبول» للحكمي (٣/ ١٠٢٠)، وسبق التعريف بالمعتزلة.

(٧) قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمعتزلة ينفون عنه اسم الإيمان بالكلية، واسم الإسلام أيضًا، ويقولون: ليس معه شيء من الإيمان والإسلام، ويقولون ننزله منزلة بين منزلتين، فهم يقولون: إنه يخلد في النار، لا يخرج منها بالشفاعة وهذا هو الذي أنكر عليهم، وإلا لو نفوا مطلق الاسم، وأثبتوا معه شيئًا من الإيمان يخرج به من النار، لم يكونوا مبتدعة» «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٨) في م: «المنزلتين»، وفي س: «منزلة بين المنزلتين وصاحبهما».

(٩) ينظر في هذه المسألة: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٧/ ٤٨٤)، وما بعدها، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٤١٦)، و«توضيح المقاصد» لأحمد بن عيسى (٢/ ١٤٣)، و«المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها» لعواد المعتق (٢٥٥).

كان التأثيرُ له، وإن لم يسقطْه، كالمعصيةِ، ترتَّب في حقِّهِ الأثرانِ ما لم يسقطْ أحدُهما بسببٍ من الأسبابِ التي سنذكرُها[(١)] إن شاء اللهُ فيما بعد.

خلافةُ الرسالةِ أفضلُ درجاتِ الأمةِ

والمقصودُ: أن درجةَ الصديقيةِ، والربانيةِ، ووراثةِ النبوةِ، وخلافةِ الرسالةِ هي أفضلُ درجاتِ الأمَّةِ، ولو لم يكنْ من فضلِها وشرفِها إلا أن كلَّ مَنْ عَلِمَ بتعليمِهم وإرشادِهم، أو علَّم غيرَه شيئًا من ذلك، كان لهم مثلُ أجرِهِ؛ ما دام ذلك جاريًا في الأمَّةِ على آبادِ الدهورِ، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لعليِّ بنِ أبي طالبٍ[(٢)]: «**[واللهِ]**[(٣)] **لأن يهديَ اللهُ بك رجلًا واحِدًا خيرٌ لك من حمرِ النعم**»[(٤)] وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**من سَنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فعُمِلَ بها بعدَه، كان له مثلُ أجرِ من عمل بها لا ينقصُ [ذلك]**[(٥)] **من أجورِهم شيئًا**»[(٦)] وصحَّ عنه أنه[(٧)] قال: «**إذا مات العبدُ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»[(٨)] وصحَّ عنه أنه قال[(٩)]: «**من يُرِدِ**[(١٠)] **اللهُ به خيرًا يفقهْهُ في الدينِ**»[(١١)] وفي «السننِ» عنه أنه قال: «**[إنَّ]**[(١٢)] **العالمَ ليستغفرُ**[(١٣)] **له مَنْ [في]**[(١٤)] **السمواتِ ومَنْ في الأرضِ حتى النملةُ في جحرِها**»[(١٥)] وعنه ﷺ أنه قال:

---

(١) في ك، س: «نذكرها».

(٢) علي بن أبي طالب: سبقت ترجمته. (٣) سقط من م.

(٤) رواه البخاري، ح (٢٨٤٧)، و ح (٣٤٩٨)، والمغازي، ح (٣٩٧٣)، ومسلم، ح (٢٤٠٧)، وأبو داود، ح (٣٦٦١)، وأحمد (٥/ ٣٣٣)، عن سهل بن سعد. رضي الله عنه.

(٥) سقط من م، ك، س.

(٦) رواه مسلم، ح (١٠١٧) والترمذي، ح (٢٦٧٥) والنسائي، ح (٢٥٥٤)، وابن ماجه، ح (٢٠٣)، وأحمد (٤/ ٣٦١)، عن جرير بن عبد الله. رضي الله عنه.

(٧) في ك، س: «وصح عنه أيضًا أنه».

(٨) رواه مسلم، ح (١٦٣١)، وأبو داود، ح (٢٨٨٠)، والترمذي، ح (١٣٧٦)، والنسائي، ح (٣٦٥١)، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، عن أبي هريرة. رضي الله عنه.

(٩) في س: «قاله». (١٠) في س: «يريد».

(١١) رواه البخاري، ح (٧١)، وفي ح (٢٩٤٨)، وح (٦٨٨٢)، ومسلم، ح (١٠٣٧)، وابن ماجه، ح (٢٢١)، وأحمد (٤/ ٩٢)، (٩٣)، (٩٥)، (٩٦)، (٩٨)، (٩٩)، (١٠١)، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(١٢) سقط من م. (١٣) في م: «يستغفر». (١٤) سقط من س.

(١٥) رواه أبو داود، ح (٣٦٤١)، والترمذي، ح (٢٦٨٢)، وابن ماجه، ح (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وفيه: «**حتى الحيتان في البحر**»، من حديث أبي الدرداء. رضي الله عنه.، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٦٩٤)، ح (٣٠٩٦).

«إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصلون على معلم[١] **الناسِ الخيرَ»**[٢] وعنه ﷺ أنه قال: **«إن العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإن الأنبياءَ لم يورثُوا دينارًا، ولا درهمًا، وإنما ورَّثُوا العلمَ، فمنْ**[٣] **أخذَه، أخذ بحظٍّ وافرٍ»** وعنه ﷺ **«العالمُ والمتعلمُ، شريكان في الأجرِ، ولا خيرَ في سائرِ الناسِ بعدُ»**[٤] وعنه ﷺ أنه قال: **«نضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فوعاها، فأدَّاها**[٥] **إلى من لم يسمعْها»**[٦]»[٧].

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ [جدًّا][٨]. وقد ذكرنا مائتي[٩] دليلٍ على فضلِ العلمِ وأهلِهِ في كتابٍ مفردٍ[١٠].

فيا لها من مرتبةٍ ما أعلاها! ومنقبةٍ ما أجلَّها وأسناها! أن يكونَ المرءُ في حياتِهِ مشغولًا ببعضِ أشغالِهِ، أو[١١] في قبرِهِ، قد صار أشلاءً متمزقةً، وأوصالًا متفرقةً وصحفُ حسناتِهِ متزايدةٌ، تُملى فيها الحسناتُ كلَّ وقتٍ، وأعمالُ الخيرِ مهداةٌ[١٢] إليه من حيثُ لا يحتسبُ، تلك واللهِ المكارمُ والغنائمُ، وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون، وعليه يَحْسِدُ الحاسدون، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ. وحقيقٌ بمرتبةٍ هذا شأنُها أن تنفقَ نفائسُ الأنفاسِ عليها، ويستبقَ السابقون إليها

---

(١) في م: «معلمي».

(٢) رواه الترمذي، ح (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٣٤٣)، ح (٢١٦١).

(٣) في م: «من».

(٤) رواه ابن ماجه، ح (٢٢٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (ص/ ١٧)، ح (٤٣).

(٥) في ك: «وأداها». (٦) في م: «فأداها كما سمعها».

(٧) رواه ابن ماجه، في المقدمة، باب: من بلَّغ علمًا، ح (٢٣١)، وفي المناسك، باب: الخطبة يوم النحر ح (٣٠٤٧)، بنحوه، وأحمد (٤/ ٨٠)، (٨٢)، من حديث جبير بن مطعم. رضي الله عنه. وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٤٥)، ح (١٨٨).

(٨) سقط من ك، س. (٩) في س: «مائتين».

(١٠) قد ذكر هذا الكتاب باسم «فضل العلماء» ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٥٠)، وابن عيسى في «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم» (١/ ٨). وينظر كتاب: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإدارة» (ص/ ٤٨) وما بعدها، فقد ذكر نحوًا من مائة وستين وجهًا. وانظر كتاب: «ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره» للشيخ د: بكر أبو زيد.

(١١) في س: «و».

(١٢) في م: «تهدى».

وتوفرَ[١] عليها الأوقاتُ، وتتوجَّهَ[٢] نحوها الطلباتُ، فنسألُ اللهَ الذي بيدِه مفاتيحُ كلِّ خيرٍ أن يفتحَ علينا خزائنَ رحمتِهِ، ويجعلَنا من أهلِ هذهِ الصفةِ بمنِّهِ وكرمِهِ.

وأصحابُ هذهِ المرتبةِ يُدعون عظماءَ في ملكوتِ السماءِ، كما قال بعضُ السلفِ: «من عَلِمَ، [وعَمِل][٣]، وعَلَّم، فذاك[٤] يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السماءِ»[٥] وهؤلاءِ هم العدولُ حقًّا، بتعديلِ رسولِ اللهِ ﷺ [لهم][٦]؛ إذ يقولُ فيما روي[٧] عنه من وجوهٍ يسندُ[٨] بعضُها بعضًا:

«**يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريفَ[٩] الغالين وانتحالَ المُبْطِلين، وتأويلَ الجاهلين**»[١٠] وما أحسنَ ما قال فيهم الإمامُ أحمدُ في خطبةِ كتابِهِ[١١] «الردِّ على الجهميةِ»[١٢]: «الحمدُ للهِ الذي جعلَ في كلِّ زمانٍ فترةً من الرسلِ بقايا من أهلِ العلمِ، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويَصْبرون منهم على الأذى،

---

(١) في ع: «وتتوفر». (٢) في س: «وتوجه». (٣) سقط من م.

(٤) في ك، س: «فذلك».

(٥) قال الترمذي في «سننه» (٥/ ٥٠): «سمعت أبا عمار الحسين بن حريث الخزاعي، يقول: سمعت الفضيل بن عياض...»، ثم ذكره. وروي نحوه عن المسيح ﷺ، كما في «الزهد» لابن أبي عاصم (ص/ ٥٩) و«حلية الأولياء» (٦/ ٩٣)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٢٣٠)، وروي عن سفيان بن عيينة، كما في «شعب الإيمان» (٢/ ٣١٤) قال: «قال بعض الفقهاء»، ثم ذكره بنحوه.

(٦) سقط من ع. (٧) في م، س: «يروى». (٨) في ك، س: «يشد».

(٩) في ك، س: «طريق».

(١٠) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٣٤٤)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٩٣)، ح (١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣١) من حديث ابن عمر. والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٠٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ٥٩) كلاهما عن إبراهيم بن عبد الرحمن، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٤٠): «رواه البزار وفيه: خالد بن عمرو القرشي كَذَّبه يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، ونسبه إلى الوضع»، وضعفه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣١) وذكره العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٩)، (١٠) و(٤/ ٢٥٦)، وقال الألباني: «مرسل؛ لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري هذا تابعي مقل، كما قال الذهبي، وراويه عنه معاذ بن رفاعة، وليس بعمدة، لكن الحديث قد روي موصولًا من طريق جماعة من الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في «بغية الملتمس» (٣-٤). ينظر: «مشكاة المصابيح» (١/ ٨٢-٨٣) حاشية رقم (٣). وقد جمع المؤلف رحمه الله. طرق هذا الحديث في كتابه: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٣-١٦٤).

(١١) في م، ك، س زيادة: «في». (١٢) كتاب «الرد على الجهمية» (ص/ ٦).

ويبصِّرُون بنورِ اللهِ أهلَ العِمَى.

فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحيُوه، ومِن ضالٍّ جاهلٍ قد هدوه. فما أحسنَ أثرَهم على الناسِ! وأقبحَ أثرَ الناسِ عليهم!؛ ينفون عن كتابِ اللهِ تأويلَ الجاهلين، وتحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين» وذكر ابنُ وضَّاحٍ(١) هذا الكلامَ عن عمرَ بنِ الخطابِ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ](٢).

الطبقةُ الخامسةُ: أئمةُ العدلِ

الطبقةُ الخامسةُ: أئمةُ العدلِ(٣) وولاتُه الذين تؤمَّنُ بهم السبلُ، ويستقيمُ بهم العالَمُ ويستنصرُ بهم الضعيفُ، ويُذلُّ بهم الظالمُ، ويأمنُ بهم الخائفُ، وتقامُ بهم الحدودُ ويُدفعُ بهم الفسادُ، ويأمرون بالمعروفِ، وينهون عن المنكرِ، ويقامُ بهم حكمُ الكتابِ والسنةِ، وتُطفأُ بهم نيرانُ البدعِ والضلالةِ، وهؤلاءِ هم الذين تنصبُ لهم المنابرُ من النورِ [عن](٤) يمينِ الرحمنِ عَزَّ وَجَلَّ يومَ القيامةِ، فيكونون(٥) عليها، والولاةُ الظلمةُ قد صَهَرَهُم حرُّ الشمسِ، وقد بلغَ منهم العرقُ مبلغَه، وهم يحمِلُون أثقالَ مظالِمِهم العظيمةِ على ظهورِهم الضعيفةِ، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، ثم يُرى سبيلُ أحدِهم إما إلى الجنةِ، وإما إلى النارِ.

قال النبيُّ ﷺ: **«المقسطون عندَ اللهِ على منابرَ من نورٍ يومَ القيامةِ، عن يمينِ الرحمنِ**

---

(١) محمد بن وضاح بن بزيع، أبو عبد الله، القرطبي، الحافظ، محدث الأندلس مع بقي بن مخلد، رحل إلى المشرق، وأخذ عن أصحاب مالك والليث، وروى علمًا جمًّا، وقال عنه الذهبي: «رأس في الحديث». له تصانيف منها: «العباد والعوابد» و«القطعان» في الحديث، و«البدع والنهي عنها»، و «مكنون السر ومستخرج العلم» في الفقه. وغيرها، توفي سنة (٢٨٦)هـ. ينظر: «تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٦٢)، و«الأعلام» (٧/ ١٣٣).

(٢) سقط من ك، س. وانظر كتاب «ما جاء في البدع» لابن وضاح (ص/ ٣٢). عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح القرشي العدوي، أبو حفص، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشراف قريش، وكانت السفارة إليه في الجاهلية، وكان شديدًا على الرسول ﷺ وأصحابه، ثم أسلم بعد رجال سبقوه، فكان إسلامه عزًّا ظهر به الإسلام بدعوة النبي ﷺ، وهاجر إذ هو من المهاجرين الأولين، وشهد بدرًا وبيعة الرضوان والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه، وولي الخلافة بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفتح الله له الفتوح بالشام والعراق ومصر، وتوفي سنة (٢٣)هـ. طعنه أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة. ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٤٤)، و«أسد الغابة» (٣/ ٦٤١)، و«الإصابة» (٤/ ٥٨٨).

(٣) في س: «العدول». (٤) سقط من س. (٥) في س: «فيكون».

تباركَ وتعالى، وكلتا يديهِ يمينٌ، الذين يعدِلُون في حكمِهم وأهلِهم(١) **وما وُلُّوا»**(٢) وعنه ﷺ: **«إنَّ أحبَّ الخلقِ إلى اللهِ، وأقربَهم منزلةً منه يومَ القيامةِ، إمامٌ عادلٌ، وإنَّ أبغضَ الخلقِ إلى اللهِ وأبعدَهم منه منزلةً يومَ القيامةِ إمامٌ جائرٌ»**(٣) أو كما قال.

وهم أحدُ السبعةِ الأصنافِ الذين(٤) يظلُّهمُ اللهُ في ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّهُ

[و](٥) كما(٦) كان الناسُ في ظلِّ عدلِهم في الدنيا، كانوا [هم](٧) في ظلِّ عرشِ الرحمنِ يومَ القيامةِ، ظلًّا بظلٍّ، جزاءً وفاقًا، ولو لم يكنْ من فضلِهم وشرفِهم إلا أن أهلَ السمواتِ والأرضِ والطيرَ في الهواءِ يُصَلُّون عليهم، ويستغفرون [لهم](٨) ويدعون لهم(٩)، وولاةُ الظلمِ يلعنُهم مَنْ بين السماءِ والأرضِ، حتى الدوابُّ والطيرُ، كما أن معلمَ الناسِ الخيرَ يُصلي عليه اللهُ وملائكتُهُ.

وكاتمُ العلمِ والهدي الذي أنزلَهُ اللهُ، وحاملُ أهلِهِ على كتمانِهِ، يلعنُهُ اللهُ وملائكتُه، ويلعنُه اللاعنون(١٠)، فيا لها من منقبةٍ ومرتبةٍ ما أجلَّها، وأشرفَها، أن يكونَ الوالي والإمامُ على فراشِهِ، وغيرُه يعملُ بالخيرِ، وتكتبُ الحسناتُ في صحائفِهِ، فهي متزايدةٌ ما دام يعملُ بعدلِهِ، ولَساعةٌ واحدةٌ منه خيرٌ من عبادةِ أعوامٍ من غيرِه، فأين(١١) هذا من صفةِ الغاشِّ لرعيتِهِ، الظالمِ لهم [الذي](١٢) قد حرَّم [اللَّهُ](١٣) عليه الجنةَ، وأوجبَ له النارَ.

ويكفي في فضلِهِ وشرفِهِ أنه يكفُّ عن اللهِ دعوةَ المظلومِ، كما في [بعضِ](١٤)

---

(١) في س: «وأهليهم».

(٢) رواه مسلم، ح (١٨٢٧)، والنسائي، ح (٥٣٧٩)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) رواه الترمذي، كتاب: الأحكام، باب: ما جاء في الإمام الجائر، ح (١٣٢٩)، وأحمد (٣/ ٢٢) و(٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وضعفه الألباني، ينظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣/ ٢٩٧)، ح (١١٥٦).

(٤) في س: «الذي». (٥) سقط من ك. (٦) في س: «فكما».

(٧) سقط من ك، س. (٨) سقط من م. (٩) سبق.

(١٠) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٩].

(١١) في م: «فإن». (١٢) سقط من س. (١٣) سقط من س.

(١٤) سقط من ك، س.

الآثارِ: «أيها الملكُ المسلطُ المغرورُ، إني لم أبعثْك لتجمعَ الدنيا بعضَها على بعضٍ، ولكن بعثتُك لتكفَّ عنِّي دعوةَ المظلومِ؛ فإني لا أحجبُها، ولو كانتْ من كافرٍ»[(١)].

فأين من هو نائمٌ، وأعينُ العبادِ ساهرةٌ تدعو اللهَ له، وآخرُ أعينُهم[(٢)] ساهرةٌ تدعو عليه؟.

الطبقةُ السادسةُ: المجاهدون في سبيلِ اللهِ

الطبقةُ السادسةُ: المجاهدون في سبيلِ اللهِ، وهم جندُ اللهِ، الذين[(٣)] يقيم بهم دينَه ويدفعُ بهم بأسَ أعدائِهِ، ويحفظُ بهم بيضةَ الإسلامِ، ويحمي بهم حوزةَ الدينِ، وهم الذين يقاتلون أعداءَ اللهِ؛ ليكونَ الدينُ كلُّه للهِ، [وتكونَ كلمةُ اللهِ][(٤)] هي العليا قد بذلوا أنفسَهم في محبةِ اللهِ، ونصرِ دينِهِ، وإعلاءِ كلمتِهِ، ودفعِ أعدائِهِ، وهم شركاءُ لكلِّ مَنْ يحمُونَه بسيوفِهِم في أعمالِهِم التي يعمَلُونها، وإن نأتْ[(٥)] ديارُهم، ولهم مثلُ أجورِ[(٦)] من عبدَ اللهَ بسببِ جهادِهم، وفتوحِهِم، فإنهم كانوا هم السببَ فيه.

والشارعُ قد نزلَ المتسببَ منزلةَ الفاعلِ التامِّ في الأجرِ والوزرِ، ولهذا كان الداعي إلى الهدى، والداعي إلى الضلالِ، لكلٍّ منهما بتسببِهِ مثلُ أجرِ مَنِ اتَّبعه[(٧)].

آياتُ الحضِّ على الجهادِ

وقد تظافرتْ آياتُ الكتابِ، وتواترتْ نصوصُ السنةِ على الترغيبِ في الجهادِ والحضِّ عليه، ومدحِ أهلِهِ، والإخبارِ عما لهم عند ربِّهم من أنواعِ الكراماتِ والعطايا الجزيلاتِ، ويكفي في ذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ [الصَّف: الآية ١٠] فتشوقتِ النفوسُ[(٨)] إلى هذهِ التجارةِ الرابحةِ التي الدالُّ عليها ربُّ العالمين، العليمُ، الحكيمُ، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصَّف: الآية ١١] فكأنَّ النفوسَ ضنَّتْ بحياتِها، وبقائِها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٤١] يعني أن الجهادَ خيرٌ لكم من قعودِكُم طلبًا للحياةِ والسلامةِ، فكأنها قالتْ: فما لنا في هذا الجهادِ من الحظِّ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٥٣)، ح (٤١٦٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٧)، وابن الجوزي في «المنتظم» (١/ ٢٧٣)، وابن الأثير في «الكامل» (١/ ٩٤)، وأورده الهيثمي في «الموارد» (ص/ ٥٣)، وقال: «فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال: أبو حاتم وغيره: كذاب».

(٢) في م: «عينه». (٣) في س: «الذي». (٤) سقط من س.

(٥) في س: «تنأت». (٦) في م: «أجورهم».

(٧) في ك، س: «تبعه». (٨) في ك: «التقوى».

ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصَّف: الآية ١٢] ومع المغفرةِ ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصَّف: الآية ١٢] فكأنها قالتْ: هذا في الآخرةِ، فماذا[1] لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: الآية ١٣] فَلِلَّهِ ما أحلى هذهِ الألفاظَ ! وما ألصقَها بالقلوبِ ! وما أعظمَها جذبًا لها وتسييرًا[2] إلى ربِّها! وما ألطفَ موقعَها من قلبِ كلِّ محبٍّ ! وما أعظمَ غنى القلبِ، وأطيبَ عيشَه حينَ تباشرُه معانيها ! فنسألُ اللهَ من فضلِهِ، إنه جوادٌ كريمٌ.

ومن هذا قولُه تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾ [التوبة: ١٩-٢٢].

فأخبر سبحانه أنه لا يستوي عنده عُمَّارُ المسجدِ الحرامِ؛ وهم عُمَّارُه بالاعتكافِ، والطوافِ، والصلاةِ - هذهِ هي عمارةُ مساجدِه المذكورةِ في القرآنِ - وأهلُ سقايةِ الحاجِّ، لا يستوُون هم وأهلُ الجهادِ في سبيلِهِ، وأخبرَ أن المؤمنين المجاهدين أعظمُ درجةً عنده، وأنهم همُ الفائزون، وأنهم أهلُ البشارةِ بالرحمةِ والرضوانِ والجناتِ، فنفى التسويةَ بين المجاهدينَ وعُمَّارِ[3] المسجدِ الحرام بأنواع العبادةِ، مع ثنائِهِ على عُمَّارِهِ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ [التَّوبَة: الآية ١٨].

فهؤلاءِ همْ عُمَّارُ المساجدِ، ومع هذا فأهلُ الجهادِ أرفعُ درجةً عند اللهِ منهم، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، فنفى سبحانه التسويةَ بين المؤمنين القاعدينَ عن الجهادِ وبين المجاهدين، ثم أخبرَ عن تفضيلِ المجاهدين على القاعدين درجةً، ثم أخبر عن تفضيلِهم عليهم درجاتٍ.

---

(١) في م، ك: «فما لنا في الدنيا».

(٢) في م: «تيسيرًا».

(٣) في م: «وبين عمار».

وقد أشكل فهمُ هذهِ الآيةِ على طائفةٍ من الناسِ من جهةِ أن القاعدين الذين فُضِّل عليهم المجاهدون بدرجةٍ، إن كانوا هم أُولي الضررِ، والقاعدون الذين فُضِّلَ عليهم المجاهدون بدرجاتٍ هم غيرُ أُولي الضررِ، [فيكونُ المجاهدون أفضلَ من القاعدين مطلقًا، وعلى هذا فما وجهُ استثناءِ أولي الضررِ][١] من القاعدين، وهم لا يستوون [هم][٢] والمجاهدون أصلًا؟ فيكونُ حكمُ المستثنى والمستثنى منه واحدًا فهذا وجهُ الإشكالِ.

ونحن نذكرُ ما قاله هؤلاءِ في الآيةِ، ثم نذكرُ ما يزيلُ الإشكالَ بحمدِ اللهِ:

اختلفَ القراءُ في إعرابِ (غير)؛ فقُرِئَ رفعًا، ونصبًا، وهما في السبعةِ[٣]، وقرئ بالجرِّ[٤] في غيرِ السبعةِ، وهي قراءةُ أبي حيوةَ[٥]، فأمَّا قراءةُ النصبِ: فعلى الاستثناءِ؛ لأنَّ (غيرًا) تعربُ في الاستثناءِ إعرابَ الاسمِ الواقعِ بعدَ (إلا)[٦]، وهو[٧] النصبُ هنا: هذا هو الصحيحُ، وقالتْ طائفةٌ: إعرابُها نصبٌ على الحالِ، أي: لا يستوي القاعدون غيرُ مضرورين، أي: لا يستوون في حالِ صحتِهم هم والمجاهدون[٨].

---

(١) سقط من س. (٢) سقط من ك.

(٣) وقد قرأ بالرفع: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة. وقرأ بالنصب: نافع، وابن عامر والكسائي، وخلف، ظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٢٢٧-٢٢٨) و«السبعة في القراءات» لابن مجاهد (١/ ٢٣٧) و«الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه، (ص/ ١٢٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» للقيسي (١/ ٣٩٦)، و«تفسير البغوي» (١/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» (٢/ ١٧٤).

(٤) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ١٧٤)، و«إعراب القراءات الشاذة» للعكبري (١/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٤٣)، وغيرها.

(٥) شريح بن يزيد الحضرمي الحمصي المقرئ، من أهل حمص، يروي عن إبراهيم بن أدهم وعمران بن بشير، وروى عنه ابنه حيوة بن شريح، توفي سنة (٢٠٣)هـ. ينظر: «الثقات» لابن حبان (٨/ ٣١٣)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٩١).

(٦) ينظر في هذا: «المقتضب» للمبرد (٤/ ٤٢٢)، و«الجمل في النحو» للزجاجي (٢٣١)، و«الأزهية في علم الحروف» للهروي (١٧٩)، و«المفصل في علم العربية» للزمخشري (٦٩)، و«مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام (٢١٠)، و«معجم النحو» لعبد الغني الدقر (٢٥٥)، و«اللباب في النحو» عبد الوهاب الصابوني (٢٥٨).

(٧) في ع: «وهي».

(٨) ينظر في توجيه قراءة النصب إلى: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٣)، و«معاني القرآن» للأخفش: =

والاستثناءُ أصحُّ[(١)]؛ فإنَّ (غيرًا) لا تكادُ تقعُ حالًا في كلامِهِم إلا مضافةً إلى نكرةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٣] وقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ [المَائدة: الآية ١] وقوله ﷺ: «**مرحبًا بالوفدِ غيرَ خزايا ولا ندامى**»[(٢)] فإنْ أضيفتْ إلى معرفةٍ كانتْ تابعةً لما قبلَها، كقولِهِ تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] ولو قلت: مرحبًا بالوفدِ غيرِ الخزايا ولا الندامى، لجررتَ (غيرًا)، هذا هو المعروفُ من كلامِهِم، والكلامُ في عدمِ تعرفِ (غير) بالإضافةِ، وحُسنُ وقوعِهَا إذ ذاك حالًا له مقامٌ آخرُ.

وأما الرفعُ: فعلى النعتِ للقاعدين، هذا هو الصحيحُ، وقال أبو إسحاقَ[(٣)] وغيرُه: هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: الذين هم غيرُ أولي الضررِ، والذي حمله على هذا ظنُّه أن (غيرًا) لا تقبلُ التعريفَ بالإضافةِ، فلا تجري صفةً للمعرفةِ[(٤)]، وليس مع مَنِ ادعى ذلك حجةٌ يعتمدُ عليها سوى قولِهِم: إن (غيرًا) توغلتْ في الإبهامِ، فلا تتعرفُ[(٥)] بما تضافُ إليه[(٦)]. وجوابُ هذا أنها إذا دخلتْ بين متقابلين؛ لم يكنْ فيها إبهامٌ؛ لتعيينِهَا ما تضافُ إليه[(٧)].

= (١/ ٢٤٥)، و«تفسير الطبري» (٥/ ٢٢٨)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٣)، و«القطع والائتناف» للنحاس (٢٦٢)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٠-١٧١)، و«معاني القراءات» لأبي منصور الأزهري (ص/ ١٣٢)، و«مشكل إعراب القرآن» للقيسي (١/ ٢٠٦)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٥٥).

(١) قال الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٢٨): والصواب من القراءة في ذلك عندنا «غيرَ أولي الضرر» بنصب «غيرَ»؛ لأن الأخبار متظاهرة بأن قوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النِّساء: الآية ٩٥] نزل بعد قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩٥] استثناء من قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النِّساء: الآية ٩٥]. ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٤٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٤٧).

(٢) رواه البخاري، ح (٥٣)، وح (٨٧)، وفي «المغازي» ح (٤١١٠)، وفي «الأدب» ح (٥٨٢٢)، وح (٦٨٣٨)، ومسلم، ح (١٧)، والنسائي، ح (٥٦٩٢)، وأحمد (١/ ٢٢٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٢)، و«مشكل إعراب القرآن» للقيسي (١/ ٢٠٦)، و«البيان في غريب إعراب القرآن» لابن الأنباري (١/ ٢٦٤).

(٥) في س: «تُعرف».

(٦) ينظر كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام (٢١٠)، و«فتح القدير»، للشوكاني (١/ ٥٠٣).

(٧) وبه قال المبرد؛ إذ قال: «فأما قول الله عز وجل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ =

وأما قراءةُ الجرِّ: ففيها وجهانِ أيضًا: أحدُهما - وهو الصحيحُ - أنه نعتٌ لـ«المؤمنين»[(١)]، والثاني. وهو قولُ المبردِ[(٢)]. أنه بدلٌ منه بناءً على أنه نكرةٌ، فلا تنعتُ به المعرفةُ[(٣)]. وعلى الأقوالِ كلِّها فهو مفهمٌ معنى الاستثناءِ، وإنَّ نفي التسويةِ «غيرُ» مُسَلطٍ على ما أضيفَ إليه «غيرُ».

تفضيلُ المجاهدِ بمالِهِ ونفسِهِ على القاعدِ درجةً

وقولُه: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النّساء: الآية ٩٥] هو مبينٌ لمعنى نفي المساواةِ، قالوا: والمعنى: فضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين مِن أُولي الضررِ درجةً واحدةً؛ لامتيازِه عنه بالجهادِ بنفسِهِ ومالِهِ[(٤)]. ثم أخبر سبحانه أنَّ الفريقين كليهما موعودٌ بالحُسْنى، فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النّساء: الآية ٩٥] أيِ: المجاهدُ، والقاعدُ المضرورُ؛ لاشتراكِهِم في الإيمانِ.

تفضيل الغني المنفقُ على الفقيرِ

قالوا: وفي هذا دليلٌ على تفضيلِ الغنيِّ المنفقِ على الفقيرِ[(٥)]؛ لأنَّ اللهَ سبحانه أخبرَ أنَّ المجاهدَ بمالِهِ ونفسِهِ أفضلُ من القاعدِ، وقدَّم الجهادَ بالمالِ على الجهادِ بالنفسِ، وأما الفقيرُ؛ فنفى عنه الحرجَ بقولِهِ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التّوبَة: الآية ٩٢] فأين مقامُ من حُكِم له بالتفضيلِ إلى مقامِ من نُفي

= [الفَاتِحَة: الآية ٧] فإن «غيرًا» تكون على ضروب: أحدها: تكون نعتًا للذين؛ لأنها مضافةٌ إلى معرفة»، «المقتضب» (٤/ ٤٢٣)، وخالف قوله في موضع آخر فقال: «فأما مررت برجل غيرك، فلا يكون إلا نكرة؛ لأنه مُبهم في الناس أجمعين، فإنما يصح هذا ويَفْسُد بمعناه» «المقتضب» (٤/ ٢٨٨)، وقال بالأول محمد ابن السري بن السراج. انظر: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام (٢١٠).

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٤٤)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٤٧)، و«زاد المسير» (٢/ ١٧٤)، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١/ ١٩١).

(٢) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير الثمالي الأزدي البصري، المعروف بـ«المبرد»، كان إمامًا في النحو واللغة، عالمًا فاضلًا موثوقًا به في الرواية، له تواليف نافعة في الأدب، منها: «الكامل» و«الروضة» و«المقتضب» وغيرها، توفي ببغداد سنة (٢٨٥)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٨٠)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٣٧٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٥٧٦) و«الفهرست» لابن النديم (ص/ ٨٧).

(٣) كتاب: «المقتضب» للمبرد (٤/ ٤٢٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٤٧). للمزيد في توجيه قراءة الجر ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٤)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٤٤)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٣)، و«الأزهية» للهروي (١٧٩)، و«مشكل إعراب القرآن» للقيسي (١/ ٢٠٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير البغوي» (١/ ٤٦٨).

(٥) ينظر تفصيل هذه المسألة في «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٤٣).

عنه الحرجُ.

قالوا: فهذا حكمُ القاعدِ من أولي الضررِ والمجاهدِ، وأما القاعدُ من غيرِ أولي الضررِ؛ فقالَ سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]،(١) [وقولُه: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] قيل: هو نصبٌ على البدلِ من قولِه: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٧٤]](٢) وقيل: تأكيدٌ(٣) له وإن كان بغيرِ لفظِهِ؛ لأنه هو في المعنى(٤).

المرادُ بالدرجاتِ

قال قتادةُ(٥): «كان يقالُ: الإسلامُ درجةٌ، والهجرةُ في الإسلام درجةٌ، والجهادُ في الهجرةِ درجةٌ، والقتلُ في الجهادِ درجةٌ»(٦).

وقال ابنُ زيدٍ(٧): «الدرجاتُ التي فُضِّلَ بها المجاهدُ على القاعدِ سبعٌ، وهي التي ذكرها اللهُ تعالى في (براءة)؛ إذ يقولُ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠] فهذهِ خمسٌ، ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢١] فهاتانِ اثنتانِ»(٨).

---

(١) في ك، س: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٩٦].

(٢) سقط من ع. (٣) في م: «هو تأكيد».

(٤) تنظر الأقوال في إعراب «دَرَجَاتٍ» في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٣-٩٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٤٨)، و«القطع والائتناف» (٢٦٥)، و«مشكل إعراب القرآن» للقيسي (١/ ٢٠٦)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٥٦) و«البيان في «غريب القرآن» لابن الأنباري (١/ ٢٦٥)، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١/ ١٩٢) و«البحر المحيط» لأبي حيان (٤/ ٣٩).

(٥) سبقت ترجمته.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٣١)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٦٤٤).

(٧) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني، فقيه، محدث، صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيرًا في مجلد وألف كتابًا في الناسخ والمنسوخ، وهو أخو أسامة، وعبد الله، وفيهم لين، توفي سنة (١٨٢)هـ. انظر: «السير» (٨/ ٣٤٩)، «ميزان الاعتدال» (٤/ ٢٨٢).

(٨) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٣٢)، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٧٥)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٣٨)، والثعالبي في «تفسيره» (١/ ٤٠٥).

وقيل: «الدرجاتُ سبعون درجةً، ما بين الدرجتين حُضْر[١] الفرسِ الجوادِ المضمرِ سبعين سنةً»[٢].

والصحيحُ أن الدرجاتِ [هي[٣] المذكورةُ][٤] في حديثِ أبي هريرةَ، الذي رواه البخاريُّ في «صحيحِه»، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «**من آمن باللهِ ورسولِهِ، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، فإن حقًّا على اللهِ أن يدخلَه الجنةَ؛ هاجر في سبيلِ اللهِ، أو جلس في أرضِهِ التي وُلِدَ فيها**» قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نخبرُ الناسَ بذلك؟ قال: «**إن في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِهِ، كلُّ[٥] درجتين كما بين السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ؛ فاسألوه الفردوسَ؛ فإنه أوسطُ الجنةِ، وأعلى الجنةِ، وفوقه عرشُ الرحمنِ، ومنه تفجرُ أنهارُ الجنةِ**»[٦].

قالوا: وجعل سبحانه التفضيلَ الأولَ بدرجةٍ فقط، وجعلَه [ههنا][٧] بدرجاتٍ ومغفرةٍ ورحمةٍ، وهذا يدلُّ على أنه تفضيلٌ[٨] على غيرِ أولي الضررِ، فهذا تقريرُ هذا[٩] القولِ وإيضاحُهُ[١٠].

ولكن يبقى[١١] أن يقالَ: إذا كان المجاهدون أفضلَ من القاعدين مطلقًا؛ لزم أن لا يستوي مجاهدٌ وقاعدٌ مطلقًا، فلا يبقى في تقييدِ القاعدين بكونِهم من غيرِ أولي الضررِ فائدةٌ؛ فإنه لا يستوي المجاهدون والقاعدون من أولي الضررِ أيضًا، وأيضًا فإن

---

(١) الحُضْرُ: يراد به عَدْو الدواب انظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٥٤٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٠١)، و«النهاية في غريب الحديث»» لابن الأثير (١/ ٣٩٨).

(٢) رواه الأشيب، في «جزء أشيب» (٤٣)، ح (١٥)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٣٢)، و (٩/ ١٨١)، وأورده النحاس في «معاني القرآن» (٢/ ١٧٢) وفي «إعراب القرآن» (١/ ٤٤٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٧٥)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٤٦٨)، والقرطبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٤)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٣٨)، عن عبد الله بن محيريز.

(٣) في ك: «هما». (٤) سقط من م. (٥) في م: «بين كل».

(٦) رواه البخاري، ح (٢٦٣٧)، وفي «التوحيد»، ح (٦٩٨٧)، وأحمد (٢/ ٣٣٥ و٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) سقط من م. (٨) في ك: «يفضل». (٩) في س: «على».

(١٠) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٥/ ٢٣١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٢)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٢٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٤٢).

(١١) في ك: «بقي».

القاعدين المذكورين في الآيةِ، الذين وقع التفضيلُ عليهم، هم غيرُ أولي الضررِ، لا القاعدون الذين هم أولو الضررِ؛ فإنهم لم يَذْكُرْ حكمَهم في الآيةِ، بل استثناهم، وبيَّن أن التفضيلَ على غيرِهم، فاللامُ في (القاعدين) للعهدِ[١]، والمعهودُ هم غيرُ أولي الضررِ لا المضرورون.

وأيضًا فالقاعدُ من المجاهدين[٢]؛ لضرورةٍ تمنعُه من الجهادِ له مثلُ أجرِ المجاهدِ، كما ثبت[٣] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«إذا مَرِضَ العبدُ، أو سافرَ؛ كُتب له من العملِ ما كان يعملُ صحيحًا مقيمًا»**[٤] وقالَ: **«إن بالمدينةِ أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتُم واديًا، إلا وهم معكم»** قالوا: وهم بالمدينةِ؟ قال: **«وهم بالمدينةِ! حبسهمُ العذرُ»**[٥] وعلى هذا فالصوابُ أن يقالَ: الآيةُ دلَّتْ على أن القاعدين من غيرِ أولي الضررِعن الجهادِ لا يستوون[٦] هم[٧] والمجاهدون.

أقسامُ المعذورين

الأولُ معذورٌ غلبَهُ عذرُهُ

وسكتْ[٨] عن [القاعدين من أولي الضررِ،فلم يدلَّ على][٩] حكمِهم بطريقِ منطوقِها، ولا يدلُّ مفهومُها على مساواتِهم للمجاهدين، بل هذا النوعُ منقسمٌ إلى معذورٍ من أهلِ الجهادِ، غلبهُ عذرُه، وأقعدَه عنه، ونيتُه جازمةٌ، لم يتخلفْ عنها مقدُورها، وإنما أقعدَه العجزُ، فهذا الذي تقتضيهِ أدلةُ الشرعِ أنَّ له مثلَ أجرِ المجاهدِ.

وهذا القسمُ لا يتناولُه الحكمُ بنفي التسويةِ؛ وهذا لأنَّ قاعدةَ الشريعةِ أنَّ العزمَ التامَّ إذا اقترنَ به ما يمكنُ من القولِ أو مقدماتِ الفعلِ نُزِّلَ صاحبُه في الثوابِ والعقابِ منزلةَ الفاعلِ التامِّ[١٠]، كما دلَّ عليه قولُهُ ﷺ: **«إذا تواجَه المسلمانِ بسيفِيهِمَا فالقاتلُ**

---

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٢/ ٢٢١).

(٢) في س: «المجاهد». (٣) في م زيادة: «في الصحيح».

(٤) رواه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، ح (٢٨٣٤)، وأحمد (٤/ ٤١٠) و (٤١٨)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري، كتاب الجهاد و«السير»، باب: من حبسه العذر، ح (٢٦٨٤)، وفي «المغازي»، باب: نزول النبي بالحجر، ح (٤١٦١)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في الرخصة في العقود من العذر ح (٢٥٠٨)، وأحمد (٣/ ١٠٣) و (١٨٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) في ك، س: «لا يستوي». (٧) في ك: «هو». (٨) في م: «وسكتت».

(٩) سقط من ك، س.

(١٠) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٥١): «وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر». اهـ =

والمقتولُ في النارِ» قالوا: هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟! قال: «**إنه كان حريصًا على قتلِ صاحبِهِ**»[١].

وفي الترمذيِّ، و«مسندِ» الإمامِ أحمدَ حديثُ[٢] أبي كبشةَ الأنماريِّ[٣] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٌ رزقه اللهُ مالًا وعلمًا فهو يتَّقي في مالِه ربَّه، ويصلُ**

= وقد اختلف العلماء في المؤاخذة بعزم القلب على قولين:

الأول: المؤاخذة بالعزم المصمم، وقد سَأَل ابنُ المبارك سفيانَ الثوري: أيؤاخذ العبد بما يهم به؟ قال: إذا جزم بذلك، واستدلوا بأدلة منها. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ١٩]، وبقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٥]، وغيرها كتلك الأحاديث التي ساقها المؤلف.

ثم افترقوا بالمؤاخذة على قولين: فمنهم من يرى أن العبد يعاقب عليها في الدنيا خاصة بنحو الهم والغم، ومنهم من يرى أنه يعاقب عليها يوم القيامة، لكن بالعتاب، لا بالعذاب.

والثاني: أنه لا يؤاخذ بالعزم، واحتجوا بقول أهل اللغة: هَمَّ بالشيء، أي: عزم عليه. هذا لا يستقيم؛ لأجل الأدلة الصريحة في هذه المسألة. قال شيخ الإسلام. رَحِمَهُ ٱللَّهُ. بعد أن ذكر القولين:

والتحقيق: أن الْهَمَّة إذا صارت عزمًا فلا بد أن يقترن بها قول أو فعل؛ فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور. الذين قالوا: يؤاخذ بها احتجوا بقوله: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما....**» الحديث، وهذا لا حجة فيه؛ فإنه ذكر ذلك في رجلين اقتتلا، كلٌّ منهما يريد قتل الآخر، وهذا ليس عزمًا مجردًا، بل هو عزم مع فعل المقدور، لكنه عاجز عن إتمام مراده، وهذا يؤاخذ باتفاق المسلمين، فمن اجتهد على شرب الخمر، وسعى في ذلك بقوله وعمله، ثم عجز، فإنه آثم باتفاق المسلمين، وهو كالشارب؛ وإن لم يقع منه شرب» «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢٢-١٢٣).

وينظر في هذ المسألة: «زاد المسير» (٤/ ٢٠٥)، و«شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٥١)، و«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٢٨)، و«الأشباه والنظائر» للسيوطي (٣٤)، و«شرح العقيدة الواسطية» لفضيلة الشيخ: محمد العثيمين. رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (٢/ ١٤٩).

(١) رواه البخاري، ح (٣١)، وفي الديات، ح (٦٤٨١)، وفي الفتن، ح (٦٦٧٢)، ومسلم، ح (٢٨٨٨)، وأبو داود، ح (٤٢٦٨) والنسائي، ح (٤١٢٠)، وأحمد (٥/ ٤٣) و (٤٦) و (٥١)، من حديث الأحنف عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) في م: «من حديث».

(٣) أبو كبشة الأنماري المذحجي: صحابي جليل، اختلف في اسمه، فقيل: سعيد بن عمر، وقيل: عمرو بن سعيد، وقيل: عمير، وقيل: عامر، وقيل غير ذلك. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٣٩)، و«أسد الغابة» لابن الجزري (٥/ ٢٦٢)، و«الإصابة» لابن حجر (٧/ ٣٤١).

به رحمَه، ويعلمُ للهِ فيه حقًّا، فهذا بأحسنِ المنازلِ [عندَ اللهِ][(١)]. وعبدٌ رزقه اللهُ علمًا، ولم يرزقْه مالًا فهو يقولُ: لو أن لي مالًا لعملتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بنيتِهِ، وهما في الأجرِ سواءٌ. وعبدٌ رزقه اللهُ مالًا ولم يرزقْه علمًا، فهو لا يتقي في مالِهِ ربَّهُ، ولا يصلُ به رحمَه، ولا يعلمُ للهِ[(٢)] فيه حقًّا، فهذا بأسوأِ المنازلِ عندَ اللهِ. وعبدٌ لم يرزقْهُ اللهُ مالًا ولا علمًا[(٣)]، فهو يقولُ: لو أن لي مالًا لعملتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيتِهِ، وهما في الوزرِ سواءٌ»[(٤)] فأخبر ﷺ أن وزرَ الفاعلِ والناوي [الذي][(٥)] ليس مقدورُه إلا بقولِهِ دونَ فعلِهِ سواءٌ؛ لأنه أتى بالنيةِ ومقدورِه التامِّ. وكذلك أجرُ الفاعلِ والناوي الذي اقترن قولُهُ بنيتِهِ[(٦)]. وكذلك المقتولُ الذي سلَّ السيفَ، وإرادتُهُ[(٧)] قتلُ أخيهِ المسلمِ، فقُتِلَ نُزِّلَ[(٨)] منزلةَ القاتلِ؛ لنيتِهِ التامَّةِ التي اقترن بها مقدورُها من السعي والحركةِ، ومثلُ هذا قولُه ﷺ: «مَنْ دلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجرِ[(٩)] فاعلِهِ»[(١٠)] فإنه بدلالتِهِ ونيتِهِ نُزِّل منزلةَ الفاعلِ.

ومثلُه: «من دعا إلى هدىً، فله مثلُ أجورِ مَنِ اتبعه، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الوزرِ مثلُ آثامِ مَنِ اتبعه»[(١١)]؛ لأجلِ نيتِهِ، واقترانِ مقدورِها بها من الدعوةِ. ومثلُه: إذا جاء المصلي إلى المسجدِ ليصليَ جماعةً، فأدركهم، وقد صلوا فصلى وحدَه؛ كُتِبَ له مثلُ أجرِ صلاةِ الجماعةِ بنيتِهِ وسعيِهِ، كما قد جاء مصرَّحًا به في حديثٍ مرويٍ[(١٢)].

---

(١) سقط من م، ك. (٢) في س: «ولا يعلم أن لله». (٣) في م: «علمًا ولا مالًا».

(٤) رواه الترمذي، ح (٢٣٢٥)، وابن ماجه، ح (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠) و (٢٣١). صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٧٠)، ح (١٨٩٤).

(٥) سقط من م. (٦) في ك زيادة: «وكذلك المقتول الذي اقترن قوله بنيته».

(٧) في ك، س: «وأراد به». (٨) في م: «دون».

(٩) في ك: «مثل أجر من عمل فاعله».

(١٠) رواه مسلم، ح (١٨٩٣)، وأبو داود، ح (٥١٢٩)، والترمذي، ح (٢٦٧١)، وأحمد (٤/ ١٢٠)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(١١) رواه مسلم، ح (٢٦٧٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن وضوءه، ثم راح، فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله - جل وعز - مثل أجر من صلاها وحضرها، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئًا» رواه أبو داود، ح (٤٧٧) والنسائي، ح (٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٣٨٠). صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١١٣)، ح (٥٢٨).

ومثلُ هذا من كان له وردٌ يصليهِ من الليلِ، فنام، ومن نيتِهِ أن يقومَ إليهِ، فغلبَه عنه[١] ونام؛ كُتِبَ له أجرُ وردِه، وكان نومُهُ عليهِ صدقةً[٢]، ومثلُه المريضُ والمسافرُ إذا كان له عملٌ يعملُه، فشُغِلَ عنه بالمرضِ والسفرِ؛ كُتِبَ له مثلُ عملِهِ، وهو صحيحٌ مقيمٌ[٣]. ومثلُه: **«من سأل اللهَ الشهادةَ بصدقٍ بلَّغه اللهُ منازلَ الشهداءِ، ولو مات على فراشِهِ»**[٤] ونظائرُ ذلك كثيرةٌ.

القسمُ الثاني: معذورٌ ليس من نيتِهِ الجهادُ

والقسمُ الثاني: معذورٌ ليس من نيتِهِ الجهادُ، ولا هو عازمٌ عليهِ عزمًا تامًّا، فهذا لا يستوي هو والمجاهدُ في سبيلِ اللهِ، بل قد فُضِّلَ[٥] المجاهدُ[٦] عليه، وإن كان معذورًا؛ لأنه لا نيةَ له تُلحِقُه بالفاعلِ التامِّ كنيةِ أصحابِ القسمِ الأولِ[٧].

وقد قال النبيُّ ﷺ في حديثِ عثمانَ بنِ مظعونٍ[٨]: **«إنَّ اللهَ قد وقع أجرَه على قدرِ نيتِهِ»**[٩].

فلما كان القسمُ المعذورُ فيه هذا التفصيلُ، لم يجزْ أن يُسَاوَى بالمجاهدِ مطلقًا، ولا يُنفى عنه المساواةُ مطلقًا، ودلالةُ المفهومِ لا عمومَ لها؛ فإنَّ العمومَ إنما هو من أحكامِ

---

(١) في ك: «فَغلبته عينه».

(٢) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من امرئ تكون له صلاة بليل، يغلبه عليها نوم، إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة»** رواه أبو داود، ح (١٣١٤)، والنسائي، ح (١٧٨٤)، وأحمد (٦/ ٧٢) (١٨٠). صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٤٤)، ح (١١٦٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه مسلم، ح (١٩٠٩)، وأبو داود، ح (١٥٢٠)، والترمذي، ح (١٦٥٣)، والنسائي، ح (٣١٦٢)، وابن ماجه، ح (٢٧٩٧)، عن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) في م، ك، س: «قد فضل الله». (٦) في ك: «المجاهدين».

(٧) قد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذه الأقسام بأدلتها التي ذكرها المصنف، ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢٣-١٢٤).

(٨) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي، أبو السائب، من سادة المهاجرين، أسلم أول الإسلام، وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائب، فبلغهم أن قريشًا أسلموا، فعادوا، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، وكان من أشد الناس اجتهادًا في العبادة، وهو أول رجل مات بالمدينة من المهاجرين، وأول من دفن بالبقيع سنة: (٣)هـ. ينظر: «أسد الغابة» (٣/ ٤٩٣)، و«الإصابة» (٤/ ٤٦١).

(٩) رواه أبو داود، ح (٣١١١)، والنسائي، ح (١٨٤٦)، وأحمد (٥/ ٤٤٦)، عن جابر بن عتيك. صححه الألباني، في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٦٠١).

الصيغِ العامةِ، وعوارضِ الألفاظِ، والدليلُ الموجبُ[(١)] للقولِ بالمفهومِ لا يدلُّ على أن له عمومًا[(٢)] يجبُ اعتبارُه[(٣)]؛ فإنَّ أدلةَ المفهومِ ترجعُ إلى شيئين:

أحدُهما: التخصيصُ، **والآخرُ**: التعليلُ.

فأما التخصيصُ: فهو أن تخصيصَ الحكمِ بالمذكورِ يقتضي نفيَ الحكمِ عما عداه، وإلا بطلتْ فائدةُ التخصيصِ، وهذا لا يقتضي العمومَ، وسلبَ حكمِ المنطوقِ عن جميعِ صورِ المفهومِ؛ لأن فائدةَ التخصيصِ قد تحصلُ بانقسامِ صورِ المفهومِ إلى ما يسلبُ الحكمَ عن بعضِها، ويثبتُ لبعضِها [وبثبوتِ[(٤)] تفصيلٍ][(٥)] فيه، فيثبتُ له حكمُ المنطوقِ على وجهٍ دونَ وجهٍ، إما بشرطٍ لا تجبُ مراعاتُه في المنطوقِ. وإما في وقتٍ دون وقتٍ. بخلافِ حكمِ المنطوقِ؛ فإنه ثابتٌ أبدًا. ونحو ذلك من فوائدِ [التخصيصِ][(٦)]. وإذا كانتْ فائدةُ التخصيصِ حاصلةً بالتفصيلِ والانقسامِ، فدعوى لزومِ العمومِ من التخصيصِ دعوى باطلةٌ؛ فإثباتُه بمجردِ[(٧)] التحكمِ.

وأما التعليلُ: فإنهم قالوا: ترتيبُ الحكمِ على هذا الوصفِ المناسبِ له يقتضي نفيَ الحكمِ عما عداه، وإلا لم يكنِ الوصفُ المذكورُ علةً. وهذا أيضًا لا يستلزمُ[(٨)] عمومَ النفي عن كلِّ ما عداه، وإنما غايتُه اقتضاؤُه نفيَ الحكمِ [المترتبِ[(٩)] على ذلك الوصفِ عن الصورِ المنتفي[(١٠)] عنها الوصفُ[(١١)]، وأما نفيُ الحكمِ][(١٢)] جملةً فلا يجوزُ ثبوتُه بوصفٍ آخرَ، وعلةٍ أخرى؛ فإنَّ الحكمَ الواحدَ بالنوعِ يجوزُ تعليلُهُ بعللٍ مختلفةٍ، وفي الواحدِ بالعينِ كلامٌ ليس هذا موضعَهُ[(١٣)] . . . .

---

(١) في ع: «للموجب». (٢) في س: «عموم».

(٣) اختلف الأصوليون في دلالة المفهوم: ألها عموم أم لا؟:

الأول: قال الشافعي ومالك والجمهور: إن لها عمومًا.

الثاني: وذهب ابن شريح والقاضي أبو بكر والغزالي إلى القول بأنه لا عموم لها. وينظر التفصيل في هذه المسألة: كتاب: «اللمع» للشيرازي (٣٣-٣٤)، و«المستصفى» للغزالي (٢٦٥) و«المحصول» للرازي (٢/ ٦٥٤)، و«روضة الناظر» لابن قدامة (١/ ٢٦٢)، و«الإحكام» للآمدي (٢/ ٢٧٦) و (٣/ ٧١).

(٤) في س: «وثبوت». (٥) غير واضح في ك. (٦) لم تتضح في ك.

(٧) في ك: «مجرد». (٨) في م: «يلتزم». (٩) في ك، س: «المرتب».

(١٠) في س: «المنفي». (١١) في س: «بالوصف». (١٢) سقط من م.

(١٣) قال ابن قدامة - رحمه الله -: «الحرام ضد الواجب، فيستحيل أن يكون الشيء الواحد واجبًا حرامًا، طاعة ومعصية من وجه واحد إلا أن الواحد بالجنس ينقسم إلى: واحد بالنوع، وإلى واحد بالعين - أي: بالعدد =

ومثالُ هذا[١] ما نحن فيه؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النساء: الآية ٩٥] لا يدلُّ على مساواةِ المضرورينَ للمجاهدين مطلقًا، من حيثُ الضرورةُ، بل إنْ ثبتتِ المساواةُ فإنها معللةٌ بوصفٍ آخرَ، وهي النيةُ الجازمةُ، والعزمُ التامُّ، والضررُ المانعُ من الجهادِ في تلك الحالِ لا يكونُ مانعًا[٢] من المساواةِ في الأجرِ - واللهُ أعلمُ.

والمقصودُ: الكلامُ على طبقاتِ الناسِ في الآخرةِ. وأما النصوصُ والأدلَّةُ الدالَّةُ على فضلِ الجهادِ وأهلِهِ؛ فأكثرُ من أن تذكرَ هنا، ولعلَّها أن تفردَ في كتابٍ على هذا النمطِ إن شاءَ اللهُ[٣].

درجاتُ السبقِ: العلمُ والعدلُ والجهادُ

فهذهِ الدرجاتُ الثلاثُ هي درجاتُ السبقِ - أعني درجةَ العلمِ والعدلِ والجهادِ - وبها سَبَقَ الصحابةُ [ﷺ][٤]، وأدركُوا مَنْ قبلَهم، وفَاتُوا مَنْ بعدَهم، واستولُوا على الأمدِ البعيدِ، وحازُوا قصباتِ العُلَى، وكانوا[٥] السببَ في بلوغِ[٦] الإسلامِ إلينا، وفي تعليمِ كلِّ خيرٍ وهدى وسببٍ تُنَالُ به السعادةُ، والنجاةُ، وهم أعدلُ الأمةِ فيما وُلُّوهُ، وأعظمُها جهادًا في سبيلِ اللهِ، والأمةُ في آثارِ علمِهم وعدلِهم وجهادِهم إلى يومِ القيامةِ، فلا ينالُ أحدٌ منهم مسألةَ علمٍ نافعٍ إلا على أيديهم، ومن طريقِهم ينالُها، ولا يسكنُ بقعةً[٧] من الأرضِ آمنًا إلا بسببِ جهادِهم وفتوحِهم، ولا يحكمُ إمامٌ، ولا حاكمٌ بعدلٍ، وهدًى إلا كانوا هم السببَ في وصولِهِ[٨] إليهِ، فهم الذين فتحوا البلادَ

= والواحد بالنوع يجوز أن ينقسم إلى واجب وحرام، ويكون انقسامه بالإضافة؛ لأن اختلاف الإضافات والصفات يوجب المغايرة، والمغايرة تكون تارة بالنوع، وتارة باختلاف الوصف، كالسجود لله تعالى واجب، والسجود للصنم حرام، والسجود لله تعالى غير السجود للصنم، قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ فالإجماع منعقد على أن الساجد للصنم عاصٍ بنفس السجود والقصد». «روضة الناظر» (١/ ٤١). وينظر: «المستصفى» للغزالي (٦١)، و«الإبهاج» للسبكي (٣/ ١١٤)، و«تحقيق المراد» للعلائي (١٥٨) و«التمهيد» للأسنوي (٤٣).

(١) في م: «ذلك». (٢) في م: «لا يكون ما نفي من».

(٣) هذا الكتاب المشار إليه لم يذكر عند من ترجم للإمام، ولا يعرف له كتاب مفرد في فضل الجهاد وأهله، وقد ذكره الشيخ د: بكر أبو زيد من ضمن مؤلفاته، واستند على ذكر ابن القيم له في هذا الموضع فقط. ينظر: «ابن قيم الجوزية: حياته ومؤلفاته» (ص/ ١٧٧).

(٤) سقط من ك، س. (٥) في ك، س: «وهم كانوا». (٦) في ك، س: «وصول».

(٧) في م: «ولا يسكن أحد بقعة». (٨) في م، ك: «وصولهم».

بالسيفِ، والقلوبَ بالإيمانِ، وعَمَّروا البلادَ بالعدلِ، والقلوبَ بالعلمِ والهدى، فلهم من الأجرِ بقدرِ أجورِ الأمةِ إلى يومِ القيامةِ مضافًا إلى أجرِ أعمالِهم التي اختصوا بها، فسبحانَ مَنْ يختصُّ بفضلِهِ ورحمتِهِ مَنْ يشاءُ، وإنما نَالُوا هذا بالعلمِ والجهادِ، والحكمِ بالعدلِ، وهذهِ مراتبُ السبقِ التي يهبُها اللهُ لمن يشاءُ من عبادِهِ.

الطبقةُ السابعةُ: أهلُ الإيثارِ والصدقةِ

الطبقةُ السابعةُ: أهلُ الإيثارِ والصدقةِ، والإحسانِ إلى الناسِ بأموالِهم، على اختلافِ حاجاتِهم ومصالِحِهم من تفريجِ كرباتِهم، ودفعِ ضروراتِهم، وكفايتِهم في مهماتِهم، وهم أحدُ الصنفين الذين قال النبيُّ ﷺ [فيهم][1]: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ، فهو يقضي بها ويعلمُها الناسَ، ورجلٌ آتاه اللهُ [مالًا][2]، وسلَّطه على هلكتِهِ في الحقِّ**»[3] يعني أنه لا ينبغي [لأحدٍ أن يغبطَ[4]][5] أحدًا على نعمةٍ[6]، ويتمنى مثلَها، إلا أحدَ هذين، وذلك لما فيهما من النفعِ العامِّ، والإحسانِ المتعدي إلى الخلقِ، فهذا ينفعُهم بعلمِهِ[7] وهذا ينفعُهُم بمالِهِ، والخلقُ كلُّهم عيالُ اللهِ، وأحبُّهم إليه أنفعُهم لعيالِهِ[8].

ولا ريبَ أن هذين الصنفين من أنفعِ الناسِ لعيالِ اللهِ، ولا يقومُ أمرُ الناسِ إلا بهذين الصنفين، ولا يُعْمَرُ العالمُ إلا بهما[9]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦٢] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ

---

(١) سقط من م. (٢) سقط من ك.

(٣) رواه البخاري، ح (٧٣)، ح (١٣٤٣)، ح (٦٧٢٢)، ح (٦٨٨٦)، ومسلم، ح (٨١٦)، وابن ماجه، ح (٤٢٠٨)، وأحمد (١/ ٣٨٥) و (٤٣٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) الغبطة هي: أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها، ولا أن تتحول عنه، وليس بحسد. ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٣٥٩)، و«القاموس المحيط» (٨٧٧).

(٥) سقط من س. (٦) في م: «نعمته». (٧) في ع: «بفعله».

(٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**» رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦/ ٦٥، ١٠١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٥٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٣). وهو حديث ضعيف؛ لأن فيه يوسف بن عطية قال عنه في «التقريب» (٦١١): «متروك».

(٩) في م: «ولا تعمر الدنيا إلا بهما».

كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: الآية ١٨] وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥] [١] [وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: الآية ١١]][٢] فَصَدَّر سبحانه الآيةَ بألطفِ أنواعِ الخطابِ، وهو الاستفهامُ المتضمنُ لمعنى الطلبِ[٣]، وهو أبلغُ في اللطفِ[٤] من صيغةِ الأمرِ، والمعنى: هل أحدٌ يبذلُ هذا القرضَ الحسنَ، فيُجَازَى عليه أضعافًا مضاعفةً[٥]؟ وسَمَّى ذلك الإنفاقَ قرضًا؛ حثًّا[٦] للنفوسِ، وبعثًا لها على البذلِ[٧]؛ لأن الباذلَ متى علم أن عينَ مالِهِ تعودُ إليه ولا بُدَّ؛ طوَّعتْ له نفسُه بذلَه، وسَهُل عليه إخراجُهُ، فإنْ عَلِمَ أن المُسْتقرِضَ مَلِّيٌ، وَفيٌّ، محسنٌ؛ كان أبلغَ في طيبِ قلبِهِ، وسماحةِ نفسِهِ، فإن علم أن المُسْتَقْرِضَ يَتَّجِرُ له بما أقرضه[٨]، ويُنَميهِ له، ويثمرُه حتى يصيرَ أضعافَ ما بذلَه؛ كان بالقرضِ أسمحَ وأسمحَ، فإن علم أنه مع ذلك كلِّه يزيدُه من فضلِهِ، وعطائِهِ، أجرًا آخرَ، من غيرِ جنسِ القرضِ، وأن[٩] ذلك الأجرَ حظٌّ عظيمٌ، وعطاءٌ كريمٌ، فإنه لا يتخلفُ عن قرضِهِ، إلا لآفةٍ في نفسِهِ من البخلِ والشحِّ، أوعدمِ الثقةِ بالضمانِ، وذلك من ضعفِ إيمانِهِ، ولهذا كانتِ الصدقةُ برهانًا لصاحبِها.

وهذهِ الأمورُ كلُّها تحت هذه الألفاظِ التي تضمنتْها الآيةُ؛ فإنه سبحانه سمَّاه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترضُ، لا قرضَ حاجةٍ، ولكن قرضَ إحسانٍ إلى المقرضِ واستدعاءً

---

(١) في م قدم قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥]... على ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ [الحديد: الآية ١٨]...

(٢) سقط من م.

(٣) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٢٤)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٣٨)، و«تفسير أبي السعود»: (١/ ٢٣٨)، و«فتح القدير» للشوكاني (١/ ٢٦١).

(٤) في م: «الطلب»، وفي ك: «القلب».

(٥) ينظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٥٦٦).

(٦) في ع: «حظًّا». وفي م، ك، س: «قرضًا حسنًا حثًّا».

(٧) قال في «زاد المسير» (١/ ٢٨٩): «فإن قيل: ما وجه تسمية الصدقة قرضًا؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: **أحدها**: لأن هذا القرض يبدل بالجزاء. **والثاني**: لأنه يتأخر قضاؤه إلى يوم القيامة. **والثالث**: لتأكيد استحقاق الثواب به؛ إذ لا يكون قرضًا إلا والعوض مستحق به». وينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٩٢)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٢٣٩).

(٨) في ك: «اقترضه». (٩) في ك: «فإن».

لمعاملتِهِ(١)، ليعرفَ مقدارَ الربحِ، فهو الذي [أعطاه](٢) مالَهُ، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبرَ عما يرجعُ إليه بالقرضِ، وهو الأضعافُ المضاعفةُ، ثم أخبر عما يعطيهُ فوق ذلك من الزيادةِ، وهو الأجرُ الكريمُ. وحيثُ جاء هذا الإقراضُ(٣) في القرآنِ قيَّدَه بكونِهِ حسنًا، وذلك يجمعُ أمورًا ثلاثةً:

أحدُها: أن يكونَ من طيِّبِ مالِهِ، لا من رديئِهِ وخبيثِهِ.

الثاني: أن يخرجَهُ طيبةً به نفسُهُ، ثابتةً عند بذلِهِ؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ.

الثالثُ: أن لا يَمُنَّ به، ولا يُؤذي(٤).

فالأولُ: يتعلقُ بالمالِ(٥). **والثاني**: يتعلقُ بالمنفقِ بينه وبين اللهِ. **والثالثُ**: بينه وبين الآخذِ. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦١] وهذهِ الآيةُ كأنها كالتفسيرِ والبيانِ لمقدارِ الأضعافِ التي يضاعفُها للمقرضِ، ومثَّله سبحانه بهذا المثلِ؛ إحضارًا لصورةِ التضعيفِ في الأذهانِ بهذهِ الحبةِ التي غُيبتْ في الأرضِ، فأنبتتْ سبعَ سنابلَ، في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ، حتى كأن القلبَ ينظرُ إلى هذا التضعيفِ ببصيرتِهِ، كما تنظرُ العينُ إلى هذهِ السنابلِ، التي [هي](٦) من الحبةِ الواحدةِ، فينضافُ(٧) الشاهدُ العيانيُّ إلى الشاهدِ الإيمانيِّ القرآنيِّ، فيقوى إيمانُ المنفقِ، وتسخو نفسُهُ بالإنفاقِ.

وتأملْ كيف جمعَ السنبلةَ في هذهِ الآيةِ على سنابلَ، وهي من جموعِ الكثرةِ؛ إذ المقامُ مقامُ تكثيرٍ وتضعيفٍ(٨)، وجمعها على سنبلاتٍ في قولِه: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ

---

(١) ينظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٥٦٦).

(٢) بياض في ك: بمقدار كلمة. (٣) في م، س: «الاقتراض».

(٤) وقد اختُلف في معنى القرض الحسن على أقوال: **الأول**: الخالص لله، **والثاني**: ما خرج عن طيب نفس، **والثالث**: ما كان حلالًا. **والرابع**: أن يحتسب عند الله ثوابه، **والخامس**: أن لا يتبعه منًّا ولا أذى، **والسادس**: أن يكون من خيار المال. ينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٢٢٥)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٢٤٢) و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٣٨)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٣٨).

(٥) في ع: «بالمنفق». (٦) سقط من م، ك، س. (٧) في ع: «فيضاف».

(٨) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٤/ ٢٢).

خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: الآية ٤٣] فجاء بها على جمعِ القلةِ؛ لأن السبعةَ قليلةٌ، ولا مقتضى للتكثيرِ[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١] قيل: المعنى: واللهُ يضاعفُ هذهِ المضاعفةَ لمن يشاءُ، لا لكلِّ منفقٍ، بل يختصُّ برحمتِهِ من يشاءُ؛ وذلك لتفاوتِ أحوالِ الإنفاقِ في نفسِهِ[٢]، وفي[٣] صفاتِ المنفقِ وأحوالِهِ، وفي شدةِ الحاجةِ وعظيمِ النفعِ وحسنِ الموقعِ.

وقيل: واللهُ يضاعفُ لمن يشاءُ فوق ذلك، فلا يقتصرُ به على السبعمائةِ، بل يجاوزُ في المضاعفةِ هذا المقدارَ إلى أضعافٍ كثيرةٍ[٤].

واختلف في تقديرِ الآيةِ[٥] فقيل: [مَثَلُ][٦] نفقةِ الذين ينفقون في سبيلِ اللهِ كَمَثلِ حبةٍ. وقيل: مثلُ الذين ينفقون في سبيلِ اللهِ كمثلِ باذرِ حبةٍ؛ ليطابقَ المُمَثلُ للمُمَثَّلِ بهِ[٧] فهنا[٨] أربعةُ أمورٍ: منفقٌ، ونفقةٌ، وباذرٌ، وبذرٌ. فذكر سبحانه من كلِّ شِقٍّ أهمَّ قسميهِ، فذكر من شقِّ الممثلِ المنفقَ؛ إذ المقصودُ ذكرُ حالِهِ وشأنِهِ، وسكت عن ذكرِ النفقةِ؛ لدلالةِ اللفظِ عليها، وذكر من شقِّ المُمثلِ به البذرَ؛ إذ هو المحلُّ[٩] الذي حصلتْ فيه المضاعفةُ، وتركَ ذكرَ الباذرِ؛ لأن الغرضَ لا يتعلقُ بذكرِهِ. فتأملْ هذهِ البلاغةَ، والفصاحةَ، والإيجازَ المتضمنَ لغايةِ البيانِ. وهذا كثيرٌ في أمثالِ القرآنِ بل

تقديرُ الآيةِ

(١) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٣)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٥٥).

(٢) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٣).

(٣) في س: «ففي».

(٤) قال ابن جرير الطبري بعد ذكر القولين: «والذي هو أولى بتأويل قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١]: والله يضاعف على السبعمائة إلى ما يشاء من التضعيف لمن يشاء من المنفقين في سبيله؛ لأنه لم يجرِ ذكر الثواب والتضعيف لغير المنفقين في سبيل الله» «تفسير الطبري» (٣/ ٦١). وينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٠٥)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٥) و«تفسير الثعالبي» (١/ ٢١٠).

(٥) ينظر تقدير الآية في «تفسير الطبري» (٣/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٠٣)، و«تفسير النسفي»: (١/ ١٢٨) و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٣)، و«التفسير الكبير» للرازي (٧/ ٣٩)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٥٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٥٧)، و«فتح القدير» للشوكاني (١/ ٢٨٤) و«روح المعاني» للآلوسي (٣/ ٣٢).

(٦) سقط من م.

(٧) في ع: «الممثلُ الممثلَ به».

(٨) في م: «فهاهنا».

(٩) في س: «محل».

عامَّتُها تردُ على هذا النمطِ، ثم خَتَم الآيةَ باسمين من أسمائِهِ الحُسْنَى مطابقين لسياقِها[(١)]، وهما الواسعُ العليمُ، فلا يستبعدُ العبدُ هذهِ المضاعفةَ، ولا يضيقُ عنها[(٢)] عطنُهُ؛ فإن المضاعفَ سبحانه واسعُ العطاءِ، واسعُ الغنى، واسعُ الفضلِ، ومع ذلك فلا يظنُّ أن سعةَ عطائِهِ تقتضي حصولها لكلِّ منفقٍ؛ فإنه عليمٌ بمن تصلحُ له هذهِ المضاعفةُ، وهو أهلٌ لها، ومن لا يستحقُّها، ولا هو أهلًا لها؛ فإن كرمَه سبحانه وفضلَه تعالى لا يُناقضُ حكمتَه، بل يضعُ فضلَه مواضعَهُ بسعتِهِ[(٣)] ورحمتِهِ، ويمنعُه مَنْ ليس من أهلِهِ بحكمتِهِ وعلمِهِ.

القرضُ الحسنُ

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦٢] هذا بيانٌ للقرضِ الحسنِ ما هو، وهو أن يكونَ في سبيلِهِ، أي: في مرضاتِهِ، والطريقِ الموصلةِ إليهِ، ومن أهمِها سبيلُ الجهادِ[(٤)]. فسبيلُ[(٥)] اللهِ خاصٌّ وعامٌّ، والخاصُّ جزءٌ من [السبيلِ][(٦)] العامِّ.

وأن لا يُتْبعَ صدقتَه بمَنٍّ، ولا أذىً، فالمنُّ نوعانِ:

أنواعُ المَنِّ

أحدُهما: مَنٌّ بقلبِهِ مِن غيرِ أن يصرحَ له بلسانِهِ، وهذا وإن لم يبطلِ الصدقةَ، فهو يمنعُهُ شهودَ[(٧)] مِنَّةِ اللهِ عليه في إعطائِهِ[(٨)] المالَ، وحرمانِ غيرِه، وتوفيقِهِ للبذلِ[(٩)] ومنعِ غيرِه منه، فللهِ المنةُ عليه من كلِّ وجهٍ، فكيف يشهدُ قلبُه منةً لغيرِهِ؟!

والنوعُ الثاني: أن يَمُنَّ عليهِ بلسانِهِ، فيعتَدَّ على من أحسنَ إليه بإحسانِهِ، ويريهِ أنه اصطنعه، وأنه أوجبَ عليه حقًّا، وطوَّقَهُ منَّةً في عنقِهِ، ويقولُ: أَمَا[(١٠)] أعطيتُكَ كذا وكذا؟ ويَعدُّ[(١١)] أياديهِ عنده. قال سفيانُ[(١٢)]: . . . .

---

(١) في ك، س: «السياقهما». (٢) في م: «عنه». (٣) في ك: «لسعته».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٩٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٣١٦)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٣٨)، و«تفسير الثعالبي» (١/ ٢٠٩).

(٥) في م: «في سبيل». (٦) سقط من ع.

(٧) في ك، س: «فهو نقصان شهود». (٨) في ك: «عطائه». (٩) في ك، س: «البذل».

(١٠) في س: «ما». (١١) في ك: «يعيد».

(١٢) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب، أبو عبد الله الثوري، كان إمامًا من أئمة المسلمين، وعَلَمًا من أعلام الدين، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، قال ابن عيينة: ما رأيت رجلًا أعلم بالحلال والحرام =

«يقولُ: أعطيتُك، [وأعطيتُك][1] فما شكرتَ»[2]. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدٍ[3]: «كان أبي يقولُ: إذا أعطيتَ رجلًا شيئًا، ورأيتَ أن سلامَك يَثْقُلُ عليه، فكُفَّ سلامَك عنه»[4]. وكانوا يقولون: إذا صنعتُم صنيعةً فانسوها، وإذا أُسدي إليكم صنيعةٌ فلا تنسوها[5]. وفي ذلك قيل:

وإنِ امرأً أسدى[6] إليَّ صنيعةً   وَذَكرنيهَا مرةً لبخيلُ[7]

الحكمةُ من تحريمِ المنِّ

وقيل: «[صِنوانٌ][8]: مَنْ مَنَحَ سائِلَه وَمَنَّ، ومَنْ مَنَعَ نائلَه وضَنَّ»[9]. «وحظر اللهُ سبحانه على عبادِهِ المنَّ بالصنيعةِ، واختصَّ به صفةً لنفسِهِ؛ لأنه[10] مِنَ العبادِ تكديرٌ وتعييرٌ، ومِنَ اللهِ سبحانه إفضالٌ وتذكيرٌ»[11].

وأيضًا: فإنه [هو][12] المنعمُ في نفسِ الأمرِ، والعبادُ وسائطُ، فهو المنعمُ على عبدِه في الحقيقةِ.

= من سفيان، وقال ابن المبارك: لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان، قال عن نفسه: ما استودعت قلبي شيئًا فخانني، له كتاب: «الجامع» في الحديث، توفي بالبصرة سنة (١٦١)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥١)، «وفيات الأعيان» (١/ ٣٧٤)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٥١).

(١) سقط من ك.

(٢) أورده البغوي في «تفسيره» (١/ ٢٥٠).

(٣) عبد الرحمن بن زيد: تقدمت ترجمته.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٣)، وأورده البغوي في «تفسيره» (١/ ٢٥٠)، والقرطبي (٣/ ٣٠٨).

(٥) جاء في «تفسير الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٣)، و«تفسير النسفي» (١/ ١٢٩): دون قوله: «وإذا أسدي...»، وقال أبو حاتم في «روضة العقلاء» (٢٦٦): «وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

وإذا اصطنعت إلى أخيك   صنيعةً فانسَ الصنيعه
والشكر من كرم الفتى   والكفر من لؤم الطبيعه
والصبر أكرم صاحب   فاصحبه إن نزلت فجيعه».

وفي «المستطرف في كل فن مستظرف»، للأبشيهي (١/ ٦١): «إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطُنع إليك فانشره».

(٦) في م: «أهدى».

(٧) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٣٩٣)، والأبشيهي في «المستطرف» (٢/ ١٢٢)، غير أنهم ذكروا «لَلَئيم» مكان «لبخيل».

(٨) بياض في م، بمقدار كلمة.

(٩) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٣٩٣).

(١٠) في ك، س: «لأن».

(١١) «تفسير البغوي» (١/ ٢٥٠).

(١٢) سقط من م.

وأيضًا: فالامتنانُ[١] استعبادٌ، وكسرٌ، وإذلالٌ لمن يُمَنُّ عليهِ، ولا تصلحُ العبوديةُ والذلُّ إلا للهِ.

وأيضًا: فالمنةُ أن يشهدَ المعطي أنه هو ربُّ الفضلِ والإنعامِ، وأنه وليُّ النعمةِ ومُسْدِيها، وليس ذلك في الحقيقةِ إلا للهِ[٢].

وأيضًا: فالمانُّ بعطائهِ يشهدُ نفسَهُ مترفعًا على الآخذِ مستعليًا عليه، غنيًّا عنه عزيزًا، ويشهدُ ذِلَّةَ[٣] الآخذِ، وحاجتَه إليه، وفاقتَه، ولا ينبغي ذلك للعبدِ.

وأيضًا: فإن المعطي [قد تولَّى اللهُ ثوابَه][٤]، وردَّ عليه أضعافَ ما أعطى، فبقي عوضُ ما أعطى عند اللهِ. فأيُّ حقٍّ بقي له [قِبَل الآخذِ؟ فإذا][٥] امتنَّ عليهِ فقد ظلمَه ظلمًا بينًا، وادَّعى أن حقَّه في قِبَلِه[٦].

ومن هنا- واللهُ أعلمُ- بطلتْ صدقتُه بالمنِّ؛ فإنه لما [كانتْ][٧] معاوضتُه ومعاملتُه مع اللهِ، وعوضُ تلك الصدقةِ عنده، فلم يرضَ [به] ولاحظَ العوضَ من الآخذِ والمعاملةَ عنده، فمَنَّ عليه بما أعطاه؛ أَبْطَلَ معاوضتَه مع اللهِ، ومعاملتَه له[٨].

فتأملْ هذهِ النصائحَ من اللهِ لعبادِهِ، ودلالتَه[٩] على ربوبيتِهِ وإلهيتِهِ وحدَه، وأنه يبطلُ عملَ مَنْ نازعَهُ في شيءٍ من ربوبيتِه، وإلهيتِهِ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه.

المنُّ المتراخي مبطلٌ للصدقةِ

ونبَّه بقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٢] على أن المنَّ والأذى، ولو تراخى عن الصدقةِ، وطال زمنُه، ضَرَّ بصاحبِهِ، ولم يحصلْ له مقصودُ الإنفاقِ[١٠]، ولو أتى بالواوِ، وقال: ولا يُتْبِعُون [ما أنفقوا][١١] منًّا ولا أذىً؛ لأوهمت تقييدَ ذلك بالحالِ، وإذا كان [المنُّ][١٢]، والأذى المتراخي مبطلًا لأثرِ الإنفاقِ، مانعًا من الثوابِ؛ فالمقارنُ أَوْلى وأَحْرى.

وتأملْ كيف جَرَّدَ الخبرَ هنا عن الفاءِ، فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٢]

(١) في س: «فإن الامتنان». (٢) في ك، س: «إلا لله». (٣) في ك، س: «ذل الآخذ».
(٤) بياض في ك بمقدار كلمة. (٥) بياض في ك بمقدار كلمة.
(٦) انظر أسباب كون المن مذمومًا، في «التفسير الكبير»، للرازي (٧/ ٤١).
(٧) سقط من م. (٨) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٦٢). (٩) في ك: «ودلالتها».
(١٠) ينظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٥٨-٦٥٩). (١١) سقط من س.
(١٢) سقط من ك، س.

وقرنه بالفاءِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٢] فإن الفاءَ الداخلةَ على خبرِ المبتدأِ الموصولِ، أو الموصوفِ، تفهمُ معنى الشرطِ والجزاءِ، وأن الخبرَ مستحقٌّ بما تضمنَه المبتدأُ من الصلةِ، أو الصفةِ، فلما كان المقامُ هنا يقتضي بيانَ حصرِ المستحقِّ للجزاءِ، دونَ غيرِه، جرَّد الخبرَ عن الفاءِ؛ فإنَّ المعنى أن الذي ينفقُ مالَه للهِ، ولا يمنُّ، ولا يُؤذي، هو الذي يستحقُّ الأجرَ المذكورَ لا الذي ينفقُ لغيرِ اللهِ، [ولا مَنْ][1] يمنُّ ويُؤذي بنفقتِه، فليس المقامُ مقامَ شرطٍ وجزاءٍ، [بل][2] مقامُ بيانٍ للمستحقِّ من غيرِه[3][4]. وفي الآيةِ الأخرى ذكرَ الإنفاقَ بالليلِ والنهارِ سرًّا وعلانيةً، فذكر عمومَ الأوقاتِ[5] وعمومَ الأحوالِ[6]، فأتى بالفاءِ في الخبرِ؛ لتدلَّ على أن الإنفاقَ في أي وقتٍ وجد من ليلٍ، أو نهارٍ، وعلى أي حالةٍ وجد من سرٍّ، أو[7] علانيةٍ؛ فإنه سببٌ للجزاءِ على كلِّ حالٍ[8].

---

(١) سقط من ك، س. (٢) سقط من س.

(٣) في م، ك، س: «للمستحق دون غيره».

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٨٧)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٥٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٩٣)، و«المخصص» لابن سيده (١٤/ ٤٨-٤٩)، و«التفسير الكبير» للرازي (٧/ ٧٤)، وقال ابن جني في «سِرُّ صناعة الإعراب» (١/ ٢٥٩): «واعلم أن المعارف الموصولة، والنكرات الموصوفة، إذا تضمنت صلاتها وصفاتها معنى الشرط؛ دخلت الفاء في أخبارها، وذلك نحو قولك: الذي يكرمني فله درهم، فلما كان الإكرام سبب وجوب الدرهم؛ دخلت الفاء في الكلام، ولو قلت: الذي يكرمني له درهم، لم يدلَّ هذا القول على أن الدرهم إنما يستحق للإكرام، بل هو حاصل للمكرم على كل حال.
وتقول في النكرة: كل رجل يزورني فله دينار، فالفاء هي التي أوجبت استحقاق الدينار بالزيارة، ولو قلت: كل رجل يزورني له دينار، لَمَا دلَّ ذلك على أن الدينار مستحق عن الزيارة، بل يدل على أنه في ملك الزائر على كل حال، فلأجل معنى الشرط في الصلة والصفة ما دخلت الفاء في آخر الكلام، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٢] فالفاء قد دلت على أن الأجر إنما استحق عن الإنفاق) وينظر: «الخصائص» له (٣/ ٣٢٥)، و«الأزهية في علم الحروف» للهروي (٢٤٦)، و«المفصل في صنعة الإعراب» للزمخشري (٢٧)، و«الجني الداني في حروف المعاني» للمرادي (١٢٦).

(٥) في م: «الإنفاق». (٦) في ع: «الأقوال». (٧) في م: «و».

(٨) قال أبو حيان: «قد يقال: إن تقديم الليل على النهار والسر على العلانية يدل على تلك الأفضلية والليل مظنة السر، فقدم الوقت الذي كانت الصدقة فيه أفضل، والحال التي كانت فيها أفضل» «البحر المحيط» (٢/ ٧٠١).

فليبادرْ إليه العبدُ، ولا ينتظرْ به غيرَ وقتِهِ وحالِهِ، فلا[١] يؤخرِ نفقةَ الليلِ إذا حضرَ[٢] إلى النهارِ، ولا نفقةَ النهارِ إلى الليلِ، ولا ينتظرْ بنفقةِ العلانيةِ وقتَ السرِّ، ولا بنفقةِ السرِّ وقتَ العلانيةِ، فإن نفقتَه في أيِّ وقتٍ، وعلى أي حالٍ وجدتْ سببٌ لأجرِهِ وثوابِهِ[٣].

فتدبرْ هذهِ الأسرارَ في القرآنِ؛ فلعلك لا تظفرُ بها [فيما][٤] يَمرُّ بك من التفاسيرِ. والمنةُ والفضلُ للهِ وحده لا شريكَ له.

القولُ المعروفُ هو الذي تعرفهُ القلوبُ

ثم قال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٣] فأخبر سبحانه أن القولَ المعروفَ، وهو الذي تعرفُهُ القلوبُ ولا تنكرُه[٥]، والمغفرةَ، وهي[٦]:

العفو عمن[٧] أساءَ إليك، خيرٌ من الصدقةِ [المقرونةِ][٨] بالأذى، فالقولُ المعروفُ إحسانٌ، وصدقةٌ بالقولِ.

والمغفرةُ: إحسانٌ بتركِ المؤاخذةِ[٩] والمقابلةِ، فهما نوعان من أنواعِ الإحسانِ، والصدقةُ المقرونةُ بالأذى حسنةٌ مقرونةٌ بما يبطلُها، ولا ريبَ أن حسنتين [خيرٌ][١٠] من حسنةٍ باطلةٍ.

ويدخلُ في هذا القولِ المعروفِ: الردُّ الجميلُ على السائلِ، والعِدَةُ الحسنةُ، والدعاءُ الصالحُ له ونحو ذلك[١١] ....

---

(١) في س: «ولا». (٢) في م: «حضرت».

(٣) قال الزمخشري: «يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه، ولم يتعللوا بوقت، ولا حال» «الكشاف» (١/ ٣٩٨).

(٤) سقط من س.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٧/ ٤٣)، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «المعروف: اسم جامع لكل ما عُرِفَ حُسنه شرعًا وعقلًا» «الرياض الناضرة» (٢٠٢).

(٦) في ع: «وهو». (٧) في م: «عما». (٨) سقط من ك.

(٩) في س: «يترك بالمؤاخذة». (١٠) سقط من ك.

(١١) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٣/ ٦٣)، و«تفسير الواحدي» (١/ ١٨٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥٠) و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٤)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٤٣)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٠٩) و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٦٠-٦٦١).

ويدخلُ في المغفرةِ [مغفرتُهُ][1] للسائلِ إذا وَجَد منه بعضَ الجفوةِ والأذى بسببِ ردِّهِ، فيكونُ عفْوه عنه خيرًا من أن يتصدقَ عليهِ ويؤذِيَهُ، هذا على المشهورِ من القولين في الآيةِ.

والقولُ الثاني: أن المغفرةَ من اللهِ، أي: مغفرةٌ لكم من اللهِ بسببِ القولِ المعروفِ والردِّ الجميلِ خيرٌ من صدقةٍ يتبعُها أذىً.

وفيها قولٌ ثالثٌ: أي: مغفرةٌ وعفوٌ من السائلِ إذا رُدَّ وتَعَذَّر المسؤولُ خيرٌ من أن ينالَ منه[2] صدقةً يتبعُها أذىً.

وأصحُّ الأقوالِ هو الأولُ، ويليهِ الثاني، والثالثُ ضعيفٌ جدًّا؛ لأن الخطابَ إنما هو للمنفقِ المسؤولِ لا للسائلِ[3] الآخذِ[4].

والمعنى أن قولَ المعروفِ له، والتجاوزَ والعفوَ خيرٌ لك من أن تَصَّدَّقَ عليه، وتؤذِيَهُ.

ختمُ الآيةِ بصفتي الغِنى والحلمِ

ثم ختم[5] الآيةَ بصفتينِ مناسبتين لما تضمنتْهُ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٣] وفيهِ معنيانِ:

أحدُهما: أنَّ اللهَ غنيٌّ عنكم، لن ينالَه شيءٌ من صدقاتِكُم، وإنما الحظُّ الأوفرُ لكم في الصدقةِ، فنفعُها عائدٌ إليكم[6] لا إليهِ سبحانه، فكيف بمنفقٍ يمنُّ بنفقتِهِ، ويؤذي [بها][7]، مع غنى اللهِ التامِّ عنها وعن كلِّ ما سواه؟! ومع هذا فهو حليمٌ، إذ لم يعاجِلِ المانَّ [المؤذي][8] بالعقوبةِ، وفي ضمنِ هذا الوعيدُ له والتحذيرُ.

والمعْنَى الثاني: أنه سبحانه مع غناه التامِّ من كلِّ وجهٍ فهو الموصوفُ بالحلمِ والتجاوزِ والصفحِ مع عطائِهِ الواسعِ، وصدقاتِهِ العميمةِ، فكيف يُؤذي أحدُكم بمنهِ

---

(١) سقط من س. (٢) في ك، س: «بنفسه». (٣) في س: «السائل».

(٤) تنظر الأقوال في المسألة في «تفسير الطبري» (٣/ ٦٤)، و«تفسير الواحدي» (١/ ١٨٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥٠)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٤)، و«زاد المسير» (١/ ٣١٨)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٤٣) و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٠)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٦٠-٦٦١)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٦)، و«فتح القدير»، للشوكاني (١/ ٢٨٤).

(٥) في م: «وختم». (٦) في م، ك، س: «عليكم». (٧) سقط من ك.

(٨) سقط من م، ك.

وأذاه، مع قلةِ ما يُعطي ونزارتِهِ[1] وفقرِهِ[2]؟:

[ثمَّ][3] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤] فتضمنتْ هذهِ الآيةُ الإخبارَ بأنَّ المنَّ والأذى يُحبِطُ[4] الصدقةَ، وهذا دليلٌ على أن الحسنةَ قد تُحبَطُ بالسيئةِ، مع قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحُجرَات: الآية ٢] وقد تقدَّم الكلامُ على هذهِ المسألةِ في أولِ هذهِ الرسالةِ، فلا حاجةَ إلى إعادتِهِ، وقد يقالُ: إنَّ المنَّ والأذى المقارنَ للصدقةِ هو الذي يبطلُها، دون ما يلحقُها بعدَها، إلا أنه ليس في اللفظِ ما يدلُّ على هذا التقييدِ، والسياقُ يدلُّ على إبطالِها[5] به مطلقًا.

هل المنُّ المقارنُ للصدقةِ هو المبطلُ فقط

وقد يقالُ: تمثيلُه بالمرائي الذي لا يؤمنُ باللهِ، واليومِ الآخرِ يدلُّ على أن المنَّ والأذى المبطلَ هو المقارنُ، كالرياءِ، وعدمِ الإيمانِ؛ فإن الرياءَ لو تأخَّر عن العملِ لم يبطلْه. **ويجابُ عن هذا بجوابين:**

أحدُهما: أن التشبيهَ وقع في الحالِ التي يُحْبَطُ بها العملُ، وهي حالُ المُرَائي والمانِّ المؤذي في أن كلَّ واحدٍ منهما يُحبطُ العملَ.

الثاني: أن الرياءَ لا يكونُ إلا مقارنًا للعملِ؛ لأنه (فِعَال) من الرؤيةِ، أي[6]: صاحبُه[7] يعملُ ليُري الناسَ عملَه، فلا يكونَ متراخيًا، وهذا بخلافِ المنِّ والأذى؛ فإنه يكونُ مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيهِ أكثرُ من مقارنتِهِ.

---

(١) النَّزْر: القليل التافه، ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٠٥)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٠٣)، و«القاموس المحيط» (٦١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٦٤)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥٠)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٤) و«تفسير الرازي» (٧/ ٤٤)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٠) و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٦١).

(٣) سقط من م.

(٤) في ع: «محبط».

(٥) في ع: «إبطاله».

(٦) في ك: «التي».

(٧) في س: «التي صاحبها».

وقولُه: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤][(١)] إما أن يكونَ المعنى: كإبطالِ الذي ينفقُ، فيكونُ قد شبَّه الإبطالَ بالإبطالِ، أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفقُ مالَه رئاءَ الناسِ، فيكونُ تشبيهًا للمنفقِ بالمنفقِ[(٢)].

تشبيهُ قلبِ المنفقِ رياءً بالصفوانِ

وقولُه: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] أي: مثلُ هذا المنفقِ الذي قد بطلَ ثوابُ نفقتِهِ ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] وهو الحجرُ الأملسُ[(٣)].

وفيهِ قولانِ: **أحدُهما**: أنه واحدٌ. **والثاني**: جمعُ صفوانة[(٤)] ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] وهو المطرُ الشديدُ، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] وهو الأملسُ الذي لا شيءَ عليهِ من نباتٍ ولا غيرِه، وهذا من أبلغِ الأمثالِ وأحسنِها؛ فإنه تضمنَ[(٥)] تشبيهَ قلبِ هذا المنفقِ للرياءِ. الذي[(٦)] لم يَصْدُرْ إنفاقُه عن إيمانٍ باللهِ واليومِ الآخرِ. بالحجرِ لشدتِهِ وصلابتِهِ، وعدمِ الانتفاعِ به، وتضمنَ تشبيهَ ما عَلِقَ به من أثرِ الصدقةِ بالغبارِ الذي عَلِقَ بذلك الحجرِ، والوابلِ الذي أزال ذلك الترابَ عن الحجرِ، فأذهبَه بالمانعِ الذي أبطلَ صدقةَ[(٧)] [هذا][(٨)] وأزالها، كما يُذهِبُ الوابلُ الترابَ الذي على الحجرِ، فيتركُه[(٩)] صلدًا، فلا يقدرُ المنفقُ على شيءٍ من ثوابِهِ؛ لبطلانِهِ وزوالِهِ[(١٠)].

---

(١) في م: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤].

(٢) انظر الأقوال في «تفسير البغوي» (١/ ٢٥٠)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٤)، و«البيان في تفسير غريب القرآن»» لابن الأنباري (١/ ١٧٤)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٤٧)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٢) و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٥٩).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (١/ ٢٩٠)، و«تفسير الواحدي» (١/ ١٨٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥١) و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٤).

(٤) قال الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٥): «والصفوان: واحد، وجمع، فمن جعله جمعًا؛ فالواحدة: صفوانة، بمنزلة: تمرة وتمر، ونخلة ونخل. ومن جعله واحدًا، جمعه: صفوان، وصفي». وينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٨٢)، «معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٨٤)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥١)، و«البيان في غريب القرآن»» لابن الأنباري (١/ ١٧٤)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٤٧-٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٩).

(٥) في ك: «يتضمن». (٦) في ك: «المرائي بالذي». (٧) في ك، س: «صدقته».

(٨) سقط من ك، س. (٩) في م: «فتركه».

(١٠) وهو مروي عن ابن عباس وقتادة والربيع والسدي، وغيرهم. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٦٦- =

وفيه معنى آخر: وهو أن المنفقَ لغيرِ اللهِ هو في الظاهرِ عاملٌ عملًا يترتبُ[١] عليه الأجرُ، ويزكُو له كما تزكو الحبةُ التي إذا بُذِرَتْ في الترابِ الطيبِ؛ أنبتَتْ سبعَ سنابلَ، في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ، ولكنْ وراءَ هذا الإنفاقِ مانعٌ يمنعُ من نموهِ وزكائِهِ، كما أن تحتَ الترابِ حجرًا[٢] يمنعُ من نباتِ ما يبذرُ من الحبِّ فيه، فلا يُنبتُ، ولا يُخرجُ شيئًا[٣]. ثم قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هذا مثلُ الذي مصدرُ[٤] نفقتِهِ عن الإخلاصِ والصدقِ؛ فإنَّ ابتغاءَ مرضاتِهِ هو غايةُ الإخلاصِ. والتثبيتُ من النفسِ هو الصدقُ في البذلِ[٥]؛ فإنَّ المنفقَ تعترضُهُ عند إنفاقِهِ آفتانِ إنْ نَجَا منهما؛ كان مَثَلُه ما ذُكر في [هذهِ][٦] الآيةِ:

المنفقُ تعترضُهُ عند إنفاقِهِ آفتان

إحداهما: طلبُه بنفقتِه مَحْمَدَةً، أو ثناءً، أو غرضًا[٧] من أغراضِهِ الدنيويةِ، وهذا حالُ أكثرِ المنفقين.

والآفةُ الثانيةُ: ضعفُ [نفسِهِ بالبذلِ][٨] وتقاعُسُها وتردُّدُها: هل يفعلُ أم لا؟.

فالآفةُ الأولى تزولُ بابتغاءِ مرضاةِ[٩] اللهِ.

والآفةُ الثانيةُ تزولُ بالتثبيتِ؛ فإنَّ تثبيتَ النفسِ تشجيعُها وتقويتُها، والإقدامُ بها على البذلِ، وهذا هو صدقُها. وطلبُ مرضاةِ اللهِ: إرادةُ وجهِهِ وحدَه، وهذا[١٠] إخلاصُها.

فإذا كان مصدرُ الإنفاقِ عن ذلك كان مَثَلُه كجنةٍ. وهي البستانُ الكثيرُ الأشجارِ. فهو

= ٦٧)، و«معاني القرآن»، للنحاس (١/ ٢٩٠)، و«تفسير الواحدي» (١/ ١٨٨) و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥١)، و«زاد المسير» (١/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٩).

(١) في ك: «عاملًا عملًا مترتب».

(٢) في م: «حجر».

(٣) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (٣٢٤-٣٢٥)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٦٣-٦٦٤-٦٦٥).

(٤) في ع، م: «تَصْدُرُ».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٩)، عن الشعبي، وأورده النحاس في «معاني القرآن» (١/ ٢٩١) وفي «القطع والائتناف» (١٩٧).

(٦) سقط من م.

(٧) في ك: «أو غرضه».

(٨) سقط من ك، س.

(٩) في م: «تزول بمرضاة».

(١٠) في ع: «في هذا».

مُجْتَنٍّ بها - أي: مستترٌ - ليس قاعًا فارغًا. والجنةُ بربوةٍ، وهو: المكانُ المرتفعُ(١)؛ لأنها أكملُ من الجنةِ المستفلةِ التي كَالْوِهَـادِ(٢)، والحضيضِ(٣)؛ لأنها(٤) إذا ارتفعتْ؛ كانتْ بمدرجةِ الأهويةِ والرياحِ، وكانت ضاحيةً(٥) للشمسِ وقتَ طلوعِها واستوائِها، وغروبِها، فكانت أنضجَ ثمرًا، وأطيبَه، وأحسنَه، وأكثرَه؛ فإنَّ الثمارَ تزدادُ طِيبًا وزكاءً [بالرياحِ](٦) والشمسِ، بخلافِ الثمارِ التي تنشأُ(٧) في الظلالِ(٨)، وإذا كانتِ الجنةُ بمكانٍ مرتفعٍ؛ لم يخشَ عليها إلا من قلةِ........

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٣/ ٧٢): «عن ابن عباس قال: «بربوة: المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار». وينظر: «غريب القرآن»، لليزيدي (٩٩)، و«تفسير غريب القرآن»، لابن قتيبة (٩٧)، و«تحفة الأريب» لأبي حيان (١٤٤).

(٢) في م، ك، س: «المستقلة التي بالوهاد». والوَهْدُ: المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة. ينظر: «العين» (٤/ ٧٧)، و«المحيط في اللغة»، للصاحب بن عباد (٤/ ٤٥)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (١١٠٦)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٧١)، و«القاموس» (٤١٨).

(٣) الحضيض: قرار الأرض عند سفح الجبل. ينظر: «المحيط في اللغة» للصاحب بن عباد (٢/ ٢٩٧)، «و«الصحاح»» للجوهري (٣/ ٩٠١)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (١٢٢)، و«لسان العرب» (٧/ ١٣٦)، «القاموس» (٨٢٥).

(٤) في س: «لا أنها».

(٥) ضاحية: أي: بادية وبارزة وظاهرة للشمس. فضاحية كل شيء: ناحيته البارزة، ومكان ضَاحٍ، أي: بارز. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٩١٧)، و«لسان العرب» (١٤/ ٤٧٧)، «القاموس» (١٦٨٢).

(٦) سقط من ع. (٧) في ع: «تنبت».

(٨) قال الرازي: «واعلم أن المفسرين قالوا: البستان إذا كان في ربوة من الأرض كان أحسن وأكثر ريعًا.
ولي فيه إشكال: وهو أن البستان إذا كان في مرتفع من الأرض؛ كان فوق الماء، ولا ترتفع إليه أنهار، وتضربه الرياح كثيرًا؛ فلا يحسن ريعه، وإذا كان في وهدة من الأرض انصبت مياه الأنهار، ولا يصل إليه إثارة الرياح فلا يحسن ريعه.
فإذن: البستان إنما يحسن ريعه إذا كان على الأرض المستوية، التي لا تكون ربوة، ولا وهدة. فإذن: ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه، بل المراد منه كون الأرض طينًا حرًّا، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ، وَرَبَا، ونما؛ فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها، وتكمل الأشجار فيها.
وهذا التأويل الذي ذكرته متأكد بدليلين: **أحدهما**: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحجّ: الآية ٥] والمراد من ربوها ما ذكرنا، فكذا ههنا.
والثاني: أنه تعالى ذكر هذا المثل في مقابلة المثل الأول، ثم كان المثل الأول: هو الصفوان الذي لا يؤثر فيه المطر، ولا يربو، ولا ينمو بسبب نزول المطر عليه، فكان المراد بالربوة في هذا المثل: كون =

الشربِ(١)، فقال تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٥] وهو المطرُ الشديدُ العظيمُ القطرِ(٢)، فأدتْ ثمرتَها، وأعطتْ بركتَها، فأخرجتْ ثمرتَها ضِعفي ما يثمرُ غيرُها، أو ضِعفي ما كانتْ تثمرُ؛ بسببِ ذلك الوابلِ، فهذا حالُ السابقين المقربين. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٥]، وهو دون الوابلِ(٣)؛ فإنه(٤) يكفيها لكرمِ منبتِها، وطيبِ مغرسِها، تكتفي في إخراجِ بركتِها بالطَّلِّ وهذا حالُ الأبرارِ المقتصدين في النفقةِ، وهم درجاتٌ عندَ اللهِ:

درجاتُ المقتصدين في النفقةِ

فأصحابُ الوابلِ أعلاهُم درجةً، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤] ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩]

= الأرض بحيث تربو تنمو» «التفسير الكبير» (٧/ ٥٠)، وقد ساق أبو حيان في «تفسيره» (٢/ ٦٦٨)، كلام الرازي كأنه يستحسنه، ثم قال: «وما قاله قاله قبله الحسن: الربوة: الأرض المستوية التي لا تعلو فوق الأرض» وقد رواه ابن جرير الطبري (٣/ ٧٢)، وقال في الربوة كما في «التفسير» (٣/ ٧١): «ما نشز منها، فارتفع عن السيل وإنما وصفها بذلك جل ثناؤه؛ لأن ما ارتفع عن المسايل والأودية أغلظ، وجنان ما غلظ من الأرض أحسنُ وأزكى ثمرًا وغرسًا وزرعًا مما رقَّ منها، ولذلك قال أعشى بني ثعلبة في وصف روضة:

ما روضةٌ من رياض الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضراءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

فوصفها بأنها من رياض الحزن؛ لأن الحزون غروسها ونباتها أحسن وأقوى من غروس الأودية والتلاع وزروعها». وتعقبه ابن عطية في «تفسيره». (٢/ ٤٣٩). فقال: «ورياض الحزن ليست من هذا كما زعم الطبري، بل تلك هي الرياض المنسوبة إلى نجد، لأنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال لها: الحزن، وقلما يصلح هواء تهامة إلا بالليل، ولذلك قالت الأعرابية: «زوجي كليل تهامة». وذكر نحو هذا أبو حيان في «البحر المحيط» (٢/ ٦٦٨).

(١) في ك، س: «إلا من قلة الماء والشراب».

(٢) في ك، س: «القدر». وينظر: «غريب القرآن وتفسيره» لليزيدي (٩٩)، و«تفسير غريب القرآن»، لابن قتيبة (٩٧)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٧٢)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٤٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٢٩٣) و«العمدة في غريب القرآن»، لمكي القيسي (٩٤)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٥).

(٣) روي عن ابن عباس والسدي أنه الندى، وقال الضحاك: هو الرذاذ من المطر. ينظر: «تفسير ابن جرير الطبري» (٣/ ٧٢). وقال الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (١/ ٣٤٨): «الطل: هو المطر الدائم الصِّغَار القَطْر، الذي لا يكاد يسيل منه المثاعب»، وينظر: «غريب القرآن»، لليزيدي (٩٩)، و«تفسير غريب القرآن»، لابن قتيبة (٩٧)، و«العمدة في غريب القرآن»، للقيسي (٩٤).

(٤) في ك: «فهو».

وأصحابُ الطَلِّ مقتصدُوهم.

فمَثَّلُ حالَ القسمين وأعمالَهم بالجنةِ على الربوةِ، ونفقتَهم الكثيرةَ والقليلةَ بالوابلِ والطلِّ، وكما أن كلَّ واحدٍ من المطرين يوجبُ زكاءَ أُكلِ الجنةِ ونموَه بالإضعافِ، فكذلك نفقتُهم كثيرةً كانتْ أو قليلةً، بعد أن صدرتْ عن ابتغاءِ مرضاةِ اللهِ [والتثبيتِ][(١)] من نفوسِهِم، فهي زاكيةٌ عند اللهِ ناميةٌ مضاعفةٌ.

الأقوالُ في معنى الضِّعْفَينِ

واختُلف في الضعفينِ: فقيل: ضِعْفَا الشيءِ: مِثْلاَهُ زائدًا عليه، وضعفُه: مِثْلُهُ[(٢)]. وقيل: ضعفُه: مِثلاه. وضعفاه: ثلاثةُ أمثالِهِ، وثلاثةُ أضعافِهِ: أربعةُ أمثالِهِ[(٣)]، كلما زاد ضعفًا زاد مِثلًا، والذي حَملَ هذا القائلَ على ذلك فِرَارُهُ من استواءِ دلالةِ المفردِ والتثنيةِ؛ [فإنه رَأَى][(٤)] ضِعفَ الشيءِ هو: مثلَهُ الزائدَ عليهِ، فإذا ضُمَّ إلى المثلِ صار مثلين، وهما الضعفُ، فلو قيل لهما[(٥)]: ضعفانِ؛ لم يكنْ فرقٌ بين المفردِ والمثنى؛ فالضعفانِ عنده مثلانِ مضافان إلى الأصلِ، [ويلزمُ من هذا أن يكونَ ثلاثةُ أضعافِهِ، ثلاثةَ أمثالٍ، مضافةٍ[(٦)] إلى الأصلِ][(٧)]، وهكذا أبدًا.

والصوابُ: أن الضعفينِ هما المثلانِ فقط: الأصلُ ومثلُه[(٨)]، وعليهِ يدلُّ قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٥] أي: مثلينِ، [وقولُه: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٠] أي: مثلين][(٩)] ولهذا قال في المحسناتِ[(١٠)]: ﴿نُّؤْتِهَآ

(١) سقط من ع.

(٢) قال عطاء في قوله تعالى: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٥]: «أي حملت في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين». وقال عكرمة: «حملت في السنة مرتين». ينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٣٥٢)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٧)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠)، و«فتح القدير» للشوكاني (١/ ٢٨٦) و«روح المعاني» للآلوسي (٣/ ٣٦).

(٣) ينظر المصادر السابقة. وينظر: «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» للأزهري (٢٧١)، و«المغرب في ترتيب المعرب» لابن المطرزي (٩)، و«المطلع على أبواب المقنع» لأبي الفتح الحنبلي (٢٩٦)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٠٥) و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (١٠٧٢).

(٤) لم يتضح في ك. (٥) في م: «هما». (٦) في س: «مضاعفة».

(٧) سقط من م.

(٨) وهو قول عكرمة وعطاء وغيرهما: «أنها حملت في السنة مرتين»، وقال الزجاج: «مثلين». ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» (١/ ٣٤٨)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥٢)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٦٩).

(٩) سقط من م. (١٠) في ك، س «الحسنات».

﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣١] وأمَّا ما توهَّمُوه من استواءِ دلالةِ المفردِ والتثنيةِ فوهمٌ منشؤُه ظنٌّ أن الضِعْفَ هو المثلُ مع الأصلِ، وليس كذلك؛ بل المثلُ له اعتباران:

إن اعتُبِرَ وحدَه فهو ضعفٌ، وإنِ اعتُبِرَ مع نظيرِه فهما ضعفانِ، واللهُ أعلمُ.

واختُلِفَ في رفعِ قولِهِ: ﴿فَطَلٌّ﴾ فقيل: هو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ [أي: فطلٌّ يكفيها، وقيل: خبرٌ مبتدؤُهُ محذوفٌ، أي][(١)]: فالذي يرويهَا ويصيبُها طَلٌّ[(٢)].

والضميرُ في «أَصَابَهَا» إما أن يرجعَ إلى الجنةِ، أو إلى الربوةِ[(٣)]، وهما متلازمانِ.

ثم قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦].

قال الحسنُ[(٤)]: «هذا مَثَلٌ قَلَّ - واللهِ - مَنْ يعقِلُهُ مِنَ الناسِ، شيخٌ كبيرٌ ضَعُفَ جسمُهُ وكَثُرَ صبيانُهُ، أفقرُ ما كَانَ إلى جنَّتِهِ، وإنَّ أحدكمْ - والله - أفقرُ ما يكون إلى عمَلِهِ إذا انقطعَتْ عَنْهُ الدُّنيا»[(٥)].

وفي «صحيحِ البخاريِّ»، عن عبيدِ بنِ عميرٍ[(٦)] قال: «قال عمرُ يومًا لأصحابِ النبيِّ

---

(١) سقط من ك.

(٢) وهناك قول ثالث: وهو أنه فاعل تقديره: فيصيبها طلٌّ، وحُذف الفعلُ؛ لدلالة فعل الشرط عليه.
انظر الأقوال في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٤٨)، و«القطع والائتناف» للنحاس (١٩٨) و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١/ ١١٣) و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٧)، و«البحر المحيط» (٢/ ٦٦٩) و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٧)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠).

(٣) «أصابها» صفة لجنة، ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من الجنة؛ لأنها قد وصفت، ويجوز أن تكون حالًا من الضمير في الجار، و(قد) مع الفعل مقدرة، ويجوز أن تكون الجملة صفة لربوة؛ لأن الجنة بعض الربوة. ينظر: «مشكل إعراب القرآن» للقيسي (١/ ١٣٩)، و«البيان في تفسير غريب القرآن» لابن الأنباري (١/ ١٧٥)، «التبيان في إعراب القرآن»، للعكبري (١/ ١١٣).

(٤) الحسن البصري: تقدمت ترجمته.

(٥) روى الصنعاني في «التفسير» (١/ ١٠٨)، والطبري (٣/ ٧٦-٧٧) نحوه عن قتادة، وأورده الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٣٩٥)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٢/ ٦٧١)، والثعالبي في «تفسيره» (١/ ٢١٥)، عن الحسن.

(٦) عبيد بن عمير بن قتادة بن سعد الليثي الجُنْدَعِي المكي، يكنى أبا عاصم، كان عالمًا واعظًا كبير القدر =

ﷺ: «فيمَ[(١)] ترونَ[(٢)] هذهِ الآياتِ نزلتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ الآية [البَقَرَة: الآية ٢٦٦][(٣)]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ. فغضب عمرُ، فقال: قولُوا: نعلمُ أو لا نعلمُ، فقال ابنُ عباسٍ[(٤)]: في نفسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين، قال[(٥)] عمرُ: قل يا بنَ أخي ولا تحقرْ بنفسِكَ[(٦)]، قال ابنُ عباسٍ: ضُرِبَت مثلًا لعملٍ. قال عمرُ: أيُّ عملٍ؟ قال ابنُ عباسٍ: لعملٍ، قال عمرُ: لرجلٍ عملَ بطاعةِ اللهِ، ثم بعث اللهُ له الشيطانَ فعملَ بالمعاصي حتى أغرقَ أعمالَه»[(٧)] فقولُه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦] أخرجه مخرجَ الاستفهامِ الإنكاريِّ[(٨)]، وهو أبلغُ من النفيِّ، والنهيِّ، وألطفُ موقعًا، كما ترى غيرك يفعلُ فِعلًا قبيحًا، فتقولُ: أيفعلُ هذا عاقلٌ؟! أيفعلُ هذا من يخافُ اللهَ والدارَ الآخرةَ؟!

وقال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦] بلفظِ الواحدِ؛ لتضمنِه معنى الإنكارِ العامِّ[(٩)]، كما تقولُ: أيفعلُ هذا أحدٌ فيه خيرٌ؟ وهو أبلغُ في الإنكارِ مِنْ أن يقالَ: «أيودون».

وقولُه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦] أبلغُ [في هذا الإنكارِ مِنْ لو قيل: «أيريدُ»؛ لأن محبةَ هذهِ الحالِ المذكورةِ، وتمنيها، أقبحُ][(١٠)] وأنكرُ من مجردِ إرادتِها[(١١)].

= قاص أهل مكة، ولد في عهد النبي ﷺ، روى عن عمر وعائشة وعلي وغيرهم، وهو معدود في كبار التابعين، توفي سنة (٧٤)هـ، ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١٠١٨)، ت.(١٧٣٦)، و«أسد الغابة» (٣/ ٤٤٠)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٤١).

(١) في ع: «فيمن» وفي ك: «فهم». (٢) في ك: «يرون».

(٣) في س ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦].

(٤) عبد الله بن عباس: سبقت ترجمته. (٥) في ك: «فقال».

(٦) في م: «نفسك». (٧) رواه البخاري، ح (٤١٧٤).

(٨) ينظر: «تفسير النسفي» (١/ ١٣٠)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٨)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠).

(٩) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٥)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٧١).

(١٠) سقط من م.

(١١) قال الرازي في «تفسيره». (٧/ ٥٢). (وإنما قال ﴿أَيَوَدُّ﴾ ولم يقل «أيريد»؛ لأن المودة هي المحبة التامة، ومعلوم أن محبة كل أحد لعدم هذه الحال محبة كاملة تامة، فلما كان الحاصل هو مودة عدم هذه الحالة، ذكر هذا اللفظ في جانب الثبوت، فقال: أيود أحدكم حصول مثل هذه الحالة؛ تنبيهًا على الإنكار التام، والنفرة البالغة إلى الحد الذي لا مرتبة فوقه».

خصَّ النخلَ والعنبَ لشرفِهَا

وقولُه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٦] خصَّ هذين النوعين من الثمارِ بالذكرِ؛ لأنهما أشرفُ أنواعِ الثمارِ وأكثرُهما منافعَ[١]؛ فإن منهما القوتَ، والغذاءَ والدواءَ والشرابَ والفاكهةَ، والحلوَ، والحامضَ، ويؤكلانِ[٢] رطبًا ويابسًا، ومنافعُهما كثيرةٌ جدًّا.

أيُّهما أفضلُ: النخيلُ أم العنبُ؟

وقد اختلف في الأنفعِ والأفضلِ منهما؛ فرجحتْ طائفةٌ النخيلَ، ورجحتْ طائفةٌ العنبَ، وذكرتْ كلُّ طائفةٍ حُجَجًا لقولِها، قد ذكرناها[٣] في غيرِ هذا الموضعِ[٤] وفصلُ الخطابِ: أن هذا يختلفُ باختلافِ البلادِ؛ فإن اللهَ سبحانه أجرى العادةَ بأن سلطانَ أحدِهما لا يحلُّ حيثُ سلطانُ الآخرِ[٥]؛ فالأرضُ التي يكونُ فيها سلطانُ النخلِ لا يكونُ العنبُ بها طائلًا، ولا كثيرًا[٦]؛ لأنه إنما يخرجُ في الأرضِ الرخوةِ اللينةِ، المعتدلةِ، غيرِ السبخةِ، فينمو فيها، ويكثرُ. وأما النخلُ فنموهُ وكثرتُهُ في الأرضِ الحارةِ السبخةِ، وهي لا تناسبُ [شجرَ][٧] العنبِ؛ فالنخلُ في أرضِهِ وموضعِهِ أنفعُ وأفضلُ من العنبِ فيها. والعنبُ في أرضِهِ ومعدنِهِ أفضلُ من النخلِ فيها. واللهُ أعلمُ.

والمقصودُ أن هذينِ النوعينِ [هما][٨] أفضلُ أنواعِ الثمارِ، وأكرمُها [وأنفعُها][٩]؛ فالجنةُ المشتملةُ عليهما من أفضلِ الجنانِ، ومع هذا فالأنهارُ تجْري من تحتِ هذهِ الجنةِ، وذلك أكملُ لها، وأعظمُ في قدرِها، ومع ذلك فلم تُعدمْ شيئًا من أنواعِ الثمارِ المشتهاةِ، بل فيها من كلِّ الثمراتِ، ولكنْ معظمُها ومقصودُها النخيلُ والأعنابُ، فلا تنافي بين كونِها من نخيلٍ وأعنابٍ، و﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٦] ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ

---

(١) في ك: «منافعًا». وينظر في هذا: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٥)، و«التفسير الكبير» للرازي (٧/ ٥٢)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٩)، و«تفسير النسفي» (١/ ١٣٠)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠). قال أبو حيان في «تفسيره»: (٢/ ٦٧٢): «نص على النخيل دون الثمرة، وعلى ثمرة الكرم دون الكرم؛ وذلك لأن أعظم منافع الكرم هو ثمرته دون أصله، والنخيل كله منافع عظيمة توازي منفعة ثمرته: من خشبه، وجريده، وليفه، وخوصه، وسائر ما يشتمل عليه، فلذلك - والله أعلم - اقتصر على ذكر النخيل وثمرة الكرم».

(٢) في ك: «ويؤكلا». (٣) في ك: «فذكرناها».

(٤) وقد فَصَّل المؤلف هذه المسألة في كتابه: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٣٠).

(٥) في ك، س: «لا يحل حيث يحل سلطان الآخر». (٦) في م: «كثيرًا ولا طائلًا».

(٧) سقط من ك، س. (٨) سقط من م. (٩) سقط من م، ك، س.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ [الكهف: الآية ٣٢] إلى قوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: الآية ٣٤].

وقد قيل: إن الثمارَ هنا، وفي آيةِ البقرةِ، المرادُ بها المنافعُ والأموالُ(١)، والسياقُ يدلُّ على أنها الثمارُ المعروفةُ، لا غيرُها؛ لقولِهِ هنا: ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ثم قال: ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٦] [أي: الجنةَ](٢) ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٦] وفي الكهفِ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: الآية ٤٢] وما ذلك إلا ثمارُ الجنةِ.

تعلقُ قلبِهِ بهذه الجنةِ من وجوهٍ

[ثم] قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٦] هذا إشارةٌ إلى شدةِ حاجتِهِ إلى جنتِهِ، وتعلقِ قلبِه بها من وجوهٍ:

أحدُها: أنه [قد] كبُرتْ سنُّهُ عن الكسبِ والتجارةِ، ونحوها.

الثاني: أن ابنَ آدمَ عند كبرِهِ(٣) يشتدُّ حرصُهُ.

الثالثُ: أن له ذريةً، فهو حريصٌ على بقاءِ جنتِهِ لحاجتِهِ، وحاجةِ ذريتِهِ.

الرابعُ: أنهم ضعفاءُ، فهم كَلٌّ عليهِ، لا ينفعونه بقوتِهم وتصرفِهم(٤).

الخامسُ: أن نفقتَهم عليهِ؛ لضعفِهم وعجزِهم، وهذا نهايةُ ما يكونُ من تعلقِ القلبِ بهذهِ الجنةِ؛ لخطرِها في نفسِها، وشدةِ حاجتِهِ وحاجةِ ذريتِهِ [إليها](٥).

فإذا تصورتَ هذهِ الحالَ، وهذهِ الحاجةَ، فكيفَ تكونُ مصيبةُ هذا الرجلِ إذا أصاب جنتَه إعصارٌ. وهو الريحُ التي تستديرُ في الأرضِ، ثم ترتفعُ في طبقاتِ الجو كالعمودِ(٦)

---

(١) أو يكون المراد التكثير، ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٦)، و«تفسير النسفي» (١/ ١٣٠)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٧٢)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٦٨)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠).

(٢) سقط من م.

(٣) في ك: «كِبر سنة».

(٤) في ع: «يقوتهم ويصرفهم».

(٥) سقط من ع.

(٦) واختلف في تأويل قوله: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦] فقال بعضهم: معنى ذلك ريح فيها سموم شديدة، وقال به ابن عباس، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال آخرون: هي الريح فيها برد شديد، وبه قال الحسن، والضحاك، وغيرهم. ينظر: «تفسير الصنعاني» (١/ ١٠٨)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٧٨-٧٩)، و«غريب القرآن» لليزيدي (٩٩) و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٤٩)، و«العمدة في غريب القرآن»، للقيسي (٩٤) و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٥)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٥٣)، و«تحفة الأريب»، لأبي حيان (٢٢٤-٢٢٥).

وفيها نارٌ مرَّتْ بتلك الجنةِ، فأحرقتْها، وصيرتْها رمادًا؟ فصدق - واللهِ؟ الحَسَنُ[(١)]: هذا مثلٌ قلَّ من يعقلُه من الناسِ» ولهذا نبَّه سبحانه على عظمِ هذا المثلِ وجذبِ[(٢)] القلوبِ إلى التفكرِ فيه لشدةِ حاجتِها إليهِ؛ فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩] فلو فكَّر العاقلُ في هذا المثلِ، وجعله قِبْلَةَ قَلْبِهِ؛ لكفاهُ وشفَاهُ، فهكذا العبدُ إذا عمل طاعةً للهِ، ثم أتبعها بما يبطلُها ويغرقُها من معاصي اللهِ؛ كانت كالإعصارِ ذي النارِ المحرقِ للجنةِ التي غرسها بطاعتِهِ وعملِهِ الصالحِ، ولولا أن هذه المواضعَ أهمُّ مما كلامُنا بصدَدِه. من ذكر مجردِ الطبقاتِ. لم نذكرْها، [و][(٣)] لكنها من أهمِّ المُهِمِّ. واللهُ المستعانُ الموفقُ لمرضاتِهِ.

فلو تصور العاملُ بمعصيةِ اللهِ بعدَ طاعتِهِ هذا المعنى حقَّ تصورِه، وتأملَه كما ينبغي؛ لما سَوَّلت له نفسُهُ - واللهِ - إحراقَ أعمالِهِ الصالحةِ وإضاعتَها، ولكن لا بُدَّ أن يغيبَ عنه علمُه بذلك[(٤)] عند المعصيةِ، ولهذا يستحقُّ اسمَ الجهلِ، فكلُّ من عصى اللهَ فهو جاهلٌ.

فإن قيل[(٥)]: الواو في قولِهِ: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦] واوُ الحالِ، أمْ واوُ العطفِ؟ وإذا كانتْ للعطفِ فعلامَ عُطفتْ ما بعدَها؟ قلتُ: فيه وجهان:

أحدُهما: أنها واو الحالِ، اختاره الزمخشريُّ[(٦)].

والمعنى: أيودُّ أن[(٧)] تكونَ له جنةٌ شأنُها كذا وكذا في حالِ كبرِه وَضَعْفِ ذريتِهِ.

والثاني: أن تكونَ للعطفِ على المعنى؛ فإنَّ فِعلَ التمني، وهو قولُه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦] لطلبِ الماضي كثيرًا، فكان المعنى: أيودُّ لو كانتْ له جنةٌ

---

(١) الحسن البصري: تقدمت ترجمته.

(٢) في م، ك، س: «وحدا».

(٣) سقط من م.

(٤) في م زيادة: «بذلك».

(٥) في م: «قلت».

(٦) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٦)، وهو: أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، كان عالمًا بالتفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان، قال ابن حجر: «صالح لكنه داعية إلى الاعتزال - أجارنا الله - فكن حذرًا من «كشافه» له كتب منها: «الكشاف» في التفسير و«المحاجاة بالمسائل النحوية» و«الفائق» في تفسير الحديث، و «أساس البلاغة» في اللغة، وغيرها، توفي سنة (٥٣٨)هـ. «وفيات الأعيان» (٣/ ٨٦)، و«ميزان الاعتدال» (٦/ ٣٨٣)، و«لسان الميزان» (٦/ ٤-٥).

(٧) في م، ك، س: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٦].

من نخيلٍ وأعنابٍ، وأصابَهُ الكبرُ، فجرى عليها ما ذُكِرَ[١]؟

وتأملْ كيف ضرب سبحانه المثلَ للمنفقِ المرائي. الذي لم يصدرْ إنفاقُهُ عن الإيمانِ. بالصفوانِ الذي عليه الترابُ، فإنه لم يُنْبِتْ شيئًا أصلًا، بل ذهب بذرُه ضائعًا؛ لعدمِ إيمانِهِ وإخلاصِهِ، ثم ضرب المثلَ لمن عمل بطاعةِ اللهِ مخلصًا بنيتِهِ للهِ، ثم عرضَ له ما أبطلَ ثوابَهُ بالجنةِ التي هي من أحسنِ الجنانِ، وأطيبِها، وأزهاها[٢]، ثم سلَّط عليها الإعصارَ الناري فأحرقها، فإنَّ هذا نَبَتَ له شيءٌ، وأثمرَ له عملُهُ، ثم احترق، والأولُ لم يحصلْ له شيءٌ يدركُه الحريقُ، فتبارك من جعل كلامَه حياةً للقلوبِ، وشفاءً للصدورِ، وهدًى ورحمةً.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] أضافَ سبحانه الكسبَ إليهم، وإن كان هو الخالقَ لأفعالِهم؛ لأنه فعلُهم القائمُ بهم، وأسندَ الإخراجَ إليه؛ لأنه ليس فعلًا لهم، ولا هو مقدورًا لهم، فأضافَ مقدورَهم إليهم، وأضافَ مفعولَه الذي لا قدرةَ لهم عليه إليه، ففي ضمنِهِ الردُّ على مَنْ سوَّى بين النوعين، وسلَب قدرةَ العبدِ وفعلَه وتأثيرَه عنهما بالكليةِ[٣]، وخصَّ سبحانه هذين النوعين. وهما الخارجُ من الأرضِ والحاصلُ بكسبِ التجارةِ - دونَ غيرِهما من المواشي إما بحسَبِ الواقعِ؛ فإنهما كانا أغلبَ أموالِ القومِ إذ ذاك؛ فإنَّ المهاجرين كانوا أصحابَ تجارةٍ وكسبٍ، والأنصارَ كانوا أصحابَ حرثٍ وزرعٍ.

الآية ردٌّ على الجبريةِ

(١) انظر الأقوال في الواو من قوله: ﴿وَأَصَابَهُ﴾: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٦)، و«البيان في تفسير غريب القرآن»، لابن الأنباري (١/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٥٢)، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٩)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٧٢-٦٧٣).

(٢) في ك: «وأزكاها».

(٣) وهؤلاء هم الجبرية؛ إذ إن العبد عندهم مجبور على فعله، ليس له قدرة، ولا إرادة، ولا اختيار، بل هو كالريشة في مهب الريح، يقلبها كيف يشاء، والله هو الخالق لأفعال العبد، ونَسَبَ عمل العبد إليه من قبيل المجاز؛ كما يقال: تحركت الشجرة، وزالت الشمس، ودارت الرحى، من غير أن تكون فاعلة مستطيعة، فالثواب والعقاب عندهم جبر، كما أن الأفعال كلها جبر، وعلى هذا فالتكليف عندهم جبر. ينظر: «مقالات الإسلاميين»، لأبي الحسن الأشعري (ص/ ٢٧٩)، «والفَرْق بين الفِرَق»، للبغدادي (١٩٩) و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٨٧).

فخصَّ هذين النوعين بالذكرِ؛ لحاجتِهم إلى بيانِ حكمِهما، وعمومِ وجودِهما.

وإما لأنهما أصولُ الأموالِ، وما عداهما فَعَنْهُما يكونُ، ومنهما يُنْشَأ، فإنَّ الكسبَ تدخلُ فيه التجاراتُ كلُّها على اختلافِ أصنافِها، وأنواعِها من الملابسِ، والمطاعمِ والرقيقِ والحيواناتِ، والآلاتِ، والأمتعةِ، وسائرِ ما تتعلقِ به التجارةُ، والخارجُ من الأرضِ يتناولُ حبَّها، وثمارَها، وركازَها، ومعدنَها.

وهذان هما أصولُ الأموالِ، وأغلبُها على أهلِ الأرضِ، فكان ذِكْرُهُمَا[١] أهمَّ.

ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] فنهى سبحانه عن قصدِ إخراجِ الرديءِ، كما هي[٢] عادةُ أكثرِ النفوسِ، تُمْسِكُ الجيدَ لها، وتُخْرِجُ الرديءَ للفقيرِ، ونهيُهُ سبحانه عن قصدِ ذلك وتيممِهِ فيه ما يشبُهُ العذرَ لِمَن فعَلَ[٣] ذلك لا عن قصدٍ وتيممٍ، بل إما عن اتفاقٍ[٤]، أو[٥] كان هو الحاضرَ إذ ذاك، أو كان مالُه من جنسِهِ؛ فإنَّ هذا لم يتيمَّمِ الخبيثَ، بل تيممَ إخراجَ بعضِ ما مَنَّ اللهُ [به][٦] عليه[٧]، وموقعُ قولِهِ: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] موقعُ الحالِ، أي: لا تقصدُوه منفقين منه[٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] أي: لو كنتم أنتم المستحقين له وبُذل لكم، لم تأخذوه في حقوقِكم إلا بأن[٩] تتسامَحُوا في أخذِه وتترخَّصُوا فيه.

من قولِهم: أغمضَ فلانُ عن بعضِ حقِّهِ، ويقالُ للبائعِ: أَغْمِضْ أي: لا تستقصِ[١٠]

---

(١) في م: «ذكره». (٢) في ع، م: «هو». (٣) في م: «يفعل».

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٢٥٦)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦١).

(٥) في م، ك: «إذا» وفي س: «إذ». (٦) سقط من ك.

(٧) ينظر في هذا: «تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦١).

(٨) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن»، للعبكري (١/ ١١٤)، وتفسير «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٦)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٥٦)، و«البحر المحيط» (٢/ ٦٧٩)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦١).

(٩) في ع: «أن».

(١٠) يقال: أَغْمَضَ في البيع يُغمض: إذا استزاده من المبيع، واستحطَّه من الثمن، فوافقه عليه، والإغماض: المسامحة والمساهلة، ينظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٣٨٧)، و«لسان العرب» (٧/ ١٩٩)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (٨٣٧).

كأنك لا تبصرُ. وحقيقتُه من: إغماضِ الجفنِ، فكأن الرائي لكراهتِهِ له لا يملأُ عينَه منه، بل يغضُّ من بصرِهِ، ويغمضُ عنه بعضَ نظرِهِ بُغْضًا له، ومنه قولُ الشاعرِ:

لم يَفُتْنَا بالوترِ قَومٌ وللضَّيـ م رجَالٌ يَرْضَونَ بالإِغْمَاضِ[(١)]

وفيه معنيانِ:

أحدُهما: كيف تبذِلُون للهِ، وتُهْدُون له ما لا ترضُون ببذلِهِ لكم، ولا يرضَى أحدُكم من صاحبِهِ أن يهدِيَهُ له، واللهُ أحقُّ مَن[(٢)] تُخَيَّرُ له خيارُ الأشياءِ وأنفسُها؟!

والثاني: كيف تجعلُون له ما تكرهون لأنفسِكُم، وهو سبحانه طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا؟! ثم ختم الآيةَ[(٣)] بصفتينِ يقتضيهما سياقُها، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] فغناه وحمدُه يَأبَى قبولَه الرديءَ؛ فإنَّ قابِلَ الرديءِ الخبيثِ إما أن يقبلَه لحاجتِهِ إليه، وإما أنَّ نفسَه لا تَأْبَاهُ؛ لعدمِ كمالِها وشرفِها، وأما الغنيُّ عنه الشريفُ القدرِ، الكاملُ الأوصافِ، فإنه لا يقبلُه[(٤)].

الحضُّ على الإنفاقِ بأبلغِ الألفاظِ وأحسنِ المعاني

ثم[(٥)] قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨] هذهِ الآيةُ تتضمنُ الحضَّ على الإنفاقِ، والحثَّ عليه بأبلغِ[(٦)] الألفاظِ، وأحسنِ المعاني؛ فإنها اشتملتْ على بيانِ الداعي إلى البخلِ، والداعي إلى البذلِ والإنفاقِ، وبيانِ ما يدعو[(٧)] إليه داعي البخلِ[(٨)]، وما يدعو إليه داعي الإنفاقِ، وبيانِ ما يدعو به[(٩)] داعي الأمرينِ.

فأخبرَ تعالى أنَّ الذي يدعُوهم إلى البخلِ والشحِّ هو الشيطانُ، وأخبر أنَّ دعوتَه[(١٠)] هي بما يَعِدُهم به، ويخوفُهم[(١١)] من الفقرِ إنْ أنفقُوا[(١٢)] أموالَهم، وهذا هو الداعي

---

(١) أورده الطبري في «تفسيره» (٣/ ٨٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٢)، والزمخشري في «الكشاف» (١/ ٣٩٦)، والقرطبي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٧) غير أنه ذكر و«للذل» مكان و«للضيم»، وهو للطِّرِمَّاح «ديوانه» (١٧٠).

(٢) في س: «أن يخير». (٣) في ع: «الآيتين».

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٢٥٦)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٥٦)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦١).

(٥) في م: «و». (٦) في ك: «أبلغ». (٧) في ك: «يدعوه».

(٨) في ك زيادة: «والداعي إلى البذل».

(٩) في س: «ما يدعوا إليه به...». (١٠) في م: «دعوتهم». (١١) في ع: «ويخوفهم به».

(١٢) في م: «أن ينفقوا».

الغالبُ على الخلقِ؛ فإنه يَهِمُّ بالصدقةِ والبذلِ، فيجدَ في قلبِهِ داعيًا يقولُ له: متى أخرجت هذا؛ دعتْكَ الحاجةُ إليه، وافتقرتَ إليه بعد إخراجِهِ، فإمساكُه خيرٌ[١] لك حتى لا تبقى مثلَ الفقيرِ، فغِنَاك خيرٌ لك من غِنَاه فإذا صَوَّر له هذهِ الصورةَ [أمرَهُ][٢] بالفحشاءِ، وهي البخلُ الذي هو من أقبحِ الفواحشِ، وهذا إجماعٌ من المفسِّرين أن الفحشاءَ هنا البخلُ[٣]، فهذا وعدُه، وهذا أمرُه، وهو الكاذبُ في وعدِه، الغارُّ الفاجرُ في أمرِه، فالمستجيبُ لدعوتِهِ مغرورٌ مخدوعٌ مغبونٌ؛ فإنه يُدلي مَنْ يدعُوه بغرورِهِ، ثم يوردُه شرَّ المواردِ، كما قال[٤]:

الفحشاءُ هنا هي البخلُ

دلاهُمْ بغرورٍ ثم أوردَهم … إن الخبيثَ لِمَنْ والاهُ غَرَّارُ[٥]

هذا وإنَّ وعْدَه له بالفقرِ ليس شفقةً عليه، ولا نصيحةً له كما ينصحُ الرجلُ أخاه، ولا محبةً في بقائِهِ غَنِيًّا، بل لا شيءَ أحبُّ إليه من فقرِه وحاجتِهِ، وإنما وعدُه له بالفقرِ وأمرُه إياه بالبخلِ؛ ليسيء ظنَّه بربِّهِ، ويتركَ ما يحبُّه من الإنفاقِ لوجهِهِ، فيستوجبَ منه الحرمانَ.

وأما اللهُ ﷻ فإنه يَعِدُ عبدَه [على إنفاقِهِ][٦] مغفرةً منه لذنوبِهِ، وفضلًا بأن يخلفَ

---

(١) في ك: «خيرًا». (٢) سقط من م.

(٣) قيل: إن الفحشاء تقع على وجوه، والمراد بها في هذا الموضع البخل، والعرب تسمي البخيل فاحشًا والبخل فُحشًا.

قال طرفة بن العبد:

أرى الموتَ يَعتامُ الكرامَ ويَصطَفِي … عَقِيلةَ مالِ الفاحشِ المُتَشدِّدِ

ينظر: أحكام القرآن، للجصاص (٢/ ١٧٧)، و«تفسير الواحدي» (١/ ١٨٩)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٣٧٤)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٦)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٥٧)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٨١)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ١٦٢).

(٤) في م: «قيل».

(٥) أورده ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٣٠٥)، ضمن أبيات لحسان بن ثابت، مطلعها:

قومي الذين هُمُ آووا نَبِيَّهمُ … وصَدَّقُوه وأهلُ الأرضِ كُفَّارُ

وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء» (٢/ ٤٩)، و ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٥)، والحسن بن حبيب في «المقتفى من سيرة المصطفى» (١٣٢). وينظر: «ديوان حسان» (٤٧٦). غير أنهم ذكروا: «أسلمهم» مكان: «أوردهم».

(٦) سقط من ك، س.

عليه أكثرَ[١] مما أنفقَ وأضعافَه، إما في الآخرةِ[٢]، أو في الدنيا والآخرةِ[٣] فهذا وعدُ اللهِ، وذاك وعدُ الشيطانِ، فلينظرِ البخيلُ والمنفقُ بأيِّ[٤] الوعدين هو أوثقُ، وإلى أيِّهما يطمئنُ قلبُهُ، وتسكنُ نفسُهُ واللهُ يوفقُ من يشاءُ، ويخذلُ من يشاءُ، وهو الواسعُ العليمُ.

وتأملْ كيف ختم هذهِ الآيةَ بهذينِ الاسمينِ؛ فإنه [واسعُ الفضلِ][٥]، واسعُ العطاءِ، عليمٌ بمن يستحقُّ فضلَه، ومن يستحقُّ عدلَه، فيُعطي هذا بفضلِهِ، ويمنعُ هذا بعدلِهِ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

فتأملْ هذهِ الآياتِ، ولا تَسْتَطِلْ بَسطَ الكلامِ فيها؛ فإنَّ لها شأنًا لا يعقلُه إلا مَنْ عَقِلَ عن اللهِ خطابَه، وفهم مرادَه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٤٣].

وتأملْ ختمَ هذهِ السورةِ - التي هي سنامُ القرآنِ[٦] - بأحكامِ الأموالِ، وأقسامِ الأغنياءِ وأحوالِهم، وكيف قسَّمهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

أقسامُ الأغنياءِ: القسمُ الأولُ: المحسنُ

محسنٌ: وهم المتصدقون، فذكر جزاءَهم ومضاعفتَه، ومَا لَهُم في قرضِ أموالِهم للمليءِ الوفيِّ[٧]، ثم حذَّرَهم مما يبطلُ ثوابَ صدقاتِهم ويحرقُها بعد استوائِها وكمالِها مِنَ المنِّ والأذى، وحذَّرهم مما يمنعُ ترتبَ أثرِها عليها، ابتداءً من الرياءِ، ثم أمَرَهُم بأن يتقرَّبوا إليه بأطيبِها، ولا يتيمَّموا رديئَها[٨] وخبيثَها، ثم حذَّرَهم من الاستجابةِ لداعي البخلِ والفحشِ، وأخبر أن استجابتَه[٩] لدعوتِهِ وثقتَهم بوعدِه أَوْلى بهم.

---

(١) في ع: «أخير». (٢) في ك، س: «الدنيا».

(٣) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٦)، و«تفسير الرازي» (٧/ ٥٩).

(٤) في ك: «أي». (٥) سقط من ك، س.

(٦) يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيِّدة آي القرآن، هي آية الكرسي»**. رواه الترمذي، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، ح (٢٨٧٨)، وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير، وضعفه». وضعفه الألباني كما في «ضعيف سنن الترمذي» (ص/ ٣٤١)، ح (٥٣٩)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣/ ٥٢٤).

(٧) في س: «الوافي». (٨) في ك، س: «أردأها».

(٩) في م، ك، س: «استجابتهم».

ثم أخبر(١) أن هذا من حكمتِه التي يؤتيها من يشاءُ من عبادِه، وأن مَنْ أوتِيها فقد أوتي(٢) ما هو خيرٌ وأفضلُ من الدنيا كلِّها؛ لأنه سبحانه وصفَ الدنيا بالقلةِ، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: الآية ٧٧] وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩] فدلَّ على أن ما يؤتيهِ عبدَه من حكمتِهِ خيرٌ مِنَ الدنيا وما عليها، ولا يعقلُ هذا كلُّ أحدٍ، بل لا يعقلُه إلا مِنَ له لبٌّ وعقلٌ زكيٌّ، فقال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩].

ثم أخبر سبحانه أن كلَّ ما أنفقوه من نفقةٍ، أو تقرَّبْوا به إليه من نذرٍ، فإنه يعلمُه(٣) ولا(٤) يضيعُ لديهِ، بل يعلمُ(٥) ما كان لوجهِهِ [منه مما كان لغيرِه، فيجازي بالمضاعفةِ ما كان لوجهِهِ](٦)، [ويَكِلُ جزاءَ](٧) مَنْ عَمِلَ لغيرِه إلى مَنْ عملَ له(٨)، فإنه ظالمٌ لنفسِهِ، وما له من نصيرٍ.

أخبارُ المتصدِّقين لوجهِ الله سبحانه

ثم أخبر سبحانه عن أحوالِ المتصدقين لوجهِهِ في صدقاتِهم، وأنه يثيبُهم عليها إن أبدُوهَا، أو كَتمُوها، بعد أن تكونَ خالصةً لوجهِهِ، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: فنعم شيئًا هي(٩)، وهذا مدحٌ لها(١٠) موصوفةٌ بكونِها ظاهرةً باديةً، فلا يتوهَّمُ مُبْدِيهَا بطلانَ أجرِه وثوابِهِ، فيمنَعه ذلك من إخراجِها، وينتظرَ بها زمنَ الإخفاءِ(١١)

---

(١) في ك، س «وأخبر». (٢) في ك، س: «فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وأوتي...».

(٣) قال أبو حيان في «تفسيره». (٢/ ٦٨٦).:

«وأتى بالمميز في قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٠]، و: ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٠]، وإن كان مفهومًا من قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ [البقرة: الآية ٢٧٠] ومن قوله: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٠] لتأكيد اندراج القليل والكثير في ذلك ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [التوبة: ١٢١].

(٤) في ك، س «فلا». (٥) في م: «بل كل ما». (٦) سقط من م، ك، س.

(٧) سقط من م.

(٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: **قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»** رواه مسلم في كتاب: التوبة، باب: من أشرك في عمله غير الله، ح (٢٩٨٥)، وغيره.

(٩) «ما " هنا تمييز للمضمر في «نعم»، وقدروه بـ «شيئًا». ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٥٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٩٠)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٧)، و«التفسير الكبير» للرازي (٧/ ٦٤)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٢/ ٦٨٩) وغيرها.

(١٠) في م زيادة: «لأنها». (١١) في س: «الاختفاء».

فتفوتَ[١]، وتعترضَه الموانعُ، ويحالَ بينه وبين قلبِهِ، أو بينه وبين إخراجِها، فلا يُؤخَرَ صدقةَ العلانيةِ بعد حضورِ وقتِها إلى وقتِ السرِّ، وهذهِ كانت حالَ الصحابةِ ﷺ.

الحكمةُ من تقييدِ الإخفاءِ

ثم قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧١] فأخبر أن إعطاءَها الفقيرَ[٢] في خُفيةٍ خيرٌ للمنفقِ من إظهارِها وإعلانِها.

وتأملْ تقييدَه تعالى الإخفاءَ بإيتاءِ[٣] الفقراءِ خاصَّةً، ولم يقلْ: وإن تخفوها فهو خيرٌ لكم؛ فإنَّ مِنَ الصدقةِ ما لا يمكنُ[٤] إخفاؤُها؛ كتجهيزِ جيشٍ، و[٥]بناءِ قنطرةٍ، أو[٦] إجراءِ نهرٍ، أو غيرِ ذلك.

وأما إيتاؤُها الفقراءَ ففي إخفائِها من الفوائدِ: السترُ عليه، وعدمُ تخجيلِهِ بين الناسِ وإقامتِهِ مقامَ الفضيحةِ، وأن يرى الناسُ أن يدَه [هي اليدُ][٧] السفلى، وأنه [فقيرٌ][٨] لا شيءَ له، فيزهَدُون في معاملتِهِ ومعاوضتِهِ، وهذا قدرٌ زائدٌ من الإحسانِ إليه بمجردِ الصدقةِ، مع تضمُّنِهِ الإخلاصَ وعدمَ المراءاةِ وطلبِ[٩]، المَحْمَدةِ من الناسِ، فكان[١٠] إخفاؤُها للفقيرِ خيرًا من إظهارِها بين الناسِ. ومن هذا[١١] مدحَ النبيُّ ﷺ صدقةَ السرِّ، وأثنى على فاعلِها، وأخبرَ أنه أحدُ السبعةِ الذين هم في ظلِّ عرشِ الرحمنِ[١٢] يومَ القيامةِ[١٣]، ولهذا جعلَهُ سبحانه خيرًا للمنفقِ[١٤]، وأخبرَ أنه يكفرُ عنه

---

(١) في م: «وينتظر بها زمنًا يفوت».
(٢) في ك: «للفقير».
(٣) في ك: «بإيتائها».
(٤) في م، ك، س: «ما لم يمكن».
(٥) في م: «أو».
(٦) في ك، س: «و».
(٧) سقط من م.
(٨) سقط من ك، س.
(٩) في ك: «وطلبه».
(١٠) في ك، س: «وكان».
(١١) في م: «ولهذا».
(١٢) في م: «الذين يظلهم الله في ظل عرشه».
(١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل.....ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه...»** رواه البخاري، ح (٦٢٩)، ومسلم، ح (١٠٣١)، وغيرها.
(١٤) جمهور المفسرين على أن الإخفاء في هذه الآية يراد به صدقة التطوع. وقد حكى ابن جرير الطبري رحمه الله اتفاقهم على ذلك، فقال: «ولم يخصص الله من قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧١] فذلك على العموم، إلا ما كان من زكاة واجبة من الفرائض، قد أجمع الجميع على أن الفضل في إعلانه وإظهاره، سوى الزكاة التي ذكرنا اختلاف المختلفين فيها مع إجماع جميعهم على أنها واجبة، فحكمها في أن الفضل في أدائها علانية، حكم سائر الفرائض غيرها.
غير أنه روى عن يزيد بن أبي حبيب أنه قال: إنما نزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى فيكون المعنى عنده: إن تبدوا الصدقات، فتعطوها أهل الكتابين، فنعما هي، وإن تخفوها، وتؤتوها =

. . . .

= فقراء المسلمين، فهو خير لكم». «تفسير الطبري» (٣/ ٩٣).

أما الفريضة، فاختلفوا فيها: أأفضل الإظهار، أم الإخفاء؟:

القول الأول: أن الإظهار أفضل وأكمل؛ وذلك لينفي المظهرُ للصدقة التهمة عن نفسه، لا سيما إذا كان ممن لا يعرف بالبذل والعطاء. قالوا: لقوله ﷺ: «**أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**» رواه البخاري، ح (٦٩٨)، ومسلم، ح (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وقال النحاس في «معاني القرآن» (١/ ٣٥٤): «ومعنى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧١] هذا كان على عهد رسول الله ﷺ فكان الإخفاء في إيتاء الزكاة أحسن، فأما اليوم الناس يُسيئون الظن، فإظهار الزكاة أحسن».

وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

القول الثاني: أن الإخفاء أفضل؛ لأنه أَدْخَلُ في الإخلاص، وأبعدُ من الرياء والسمعة، وهو أدلُّ على أن المنفق المُخْفِي يريد بذلك وجه الله والدار الآخرة. قالوا: والآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أم مندوبة.

واستدلوا أيضًا بالأحاديث الدالة على فضل صدقة السر، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله....**» وذكر منهم: «**رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**» رواه البخاري، ح (١٣٥٧)، ومسلم، ح (١٠٣١).

ثم ذكروا أن السلف كانوا يعطون زكاتهم للسعاة، وكان مَنْ أخفاها اتُّهم بعدم الإخراج، أما اليوم فصار كل واحد يخرج زكاته بنفسه؛ فصار إخفاؤها أفضل. إلا إذا كان يعلم أن في إظهاره الصدقة ترغيبًا للناس، وحثًّا لهم على البذل والعطاء، مع حراسة قلبه أن يدخله الرياء، فإظهاره هنا أفضل لهذه المصلحة المترتبة. أما ما عدا ذلك فالإخفاء هو الأفضل. وقال بهذا القول الحسن ويزيد بن أبي حبيب وقتادة وغيرهم.

والأقرب والله أعلم. أن هذا فيه تفصيل؛ إذ يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والتحقيق فيه أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها، والمعطى إياها، والناس الشاهدين لها. أما المعطي: فله فيها فائدة إظهار السنة، وثواب القدوة.

قلت: هذا لمن قويت حاله، وحسنت نيته، وأمِنَ على نفسه الرياء، وأما مَنْ ضعف عن هذه المرتبة فالسر أفضل. وأما المُعطَى إياها: فإن السر له أسلم من احتقار الناس له، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها، وترك التعفف. وأما حال الناس: فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، ومن جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء وعلى الآخذ لها بالاستغفار. «أحكام القرآن»، لابن العربي (١/ ٢٣٧)، وانظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٣٣٤).

وقال الزين بن المنير: «لو قيل: إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال؛ لما كان بعيدًا، فإذا كان الإمام - مثلًا - جائرًا ومالُ من وجبت عليه مخفيًّا؛ فالإسرار أولى، وإن كان المتطوع ممن يُقتدى به ويتبع، وتنبعث =

بذلك الإنفاقِ من سيئاتِهِ. ولا يخفى عليه سبحانه أعمالُكم ولا نياتُكم؛ فإنه بما تعملون خبيرٌ.

ثم أخبر أن هذا الإنفاقَ إنما [هو][1] [نفعُه][2] لأنفسِهِم؛ يعودُ عليهم أحوجَ ما كانوا إليه، فكيف يبخلُ أحدُكم[3] عن نفسِهِ بما نفعُه مختصٌّ بها عائدٌ إليها. وإنَّ نفقةَ المؤمنين إنما تكونُ ابتغاءَ وجهِهِ خالصًا؛ لأنها صادرةٌ عن إيمانِهم، وأن نفقتَهم ترجعُ إليهم وافيةً كاملةً، ولا يُظلمون منها مثقالَ ذرةٍ.

وصَدَّر هذا الكلامَ بأنَّ اللهَ سبحانه [هو الهادي الموفقُ لمعاملتِهِ وإيثارِ مرضاتِه، وأنه ليس على رسولِهِ هداهم، بل عليه إبلاغُهم، وهو سبحانه][4] الذي يوفقُ من يشاءُ لمرضاتِهِ. ثم ذكر سبحانه المصرفَ الذي توضعُ فيه الصدقةُ، فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: الآية ٢٧٣] فوصَفَهم بستِّ صفاتٍ: مصرفُ الصدقةِ وصفاتُ مستحقِّيها

أحدُها: الفقرُ.

الثانيةُ: حبسُهم أنفسَهم في سبيلِهِ تَعَالَى، وجهادِ أعدائِهِ، ونصرِ دينِهِ. وأصلُ الحصرِ: المنعُ[5]؛ فمنعوا أنفسَهم من تصرفِها في أشغالِ الدنيا، وقصرُوها على بذلِها للهِ وفي سبيلِهِ.

الثالثةُ: عجزُهم عن الأسفارِ للتكسبِ. والضربِ في الأرضِ [هو: السفرُ][6]، قال

= الهمم على التطوع بالإنفاق، وسلم قصده، فالإظهار أولى - والله أعلم. «فتح الباري» (٣/ ٢٨٩).

وينظر في هذه المسألة: «تفسير الطبري» (٣/ ٩٢-٩٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٥٤) و«القطع والائتناف» للنحاس (٢٠٢-٢٠٣)، و«أحكام القرآن»، للجصاص (٢/ ١٧٧-١٧٨)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥٧)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٧)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٢٣٦).

(١) سقط من ك، س. (٢) سقط من م. (٣) في ع: «أحدهم».

(٤) سقط من ع.

(٥) قال الجوهري في «الصحاح» (٢/ ٥٤٧): «كل من امتنع من شيء، فلم يقدر عليه، فقد حَصِرَ عنه».

وينظر: «تحرير ألفاظ التنبيه»، للنووي (١٦١)، و«لسان العرب» (٤/ ١٩٣)، «القاموس المحيط» (٤٨٠).

(٦) سقط من س.

والضرب: إيقاع شيء على شيء، وله استعمالات عدة، منها: ضَرَب في التجارة، وفي سبيل الله غازيًا =

تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمّل: الآية ٢٠] وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النّساء: الآية ١٠١].

الرابعةُ: شدةُ تعففِهم، وهو حسنُ صبرِهم، وإظهارُهم الغِنَى [حتى][١] يحسبَهم الجاهلُ [بحالِهم][٢] أغنياءَ من تعففِهم، وكتمانِهم حاجتَهم، وعدمِ تعرضِهم.

الخامسةُ: أنهم يُعرفون بِسِيمَاهُم، وهي العلامةُ الدالةُ على حالتِهم التي وصفَهُم اللهُ بها، وهذا لا يُنافي حسبانَ الجاهلِ أنهم أغنياءُ؛ لأن الجاهلَ له ظاهرُ الأمرِ، والعارفُ هو: المتوسمُ المتفرسُ الذي يعرفُ الناسَ بِسِيمَاهُم، [ولهذا وصفَ الجاهلُ بكونِهِ يظنُّهم أغنياءَ، وقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣]][٣]، ولم يقلْ: يُعرفون بسيماهم؛ فالمتوسِّمُون خواصُّ المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر: الآية ٧٥].

السادسةُ: تركُهُم مسألةَ الناسِ؛ فلا يسألونَهُم شيئًا[٤]. والإلحافُ: هو الإلحاحُ[٥]. والنفيُ متسلِّطٌ عليهما معًا، أي: لا يسألُون، ولا يُلحِفُون، فليس يقعُ منهم سؤالٌ يكونُ بسببِهِ إلحافٌ، وهذا كقولِهِ:

على لاَحِبٍ[٦] لا يُهْتَدى بِمَنارِهِ[٧] ....

= وفي المال، وهي المضاربة، وفي الإسراع في السير، وفي الأرض مسافرًا لطلب الرزق، والأخير هو معنى الآية، كما ذكر المؤلف. ينظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٦١١)، و«الصحاح» للجوهري (١/ ١٥٠)، و«المفردات» للأصفهاني (٢٩٤)، و«لسان العرب» لابن منظور (١/ ٥٤٤)، و«بصائر ذوي التمييز»، للفيروزآبادي (٣/ ٤٦٥).

(١) سقط من ك، س. (٢) سقط من ك. (٣) سقط من م، ك، س.

(٤) انظر هذه الصفات مفصلة عند الرازي في «التفسير الكبير» (٧/ ٧٠-٧١).

(٥) الإلحاف: شدة الإلحاح في المسألة، واشتقاق الإلحاف من اللحاف، وسمي بذلك؛ لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة، كاشتمال اللحاف من التغطية، فهذا السائل يعم الناس بسؤاله، فيلحفهم ذلك. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١١٧٩)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٢٣٧)، و«لسان العرب» (٩/ ٣١٤)، و«القاموس المحيط» (٣٠٦).

(٦) اللَّحْبُ، واللاحِبُ: الطريق الواضح المُوَطَّأ، الذي لا ينقطع. ينظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ١٩٣)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٤٨١)، و«لسان العرب» (١/ ٧٣٧).

(٧) في «لسان العرب» (١٥/ ٣٢١) «لمناره». =

أي: ليس[١] فيه منارٌ، فيهتدى به. وفيه كالتنبيهِ على أن المذمومَ من السؤالِ [هو سؤالُ][٢] الإلحافِ[٣]، فأما السؤالُ بقدرِ الضرورةِ من غيرِ إلحافٍ فالأفضلُ تركُهُ، ولا يحرمُ. فهذهِ ستُّ صفاتٍ للمستحقين الصدقةَ[٤]، فألغاها أكثرُ الناسِ، ولحظُوا[٥] منها ظاهرَ الفقرِ وزيَّهُ من غيرِ حقيقتِهِ، وأما سائرُ الصفاتِ المذكورةِ فعزيزٌ أهلُها، ومن يعرفُهم أعزُّ، واللهُ يختصُّ بتوفيقِهِ من يشاءُ، فهؤلاءِ هم المحسنُونَ في أموالِهم.

القسمُ الثاني: الظالمون

القسمُ الثاني: الظالمون، وهم ضدُّ هؤلاءِ، [وهم][٦]: الذين يذبَحُون المحتاجَ المضطرَّ، فإذا دعتْهُ الحاجةُ إليهم لم يُنَفِّسُوا كربتَه إلا[٧] بزيادةٍ على ما يبذِلُونه له، وهم

= وهذا صدر بيت لامرئ القيس وعجزه:

.... **إذا سَافه العَوْدُ الدِّيَافيُّ جَرجَرا**

سافَهَ: شَمَّه، والعَود: الجمل المسن، الديافي نسبة إلى دِياف من قرى الشام. ينظر: «معجم البلدان» للحموي (٢/ ٤٩٤) ويروى: النباطي، وهو: الضخم الجسيم، جرجر: رغا، وإنما يرغو لمعرفته بطول الطريق. ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٤٨١)، وكتاب «المعاني الكبير»، له (١/ ٢٩٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٥٧)، و«الخصائص»، لابن جني (٣/ ٣٢١)، و«المحرر الوجيز»، لابن عطية (٢/ ٤٧٤).

(١) في س: «فليس». (٢) سقط من س.

(٣) وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣]:

فمنهم من يقول: هم لا يسألون الناس شيئًا على وجه الصدقة إلحافًا أو غير إلحاف؛ وذلك لأن التعفف من صفاتهم، وأنهم إنما كانوا يعرفون بسيماهم، فلو كانت المسألة من شأنهم؛ لم تكن صفتهم التعفف، ولأن الله ﷻ قال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣] ولو كانت المسألة من شأنهم؛ لما كانت إلى معرفتهم بالعلامة حاجة. فمعنى الآية عندهم: ليس لهم سؤال، فيقع فيه إلحاف. وبه قال ابن جرير الطبري والزجاج، وجمهور المفسرين، وقال بعضهم:

المراد نفي الإلحاف، أي: أنهم يسألون غير ملحفين، قالوا: وهذا هو المتبادر للفهم والسابق إليه من هذه الآية، وهو الأكثر في لسان العرب؛ إذ نفي حكم عن محكوم عليه بقيد ينصرف النفي لذلك القيد، فعلى هذا يكون المعنى: أنهم لا يسألون، لكن إن ألجأتهم ضرورة، وأصابهم ضيق؛ سألوا غير مُلِحِّين بسؤالهم وإنما بتلطف وتستر، وفي هذا إشارة وتنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافًا. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٨١)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٩٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٣٥٧)، و«أحكام القرآن»، للجصاص (٢/ ١٨١)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٥٩)، و«الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٩٨)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» لابن أبي الحسن النيسابوري (١/ ١٥٤).

(٤) في م: «للصدقة». (٥) في م: «وتحطوا». (٦) سقط من ع.

(٧) في س: «لا».

أهلُ الربا، فذَكَّرَهُم تعالى بعد هذا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٨] فصَدَّر الآيةَ بالأمرِ بتقواه المضادةِ للرِّبَا، وأمَرَ بتركِ ما بَقِيَ من الرِّبَا بعد نزولِ الآيةِ، وعفَا لهم عمَّا قبضُوه به قبلَ التحريمِ، ولولا ذلك لردُّوَا ما قبضُوه به قبلَ التحريمِ، وعَلَّق هذا الامتثالَ[1] على وجودِ الإيمانِ منهم، والمعلقُ على الشرطِ[2] مُنتفٍ عند انتفائِهِ، ثم أكَّدَ عليهم التحريمَ بأغلظِ شيءٍ وأشدِّهِ وهي محاربةُ المُرَابِي للهِ ورسولِهِ، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩] ففي ضِمْنِ هذا الوعيدِ أنَّ المُرَابِي محاربٌ للهِ ورسولِهِ، قد آذنهُ اللهُ بحربِهِ، ولم يَجِئْ هذا الوعيدُ في كبيرةٍ سِوَى الرِّبا، وقطعِ الطريقِ، والسعيِ في الأرضِ بالفسادِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مفسدٌ في الأرضِ؛ قاطعُ الطريقِ على الناسِ، هذا بقهرِه لهم، وتسلطِهِ عليهم، وهذا بامتناعِهِ من تفريجِ كرباتِهم إلا بتحميلِهم[3] كرباتٍ أشدَّ مِنْهَا. فأخبرَ عن قُطَّاعِ الطريقِ بأنهم يُحَاربون اللهَ ورسولَه[4]، وآذن هؤلاءِ إن لم يتركوا الرِّبَا بحربِهِ وحربِ رسولِهِ.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩][5] يعني: إن تركتُم

---

(١) في م: «الامتنان».

(٢) في ك، س: «شرط».

الشرط في اللغة: هو العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمَّد: الآية ١٨] أي: علاماتها. وفي الشرع: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود، ولا عدم لذاته، ومثَّلوا له بالحول الذي هو شرط لوجوب الزكاة، فعدمه يستلزم عدم وجوبها، فلا تجب إلا بعد تمام الحول.

وهو منقسم أربعة أقسام: **الأول**: عقلي، كالحياة للعلم؛ فإنه إذا انتفت الحياة انتفى العلم، ولا يلزم من وجودها وجوده. **الثاني**: شرعي، وهو على نوعين: شرط وجوب، كغروب الشمس لصلاة المغرب، وشرط صحة كالطهارة للصلاة. **الثالث**: لغوي، كقول القائل: عبدي حرٌّ إن قمت. **الرابع**: عادي، وهو كالغذاء للحيوان. ينظر في هذا: «روضة الناظر» لابن قدامة (٥٧)، و«القواعد والفوائد الأصولية»، لابن اللحام (٩٤) و«إرشاد الفحول»، للشوكاني (٢٥)، و«المدخل» لابن بدران (١٦٢).

(٣) في م: «بتحملها».

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [المَائدة: الآية ٣٣].

(٥) في س: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩].

الربا، وتبتم إلى اللهِ منه، وقد [عاقدتُم عليه، فإنما لكم رُؤُوسُ][١] أموالِكم: لا تَزْدَادُون عليها[٢] فَتَظْلِمُون الآخذَ، ولا تُنْقَصُون منها، فيظلمَكُم مَنْ أَخَذَهَا[٣]، فإنْ كان هذا القابضُ معسرًا؛ فالواجبُ إنظارُهُ إلى ميسرةٍ، وإن تصدَّقْتُم عليه، وأبرأتُموه؛ فهو أفضلُ لكم وخيرٌ لكم، فإن أبتْ نفوسُكُم، وشَّحتْ بالعدلِ الواجبِ، أو الفضلِ المندوبِ؛ فذَكِّروها يومًا ترجعونَ [فيه][٤] إلى اللهِ، وتَلْقَون ربَّكُم، فيُوَفِّيكُم جزاءَ أعمالِكم أحوجَ ما أنتم إليهِ.

فذكرَ سبحانه المحسنَ، وهو المتصدقُ، ثم عقبه بالظالمِ، وهو المُرَابي.

القسمُ الثالثُ: العادلُ

ثم ذكر العادلَ في آيةِ التداينِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ الآية [البَقَرَة: الآية ٢٨٢][٥]، ولولا أن هذهِ الآيةَ تستدعي سِفْرًا وحدَها[٦]؛ لذكرتُ بعضَ تفسيرِها. والغرضُ إنما هو التنبيهُ والإشارةُ.

وقد ذكر أيضًا العادلَ، وهو: آخذُ رأسِ مالِهِ من غريمِهِ لا بزيادةٍ ولا نقصانٍ.

ثم ختم السورةَ بهذهِ الخاتمةِ العظيمةِ التي [هي][٧] مِنْ كنزٍ [مِنْ][٨] تحتِ عرشِهِ[٩]، والشيطانُ يفرُّ مِنَ البيتِ الذي[١٠] تُقْرأُ فيه[١١]، وفيها من العلومِ والمعارفِ

(١) لم يتضح في ك.

(٢) قال قتادة في قوله: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩] «المال الذي لهم على ظهور الرجال جعل لهم رؤوس أموالهم حين نزلت هذه الآية، وأما الربح والفضل فليس لهم، ولا ينبغي لهم أن يأخذوا منه شيئًا».

وبه قال الضحاك والسدي وغيرهما. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/١٠٨-١٠٩).

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (٣/١٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩] أنه قال: «لا تظلِمُون، فتَربُون، ولا تُظْلَمون، فتُنقصون».

(٤) سقط من ك. (٥) في ك، س: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢].

(٦) في م: «واحدًا». (٧) سقط من س. (٨) سقط من ك، س.

(٩) روى الإمام أحمد (٥/ ٣٨٣) عن حذيفة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «**فضلت هذه الأمة على سائر الأمم بثلاث: جعلت لها الأرض طهورًا ومسجدًا.....وأعطيت هذه الآيات من آخر البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي**» ورواه مسلم، ح (٥٢٢).

(١٠) في م: «التي».

(١١) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان**» رواه الترمذي =

وقواعدِ الإسلامِ، وأصولِ الإيمانِ، ومقاماتِ الإحسانِ - ما يستدعي بيانُه كتابًا مفردًا.

والمقصودُ [الكلامُ][(١)] على طبقاتِ الخلائقِ في الدارِ الآخرةِ. فلنعدْ[(٢)] إلى المقصودِ؛ فإنَّ هذا من سعيِ القلمِ، ولعله أهمُّ مِمَّا نحن بصددِه.

فهذهِ الطبقاتُ الأربعةُ من طبقاتِ الأمةِ هم أهلُ الإحسانِ، والنفعِ المتعدي، وهم العلماءُ وأئمةُ العدلِ، وأهلُ الجهادِ، وأهلُ الصدقةِ وبذلِ الأموالِ في مرضاةِ اللهِ، فهؤلاءِ ملوكُ الآخرةِ، وصحائفُ حسناتِهم متزايدةٌ[(٣)]، تُمْلَى فيها الحسناتُ، وهم في بطونِ الأرضِ ما دامتْ آثارُهم في الدنيا، فيا لها من نعمةٍ ما أجلَّها! وكرامةٍ ما أعظَمَها!، يختصُّ اللهُ بها من يشاءُ من عبادِهِ.

الطبقةُ الثامنةُ: أصحابُ الخيرِ القاصرِ على النفسِ

الطبقةُ الثامنةُ: طبقةُ مَنْ فتحَ اللهُ [له][(٤)] بابًا من أبوابِ الخيرِ القاصرِ على نفسِهِ كالصلاةِ، والحجِّ والعمرةِ، وقراءةِ القرآنِ، والصومِ، والاعتكافِ، والذكرِ، ونحوِها، مضافًا إلى أداءِ فرائضِ اللهِ عليهِ، فهو جاهدٌ في تكثيرِ حسناتِهِ، ومَلْءِ صحيفتِهِ [بها][(٥)]، وإذا عَمِل خطيئةً تابَ إلى اللهِ منها، فهذا على خيرٍ عظيمٍ، وله ثوابُ أمثالِهِ من عُمَّالِ[(٦)] الآخرةِ، ولكن ليس له إلا عملُه، فإذا مات طُوِيتْ صحيفتُه [بموتِهِ][(٧)]، فهذهِ طبقةُ أهلِ الربحِ والحظْوَةِ[(٨)] أيضًا عند اللهِ.

الطبقةُ التاسعةُ: المقتصرُ على الفرائضِ فقط

الطبقةُ التاسعةُ: طبقةُ أهلِ النجاةِ، وهي طبقةُ مَنْ يُؤدِّي فرائضَ اللهِ، ويتركُ[(٩)] محارمَهُ[(١٠)]، مقتصرًا على ذلك، لا يزيدُ عليه، ولا ينقصُ منه، فلا يتعدَّى إلى ما حَرَّمَ اللهُ عليه، ولا يزيدُ على ما فرض عليه، [و][(١١)]هذا من المُفْلِحين بضمانِ رسولِ اللهِ ﷺ لِمَنْ أخبرَه بشرائعِ الإسلامِ، فقال: «واللهِ لا أزيدُ على هذا ولا أنقصُ منه فقال: **«أفلحَ إن صدقَ»**[(١٢)].

= ح (٢٨٨٢)، وأحمد (٤/ ٢٧٤). وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤)، ح (٢٣١١).

(١) سقط من ك. (٢) في ع: «فلنعدل»، وفي ك، س: «ولنعد».

(٣) في م: «وصحائفهم متزايدة». (٤) سقط من ع. (٥) سقط من م.

(٦) في ك، س «أعمال». (٧) سقط من ك، س.

(٨) الحظوة: هي المكانة والمنزلة الرفيعة للرجل من ذي سلطان ونحوه. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٨٥)، و«القاموس المحيط» (١٦٤٥).

(٩) في ع: «وترك». (١٠) في ك، س: «محارم الله». (١١) سقط من ك.

(١٢) رواه البخاري، ح (٤٦)، وح (١٧٩٢)، وح (٢٥٣٢)، و ح (٦٥٥٦)، ومسلم، ح (١١)، وأبو داود، =

وأصحابُ هذه الطبقةِ مضمونٌ لهم على اللهِ تكفيرُ سيئاتِهم إذا أَدُّوا فرائضَهُ واجتَنَبُوا كبائرَ ما نَهاهُم عنه، قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ۝٣١﴾ [النّساء: الآية ٣١] وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**رمضانُ**[١] **إلى رمضانَ، والجمعةُ إلى الجمعةِ**[٢] **مكفراتٌ لما بينهن ما لم تُغشَ كبيرةٌ**»[٣] فإن غَشِيَ أهلُ هذهِ الطبقةِ كبيرةً، وتابوا منها توبةً نصوحًا؛ لم يخرجوا من طبقتِهم، وكانوا[٤] بمنزلةِ مَنْ لا ذنبَ له[٥].

تكفيرُ الصغائرِ يكونُ بشيئين

فتكفيرُ الصغائرِ يقعُ بشيئينِ: **أحدُهما**: الحسناتُ الماحيةُ. **و[الثاني]**[٦]: اجتنابُ الكبائرِ. وقد نصَّ عليهما سبحانه[٧] في كتابِهِ، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هُود: الآية ١١٤] وقال: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النّساء: الآية ٣١][٨].

العاشرةُ: قومٌ غَشَوا الكبائرَ

الطبقةُ العاشرةُ: طبقةُ قومٍ أسرفوا على أنفسِهم، وغشَوا كبائرَ ما نهى اللهُ عنه، لكن[٩] رُزِقُوا التوبةَ النصوحَ قبلَ الموتِ، فماتُوا على توبةٍ صحيحةٍ[١٠]، فهؤلاءِ ناجُون من عذابِ اللهِ، إما قطعًا عند قومٍ، وإما ظنًّا ورجاءً[١١] عند آخرين، وهم مَوْكُولُون إلى المشيئةِ[١٢]، ولكنْ نصوصُ القرآنِ والسنةِ تدلُّ على نجاتِهم وقبولِ توبتِهم[١٣]، وهو وعدٌ وعدهُمُ اللهُ إياه، واللهُ لا يخلفُ الميعادَ.

= ح (٣٩١)، والنسائي، ح (٢٠٩٠)، و ح (٥٠٢٨)، وأحمد (١/ ١٦٢)، عن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه.

(١) في ك، س: «**الصلوات الخمس ورمضان....**». (٢) في ك، س: «فكانوا».

(٣) رواه مسلم، ح (٢٣٣)، وأحمد (٢/ ٤٠٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. (٤) في ك، س: «فكانوا».

(٥) في ك: «لهم». (٦) سقط من ع.

(٧) في م، س: «نص سبحانه عليها». (٨) في م زيادة قوله: ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾.

(٩) في ك، س: «ولكن». (١٠) في م: «نصوحة». (١١) في ك: «رجاءً وظنًّا».

(١٢) قال أبو الحسن الأشعري: «واختلفت المرجئة في الموازنة على مقالتين: فقال قائلون منهم: الإيمان يُحبط عقاب الفسق؛ لأنه أَوْزَنُ منه، وأن الله لا يعذب موحدًا. وهذا قول مقاتل بن سليمان.

وقال قائلون منهم بتجويز عذاب الموحدين، وأن الله يوازن حسناتهم بسيئاتهم، فإن رجحت حسناتهم؛ أدخلهم الجنة، وإن رجحت سيئاتهم؛ كان له أن يعذبهم، وله أن يتفضل عليهم، وإن لم ترجح حسناتهم على سيئاتهم، ولا رجحت سيئاتهم؛ تفضل عليهم بالجنة». «مقالات الإسلاميين» لأبي حسن الأشعري (١٥١)، وينظر: «اعتقادات فرق المسلمين»، للرازي (٧٠-٧١).

(١٣) في م: «توبته».

فإن قيل: فما الفرقُ بين أهلِ هذهِ الطبقةِ والتي قبلها فإن اللهَ إذا كَفَّرَ عنهم سيئاتِهم وأثبتَ لهم بكلِّ سيئةٍ حسنةً، كانوا كمن قبلَهم أو أرجحَ[١]؟ قيل: قد تقدَّم الكلامُ على هذه المسألةِ بما فيه كفايةٌ، فعليك بمعاودتِهِ هناك، وكيف يستوي عند اللهِ مَنْ أنفقَ عمرَه في طاعتِهِ، ولم يغشَ كبيرةً، ومَنْ لم يدع كبيرةً إلا ارتكبَها، وفرَّط في أوامرِه، ثم تاب؟ فهذا غايتُه أن تُمْحَى سيئاتُه، ويكونَ لا له ولا عليهِ. وأما أن يكونَ هو ومن قبله سواءً أو أرجحَ منه فكَلَّا.

الطبقةُ الحاديةِ عشرةَ: المُخْلِّطُون المقاصَّةُ بين الحسناتِ والسيئاتِ

الطبقةُ الحادية عشرة: طبقةُ أقوامٍ خلطوا عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا، فعملوا حسناتٍ وكبائرَ، ولقوا اللهَ مُصِرِّين عليها غيرَ تائبين منها، لكنْ حسناتُهم أغلبُ من سيئاتِهم، فإذا وزنتْ بها رجحتْ كفةُ الحسناتِ، فهؤلاءِ أيضًا ناجُون فائزون، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨-٩]، قال حذيفةُ[٢] وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ[٣] وغيرُهما من الصحابةِ: يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثةَ أصنافٍ: فمن رجحتْ حسناتُهُ على سيئاتِهِ بواحدةٍ؛ دخل الجنةَ، ومن رجحتْ سيئاتُه على حسناتِهِ بواحدةٍ؛ دخل النارَ، ومن استوتْ حسناتُه وسيئاتُه؛ فهو من أهلِ الأعرافِ»[٤]. وهذهِ الموازنةُ تكونُ بعدَ القصاصِ واستيفاءِ المظلومين حقوقَهم من حسناتِهِ، فإذا بقي [له][٥] شيءٌ منها وُزِنَ هو وسيئاتُه. لكن[٦] هنا[٧] مسألةٌ وهي: إذا وزنتِ السيئاتُ

---

(١) في م: «وأرجح». (٢) تقدمت ترجمته. (٣) تقدمت ترجمته.

(٤) الأثر الأول عن حذيفة رضي الله عنه. رواه عنه ابن المبارك، في «الزهد» (٤٨٣)، ح (١٣٧٠)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ١١٤)، ح (٩٥٥، ٩٥٦)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٩٠)، كلهم من طريق الشعبي - عامر بن شراحيل - عن حذيفة، غير أن الشعبي لم يسمع من حذيفة. ينظر: «تهذيب الكمال»، للمزي (١٤/ ٢٨)، و«لسان الميزان» لابن حجر (٧/ ٥٠٩)، فهم لم يذكروا له سماعًا من حذيفة، لكن جاء في «مستدرك» الحاكم (٢/ ٣٥٠)، ح (٣٢٤٧) من طريق الشعبي عن صلة بن زفر، عن حذيفة، فذكره. والأثر الثاني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٣-١٢٤) بنحوه والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٩٠-١٩١)، من طريق أبي بكر الهذلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود، وابن جبير لم يسمع من ابن مسعود، ولم يذكروا ذلك. ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٠/ ٣٥٨) و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٤/ ١١). إذ لم يولد إلا بعد وفاة ابن مسعود بثلاث عشرة سنة، والحديث فيه: أبو بكر الهذلي سُلْمَى بن عبد الله، وقد ضعفه أحمد، وقال ابن معين: «لم يكن ثقة»، وقال الحافظ: «متروك»، وسيأتي الكلام عليه (ص/ ٤١٠).

(٥) سقط من م، ك، س. (٦) في ك، س: «ولكن». (٧) في م: «وهنا».

بالحسناتِ، فرجحتِ الحسناتُ هل يُلغى المرجوحُ جملةً، ويصيرُ الأثرُ للراجحِ، فيثابَ على حسناتِهِ كلِّها، أو يسقطَ من الحسناتِ ما قابلها من السيئاتِ[١] المرجوحةِ، ويبقى التأثيرُ للرجحانِ، فيثابَ عليه وحدَه؟ فيه قولانِ: هذا عند مَنْ يقولُ بالموازنةِ والحكمةِ، وأما مَنْ ينفي ذلك فلا عبرةَ عنده بهذا، وإنما هو موكولٌ إلى محضِ المشيئةِ. وعلى القولِ الأولِ فيذهبُ أثرُ السيئاتِ جملةً بالحسناتِ الراجحةِ، وعلى القولِ الثاني يكونُ تأثيرُها في نقصانِ ثوابِهِ لا في حصولِ العقابِ له، ويترجحُ هذا القولُ الثاني بأن السيئاتِ لو لم تُحْبِطْ ما قابلَها[٢] من الحسناتِ، وكان العملُ والتأثيرُ للحسناتِ كلِّها؛ لم يكنْ فرقٌ بين وجودِها وعدمِها، ولكان لا فرقَ بين المحسنِ الذي محضُ عملِهِ حسناتٌ، وبين مَنْ خَلَطَ عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا[٣].

وقد يجابُ عن هذا بأنها أثَّرتْ في نقصانِ ثوابِهِ ولا بدَّ؛ فإنه لو اشتغل في زمنِ إيقاعِها بالحسناتِ؛ لكان أرفعَ لدرجتِهِ، وأعظمَ لثوابِهِ، وإذا كان كذلك فقد ترجَّحَ القولُ الأولُ بأن الحسناتِ لمَّا غلبتِ السيئاتِ ضَعُفَ تأثيرُ المغلوبِ المرجوحِ، وصار الحكمُ للغالبِ دونَه؛ لاستهلاكِهِ في جنبِهِ كما يُسْتَهْلَكُ يسيرُ النجاسةِ في الماءِ الكثيرِ، والماءُ إذا بلغَ قُلَّتَيْنِ لم يحملِ الخبثَ[٤]. واللهُ أعلمُ.

---

(١) في ع: «الحسنات». (٢) في م: «قبلها».

(٣) قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «تقع المقاصة بين الحسنات والسيئات، ثم تَسقط الحسناتُ المقابلة للسيئات، وينظر إلى ما يفضُل منها بعد المقاصَّةِ، وهذا يوافق قول من قال بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحدة أُثيب بتلك الحسنة خاصة، وتَسقط باقي حسناته في مقابلة سيئاته، خلافًا لمن قال: يثاب بالجميع، وتسقط سيئاته كأنها لم تكن، وهذا في الكبائر، أما الصغائر فإنه قد تُمحى بالأعمال الصالحة مع بقاء ثوابها، كما قال ﷺ: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة»** فأثبتَ لهذه الأعمال تكفير الخطايا ورفع الدرجات، وكذلك قوله ﷺ: **«من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مائة مرة، كتب الله له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له عدل عشر رقاب»** فهذا يدل على أن الذِّكْرَ يمحو السيئات، ويبقى ثوابه لعامله مضاعفًا» «جامع العلوم والحكم» (ص/ ١٧٥).

(٤) يشير إلى حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الماء وما ينوبه من الدواب والسباع، فقال ﷺ: **«إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث»**. رواه أبو داود، ح (٦٣)، والترمذي، ح (٦٧)، والنسائي، ح (٥٢)، وفي «السنن الكبرى» (١/ ٧٤)، ح (٥٠)، وابن أبي شيبة (١/ ١٣٣)، والطحاوي في «شرح =

مَنْ تساوت حسناتُهم وسيئاتُهم

الطبقةُ الثانيةَ عشرة[(١)]: قومٌ تساوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم، فتقابل أثراهما فتقاوَمَا، فمنعتهم حسناتُهم المساويةُ من دخولِ النارِ، وسيئاتُهم المساويةُ من دخولِ الجنةِ. فهؤلاءِ هم أهلُ الأعرافِ، لم يفضلْ لأحدِهم حسنةٌ يستحقُّ[(٢)] بها الرحمةَ من ربِّهِ، ولم يفضل عليه سيئةٌ يستحقُّ بها العذابَ.

وقد[(٣)] وصفَ اللهُ سبحانه أهلَ هذهِ الطبقةِ في سورةِ الأعرافِ - بعد أن ذكر دخولَ أهلِ النارِ النارَ، وتلاعنَهم فيها، ومخاطبةَ أتباعِهم لرؤسائِهم، وردَّهم عليهم، ثم مناداةَ أهلِ الجنةِ أهلَ النارِ، فقال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٤٦، ٤٧].

المرادُ بأهلِ الأعرافِ والأقوالُ فيهم

فقولُه تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] أي: بين أهلِ الجنةِ والنارِ[(٤)] حجابٌ، قيل: هو السورُ الذي ضُرِبَ[(٥)] بينهم له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ، وظاهرُه من قبلِهِ العذابُ[(٦)]، باطنُه الذي يلي المؤمنين فيهِ الرحمةُ، وظاهرُه الذي يلي الكفارَ من جهتِهِ العذابُ.

والأعرافُ: جمع عُرْفٍ، وهو المكانُ المرتفعُ[(٧)]، وهو: سورٌ عالٍ بين الجنةِ والنارِ[(٨)] قيل[(٩)]: هو هذا السورُ الذي يُضربُ بينهم[(١٠)].

= معاني الآثار» (١/ ١٥)، والدارقطني في «سننه» (١/ ١٤)، (١٥)، (١٨)، (٢١)، ح (٢)، (٣)، (١٠) (١٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٢٦٠). وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٥)، ح (٥٦) و (٥٨). وقد سبق تفصيل المؤلف رحمه الله مسألة تبديل السيئات إلى حسنات، وبين الأقوال فيها وأدلة كل قول.

(١) في الأصل: «الثانية عشر» والمثبت من م. (٢) في م: «فيستحق».

(٣) في م: «فقد». (٤) في م: «وأهل النار». (٥) في م: «يُضرب».

(٦) قاله مجاهد والسدي. ينظر: «تفسير مجاهد» (١/ ٢٣٧)، و«تفسير الطبري» (٨/ ١٨٨).

(٧) قال أبو عبيدة: «كل مرتفع من الأرض عند العرب: أعراف، قال:

كل كِنازٍ لَحْمُه نِيافِ ... كالعَلَمِ المُوفِي على الأعرافِ

«مجاز القرآن» (١/ ٢١٥). وينظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١١٥٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٤١).

(٨) روي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٨٩-١٩٠).

(٩) في م، ك: «وقيل».

(١٠) روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] قال: «يعني بالأعراف: السور الذي ذكر الله في القرآن، وهو بين الجنة والنار» «تفسير الطبري» (٨/ ١٨٩)، =

وقيل: جبالٌ بين الجنةِ والنارِ عليها أهلُ الأعرافِ[١].

قال حذيفةُ وعبدُ اللهِ بنُ عباسٍ: «هم قومٌ استوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم، فقصرتْ بهم سيئاتُهم عن الجنةِ، وتجاوزتْ بهم حسناتُهم عن النارِ، فوقفوا هناك حتى يقضِيَ اللهُ فيهم ما يشاءُ، ثم يدخلُهم الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ»[٢]. قال عبدُ اللهِ بنُ المباركِ[٣]: أخبرنا أبو بكرٍ الهذليُّ[٤]، قال: كان سعيدُ بنُ جبيرٍ[٥] يحدثُ عن ابنِ مسعودٍ، قال: «يحاسبُ الناسُ يومَ القيامةِ؛ فمن كانتْ حسناتُه أكثرَ من سيئاتِهِ بواحدةٍ دخل الجنةَ؛ ومن كانتْ سيئاتُه أكثرَ من حسناتِهِ بواحدةٍ دخل النارَ، ثم قرأ قولَه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ - ٩]. ثم قال: إن الميزانَ يَخِفُّ بمثقالِ[٦] حبةٍ، أو يرجحُ، قال: ومن استوتْ حسناتُهُ وسيئاتُه كان من أصحابِ الأعرافِ، فوقفوا على الصراطِ، ثم عرفوا أهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ، فإذا نظروا إلى الجنةِ نادوا[٧]: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]، وإذا صرفوا أبصارَهم إلى أصحابِ النارِ قالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٧] فأما أصحابُ الحسناتِ فإنهم يُعطون نورًا يَمشون به بين[٨] أيديهم وبأيمانِهم، ويُعطى كلُّ عبدٍ يومئذٍ نورًا، فإذا أتوا على الصراطِ سلب اللهُ نورَ كلِّ منافقٍ ومنافقةٍ، فلما رأى أهلُ الجنةِ ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: الآية ٨] وأما أصحابُ الأعرافِ فإنَّ النورَ لم ينزعْ من أيديهم، ومنعتْهُم سيئاتُهم أن يمضُوا، وبقِيَ في قلوبِهم الطمعُ؛ إذ لم يُنزعِ النورُ من أيدِيهم، يقولُ[٩] اللهُ

= و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٠٤).

(١) روي عن أبي هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم، ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٨٩)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٠٤).

(٢) ينظر: «الزهد»، لابن المبارك (ص/ ٤٨٣)، و«تفسير الطبري» (٨/ ١٨٩)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٣١-٢٣٢)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢١١)، وقد سبق تخريجه.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) سُلْمَى بن عبد الله بن سلمى البصري، وقيل: اسمه: روح، إخباري، علامة، لَيِّن الحديث، روى عن الحسن، وعكرمة، وجماعة، وروى عنه ابن المبارك وغيره. ضعفه أحمد، وقال ابن معين: لم يكن بثقة. ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٣٣/ ١٥٩)، و«ميزان الاعتدال» (٧/ ٣٣٤)، و«تقريب التهذيب» (٦٢٥).

(٥) سبقت ترجمته. (٦) في م: «مثقال». (٧) في م: «قالوا».

(٨) في س: «يمشون به من بين». (٩) في ك، س: «فيقول الله تعالى».

تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] فكان الطمعُ للنورِ الذي في أيدِيهم، ثم أُدخلوا الجنةَ، وكانوا آخرَ أهلِ الجنةِ دخولًا»[١] يريدُ: آخرَ أهلِ الجنةِ دخولًا ممن لم يدخلِ النارَ.

وقيل: «هم قومٌ خرجوا في الغزوِ بغيرِ إذنِ آبائِهم، فقتلُوا، فأُعتقُوا من النارِ؛ لقتلِهم في سبيلِ اللهِ، وحُبِسُوا عن الجنةِ لمعصيةِ آبائِهم»[٢]، وهذا من جنسِ القولِ الأولِ.

وقيل: «هم قومٌ رضي عنهم أحدُ الأبوين دونَ الآخرِ، يُحْبَسُونَ على الأعرافِ حتى يقضيَ اللهُ بين الناسِ، ثم يدخلُهم الجنةَ»[٣] وهو من جنسِ ما قبلَه، فلا تناقضَ بينهما.

وقيل: «هم أصحابُ الفترةِ[٤] وأطفالُ المشركين»[٥].

وقيل: «هم أُولو الفضلِ من المؤمنين، عَلَوْا على الأعرافِ، فيَطَّلِعُون على أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ جميعًا»[٦].

وقيل: «هم ملائكةٌ[٧] لا من بني آدمَ»[٨].

والثابتُ عن الصحابةِ هو القولُ الأولُ، وقد رويتْ فيه آثارٌ كثيرةٌ مرفوعةٌ لا تكادُ تثبتُ أسانيدُها. وآثارُ الصحابةِ في ذلك المعتمدُ.

وقد اختلفَ في تفسيرِ الصحابي: هل له حكمُ المرفوعِ أو الموقوفِ؟ على قولين:

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص/١٢٣-١٢٤)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٩٠-١٩١)، وقد تقدم.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٩٢)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٦٢)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢١٢)، قاله شرحبيل بن سعد.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٦٢-١٦٣)، وقد روي عن مجاهد.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٩٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٦)، قاله عبد العزيز الكناني.

(٥) ينظر: «تفسير النسفي» (٢/ ١٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣)، قاله الحسن البصري.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٩٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٦).
قاله الحسن ومجاهد، وقال النحاس في «إعراب القرآن» (١/ ٦١٣-٦١٤): «ومن أحسن ما قيل فيه: أن أصحاب الأعراف عدول القيامة، وهم الشهداء من كل أمة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم».

(٧) في ك، س: «الملائكة».

(٨) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٩٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٦)، و«القرطبي» (٧/ ٢١٢). قاله أبو مجلز.

الأولُ: اختيارُ أبي عبدِ اللهِ[١] الحاكمِ[٢]، والثاني: هو الصوابُ[٣]، ولا نُقَوِّل رسولَ اللهِ ﷺ ما لم نعلمْ أنه قاله[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] صريحٌ في أنهم من بني آدمَ، ليسوا من الملائكةِ.

وقولُه: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] يعني: يعرفون الفريقين بسيماهم، ﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] أي: نادى أهلُ الأعرافِ أهلَ الجنةِ بالسلامِ.

وقولُه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] الضميرانِ في الجملتين لأصحابِ الأعرافِ؛ لم يدخلوا[٥] الجنةَ بعد، وهم يطمعون في دخولِها.

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي، الطَّهْمانيُّ النيسابوري، الحافظ الكبير إمام المحدثين في عصره، كان عالمًا عارفًا واسع العلم، رحل إلى العراق، وطلب الحديث، وغلب عليه واشتهر به، وسمع من جماعة تقرب ألفي شيخ، وله تصانيف كثيرة منها: «العلل» و«الأماني» و«تراجم الشيوخ» وغيرها. توفي سنة (٤٠٥)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ٤٧٣)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٣٦٤)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٦٢).

(٢) ذكر في «معرفة الموقوفات من الروايات»، تفسير الصحابي، ثم ذكر بسنده إلى جابر بن عبد الله أنه قال: «كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قُبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٣]. ثم قال: «هذا الحديث وأشباهه مسندة عن آخرها، وليست بموقوفة؛ فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا، فإنه حديث مسند» «معرفة علوم الحديث»، (ص/ ٢٠)، و«المستدرك» (٢/ ٣٧٤).

(٣) الذي عليه عمل جمهور أهل الحديث في هذه المسألة: أن تفسير الصحابي إن كان مما لا مجال فيه للاجتهاد، ولا هو مستنبط من لغة العرب، فله حكم الرفع؛ كتفسير يتعلق بسبب نزول آية، أو إخبار عن الأمور الماضية، كبدء الخلق، وقصص الأنبياء، أو عن الأمور الآتية كالملاحم، والفتن، والبعث، وصفة الجنة والنار، ونحوها، مما لا مجال للاجتهاد فيها فيحكم برفعه إلا إذا كان المفسرُ من الصحابة ممن عرف بالنظر في الإسرائيليات، كَمُسْلِمَةِ أهل الكتاب فمعدود في الموقوفات. ينظر: «علوم الحديث» لابن الصلاح (ص/ ٥٠)، و«المنهل الروي» لابن جماعة (ص/ ٤٠)، و«النكت على مقدمة ابن الصلاح» للزركشي (١/ ٤٣٤)، و«الشذا الفياح» لبرهان الدين الأنباسي (١/ ١٤٤) و«المقنع» لابن الملقن (ص/ ١٢٧).

(٤) في ك، س: «قال».

(٥) في س: «يدخلوها».

قال أبو العاليةِ(١): «ما جعل اللهُ ذلك الطمعَ فيهم إلا كرامةً يريدُها بهم»(٢).

وقال الحسنُ(٣): «الذي جعل الطمعَ في قلوبِهم يوصلُهم إلى ما يَطمعون»(٤).

وفي هذا ردٌّ على قولِ من قال: إنهم أفاضلُ المؤمنين، علوا على الأعرافِ [يطالعون](٥) أحوالَ(٦) الفريقين.

فعاد الصوابُ إلى تفسيرِ الصحابةِ، وهم أعلمُ الأمةِ بكتابِ اللهِ ومرادِهِ منه.

ثم قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٤٧] هذا دليلٌ على أنهم(٧) بمكانٍ مرتفعٍ بين الجنةِ والنارِ، فإذا أشرفوا(٨) على أهلِ الجنةِ نادوهم بالسلامِ، وطمعوا في الدخولِ إليها، وإذا أشرفوا على [أهلِ](٩) النارِ سألوا اللهَ ألَّا يجعلَهم معهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٤٨] - يعني: من الكفارِ الذين في(١٠) النارِ - فقالوا لهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٨] يعني: ما نفعكم جمعُكُم، وعشيرتُكم، وتجرؤُكم على [أهلِ](١١) الحقِّ ولا استكبارُكم، وهذا إما نفيٌّ وإما استفهامُ توبيخٍ(١٢)، وهو أبلغُ وأفخمُ، ثمَّ نَظَروا إلى الجنةِ، فَرأوا [من فيها](١٣) من الضعفاءِ الذين كان(١٤) الكفارُ يسترذِلُونهم في الدنيا(١٥)، ويزعمون أن اللهَ لا يختصُّهُم دونَهُم بفضلِهِ، كما لم يختصَّهُم دونهم في

---

(١) أبو العالية: تقدمت ترجمته.

(٢) أورده البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٦٣)، ورواه الطبري عن الحسن (٨/ ١٩٦).

(٣) تقدمت ترجمته. (٤) أورده البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٦٣).

(٥) سقط من م. (٦) في م: «حال». (٧) في ك، س: «أنه».

(٨) يقال: أشرفت عليه، أي: اطلعت عليه من فوق. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١١٣٩)، و«لسان العرب» (٩/ ١٧٣).

(٩) سقط من ك، س. (١٠) في م: «الذين هم في». (١١) سقط من م، ك، س.

(١٢) ينظر في هذا: «تفسير الثعالبي» (٢/ ٢١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٢٣٠)، و«روح المعاني» للآلوسي: ٨/ ١٢٥).

(١٣) سقط من ك، س. (١٤) في ك، س: «كانوا».

(١٥) قال الكلبي: «ينادون وهم على السور: يا وليد بن المغيرة، ويا أبا جهل بن هشام، ويا فلان، ثم ينظرون إلى الجنة، فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم، مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال، وأشباههم، فيقول أصحاب الأعراف للكفار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ . . .﴾ الآية. ينظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣).

الدنيا فيقولُ لهم أهلُ الأعرافِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ [الأعراف: الآية ٤٩] أيُّها المشركون، أن اللهَ تعالى لا ينالُهم برحمةٍ، فها هم في الجنةِ يتمتَّعون، ويتنعَّمون[١]، وفي رياضِها يُحْبَرُون، ثم يقالُ لأهلِ الأعرافِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٩][٢].

وقيل: إنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا عيَّروا الكفارَ، وأخبروهم أنهم لم يغنِ عنهم جموعُهم واستكبارُهم؛ عيَّرهم الكفارُ بتخلفِهم عن الجنةِ، وأقسموا أن اللهَ لا ينالُهم برحمةٍ؛ لِمَا رأوا من تخلفِهم عن الجنةِ، وأنهم يصيرون إلى النارِ، فتقولُ لهم الملائكةُ حينئذٍ: ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٩][٣] والقولانِ قويانِ محْتَملانِ واللهُ أعلمُ.

[فهؤلاءِ الطبقاتُ هم أهلُ الجنةِ الذين لم تمسّهم النارُ][٤].

الطبقةُ الثالثةَ عشرةَ: أهلُ المحنةِ

الطبقةُ الثالثةَ عشرةَ[٥]: طبقةُ أهلِ المحنةِ والبليةِ - نعوذُ باللهِ - وإن كانت آخرتُهم إلى عفوٍ وخيرٍ، وهم قومٌ مسلمون خفَّتْ موازينُهم، ورجحتْ سيئاتُهم على حسناتِهم، فغلبتْها السيئاتُ، فهذهِ الطبقةُ [هي][٦] التي اختلفتْ فيها أقاويلُ الناسِ، وكثُر فيها خوضُهم، وتشعبتْ مذاهبُهم، وتشتَّتَتْ آراؤُهم: فطائفةٌ كفرتْهم، وأوجبتْ لهم الخلودَ في النارِ، [وهذا مذهبُ أكثرِ الخوارجِ[٧]، بل يكفِّرُون مَنْ هو أحسنُ حالًا منهم، وهو

(١) في م: «يتنعمون ويتمتعون».

(٢) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٨/ ١٩٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٤٣)، و«تفسير البغوي»: (٢/ ١٦٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٠٧)، وهو مروي عن ابن عباس، والسدي والكلبي، وغيرهم.

(٣) وهو مروي عن ابن عباس وغيره. ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٩٩)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٧) و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢١٥).

(٤) سقط من س.

(٥) في الأصل: «الثالثة عشر» والمثبت من م.

(٦) سقط من ك، س.

(٧) الخوارجُ: يطلق على الفرقة التي خرجت على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعلى كل من خرج على الإمام الحق، الذي اتفقت الجماعة عليه، سواء أكان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أم كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان. ثم أصبح هذا الاسم علمًا على من خرج على أمير المؤمنين، حيث اعترضوا على قبول التحكيم في حرب صفين. وهم فرق يجمعهم القول بتكفير عثمان، وعلي رضي الله عنهما والتبري منهما. ويقدمون ذلك على كل طاعة. ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك =

مرتكبُ الكبيرةِ الذي لم يتبْ منها، ولوِ استغرقتْها حسناتُهُ.

وطائفةٌ أوجبتْ لهم الخلودَ في النارِ][1]، ولم تطلقْ عليهم اسمَ الكفرِ، بل سمُّوهُم منافقين، وهذا المذهبُ ينسبُ إلى البكريةِ، أتباعِ بكرٍ ابنِ أختِ عبدِ الواحدِ[2].

وطائفةٌ نزَّلتْهم منزلةً بين منزلتي[3] الكفارِ والمؤمنين، فجعلوا أقسامَ الخلقِ ثلاثةً: مؤمنين، وكفارًا، وقسمًا لا مؤمنين ولا كفارًا، بل بينهما، وأوجبتْ لهم[4] الخلودَ في النارِ، وهذا هو الرأيُّ الذي عليه[5] أهلُ الاعتزالِ[6]، وهو أحدُ أصولِهم الخمسةِ التي هي قواعدُ مذهبِهم، وهي:

الأصولُ الخمسةُ عند المعتزلةِ

التوحيدُ: الذي[7] مضمونُه جحدُ صفاتِ الخالقِ ونعوتِ كمالِهِ، والتعطيلُ المحضُ.

والعدلُ: الذي مضمونُهُ نفيُ عمومِ قدرةِ اللهِ، وأنه لا قدرةَ له على أفعالِ الحيواناتِ بل هي خارجةٌ عن ملكِهِ وخلقِهِ وقدرتِهِ، وأنه يريدُ ما لا يكونُ، ويكونُ ما لا يريدُ وأنه[8] لا يقدرُ أن يهديَ ضالًّا، ولا يضلُّ مهتديًا، ولا يجعلُ المصلي مصليًا، والذاكرَ ذاكرًا، والطائفَ طائفًا، تعالى اللهُ عن إفكِهم وشركِهم علوًّا كبيرًا.

والمنزلةُ بين المنزلتين التي مضمونُها إيجابُ الخلودِ في النارِ للمسلمِ المبالغِ في طاعةِ ربِّهِ الذي أفنى عمرَه في عبادتِهِ وطاعتِهِ[9]، ومات مُصِرًّا على كبيرةٍ واحدةٍ، تعالى

= ويكفرون أصحاب الكبائر، ويوجبون لهم الخلود في النار في الآخرة، إلا النجدات قالوا: الفاسق كافر بالنعمة. ينظر: «مقالات الإسلاميين» (١/١٦٧)، و«الفرق بين الفرق» (٧٢)، و«الملل والنحل» (١/ ١١٤).

(١) سقط من م.

(٢) البكرية: هم أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد، كان يوافق النَّظَّام في بعض ما يذهب إليه؛ كدعواه أن الإنسان هو الروح دون الجسد الذي فيه الروح، ويوافق الأشاعرة في إبطال القول بالتولد، وكان يقول: إن الكبائر الواقعة من أهل القبلة نفاق، وغير ذلك. قال عنه ابن حبان: دجال يضع الحديث ثم ساق حديثًا له عن ابن المبارك، ثم قال: وهذا شيء لا يشك عوام أصحاب الحديث أنه موضوع، فكيف البزل - من كمل عقله وتجربته - في هذا الشأن، قال الذهبي في «الميزان» (٢/٦١): «صدق ابن حبان». ينظر: «المقالات»، (ص/٢٨٦)، و«الفرق بين الفرق» (٢١٢)، و«اعتقادات فرق المسلمين» (٦٩).

(٣) في ك: «نزلتهم بين منزلة...»، وفي س: «نزلتهم منزلة بين المنزلتين الكفار...».

(٤) في م: «لها». (٥) في م: «اتفق عليه». (٦) المعتزلة: سبق التعريف بهم.

(٧) في س: «التي». (٨) في ك: «فإنه». (٩) في م: «طاعته وعبادته».

اللهُ عما نسبوه إليه من ذلك، وجلَّ عن هذا الافتراءِ.

والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ الذي مضمونُه الخروجُ على(١) أئمةِ الجورِ بالسيفِ وخلعِ اليدِ من طاعتِهم، ومفارقةِ جماعةِ المسلمين.

والأصلُ الخامسُ: النبوةُ، مع أنهم لم يوفُّوها حقَّها بل هَضَمُوها غايةَ الهضمِ من وجوهٍ كثيرةٍ ليس هذا موضعَها.

والمقصودُ أن مذهبَهم تخليدُ هذهِ الطبقةِ في النارِ، وإن لم يسموهم كفارًا، فوافقوا الخوارجَ(٢) في الحكمِ، وخالفوهم في الاسمِ، ولهذا تُسمى هذه المسألةُ من مسائلِ الأسماءِ والأحكامِ(٣).

فهذه [ثلاثُ](٤) فرقٍ توجبُ(٥) لهذهِ الطبقةِ(٦) الخلودَ في النارِ.

وقالتِ المرجئةُ(٧) - على اختلافِ آرائِهم -: لا يُدرى ما يفعلُ اللهُ بهم، فيجوزُ أن

---

(١) في س: «عن». (٢) الخوارج: سبق التعريف بهم.

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن شأن المصنفين في العقائد المختصرة على مذهب أهل السنة والجماعة أن يذكروا ما تتميز به أهل السنة والجماعة عن الكفار والمبتدعين، فيذكروا إثبات الصفات، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنه تعالى يرى في الآخرة... " إلى أن قال: «ويذكرون مسائل الأسماء والأحكام، والوعد والوعيد، وأن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب، ولا يُخَلَّد في النار خلافًا للخوارج والمعتزلة...» «العقيدة الأصفهانية» (ص/ ٣١)، وينظر في تسمية هذه المسألة: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٨٣)، و(١٢/ ٤٦٨)، و(١٣/ ٣٨)، (٥٨) و(١٨/ ٢٧٩)، و(٢٢/ ١٢٩)، و«منهاج السنة» لشيخ الإسلام (١/ ١٢٠)، و(٣/ ٤٦٩)، و(٦/ ٣٣٦).

(٤) سقط من م. (٥) في ك، س: «أوجبت». (٦) في ك، س: «الطائفة».

(٧) المرجئة: مشتق من الإرجاء، وهو على معنيين: **الأول**: التأخير، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١]، **والثاني**: إعطاء الرجاء. وكلا المعنيين يصدق إطلاقه على المرجئة، حيث إنهم يؤخرون العمل عن مسمى الإيمان، وهم أيضًا يعطفون الرجاء للفاسق، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وهم أربعة أصناف: المرجئة الخالصة، ومرجئة القدرية، ومرجئة الخوارج، ومرجئة الجبرية.

وقال الأشعري: وهم اثنتا عشرة فرقة:

١- الجهمية. ٢- أصحاب أبي الحسين الصالحي. ٣- أصحاب يونس السمري. ٤- قول يونس وأبي شمر ٥- أصحاب أبي ثوبان. ٦- أصحاب الحسين بن محمد بن النجار. ٧- الغيلانية. ٨- أصحاب محمد بن شبيب. ٩- أبو حنيفة وأصحابه. ١٠- أصحاب أبي معاذ التومني. ١١- أصحاب =

يعذبَهم كلَّهم، [وأن يعفوَ عنهم كلِّهم][١]، وأن يعذبَ بعضَهم، ويعفوَ عن بعضِهم، غيرَ أنهم لا يخلدُ أحدٌ منهم في النارِ، فجوزوا أن يلحقَ بعضُهم بمن ترجحتْ حسناتُه على سيئاتِهِ، بل جوزوا أن يرفعَ عليه في الدرجةِ، فهم موكولون عندهم إلى محضِ المشيئةِ لا يُدرى ما يفعلُ اللهُ بهم، بل يرجأُ أمرُهم إلى اللهِ وحكمِهِ، وهذا قولُ كثيرٍ من المتكلمين والفقهاءِ، والصوفيةِ وغيرِهم، فهذهِ الأقوالُ هي التي يعرفُها أكثرُ الناسِ ولا يَحكي أهلُ الكلامِ غيرَها.

[وقولُ][٢] الصحابةِ، والتابعين، وأئمةِ الحديثِ لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو الذي ذكرناه عن ابنِ عباسٍ وحذيفةَ وابنِ مسعودٍ ﷺ: «أن من ترجحتْ سيئاتُهُ بواحدةٍ دخلَ النارَ»[٣] وهؤلاءِ همُ القسمُ الذين[٤] جاءتْ فيهم الأحاديثُ الصحيحةُ [الثابتةُ][٥] عن رسولِ اللهِ ﷺ بأنهم[٦] يدخلون [النارَ] فيكونون فيها على مقدارِ[٧] أعمالِهم: فمنهم من تأخذُه النارُ إلى كعبيهِ ومنهم من تأخذُه[٨] إلى أنصافِ ساقيهِ، ومنهم من تأخذُه إلى ركبتيهِ، ويلبثون فيها على قدرِ أعمالِهم، ثم يخرجون منها، فيلبثُون[٩] على أنهارِ الجنةِ، فيفيضُ عليهم أهلُ الجنةِ من الماءِ حتى تنبتَ أجسادُهم، ثم يدخلون الجنةَ[١٠].

وهم الطبقةُ الذين يخرجون [من النارِ][١١] بشفاعةِ الشافعين، وهم الذين يأمرُ اللهُ

= بشر المريسي. ١٢- الكرامية أصحاب محمد بن كرام. ينظر: «المقالات» (ص/ ٣٢)، و«الفرق بين الفرق» (ص/ ٢٠٢)، و«الملل والنحل» (١/ ١٣٩)، و«طوائف المرجئة وموقف أهل السنة منهم» د/ هادي طالبي (١٨) وما بعدها.

(١) سقط من م.
(٢) سقط من ك.
(٣) وقد سبق ذكر قول: حذيفة وابن مسعود. ﷺ.
(٤) في س: «الذي».
(٥) سقط من م.
(٦) في م، ك، س: «فإنهم».
(٧) في س: «على قدر».
(٨) في م زيادة: «النار».
(٩) في م، ك، س: «فينبتون».
(١٠) كما روى الإمام أحمد (٣/ ٩٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وروى البخاري، ح (٢٢)، ومسلم، ح (١٨٤)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيُخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياء، أو نهر الحياة - شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية»**.
(١١) سقط من م.

تعالى سيدَ الشفعاءِ مرارًا أن يخرجهم من النارِ بما معهم من الإيمانِ[١]، وإخبارُ النبيِّ ﷺ أنهم يكونون فيها على قدرِ أعمالِهم، مع قولِه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] و: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٩٠] و قولِه: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١١] وأضعافُ ذلك من نصوصِ القرآنِ والسنةِ يدلُّ على ما قاله أفضلُ الأمةِ، وأعلمُها باللهِ وكتابِهِ، وأحكامِ الدارين، أصحابُ محمدٍ ﷺ، والعقلُ والفطرةُ تشهدُ له، وهو مقتضى حكمةِ العزيزِ الحكيمِ، الذي بهرتْ حكمتُه العقولَ، فليس الأمرُ مُسَيَّبًا[٢] خارجًا عن الضبطِ والحكمةِ، بل مربوطٌ بالأسبابِ والحكمِ، مرتبٌ عليها أكملَ ترتيبٍ، جارٍ على نظامٍ اقتضاه السببُ واستدعتْه الحكمةُ، وأيُّ طريقٍ سَلَكَها[٣] سالكٌ غيرِ هذهِ[٤] الطريقِ من الطرقِ المتقدمةِ، أفضتْ به إلى تركِ بعضِ النصوصِ، ولا بد؛ فإنها تتناقضُ في حقِّهِ لما أصَّلَه[٥] من الأصلِ الذي لا يلتئمُ عليه جميعُ النصوصِ، فلا بدَّ أن يَرُدَّ بعضَها ببعضٍ أو يستشكلَها، أو يتطلبَ لها مستنكرَ التأويلاتِ، ووجوهِ التحريفاتِ.

ردُّ الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة

كما ردَّ الخوارجُ[٦] و المعتزلةُ[٧] النصوصَ المتواترةَ الدالةَ على خروجِ أهلِ الكبائرِ من النارِ بالشفاعةِ، فكذَّبوا بها، وقالوا: لا سبيلَ لمن دخلَ [النارَ][٨] إلى الخروجِ منها بشفاعةٍ ولا غيرِها، ولمَّا بهرتْهم نصوصُ الشفاعةِ، وصاحَ بهم أهلُ السنةِ وأئمةُ الإسلامِ من كلِّ قطرٍ وجانبٍ، ورموهم بسهامِ الردِّ عليهم؛ أحالُوا بالشفاعةِ على زيادةِ الثوابِ فقط، لا على الخروجِ من النارِ[٩]، فردُّوا السنةَ المتواترةَ قطعًا، وصاروا مضغةً في أفواهِ الأمةِ، وعارًا في فرقِها؛ فإنَّ أمرَ الشفاعةِ أظهرُ عند الأمةِ من أن يقبلَ شكًّا أو نزاعًا، وهو عندهم مثلُ الصراطِ، والحسابِ، ونحوهما، مما يعلمُ إخبارُ

---

(١) وسبق ذكر الحديث. (٢) في ك، س: «فليس الأمر سببًا». (٣) في ك، س: «سالكها».
(٤) في س: «هذا». (٥) في م: «أصلوه».
(٦) الخوارج: سبق التعريف بهم. (٧) المعتزلة: سبق التعريف بهم. (٨) سقط من م.
(٩) ينظر مسألة إنكار المعتزلة لشفاعة الرسول ﷺ لأهل الكبائر في كتاب: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (٤٧٤) و«الشريعة» للآجري (٢٧٤)، و«التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» للملطي (١٣٤)، و«تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل» للباقلاني (٤٢٧)، و«الغنية في أصول الدين» للنيسابوري (٤٢٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٢٥٧)، و«إيثار الحق على الخلق» للقاسمي (١٢١) د: ناصر الجديع (ص/١٠٩) و«المعتزلة وأصولهم الخمسة» عواد المعتق (ص/ ٢٣٥).

الرسولِ ﷺ به قطعًا[١].

ولكن إنما أُتي القومُ لأنهم في غايةِ البعدِ عن ما جاء به الرسولُ ﷺ أجانبُ منه، ليسوا من الورثةِ[٢]، وأما الخوارجُ فكذَّبُوا الصحابةَ صريحًا، وأما المرجئةُ فإنهم يُجوزون أن لا يدخلَ النارَ أحدٌ من أهلِ التوحيدِ، وهذا خلافُ المعلومِ المتواترِ من نصوصِ السنةِ بدخولِ بعضِ أهلِ الكبائرِ النارَ ثم خروجِهم منها بالشفاعةِ.

ومع هذا التواترِ الذي لا يمكنُ دفعُهُ، لا يجوزُ أن يقالَ بجوازِ أن لا يدخلَ أحدٌ منهم النارَ، بل لا بدَّ من دخولِ بعضِهم، وذلك البعضُ هو الذي خفَّتْ موازينُه ورجحتْ سيئاتُه، كما قاله[٣] الصحابةُ ﷺ، وحكى أبو محمدٍ بنُ حزمٍ هذا إجماعًا من أهلِ السنةِ[٤].

ولولا أن المقصودَ ذكرُ الطبقاتِ؛ لذكرنا ما لهذهِ المذاهبِ وما عليها، وبيَّنَّا تناقضَ أهلِها، وما وافقُوا فيه الحقَّ، وما خالفُوه بالعلمِ [والعدلِ][٥]، لا بالجهلِ والظلمِ؛ فإنَّ كلَّ طائفةٍ منها معها حقٌّ وباطلٌ، فالواجبُ موافقتُهم فيما قالوه من الحقِّ، وردُّ ما قالوه من الباطلِ، ومَنْ فتحَ اللهُ له بهذهِ الطريقِ فقد فتحَ له مِنَ العلمِ والدينِ كلَّ بابٍ، ويسَّر عليه فيهما الأسبابَ، واللهُ المستعانُ.

الطبقةُ الرابعةَ عشرةَ[٦]: قومٌ لا طاعةَ لهم ولا معصيةَ، ولا كفرَ ولا إيمانَ، وهؤلاءِ

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة، ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين-واستفاضت به السنن من أنه يشفع لأهل الكبائر من أمته، ويشفع أيضًا لعموم الخلق. . . .». إلى أن قال: «وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة منها في «الصحيحين» أحاديث متعددة، وفي السنن والمسانيد مما يكثر عدده». «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) قال الإمام الآجري: «إن المكذب بالشفاعة أخطأ في تأويله خطأً فاحشًا، خرج به عن الكتاب والسنة؛ وذلك أنه عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر، أخبر الله سبحانه أنهم إذا دخلوا النار غير خارجين منها، فجعلها المكذب بالشفاعة في الموحدين، ولم يلتفت إلى أخبار رسول الله ﷺ في إثبات الشفاعة، أنها إنما هي لأهل الكبائر، والقرآن يدل على هذا، فخرج بقوله السوء عن جملة ما عليه أهل الإيمان، واتبع غير سبيلهم «الشريعة» (٢٧٦-٢٧٧).

(٣) في ك، س «قال». (٤) ينظر: «الفصل» (٤/ ٤٥). (٥) سقط من م.

(٦) في الأصل: «الرابعة عشر» والمثبت من م.

الطبقةُ الرابعةَ عشرةَ مَن لا طاعة لهم ولا معصيةَ

أصنافٌ: منهم من لم تبلغْه الدعوةُ بحالٍ، ولا سَمِعَ لها بخبرٍ(١)، ومنهم المجنونُ الذي لا يعقلُ شيئًا ولا يميزُ، ومنهم الأصمُّ الذي لا يسمعُ شيئًا أبدًا.

ومنهم أطفالُ المشركين الذين ماتوا قبلَ أن يميزُوا [شيئًا](٢).

فاختلفتِ الأمةُ في حكمِ هذهِ الطبقةِ اختلافًا كثيرًا.

والمسألةُ التي وَسَّعوا فيها الكلامَ هي مسألةُ أطفالِ المشركين.

وأما أطفالُ المسلمين: فقال الإمامُ أحمدُ(٣): لا يختلفُ فيهم أحدٌ، يعني أنهم في الجنةِ(٤) [وحكى ابنُ عبدِ البرِّ(٥) عن جماعةٍ: أنهم توقَّفوا فيهم، وأن جَميعَ الولدانِ

---

(١) في م: «خبرًا». (٢) سقط من س.

(٣) الإمام أحمد بن حنبل: سبقت ترجمته.

(٤) ينظر: «أحكام أهل الملل» للخلال (ص/ ١١)، و«المغني» (٩/ ٢٩١)، و«المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» عبد الإله الأحمدي (١/ ١٧٠)، وقد حكى الإجماع على أنهم في الجنة: ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٤٣٨)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٨٤٠)، ومحمد شمس الحق آبادي في «عون المعبود» (١٢/ ٣١٩).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله بفضل نعمته أثاب الناس عن الأعمال أضعافها، ومَنَّ على المؤمنين بأن ألحق بهم ذريتهم، ووفر عليهم أعمالهم، فقال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطُّور: الآية ٢١] فلما مَنَّ على الذراري بإدخالهم جنته بلا عمل، كان أن مَنَّ عليهم بأن يكتب لهم عمل البر في الحج، وأن لم يجب عليهم». ثم قال: «فقد جاءت الأحاديث في أطفال المسلمين أنهم يدخلون الجنة، فالحجة فيه عن رسول الله ﷺ» «الأم» (٢/ ١١١).

وقال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن نقل كلام الشافعي السابق: «وهذه طريقة حسنة في جملة المؤمنين الذين يوافون القيامة مؤمنين، وإلحاق ذريتهم بهم كما ورد به الكتاب، وجاءت به الأحاديث، إلا أن القطع به في واحد من المؤمنين بعينه غير ممكن؛ لما يخشى من تغير حاله في العاقبة، ورجوعه إلى ما كتب له من الشقاوة. فكذلك قطع القول به في واحد من المولودين غير ممكن؛ لعدم علمنا بما يؤول إليه حال متبوعه، وبما جرى له به القلم في الأزل من السعادة أو الشقاوة، وكان إنكار النبي ﷺ القطع به في حديث عائشة رضي الله عنها وعن أبيها. لهذا المعنى، ونقول بما ورد به الكتاب والسنة في جملة المؤمنين وذرياتهم، ولا نقطع القول به في آحادهم لما ذكرنا، وفي هذا جمع بين جميع ما ورد في هذا الباب، والله أعلم». الاعتقاد (١٦٨-١٦٩).

(٥) أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النميري القرطبي، إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، حافظ المغرب، وكان له بسطة كبيرة في علم الأنساب، ومصنفات كثيرة حيث كان معانًا عليه، وموفقًا فيه، ومنها: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» و«الاستذكار» وغيرها. (ت٤٦٣)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٤٥)، «السير» (١٨/ ١٥٣)، «طبقات الحفاظ» (ص٤٣١).

تحت المشيئةِ قال: وذهَبَ إلى هذا القولِ جماعةٌ كثيرةٌ من أهلِ الفقهِ والحديثِ، منهم حمادُ بنُ زيدٍ(١)](٢) وحمادُ بنُ سلمةَ، وابنُ المباركِ، وإسحاقُ بنُ راهويهِ(٣) [وغيرُهم](٤) قال(٥): وهو يشبهُ ما رسم مالكٌ(٦) في «موطئِهِ» في أبوابِ القدرِ(٧)، وما أورده من الأحاديثِ في ذلك، وعلى ذلك أكثرُ أصحابِهِ، وليس عن مالكٍ فيه شيءٌ منصوصٌ إلا أن المتأخرين من أصحابِهِ ذهبوا إلى أن أطفالَ المسلمين في الجنةِ، وأطفالَ المشركين خاصَّةً في المشيئةِ»(٨).

مذاهبُ الناسِ في أطفالِ المشركين

وأما أطفالُ المشركين فللناسِ فيهم ثمانيةُ مذاهبَ:

أحدُها(٩): الوقفُ فيهم(١٠)، وتركُ الشهادةِ بأنهم في الجنةِ أو في النارِ، بل يُوَكَّلُ علمَهم إلى اللهِ تعالى، ويقالُ: اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين.

---

(١) حماد بن زيد بن درهم الأزدي، أبو إسماعيل، شيخ العراق في عصره، العلامة، الحافظ، الثبت، محدث الوقت، أحد الأعلام. قال ابن مهدي: «أئمة الناس في زمانهم أربعة: الثوري، ومالك، والأوزاعي وحماد ابن زيد» وقال ابن معين: «ليس أحد أثبت من حماد بن زيد» وقال الذهبي: «لا أعلم بين العلماء نزاعًا في أن حماد بن زيد من أئمة السلف، ومن أتقن الحفاظ، وأعدلهم، وأعدمهم غلطًا». توفي سنة (١٧٩)هـ. ينظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٢٥٧)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٦٧)، و«السير» (٧/ ٤٥٦).

(٢) سقط من ع، وجاء في حاشية ع: «وفي حاشية الأصل بخط المؤلف. رَحِمَهُ اللَّهُ. أسطار مصحح على آخرها، ذهب الأول منها تآكلًا على مفرق الورقة أخلى الكاتب له تحت هذا السطر موضعًا، وكتب ما وجد بعده». وهي في هامش الأصل، وقد ذهبت كاملة، والمثبت من م، ك، س.

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن مطر التميمي الحنظلي المروزي، أبو يعقوب، الإمام الحافظ، شيخ المشرق، سيد الحفاظ، يعرف بابن راهويه، اجتمع له الحديث، والفقه، والحفظ، والصرف، والورع والزهد، له كتاب «المسند». توفي سنة (٢٣٨)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٤٥)، و«وفيات الأعيان» (١/ ١٠٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٧).

(٤) سقط من ك، س. (٥) في م، ك، س: «قالوا».

(٦) الإمام مالك: تقدمت ترجمته. (٧) «موطأ الإمام مالك» (٢/ ٨٩٨).

(٨) ينظر «التمهيد» لابن عبد البر (١٨/ ١١١-١١٢). (٩) في م: «المذهب الأول».

(١٠) وهو مروي عن حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وعبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وأبي حنيفة وهو يشبه ما رسمه مالك في «الموطأ»، وهو رواية عن الإمام أحمد. ينظر: «التمهيد» لابن عبد البر (١٨/ ١١١-١١٢)، و«التذكرة» للقرطبي (٥٩١)، و«الكسب» لمحمد الشيباني (٥٤)، و«المبسوط» للسرخسي (٣٠/ ٢٥٤)، و«المجموع» للنووي (٥/ ٧٣)، و«شرح فتح القدير»، للسيواسي (٢/ ١٣٢)، و«البحر الرائق شرح كنز الدقائق» لابن نجيم (٨/ ٢٠٦).

واحتجَّ هؤلاءِ بحججٍ، منها: ما خرَّجا في «الصحيحينِ»[(١)] من حديثِ أبي هريرةَ: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«ما من مولودٍ إلا يولدُ[(٢)] على الفطرةِ فأبواهُ يهودانِهِ، وينصرانِه[(٣)]. كما تنتجُ البهيمةُ [من][(٤)] بهيمةٍ جمعاءَ، هل تحسُّ فيها من جدعاءَ؟»** قالوا: يا رسولَ اللهِ أفرأيتَ من يموتُ وهو صغيرٌ؟ قال: **«اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين»**[(٥)].

ومنها ما في «الصحيحين» أيضًا عن ابنِ عباسٍ أن النبيَّ ﷺ سُئلَ عن أولادِ المشركين، فقال: **«اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين»**[(٦)]. وفي «صحيحِ أبي حاتمٍ ابن حبانَ»[(٧)] من حديثِ جريرِ بن حازمٍ[(٨)] قال: سمعتُ أبا رجاءٍ العطارديَّ[(٩)] [قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ[(١٠)]][(١١)] يقولُ وهو على المنبرِ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«لا يزالُ أمرُ هذهِ الأمَّةِ مُوامًا[(١٢)]، أو مقاربًا، ما لم يتكلموا في الولدانِ والقدرِ»**[(١٣)] قال أبو حاتمٍ:

---

(١) في م: «ما خرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما».

(٢) في س: «ويولد».

(٣) في س: «أو ينصرانه».

(٤) سقط من م.

(٥) رواه البخاري، ح (٦٢٢٦)، ومسلم، ح (٢٦٥٨)، وأبو داود، ح (٤٧١٦)، وأحمد (٢/ ٣١٥و٣٤٦)، كلهم بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه البخاري، ح (١٣١٧)، وفي القدر، باب: الله أعلم بما كانوا عاملين، ح (٦٢٢٤)، ومسلم، ح (٢٦٦٠)، والنسائي، ح (١٩٥١و١٩٥٢) وأحمد (١/ ٢١٥)، (٣٢٨)، (٣٤٠)، (٣٥٨).

(٧) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ التميمي البستي، حافظ، علامة، محدث، قال عنه الحاكم: «كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عقلاء الرجال، كتب عن أكثر من ألفي شيخ»، وله مصنفات كثيرة منها: «المسند الصحيح» و«تاريخ الثقات» وغيرها. توفي سنة (٣٥٤)هـ. ينظر: «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٨٩)، و«ميزان الاعتدال» (٧/ ٩٨)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٢٧٦).

(٨) جرير بن حازم بن زيد بن شجاع الأزدي البصري، الإمام الحافظ الثقة، أحد الأعلام محدث البصرة. توفي سنة (١٧٠هـ). ينظر: «التاريخ الكبير» (٢/ ٢١٣)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٤٨)، و«السير» (٧/ ٩٨).

(٩) عمران بن ملحان التميمي العطاردي البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية والإسلام، أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم يره، قيل: أسلم بعد الفتح، وقيل: أسلم بعد المبعث. توفي سنة (١٠٥هـ)، وقيل (١٠٧هـ)، وقيل (١٠٨هـ). ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١٢٠٩)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٥٣).

(١٠) عبد الله بن عباس: سبقت ترجمته.

(١١) سقط من ك.

(١٢) في م، ك، س «قوامًا».

(١٣) رواه ابن حبان، في «صحيحه» (١٥/ ١١٨-١١٩)، وعبد الله بن أحمد، في السنة (٢/ ٤٠١)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٦٢)، والحاكم، في «المستدرك» (١/ ٨٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولا نعلم له علة، ولم يخرجاه». وقال في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٢) رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ورجال البزار رجال الصحيح».

الولدانُ أراد به أطفالَ المشركين. وفي استدلالِ هذهِ الفرقةِ على ما ذهبتْ إليه من الوقفِ بهذهِ النصوصِ نظرٌ؛ فإن النبيَّ ﷺ لم يجبْ فيهم بالوقفِ، وإنما وَكَلَ علمَ ما كانوا يعملون لو عاشوا إلى اللهِ.

والمعنى: اللهُ أعلمُ بما كانوا يعملُون لو عاشُوا. فهو سبحانه يعلمُ القابلَ [منهم][1] للهدى، العاملَ به لو عاش، والقابلَ منهم للكفرِ، المؤثِرَ له لو عاش. ولكن[2] لا يدلُّ هذا على أنه يجزيهم بمجردِ علمِهِ فيهم بلا عملٍ يعملونه، وإنما يدلُّ على أنه سبحانه يعلمُ منهم ما هم عاملون بتقديرِ حياتِهم.

توجيهُ قولِهِ ﷺ: «اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين»

وهذا الجوابُ خرجَ من[3] النبيِّ ﷺ على وجهين:

أحدُهما: جوابٌ لهم؛ إذ سألُوه عنهم: ما حكمُهم؟ فقال: **«اللهُ أعلمُ بما كانوا عامِلين»** وهو في هذا الوجهِ يتضمنُ أن اللهَ سبحانه يعلمُ من يؤمنُ منهم، ومن يكفرُ بتقديرِ الحياةِ، وأما المجازاةُ على العلمِ فلم يتضمنْها جوابُهُ ﷺ.

وفي «صحيحِ أبي عوانةَ» الإسفراييني[4] عن هلالِ بن خبابٍ[5][6]، عن عكرمةَ[7]، عن ابنِ عباسٍ: «كان النبيُّ ﷺ في بعضِ مغازيهِ، فسأله رجلٌ: ما يقولُ في اللاهين؟ فسكت عنه، فلما فرغَ من غزوةِ الطائفِ إذا هو بصبيٍّ يبحثُ في الأرضِ، فأمر مناديهِ فنادى: أين السائلُ عن اللاهين؟ فأقبل الرجلُ، فنهى رسولُ اللهِ ﷺ عن قتلِ الأطفالِ وقال: **«اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين»**[8].

---

(١) سقط من ك. (٢) في ك: «لكن». (٣) في س: «عن».

(٤) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابوري الأصل، الإسفراييني، الإمام الحافظ الكبير، أبو عوانة، صاحب «الصحيح المسند المخرج على صحيح مسلم»، وله فيه زيادات. توفي سنة (٣١٦)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٩٦)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ٣)، و«السير» (١٤/ ٤١٧).

(٥) في م: «حبان».

(٦) هلال بن خباب العبدي، أبو العلاء البصري، مولى زيد بن صوحان، وثقه ابن معين وغيره. توفي سنة (١٤٤)هـ. ينظر: «التاريخ الكبير» (٨/ ٢١٠)، و«ميزان الاعتدال» (٧/ ٥٧٤)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٦٨).

(٧) عكرمة بن عبد الله البربري المدني الهاشمي، مولى ابن عباس، أبو عبد الله، علامة، حافظ، مفسر. توفي سنة (١٠٧)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ١٢٦)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٧٣)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٤١).

(٨) رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٣٠)، وفي «الأوسط» (٢/ ٢٨٤)، والهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢١٨)=

والوجهُ الثاني: جوابٌ لهم حين أخبرهم أنهم من آبائِهم، فقالوا: بلا عملٍ؟ فقال: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين**» كما روى أبو داودَ عن عائشةَ ﵂ قالتْ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ذراري المؤمنين؟ فقال: «**من آبائِهم**» فقلتُ[١]: يا رسولَ اللهِ، بلا عملٍ؟ قال[٢]: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين**» قلتُ: يا رسولَ اللهِ فذراري المشركين؟ قال: «**هم من آبائِهم**»، فقلتُ[٣]: يارسولَ اللهِ بلا عملٍ؟ قال: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين**»[٤].

ففي هذا الحديثِ ما يدلُّ على أن الذين يلحقون بآبائِهم منهم هم الذين علم اللهُ أنهم لو عاشوا لاختاروا الكفرَ، وعَمِلوا به، فهؤلاءِ مع آبائِهم، ولا يقتضي أن كلَّ واحدٍ من الذريةِ مع أبيهِ في النارِ؛ فإنَّ الكلامَ في هذا الجنسِ سؤالًا وجوابًا

والجوابُ يدلُّ على التفصيلِ؛ فإن قولَه: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين**» يدلُّ على أنهم متباينون في التبعيةِ بحسبِ تبايِنهم في معلومِ اللهِ فيهم.

يبقى[٥] أن يقالَ: فالحديثُ يدلُّ على أنهم يلحقون بآبائِهم من غيرِ عملٍ، ولهذا فهمتْ ذلك منه عائشةُ، فقالتْ: «بلا عملٍ»، فأقرَّها عليهِ، وقال: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين**».

ويجابُ عن هذا بأنَّ الحديثَ إنما دلَّ على أنهم يلحقون بهم بلا عملٍ عملوه في [هذهِ][٦] الدنيا، وهو الذي فهمتْه عائشةُ، ولا ينفي هذا أن يلحقوا بهم بأسبابٍ أُخَرَ يمتحنُهم بها في عرصاتِ القيامةِ، كما سيأتي بيانُه إن شاء اللهُ[٧].

[فحينئذٍ][٨] يلحقون[٩] بآبائِهم، ويكونون منهم بلا عملٍ عملوه [في الدنيا، وعائشةُ ﵂ إنما استشكلتْ لحاقَهم بهم[١٠] بلا عملٍ عملوه] مع الآباءِ وأجابها النبيُّ ﷺ بأن

= وقال: «رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه هلال بن خباب، وهو ثقة، وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح».

(١) في ك: «قلت». (٢) في م، س: «فقال». (٣) في ك: «قلت».

(٤) رواه أبو داود، ح (٤٧١٢)، قال أبو داود: حدثنا موسى بن مروان وكثير بن عبيد المذحجي، قالا: «حدثنا محمد بن حرب، عن محمد بن زياد، عن عبد الله بن أبي قيس، عن عائشة، فذكرت الحديث». وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٩٣) ح (٣٩٤٣).

(٥) في م: «بقي». (٦) سقط من م، ك، س. (٧) سيأتي.

(٨) سقط من م. (٩) في م: «فيلحقون». (١٠) في ع: «به».

اللهَ سبحانه يعلمُ منهم ما هم عاملوه، ولم يقلْ لها: إنه يعذبُهم بمجردِ علمِهِ فيهم. وهذا ظاهرٌ بحمدِ اللهِ لا إشكالَ فيهِ.

وأما حديثُ أبي رجاءٍ العطاردي[١] عن ابن عباسٍ ففي القلبِ من رفعِهِ شيءٌ، وإن خرَّجه[٢] ابنُ حبانَ في «صحيحِهِ»، وهو[٣] يدلُّ على ذمِّ من تكلم فيهم بغيرِ علمٍ، أو ضربَ النصوصَ بعضَها ببعضٍ فيهم، كما ذمَّ مَنْ تكلَّم في القدرِ بمثلِ ذلك. وأما من تكلم فيهم بعلمٍ وحقٍّ [فلا][٤].

المذهبُ الثاني أنهم في النارِ

المذهبُ الثاني: أنهم في النارِ، وهذا قولُ جماعةٍ من المتكلمين وأهلِ التفسيرِ، وأحدُ الوجهين لأصحابِ أحمدَ[٥].

وحكاه القاضي[٦] نصًّا[٧] عن أحمدَ[٨]، واحتجَّ هؤلاءِ بحديثِ عائشةَ [المتقدَّمِ

---

(١) أبو رجاء العطاردي: سبقت ترجمته.

(٢) في ك: «أخرجه». (٣) في م: «وهذا».

(٤) سقط من م.

(٥) أحمد بن حنبل: سبقت ترجمته. (٦) سبقت ترجمته. (٧) في م: «أيضًا».

(٨) ينظر: «الفروع» لابن مفلح (٦/ ١٧٤)، و«المبدع» لإبراهيم بن مفلح (٩/ ١٩١)، و«الإنصاف» للماوردي (١٠/ ٣٤٨)، و«كشاف القناع» للبهوتي (٦/ ١٨٤).

قال شيخ الإسلام: «ولم ينقل أحد قط عن أحمد أنه قال: هم في النار، ولكن طائفة من أتباعه كالقاضي أبي يعلى وغيره لما سمعوا جوابه بأنه قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»، ظنوا أن هذا من تمام حديث مروي عن خديجة، أنها سألت النبي ﷺ عن أولادها من غيره، فقال النبي ﷺ: «**هم في النار**». فقالت: بلا عمل؟ فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**».

فظن هؤلاء أن أحمد أجاب بحديث خديجة وهذا غلط على أحمد؛ فإن حديث خديجة هذا حديث موضوع كذب لا يحتج بمثله أقلُّ من صحب أحمد فضلًا عن الإمام أحمد». ثم ذكر أن الإمام أحمد إنما اعتمد على الحديث الصحيح، حديث ابن عباس وأبي هريرة، وهو في «الصحيحين»: «**كل مولود يولد على الفطرة...**» **الحديث**.

وكذلك في الصحيح عن ابن عباس، عن النبي أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**». وقد ذكر أحمد أن ابن عباس رجع إلى هذا، بعد أن كان يقول: هم مع آبائهم. فدل على أن هذا جواب من لا يقطع بأنهم مع آبائهم».

«درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ٢٩٥)، وانظر: «الفتاوى» (٢٤/ ٣٧٢) و«منهاج السنة» (٢/ ٣٠٦). وهو قول الأزارقة من الخوارج. ينظر: «الفصل» (٤/ ٦٠)، و«الفرق بين الفرق» (٨٣)، و«الملل والنحل» (١/ ١٢٢).

واحتجوا بما رواه أبو عقيلٍ يحيى بنُ المتوكلِ[١] عن بهيةَ[٢] عن عائشةَ:][٣] سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن أولادِ المسلمين: أين هم؟ قال: «**في الجنةِ**» وسألتُه عن أولادِ المشركين: أين هم يومَ القيامةِ؟ قال: «**في النارِ**» فقلتُ: لم يدركوا الأعمالَ، ولم تجرِ عليهم الأقلامُ! قال: «**ربُّكِ أعلمُ بما كانوا عاملين**»[٤].

قلتُ: يحيى بنُ المتوكلِ لا يحتجُّ بحديثِهِ؛ فإنه في غايةٍ من الضعفِ.

وأما حديثُ عائشةَ المتقدمُ[٥] فهو من حديثِ عمرَ بنِ ذرٍّ[٦]، وتفردَ به عن يزيدَ بن أميةَ[٧] أن البراءَ بن عازبٍ أرسل إلى عائشةَ يسألُها عن الأطفالِ، فذكرت الحديثَ[٨]، هكذا قال مسلمُ بنُ قتيبةَ[٩] [عنه][١٠].

---

(١) يحيى بن المتوكل الباهلي، يكنى أبا عقيل، يروي عن بهية وابن المنكدر وغيرهم، ضعفه ابن المديني والنسائي، وقال ابن معين: «ليس بشيء»، وقال الإمام أحمد: «واهٍ». توفي سنة (١٦٧)هـ. ينظر: «الكامل» لابن عدي (٧/ ٢٠٦)، و«الضعفاء» لابن الجوزي (٢/ ٧٤٢)، و«ميزان الاعتدال» (٧/ ٢١٥)، و«لسان الميزان» (٧/ ٤٣٦).

(٢) بهية: مولاة لعائشة ﵂، قال الذهبي: «لا تعرف». ينظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٧٤)، و«لسان الميزان» (٧/ ٥٢٣)، و«الكامل في ضعفاء الرجال» (٢/ ٧١).

(٣) سقط من م.

(٤) رواه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٢٢٠)، وأحمد (٦/ ٢٠٨) بنحوه، وقد ذكره القيسراني في «ذخيرة الحفاظ المخرج على الحروف والألفاظ» (٣/ ٣١٩٧)، وابن الجوزي، في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (٢/ ١٥٤١).

(٥) حديث عائشة عند أبي داود، تقدم.

(٦) عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمداني المرهبي، أبو ذر الكوفي، وثقه ابن معين والنسائي والدارقطني وكان رأسًا في الإرجاء، توفي سنة (١٥٣)هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٨٥)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٩٠).

(٧) هو يزيد بن أمية القرشي، قال أبو حاتم: مجهول، وهو شيخ لعمر بن ذر، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات». ينظر: «الثقات» (٧/ ٦١٧)، و«ميزان الاعتدال» (٧/ ٢٣٤)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٢٧٥).

(٨) حديث عائشة عند أبي داود، تقدم في (ص/ ٤٢٩).

(٩) هو: مسلم بن قتيبة الشقيري، يكنى: أبا قتيبة. مات بعد المائتين بسنة أو نحوها. ينظر: «الطبقات» لابن خياط (١/ ٢٢٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٢٥٧).

(١٠) سقط من ك، س.

وقال غيرُه: عن عمرَ بن ذَرٍّ، عن يزيدَ، عن رجلٍ، عن البراءِ[(١)(٢)].

ورواه الإمامُ أحمدُ[(٣)] في «مسندِهِ» من حديثِ عتبةَ بن ضمرةَ بن حبيبٍ[(٤)]: حدثني عبدُ اللهِ بنُ أبي قيسٍ[(٥)] مولى غطيفٍ، أنه سأل عائشةَ[(٦)]، فذكر الحديثَ[(٧)]. وعبدُ اللهِ هذا ينظرُ في حالِهِ وليس بالمشهورِ.

واحتجُّوا بما رواه عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ في مسندِ أبيهِ: حدثنا عثمانُ بنُ أبي شيبةَ[(٨)]، عن محمدِ بن فضيلِ بن غزوانَ[(٩)]، عن محمدِ بنِ عثمانَ[(١٠)]، عن زاذانَ[(١١)]، عن عليٍّ

---

(١) البراء: سبق ترجمته.

(٢) رواه بهذا الإسناد أبو يعلى الموصلي في «مسنده»، كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٠) ولم أجده في مسند أبي يعلى.

(٣) الإمام أحمد: سبقت ترجمته.

(٤) عتبة بن ضمرة بن حبيب بن صهيب الزُّبيدي الشامي، روى عن أبيه وعبد الله بن أبي قيس، وغيرهما قال أبو حاتم: صالح. وذكره ابن حبان في «الثقات». ينظر: «الثقات» (٨/ ٥٠٧)، و«تهذيب الكمال» (١٩/ ٣٠٧)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٨٩).

(٥) عبد الله بن أبي قيس النصري الشامي، مولى غطيف بن عفيف، كنيته أبو الأسود، وقيل: إنه مولى عازب بن مدرك بن عفيف. يروي عن عائشة ﵂. وثقه العجلي والنسائي وقال أبو حاتم: «صالح الحديث»، وذكره ابن حبان في «الثقات». ينظر: «الثقات» (٥/ ٤٤)، و«تهذيب الكمال» (١٥/ ٤٦٠)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٣٢٠).

(٦) عائشة: سبقت ترجمتها. (٧) مسند الإمام أحمد (٦/ ٨٤).

(٨) عثمان بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي الكوفي، قال يحيى بن معين: «ثقة مأمون»، وقال الذهبي: «كان حافظًا متقنًا». توفي سنة (٢٣٩)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٨٣)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٢٤)، و«السير» (١١/ ١٥١).

(٩) محمد بن فضيل بن غزوان بن جرير الضبي الكوفي، كان صاحب حديث ومعرفة، قال ابن معين: «ثقة». توفي سنة (١٩٥)هـ. ينظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٣٠)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٣٥٩)، و«ميزان الاعتدال» (٦/ ٣٠٠).

(١٠) قال الذهبي: محمد بن عثمان لا يُدرى من هو، فَتَّشْتُ عنه في أماكن، وله خبر منكر، قال عبد الله بن أحمد في «زيادات المسند»: حدثنا عثمان بن أبي شيبة... " ثم ذكر الحديث. ينظر: «ميزان الاعتدال» (٦/ ٢٥٤). و«لسان الميزان» (٥/ ٢٧٩).

(١١) زاذان أبو عبد الله، ويقال: أبو عمر، الكندي مولاهم، الكوفي الضرير البزار، قال ابن معين: «ثقة لا يُسْأَل عن مثله». توفي سنة (٨٢)هـ. ينظر: «تهذيب الكمال» (٩/ ٢٦٣)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٩٣)،=

قال: «سألتْ خديجةُ رسولَ اللهِ ﷺ عن ولدينِ لها ماتا في الجاهليةِ، فقال: «**هُما في النارِ**» فلما رأى الكراهيةَ في وجهِها قال: «**لو رأيتِ مكانَهُما لأبغضتِهِمَا**[(١)]» قالت: يا رسولَ اللهِ، فولدي منكَ؟ قال: «**إنَّ المؤمنين وأولادَهم في الجنةِ، وإن المشركين وأولادَهم في النارِ**» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ [الطُّور: الآية ٢١][(٢)]»[(٣)] وهذا معلولٌ من وجهين:

أحدُهما: أن محمدَ بن عثمانَ[(٤)] مجهولٌ.

الثاني: أن زاذانَ لم يدركْ عليًّا [(٥)].

وقال جماعةٌ: عن داودَ بن أبي هندٍ[(٦)]، عن الشعبيِ[(٧)]، عن علقمةَ[(٨)]، عن [سلمةَ ابن قيسٍ][(٩)] الأشجعيِّ[(١٠)] قال: أتيتُ أنا وأخي النبيَّ ﷺ، فقلنا: إن أمَّنا ماتتْ في

= و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٦١).

(١) في م: «لأبغضتيهما». (٢) في ك: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ».

(٣) رواه أحمد (١/ ١٣٤-١٣٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٩٤). وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢١٧) «وفيه محمد بن عثمان، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) محمد بن عثمان: سبقت ترجمته.

(٥) قد ذكر أهل العلم أن زاذان قد روى عن علي، كما في «تهذيب الكمال» (٩/ ٢٦٣)، و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٦١)، وغيرهما.

(٦) داود بن أبي هند-دينار-بن عذافر، أبو محمد البصري، وثقه الإمام أحمد، وابن معين، وأبو حاتم والنسائي، وغيرهم. توفي سنة (١٣٩)هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٤٦١)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١١٠)، و«السير» (٦/ ٣٧٦).

(٧) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الهَمْداني، الشعبي، الكوفي، تابعي جليل القدر، وافر العلم كان إمامًا، حافظًا، فقيهًا، متقنًا. توفي سنة (١٠٤)هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: «الحلية» (٣/ ٣١٠)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٢٧)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٦).

(٨) علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي، أبو شبل الكوفي، قال ابن مسعود: «ما أقرأ شيئًا وما أعلم شيئًا إلا وعلقمة يقرؤه ويعلمه». توفي سنة (٦٢)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٩٦)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ٣٠٠)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٩).

(٩) تركت بياضًا في ع بمقدار كلمة.

(١٠) هو: سلمة بن يزيد بن مشجعة الجُعفِي، كما في «مسند أحمد»، و«الطيالسي»، و«السنن الكبرى»، للنسائي و«المعجم الكبير»، للطبراني، وليس سلمة بن قيس، وهو كوفي له صحبة، روى عن النبي ﷺ. ينظر: «أسد الغابة» (٢/ ٣٠٢)، و«تهذيب الكمال» (١١/ ٢٢٩)، و«الإصابة» (٣/ ١٥٧).

الجاهليةِ، [وكانت تُقْرِي الضيفَ[١]، (وتفعلُ، وتفعلُ، فهل نافعُها ذلك شيئًا[٢]؟ قال ﷺ: «لا»، قلنا: فإنها كانت[٣] وَأَدَتْ أختًا)[٤] لنا][٥] في الجاهليةِ لم تبلغ الحنثَ[٦]؟ قال[٧]: «**الوائدةُ والموءودةُ في النارِ، إلا أن تدركَ الوائدةُ الإسلامَ، فتسلمَ**[٨]»[٩] وهذا إسنادٌ لا بأسَ به.

[واحتجُّوا][١٠] بحديثِ خديجةَ[١١] أنها سألتْ رسولَ اللهِ ﷺ عن أولادِها الذين ماتوا في الشركِ، فقال: «**إن شئتِ أسمعتُكِ تضاغِيَهم في النارِ**»[١٢] قال شيخُنا: وهذا حديثٌ باطلٌ موضوعٌ[١٣].

واحتجوا بما روى البخاريُّ في «صحيحِه» في حديثِ احتجاجِ الجنةِ والنارِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**وأما النارُ فينشئُ اللهُ لها خلقًا يسكنُهم إياها**»[١٤] قالوا: فهؤلاءِ ينشؤون للنارِ بغيرِ عملٍ، فلأَنْ يدخلَها من وُلِدَ [في الدنيا][١٥] بين كافرين أَوْلى.

وهذهِ حجةٌ باطلةٌ؛ فإنَّ هذهِ اللفظةَ وقعتْ غلطًا من بعضِ الرواةِ، وبَيَّنَها البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ

---

(١) في م زيادة: «وتصل الرحم». (٢) في م: «ينفعها من عملها ذلك شيء».

(٣) في م: «قلنا: إن أمَّنا وأدت».

(٤) بياض في ك بمقدار ثلاث كلمات، وفي س، بمقدار ست كلمات، وقد كتب السقط في البياض بخط مغاير تمامًا لما كتب به المخطوط.

(٥) بياض في ع (بمقدار خمس كلمات).

(٦) في م زيادة «فهل ذلك نافع أختنا». (٧) في م، ك، س «فقال».

(٨) في م زيادة «فيغفر لها».

(٩) رواه أحمد (٣/ ٤٧٨)، والطيالسي، في «مسنده» (ص/ ١٨٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥٠٧) والطبراني، في «الكبير» (٧/ ٣٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١١٩): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(١٠) سقط من ك، س.

(١١) أم المؤمنين خديجة: سبقت ترجمتها.

(١٢) رواه أحمد (٦/ ٢٠٨)، وقال في «المجمع» (٧/ ٢١٧): «وفيه أبو عقيل يحيى بن المتوكل، ضعفه جمهور الأئمة: أحمد وغيره، ويحيى بن معين».

(١٣) تقدم تخريجه.

(١٤) كتاب: التوحيد، ح (٧٠١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١٥) سقط من م.

في الحديثِ الآخرِ، وهو الصوابُ، فقال في «صحيحِه»: «حدثني عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ[١]، حدثنا عبدُ الرزاقِ[٢]، حدثنا معمرٌ[٣]، عن همام[٤]، عن أبي هريرةَ[٥]، قال النبيُّ ﷺ: «**تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالتِ [النارُ][٦]: أوثِرْتُ بالمُتكبرين والمُتجبرين، وقالتِ الجنةُ: ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ الناسِ[٧] وسقطُهم؟ قال اللهُ ﷻ للجنةِ: أنتِ رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي. وقال للنارِ: أنتِ عذابي أعذبُ بِكِ من أشاءُ من عبادي ولكلٍّ واحدةٍ منهما[٨] ملؤُها، فأمَّا النارُ فلا تمتلئُ حتى يضعَ رجلَهُ[٩]، فتقولُ: قطْ، قطْ. فهنالك [تمتلئُ][١٠]، ويزوى بعضُها إلى بعضٍ، ولا يظلمُ اللهُ من خلقِهِ أحدًا، وأما الجنةُ فإن اللهَ ينشئُ لها خلقًا**».

فهذا هو الذي قاله رسولُ اللهِ ﷺ بلا ريبٍ، وهو الذي ذكره في التفسيرِ[١١].

وقال في بابِ ما جاء في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦]: حدَّثنا عبيدُ الله بنُ سعدٍ[١٢]، حدَّثنا يعقوبُ[١٣]، حدثنا أبي[١٤]، عن

---

(١) عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن يمان الجعفي البخاري، المشهور بالمسندي، حافظ، مجود، شيخ ما وراء النهر. توفي سنة (٢٢٩)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٦٤)، و«تهذيب الكمال» (١٦/ ٥٩)، و«تهذيب التهذيب» (٦/ ٩).

(٢) عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، مولى حمير، إمام، حافظ. وقد توفي سنة (٢٢١)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (١/ ١٠٣)، و«تهذيب الكمال» (١٨/ ٥٢).

(٣) معمر بن راشد الأزدي. مولاهم. البصري، أحد الأعلام وعالم اليمن. توفي سنة (١٥٣)هـ. ينظر: «تهذيب الكمال» (٢٨/ ٣٠٣)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٤٢).

(٤) همام بن منبه بن كامل بن سيج الأبناوي الصنعاني. توفي سنة (١٣٢)هـ. ينظر: تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٩٨)، و«السير» (٥/ ٣١١).

(٥) أبو هريرة: سبقت ترجمته. (٦) سقط من ك، س. (٧) في ك، س «من الناس».

(٨) في النسخ الأخرى: «منكما». (٩) في ك، س: «يضع الجبار ﷻ رجله».

(١٠) سقط من م. (١١) رواه البخاري، ح (٤٥٦٩)، ومسلم، ح (٢٨٤٦).

(١٢) عبيدالله بن سعد بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، قال أبو حاتم: صدوق. توفي سنة (٢٦٠)هـ. ينظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٢٣)، و«الكاشف» (١/ ٦٨٠).

(١٣) يعقوب بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، أبو يوسف المدني، وثقه ابن سعد، وابن معين، وغيرهما. توفي سنة (٢٠٨)هـ. ينظر: «الطبقات»، لابن سعد (٧/ ٣٤٣)، و«تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٦٨)، .

(١٤) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهري، أبو إسحاق المدني، إمام، حافظ كبير. توفي سنة (١٨٥هـ).=

صالح بنِ كيسانَ[(١)] عن الأعرجِ[(٢)] عن أبي هريرةَ[(٣)]، عن النبيِّ ﷺ قال: «**اختصمتِ الجنةُ والنارُ إلى ربِّهما، فقالتِ الجنةُ: يا ربِّ ما لها لا يدخلُها إلا ضعفاءُ الناسِ وسقطُهم، وقالتِ النارُ: [إني][(٤)] أوثرتُ [بالمتكبرين][(٥)]، فقالَ للجنةِ: أنتِ رحمتي، وقال للنارِ: أنتِ عذابي، أصيبُ بكِ من أشاءُ، ولكلٍّ واحدةٍ منكما ملؤُها، قال: فأمَّا الجنةُ فإنَّ اللهَ تعالى لا يظلمُ من خلقِهِ أحدًا، وإنه ينشئُ للنارِ من يشاءُ[(٦)]، فيلقون فيها، فتقولُ: هل من مزيدٍ؟ [ويلقون فيها، وتقولُ[(٧)]: هل من مزيدٍ][(٨)]؟ (ثلاثًا) حتى يضعَ قدمَه فيها فتمتلئُ، ويردُّ بعضُها إلى بعضٍ، وتقولُ[(٩)]: قطْ قطْ قطْ**»[(١٠)]. فهذا[(١١)] غيرُ محفوظٍ، وهو مما انقلب[(١٢)] لفظُه على بعضِ الرواةِ قطعًا، كما انقلبَ على بعضِهم قولُه ﷺ «**إن بلالًا يؤذنُ بليلٍ، فكلوا، واشربوا حتى يؤذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ**[(١٣)]»[(١٤)] فقال:

= ينظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٨١)، و«تهذيب الكمال» (٢/ ٨٨).

(١) صالح بن كيسان المدني، إمام حافظ. توفي سنة (١٤١هـ). ينظر: «تهذيب الكمال» (١٣/ ٧٩)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١١٢).

(٢) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج المدني، إمام، حافظ، مقرئ. توفي سنة (١١٧)هـ. ينظر: «الطبقات» لابن سعد (٥/ ٢٨٣)، و«تهذيب الكمال» (٧/ ٤٦٧).

(٣) أبو هريرة: سبقت ترجمته. (٤) سقط من س. (٥) سقط من ك.

(٦) في ك، س «ينشئ». (٧) في س: «فتقول». (٨) سقط من ك.

(٩) في ك، س «فتقول». (١٠) سبق تخريجه. (١١) في م: «وهذا».

(١٢) المقلوب هو: إبدال لفظ بآخر في سند الحديث، أو متنه، وهو ينقسم قسمين:

١-مقلوب السند: وهو أن يكون حديثًا مشهورًا عن راوٍ، فيُجعل عن راوٍ آخر؛ ليُرغب فيه لغرابته كحديث مشهور عن سالم فجعل عن نافع.

٢-مقلوب المتن: وله صورتان: **الأولى**: أن يقدم الراوي، أو يؤخر في بعض متن الحديث، ومثاله ما ذكره المؤلف. **والثانية**: أن يجعل الراوي متن هذا الحديث على إسناد آخر، ومثاله: فعل أهل بغداد مع البخاري، إذ قلبوا له مائة حديث، امتحانًا له، فردها على ما كانت عليه كما في «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٠). ينظر: «مقدمة ابن الصلاح» (١٠١)، و«المنهل الروي» لابن جماعة (٥٣)، و«شرح نخبة الفكر» لابن حجر (٨٧)، و«فتح المغيث» للسخاوي (١/ ٢٧٢)، و«تدريب الراوي» للسيوطي (١/ ٢٩٢).

(١٣) عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو: جندب بن هرم القرشي العامري، ابن أم مكتوم، الأعمى المؤذن، وقد اختلف في اسمه، فقيل: عبد الله، وقيل: عمرو، وهو الأكثر عند أهل الحديث، هاجر إلى المدينة، فقدمها بعد غزوة بدر بيسير، وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة في غزواته. واستشهد يوم القادسية. ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٩٨)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٥٩)، و«الإصابة» (٤/ ٦٠٠).

(١٤) رواه البخاري، ح (٥٨٧)، وح (٢٤٦٢)، ومسلم، كتاب، ح (١٨٢٧و١٨٢٨و١٨٢٩)، والترمذي =

«إنَّ ابنَ أمِّ مكتومٍ يؤذنُ بليلٍ، فكلوا، واشربوا حتى يؤذنَ بلالٌ»[(١)] وله نظائرُ.

وحديثُ الأعرجِ عن أبي هريرةَ هذا لم يحفظْ كما ينبغي، وسياقُهُ يدلُّ على أن راويه لم يقمْ متنَه[(٢)]، بخلافِ حديثِ همامٍ عن أبي هريرةَ، واحتجُّوا بما رواه أبو داودَ عن عامرٍ الشعبيِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«الوائدةُ والموءودةُ في النارِ»**[(٣)].

قال يحيى[(٤)] بنُ زكريا [(٥)]: فحدثني أبو إسحاقَ السبيعيُّ[(٦)] أن عامرًا حدثه بذلك عن علقمةَ، عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي الجوابُ عن هذا [الحديثِ إن شاء اللهُ][(٧)].

= ح (١٨٧)، وأحمد (٢/ ٩و٥٧و٦٢و٦٤و١٠٧و١٢٣)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) قال ابن حجر رحمه الله: ورد عن ابن عبد البر وجماعة من الأئمة بأنه مقلوب، وأن الصواب حديث الباب: **«إن بلالًا يؤذن بليل»** وقد كنت أميل إلى ذلك، إلى أن رأيت الحديث في صحيح ابن خزيمة (١/ ٢١٢) من طريقين آخرين عن عائشة رضي الله عنها وفي بعض ألفاظه ما يبعد وقوع الوهم فيه. وهو قوله: **«إذا أذن عمرو فإنه ضرير البصر، فلا يغرنكم، وإذا أذن بلال فلا يطعمن أحد»** وأخرجه أحمد (٦/ ١٨٥). وجاء عن عائشة أيضًا أنها كانت تنكر حديث ابن عمر، وتقول: إنه غلط، أخرج ذلك البيهقي «السنن الكبرى» (١/ ٣٨٢) من طريق الدراوردي عن هشام، عن أبيه عنها، فذكر الحديث وزاد: وقالت عائشة: وكان بلال يبصر الفجر، قال: وكانت عائشة تقول: غلط ابن عمر». «فتح الباري» (٢/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) قال القاسمي: «فهذا حديث مقلوب على بعض رواته، وقد اتفق البخاري ومسلم على إخراجه على الصواب من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة، قال: ...». ثم قال: «فقد تبين بهذا أن حديث إبراهيم بن سعد عن ابن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة، حديث منقلب لم يتابع عليه «إيثار الحق على الخلق» (٢١٧-٢١٨)، باختصار.

(٣) كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين، ح (٤٠٩٤). وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ٨٩٤)، ح (٣٩٤٨).

(٤) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، صاحب أبي حنيفة، كان إمامًا صاحب تصانيف، قال ابن المديني: لم يكن بالكوفة بعد سفيان الثوري أثبت منه. وقال أيضًا: انتهى العلم إلى يحيى بن أبي زائدة في زمانه. توفي بالمدائن سنة (١٨٣)هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: «تاريخ بغداد» (١٤/ ١١٤)، و«تهذيب الكمال» (٣١/ ٣٠٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٩٦).

(٥) في «سنن أبي داود»: «قال يحيى بن زكريا: قال أبي: فحدثني أبو إسحاق ....».

(٦) عمرو بن عبد الله بن عبيد الهمداني، أبو إسحاق السبيعي الكوفي، الحافظ، أحد الأعلام. توفي سنة (١٢٧هـ). ينظر: «حلية الأولياء» (٤/ ٣٣٨)، و«تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٠٢).

(٧) سقط من م، وفي ك، س زيادة: «والله أعلم».

المَذْهَبُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ

المذهبُ الثالثُ: أنهم في الجنةِ، وهذا قولُ طائفةٍ من المُفَسِّرين والمتكَلِّمين وغيرِهم[(١)]، واحتجَّ هؤلاءِ بما رواه البخاريُّ في «صحيحِه»[(٢)] عن سمرةَ بنِ جندبٍ[(٣)] قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يعني مما يكثرُ أن يقولَ لأصحابِه: «**هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟**» قال: فيقصُّ عليه من شاء اللهُ أن يقصَّ، وأنه قال لنا ذاتَ غداةٍ: «**إنه**[(٤)] **أتاني الليلةَ آتيانِ**»، فذكر الحديثَ.

وفيه: «**فأتينا على روضةٍ معتمةٍ فيها من كلِّ لونِ**[(٥)] **الربيعِ، وإذا بين ظهري الروضةِ رجلٌ طويلٌ، لا أكادُ أرى رأسَه طولًا في السماءِ، وإذا حولَ الرجلِ مِنْ أكثرِ ولدانٍ رأيتُهم قطْ**».

وفيه: «**وأما الولدانُ الذين حولَه فكلُّ مولودٍ ماتَ على الفطرةِ**» فقال بعضُ المسلمين: يا رسولَ اللهِ، وأولادُ المشركين؟ فقال رسولُ ﷺ: «**وأولادُ المشركين**».

فهذا الحديثُ الصحيحُ صريحٌ في أنهم في الجنةِ، ورؤيا الأنبياءِ وحيٌ.

وفي «مستخرجِ البرقاني[(٦)] على البخاريِّ» من حديثِ عوفٍ الأعرابيِّ[(٧)]، عن أبي

---

(١) وهو قول ابن حزم، وابن الجوزي، والقرطبي، والنووي، وغيرهم. ينظر: «الفصل» (٤/ ٦٠)، و«التذكرة» للقرطبي (٥٩٥)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/ ٢٠٨) و«المجموع» (٥/ ٧٣)، و«الفتاوى» لشيخ الإسلام (٢٤/ ٣٧٢)، و«المبدع» لابن مفلح (٩/ ١٩١) و«الإنصاف» للمرداوي (١٠/ ٣٤٨)، و«الإقناع» لمحمد الشربيني (١/ ١٩٢).

(٢) في كتاب: التعبير، باب: تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، ح (٦٦٤٠).

(٣) سمرة بن جندب بن هلال بن حَرِيج الفزاري، أجازه النبي ﷺ يوم أحد قال: كنت غلامًا على عهد النبي ﷺ، فكنت أحفظ عنه. وكان شديدًا على الخوارج. توفي سنة (٥٨هـ)، وقيل (٥٩هـ). ينظر: «الاستيعاب» (٢/ ٦٥٣)، و«أسد الغابة» (٢/ ٣٢٠)، و«الإصابة» (٣/ ١٧٨).

(٤) في م، ك، س: «مَن».

(٥) في م: «أنور».

(٦) أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب، أبو بكر الخوارزمي البرقاني الشافعي، شيخ بغداد، صنف التصانيف وخرَّج على الصحيحين، قال الخطيب: «وكان ثقة ورعًا، متقنًا متثبتًا فهمًا». توفي سنة (٤٢٥هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٧٣)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٨٣)، و«طبقات الحفاظ» (٤١٨).

(٧) عوف بن أبي جَميلة، أبو سهل الأعرابي البصري، وثقه غير واحد. توفي سنة (١٤٦هـ)، وقيل (١٤٧هـ). ينظر: «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٤٣٧)، و«ميزان الاعتدال» (٥/ ٣٦٧)، و«شذرات الذهب» (١/ ٢١٧).

رجاءٍ العطاردي[(١)]، عن سمرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ**»، فناداه[(٢)] الناسُ: يا رسولَ اللهِ، وأولادُ المشركين؟ قال: «**وأولادُ المشركين**»[(٣)] وقال أبو بكرِ بنُ حمدانَ القطيعيُّ[(٤)]: حدثنا بشرُ بنُ موسى[(٥)]، حدثنا هوذةُ بنُ خليفةَ[(٦)]، حدثنا عوفٌ[(٧)] عن خنساءَ بنتِ معاويةَ[(٨)]، قالت: حدثتني عمتي[(٩)] قلتُ: يا رسولَ اللهِ، من في الجنةِ؟ قال: «**النبيُّ في الجنةِ والشهيدُ في الجنةِ، [والمولودُ في الجنةِ]**[(١٠)]**، والموءودةُ في الجنةِ**»[(١١)].

وكذلك رواه بندارٌ[(١٢)] عن غندرٍ[(١٣)] ....

---

(١) أبو رجاء: سبقت ترجمته. (٢) في م، ك، س «فقال».

(٣) ينظر: «التمهيد»، لابن عبد البر (١٨/ ٦٨).

(٤) أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك البغدادي القطيعي، كان كثير الحديث، روى عن عبد الله بن أحمد «المسند»، و«الزهد»، و«التاريخ»، و«المسائل»، وغيرها. توفي سنة (٣٦٨هـ) ينظر: «تاريخ بغداد» (٤/ ٧٣)، و«طبقات الحنابلة» (٢/ ٦)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٢٢١).

(٥) بشر بن موسى بن صالح بن شيخ بن عميرة الأسدي البغدادي، إمام، محدث، ثبت. توفي سنة: (٢٨٨هـ) ينظر: «تاريخ بغداد» (٧/ ٨٦)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٤٠).

(٦) هوذة بن خليفة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكرة، الثقفي البصري، قال أحمد: «أرجو أن يكون صدوقًا إن شاء الله»، وضعفه ابن معين، وقال النسائي: «ليس به بأس»، وقال أبو حاتم: «صدوق». توفي سنة (٢١٦هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (١٤/ ٩٤)، و«تهذيب الكمال» (٣٠/ ٣٢٠)، و«الميزان» (٧/ ٩٤).

(٧) عوف الأعرابي: سبقت ترجمته.

(٨) خنساء بنت معاوية بن سليم الصريمية، ويقال: اسمها حسناء، روت عن عمها أسلم بن سليم، وروى عنها عوفي الأعرابي. ينظر: تهذيب الكمال (٣٥/ ١٥١)، و«التقريب» (٧٤٥)، و«الكاشف» (٢/ ٥٠٥).

(٩) في «المسند» و«سنن أبي داود»: «عن عمها» قيل هو أسلم بن سليم الصريمي، وقال أبو نعيم: «لا يصح ذلك»، يعني وإنما يروى عن خنساء عن عمها غير مسمى. ينظر: «أسد الغابة» (١/ ١٠٩)، و«الإصابة» (١/ ٦٣).

(١٠) سقط من ك، س، وفي م: «والموءودة في الجنة».

(١١) رواه أبو داود، ح (٢٥٢١)، وأحمد (٥/ ٥٨و٤٠٩) بنحوه. وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٧٩)، ح (٢٢٠٠).

(١٢) محمد بن بشار بن عثمان بن كيسان العبدي البصري، أبو بكر، يعرف ببندار، كان عالمًا بحديث البصرة متقنًا مجودًا حافظًا، لذلك سمي بندارًا، وثقه غير واحد. توفي سنة (٢٥٢هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٠١)، و«تهذيب الكمال» (٢٤/ ٥١١) و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٧٢).

(١٣) محمد بن جعفر الهذلي. مولاهم. البصري، أبو عبد الله المعروف بغندر، كان حافظًا متقنًا. توفي سنة (١٩٣هـ). ينظر: «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٢٠)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٨٤).

عن عوفٍ[١].

[واحتجُّوا بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، وبقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥﴾ [الليل: الآية ١٥] وبقولِهِ تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤]][٢] [واحتجوا] بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥]، وهؤلاءِ لم تقمْ عليهم حجةُ اللهِ بالرسلِ، فلا يعذبُهم، [واحتجُّوا بقولِهِ تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النّساء: الآية ١٦٥]][٣] واحتجوا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القَصَص: الآية ٥٩].

فإذا كان سبحانه لا يهلكُ القرى في الدنيا، ويعذبُ أهلَهَا إلا بظلمِهم[٤]، فكيف يعذبُ في الآخرةِ العذابَ الدائمَ[٥] من لم يصدرْ منه ظلمٌ؟! ولا يقال: كما أهلكه في الدنيا تبعًا لأبويهِ وغيرِهم، فكذلك يدخلُه النارَ تبعًا لهم؛ لأنَّ مصائبَ الدنيا إذا وردت لا تخصُّ الظالمَ وحدَه، بل تصيبُ الظالمَ وغيرَه، ويبعثون على نيَّاتِهم وأعمالِهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: الآية ٢٥].

وكالجيشِ الذين يُخسفُ بهم جميعِهم، وفيهم المكرهُ والمستبصرُ وغيرُهُ، فأما عذابُ الآخرةِ فلا يكونُ إلا للظالمين خاصَّةً، ولا يتبعُهُم فيه من لا ذنبَ له أصلًا، قال تعالى في النارِ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، وقال تعالى لإبليسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: الآية ٨٥] وإذا امتلأتْ بإبليسَ وأتباعِهِ فأين يستقرُّ فيها من لم يتبعْه؟

قالوا: وأيضًا فالقرآنُ مملوءٌ[٦] من الأخبارِ بأنَّ دخولَ النارِ إنما يكونُ بالإعمالِ، كقولِهِ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّمل: الآية ٩٠] وقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ

---

(١) رواه من هذه الطريق ابن عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ١١٦).

(٢) سقط من ك، س. (٣) سقط من ك.

(٤) في ع: «في ظلمهم».

(٥) في م: «الأليم». (٦) في ع: «ضُمِّن».

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ [البقرة: الآية ٢٨١] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٦] إلى غيرِ ذلك من النصوصِ.

قالوا: وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن كلَّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، وإنما يهودُه وينصرُه أبواه[١]، فإذا مات قبلَ التهويدِ والتنصيرِ مات على الفطرةِ، فكيف يستحقُّ النارَ؟.

وفي «صحيحِ مسلمٍ» من حديثِ عياضِ بنِ حمارٍ[٢] عن النبيِّ ﷺ قال: «**يقولُ اللهُ تعالى: إني خلقتُ عبادي حنفاءَ، فأتتهمُ[٣] الشياطينُ فاجتالتهم عن دينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم**»[٤].

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[٥]، عن ثورِ بن يزيدَ[٦]، عن يحيى بنِ جابرٍ[٧]، عن عبدِ الرحمنِ بن عائذٍ[٨]، عن عياضٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ وبنيهِ حنفاءَ مسلمين، وأعطاهم المالَ حلالًا لا حرامًا**» فزاد: «**مسلمين**»[٩].

قالوا: وأيضًا فإن النارَ دارُ عدلِهِ تعالى، والجنةَ دارُ فضلِهِ. فلهذا ينشئُ للجنةِ من لم

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) في ع: «من حديث أبي هريرة» والمثبت من م، ك، س، و«صحيح مسلم» وهو: عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد التميمي المجاشعي، الصحابي. ينظر: «معجم الصحابة»، لابن قانع (٢/ ٢٧٨)، و«الاستيعاب» (٣/ ١٢٣٢)، و«الإصابة» (٤/ ٧٥٢).

(٣) في م، ك، س: «فجاءتهم».

(٤) كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة. . ، ح (٢٨٦٥).

(٥) محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، أبو بكر، ويقال: أبو عبد الله، القرشي المطلبي المدني، مصنف «المغازي» قال الذهبي: «وهو صدوق في نفسه، مرضي». توفي سنة (١٥١هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤٠٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٣٠)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٣٤).

(٦) ثور بن يزيد الكلاعي، ويقال: الرحبي، قال القطان: ما رأيت شاميًّا أوثق منه. توفي سنة (١٥٣هـ). ينظر: «تهذيب الكمال» (٤/ ٤١٨)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٩٧)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٣٢).

(٧) يحيى بن جابر بن حسان بن عمرو الطائي، وهو صدوق كما قال الذهبي، وعدَّه ابن حبان في «الثقات». توفي سنة (١٢٦هـ). ينظر: «الثقات»، لابن حبان (٥/ ٥٢٠)، و«تهذيب الكمال» (٣١/ ٢٤٨)، و«الكاشف» (٢/ ٣٦٣).

(٨) عبد الرحمن بن عائذ الأزدي الثمالي، ويقال: الكندي، ويقال: اليحصبي، له مراسيل كثيرة، ويقال: إن له صحبة. ينظر: «تهذيب الكمال» (١٧/ ١٩٨)، و«الكاشف» (١/ ٦٣٢)، و«الإصابة» (٥/ ٢٣٥).

(٩) رواه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٦٣).

يعملْ عملًا قطْ، وأما النارُ فإنه لا يعذبُ بها إلا من عملَ بعملِ أهلِها.

قالوا: وأيضًا فإنَّ النارَ دارُ جزاءٍ[١]، فمن لم يعصِ اللهَ طرفةَ عينٍ كيف يُجازى بالنارِ خالدًا مخلدًا أبدَ الآبادِ؟.

قالوا: وأيضًا فلو عذَّبَ هؤلاءِ؛ لكان تعذيبُهم إما مع تكليفِهم بالإيمانِ، أو بدونِ التكليفِ، والقسمانِ ممتنعانِ:

أما الأولُ فلاستحالةِ تكليفِ مَنْ لا تمييزَ له ولا عقلَ أصلًا.

وأما الثاني فيمتنعُ أيضًا بالنصوصِ التي ذكرناها وأمثالِها من أن اللهَ لا يعذبُ أحدًا إلا بعدِ قيامِ[٢] الحجةِ عليهِ.

قالوا[٣]: وأيضًا فلو كان تعذيبُ هؤلاءِ لأجلِ عدمِ الإيمانِ المانعِ من العذابِ؛ لاشتركوا هم وأطفالُ المسلمين في ذلك؛ لاشتراكِهم في عدمِ الإيمانِ الفعلي علمًا وعملًا.

فإن قلتم: أطفالُ المسلمين منعهم تبعُهم لآبائِهم من العذابِ بخلافِ أطفالِ المشركين.

قلنا: اللهُ تعالى لا يعذبُ أحدًا بذنبِ غيرِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤] وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: الآية ٥٤] وهذهِ حججٌ كما ترى قوةً وكثرةً، ولا سبيلَ إلى دفعِها. وسيأتي - إن شاء اللهُ - فصلُ النزاعِ في[٤] المسألةِ، والقولُ بموجبِ الحججِ الصحيحةِ كلِّها، على عادتِنا[٥] في مسائلِ الدينِ كلِّها، دقِّها وجلِّها، أن نقولَ بموجبِها، ولا نضربُ بعضَها ببعضٍ، ولا نتعصبُ لطائفةٍ على طائفةٍ، بل نوافقُ كلَّ طائفةٍ على ما معها من الحقِّ، ونخالفُها فيما معها من خلافِ الحقِّ، لا نستثني من ذلك طائفةً، ولا مقالةً، ونرجو من اللهِ أن نحييَ على ذلك، ونموتَ عليه، ونلقَى اللهَ به، ولا قوةَ إلا باللهِ[٦].

المذهبُ الرابعُ: أنهم في منزلةٍ بين المنزلتين بين الجنةِ والنارِ؛ فإنهم ليس لهم

---

(١) في م: «الجزاء». (٢) في ع: «إقامة».

(٣) في م: «وقالوا».

(٤) في ك، س: «في هذه المسألة». (٥) في م: «عادتها».

(٦) في م زيادة: «العلي العظيم».

الْمَذْهَبُ الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ؛ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ

إيمانٌ يدخلون به الجنةَ، ولا لآبائِهم فوزٌ يُلْحِقُ بهم أطفالَهم تكميلًا لثوابِهم، وزيادةً في نعيمِهم، وليس لهم من الأعمالِ ما يستحقُّون به دخولَ النارِ، وهذا قولُ طائفةٍ من المفسرين قالوا: وهم أهلُ الأعرافِ[(١)]، وقال عبدُ العزيزِ بنُ يحيى الكنانيُّ[(٢)]: «هم الذين ماتوا في الفترةِ»[(٣)].

والقائلون بهذا إن أرادوا أن هذا المنزلَ مستقرُّهم أبدًا؛ فباطلٌ؛ فإنه[(٤)] لا دارَ للقرارِ إلا الجنةُ أو النارُ، وإن أرادوا أنهم يكونون فيه مدةً، ثم يصيرون إلى دارِ القرارِ؛ فهذا ليس بممتنعٍ.

الْمَذْهَبُ الخَامِسُ: أَنَّهُمْ تَحتَ المَشِيئَةِ

المذهبُ الخامسُ: أنهم تحت مشيئةِ اللهِ تعالى، يجوزُ أن يعمَّهُم بعذابِهِ، وأن يعمَّهُم برحمتِهِ، وأن يرحَمَ بعضًا، ويعذبَ[(٥)] بعضًا بمحضِ الإرادةِ والمشيئةِ، ولا سبيلَ إلى إثباتِ شيءٍ من هذهِ الأقسام إلا بخبرٍ يجبُ المصيرُ إليه، ولا حكمَ فيهم إلا بمحضِ المشيئةِ، وهذا قولُ الجبريةِ[(٦)] نفاةِ الحكمةِ والتعليلِ، وقولُ كثيرٍ من مثبتي القدرِ وغيرِهم[(٧)].

المذهبُ السادسُ: أنهم خدمُ أهلِ الجنةِ[(٨)] ومماليكُهم، وهم معهم بمنزلةِ أرقائِهم

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٦)، و«تفسير النسفي» (٢/ ١٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٦)، و«شرح الزرقاني» (٢/ ١٢٢).

(٢) عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني المكي، صاحب كتاب «الحيدة»، وكان يلقب بالغول؛ لدمامة منظره، وكان من أهل الفضل والعلم، روى عن سفيان بن عيينة وغيره، وكان ممن تفقه بالشافعي، واشتهر بصحبته، وله مصنفات، وقال الذهبي: «لم يصح إسناد كتاب «الحيدة» إليه، فكأنه وضع عليه». توفي سنة (٢٤٠هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٤٩)، و«تهذيب الكمال» (١٨/ ٢٢٠)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٧٧).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٦٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٠٦).

(٤) في ك: «فإنهم». (٥) في م: «وأن يعذب». (٦) الجبرية: سبق التعريف بهم.

(٧) فهذا القول أنهم تحت المشيئة، قد روي عن حماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وعبد الله بن المبارك وإسحاق ابن راهويه، وذكره البيهقي في «الاعتقاد» (١٦٩). ينظر في هذا القول: «التمهيد»، لابن عبد البر (٦/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٤٠)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٩/ ٢١٣)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٤٦).

(٨) ينظر: «التمهيد» (١٨/ ١١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«شرح فتح القدير» للسيواسي (٢/ ١٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٣١)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٣/ ٤٦) وهو مروي عن =

المَذْهَبُ السَادسُ: أَنَّهُم خدمُ أهلِ الجنةِ

ومماليكِهم في الدنيا، واحتجَّ هؤلاء بما رواهُ يعقوبُ بنُ عبدِ الرحمنِ القاري(١)، عن أبي حازمٍ المدنيِّ(٢)، عن يزيدَ الرقاشيِّ(٣)، عن أنسٍ قال الدارقطنيُّ: ورواه عبدُالعزيزِ الماجشون، عن ابنِ المنكدرِ(٤)، عن يزيدَ الرقاشي، عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: **«سألتُ ربي اللاهين من ذريةِ البشرِ أن لا يعذبَهم فأعطانيهم فهم خدامُ أهلِ الجنةِ»**(٥) يعني الصبيانَ، فهذهِ طريقانِ(٦)، وله طريقٌ ثالثٌ، عن فضيلِ بنِ سليمانَ(٧)، عن عبدِالرحمنِ بنِ إسحاقَ، عن الزهريِّ، عن أنسٍ(٨).

قال ابن قتيبةَ(٩): «اللَّاهون: من لَهَيْتُ عن الشيءِ إذا غفلتُ عنه، وليس هو من

= سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(١) يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله القاري الإسكندراني، وثقه ابن معين، وذكره ابن حبان في «الثقات». توفي سنة (١٨١هـ). ينظر: «الثقات» (٧/ ٦٤٤)، و«تهذيب الكمال» (٣٢/ ٣٤٩)، و«الكاشف» (٢/ ٣٩٥).

(٢) سلمة بن دينار أبو حازم المدني المخزومي، مولاهم، الأعرج. توفي سنة (١٤٤هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ٢٧٢)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٠٠)، و«طبقات الحفاظ» (٦٠).

(٣) يزيد بن أبان الرقاشي البصري، ضعفه ابن معين، والنسائي، والدارقطني، وغيرهم. توفي ما بين (١١٠-١٢٠هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٥١)، و«تهذيب الكمال» (٣٢/ ٦٤)، و«ميزان الاعتدال» (٧/ ٢٣٢).

(٤) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدير، أبو عبد الله القرشي التيمي المدني. توفي سنة (١٣٠هـ). ينظر: «حلية الأولياء» (٣/ ١٤٦)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٩٥)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٤١٧).

(٥) رواه ابن الجعد في «مسنده» (١/ ٤٢٥)، ح (٢٩٠٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧/ ١٣٨)، ح (٤١٠١و٤١٠٢)، وفي «المعجم» (١٧٩)، ح (٢٠٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ١١٧)، كلهم من غير قوله: «**فهم خدام أهل الجنة**». وحسن الألباني الحديث بمجموع طرقه، «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٥٠٢)، ح (١٨٨١).

(٦) في ك، س «طريقة».

(٧) فضيل بن سليمان النميري البصري أبو سليمان، روى عن أبي مالك الأشجعي وأبي حازم وغيرهما، قال ابن معين: «ليس بثقة»، وقال أبو زرعة: «لين الحديث»، وقال النسائي: «ليس بالقوي». توفي سنة (١٨٦هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٧/ ٧٢)، و«ميزان الاعتدال» (٥/ ٤٣٨)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٦٢).

(٨) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦/ ٢٦٧)، ح (٣٥٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ١١١)، ح (٥٩٥٧).

(٩) أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، صاحب التصانيف التي منها: «غريب الحديث»، و«غريب القرآن»، و«أدب الكاتب»، وغيرها. توفي سنة (٢٧٦هـ). ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٩٦)، و«الأعلام» للزركلي (٤/ ١٣٧).

لَهَوْت»[١].

وهذهِ الطرقُ ضعيفةٌ؛ فإن يزيدَ الرقاشي واهٍ، وفضيلُ بنُ سليمانَ متكلمٌ[٢] فيه وعبدُ الرحمنِ بنُ إسحاقَ ضعيفٌ.

المذهبُ السابعُ: أن حكمَهم حكمُ آبائِهم في الدنيا والآخرةِ، فلا يُفْرَدُون عنهم بحكمٍ في الدارين، فكما هم منهم في الدنيا، فهُم منهم في الآخرةِ[٣]، والفرقُ بين هذا المذهبِ ومذهبِ[٤] من يقولُ: هم في النارِ: أن صاحبَ هذا المذهبِ يجعلُهم معهم تبعًا لهم، حتى لو أسلم الأبوانِ بعد موتِ أطفالِهما؛ لم يحكمْ لأَفْرَاطِهِمَا بالنارِ. وصاحبُ القولِ الآخرِ يقولُ: هم في النارِ؛ لكونِهم ليسوا بمسلمين، ولم يدخلُوها تبعًا.

وهؤلاءِ يحتجُّون بحديثِ عائشةَ[٥] الذي تقدم ذكرُه. واحتجوا بما في «الصحيحين» عن الصعبِ بنِ جثامةَ[٦]، قال: «سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن أهلِ الدارِ من المشركين، يبيتون، فيصيبون من نسائِهم وذرارِيِّهم فقال: **«هم منهم»**»[٧]. ومثلُه من حديثِ الأسودِ[٨] بن سَرِيعٍ[٩].

---

(١) قيل: اللاهون: هم الأطفال الذين لم يقترفوا ذنبًا، وقيل: من لم يتعمد ذنبًا، وإنما فرط منه سهوًا.
ينظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٣٣٧)، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٤/ ٢٨٤)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٦٠).

(٢) في ك، س «يُتكلم».

(٣) ينظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ١٧٦)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٢٤٦).

(٤) في م، ك، س: «وبين مذهب».

(٥) عائشة: سبقت ترجمتها.

(٦) الصعب بن جثامة بن قيس بن ربيعة الكناني الليثي، حليف قريش، أمه أخت أبي سفيان بن حرب، وكان ينزل وَدَّان من أرض الحجاز، آخى ﷺ بينه وبين عوف بن مالك. توفي في خلافة أبي بكر، وقيل: في آخر خلافة عمر، وقيل: في خلافة عثمان. ينظر: «الاستيعاب» (٢/ ٧٣٩)، و«أسد الغابة» (٢/ ٤١٧)، و«الإصابة» (٣/ ٤٢٦).

(٧) رواه البخاري، ح (٢٨٥٠)، ومسلم، ح (١٧٤٥)، أبو داود، ح (٢٦٧٢)، وأحمد (٤/ ٣٧و٣٨ و٧١و٧٢و٧٣).

(٨) الأسود بن سَرِيع بن حمير بن عبادة بن النزال السعدي التميمي. مات سنة (٤٢هـ).
ينظر: «الاستيعاب» (١/ ٨٩)، و«أسد الغابة» (١/ ١٢٠)، و«الإصابة» (١/ ٧٤).

(٩) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٣٥و (٤/ ٢٤)، والدارمي (٢/ ٢٩٤)، وأبو يعلى في «مسنده» =

وقد تقدم حديثُ أبي وائلٍ[(١)] عن ابنِ مسعودٍ يرفعُهُ: «**الوائدةُ والموءودةُ في النارِ**»[(٢)] وهذا يدلُّ على أنها إنما كانت في النارِ تبعًا لها، قالوا: ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور: الآية ٢١] فهذا يدلُّ على [أن][(٣)] إتباعَ الذريةِ لآبائِهم ونجاتِهم إنَّما كَان إكرامًا لآبائِهم، وزيادةً في ثوابِهم، وأن الإتباعَ إنما استحقَّ بإيمانِ الآباءِ، وإذا[(٤)] انتفى إيمانُ الآباءِ، انتفى إتباعُ النجاةِ، وبقي إتباعُ العذابِ، ويفسرُه قولُه ﷺ: «**هم منهم**»[(٥)].

الإجَابَةُ عَنْ حُجَجِ القَائِلِينَ بِأَنَّ حُكْمَهُمْ حُكْمُ آبَائِهِمْ

وأُجيبُ عن حججِ هؤلاءِ: أما حديثُ عائشةَ الذي فيه: «**إنَّهم في النارِ**»: فقد تقدم ضعفُه[(٦)]. وأما حديثُها[(٧)] الآخرُ: «**هم من آبائِهم**»[(٨)]: فمثلُ حديثِ الصعبِ[(٩)] والأسودِ بنِ سريعٍ، وليس فيه تعرضٌ للعذابِ بنفيٍ ولا إثباتٍ، وهو إنما[(١٠)] فيه أنهم تبعٌ لآبائِهم في الحكمِ، وأنهم إذا أُصِيبُوا في الجهادِ والبياتِ لم يضمنوا بديةٍ ولا كفارةٍ وهذا مصرحٌ به في حديثِ الصعبِ والأسودِ أنه في الجهادِ. وأما حديثُ عائشةَ الآخرُ[(١١)] فضعَّفَه غيرُ واحدٍ، قالوا: وعبدُ اللهِ بنُ أبي قيسٍ مولى غطيفٍ[(١٢)] راويهِ عنها ليس بالمعروفِ، فيقبلُ حديثُهُ[(١٣)].

وعلى تقديرِ ثبوتِهِ: فليس فيه تصريحٌ بأن السؤالَ وقع عن الثوابِ والعقابِ، والنبيُّ ﷺ قال: «**هم من آبائِهم**» ولم يقلْ: هم معهم، وفرقٌ بين الحرفينِ، وكونِهم منهم لا يقتضي أن يكونوا معهم في أحكامِ الآخرةِ، بخلافِ كونِهم منهم؛ فإنه يقتضي أن تثبتَ لهم أحكامُ الآباءِ في الدنيا من التوارثِ، والحضانةِ والنسبِ، وغيرِ ذلك من أحكامِ

= (٢/ ٢٤٠) والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٨٣و٢٨٤و٢٨٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٤٨٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٣٤١)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ١٣٣-١٣٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(١) شقيق بن سلمة، أبو وائل الأسدي، الكوفي، قال ابن معين: «أبو وائل ثقة لا يسأل عن مثله». توفي سنة (٨٢هـ). ينظر: «الاستيعاب» (٢/ ٧١٠)، و«أسد الغابة» (٢/ ٣٩٢)، و«الإصابة» (٣/ ٣٨٦).

(٢) سبق تخريجه.
(٣) سقط من م.
(٤) في م: «فإذا».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) في م: «حديث».
(٨) سبق تخريجه.
(٩) وهو في الصحيحين.
(١٠) في م: «وإنما فيه».
(١١) سبق تخريجه.
(١٢) عبد الله بن أبي قيس: سبقت ترجمته.
(١٣) وقد سبق أنه وثقه غير واحد، ولم يُذكر فيه تجريح.

الإيلادِ، والله تعالى يخرجُ الطيبَ من الخبيثِ، والمؤمنَ من الكافرِ.

وأما حديثُ ابنِ مسعودٍ[١]: فليس فيه أن هذا حكمُ كلِّ واحدٍ من أطفالِ المشركين، وإنما يدلُّ على أن بعضَ أطفالِهم في النارِ، وأن من هذا الجنسِ. وهن الموءوداتُ. مَنْ يدخلُ النارَ، وكونُها موءودةً لا يمنعُ من دخولِها النارَ بسببٍ آخرَ، وليس المرادُ أن كونَها موءودةً هو السببُ الموجبُ لدخولِ النارِ، حتى يكونَ اللفظُ عامًّا في كلِّ موءودةٍ، وهذا ظاهرٌ، ولكن كونُها موءودةً لا يردُّ عنها النارَ إذا استحقَّتْها بسببٍ، كما سيأتي بيانُه بعدَ هذا إنْ شاءَ اللهُ[٢].

وأحسنُ من هذا أن يقالَ: هي في النارِ، ما لم يوجدْ سببٌ يمنع من دخولِها النارَ، كما سنذكرُه إنْ شاءَ اللهُ[٣]. ففرقٌ بين أن تكونَ جهةُ كونِها موءودةً هي التي استحقَّت بها دخولَ النارِ، وبين كونِها [غيرَ][٤] مانعةٍ من دخولِ النارِ بسببٍ آخرَ.

وإذا كان تعالى يسألُ الوائدةَ عن وأدِ ولدِها بغيرِ استحقاقٍ، ويعذبُها على وأدِها كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير: الآية ٨] فكيف يعذبُ الموءودةَ بغيرِ ذنبٍ؟ وهو[٥] سبحانه يعذبُ[٦] من وأدَها بغيرِ ذنبٍ.

وأما قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: الآية ٢١] فهذهِ الآيةُ تدلُّ على أن اللهَ سبحانه يُلحقُ ذريةَ المؤمنين بهم في الجنةِ، وأنهم يكونون معهم في درجتِهم، ومع هذا فلا يتوهمُ نزولُ الآباءِ إلى درجةِ الذريةِ؛ فإن اللهَ لم يَلِتْهُم - أي لم ينقصْهم - من أعمالِهم شيئًا، بل رفع ذريتَهم إلى درجاتِهم، مع توفيرِ أجورِ الآباءِ عليهم، ولما كان إلحاقُ الذريةِ بالآباءِ في الدرجةِ إنما هو بحكمِ التبعيةِ، لا بالأعمالِ؛ ربما توهم متوهمٌ أن ذريةَ الكفارِ يلحقون بهم في العذابِ تبعًا، وإن لم تكنْ لهم أعمالُ الآباءِ، فقطع تعالى هذا التوهمَ بقولِهِ: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وتأملْ قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ [الطور: الآية ٢١] كيف أتى بالواوِ العاطفةِ في إتباعِ الذريةِ، وبعد[٧] الخبرِ عن المؤمنين [الذين][٨] هذا شأنُهم، فجعل الخبرَ مستحقًّا بأمرين:

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سيأتي. (٣) سيأتي.
(٤) سقط من م. (٥) في ك: «والله سبحانه». (٦) في ك، س: «لا يعذب».
(٧) في م: «وجعل». (٨) سقط من ك.

أحدُهما: إيمانُ الآباءِ.

والثاني: إِتْبَاعُ [اللهِ](١) ذريتَهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كلَّ مؤمنٍ يتبعُهُ كلُّ ذريةٍ له، ولو أُريدَ هذا المعنى، لقيل: والذين آمنوا تتبعُهم ذرياتُهم، فعطفُ الإتباعِ بالواوِ يقتضي أن يكونَ المعطوفُ بها قيدًا وشرطًا في ثبوتِ الخبرِ، لا حصولِهِ لكلِّ أفرادِ المبتدأِ(٢).

وعلى هذا يخرجُ ما رواه مسلمٌ في «صحيحِهِ» عن عائشةَ قالتْ: أُتي(٣) النبيُّ ﷺ بصبيٍ من الأنصارِ يصلي عليه: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، طوبى لهذا لم يعملْ شرًّا، ولم يدرِ به، قال: «**أو غيرَ ذلك يا عائشةُ؛ إن اللهَ خلقَ الجنةَ، وخلق لها أهلًا، وخلقَها لهم، وهم في أصلابِ آبائِهم، [وخلق النارَ، وخلق لها أهلًا وخلقَها لهم، وهم في أصلابِ آبائِهم]**(٤)»(٥) فهذا الحديثُ يدلُّ على أنه لا يشهدُ لكلِّ طفلٍ من أطفالِ المؤمنين بالجنةِ، وإن أطلقَ على أطفالِ المؤمنين في الجملةِ أنهم في الجنةِ، لكنَّ الشهادةَ للمعينِ [ممتنعةٌ، كما يشهدُ للمؤمنين(٦) مطلقًا أنهم في الجنةِ، ولا يشهدُ لمعينٍ](٧) بذلك إلا من شهد له النبيُّ ﷺ(٨)، فهذا وجهُ هذا الحديثِ الذي أشكل على كثيرٍ من

---

(١) سقط من م.

(٢) عن ابن عباس ﵄ قال: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الذين أدرك ذرياتهم الإيمان، فعملوا بطاعتي، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة» وهو مروي عن الضحاك. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧/ ٢٥). قال أبو السعود في «تفسيره» (٨/ ١٤٨): «وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ وقيل: اعتراض. وقوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلق بالاتباع أي: اتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة، قاصر عن رتبة إيمان الآباء، واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقًا».

(٣) في م: «دُعي». (٤) سقط من م.

(٥) رواه مسلم، ح (٢٦٦٢)، وأبو داود، ح (٤٧١٣)، والنسائي، ح (١٩٤٧)، وابن ماجه، ح (٨٢)، وأحمد (٦/ ٤١و٢٠٨).

(٦) في ك: «للمؤمن». (٧) سقط من م.

(٨) قال في «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٢٦): «لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة: إنه من أهل الجنة، أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة، كالعشرة ﷺ، وإن كنا نقول: إنه لابد أن يدخل النار من أهل الكبائر من يشاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنا نقِفُ في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة، ولا نار، إلا عن علم؛ لأن حقيقة باطنه، وما مات عليه لا نُحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء».

الناسِ. وردَّه الإمامُ أحمدُ(١) "وقال: لا يصحُّ، ومن يشكُّ أن أولادَ المسلمين [في الجنةِ](٢)؟» وتأوله قومٌ بتأويلاتٍ بعيدةٍ.

المَذْهَبُ الثامنُ: أَنَّهُمْ يُمتحنونَ فِي عَرصةِ القِيامَةِ

المذهب الثامن: أنهم يمتحنون في عرصةِ(٣) القيامةِ، ويُرسلُ إليهم هناك رسولٌ، وإلى كلِّ من لم تبلغْه الدعوةُ، فمن أطاع الرسولَ دخل الجنةَ، ومن عصاه أدخلَه النارَ.

وعلى هذا فيكونُ بعضُهم في الجنةِ، وبعضُهم في النارِ، وبهذا يتألفُ شملُ الأدلةِ [كلها](٤)، وتتوافقُ الأحاديثُ، ويكونُ معلومُ اللهِ ﷻ الذي أحال عليه النبيُّ ﷺ حيثُ يقولُ: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عاملين**»(٥) يظهرُ حينئذٍ، ويقعُ الثوابُ والعقابُ عليه، حال كونِهِ معلومًا خارجيًّا، لا علمًا مجردًا، ويكونُ النبيُّ ﷺ قد ردَّ جوابَهم إلى علمِ اللهِ فيهم، واللهُ تعالى يردُّ ثوابَهم وعقابَهم إلى معلومِهِ منهم، فالخبرُ عنهم مردودٌ إلى علمِهِ، ومصيرُهم مردودٌ إلى معلومِهِ، وقد جاءت بذلك آثارٌ كثيرةٌ يؤيدُ بعضُها بعضًا، فمنها:

ما رواه أحمدُ في مسندِهِ، والبزارُ(٦) أيضًا بإسنادٍ صحيحٍ، فقال أحمدُ(٧): حدثنا معاذُ بنُ هشامٍ(٨) عن أبيهِ(٩) عن قتادةَ(١٠) عن الأحنفِ بن قيسٍ(١١) عن الأسودِ بنِ سريعٍ

---

(١) سبق. (٢) سقط من م، ك. (٣) في م: «عرصات».
(٤) سقط من م. (٥) سبق تخريجه.
(٦) أبو بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البصري، المعروف بالبزار، صاحب «المسند الكبير المعلل» إمام حافظ، ارتحل في آخر عمره ينشر علمه. توفي سنة (٢٩٢هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٣٤)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٦٦)، و«طبقات الحفاظ» (٢٨٩).
(٧) في م، ك: «الإمام أحمد».
(٨) معاذ بن هشام بن أبي عبد الله الدَّسْتُوَائي البصري، قال الذهبي: صدوق صاحب حديث ومعرفة. توفي سنة (٢٠٠هـ). ينظر: «الكامل» لابن عدي (٦/ ٤٣٣)، و«ميزان الاعتدال» (٦/ ٤٥٣)، و«تهذيب التهذيب» (١٠/ ١٧٧).
(٩) هشام بن أبي عبد الله سَنْبَر البصري الرَّبَعي-مولاهم-الدَّسْتُوَائي، وقد رمي بالقدر، وقيل: رجع عنه. توفي سنة (١٥٤هـ). ينظر: «ميزان الاعتدال» (٧/ ٨٣)، و«السير» (٧/ ١٤٩)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٤٠).
(١٠) قتادة: سبقت ترجمته.
(١١) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي، أبو بحر البصري، واسمه الضحاك، وقيل: صخر، والأحنف لقب له، وهو في عداد المخضرمين؛ أدرك النبي ﷺ ولم يُسلم، كان شريف قومه، ويضرب به المثل في الحلم، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» (٤/ ٥٥). توفي سنة (٦٧هـ). ينظر: =

أن النبيَّ ﷺ قال: «**أربعةٌ يحتجون يومَ القيامةِ: رجلٌ أصمٌّ لا يسمعُ، ورجلٌ أحمقُ، ورجلٌ هرمٌ**[١]، **ورجلٌ مات في الفترةِ**[٢] **أما الأصمُّ فيقولُ: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وأنا ما أسمعُ شيئًا، وأما الأحمقُ فيقولُ: ربِّ لقد جاء الإسلامُ، والصبيانُ يحذفوني**[٣] **بالبعرِ، وأما الهرمُ فيقولُ**[٤]: **لقد جاء الإسلامُ وما أعقل. وأما الذي [مات]**[٥] **في الفترةِ فيقولُ: ربِّ، ما أتاني رسولٌ، فيأخذُ مواثيقَهم لَيُطِيعُنَّه، فيرسلُ إليهم رسولًا أن ادخلوا النارَ، فوالذي نفسي بيدِهِ لو دخلوها لكانتْ عليهم بردًا وسلامًا**»[٦] قال معاذٌ: وحدثني أبي عن قتادةَ عن الحسنِ عن أبي رافعٍ[٧] عن أبي هريرةَ بمثلِ هذا الحديثِ، وقال في آخرِهِ: «**فمن دخلها كانتْ عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلْها ردَّ إليها**»[٨].

وهو في مسندِ إسحاقَ عن معاذِ بنِ هشامٍ أيضًا[٩]، ورواه البزارُ، ولفظُه: عن الأسودِ ابنِ سريعٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُعرضُ على اللهِ تبارك وتعالى الأصمُّ الذي لا يسمعُ شيئًا، والأحمقُ والهرمُ، ورجلٌ مات في الفترةِ، فيقولُ الأصمُّ: ربِّ جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئًا. ويقولُ الأحمقُ**[١٠]: **ربِّ جاء الإسلامُ وما أعقلُ شيئًا، ويقولُ الذي مات في الفترةِ: ربِّ ما أتاني لك من رسولٍ، وذكر الهرمَ، وما يقولُ، قال: فيأخذُ مواثيقَهم**

= «طبقات ابن سعد» (٧/ ٩٣)، و«الإصابة» (١/ ١٨٧)، و«تهذيب التهذيب» (١/ ١٦٧).

(١) في م، ك، س: «ورجل هرم، ورجل أحمق».

(٢) الفترة: هي ما بين الرسولين من المدة التي لا وحي فيها. ينظر: «مقدمة فتح الباري» لابن حجر (١٦٥)، و«الصحاح» للجوهري (٢/ ٦٦٦)، و«لسان العرب» (٥/ ٤٤)، و«القاموس المحيط» (٥٨٤).

(٣) في س: «يحذفونني». (٤) في م: «فيقول: رب». (٥) سقط من ك، س.

(٦) رواه أحمد (٤/ ٢٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦/ ٣٥٦)، ح (٧٣٥٧)، وإسحاق بن راهويه في «المسندِ» (١/ ١٢٢)، والبزار «كشف الأستار» (٣/ ٣٣)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٨٧). وصححه الألباني، ينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣/ ٤١٨)، ح (١٤٣٤).

(٧) أبو رافع الصائغ، واسمه نفيع المدني ثم البصري، من كبار التابعين، وثقه العجلي وغيره، وقال أبو حاتم: ليس به بأس. توفي سنة: نيف وتسعين. ينظر: «الاستيعاب» (٤/ ١٦٥٦)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٥٥)، و«الإصابة» (٧/ ١٤٨).

(٨) رواه أحمد (٤/ ٢٤) وإسحاق بن راهويه، في «المسندِ» (١/ ١٢٢)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣٥) وقال: وهذا إسناد صحيح. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢١٦): ورجاله رجال الصحيح.

(٩) «مسند إسحاق بن راهويه» (١/ ١٢٢)، ح (٤١).

(١٠) في ك، س: «والأحمق يقول».

لَيُطِيعُنَّهُ فيرسلُ إليهم تبارك وتعالى: ادخلوا النارَ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لو دخلوها لكانتْ عليهم بردًا وسلامًا»(١).

قال الحافظُ عبدُالحقِّ في حديثِ الأسودِ: «قد جاء هذا الحديثُ، وهو صحيحٌ فيما أعلمُ، والآخرةُ ليست دارَ تكليفٍ ولا عملٍ، ولكن اللهَ يخصُّ(٢) من شاء(٣) بما شاء ويكلفُ من شاءَ بما(٤) شاء، وحيثُ ما شاء، لا يُسألُ عما يفعلُ وهم يُسألون»(٥).

قلت: وسيأتي الكلامُ على وقوعِ التكليفِ في الدارِ الآخرةِ أو امتناعِهِ، عن قربٍ إن شاء اللهُ.

ورواه عليُّ بنُ المديني عن معاذٍ بنحوهِ(٦)، قال البيهقيُّ(٧): حدثنا عليُّ [بنُ محمدٍ](٨) بنِ بشرانَ(٩).

حدثنا أبو جعفرٍ الرزازُ(١٠)، حدثنا حنبلُ بنُ [إسحاقَ](١١)، حدثنا عليُّ بنُ عبدِاللهِ،

---

(١) «كشف الأستار» (٣/ ٣٣).	(٢) في م: «يختص».	(٣) في م: «يشاء».

(٤) في م: «ما».

(٥) كتاب العاقبة، للحافظ عبد الحق الأشبيلي (ص/٢٥٩)، باب: ما جاء في أهل الفترة، ح (٥٨٤).

(٦) وهذا هو الحديث الذي رواه البيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣٥).

(٧) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخُسْرَوجِرْدي، فقيه شافعي، حافظ كبير مشهور، صاحب تصانيف، حتى قيل: تبلغ تصانيفه ألف جزء، وله «السنن الكبير» و«السنن الصغير» و«دلائل النبوة» و«الآثار» و«شعب الإيمان» وغيرها. توفي سنة (٤٥٨هـ). ينظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٤٦)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ٢١٩)، و«طبقات الحفاظ» (٤٣٣).

(٨) سقط من م.

(٩) علي بن محمد بن عبد الله بن بشران بن محمد بن بشر بن مهران، أبو الحسين الأموي المعدل، قال الخطيب: كان صدوقًا، ثقة، ثبتًا. توفي سنة (٤١٥هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٩٨)، و«المنتظم» لابن الجوزي (٨/ ١٨)، و«العبر» للذهبي (٣/ ١٢٢).

(١٠) محمد بن عمرو بن البختري بن مدرك بن أبي سليمان، أبو جعفر البغدادي الرَّزَّاز، قال الخطيب: كان ثقة ثبتًا. توفي سنة (٣٣٩هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (٣/ ١٣٢)، و«تكملة الإكمال» (٣/ ٢٣)، و«السير» (١٥/ ٣٨٥).

(١١) في جميع النسخ: «حنبل بن الحسين» والمثبت من كتاب: «الاعتقاد» للبيهقي (١٣٥).

وهو: حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد، أبو علي الشيباني، قال الخطيب: كان ثقة ثبتًا. توفي سنة (٢٧٣هـ). ينظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ١٤٣)، و«تاريخ بغداد» (٨/ ٢٨٦)، و«السير» (١٣/ ٥١).

وقال: هذا إسنادٌ صحيحٌ[(١)].

وأما حديثُ[(٢)] ابنِ زيدٍ[(٣)] ابنِ جدعانَ[(٤)] عن أبي رافعٍ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ نحوه[(٥)].

ورواه معمرٌ عن عبدِ اللهِ بن طاوسٍ[(٦)] عن أبيهِ[(٧)] عن أبي هريرةَ قولَه[(٨)]، وروى محمدُ بنُ المباركِ الصوريُّ[(٩)]. ثقةٌ.، حدثنا عمرو بنُ واقدٍ[(١٠)]. ضعيفٌ. حدثنا يونسُ ابنُ ميسرةَ[(١١)] - ثقةٌ - عن أبي إدريسَ.........................

---

(١) «كتاب الاعتقاد» للبيهقي (١٣٥). (٢) في (ع) ترك بياض بمقدار ثمان كلمات.

(٣) في م، ك، س «علي بن زيد».

(٤) علي بن زيد بن عبد الله بن زهير -أبي مليكة- بن جدعان، أبو الحسن القرشي التيمي البصري، قال البخاري وغيره: لا يحتج به، وقال الإمام أحمد: ضعيف. توفي سنة (١٣١هـ). ينظر: «الكامل» لابن عدي (٥/ ١٩٥)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ٤٣٤).

(٥) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٧٦)، وفيه: علي بن زيد بن جدعان، قال عنه الحافظ ابن حجر: ضعيف. «التقريب» (٤٠١).

(٦) عبد الله بن طاووس بن كيسان الهمداني الخولاني، أبو محمد اليماني، إمام محدث مشهور، كان من العباد. توفي سنة (١٣٢هـ). ينظر: الجرح والتعديل (٥/ ٨٨)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٢٣٤)، و«السير» (٦/ ١٠٣).

(٧) طاوس بن كيسان الهمداني الخولاني، أبو عبد الرحمن اليماني الجَنَدي، وكان شيخ أهل اليمن ومفتيهم. توفي سنة (١٠٦هـ). ينظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٤٢٩)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٦٩)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٨).

(٨) التمهيد، لابن عبد البر (١٨/ ١٣٠).

(٩) محمد بن المبارك بن يعلى القرشي الصوري، أبو عبد الله القلانسي، وثقه غير واحد. توفي سنة: ٢١٥هـ). ينظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٨٢)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٣٧٥)، و«طبقات الحفاظ» (١٦٩).

(١٠) عمرو بن واقد القرشي، أبو حفص الدمشقي، مولى بني أمية، أو بني هاشم، قال أبو مسهر: ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني والبرقاني: متروك الحديث. توفي ما بين (١٣٠-١٤٠هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٦/ ٢٦٧) و«الكامل» لابن عدي (٥/ ١١٧)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ١٠١).

(١١) يونس بن ميسرة بن حَلْبَس الجبلاني الحميري، أبو حلبس، ويقال: أبو عبيد الدمشقي، وثقه أبو داود والدارقطني.

توفي سنة (١٣٢هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٤٦)، و«الثقات» (٧/ ٦٤٨)، و«تهذيب الكمال» (٣٢/ ٥٤٤).

الخولانيِّ[١] عن معاذٍ[٢] يرفعُهُ: **«يؤتى يومَ القيامةِ بالممسوخِ عقلًا، وبالهالكِ في الفترةِ، وبالهالكِ صغيرًا،فيقولُ الممسوخُ عقلًا: يا ربِّ، لو آتيتني عقلًا ما كان من آتيتَه عقلًا بأسعدَ مني، ويقولُ الهالكُ في الفترةِ: يا ربِّ، لو أتاني منك عهدٌ ما كان من أتاه منك عهدٌ بأسعدَ بعهدِه مني، ويقولُ الهالكُ صغيرًا: ياربِّ لو آتيتني عمرًا ما كان من آتيتَه عمرًا بأسعدَ مني، فيقولُ الربُّ سبحانه: إني آمركُم بأمرٍ، أفتطيعوني[٣]؟ فيقولون: نعم، وعزتِكَ. فيقولُ: اذهبوا، فادخلوا النارَ، فلو دخلوها ما ضرَّهُم، قال: فيخرجُ عليهم قوابسُ، ظننا أنها قد أهلكتْ ما خلقَ اللهُ من شيءٍ، فيأمرُهم الثانيةَ، فيرجعون كذلك، ويقولون مثلَ قولِهم، فيقولُ اللهُ سبحانه: قبل أن تخلقوا علمتُ ما أنتم عاملون، وعلى علمِي خلقتُكم وإلى علمي تصيرون، فتأخذُهُمُ النارُ»**[٤].

فهذا، وإن كان [فيه][٥] عمرو بنُ واقدٍ [و][٦] لا يحتجُّ به، فله أصلٌ، وشواهدُ والأصولُ تشهدُ له[٧]، وفي البابِ أحاديثُ غيرُ هذا[٨].

وقد رويت أحاديثُ الامتحانِ في الآخرةِ من حديثِ الأسودِ بن سريعٍ، وصححه عبدُالحقِّ، والبيهقيُّ. ومن حديثِ أبي هريرةَ، وأنسٍ، ومعاذٍ، وأبي سعيدٍ.

فأما حديثُ الأسودِ، فرواه معاذُ بنُ هشامٍ عن أبيهِ عن قتادةَ عن الأحنفِ بن قيسٍ عن الأسودِ بنِ سريعٍ، أن النبيَّ ﷺ.

قال معاذٌ: وحدثني أبي، عن قتادةَ، عن الحسنِ، عن أبي رافعٍ، عن أبي هريرةَ.

---

(١) عائذ الله بن عبد الله بن عمرو، ويقال: عَيِّذ الله، أبو إدريس الخولاني، واختلف في سماعه من معاذ، وصححه أبو عمر بن عبد البر، وهو من كبار التابعين. توفي سنة (٨٠هـ). ينظر: «الاستيعاب» (٢/ ٨٠٠)، و«أسد الغابة» (٥/ ٨)، و«الإصابة» (٥/ ٥).

(٢) سبقت ترجمته. (٣) في م: «أتطيعوني».

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٨٣)، والأوسط (٨/ ٥٧)، وأورده الحكيم الترمذي في «النوادر» (١/ ٣١٢)، وقال في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٧): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وفيه عمرو بن واقد، وهو متروك عند البخاري وغيره».

(٥) سقط من ك، س. (٦) سقط من م.

(٧) له شواهد من حديث: أنس، وأبي سعيد، والأسود بن سريع، وأبي هريرة ﷺ. ينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٥/ ٦٠٣).

(٨) ينظر: «التمهيد» لابن عبد البر (١٨/ ٩٦).

رواه أحمدُ[١] وإسحاقُ[٢] عن معاذٍ. ورواه حمادُ بنُ سلمةَ عن عليِّ بنِ زيدِ بن جدعانَ عن أبي رافعٍ عن أبي هريرةَ، ورواه معمرٌ عن ابنِ طاوسٍ عن أبيهِ عن أبي هريرةَ موقوفًا عليه، وهذا [لا يضرُّ][٣] الحديثَ؛ فإنه إن سلك طريقَ ترجيحِ الزائدِ لزيادتِهِ فواضحٌ، وإن سلك طريقَ المعارضةِ فغايتُها تحققُ الوقفِ، ومثلُ هذا لا يقدمُ عليهِ بالرأيِّ؛ إذ لا مجالَ له [فيه، بل يجزمُ][٤] بأن هذا توقيفٌ لا عن رأي وأما حديثُ أنسٍ[٥] فرواه جريرُ ابنُ عبدِ الحميدِ[٦] عن ليثِ بنِ أبي سليمٍ[٧] عن عبدِالوارثِ[٨] عن أنسٍ قال: قال[٩] رسولُ اللهِ ﷺ: **«يُؤتى يومَ القيامةِ بأربعةٍ: بالمولودِ وبالمعتوهِ، وبمن[١٠] مات في الفترةِ، وبالشيخِ الفاني، كلُّهم يتكلمُ بحجتِهِ، فيقولُ الربُّ تعالى لعنقٍ من جهنمَ: ابرزي، ويقولُ لهم: إني كنتُ أبعثُ إلى عبادي رسولًا من أنفسِهم، وإني رسولُ نفسي إليكم، قال: ويقولُ لهم: ادخلوا هذهِ، ويقولُ من كُتِبَ عليه الشقاءُ أنَّى ندخلُها ومنها كنا نَفرُّ؟ قال: وأما من كُتِبَ عليه السعادةُ فَيَمْضِي، فيقتحمُ فيها، فيقولُ اللهُ: فأنتم لرسلي[١١] أشدُّ تكذيبًا، فيدخلُ هؤلاءِ إلى الجنةِ، وهؤلاءِ إلى النارِ»**[١٢].

وهذا وإن لم يعتمدْ عليه بمجردِهِ، لمكانِ ليثِ بنِ أبي سليمٍ وتضعيفِ الدارقطني لعبدِ الوارثِ[١٣] فهو مما يعتضدُ به، وقال البيهقيُّ:

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٤).
(٢) «مسند إسحاق بن راهويه» (١/ ١٢٣).
(٣) سقط من م.
(٤) في ك: «فيقبل بجزم».
(٥) أنس بن مالك: سبقت ترجمته.
(٦) جرير بن عبد الحميد بن قرط الضبي، أبو عبد الله الرازي، محدث الري. توفي سنة (١٨٨هـ) ينظر: «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٥٣)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ١١٩)، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٦٥).
(٧) ليث بن أبي سليم: سبقت ترجمته.
(٨) عبد الوارث الأنصاري، مولى أنس بن مالك الأنصاري، روى عن أنس، قال أبو حاتم: شيخ وضعفه الدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: مجهول. ينظر: الجرح والتعديل (٦/ ٧٤)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٣١).
(٩) في ك: «عن أنس عن رسول الله ﷺ».
(١٠) في م: «بالذي».
(١١) في م: «برسلي».
(١٢) رواه أبو يعلى في «المسند» (٧/ ٢٢٥)، والبزار «كشف الأستار» (٣/ ٣٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» (١٣٥). وصححه الألباني، ينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥/ ٦٠٣)، ح (٢٤٦٨).
(١٣) ينظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٤/ ٤٣١).

أخبرنا أبو عبدِ اللهِ الحافظُ[(١)]، أخبرنا أبو العباسِ[(٢)] أخبرنا العباسُ[(٣)] بنُ الوليدِ أخبرنا [ابنُ شعيبٍ[(٤)]، حدثني شيبانُ[(٥)]، عن ليثِ بنِ أبي سليمٍ عن عبدِ الوارثِ[(٦)] عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ][(٧)].

وأما حديثُ معاذٍ فقد تقدم[(٨)] الكلامُ عليه. وأما حديثُ أبي سعيدٍ فرواه محمدُ بنُ يحيى الذهليُّ[(٩)] أخبرنا سعيدُ بنُ سليمانَ[(١٠)] عن فضيلِ بنِ مرزوقٍ[(١١)] ....

---

(١) أبو عبد الله الحاكم: سبقت ترجمته.

(٢) محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل بن سنان الأموي-مولاهم-السِّناني المعقلي النيسابوري، أبو العباس الأصم، إمام، محدث، حافظ، كثير الترحال. توفي سنة (٣٤٦هـ). ينظر: «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٥٢)، و«السير» (١٥/ ٤٥٢)، و«طبقات الحفاظ» (٣٥٥).

(٣) العباس بن الوليد بن مزيد الفذري البيروتي، أبو الفضل، قال أبو حاتم: صدوق، وقال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في «الثقات». توفي سنة (٢٧١هـ). ينظر: «الثقات» لابن حبان (٨/ ٥١٢)، و«السير»: (١٢/ ٤٧١)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ١١٥).

(٤) في ع، م، ك، س: «أخبرنا أبو العباس بن الوليد، أخبرنا ابن شعيب» وهو خطأ والمثبت من كتاب «الاعتقاد» (١٧٠). وابن شعيب هو: محمد بن شعيب بن شابور القرشي الأموي، أبو عبد الله الشامي الدمشقي، قال الإمام أحمد: ما أرى به بأسًا، كان رجلًا عاقلًا. توفي سنة (١٩٩هـ).
ينظر: «الثقات»، لابن حبان (٩/ ٥٠)، وتهذيب الكمال (٢٥/ ٣٧٠)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٣٠).

(٥) شيبان بن عبد الرحمن التميمي مولاهم النحوي، أبو معاوية البصري المؤدب، وثقه يحيى بن معين وغيره. توفي سنة (١٦٤هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٤/ ٣٥٥)، و«تهذيب الكمال» (١٢/ ٥٩٢)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٣٩٢).

(٦) في م، ك، س «عبد الرزاق».

(٧) سقط من ك. وانظر: «كتاب الاعتقاد» للبيهقي (١٧٠).

(٨) في س: «فتقدم».

(٩) محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد بن فارس الذُّهْلي، أبو عبد الله النيسابوري، إمام أهل الحديث بخراسان. توفي سنة (٢٥٨هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (٣/ ٤١٥)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٨٧)، و«تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٥٢).

(١٠) سعيد بن سليمان الضَّبِّي، أبو عثمان الواسطي البزاز المعروف بسعدويه. توفي سنة (٢٢٥هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٤/ ٢٦)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ٨٤)، و«تهذيب الكمال» (١٠/ ٤٨٣).

(١١) فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشي، ويقال: الرؤاسي الكوفي، أبو عبد الرحمن العنزي - مولاهم - وثقه ابن عيينة وابن معين، وقال الحافظ في «التقريب» (٤٤٨): صدوق يهم. توفي سنة (١٧٠هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٧/ ٧٥)، و«السير» (٧/ ٣٤٢)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٦٨).

عن عطيةَ(١) عن أبي سعيدٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الهالكُ في الفترةِ والمعتوهُ والمولودُ، يقولُ الهالكُ في الفترةِ: لم يأتني كتابٌ، ويقولُ المعتوهُ: ربِّ لم تجعل لي عقلًا أعقلُ به خيرًا ولا شرًّا. ويقولُ المولودُ: ربِّ لم أدركِ العقلَ. فترفعُ(٢) لهم نارٌ فيقولُ: رِدُوها، [قال](٣): فَيَرِدها من كان في علمِ اللهِ سعيدًا لو أدركَ العملَ، ويمسكُ عنها من كان في علمِ اللهِ شقيًّا لو أدرك العملَ، فَيقولُ: إياي عصيتُم، فكيف لو رسُلي أتتكُم؟!**»(٤).

تابعه الحسنُ بنُ موسى(٥) عن فضيلٍ، ورواه أبو نعيمٍ(٦) عن فضيلِ بنِ مرزوقٍ، فوقفه(٧).

فهذا، وإن كان فيه عطيةُ، فهو ممن يعتبرُ بحديثِهِ، ويستشهدُ به، وإن لم يكنْ حجةً. وأما الوقفُ فقد تقدم نظيرُه في(٨) حديثِ أبي هريرةَ(٩).

فهذهِ الأحاديثُ يشدُّ(١٠) بعضُها بعضًا، ويشهدُ لها أصولُ الشرعِ وقواعدُهُ.

---

(١) عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي القيسي، أبو الحسن العوفي، ضعفه الثوري، والإمام أحمد، وأبو حاتم، والنسائي، وغيرهم، قال ابن عدي: وهو مع ضعفه يكتب حديثه، مشهور بالتدليس. توفي سنة (١١١هـ). ينظر: «المجروحين» لأبي حاتم (٢/ ١٧٦)، و«الكامل» لابن عدي (٥/ ٣٦٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ١٤٥) و«طبقات المدلسين» (٥٠).

(٢) في س: «فترتفع». (٣) سقط من م.

(٤) رواه ابن الجعد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٣٨)، والبزار «كشف الأستار» (٣/ ٣٤)، واللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٠٣)، وقال في «المجمع» (٧/ ٢١٦): «رواه البزار وفيه عطية، وهو ضعيف».

(٥) الحسن بن موسى الأشيب، أبو علي البغدادي، قاضي طبرستان، وثقه يحيى بن معين وغيره. توفي سنة (٢٠٩هـ). ينظر: «الجرح والتعديل» (٣/ ٣٧)، و«تهذيب الكمال» (٦/ ٣٢٨)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٧٠).

(٦) أبو نعيم: الفضل بن دكين، واسم دكين: عمرو بن حماد بن زهير الكوفي الملائي، من أئمة الحديث في عصره، ومن أثباتهم فيه. توفي سنة (٢١٩هـ). ينظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٤٦)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٧٣)، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٢٤٣).

(٧) عزاه المؤلف في كتاب: «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٩) و(١١٤٣-١١٤٤) إلى كتاب «الرد على ابن قتيبة» لمحمد بن نصر المروزي، وهو غير مطبوع.

(٨) في ك: «من». (٩) تقدم. (١٠) في م: «يشهد».

والقولُ بمضمونِها هو مذهبُ السلفِ والسنةِ، نقلُه عنهم الأشعريُّ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المقالاتِ» وغيرِها[٢].

الرَّدُّ عَلَى ابنِ عَبْدِ البَرِّ

فإن قيل: قد أنكر ابنُ عبدِ البرِّ هذهِ الأحاديثَ، وقال: «أهلُ العلمِ ينكرون أحاديثَ هذا البابِ؛ لأن الآخرةَ ليستْ دارَ عملٍ ولا ابتلاءٍ، وكيف[٣] يكلفون دخولَ النارِ، وليس ذلك في وسعِ المخلوقين، واللهُ لا يكلفُ نفسًا إلا وسعَها»[٤]. فالجوابُ من وجوهٍ:

أحدُها: أن أهلَ العلمِ لم يتفقوا على إنكارِها؛ بل ولا أكثرهم، وإن أنكرها بعضُهم فقد صححَّ غيرُه[٥] بعضَها كما تقدَّم.

الثاني: أن أبا الحسنِ الأشعريَّ حكى هذا المذهبَ عن أهلِ السنةِ والحديثِ، فدلَّ على أنهم ذهبوا إلى موجبِ هذهِ الأحاديثِ.

الثالثُ: أن إسنادَ حديثِ الأسودِ أجودُ من كثيرٍ [من][٦] الأحاديثِ التي يحتجُّ بها في الأحكامِ، ولهذا رواه الأئمةُ أحمدُ، وإسحاقُ، وعليُّ بنُ المدينيِّ.

الرابعُ: أنه قد نصَّ جماعةٌ من الأئمةِ: على وقوعِ الامتحانِ في الدارِ الآخرةِ، وقالوا: لا ينقطعُ التكليفُ إلا بدخولِ دارِ القرارِ، ذكره البيهقيُّ عن غيرِ واحدٍ من السلفِ[٧].

الخامسُ: ما ثبت في «الصحيحين» من حديثِ أبي هريرةَ، وأبي سعيدٍ في الرجلِ الذي هو آخرُ أهلِ الجنةِ دخولًا إليها، أن اللهَ تعالى يأخذُ عهودَه ومواثيقَه أن لا يسألَه غيرَ الذي يُعطيه، وأنه يخالفُه ويسألُه غيرَه، فيقولُ اللهُ له: **«ما أغدرَكَ»**[٨] وهذا الغدرُ منه هو لمخالفتِهِ العهدَ[٩] الذي عاهد ربَّهُ[١٠] عليهِ.

---

(١) سبقت ترجمته. (٢) «المقالات» (ص/٢٩٦)، و«الإبانة» (١/ ٣٣).

(٣) في م: «فكيف». (٤) «الاستذكار» (٨/ ٤٠٣).

(٥) في م: «بعضهم». (٦) سقط من س.

(٧) ينظر: «كتاب الاعتقاد» للبيهقي (ص/١٤٦) وما بعدها.

(٨) رواه البخاري، ح (٧٧٣)، وح (٦٠٨٨)، وح (٧٠٠٠) ومسلم، ح (١٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٧٥، و٢٩٣ و٥٣٣).

(٩) في ك، س: «للعهد». (١٠) في ع: «الله».

السادسُ: قولُه: وليس ذلك في وسعِ المخلوقين. جوابُهُ من وجهين:

أحدُهما: أن ذلك ليس تكليفًا بما ليس في الوسعِ، وإنما هو تكليفٌ بما فيه مشقةٌ شديدةٌ، وهو كتكليفِ بني إسرائيلَ قتلَ أولادِهِم وأزواجِهِم وآبائِهم، حين عبدُوا العجلَ(١)، وكتكليفِ المؤمنين، إذا رأوا الدجالَ، ومعه مثالُ الجنةِ والنارِ، أن يقعوا في الذي يرونه نارًا(٢).

[و](٣) **الثاني**: أنهم لو أطاعوه ودخلُوها، لم تضرَّهُم، وكانت بردًا وسلامًا، فلم يُكلفوا بممتنعٍ ولا بما يشقُّ.

السابعُ: أنه قد ثبتَ أنه سبحانه يأمرُهم في القيامةِ بالسجودِ، ويحولُ بين المنافقين وبينه(٤)، وهذا تكليفٌ بما ليس في الوسعِ قطعًا، فكيف يُنكرُ التكليفُ بدخولِ النارِ في رأي العينِ إذا كان سببًا إلى النجاةِ؟(٥) كما جُعل قطعُ الصراطِ، الذي هو أدقُّ من الشعرةِ، وأحدُّ من السيفِ، ([سببًا للنجاةِ،](٦) كما قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: «بلغني أنه أدقُّ من الشعرةِ، وأحدُّ من السيفِ")(٧) رواه مسلمٌ(٨)، فركوبُ هذا الصراطِ الذي هو في غايةِ المشقةِ، كاقتحامِ النارِ، ولهذا كلاهما يفضى منه إلى النجاةِ واللهُ أعلمُ.

الثامنُ: أن هذا استبعادٌ مجردٌ لا تردُّ بمثلِهِ الأحاديثُ، والناسُ لهم طريقان: فمن سلكَ طريقَ المشيئةِ المجردةِ(٩)، لم يمكنْه أن يستبعدَ هذا التكليفَ.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤].

(٢) عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **«إن مع الدجال إذا خرج ماءً ونارًا، فأما الذي يرى الناس أنها النار فماء بارد، وأما الذي يرى الناس أنه ماء بارد فنار تحرق، فمن أدرك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار؛ فإنه عذب بارد»** رواه البخاري، ح (٣٢٦٦) ومسلم، ح (٢٩٣٤).

(٣) سقط من م.

(٤) رواه البخاري، ح (٤٦٣٥) ومسلم، ح (١٨٣). من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) في م: «سببًا للنجاة».

(٦) سقط من ع.

(٧) سقط من م.

(٨) في كتاب، (١/ ١٧٠)، ح (١٨٣).

(٩) في ك: «طريق المشيئة لم يمكنه»، وفي ع: بياض بعد هذه الكلمة بمقدار ست كلمات.

ومن سلك طريقَ الحكمةِ والتعليلِ، لم يكنْ معه حجةٌ تنفي أن يكونَ هذا التكليفُ موافقًا للحكمةِ، بل الأدلةُ الصحيحةُ تدلُّ على أنه مقتضى الحكمةِ، كما ذكرناه.

التاسعُ: أن في أصحِّ هذهِ الأحاديثِ، وهو حديثُ الأسودِ، أنهم يُعطُون ربَّهم المواثيقَ [لَيُطِيْعُنَّهُ] (١) فيما يأمرُهم به، فيأمرُهم أن يدخلوا نارَ الامتحانِ، فيتركوا(٢) الدخولَ معصيةً لأمرِهِ، لا لعجزِهِم عنه، فكيفَ يقالُ: إنه ليس في الوسعِ؟. فإن قيل: فالآخرةُ دارُ جزاءٍ، وليست دارَ تكليفٍ فكيف يُمتحنون في غيرِ دارِ التكليفِ؟

فالجوابُ: أن التكليفَ إنما ينقطعُ بعد دخولِ دارِ القرارِ، وأما في البرزخِ، وعرصاتِ القيامةِ، فلا ينقطعُ، وهذا معلومٌ بالضرورةِ من الدينِ، من وقوعِ التكليفِ بمُساءلةِ الملكين في البرزخِ، وهي تكليفٌ، وأما في عرصةِ القيامةِ، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ [القَلَم: الآية ٤٢] فهذا صريحٌ في أنَّ اللهَ تعالى يدعُو الخلائقَ إلى السجودِ يومَ القيامةِ، وأن الكفارَ يحالُ بينهم وبين السجودِ إذ ذاك، ويكونُ هذا التكليفُ بما لا يطاقُ حينئذٍ حسنًا عقوبةً لهم؛ لأنهم كُلِّفُوا به في الدنيا وهم يُطيقونه، فلما امتنعوا منه، وهو مقدورٌ لهم، كلفوا به وهم لا يقدرون عليه(٣) حسرةً عليهم، وعقوبةً لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القَلَم: الآية ٤٣] [يعني: أصحاءَ لا آفةَ تمنعهم منه(٤)، فلما تركوه وهم سالمون](٥) دُعُوا إليه في وقتٍ حيل بينهم وبينه، كما في الصحيحِ من حديثِ زيدِ بنِ أسلمَ(٦) عن عطاءٍ عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه: «إن ناسًا قالوا: يا رسولَ اللهِ، هل نرى ربنا... فذكر الحديثَ بطولِهِ، إلى أن قال: فيقولُ: «**تتبعُ كلُّ أمةٍ ما كانت تعبدُ، فيقولُ المؤمنون: فارقْنا(٧) الناسَ في الدنيا أفقرَ ما كنا إليهم، ولم نصاحبْهم، فيقولُ: أنا ربُّكم، فيقولون:**

---

(١) سقط من م. (٢) في م: «فيتركون».

(٣) في ع: «وهم لا يطيقونه حسرة».

(٤) ينظر في هذا: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥١).

(٥) سقط من م.

(٦) زيد بن أسلم، أبو عبد الله القرشي العدوي العُمري المدني، ويقال: أبو أسامة، الفقيه، وكان من العلماء العاملين، وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن. وقد توفي سنة (١٣٦هـ). ينظر: «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢١)، و«تهذيب الكمال» (١٠/ ١٢).

(٧) في م: «تركنا».

نعوذُ باللهِ منك لا نشركُ باللهِ شيئًا مرتين أو ثلاثًا، حتى إن بعضَهم ليكادُ أن ينقلبَ، فيقولُ: هل بينكم وبينه آيةٌ تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشفُ عن ساقٍ، فلا يبقى من كان يسجدُ للهِ من تلقاءِ نفسِهِ إلا أذن اللهُ له بالسجودِ، ولا يبقى من كان يسجدُ اتقاءً ورياءً إلا جعل اللهُ ظهرَه طبقةً واحدةً، كلما أراد أن يسجدَ خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسَهم» وذكر الحديثَ [١].

وهذا التكليفُ[٢] نظيرُ التكليفِ في البرزخِ [بالمُساءلةِ، فمن أجاب في الدنيا طوعًا واختيارًا، أجاب في البرزخِ][٣]، ومن امتنع من الإجابةِ في الدنيا، مُنع منها في البرزخِ، ولم يكنْ تكليفُهُ في [تلك][٤] الحالِ، وهو غيرُ قادرٍ، قبيحًا، بل هو مقتضى الحكمةِ الإلهيةِ؛ لأنه كُلِّف[٥] وقتَ القدرةِ، فأبى، فإذا كُلِّفَ وقتَ العجزِ وقد حيل بينه وبين الفعلِ، كان عقوبةً له وحسرةً.

التَّكليفُ لَا يَنقطعُ إلا بِدخولِ الجَنَّةِ

والمقصودُ: أن التكليفَ لا ينقطعُ إلا بعدَ دخولِ الجنةِ أو النارِ، وقد تقدم أن حديثَ الأسودِ بنِ سريعٍ صحيحٌ، وفيه التكليفُ في عرصةِ القيامةِ، فهو مطابقٌ لما ذكرنا من النصوصِ [الصحيحةِ][٦] الصريحةِ، فعُلِم أن الذي تدلُّ عليهِ الأدلةُ الصحيحةُ وتأتلف به النصوصُ، و[هو][٧] مقتضى الحكمةِ، [هو] هذا القولُ. واللهُ أعلمُ.

وقد حكى بعضُ أهلِ المقالاتِ[٨] عن ثمامةَ[٩] بن أشرسَ[١٠] أنه ذهب إلى أن الأطفالَ يَصيرون يومَ[١١] القيامةِ ترابًا[١٢].

---

(١) سبق تخريجه. (٢) في ك: «تكليف». (٣) سقط من م.

(٤) سقط من ك، س. (٥) في ك: «مكلف».

(٦) سقط من م. (٧) سقط من ك، س.

(٨) «الفرق بين الفرق» (١٧٢)، والفصل، لابن حزم (٤/ ١٤٩)، و«التبصير في الدين» (ص/ ٧٩).

(٩) في ك، س: «عامر».

(١٠) ثمامة بن أشرس، أبو معن النميري البصري، من رؤوس المعتزلة في عصره، اشتهر عنه: أن المقلدين من أهل الكتاب وعبد ة الأوثان لا يدخلون النار، بل يصيرون ترابًا، وكذا أطفال المؤمنين يصيرون ترابًا، وقد ذكر عنه من القصص ما يدل على سخافته ومجونه، وقد قتله الخزاعيون في مكة، حيث إنه سعى في قتل أحمد بن نصر، سنة (٢١٣هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: «تاريخ بغداد» (٧/ ١٤٥)، و«الفرق بين الفرق» (١٧٢)، و«السير» (١٠/ ٢٠٣)، و«لسان الميزان» (٢/ ٨٣).

(١١) في ك، س: «في يوم القيامة».

(١٢) قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا قول لعله اخترعه من تلقاء نفسه، فلا يُعرف عن أحد من السلف، وكأن قائله =

وقد نُقل عن ابنِ عباسٍ(١) ومحمدِ ابنِ الحنفيةِ(٢) والقاسمِ بنِ محمدٍ(٣) وغيرِهم أنهم كَرِهوا الكلامَ في هذهِ المسألةِ جملةً(٤).

الزنادقةُ

الطبقةُ الخامسةَ عشرةَ(٥): طبقةُ الزنادقةِ(٦)، وهم قومٌ أظهروا الإسلامَ، ومتابعة

= رأى أنهم لا ثواب لهم ولا عقاب، فألحقهم بالبهائم، والأحاديث الصحاح والحسان وآثار الصحابة تُكذب هذا القول وترد عليه) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٥).

(١) عن ابن عباس ﷺ قال: أتى عليَّ زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين، حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** قال: فلقيت الرجل، فأخبرني، فأمسكت عن قولي. رواه أحمد (٥/ ٧٣)، قال الألباني: إسناده صحيح، ينظر: «السنة»، لابن أبي عاصم (١/ ٩٦).

(٢) محمد بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية، أمه الحنفية من سبي اليمامة، واسمها خولة بنت جعفر الحنفية، ولد في العام الذي مات فيه أبو بكر، وقد كان كثير العلم كثير الورع، وكانت الشيعة في زمانه تتغالى فيه، وتدعي إمامته، ولقبوه بالمهدي، ويزعمون أنه لم يمت. توفي سنة (٨١)هـ. ينظر: «طبقات ابن سعد» (٥/ ٩١)، و«طبقات الفقهاء»، للشيرازي (٤٥)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٣١٥) و«السير» (٤/ ١١٠).

(٣) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة، أبو عبد الرحمن القرشي التيمي المدني، كان من سادات التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان من أفضل أهل زمانه، ورعًا. توفي سنة (١٠٧)هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: «طبقات ابن سعد» (٥/ ١٨٧)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٢٦٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٧٤)، و«السير» (٥/ ٥٣).

(٤) ينظر: «التمهيد»، لابن عبد البر (١٨/ ١٣٢)، و«روضة المتكلمين في أصول الدين»، للغزنوي (٢١٠) و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٣)، و«حاشية ابن عابدين» (٢/ ١٩٢). قال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٨/ ١٥): «والحاصل أن مسألة أطفال الكفار باعتبار أمر الآخرة من المعارك الشديدة؛ لاختلاف الأحاديث فيها، ولها ذيول مطولة، لا يتسع لها المقام، وفي الوقف عن الجزم بأحد الأمرين سلامة من الوقوع في مضيق لم تدع إليه حاجة، ولا ألجأت إليه ضرورة. . .». وقد فصَّل المؤلف أقوال الناس في مسألة أطفال المشركين في كتاب: «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١٠٨٦) وفي «حاشية عون المعبود» (١٢/ ٣٢٠). وتنظر الأقوال في هذه المسألة في «التمهيد»، لابن عبد البر (١٨/ ١١٥)، و«المبسوط»، للسرخسي (٣٠/ ٢٥٤)، و«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، للقرطبي (٥٩١)، و«تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٣) و«إيثار الحق على الخلق»، للقاسمي (٣٣٩)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٢٤٦).

(٥) في جميع النسخ: «الخامسة عشر» والمثبت هو الصواب.

(٦) جمع زنديق، وهو لفظ فارسي معرب، وهو بالفارسية: [زَنْدِكِرايْ] ويراد به: القائل ببقاء الدهر، وكذا يطلق على من لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق جل وعلا، وعلى من اتبع دين المجوس. ينظر: «البارع =

الرسلِ، وأبطنوا الكفرَ، ومعاداةَ اللهِ ورسلِهِ.

وهؤلاءِ هم المنافقون، وهم في الدركِ الأسفلِ من النارِ، [قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٥]][١] ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ١٤٥] فالكفارُ المجاهرون بكفرِهم أخفُّ، فوقهم[٢] في دركاتِ النارِ؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفرِ ومعاداةِ اللهِ ورسلِهِ، وزاد[٣] المنافقون عليهم بالكذبِ والنفاقِ، وبليةُ المسلمين بهم أعظمُ من بليتِهم بالكفارِ المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقِّهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنَافِقون: الآية ٤].

وقيل[٤]: هذا اللفظُ يقتضي الحصرَ، أي: لا عدوَ إلا هم، ولكن لم يُرد هاهنا حصرَ العداوةِ منهم[٥]، وأنه لا عدوَ للمسلمين سواهم، بل هذا من [بابِ][٦] إثباتِ الأولويةِ والأحقيةِ لهم في هذا الوصفِ، وأنه لا يُتوهم بانتسابِهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتِهم لهم، ومخالطتِهم إياهم، أنهم ليسوا بأعدائِهم، بل هم أحقُّ بالعداوةِ ممن بَايَنهُم في الدارِ، ونصب لهم العداوةَ، وجاهرهم بها؛ فإن ضررَ هؤلاءِ المخالطين لهم المعاشرين[٧] لهم. وهم في الباطنِ على خلافِ دينِهم. أشدُّ عليهم من ضررِ من جاهرهم بالعداوةِ، وألزمُ وأدومُ؛ لأن الحربَ مع أولئكَ ساعةً أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبُه النصرُ والظفرُ، وهؤلاءِ معهم في الديارِ والمنازلِ صباحًا ومساءً، يَدلُّون العدوَ على عوراتِهم، ويتربصون بهم الدوائرَ، ولا يمكنُهم مناجزتهم، فهم أحقُّ بالعداوةِ من المباينِ المجاهرِ[٨].

فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنَافِقون: الآية ٤][٩] لا على معنى أنه لا عدوَ لكم سواهم، بل

= في اللغة»، لأبي علي القالي (٥٥٧)، و«لسان العرب» (١٠/ ١٤٧)، «و«الصحاح»» للجوهري (٤/ ١٢٢٩)، و«كشاف اصطلاحات الفنون»، للتهانوي (٢/ ٣٠٣).

(١) سقط من ع.

(٢) في م: «أخف عذابًا منهم لكونهم فوقهم».

(٣) في جميع النسخ: «وزادت» والمثبت هو الأصح؛ لأن جمع المذكر السالم لا يصح معه تأنيث الفعل.

(٤) في ك، س: «ومثل». (٥) في ك، س: «فيهم». (٦) سقط من: ك، س.

(٧) في ع: «المباشرين».

(٨) ينظر في تفسير الآية: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٥٢).

(٩) في ك، س: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنَافِقون: الآية ٤].

على معنى أنهم أحقُّ بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفارِ المجاهرين.

ونظيرُ ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: «**ليس المسكينُ [بهذا]**[١] **الطوافَ**[٢] **الذي تردُّه اللقمةُ واللقمتانِ والتمرةُ والتمرتانِ، ولكن المسكينَّ الذي لا يسألُ الناسَ، ولا يُفطنُ له، فيتصدقُ عليهِ**»[٣] فليس هذا نفيًا لاسمِ المسكينِ عن الطوافِ، بل إخبارٌ بأن هذا القانعَ الذي لا يسمونه مسكينًا، أحقُّ بهذا الاسمِ من الطوافِ، الذي يسمونه مسكينًا.

ونظيرُه قولُه: «**ليس الشديدُ بالصرعةِ، ولكن الذي يملكُ نفسَه عند الغضبِ**»[٤] ليس نفيًا للاسمِ عن الصرعةِ[٥]، ولكن إخبارٌ بأن من يملكُ نفسَه عند الغضبِ، أحقُّ منه بهذا الاسمِ.

ونظيرُه قولُه: «**ما تعدون المفلسَ فيكم؟**» قالوا: من لا درهمَ له ولا متاعَ. قال: «**المفلسُ: من يأتي يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ، ويأتي قد لطمَ هذا، وضربَ هذا، وأخذَ مالَ هذا، فيقتصُّ هذا من حسناتِهِ، وهذا من حسناتِهِ، فإن فنيتْ حسناتُه قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من سيئاتِهم ثم طُرِح عليه**[٦]**، فأُلقي في النارِ**»[٧].

ونظيرُه [قولُه][٨]: «**ما تعدون الرقوبَ فيكم؟**» قالوا: من لا يولدُ له. قال: «**الرقوبُ: من لم يقدمْ من ولدِهِ شيئًا**»[٩].

ومنه عندي قولُه ﷺ: «**الربا في النسيئةِ**»[١٠] وفي لفظٍ: «**إنما الربا في النسيئةِ**»[١١]

---

(١) سقط من ك، س. (٢) في ك، س: «بالطواف».

(٣) رواه البخاري، ح (٤٢٦٥)، وح (٤٢٦٥)، ومسلم، ح (١٠٣٩)، وأبو داود، ح (١٦٢٧)، والنسائي، ح (٢٥٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٣١٦، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٥٧، ٤٦٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري، ح (٥٧٦٣)، ومسلم، ح (٢٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧)، من حديث أبي هريرة.

(٥) الصُّرَعَة: المبالغُ في الصِّراع الذي لا يغلب. ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٢٣)، و«لسان العرب» (٨/ ١٩٨).

(٦) في س: «عليهم».

(٧) هو بمعنى حديث عند مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، ح (٢٥٨١) والترمذي، ح (٢٤١٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) سقط من م. (٩) رواه مسلم، ح (٢٦٠٨) وأحمد (١/ ٣٨٢).

(١٠) رواه مسلم، ح (١٥٩٦)، وأحمد (٥/ ٢٠٤، ٢٠٦) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(١١) رواه مسلم، ح (١٥٩٦)، والنسائي، ح (٤٥٨١)، وابن ماجه، ح (٢٢٥٧)، وأحمد (٥/ ٢٠٠) =

هو إثباتٌ؛ لأن هذا النوعَ أحقُّ باسمِ[١] الربا من ربا الفضلِ، وليس فيه نفي اسمِ الربا عن ربا الفضلِ، فتأمله.

والمقصودُ أن هذهِ الطبقةَ أشقى الأشقياءِ، ولهذا يستهزأُ بهم في الآخرةِ، ويعطون[٢] نورًا يتوسطون به على الصراطِ، ثم يطفىء اللهُ نورَهم، ويقالُ لهم: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣-١٤]، وهذا أشدُّ ما يكونُ من الحسرةِ والبلاءِ، أن يفتحَ للعبدِ طريقَ[٣] النجاةِ والفلاحِ، حتى إذا ظنَّ أنه ناجٍ، ورأى منازلَ السعداءِ، اقتطع عنهم وضربتْ عليه الشقوةُ، نعوذُ[٤] باللهِ من غضبه وعقابِهِ.

تغليظُ كفرِهم جعلَهُم في الدركِ الأسفلِ

وإنما كانتْ هذهِ الطبقةُ في الدركِ الأسفلِ لغلظِ كفرِهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشرُوهُم، وباشروا من أعلامِ الرسالةِ وشواهدِ الإيمانِ ما لم يباشرْه البعداءُ، ووصل إليهم من معرفتِهِ وصحتِهِ، ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوةِ، فإذا كفروا مع [هذه][٥] المعرفةِ والعلمِ، كانوا أغلظَ كفرًا، وأخبثَ قلوبًا، وأشدَّ عداوةً للهِ ولرسولِهِ وللمؤمنين من البعداءِ عنهم، وإن كان البعداءُ متصدِّين لحربِ المسلمين، ولهذا قال تعال في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: الآية ٣] وقال فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: الآية ١٨] وقال في الكفارِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧١] فالكافرُ لم يعقلْ، والمنافقُ أبصرَ، ثم عميَ، وعرف ثم تجاهلَ، وأقرَّ ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا فهو أشدُّ كفرًا، وأخبثُ قلبًا، وأعتى[٦] على اللهِ ورسلِهِ، فاستحقَّ الدركَ الأسفلَ. وفيهِ معنى آخرُ أيضًا وهو: أن الحاملَ لهم على النفاقِ طلبُ العزِّ والجاهِ بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفارَ ليعزوهم أيضًا، ومن هاهنا دخل عليهم البلاءُ؛ فإنهم أرادوا العزَّ بين[٧] الطائفتين، ولم يكنْ لهم غرضٌ في ....

= عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(١) في ك، س: «أحق هو باسم». (٢) في ك: «ويعطى». (٣) في ع: «بطريق».

(٤) في س: «ونعوذ». (٥) سقط من م.

(٦) العُتُوّ والعِتِيّ: التجبر والاستكبار ومجاوزة الحد. ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، لابن الأثير (٣/ ١٨١)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٧)، و«القاموس المحيط» (١٦٨٨).

(٧) في م: «العزّ من بين» وفي ك، س: «العزتين من الطائفتين».

إيمانٍ[١]، ولا إسلام[٢]، ولا طاعةٍ للهِ ورسولِهِ، بل كان ميلُهم وصغوهم[٣] ووجهتُهم إلى الكفارِ، فقوبلُوا على ذلك بأعظمِ الذلِّ وهو أن جُعل مستقرُّهُم في أسفلِ سافلين[٤] تحت الكفارِ، فما اتصف به المنافقون من مخادعةِ اللهِ ورسولِهِ والذين آمنوا، والاستهزاءِ بأهلِ الإيمانِ والكذبِ والتلاعبِ بالدينِ، وإظهارِ أنهم من المؤمنين، وانطواءِ[٥] قلوبِهم على الكفرِ والشركِ، وعداوةِ اللهِ ورسولِهِ، أمرٌ اختصوا به عن الكفارِ، فتغلظ كفرُهم به فاستحقوا الدركَ الأسفلَ من النارِ، ولهذا لما ذكر تعالى أقسامَ الخلقِ في [أولِ][٦] سورةِ البقرةِ[٧] فقسمهم إلى مؤمنٍ ظاهرًا وباطنًا، وكافرٍ ظاهرًا وباطنًا[٨]، ومؤمنٍ في الظاهرِ، كافرٍ في الباطنِ، وهم المنافقون، ذكر في حقِّ المؤمنين ثلاثَ آياتٍ[٩].

وفي حقِّ الكفار آيتين[١٠]، فلما انتهى إلى ذكرِ المنافقين، ذكر فيهم بضعَ عشرةَ آيةً[١١] ذمَّهم فيها غايةَ الذمِّ، وكشف عوراتِهم وفضحهم[١٢]، وأخبر بأنهم هم السفهاءُ المفسدون في الأرضِ، المخادعون، المستهزئون المغبونون[١٣] في اشترائِهم الضلالةَ بالهدى، وأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، فهم لا يرجعون، وأنهم مرضى [القلوبِ][١٤]، وأن اللهَ يزيدُهم مرضًا إلى مرضِهم، فلم يدعْ ذمًّا وعيبًا[١٥] إلا ذمَّهم به، وهذا يدلُّ على

---

(١) في ك: «الإيمان». (٢) في ع: «في إسلام ولا إيمان».

(٣) الصَّغْو: الميل. ينظر: «العين» (٤/ ٤٣٢)، و«مختار الصحاح» (٣١٩)، و«لسان العرب» (١٤/ ٤٦١)، و«القاموس المحيط» (١٦٨٠).

(٤) في م، ك، س: «السافلين».

(٥) في ك، س: «وأبطنوا». والانطواء هو: الكتمان والإخفاء، وعدم النشر، ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ١٨)، وما بعدها، و«القاموس المحيط» (١٦٨٧

(٦) سقط من ع. (٧) البقرة (٢-٢٠).

(٨) في م: «وكافر في الظاهر والباطن».

(٩) وهي: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

(١٠) وهي: [البقرة ٦، ٧]. (١١) وهي: [البقرة ٨ - ٢٠]. (١٢) في ك، س: «وقبحهم».

(١٣) أي: هم المخدوعون، وهو من الغَبْن بسكون الباء، وهو في البيع والشراء، ومعناه الخدعة. وأما بالفتح فهو في الرأي، ومعناه: النسيان والتضييع. ينظر: «مختار الصحاح»، للرازي (٤١٢)، و«لسان العرب» (١٣/ ٣٠٩)، و«القاموس المحيط» (١٥٧٣).

(١٤) سقط من م. (١٥) في م، ك، س: «ولا عيبًا».

شدةِ مقتِهِ سبحانه لهم، وبغضِهِ إياهم، وعداوتِهِ لهم[١]، وأنهم أبغضُ أعدائِهِ إليه. فظهرتْ حكمتُهُ الباهرةُ في تخصيصِ هذهِ الطبقةِ بالدركِ الأسفلِ من النارِ. نعوذُ باللهِ من مثلِ حالِهم، ونسألُه معافاتَه ورحمتَه.

صفاتُ المنافقين كما جاءَ بها القرآنُ

ومن تأمل ما وصف اللهُ به المنافقين في القرآنِ، من صفاتِ الذمِّ، علم أنهم أحقُّ بالدركِ الأسفلِ؛ فإنه وصفهم بمخادعتِهِ، ومخادعةِ عبادِهِ، ووصف قلوبَهُم بالمرضِ وهو مرضُ الشبهاتِ والشكوكِ، ووصفهم بالإفسادِ في الأرضِ، وبالاستهزاءِ بدينِهِ وعبادِهِ، والطغيانِ[٢] واشتراءِ الضلالةِ بالهدى، والصممِ، والبكمِ، والعمى، والحيرةِ والكسلِ عند عبادتِهِ، والرياءِ، وقلةِ ذكرِه، والترددِ. وهو التذبذبُ. بين المؤمنين والكفارِ، فلا إلى هؤلاءِ، ولا إلى هؤلاءِ، والحلفِ باسمِهِ تعالى كذبًا وباطلًا وبالكذبِ، وبغايةِ الجبنِ، وبعدمِ الفقهِ في الدينِ، وبعدمِ العلمِ، وبالبخلِ، وبعدمِ الإيمانِ باللهِ وباليومِ[٣] الآخرِ، وبالريبِ، وبأنهم مضرةٌ على المؤمنين، لا يحصلُ لهم بصحبتِهم إلا الشرُّ من الخبالِ، والإسراعُ بينهم بالشرِّ، وإلقاءُ الفتنةِ. وكراهتِهم لظهورِ أمرِ اللهِ ومجيءِ الحقِّ، وأنهم يحزنون بما يحصلُ للمؤمنين من الخيرِ والنصرِ، ويفرحون بما يحصلُ لهم من المحنةِ والابتلاءِ، وأنهم يتربصون الدوائرَ [بالمسلمين][٤] وبكراهتِهم الإنفاقَ في مرضاةِ اللهِ وسبيلِهِ[٥]، وبعيبِ المؤمنين، ورميِهم بما ليس فيهم فيلمزون المتصدقين[٦]، ويعيبُون مزهدَهم، ويرمون مكثرَهم بالرياءِ وإرادةِ الثناءِ في الناسِ، وأنهم عبيدُ الدنيا، إن أعطوا منها رضُوا، وإن منعوها[٧] سخطوا وبأنهم يؤذون رسولَ اللهِ ﷺ، وينسبونه إلى ما برّأه اللهُ منه أويعيبونه بما هو من كمالِهِ وفضلِهِ، وبأنهم[٨] يقصدون إرضاءَ المخلوقين، ولا يطلبون إرضاءَ ربِّ العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحُون إذا تخلفوا عن

---

(١) في م: «وعذابه لهم». (٢) في ك: «وبالطغيان». (٣) في م، س: «واليوم».

(٤) في م: «يتربصون بهم الدوائر» وما بين القوفين سقط منها.

(٥) في م: «في سبيل الله ومرضاته».

(٦) في م: «المصدقين» واللَّمْزُ: هو العيب، والوقوع في الناس، وقيل: هو العيب في الوجه، وقيل: هو الإشارة بالعين ونحوها. ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ٢٦٩)، و«اللسان» (٥/ ٤٠٧)، و«القاموس المحيط» (٦٧٤).

(٧) في ك: «منعوا». (٨) في ك، س: «وأنهم».

رسولِ اللهِ ﷺ، ويكرهون الجهادَ في سبيلِ اللهِ، وأنهم يتحيلون على تعطيلِ فرائضِ اللهِ عليهم بأنواعِ الحيلِ، وأنهم يرضون بالتخلفِ عن طاعةِ اللهِ ورسولِهِ، وأنهم مطبوعٌ[1] على قلوبِهِم، وأنهم يتركون ما أوجبَ اللهُ عليهم، مع قدرتِهم عليهِ، وأنهم أحلفُ الناسِ باللهِ، قد اتخذوا أيمانَهم جُنَّة تقيهم من إنكارِ المسلمين عليهم، وهذا شأنُ المنافقِ، أحلفُ الناسِ باللهِ كاذبًا، قد اتخذَ يمينَه جُنةً ووقايةً يتقي بها إنكارَ المسلمين عليه، ووصفهم بأنهم رجسٌ. والرجسُ من كلِّ جنسٍ أخبثُه وأقذرُه. فهم أخبثُ بني آدمَ وأقذرُهم وأرذلُهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرةٌ على أهلِ الإيمانِ يقصدون التفريقَ بينهم، ويؤوون من حاربَهم وحارب اللهَ ورسولَه، وأنهم يتشبهون بهم، ويضاهونهم في أعمالِهم؛ ليتوصلوا منها إلى الإضرارِ بهم وتفريقِ كلمتِهم، وهذا شأنُ المنافقين أبدًا، وبأنهم فتنوا أنفسَهُم بكفرِهِم باللهِ ورسولِهِ وتربصوا بالمسلمين دوائرَ السوءِ، وهذا عادتُهم في كلِّ زمانٍ، وارتابوا في الدينِ، فلم يُصَدقوا به، وغرَّتْهم الأمانيُّ الباطلةُ وغرَّهُمُ الشيطانُ، وأنهم أحسنُ الناسِ أجسامًا، تعجبُ الرائي أجسامُهم، والسامعَ منطقُهم، فإذا جاوزت أجسامَهم وقولَهم رأيتَ خُشبًا مسندةً، لا إيمانَ ولا فقهَ ولا علمَ ولا صدقَ، بل خشبٌ قد كُسيتْ كسوةً تروقُ الناظرَ، وليس وراءَ ذلك شيءٌ، وإذا عرض عليهم التوبةَ والاستغفارَ أبوها وزعمُوا أنهم لا حاجةَ لهم إليها؛ إما لأن ما عندهم من الزندقةِ والجهلِ المركبِ[2] مغنٍ عنها وعن الطاعاتِ جملةً، كحالِ كثيرٍ من الزنادقةِ، وإما احتقارا وازدراءً[3] بمن يدعوهُم إلى ذلك، ووصفَهم تعالى بالاستهزاءِ به وبآياتِهِ وبرسولِهِ، وبأنهم مجرمون، وبأنهم يأمرون بالمنكرِ وينهون عن المعروفِ، ويقبضون أيديَهم عن الإنفاقِ في مرضاتِهِ ونسيانِهم[4] ذكرَه، وبأنهم

---

(١) الطَّبَع: أصله الدنس والصدأ الذي يغشى السيف، فيغطي وجهه. والطَّبْع هو: الختم، فهم مختوم على قلوبهم. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (٢/ ٣٥٣)، و«النهاية في غريب الحديث والأثر»، لابن الأثير (٣/ ١١٢)، و«لسان العرب» (٨/ ٢٣٢).

(٢) الجهل المركب: هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، وسمي مركبًا؛ لأنه يتركب من جهلين: أحدهما: جهل المدرك بما في الواقع. الثاني: جهله بأنه جاهل به. ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (١٠٢)، و«التعريفات» للجرجاني (١٠٨)، و«الحدود الأنيقة» لزكريا الأنصاري (٦٨).

(٣) الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٨٨٧)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٥٦)، و«القاموس المحيط» (١٦٦٥).

(٤) في ك: «ونسيان».

يتولون الكفارَ، ويَدَعون المؤمنين، وبأن الشيطانَ قد استحوذ عليهم، وغلب عليهم حتى أنساهم ذكرَ اللهِ، فلا يذكرونه إلا قليلًا، وأنهم حزبُ الشيطانِ، وأنهم يوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه، وبأنهم يتمنون ما يعنتُ المؤمنين ويشقُّ عليهم، وأن البغضاءَ تبدُو لهم من أفواهِهم وعلى فلتاتِ ألسنتِهم، وأنهم[١] يقولون بأفواهِهم ما ليس في قلوبِهم.

ومن صفاتِهم التي وصفهم بها رسولُ اللهِ ﷺ: الكذبُ في الحديثِ، والخيانةُ في الأمانةِ، والغدرُ عند العهدِ، والفجورُ عند الخصامِ، والخُلف عند الوعدِ، وتأخيرُ الصلاةِ إلى آخرِ وقتِها، ونقرُها عجلةً وإسراعًا، وتركُ حضورِها جماعةً، وأن أثقلَ الصلواتِ عليهم الصبحُ والعشاءُ.

ومن صفاتِهم التي وصفهم اللهُ بها: الشحُّ على المؤمنين بالخيرِ، والجبنُ عند الخوفِ، فإذا زال[٢] الخوفُ، وجاء الأمنُ، سلقوا[٣] المؤمنين بألسنةٍ حِدادٍ، فهم أَحدُّ الناسِ ألسنةً عليهم، كما قيل[٤]:

جَهلًا علينا وجُبْنًا عن عدوِّكمُ لبئسَتِ الخَلَّتانِ الجهْلُ والجبنُ

وأنهم عند المخاوفِ تظهرُ كمائنُ[٥] صدورِهم ومخبآتُها، فأما[٦] عند الأمنِ فيحبُّ سترَه فإذا لحق المسلمين خوفٌ دَبَّتْ عقاربُ قلوبِهم، وظهرتِ المخبآتُ، وبدتِ الأسرارُ.

ومن صفاتِهم: أنهم أعذبُ الناسِ ألسنةً، وأمرُّهم قلوبًا، وأعظمُ الناسِ مخالفةً بين أعمالِهم وأقوالِهم. ومن صفاتِهم: أنه[٧] لا يجتمعُ فيهم حسنُ سمتٍ[٨] وفقهٌ في دينٍ أبدًا. ومن صفاتِهم: أن أعمالَهم تكذبُ أقوالَهم، وباطنَهم يكذبُ ظاهرَهم، وسرائرَهم تناقضُ علانيتَهم، ومن صفاتِهم: أن المؤمنَ لا يثقُ بهم في شيءٍ، فإنهم قد أعدوا لكل

---

(١) في ك: «وبأنهم». (٢) في ع: «ذهب».

(٣) السَلق والصَلق: هو الصوت العالي الشديد. ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلام (١/ ٩٧)، و«لسان العرب» (١٠/ ١٥٩).

(٤) هو لقعنب ابن أم صاحب، غير أن فيه: «عن عدوهم». ينظر: «اللسان» (١٣/ ٤٤٧)، وذكره الطبري في «تاريخه» (٤/ ٥٣٤)، وهو في ديوان ابن عنين (٢٢٨).

(٥) قال في اللسان: «وكل شيء استتر بشيء فقد كمن فيه كُمونًا» والمراد بذلك: ما خفي في صدورهم. ينظر: «اللسان» (١٣/ ٣٥٩)، و«القاموس المحيط» (١٥٨٤).

(٦) في م، ك: «وأما». (٧) في ك: «أنهم». (٨) في ك: «صمت».

أمرٍ مخرجًا منه، بحقٍّ أو بباطلٍ، بصدقٍ أو بكذبٍ، ولهذا سُمِّي منافقًا؛ أخذًا من نافقاءِ[(١)] اليربوعِ، وهو بيتٌ يحفرُه، ويجعلُ له أسرابًا مختلفةً، وكلما[(٢)] طُلِبَ من سربٍ خرج من سربٍ آخرَ، فلا يتمكن طالبُهُ من حصرِه في سربٍ واحدٍ. قال الشاعرُ[(٣)]:

ويُستَخرجُ اليَربُوعُ مِنْ نَافِقَائِهِ ومن بيتهِ ذو الشَّيخَةِ[(٤)] اليَتَقصَّعُ[(٥)]

فأنتَ منه «كقابضٍ على الماءِ»[(٦)]، ليس معك منه شيءٌ، ومن صفاتِهم: كثرةُ التلونِ، وسرعةُ التقلبِ، وعدمُ الثباتِ على حالٍ واحدٍ، بينا تراه على حالٍ تعجبُكَ[(٧)] من دينٍ أو عبادةٍ أو هدى صالحٍ أو صدقٍ [إذ][(٨)] انقلب إلى ضدِّ ذلك كأنه لم يعرفْ

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٢٤٩)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٥٩).

(٢) في ك: «فكلما».

(٣) وهو ذو الخرق الطهوي، شاعر جاهلي، اسمه خليفة بن حمل بن عامر بن حميري. وقد أورد البيت أبو زيد الأنصاري في «نوادره» (٢٧٦)، وابن جني، في «سر صناعة الإعراب» (١/ ٣٦٨) وابن الأنباري في «الإنصاف» (١/ ١٥٢)، والحموي في «معجم البلدان» (٣/ ٣٨٠).

(٤) قال في «معجم البلدان» (٣/ ٣٨٠) بعد ذكر الأبيات التي أنشدها ابن الأعرابي، وقد ذكر فيها «الشيحة» بالحاء، قال: «قال أبو محمد الأسود. وهو الأعرابي الغندجاني: ما أكثر ما يصحف أبو عبد الله في أبيات المتقدمين، وذلك أنه توهم أن ذا الشيحة، موضع يُنبت الشيح، والصحيح: ومن جحره بالشيخة اليتقصع، بالخاء المعجمة، وهي رملة بيضاء في بلاد أسد وحنظلة».

(٥) القاصعاء: يقال: قَصَّعَ الرجل بيته، إذا لزمه ولم يبرحه.

والقاصعاء: جحر يحفره اليربوع، فإذا فرغ ودخل فيه، سَدَّ فمه لئلا يدخل عليه حية أو دابة.

والقُصعة: فم جحر اليربوع، أول ما يبتدئ في حفره، ومأخذه من القَصْع، وهو: ضم الشيء على الشيء.

وجحر اليربوع له سبعة أسماء: القَاصِعاء، والنافقاء، والدَّأماء، والرَّاهِطاء، والغابِيَاء، والحاثياء، واللغز.

ينظر: «البارع في اللغة»، لأبي علي القالي (٦٨٩-٦٩٢)، و«لسان العرب» (٨/ ٢٧٥).

(٦) مثل مشهور، يضرب لمن يرجو ما لا يحصل وهو من قول الشاعر:

أصبح من أسماء قيس كقابض على الماء لا يدري بما هو قابض

ومن قوله:

فأصبحت من ليلى الغداة كالقابض على الماء لم ترجع بشيء أنامله

ينظر: «جمهرة الأمثال»، للعسكري (١/ ٣٩١، ٢/ ١٤٨)، و«مجمع الأمثال»، للميداني (٢/ ١٤٩) والمستقصى في أمثال العرب، للزمخشري (٢/ ٢٠٩).

(٧) في م: «على شيء يعجبك». (٨) سقط من م.

غيرَه، فهو أشدُّ الناسِ تلونًا وتقلبًا وتنقلًا، جيفةٌ بالليلِ، قطربٌ[١] بالنهارِ[٢].

ومن صفاتِهم أنك إذا دعوتَهم عند المنازعةِ إلى التحاكمِ إلى القرآنِ والسنةِ أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكمِ إلى طواغيتِهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

ومن صفاتِهم: معارضةُ ما جاء به الرسولُ ﷺ بعقولِ الرجالِ وآرائِهم، ثم تقديمُها على ما جاء به، فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدى في أراءِ الرجالِ وعقولِهم، دون ما جاء به. فلو أعرضوا عنه، وتعوضوا بغيرِه لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا إلى[٣] ذلك معارضتَه، وزعمَهم أنه لا يستفادُ منه هدًى؟

ومن صفاتِهم: كتمانُ الحقِّ، والتلبيسُ على أهلِهِ، ورميهم لهم بأدوائِهم هم فيرمُونهم إذا أمروا بالمعروفِ، ونهوا عن المنكرِ، ودعوا إلى اللهِ ورسولِهِ، بأنهم أهلُ فتنٍ مفسدون في الأرضِ. وقد علم اللهُ ورسولُه والمؤمنون أهلَ الفتنِ المفسدين[٤] في الأرضِ، وإذا دعا ورثةُ الرسولِ إلى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ خالصةً غيرَ مشوبةٍ رموهم بالبدعِ والضلالِ، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا، راغبين في الآخرةِ، متمسكين بطاعةِ اللهِ ورسولِهِ، رموهم بالزوكرةِ[٥] والتلبيسِ والمحالِ، وإذا رأوا معهم حقًّا ألبسوه

---

(١) في م: «بطالًا»

والقطرب: دويبة ليس لها قرار البتة، لا تستريح نهارها سعيًا، ويراد به: الجاهل الذي يظهر بجهله، وكذا السفيه الفاره في اللصوصية، وكذا الجبان، وغيرها. ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلام (٤/ ١١٢)، و«النهاية في غريب الأثر» (٤/ ٨٠)، و«لسان العرب» (١/ ٦٨٣)، و«القاموس المحيط» (١٦٢).

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لا ألفين أحدكم جيفة ليل قطرب نهار». رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٩)، ح (١١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠).

(٣) في ك: «مع».

(٤) في ك، س: «بأنهم أهل الفتن المفسدون».

(٥) الزوكرة: لفظ يستعمله المغاربة، ومعناه عندهم: المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة، ويبطن =

لباسَ الباطلِ، وأخرجوه لضعفاءِ العقولِ في قالبِهِ لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطلٌ ألبسوه لباسَ الحقِّ، وأخرجوه في قالبِهِ ليقبلَ منهم.

وجملةُ أمرِهم أنهم في المسلمين كالزغلِ[١] في النقودِ، يروجُ[٢] على أكثرِ الناسِ لعدمِ بصيرتِهم بالنقدِ، ويعرفُ حالَه الناقدُ البصيرُ من الناسِ، وقليلٌ ما هم، وليس على الأديانِ أضرُّ من هذا الضربِ من الناسِ، وإنما تفسدُ الأديانُ من قِبَلِهم، ولهذا جَلى اللهُ أمرَهم في القرآنِ، وأوضحَ أوصافَهم، وبين أحوالَهم، وكرر ذكرَهم؛ لشدةِ المؤنةِ على الأمةِ بهم، وعظيمِ[٣] البليةِ عليهم بوجودِهم بين أظهرِهم، وفرطِ حاجتِهم إلى معرفتِهم، والتحرزِ من مشابهتِهم أو[٤] الإصغاءِ إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى اللهِ طرقَ الهدى، وسلكوا بهم سبلَ[٥] الردى، ووعدُوهم[٦] ومنوهم، ولكن وعَدُوهم الغرورَ، ومَنوهم الويلَ والثبورَ، فكم لهم من قتيلٍ، ولكن في سبيلِ الشيطانِ، وسليبٍ ولكن للباسِ التقوى والإيمانِ، وأسيرٍ لا يُرجى له الخلاصُ وفارٍّ من اللهِ، لا إليهِ، وهيهاتَ لاتَ[٧] حين مناصٍ، صُحبتُهم[٨] توجبُ العارَ والشنارَ[٩]، ومودتُهم تُحلُّ غضبَ الجبارِ، وتُوجبُ دخولَ النارِ، من عَلِقَت به كلاليبُ[١٠] كلبِهم ومخاليبُ دائِهم مزقت منه ثيابَ الدينِ والإيمانِ، وقطعت له مُقطعات البلاءِ[١١] والخذلانِ، فهو

= الفسق والفساد. ينظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، للتلمساني (٦/ ١٢).

(١) الزغل هو: الصب والدفع دُفَعًا، يقال الزُّغْلة: الدفعة من البول وغيره، وهو ما يُمج من الفم من الشراب ويراد به هنا: الغش والزيف في النقود. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٠٤)، و«لسان العرب» (١١/ ٣٠٤)، و«المعجم الوسيط» (١/ ٣٩٥) مجمع اللغة العربية.

(٢) أي: يختلط، فلا يُدرى صحيحه من سقيمه. ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٢٨٥)، و«القاموس المحيط» (٢٤٤).

(٣) في م، ك، س: «وعظم».

(٤) في ك، س: «والإصغاء».

(٥) في ك، س: «سبيل».

(٦) في ك، س: «وعدوهم».

(٧) في ك: «ولات».

(٨) في م: «وصحبتهم».

(٩) الشنَار: أقبح العيب والعار، والأمر المشهور بالشنعة. ينظر: «غريب الحديث» لابن سلام (٤/ ٤٢٩)، و«لسان العرب» (٤/ ٤٣٠)، و«القاموس المحيط» (٥٣٩).

(١٠) الكَلُّوب: خشبة في رأسها عُقَّافة منها، أو من حديد، وكذا يراد بها: حديدة معوجة الرأس، والمسمار في قائم السيف. ينظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ١٩١)، و«لسان العرب» (١/ ٧٢٥)، و«القاموس المحيط» (١٦٩).

(١١) في م، ك، س: «من البلاء».

يسحبُ من الحرمانِ والشقاوةِ أذيالًا، ويمشي على عقبيهِ القهقهرى[١] إدبارًا منه، وهو يحسبُ ذلك إقبالًا، فهم واللهِ قطاعُ الطريقِ حقًّا.

فيا أيها الركبُ المسافرون إلى منازلِ السعداءِ حذار منهم[٢] حذار، وهم الجزارون، ألسنتُهم شفارُ البلايا، ففرارًا منهم أيها الغنمُ فِرارًا، ومن البليةِ أنهم الأعداءُ حقًّا وليس لنا بُد من مصاحبتِهم، وخلطتُهم أعظمُ الداءِ، وليس بُد من مخالطتهم. قد جُعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها، فبعدًا للمستجيبين، ونَصبوا شِبَاكِهم حواليها على ما حُفت به من الشهواتِ، فويلٌ للمغترين، نَصبُوا الشباكَ، ومَدوا الأشراكَ، وأذن[٣] مؤذنُهم: يا شباه الأنعامِ حيَّ على الهلاكِ، حيَّ على التبابِ[٤]، فاستبقوا يُهرعون إليه، فأوردهم حياضَ العذابِ، لا المواردَ العِذَابَ، وأسامهم من الخسفِ والبلاءِ أعظمُ خُطَّةٍ[٥]، وقال: ادخلوا بابَ الهوانِ صاغرين، ولا تقولُوا حِطَّةٌ، فليس بيومِ حِطَّةٍ. فوا عجبًا لمن نجا من أشراكِهم[٦]، لا لمن عَلِق، وأنى ينجو [منها][٧] من غلبتْ عليه شقاوتُهُ، ولها خُلِق.

فحقيقٌ بأهلِ هذهِ الطبقةِ أن يَحِلُّوا بالمحلِّ الذي أحلَّهُم اللهُ من دارِ الهوانِ، وأن ينزلوا في أردأَ منازلِ [أهلِ][٨] العنادِ والكفرانِ.

خوفُ سادةِ الأمةِ على أنفسهم من النفاقِ

وبحسبِ إيمانِ العبدِ ومعرفتِهِ يكونُ خوفُهُ أن يكونَ من أهلِ هذهِ الطبقةِ، ولهذا اشتدَّ خوفُ سادةِ الأمةِ وسابقوها[٩] على أنفسِهم أن يكونوا منهم، فكان عمرُ بنُ الخطابِ يقولُ: «يا حذيفةُ، نشدتُكَ اللهَ، هل سمّاني رسولُ اللهِ ﷺ مع القومِ؟ فيقولُ: لا، ولا أزكي بعدَكَ أحدًا»[١٠]. يعني: لا أفتحُ عليَّ هذا البابَ في تزكيةِ الناسِ، ليس معناه أنه لم يَبرأْ من النفاقِ غيرُكَ.

(١) القهقرى: المشي إلى الخلف من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٦٨٥)، و«النهاية في غريب الحديث» (٤/ ١٢٩)، و«لسان العرب» (٥/ ١٢١)، و«القاموس المحيط» (٦٠١).

(٢) في ع: «منه». (٣) في م: «وتأذن».

(٤) التباب: الخسران والهلاك والنقص. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٢٢٦)، و«القاموس المحيط» (٧٨).

(٥) الخُطَّة، هي: الحال والأمر والخطب. ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٢٩٠).

(٦) في س: «شراكهم». (٧) سقط من م، ك، س. (٨) سقط من م.

(٩) في ع: «وسابقيها». (١٠) تقدم تخريجه.

[وقال ابنُ أبي مُليكةَ(١): أدركتُ ثلاثين من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ كلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسِهِ، ما منهم أحدٌ يقولُ: إنه على إيمانِ جبرائيلَ وميكائيلَ](٢).

الطبقةُ السادسةَ عشرةَ: طبقةُ رؤساءِ الكفرِ وأئمَّتِهِ

الطبقةُ السادسةَ عشرةَ(٣): [طبقةُ](٤) رؤساءِ الكفرِ وأئمتِهِ ودعاتِهِ، الذين كفروا وصدُّوا عبادَ اللهِ عن الإيمانِ، وعن الدخولِ في دينِهِ رغبةً ورهبةً، فهؤلاءِ عذابُهم مضاعفٌ، ولهم عذابان: عذابٌ بالكفرِ، وعذابٌ بصدِّ الناسِ عن الدخولِ في الإيمانِ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: الآية ٨٨] فأحدُ العذابين بكفرِهم، والعذابُ الآخرُ بصدِّهم عن سبيلِ اللهِ، وقد استقرتْ حكمةُ اللهِ وعدلُه أن يجعلَ على الداعي إلى الضلالِ مثلَ آثامِ من اتبعه واستجابَ له(٥)، ولا ريبَ أن عذابَ هذا يتضاعفُ ويتزايدُ، بحسبِ من اتبعه وضَلَّ به، وهذا النوعُ في الأشقياءِ مقابلُ دعاةِ الهدى في السعداءِ، فأولئكَ يتضاعفُ ثوابُهُم، وتعلو درجاتُهم بحسبِ من اتبعهم، واهتدى بهم، وهؤلاءِ عكسُهم، ولهذا كان فرعونُ وقومُهُ في أشدِّ العذابِ، قال تعالى في حقِّهِم: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: الآية ٤٦] وهذا تنبيهٌ على أن فرعونَ نفسَه في الأشدِّ من ذلك؛ لأنهم(٦) إنما دخلوا أشدَّ العذابِ تبعًا له؛ فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرَّهُم فاتبعوه، ولهذا يكونُ يومَ القيامةِ إمامَهم، وفَرطَهم(٧) في هذا الوِردِ، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ﴾ [هود: الآية ٩٨].

---

(١) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، زهير بن عبد الله بن جدعان القرشي التيمي المكي، أبو بكر، وأبو محمد، القاضي الأحول، مؤذن الحرم، ولد في خلافة علي أو قبلها، أدرك ثلاثين صحابيًا، وكان عالمًا إمامًا فقيهًا فصيحًا مفوهًا، وكان صاحب حديث وإتقان. توفي سنة (١١٧)هـ. ينظر: «الطبقات الكبرى»، لابن سعد (٥/ ٤٧٣)، و«طبقات الفقهاء»، للشيرازي (٥٨)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٧٨)، و«السير» (٥/ ٨٨).

(٢) سقط من ع. والحديث رواه البخاري (١/ ٢٦)، و«الخلال في السنة» (٣/ ٦٠٧).

(٣) في جميع النسخ " السادسة عشر» والمثبت هو الصواب.

(٤) سقط من ك، س.

(٥) قد تقدم كلام المؤلف. رحمه الله. على هذه المسألة وذكر الأدلة فيها.

(٦) في جميع النسخ: «لأنه» والمثبت من م.

(٧) الفرط: هو المتقدم والسابق. ينظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤٣٤)، و«لسان العرب» (٧/ ٣٦٦)، و«القاموس المحيط» (٨٧٩).

استحقاقُهم أشدَّ العذابِ لتغليظِ كفرِهم وصدِّهم عن سبيلِ الله

والمقصودُ: أنهم استحقُّوا[١] أشدَّ العذابِ؛ لتغلظِ[٢] كفرِهم، وصدِّهم عن سبيلِ اللهِ وعقوبتِهم من آمنَ باللهِ، فليس عذابُ الرؤساءِ في النارِ كعذابِ أتباعِهم، ولهذا كان في كتابِ النبيِّ ﷺ لهرقلَ: «**فإن توليتَ فإن عليكَ إثمَ الأريسيين**»[٣] والصحيحُ في اللفظةِ أنهم الأتباعُ، ولهذا كان عدو اللهِ إبليسُ أشدَّ أهلِ النارِ عذابًا، وهو أولُ من يُكسى حلةً من النارِ[٤]؛ لأنه إمامُ كلِّ كفرٍ وشركٍ وشرٍّ، فما عُصي اللهُ إلا على يديهِ وبسببهِ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ من نوابِهِ في الأرضِ ودعاتِهِ، ولا ريبَ أن الكفرَ يتفاوتُ؛ فكفرٌ أغلظُ من كفرٍ، كما أن الإيمانَ يتفاوتُ؛ فإيمانٌ أفضلُ من إيمانٍ، فكما أن المؤمنين ليسوا في درجةٍ واحدةٍ، بل هم درجاتٌ عند اللهِ، فكذلك الكفارُ ليسوا في طبقةٍ واحدةٍ ودركٍ واحدٍ؛ بل النارُ دركاتٌ، كما أن الجنةَ درجاتٌ. ولا يظلمُ اللهُ من خلقِهِ أحدًا، وهو الغنيُّ الحميدُ.

الكفرُ يتفاوتُ

فصــلٌ

وَتغلُّظُ الكفرِ الموجبِ لتغلُّظِ العذابِ يكونُ من ثلاثةِ أوجهٍ:

تغليظُ الكفرِ الموجبُ لتغليظِ العذابِ

أحدُها: من حيثُ العقيدةُ الكافرةُ في نفسِها؛ كمن جحدَ ربَّ العالمين بالكليةِ وَعَطَّل العالمَ عن الربِّ[٥] الخالقِ المدبرِ له، فلم يؤمنْ باللهِ، و[لا][٦] ملائكتِهِ، ولا كتبِهِ، ولا رسلِهِ، ولا اليومِ الآخرِ، ولهذا لا يُقَرُّ أربابُ هذا الكفرِ بالجزيةِ عند كثيرٍ من العلماءِ، ولا تؤكلُ ذبائِحُهم، ولا تُنْكَحُ نساؤُهم اتفاقًا[٧]؛ لتغلظِ كفرِهم وهؤلاءِ هم

---

(١) في م: «أنهم إنما استحقوا». (٢) في م: «لغلظ».

(٣) هم: الزارِعون من الفرس المجوس الذين يعبدون النار. وقيل: يراد بهم الذين لهم قدرة على هداية قومهم، ثم لم يهدوهم. وقيل: هم الخدم والخول. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٤٩٩)، و«الفائق في غريب الحديث»، للزمخشري (١/ ٣٦)، و«النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير (١/ ٣٨)، و«لسان العرب» (٦/ ٤-٥). والحديث رواه البخاري، ح (٧)، وح (٢٧٧٨)، وح (٢٧٨٢)، وح (٤٢٧٨)، ومسلم، ح (١٧٧٣) وأحمد (١/ ٢٦٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٢٤٩)، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، ينظر: «التقريب» (٤٠١).

(٥) في ك: «رب». (٦) سقط من ك.

(٧) تنظر هذه المسألة في «المغني»، لابن قدامة (٧/ ١٠١)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/ ٤٧٤).

المعطلةُ[١] والدهريةُ[٢] وكثيرٌ من الفلاسفةِ[٣] وأهلُ الوحدةِ[٤] القائلين بأنه لا وجودَ للربِّ تعالى غيرُ وجودِ هذا العالمِ.

تغلظُهُ بالعنادِ والضلالِ عمدًا على بصيرة

الجهةُ الثانيةُ: تغلظُهُ بالعنادِ والضلالِ عمدًا على بصيرةٍ؛ ككفرِ من شهد قلبُهُ أن الرسولَ حقٌّ؛ لِما رآه من آياتِ صدقِهِ، وكَفَرَ عنادًا وبغيًا؛ كقومِ ثمودَ، وقومِ فرعونَ واليهودِ الذين[٥] عرفُوا الرسولَ كما عرفُوا أبناءَهم[٦]، وكُفرِ أبي جهلٍ[٧] وأميةَ بن أبي الصلتِ[٨]، وأمثالِ هؤلاءِ.

السعيُ في إطفاءِ نورِ الله وصدِّ عبادِهِ عن دينِهِ

الجهةُ الثالثةُ: السعيُ في إطفاءِ نورِ اللهِ وصدِّ عبادِهِ عن دينِهِ، بما تصلُ إليه قدرتُهم، فهؤلاءِ أشدُّ الكفارِ عذابًا بحسبِ تغلظِ كفرِهم، ومنهم من يجتمعُ في حقِّهِ الجهاتُ

---

(١) المعطلة: سبق التعريف بهم.

(٢) الدهرية: طائفة من الفلاسفة، ينفون الربوبية، ويقولون بقدم العالم، ويسندون إليه الحوادث كلها كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٢٤] وذهبوا إلى ترك العبادات؛ لأنها لا تفيد. على زعمهم. ينظر: «الفصل» (١/ ١٥)، و«البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان»، للسكسكي، (٨٨)، و«الكليات»، لأبي البقاء الكفوي (٤٤٦).

(٣) «الفلسفة: مشتقة من اليونانية، ومعناها: محبة الحكمة، وأصلها مركب من كلمتين: «فيلا " و«سوفا» وفيلا هو: المحب، وسوفا: الحكمة، وعليه فالفيلسوف هو: محب الحكمة، والفلاسفة يقولون بقدم العالم، وينكرون حشر الأجساد، وينكرون النبوات، وغالبهم ينكر علم الرب ﷻ وغير ذلك من عقائدهم. ينظر: «الفصل» (١/ ٧٩)، و«الملل والنحل» (٢/ ٥٨)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (٩١).

(٤) تقدم التعريف بهم.

(٥) في ع: «والذين».

(٦) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤٦﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٦].

(٧) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشدُّ الناس عداوةً للنبي ﷺ، أحد سادات قريش، وكان يقال له: أبو الحكم، فدعاه المسلمون: أبا جهل. مات في غزوة بدر سنة (٢)هـ. ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٦٦)، و«الأعلام» (٥/ ٨٧).

(٨) أمية بن عبد الله بن أبي الصَّلْت بن أبي ربيعة بن عبد عوف الثقفي، من أهل الطائف ومن شعراء الجاهلية، كان مطَّلعًا على الكتب المنزلة، ورغب عن عبادة الأوثان وعن شرب الخمر، وكان يخبر بمبعث نبي، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كَفَرَ حسدًا له. مات في الطائف سنة (٥)هـ. ينظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، (ص/ ٣٠٥)، و«الأعلام» (١/ ٢٣).

الثلاثُ، ومنهم من يكونُ فيه ثنتانِ[(١)] [منها][(٢)]، أو واحدةٌ، فليس عذابُ هؤلاءِ كعذابِ من [هو][(٣)] دونَهم في الكفرِ ممن هو ملبوسٌ عليه لجهلِهِ، والمؤمنون من أذاهُ في سلامةٍ لا ينالُهم منه أذىً، ولم يتغلظْ كفرُه كتغلظِ [كفرِ][(٤)] هؤلاءِ؛ بل هو مقرٌّ باللهِ ووحدانيتِهِ وملائكتِهِ وجنسِ الكتبِ والرسلِ واليومِ الآخرِ. وإن شاركَ أولئكَ في كفرِهم بالرسولِ، فقد زادُوا عليه أنواعًا من الكفرِ، وهل يستوي في النارِ عذابُ أبي طالبٍ[(٥)]، وأبي لهبٍ[(٦)]، وأبي جهلٍ، وعقبةَ بنِ أبي معيطٍ[(٧)]، وأبيِّ بنِ خلفٍ[(٨)] وأضرابِهم؟

الطبقةُ السابعةَ عشرةَ: المقلدون وهم جهالُ الكفارِ

والمقصودُ أن هذهِ الطبقةَ، وهي طبقةُ الرؤساءِ الدعاةِ الصادِّين عن دينِ اللهِ، ليستْ كطبقةِ من دونهم، وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«أهونُ أهلِ النارِ عذابًا أبو طالبٍ»**[(٩)] ومعلومٌ أن كفرَ أبي طالبٍ لم يكنْ مثلَ كفرِ أبي جهلٍ وأمثالِهِ.

الطبقةُ السابعةَ عشرةَ[(١٠)]: طبقةُ المقلدين، [وهم][(١١)] جهالُ الكفرةِ وأتباعُهُم

(١) في م: «جهتان ثنتان»، وفي ك، س: «جهتان». (٢) سقط من م.
(٣) سقط من ع. (٤) سقط من ك.
(٥) هو: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، أبو طالب، والد علي رضي الله عنه وعم النبي ﷺ، وكافله ومربيه وناصره، كان من أبطال بني هاشم وساداتهم، نشأ النبي ﷺ في بيته، وقد حماه من قريش، وصدهم عنه، ووعد بنصرته وحمايته، حتى مات قبل الهجرة بثلاث سنوات. ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ١١٩)، و«الأعلام» (٤/ ١٦٦).
(٦) هو: عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، عم النبي ﷺ، وأحد الأشراف في الجاهلية، وهو من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين، كان عتيًّا جبارًا، لم يتبع دين محمد ﷺ استكبارًا، فآذى أنصاره وحرض عليه، كني بأبي لهب لاحمرار وجهه. مات في سنة (٢)هـ. ينظر: «الأعلام» (٤/ ١٢).
(٧) عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس، من مقدمي قريش في الجاهلية، كنيته: أبو الوليد، وكنية أبيه: أبو معيط، كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الإسلام، وكان ممن أسر في بدر، وقتله المسلمون وصلبوه، فكان أول مصلوب في الإسلام. ينظر: «الأعلام» (٤/ ٢٤٠).
(٨) أبي بن خلف بن حذافة الجمحي، من مشركي قريش، اشتهر بعداوته للإسلام والمسلمين، حتى حلف في بدر ليقتلن رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: **«بل أنا أقتلك إن شاء الله»**، فطعنه رسول الله ﷺ بالحربة في أحد، فمات في الطريق إلى مكة سنة (٣)هـ. ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (٣/ ٤٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ٢٤).
(٩) رواه مسلم، ح (٢١٢)، وأحمد (١/ ٢٩٠و٢٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(١٠) في جميع النسخ «السابعة عشر» والمثبت هو الصواب. (١١) سقط من م، ك، س.

وحميرُهم الذين هم معهم تبعٌ [لهم](١)، يقولون: إنا وجدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ، ولنا أسوةٌ(٢) بهم، ومع هذا فهم متاركون(٣) لأهلِ الإسلامِ غيرُ محاربين لهم؛ كنساءِ المحاربين، وخدمِهِم، وتباعِهم(٤) الذين لم ينصبوا أنفسَهم لما نَصَب له أولئكَ أنفسَهم من السعيِّ في إطفاءِ نورِ اللهِ وهدمِ دينِهِ، وإخمادِ كلماتِهِ، بل هم معهم بمنزلةِ الدوابِّ، وقد اتفقتِ الأمةُ على أنَّ هذهِ الطبقةَ كفارٌ، وإن كانوا جُهَّالًا مقلدين لرؤسائِهِم وأئمتِهِم(٥)، إلا ما يُحكى عن بعضِ أهلِ البدعِ أنه لم يحكمْ لهؤلاءِ بالنارِ، وجعلَهم بمنزلةِ من لم تبلغْه الدعوةُ(٦)، وهذا مذهبٌ لم يقلْ به أحدٌ من أئمةِ المسلمين، لا الصحابةِ ولا التابعين ولا من بعدَهم، وإنما يعرفُ عن بعضِ أهلِ الكلامِ المحدثِ في الإسلامِ.

مَنْ لم تبلغْهُ الدعوةُ

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما من مولودٍ إلا وهو يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يهودانِهِ، و ينصرانِهِ، و يمجسانِهِ**»(٧) فأخبر أن أبويهِ ينقلانهِ عن الفطرةِ إلى اليهوديةِ والنصرانيةِ والمجوسيةِ(٨)، ولم يعتبر في ذلك غيرُ المربى والمنشأ على ما عليه الأبوانِ.

وصحَّ عنه أنه قال: «**إنَّ الجنةَ لا يدخلُها إلا نفسٌ مسلمةٌ**»(٩)وهذا المقلدُ ليس

---

(١) سقط من س. (٢) في ك: «وإنا على أسوة».

(٣) في ك، س: «مسالمون». (٤) في م، س: «وأتباعهم».

(٥) قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان، أطاع أم عصى؛ فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصر عنه، ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] «مدارج السالكين»، (١/ ٢١٧).

(٦) ينظر: «الفصل»، لابن حزم (٤/ ٥٠). (٧) سبق تخريجه.

(٨) وهم الذين أثبتوا أصلين للعالم: النور والظلمة، والنور عندهم أزلي، والظلمة محدثة، ومن عقائدهم: عبادة النار، والسجود للشمس إذا طلعت، واستحلال نكاح الأمهات والبنات والأخوات وسائر المحرمات، وقد نشأت المجوسية في بلاد فارس، وهم فرق كثيرة، منها: الزردشتية، والمزدكية.
ينظر: «التبصير في الدين»، للإسفراييني (١٥٠)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٣٣)، و«اعتقادات فرق المسلمين» (٨٦).

(٩) في س: «مؤمنة مسلمة». والحديث رواه البخاري، ح (٦١٦٣)، ومسلم، ح (٢٢١)، والترمذي، =

بمسلمٍ، وهو عاقلٌ مكلفٌ، والعاقلُ [المكلفُ][١] لا يخرجُ عن الإسلامِ أو الكفرِ.

وأما من لم تبلغْهُ الدعوةُ فليس بمكلفٍ في تلك الحالِ، وهو بمنزلةِ الأطفالِ والمجانين، وقد تقدم الكلامُ عليهم.

والإسلامُ هو: توحيدُ اللهِ، وعبادتُهُ وحدَه لا شريكَ له، والإيمانُ برسولِهِ ﷺ[٢]، واتباعُهُ فيما جاء به، فما لم يأتِ العبدُ بهذا فليس بمسلمٍ. وإن لم يكن كافرًا معاندًا، فهو كافرٌ جاهلٌ.

غايةُ هذه الطبقةِ

فغايةُ هذهِ الطبقةِ أنهم كفارٌ جهالٌ غيرُ معاندين، وعدمُ عنادِهم لا يخرجُهم عن كونِهم كفارًا؛ فإن الكافرَ من جحد توحيدَ اللهِ، وكذَّبَ رسولَه إما عنادًا وإما جهلًا[٣] وتقليدًا لأهلِ العنادِ، [فهذا، وإن كان غايتُهُ أنه غيرُ معاندٍ، فهو متبعٌ لأهلِ العنادِ][٤].

الأدلةُ على عذابِ المقلدين

وقد أخبر اللهُ تعالى في القرآنِ في غيرِ موضعٍ بعذابِ المقلدين لأسلافِهِم من الكفارِ وأن الأتباعَ مع متبوعِيهم[٥]، وأنهم يتحاجون في النارِ، وأن الأتباعَ يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف: (٤٧-٤٨)]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ

= ح (٢٥٤٧)، وأحمد (١/ ٣٨٦و٤٣٧و٤٤٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) سقط من م.

(٢) في ك: «بالله وبرسوله ﷺ»، وفي س: «بالله وبرسله». (٣) في ك: «أو جهلًا».

(٤) سقط من م. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «الكفر هو: عدم الإيمان، سواء كان معه تكذيب، أو استكبار، أو إباء، أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر». «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣٩). وبين -رحمه الله- أن أصل كل ضلال: الجهل والعناد، فقال: «فالأمر ينتهي إلى عدم التصور التام أو العناد المحض، وهذا أصل كل ضلال، وهو الجهل أو العناد، والعناد وصف المغضوب عليهم، والجهل وصف الضالين «درء التعارض» (٨/ ٣٢٣).

(٥) في م: «وأن الأتباع هو متبوعهم».

﴿٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ (١) في العذاب ولم يغن عنهم تقليدهم شيئا وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ (٢) وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**من دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ أوزارِ من اتبعه، لا ينقصُ من أوزارِهم شيئًا**»(٣) وهذا يدلُّ على أن كفرَ من اتبعهم إنما هو بمجردِ اتباعِهم وتقليدِهم.

الفرقُ بين مقلدٍ تمكن منَ العِلمِ فأعرضَ ومقلدٍ لم يتمكن من العلم

نعم، لابدَّ في هذا المقام من تفصيلٍ به يزولُ الإشكالُ، وهو الفرقُ بين مقلدٍ تمكنَ من العلمِ ومعرفةِ الحقِّ، فأعرضَ عنه، ومقلدٍ لم يتمكنْ من ذلك بوجهٍ، والقسمانِ واقعانِ في الوجودِ، فالمتمكنُ المعرضُ مفرطٌ تاركٌ للواجبِ عليهِ لا عذرَ له عند اللهِ.

وأما العاجزُ عن السؤالِ والعلمِ الذي لا يتمكنُ من العلمِ بوجهٍ، فهم قسمان أيضًا:

أحدُهما: مريدٌ للهدى مؤثرٌ له محبٌّ له غيرُ قادرٍ عليهِ، ولا على طلبِهِ؛ لعدمِ من يرشدُه، فهذا حكمُهُ حكمُ أربابِ الفتراتِ ومن لم تبلغْه الدعوةُ.

الثاني: مُعْرِضٌ لا إرادةَ له، ولا يُحدِّثُ نفسَه بغيرِ ما هو عليه. فالأولُ يقولُ: يا ربِّ لو أعلمُ لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدِنْت به، وتركتُ(٤) ما أنا عليه، ولكن لا أعرفُ غيرَ ما أنا عليه، ولا أقدرُ على غيرِه، فهو غايةُ جهدِي، ونهايةُ معرفتِي. والثاني: راضٍ بما هو عليهِ، لا يُؤثرُ غيرَه عليهِ، ولا تطلبُ نفسُه سواه، ولا فرقَ عنده بين حالِ عجزِه وقدرتِهِ، وكلاهما عاجزٌ، وهذا لا يجبُ أن يلحقَ بالأولِ؛ لما بينهما من الفرقِ:

فالأولُ: كمن طلبَ الدينَ في الفترةِ، ولم يظفرْ به، فعدلَ عنه بعدَ استفراغِهِ الوسعَ في طلبِهِ عجزًا وجهلًا.

والثاني: كمن لم يطلبْه، بل مات على شركِهِ، وإن كان لو طَلَبه لعجزَ عنه، ففرقٌ بين عجزِ الطالبِ وعجزِ المُعْرِضِ، فتأملْ هذا الموضعَ، واللهُ يقضي بين عبادِهِ يومَ القيامةِ بحكمِهِ وعدلِهِ، ولا يعذبُ إلا من قامتْ [عليهِ](٥) حجتُه بالرسلِ، فهذا مقطوعٌ

---

(١) في م: «استزلوا».

(٢) في ع: ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٧]. والآيتان من سورة البقرة: [١٦٦-١٦٧].

(٣) سبق تخريجه. (٤) في م: «ولتركت». (٥) سقط من م.

الواجبُ على العبدِ اعتقادُ كفرِ من دانَ بغيرِ الإسلامِ

به في جملةِ الخلقِ، وأما كونُ زيدٍ بعينِهِ وعمرو [بعينِهِ][١] قامتْ عليهِ الحجةُ أم لا، فذلك ما لا[٢] يمكنُ الدخولُ بين[٣] اللهِ وبين عبادِهِ [فيه][٤]، بل الواجبُ على العبدِ أن يعتقدَ أن كلَّ من دان بدينٍ غيرِ دينِ الإسلام فهو كافرٌ، وأنَّ اللهَ سبحانه لا يعذبُ أحدًا إلا بعدَ قيامِ[٥] الحجةِ عليهِ بالرسولِ، هذا[٦] في الجملةِ والتعيينُ موكولٌ إلى علمِ اللهِ ﷻ وحكمِهِ[٧]، هذا في أحكامِ الثوابِ والعقابِ[٨]. وأما في أحكامِ الدنيا فهي جاريةٌ على ظاهرِ الأمرِ، فأطفالُ الكفارِ ومجانينُهم: كفارٌ في أحكامِ الدنيا لهم حكمُ أوليائِهِم.

وبهذا التفصيلِ يزولُ الإشكالُ في المسألةِ، وهو مبنيٌّ على أربعةِ أصولٍ:

القولُ بهذه المسألةِ مبنيٌّ على أربعة أصولٍ

أحدُها: أن اللهَ سبحانه لا يعذبُ أحدًا إلا بعدَ قيامِ الحجةِ عليهِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: الآية ١١] وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ، يخبرُ أنه إنما يعذبُ من جاءه الرسولُ وقامتْ عليه الحجةُ، وهو المذنبُ الذي يعترفُ بذنبِهِ. وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف: الآية ٧٦] والظالمُ[٩] من عرف ما جاء به الرسولُ، أو تمكن من

---

(١) سقط من م، ك، س. (٢) في م، ك، س: «مما لا». (٣) في م: «الدخول فيه بين».
(٤) سقط من م. (٥) في م: «إقامة». (٦) في م: «وهذا».
(٧) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «حكم الوعيد على الكفر لا يثبت في حق الشخص المعين حتى تقوم عليه حجة الله التي بعث بها رسله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥]، «بغية المرتاد» (٣١١).
(٨) للاستزادة في أقسام الناس في الهدى الذي بعث الله به نبيه ﷺ، ينظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية»، للمؤلف رحمه الله (٧٢)، و«كشف الأوهام والالتباس»، لابن سحمان (٥٤).
(٩) الظلم: أصله: الجور ومجاوزة الحد. ويراد به: وضع الشيء في غير موضعه، والميل عن القصد، وهو في الشرع: التعدي عن الحق إلى الباطل. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٤/١٦٠٣)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٣١٥)، و«القاموس المحيط» (١٤٦٤)، و«التعريفات» للجرجاني (١٨٦)، =

معرفتِهِ ثم خالفه وأعرضَ عنه، وأما من لم يكنْ عنده من الرسولِ خبرٌ أصلًا، ولا تمكنَ من معرفتِهِ بوجهٍ، وعجزَ عن ذلك، فكيف يقالُ: إنه ظالمٌ؟.

الأصلُ الثاني أن العذابَ يُسْتَحَقُّ بسببين:

أحدُهما: الإعراضُ عن الحُجَّةِ، وعدمُ إرادةِ [العلمِ][1] بها وبموجبِها.

الثاني: العنادُ لها بعد قيامِها، وتركُ إرادةِ موجبِها.

الأصلُ الثاني: أن العذابَ يُسْتَحَقُّ بِسَبَبَيْنِ

فالأولُ[2]: كفرُ إعراضٍ. **والثاني**: كفرُ عنادٍ. وأما كفرُ الجهلِ مع عدمِ قيامِ الحجةِ وعدمِ التَّمكُّنِ من معرفتِها، فهذا الذي نفى اللهُ التعذيبَ عليه حتى تقومَ حجتُه بالرسلِ.

الأصلُ الثالثُ: أن قيامَ الحجةِ يختلفُ باختلافِ الأزمنةِ والأمكنةِ والأشخاصِ، فقد تقومُ حجةُ اللهِ على الكفارِ في زمانٍ دون زمانٍ، وفي بقعةٍ وناحيةٍ دون أخرى، كما أنها تقومُ على شخصٍ دون آخرَ[3]؛ إما لعدمِ عقلِهِ وتمييزِه؛ كالصغيرِ والمجنونِ، وإما لعدمِ فهمِهِ، كمن لا يفهمُ الخطابَ ولم يحضرْ ترجمانٌ يترجمُ له، فهذا بمنزلةِ الأصمِّ الذي لا يسمعُ شيئًا، ولا يتمكنُ من التَّفَهُّمِ، وهو[4] أحدُ الأربعةِ الذين يُدلُون على اللهِ بالحجةِ يومَ القيامةِ، كما تقدم حديثُ[5] الأسودِ، وأبي هريرةَ[6] وغيرِهما.

الأصلُ الرابعُ: أن أفعالَ اللهِ ﷻ تابعةٌ لحكمتِهِ التي لا يُخلُّ بها سبحانه، وأنها مقصودةٌ لغاياتِها المحبوبةِ[7] وعواقبِها الحميدةِ[8]، وهذا الأصلُ هو أساسُ الكلامِ في هذهِ الطبقاتِ [الذي عليه [بتُبنى][9]، مع تلقي أحكامِها من نصوصِ الكتابِ والسنةِ لا من آراءِ الرجالِ وعقولِهم، ولا يَدري قدرَ الكلامِ في هذهِ الطبقاتِ][10] إلا مَنْ عَرَفَ ما في كتبِ الناسِ، ووقف على أقوالِ الطوائفِ في هذا البابِ، وانتهى إلى غايةِ مراتبِهم ونهايةِ إقدامِهم. واللهُ سبحانه الموفقُ للسدادِ، الهادي إلى الرشادِ.

وأما مَنْ لم يُثْبِتْ حكمةً ولا تعليلًا، وَرَدَّ الأمرَ إلى محضِ المشيئةِ التي تُرجحُ أحدَ

= و«الحدود الأنيقة»، لزكريا الأنصاري (٧٣).

(١) سقط من ك، س.

(٢) في م: «الأول».
(٣) في س: «دون شخص».
(٤) في م: «وهذا».

(٥) في ك، س: «في حديث».
(٦) تقدم.
(٧) في ك، س: «المحمودة».

(٨) في م: «المحمودة».
(٩) سقط من م.
(١٠) سقط من ك.

المِثْلَيْنِ على الآخرِ بلا مُرَجِّحٍ[١]؛ فقد أراحَ نفسَه من هذا المقام الضنكِ[٢]، واقتحامِ عقباتِ هذهِ المسائلِ العظيمةِ، وأدخلها كلَّها تحتَ قولِه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣][٣].

وهو الفَعَّالُ لما يُريدُ، وصدق اللهُ وهو أصدقُ القائلين، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لكمالِ حكمتِهِ وعلمِهِ ووضعِهِ الأشياءَ مواضعَها[٤]، وأنه ليس في أفعالِهِ خللٌ، ولا عبثٌ، ولا فسادٌ يسألُ عنه كما يسألُ المخلوقُ، وهو الفعالُ لما يريدُ، ولكن لا يريدُ أن يفعلَ إلا ما هو خيرٌ ومصلحةٌ ورحمةٌ وحكمةٌ، فلا يفعلُ الشرَّ، ولا الفسادَ، ولا الجورَ[٥] ولا خلافَ مقتضى حكمتِهِ؛ لكمالِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وهو الغنيُّ الحميدُ العليمُ الحكيمُ.

[فصلٌ][٦]

الطبقةُ الثامنةَ عشرةَ: طبقةُ الجنِّ

الطبقةُ الثامنةَ عشرةَ[٧]: طبقةُ الجنِّ[٨]، وقد اتفق المسلمون على أنَّ منهم المؤمنَ والكافرَ والبرَّ والفاجرَ، قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: الآية ١١] قال مجاهدٌ[٩]: «يعنون . . . .

---

(١) تقدمت هذه المسألة.

(٢) الضَّنْك: الضيق من كل شيء، والشدة. ينظر: «العين» (٥/ ٣٠٢)، «و«الصحاح»» للجوهري (٤/ ١٣١١)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٦٢)، و«القاموس المحيط» (١٢٢٣).

(٣) في ك، س: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٤) في س: «في مواضعها».

(٥) الجور: نقيض العدل، والميل عن القصد. ينظر: «العين» (٦/ ١٧٦)، و «مقاييس اللغة» لابن فارس (٢٢٩)، «و«الصحاح»» للجوهري (٢/ ٥٣٦) و«لسان العرب» (٤/ ١٥٣).

(٦) سقط من م.

(٧) في الأصل: ع، ك، س: «الثامنة عشر» والمثبت من م.

(٨) الجن: مأخوذ من الاجتنان، وهو: الاستتار والاختفاء، والجن: نوع من العالم؛ سموا بذلك؛ لاجتنانهم. أي: استتارهم واختفائهم عن الأبصار، ولأنهم اسْتَجَنُّوا من الناس، فلا يُرون على حقيقتهم وطبيعتهم، مكلفون بما كلف به الإنس، يأكلون، ويشربون، ويتناسلون، مجزيون على أعمالهم، لهم قدرة في التشكل والتغير. ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (٩٨)، و«لسان العرب» (١٣/ ٩٥)، و«الفصل في الملل»، لابن حزم (٥/ ٩).

(٩) مجاهد بن جبر، ويقال: ابن جبير، أبو الحجاج المكي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، المقرئ المفسر، أحد أعلام التابعين، سمع سعدًا وعائشة وابن عباس وطائفة، كان أحد أوعية العلم، أخذ =

مسلمين وكافرين»[١] وقال الحسنُ[٢] والسُّديُّ[٣]:

«أمثالُكُم، فمنهم: قدريةٌ، ومرجئةٌ، ورافضةٌ[٤]»[٥] وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: «ألوانًا شتى»[٦] وقال ابنُ كيسانَ: «شيعًا وفرقًا»[٧] ومعنى الكلامِ: أصنافًا مختلفةً، ومذاهبَ متفرقةً، ثم قيل [في] [٨]إعرابِ الآيةِ: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: الآية ١١] [أي: ومنا][٩]

= التفسير من ابن عباس، وعرضه عليه مرات. توفي سنة (١٠٣)هـ. ينظر: «تاريخ دمشق»، لابن عساكر (١٧/٥٧)، و«تهذيب الكمال» (٢٧/٢٢٨)، و«تذكرة الحفاظ» (١/٧١)، و«السير» (٤/٤٤٩).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٩/١١٢)، وأورده البغوي في «تفسيره» (٤/٤٠٣)، وابن كثير في «تفسيره»: ٤/٤٣١).

(٢) الحسن البصري: تقدمت ترجمته.

(٣) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُّدي، أبو محمد القرشي الكوفي الأعور، أحد موالي قريش، سكن الكوفة، وسمي بالسُّدي لأنه كان يقعد في سدة باب الجامع، وهو السدي الكبير، روى عن أنس، وابن عباس وغيرهما، اختلف في حديثه، قال الحافظ ابن حجر «صدوق يَهِم، ورمي بالتشيع» توفي سنة (١٢٧)هـ. ينظر: «التاريخ الكبير»، للبخاري (١/٣٦١)، و«تهذيب الكمال» (٣/١٣٢)، و«السير» (٥/٢٦٤) و«تقريب التهذيب» (١٠٨).

(٤) الرفض: الترك، والروافض: كل جند تركوا قائدهم، والرافضة: الفرقة منهم، وهي فرقة من فرق الشيعة؛ إذ أن الشيعة تنقسم أقسامًا: الغالية، والرافضة، والزيدية، وسموا بهذا الاسم؛ لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ وقيل: إنهم بايعوا زيد بن علي بن الحسين بن علي، ثم قالوا له: تبرأ من الشيخين، فأبى، فتركوه، ورفضوه. والرافضة في عداد غلاة الشيعة، وهم فرق منها: الهاشمية والكيسانية، والمباركية، والعمارية، والقطيعية، وغيرها. وهم يتبرؤون من الشيخين، ويعتقدون أن النبي ﷺ استخلف علي بن أبي طالب، ويقولون بالعصمة لأئمتهم. ينظر: «العين» (٧/٢٩)، و«مقاييس اللغة»، لابن فارس (٤١٥)، «و«الصحاح»» للجوهري (٣/٩٠٦) و«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، للأشعري: ص١٦)، و«التنبيه والرد» للملطي، (ص/١٥٦).

(٥) رواه أبو الشيخ الأصفهاني في كتاب «العظمة»: (٥/١٦٨٩)، والإمام أحمد في «الناسخ والمنسوخ»، كما نقله الشلبي عنه في «أحكام المرجان» (٦٥)، عن السُّدي. وينظر: «تفسير البغوي» (٤/٤٠٣)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب»، لابن الجوزي (٢٤٨)، و«زاد المسير» (٨/٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/١٥).

(٦) أورده البغوي في «تفسيره» (٤/٤٠٣)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ١١٢) عن ابن عباس وقتادة.

(٧) في م: «فرقًا وشيعًا» والأثر أورده البغوي في «تفسيره» (٤/٤٠٣).

(٨) سقط من م. (٩) سقط من ك.

قومٌ دونَ ذلك، فحذفَ الموصوفَ، وأقام صفتَه مقامَه[1]؛ كقولِه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٦٤].

أي: إلا من له مقامٌ[2]، وكقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المَائدة: الآية ٤١] أي: فريقٌ سماعون[3]، وكقولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٦] أي فريقٌ يحرفون[4]، وكقولِهِ على أظهرِ القولين: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٦] أي: فريقٌ يودُّ أحدُهم[5]. وقال الشاعرُ[6]:

فَظَلُّوا ومنهم دَمعهُ سَائقٌ[7] لهم ... وآخرُ يَذرِي دَمْعةَ العينِ بالهَملِ[8]

أي: ومنهم من دمعُهُ، وقولُهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجنّ: الآية ١١] بيان لقولِهم: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجنّ: الآية ١١] أي: كنا ذوي طرائقَ[9]. وهي المذاهبُ، واحدُها:

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٩٩)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٤٤).

(٢) ينظر: «مشكل إعراب القرآن»، للقيسي (١/ ١٩٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٣١)، و«البرهان»، للزركشي (٣/ ١٥٩).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٩٧)، و«مشكل إعراب القرآن» للقيسي (١/ ٢٢٥).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش سعيد بن مسعدة (١/ ٢٣٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ١٠١) و«تفسير الواحدي» (١/ ٢٦٧)، و«تفسير البيضاوي» (٢/ ١٩٦).

(٥) جملة: «يود» إما أن تكون: مستأنفة، والتقدير: ومن الذين أشركوا قوم يود أحدهم.
وقيل: معطوف على الناس، أي: أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا، فيكون قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٦] راجعًا إلى اليهود؛ لبيان مزيد حرصهم على الحياة. ينظر في هذا: «إعراب القرآن»، للنحاس (١/ ٢٠٠) و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١/ ٥٣) و«تفسير البيضاوي» (١/ ٣٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ١٣٣).

(٦) وهو: ذو الرُّمَّةِ. ينظر «ديوانه» (ص/ ٥٧٠)، وفيه:
فظلوا ومنهم دمعه غالب له ... وآخر يثني عبرة العين بالمهل
و«تفسيرالقرطبي» (٥/ ٢٤٣)، و«همع الهوامع في شرح جمع الجوامع»، للسيوطي (١/ ٤٢٧).

(٧) في م، ك، س: «سابق».

(٨) في ك: «بالمهل».
والهمْل: الماء السائل الذي لا مانع له، وهو فيضان الدمع من العين.
ينظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٥٠٨)، و«لسان العرب» (١١/ ٧١٠)، و«القاموس المحيط» (١٣٨٥).

(٩) ينظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٨٧)، و«تفسير ابن جزي الكلبي» (٤/ ٢٨٩)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٤٤) و«فتح القدير»، للشوكاني (٥/ ٣٠٦).

طريقةٌ، وهي المذهبُ، والقدِدُ جمعُ: قِدَّة كقطعةٍ [وقِطَعٍ] (١) وزنًا ومعنى، وهي من القَدّ، وهو: القطعُ(٢). وقيل: كنا(٣) في اختلافِ أحوالِنا مثلَ الطرائقِ المختلفةِ في اختلافِها(٤)، وعلى هذا فالمعنى: كنا كطرائقَ قددًا وليس بشيءٍ، وأضعفُ منه قولُ من قَالَ: إن طرائقَ منصوبٌ على الظرفِ، أي: كنا [في] (٥) طرائقَ(٦) مختلفةٍ(٧) كقولِهِ:

.... كما عسَلَ الطريقَ الثعلبُ(٨)

وهذا مما لا يحملُ عليه أفصحُ الكلامِ(٩).

وقيل: المعنى: كانتْ طرائقُنا طرائقَ(١٠) قِدَدًا، فحذفَ المضافَ، وأقام المضافَ

(١) سقط من م.

(٢) ينظر: «العين» (٥/ ١٦)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٤٤)، و«القاموس المحيط» (٣٩٤).

(٣) في ك، س: «وقيل المعنى كنا».

(٤) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٤٤)، و«روح المعاني» للآلوسي (٢٩/ ٨٨).

(٥) سقط من م. (٦) في ك، س: «طريق».

(٧) وقد جوز هذا الوجه الزمخشري في «الكشاف»: (٤/ ١٦٩).

(٨) شطر بيت لساعدة بن جؤية الهذلي، وهو من المخضرمين، وليست له صحبة:

لَدْنٌ بهَزِّ الكفِّ يَعْسلُ متنُه ... فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

ينظر: «الجمل في النحو»، المنسوب للخليل بن أحمد (٧١)، و«النوادر»، لأبي زيد (١٦٧)، و«تفسير بن الطبري» (٨/ ١٣٥)، و«الخصائص»، لابن جني (٣/ ٣١٩)، و«المستقصى في أمثال العرب»، للزمخشري (٢/ ٧٦) و«الأمالي الشجرية» (١/ ٦٣).

ومعنى: «عسَلَ الثعلب " أي: مضى مسرعًا في عدوه، واشتد اهتزازه واضطرابه، وهز رأسه.

ينظر: «العين» (١/ ٣٣٣)، و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٣٩)، و«لسان العرب» (١١/ ٤٤٦) و«القاموس المحيط» (١٣٣٤).

(٩) قال ابن هشام: «ولا يحذف الجار قياسًا إلا مع (أنَّ) و(أنْ) «مغني اللبيب» (٦٨١). وقال أيضًا: «وقد يحذف، وينصب المجرور، وهو ثلاثة أقسام: سماعي جائز في الكلام المنثور، نحو " شكرته»، والأكثر ذكر اللام ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: ١٤]، وسماعي خاص بالشعر؛ كقوله: كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ وقياسي وذلك في (أنَّ) و (أنْ) و (كي).

وينظر: «أوضح المسالك» (٢/ ١٧٨-١٨٢)، و«أسرار العربية»، لابن الأنباري (١٦٩).

(١٠) سبق تخريجه.

إليه مقامَه(١).

وقال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: الآية ١٤] فالمسلمون: الذين آمنوا بالله ورسولِهِ منهم، [و](٢) القَاسِطُون: الجَائِرُون العادلون عن الحقِّ(٣). قال ابنُ عباسٍ: «هُمُ الذِّينَ جَعَلُوا للَّهِ أندادًا، يقالُ: أقسطَ الرجلُ؛ إذا عَدَلَ فهو مُقسطٌ»(٤) ومنه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجرات: الآية ٩] وقسطَ: إذا جار، فهو قاسطٌ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: الآية ١٥].

انقسامُ الجنِّ ثلاثَ طبقاتٍ

وقد تضمنتْ هذهِ الآياتُ انقسامَهم إلى ثلاثٍ(٥) طبقاتٍ: صالحين، ودون الصالحين، وكفارٍ، وهذهِ الطبقاتُ بإزاءِ طبقاتِ بني آدمَ؛ فإنها ثلاثةٌ: أبرارٌ، ومقتصدون وكفارٌ؛ فالصالحون بإزاءِ(٦) الأبرارِ، ومَنْ دونهم بإزاءِ المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفارِ.

وهذا كما قَسَّم سبحانه بني إسرائيلَ إلى هذهِ الأقسامِ الثلاثةِ في قولِهِ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨] فهؤلاءِ النَّاجون منهم، ثم ذَكَرَ الظالمين وهم خِلْفُ السُّوءِ الذين(٧) خُلِفوا(٨) بعدَهم.

لما كانَ الإنسُ أكملَ منَ الجنِّ ازدادُوا عليهم بثلاثةِ أصنافٍ

ولما كان الإنسُ أكملَ من الجنِّ، وأتمَّ عقولًا، ازدادوا عليهم بثلاثةِ أصنافٍ أخرَ ليس شيءٌ منها للجنِّ، وهم: الرسلُ، والأنبياءُ، والمقربون، فليس في(٩) الجنِّ صنفٌ من هؤلاءِ، بل غايتُهم الصلاحُ، وذهب شذوذٌ من الناسِ [إلى](١٠) أن فيهم الرسلَ والأنبياءَ محتجًّا على ذلك بقولِه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠].

---

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٩/ ٤٤)، و«فتح القدير»، للشوكاني (٥/ ٣٠٦).

(٢) سقط من م.

(٣) ينظر: «العين» (٥/ ٧١)، «و«الصحاح»» للجوهري (٣/ ٩٦٤)، و«لسان العرب» (٧/ ٣٧٨).

(٤) أورده البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٠٣).

(٥) في م: «ثلاثة».

(٦) يقال: «أززت الشيء أَؤُزُّه أَزًّا: إذا ضُممت بعضه إلى بعض» ويقال: بإزائه، أي: بحذائه. ينظر: «العين» (٧/ ٣٩٨)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٧٥)، «و«الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٣٤) و«لسان العرب» (٥/ ٣٠٨).

(٧) في س: «الذي».

(٨) في م: «خلف».

(٩) في م: «من».

(١٠) سقط من م.

وبقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥] وهذا قولٌ شاذٌّ، لا يُلتفتُ إليه، ولا يعرفُ به سلفٌ من الصحابةِ والتابعين وأئمةِ الإسلامِ[(١)]، وقولُه سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٠] لا يدلُّ على أن الرسلَ من كلِّ واحدةٍ من الطائفتين، بل إذا كانتِ الرسلُ من الإنسِ، وقد أُمرتِ الجنُّ باتباعِهم، صَحَّ أن يقالَ للإنسِ والجنِّ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٠].

ونظيرُ هذا أن يقالَ للعربِ والعجمِ: ألم يجئكُم رسلٌ منكم يا معشرَ العربِ والعجمِ، فهذا لا يقتضي أن يكونَ من هؤلاءِ رسلٌ، ومن هؤلاءِ[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نُوح: الآية ١٦] وليس في كلِّ سماءٍ سماءٌ[(٣)].

---

(١) وهذا القول مروي عن الضحاك، ومقاتل بن سليمان. ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٦)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٣١)، و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٥١)، و«زاد المسير» (٣/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧٨)، و«آكام المرجان في غرائب الأخبار»، و«أحكام الجان»، للشِبْلي (٤٦)، و«لوامع الأنوار»، للسفاريني (٢/ ٢٢٣).

(٢) في م: «ومن هؤلاء رسل». فيكون المعنى: أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف والقصد بالمخاطبة؛ فإن الجن والإنس متحدون في ذلك، وإن كان الرسل من الإنس خاصة، فهم من جنس الجن من تلك الحيثية، وقيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجن، كما يغلب الذكر على الأنثى، وقيل: المراد بالرسل إلى الجن ها هنا هم النذر منهم، كما في قوله: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] فالرسل من الإنس، ولم يرسل من الجن رسل، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وابن جريج، والكلبي، وهو قول الجمهور، قال الشبلي: «جمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أنه لم يكن من الجن قط رسول، ولم تكن الرسل إلا من الإنس «آكام المرجان» (٤٦). وينظر في هذا: «معاني القرآن» للفرَّاء (١/ ٣٥٤)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٣٦)، و«معاني القرآن»، للنحاس (٢/ ٤٩٢)، و«أعلام النبوة»، للماوردي (٢٢١)، و«زاد المسير» (٣/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٨٦) و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧٨)، و«البرهان»، للزركشي (٢/ ٢٣٧) و«لوامع الأنوار»، للسفاريني (٢/ ٢٢٣).

(٣) في س: «في كل سماءٍ قمر». ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٢] وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح دون العذب، فكأنه قيل: يخرج من بعضهما ومن أحدهما. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٤)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٣٦)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٣٤).

وأما قولُه[١] تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] فالإنذارُ أعمُّ من الرسالةِ، والأعمُّ لا يستلزمُ الأخصَّ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٢][٢] فهؤلاءِ نُذر، وليسوا برسلٍ. قال غيرُ واحدٍ من السلفِ[٣]: الرسلُ من الإنسِ، وأما الجنُّ ففيهم النذرُ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: الآية ١٠٩] فهذا يدلُّ على أنه لم يرسلْ جنيًّا[٤]، ولا امرأةً، ولا بدويًّا[٥]. وأما تسميتُه تعالى الجنَّ رجالًا في قولِهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: الآية ٦]، فلم يطلقْ عليهم الرجالَ، بل هي تسميةٌ مقيدةٌ بقولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨]، [فهم رجالٌ من الجنِّ][٦] ولا يستلزمُ ذلك دخولَهم في الرجالِ عند الإطلاقِ، كما تقول: رجالٌ من حجارةٍ، ورجالٌ من خشبٍ، ونحوه.

فصلٌ

اتفاقُ المسلمين على أنَّ كفارَ الجنِّ في النارِ

وقد اتَّفقَ المسلمون على أن كفارَ الجنِّ في النَّارِ[٧]، وقد دلَّ على ذلك القرآنُ في غيرِ موضعٍ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: الآية ١٣][٨] وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

---

(١) في ك، س: «وقوله».

(٢) في ك، س: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٢].

(٣) وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد. ينظر: «تفسير البغوي» (٣/ ١٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٨٦).

(٤) في م: «جنًّا».

(٥) قال الحسن: «لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية، ولا من الجن، ولا من النساء». ينظر: «أحكام القرآن»، للجصاص (٤/ ٣٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٢٧٤)، (١٩/ ١٦).

(٦) سقط من م.

(٧) قال شيخ الإسلام ابن تيمية. رَحِمَهُ اللَّهُ.: «وقد اتفق العلماء على أن كفارهم يدخلون النار، كما أخبر الله بذلك في قوله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] ثم ساق الأدلة. «النبوات» (٢٧٧). وينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٣)، و«الفصل»، لابن حزم (٣/ ١٤٧)، و«الفروع» لابن مفلح (١/ ٥٣٦)، و«آكام المرجان في أحكام الجان»، لبدر الدين الشبلي (ص/ ٦٨)، و«فتح الباري» (٦/ ٣٤٦).

(٨) في ك، س: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾ [السجدة: الآية ١٣].

﴿٨٥﴾ [ص: الآية ٨٥][١] فملؤُها منه به وبكفارِ ذريتِهِ وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] وقال تعالى حكايةً عن مؤمنِهم[٢]: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: الآية ١٤، ١٥][٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] وقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾[٤]، وجنودُهُ إن لم يختصَّ[٥] بالشياطينِ من ذريتِهِ فهم داخلون في عمومِهِ.

وبالجملةِ فهذا أمرٌ معلومٌ بالاضطرارِ من دينِ الإسلامِ، وهو يستلزمُ تكليفَ الجنِّ بشرائعِ الأنبياءِ، ووجوبَ اتباعِهم لهم[٦]، فأما شريعتُنا فأجمع المسلمون على أن محمدًا ﷺ بُعثَ إلى الجنِّ والإنسِ[٧]، وأنه يجبُ على الجنِّ طاعتُه، كما يجبُ على الإنسِ، وأما قبل نبينا ﷺ فقولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] يدلُّ على أن الأممَ الخاليةَ من كفارِ الجنِّ في النارِ، وذلك إنما يكونُ بعد إقامةِ الحجةِ عليهم بالرسالةِ.

---

(١) في ك، س: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: الآية ٨٥].

(٢) في م: «مؤمنيهم».

(٣) في ك، س: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الجنّ: الآية ١٤] إلى قوله: ﴿حَطَبًا﴾ [الجنّ: الآية ١٥].

(٤) في ك، س: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشُّعَراء: الآية ٩٤].

(٥) في م: «وجنده وإن كان يختص...».

(٦) قال ابن عبد البر: «وهم عند الجماعة مكلفون مخاطبون» ثم ساق الأدلة. «التمهيد» (١١/ ١١٧). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية «الفتاوى الكبرى» (٤/ ٤٣١): «والجن ليسوا كالإنس في الحد والحقيقة، لكنهم يشاركونهم في جنس التكليف، بالأمر والنهي والتحليل والتحريم، بلا نزاع بين العلماء. اهـ. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٣)، و«الفروع» لابن مفلح (١/ ٥٣٦)، و«آكام المرجان»، للشبلي (٤٥) و«لقط المرجان»، للسيوطي (٧١)، و«الأشباه والنظائر» للسيوطي (٢٥٦)، و«عالم الجن والشياطين». د: عمر الأشقر (٥١).

(٧) قال ابن حزم: «وهو ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس، وطاعته فرض على كل مؤمن وكافر، من قال غير هذا فليس مسلمًا، وهذه جملة لم يختلف فيها أحد ممن يدعي الإسلام» «المحلى» (٨/ ٢٥)، وقال الشبلي «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في أن الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الجن والإنس» «آكام المرجان» (٤٧). وينظر: «شرح مختصر الروضة»، للطوفي (٢/ ٢١٨)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٩/ ٩)، و«فتاوى السبكي» (٢/ ٥٩٤)، و«شرح الطحاوية» (١٧٧).

سورةُ الرحمنِ دليلٌ على تكليفِ الجنِّ

وقد دلتْ سورةُ الرحمنِ على تكليفِهم بالشرائعِ، كما كُلف الإنسُ، ولهذا يقولُ سبحانه في إثرِ كلِّ آيةٍ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: الآية ١٣]، فدلَّ ذلك على أن السورةَ خطابٌ للثقلينِ[١] معًا، ولهذا قرأها رسولُ الله ﷺ على الجنِّ قراءةَ تبليغٍ، وأخبر أصحابَه أنهم كانوا أحسنَ ردًّا منهم؛ فإنهم جَعَلُوا يقولون كلما قرأ عليهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾: لا نكذبُ بشيءٍ من آلائك، ربنا فلك الحمدُ[٢].

ولما كان أبوهم[٣] هو أولُ من دعا إلى معصيةِ اللهِ، وعلى يدِه حصل كلُّ كفرٍ وفسوقٍ وعصيانٍ، فهو الداعي إلى النارِ، كان أولُ من يُكسى حلةً من النارِ يومَ القيامةِ،

---

(١) في ك: «الثقلين».

(٢) عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: **«لقد قرأتها على الجن، ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾: قالوا: لا بشيء من نعمك نكذب، فلك الحمد»** رواه الترمذي، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الرحمن، ح (٣٢٩١)، وقال: هذا حديث غريب، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٥)، ح (٣٧٦٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٩١٤)، ح (٥١٣٨).

(٣) اختلف المفسرون في أبي الجن من هو؟ على قولين:

الأول: أن أباهم هو إبليس، فهو أصل الجن، وهم ولده ونسله.

وهو مروي عن: ابن عباس، وابن زيد، والحسن، وقتادة، والضحاك، والزهري، وغيرهم، وقد روى الطبراني في «الأوسط» (٦/ ١٩٧) عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قدم على رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله، إني أريد أن أسألك عن أمر لا أسأل عنه أحدًا أبدًا بعدك، من أبونا؟ قال: **«آدم»**، قال: من أمنا؟، قال: **«حواء»**، قال من أبو الجن؟، قال: **«إبليس»**، قال: فمن أمهم؟ قال: **«امرأته»** قال في «مجمع الزوائد» بعده: وفيه طلحة بن زيد، ضعفه البخاري، وقد قال عنه الحافظ: «متروك». «تقريب التقريب» (٢٨٢). وكأن المؤلف رحمه الله يرى هذا القول، كما في قوله: «أبوهم»، وانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧)، وكأن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يميل إلى هذا، إذ قال في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٥): فإبليس الذي هو أبو الجن....

الثاني: أن إبليس ليس أبًا للجن، ولا هو أصل لهم، بل هو أحد أفرادهم، وعلى هذا جمهور المفسرين، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغيرهما. انظر الأقوال في «تفسير الطبري» (١/ ٢٢٦)، و«العظمة»، لأبي الشيخ الأصبهاني (٥/ ١٦٤) و«تفسير البغوي» (٣/ ٤٩) و(٤/ ٢٦٨)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٤٥)، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/ ١٥٧)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٣٩٨-٣٩٩).

يسحبُها، ويُنادي: واثبوراه[١]، وأتباعُه من أولادِه وغيرِهم خلفَه ينادون: واثبورهم[٢].

حتى قيل: إن كلَّ عذابٍ يقسمُ على أهلِ النارِ يبدأُ به فيه، ثم يصيرُ إليهم[٣].

❊ ❊ ❊

(١) الثبور: الهلاك والخسران والويل، ويراد به أيضًا: اللعن والطرد. ينظر: «العين» (٨/ ٢٢٢)، و«مقاييس اللغة»، لابن فارس (١٩١)، «و«الصحاح»» للجوهري (٢/ ٥٢٥) و«لسان العرب» (٤/ ٩٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قال هناد بن السري: حدثنا المحاربي عن ليث فيما بلغه: أن مسلمي الجن يوم القيامة يقال لهم: كونوا ترابًا، وإن إبليس في قبة من نار ليس من أنواع العذاب شيء إلا وهو يخرج من تلك القبة، قال: ويحشرهم الله تبارك وتعالى في صور الذَّر، يصغرهم بذلك؛ لأنهم أول من تكبر، يعني: الجن». «الزهد» (٤٢٦)، ح (٨٣٤).

فصلٌ(١)

حكمُ المؤمنِ منهم في الدارِ الآخرةِ

وأما حكمُ مؤمنيهم في الدارِ الآخرةِ، فجمهورُ السلفِ والخلفِ على أنهم في الجنةِ(٢)، وترجم على ذلك البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحِهِ»(٣)، فقال: بابُ ثوابِ الجنِّ وعقابِهم؛ لقولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ الآية [الأنعام: الآية ١٣٠]، بخسًا: نقصانًا.

قال مجاهدٌ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصَّافات: الآية ١٥٨] قال كفارُ قريشٍ: الملائكةُ بناتُ اللهِ وأمهاتُهم بناتُ سَرَوَاتِ(٤) الجنِّ(٥)، قال اللهُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٥٨](٦) ستُحضرُ(٧) للحسابِ، ثم ذَكَر حديثَ أبي سعيدٍ: «**إذا كنتَ في غنمِكَ وباديتِكَ(٨)، فأذنتَ بالصلاةِ، فارفعْ صوتَكَ [بالنداءِ](٩)؛ فإنه لا يسمعُ مدى صوتِ المؤذنِ جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يومَ القيامةِ بالتوحيدِ**»(١٠). سمعتُه من رسولِ اللهِ ﷺ هذا ما ذكره في البابِ.

وقد ذهب جمهورُ الناسِ إلى أن مؤمنيهم في الجنةِ، وحُكي عن أبي حنيفةَ(١١)

---

(١) بياض في ك بمقدار كلمة.

(٢) قال ابن حزم: «وأما حكم مؤمنهم فقد اختلف الناس فيهم، فقال أبو حنيفة: لا ثواب لهم، وقال ابن أبي ليلى وأبو يوسف وجمهور الناس: إنهم في الجنة، وبهذا نقول: «الفصل» (٣/ ١٤٧)، وهو مروي عن الضحاك، وإليه ذهب الأئمة: مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم، والأوزاعي وأبو يوسف وابن أبي ليلى وغيرهم. ينظر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢١٨)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام» ابن تيمية (٤/ ٢٣٣)، و«النبوات» لابن تيمية (٢٧٧-٢٧٨)، و«آكام المرجان في أحكام الجان» (ص/ ٦٨)، و«فتح الباري» (٦/ ٣٤٤).

(٣) كتاب: بدء الخلق (٣/ ١٢٠٠).

(٤) سَرَوَات: أي: أشراف، فَسُراة كل شيء: ظهره وأعلاه. ينظر: «العين» (٧/ ٢٨٨)، و«مقاييس اللغة»، لابن فارس (٥١٤)، و«النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٣٦٣) و«لسان العرب» (٤/ ٣٧٨).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٠٨)، وأورده القرطبي (١٥/ ١٣٥).

(٦) في ك، س: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ الآية [الصَّافات: الآية ١٥٨].

(٧) في م: «سيُحضرون».

(٨) في م: «أو باديتك».

(٩) سقط من ع.

(١٠) رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء، ح (٥٨٤)، وفي بدء الخلق، باب: ذكر الجن وثوابهم وعقابهم، ح (٣١٢٢)، وفي «التوحيد»، باب: قول النبي: الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، ح (٧١٠٩)، والنسائي، كتاب: الأذان، باب: رفع الصوت بالأذان، ح (٦٤٤)، وأحمد (٣/ ٣٥) و٤٣).

(١١) أبو حنيفة: سبقت ترجمته.

وغيرِه(١) أن(٢) ثوابَهم نجاتُهم من النارِ(٣)، واحتجَّ لهذا القولِ بقولِهِ تعالى حكايةً عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٣١](٤)، فجعل غايةَ ثوابِهم إجارتَهم من العذابِ الأليمِ.

وأما الجمهورُ فقالوا: مؤمنُهم في الجنةِ، كما أن كافرَهم في النارِ، ثم اختلفوا؛ فأطلق أكثرُ الناسِ دخولَ الجنةِ، ولم يقيدوه(٥). وقال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ(٦): يكونون في ربضِ(٧) الجنةِ، يراهم(٨) المؤمنون من حيثُ لا يرونهم(٩).

---

(١) حكاه سفيان عن ليث بن أبي سليم، وبه قال الحسن، وروي عن مجاهد وأبي الزناد. ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢١٧) و(١٩/ ٥، ٦)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٤/ ١٦٩)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٤/ ٤٣٤)، و«لقط المرجان» للسيوطي (١١٨).

(٢) في م: «من أن».

(٣) ثم يكونون ترابًا، وهو مروي عن ليث بن أبي سليم، قال: «ثواب الجن أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا ترابًا» رواه ابن أبي الدنيا في «الإشراف في منازل الأشراف» (٢٨٦)، ح (٣٨٧)، وهناد ابن السري في «الزهد» (٤٢٦)، ح (٨٣٤). وينظر: «أعلام النبوة»، للماوردي (٢٢١)، و«الفصل» لابن حزم (٣/ ١٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٩)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٤/ ٢٣٤)، و«روح المعاني» للآلوسي (٢٦/ ٣٣).

(٤) في ك، س: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأحقاف: الآية ٣١].

(٥) اختلف أهل العلم، هل الجن يدخلون مدخل الإنس في الجنة؟ على أربعة أقوال: الأول، وهو الأكثر: أنهم يدخلون الجنة كالإنس. والثاني: أنهم في ربض الجنة، نقل عن عمر بن عبد العزيز والزهري ومجاهد والكلبي. والثالث: أنهم أصحاب الأعراف. والرابع: التوقف فيهم. ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٩)، و«شرح صحيح مسلم»، للنووي (٤/ ١٦٩) و«آكام المرجان» (٦٨)، و«فتح الباري» (٦/ ٣٤٦).

(٦) سهل بن يونس بن عبد الله بن يونس، أبو محمد التستري، أحد أئمة الصوفية وأعلامهم، صاحب كلمات نافعة، ومواعظ حسنة. توفي سنة (٢٨٣)هـ. ينظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (٢٠٦)، و«وفيات الأعيان» (١/ ١٩٥)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٣٠).

(٧) الرَّبَضُ: ما حول الشيء ونواحيه خارجًا عنه. ينظر: «العين» (٧/ ٣٦)، و«مقاييس اللغة»، لابن فارس (٤٣٨)، و«لسان العرب» (٧/ ١٥٢)، و«القاموس المحيط» (٨٢٨).

(٨) في م: «فيراهم».

(٩) لم أجده عن سهل، وقد روي عن: عمر بن عبد العزيز، والزهري، والكلبي، ومجاهد. ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٩).

فهذهِ مذاهبُ الناسِ في أحكامِهِم في الآخرةِ.

الجنُّ هلْ هم مضطرُّون أم مفطُورُون إلى أفعالِهِم

وأما أحكامُهم في الدنيا فاختلف الناسُ: هلْ هم مكلفون بالأمرِ والنهيِّ، أم [هم](١) مضطرون إلى أفعالِهم؟ على قولين، حكاهما أبو الحسنِ الأشعريُّ في كتابِ «المقالاتِ» له(٢)، فقال واختلف الناسُ في الجنِّ: هل هم مكلفون أم مضطرون؟ فقال(٣) قائلون من المعتزلةِ، وغيرُهم: هم مأمورون منهيون، وقد أُمروا ونُهوا، وهم مختارون، وزعم زاعمون أنهم مضطرون(٤).

قلت: الصوابُ الذي عليه جمهورُ أهلِ الإسلامِ أنهم مأمورون منهيون، مكلفون بالشريعةِ(٥) الإسلاميةِ(٦)، وأدلةُ القرآنِ والسنةِ على ذلك أكثرُ من أن تحصرَ. فإضافةُ هذا القولِ إلى المعتزلةِ بمنزلةِ أن يقالَ: ذهبتِ المعتزلةُ إلى القولِ بمعادِ الأبدانِ، ونحو ذلك، مما هو من أقوالِ سائرِ أهلِ الإسلامِ.

الأدلةُ على تكليفِ الجِنِّ

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ [الأحقاف: الآية ١٨](٧)، فأخبر أن منهم من حقَّ عليه القولُ، أي: وجب عليه العذابُ وأنه(٨) خاسرٌ، ولا يكونُ ذلك إلا في أهلِ التكليفِ المستوجبين للعقابِ(٩) بأعمالِهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢] أي: في الخيرِ والشرِّ يوفونها، ولا يظلمون شيئًا من أعمالِهم، وهذا ظاهرٌ جدًّا في ثوابِهم وعقابِهم، وأن مُسِيئَهم كما يستحقُّ العذابَ [بإساءتِهِ](١٠) فمحسنُهُم يستحقُّ الدرجاتِ بإحسانِهِ، فلكلٍّ(١١) درجاتٌ مما عملوا، فدلَّ ذلك - لا محالةَ - أنهم كانوا مأمورين بالشرائعِ متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجاتِ بأعمالِهم في

---

(١) سقط من م. (٢) «مقالات الإسلاميين» (٤٤٠). (٣) في ع: «فرق».

(٤) قال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٤٤): «وقال عبد الجبار: لا نعلم خلافًا بين أهل النظر في ذلك، إلا ما حكى زرقان عن بعض الحشوية أنهم مضطرون إلى أفعالهم، وليسوا بمكلفين» وقد ذكر هذا الشبلي في «آكام المرجان» (٤٥).

(٥) في س: «بالشرائع». (٦) سبق بيان تكليفهم.

(٧) في ك، س ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأحقاف: الآية ١٨] والآية من سورة الأحقاف (١٨).

(٨) في م: «فإنه». (٩) في ك: «العقاب».

(١٠) سقط من م. (١١) في م: «بإحسانهم وكل».

الآخرةِ في الخيرِ والشرِّ.

وقال تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝٢٥﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢٥][(١)]»
ومعنى الآيةِ: أن اللهَ قيض للمشركين، أي: سَبَّبَ لهم [(٢)] قرناءَ[(٣)] من الشياطينِ يُزينون لهم ما بين أيدِيهم [من اللذاتِ في الدنيا][(٤)] وما خلفهم [من التكذيبِ بالآخرةِ، وما فيها من الثوابِ والعقابِ[(٥)].

وقيل عكسُ هذا، وأن ما بين أيدِيهم هو التكذيبُ بالآخرةِ وما خلفهم هو رغبتُهم[(٦)]][(٧)] في الدنيا، وحرصُهم عليها[(٨)].

وقال الحسنُ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت: الآية ٢٥] هو حبُّ ما كان عليه آباؤُهم من الشركِ وتكذيبِ الرسلِ، و ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: تكذيبُهم بالبعثِ وما بعدَه[(٩)].

وفي الآيةِ قولٌ رابعٌ، وهو أن التزيينَ كلَّه راجعٌ إلى أعمالِهِم، فزينوا لهم ما بين أيدِيهم: أعمالُهم التي عملوها، وما خلفَهم: الأعمالُ التي هم عازمون عليها، ولما[(١٠)]

---

(١) سقط من ك، س. وفيهما: «الآية».

(٢) قاله الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٨٤). وينظر: «تفسير الواحدي» (٢/ ٩٥٤)، و«زاد المسير» (٧/ ٢٥٢)، و«تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان (٢٦٣).

(٣) القرين: هو الصاحب الذي لا يفارقك. ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٣٣٦)، و«القاموس المحيط» (١٥٧٩).

(٤) سقط من ك.

(٥) وهو مروي عن مجاهد، والسدي، والحسن. ينظر في هذا القول: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١)، و«معاني القرآن»، للفراء (٣/ ١٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٧)، و«تفسير الواحدي» (٢/ ٩٥٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١١٣)، و«زاد المسير» (٧/ ٢٥٢) و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٥٤)، و«روح المعاني» للآلوسي (٢٤/ ١١٨).

(٦) في س: «رغبته». (٧) في هامش ك: ولم يتضح.

(٨) وهو مروي عن ابن عباس. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٧)، و«تفسير الواحدي» (٢) و«تفسير البغوي» (٤/ ١١٣)، و«زاد المسير» (٧/ ٢٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٥٥).

(٩) ينظر نحوه من غير نسبة في «إعراب القرآن»، للنحاس (٣/ ٣٧)، و«تفسير النسفي» (٤/ ٨٤)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٨٧).

(١٠) في س: «ولم».

يعملوها بعدُ[١]، وكأن لفظَ التزيينِ بهذا القولِ أليقُ، ومن جعل ما خلفَهم هو الآخرةَ لم يستقم قولُهُ إلا بإضمارٍ، أي: زينوا لهم التكذيبَ بالآخرةِ، ومع هذا فهو قولٌ مستقيمٌ ظاهرٌ؛ فإنهم زينوا لهم تركَ العملِ لها والاستعدادَ للقائِها، ولهذا كان عليهِ جمهورُ أهلِ التفسيرِ، حتى لم يذكر البغويُّ[٢]غيرَه، وحكاه عن الزجاجِ، فقال:

«وقال الزجاجُ: سبَّبْنا لهم قرناءَ نظراءَ من الشياطينِ، حتى أضَلُّوهُمْ، فزينوا لهم ما بين أيدِيهم[٣] من أمرِ الدنيا، حتى آثروه على الآخرةِ، وما خلفهم من أمرِ الآخرةِ فدعوهم إلى التكذيبِ به وإنكارِ البعثِ»[٤].

والمقصودُ أن قولَه تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٨] أي: وجب عليهم العذابُ مع أُمَمٍ قد مضت من قبلِهم من الجنِّ والإنسِ[٥]، ففي هذا أبينُ دليلٍ على تكليفِ الثقلين. . . . .

---

(١) قاله الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٨٤). وينظر: «إعراب القرآن»، للنحاس (٣/ ٣٧)، وقال: «هذا من أَبْيَنِهَا» لم يذكر غيره في «معاني القرآن» (٦/ ٢٦٢). وينظر: «زاد المسير» (٧/ ٢٥٢)، و«تفسير النسفي» (٤/ ٨٨).

(٢) الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، أبو محمد البغوي الشافعي، الملقب: بظهير الدين ومحيي السنة وركن الدين. محدث مفسر، له تصانيف منها: «شرح السنة» و«معالم التنزيل» و«مصابيح السنة»، «التهذيب» وغيرها، توفي سنة (٥١٠)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٢٥٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ٣٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٣٩) و«طبقات الشافعية» للسبكي (٧/ ٧٥)، و«طبقات المفسرين»، للسيوطي (٤٩).

(٣) في ك، س، زيادة: «وما خلفهم».

(٤) الظاهر - والله أعلم - أن المؤلف. رَحِمَهُ اللهُ. قد نقل هذا القول من «تفسير البغوي» على أنه كله للزجاج، بينما الزجاج لم يقل هذا كله، وإنما قال في «معاني القرآن وإعرابه».(٤/ ٣٨٤).: «وقيضنا: وسببنا من حيث لا يحتسبون». ولم يذكر ما ذكره المؤلف بعد هذا أصلًا، واقتصر على القول الرابع الذي ذكره المؤلف آنفًا؛ إذ قال الزجاج: «يقول: زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها، ويشاهدونها وما خلفهم، وما يعزمون أن يعملوه» فيكون بقية القول من كلام البغوي. رَحِمَهُ اللهُ.، ينظر: «تفسيره» (٤/ ١١٣).

(٥) فهذا قولٌ في هذه الآية، أن (في) تكون بمعنى (مع)، أي أنها للمصاحبة، كما قال امرؤ القيس. في «ديوانه» (٢٧)، وأورده ابن قتيبة في «أدب الكاتب» (٤١٢):

وهَلْ يَنعَمَنْ مَنْ كانَ أحدثُ عَهده ثلاثين شَهرًا في ثَلاثةِ أَحْوالِ

أي: من ثلاثة أحوال، ينظر: «إعراب القرآن»، للنحاس (٣/ ٣٧)، و«الأزهية» في علم الحروف، للهروي (٢٦٨)، و«الجني الداني في حروف المعاني»، للمرادي (٢٦٦). =

وتعلقِ[١] الأمرِ والنهيِّ بهم، ولذلك تعلق بهم الثوابُ والعقابُ.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨][٢] ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وهذا صريحٌ في تكليفِهم؛ فإن هذا القولَ يقالُ للجنِّ في القيامةِ، فيذكرُ الإنسُ استمتاعَ بعضِهِم ببعضٍ في الدنيا، وذلك الاستمتاعُ هو ما بين الجنِّ والإنسِ من طاعتِهِم إياهم في معصيةِ اللهِ، وعبادتِهِم لهم دونَ اللهِ[٣]؛ ليستعينوا بهم على شهواتِهِم وأغراضِهِم؛ فإنهم كانوا يستوحُونهم، ويعوذُون بهم[٤] ويذبحُون لهم، وبأسمائِهِم[٥]، ويوالونهم من دونِ اللهِ، كما هو شأنُ أكثرِ المشركين [من أولياءِ][٦] الشيطانِ[٧]، فهذا هو استمتاعُ بعضِهِم ببعضٍ، ولهذا يقولُ تعالى للملائكةِ يومَ القيامةِ وقد جمع العابدين والمعبودين[٨]: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: (٤٠-٤١] فهؤلاءِ عُبَّادُ الجنِّ وأولياءُ الشيطانِ، وأكثرُهم يعلمُ ذلك، ويرضى به؛ لما ينالُ به من المتعةِ بمعبودِهِ، وكثيرٌ من هم ملبوسٌ عليه، فهو يعبدُ الشيطانَ ولا يشعرُ، وقد أشار زيدُ بنُ عمروِ بنِ نفيلٍ[٩] في شعرِهِ إلى هذا الشركِ

= وقيل: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور، أي: كائنين في جملة أمم. ينظر: «إعراب القرآن»، للنحاس (٣/ ٣٧)، و«تفسير النسفي» (٤/ ٨٩)، و«روح المعاني» للآلوسي (٢٤/ ١١٨)، و«فتح القدير»، للشوكاني (٤/ ٥١٤).

(١) في م: «وتعليق».

(٢) سقط من ك، س: وفيهما: إلى قوله: «إلا ما شاء الله».

(٣) فهذا استمتاع الجن بالإنس، وهو مروي عن ابن عباس، وبه قال محمد بن كعب، والزجاج، وغيرهم وأما استمتاع الإنس بالجن فهو ما ذكره المؤلف بعد هذا بقوله " ليستعينوا بهم على شهواتهم..". وتنظر هذه الأقوال في «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٩١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٤٨٩)، و«تفسير الواحدي» (١/ ٣٧٥)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٣١).

(٤) في ع: «ويغرونهم». (٥) في م: «لهم بأسمائهم». (٦) سقط من م.

(٧) في م: «للشيطان». (٨) في ع: «العابدون، والمعبودون».

(٩) زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب، لم يدرك الإسلام وكان يكره عبادة الأوثان، ولا يأكل مما ذبح عليها، رحل إلى الشام باحثًا عن عبادات أهلها، فلم يقنع باليهودية، ولا النصرانية، وكان يتعبد على دين إبراهيم الخليل. توفي قبل البعثة بخمس سنين. ينظر: «تهذيب الأسماء»، للنووي (١/ ٢٠١)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢٢١)، و«الإصابة» (٢/ ٦١٣).

بالجنِّ، فقال[(١)]:

حَنَانَيْكَ[(٢)] إنَّ الجنَّ كَانتْ رَجاءَهم وأنـتَ إلـهـي ربـنـا ورجـاؤنـا

فلهذا يقولون في القيامةِ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] فهذا خطابٌ للصنفين، وهو صريحٌ في اشتراكِهِم في التكليفِ، كما هو صريحٌ في اشتراكِهِم في العذابِ، وهذا كثيرٌ في القرآنِ.

ومما يدلُّ على تكليفِهِم أيضًا، قولُه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى [وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟][(٣)] كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠]» فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسِهِم بالكفرِ، دَلَّ ذلك على تكليفِهِم وتوجهِ الخطابِ إليهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ [أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ][(٤)] أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

آيةُ الأحقافِ تدلُّ على تكليفِ الجنِّ من وجوهٍ

فهذا يدلُّ على تكليفِهِم من وجوهٍ متعددةٍ:

أحدُها: أن اللهَ سبحانه صرفهم إلى رسولِهِ يستمعون القرآنَ ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامرِهِ، وينتهوا عن نواهيهِ.

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (١/ ٢٥٦)، و«دلائل النبوة»، للأصبهاني (٨١)، و«الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع الكلاعي (١/ ١٩٦)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ٣٢).

(٢) حنانيك: من المصادر المثناة التي لا يظهر فعلها، كلبيك وسعديك. والمعنى: تحننًا عليَّ بعد تحنن، أي: تحننْ عليَّ مرة بعد أخرى، وحنانًا بعد حنان. ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ١٢٩).

(٣) في (ك، س): لم يذكر ما بين المعقوفين، وفيهما: «إلى قوله: ﴿كَٰفِرِينَ﴾.

(٤) في (ك، س): لم يذكر ما بين المعقوفين، وفيهما: «إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٢].

الثاني: أنهم وَلَّوا إلى قومِهِم منذرين، والإنذارُ: هو الإعلامُ بالمخوفِ[(١)] بعدَ انعقادِ أسبابِهِ[(٢)]، فعُلِمَ أنهم مُنْذِرونَ لهم بالنارِ إن عصوا الرسولَ.

الثالثُ: أنهم أخبَروا أنهم سمعوا القرآنَ، وعقلوه، وفهموه، وأنه يهدي إلى الحقِّ وهذا القولُ منهم يدلُّ على أنهم عالمون بموسى، وبالكتابِ المنزلِ عليه[(٣)]، وأن القرآنَ مصدقٌ له، وأنه هادٍ إلى صراطٍ مستقيمٍ، وهذا يدلُّ على تمكنِهم من العلمِ الذي تقومُ به الحجةُ، وهم قادرون على امتثالِ ما فيه، والتكليفُ إنما يستلزمُ العلمَ والقدرةَ[(٤)].

الرابعُ: أنهم قالوا لقومِهِم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١]، وهذا صريحٌ [في أنهم][(٥)] مكلفون مأمورون بإجابةِ الرسولِ، وهي تصديقُه فيما أخبر[(٦)]، وطاعتُه فيما أمر[(٧)].

الخامسُ: أنهم قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] والمغفرةُ لا تكونُ

---

(١) في ك، س: «بالخوف».

(٢) قال العسكري: «الإنذار تخويف مع إعلام موضع المخافة، من قولك: نَذِرْتُ بالشيء، إذا علمته فاستعددت له، فإذا خوَّف الإنسان غيره، وأعلمه حال ما يخوفه به، فقد أنذرهُ، وإن لم يعلمه ذلك لم يقل: أنذره» «الفروق اللغوية» (ص/ ٢٧١). وينظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (١٠٢١)، و«الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٠٤)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٠١)، و«تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب»، لأبي حيان (٢٩٥).

(٣) في ع: «الذي أنزل عليه».

(٤) التكليف لغة: إلزام ما فيه كلفة، أي: مشقة، وشرعًا: إلزام مقتضى خطاب الشرع، وعلى هذا تكون الإباحة تكليفًا؛ لأنها من مقتضيات الخطاب المذكور، ومن قال: إن الإباحة ليست تكليفًا، يقول: هو الخطاب بأمر أو نهي، وله شروط عدة: الأول: أن يكون الفعل معدومًا؛ وذلك لأن التكليف بتحصيل الموجود تحصيل حاصل، وهو محال. الثاني: أن يكون الفعل معلومًا عند المكلف معروفًا لديه؛ ليتصور قصده إليه. الثالث: أن يكون الفعل ممكنًا، ومقدورًا عليه. ينظر في هذا: «روضة الناظر» لابن قدامة (ص/ ٤٧)، و«المدخل»، لابن بدران (١٤٥)، و«معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة» لمحمد الجيزاني (٣٤٢).

(٥) في م: «بأنهم».

(٦) في م: «به».

(٧) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما أخبر به وجب تصديقه فيه، وما أوجبه وأمر به، وجبت طاعته فيه» «النبوات» (١/ ٦٧). وينظر: «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (١٠٦)، و«شرح كتاب التوحيد»، لسليمان بن عبد الله (٦١).

إلا عن ذنبٍ وهو مخالفةُ الأمرِ.

السادسُ: أنهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]، والذنبُ: مخالفةُ الأمرِ(١).

السابعُ: أنهم قالوا: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١]، [وهذا يدلُّ على أن من لم يستجبْ منهم لداعى اللهِ لم يجرْه من العذابِ الأليمِ](٢)، وهذا صريحٌ في تعلقِ الشريعةِ الإسلاميةِ بهم.

الثامنُ: أنهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٢] وهذا تهديدٌ شديدٌ لمن تخلف عن إجابةِ داعي اللهِ منهم، وقد استدل بهذا [على](٣) أنهم كانوا متعبدين بشريعةِ موسى، كما هم متعبدون(٤) بشريعةِ محمدٍ ﷺ، وهذا ممكنٌ، والآيةُ لا تستلزمُهُ، ولكن قولَه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الأنعام: الآية ١٣٠]، يدلُّ(٥) على أن الجنَّ كانوا متعبدين بشرائعِ الرسلِ قبلَ محمدٍ ﷺ، والآياتُ [المتقدمةُ](٦) تدلُّ على ذلك أيضًا، وعلى هذا فيكونُ اختصاصُ النبيِّ ﷺ بالبعثةِ إلى الثقلين هو اختصاصُهُ بالبعثةِ إلى جميعِهم، لا إلى بعضِهم، وَمَنْ قبلَه كان يبعثُ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ.

وأيضًا فقد قال تعالى عن نبيهِ سليمانَ ﵇: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبإ: الآية ١٢] وهذا محضُ التكليفِ، وقد تقدم قولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾(٧)، وقد صحَّ أن رسولَ اللهِ ﷺ قرأ

---

(١) الذنب: الجرم، وهو: ما يتبعه الذم، أو ما يُتتبع عليه العبد من قبيحِ فَعله، والمراد به: اسم لفعل محرم يقع المرء عليه عن قصد فعل الحرام. ينظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٣٨٩)، و«الفروق اللغوية» للعسكري (٢٦٢)، و«الكليات» لأبي البقاء الكفوي (٤٠).

(٢) في س: «عذاب أليم» وما بين المعقوفين سقط من م.

(٣) سقط من م، ك، س. (٤) في م: «متعبدين». (٥) في م: «تدل».

(٦) سقط من م.

(٧) في ك: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ [الجنّ: الآية ١٤] إلى قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجنّ: الآية ١٥]. وفي س: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجنّ: الآية ١٤] إلى قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجنّ: الآية ١٥]. والآيتان من سورة الجن (١٤-١٥).

عليهمُ القرآنَ[١]، وأنهم سألوه الزادَ لهم ولدوابِّهم، فجعل لهم كلَّ عظمٍ ذُكر اسمُ اللهِ عليه، وكلُّ بعرةٍ علفٌ[٢] لدوابِّهم، ونهانا عن الاستنجاءِ بهما[٣].

ولو لم يكنْ في هذا إلا قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥]، وقد أخبر أنه يعذبُ كفرةَ الجنِّ، لكفى[٤] به حجةً على أنهم مكلفون باتباعِ الرسلِ، ومما يدلُّ على أنهم مأمورون منهيون بشريعةِ الإسلام ما تضمنتْه سورةُ الرحمنِ؛ فإنه سبحانه ذكر خلقَ النوعين في قولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: الآية ١٤][٥]، ثم خاطبَ النوعين بالخطابِ المتضمنِ؛ لاستدعاءِ الإيمانِ منهم وإنكارِ تكذيبِهم بالآيةِ، وترغيبِهم في وعدِهِ، وتخويفِهم من وعيدِهِ، وتهديدِهِم [بقولِهِ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: الآية ٣١] وتخويفِهم من عواقبِ ذنوبِهِم، وأنه لعلمِه بها][٦] لا يحتاجُ أن يسألَهم عنها سؤالَ استعلامٍ، بل يُعرفُ المجرمون [منهم][٧] بسيماهم، فيؤخذُ بنواصِيهم[٨] وأقدامِهِم[٩]، ثم ذكر عقابَ الصنفين وثوابَهم، وهذا كلُّه صريحٌ في أنهم هم: المكلفون، المأمورون، المنهيون، المثابون، المعاقبون.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) في م: «علفًا».

(٣) يشير المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير، أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك، فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «**أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن**»، قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»، فقال رسول الله ﷺ: «**فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم**» رواه مسلم، ح (٤٥٠)، وأبو داود، ح (٣٩)، بنحوه، والترمذي، ح (٣٢٥٨)، وأحمد (١/٤٣٦).

(٤) في م: «وكفى».

(٥) في ك ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٤] إلى قوله: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٥]، وفي س: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٤] إلى قوله: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٥].

(٦) سقط من م. (٧) سقط من م. (٨) في ك زيادة: «بالنواصي».

(٩) في ك»: «والأقدام».

وفي الترمذيِّ(١) من حديثِ محمدِ بنِ المنكدرِ عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ(٢) قال: خرج رسولُ اللهِ ﷺ على أصحابِهِ، فقرأ عليهم سورةَ الرحمنِ من أولِها إلى آخرِها، فسكتوا، فقال: **«لقد قرأتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردودًا(٣) منكم؛ كنتُ كلما أتيتُ على قولِهِ(٤)**: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن: الآية ١٣] **قالوا: لا شيءَ(٥) من نعمِكَ ربنا نكذبُ، فلك الحمدُ»(٦)** وهذا يدلُّ على ذكائِهِم وفطنتِهِم، ومعرفتِهِم بمواقعِ الخطابِ،(٧) وعلمِهِم أنهم مقصودون به، وقولُه تعالى في هذهِ السورةِ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾ [الرحمن: الآية ٣١] وعيدٌ للصنفين(٨) المكلفين بالشرائعِ.

قال قتادةُ: «معناه فراغُ الدنيا وانقضاؤُها، ومجيءُ الآخرةِ والجزاءِ فيها، واللهُ تعالى لا يشغلُه شيءٌ عن شيءٍ»(٩).

والفراغُ في اللغةِ على(١٠) وجهينِ: فراغٌ من الشغلِ، وفراغٌ بمعنى القصدِ(١١)،

---

(١) هو: محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك السُّلمي الترمذي الضرير، الحافظ، أحد الأئمة الأعلام الذين يقتدى بهم في علم الحديث، ارتحل في طلب الحديث إلى خراسان والعراق والحرمين، صنف: «الجامع» و«العلل». توفي سنة (٢٧٩)هـ. ينظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٦٣)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٥٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٠).

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب الأنصاري السلمي، أبو عبد الله أحد المكثرين عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي، ولم يشهد بدرًا ولا أحدًا، وشهد المشاهد بعد ذلك كلها. توفي سنة (٧٤)هـ، وقيل: (٧٨)هـ. ينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٣٥١)، و«الإصابة» (١/ ٤٣٤).

(٣) في م: «ردًّا». (٤) في ك، س: «آية». (٥) في س: «بشيء».

(٦) سبق تخريجه.

(٧) يقال: «أَوْقَعَ» ظنه على الشيء، ووَقَّعَه، كلاهما: قدَّره وأنزله. ينظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (١١٠١)، و«الصحاح» للجوهري (٣/ ١٠٧٨)، و«لسان العرب» (٨/ ٤٠٣).

(٨) في ك: «الصنفين».

(٩) رواه الصنعاني في «تفسيره» (٣/ ٢٦٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٧/ ١٣٦)، بنحوه.

(١٠) في م، ك: «يكون على».

(١١) ينظر: «تأويل مشكل القرآن»، لابن قتيبة (١٠٥)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٩٩) و«مقاييس اللغة»، لابن فارس (٨٣٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات»، للقيسي (٢/ ٣٠٢)، و«لسان العرب» (٨/ ٤٤٥).

وهو في هذا الموضعِ بالمعنى الثاني[١]، وهو قصدُهُ[٢] لمجازاتِهم[٣] بأعمالِهم يومَ الجزاءِ.

وقولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: الآية ٣٣]][٤] فيها قولانِ:

أحدُهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في[٥] السمواتِ والأرضِ][٦] علمًا. أي: أن تعلمُوا ما فيهما، فاعلمُوه، ولن تعلموه إلا بسلطانٍ، أي: ببينةٍ[٧] من اللهِ[٨]، وعلى هذا فالنفوذُ هاهنا نفوذُ علمِ الثقلينِ في السمواتِ والأرضِ.

[و][٩]**الثاني**: إن استطعتم أن تخرجُوا عن قهرِ اللهِ، ومحلِّ سلطانِهِ ومملكتِهِ؛ بنفوذِكُم من أقطارِ السمواتِ والأرضِ، وخروجِكُم[١٠] عن محلِّ مِلكِ[١١] اللهِ وسلطانِهِ فافعلوا[١٢]، ومعلومٌ أن هذا من الممتنعِ عليكم، فإنكم تحت سلطاني، وفي محلِّ ملكي وقدرتِي أين كنتم[١٣]. وقال الضحاكُ[١٤]: معنى الآيةِ: «إنِ استطعتم أن تهربُوا عند الموتِ فاهربُوا فإنه مُدرككمْ[١٥]»[١٦].

وهذه الأقوالِ على تقديرِ أن يكونَ [هذا][١٧] الخطابُ لهم بهذا القولِ في الدنيا.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«زاد المسير» (٨/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٨)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (١٠٥)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (٦٩٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» للقيسي (٢/ ٣٠٢).

(٢) في ك: «قصد». (٣) في م: «بمجازاتهم».

(٤) سقط من ك.

(٥) في ك: «من أقطار». (٦) سقط من م. (٧) في ك: «إلا ببينة».

(٨) وهو مروي عن ابن عباس ﷺ ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٣٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«زاد المسير»، لابن الجوزي (٨/ ١١٥) و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٠).

(٩) سقط من ك. (١٠) في م: «بخروجكم». (١١) في ك، س: «حكم».

(١٢) في م: «فانفذوا».

(١٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٣٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«زاد المسير» (٨/ ١١٦).

(١٤) الضحاك بن مزاحم: سبقت ترجمته. (١٥) في م: «يدرككم».

(١٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٧/ ١٣٧)، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ١١٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٧٠).

(١٧) سقط من م، ك، س.

وفي الآيةِ تقديرٌ آخرَ، وهو: أن يكونَ هذا الخطابُ في الآخرةِ إذا أحاطتِ الملائكةُ بأقطارِ الأرضِ، وأحاط سرادقُ النارِ بالآفاقِ(١)، فهرب الخلائقُ، فلا يجدون مهربًا ولا منفذًا كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ [غافر: (٣٢-٣٣)] قال مجاهدٌ(٢): «فارين غيرَ معجزين»(٣) وقال الضحاكُ: «إذا سمعوا زفيرَ النارِ ندُّوا هرابًا(٤)، فلا يأتون قُطرًا من الأقطارِ إلا وجدُوا الملائكةَ صفوفًا، فيرجِعُون إلى المكانِ الذي كانوا فيه، فذلك قولُه: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ [الحاقة: الآية ١٧] وقولُه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرحمن: الآية ٣٣]»(٥) و هذا القولُ أظهرُ. واللهُ أعلمُ.

فإذا نَدَّ(٦) الخلائقُ، وولوا(٧) مدبرين، يقالُ لهم: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرحمن: الآية ٣٣] أي: إن قدرتُم أن تتجاوزا أقطارَ السمواتِ والأرضِ، فتُعجِزُوا ربَّكُم حتى لا يقدرَ على عذابِكم، فافعلوا.

وكأن ما قبل هذهِ الآيةِ وما بعدَها يدلُّ على هذا القولِ، فإن قبلها: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ [أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ [الرحمن: الآية ٣١]](٨) وهذا في الآخرةِ، و[ما](٩) بعدَها: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: الآية ٣٧] وهذا في الآخرةِ.

[و](١٠) أيضًا فإن هذا خطابٌ(١١) لجميعِ الإنسِ والجنِّ؛ فإنه أتى فيهِ بصيغةِ العمومِ، وهي قولُه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] فلا بد أن يشترِكَ الكلُّ في

---

(١) في م: «بالآفات».

(٢) مجاهد بن جبر: سبقت ترجمته.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٥٦٤)، وأورده الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦٢)، و البغوي في «تفسيره»: (٤/ ٢٧١).

(٤) في م: «فرُّوا هربًا».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦١، ٢٧، ١٣٧)، (٢٩/ ٥٧)، (٣٠/ ١٨٦). بنحوه وأورده البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٤٨)، والقرطبي في «تفسيره» (٥/ ٣١١).

(٦) «نَدَّ» أي: نفر وهرب وشرد. ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٤٧٤)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٢٠)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، للفيروزآبادي (٥/ ٣٠).

(٧) في ع: «ولوا». (٨) سقط من ك، س. (٩) سقط من م.

(١٠) سقط من م، ك، س. (١١) في م: «الخطاب».

سماعِ هذا الخطابِ ومضمونِهِ، وهذا إنما يكونُ إذا جمعهم اللهُ في صعيدٍ واحدٍ يسمعهمُ الداعي وَيَنْفُذُهم(١) البصرُ.

وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن: الآية ٣٣] ولم يقلْ(٢): استطعتُما؛ لإرادةِ الجماعةِ، كما [قال](٣) في آيةٍ أخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] وقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ [الرحمن: الآية ٣٥] ولم يقلْ(٤): عليكُم، على إرادةِ(٥) الصنفين، أي: لا يختصُّ به صنفٌ عن صنفٍ(٦)، بل يرسلُ ذلك على الصنفين معًا، وهذا وإن كان مرادًا بقولِهِ: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن: الآية ٣٣]، فخطابُ الجماعةِ في ذلك بلفظِ الجمعِ أحسنُ، أي: من استطاعَ منكم.

وَحَسَّنَ الخطابَ بالتثنية في قولِهِ: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ [الرحمن: الآية ٣٥] أمرٌ آخرٌ، وهو موافقةُ رؤوسِ الآيِ، فاتصلتِ التثنيةُ بالتثنيةِ، وفيه التسويةُ بين الصنفين في العذابِ بالتنصيصِ عليهما، فلا يحتملُ اللفظُ إرادةَ أحدِهِما. واللهُ أعلمُ.

قال ابنُ عباسٍ: «الشواظُ: اللهبُ الذي لا دخانَ فيه»(٧)، والنحاسُ: . . . . . .

---

(١) النَّفَاذ: جواز الشيء والخلوص منه، تقول: نَفَذْت، أي: جزت، ويقال: نفذ السهم الرمية، أي: خالطها، وخرج من طرفها الآخر، وقد روى الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٠٠)، ح (٨٥٢٧) عن ابن مسعود قوله: «يا أيها الناس إنكم مجموعون في صعيد واحد، يسمعكم الداعي، وينفذكم البصر. . .» قال في «المجمع» (١٠/ ٣٤٣): «رجاله رجال الصحيح، غير رياح النخعي، وهو ثقة» والمعنى في قوله: «ينفذكم البصر» قيل: إنه ينفذهم بصر الرحمن حتى يأتي عليهم كلهم، وقيل: أراد ينفذهم بصر الناظر لاستواء الصعيد، قال أبو حاتم: (أصحاب الحديث يروونه بالذال المعجمة، وإنما هو بالدال المهملة، أي: يبلغ أولهم وآخرهم حتى يراهم كلهم، ويستوعبهم، من نَفَدَ الشيء، وأنفدْته؛ وحَمْلُ الحديث على بصر المبصر أولى من حمله على بصر الرحمن) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٣/ ٦٧)، بعد ذكر الخلاف في هذا وسياق كلام أبي حاتم: «والأصح فتح الياء، وبالذال المعجمة، وأنه بصر المخلوق». ينظر: «الفروق» للعسكري (٩٩)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٥٠٠)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ٩٠)، و«لسان العرب» (٣/ ٥١٥)، و«القاموس المحيط» (٤٣٣).

(٢) في م، ك، س: «ولم يقل: إن. . .».

(٣) سقط من ك.

(٤) في ك، س: «ولم يقل يرسل عليكم».

(٥) في م، ك: «لإرادة».

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٦-١١٧)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ١١٦).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٧/ ١٣٩)، وأورده البغوي في «التفسير» (٤/ ٢٧١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ١١٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٧١). وينظر في هذا: «غريب القرآن وتفسيره» =

[الدخانُ][(١)] الذي لا لهبَ فيه[(٢)].

وقولُه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: الآية ٣٩]، فأضاف الذنوبَ إلى الثقلينِ، وهذا دليلٌ على أنهما سواءٌ في التكليفِ. واختلف في هذا السؤالِ المنفيِّ، فقيل:

هو وقتُ البعثِ والمصيرِ إلى الموقفِ، لا يسألون حينئذٍ، ويسألون بعدَ إطالةِ الوقوفِ واستشفاعِهِم إلى اللهِ أن يحاسبَهم، ويريحَهُم من مقامِهِم ذلك.

وقيل: المنفي سؤالُ الاستعلامِ والاستخبارِ، لا سؤالُ المحاسبةِ والمجازاةِ، أي: قد علم اللهُ ذنوبَهم، فلا يسألُهم عنها سؤالَ من يريدُ علمها، وإنما يحاسبُهم عليها[(٣)].

فصلٌ

محسنُ الجنِّ في الجنةِ

فإذا علم[(٤)] تكليفُهم بشرائعِ الأنبياءِ، ومطالبتُهم بها، وحشرُهم يومَ القيامةِ للثوابِ والعقابِ، عُلم أن محسنَهم في الجنةِ، كما أن مسيئَهم في النارِ، وقد دلَّ[(٥)] على ذلك قولُه تعالى حكايةً عن مؤمنِهم[(٦)]: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: الآية ١٣][(٧)]، وبهذهِ الحجةِ احتجَّ البخاريُّ[(٨)]، ووجهُ

= لليزيدي (٣٦١)، و«مقاييس اللغة»، لابن فارس (٥٤٢) و«العمدة في غريب القرآن»، للقيسي (٢٩٢).

(١) سقط من م.

(٢) وهو مروي عن ابن عباس وغيره، ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٤٠)، و«تفسير الواحدي» (٢/ ١٠٥٥) و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، وقال أهل اللغة: النُّحْس، وهو: خلاف السعد، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه، ومنه قول النابغة:

يُضيءُ كضَوْءِ سِراجِ السَّلِيطِ ... لم يَجْعَلِ اللهُ فيهِ نُحاسا

ينظر: «العين» (٣/ ١٤٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٧)، و«تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٤٣٨) و«مقاييس اللغة» لابن فارس (١٠١٦)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٤٨٥)، و«بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي» (٥/ ٢٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٤٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ١١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٤).

(٤) في م: «علمتم».

(٥) في م: «دلك».

(٦) في م: «مؤمنيهم».

(٧) في، س: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ [الجن: الآية ١٣].

(٨) سبقت الإشارة إليه.

الاحتجاجِ بها أن البخسَ[(١)] المنفيَّ هو: نقصانُ الثوابِ. والرهقُ[(٢)]: الزيادةُ في العقوبةِ على ما عملٍ، فلا ينقصُ من ثوابِ حسناتِهِ، ولا يزادُ في سيئاتِهِ.

ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾ [طه: الآية ١١٢][(٣)] أي: لا يخافُ زيادةَ سيئاتِهِ[(٤)]، ولا نقصًا[(٥)] من حسناتِهِ[(٦)].

وأيضًا فقد قال تعالى في سورةِ الرحمنِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦، ٤٧] وذكر ما في الجنتين إلى قولِه: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٥٦]، وهذا يدلُّ على أن ثوابَ محسنِيهم الجنةُ، من وجوهٍ:

الآيةُ دليلٌ على ثوابهم من وجوهٍ

أحدُها: أن (مَنْ) مِن صيغِ العمومِ[(٧)]، فتتناولُ[(٨)] كلَّ خائفٍ.

الثاني: أنه رتَّبَ الجزاءَ المذكورَ على خوفِ مقامِهِ، فدلَّ على استحقاقِهِ به.

وقد اختلف في إضافةِ المقامِ إلى الربِّ: هل هي [من][(٩)] إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِهِ، أو إلى مفعولِهِ، على قولين:

أحدُهما: أن المعنى: ولمن خاف مقامَه بين يدي ربِّهِ، فعلى هذا هو من إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ.

---

(١) «البَخْسُ»: نقص الشيء على سبيل الظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٠] أي: ناقص، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعرَاف: الآية ٨٥] أي: لا تنقصوا. ينظر: «العين» (٤/ ٢٠٣)، «و«الصحاح»» للجوهري (٢/ ٧٦٩)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٣٨) و«لسان العرب» (٦/ ٢٤).

(٢) «الزهق»: الظلم. ينظر: «العين» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير غريب القرآن»، لابن قتيبة (٤٩٠)، و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٢٢٧)، و«لسان العرب» (١٠/ ١٣١).

(٣) في ك، س: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: الآية ١١٢].

(٤) في م: «في سيئاته». (٥) في ك: «نقصان».

(٦) ينظر في معنى الهضم: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٩٣)، و«غريب القرآن» لليزيدي (٢٥١)، و«الصحاح» للجوهري (٥/ ١٦٦٤)، و«المفردات» للراغب الأصفهاني (٥٤٣). وما ذكره المؤلف مروي عن ابن عباس، وقتادة، وغيرهما. ينظر: «تفسر الطبري» (١٦/ ٢١٧).

(٧) ينظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٢٦٢)، وينظر مواضع «مَنْ» في «كتاب الجُمل في النحو» للزجاجي (٣٢٣)، و«الأزهية في علم الحروف» للهروي (١٠٠).

(٨) في م: «تتناول»، وفي س: «فتناول». (٩) سقط من م.

والثاني: أن المعنى: ولمن خاف مقامَ ربِّهِ عليه، واطلاعَه عليه، فهو من باب إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِهِ(١).

وكذلك القولانِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النَّازعَات: الآية ٤٠] ونظيرُه قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٤]. فهذهِ ثلاثةُ مواضعَ.

وقد يقالُ: الراجحُ هو الأولُ، وأن(٢) المعنى: خاف مقامَه بين يدي ربِّهِ؛ لوجوهٍ:

أحدُها: أن طريقةَ القرآنِ في التخويفِ أن يخوفَهُم باللهِ وباليومِ الآخرِ، فإذا خوفهم به عَلَّق الخوفُ به، لا بقيامِهِ عليهم، كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٥]. وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البَيّنَة: الآية ٨] وقولِه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٥٠] وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ [رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [المُلك: الآية ١٢]](٣) ففي هذا كلِّهِ لم يذكرْ خشيةَ(٤) مقامِهِ عليهم، وإنما مدحَهُم بخوفِهِ(٥) وخشيتِهِ. وقد يذكرُ الخوفَ متعلقًا بعذابِهِ، كقولِهِ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسرَاء: الآية ٥٧] وأما خوفُ مقامِهِ عليهم، فهو وإن كان كذلك، فليس طريقةَ القرآنِ.

الثاني: أن هذا نظيرُ قولِهِ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعَام: الآية ٥١]، فخوفُهم أن يحشروا إليه هو خوفُهُم من مقامِهِم(٦) بين يديهِ، والقرآنُ يفسرُ بعضُهُ بعضًا.

الثالثُ: أن خوفَ مقامِ العبدِ بين يدي ربِّهِ تعالى في الآخرةِ، لا يكونُ إلا ممن يؤمنُ بلقائِهِ، وباليومِ الآخرِ، وبالبعثِ بعد الموتِ، وهذا هو الذي يستحقُّ الجنتين المذكورتين؛ فإنه لا يؤمنُ بذلك حقَّ الإيمانِ إلا من آمن بالرسلِ، وهو من الإيمانِ بالغيبِ الذي جاءت به الرسلُ. وأما مقامُ اللهِ على عبدِهِ في الدنيا، واطلاعُه عليه

---

(١) فالأول مروي عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد، والثاني: مروي عن مجاهد، وقتادة. انظر الأقوال في «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٤٥-١٤٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ١١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٦)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٧٩).

(٢) في س: «فإن».

(٣) ليس في ك، س، وفيهما الآية. (٤) في م: «خشيته». (٥) في م: «لخوفه».

(٦) في م: «مقامه».

وقدرتُه عليه، فهذا يُقِرُّ به المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، وأكثرُ الكفارِ يخافون جزاءَ اللهِ لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاةِ الظالمِ بظلمِهِ، والمحسنِ بإحسانِهِ، وأما مقامُ العبدِ بين يدي ربِّهِ في الآخرةِ، فلا يؤمنُ به إلا المؤمنُ بالرسلِ.

فإن قيل: إذا كان المعنى أنه[١] خاف مقامَ ربِّهِ عليه في الآخرةِ بالجزاءِ، فقد استوى التقديرانِ، فمن أين رجحتُم أحدَهما؟ قيل: التخويفُ بمقامِ العبدِ بين يدي ربه أبلغُ من التخويفِ بمقامِ اللهِ[٢] على العبدِ؛ ولهذا[٣] خوفنا سبحانه [به][٤] في[٥] قولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: الآية ٦]، ولأنه مقامٌ مخصوصٌ مضافٌ إلى اللهِ تعالى، وذلك في يومِ القيامةِ بخلافِ مقامِ اللهِ على العبدِ؛ فإنه كلَّ وقتٍ. وأيضًا فإنه لا يقالُ لقدرةِ اللهِ على العبدِ، واطلاعِه عليه، وعلمِه به: مقامُ اللهِ، ولا هذا من المألوفِ إطلاقُهُ على الربِّ تعالى.

وأيضًا فإن المقامَ في القرآنِ والسنةِ إنما يطلقُ على المكانِ، كقولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩] وقولِه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦][٦] ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

والمقصودُ أن قولَه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٤٦] يتناولُ الصنفين من وجوهٍ تقدم منها وجهانِ.

الثالثُ: قولُه عَقِيبَ هذا الوعدِ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٣].

الرابعُ: أنه ذكر في وصفِ نسائِهِم أنهنَّ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٥٦] وهذا واللهُ أعلمُ، معناه: لم[٧] يطمثْ نساءَ الإنسِ إنسٌ قبلَهم[٨]، ولا نساءَ الجنِّ جنٌّ قبلَهم[٩].

---

(١) في م: «إذا». (٢) في ك، س: «الرب».
(٣) في م: «وبهذا». (٤) سقط من ك.
(٥) في س: «خوفنا به تعالى في...».
(٦) في ك، س: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾ [الدّخَان: الآية ٢٥].
(٧) في ع: «أنه لم». (٨) في س: «لم يطمثهن نساء الإنس قبلهم».
(٩) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٢٧/ ١٥٠)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٨٠)، و«تفسير أبي السعود»: (٨/ ١٨٥).

ومما يدلُّ على أن ثوابَهم الجنةُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[١] وأمثالُ هذهِ من العموماتِ.

وقد ثبتَ أن منهم المؤمنين، فيدخُلُوا[٢] في العمومِ، كما أن كافرَهم يدخلُ في الكافرين المستحقين للوعيدِ، والفرقُ بين دخولِ[٣] مؤمنِهم في آياتِ الوعدِ أَوْلى من دخولِ كافرِهم في آياتِ الوعيدِ؛ فإنَّ الوعدَ فضلُه، والوعيدَ عدلُهُ، وفضلُه من رحمتِهِ، [وهي][٤] تغلبُ غضبَه.

وأيضًا فإن دخولَ عاصيهم النارَ إنما كان لمخالفتِهِ أمرَ اللهِ، فإذا أطاعَ اللهَ؛ أدخلَهُ[٥] الجنةَ.

وأيضًا فإنه لا دارَ للمكلفين سوى الجنةِ والنارِ، فكلُّ[٦] من لم يدخلِ النارَ من المكلفين، فالجنةُ مثواه.

وأيضًا فقد[٧] ثبت أنهم إذا أجابوا داعيَ اللهِ غفر لهم، وأجارَهم من عذابِهِ، وكلُّ من غفر اللهُ[٨] له؛ دخل الجنةَ ولا بد. وليس فائدةُ المغفرةِ إلا الفوزَ بالجنةِ والنجاةَ من النارِ.

وأيضًا فإنه إذا ثبتَ[٩] أن الرسولَ مبعوثٌ إليهم، وأنهم مُكَلَّفون باتباعِهِ، كان مطيعُهم للهِ ورسولِهِ مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم؛ لقولِه[١٠] تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [النِّساء: الآية ٦٩][١١].

---

(١) في ك، س: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ الآية [الكهف: الآية ٣٠].

(٢) في م: «فيدخل».

(٣) في ع: «ولا فرق بين أن دخول...» وفي م، ك، س: «المستحقين للوعيد ولا فرق، بل دخول...» ولعل هذا أنسب.

(٤) سقط من م.

(٥) في ك: «أُدخل». وفي س: «دخل.

(٦) في م: «وكل».

(٧) في ع، م «فإنه قد».

(٨) في ك، س: «غُفر له».

(٩) في م: «وأيضًا فإذا ثبت».

(١٠) في ع: «كقوله».

(١١) في م: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

[وأيضًا][١] فقد أخبر سبحانه عن ملائكتِهِ حملةِ العرشِ ومن حولَه أنهم يستغفرون للذين آمنوا، وأنهم يقولون: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾[٢] فدلَّ على أن كلَّ مؤمنٍ غفر اللهُ له، ووقاه عذابَ الجحيمِ، فقد وعدَه الجنةَ.

وقد ثبت في حقِّ مؤمِنِهم[٣] الإيمانُ، ومغفرةُ الذنبِ، ووقايةُ النارِ، كما تقدم فتعين دخولُهُم الجنةَ. واللهُ أعلمُ.

طبقاتُ الجنِّ في الآخرةِ كطبقاتِ الإنس فيها، إلَّا أنه ليس فيهم رسولٌ

وإذا ثبت تكليفُهم وانقسامُهُم إلى المسلمين والكفارِ والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنةِ على نحو طبقاتِ الإنسِ المتقدمةِ، إلا أنهم ليس فيهم رسولٌ.

وأفضلُ درجاتِهِم درجةُ الصالحين، ولو كان لهم درجةٌ أفضلُ منها لذكروها. فقد دلَّ القرآنُ على انقسامِهِم إلى ثلاثةِ أقسامٍ: صالحين، ودونهم، وكفارٍ. وزاد عليهم الإنسُ بدرجةِ الرسالةِ والنبوةِ ودرجةِ المقربين. واللهُ تعالى أعلمُ.

فهذا ما وصل إليه الإحصاءُ من طبقاتِ المكلفين في الدارِ الآخرةِ، وهي ثماني عشرةَ طبقةً، وكلُّ طبقةٍ منها لها أعلى، وأدنى، ووسطٌ، وهم درجاتٌ عند اللهِ. واللهُ تعالى يحشرُ الشكلَ مع شكلِهِ، والنظيرَ مع نظيرِهِ، ويقرنُ[٤] بينهما في الدرجةِ. قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الإمامُ أحمدُ، وقبله عمرُ بنُ الخطابِ ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: أشباهَهُم ونظراءَهم[٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: الآية ٧].

روى النعمانُ بنُ بشيرٍ[٦] عن عمرَ بنِ الخطابِ أنه سُئِلَ عن هذهِ الآيةِ، فقال: «يُقرنُ

---

(١) سقط من ك، س.

(٢) في ك، س: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، والآية من سورة غافر (٧-٨).

(٣) في س: «مؤمنيهم». (٤) في م: «ويفرق».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٦٧)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وأورده ابن الجوزي في «التفسير» (٧/ ٥٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٧٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٨٤).

(٦) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، ولد قبل موت النبي ﷺ بثماني سنين، وسبعة أشهر، كان قاضي دمشق بعد فضالة بن عبيد، واستعمله معاوية على حمص ثم الكوفة، وكان =

بين الرجلِ الصالحِ مع الرجلِ الصالحِ في الجنةِ، ويُقرنُ بين الرجلِ السوءِ مع الرجلِ السوءِ في النارِ»[١]. وقال الحسنُ وقتادةُ: يلحقُ كلُّ امرئٍ بشيعتِهِ؛ اليهوديُّ باليهوديِّ، والنصرانيُّ بالنصرانيِّ[٢]. وقال الربيعُ بنُ خُثَيْم[٣]: يحشرُ الرجلُ مع صاحبِ عملِهِ[٤].

وفي الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ أُخر:

أحدُها: أن تزويجَ النفوسِ: اقترانُها بأجسادِها، وردُّها إليها[٥].

الثاني: [أن][٦] تزويجَها: اقترانُها بأعمالِها[٧].

الثالثُ: أن[٨] تزويجَ المؤمنين بالحورِ[٩] العينِ، وتزويجَ الكفارِ بالشياطينِ[١٠].

= من أخطب الناس. توفي سنة (٦٥)هـ. ينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٩٦)، و«أسد الغابة» (٤/ ٥٣٠)، و«الإصابة» (٦/ ٤٤٠).

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٧/ ٩٩)، وفي «تفسيره» (٣/ ٣٥٠، ٣٥١) بنحوه، و الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٦٠) بنحوه، وأورده البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٥٢) وابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٧٧)، وروي نحوه عن عكرمة، ورواه الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٧٠)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٥٢)، والقرطبي في «تفسيره»: (١٩/ ٢٣٢).

(٣) الربيع بن خُثَيْم بن عائذ، أبو يزيد الثوري الكوفي، أحد «الأعلام» أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه، روى عن ابن مسعود وغيره.

قال ابن معين: «لا يسأل عن مثله»، وكان مشهورًا بعبادته وورعه.

توفي سنة (٦١)هـ وقيل: (٦٣)هـ. ينظر: «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٤٦)، و«السير» (٤/ ٢٥٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣٥١)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٧٠)، وأورده البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٥٢).

(٥) مروي عن عكرمة، والشعبي، وغيرهما. ينظر: «تفسير الطبري» (٣٠/ ٧٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٥٢)، و«زاد المسير» (٩/ ٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«فتح القدير»، للشوكاني (٥/ ٣٨٩).

(٦) سقط من م.

(٧) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٤٥٧)، و«روح المعاني» للآلوسي (٣٠/ ٥٢).

(٨) في م: «أنه».

(٩) في س: «الحور».

(١٠) مروي عن ابن عباس، وعطاء، ومقاتل. ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٤٥٢)، و«زاد المسير» (٩/ ٣٩) =

والقولُ الأولُ أظهرُ الأقوالِ(١). واللهُ أعلمُ.

[والحمدُ للهِ ربِّ العالمين. وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ](٢).

* * *

= و«تفسير القرطبي» (١٩٢٣١)، و«روح المعاني» للآلوسي (٣٠/ ٥٢).

(١) وقد رجحه ابن جرير الطبري، فقال:

«وأولى التأويلين في ذلك بالصحة، الذي تأوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعلة التي اعتل بها، وذلك قول الله تعالى ذكره: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦﴾ [الواقعة: الآية ٧] وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصَّافات: الآية ٢٢] وذلك لا شك الأمثال والأشكال في الخير والشر، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦﴾ [التكوير: الآية ٧] بالقرناء والأمثال في الخير والشر» تفسيره (٣٠/ ٧٠-٧١).

(٢) سقط من ع، م، وفي ك: «وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم». وفي س: «وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم».

فهرس المصادر والمراجع

١- «أئمة النحاة في التاريخ» للدكتور: محمود محمد غالي، الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ - دار الشروق - جدة.

٢- «الإبانة عن أصول الديانة» للأشعري (ت٣٢٤هـ) تحقيق د. فوقية حسين، الطبعة الأولى: ١٣٩٧ هـ - دار الأنصار - القاهرة.

٣- «الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» لأبي عبد الله عبيد الله ابن محمد بن بطة العكبري الحنبلي. ت رضا نعسان معطي - دار الراية. الرياض. ط الأولى ١٤٠٩هـ.

٤- «أبجد العلوم» لصديق بن حسن القنوجي (ت ١٣٠٧هـ) تحقيق عبد الجبار زكار، طبع سنة: ١٩٧٨م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥- «أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم» لصديق بن حسن القنوجي - تحقيق: عبد الجبار زكار - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦- «إبطال وحدة الوجود والرد على القائلين بها» لابن تيمية. تحقيق: محمد النجدي - مكتبة الإمام الذهبي - الكويت. ط١(١٤١٣).

٧- «ابن القيم اللغوي» لأحمد ماهر البقري - مؤسسة شباب الجماعة - الإسكندرية.

٨- «ابن القيم من آثاره العلمية» للدكتور: أحمد ماهر البقري، الطبعة: ١٩٨٧م - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.

٩- «ابن تيمية والصوفية» جمع د. محمود درنيقة وسوهام المصري، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

١٠- «ابن قيم الجوزية» لعبد الرحمن النحلاوي، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - دار الفكر العربي - بيروت.

١١- «ابن قيم الجوزية حياته وآثاره» للدكتور: بكر أبو زيد، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ - مكتبة المعارف - الرياض.

١٢- «ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف» للدكتور: عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، الطبعة الثالثة: ١٤٠٥هـ - دار القلم - الكويت.

١٣- «ابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية» لأيمن الشوَّاء، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - دار البشائر - دمشق.

١٤- «الإبهاج في شرح المنهاج» للسبكي (٧٥٦هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥- «أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية» لمحمد عضيمة، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

١٦- «اتفاق المباني وافتراق المعاني» لأبي الربيع الدقيقي (ت٦١٣هـ) تحقيق يحيى عبد الرؤف جبر، الطبعة الأولى: ١٩٨٥م - دار عمار - عمَّان.

١٧- «الإتقان» للغزي (ت١٠٦١ هـ) تحقيق خليل محمد العربي، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - دار الفاروق الحديثة - القاهرة.

١٨- «آثار البلاد وأخبار العباد» لزكريا بن محمد بن محمود القزويني - دار صادر - بيروت. ١٣٨٠هـ.

١٩- «إثبات صفة العلو» لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي. ت أحمد بن عطية الغامدي - مؤسسة علوم القرآن - بيروت. ط الأولى. ١٤٠٩هـ.

٢٠- «إجتماع الجيوش الإسلامية» لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) تحقيق د. عواد المعتق، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

٢١- «الآحاد والمثاني» أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني. تحقيق: باسم الجوابرة - دار الراية - الرياض. ط١(١٤١١).

٢٢- «الأحاديث التي لا أصل لها في كتاب الإحياء» للسبكي (ت ٧٧١هـ) تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو - دار إحياء الكتب العربية - مصر.

٢٣- «الأحاديث المختارة: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي. تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. مكتبة النهضة الحديثة. مكة المكرمة. ط١(١٤١٠).

٢٤- «الإحكام» للآمدي (ت٦٣١هـ) تحقيق د. سيد الجميلي، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٢٥- «أحكام القرآن» لابن العربي (ت٥٤٣هـ) تحقيق علي بن محمد البجاوي، الطبعة الثالثة - دار المعرفة - بيروت.

٢٦- «أحكام القرآن» للجصاص (ت ٣٧٠هـ) تحقيق محمد الصادق قمحاوي، الطبعة الأولى:

١٤٠٥هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٧- «أحكام أهل الذمة» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق يوسف البكري و شاكر العاروري، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - رمادى للنشر - الدمام.

٢٨- «أحكام أهل الملل» للخلال (ت٣١١ هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩- «إحياء علوم الدين» أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. دار الصابوني، وبذيله المغني عن حمل الأسفار.

٣٠- «أدب الطلب ومنتهى الأرب» لمحمد بن علي الشوكاني. ت يوسف علي بديوي وحسن السماحي سويدان - دار اليمامة - دمشق. ط الأولى. ١٤٢١هـ.

٣١- «أدب الكاتب» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. ت محمد محي الدين بن عبد الحميد - السعادة - بمصر. ط الرابعة. ١٣٨٢هـ.

٣٢- «الأدب المفرد» لمحمد بن إسماعيل البخاري تخريج: محمد عبد الباقي - دار البشائر الإسلامية - بيروت. ط٤ (١٤١٧).

٣٣- «ارتشاف الضرب من لسان العرب» لأبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤ هـ) تحقيق د. رجب عثمان محمد و د. رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى: ١٤١٨ هـ - مكتبة الخانجي - القاهرة.

٣٤- «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني. وبهامشه «صحيح مسلم بشرح النووي» - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٥- «إرشاد الفحول» للشوكاني (ت١٢٥٠هـ) تحقيق القاضي حسين السياغي ود. حسن الأهدل، الطبعة الأولى: ١٩٨٦م - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٦- «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للدكتور: صالح الفوزان، الطبعة الرابعة: ١٤٢٠هـ - دار ابن الجوزي - الدمام.

٣٧- «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» للألباني، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٨- «الأُزْهِيّة في علم الحروف» للهروي (ت٤١٥هـ) تحقيق عبد المعين الملوحلي، طبع سنة: ١٤٠٢هـ - من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣٩- «أسباب النزول» للواحدي (ت٤٦٨هـ) تحقيق د. مصطفى ديب البغا، الطبعة الثانية: ١٤١٧هـ - دار ابن كثير - دمشق.

٤٠- «الاستذكار» لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - دار ابن قتيبة - بيروت.

٤١- «الاستقامة» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. ت محمد رشاد سالم. ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض. ط الثانية. ١٤١١هـ.

٤٢- «الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى» لأحمد الناصري (ت ١٣١٥هـ) تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م -دار الكتاب العربي - الدار البيضاء.

٤٣- «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) تحقيق علي البجاوي، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - دار الجيل - بيروت.

٤٤- «الاستيعاب» ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر. تحقيق: علي البجاوي - دار الجيل - بيروت. ط١(١٤١٢).

٤٥- «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (ت٦٣٠هـ) طبع سنة: ١٤١٤هـ - المكتبة التجارية - مكة.

٤٦- «أسرار العربية» لابن الأنباري (ت٥٧٧هـ) تحقيق د. فخر قدارة، الطبعة الأولى: ١٩٩٥م - دار الجيل - بيروت.

٤٧- «إسلامنا» للسيد سابق - دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٨- «أسماء الله الحسنى» للدكتور: عبد الله الغصن، الطبعة الأولى: ١٤١٧ هـ - دار الوطن - الرياض.

٤٩- «أسماء خيل العرب وفرسانها» لمحمد بن زياد الأعرابي (ت٢٣١هـ) تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - مكتبة النهضة المصرية - مصر.

٥٠- «الأسماء والصفات» للبيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق عبد الله الحاشدي، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - مكتبة السوادي - جدة.

٥١- «الإشارات والتنبيهات» لابن سيناء (ت٤٢٨هـ) تحقيق د. سليمان دنيا، الطبعة الثالثة: ١٩٨٣م - دار المعارف - القاهرة.

٥٢- «الأشباه والنظائر» للسيوطي (ت٩١١هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٣- «اشتقاق أسماء الله» لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي. ت عبد الحسين المبارك. مؤسسة الرسالة - بيروت. ط الثانية ١٤٠٦هـ.

٥٤- «الإصابة في تمييز الصحابة» أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني -- دار الكتاب العربي - بيروت. ومعه الاستيعاب.

٥٥- «الأصمعيات» تحقيق د: عمر الطباع شركة - دار الأرقم بن أبي الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت.

٥٦- «أصول الدين» لعبد القاهر البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان. ط٣ (١٤٠١).

٥٧- «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشنقيطي (ت١٣٩٣هـ) تحقيق الشيخ محمد الخالدي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٨- «أطلس المملكة العربية السعودية والعالم» د: محمد صبحي وغيره - مكتبة لبنان ناشرون - بيروت لبنان.

٥٩- «الإعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد» للبيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق أحمد عاصم الكاتب، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٦٠- «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي (ت٦٠٦هـ) تحقيق علي سامي النشار، الطبعة: ١٤٠٢هـ -- دار الكتب العلمية - بيروت.

٦١- «إعراب القراءات الشاذة» للعكبري (ت٦١٦هـ) تحقيق محمد عزوز، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - عالم الكتب - بيروت.

٦٢- «إعراب القرآن» للنحاس (ت ٣٣٨ هـ) تحقيق د. زهير غازي زاهد - مطبعة العاني - بغداد.

٦٣- «الأعلام» للزركلى (ت١٣٩٦هـ) الطبعة الثانية عشرة: ١٩٩٧م - دار العلم للملايين - بيروت.

٦٤- «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للبزار (٧٤٩هـ) تحقيق زهير الشاويش، الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٦٥- «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٧٥١هـ) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - دار الجيل -- بيروت.

٦٦- «أعلام النبوة» للماوردي (ت٤٢٩هـ) تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الأولى: ١٩٨٧م - دار الكتاب العربي - بيروت.

٦٧- «الأعلام» لخير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت. ط الرابعة. ١٩٧٩م.

٦٨- «أعيان العصر وأعوان النصر» لصلاح الدين خليل آيبك الصفدي. ت علي أبوزيد وآخرين - دار الفكر -- دمشق. ط الأولى. ١٤١٨هـ.

٦٩- «إغاثة اللهفان» لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق: محمد الفقي - دار المعرفة - بيروت. توزيع الباز، مكة المكرمة.

٧٠- «الأغاني» لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني. إعداد مكتب تحقيق - دار إحياء التراث العربي - بيروت. ط الأولى. ١٤١٧هـ.

٧١- «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية. تحقيق د: ناصر العقل - دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض ط٦ (١٤١٩).

٧٢- «الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع» لمحمد الشربيني (ت٩٧٧هـ) اعتنى به: مكتب البحوث والدراسات - دار الفكر - بيروت.

٧٣- «آكام المرجان في أحكام الجان» للشبلي (ت٧٦٩هـ) هذبه وعلق عليه: الشيخ إبراهيم رمضان، الطبعة الأولى: ١٩٩١م - دار الفكر العربي - بيروت.

٧٤- «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء» لسليمان بن موسى الكلاعي (ت٦٣٤هـ) تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي، الطبعة الأولى: ١٩٩٧هـ - عالم الكتب - بيروت.

٧٥- «إكمال إكمال المعلم» لأبي عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي. وبهامشه «مكمل إكمال الإكمال» لأبي عبد الله محمد بن محمد السنوسي الحسني - دار الكتب العلمية - بيروت.

٧٦- «الأم» للإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ - دار المعرفة - بيروت.

٧٧- «الأمالي» لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت٣٥٦هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت.

٧٨- «أمالي ابن الشجري» هبة الله بن علي (ت٥٤٢هـ) تحقيق د. محمود الطناحي، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - مكتبة الخانجي - القاهرة.

٧٩- «الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة» للحسن العلوي، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - دار الوطن - الرياض.

٨٠- «الإمام زفر وأراؤه الفقهية» للدكتور: عطية الجبوري، الطبعة الثانية: ١٤٠٦ هـ - دار الندوة الجديدة - بيروت.

٨١- «الأمثال» لأبي عبيد القاسم بن سلام. ت عبد المجيد قطامش - دار المأمون للتراث - دمشق. ط الأولى. ١٤٠٠هـ.

٨٢- «أمراض القلوب وشفاؤها» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ -

المطبعة السلفية - القاهرة.

٨٣- «الإنتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» ليحيي بن أبي الخير العمراني. تحقيق: د: سعود الخلف - مكتبة أضواء السلف - الرياض. ط١ (١٤١٩).

٨٤- «الأنساب» لعبد الكريم بن محمد السمعاني: تقديم: عبد الله البارودي - دار الجنان - بيروت لبنان. ط١ (١٤٠٨).

٨٥- «الإنصاف» لابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) - دار الفكر - بيروت.

٨٦- «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف» للمرداوي (ت٨٨٥هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٨٧- «أوضح المسالك شرح ألفية ابن مالك» لابن هشام (ت٧٦١هـ) الطبعة الخامسة: ١٩٧٩م - دار الجيل - بيروت.

٨٨- «إيثار الحق على الخلق» للقاسمي (ت٨٤٠هـ) الطبعة الثانية: ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٨٩- «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد» لأبي عبد الله محمد المرتضى اليماني - ابن الوزير - دار الكتب العلمية - بيروت. ط الثانية. ١٤٠٧هـ.

٩٠- «إيجاز البيان عن معاني القرآن» للنيسابوري (ت٥٥٣هـ) تحقيق د. علي العبيد، الطبعة الأولى: ١٤١٨هت - مكتبة التوبة - الرياض.

٩١- «الإيضاح في علوم البلاغة» للقزويني (ت ٧٣٩ هـ) الطبعة الرابعة: ١٩٩٨م - دار إحياء العلوم - بيروت.

٩٢- «الإيمان» للعدني (ت٢٤٣ هـ) تحقيق حمد الجابري الحربي، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - الدار السلفية - الكويت.

٩٣- «البارع في اللغة» لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت٣٥٦هـ) تحقيق هاشم الطعان، الطبعة الأولى: ١٩٧٥م - مكتبة النهضة - بغداد، ودار الحضارة العربية - بيروت.

٩٤- «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» لابن نجيم (ت٩٧٠هـ) - دار المعرفة - بيروت.

٩٥- «البحر المحيط» لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي - النصر الحديثة - الرياض.

٩٦- «بدائع الفوائد» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت.

٩٧- «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد (ت٥٩٥هـ) دار الفكر - بيروت.

٩٨- «البداية والنهاية» لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) حققه د. أحمد أبو ملحم وآخرون، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار الريان للتراث - القاهرة.

٩٩- «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني. مكتبة ابن تيمية. القاهرة.

١٠٠- «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» للسكسكي (ت٦٨٣هـ) تحقيق بسام العموش، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - مكتبة المنار الزرقاء - الأردن.

١٠١- «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٨١٧هـ) تحقيق محمد علي النجار - المكتبة العلمية - بيروت.

١٠٢- «البعث على انكار البدع والحوادث» لعبد الرحمن المقدسي. تحقيق: بشير عيون - مكتبة المؤيد - الطائف. ط١ (١٤١٢).

١٠٣- «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن عديم الحلبي (ت٦٦٠هـ) تحقيق د. سهيل زكار، الطبعة الأولى: ١٩٨٨م - دار الفكر - بيروت.

١٠٤- «بغية المرتاد» لابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق د. موسى الدويش، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - مكتبة العلوم والحكم - المدينة.

١٠٥- «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت.

١٠٦- «البلغة في تراجم أئمة النحو» للفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) تحقيق محمد المصري، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت.

١٠٧- «بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار» لعبد الرحمن السعدي - المؤسسة السعيدية - الرياض.

١٠٨- «البيان المبين في أخبار الجن والشياطين» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) جمع: أحمد الطهطاوي - دار الفضيلة - مصر.

١٠٩- «بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. تحقيق: محمد بن قاسم. مطبعة الحكومة - مكة المكرمة - ط٢(١٣٩٢).

١١٠- «البيان في غريب إعراب القرآن» لابن الأنباري (ت٥٧٧هـ) تحقيق د. طه عبد الحميد طه، طبع سنة: ١٤٠٠هـ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١١- «تاريخ الأمم والملوك» للطبري (ت٣١٠هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١١٢- «تاريخ الخلفاء» عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - مصر. ط١(١٣٧١)

١١٣- «تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون» لعمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت. ط الثالثة. ١٩٨١م.

١١٤- «التاريخ الكبير» للبخاري (ت٢٥٦هـ) تحقيق السيد هاشم الندوي - دار الفكر - بيروت.

١١٥- «تاريخ بغداد» أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية. بيروت.

١١٦- «تاريخ دمشق» لابن عساكر (ت٥٧١هـ) تحقيق علي عاشور الجنوبي - دار إحياء التراث - بيروت.

١١٧- «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) تحقيق محمد النجار، طبع سنة: ١٣٩٣هـ - دار الجيل - بيروت.

١١٨- «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ت٢٧٦ هـ) شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ - دار التراث - القاهرة.

١١٩- «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين» للإسفراييني (ت٤٧١هـ) تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى: ١٩٨٣م - عالم الكتب - بيروت.

١٢٠- «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (ت٦١٦هـ) تحقيق علي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب الغربية - بيروت.

١٢١- «التبيان في أقسام القرآن» لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - دار الفكر.

١٢٢- «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» لابن عساكر (ت٥٧١هـ) الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

١٢٣- «تحرير ألفاظ التنبيه» للنووي (ت٦٧٦هـ) تحقيق عبد الغني الدقر، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار القلم - دمشق.

١٢٤- «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر بن عاشور، طبع سنة: ١٩٧٣م - الدار التونسية للنشر.

١٢٥- «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري (ت١٣٥٣هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.

١٢٦- «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان (ت٧٤٥هـ) تحقيق سمير المجذوب،

الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

١٢٧- «تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل» لأحمد بن عبد الرحيم الكردي (ت٨٢٦هـ) تحقيق عبد الله نواره الطبعة الأولى: ١٩٩٩م - مكتبة الرشد - الرياض.

١٢٨- «التحفة العراقية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ - المطبعة السلفية - القاهرة.

١٢٩- «تحفة المودود» لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق: عبد المنعم العاني - دار الكتب العلمية - بيروت. ط١(١٤٠٣).

١٣٠- «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة): محمد بن عبد الله اللواتي. تحقيق د: علي المنتصر الكتاني - مؤسسة الرسالة - بيروت. ط٤ (١٤٠٥).

١٣١- «تحقيق المراد» للعلائي (ت٧٦١هـ) تحقيق د. إبراهيم السلفيتي - دار الكتب الثقافية - الكويت.

١٣٢- «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار» لابن رجب (ت٧٩٥هـ) الطبعة الأولى: ١٣٩٩هـ - مكتبة دار البيان - دمشق.

١٣٣- «تدريب الراوي في شرح تقريب النووي» للسيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.

١٣٤- «التدوين في أخبار قزوين» للرافعي (ت٦٢٣هـ) تحقيق عزيز الله العطاردي، طبع سنة: ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٣٥- «تذكرة الحفاظ» للذهبي (ت٧٤٨هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٣٦- «تذكرة الموضوعات» للفتني (ت٩٨٦هـ) نشره الشيخ عبد الوكيل - دمشق.

١٣٧- «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (ت٦٧١هـ) الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٣٨- «التذكرة في الوعظ» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - دار المعرفة - بيروت.

١٣٩- «ترتيب الموضوعات» لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تحقيق: كمال زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت. ط١(١٤١٥).

١٤٠- «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف» لزكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري.

ت محي الدين ديب مستو وآخرين - دار ابن كثير - دمشق. ط الأولى. ١٤١٤هـ.

١٤١- «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» لداوود الأنطاكي (ت١٠٠٨هـ) تحقيق د. محمد التونجي، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - عالم الكتب - بيروت.

١٤٢- «التصاريف في تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه» ليحيى بن سلام (ت٢٠٠هـ) تحقيق هند شلبي - الشركة التونسية للتوزيع.

١٤٣- «التصوف المنشأ والمصادر» لإحسان إلهي ظهير - نشر إدارة ترجمان السنة شادمان - لاهور- باكستان. ط١ (١٤٠٦).

١٤٤- «التصوف بين الإفراط والتفريط» للدكتور: عمر عبد الله كامل، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - دار ابن حزم - بيروت.

١٤٥- «التصوف وابن تيمية» جمع وترتيب: محمد طاهر الزين، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - مكتبة السندس.

١٤٦- «تعجيل المنفعة» لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: إكرم الله إمداد الحق - دار البشائر الإسلامية - بيروت. ط١(١٤١٦).

١٤٧- «التعرف لمذهب التصوف» للكلاباذي (ت٣٨٠هـ) طبع سنة: ١٤٠٠هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٤٨- «التعريفات» للجرجاني (ت٨١٦هـ) تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

١٤٩- «تغليق التعليق» لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبد الرحمن - المكتب الإسلامي - بيروت، عمان. ط١(١٤٠٥).

١٥٠- «تفسبر الطبري» (ت٣١٠هـ) المسمى «جامع البيان عن تأويل القرآن» الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - دار الفكر - بيروت.

١٥١- «تفسير ابن الجوزي» (ت٥٩٧هـ) المسمى «زاد المسير في علم التفسير» الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

١٥٢- «تفسير ابن جزى الكلبي» (ت٧٤١هـ) المسمى «التسهيل لعلوم التنزيل» تحقيق محمد اليونسي وإبراهيم عطوه عوض - دار الكتب الحديثة.

١٥٣- «تفسير ابن عطية» (ت٥٤١هـ) المسمى «المحرر الوجيز» تحقيق الرَّحالي الفاروق وآخرون، الطبعة الأولى: ١٤٠١ هـ - الدوحة.

١٥٤- «تفسير أبي السعود» (ت٩٥١هـ) المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٥٥- «تفسير أبي حيان» (ت٧٥٤هـ) المسمى «البحر المحيط» اعتنى به: الشيخ عرفات العشا حسونة، طبع سنة: ١٤١٢هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥٦- «تفسير الألوسي» (ت١٢٧٠هـ) المسمى «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٥٧- «تفسير البغوي» (ت٥١٦هـ) المسمى «معالم التنزيل» تحقيق خالد العك و مروان سوار، الطبعة الثانية: ١٤٠٧ هـ - دار المعرفة - بيروت.

١٥٨- «تفسير البيضاوي» (ت٧٩١هـ) المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» تحقيق عبد القادر العشا حسونة الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ - دار الفكر - بيروت.

١٥٩- «تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة» لمحمد بن عبد الله الخضيري - دار الوطن - الرياض. ط الأولى. ١٤٢٠هـ.

١٦٠- «تفسير الثعالبي» (٨٧٥هـ) المسمى «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٦١- «تفسير الزمخشري» (٥٣٨هـ) المسمى «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل» - المكتبة التجارية - مكة.

١٦٢- «تفسير الصنعاني» (ت٢١١هـ) اعتنى به: د. مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

١٦٣- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (ت٧٧٤هـ) طبع سنة: ١٤٠١هـ - دار الفكر - بيروت.

١٦٤- «تفسير القرآن» لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني. ت ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن - الرياض. ط الأولى. ١٤١٨هـ.

١٦٥- «تفسير القرآن» لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي. ت أحمد بن عبد الله الزهراني. مكتبة الدار. المدينة المنورة. ط الأولى. ١٤٠٨هـ.

١٦٦- «تفسير القرطبي» (ت٦٧١هـ) المسمى «الجامع لأحكام القرآن» تحقيق أحمد البردوني، الطبعة الثانية: ١٣٧٢هـ - دار الشعب - بيروت.

١٦٧- «التفسير الكبير» للرازي (ت٦٠٦هـ) الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٦٨- «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا، الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت.

١٦٩- «تفسير النسفي» (ت٧١٠هـ) المسمى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» طبع سنة: ١٣٨٥هـ - مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة.

١٧٠- «تفسير الواحدي» (ت٤٦٨هـ) المسمى «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» تحقيق صفوان عدنان، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - دار القلم - بيروت.

١٧١- «تفسير آيات أشكلت» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هت) تحقيق عبد العزيز الخليفة، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

١٧٢- «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) تحقيق السيد أحمد صقر، طبع سنة: ١٣٩٨هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٧٣- «تفسير مجاهد» (ت١٠٤هـ) اعتنى به: عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي - دار المنشورات العلمية - بيروت.

١٧٤- «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» لأبي الحسين القاسم بن محمد بن المفضل -الراغب الأصبهاني- ت عبد المجيد النجار - دار الغرب الإسلامي - بيروت. ط الأولى. ١٤٠٨هـ.

١٧٥- «تقريب التهذيب» لابن حجر (ت٨٥٢هـ) تحقيق محمد عوامة، االطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - دار الرشيد - سوريا.

١٧٦- «تقريب التهذيب» لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ت محمد عوامه - دار الرشيد - حلب. ط الثالثة. ١٤١١هـ.

١٧٧- «التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد» لابن نقطة البغدادي (ت٦٢٩هـ) تحقيق كمال يوسف الحوت الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٧٨- «التكليف في ضوء القضاء والقدر» للدكتور: أحمد عبد العال، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - دار هجر - أبها.

١٧٩- «تكملة الإكمال» للبغدادي (ت٦٢٩هـ) تحقيق د. عبد القيوم عبد رب النبي، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - جامعة أم القرى.

١٨٠- «تكملة تاريخ الطبري» لمحمد بن عبد الملك الهمداني (ت٥٢١هـ) تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، الطبعة الأولى: ١٩٥٨م - المطبعة الكاثوليكية - بيروت.

١٨١- «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق د. السيد الجميلي، الطبعة الرابعة: ١٤١٠هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

١٨٢- «تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية» (ت٧٢٨هـ) تحقيق محمد علي عجال، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - مكتبة الغرباء - المدينة.

١٨٣- «تمثال الأمثال» لأبي المحاسن محمد بن علي العبدري الشيبي. ت أسعد ذبيان - دار المسيرة - بيروت. ط الأولى. ١٤٠٢هـ.

١٨٤- «التمهيد» لأبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق: مصطفى العلوي، محمد البكري. وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب (١٣٨٧).

١٨٥- «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) تحقيق مصطفى العلوي و محمد البكري، طبع سنة: ١٣٨٧هـ - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب.

١٨٦- «تمييز الطيب من الخبيث» للزبيدي (ت٩٤٤هـ) دار الكتاب العربي - بيروت.

١٨٧- «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» للملطي (ت٣٧٧هـ) تحقيق محمد الكوثري، الطبعة الثانية: ١٩٧٧م - المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة.

١٨٨- «التهجد وقيام الليل» لأبي بكر ابن أبي الدنيا. ت مصلح بن جزاء الحارثي. مكتبة الرشد. الرياض. ط الأولى. ١٤١٨هـ.

١٨٩- «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (ت٦٧٦هـ) الطبعة الأولى: ١٩٩٦م - دار الفكر - بيروت.

١٩٠- «تهذيب التهذيب» لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار الكتاب الإسلامي لإحياء ونشر التراث الإسلامي، القاهرة.

١٩١- «تهذيب الكمال» للمزي (ت٧٤٢هـ) تحقيق د. بشار عواد معروف، الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٩٢- «تهذيب سنن أبي داود» لابن القيم (ت٧٥١هـ) الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٩٣- «التوحيد وإثبات صفات الرب» لمحمد بن إسحاق ابن خزيمة. تحقيق: د -عبد العزيز الشهوان. مكتبة الرشد، الرياض. ط٢(١٤١١).

١٩٤- «توضيح الأفكار» للصنعاني (ت ١٢٦٨هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - المكتبة السلفية - المدينة.

١٩٥- «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم» لابن عيسى (ت١٣٢٩هـ) تحقيق زهير الشاويش، الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

١٩٦- «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي (ت١٠٣١هـ) تحقيق محمد الداية، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - دار الفكر المعاصر.

١٩٧- «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» للشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب. إشراف زهير الشويش - المكتب الإسلامي - بيروت. دمشق. ط٦ (١٤٠٥).

١٩٨- «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي. تحقيق: محمد النجار - دار المؤيد، ومؤسسة الرسالة - ط١ (١٤١٥).

١٩٩- «تيسير مصطلح الحديث» للدكتور: محمود الطحان، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ - مكتبة المعارف - الرياض.

٢٠٠- «الثقات» لابن حبان (ت٣٥٤هـ) تحقيق السيد شرف الدين أحمد، الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ - دار الفكر - بيروت.

٢٠١- «الجامع» لمعمر بن راشد الأزدي (ت ١٥١هـ) تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٠٢- «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لمحمد بن الأثير الجزري - دار الفكر - لبنان بيروت. ط٢(١٤٠٣).

٢٠٣- «جامع البيان للطبري عن تأويل آي القران» (تفسير الطبري): محمد بن جرير الطبري - دار الفكر - بيروت لبنان (١٤٠٨).

٢٠٤- «جامع التحصيل» لأبو سعيد بن خليل بن كيكلدي أبو سعيد العلائي. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. عالم الكتب بيروت. ط٢(١٤٠٧).

٢٠٥- «جامع الترمذي» لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي - ضمن موسوعة الحديث الشريف - دار السلام - الرياض. ط الأولى. ١٤٢٠هـ.

٢٠٦- «جامع الرسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - دار العطاء - الرياض.

٢٠٧- «الجامع الصحيح» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) تحقيق د. مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ - دار ابن كثير - بيروت.

٢٠٨- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ت٧٩٥هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار المعرفة - بيروت.

٢٠٩- «جامع المسائل» لابن تيمية. المجموعة الأولى. تحقيق: محمد عزيز شمس - دار عالم الفوائد

للنشر - مكة المكرمة. ط١ (١٤٢٢).

٢١٠- «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق د. محمود الطحان، طبع سنة: ١٤٠٣هـ - مكتبة المعارف - الرياض.

٢١١- «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) الطبعة الأولى: ١٣٧١هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢١٢- «جزء أشيب» لأبي علي الأشيب البغدادي (ت٢٠٩هـ) تحقيق خالد قاسم، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ دار علوم الحديث.

٢١٣- «جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ - دار العروبة - الكويت.

٢١٤- «الجمل في النحو» للزجاجي (ت٣٤٠هـ) تحقيق د. علي توفيق الحمد، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢١٥- «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (ت٤٠٠هـ) تحقيق محمد أبو الفضل و عبد المجيد قطامش، الطبعة الثانية: ١٩٨٨م - دار الفكر - بيروت.

٢١٦- «جمهرة الأمثال البغدادية» لعبد الرحمن التكيرتي. مطبعة الإرشاد. بغداد. ط الأولى. ١٣٩١هـ.

٢١٧- «الجن بين الحقائق والأساطير» لعلي الجندي، طبع سنة: ١٣٩٠هـ - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

٢١٨- «الجن والسحر في المنظور الإسلامي» لرشيد ليزول، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢١٩- «الجنى الداني في حروف المعاني» للمرادي (ت٧٤٩هـ) تحقيق طه محسن، ساعدت جامعة بغداد على طبعه.

٢٢٠- «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق د. علي بن حسن وآخرون، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - دار العاصمة - الرياض.

٢٢١- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم (ت٧٥١هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٢٢- «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (ت٧٧٥هـ) طبعة كراتشي.

٢٢٣- «الجوع» لأبي بكر بن أبي الدنيا. ت محمد خير رمضان يوسف - دار ابن حزم - بيروت. ط الأولى. ١٤١٧هـ.

٢٢٤- «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق السيد الجميلي، الطبعة الرابعة: ١٤١٤هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٢٢٥- «حاشية ابن عابدين (ت١٠٣٦هـ) والموسومة بـ «رد المحتار على الدر المختار» الطبعة الثانية: ١٣٨٦هـ - دار الفكر - بيروت.

٢٢٦- «حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع» لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي. ط الثامنة. ١٤١٩هـ.

٢٢٧- «حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح» لأحمد بن محمد الحنفي (ت١٢٣١هـ) الطبعة الثالثة - مكتبة البابي الحلبي - مصر.

٢٢٨- «الحب والبغض في القرآن الكريم» لمها يوسف الجار الله، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - دار ابن حزم - بيروت.

٢٢٩- «حجة القراءات» لابن زنجلة (ت٤٠٣هـ) تحقيق سعيد الأفغاني، الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢٣٠- «حجة القراءات» لعبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة. تحقيق: سعيد الأفغاني. مؤسسة الرسالة بيروت. ط٢(١٤٠٢).

٢٣١- «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (ت٣٧٠هـ) تحقيق د. عبد العال سالم مكرم،الطبعة الرابعة: ١٤٠١هـ - دار الشروق - بيروت.

٢٣٢- «حجج القرآن» لبدر الدين الرازي (ت٦٣٠هـ) تحقيق أحمد عمر المحمصاني، الطبعة الثانية: ١٩٨٢م دار الرائد العربي - بيروت.

٢٣٣- «حدائق الحقائق» لزين الدين الرازي (ت٦٦٦هـ) تحقيق د. عبد الرحمن المطرودي، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

٢٣٤- «الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة» للأنصاري (ت٩٢٦هـ) تحقيق د. مازن المبارك، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - دار الفكر المعاصر - بيروت.

٢٣٥- «الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به» للدكتور: عبد الكريم الخضير، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - دار المسلم -الرياض.

٢٣٦- «الحروف - المنسوب» لأبي الحسين المزني، تحقيق د. محمود حسني محمود و د. محمد

حسن عواد، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - دار الفرقان - عمان.

٢٣٧- «حز الغلاصم في إفحام المخاصم» لابن حيدرة (ت٥٩٨هـ) تحقيق عبد الله البارودي، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

٢٣٨- «الحسنة والسيئة» لابن تيمية. تحقيق: د -محمد جميل غازي - مطبعة المدني - القاهرة.

٢٣٩- «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٢٤٠- «خزانة الأدب» للحموي (ت٨٣٧هـ) تحقيق عصام شعيتو، الطبعة الأولى: ١٩٨٧م - دار ومكتبة الهلال - بيروت.

٢٤١- «الخصائص» لابن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق: محمد النجار، عالم الكتب - بيروت.

٢٤٢- «خلق أفعال العباد» للبخاري (ت٢٥٦هـ) تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، سنة النشر: ١٣٩٨هـ - دار المعارف - الرياض.

٢٤٣- «الخوف من الله تعالى» لمحمد الرميلي، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - دار ابن القيم - الدمام.

٢٤٤- «الخوف والرجاء» لصفوت عبد الفتاح محمود، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - دار ابن حزم - بيروت.

٢٤٥- «دائر معارف القرن العشرين» لمحمد فريد وجدي - دار المعرفة - بيروت. ط الثالثة. ١٩٧١م.

٢٤٦- «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي الدمشقي (ت٩٧٨هـ) تحقيق إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٤٧- «الدر المنثور» للسيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق د. مازن المبارك، الطبعة الأولى: ١٩٩٣م - دار الفكر - بيروت.

٢٤٨- «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. ت محمد رشاد سالم. ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط الثانية. ١٤١١هـ.

٢٤٩- «دراسات في النبوة والرسالة» للدكتور: عبد العزيز العسكر، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - مكتبة المعارف - الرياض.

٢٥٠- «الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة» لحمزة بن حسن الأصبهاني. ت عبد المجيد قطامش - دار المعارف. مصر.

٢٥١- «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر (ت٨٥٢هـ) تحقيق د. محمد عبد المعيد

خان، الطبعة الثانية: ١٩٧٢م - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند.

٢٥٢- «الدعاء» للطبراني (ت٣٦٠هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٥٣- «دلائل النبوة» للأصبهاني (ت٥٣٥هـ) تحقيق محمد الحداد، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - دار طيبة - الرياض.

٢٥٤- «دليل الإملاء وقواعد الكتاب العربية» لفتحي الخولي. مكتبة المنهل. جدة. ط الخامسة. ١٤٠٨هـ.

٢٥٥- «الدليل والبرهان على صرع الجن للإنسان» لشيخ الإسلام (٧٢٨هـ) جمع: محمد بن طاهر الزين، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - مكتبة ابن قتيبة - الكويت.

٢٥٦- «ديوان ابن الدُّمَيْنَة» (ت١٣٠هـ) صنعه أبو العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة - القاهرة.

٢٥٧- «ديوان ابن الرومي» (ت٢٨٣هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت.

٢٥٨- «ديوان ابن عنين» (ت٦٣٠هـ) عني بنشره وتحقيقه: خليل مردم بك، طبع سنة: ١٣٦٥ هـ - مطبعة دمشق.

٢٥٩- «ديوان أبي الشيص» (ت ١٩٦هـ) صنعه: عبد الله الجبوري، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٦٠- «ديوان أبي الطيب المتنبي» فهرسة وشرح: عبود الخزرجي - المكتبة العالمية.

٢٦١- «ديوان أبي فراس الحمداني» شرح د: يوسف فرحات - دار الجيل بيروت - ط١(١٤١٣).

٢٦٢- «ديوان أبي نُواس» (ت١٩٨هـ) خققه وضبطه وشرحه: أحمد عبد المجيد الغزالي، طبع سنة: ١٩٥٣ م مطبعة مصر - القاهرة.

٢٦٣- «ديوان أسامة بن منقذ» (ت ٥٨٤هـ) تحقيق د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، الطبعة الثالثة: ١٤٠٣هـ - عالم الكتب - بيروت.

٢٦٤- «ديوان إسحاق الموصلي» (ت٢٣٥هـ)

٢٦٥- «ديوان الأعشى الكبير» شرحه: مهدي ناصر الدين - دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان. ط١(١٤٠٧).

٢٦٦- «ديوان الإمام الشافعي» محمد بن إدريس الشافعي. جمع وتعليق: محمد الزعبي. دار المطبوعات الحديثة، جدة. ط٥ (١٤٠٩).

٢٦٧- «ديوان الحطيئة» (ت نحو ٤٥هـ) من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي، شرح أبي سعيد السكري، طبع سنة: ١٣٨٧هـ - دار صادر - بيروت.

٢٦٨- «ديوان الصبابة» لابن أبي حَجلَة أحمد بن يحي التلمساني (ت٧٧٦هـ) طبع سنة: ١٩٩٩م - دار ومكتبة الهلال - بيروت.

٢٦٩- «ديوان الطرماح» (ت١٢٥هـ) تحقيق د. عزة حسن، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ - دار الشرق العربي - بيروت.

٢٧٠- «ديوان العباس بن الأحنف» (ت١٩٢هـ) طبع سنة: ١٣٩٨ هـ - دار صادر - بيروت.

٢٧١- «ديوان المعاني» للعسكري (ت٤٠٠هـ) دار الجيل - بيروت.

٢٧٢- «ديوان الهذليين» طبع سنة: ١٩٦٥م - دار الكتب المصرية - القاهرة.

٢٧٣- «ديوان أمرؤ القيس» (ت٨٠ ق. هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة - دار المعارف - القاهرة.

٢٧٤- «ديوان ابن عبد ربه الأندلسي» جمع وتحقيق د: محمد الداية - دار الفكر - دمشق سورية. ط٢ (١٤٠٧).

٢٧٥- «ديوان جرير» (ت١١٠هـ) - دار صادر - بيروت.

٢٧٦- «ديوان حسان» (ت٥٤هـ) تحقيق د. وليد عرفات - دار صادر - بيروت.

٢٧٧- «ديوان ديك الجن الحمصي» جمع وشرح: عبد المعين الملوحي، ومحيي الدين الدويش.

٢٧٨- «ديوان ذي الرمة» (ت١١٧هـ) الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - المكتب الإسلامي - دمشق.

٢٧٩- «ديوان علي بن أبي طالب» جمع وضبط: نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.

٢٨٠- «ديوان عنترة» (ت٢٢ ق. هـ) تحقيق: محمد سعيد مولوي، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٨١- «ديوان مجنون ليلى» (ت ٦٨هـ) جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج - مكتبة مصر - القاهرة.

٢٨٢- «ذخيرة الحفاظ المخرج على الحروف والألفاظ» لمحمد بن طاهر بن علي القيسرائي. تحقيق: د -عبد الرحمن الفريوائي. دار السلف،دار الدعوة. الرياض-الهند. ط١(١٤١٦).

٢٨٣- «ذم الكلام وأهله» للهروي (ت٤٨١هـ) تحقيق عبد الرحمن الشبل، الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ - مكتبة العلوم والحكم - المدينة.

٢٨٤- «ذيل طبقات الحنابلة» لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي - دار الباز -

مكة.

٢٨٥- «رحلة ابن بطوطة» (ت٧٠٣هـ) المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» تحقيق د. علي الكتاني، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢٨٦- «الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» لابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢هـ) تحقيق زهير الشاويش، الطبعة الثالثة: ١٤١١هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٨٧- «الرد على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد: تحقيق: د -عبد الرحمن عميرة - دار اللواء - الرياض. ط٢ (١٤٠٢).

٢٨٨- «الرد على القائلين بوحدة الوجود» للقاري (ت١٠١٤هـ) تحقيق: علي رضا بن عبد الله، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - دار المأمون للتراث - دمشق.

٢٨٩- «الرد على المنطقيين» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) دار المعرفة - بيروت.

٢٩٠- «الرسالة السلفية» لمحمد بن محمد بن أحيد ماديك. دار القبلة للثقافة - جدة، ومؤسسة علوم القرآن - بيروت.

٢٩١- «رسالة الشرك ومظاهره» لمبارك الميلي، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - مكتبة الإيمان - الإسكندرية.

٢٩٢- «الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري (ت٤٦٥هـ) تحقيق معروف زريق وعلي بلطه جي، الطبعة الثانية - دار الجيل - بيروت.

٢٩٣- «الرسل والرسالات» للدكتور: عمر الأشقر، الطبعة السادسة: ١٤١٥هـ - دار النفائس - الأردن ـ عمّان.

٢٩٤- «الروح» لابن القيم (ت٧٥١هـ) طبع سنة: ١٣٩٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩٥- «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لأبي الفضل السيد محمود الألوسي البغدادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٩٦- «روضة التعريف بالحب الشريف» لابن الخطيب (ت٧٧٣هـ) تحقيق محمد الكتاني، الطبعة الأولى: ١٩٧٠م - دار الثقافة - الدار البيضاء ـ المغرب.

٢٩٧- «روضة العقلاء» لابن حبان (ت٣٥٤هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩٨- «روضة المتكلمين في أصول الدين» للغزنوي (ت٥٩٣هـ) تحقيق عمر الداعوق، الطبعة

الأولى: ١٩٩٨م - دار البشائر الإسلامية - بيروت.

٢٩٩- «روضة المحبين» لابن القيم (ت٧٥١هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٠٠- «روضة الناضر» لابن قدامة (ت٦٢٠هـ) تحقيق د. عبد العزيز السعيد، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

٣٠١- «الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة» للشيخ عبد الرحمن السعدي (ت١٣٧٦هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - عالم الكتب - نيروت.

٣٠٢- «زاد المسير في علم التفسير» لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي. المكتب الإسلامي. دمشق. ط الأولى. ١٣٨٥هـ.

٣٠٣- «زاد المعاد» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الرابعة عشرة - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٠٤- «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» للأزهري (ت٣٧٠هـ) تحقيق د. محمد جبر الألفي، الطبعة الأولى: ١٣٩٩هـ - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت.

٣٠٥- «الزهد» لابن أبي عاصم (ت٢٨٧هـ) تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الثانية: ١٤٠٨ - دار الريان للتراث - مصر.

٣٠٦- «الزهد» لوكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ) تحقيق د. عبد الرحمن الفريوائي، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - مكتبة الدار - المدينة.

٣٠٧- «الزهد الكبير» للبيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر، الطبعة الثالثة: ١٩٩٦م - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

٣٠٨- «الزهد لابن المبارك» لعبد الله بن المبارك بن واضح المروزي. تحقيق: حبيب الأعظمي. دار الكتب العلمية. بيروت.

٣٠٩- «الزهد لهناد» هناد بن السري الكوفي. تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي. الكويت. ط١ (١٤٠٦).

٣١٠- «الزهد» لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. ت ياسر بن إبراهيم وغنيم ابن عباس بن غنيم - دار المشكاة. القاهرة. ط الأولى. ١٤١٤هـ.

٣١١- «الزهد» لأحمد بن حنبل. ت محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتاب العربي - بيروت. ط الثانية. ١٤١٤هـ.

٣١٢- «السبعة في القراءات» لأحمد بن موسى بن العباس البغدادي. تحقيق: شوقي ضيف. دار

المعارف. القاهرة. ط٢(١٤٠٠).

٣١٣- «سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام» للصنعاني (ت٨٥٢هـ) تحقيق د. محمد الخولي، الطبعة الرابعة: ١٣٧٩هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣١٤- «سر صناعة الإعراب» لابن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق د. حسن هنداوي، الطبعة الأولى: ١٩٨٥م - دار القلم - دمشق.

٣١٥- «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ - المكتب الإسلامي - بيروت، دمشق.

٣١٦- «السنة» لابن أبي عاصم (ت٢٨٧هـ) تحقيق الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣١٧- «السنة» لعبد الله بن أحمد (ت٢٩٠هـ) تحقيق د. محمد سعيد القحطاني، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - دار ابن القيم - الدمام.

٣١٨- «السنة» للخلال (ت٣١١هـ) تحقيق د. عطية الزهراني، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - دار الراية - الرياض.

٣١٩- «سنن ابن ماجه محمد بن يزيد» (ت٢٧٥هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت.

٣٢٠- «سنن أبي داود سليمان بن أشعث» (ت٢٧٥هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت.

٣٢١- «سنن البيهقي الكبرى» أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الباز. مكة المكرمة. (١٤١٤).

٣٢٢- «سنن الترمذي محمد بن عيسى» (ت٢٧٩هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٢٣- «سنن الدارقطني علي بن عمر» (ت٣٨٥هـ) تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني، طبع سنة: ١٣٨٦هـ - دار المعرفة - بيروت.

٣٢٤- «سنن الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن» (ت ٢٥٥هـ) تحقيق فواز زمرلي وخالد السبع، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٣٢٥- «السنن الكبرى» للنسائي (ت٣٠٣هـ) تحقيق د. عبد الغفار البنداري وسيد كسروي، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٢٦- «السنن الكبرى» للبيهقي أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ) تحقيق محمد عبد القادر عطا، طبع سنة: ١٤١٤هـ - مكتبة دار الباز -مكة.

٣٢٧- «سنن سعيد بن منصور» (ت٢٢٧هـ) تحقيق د. سعد بن عبد الله آل حميد، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - دار العصيمي - الرياض.

٣٢٨- «سيبويه إمام النحاة في آثار الدارسين» لكوركس عواد، طبع سنة: ١٣٩٨هـ - المجمع العلمي العراقي.

٣٢٩- «سير أعلام النبلاء» للذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم، الطبعة التاسعة: ١٤١٣هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٣٠- «سير السلف الصالح» لإسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني. تحقيق: د -كرم بن حلمي. دار الراية. الرياض. ط١(١٤٢٠).

٣٣١- «السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون» لعلي الحلبي (ت١٠٤٤هـ) طبع سنة: ١٤٠٠ - دار المعرفة - بيروت.

٣٣٢- «السيرة النبوية» لابن هشام (ت٢١٨هـ) تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار الريان للتراث - القاهرة.

٣٣٣- «سيرة عمر بن عبد العزيز» لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - دار الفكر. دمشق.

٣٣٤- «الشافية» للدويني (ت٦٤٦هـ) تحقيق حسن العثمان، الطبعة الأولى: ١٩٩٥م - المكتبة المكية - مكة.

٣٣٥- «الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح» للأنباسي (ت٨٠٢هـ) تحقيق صلاح فتحي، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

٣٣٦- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد (ت١٠٨٩هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٣٧- «الشذرة في الأحاديث المشتهرة» للدمشقي (ت٩٥٣هـ) تحقيق كمال بسيوني زغلول، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٣٨- «شرح ابن عقيل (ت٦٧٢هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية: ١٩٨٥م - دار الفكر - بيروت.

٣٣٩- «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» لهبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي. تحقيق: د -أحمد سعد حمدان. دار طيبة للنشر والتوزيع. الرياض.

٣٤٠- «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار بن أحمد. تحقيق: د -عبد الكريم عثمان - مكتبة وهبة - القاهرة.

٣٤١- «شرح الرضى لكافية ابن الحاجب» - رسالة دكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، إعداد د. يحيى بشير مصري.

٣٤٢- «شرح الزرقاني على موطأ مالك» لمحمد الزرقاني (ت١١٢٢هـ) الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٤٣- «شرح العقيدة الأصفهانية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق إبراهيم سعيداي، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

٣٤٤- «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ) الطبعة الرابعة: ١٣٩١هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٤٥- «شرح العقيدة الطحاوية» لعلي بن علي بن أبي العز الدمشقي. ت عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت. ط الثانية. ١٤١٣هـ.

٣٤٦- «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد العثيمين، اعتنى به: سعد الصميل، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ - دار ابن الجوزي - الدمام.

٣٤٧- «شرح القصيدة النونية» للدكتور: محمد خليل هراس، طبع سنة: ١٤٠٧هـ - مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

٣٤٨- «الشرح الكبير» لأبي الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد ابن قدامة المقدسي. ت عبد الله التركي - دار هجر. ط الأولى. ١٤١٦هـ.

٣٤٩- «شرح الكوكب المنير» لمحمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي -ابن النجار-. ت محمد الرحيلي ونزيه حماد. مكتبة العبيكان. الرياض. ١٤١٣هـ.

٣٥٠- «شرح المقاصد» لسعد الدين التفتزاني. تحقيق: د -عبد الرحمن عميرة. دار عالم الكتب. بيروت لبنان. ط١(١٤٠٩).

٣٥١- «شرح ديوان الحماسة» لأبي زكريا التبريزي (ت٥٠٢هـ) عالم الكتب - بيروت.

٣٥٢- «شرح ديوان سقط الزند» لأبي العلاء المعري. شرح د. ن. رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت.

٣٥٣- «شرح صحيح مسلم» للنووي (ت٦٧٦هـ) الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٥٤- «شرح فتح القدير» لابن همام السيواسي (ت٦٨١هـ) الطبعة الثانية - دار الفكر - بيروت.
٣٥٥- «شرح مختصر الروضة» للطوفي (ت٧١٦هـ) تحقيق د. عبد المحسن التركي، الطبعةالأولى: ١٤١٠هـ مؤسسة الرسالة - بيروت.
٣٥٦- «شرح مشكل الآثار» لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي. ت شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت. ط الأولى. ١٤١٥هـ.
٣٥٧- «شرح نخبة الفكر في مصطلح الأثر» لابن حجر (ت٨٥٢هـ) علق عليه: محمد غياث الصباغ، الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ - مكتبة الغزالي - دمشق.
٣٥٨- «الشريعة» لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري. ت عبد الله بن عمر الدميجي - دار الوطن. الرياض. ط الأولى. ١٤١٨هـ.
٣٥٩- «شعب الإيمان» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. ت مختار أحمد الندوي. الدار السلفية. بومباي. الهند. ط الأولى. ١٤١٤هـ.
٣٦٠- «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) الطبعة السادسة: ١٤١٧هـ - دار إحياء العلوم - بيروت.
٣٦١- «شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر والحكمة والتعليل» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق محمد بدر الدين، طبع سنة: ١٣٩٨هـ - دار الفكر - بيروت.
٣٦٢- «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ) طبع سنة: ١٣٦٩ هـ - مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر.
٣٦٣- «الشفاعة» لأبي عبد الرحمن مقبل الوادعي، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠ هـ - مؤسسة الريان - بيروت.
٣٦٤- «الشفاعة عند أهل السنة و الرد على المخالفين فيها» للدكتور: ناصر الجديع، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ دار أطلس - الرياض.
٣٦٥- «الشكر» لابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) تحقيق بدر البدر، الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ - المكتب الإسلامي الكويت.
٣٦٦- «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية» لمرعي بن يوسف الحنبلي. تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف - دار الفرقان - مؤسسة الرسالة - بيروت. ط١ (١٤٠٤).
٣٦٧- «شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي - مبادؤه وآراؤه الكلامية والروحية» لمحمد سعيد الأفغاني - دار التأليف - مصر.

٣٦٨- «الصحاح» للجوهري (ت٣٩٨هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٦٩- «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» لمحمد بن حبان البستي (ت٣٥٤هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٧٠- «صحيح ابن خزيمة» لمحمد بن إسحاق بن خزيمة (ت٣١١هـ) تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، طبع سنة: ١٣٩٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٧١- «صحيح الإمام مسلم بن الحجاج» (ت٢٦١هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٧٢- «صحيح البخاري» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري -ضمن موسوعة الحديث الشريف - دار السلام. الرياض. ط الأولى. ١٤٢٠هـ.

٣٧٣- «صحيح الجامع الصغير وزياداته» لمحمد ناصر الدين الألباني. إشراف: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي. بيروت. دمشق. ط٢(١٤٠٦)

٣٧٤- «الصحيح المسند في القدر» لمقبل بن هادي الوادعي. مكتبة ابن تيمية. القاهرة.

٣٧٥- «صحيح سنن ابن ماجة» للألباني، الطبعة الثالثة: ١٤٠٨هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٧٦- «صحيح سنن أبي داود» للألباني، الطبعة الأولى: ١٤٠٩ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٧٧- «صحيح سنن أبي داود» لمحمد ناصر الدين الألباني. إشراف: زهير الشاويش. نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج. ط١(١٤٠٨).

٣٧٨- «صحيح سنن الترمذي» للألباني، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٧٩- «صحيح سنن الترمذي» لمحمد ناصر الدين الألباني. إشراف: زهير الشاويش. نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج. ط١(١٤٠٩).

٣٨٠- «صحيح سنن النسائي» للألباني، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٨١- «صحيح سنن النسائي» لمحمد ناصر الدين الألباني. إشراف: زهير الشاويش. نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج. ط١(١٤٠٨).

٣٨٢- «الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه» للدكتور: محمد أمان الجامي - توزيع المكتبة الأثرية - المدينة.

٣٨٣- «صفة الصفوة» لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي. ضبط: إبراهيم رمضان وسعيد اللحام. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. ط١(١٤٠٩).

٣٨٤- «الصفدية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ.

٣٨٥- «صفوة الصفوة» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق محمود فاخوري و د. محمد رواس قلعه جي - الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ - دار المعرفة - بيروت.

٣٨٦- «الصلاة وحكم تاركها» لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت. ط الأولى. ١٤٠٢هـ.

٣٨٧- «الصلة» لأبي القاسم خلف بن عبد الملك، المعروف بابن بشكوان». مطابع سجل العرب.

٣٨٨- «الصواعق المرسلة» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق د. على الدخيل الله، الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ - دار العاصمة - الرياض.

٣٨٩- «الصوفية معتقدًا ومسلكا» للدكتور: صابر طعيمة، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ - دار عالم الكتب - الرياض.

٣٩٠- «الضعفاء الكبير» للعقيلي (ت٣٢٢هـ) تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٩١- «الضعفاء والمتروكين» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق عبد الله القاضي، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٩٢- «ضعيف الجامع الصغير» للألباني، الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٩٣- «ضعيف سنن ابن ماجة» لمحمد ناصر الدين الألباني. إشراف: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي. بيروت. ط١(١٤٠٨).

٣٩٤- «ضعيف سنن ابن ماجه» للألباني، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٩٥- «ضعيف سنن الترمذي» للألباني، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣٩٦- «ط١(١٤٠٨).

٣٩٧- «الطبقات» لابن خياط (ت٢٤٠هـ) تحقيق د. أكرم ضياء العمري، طبع سنة: ١٤٠٧هـ - دار طيبة الرياض.

٣٩٨- «طبقات الحفاظ» للسيوطي (ت٩١١هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٩٩- «طبقات الحنابلة» لمحمد بن أبي يعلى أبو الحسين. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة. بيروت.

٤٠٠- «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة(ت٨٥١هـ) تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - عالم الكتب - بيروت.

٤٠١- «طبقات الصوفية» للسلمي (ت٤١٢هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٠٢- «طبقات الفقهاء» للشيرازي (ت٤٧٦هـ) تحقيق خليل الميس - دار القلم - بيروت.

٤٠٣- «الطبقات الكبرى» للشعراني (ت٩٧٣هـ) ضبط: خليل المنصور، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - دارالكتب العلمية - بيروت.

٤٠٤- «الطبقات الكبرى لابن سعد» لمحمد بن سعد بن منيع الزهري. دار صادر بيروت.

٤٠٥- «طبقات المدلسين» لابن حجر (ت٨٥٢هـ) تحقيق د. عاصم القريوتي، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - مكتبة المنار - عمّان.

٤٠٦- «طبقات المفسرين» لأحمد بن محمد الأدنروي (من علماء القرن الحادي عشر) تحقيق د. سليمان الخزي، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م - مكتبة العلوم والحكم - المدينة.

٤٠٧- «طبقات المفسرين» لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي. ت لجنة من العلماء - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٠٨- «طبقات المفسرين» للداوودي محمد بن علي (ت٩٤٥هـ) دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٠٩- «طبقات فحول الشعراء» لمحمد الجمحي (ت٢٣١هـ) تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني - جدة.

٤١٠- «الطبقات» لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. ت مشهور بن حسن - دار الهجرة. ط الأولى. ١٤١١هـ.

٤١١- «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق بشير محمد عيون، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - مكتبة المؤيد - الرياض.

٤١٢- «طوائف المرجئة وموقف أهل السنة» لهادي طالبي، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة، ١٤٠٥هـ. .

٤١٣- «عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي» لابن العربي المالكي - دار العلم للجميع. سوريا.

٤١٤- «العاقبة» لعبد الحق الإشبيلي (ت٥٨٢هـ) تحقيق محمد محسن إسماعيل، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤١٥- «عالم الجن والشياطين» للدكتور: عمر الأشقر، الطبعة الحادية عشرة: ١٤٠٩هـ - دار النفائس - عمَّان.

٤١٦- «العبر في أخبار من غبر». شمس الدين الذهبي. ت فؤاد سيد. دائرة المطبوعات والنشر في الكويت. ١٩٦١م.

٤١٧- «العبر في خبر من غبر» للذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق صلاح الدين النمجد، الطبعة الثانية: ١٩٤٨م - مطبعة حكومة الكويت - الكويت.

٤١٨- «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق خالد عبد اللطيف، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ دار الكتاب العربي - بيروت.

٤١٩- «عدة الصابرين وزخيرة الشاكرين». شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. ت محمد عثمان الخشت - دار الكتاب العربي - بيروت. ط الرابعة. ١٤١٠هـ.

٤٢٠- «العظمة» للأصبهاني (ت٣٦٩هـ) تحقيق رضاء الله المباركفوري، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار العصمة - الرياض.

٤٢١- «العقد الفريد» لابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤٢٢- «عقد المرجان فيما يتعلق بالجان» لنور الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ) مكتبة ابن سيناء - القاهرة.

٤٢٣- «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» لابن عبد الهادي (ت٧٤٤هـ) تحقيق محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٢٤- «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني. ت ناصر الجديع - دار العاصمة. الرياض. ط الثانية. ١٤١٩هـ.

٤٢٥- «عقيدة المؤمن» لأبي بكر الجزائري - دار الكتب السلفية - القاهرة.

٤٢٦- «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق خليل الميس، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٢٧- «العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها» لشمس الذهبي. ت عبد الله البراك - دار الوطن. الرياض. ط الأولى. ١٤٢٠هـ.

٤٢٨- «عمدة القارئ شرح صحيح البخاري» لأبي محمد محمود بن أحمد العيني. إدارة الطباعة المنيرية.

٤٢٩- «العمدة في غريب القرآن» للقيسي (ت٤٣٧هـ) تحقيق يوسف المرعشلي، الطبعة الأولى:

١٤٠١هـ مؤسسة الرسالة - بيروت.

٤٣٠- «عمل اليوم والليلة» لأبي عبد الرحمن النسائي. ت فاروق حمادة. مؤسسة الرسالة. ط الثالثة. ١٤٠٧هـ.

٤٣١- «عون المعبود شرح سنن أبي داود» لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي - دار الكتب العلمية - بيروت. ط الأولى. ١٤١٠هـ.

٤٣٢- «العين - المنسوب» للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال - بيروت.

٤٣٣- «عيون الأخبار» لعبد الله بن مسلم بن قتيبة - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان.

٤٣٤- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لموفق الدين السعدي (ت٦٦٨هـ) تحقيق د. نزار رضا - مكتبة دار الحياة - بيروت.

٤٣٥- «غريب الحديث» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق د. عبد المعطي أحمد قلعجي، الطبعة الأولى ١٩٨٥م دار الكتب العلمية - بيوت.

٤٣٦- «غريب الحديث» لابن سلام (ت٢٢٤هـ) تحقيق د. محمد عبد المعين خان، الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٣٧- «غريب الحديث» للخطابي (ت٣٨٨هـ) تحقيق عبد الكريم العزباوي، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ - جامعة أم القرى - مكة.

٤٣٨- «غريب الحديث» لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد. تحقيق: د -عبد الله الجبوري. مطبعة العاني. بغداد. ط١(١٣٩٧).

٤٣٩- «غريب الحديث للخطابي» لحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي. تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي. نشر جامعة أم القرى. مكة المكرمة(١٤٠٢).

٤٤٠- «غريب القرآن وتفسيره» لليزيدي (ت٢٣٧هـ) تحقيق محمد سليم الحاج، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - عالم الكتب - بيروت.

٤٤١- «الغنية في أصول الدين» للنيسابوري (ت٤٧٨هـ) تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى: ١٩٨٧م - مؤسسة الخدمات و الأبحاث الثقافية - بيروت.

٤٤٢- «الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم» لخليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ) طبع سنة: ١٣٩٥ م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٤٣- «غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية» لمحمد بن إبراهيم بن عباد الرندي

(ت٧٩٢هـ) تحقيق د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن الشريف، الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ - دار الكتب الحديثة - القاهرة.

٤٤٤- «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (ت٥٣٨هـ) تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت.

٤٤٥- «الفائق في غريب الحديث» لمحمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: علي البجاوي،محمد أبو الفضل. دار المعرفة. لبنان. ط٢.

٤٤٦- «الفتاوى» لابن تيمية (مجموع). جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد. ط١.

٤٤٧- «الفتاوى الحديثية» لابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ) طبعة كراتشي.

٤٤٨- «فتاوى السبكي» (ت٧٥٦هـ) دار المعرفة - بيروت.

٤٤٩- «فتاوى الشيخ محمد العثيمين» إعداد: أشرف عبد المقصود، الطبعة الرابعة: ١٤١٤هـ - دار عالم الكتب - الرياض.

٤٥٠- «الفتاوى الكبرى» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني - دار المعرفة - بيروت.

٤٥١- «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر (ت٨٥٢هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، طبع سنة: ١٣٧٩هـ - دار المعرفة - بيروت.

٤٥٢- «فتح البيان في مقاصد القرآن» للقنوجي (ت١٣٠٧هـ) عني بطبعه: عبد الله الأنصاري - دار إحياء التراث الإسلامي بقطر.

٤٥٣- «فتح القدير» لمحمد بن علي الشوكاني. دار الفكر. بيروت لبنان. (١٤٠٩).

٤٥٤- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ت١٢٨٥هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ - مكتبة المؤيد - الرياض.

٤٥٥- «فتح المغيث شرح ألفية الحديث» للسخاوي (ت٩٠٢هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ - دار الكتب السلفية - بيروت.

٤٥٦- «الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن» لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني - دار القاسم. الرياض. الأولى. ١٤١٧هـ.

٤٥٧- «فتوح البلدان» أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري. تحقيق: رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٣).

٤٥٨- «الفردوس بمأثور الخطاب» للديلمي (ت ٥٠٩هـ) تحقيق السعيد زغلول، الطبعة الأولى: ١٩٨٦م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٥٩- «الفرق بين الفرق» للبغدادي (ت٤٢٩هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع سنة: ١٤١٩هـ المكتبة العصرية - بيروت.

٤٦٠- «الفروع» لابن مفلح المقدسي (ت٧٦٢هـ) تحقيق حازم القاضي، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٦١- «الفروق اللغوية» للعسكري (ت٤٠٠هـ) علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل السود، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - توزيع مكتبة الباز - مكة.

٤٦٢- «الفصل» لابن حزم (ت٥٤٨هـ) مكتبة الخانجي - القاهرة.

٤٦٣- «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٧٨هـ) تحقيق د. إحسان عباس و د. عبد المجيد عابدين، الطبعة الثالثة: ١٩٨٣م - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٤٦٤- «فصوص الحكم مع شرحه» للكاشاني، الطبعة الثانية: ١٣٨٦هـ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.

٤٦٥- «فصوص الحكم» لمحي الدين ابن عربي الطائي. تعليق وشرح أبي العلا عفيفي - دار الكتاب العربي - بيروت. ط الثانية. ١٤٠٠هـ.

٤٦٦- «الفصول المفيدة في أحكام الواو المزيدة» للعلائي (ت٧٦١هـ) تحقيق د. حسن الشاعر، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م - دار البشير - عمان.

٤٦٧- «فضائل الصحابة» لابن حنبل أحمد بن محمد بن حنبل. تحقيق: وصي الله عباس. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط١(١٤٠٣).

٤٦٨- «فضيلة الشكر» للسامري (ت٣٢٧هـ) تحقيق محمد مطيع الحافظ ود. عبد الكريم اليافعي، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ - دار الفكر - دمشق.

٤٦٩- «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» لعبد الرحمن عبد الخالق، الطبعة الرابعة: ١٤١٠هـ - دار الحرمين - القاهرة.

٤٧٠- «الفلسفة الإسلامية وملحقاتها» عمر رضا كحالة. مطبعة الحجاز. دمشق. ١٣٩٤هـ.

٤٧١- «الفهرست» لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق - ابن النديم - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٧٢- «الفوائد» لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. ت أحمد راتب عرنوش - دار النفائس - بيروت. ط السابعة. ١٤٠٦هـ.

٤٧٣- «في ظلال المحبة» لعبد الهادي حسن وهبي، الطبعة الثالثة: ١٤١٧هـ - دار ابن عفان - الخبر.

٤٧٤- «فيض القدير شرح الجامع الصغير» لعبد الرؤوف المناوي (ت١٠٣١هـ) الطبعة الأولى: ١٣٥٦هـ - الكتبة التجارية الكبرى - مصر.

٤٧٥- «قاعدة في المحبة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق: أحمد فواز زمرلي، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٤٧٦- «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٤٧٧- «القدر وما ورد في ذلك من الآثار» لعبد الله بن وهب بن مسلم القرشي. تحقيق: د -عبد العزيز العثيم. دار السلطان. مكة المكرمة. ط١(١٤٠٦).

٤٧٨- «القدرية والمرجئة» للدكتور: ناصر العقل، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - دار الوطن - الرياض.

٤٧٩- «قصيدة ابن أبي داود» (ت٣١٦هـ) تحقيق محمود الحداد، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - دار طيبة - الرياض.

٤٨٠- «القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه» للدكتور: عبد الرحمن المحمود، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ - دار الوطن - الرياض.

٤٨١- «القطع والائتناف» للنحاس (ت٣٣٨هـ) تحقيق د. أحمد خطاب العمر، الطبعة الأولى: ١٣٩٨هـ - مكتبة العاني - بغداد.

٤٨٢- «القواعد الكلية للأسماء والصفات» للدكتور: إبراهيم البريكان، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ - دار الهجرة للنشر - الثقبة.

٤٨٣- «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» للشيخ محمد العثيمين، طبع سنة: ١٤٠٦هـ - توزيع مكتبة الكوثر - الرياض.

٤٨٤- «القواعد والفوائد الأصولية» لابن اللحام (ت٨٠٣هـ) تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة.

٤٨٥- «قوت القلوب في معاملة المحبوب» للمكي (ت٣٨٦هـ) راجعه: سعيد نسيب مكارم، الطبعة الأولى: ١٩٩٥م - دار صادر - بيروت.

٤٨٦- «القول السديد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن السعدي (ت١٣٧٦هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - دار الوطن - الرياض.

٤٨٧- «القول المفيد على شرح كتاب التوحيد» للشيخ محمد العثيمين، اعتنى به د. سليمان أبا الخيل و د. خالد المشيقح، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - دار العاصمة - الرياض.

٤٨٨- «الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل» لمحمد بن عمر الزمخشري. ترتيب وضبط: مصطفى حسين - دار الكتاب العربي.

٤٨٩- «الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة» للذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق محمد عوامة، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - دار القبلة - جدة.

٤٩٠- «الكافي» لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٩١- «الكامل في التاريخ» لابن الأثير. راجعه وصححه: د -محمد الدقاق. دار الكتب العلمية - بيروت لبنان. ط١(١٤٠٧).

٤٩٢- «الكامل في ضعفاء الرجال» لأبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني - دار الفكر - بيروت. ط الثانية. ١٤٠٥هـ.

٤٩٣- «الكتاب» لسيبويه (ت١٨٠هـ) تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة: ١٣٨٥هـ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٩٤- «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ت٤٠٠هـ) تحقيق محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم طبع سنة: ١٣٧١هـ - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

٤٩٥- «كتاب المحتضرين» لابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) تحقيق محمد خير رمضان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - دار ابن حزم - بيروت.

٤٩٦- «الكسب» لمحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) تحقيق د. سهيل زكار، الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - الناشر: عبد الهادي حرصوني - دمشق.

٤٩٧- «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي (ت١١٥٨هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - دار الكتب العلمية بيروت.

٤٩٨- «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» لأبي القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري - دار الفكر - بيروت.

٤٩٩- «كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة» لعلي بن أبي بكر الهيثمي. ت حبيب

الرحمن الأعظمي. مؤسسة الرسالة - بيروت. ط الأولى. ١٤٠٤هـ.

٥٠٠- «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» لإسماعيل بن محمد العجلوني. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. ط٣(١٤٠٨).

٥٠١- «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) طبع سنة: ١٤١٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٠٢- «كلمة الإخلاص وتحقيق معناها» لابن رجب الحنبلي. تحقيق: زهير الشاويش - نشر المكتب الإسلامي - بيروت ط٤ (١٣٩٧).

٥٠٣- «الكليات» للكفوي (ت١٠٩٤هـ) تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري، الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٠٤- «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي. ت بكري حياني وصفوة السقا. مؤسسة الرسالة - بيروت. ١٣٩٩هـ.

٥٠٥- «اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار المعرفة. بيروت. ط٣(١٤٠١).

٥٠٦- «لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول» لأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي. ت فوقية حسين محمود - دار الأنصار. القاهرة. ط الأولى. ١٩٧٧م.

٥٠٧- «اللباب في النحو» للصابوني - من منشورات دار مكتبة الشرق - بيروت.

٥٠٨- «اللباب في تهذيب الأنساب» لعز الدين بن الأثير الجزري - مكتبة المثنى - بغداد.

٥٠٩- «اللزوميات» لأبي العلاء المعري. ت أمين عبد العزيز الخانجي. مكتبة الهلال - بيروت. ١٣٤٢هـ.

٥١٠- «لسان العرب» لابن منظور (ت٧١١هـ) الطبعة الأولى - دار صادر - بيروت.

٥١١- «لسان الميزان» لابن حجر (ت٨٥٢هـ) الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٥١٢- «لقط المرجان في أحكام الجان» للسيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - دار االكتب العلمية - بيروت.

٥١٣- «اللمع» للطوسي (ت ٣٧٨هـ) تحقيق عبد الحليم محمود وطه سرور - دار الكتب الحديثة - مصر.

٥١٤- «اللمع في أصول الفقه» للشيرازي (ت٤٧٦هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - دار الكتب

العلمية - بيروت.

٥١٥- «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (ت١١٨٨هـ) وعليه تعليقات الشيخ عبد الرحمن أبابطين والشيخ سليمان بن سحمان، الطبعة الثالثة: ١٤١١هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٥١٦- «ما جاء في البدع» لابن وضاح القرطبي(ت٢٨٧هـ) تحقيق بدر البدر، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - دار العصيمي - الرياض.

٥١٧- «مآثر الأناقة في معالم الخلافة» لأحمد بن عبد الله القلقشندي. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج - مطبعة حكومة الكويت - الكويت ط٢ (١٩٨٥).

٥١٨- «المبدع» لابن مفلح (ت٨٨٤هـ) طبع سنة: ١٤٠٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٥١٩- «المبسوط» للسرخسي (ت٤٨٣هـ) طبع سنة: ١٤٠٦ هـ - دار المعرفة - بيروت.

٥٢٠- «متن القصيدتين النونية والميمية» لابن القيم (ت٧٥١هـ) طبع سنة: ١٤٠٧هـ - مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

٥٢١- «متن القصيدتين النونية والميمية» لابن القيم. نشر مكتبة ابن تيمية. القاهرة. (١٤٠٧).

٥٢٢- «المثل السائر» للموصلي(ت٦٣٧هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع سنة: ١٩٩٥م - المكتبة العصرية - بيروت.

٥٢٣- «مثلثات قطرب (ت٢٠٦هـ) تحقيق د. رضا السويسي، طبع سنة: ١٣٩٨هـ - الدار العربية للكتاب مصر.

٥٢٤- «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (ت٢١٠هـ) عارضه بأصوله وعلق عليه: فؤاد سزكين - مكتبة الخانجي - مصر.

٥٢٥- «المجالسة وجواهر العلم» لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري القاضي المالكي. ت مشهور بن حسن - دار ابن حزم. ط الأولى. ١٤١٩هـ.

٥٢٦- «مجلة مجمع اللغة العربية» إعداد محمد شوقي أمين. نشر الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. ١٣٩٢هـ.

٥٢٧- «مجلس إملاء في رؤية الله» للأصفهاني (ت٥١٦هـ) تحقيق الشريف حاتم بن عارف العوني، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م - مكتبة الرشد - الرياض.

٥٢٨- «مجمع الأمثال» للميداني (ت٥١٨هـ) تحقيق محيي الدين عبد الحميد - دار المعرفة - بيروت.

٥٢٩- «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للهيثمي (ت٨٠٧هـ) طبع سنة: ١٤٠٧هـ - دار الريان

للتراث ودار الكتاب العربي - بيروت.

٥٣٠- «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (ت٧٢٨هـ) جمع وترتيب: عبد الرحمن القاسم وابنه محمد - الطبعة الأولى: ١٣٨١هـ - مطابع الرياض.

٥٣١- «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي». نشر مركز صالح الثقافي. القصيم. ط الثانية. ١٤١٢هـ.

٥٣٢- «مجموعة عقائد السلف» جمع علي سامي النشار وعمار الطالبي. منشأة المعارف. الاسكندرية.

٥٣٣- «محاسن المجالس» لابن العريف (ت٥٣٦هـ) تحقيق: آسين بلاثيوس، الطبعة: ١٩٣٣م - باريس.

٥٣٤- «المحاسن والأضداد» للجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق فوزي عطوي، طبع سنة: ١٩٦٩م - دار صعب - بيروت.

٥٣٥- «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين» لفخر الدين الرازي. راجعه: طه عبد الرؤف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية.

٥٣٦- «المحصول» للرازي (ت٦٠٦هـ) تحقيق طه جابر العلواني - الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

٥٣٧- «المحلى» لابن حزم (ت٤٥٦هـ) دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٥٣٨- «المحيط في اللغة» للصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، الطبعة الأولى: ١٣٩٣هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٥٣٩- «مختصر الصواعق المرسلة» لابن قيم الجوزية. اختصره: محمد بن الموصلي. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. ط١(١٤٠٥).

٥٤٠- «مختصر العلو» لشمس الدين الذهبي. اختصره: ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. دمشق. بيروت. ط١(١٤١٠).

٥٤١- «المخصص» لابن سيدة (ت٤٥٨هـ) طبع سنة: ١٣٩٨هـ - دار الفكر - بيروت.

٥٤٢- «مدارج السالكين» لابن القيم (ت٧٥١هـ) تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.

٥٤٣- «المدخل إلى السنن الكبرى» لأحمد بن الحسن بن علي البيهقي. تحقيق: محمد الأعظمي. دار الخلفاء. الكويت. (١٤٠٤).

٥٤٤- «المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان» لابن هشام اللَّخْمي الأندلسي (ت٥٧٧هـ) تحقيق مأمون الجنّان الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٤٥- «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» لابن بدران (ت١٣٤٦هـ) تحقيق د. عبد الله التركي، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٤٦- «المدهش» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق د. مروان قباني، الطبعة الثانية: ١٩٨٥م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٤٧- «المراسيل» لابن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ) تحقيق شكر الله نعمة الله قوجاني، الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٤٨- «مراصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي. ت علي محمد البجادي - دار إحياء الكتب العربية. ط الأولى. ١٣٧٣هـ.

٥٤٩- «مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود» لسيدي عبد الله الحاج إبراهيم الشنقيطي. ت محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي - دار المنارة. جدة. ط الأولى. ١٤١٦هـ.

٥٥٠- «المرجع في الإملاء» لراجي الأسمر. جروس برس. طرابلس. لبنان. ط الأولى. ١٩٨٨م.

٥٥١- «المرض والكفارات» لابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) تحقيق عبد الوكيل الندوي، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - الدار السلفية - بومباي.

٥٥٢- «مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير» جمع أحمد البزرة وآخرين. مكتبة المؤيد. الرياض. ط الأولى. ١٤١٤هـ.

٥٥٣- «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» - جمع عبد الإله الأحمدي، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ دارطيبة - الرياض.

٥٥٤- «المستدرك على الصحيحين» للحاكم (ت٤٠٥هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - دار الكتب العمية - بيروت.

٥٥٥- «المستصفى في علم الأصول» للغزالي (ت٥٠٥هـ) تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٥٦- «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي (ت٨٥٠هـ) تحقيق د. مفيد قميحة، الطبعة الثانية: ١٩٨٦م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٥٧- «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (ت٥٣٨هـ) الطبعة الثانية: ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٥٨- «مسند الطيالسي» لسليمان بن داود البصري الطيالسي. دار المعرفة. بيروت.

٥٥٩- «مسند ابن الجعد» (ت٢٣٠هـ) تحقيق عامر أحمد حيدر، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - مؤسسة نادر - بيروت.

٥٦٠- «مسند ابن راهويه» (ت٢٣٨هـ) تحقيق عبد الغفور البلوش، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - مكتبة الإيمان - المدينة.

٥٦١- «مسند أبو يعلى» لأحمد بن المثنى الموصلي. تحقيق: حسين سليم. دار المأمون للتراث. دمشق. ط١(١٤٠٤).

٥٦٢- «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (بهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال): للمتقي الهند. المكتب الإسلامي. بيروت. ط٤(١٤٠٣).

٥٦٣- «مسند البزار» لأبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله. مؤسسة علوم القرآن، مكتبت العلوم والحكم. بيروت،المدينة. ط١(١٤٠٩).

٥٦٤- «مسند الشهاب» لمحمد بن سلامة بن جعفر القضاعي. تحقيق: حمدي السلفي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط٢(١٤٠٧).

٥٦٥- «المسند المستخرج على صحيح مسلم» لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني. تحقيق: محمد حسن الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت. ط١ (١٩٩٦).

٥٦٦- «مسند عبد بن حميد» لعبد بن حميد بن نصر أبو محمد. تحقيق: صبحي السامرائي،محمود الصعيدي. مكتبة السنة. القاهرة. ط١(١٤٠٨).

٥٦٧- «مشارق أنوار القلوب ومفتاح أسرار الغيوب» لابن الدباغ (ت٦٩٦هـ) تحقيق: هـ. ريتر.

٥٦٨- «مشكاة المصابيح» للتبريزي (بعد ٧٣٧هـ) تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٥٦٩- «مشكل إعراب القرآن» للقيسي (ت٤٣٧هـ) تحقيق د. حاتم الضامن، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٧٠- «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضًا ونقدًا» لصادق سليم صادق، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

٥٧١- «مصباح الزجاجة» لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني. تحقيق: محمد الكشناوي. دار العربية. بيروت. ط٢(١٤٠٣).

٥٧٢- «المصباح المنير» لأحمد بن محمد بن علي الفيومي. المكتبة العلمية. بيروت.

٥٧٣- «مصرع التصوف» للبقاعي (ت٨٨٥هـ) تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل - مكتبة المؤيد - الرياض.

٥٧٤- «مصطلحات إسلامية» لمحيي الدين القضماني، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٥٧٥- «مصنف ابن أبي شيبة» (ت٢٣٥هـ) تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - مكتبة الرشد - الرياض.

٥٧٦- «المطالب العالية من العلم الإلهي» فخر الدين محمد بن عمر الرازي: ضبط محمد عبد السلام - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان. ط١ (١٤٢٠).

٥٧٧- «المطلع على أبواب المقنع» لابن أبي الفتح البعلي الحنبلي (ت٧٠٩هـ) تحقيق محمد بشير الأدلبي، الطبعة: ١٤٠١هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٥٧٨- «مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيء على الأمة الإسلامية» لإدريس محمود إدريس. مكتبة الرشد. الرياض. ط الأولى. ١٤١٩هـ.

٥٧٩- «معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول» للحكمي (ت١٣٧٧هـ) تحقيق عمر أبو عمر، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - دار ابن القيم - الدمام.

٥٨٠- «معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة» للدكتور: محمد الجيزاني، الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ - دار ابن الجوزي - الدمام.

٥٨١- «معالم التنزيل» لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي». ت محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش - دار طيبة. الرياض. ط الرابعة. ١٤١٧هـ.

٥٨٢- «معاني الحروف» للرماني (ت٣٨٤هـ) تحقيق عبد الفتاح إبراهيم شبلي، الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ - دار الشروق - جدة.

٥٨٣- «معاني القراءات» للأزهري (ت٣٧٠هـ) تحقيق الشيخ أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٨٤- «معاني القرآن» للنحاس (ت٣٣٨هـ) تحقيق محمد الصابوني، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - جامعة أم القرى - مكة.

٥٨٥- «المعاني الكبير» لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٨٦- «المعتزلة وأصولهم الخمسة» للدكتور: عواد المعتق، الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ - مكتبة الرشد

- الرياض.

٥٨٧- «معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى» للدكتور: محمد التميمي، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - أضواء السلف - الرياض.

٥٨٨- «معجم أبي يعلى (ت٣٠٧هـ) تحقيق إرشاد الحق الأثري، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - إدارة العلوم الأثرية - فيصل آباد.

٥٨٩- «معجم اصطلاحات الصوفية» للكاشاني (ت٧٣٠هـ) تحقيق د. عبد العال شاهين، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - دار المنار -القاهرة.

٥٩٠- «معجم الأدباء: ياقوت الحموي. تحقيق: د -إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت. ط(١٩٩٣).

٥٩١- «المعجم الأوسط» للطبراني (ت٣٦٠هـ) تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، طبع سنة: ١٤١٥هـ - دار الحرمين - القاهرة.

٥٩٢- «معجم البلدان» للحموي (ت٦٧٦هـ) دارالفكر - بيروت.

٥٩٣- «معجم الشيوخ» للصيداوي (ت٤٠٢هـ) تحقيق د. عمر تدمري، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٩٤- «معجم الصحابة» لابن قانع (ت٣٥١هـ) تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - مكتبة الغرباء - المدينة.

٥٩٥- «المعجم الصغير» لسليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: محمد شكور أمير. المكتب الإسلامي. بيروت-عمان. ط١(١٤٠٥).

٥٩٦- «المعجم الصوفي» للدكتور: عبد المنعم الحفني، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - دار الرشاد - القاهرة.

٥٩٧- «معجم الفاظ الصوفية» د -حسن الشرقاوي. مؤسسة مختار. القاهرة. ط٢(١٩٩٢).

٥٩٨- «المعجم الفلسفي» للدكتور: جميل صلبيا - دار الكتاب - بيروت.

٥٩٩- «معجم المؤلفين» لعمر كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت. ط١ (١٤١٤).

٦٠٠- «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» - وضعه محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٦٠١- «معجم النحو» لعبد الغني الدقر، الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ - الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت.

٦٠٢- «المعجم الوسيط» - إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة - نشر المكتبة الإسلامية - استانبول.

٦٠٣- «معرفة السنن والآثار» لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي. ت عبد المعطي أمين قلعجي - دار قتيبة - بيروت. ط الأولى. ١٤١١هـ.

٦٠٤- «معرفة علوم الحديث» للحاكم (ت٤٠٥هـ) تحقيق السيد معظم حسين، الطبعة الثانية: ١٣٩٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٠٥- «معنى لاإله إلا الله» للزركشي (ت٨٣١هـ) تحقيق علي محيي الدين علي القره داغي، الطبعة الأولى: ١٩٨٥م - دار الاعتصام - القاهرة.

٦٠٦- «المعين في طبقات المحدثين» لمحمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: د -همام عبد الرحيم سعد - دار الفرقان - عمان- الأردن. ط١ (١٤٠٤).

٦٠٧- «المغرب في ترتيب المعرب» لابن المطرزي (ت٦١٠هـ) تحقيق محمد فاخوري وعبد الحميد مختار، الطبعة الأولى: ١٩٧٩م - مكتبة أسامة ب ن زيد - حلب.

٦٠٨- «المغني» لابن قدامة (ت٦٢٠هـ) الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - دار الفكر العربي - بيروت.

٦٠٩- «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام (ت٧٦١هـ) تحقيق د. مازن المبارك و محمد علي حمد الله، الطبعة السادسة: ١٩٨٥م - دار الفكر - بيروت.

٦١٠- «مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة» لابن القيم (ت٧٥١هـ) - دار الفكر - بيروت.

٦١١- «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) تحقيق محمد سعيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت.

٦١٢- «المفصل في صنعة الإعراب» للزمخشري (ت٥٣٨هـ) تحقيق د. علي أبو ملحم، الطبعة الأولى: ١٩٩٣م - دار و مكتبة الهلال - بيروت.

٦١٣- «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي. ت محي الدين ديب مستو وآخرين - دار ابن كثير. دمشق. ط الأولى. ١٤١٧هـ.

٦١٤- «المقاصد الحسنة» لمحمد عبد الرحمن السخاوي. دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت. دار الكتاب العربي. بيروت لبنان. ط٢(١٤١٤).

٦١٥- «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» لأبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) تحقيق هلموت ديتر، الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٦١٦- «مقالة التعطيل والجعد بن درهم» للدكتور: محمد التميمي، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - مكتبة أضواء السلف - الرياض.

٦١٧- «المقتضب» للمبرد (ت٢٨٥هـ) تحقيق محمد عضيمة، طبع سنة: ١٣٨٦هـ» لجنة إحياء التراث الإسلامي - مصر.

٦١٨- «المقتفى من سيرة المصطفى» لابن حبيب الحلبي (ت٧٧٩هـ) تحقيق د. مصطفى الذهبي، الطبعة الأولى: ١٩٩٦م - دار الحديث - القاهرة.

٦١٩- «مقدمة ابن الصلاح» (ت٦٤٣هـ) تحقيق نور الدين عتر، الطبعة: ١٤٠٦هـ - دار الفكر - بيروت.

٦٢٠- «مقدمة ابن خلدون» لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون. دار إحياء التراث العربي - بيروت. لبنان. (١٤٠٨).

٦٢١- «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب أحمد» لابن مفلح الحنبلي (ت٨٨٤هـ) تحقيق د. عبد الرحمن العثيمين، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م - مكتبة الرشد - الرياض.

٦٢٢- «المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى» للغزالى (ت٥٠٥هـ) تحقيق بسام الجابي، الطبعةالأولى: ١٤٠٧هـ - دار الجفان والجابي - قبرص.

٦٢٣- «المقفى الكبير» لتقي الدين المقريزي. ت محمد البعلاوي - دار الغرب الإسلامي. ط الأولى. ١٤٠٧هـ.

٦٢٤- «المقنع» لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي. ت عبد الله التركي - دار هجر. الرياض. ط الأولى. ١٤١٦هـ.

٦٢٥- «مكاشفة القلوب» للغزالي (ت٥٠٥هـ) الطبعة الأولى: ١٩٩٠م - دار الثقافة - القاهرة.

٦٢٦- «الملل والنحل» للشهرستاني(ت٥٤٨هـ) تحقيق محمد سيد الكيلاني، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - دار المعرفة - بيروت.

٦٢٧- «من قضايا التصوف» للدكتور: محمد الجليند، الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ - دار اللواء - الرياض.

٦٢٨- «منازل السائرين» للهروي (ت٤٨١هـ) طبع سنة: ١٤٠٨هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٢٩- «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) الطبعة الأولى: ١٣٥٨هـ - دار صادر - بيروت.

٦٣٠- «المنثور» للزركشي (ت٧٩٤هـ) تحقيق د. تيسير فائق أحمد، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت.

٦٣١- «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - مؤسسة قرطبة.

٦٣٢- «المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي» لابن جماعة (ت٧٣٣هـ) تحقيق د. محيي الدين رمضان، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ - دار الفكر - دمشق.

٦٣٣- «المهذب» للشيرازي (ت٤٧٦هـ) دار الفكر - بيروت.

٦٣٤- «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» للهيثمي (ت٨٠٧هـ) تحقيق محمد عبد الرازق حمزة - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٣٥- «الموافقات» للشاطبي (ت٧٩٠هـ) تحقيق عبد الله دراز - دار المعرفة - بيروت.

٦٣٦- «المواقف» للأيجي (ت٧٥٦هـ) تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م - دار الجيل - بيروت.

٦٣٧- «المواقف» عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل بيروت. ط١(١٤١٧).

٦٣٨- «الموسوعة العربية الميسرة» - بإشراف: محمد شفيق غربال، طبع سنة: ١٤١٦هـ - دار الجيل - مصر.

٦٣٩- «الموسوعة العربية» لمحمد شفيق غربال. دار إحياء التراث العربي. بيروت لبنان.

٦٤٠- «موسوعة مصطلحات التصوف: د -رفيق العجم. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت لبنان. ط١(١٩٩٩).

٦٤١- «موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب» للأزهري (ت٩٠٥هـ) تحقيق د. عبد الكريم مجاهد، الطبعة الأولى ١٩٩٦م - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٦٤٢- «الموضوعات» عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج. تحقيق: عبد الرحمن عثمان. المكتبة السلفية. المدينة المنورة. ط١(١٣٨٦).

٦٤٣- «موطأ الإمام مالك» (ت ١٧٩هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - مصر.

٦٤٤- «موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة» د -سليمان الغصن. دار العاصمة. الرياض. ط١(١٤١٦).

٦٤٥- «ميزان الإعتدال في نقد الرجال» للذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق الشيخ علي معوض و عادل عبد الموجود، الطبعة الأولى: ١٩٩٥م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٤٦- «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى: ١٣٨٦هـ - المطبعةالسلفية - القاهرة.

٦٤٧- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - مصر.

٦٤٨- «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» لسامي علي النشار - دار المعارف. ط الثالثة. ١٣٨٥هـ.

٦٤٩- «النفح الشذي في شرح جامع الترمذي» لأبي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري. ت أحمد معبد عبد الكريم - دار العاصمة. الرياض. ط الأولى. ١٤٠٩هـ.

٦٥٠- «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للتلمساني (ت١٠٤١هـ) تحقيق د. إحسان عباس، طبع سنة: ١٩٦٨ م - دار صادر - بيروت.

٦٥١- «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد في ما افترى على الله ﷻ من التوحيد» لأبي سعيد عثمان بن سعيد التميمي الدارمي السجستاني. ت رشيد الألمعي. مكتبة الرشد. ط الأولى. ١٤١٨هـ.

٦٥٢- «النكت على ابن الصلاح» الزركشي (ت ٧٩٤هـ) تحقيق د - زين العابدين بن محمد، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - أضواء السلف - الرياض.

٦٥٣- «نهاية الإقدام في علم الكلام» للشهرستاني (ت٥٤٨هـ) حرره وصححه ألفرد جيوم - مكتبة الثقافة الدينية - مصر.

٦٥٤- «النهاية في غريب الأثر» لأبو السعادات الجزري. تحقيق: أحمد الزاوي،ومحمود الطناجي - المكتبة العلمية - بيروت (١٣٩٩).

٦٥٥- «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (ت٦٠٦هـ) تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، طبع سنة: ١٣٩٩هـ - المكتبة العلمية - بيروت.

٦٥٦- «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» لمحمد المحمود، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - مكتبة الإمام الذهبي - الكويت.

٦٥٧- «النوادر» لأبي زيد الأنصاري (ت٢٠٧هـ) تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - دار الشروق - بيروت.

٦٥٨- «نوادر الأصول في أحاديث الرسول» للحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ) تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٢م - دار الجيل - بيروت.

٦٥٩- «نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار» للشوكاني (ت١٢٥٥هـ) طبع

سنة: ١٩٧٣م - دار الجيل - بيروت.

٦٦٠- «هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين» للبغدادي (ت١٣٣٩هـ) مكتبة المثنى - بغداد.

٦٦١- «هذه هي الصوفية» لعبد الرحمن الوكيل، الطبعة الرابعة: ١٩٨٤م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٦٢- «همع الهوامع شرح جمع الجوامع» للسيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، طبع سنة: ١٣٩٧هـ - دار البحوث العلمية - الكويت.

٦٦٣- «الهواتف ابن أبي الدنياء» لعبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. ط١(١٤١٣).

٦٦٤- «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. ت محمد عبد الرحمن عوض - دار الريان للتراث. القاهرة. ط الأولى. ١٤٠٨هـ.

٦٦٥- «الوافي بالوفيات» للصفدي (ت٧٦٤هـ) الطبعة الثانية: ١٣٩٤هـ، باعتناء: ديد رينغ.

٦٦٦- «الوفيات» لابن قنفذ (ت٨١٠هـ) تحقيق عادل نويهض، الطبعة الثانية: ١٩٧٨م - دار الآفاق الجديدة بيروت.

٦٦٧- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان (ت٦٨١هـ) الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - دار إحياء التراث - بيروت.

٦٦٨- «الوفيات» لأبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب. تحقيق: عادل نويهض - دار الآفاق الجديدة - بيروت. ط(١٩٧٨).

٦٦٩- «يتيمة الدهر» للثعالبي (ت٤٢٩هـ) تحقيق د. مفيد محمد قميحة، الطبعة الثانية: ١٩٨٣م - دار الكتب العلمية - بيروت.

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊